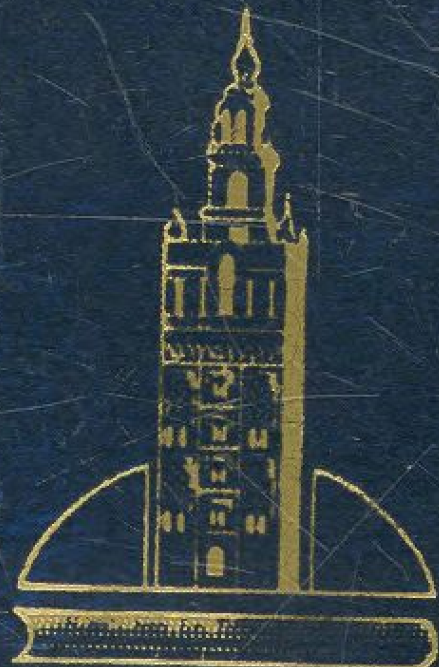
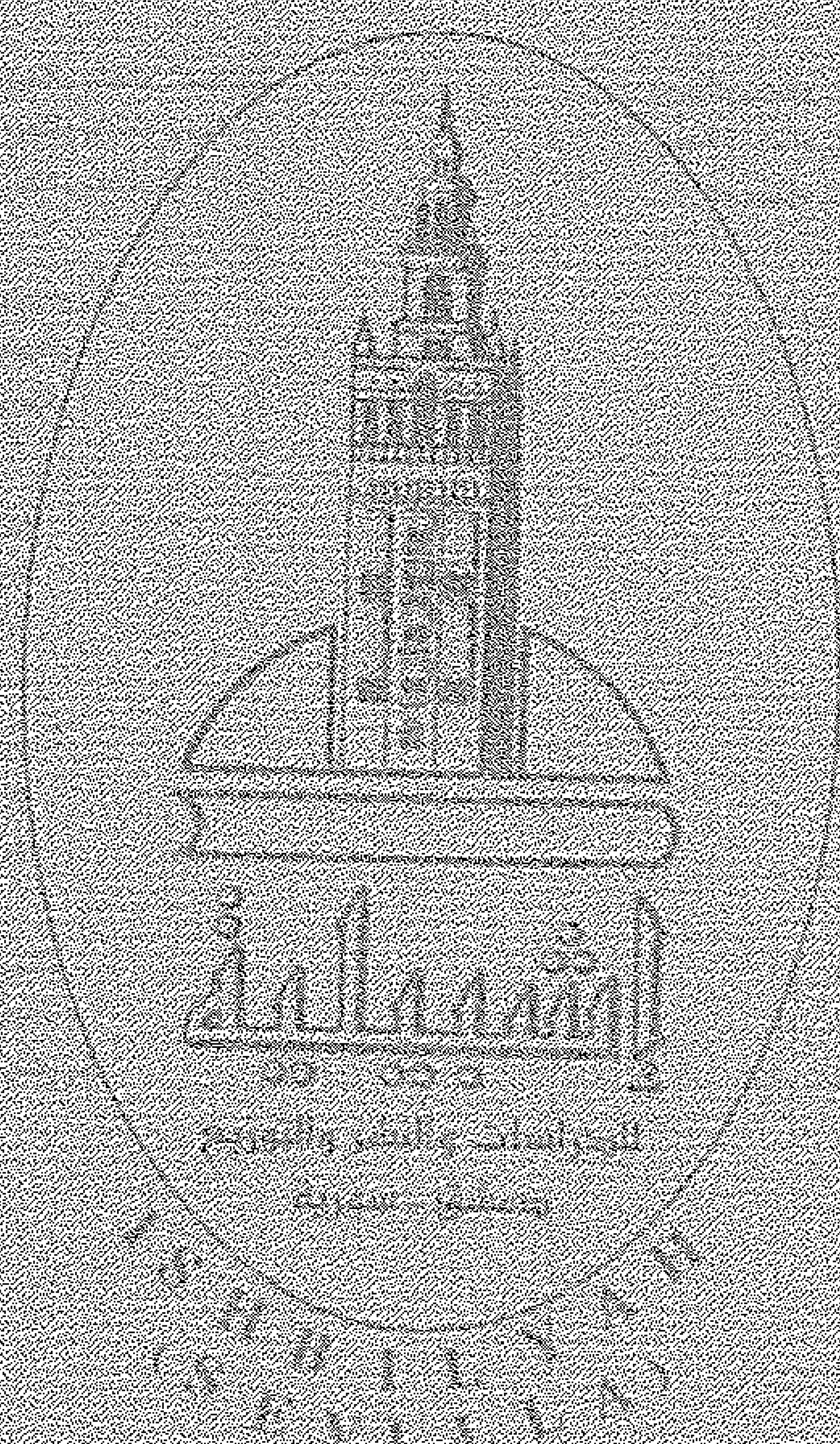
الجمعية التاريخية
حمص - سورية

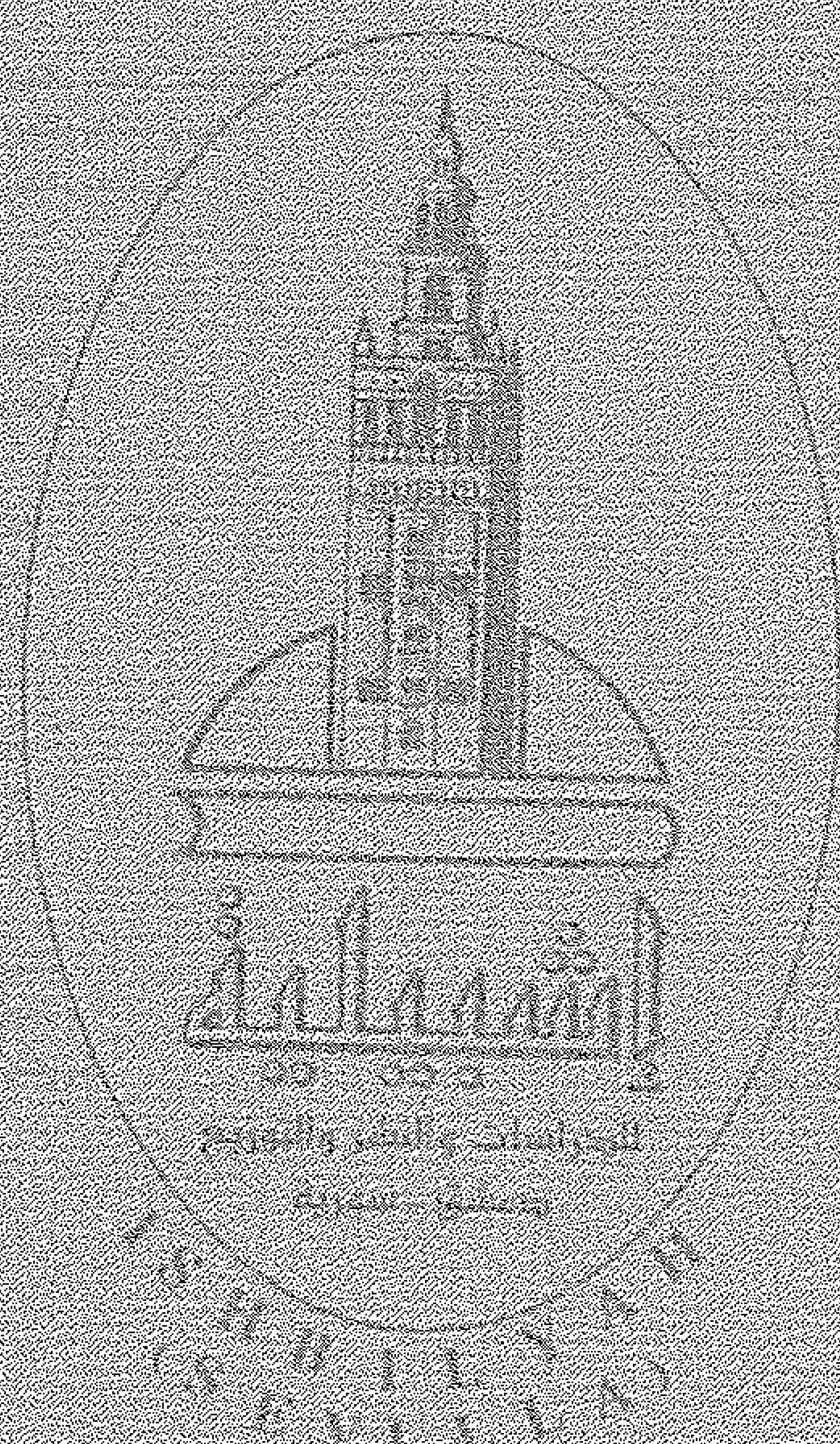
مجلة
البحث التاريخي



إشبيلية
للدراسات والنشر والتوزيع
دمشق - سورية



Studies, Publication & Distribution
DAMASCUS- P. O. Box 4383, SYRIA


إشبيلية
للدراسات والنشر والتوزيع
دمشق - سورية
ISHBILIYAH
(SEVILLA)
Studies, Publication & Distribution
DAMASCUS- P. O. Box 4383, SYRIA

مجلة البحث التاريخي

تصدرها
الجمعية التاريخيه في حمص

ملاحظـــات :

- البحوث والمقالات التي ينشرها الكتاب في هذه المجلة تعبر عن آرائهم الشخصية .

- ترتيب مواد العدد يخضع لاعتبارات فنية فقط .

المراسلات باسم المدير المسؤول :

حمص ـ الجمعية التاريخية ـ شارع عبد الحميد الدروبي

ص.ب ٨٤٨ ـ هاتف ٢٦٣٨٠

مجلة البحث التاريخي

تصدر عن الجمعية التاريخية بحمص

الفهرس

مقدّمة

بين يدي القراء الاعزاء في وطننا العربي الكبير العدد الخامس من مجلة البحث التاريخي بوضعه المألوف في أعدادنا السابقة ،من حيث تنوع موضوعاته وشمولها لمعظم المواد التاريخية في مختلف عصورها ، ملحين بصورة واضحة على التاريخ العربي ومقتربين أكثر من تاريخ مدينة حمص بالذات .

وقد رفدنا في جهدنا هذا زملاء أعزاء بثمرات أقلامهم الخيرة ، وان ظل الغوث يأتينا من مكان قريب ،فما تجاوزت أصداء صوتنا الجوار في حماة وطرابلس ودمشق . وكم كانت أمانينا أوسع ومتلهفة لان تكون صفحات مجلتنا المتواضعة هذه منبرا لكل قلم ولسان في وطننا العربي . فما كنا ممن نال المنى ،وحمدنا الله في الحالتين . ولكن مازلنا في مطلع الطريق الذي تحف به العقبات وتكتنفه الصعاب .ولسنا في موقف التصنيف والتعداد لهذه المعيقات . وتكفي الاشارة الى صعوبة الخوض في حقول التاريخ التي ملئت أشراكا ،بثت عن قصد لمرام مختلفة الابعاد ،وتركت هكذا سنين وقرونا عديدة تعبث وتشوه أمجادنا وانتصاراتنا وماضينا ،لتنتقل بعد ذلك رواسبها وآثارها الى الحاضر والمستقبل . وقد رددها بعضهم كما هي دون مناقشة وتمحيص ومقارنة واخضاع لمبادئ العقل والواقع . وفي حالات متعددة دسم السّم بالدّسم وتجرعناه .

حقا ان التاريخ يدرس الامر الواقع كما حدث ،وحشر الاماني والاهواء والرغبات والاباطيل في تضاعيف الاحداث ليست من الواقع في شيء . ومنطق العواطف لايخدم القضية في كثير من الحالات .

غايتنا المساهمة في تخليص التاريخ من هذه الشوائب ،مؤمنين ببقاء العمل الصالح واخفاق ماعداه ،مرحبين بكل فكرة نزيهة وبكل جهد شريف .

محاور عديدة في الوطن العربي الكبير تسير في هذا الاتجـــــاه الان وأمنيتنا الكبرى/ في مجلة البحث التاريخي/ أن نكون علـــــى الطريق . لهذا نعمل وبهذا المنحنى نسير فان وفقنا وأصبنا الهـــدف فبتوفيق من الله عز وجل وهو حسبنا وان كانت الاخرى فما نحـــــن بملوميـــــن .

حمـــص ٢٢/شعبان / ١٤١٠ هـ
الموافق١٩/آذار / ١٩٩٠ م

المدير المسؤول

محمد عبد الصمد الشاطر

صراع الوحدة والتجزئة في سورية ولبنان إبان الانتداب الفرنسي

الدكتور مسعود ضاهر
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر في الجامعة اللبنانية - بيروت

في المنهـــج :

الاستعمار الغربي هو المسؤول عن تجزئة الوطن العربي وزرع كيانات قطرية يقودها زعماء موالون له

تلك هي المقولة التي تكاد تجمع الدراسات التاريخية العربية حولها وماتلبث أن تتمايز في داخلها على أساس تحميل الاستعمار الغربي وحده مسؤولية التجزئة في الوطن العربي ، أو تحميل السلطة والزعماء العرب معه جانبا كبيرا من تلك المسؤولية . يقول ساطع الحصري : " أما البلاد العربية ، فقد نكبت باستعمار دول أوربية عديدة : فرنسا وانكلترا في الدرجة الاولى ، وايطاليا واسبانيا في الدرجة الثانية . وهذا الاستعمار انشب مخالبه في مختلف أجزاء البلاد العربية في أزمنة مختلفة ، وفي ظروف متباينة وبأشكال متنوعة . وكانت هذه الاشكال متنوعة جدا :
من الاستعمار المباشر والسافر ، والاستعمار المقنع بقناع الحماية الرسمية ، أو الاحتلال المؤقت ، الى الانتداب والوصاية المقترنة بقرارات عصبة الامم المتحدة ، وصار كل جزء من أجزاء البلاد العربية يكافح الاستعمار المسلط عليه بوسائطه الخاصة في أوقات مختلفة تبعا للفرص المتاحة له ، ضمن الشكل الاستعماري المفروض عليه ..)

لكن المسألة أكثر تعقيدا ولايسهل حلها بمجرد اتهام الاستعمار الغربي بتجزئة ماكان موحدا في ظل السلطنة العثمانية [٢] وتدل الوثائق التاريخية أن الهزائم المتلاحقة التي منيت بها السلطنة العثمانية في القرن التاسع عشر أغرت الدول الاوربية الاستعمارية على تحقيق أطماعها في السيطرة والتوسع في ظل عجز كامل للسلطنة عن حماية أراضيها والشعوب الخاضعة لها . وكان من الطبيعي أن تفتش القيادات الطبقية

العربية عن مصالحها الكثيرة بالارتباط التبعي مع الرساميل الاوربية وقواعدها العسكرية القادرة على حمايتها وترسيخ نفوذها ، وهذا ما يفسر الى حد بعيد ، ذلك السيل من اتفاقيات الحماية والوصاية التي منحتها بريطانيا لمشايخ البدو في الجزيرة العربية ، وما قدمته فرنسا من حماية فاعلة للوسطاء والزعماء المحليين المرتبطين بها في بلاد الشام حيث ارتبطت مصالح عدد كبير من التجار ، وزعماء البدو ، وأعيان العرب وكبار الملاكين العرب بالدول الاستعمارية الاوربية وبدؤوا مرحلة الانفكاك الكامل عن السلطنة العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبلغت أوجها في الحرب العالمية الاولى(٣) فالقوى الاستعمارية على الصعيد العالمي كانت تعمل آنذاك لتوحيد السوق الرأسمالية العالمية بالقوة وتحت سيطرتها المباشرة وشكلت مقاطعات السلطنة العثمانية حقل الاختبار ، لذلك التوحيد القسري منذ حملة نابليون بونابرت على مصر . والمقاطعات الاكثر قربا من مراكز تلك الرساميل والتي سقطت تباعا في قبضتها(٤) وكان لابد أن يقود الصدام بين الدول الاستعمارية الاوربية في السلطنة العثمانية الى غلبة تلك الدول وهزيمة السلطنة لاسباب موضوعية على مستوى البنى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية والادارية لكل منهما . وكان لابد أن يذهب حل المأزق التاريخي في وجهة القوى العالمية الغالبة : الامبرياليات عبر مشاريعها الالحاقية والتقسيمية على مستوى منطقة المشرق العربي(٥) لكن حل "المأزق التاريخي" في هذا المجال كان لمصلحة الامبرياليات العالمية أي باتجاه تعميق الازمة على الصعيد الوطني والقومي والتحرري للشعب العربي . وبالتالي جاء حل المأزق التاريخي حاملا معه مأزقا تاريخيا أشد شراسة مما كان عليه في السابق اذ انتقلت الجماهير العربية من حكم عثماني استبدادي مطلق الى حكم استعماري أوربي أكثر استبدادا وقدرة على النهب والتسلط وحمل معه مشاريع دويلات سلطوية ذات توجه رأسمالي واضح في مختلف أرجاء الوطن العربي.

لاشك أن الاستعمار الاوربي قد استفاد من ضعف السلطنة العثمانية الى الحد الاقصى لتحقيق مشروعه الرأسمالي الامبريالي في السيطرة على

العالم وهناك مؤشرات عدة تؤكد هذه المقولة عبر تجلياتها في الوطن العربي كالحماية والوصاية ، والامتيازات ، والقروض والاحتكارات، والبنوك ، والشركات الاستثمارية بالاضافة الى الغزو العسكري المباشر(٦) ورغم التنافس الجدي الذي كان يصل الى حدود التصادم المسلح بين القوتين الاستعماريتين الكبيرتين ، فرنسا ، وبريطانيا ، في القرن التاسع عشر مطالع القرن العشرين فان تعاونهما على قاعدة الاتفاق السودي، بينهما لتفكيك السلطنة العثمانية وانتزاع ولاياتها تباعا كان واضحا باستمرار . كذلك تلاقت مصالحهما على دعم المشروع الصهيوني منذ عام ١٨٤٠ الرامي الى جمع شتات اليهود من العالم واسكانهم على أرض فلسطين وصولا لتحقيق شعار " أرض بدون شعب لشعب بدون أرض"(٧)

وعلى قاعدة تلاقي مصالح الامبريالية العالمية لدعم المشروع الصهيوني في اقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين بات هذا المشروع الحليف الاستراتيجي الاول للامبريالية العالمية في الوطن العربي، وذلك منذ نشأته حتى الان وبخاصة في الانطلاقة المدعومة بقوة من الفرنسيين والانكليز والتي تجلت بتحول المشروع الصهيوني الى قمة مشاريع التجزئة الاستعمارية للوطن العربي لانه جاء وليد الهجمة الاستعمارية لتفتيت وحدة التراب العربي بين الشرق والغرب ومنع الوحدة المجتمعية العربية بالقوة كأحد الاهداف الاساسية التي وضعها الاستعمار الاوربي لمنع تكرار تجربة محمد علي باشا في مصر وسوريا وقد اعتبرت القوى الامبريالية العالمية أن الضمانة الاكيدة لترسيخ المشروع الصهيوني تكمن في اطلاق الفكر الطائفي والقبلي والعرقي في الوطن العربي ليتحول الى رديف وداعم حقيقي للفكر الصهيوني حيث لا آفاق مستقبلية لضمان أمن الدويلات الطائفية من الداخل والخارج .

لقد كانت مرحلة القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين كافية لتشكل قوى طبقية داخل الوطن العربي ، خاصة زعماء البدو ، وتجار المدن ، وكبار الملاكين ، وأعيان الريف وهي القوى التي ارتبطت تبعيا بالسر وبالعلن ، بالاحتكارات الرأسمالية العالمية وقدمت الضمانات الاكيدة لنجاح المشروع الصهيوني بالاضافة الى حماية المصالح الامبريالية

في الوطن العربي . وكانت نتيجة ذلك أن أكسبت المشروع الاوربي ركائز محلية لايمكن تجاهلها ابان البحث عن الجذور العميقة لولادة الدولة العربية المعاصرة ، وهذا ما أشار اليه وجيه كوثراني بقوله :" لقد درجت العادة على ربط التجزئة بالسياسة الاستعمارية هذا صحيح الى حد كبير ، ولكن مع ذلك ينبغي أن يطرح السؤال أيضا بصيغة أخرى: لما لم تكن " الوحدة " أمرا حاصلا قبل الدخول الاستعماري المباشر فانه من الضروري معرفة ماذا كانت أوضاع البلاد اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا تؤهل " للوحدة " وبناء الدولة القومية " ضمن المنظور الايديولوجي للبرنامج الذي طرحته الحركة القومية آنذاك(٩)

هذه الدراسة تأخذ منحى منهجيا مغايرا ، فمسألة الوحدة ليست مجرد احتمال واقعي له شروط نجاحه في مرحلة تاريخية محددة فحسب بل له شروط تكونه التاريخية الموضوعية وآفاق نجاحه المستقبلية أيضا بحيث تبرز القدرة الاستعمارية على منع تحقق تلك الوحدة بالقوة المسلحة مجرد حدث عابر سرعان مايزول تحت ضغط اصرار الجماهير الشعبية على تحقيق أمانيها في الوحدة والحرية والاستقلال وجلاء الجيوش الاجنبية عن أراضيها . تلك هي المقولة الاساسية التي نبني عليها هذه الدراسة أي وحدوية الجماهير الثابتة وسعيها الى تحقيق تلك الوحدوية متجاهلة القيادات المساومة أحيانا ومصححة خطاها معظم الاحيان .

التجزئة كتعبير عن مصالح الاستعمار والقوى الطبقية المتحالفة معه في الداخل :

تشير الوثائق التاريخية التي تناولت الحقبة الممتدة من انهيار السلطنة العثمانية في الحرب العالمية الاولى وفرض الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان أثر هزيمة ميسلون الى وجود مخطط استعماري انكلو- فرنسي للسيطرة على المشرق العربي ولاتختلف الا في بعض التفاصيل المتعلقة بمصير الاراضي التي شكلت متصرفية جبل لبنان سابقا وكيفية اندماجها بالوحدة السورية الخاضعة للانتداب . فبالنسبة للاستعمار ، يقول ذوقان قرقوط ، الذي كان الخوف المزمن من احتمال قيام وحدة قومية تنتظم البلاد يلازم لديه العمل على تفكيك أواصر

الامبراطورية العثمانية ، كانت هذه الفترة تجسيدا لاحلام وأهداف وخطط طال السعي وراءها في المسألة الشرقية (١٠)

لذلك لم تتحقق الوعود الكثيرة التي قطعها الاستعماريون الفرنسيون والانكليز لزعماء العرب خلال تلك المرحلة بل أمعنوا في تقسيم المشرق العربي الى دويلات طائفية ومذهبية تساعد في بلورة المشروع الصهيوني على أرض فلسطين بعد أن بدأ يشق طريقه العلني استنادا الى تصريح بلفور لعام ١٩١٧ (١١) لانكشفت الاوهام الكبيرة حول الدعم البريطاني للحركة الوحدوية العربية عن خيبة أمل مشوبة بالمرارة ورغم اعلان اتفاق لويد جورج ـ كليمنصو في ١٥ ايلول ١٩١٩ الذي قدم اضافات كثيرة ساهمت في تطبيق اتفاقيات سايكس بيكو ووضعها موضع التنفيذ فان بعض الدراسات القومية العربية لم تتخل عن فكرة الدعم البريطاني للحركة الوحدوية العربية . يقول ساطع الحصري " صحيح أن انكلترا ساعدت الثورة العربية أو ناصرتها بادىء الامر ، ولكن مناصرتها هذه كانت تجري ،طول الوقت بتردد وحذر ،فكانت تمون جيوش الثورة ـ مثلا ـ بالعتاد والذخائر ، ولكنها كانت تقتر فيها تقتيرا كبيرا فلا تعطيها من العتاد الا بقدر مايتراءى لها أنه ضروري للقيام بالحركات التي تريدها هي (١٢).

الوقائع التاريخية لاتنم عن مساعدة بريطانيا للثورة العربية بقدر ماتوضح أن تلك الثورة أدخلت منذ البداية في اطار المخطط الاستعماري الانكلو ـ فرنسي لتفتيت السلطنة العثمانية ودفعها الى الانهيار النهائي تمهيدا لاقتسام ولاياتها . فالقوى الاجتماعية التي حملت المشروع العربي النهضوي ضد العثمانيين تشكلت أساسا من بعض زعماء القبائل وكبار الملاكين وتجار المدن وأعيان الريف . وهي قوى طبقية كانت تسعى لايجاد مواقع لها في التركيبة الاقتصادية ـ الاجتماعية والسياسية الحديدة في حال انهيار السلطنة . وقدمت الدليل الملموس ، وفي أكثر من مناسبة ، على طبيعتها الطبقية كقوى مساومة للاستعمار الخارجي ولاتقف ضد مشروعه بصلابة حتى النهاية . وهذا ماعبر عنه أكثر من مؤرخ أو باحث تناول بالدراسة تلك الحقبة الغنية جدا

والمعقدة جدا في تاريخ المشرق العربي المعاصر خاصة سوريا ولبنان قبيل معركة ميسلون . لكن الخطأ المنهجي الاساسي في معظم تلك الدراسات أنها تشدد على مواقف النخب السياسية والقيادات الاقطاعية والعشائرية متجاهلة دور الجماهير الشعبية ، الصانع الحقيقي للتاريخ القومي الوحدوي . فاذا كانت القيادات السياسية آنذاك تتفاوت في جذرية مواقفها ومدى استعدادها للمساهمة مع الاستعمار الفرنسي فان الضامن الاساسي لاستمرارية الخط الوحدوي كانت المواقف الصلبة للجماهير الشعبية على امتداد المناطق والطوائف في سوريا ولبنان .

كان الموقف الذي اتخذته الحكومة السورية الموالية للانتداب بالغ الدلالة في التعبير عن المصالح الطبقية للقوى التي ساومت الفرنسيين وتعاونت معهم . وبالمقابل تجلى الموقف الوطني القومي الوحدوى المقموع في مواجهة الزحف الاستعماري الذي استطاع مرحليا أن يحول الانتصار الوحدوي لسنوات ١٩١٨ – ١٩٢٠ الى هزيمة في ميسلون كان من نتائجها تشتت بعض القوى الوحدوية ، في حين استمرت الجماهير الشعبية ممسكة بخيارها القومي العربي الوحدوي رغم تعرضها لاقصى درجات القمع والارهاب الفرنسي .

وهذا ما أشار اليه ساطع الحصري بقوله : " كان يوم ميسلون فاصلا في تاريخ القضية العربية . أنه كان خاتمة الفصل الاول من القضية العربية وخاتمة فصولها الجديدة ففيه انحل الجيش النظامي الذي تكون خلال الثورة العربية ، وبعده تبعثر رجال الثورة ودعاة القومية ، في مختلف الاقطار ، وأخذوا يجابهون حياة كفاح جديدة شاقة ومتشعبة ، تختلف شروطها عن شروط الصفحة الاولى اختلافا جوهريا . ولذلك يحق لنا أن نقول بكل تأكيد " ان يوم ميسلون كان من أخطر الايام التي مرت على الامة العربية في تاريخها الحديث(١٣) لكن ما يؤخذ على مقولات نظرية للحصري ولكثير من المفكرين القوميين العرب الذين أرخوا لتلك المرحلة انهم اعتبروا الحركة الوحدوية من هذه النخبة وليست من صنع الجماهير الشعبية الصانعة الحقيقية للتاريخ . وهذا مايشير اليه نص

الحصري حول " تبعثر رجال الثورة ودعاة القومية في مختلف الاقطار العربية " ويتأكد في نص لذوقان قرقوط يصف زعماء تلك المرحلة "كانوا (زعماء التيار الوحدوي) سجناء عواطفهم وأسرى مصالحهم الشخصية الفردية ، فتخبطوا في الجزئيات ولم تحكم سياستهم روّية تاريخية شاملة . وبالنتيجة لم يستطيعوا الارتفاع الى مستوى مسؤولية القضية القومية الكبرى فكان عليهم أن يبدأوا من جديد ، في ظل ظروف جديدة أوسع مدى ، وأعتى وأكثر تشعبا من ظروف الحكم العثماني .

معارك متعددة الجوانب في الداخل والخارج ... أهمها وحدة البلاد(١٤)

ويرفع ظافر القاسمي مقولة نخبوية الحركة القومية العربية الوحدوية الى حدودها القصوى حين يقول" ان فكرة القومية العربية كانت في أول نشأتها ، ولم يكن يعرف عنها شيئا الا القلة القليلة من الرجال ، وان كانت موجودة فعلا في ضمير الشعب العربي عامة ، وفي ضمير الشعب السوري خاصة . وهذه هي وحدها التي حملت جميع الاعباء ، هي وحدها التي قامت بتشييد هذا البناء . وسيكتب التاريخ أعمالها المجيدة ، بحروف من ذهب يشع منها النور ، مابقي في الدنيا عروبة ، ومابقي فيها عرب" (١٥)

لقد عجزت مقولات نخبوية الحركة القومية العربية الوحدوية عن تحليل حركة التاريخ العربي في سيرورتها المستمرة من التجزئة الى الوحدة فهذه السيرورة من صنع الجماهير الشعبية الوحدوية التي تمسكت حتى النهاية بوحدويتها ولم تساوم عليها كما فعلت قيادات عربية كثيرة بدأت وحدوية وانتهت اقليمية تساوم الاستعمار وتشارك في ضرب القوى الوحدوية الشعبية ، ولايمكن فهم المأزق التاريخي لتلك المرحلة الا على قاعدة المقولة العلمية القائلة بوحدوية الجماهير العربية من جهة ودور الاستعمار الخارجي في تنصيب قيادات مساومة واقليمية عليها من جهة أخرى ومازال هذا المأزق دون حل في الغالبية الساحقة من الاقطار العربية نظرا لارتباط قياداتها تبعيا بالموروث الاستعماري المستمر حتى الان .

بعض خصوصيات الساحة اللبنانية :

تشكل المسألة الطائفية ركيزة أساسية لفهم ولادة دولة لبنان الكبير عام ١٩٢٠ ورغم آن دويلات تلك المرحلة (دمشق ، حلب ،العلويين حبل الدروز ، لبنان الكبير) ولدت حميعها بقرار استعماري فرنسي فان مايميز دولة لبنان الكبير ان زعامات طائفية مسيحية مارونية بشكل خاص ، طالبت بالحفاظ على صيغة متصرفية حبل لبنان مع تطويرها وتوسيع حدودها الجغرافية بما يضمن بقاءها واستمراريتها في الازمات الحادة خاصة وقد فقدت المتصرفية قرابة ثلث سكانها حوعا ابان الحصار البحري الذي فرضه الفرنسيون والانكليز على السواحل السورية واللبنانية بالاضافة الى الحراد والاوبئة ومظالم حمال باشا . فتجربة المتصرفية لعام ١٨٦١ ولدت بدعم أوربي مباشر مما فسح المجال أمام فرنسا وبريطانيا للتدخل المباشر في مصير السلطنة العثمانية وولاياتها العربية عبر سياسة حماية الطوائف المسيحية فيها . وهذا ما أشار اليه أدمون رباط بقوله : لقد استخدمت أوربا الطوائف غير الاسلامية في المشرق العربي ، خاصة الطوائف السورية ، لتتويج رقعة نفوذها الثقافي والاقتصادي ، ولكي تبني ، بعد الحرب ، سلطتها السياسية والعسكرية في سوريا (١٧)

وفي كتاب آخر أكثر حدة خصصه رباط لدراسة " التكوين التاريخي للبنان السياسي والحقوقي " يشير المؤلف الى آن ولادة الدولة اللبنانية لم تكن محرد حدث استعماري بحت بل نتاج تطور داخلي أيضا . فاستمرارية لبنان في ظل الانتداب الفرنسي لايمكن أن تجد تفسيرا لها الا بقوة ماضيه الذي أعطاه هوية مميزة بحيث حاءت ولادة الدولة اللبنانية تعبيرا طبيعيا وبخلاف باقي الدويلات السورية ، لم يكن لبنان الكبير صنيعة السياسة الفرنسية كما يشاع . وانشاء الدولة اللبنانية عام١٩٢٠ كان تلبية لموجبات تاريخ طويل ... لكن الجماهير الاسلامية اتخذت على الدوام ، خلال مرحلة الانتداب موقف الرفض المطلق للانتداب ، وبالمقابل اتخذت العلاقة بين المسيحيين وعلى رأسهم

الموارنة ، وبين فرنسا طابع الشكل الصوفي . ألم تأت "الام الحنون " لتحقق لهم أحلام الاجداد في بناء دولة لبنان الكبير ؟[١٨]

لكن المسألة الطائفية التي لعبت دورا هاما لصالح التغلغل الاستعماري الفرنسي بالدرجة الاولى ، في مناطق جبل لبنان ، لم تعط ثمارا يانعة عندما استخدمت في باقي المناطق السورية . وكانت النتيجة ان فشلت سياسة التجزئة الطائفية في الدويلات الاخرى في سوريا ولم تنجح في بناء دولة متماسكة داخل لبنان الكبير ، وقد تنبه كثير من المؤرخين الى هذه المقولة الهامة التي تربط بين التجزئة الاستعمارية ، وأبرز تجلياتها التجزئة الطائفية في ظل الانتداب الفرنسي ، بين القوى اللبنانية والسورية ذات المصلحة في الارتباط التبعي بالمشروع الفرنسي المعادي جذريا لمصالح الجماهير الشعبية الوحدوية في سوريا ولبنان . فقد اعتقد أنصار فرنسا وعلى رأسهم البطريرك الماروني الياس الحويك وخلفه البطريرك انطوان عريضة ، أن فرنسا شكلت استقلال لبنان وتضمنته وقد تنبه البطريرك الحويك ،في أواخر أيامه ، الى أن ذلك الاستقلال كان وهما خادعا ، فأطلت عبارته الشهيرة " فرنسا كالشمس ، تنير من بعيد وتحرق من قريب " أما خلفه البطريرك عريضه فتعرض لمضايقات كبيرة من المفوض السامي دومارتيل وهو الحامي للاحتكارات الفرنسية خاصة احتكارالتبغ مما حمل البطريرك عريضة على تعميق الروابط السورية – اللبنانية وأصدر كتابه الهام" لبنان وفرنسا ١٩٣٦ والذي ضمنه أشد الانتقادات قسوة ضد الانتداب الفرنسي والسياسة الاستعمارية التي مارسها في سوريا ولبنان[١٩]

ان مراجعة دقيقة لوثائق تلك المرحلة تثبت أن دعاة الاستقلال اللبناني لم يفهموا الانتداب الفرنسي كاستعمار مباشر بل رحبوا به على أساس المعونة والمشورة تبعا لتحديد ذلك المفهوم في صك الانتداب لذلك قبلت به معظم الجمعيات اللبنانية السورية العاملة في مصروبعض بلدان الاغتراب[٢٠] فوثائق اللجنة المركزية السورية في باريس للاعوام ١٩١٨ – ١٩١٩ ترى في تطبيق سياسة الانتداب الاهداف التالية : ضم المهاجرين السوريين واللبنانيين الى فرق جيش الطرق الفرنسي وبث

الدعاية المؤيدة لفرنسا في الاوساط السورية بأمريكا ، والعمل من أجل وحدة السوريين الموجودين في أمريكا وأوربا ومصر بغض النظر عن العرق والدين ، وتأمين الوحدة السورية وضرورة تنظيم سوريا تبعا لارادة أهلها ، أي ضمن نظام فدرالي ديمقراطي ومساعدة الصديقة فرنسا من خلال وصايتها على كامل سورية " ومن أهداف " اللجنة اللبنانية السورية في مصر " خلال تلك المرحلة تحرير سوريا والسير بها في سبيل الاستقلال تحت رعاية دولة فرنسا وبمساعدتها وبضمانتها على طريق الاستقلال الاداري لكل ولاية من الولايات السورية مع المحافظة على نوع الاستقلال الحائز عليه لبنان من قبل ، وعلى الصفة الخاصة به وعلى حقه في السعي لتحقيق أمانيه العادلة ، أما علاقات لبنان مع باقي البلاد السورية فسيوّحل أمر تقريرها لما بعد وحسب الظروف .

لدينا وثائق كثيرة حدا للجمعيات السورية واللبنانية خلال تلك المرحلة وكلها تطالب الوحدة السورية أولا ، ومنها جمعيات تدعو الى الحفاظ على امتيازات حبل لبنان أو وضعه المميز داخل الوحدة السورية وذلك بمساعدة مباشرة من فرنسا ، أو من بريطانيا أو من الولايات المتحدة الامريكية . " رابطة سوريا ـ جبل لبنان للتحرير " في نيويورك والتي كان من أعضائها جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وأمين الريحاني ، وايليا أبو ماضي ، ونسيب عريضة ، وشكري البخاش وأيوب ثابت وغيرهم ، طالبت في مذكراتها الى موٌتمر الصلح عام ١٩١٩ " بحل المسألة السورية على أساس الوحدة الفدرالية في سورية الطبيعية كلها تحت وصاية وحماية دولة واحدة كبرى ديمقراطية ". لقد تمسكت الجمعيات السورية واللبنانية في الداخل والخارج بالوحدة السورية وذلك بمعزل عن الاختلافات العرقية الطائفية في سورية ، لان الوحدة هي الركيزة التي تبنى عليها المشاريع المستقبلية لمواجهة تحديات العصر وقد عبرت اللجنة الوطنية السورية اللبنانية في البرازيل عن أهمية الوحدة السورية بشكل دقيق : تشكل سوريا وحدة جغرافية ثابتة ،ووحدة اثنية لان التباين الديني والطائفي عائق عابر سوف يتجاوزه التطور الزمني ويزيله ... ولسوريا الحق الذي لاتناقش فيه ، بالاستقلال وذلك

بسبب وحدتها الجغرافية الاثنية ... ان وحدة أجزاء سوريا تحت نفس الراية سوف تخلق قوة تكون معتبرة من جيرانها وتساهم في تحقيق علاقات حسن الجوار . هذه الوحدة سوف تنمي وتضاعف القوى الحية في البلاد وتضاعف مصادر النشاط والانتاج ، وسوف تعطي انطلاقة سريعة للتطور الوطني وتحقق الاندماج القومي .السوريون المعروفون بقابليتهم للتقدم سوف يصبحون أحد محاور الحضارة في آسيا .

أما تجزئة سوريا فسينتج عنها العكس تماما ، اذ أن كل جزء سيضعف بفقدان الدعم الناتج عن الوحدة .

أدرك السوريون واللبنانيون بعمق بالغ أهمية الوحدة الجغرافية والسكانية والاقتصادية فنادوا بها وتمسكوا بهذا الشعار حتى النهاية لكن ادارة الانتداب الفرنسي أمعنت في التجزئة الجغرافية والاثنية السياسية والمذهبية بما يضمن مصالحها ولم تحافظ على الوحدة الاقتصادية تحت ضغط الرساميل الفرنسية وكان هاجسها الاساسي في ذلك ضمان بناء المشروع الصهيوني على أرض فلسطين الذي توافقت عليه بريطانيا وفرنسا وعملتا معا على تنفيذه على أرض الواقع . ولايمكن فهم سياسة التجزئة التي مارسها الفرنسيون في سوريا الكبرى الاعلى قاعدة دعم المشروع الصهيوني وترسيخه على أرض فلسطين، وتمهيد الطريق أمام نفوذه نحو المناطق المجاورة . وهذا ما أشار اليه لونغريغ بقوله " رفض الفرنسيون اتباع سياسة التوحيد القابلة للتطبيق بسهولة والمرغوبة شعبيا وفضلوا سياسة التقسيم لانهم استندوا الى اعتبارات مغايرة تماما ... ولم يكن ثمة ضرورة قاهرة تستدعي عام ١٩٢٠ خلق دويلات صغيرة وضعيفة وغير قادرة على البقاء ، دويلات ينبغي لها دائما أن تستند الى الدولة المنتدبة لتحفظ وجودها ، الى جانب أن كلا منها يضم اقلية واسعة متذمرة لانها حرمت من الوحدة مع سوريا (٢١)

يتضح من ذلك أهداف السياسة الفرنسية في تجزئة سوريا ولبنان الى دويلات طائفية ومذهبية كانت تتعارض جذريا مع أماني السوريين واللبنانيين في الوحدة والاستقلال وقد عجزت القيادات المحلية في

الدويلات السورية عن الاحتفاظ بالتحزئة التي أقامها الفرنسيون عام ١٩٢٠ وصولا الى تبلورها في كيانات سياسية مستقلة وذلك تحت ضغط جماهيرها الوحدوية بالدرحة الاولى والانتفاضات الشعبية التي لم تهدأ طيلة مرحلة الانتداب . بالمقابل كان القيادات اللبنانية الوحدوية تعطف تباعا وراء دولة لبنان الكبير ، وذلك بهدف تأمين مصالحها الذاتية الطبيعية بالدرحة الاولى تاركة أمر تحقيق " الوحدة السورية " التي نادت بها الى المستقبل " وتبعا للظروف " .

الحماهير الوحدوية تفرض الوحدة السورية :

لعل المقولة الاساسية التي تفسر ، الى حد بعيد ، صراع الوحدة والتحزئة في سوريا ولبنان ابان مرحلة الانتداب الفرنسي هي التالية : حماهير وحدوية في مواحهة السياسة الاستعمارية الفرنسية ،وقيادات محلية ذات طبيعة طبقية مساوية . وقد ترتبت على هذه المقولة مواقف عملية أبرزها أن بعض القيادات المحلية كانت قادرة على المساومة مع الفرنسيين في فترات ضعف الحماهير الوحدوية وتعرضها للقمع والارهاب في حين تصبح المساومة معهم أكثر صعوبة أبان الانتفاضات الشعبية ولما كونت تلك الانتفاضات ، العسكرية منها والسلمية على السواء ، تشكل السمة البارزة لهذه المرحلة وتخترقها من البداية ، أي معركة ميسلون ، حتى النهاية ، أي معركة الجلاء بعد قصف دمشق بالمدفعية والطائرات الفرنسية ، فان القيادات المحلية السورية بقيت في الغالب ترفع باستمرار لواء الوحدة السورية الى حانب الشعارات الاخرى كالاستقلال والجلاء والسيادة الوطنية .

فسياسة التحزئة الاستعمارية التي فرضتها فرنسا بالقوة المسلحة كانت عاحزة عن اخضاع السوريين واجبارهم على القبول بها لانها تحاهلت الحقائق التاريخية للشعب السوري وتركيبته الحضارية الواحدة وسعيه الدوّوب من أحل نهضته الوطنية والقومية العربية . فالوحدة هي الاساس أما التحزئة فعمل استعماري بحت . وهذا ما أشار اليه يوسف الحكيم بقوله : " كان السوريون في بدء العهد الفيصلي ، الذي عقب

الحلاء التركي يرفعون عالي أصواتهم مطالبين بالوحدة العربية الشاملة شبه الجزيرة العربية. ثم رأوا عدم توفر مقتضيات هذه الوحدة والحصول عليها آنئذ ،فاكتفوا بطلب وحدة سوريا بمناطقها الثلاث : الشرقية والغربية والجنوبية ، وكما غلبوا على أمرهم ، بعد معركة ميسلون ودخول الجيش الفرنسي المنطقة الشرقية ، اكتفوا بتمني الوحدة في هذه المنطقة ولواءي اللاذقية واسكندرونة باعتبارهما من جملة أجزاء سوريا ولكن التجزئة خيبت آمالهم ، فازداد معظمهم نقمة على الانتداب " (٢٢)

ولايختلف هذا الموقف مع توجهات الملك فيصل الاول الذي القى خطابه الشهير في ٥ آيار ١٩١٩ في مبنى بلدية دمشق أمام جمهور غفير من أعيان البلاد وزعمائها الذين وفدوا الى العاصمة السورية من مختلف المناطق السورية واللبنانية ، قال فيصل في خطابه : " البلاد العربية لايمكن تجزئتها ... وبما أن بين سكان البلاد العربية اختلافات في طبقات العلم والتعليم ليس الا ، فالظروف ليست كافية لتجعلهم أمة واحدة وحكومة واحدة . لذلك رأيت الدفاع كما يلي : ان سوريا والحجاز والعراق قطعات عربية ، وكل قطعة فيها يطلب أهلها الاستقلال . وقلت ان نجدا والبلاد المساوية للحجاز من الاقطار العربية هي تابعة للحجاز ليس الا ، وهذه يرأسها والدي . أما سوريا فيجب أن تكون مستقلة وكذلك العراق يريد استقلاله .. دافعت عن سوريا بحدودها الطبيعية وقلت أن السوريين يطلبون استقلال بلادهم الطبيعية ولايريدون أن يشاركهم فيها شريك" (٢٣)

هكذا تتجلى القيادة المساومة في أجلى مظاهرها . ولاينسى فيصل في مذكراته أن يشير الى اذعان الامم الغربية له واعطاء السوريين مايطلبون . لكن زين نورالدين زين ينقل نصا معبرا للمؤرخ الانكليزي تامبرلي يوضح فيه أسباب سقوط فيصل فيقول : " لقد سقطت الدولة (دولة الملك فيصل) السورية المستقلة ، دولة خلقتها بريطانيا العظمى وتعهدت برعايتها وفاء للعهود والمواثيق التي قطعتها على نفسها للعرب ، أو وفاء لبعض وعودها . لقد سقطت دولة سوريا لان قيامها

كان يتعارض معارضة مباشرة مع أماني فرنسا ومطامحها ، كما أنها سقطت في فترة من الظروف حالت دون النفوذ البريطاني من أن يتمكن من المحافظة عليها ... وأخيرا سقطت لان قوتها العسكرية لم تكن من القوة الكافية لضمان بقائها (٢٤)

والاصح أن الاتفاقيات السرية بين الفرنسيين والانكليز بدأت تتكشف مع نهاية الحرب العالمية الاولى .

وفي مواجهة هذه الاتفاقيات كانت الجماهير الشعبية تزداد تمسكا بوحدة البلاد السورية كنواة للوحدة العربية الشاملة ، في حين كانت معظم القيادات العربية تساوم على موقع لها في التركيبة الجديدة تحت ستار اعتماد الواقعية ورفض شعار" كل شيء أو لاشيء " وقد عبر محمد جميل بيهم عن تلك الاحواء بقوله : " كان السوريون والعراقيون وغيرهم من العرب الذين حارب أبناؤهم الاتراك في صفوف الشريف حسين أمير مكة ، كانوا يهللون ويكبرون فرحا بانتصار الحلفاء.. وقد عقدوا على الامير فيصل بن الحسين كبار الامال في تحقيق الوعود والعهود التي قطعها لهم حلفاؤهم خلال تلك الحرب ، وهم لايعرفون شيئا عن اتفاقاتهم السرية ، ولايعلمون ماوعد به بلفور الصهيونية العالمية ثم لما سمعوا بالانتدابات من بعد بدأت الشكوك تساورهم وأخذوا يرفضون كل انتداب ويطالبون بالاستقلال الناجز(٢٥)

هذا النص شديد الالتباس ويخفي المواقف المساومة للكثير من القيادات السورية واللبنانية مع الفرنسيين والانكليز . فقد اطلع فيصل على أبعاد المشروع الصهيوني على قاعدة وعد بلفور ، ومع ذلك أقدم على توقيع اتفاقيته الشهيرة المعروفة باسم اتفاقية فيصل - وايزمن التي يعترف فيها عمليا بوضع وعد بلفور موضع التنفيذ كما أنه قام بتوقيع اتفاقية مع فرنسا قبيل معركة ميسلون شكلت تحديا سافرا للتيار الوحدوي في سوريا ولبنان ، وقد وصف المؤرخ السوفياتي فلاديميرلوتسكي ردود الفعل الشعبي قائلا : "أثارت اتفاقية فيصل مع فرنسا التي وقعت بالاحرف الاولى في كانون الثاني ١٩٢٠ موجة حديدة من الغضب في البلاد وأدت الى انقسام الحزب العربي الفتي،واجتاحت

التظاهرات المعارضة لهذه الاتفاقية مدن سوريا كلها ، واتهم فيصل علانية بخيانة المصالح الوطنية " وبعد شرح التدابير العملية التي قام بها لاضعاف التيار الوحدوي وابعاد رموزه الاساسية عن السلطة يصف لوتسكي موقف فيصل بقوله : " استخدم أقصى درجات الديماغوجية فبينما كان يمارس في الواقع سياسة التواطؤ مع الامبريالية ،ويقمع نضال الثوار ، ويسمح للقوات الفرنسية بعبور أراضيه في طريقها الى تركيا لضرب حركة التحرير الوطني فيها كان يتشدق بالحديث عن استقلال سوريا الوطني ، وكان يلقي الخطب الحماسية في الاندية العربية ،ويؤكد أنه لم ولن يوقع آية اتفاقية تلحق الضرر بـ" القضية العربية "(٢٦)

تلك القيادات المساومة نجد لها نماذج مشابهة ابان الثورة السورية الكبرى لعام ١٩٢٥ وخلال المرحلة اللاحقة بكاملها. فيوسف الحكيم يروي في مذكراته عن العهد الفيصلي مايلي : " كانت شرائح من البورجوازية السورية تفضل الانتداب الفرنسي على الانتداب البريطاني ، بل على الاستقلال التام الناجز .. ولكنهم لم يجرؤوا على الجهر بآرائهم هذه الا بعد دخول الجيش الفرنسي دمشق(٢٧)

وأحد زعماء الثورة السورية الكبرى الدكتور عبدالرحمن الشهبندر، يروي في مذكراته عن تلك الثورة : " ان السبب الجوهري في فشل ثورة حماة فشلا سريعا هو احجام الزعماء الاعيان الذين تآمروا على تنفيذها فلما ظهرت الى حيز الوجود اختبأوا في بيوتهم ليرواما يكون من أمرها ، فان نجحت فهم المؤسسون لها وأصحاب الشأن فيها وان فشلت فهم عنها معرضون ويضيف : " الاعتماد على البدو كان في غير محله الا اذا كان الغرض من الاستعانة بهم قدح الزناد لان تجارب هذه الثورة دلتنا بصورة عملية أن البدو لايصلحون للحروب الدولية الثابتة التي تتطلب صبرا بل هم أصلح مايكون للهبات الموقتة والايهامات (٢٨).

ويهاجم ذوقان قرقوط موقف الكتلة الوطنية السورية عام١٩٣٦ من مسألة الاقضية الاربعة والمدن الساحلية التي ضمت الى لبنان عام ١٩٢٠ وذلك بسبب دخولها في مساومة مكشوفة مع فرنسا لتوقيع اتفاقية

بحدودها الطبيعية ونصت المادة الثانية من القانون الاساسي للمملكة السورية على أنها تتألف من قطاعات ذات وحدة سياسية لاتقبل التجزئة (٣١)

في الواقع ، لم يخل بيان سياسي أو مطلبي في سوريا خلال تلك المرحلة من اشارة واضحة الى مطلب الوحدة السورية ورفض التجزئة والانتداب الفرنسي والعمل على الغاء كل تدابيره . وكانت المقاومة الوطنية للانتداب الفرنسي تتدرج من الاحتجاج السلمي والمواقف السياسية في المحافل الدولية والمقالات في الصحف خارج البلاد وداخلها ،والعرائض الشعبية ، وبرقيات الاحتجاج والوفود والاجتماعات السرية والعلنية ، الى التظاهرات الشعبية والهبات المسلحة ، والاغتيالات والثورات" هكذا لم يثن تقسيم سوريا الى دويلات صغيرة ،أهاليها عن مقاومة الانتداب الفرنسي ، كما لم يبعدهم عن التعاطف مع البلدان العربية في قضاياها والمشاركة فيها . وعلى ذلك وبعد أن تبين غوروفشل سياسة التجزئة واصرار البلاد على وحدتها قرر انشاء اتحاد بين الدول السورية الثلاث دولة حلب ، ودولة دمشق ، وأراضي العلويين المستقلة (٣٢)

يوسف الحكيم يشير الى الحدث نفسه بقوله : " لقد رأى كل مفكر من السوريين أن الاتحاد السوري لعام ١٩٢٢ هو بداية الوحدة السورية على أساس اللامركزية المتضمنة توسيع صلاحيات الولايات أو المحافظات حسبما تتطلبه حاجتها (٣٣) لكن الفارق بينهمانوعي يرتبط بالمنهج . فالجماهير الشعبية هي التي أجبرت غوروعلى اعادة توحيد تلك الدويلات في حين أهملها تماما نص يوسف الحكيم مع اشارة الى رجال الفكر من السوريين . وفي اشارات قرقوط توكيد لذلك المنهج حيث يقول: " كان الناس يقابلون الجنرال ويغان أثناء تطوافه بالبلاد مطالبين بالوحدة وباعادة الاقضية الاربعة أو بضم لبنان باتحاد مع سوريا (٣٤) ويؤكد عبد الرحمن الكيالي ان مطالب الامة السورية التي رفعتهاللمفوض السامي الجنرالساراي نصت أولا على الوحدة التامة الطبيعية للبلاد بما فيها أراضي العلويين وجبل الدروز ولواء اسكندرونة ، مع البقاع والاقضية الاربعة التي الحقت بلبنان الصغير رغم ارادة أهلها ونص البند

للصداقة والتعاون تمهد الطريق لالغاء عهد الانتداب ، وكانت النتيجة ان بقيت الاتفاقية حبرا على ورق ولم يوقعها البرلمان الفرنسي ، مما حدا بقرقوط الى ابراز تلك المساومة بقوله : " فجأة بعد عام ١٩٣٦ أي بعد توقيع مشروع المعاهدة السورية الفرنسية واستلام الكتلة الوطنية الحكم من بابه الى محرابه ، اطبق الصمت من الناحية الرسمية على مسألة " وحدة آراضي الساحل والداخل "(٢٩)

وقد آثر ذلك الموقف بشكل مباشر على عمل التيار الوحدوي في لبنان الذي رفع باستمرار الشعار التالي : " تحقيق وحدة البلاد السورية العامة ووضع مادة خاصة في صلب الدستور السوري تنص على أن سوريا هي دولة واحدة لاتتجزأ مستقلة وذات سيادة (٣٠)

قد تطول الاستشهادات كثيرا في هذا المجال وكلها تؤكد أن تحليل مواقف القيادات السياسية في سوريا ولبنان يقتضي بالضرورة رؤية المصالح الطبقية لهذه القيادات والتي كانت تتحكم في مواقفها وتدفعها باتجاه المساومة والتصالح مع الاستعمار الفرنسي وبدون هذا البعد الاجتماعي الطبقي لايمكن فهم تلك المواقف المبدلة باستمرار بحيث من السهل رؤية بعض الزعامات في صفوف الانتفاضات الشعبية وفي قياداتها أحيانا ، في مرحلة عصيبة ورؤيتهم في صفوف القوى الموالية للانتداب في مرحلة أخرى لان سهولة الانتقال كانت أمرا يسيرا بسبب ضعف الرقابة الشعبية وقواها المنظمة على مواقف تلك القيادات بالمقابل لايتسع المجال لذكر المواقف الوحدوية للجماهير الشعبية وهي المقولة الاكثر ثباتا خلال مرحلة الانتداب لان الوحدة على مختلف الصعد هي الضامن الاساسي لنضالات تلك الجماهير ولاخيار لها الا بالوحدة ، ولاقدرة لها على المساومة والتصالح مع الاستعمار الفرنسي وهذا ما أشار اليه ذوقان قرقوط بقوله : " فمنذ البداية لم تعترف البلاد (السورية) بالتجزئة ولابالاتفاقات السرية التي ترتبت عليها هذه التجزئة ،ويضيف : " كان بيان الوزارة الاولى بعد المناداة بفيصل ملكا ، يقوم على المحافظة على الاستقلال التام ضمن الوحدة السورية • وكان البند الاساسي في بيان وزارة هاشم الاتاسي أمام المؤتمر هو مطلب وحدة سوريا

التاسع على الغاء السياسة الطائفية على الاطلاق(٣٥)

وفي نداء الثورة السورية الكبرى في ٢٣ آب ١٩٢٥ جاء في المطلب الاول وحدة البلاد السورية ساحلها وداخلها ، والاعتراف بدولة سورية عربية واحدة مستقلة استقلالا تاما(٣٦) وعلى جماهيرية هذه الثورة يقول ظافر القاسمي " الثورة السورية الكبرى هي ثورة عربية سورية .. وأما المحاربون فيها ، فكان بينهم المحامي والطبيب والعالم والاديب ، والشاعر والكاتب كما وجد أصحاب الحرف وصغار الباعة ، والمعتاشون بالكفاف وكما نال شرف الجهاد طبقة الاثرياء (البورجوازية على حد تعبير اليوم) وأدهش من هذا كله أن بعض المحاربين كان من الطلاب الذين يستكملون دراستهم في أوربا . لقد قطع بعضهم دراسته وعاد فورا الى مناطق الثورة ليحمل السلاح منهم الشهيد الدكتور عادل نكد الذي لم يكتب للبلاد أن تفيد شيئا من علمه وثقافته ، الا أنها جنت أعظم الثمرات من بطولته واستشهاده على أبواب دمشق(٣٧)

لكن عبد الرحمن الشهبندر كان شديد الوضوح في اتهامه لمواقف البورجوازية السورية بالمساومة مع الفرنسيين وخيانة الثورة ، وعدم الاعتماد على هبات البدو ، في حين امتدح مواقف الابطال الشعبيين ويقول : " عندي أن سيرة حسن الخراط ومن حذا حذوه من المجاهدين العصاميين من أفراد الطبقة الشعبية العامة تبرز أن الثورة تقدم الفرصة السانحة لبلورة صفات يمتازون بها ، وأنوار يتلألؤون بأشعتها (٣٨)

وكان لمواقف القيادات الشعبية صدى ايجابي في كافة ارجاء سوريا بحيث شلت يد الفرنسيين عن الحركة خاصة لجهة استخدام الورقة الطائفية من جهة ، وغزوات البدو من جهة أخرى . يقول الشهبندر : " ان الاحياء المسيحية التي تخلى عنها الفرنسيون في دمشق قد سلمت من النهب بفضل زعماء المسلمين ويجب أن تسلم فرنسا بأن سوريا اليوم هي غير سوريا المعروفة بتعود منازعاتها الدينية وأن الوطنية السورية حلت محل الطائفية وقامت تطالب بحقها المهضوم (٣٩) ويضيف : " حرم البدو على أنفسهم الغارة على البادية تلك السنة خشية أن يصادفوا فيها المجاهدين أو أن يسلبوهم حلالهم . ان جماهيرية التيار الوحدوي هي

الاساس في فهم حركة الصراع ضد الاستعمار الفرنسي وافشال مشاريع التجزئة وضمان الوحدة السورية • ولم تجرؤ القيادات المحلية رغم استعدادها الدائم للمساومة على خيانة مسألة الوحدة أو التنكر لها• ولم تتورع عن اتخاذ مواقف صدامية مع الانتداب بسبب الضغط المستمر الذي تمارسه الجماهير الوحدوية عليها ، ويشير نجيب الارمنازي في هذا المجال: "لم يكد يجتمع مجلس حلب عام ١٩٢٦ حتى كان أول قرار أصدره المطالبة بالوحدة السورية • فصدر الامر بحله ولم يجتمع مرة أخرى(٤٠) عند اعلان الدستور السوري رفض المجلس عام ١٩٢٨ تضمنه أي نص يعطي صلاحيات مطلقة للمفوض السامي فأوقف العمل به وحل المجلس • لكن المسألة أعمق من ذلك بكثير لانها تعارض جذور مصالح الانتداب الفرنسي وتنفسك بالوحدة السورية ، فقد نصت المادة الثانية من ذلك الدستور على مايلي: " ان البلاد السورية المنفصلة عن الدولة العثمانية وحدة سياسية لاتتجزأ ولاعبرة بكل تجزئة طرأت عليها منذ نهاية الحرب العامة (العالمية الاولى) وفي عام ١٩٣٣ رفض الوحدويون السوريون الاتفاقية المقترحة بين سوريا وفرنسا لانها تبقي على تجزئة سوريا (٤١) وشددت مؤتمرات ١٩٣٦ على ضرورة وضع نص في صلب المعاهدة الفرنسية ـ السورية يضمن وحدة الاراضي السورية وكانت نتيجة ذلك الاصرار ان انتصرت ارادة الشعب السوري في الوحدة والاستقلال والسيادة الوطنية وجلاء الجيوش الفرنسية عن الاراضي السورية واللبنانية ، لكن تلك الوحدة بقيت منقوصة بعد اقتطاع لواء الاسكندرون منها ، وبقاء الوحدة السورية ـ اللبنانية ملتبسة وغير محددة بنصوص •

بعض الاستنتاجات :

عندما لجأ الاستعمار الفرنسي الى التجزئة ليمنع حركة التوحيد القومي العربي من التبلور في مشروع سياسي متكامل في المشرق العربي كخطوة أولى على طريق المشروع الوحدوي العربي الشامل كان يضع في رأس أهدافه أن التجزئة هي السلاح الاكثر تهديدا للمشروع الوحدوي • لذلك لم يكتف بالتجزئة الطائفية بل تعداها الى التجزئة المذهبية كما

تجاوز الانقسامات القبلية الى العشائرية والعائلية والمناطق وغيرها ، وقام بالتنسيق الكامل مع الاستعمار البريطاني لاطلاق المشروع الصهيوني وزرع كيان استيطاني عنصري يفصل مشرق العرب عن مغربهم ويرتبط وثيقا بمراكز الرساميل العالمية ويضع قواه العسكرية في خدمتها لقمع حركات التحرر في آسيا وأفريقيا .

بالمقابل لم تكن القيادات الوحدوية العربية قادرة على صياغة مشروع متكامل يفجر طاقات الجماهير الشعبية ويوظّرها ضد الانتدابين الفرنسي والانكليزي . وكانت بعض القيادات الوحدوية على علاقة تبعية وثيقة بالفرنسيين أو بالانكليز على أمل الاستناد الى أحدهما لضرب الاخر ، فتكررت بذلك تجربة محمد علي باشا التي انتهت بسقوط مصر في قبضة الاستعمار البريطاني وضياع الغالبية الساحقة من ايجابيات تلك المرحلة .

لكن مايميز مرحلة الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان على مرحلة محمد علي باشا أن تغييرا نوعيا قد تم على المستوى العالمي تجسد بانتصار النظام الاشتراكي في روسيا القيصرية واقامة الاتحاد السوفياتي ومع ذلك لم تسعَ القوى الوحدوية العربية للاستفادة من هذا التغيير النوعي الا في الحدود الدنيا حتى الآن ، معظم قياداتها الفاعلة كانت تتحاشى اشامة صلات مع الاتحاد السوفييتي وتفضل ابقاء الصراع في اطار الفرنسيين والانكليز كما أن بعض القيادات الوطنية والقومية لم تخفِ عداءها الشديد للافكار الاشتراكية في حين ارتبط بعضها في الثلاثينات بالحركات الفاشية والنازية الوافدة من ايطاليا والمانيا واسبانيا .

يضاف الى ذلك أن معظم القيادات الوحدوية العربية كانت تشدد على الوحدة الشكلية وتعمل على تغييب المضمون الاقتصادي والاجتماعي لها ، وبالمقابل تمسكت الجماهير الشعبية عبر تنظيماتها المهنية والنقابية والسياسية التي كانت في مرحلتها الجنينية بالمشروع الوحدوي لكنها عجزت عن بلورة مشروعها الوحدوي أيضا بما يضمن له التفافا وطنيا وقوميا يستطيع معه التصدي لمشروع التجزئة والانفصال ونتيجة لغياب المشروع الوحدوي الجذري والفاعل كانت الجماهير الشعبية تقوم بانتفاضاتها واضراباتها بشكل متقطع ودون تنسيق جدي في معظم الاحيان ولم تهدأ

الساحة الوطنية في سوريا ولبنان طيلة مرحلة الانتداب وعبرت عن نفسها بأشكال متفاوتة من الاحتجاج السلمي والمسلح معا (٤٢) ان قراءة عملية لوثائق تلك المرحلة توضح أن التجزئة كفعل استعماري لاقت صدى ايجابيا في نفوس قيادات طبقية في سوريا ولبنان تسعى الى السلطة والتحكم • وقد وجدت في الانتداب وعساكره دعما كبيرا في مشروعها السلطوي المحلي الذي تحول بعد الاستقلال السياسي الى دولة قطرية لها كل مظاهر الدول الكبرى من علم ، ودستور ، وبرلمان وجيش وجمارك وادارة ، ونقد وغيرها • دلالة ذلك أن الانتداب بشقيه الفرنسي والانكليزي ، لم يحرث في الفراغ بل في أرض بكر وأعطى زرعه ،أي التجزئة ثمارا يانعة مازالت مستمرة حتى الان ، وهي تتجذر أكثر فأكثر على قاعدة ما انتشته من مصالح طبقية ضيقة للقيادات المحلية على اختلاف انتماءاتها وطوائفها ومناطقها •

مع ذلك ، ورغم هذه الشبكة الواسعة من العلاقات الطبقية التي تزامن صعودها مع قيام دول التجزئة في الوطن العربي فان القراءة الكونية لتاريخ هذه الدول لاتقدم فهما عميقا لحركية التاريخ العربي بل تلغي العلم التاريخي بتلك الحركية •

فالتناقض الاساسي الذي نتج عن مشاريع التجزئة الاستعمارية قام منذ البداية بين الجماهير الشعبية العربية الوحدوية من جهة ،والاستعمار والقوى الداخلية المتعاونة معه من جهة أخرى ، ومع بروز التناقض المرحلي بين مصالح الاستعمار الانكلو ـ فرنسي والقيادات المحلية الساعية الى التفرد بالسلطة والنفوذ في دولها القطرية لعبت تلك القيادات دورا ايجابيا تحسد بوقوفها العلني أو الشكلي ضد الاستعمار الخارجي وقادت مرحلة الاستقلال السياسي بصلابة في سوّرية أكثر منها في لبنان وأدت الى رحيل العساكر الانكلو فرنسية عن سورية ولبنان وسائر أرجاء المشرق العربي ولم تكن معارك الاستقلال السياسي متشابهة في هذه الاقطار ، لامن حيث البرامج ولامن حيث القوى الاجتماعية التي حملتها • وسرعان ماتكشف الاستقلال السياسي في معظم أقطار المشرق العربي عن استمرارية معلنة للموروث الاستعماري نفسه دون تغيير

جذري . فالتناقض الذي برز مرحليا ابان معركة الاستقلال في بعض الاقطار العربية المشرقية كان من النوع الذي يمكن تجاوزه والعودة الى سياسة المساومة الطبقية والتبعية شبه الكاملة للاستعمار الغربي أو الاستعمار الحديد بالمقابل ، التناقض القائم بين الجماهير الوحدوية العربية مع الاستعمار الجديد ومراكز السيطرة المالية والاقتصادية والعسكرية كان من النوع الذي لايمكن حله بالمساومة وهو صراع مستمر يسعى فيه الاستعمار الخارجي الى تجويع الشعب العربي وسلبه حرياته الاساسية وحقه في الاستقلال والسيادة الوطنية والقومية ، وتسعى فيه الجماهير العربية الى تحررها الكامل وضرب كل موروثات التجزئة الاستعمارية وعلى رأسها اسرائيل ، وتجاوز الدول القطرية الى دولة الوحدة العربية الديمقراطية العلمانية .

بقي أن نشير في الختام الى أن صراع الوحدة والتجزئة في سوريا ولبنان ابان الانتداب الفرنسي يشكل بداية مرحلة نوعية في تاريخ العرب الحديث والمعاصر وتختلف جذريا عن المرحلة العثمانية السابقة في الكثير من سماتها ومضامينها وتوجيهاتها المستقبلية . فالوحدة الجغرافية التي سادت في الولايات العربية وظللتها السلطنة العثمانية طيلة عدة عقود قد اختفت لتحل مكانها دول قطرية ذات شرعية محلية واقليمية ودولية معترف بها وتسعى الى استنباط تاريخ قطري لها موغل في القدم .

أما الشعارات القومية العاطفية التي سادت في مرحلة مابين الحربين العالميتين ومازالت بصماتها واضحة في الفكر القومي العربي المعاصر فلم تعد قادرة على الفعل الجماهيري الوحدوي الذي حوصر بالحدود الاقليمية والتدابير القمعية التي تشكل الجامع المشترك الاكثر فاعلية بين الاقطار العربية على اختلاف انتماءاتها السياسية والعقائدية وبدا للقيادات القطرية أن تسييج الحدود بعناية فائقة ، وبعين ساهرة يمكن أن تحمي الانظمة القطرية أطول فترة ممكنة ، لكن من الواضح الان أن كيانات التجزئة تعاني أزمات حادة معها عاجزة عن تحقيق الشعارات التي نادت بها أي تحرير الاراضي العربية المحتلة وتحرير

الثروات العربية من النهب الامبريالي المستمر ، وتحرير الارادة العربية من الاستلاب ، وكما لعبت الجماهير الشعبية ، الواعية والمنظمة ،الدور الاساسي في معركة الاستقلال الوطني وجلاء الجيوش الفرنسية عن سوريا ولبنان ، فهي مدعوة الان وفي جميع الاقطار العربية للدفاع عن مصيرها وحقها في الوجود كجماهير حرة في وطن عربي حر . وهي تدرك جيدا أن دول التجزئة القطرية ليست الحل بعد أن تحولت الى عبء اضافي يرهق كاهل الجماهير الشعبية على مختلف الصعد .

أما دولة الوحدة القومية الديمقراطية العلمانية العربية فهي صمام الامان لدخول الشعب العربي في مواجهة تحديات العصر الراهن متجاوزا بذلك كل معيقات التجزئة العائلية ، والعشائرية ،والمناطقية والطائفية ، والمذهبية .

أما الايجابيات الكبيرة التي قادت اليها معركة الجلاء والسيادة الوطنية في مواجهة عساكر الانتداب الفرنسي في الثلاثينات والاربعينات والتي أعطت الدولة القطرية شرعيتها في نظر الجماهير الشعبية لسنوات طويلة . تلك الايجابيات فقدت الكثير من وهجها بعد أن وظفتها الدولة القطرية لمصلحة قواها الطبقية المسيطرة منذ الاستقلال حتى الآن . وفي حين ناضلت الجماهير العربية في سبيل الوحدة والحرية والتغيير الاجتماعي الجذري فان مأزق الدولة القطرية في المرحلة الراهنة يعكس مزيدا من القمع والتسلط والافقار ، والتجهيل ، والعجز عن مواجهة التحديات القومية الكبرى التي لايمكن حلها الا بالدولة القومية الوحدوية ذات المضمون الديمقراطي العلماني ، وعلى قاعدة التنمية الشاملة بأفق اشتراكي علمي ينتفي معه استغلال الانسان للانسان .

* الحواشـــــــي *

هناك وثائق ومصادر كثيرة تناولت التطور التاريخي لهذه المرحلة وقد استفدنا منها في دراساتنا السابقة واثبتناها في كتابنا .
" تاريخ لبنان الاجتماعي ١٩١٤ – ١٩٢٦ " – الطبعة الثانية – بيروت ١٩٨٤ .

وسنكتفي في هذه الدراسة بالاشارة فقط الى بعض تلك المصادر خاصة تلك التي اقتبسنا منها استشهادات للمناقشة .

١ – ساطع الحصري " الاقليمية ،جذورها وبذورها " مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ١٩٨٥ ص ١٢ –

٢ – يرى ادمون رباط أن التجزئة كانت موجودة في العهد العثماني وجاء الانتداب الفرنسي ليبني على ركائزها " ان موروثات العهد العثماني خاصة نظام الطوائف والنظام الاداري القديم كانت تثقل كاهل سوريا وتعيق حركتها باتجاه المستقبل فهناك حوالي ثلاثون طائفة متمايزة بعضها عن البعض الاخر ويعتبر مجموعها تكوينا " للامة السورية " . انما ، وبالمعنى السوسيولوجي للكلمة هذا المفهوم غير صحيح ... فالسمات الاساسية للامة ووحدة مؤسساتها لم تكن موجودة في سوريا اذ لكل طائفة حياتها الداخلية أو الروحية الخاصة بها وتتجلى في اختلاف شرائعها ونشاطها ... ولهذه التعددية الطوائفية عواقب وخيمة كانعدام الوحدة النفسية في البلاد والتي ينعدم معها وجود الامة السورية نفسها ،فالتركيبة الاجتماعية لسوريا المعاصرة (١٩٢٨) هي تركيبة طائفية واضحة .. لذلك كان الشعور القومي العربي الشعور الوحيد القادر على جمع السوريين وتوجيههم في هدف مشترك ، واعادة بعث تراثهم القديم وذلك بانتظار أن يؤدي تطور الاحداث والوقائع الى صهر السوريين في بوتقة واحدة "

٣ – وجيه علم الدين " العهود المتعلقة بالوطن العربي ١٩٠٨–١٩٢٢" بيروت ١٩٦٥ .

٤ - حول هذه النقطة تراجع المصادر الهامة التالية :
- بدر الدين السباعي "أضواء على الرسمال الاجنبي في سوريا ١٨٥٠ - ١٩٥٠ دمشق ١٩٦٧
- برهان الدجاني، شفيق الاخرس ،عامر الشريف " المصالح الامبريالية الاجنبية في الوطن العربي - بيروت
٥ - وجيه كوثراني " بلاد الشام :السكان ، الاقتصاد والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين ، قراءة في الوثائق ، معهد الانماء العربي بيروت ١٩٨٠ ص ٢٤٠ .
٦ - حول هذه النقطة تراجع الدراسة الهامة حول حرب الاستعمار على محمد علي والنهضة العربية .
٧ - في ٦ تشرين الثاني / نوفمبر ١٨٤٠ يكتب المبعوث الفرنسي الخاص الى جبل لبنان السيد دوبارتو الى رئيس وزراء فرنسا ووزير خارجيتها السيد غيزو يقول : لبريطانيا مشروع آخر(يقصد غير المشروع الفرنسي) طالما أشرت اليه منذ زمن بعيد وأفشى سره عملاء الانكليز في الوقت الحاضر . هذا المشروع يومي الى اقامة دولة اسرائيل ... العمل نشيط لجمع لامعلومات حول أوضاع اليهود في فلسطين والبحث بامكانية جمع يهود أوربافيها . وهناك سعي بريطاني لاختراق حبل لبنان ، والجبل هو سوريا ، اذ لاتستطيع آية سلطة أن تستقر على السواحل اذا كانت في حالة حرب مع الجبليين ... وهناك سعي بريطاني لفتح أبواب فلسطين أمام ثلاثة ملايين اسرائيلي منتشرين في أوريا ... تلك هي الاساليب التي تتوسلها بريطانيا لاقامة نفوذها على حساب نفوذنا في هذه المنطقة ..
٨ - تراجع مقالنا" جدلية العلاقة بين فكر التجزئة والفكر الصهيوني في المشرق العربي الحديث " المنشورة في محلة الوحدة السنة الثالثة العدد ٢٩ - ٣٠ الصادر في شباط - آذار ١٩٨٧ صفحات ٩٠ - ٩٧ .
٩ - كوثراني"بلادالشام " ص ٢٤١ - ٢٤٢
١٠- ذوقان قرقوط " المشرق العربي في مواجهة الاستعمار،قراءة في تاريخ سوريا المعاصر القاهرة ١٩٧٨.

١١- يعبر ريمون آوزوكس آفضل تعبير عن وجهة نظر الفرنسيين التي تشدد على سيئات العهد العثماني تمهيدا لاظهار محاسن الادارة الفرنسية . ويرى مقدم الكتاب السياسي الفرنسي المعروف بيار آليب " عام ١٩١٩ وهل المفوض السامي للجمهورية الفرنسية الى بلاد دحرتها الحرب ، وآنهكتها المحاعة ، وشردت سكانها العصابات والاوبئة . فأعاد اليها النظام والامن بسرعة ، وتقدم المساعدة لجميع المحتاجين وهدأ من روع جميع الخائفين ، وشرع في اعطاء البلاد السورية تمثيلا سياسيا عصريا . ورغم جميع العقبات اندفعت البلاد نحو نهضة اقتصادية هي الآن(١٩٣٠)في أوج تطورها "

أما ريمون آوزوكس فيرفض مقولة تحزئة فرنسا لسوريا قائلا: " مايسمى بالتعبير المبهم سوريا لاتشكل وحدة بل فسيفساء من التقاليد والمعتقدات والاتجاهات المتباعدة لذلك كانت هذه استحالة في ارضاء الحميع ... أما فرنسا فلم تعتمد سياسة " فرق تسد " كما يتهمها المسلمون كل يوم بل باعدت بين الطوائف لعزلها بعضها عن البعض الاخر وللتخفيف من غلواء تعصبها الطائفي المذهبي ، لذلك نجد اليوم الطوائف السورية تتبع كل منها طريقها السياسي الخاص بها ، وذلك تبعا لرغبتها ودرجة تحضرها .

١٢- ساطع الحصري " يوم ميسلون " طبعة حديدة " دار الاتحاد"بيروت لاتاريخ ص ١٠٥

١٣- المرجع السابق - ص ١٨

ويرى آدمون رباط أن معركة ميسلون افتتحت مرحلة جديدة في تطور المسألة الوطنية السورية فحتى ذلك التاريخ كانت الحركة الوطنية في سوريا وثيقة الصلة بالحركة العربية الشاملة .ومع فرض الانتداب الفرنسي على سوريا بكاملها حصل انقطاع حاد أدى الى عزل سوريا عن مجرى الحركة العربية الواحدة التي كانت تعيشها الاقطار العربية الاخرى رغم خضوعها للانتداب البريطاني ."

١٤- ذوقـان قرقوط"المشرق العربي في مواجهة الاستعمار " ص ٥ .
١٥- ظافر القاسمي"وثائق جديدة عن الثورة السوريةالكبرى ١٩٢٥-١٩٢٧ بيروت ١٩٦٥ ص ٩ .
١٦- يتحدث بولس نجيم (جوبلان) على الجذور التاريخيةللدولة اللبنانيـــة في كتابه الهام :

Jouplain"la questin du lilosn"2ene edilion-Jounieh 1961
17- E.RABBATH"L'Evolulion jolihque.." P.25
18- E.RABBATH"La formalion historique du chihocn politique er Constitulivnnel-Essai de synthese " Nouvelle edidion . Uniuersith' Lihanaise 1986.PP.367ot 379.
19- Antoine ARIOA"Le hnloan er la Framce" Beyrouth 1936

وقدأشرفنا على ترجمته الى العربية وصدر في بيروت عـــن دار الفارابي ١٩٨٧ .
٢٠- الاقتباسات الواردة حول برامج هذه الجمعيات مأخوذةعن كتـــاب عصام كمال خليفة"أبحاث في تاريخ لبنان المعاصر" بيروت ١٩٨٥ صفحات ٧٥ - ٨٧ .
٢١- ستيفان لونغريغ " تاريخ سوريا ولبنان تحت الانتداب " ترجمة بيار عقل - بيروت ١٩٧٨ - ص ١٤٩ .
٢٢- يوسف الحكيم " سوريا والانتداب الفرنسي " بيروت ١٩٨٣ - ص ٤٥
٢٣- زين نور الدين " الصراع الدولي في الشرق الاوسط وولادة دولتـــي سوريا ولبنان " بيروت ١٩٧٧ ص ١١٣ .
٢٤- ذكره زين الدين زين - المرجع السابق ص ١٨٧ .
٢٥- محمد جميل بيهم " لبنان بين مشرق ومغرب ١٩٢٠-١٩٦٩." بيـــروت ١٩٦٩ ص ١٠ - ١١ .
٢٦- فلاديمير لوتسكي " الحرب الوطنية التحريرية في سوريا ١٩٢٥- ١٩٢٧ مترجم عن الروسية باشرافنا ١٩٨٧ .
٢٧- يوسف الحكيم " سوريا والعهد الفيصلي " بيروت ١٩٦٦ - ص ٨٧-٨٨ .

٢٨- عبد الرحمن الشهبندر " ثورة سوريا الكبرى ، أسرارها ونتائجها " عمان ١٩٤٠ ص ٨٣ .
٢٩- ذوقان قرقوط " المشرق العربي في مواجهة الاستعمار ص ٨ .
٣٠- عصام خليفة "أبحاث في تاريخ لبنان المعاصر " مقالة مواقف النخب الاسلامية ١٩١٨ - ١٩٤٣ص ٣١ .
٣١- ذوقان قرقوط " المشرق العربي ص ٥ .
٣٢- ذوقان قرقوط " تطور الحركة الوطنية في سوريا ١٩٢٠-١٩٣٩ بيروت ص ٥٥ .
٣٣- يوسف الحكيم " سوريا والانتداب الفرنسي " ص ٨٧ .
٣٤- ذوقان قرقوط " تطور الحركة الوطنية " ص ٥٦ .



نبذة عن كشف أثري تاريخي في تل الميلان (الجزيرة السورية)

بقلم الدكتور عدنان البني
مدير التنقيب والدراسات الأثرية

تمهيــــد :

انقضى القرن التاسع عشر والربع الاول من القرن العشرين ،ولم يكتشف من آثار سورية ،التي كانت ولاية عثمانية واحدة ،الا القليل واثر الحملة الفرنسية والحوادث الموسفة (١٨٦٠) قام آرنست رينان ببعثته ((الفنيقية)) التي شملت ارواد وعمريت وجبيل وصيدا وصور ،فكانت عملية مسح أثري أكثر من كونها عملية تنقيب بالمعنى الصحيح. وبعد بعثة رينان سمحت السلطة العثمانية ببعض أعمال التنقيب في الولاية السورية (أباماليك لازريف في تدمر ١٨٨٤ ،البعثة الالمانية في زنحرلي/شمأل ١٨٨٨ – ١٨٩٢ ،البعثة الالمانية في تدمر ١٩٠٢ و ١٩١٧ وبعلبك ١٩٠٠ – ١٩٠٤ ، بك في مقابر صيدا ١٨٨٧ ،ثم البعثة الانكليزية في جرابلس/كركميش ١٩٠٨ – ١٩١١ والبعثة الالمانية في تل حلف (الحولة الاولى) ١٩١١ – ١٩١٤ وأخيرا بعثة مقريدي بك وكونتونو ١٩١٤ .

وبعد انهيار الحكم العثماني وتفكيك أوصال بلاد الشام ودخول القوات الفرنسية عنوة الى سورية ، وقيام سلطة الانتداب ظلت تلك السلطة خلال الربع الثاني من القرن العشرين هي التي ترخص للبعثات الاثرية فسمحت لبعثات فرنسية ومن حنسيات أخرى بالتنقيب في عدد من المواقع (تل الصالحية/دورا أوربس ١٩٢٠ – ١٩٣٦ تل النبي مند ١٩٢١–١٩٢٣ تل المشرفة ١٩٢٤ – ١٩٢٧ – ١٩٢٨ ، تل حلف الجولة الثانية) ١٩٢٦ – ١٩٢٩ أرسلان طاش ١٩٢٨ ،تل أحمر/تل برسيب ١٩٢٩–١٩٣١ ، حماة ١٩٣٠ – ١٩٣٨ شكربزر ١٩٣٥ – ١٩٣٦ ،تل براك ١٩٣٥–١٩٣٦ ،قصر الحير الغربي ١٩٣٦ وبطريق المصادفة المحضة اكتشف موقع رأس الشمرة/ أوغاريت ١٩٢٨ وبدأت أعمال التنقيب فيه ١٩٢٩ ، وموقع تل الحريري/ماري/في ١٩٣٣ وبوشر التنقيب فيه في العام نفسه . واستمر العمل في الموقعين حتى قيام

الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ واكتسبا شهرة فائقة طبقت الافاق .

وخلال فترة الانتداب كان المتحف الوطني بدمشق مؤسسة وطنية أسهم هو ومتحف حلب في بعض أعمال التنقيب التي أوردنا ذكرها. ثم باشر مديره الامير جعفر الحسني ، رائد الاثار السورية ، خلال الاربعينيات بتشجيع بعض أعمال التنقيب الوطنية في مقابر حوبر وطفس وخسفين والعال وفيق وفي موقعي تدمر وبصرى .

وبعد الاستقلال بدأ العصر الذهبي لعلم الاثار السوري فقد عاد النشاط لمواقع كثيرة متوقفة ، وبخاصة رأس الشمرة وتل الحريري وقامت بعثات وطنية في الرقة وتدمر وعمريت وتل الكزل وعين دارا وبصرى وشهبا . ورخصت لبعثات أجنبية ومشتركة كثيرة .. وأخذ تاريخ آسيا العربية والغربية عموما يشهد انقلابات متتالية وفتحت آفاق رحيبة في علم ماقبل التاريخ امتدت على مليون عام وانطلقت شهرة مواقع مفتاحية في ست مرخو والقرماشة واللطامنة والمريبط وبقرص وتل الرماد وغيرها وغيرها ، وظهرت الى الوجود ابلا ومكتشفاتها الباهرة في تل مرديخ وايمار في مسكنة ، وأوغاريت البحر في رأس ابن هاني. وتعددت المشاريع الاثرية الاستثنائية في تدمر وبصرى ومشاريع الانقاذ في الفرات والخابور .

ومن الامارات البارزة في علم الاثار العربي السوري كثرة أعمال المسوح الاثرية والسبور ، وعدد المواقع التي شملتها هذه الاعمال، وعدد البعثات وعدد العاملين فيها ، وكمية مايطبع وماينشر عنها . ان عدد المواقع المنقبة ذو أهمية ودلالة ولاشك . ولكن قد تكون هذه الاهمية كمية فحسب . والاهم أن تخدم هذه الاعمال الاثرية التاريخ والحضارة بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، في مجال اكتشاف الدول والممالك وتحقيق هويات المدن والكشف عن دواوين المحفوظات (الارشيفات). وفي هذا المجال بالذات تحقق في سورية خلال السنوات الاخيرة مالم يتحقق في أي جزء من أجزاء العالم القديم .

في مدى عشرين سنة تقريبا تحققت هوية مدينة كحت في تل بري (١٩٦١) وابلا في تل مرديخ (١٩٦٨) وايمار في مسكنة ١٩٧٣ وشفرى في تل

القري (١٩٧٣)وآزو في تل حديدى (١٩٧٦) ودور كتليمو في تل الشيخ حمد(١٩٧٨) وزلفا في تل حمام التركمان (١٩٨٤) وتئيدو في تل براك وتوتول في تل البيعة وآوري أو أوريما في ممباقة (١٩٨٦)وأوغاريت يم أوبيروتي في ابن هاني (١٩٨٤) وأخيرا شوباتانليل في تل ليلان (١٩٨٤)٠

وحادت أكثر هذه المواقع المحققة الهوية بدواوين محفوظات غاصة بمئات بل ألوف الرقم المحررة بالمسمارية الاكادية البابلية والاشورية أو بالابحدية الاوغاريتية وغيرها ... ولم تزل أكثر هذه المواقع بداية الطريق من عطائها المؤمل .

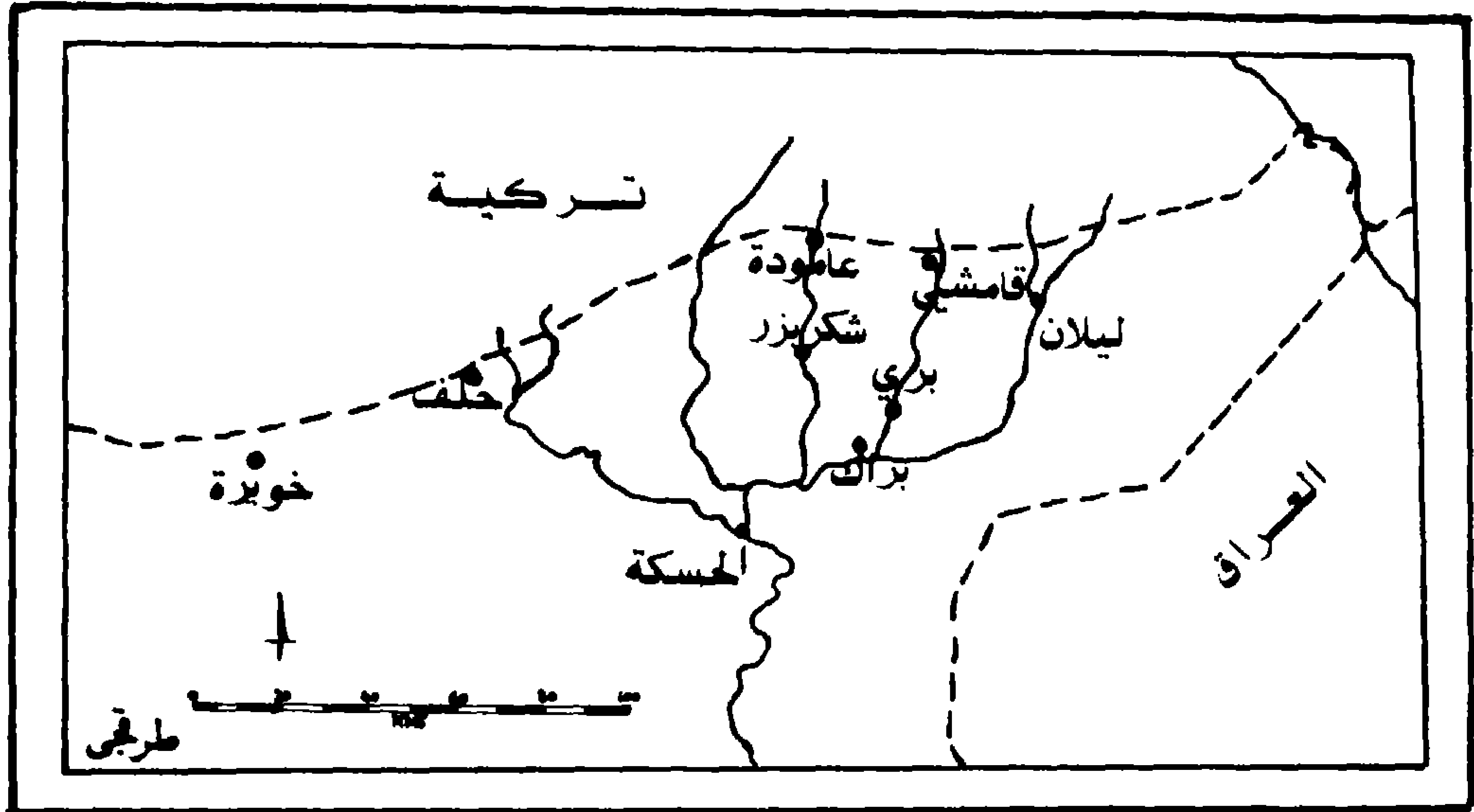
في هذه المرحلة يقوم العمل الاثرى باعادة بناء التاريخ وترميم أحداثه والقاء مزيد من الاضواء على تاريخنا وحضارتنا اللتين تعرضتا في الاونة الاخيرة الى احتهادات وتصورات بل اختلاقات هي في رأينا أكثر خطرا عليهما مما اخترحه المستشرقون . فلنترك الذين يبحثون في التاريخ بلا مستندات أو مؤيدات ولنعد جميعا الى الارض الطيبة نستنطقها الحقائق .

وسنتحدث اليوم عن أحدث كشف أثري تم في قلب الحزيرة السورية أظهر مدينة حصينة رحيبة بناها أو أعاد بناءها الملك الاشوري الاموري الاصل ، شمشي أدد وسماها شوبات أنليل (أي مقر الرب أنليل) في بحر القرن الثامن عشر ق ٠م٠

وكما ذكرنا في مناسبة سابقة واثر عودتنا من ندوة خاصة بالجزيرة السورية عقدت في برن عاصمة سويسرا (ك٢ ١٩٨٦) ان الحزيرة السورية هي أكثر منطقة أثرية واعدة في العالم الاثرى اليوم ،فيها تنقب حوالي عشرين بعثة أثرية في منطقة غمرسد الخابور ومنطقة غمرسدي الحسكة الغربي والشرقي ، وخارج هاتين المنطقتين،وفيهابعثات وطنية ومشتركة .

تل ليلان /شوبات انليل : الشكل (١)

يقع (تل ليلان) على بعد خمسة وعشرين كم الى الجنوب الشرقي من مدينة القامشلي عند التقاء وادي الحرة بوادي القطراني ، ارتفاعه عن السهل المجاور حوالي خمسة عشر مترا مؤلف من قسم واطيء واسع مساحته



الشكـــل (١)

حوالي تسعين هكتارا، وأكروبول (قسم مرتفع) لايتجاوز خمسة عشر هكتارا، وفيه مركز المدينة القديمة. أول من آشار الى هذا التل، فيما نعرف هو الموصلي هرمز درسام من رواد التنقيب الاثري في الرافدين وقد تحدث عنه في مؤلف له منشور بالانكليزية ((آشور وآرض نمرود لندن ١٨٩٧ ص ٢٣٢، ٢٣٣)) كما اهتم به البارون فون أو بنهايم في كتابه المنشور بالالمانية والمسمى ((من البحر المتوسط الى الخليج، برلين ١٨٩٩ ص ١٤١ و١٦٧–١٦٨)) وكذلك الالماني اميل فورير في كتابه المسمى ((تقسيم الولايات في الامبراطورية الاشورية، ليبزيغ ١٩٢١ ص ٢٠)) والاثنان الاخيران قدرا أنه موقع آشوري أو عاصمة آشورية. وقد نشر الاب بوادبار أول صورة جوية له في مؤلفه الفرنسي الشهير ((آثر روما في البادية السورية، باريس ١٩٣٤ ص ١٤٠)).

وفي ١٩٧٨ قصد هذا التل بالذات الاستاذ (هارفي وايس) من جامعة ييل الامريكية مرخصا من السلطات الاثرية والرسمية المختصة فأجرى فيه مسحا أثريا منهجيا دقيقا وتأكد من تسلسل العصور التاريخية التي مرت على التل بدءا من الالف الخامس (بدلالة فخار طور العبيد الشمالي).

واتضح له أن الموقع كان ازدهاره بخاصة في حوالي بداية عصرأكـاد وابلا (٢٥٠٠ و ٢٤٠٠ ق٠م) ٠ وقدر أنه كان آنئذ أكبر مركز مدنـي في سهل الخابور ٠

كانت مواسم التنقيب في تل ليلان تجري في كل سنتين مرة واحدة ١٩٧٨، ١٩٨٠، ١٩٨٢، ١٩٨٥، ١٩٨٧)٠ وقد اتضح من الحفريات التي تمت في المدينة العالية أن النصف الاول من الالف الثاني في التل المذكـور عرف ازدهارا حديدا للمدينة ، فقد ظهر في هذه الجهة معبد ضخم قائم على أنقاض معبد أقدم ، وهو مشيد باللبن ٠ واجهته الشمالية مزينة بأقسام غائرة كالمحاريب تتوسط أنصاف أعمدة حلزونية الشكل٠ أما واجهته الجنوبية فالاعمدة فيها على شكل حذوع النخيل ٠ وهذا الشكل في العمارة مشابه شكل معابد معروفة في مدينة آشور من عهد الملك شمسي أدد (القرن الثامن عشر ق٠م) وكذلك في تل ريمة وأوروحمريـن في الرافدين ٠ الشكل (٢)

كان هدف الاستاذ (وايس) من مسحه الاثري ومن أعمال التنقيب أن يثبت أن هذا التل هو موضع مدينة شوبات أنليل العاصمة الشمالية للملك شمسي أدد ، وأن يكشف عن مختلف أحيائها ٠ وقد تأكد له وللعالم الاثري أن شوبات أنليل هي في هذه السوية من تل ليلان ، وكان اسمها قبل ذلك وبعد ذلك ((شيخنا)) استولى عليها الملك الاموري الاصل شمستي أدد بن كيكابو بعد أن اعتلى عرش الاشوريين ٠ ونظرا لمناعتها جددها وجعلها كما جاء في نصوص ماري قلعة راسخة في قلب البلاد (محفوظات ماري الملكية الجزء ١٤ رقم١٠١) وجعلها عاصمته الشمالية ٠

كان شمسي أدد قد أسس امبراطورية حوالي نهاية القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، قبيل عهد حمورابي البابلي ٠ امتدت هذه الامبراطورية من جبال زاغروس حتى نهر الفرات وضمت القسم الشمالي من بلاد بابل وأواسط وادي الدجلة والفرات ووادي الخابور وأجزاء أخرى من سوريـة ٠ وقد تحالف شمشي أدد مع مملكة قطنة وعاصمتها في تل المشرفة واحتل أو على الاقل وصل جبال لبنان ٠ كما استولى على مملكة ماري القويـة



الشكل (٢): منظر لواجهة المعبد الشمالي والجدران الداخلية في تل ليلان / سوسات أنطيل

في عهد ملكها زمري، لم ففر لاحثا الى مملكة حلب القوية .

وقد أقام شمشي أدد ابنه يشمع أدد على عرش مدينة ماري وكان ضعيف الهمة كما يتضح من مراسلات مدينة ماري (محفوظات ماري الملكية الجزء الاول ، رقم ١٠٨).

دام حكم شمشي أدد خمسا وثلاثين سنة ويقدر هارفي وايس أنه مات في حدود عام ١٧٧٥ ق.م. وخلفه ابن يشمع دحن ورغم علو همته وشجاعته فقد أكثر الاملاك التي حاز عليها والده ولكن سيطرته ظلت وطيدة في بلاد آشور نفسها وفي سهل الخابور .

* * *

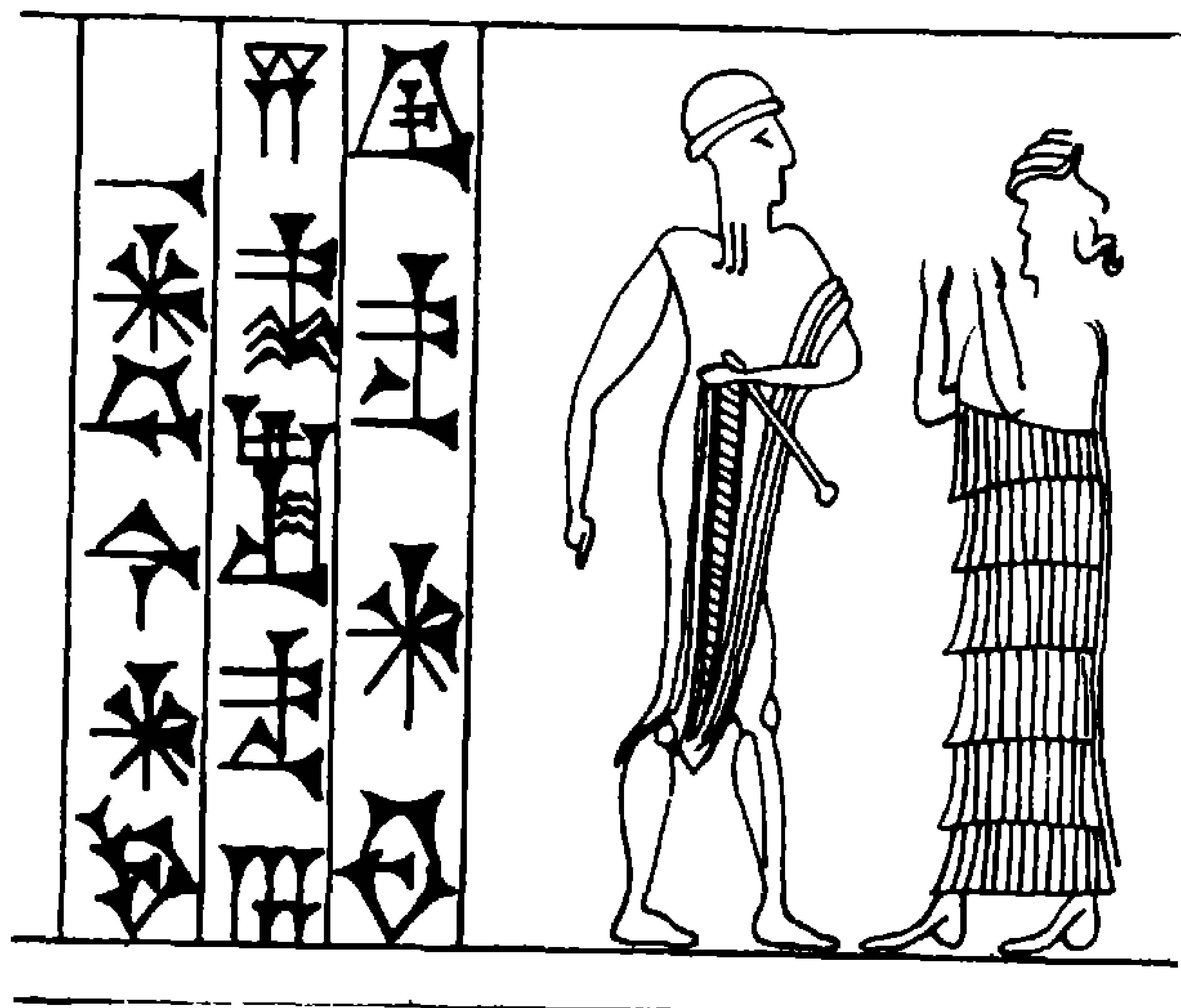
ان مدينة شوبات أنليل التي ظهر اسمها في رقم مدينة ماري منذ حوالي خمسين سنة يعني اسمها مقام الرب أنليل(شو - با- آت-ان - ليل) وشوبات من الجذر الاكادي وشب ومعناه حلس أو أقام ونقربه من وشب في العربية الجنوبية وتعني جلس . وكانت شوبات أنليل مجهولة الموقع شأنها شأن مدينة آغاديه عاصمة الاكاديين وواشوكاني عاصمة الميتانيين .وقدقدربعض العلماء أنها في مدينة آشور نفسها ورأى البعض الاخر أنها في تل شكربزر ، في الحزيرة السورية . وهناك من قدر قبل هارفي وايس أنها في تل ليلان وفي طليعتهم مرغريت فولكنر وتبعها وليم هالو وبارتل هرودا .

منذ البداية كان هارفي فايس يقول ان حجم تل ليلان وحصانته وكون السوية الهامة والاساسية فيه معاصرة للملك شمشي أدد ، وضخامة المعبد المكتشف في تلك السوية ، ومشابهة مخططه لمعبد الملك شمشي أدد في العاصمة آشور نفسها ، هي براهين أثرية قوية على صحة الفرضية القائلة بوحود مدينة شوبات أنليل في هذا التل .

وكانت نتائج التنقيب منذ ١٩٨٢ مؤيدة لهذا الاتحاه فقد عثر في ذلك الموسم على طبعات أختام تحمل أسماء موظفين تابعين للملك شمشي أدد وحكام مدن مجاورة لشوبات أنليل ومقترنة بها عادة كمدينة أفوم . ومع ذلك كان هناك تردد في قبول ذلك من قبل البعض حتى آتى البرهان ساطعا عام ١٩٨٥ . فقد وقعت البعثة الاثرية في معبد المدينة

على حوالي ستين رقيما تحمل اسم المعبد وختم الملك شمشي أدد وختم ابنه وأحيانا ابنيه وتأكدت في رأي قارىء الخطوط في البعثة رءم وايتنغ هوية الموقع بما لايدع مجالا للشك اذ أن اقتران هذه الاسماء لايحتمع الا في العاصمة الاشورية آشور وفي مدينتي ماري وايكالاتوم ولما كانت مواقع تلك المدن معروفة فليس أمامنا الا تل ليلان (ندوة برن/ك١/١٩٨٦/ قيد الطبع).

وجاءنا في ١٩٨٧ من الاستاذ وايس مدير البعثة أن بعثته كشفت في هذا الموسم عن جزء كبير من سور ضخم معاصر لشمشي أدد وخلفائه المباشرين وأنها أظهرت بقايا قصر معاصر أيضا وجدت في محفوظاته حوالي ١٣٠٠ رقيما مسماريا وبينها مراسلات ملكية لحكام المدينة في الفترة التي تلت موت شمشي أدد واتضح أن المدينة استرجعت اسم (شيخنا) الذي كان يطلق عليها قبل توسيعها واتخاذها عاصمة شمالية لشمش أدد في أيام امبراطوريته الواسعة.



ختم سوري أدد، خادم شمشي أدد. من تل ليلان/شوبات أنليل.

الشكل (٣)

نأمل في تطور أعمال التنقيب في تل ليلان، أن تقع البعثة على بقية المحفوظات التي تلقي ضوءا ساطعا على بلاد الهلال الخصيب كلها، في النصف الاول من الالف الثاني ق.م كما ألقت ابلا الاضواء على زمن النصف الثاني من الالف الثالث ق.م.

بعد كتابة المقال عن مدينة شوبات أنليل في موقع تل ليلان في الحزيرة السورية ، حاءنا في تقرير للاستاذ هارفي وايس أن الدراسة الاولية لحوالي ٣٠٠ رقيم فقط من الرقم المسمارية المكتشفة في تل ليلان عام ١٩٨٧ قد ألقت ضوءاً حديداً على الحياة السياسية والاجتماعية في الممالك القديمة التي كانت قائمة في المنطقة وخاصة مملكة حلب وعاصمتها الحصينة التي صعدت قوتها في هذا الحين بعد موت شمشي أدد ثم موت حمورابي البابلي ، اذ يتضح من الرقم ان الملوك كانوا يخاطبون أندادهم بعبارة ((يا آخي)) بينما كانوا يتوجهون لملك حلب بعبارة ((يا أبي)) ٠ وظهر من هذه النصوص أن الخيل كانت مستخدمة في ملاحقة الاشقياء الذين كانوا يعيثون فسادا في أراضي المملكة شوبات أنليل التي استعادت اسمها القديم ((شيخنا)) ٠ كما تذكر الرقم المسمارية أن أجور العمال هناك كانت تدفع بأكيال من الشعير ، كما تذكر حصص الخمرة والجعة في الحفلات الملكية ٠ ومن الامثلة على ذلك تخصيص مايعادل ٨٠ ليترا من الجعة لحفلة ملكية على شرف أحد رجالات بابل ٠

ومن الطرائف الواردة في احدى هذه الرقم أن أحد الملوك يطلب من ((أخيه)) حضور حفلة على شرف((أبيهما)) ملك حلب ويرجوه أن يجلب معه من بستانه مايتيسر من الثمار ٠

وثمة رقيم يتبين منه أن كل ملك كان يستخدم ((عيونا)) على نشاط الملك الاخر وأن بعض عيون ملك شوبات أنليل (شيخنا) نكث بوعده ولم يرسل الفدية الامر الذي أثار غضب الملك الاخر فأرسل يعاتبه عتابا شديدا ٠

ان عدد الرقم كبير ومع ذلك فان البعثة المنقبة تتوقع المزيد ويذكر هارفي وايس أن المراسلات مع مدينة ماري (تل الحريري) مازالت مغيبة في مكان من القصر لم تصل اليه أعمال التنقيب ٠

ان عددا كبيرا من هذه الوثائق النادرة التي اكتشفت في تل ليلان مؤرخ بالسنة والشهر واليوم ٠ وهو يغطي موضوع المراسلات والمبادلات في المنطقة في فترة تمتد من ١٧٣٩ الى ١٧٢٦ ق٠م٠

وهي أكبر ((محفوظات)) ملكية وجدت في الشمال من الرافدين منذ

آكثر من خمسين عاما . وعند استكمال دراسة هذه النصوص الثمينة المحررة باللهجة الاكادية البابلية القديمة سيتضح الى آي حد كان دور الجزيرة السورية يضاهي دور جنوب الرافدين في بدايات الحضارة وفي عصورها المتقدمة .

السكة في مدينة حمص إبان العهد الأموي

بقلم الأستاذ محمد الخولي
أمين المتحف العربي الإسلامي

أثناء اعدادي دراسة عن نقود بلاد الشام ابان العهد الاموي، وجدت أن النقود التي أصدرتها مدينة حمص هي من أوفر السكات التي صدرت بين مدن أجناد بلاد الشام [1] ماخلا مدينة دمشق، وأكثرها تنوعا حتى انها تتميز ببعض سكاتها التي لم تكن لحاضرة الدولة الاموية نفسها مثلها، كالفلوس التي تحمل في زخارفها صورا لبعض الحيوانات كالاسد والفيل وحصان البحر واليربوع ومقدمة الحصان. إنّ تعدد هذه النماذج ووفرتها يشجع على نسبة السكات المغفلة المزدانة بصور بعض الحيوانات الى هذه المدينة والى الفترة التي صدرت بها نقود هذه المدينة المشابهة على الاقل. اذ أن حمص تكاد تكون المدينة الوحيدة بين مدن بلاد الشام التي زينت نقودها بهذا النوع من الزخارف. اذا ماتجاوزنا نماذج محدودة بعضها سك بطبرية مزدانا بصورة الاسد وآخر مزدانا بطائر صغير ونموذجا بدمشق تزينه صورة سمكة.

هنا لابد من الاشارة الى أن حمص لم تضرب الدنانير الذهبية شأن جميع الاجناد الاخرى، اذ كان اصدار النقود الذهبية قصرا على مدينة دمشق [2]، ولكن حمص تميزت عن أجناد بلاد الشام الاخرى بعد دمشق بأنها أصدرت الدراهم الفضية ولكن على نطاق محدود حتى أننا لم نستطع أن نرصد لها سوى درهمين اثنين تحدث عنها البحاثة السويسري

---

(١)- عرفت أجناد بلاد الشام بمراكز ومناطق نذكرها كمايلي بحسب تسلسلها من شمال بلاد الشام الى جنوبها وهي: جند قسرين، جند حمص، جند دمشق، جند الاردن، جند فلسطين، وجند منطقة الشراة (الممتد بين دمشق ومدينة الرسول (ص) من بعض نواحيه قرية تعرف بالحميمة).

(٢)- هذا بالنسبة لبلاد الشام ولكن ثلاث سكات ذهبية أخرى اشتهرت بها كل من الاندلس وافريقية والحجاز (معدن أمير المؤمنين بالحجاز).

الدكتور ايليش (Dr.Lut ilisch)(٣)، أحدهما من النمط العربي الساساني مؤرخ من عام ٧٢ هـ والثاني يعود الى فترة ما بعد اصلاح الخليفة عبد الملك بن مروان الذي حدث في عام ٧٧هـ ويحمل التاريخ ٨٥هـ ، وقد أشار الباحث المذكور الى أن هذين النموذجين ينتميان الى محموعتين خاصتين لم تتح لهما فرصة النشر .

أما مايخص مادة بحثنا فهي الفلوس النحاسية ، هذه المادة التي تفوق بأهميتها الاثرية الذهب والفضة وذلك بما تقدمه من معلومات محلية ذات صبغة اقتصادية وثقافية وسياسية وفنية واجتماعية تعطي فكرة عن السوية الحضارية لمجتمع المدينة في ذلك العهد، وأحيانا تتضمن أسماء بعض المسؤولين الكبار ذوي الادوار الريادية في المدينة كالامراء والحكام والمشرفين على دار السكة . ذلك لان أمراء الولايات والاجناد كان لهم امتياز اصدار الفلوس النحاسية بالشكل والاسلوب الذي يرونه بالاتفاق مع المشرف على السكة الذي كان يرسل من دمشق والذي كان في غالب الاحيان قاضيا لضمان شرعية الاصدارات وصحة المأثورات التي ترد على السكة ، وكانت سلطته على متولي دار السكة والسباك والنقاش ، وقد كانت سلطته مقيدة بالنسبة لاصدارات الدراهم الفضية مما جعل معظم سكاتها تبدو متماثلة في قوالبها ومأثوراتها ماخلا أسماء مدن السكة فانها تختلف من مدينة لاخرى . أما بالنسبة للاصدارات النحاسية فكان يتمتع بشيء من الحرية حيث كان يضمنها أحيانا أسماء بعض الامراء أو اسمه نفسه صريحا تارة وبالرمز تارة أخرى ويزينها بزخارف مختلفة ذات طبيعة حيوانية أو هندسية أو نباتية مما يعكس بعض خصائص الاقليم ومميزاته وهذا ماجعل هذه المادة أكثر تنوعا وأشد جاذبية من اصدارات الذهب والفضة .

---

(٣)- في مقالة :

Die Umayyidischen Ond abbasidischen Kupfermünzen
Von Hims : Versuch einer chronologie
Münstersche Numismatische Zeitung x,3 August 1980 pp23-30

(سأشير الى هذا المرجع من الان فصاعدا د (ايليش) للتسهيل

أود أن أوضح هنا أنني عندما أذكر حمص أعني مدينة حمص بالذات حتى لايذهب الفكر الى منطقة جند حمص بكاملها: هذه المنطقة التي كانت واسعة جدا نسبيا حتى عهد يزيد الاول بن معاوية حيث كانت تشمل على كل من كور قنسرين ومنبج وانطاكية وسائر الكور الاخرى التابعة في الداخل والساحل بما في ذلك اللاذقية وجبلة وطرطوس(٤) وفي عهد يزيد.المذكور أحدث جند جديد في شمال البلاد سمي بجند قنسرين وقد جمعت فيه : قنسرين وحلب ومنبج وانطاكيةومن في دائرتها وترك ماتبقى ليطلق عليه اسمجند حمص .

ان البحث في سكة حمص يقتضي معرفة بأسماء الامراء الذين توالوا عليها أو بالاحرى على الجند ككل وفترات توليهم حتى نتمكن من التعرف على تواريخ السكات التي تحمل اسماء بعض هؤلاء الامراء،وأهمية ذلك تكمن في أن أمير الجندكانت له صلاحيات واسعة فهو الذي يختار من رجاله أمراء على الكور التابعة ويقوم مقام الخليفة في اقامة الصلاة وقيادة الجيش وجباية الخراج ويأمر بضرب السكة ويقضي بين الناس . ولدى تحرينا عن أمراء حمص وجدنا أنفسنا أمام صعوبة لم تكن بالحسبان اذ أن ماستطعنا التعرف عليه منهملم يذكر على السكة بل ذكرت أسماء تخص أشخاصا آخرين،سنحاول من خلال وضع النماذج التي تحمل هذه الاسماء في مكانها المناسب من تطور صناعة النقود قدر الامكان علنا نجد لها صلة بتاريخ المدينة وذلك بعد أن أخفقنا في التحري عن صلة أصحاب هذه الاسماء بالتاريخ الاداري أو السياسي أو الفكري لهذه المدينة . لاشك أنه المفيد أن نستذكر أسماءالامراء الذين توالوا على حكم المدينة ، فقد يساعد ذلك في الدلالة على صلة ماتربط بين هؤلاء الامراء وأسماء الاشخاص الذين ذكروا على النماذج التي بين أيدينا وبالتالي فان ذلك مع استخدام النماذج التي تحمل تاريخا صريحا سوف يساعد على وضع تسلسل تاريخي تقريبي لمختلف

---

(٤)ـ صك لهذه المدينةفلس واحد من النوع العربي البيزنطي من نماذج الفئة الثانية التي سنأتي الى الحديث عنها لاحقا .

النماذج التي صدرت في هذه المدينة ، وهذا ما نتطلع اليه ويتطلع اليه زملاؤنا في كل مكان مما سيكون له دور في القاء الضوء على آراء بعض الزملاء الذين وضعوا تقديرات زمنية لبعض النماذج معتمدين في ذلك على معطيات معينة سوف نتعرض للحديث عنها في حينها (٥).

* ولاة حمص في العهد الاموي *

	الخلفاء الامويين	السنة هجرة	اسم الوالي
١	معاوية بن آبي سفيان بن حرب بن آمية ٤١ – ٦٠ هـ	٤٦	مالك بن عبد الله
		٥٠	بر بن آرطأة
		٥٠	سفيان بن عوف الازدي
		٥١	فضالة بن عبيد
		٥١	بر بن أرطأة (ثانية)
		٥١	سفيان بن عوف الازدري (ثانية)
		٥٢	عبد الله بن سعيد الغزاري
		٥٢	مالك بن هبيرة
		٥٢	محمد بن عبد الله الثقفي
		٥٣	عبد الرحمن بن ام الحكم الثقفي
		٥٤	محمد بن مالك
		٥٤	معن يزيد السلمي
		٥٥	سعيد بن عوف
		٥٦	حنادة بن آمية
		٥٧	عبد الله بن قيس الغزاري

(٥)- يحسن الاشارة في نموذج تحدث عنه ووكر على النمط العربي البيزنطي يحمل اسم خالد باليونانية XAΛED وقد عزا هذا النموذج الى خالد بن الوليد فان صح هذا فسوف يكون أول نموذج نقد صدر في الاسلام اذ يمكن ارجاعه الى ما بين ١٥–١٦هـ.

تابع ولاة حمص في العهد الاموي:

	الخلفاء الامويين	السنة هجرة	اسم الوالي
	تابع معاوية بن أبي	٥٨	مالك بن عبد الله الختعمي
	سفيان	٥٩	عمرو بن مرة
٢	يزيد الاول بن	٦٠	خلال هذه الفترة عرف من
	معاوية	٦٤	ولاة حمص : الحصين بن
	٦٠-٦٤		نمير السكوني
٣	معاوية الثاني بن	٦٤	كان على حمص في هذه
	يزيد		الفترة خالد بن يزيد
٤	مروان الاول	٦٤	ابن معاوية
٥	عبدالملك بن مروان	٦٥	النعمان بن بشير الانصاري
	٦٥- ٨٦هـ		خلال هذه الفترة كان عبد
		٦٨	الملك نفسه يشرف عليها
		٦٨	أبان بن عقبة بن أبي
			المعيط
		٧٣	محمد بن مروان
			آتى بعده عبد الله بن
			الحجاج
		٧٥	الوليد بن عبدالملك
		٧٩	توفي واليها أوسط بن
			اسمعيل البجلي
		٨١	عبيد الله بن عبدالملك
		٨٢	محمدبن مروان(ثانية)
		٨٥	مسلمة بن عبدالملك
٦	الوليدبن عبدالملك	٨٦	
	٨٦-٩٦	٨٧	هشام بن عبد الملك

تابع ولاة حمص في العهد الاموي

	الخلفاء الامويين	السنة هجري	اسم الوالي
٧	سليمان بن عبدالملك ٩٦–٩٩	٩٦	يزيدبن الحصين بن نمير (تولاها لسليمان)
٨	عمربن عبدالعزيز ٩٩ – ١٠١	٩٩	
٩	يزيد الثاني بن عبد الملك ١٠١–١٠٥	١٠١	
		١٠٣	يزيدبن الحصين بن نمير (ثانية)
١٠	هشام بن عبدالملك ١٠٥ – ١٢٥	١٠٥	
		١٠٧	عبدالملك بن القعقاع
١١	يزيد الثالث بن الوليد ابن عبد الملك	١٢٦	العباس بن الوليد (فارس بنومروان) (تولاها لهشام)
١٢	ابراهيم بن عبدالملك	١٢٦	مروان بن عبد الله بن عبد الملك
١٣	مروان الثاني بن محمد ١٢٧–١٣٢	١٢٧	أبو محمد السفياني
		١٢٧	معاوية بن يزيد بن الحصين بن نمير
		١٢٧	عبد الله بن شجرة
		١٢٨	زامل بن عمر السكسكي الحميري (كان على دمشق وحمص معا)
		١٢٩	سعيد بن هشام قتله مروان ١٢٩

حظيت بعض سكان مدينة حمص باهتمام بالغ من قبل الباحثين العرب والأجانب فظهرت في عدد من المصنفات المشهورة والمقالات والمحاضرات لعدد من الباحثين والمتخصصين في هذا الميدان ، يأتي في مقدمة الباحثين العرب عبدالرحمن فهمي الذي عرض لنقود حمص في مصنفه الشهير "موسوعة النقود العربية وعلم النحيات"(٥) كذلك المرحوم الدكتور محمد أبو الفرج العش الذي عرج على هذا الموضوع في بحثه الهام الذي أصدره بعنوان" النقود العربية والاسلامية مصدر وثائقي للتاريخ والفن" . أما الباحثون الاجانب فهم كثر يأتي في مقدمتهم الانكليزي جون وولكر "John wolker" في مصنفه الشهير(٦) الذي يعتبر بمثابة مرجع أساسي لكل من أراد البحث في النقود العربية الاسلامية المبكرة وخاصة نقود العهد الاموي ، حيث ضمن دراسته بعض النماذج التي صدرت في مدينة حمص خلال العهد المذكور من نقود المرحلة التي سبقت اصلاح الخليفة عبدالملك بن مروان والتي اشتهرت بالنقود العربية البيزنطية اضافة الى ستة نماذج تنتمي الى مرحلة الاصلاح ومابعدها . ثم يأتي دور الباحث السويسري الدكتور ايليش الذي أعد دراسته عن نقود حمص في العهد الاموي والعهد العباسي(٧) الا أنه لم يورد حديد بل كرر النماذج التي أوردها وولكر عن نقود العهد الاموي وأضاف نموذجر مؤرخا من عام ١١٧هـ وسوف نشير الى النماذج التي درسها هذا الباحث أثناء عرضنا لدراستنا الشاملة لنقود حمص خلال العهد المذكور أما الباحث الامريكي بيتس فقد اكتفى بدراسته التي قدمها الى مؤتمر بلاد الشام الذي انعقد في عمان في ٤ تشرين أول عام ١٩٨٧(٨) بالاشارة الى ما نشره السويسري ايليش .

(٥)- عرض في الجزء الخاص بفجر السكة العربية بعض النماذج الحمصية العادية المحفوظة في المجموعة المصرية .

(٦)-(سأشير الى هذا المرجع بـ(وولكر) للتسهيل)
Catalogue of Muhammadan Coins
Arad-Byzantine and post reform umayyad london 1965

(٧)- كنا أشرنا الى دراسته سابقا بالحاشية رقم (٣)

(٨)- SYRIAN Copper Coinage in le Umayyad period

نشير هنا الى أن هؤلاء الباحثين وغيرهم من المهتمين بعلم النميات الاسلامية في العالم اذا كانوا ألمو بما ألمعنا اليه آنفا فلاشك أن هناك من النماذج الى لم يشر اليها بعد ومازالت كامنة في بعض المتاحف ولدى أصحاب المجموعات وهانحن في متحف دمشق ندلي بدلونا لنعرف بسكات حديدة لم يعرض لها أي من الباحثين الذين أتينا على ذكرهم ، ومرد ذلك الى أن حمص هي بلدنا وماتعكسه تربة هذا البلد كان يصل الينا معظمه لاسيما خلال الحقبة الماضية التي لم يكن اهتمام الجماعين فيها الا بالدنانير الذهبية والدراهم الفضية وهاهي نماذج حديدة من الفلوس النحاسية تذر قرنها الاول مرة من خلال هذا البحث ونحن على مثل اليقين بأن زملاء سوف يأتون بعدنا ليضيفوا نماذج لم يعرفها أحد منا لان كنوز هذه الارض مازال حزء منهاكامنا في حناياها ينتظر معاول المنقبين أو راحات الصدفة تمسح عنها غبار الماضي لتأخذ مكانها في دراسة أو شريحة مصورة نرى من خلالها ماغفل من أخبار التاريخ أو لتجثم في واحهة متحفية لتسعد برؤيتها الابصار وتنعم بالتعرف اليها البصائر .

وفيما يلي استعراض للمادة في دراسة عامة سوف نشير من خلالها الى جميع ماوصل الى علمنا من نماذج لسكات هذه المدينة والى توزع هذه النماذج في العالم .

وذكر فطانها المختلفة ، والامل أن ينهج هذا النهج كل من يتابع البحث في هذا الموضوع ليسهل تقييم كل نموذج من النماذج المعروفة حتى يومنا هذا .

ولدى استعراضنا للنقود التي سكت في مدينة حمص ابان العهد الاموي وجدنا أنفسنا أمام مرحلتين اثنتين :

المرحلة الاولى : وهي التي سكت بها النقود على النمط العربي البيزنطي وهي تبدأ من نقطة زمنية غير محددة ولكن أغلب الظن أنها تتوافق مع بدء مرحلة سك النقود في مراكز الأجناد الاخرى التي تقسمت اليها بلاد الشام . ذلك لان حمص لم تكن أقل شأنا عن غالبية هذه الاجناد اذا لم تكن من أهمها ذلك لانها كانت من الناحية العسكرية

الثغر الشمالي للدولة ومن الناحية الاقتصادية مركزا هاما تؤول اليه أهم طرق التجارة الدولية آنذاك التي تربط الشرق بالبحر الابيض المتوسط ، البرية منها القادمة من تدمر والمائية القادمة من الخليج العربي على قوافل العرب التنوخيين الذين كان تواجدهم يغطي شريط البادية مابين الخليج العربي والشمال حتى اللاذقية . اضافة الى كونها رأس عقدة هامة على طرق الحجيج المنطلقة الى الديار المقدسة . عبر بادية الشام فمنطقة الجوف فالحجاز ، ومن الناحية الاجتماعية ، تتميز المدينة بطابعها العربي منذ فترة ماقبل الاسلام ففي احدى ضواحيها المعروفة بالاندرين كان لهاشم جد الرسول قصر منيف .وكانت لجودة مناخها ولخصب ترتبتها وتنوع فاكهتها وخضارها يؤمها الحضر والبدو. ونظرا لهذه المميزات كانت البلد المفضل لدى الامبراطور البيزنطي هرقل ، وبعد الفتح العربي البيزنطي أغرت عددا من الصحابة بالاقامة فيها . اذ يكفي أن نعلم أنه نزل بها ٤٠٠ من أصحاب النبي من بني سليم فقط اضافة الى اقامة سيف الله وصاحب رسول الله خالد بن الوليد الذي اشتهرت المدينة به فأصبحت مدينة ابن الوليد .

وهكذا نجد أن مدينة حمص كانت من الاهمية بمكان وبالتالي لابد وأن السكة قد بدأت بها منذ بدء التفكير باصدار السكة لدى المسلمين الاوائل(٥) ولو نظرنا في نقود هذه المرحلة لوجدناها تتألف من ثلاث فئات :

الفئة الاولى : ذات المأثورات اليونانية والعربية والتي يرجع تاريخها الى عام ٣٠ هـ ،٦٥٠ م وتتمثل نقودها بالمواصفات التالية : في الوجه صورة هرقل محاطا بوسط من الزخارف تختلط فيه التعابير البيزنطية المسيحية بالتعابير الاسلامية التي نتميز منها كلمة KAΛON اليونانية التي تعني "جيد" أو "صالح" اضافة الى البسملة المختصرة بالعربية "بسم الله" وفي الخلف يبدو حرف M بالخط الكبير الذي يعني بالنسبة للنقود البيزنطية أنه يساوي ٤٠ نمية [٩] والى اليسار من الحرف ϵ M H والى اليمين ϵ I ϵ التي تعني بجملتها اسم مدينة حمص باليونانية وتحت حرف M يتوضع خط تليه كلمة طيب :

(٩)ـ النمية هي وحدة القيمة الصغرى بالنسبة للنقود البيزنطية شأن القرش بالنسبة للعملة السورية .

١ – النموذج الاول :

الوجه	الخلف	القطر	الامثلة	
		٢٥مم	١	دمشق

وصف النموذج الاول :

الوجه : صورة لهراقل واقفا ممسكا بيده اليمنى عصا المطرانية يعلوها الصليب وبيده اليسرى يمسك بكرة يعلوها الصليب فوق الرأس صليب والى يمين الرأس هلال الى الجهة اليمنى من النقد نثر من الاحرف غير منتظم لكلمة KAΛON اليونانية التي تعني طيب والى اليسار يبدو الجزء الاول من البسملة " بسم الله " .

الخلف : الحرف M مع الرمز المنقوص الواقع في أعلا الحرف والذي يشبه زمر هرقل ☧ . الى يمين الرمزنجمة سداسية والى يساره الهلال . الى اليمين دائرة تحتوي رمزا ؟يليها الاحرف C I C والى اليسار ϵ N ϵ والتي تعني مع ما أصابها من تحريف اسم مدينة حمص .

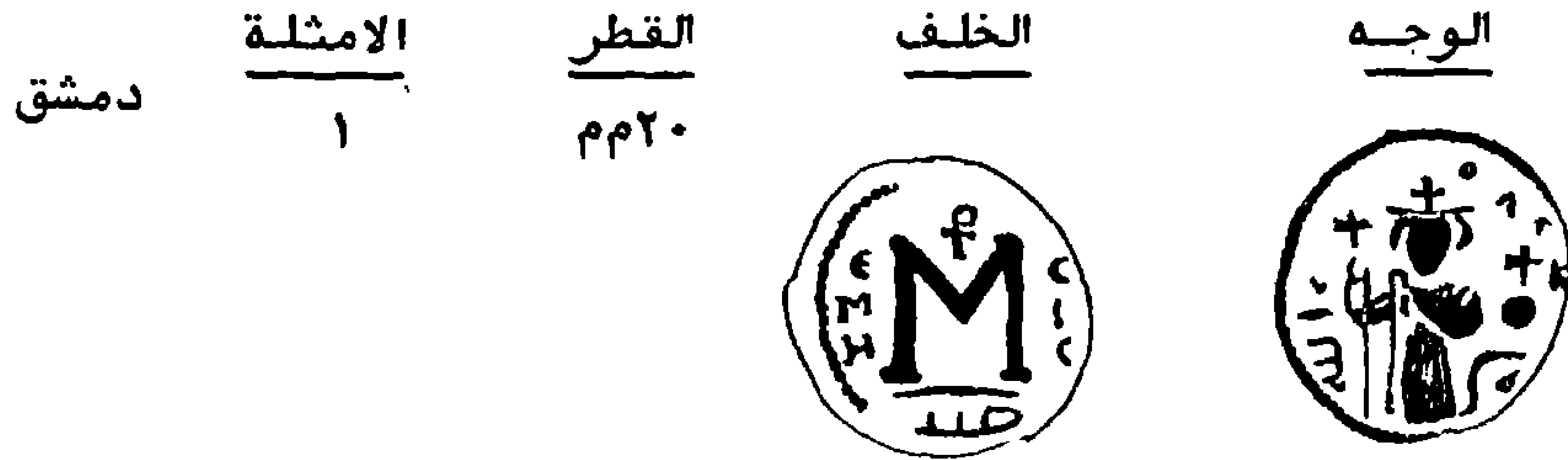
تحت حرف M خط معترض يليه كلمة طيب .

القطر	عدد الامثلة
٢٣مم	١٤ في مجموعة دمشق
	٢ لدى وولكر
	١ ايليش
	١ سبنك وولده مزاد ١٨ زيوريخ

توجد اختلافات طفيفة وبعض التحوير في بعض مظاهر النماذج الموجودة لدينا مثل حرف N في نموذجنا الذي هو تحريف عن الحرف M في اسم حمص في اليونانية . وكذلك اختلاف أمكنة النجمة والهلال وحلول الحلقات أحيانا بدلا من أحدهما .

٢ ـ النموذج الثاني :

الوجه	الخلف	القطر	الامثلة	
		٢٠مم	١	دمشق



هذا النموذج يشبه سابقه ولكن يمكن ملاحظة بعض الاختلافات الطفيفة في الوسط المحيط بالمعالم الرئيسية في كل من الوجه والخلف

٣ ـ النموذج الثالث :

الوجه	الخلف	القطر	الامثلة	
		٢١مم	١	دمشق



هذا النموذج أشبه بنماذج دمشق المماثلة من حيث قامة شخص الامبراطور وعمته وخلو الصليب من فوق رأسه والخلف كذلك يحمل شارات مختلفة والكلمة تحت المعترضة فيه هي أقرب لـ جائز منهال طيب كما أنه يوجد مايشبه الهلال تحت حرف M .

الفئة الثانية : تتميز نقود هذه الفئة في الوجه بصورة نصفية تمثل الامبراطور البيزنطي (كونستانس الثاني) متوجها الى الامام٠على رأ٨٠ تاج مرصع يعلوه صليب ٠ يرتدي بذة امبراطورية ودرع ٠ في يدا اليمنى يحمل كرة يعلوها صليب ، في الحقلين الايسر والايمن الى جانبي صورة الامبراطور كتابات يونانية مبعثرة وعربية أما خلف النقد فيشغل مركزه حرف m الموصول فوقه شارات والى يمينه ويساره أحرف يونانية وتحته كتابة عربية ٠

النموذج ١ :

الوجـــه	الخلف	القطر	الامثلة
		٢٠مم	

وصف النموذج الاول :

الوجـه: ١ ـ صورة الامبراطور كونستانس ببزته العسكرية وفوق رأســه صليب .

٢ ـ في الجانب الايمن " بحمص "

٣ ـ في الجانب الايسر "KAΛON" مبعثرة

٤ ـ كذلك في الحانب الايسر كرة فوقها صليب

الخلف: ١ ـ حرف m الموصول بعلوها نجمة ثمانية والى حانبها شارة أشبه بشكل الشدة

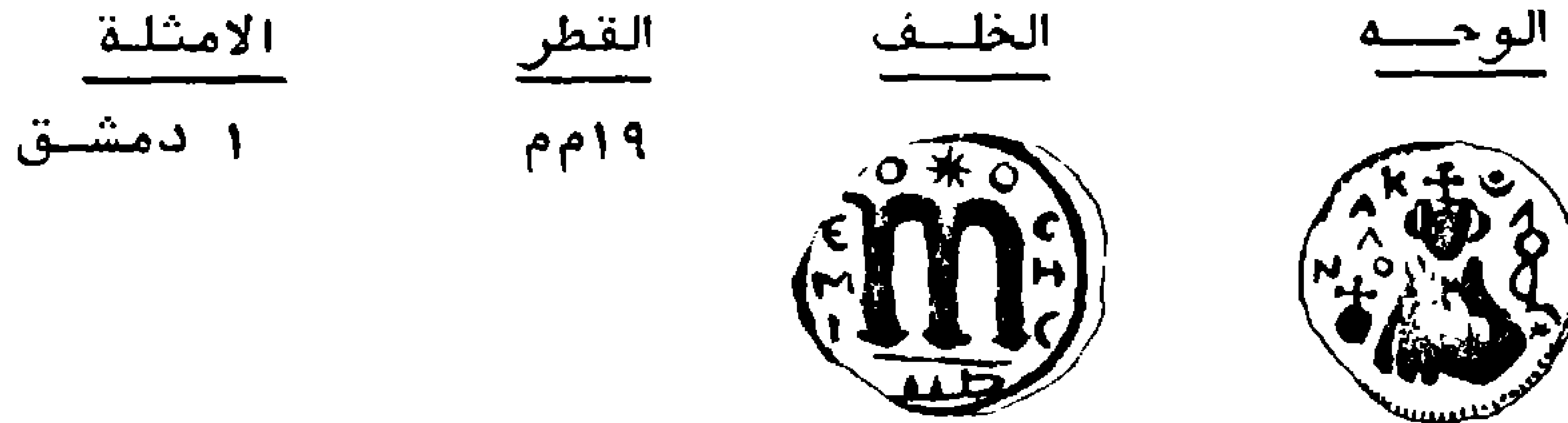
٢ ـ في الحانب الايسر M l ɘ والحانب الايمن C H C ومجموعها يعني اسم مدينة حمص باليونانية

٣ ـ تحت حرف m خط معترض وتحته كلمة طيب .

القطـر	الامثلـــة
٢٠مم	٥٣ في مجموعـــة دمشق
	مجموعة في وولكر
	محموعة في ايليش
	١ دكتور ماهر الحسامي
	2-East Wood
	1-Ebeian
	1-G.C.Haines
	مجموعة T.O.Mabbtt
	2-Davies sherborn
	2-H.P.Borrell
	1-A.N.Clemenger

النمـــــوذج ٢ :

الوجــــه	الخلــف	القطر	الامثلـة
		١٩مم	١ دمشــق



الوجه	الخلف
مثل سابقه تقريبا ماخلا: ١- هلال ونحمــة الى يسارالرأس ٢- نحمة ثمانية في نهاية كلمة حمص	مثل سابقــه ماخلا: ○✱○ بدل ٮ✱ٮ في النموذج السابق

الفئـة الثـالثــــة : هذه الفئة تمثل نهاية مرحلة حفلت باختـــــلافات كثيرة في مواضيع السكات وما اعتراها من تفاصيل تعبر عن عـــــدم الاستقرار الذى نخم عن الاضطرابات السياسية الداخلية المتمثلةبالصراع مع الخوارج وآل الزبير وآل البيت • والخارحية المتمثلة بالحروب مـــع الامبراطورية البيزنطية • وقد اقترنت هذه الفئة بنماذحها المختلفـــة بعهد الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان كما حملت اسمه ولقبه ويرحح باحثوا النميات بأنها بدأت في حوالي عام ٧٢ هحريةواستمرت حتـــى عام ٧٧ ه ولحسن الحظ يحتوي المتحف العربي الاسلامي في دمشق علـــى مجموعة هامة من نماذج هذه الفئة بعضها خاص بمدينة حمص •

واليكم فيما يلي ثلاث نماذج من هذه الفئة :

النمــوذج١ :

الوجـه	الخلـف	القطر	الامثلـة
		٢١مم	٦ في مجموعـة دمشــق



وصف النموذج ١ :

الوجه : ١- في المركز:
صورة عبدالملك بن مروان ينظرالى الامام وشعره مرسل على كتفيه .
- يمسك بيده اليمنى مقبض سيفه
- وبيده اليسرى الغمد وهو في وضع من يهم باستلال سيفه .

٢ - في النطاق : "لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين"

٣ - طوق يحف بالصورة والكتابة

الخلف:
١- في المركز: قائم يرتفع فوق آربع درجات في أعلاه دائرة بدلا من الصليب .
٢- الى يمين القائم بحمص
٣- في النطاق : "لا اله الا الله وحده محمد رسول الله"
٤- طوق محبب يحف بالمركز والنطاق .

النموذج ٢ :

الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
		٢٢مم	١ نشره وولكر ١ محموعتنا في متحف دمشق ١ سبنك مزاد زيوريخ ١٨ ١٩٨٦ ١ فريدي ابراهيم
الوصف : الوجه مشابه للسابق	الخلف كذلك مشابه للسابق ماخلا نحمة ثمانية تقع الى يسار القائم		

النمـــوذج ٣ :

الوجـــه	الخلـــف	القطر	الامثلـــــــة
		١٧مم	١ هذا النموذج يعـود الى جمعية النميـات الامريكية وقد نشره ووكر تحت رقـــم ANS 8 من مصنفـــه ١ شتيكل صفحة ٦١من كتـاب العمـــلات الشرقيـة ٠

الوصف :

الوجه مشابـه للسابق

الخلف كذلك مشابـه للسابق ماخلا ذكـر كلمة "ضرب" الـى يسار القائم ٠

المرحلة الثانيـة : تخص هذه المرحلة النقود المعربـة بشكل تام التـي ضربت في مدينة حمص لدينا قرابة واحد وعشرين نموذجا من هذه النقـود يحتوي بعضها أسماء أعلام أشهرهم مروان بن بشير الذي ظهر اسمـه على عدة نماذج أشهرها ذلك النموذج الذي يحمل صورة اليربوع (١٠) ناهيك عن نماذج آخرى مزدانة بزخارف نباتية وحيوانية ، ونماذج مقلـدة لنماذج شهيرة اشتهرت بها مدن أخرى كدمشق وآخيرا نماذج هامة مؤرخة ٠

من خلال استعراضنا لنقود هذه المرحلة وجدنا أنه يمكـن تصنيفها الى عدة مجموعات بلغت الخمسة لكل منها خصائصها من حيث التصميم والزخرف والروح وفيما يلي سرد لهذه المجموعات مع دراسـة تبين وجهة نظرنا بالنسبة لكل مجموعة منها ودراسة لكل نمـوذج

(١٠)ـ اليربوع حيوان بري يشبه الحرز غير أن قامته أطول وقائمتاه الاماميتان بمعدل $\frac{1}{6}$ من قائمتيه الخلفيتين٠ يأكل العشب والحشرات ، يعتبره عـرب الجزيرة العربية من عناصر الصيد المغرية كالارنـب ويتلذذون بأكله ٠ اشتهرت قبيلة عربية ببني يربوع كما سمي أشخاص بهذا الاسم كابن يربوع الفزاري الحمصي الذي تولى ديوان مصر في عهد واليها عبد الله بـن عبد الملك بن مروان ٠

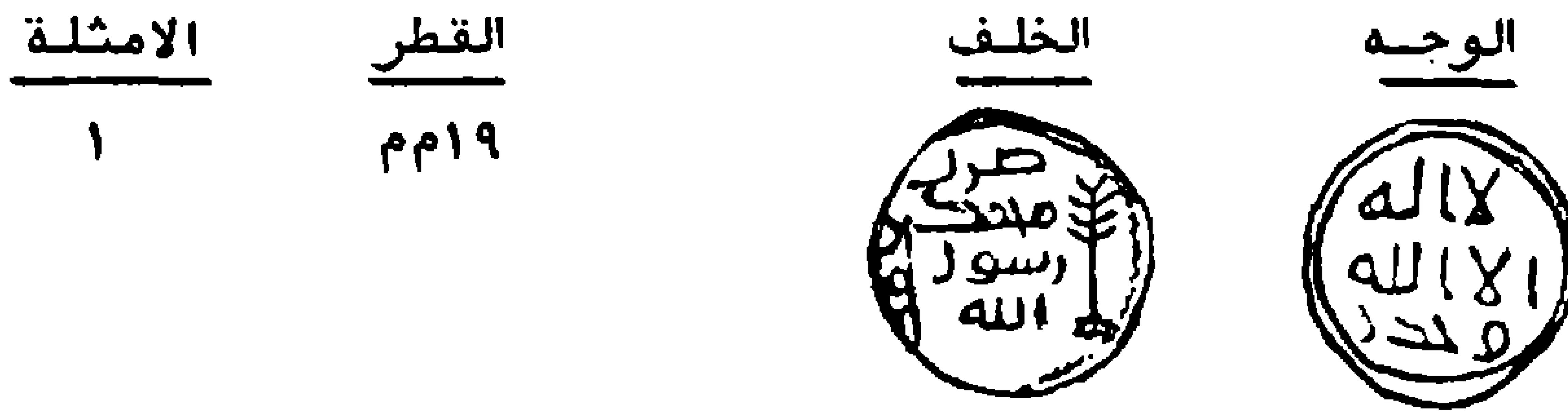


في كل محموعة عندما يقتضي الامر ذلك ،راحين أن نكون قد الهمنا فيما قدمناه الصواب وثوابنا بأننا قدمنا لهذه المدينة التاريخية العظيمة هذه الدراسة الشاملة التي لم يجتمع في أي دراسة أخرى ما تجمع بها من نماذج النقود التي أصدرتها هذه المدينة خلال عهد أمية •

المجموعة الاولى :

النموذج ١ :

الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
		١٩مم	١



مأثورة الوجه :
"لا اله ــ الا الله ــ وحده
يحيط بها طوق

يشغل الخلف:
١ــ مأثورة قوامها :"محمد ــ رسول ــ الله "
٢ــ في القطاع الاعلى كلمة "ضرب"
٣ــ في القطاع الايسر " بحمص "
٤ــ في القطاع الايمن " سعفة نخل ذات ثماني أوراق تتوضع فوق درجتين "

صادفني نموذج آخر أعتبره فريداً من حيث زخرفه يعود الى الانسة أمل حسيني ،غصن النخيل فيه ذو ستة فروع ويرتكز على قاعدة ذات ثلاث درجات •

أعطيت هذين النموذجين الاولية في عرض هذه المادة لاعتقادي بأن غصن النخيل في كليهما قد حل مباشرة محل القائم الذي يرتفع على درجات ويحمل في أعلاه كرة أو دائرة في نقود عبد الملك بن مروان المصورة (انظر الفئة الثالثة ــ من المرحلة الاولى) والتي تمثلت كذلك على النقود الاولى بعد التعريب التي ظهرت على بعض السكات الفلسطينية لاسيما تلك التي تعود الى الرملة وطبرية وعلى بعض سكات المدن الاخرى وكذلك لورود اسم حمص شاقوليا كما كانت ترد على نقود عبدالملك المصورة •

النمــــوذج ٢ :

الوجــه	الخلـف	القطر	الامثلـــة
		١٩مم	١ متحف دمشـــق
			٢ وولكر٧٩٩-٨٠٠

مثل سابقه ماخـــلا :

آ - توزيع المأثورات في كل من الوجه والخلف

ب - هذا النموذج ذو نقط في مستهل مأثورة الوجه

ح - غياب غصن النخيل

د - ذكر المدينة في أسفل مأثورة الخلف بدلاً من الجانب فـــي النموذج السابق ٠

قد يكون سك هذا النموذج أتى مباشرة بعد النموذج الاول نظـــرا لموافقة في معالمه الرئيسية ومخالفته في التفاصيل فقط ٠

النمــــوذج ٢ - آ :

الوجـــه	الخلـــف	القطر	الامثلة
		١٨مم	١ دمشق
			١ د٠ماهرحسامي

مثل سابقـــه

هذا النموذج مشابه للنموذج السابق ولكنه يمثل مرحلة جديدة حيث اختصر المشرف على السكة كلمة "ضرب" من خلف النقد ربما بقصد الموازنـة الفنية التقريبية مابين نصوص الوجه ونصوص الخلف وربما شعر المشرف أن وضع كلمة "ضرب" أصبحت من نافلة مقتضيات العمل اذ أن ذكر " بحمـص " أصبحت كافية ٠

النمــــوذج ٢ ـ ب :

الوجـــه	الخلـف	القطر	الامثلـــة
		١٧مم	١ دمشـــق

مثل سابقه

ان هذا النموذج يمثل ظاهرة يوقف عندها ، بالرغم من أنه قريب جدا من النماذج السابقة من حيث مأثورتي الوجه والخلف فانه امـــا ينازع النموذج الاول الاولية في الاصدار ذلك أنه ضمّن اسم المدينـــة في الوجه بعكس النماذج السابقة شأنه في ذلك شأن الدراهم الامويـــة المبكرة التي بدأت تظهر منذ عام ٧٩ حيث كانت تشير الى مدينة السكـــة في مأثورة نطاق الوجه • أو أنه يكون في محله من هذا التصنيـــف وفي هذه الحال تكون النماذج الذي أتينا على سردها أسبق بتاريـــخ اصدارها من هذا النموذج •

النمـــوذج ٢ ـ ج :

الوجـــه	الخلـــف	القطر	الامثلـة	مكان حفظها
		١٦مم	١	دمشـــق

نموذج من سقط السكة ؟

الحقيقة ان وضع هذا النموذج يدعوالى الحيرة اذ أن المأثورة الواحدة التي هي مأثورة الشهادة مع مدينة السكة وردت في الوجه والخلف معا • فهل هذا خطأ ارتكبه السكاك ؟ لو كان الامر كذلك لتكرر القالب نفسه وظهر فوق أحد الوجهين أثر لسكة ثالثة أوتأثر أحد الوجهين بفعل الطرق•ولكن الامرعلىما أعتقد أنه لايعدو استعراض مثلين من النقش في قطعة واحـــدة لاختيار أحدهما للسكة المقررة •

النمـوذج ٢ ـ د :

الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
		١٥مم	١ دمشق

مثل سابقه ماخلا :

آ ـ ان اسم المدينة ورد في أعلا مأثورتي الوجه والخلف

ب ـ أحد الوجهين محاط بطوق

النمـوذج ٢ ـ هـ :

الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
		١٧مم	عدة دمشق

هذا النموذج مغفل من اسم المدينة ، ولكنه يحمل نفس مأثورات النموذج (٢) ٠ فهل كان يصدر في حمص ؟٠ في الحقيقة آن هذا النموذج يرد عادة مع نقود دمشق ومع نقود حمص لذا فهو اما آن يكون مكان اصداره في حمص لكلا المدينتين أو في دمشق للغاية نفسها أو آنه سك لدائرة تعامل تفوق حدود مدينة واحدة بعكس المألوف في النقود التي تحمل أسماء المدن ٠

- النمـــوذج ٣ :

الوجـــه	الخلـــف	القطـر	الامثلـــة
		١٥مم	١ دمشـــق

يحتوي الوجه مأثورة التوحيدفي ثلاثة أسطر وفق ماهومألوف في بعضأمثلة النموذج (٢)

في المركز: أسدا يتجه يسارا (١١)
في القطاع العلوي: " ضر " من كلمة ". ضرب"
في القطاع الايسر: " بحمص "

ملاحظة: صنف هذا النموذج في المحموعة الاولى رغم أنه مصور للاســـباب التـالية : آ ـ مأثورة الوجه تشبة مأثورة النماذج السابقة
ب ـ ان اسم المدينة كتب شاقوليا شأن النموذج الاول ذبي غصن النخيل
حـ ـ لانه نموذج وحيد وهو لايشبه أسد طبرية الرابـــض الذي صور على خلف الفلس المؤرخ ب ٩٦هجرية (١٢)

---

(١١) ـ الاسد يرمز الى البعث والقـــوة ((من محاضرة الدكتور علـــــي أبو عساف التي ألقاها في المركز الثقافي الالماني(جوتة)))
(١٢) ـ أنظر بحثي (نقش السكة على النقود الفلسطينية في صـــــدر الاسلام والعهد الاموي) في المجلد .(١) من ((دراسات في تاريخ وآثار فلسطين)) .

النمـــوذج ٤ :

الوجـــه	الخلـــف	القطـر	الامثلـــة
		٢٠مم	١ دمشـــق

الوجـه :

المركز: لا الـه (الا)
(ا)لله وحد (ه)
سـاسر (يك له)
النطاق: (بسم اللهضرب)
هذا الفلس بحمص

الخلـف:

المركز: الله
(ا)حد الله
الصمد
النطاق: محمد رسول الله (أرسله بالهدى ودين الحق)

أرى أن هذا النموذج يتزاحم مع النماذج التي سبقت بالنسبة لاولية الاصدار ،ذلك لما فيه من بدائية متمثلة في أسلوب الكتابة وفي توزيع النصوص وللخلل الواضح في كتابة المأثورات لاسيما مأثور الوجه (أنظر الضعف في أسلوب الكتابة ولاحظ قصور النصوص والخلل في التوزيع المتوازن للمأثورات لاسيما في مأثورة مركز الوجه). كذلك هناك ناحية هامة وهي محاولة المشرف على دار المسكوكات استخدم مأثورات الدينار الذي كان يصدر في دمشق . أعتقد أن هذا النموذج هو الوحيد بين اصدارات حمص الذي يتضمن مأثورة الصمدية التي ترد عادة خلف الدنانير الذهبية وخلف الدراهم الفضية . ترى هل يمكن أن يكون المشرف قد اقتبسه من الدينار؟ وبالتالي لماذا هذا الضعف والاخطاء ؟ أم أن هذه المأثورات استعملت على النقود النحاسية بادئ ذي بدءحتى استقامت بمستوى كتابتهاوبتوزيع نصوصها و باكتمال مأثوراتها ومن ثم استعملت على الدنانير الذهبية ؟

النمـــــوذج ٥ :

الوجـــه	الخلـــف	القطـر	الامثلـــة
		٢٢مم	٣ متحف دمشق ١ وولكررقم B.45

يمكن قراءة مأثورة الوجه كما يلي :
(١٣)/بسم ا/للد لا الـه
الا الله /وحده /

مأثورة الخلف :
محمد/رسول/ الله ★/ حمص /

لهذا النموذج صلة بالنموذج رقم١ وتوابعه ، لاسيما مايتعلق بشكل الخلف ، لذا يمكن أن يعتبر هذا النموذج مرحلة متطورة لذلك النموذج حاول المشرف من خلالها ايجاد التوازن بين كل من مظهري الوجه والخلف وذلك باضافة "بسم الله" الى مأثورة الوجه . وتأكيدا لهذا المعنى وضع نجمة في الوجه ليقابل بها نجمة وضعت في الخلف أساسا من أجل ملء الفراغ في السطر الثالث .

الشارة ((ىحم)) الموجودة في أعلا الوجه تمثل محاولة لوضع كلمة ما قد تكون " حمص "

النمـــوذج ٦ :

الوجـــه	الخلـــف	القطر	الامثلـــة
		١٩مم	١ دمشـــق

(١٣)ـ وردت شارة مماثلة على النقود المؤرخة التي صدرت في حمص خلال مأثورة التاريخ الهامشية .

وصف النموذج ٦ :

الوجه :

المركز: بسم الله
لا الـه الا ا
لله وحد (ه)
النطاق: ....الملك بن مر (وان)
طوق

الخلف :

المركز : محمد
رسول
الله
طوق
النطاق: ... الفلس بحمص

ملاحظات :
١ ـ ورد اسم عبدالملك في مكان البسملة وهذا يعني أن هذا الاصدار كان قبل أن يستقر الرسم بشكل نهائي .
٢ ـ وردت الالف من لفظ الجلالة الوارد في السطر الثالث من الوحه في نهاية السطر الثاني وهذا غير مألوف .
٣ ـ وردت الواو في نهاية السطر الثالث من الوجه بشكل مقلوب وهذا مالم يرد في نموذج آخر .

المجموعة الثانية : " المزينة بعناصر حيوانية "

النموذج ١ :

الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
		١٧مم	١٥ في مجموعة دمشق ٤ ووكر وردت بالارقام من ٧٩٥ ـ ٧٩٨

الوجه :

المركز: رسم فيل متجه نحو اليمين
النطاق: "لا الـه الا الله وحده "

الخلف :

محمد
رسول الله
بحمص

لم يرد الفيل سوى على نقود حمص ويعتبر هذا النموذج من أشهر نماذج النقود المضروبة في هذه المدينة ذلك لتوافر أعداد كبيرة منها حتى لاتكاد تخلو محموعة من أمثلة لهذا النموذج، تعتبر صورة الفيل الممثلة في وجه هذا النموذج من أكمل الصور التي وردت على مختلف النماذج الاخرى التي سوف نعرض بعض نماذجها فيمايلي. أما نقش الكتابة في الخلف فهو مضطرب في جميع النماذج التي عثرنا عليها حتى أننا لم نستطع العثور على نموذج واحد منها كتبت مأثورته من غير ما اضطراب أو نقص .

ربما كان السبب في ذلك بأن نقّاشا أعجميا ضعيفا باللغة العربية كان يتولى عملية الاصدار في دار حمص وان الاختلاف في رسم صورة الفيل يمثل المحاولات التي بذلت حتى تحسنت الصورة لتصبح على ماهي عليه في النموذج المعروض أعلاه . أما كيف اعتمدت صورة الفيل في هذه المدينة بشكل خاص فهو أمر مازال لغزا ، وفي رأيي أنه ربما كان بمثابة ذكرى للانتصار الكبير والحاسم الذي أحرزه المسلمون في موقعة القادسية التي حشد العدو الفارسي فيها كل قواه في مقدمتهم الفيلة التي تم التغلب عليها ببرقعة الحمال باللون الاحمر فأخافت الفيلة فرجعت واضطربت الخيل من ورائها. أو لان الفيل كان من المواد التجارية الهامة القادمة من الشرق والذي كان بمثابة رمز للنشاط التجاري الذي كان يزاوله تجار المدينة . على أية حال فاني أوافق البحاثة وولكر في وضع هذا النموذج في مقدمة نماذج مدينة حمص في بحثه الذي عرضه في مصنفه الذي أتينا على ذكره اذا كان يريد من ذلك أسبقية هذا النموذج بين تلك النماذج التي اشتهرت باصدارها المدينة. وانني شخصيا أميل الى أنه مبكراً جدا ويسبق في ظهوره أي من نماذج المجموعة الاولى وربما سبق محاولات التعريب التي اشتهرت في أواخر السبعينات التي ظهرت خلالها صورة الانسان بشكل مقبول جدا والمتمثلة بصورة عبد الملك بن مروان وكانت النصوص فيها مدروسة ومتوازنة حتى ما انتسب منها الى مدينة حمص يفضل كثيرا ما أتى على نموذج الفيل هذا من حيث الصورة والمأثورة .

النموذج :

	الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
١ - آ			١٧مم	من مجموعة دمشق ١ د٠ماهر الحسامي
١ - ب			١٦مم	١ مجموعة دمشق
١ - حـ			١٦مم	١ من مجموعتنا في المتحف الوطني بدمشق
١ - د			٢٠مم	١ من مجموعتنا في المتحف الوطني بدمشق

النمـــــوذج :

	الوجـه	الخلـف	القطر	الامثلـــــة
١ ـ هـ			١٩مم	من محموعتنـافي المتحف الوطنـــي بدمشـــق

النمـوذج :

	الوجـه	الخلـف	القطر	الامثلـــــة
٢			١٩مم	٢ المتحف الوطني بدمشـــق

هذا النموذج هو طبق الاصل من النموذج رقم١ بتصميمه وتوزيـــع مأثوراته وأطواقه لكنه مختلف بشكل الحيوان فالجذع والقوائم فـــي حيوان هذا النموذج تشبه الفيل في النماذج السابقة ولكن رأس الحيـوان أشبه برأس حصان البحر (السيد اشطة) • فهل أراد النقاش أن يتفزلـــك بتمثيل رأس الحيوان في هذين النموذجين ؟ أم أن طرق التجارة تعاملت كذلك بهذا الحيوان ؟ •

اذا كان لنا أن نستنتج شيئا مما سبق من المجموعة الثانيـــة فهو أن هذه المرحلة قد سبقت المرحلة التي كان على دار السكة فيهـا مشرف وسكاك ونقاش اذ أن هذا الاختلاف في الرسم والخطأ المتكرر فـــي نصوص المأثورات لايمكن أن يحدث لوكان المسؤول عن دار السكة غيـــر عامل واحد وأعجمي •

النموذج :

	الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
٣ –			١٦مم	١

الوجه :

في المركز: مقدمة حصان

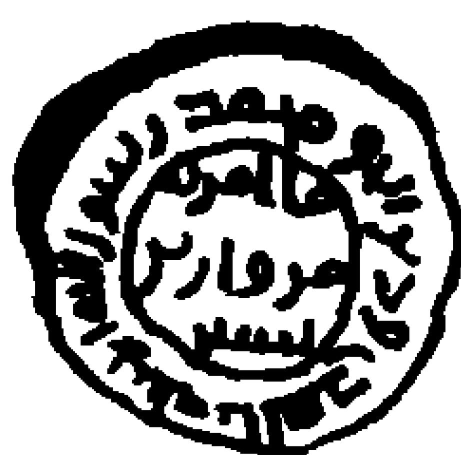
في النطاق: مأثورة التوحيد

الخلف :

في المركز: كلمات مضطربة بتأثير ضربة ثانية ولكن "حمص" تبدو واضحة

لعل مسؤول السكة وصل الى علمه أن ثمة حديث نبوي يندد بمن يحاول برسمه أن يضاهي خلق الله لذلك صور مقدمة الحصان فقط بعد أن صور الحصان تاما على نماذج مغفلة أخرى ولهذا الموضوع شبيه في سكات دمشق غير أن الرسم هناك يمثل مقدمة الحصان متجهة نحو اليمين.

النموذج :

	الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
٤ – آ			٢٢ ١٤–١٧مم	محموعة دمشق مجموعة المتحف البريطاني عرضها وولكر بالارقام ٨٠٤–٨٠٦ص ٢٤٥

الوجه :

المركز: رسم اليربوع متجه يسارا

طوق: بسم الله ضرب هذا الفلس بحمص

طوق

الخلف:

المركز: ما أمر به مروان بن

طوق : بشير

نطاق: محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق

طوق

النمـــــوذج :

	الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
٤ ـ ب			١٨مم	٢ محموعة دمشق

الوجه :

المركز: رسم اليربوع متجه يمينا

طوق

نطاق: بسم الله (ضرب الفلس بحمص

الخلف:

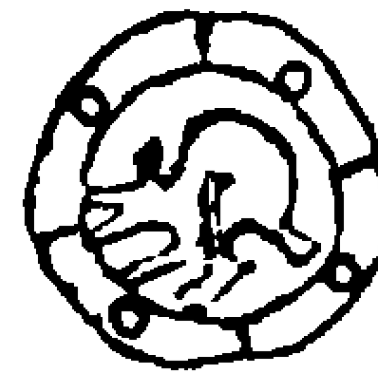
المركز: بامر

طوق مروان بن بشير

نطاق: (محمدرسول)لله أرسله (بالهدى)

طوق:

النمـــــوذج :

	الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
٤ ـ جـ			١٤مم	١ محموعة دمشق

الوجه :

المركز: رسم اليربوع متجه يسارا

نطاق: ذو أربع حلقات وأربع فواصل

الخلف :

مثل النموذج ٤ ـ آ

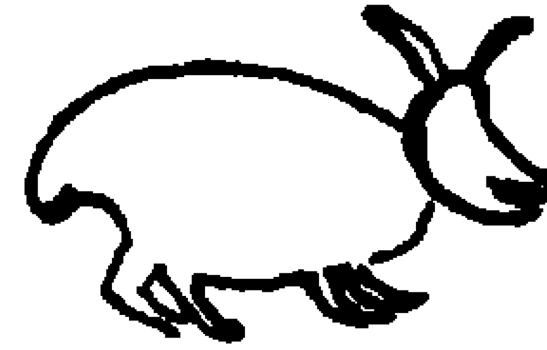
النمــــوذج :

	الوجــه	الخلــف	القطر	الامثلـــــة
٤ ـ د		مثل خلف ٤ـآ	١٦مم	١

في النطاق : مثل نطاق ٤ ـ آ

هناك حيوانات يمكن أن نحد لها صلة بهذا الرسم أحدهما هــو السلحفاة والثاني هو الحلزون ولكن مع ذلك فلا ينطبق هذا الرسم بشكل عام على أي منها ٠

النمــــوذج :

	الوجــه	الخلــف	القطـــر	الامثلـــــة
٤ ـ هـ		مثل خلف ٤ـآ	١٦مم	١

المركز :

النطاق : مثل ٤ـآ

يتسم هذا النموذج بالبدائية والسرعة بالرسم وبقوة التعبيــــر وهو على مايبدو يمثل أرنبا ٠

النمـــــوذج :

	الوجــه	الخلــف	القطر	الامثلـــــة
٥	بأمر مروان بن بشــــير	محمد رسول الله	١٥	٢ مجموعة دمشق ٢ ووكرص ٢٤٥ ٨٠٢ـ٨٠٣
	طوق:	طوق :		١ ووكرP.1cA
	نطاق: ضرب هذا الفلس بحمص	نطاق: أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله		

النمــــوذج :

	الوجـه	الخلــف	القطـر	الامثلـــة
٦			١٧مم	١ دمشـــق

الوجه :

المركز: مأثورة التوحيد

لا الـه / الا الله /وحده /

طــوق :

نطاق : (بسم الله ضرب هـــذا

الفلس بحمص

الخلــف :

المركز: بـأمر

مروان بن

بشــــير

طوق :

نطاق : ذو أربع حلقات توحد منها اثنتان

طــوق :





قطر ١٦ - دمشق - [illegible] ٦

ان هذه النماذج الستة التي وردت وتحمل اسم مروان بن بشيـــر تجعلنا نتساءل كما تساءل غيرنا ، من هو مروان بن بشير ومـــاذا كان دوره بالنسبة لمدينة حمص ابان العهد الاموي وفي أية فتـــرة زمنية كان تواجده اذ أن اسمه لم يرد في قائمة أمرائها • ومتـــى كانت الفترة التاريخية التي ظهرت خلالها هذه النماذج وماذا تعنـــي هذه الحيوانات ، اليربوع والارنب والسلحفاة التي وردت عليهـــا دون غيرها ؟ ولماذا أتت هذه الرسوم بهذا المستوى من البدائية والتحويـــر كل هذه التساؤلات تفرض نفسها • وقد أتت الاجابة على بعضها من قبل بعض الباحثين الاجانب مثل الانكليزي وولكر الذي يرى أن فترة مروان بن بشير هي في أواخر المئة الاولى من التاريخ الهجري • ويـــــرى

السويسري ايليش أن فترة مروان بن بشير في أواخر العهد الامـــوي وأوائل العهد العباسي ، ويجمع الاثنان على أن مروان بن بشير هـذا لم يرد له ذكر لدى المؤرخين وبالتالي مازال لغزا .

حاولت أن أتحقق من هذا الامر بحكم يسر اطلاعنا على المراجـع العربية التاريخية ،فوجدتني مؤيد لرأييهمافي أن مروان بن بشـير غير معروف ، ولكن حولت بحثي للتعرف على بشير الذي يمكن أن يكـون والدا لمروان هذا ،أو على أخ ذي منزلة وشأن هام اذ أنها القاعدة المعتمدة الى حدما : أن الكبير يأتي من كبير لاسيما في تلك الايـام فوجدت أن اسم بشير قد ورد في عدة مواضع وفي كل موضع وردمقترنـا بدور أو مهمة لايصلح معها أن يكون أبا لمروان الا بشيراً واحـــداً وهو بشير الخزرجي الانصاري ،ان صاحب هذا الاسم اضافة الى أنه مـن ذوي الشأن في مجتمع المدينة فهو زوج أخت عبدالله بن رواحة وهـو والد النعمان بن بشير الذي كان واليا على حمص في عهديزيد بـن معاوية . والنعمان هذا تولى حكم المدينة وهو من أوفده الخليفة يزيـد الى قومه في المدينة أثناء ولايته على حمص ،ليدعوهم الى طاعة يزيد ومبايعته بعد أن تمردوا عليه وفشل النعمان بن بشير في مهمتـــه تلك وكان ماكان من أمر يزيد الذي أشار الى جيشه باقتحام المدينـة وأباحتها ثلاثة أيام وأتبع ذلك بحصار مكة ومن ثم ضربهـــا بالمنجنيقات فكانت هاتان الفتنتان اضافة الى فتنة مقتل الحسيـن كافية بأن جعلت القلوب ـ حتى أقرب القلوب ـ تحنق على يزيد وتلـوي عنه وعن خلفه من بعده (١٤). وكان الخيار الثاني هو عبدالله بن الزبير خصم البيت الاموي العنيد الذي دانت له مصر والحجاز والعراق ومن لـم يكن تحت سلطة من بلاد الشام كان مهيئا له . بعد أن عاجلت المنيـة يزيدا وسد الامر الى ابنه معاوية الثاني الذي كان حدثا وضعيفـا

(١٤)ـ يتجلى ذلك في موقف أهل الاردن عندماوافقوا على مبايعة حسـان بن مالك الكلبي أمير فلسطين على الدعوة الى آل أمية واشترطـوا أن يجنبهم الغلامين عبدالله وخالدا ابني يزيد بن معاوية قائلين انا نكره أن يأتينا الناس بشيخ (أي عبدالله بن الزبيـــر) ونأتيهم بغلام .

فاعتذر الى المسلمين عن مهمة الخلافة واعتزل في بيته حتى مات وشاءت الظروف أن يكون بعده مروان بن الحكم الذي كان همه الكبير هو أن يسترد سلطة بني أمية ، فبدأ يعمل على تركيز سلطته في دمشق ولكن أميرها الضحاك بن قيس الذي كان يدعو سرا الى عبد الله بن الزبير تصدى له وحدثت معركة مرج راهط في عام ٦٥ هجرية وانتصر مروان على الضحاك ولما علم أمير حمص النعمان بن بشير بهزيمة الضحاك فر منها ، وكذلك فعل زفر بن الحارث الكلابي أمير قنسرين اللذان أعلنا دعوتهما الى عبد الله بن الزبير وسهل ذلك على بن الحكم استرجاع كافة بلاد الشام تقريبا الى سلطة بني أمية .

يهمنا من سرد هذه الاخبار أمرين : الامر الاول : أن النعمان ابن بشير كان ذو مكانة كبيرة لدى الخليفة الاموي ويؤكد ذلك سفارته الى أهل المدينة وغيابه عن ولايته وأخيرا فراره من المدينة اذ من المألوف في مثل هذه الظروف أن يوكل أمر المدينة في غيابه الى أحد من الثقاة ومن خلال استطلاعنا الموضوع من النواحي التاريخية والسياسية والفنية نجد أن أقوى مرشح للحلول مكان النعمان هو مروان كما أنه من المحتمل أن يكون قد ولي مروان المذكور على دار السكة مقام مروان هذا في مرحلة انقلاب النعمان بن بشير على بني أمية بأن أصدر هذه الفلوس على غير نسق الفلوس ذات النمط العربي البيزنطي المألوف الذي تبناه بنو اميه . فزينها باليربوع والارنب والسلحفاة وهذه الحيوانات الثلاث ترمز الى بقاع من الجزيرة العربية اشتهرت بالخصب . وربما قصد مروان بن بشير من ذلك أن يشير الى معالم اتسمت بها بقاع القيسية في فترة كانت القيسية كذلك منضمة الى عبد الله بن الزبير ، أي أنها (أقصد الصور) كانت ذات مضمون سياسي والامر الثاني : هو أن عبد الله بن الزبير كان في وضع سياسي لايمكن له فيه الا أن يستصدر النقود وقد ذكرت المراجع (١٥) أن أصدر الدرهم المعرب وكذلك فعل أخوه مصعب الذي يحمل في أحد وجهيه الجزء الاخير

(١٥)- انظر الشيخ محمد الخضري ص ٢٦٩ ج٢ . تاريخ الامم الاسلامية مصر ١٩٦٩ .

من مأثورة الشهادة :"محمد رسول الله "وفي الوجه الثاني" أمر الله بالوفاء و العدلين" • وقد عثرنا على فلوس مغفلة شبيهة الا أنها تحمل الجزء الاول من مأثورة التوحيد " لا اله الا الله/وحده " بدل مأثورة الشهادة وهاهو نموذج من هذه الفلوس :



القطر
١٦مم

القصد من ذلك هو أن هذه الفلوس ليست بمستغربة ـ كما قد يشعر البعض ـ في تلك الفترة بالذات التي سبقت تعريب عبد الملك بحوالي عقد من الزمن • اذ أن عبد الله بن الزبير كان على دولة تساوي عشرة أضعاف ماكان تحت أيدي بني أمية وكانت تشتمل كما ذكرنا على ثلاثة أقطار كبيرة هي : مصر والحجاز والعراق وكان اتجاهه في ادارة هذه الدولة ذا طابع قومي وديني متشدد وقد ظهر ذلك في شعاره الذي تضمنته نقوده :"أمر الله بالوفاء والعدل"الذي كان يعبر عن سياسته في دولته وكان يريد أن يلحي على خصومه الامويين الاخلال بهذا المعنى في وقت انتهكوا فيه حرم المسلمين وتجاوزا من هم أحق منهم بالخلافة • ولايستبعد أنه كان يأخذ عليهم الاستمرار باستعمال النقود ذات الطابع البيزنطي التي تحمل صورا للاباطرة البيزنطيين •

يمكننا أن نفهم مما تقدم أن الامارة لاتعني بالضرورة الولاية على المدينة أو حكمها فقط وانما يمكن أن تعني الرئاسة بشكل عام كما تعني المسؤولية في المناصب المتقدمة على صعيد الادارة والجيش وهذا مايفسر استعمال لقب أمير قبل المشرف على السكة ، ويمكن أن تكون امارة مروان بن بشير من هذا النوع ـ كما أشرنا سابقا ـ اذ إنه كان مكلفا بالاشراف على دار السكة على الارجح أثناء ولاية أخيه النعمان على مدينة حمص •

المجموعة الثالثة :

النموذج ١ :

الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
		١٧مم	فريد

ان هذا النموذج يعتبر مفاجأة اذ أن الدراسات السابقة التي قام بها كل من لافو Lavoix ونوتزل Nutzel وولكر Walker وجميع المهتمين بدراسة النميات العربية الاسلامية قرأت العبارة التي في مركز الوجه " الفسطاط" التي هي القاهرة (١٦) والتي تكررت على عدد من النماذج موزعة الان في باريس وكوبنهاجن ولندن ودمشق .

وهنا في هذا النموذج تظهر نفس العبارة بشكل جلي على فلس من اصدار حمص اذ أنه يحمل في مأثورة حاشية الخلف اسم السكة حمص بشكل واضح وفي مركز الخلف رسم اليربوع كما ورد على سكة حمص التي تحمل اسم مروان بن بشير والتي قمنا باستعراضها .

في الواقع أن هذا النموذج يمدنا بحقيقة لانعرفها ألا وهي تكليف الخليفة عبد الملك بن مروان أحد أولاده الملقب بعبد الله بأمرة جند حمص فور خضوع بلاد الشام له (والمفروض أن عبدالملك كلف أحد أولاده واسمه عبيد الله بولاية حمص في عام ٨١هـ كما ورد في الشبت الوارد في مقدمة هذا البحث) وأثر فرار حاكم حمص السابق النعمان بن بشير الانصاري وحاكم قنسرين زفر بن الحارس الكلابي نظرا لما اشتهر به من ولائهما لعبد الله بن الزبير ، وقد أمده على مايبدو ببعض الرجال الذين كان يعتمدهم عبدالملك نفسه عندما كان واليا على مصر مثل المشرف على السكة أبو شريك الذي قرىء اسمه خطأ بالفسطاط .

(١٦)- أنظر وولكر P. 275 No 910

آنني أجد في هذا الفلس دعما لما ذهبت اليه من آن هنالك فلوس معربة تعريبا تاما سبقت تعريب عبد الملك للنقود الذهبية والفضية • وان هذا الفلس والفلوس التي تحمل اسم مروان بن بشير هي شواهد قوية على ذلك •

المجموعة الرابعة :

النموذج ١ :

المثل	القطر	الخلف	الوجه
٢ دمشق ١ ووكر رقم ٨٠١ ١ ايليش	١٦مم		

الوجه :

المركز: نقطة تحيط بها دائرة

النطاق: لا اله الا الله وحدة

الخلف :

نقطة في وسط هلال

ضرب هذا الفلس بحمص

ملاحظة: النقطة فوق آخر كلمة (وحده) لم تردسوى على نموذج واحد كما آنه لم يشاهد مثلها على آمثلة دمشق •

ان هذا النموذج مآخوذ من نموذج مماثل شهير صدر في دمشق ومنها انتشر بحيث قلد في عدة مدن منها سرمين والحسر والرملة ونموذجنا هذا في حمص • ولكن لابد من الاشارة الى آن الانتشار الاعظم هو لنموذج شبيه تماما صدر أيضا في دمشق ، والاختلاف في هذا النموذج المشار اليه هو آنه يحمل في دائرة مركز الوجه (*) ،وفي دائرة مركز الخلف نجمة سداسية (✱) حيث تتوفر منه عدة آمثلة •

النمـــــوذج ٢ :

الوجـه	الخلـف	القطر	الامثلـــة
		٢٢مم	١ دمشق



الوجـــه :

المركز: لا الــه
الا الله لا
شريك لـه

الخلـــف :

المركز: نجمة خماسية حولها نقط
طـوق :
نطاق : محمد رسول الله أرسله بالـه(هدى)
طـوق :
نطاق : (بسم الله)ضرب هذا الفلس بحمص
طـوق :

يلاحظ في هذا النموذج فزلكة وترف في التصميم والاخراج وهندسة الحرف وذلك كما يلي :

١ ـ انه فريد في تصميمه ليس فقط بالنسبة لاصدارات حمص بل بالنسبة لاصدارات العهد الاموي بكامله اذ لم يرد في اصدارات آية مدينة حتى دمشق نموذج على هذا النحو ،فهل يمكن أن يكون اصداره في فترة لم تكن فيه حمص سياسيا تضرب على منوال دمشق وبالتالي يكون مثل هذا النموذج تعبيرا عن تميزها .

٢ ـ الفزلكة في هندسة الاحرف وفلسفتها على هذا النحو لم ترد في نماذج أخرى ،أنظر كيف استبدل السكاك لفظ الجلالة بالهلال والقمر في الوجه ، واختصر كلمة (وحده)وكيف كتب المأثورة جميعها بالاسلوب المزوى للخط ونفذ (لا)في آخر السطر الثاني بالاسلوب اللين ،كما أن عبارة (لاشريك لـه) كلها لم تنفذ على هذا النحو في أي نموذج آخر،هذا في الوجه .

أما الخلف :

١ - لم نعلم عن وجود أي نموذج يحمل نطاقين اضافة الى المركزلذلك يمكن اعتبار هذا النموذج استثناء .

٢ - وردت النجوم في مراكز بعض الفلوس ولكن لم تكن رؤوسها لينة كما في هذا النموذج .

المجموعة الخامسة :

هذه المجموعة تتألف من النقود المؤرخة ، لذا يمكن أن نعتبر هذه المجموعة بالغة الاهمية ذلك لانها تعطينا فكرة عن أشكال النقود في فترة مابعد تعريب عبد الملك من الناحية الفنية في فترات زمنية مختلفة ، كذلك تقدم لنا مأثورات بأسلوب ومستوى كتابة يساعدنا في التعرف على النقود المعاصرة لها ولحسن الحظ توفر لنا في هذا المقال مالم يتوفر لغيرنا حيث أمكننا الحصول على نموذجين اضافيين عما هو معروف من النقود المؤرخة سابقا وفيما يلي تباعا هذه المجموعة من الفلوس .

النموذج :

الامثلة	القطر	الخلف	الوجه	
				١ - عام ٧٩ هجرية
١	٢١مم			

الوجه :

في المركز: لا اله
الا الله
وحده

طوق :

نطاق :بسم الله //هذ االفلس// (كتابة غير واضحة يمكن أن يكون آخرها (ص)

طوق :

الخلف :

محمد
رسول
الله

طوق :

نطاق :ضرب هذ االفلس ////سنة تسع وسبعين

طوق :

قد لايكون هذا النموذج من ضرب حمص ولكنه من النماذج الاولى التي صدرت بعد اصلاح عبدالملك والتي نشعر باستمرارها في عدد من النماذج المؤرخة في حمص وفي غيرها أي يمكن أن يتخذ كأساس للتعرف على الفلوس التي صدرت بعد اصلاح عبد الملك بن مروان والتي تشبه بتصميمها وتوزيع مأثوراتها الدينار والدرهم بعد مرحلة الاصلاح المذكورة ولاشك أن هذا النموذج يفضل غيره من حيث امكانية استيعابه لقدر أكبر من المأثورات .

النموذج :

٢ في عام١١٠	الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
المركز:	لا اله الا الله وحده	محمد رسول الله		هذا النقدعرضه وولكرفي مصنفه برقم J.10 ص٢١٦ وهومن مجموعة جامعة جينا في لايبزغ
طوق :		طوق :		
نطاق :	ضرب الفلس سنة عشر (ومئة)	نطاق : بسم الله ضرب الفلس بحمص		
طوق :				

النموذج :

٣ في عام١١٦	الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
			٢٠مم	٤ دمشق ٥ وولكررقم ٨٠٧- ٨١١ ص ٢٤٧

النموذج :

	الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
٤ في عام ١١٧			٢٠مم .	١ دمشق ١ الدكتور ايليتش سويسرا أشار اليه مايكل بيتس

مثل سابقه ماخلا :
السنة التي يرجح أن تكون تسع عشرة ومئة)

النموذج :

	الوجه	الخلف	القطر	الامثلة
٥ في عام ١٣٠هـ			٢١مم	١ دمشق

مثل سابقه :
ماخلا اختلاف في مأثورة نطاق الوجه حيث أضيفت " البسملة "وتغير التاريخ الى "١٣٠هـ" وظهرت في الخلف نصف دائرة في أعلى مأثورة الخلف ونجمة الى جوار لفظة الجلالة في أسفل مأثورة المركز .

وهكذا نرى من خلال هذه المجموعة التي بدأت بتاريخ ٧٩هـ وانتهت بتاريخ ١٣٠هـ أنه لم يكن ثمة تغير في النمط ونصوص المأثورات لانها تمثل النموذج الافضل . قد يكون ذلك بعد محاولات تمثلها النماذج الاخرى التي تعبر بالفعل باضطراب أنماطها وأخطاء مأثوراتها وبدائية اسلوب كتابتها مرحلة سبقت هذه المرحلة والا فهل يمكن أن يقبل المستوى الادنى في الوقت الذي تتوفر فيه الامكانية للوصول الى المستوى الافضل ؟

أخيرا لابد من الاشارة الى أن هناك نماذج من الفلوس النحاسية المغفلة التي لانعلم بالتأكيد في أية مدينة سكت وقد ورد من حمص عدد منها . عرضنا نموذجا منها في نهاية المجموعة الأولى ومازال هناك عدد منها بحاجة الى مزيد من الدراسة .

نرجو أن نكون بهذا الجهد المتواضع قد أسهمنا في القاء المزيد من الضوء على آثار وتاريخ مدينة ابن الوليد وذلك استجابة لدعوة زملائنا وأصدقائنا في الجمعية التاريخية ، راجين أن نوفق مستقبلا في نشر بحث خاص عن النقود التي ضربت في حمص في العصور اللاحقة والتي تعتبر نادرة جدا .

أبث شكري وعرفاني الى الاخوات والاخوة الذين مدوا يد العون لي أثناء اعدادي هذا البحث وأخص منهم : السيدات زميلتي منى المؤذن وناهد الحموي،ورحاب داوود وزوجها الاستاذ أحمد المفتي والاستاذ فاتح الاحمد والصديق أمين نجار والانسة أمل حسيني راجيا المولى أن يجزيهم عني كل خير .



تقرير عن حفريات شرقي جامع النوري الكبير بحمص

بقلم الدكتورة تغريد الهاشمي
مديرة آثار حمص

ليس لدينا من الوثائق التاريخية والقرائن الأثرية مايشير الى سكن حمص قبل منتصف الألف الثالث قبل الميلاد وجل مانعرفه عن تاريخها القديم يعود الى نتائج التنقيبات الأثرية والوثائق المكتشفة في بعض المواقع كالمشرفة وقادش وايبلا وتل العمارنة وتل قلعة حمص(١) ومايتناثر في المصادر التاريخية من معلومات عنها واشارات عابرة تعوزها الدقة والامانة العلمية في أحيان كثيرة ،وطالما أن التنقيب في تلك المواقع الهامة لايزال في بداياته لذلك فان الحديث عن تاريخ حمص ماقبل العصر الاسلامي لايخلو من نواقص وفجوات اضافة الى الغموض الذي يلفه فالتنقيبات الأثرية تقدم لنا المفاجآت باستمرار وان أي حديث عن تاريخها القديم سيكون غير دقيق مالم تجر تنقيبات نظامية وعلمية في المدينة القديمة تميط لنا اللثام عن تاريخها القديم المدفون هنا وهناك تحت سطح المدينة . وحسب المعلومات المتوفرة لدينا حاليا يعتقد أن أقدم موضع سكن فيه الانسان في حمص هو تلها الذي يقع جنوب غربي المدينة القديمة بالإضافة الى الاماكن القريبة من المياه . ان نتائج التنقيب في الطبقات الدنيا للتل المذكور أثبتت اعتمادا على دراسة اللقى الفخارية أن الموقع كان مأهولا اعتبارا من النصف الثاني للالف الثالث ق .م(٢) . وإذا جاز لنا أن نقول استنادا الى تلك النتائج أن حياة المدينة بدأت في العصر الحجري الحديث فاننا نرجح بأنها لم تكن آنذاك سوى قرية صغيرة ليست على شيء كبير من الأهمية ثم تحول مكانها الى قلعة (أنظر المخطط رقم ١) وفي شمال شرق القلعة قرب موقع الورشة الحالي الذي يقع شرقي المدينة نشأت أول قرية زراعية . وعند توسعها كان لابد من امتدادها باتجاه القلعة واحاطة الاثنين معا بسور واحد (المخطط رقم ٢) وتكوين مدينة صارت عاصمة لدولة يحكمها ملوك كهنة . وأنها لم تبرز الى ميدان الحضارة الا بعد أن توقفت حياة مدينتي قطنة وقادش في العصر الروماني فورثت حمص أهميتهما وخلفتهما كعقدة مواصلات هامة في سورية الوسطى .

مصور رقم (١)

مصور رقم (٢)

ويتضح تاريخ حمص في عهد أسرة شمسيغرام التي حكمت حمص منذ مطلع القرن الاول قبل الميلاد بعد أن انتزعتها سنة ٩٦ ق٠م من سلطان السلوقيين وشكلت فيها دولة صغيرة حكمت حمص حتى الربع الأخير من القرن الاول الميلادي وكان هؤلاء الامراء العرب يتولون سدانة معبد الشمس المشهور ويتمتعون بثراء فاحش وشهرة كبرى وقد ضرب هؤلاء الامراء النقود بأسمائهم ولعبوا دورا بارزا في السياسة الداخلية الرومانية [٣]. وعلى الرغم من زوال النفوذ السياسي لتلك الاسرة في نهاية القرن الاول الميلادي بسبب تشديد الرومان قبضتهم على سوريا فان المكانة التي نالتها حمص في عهد أسرة شمسيغرام ظلت كما هي وتابعت المدينة ازدهارها في ظل حكم الولاة الرومان ٠ ثم تصبح المعلومات التاريخية عن حمص أكثر وضوحا في العصر الروماني لاسيما بعد وصول الاسرة الحمصية الى عرش روما نتيجة لزواج جوليادومنة إبنة كاهن معبد الشمس باسيانوس من القائد الروماني سبتم سيفير الذي أصبح امبراطورًا فيما بعد (١٩٣- ٢١١م) والذي كان له أثر كبير لافي تاريخ حمص فحسب بل في تاريخ روما والشرق الادنى حيث بدأ عهد الاباطرة السوريين الذين ساعدوا على انتشار النفوذ الثقافي السوري٠ وقد اهتم سيفير بسورية وطن زوجته وجعل من حمص عاصمة لسورية الفينيقية واستمر الاهتمام بمدينة حمص في عهد ابنه الامبراطور كاراكلا (٢١١- ٢١٥م) والامبراطورين ايلاغابال(٢١٨-٢٢٢م) والكسندر سيفير(٢٢٢-٢٣٦م) حيث أصبحت حمص مركز الامبراطورية ومحط أنظارها وتولي كثير من سكان حمص مناصب الدولة الكبرى وتمتعوا بعضوية مجلس الشيوخ وانتقادا لهذا التأثير العارم لمدينة حمص في روما كتب الشاعر الروماني الهجاء جوفينال" ان العاصي صب مياهه منذ فترة طويلة في نهر التيبر حاملا معه لغة سورية وتقاليدها وثقافتها" لقد عزز زواج جوليا دومنة من سبتم سيفير ووصول هذه الاسرة الحمصية الى عرش روما دور حمص العالمي وانتشرت تجارتها بين الخليج العربي والبحر المتوسط فوصل أهالي حمص بتجارتهم عبر البحر المتوسط الى

ايطاليا وغالية واسبانيا • وازدانت حمص آنذاك بعدد كبير من المنشآت الهامة كالقصور والمعابد والقلاع والحمامات ومن أهم تلك الأوابد التي زهت بها حمص في ذلك العهد معبد الشمس المشهور والصومعة وبعد انتشار المسيحية فيها ولاسيما في العصر البيزنطي غدت حمص مقر أبرشية وانتشرت فيها الكنائس الفخمة منها كنيسة القديسة هيلانة التي قال فيها المسعودي أنها من عجائب الدنيا والكنيسة الكبرى التي يقال ان رأس النبي يحيي نقل اليها بعد اكتشافه سنة ٤٥٣م[٤] وكانت من أكبر الكنائس المسيحية التي ارتفع بناؤها في سوريا خلال العصر البيزنطي اضافة الى كنيسة مار قسطنطين وربما تكون هذه المسميات الثلاثة لمكان واحد •

لكن للاسف زالت معالم تلك العصور الزاهرة واختفت المعابد والقصور الرائعة نتيجة الكوارث البشرية والطبيعية التي حلت بالمدينة وكان أفدحها الزلازل التي حدثت في القرنين الخامس والسادس الميلاديين وهدمت المدينة عدة مرات في الاعوام (٤٤٧ – ٤٥٨ – ٤٩٤ – ٥٢٦ – ٥٢٨)م•

وبسبب النكبات التي حلت في هذه المدينة وغيبت آثار الماضي من جراء الغزوات التي كانت تشن عليها من الروم البيزنطيين كغزوة الامبراطور نقفور فوكاس ٩٦٨م ثم غزوة باسيل سنة ٩٩٠م وأخيرا غزوة دوق انطاكية سنة ٩٩٩م وفيها لجأ بعض أهلها الى كنيسة مار قسطنطين تحرماً بها فأحرقها الروم بمن فيها •

فهذا الخراب والحرق اللذان كررهما الروم ثلاث مرات مترادفات أجهزا على عمران حمص بالكلية وحرماها المعابد العظيمة والقصور والاثار القيمة التي كانت تزدان بها في العصور السالفة[٥]، يضاف الى ذلك استمرار السكن والعمران في المدينة القديمة مما أدي الى اختفاء نواة السكن القديم تحت منشآت المدينة الحالية وضياع مخططها القديم• كل ذلك يجعل التنقيب عن آثارها القديمة والتوصل الى مخططها القديم في غاية الصعوبة • ونتيجة لصعوبة القيام بأعمال تنقيب واسعة في المدينة القديمة كان لابد من مراقبة عمليات الهدم والبناء

التي تتم في المدينة الواقعة ضمن الأسوار لنتمكن من تلمس بعض أحوال الماضي . ففي باطن هذه المدينة قد توجد كنوز من تاريخها الدفين تنتظر من يخرجها الى النور . وأجوبة كثيرة عن الاسئلة التي تبدو حاليا بذون جواب سيصار بالتالي الى تقديمها ونشرها لان المعلومات الاثرية والتاريخية المعروفة عنها قليلة جدا . في الوقت الحاضر ولاتتناسب مع ماضيها الزاهي فقد ساعد موقعها الجغرافي الممتاز في أن تكون موطن نشاط بشري ساهم في حضارة سورية منذالقديم وساهم في اعطائها أهمية خاصة من الناحية التجارية فمن خلال نشاطها التجاري المتميز ساهمت في انتقال التراث الانساني اضافة الى التأثيرات السياسية . لذلك فان موقعها الجغرافي ونشاطها التجاري الهام جعلاها ذات دور فعال في السياسة العالمية خاصة أيام السلوقيين والرومانيين والبيزنطيين . لذلك آمل أن يكون عملي المتواضع هذا محاولة لإلقاء بعض الاضواء على فترة هامة من تاريخها وان يكون لبنة تضاف الى اللبنات التي قدمها آخرون غيري لإزالة بعض الغموض عن تاريخ هذه المدينة من خلال أعمال التنقيب فيها آملين أن يحمل لنا المستقبل ونتائج التنقيب القادمة مايساعد في إثراء معارفنا عن تاريخ حمص وينير لنا الدرب أمام خطواتنا الوئيدة وسوف نتحدث فيما يلي عن أعمال تنقيب قمنا بها في مدينة حمص والتيأدتالى نتائج هامة .

التنقيب الطارىء في حي الفاخورة شرقي جامع النوري الكبير بحمص :

(من ٩/أيار ١٩٨٨ ولغاية ٧ تموز ١٩٨٨):

في التاسع من شهرأيار ١٩٨٨ بدأنا التنقيب في العقارات ٣٠ ـ٣١ ـ ٣٢/المنطقة العقارية الرابعة التي تقع في حي الفاخورة شرقي جامع النوري الكبير لملاحظتنا وجود معالم أثرية تنم عن جدار السور الشمالي للمدينة الذي يتجه من شرقها عند باب تدمر الى غرب المدينة عند برج الاربعين ،وذلك أثناء تقصي المدينة لتحديد مسار السور فيها على الواقع من أجل التحضير لندوة (أسوار حمص وقلعتها) التي

شاركنا فيها خلال المهرجان الثقافي السنوي الذي تقيمه محافظة حمص سنوياً (٦).

بدأنا التنقيب* باجراء الأسبار للتأكد من مرور السور فيها فجاءت النتائج الأولية تؤكد صحة افتراضنا فبعد أن قمنا باجراء سبر في النقطة التي توقعنا مرور السور فيها بدأت تظهر معالم واضحة لجدار بعرض ٣٠ر٢م وارتفاع ثلاثة مداميك ،والجدار المذكور مبني بحجارة بازلتية غشيمة لها قاعدتان الاولى ٢٥×٢٥ سم والثانية ١٥×١٧ سم وهو رقم وسطي (صورة رقم ٣) ثم تابعنا العمل لكشف باقي الجدار بعد أن توضحت معالمه على طول ٢م . وخلال العمل لكشف باقي الجدار تم كشف أرضية جميلة من الفسيفساء بطول ٨م وعرض ٤م ، لكن للأسف يوجد تشوه كبير في أماكن كثيرة منها نتيجة لأعمال تدمير وحرائق تعرضت لها المنطقة سابقاً . وتمثل لوحة الفسيفساء هذه مبنى على جانب كبير من الأهمية بالإضافة الى حي سكني يمكن أن يستدل منه على نمط عمارة حمص في تلك الفترة (صورة رقم٤) ويحيط باللوحة إطار رائع مزدان بتزيينات نباتية من أزهار الأكانتوس ذات الألوان الزاهية كالبرتقالي والأحمر والأبيض والأخضر(صورة رقم١٥)

وقد لاحظنا بأن هذه اللوحة استخدمت كأرضية مرة ثانية بدليل استكمال النقص فيها بقطع من الرخام الملون. ومما أثار انتباهنا اختراق السور لها في جزئها الشمالي مما يدل على أنها أقدم عهداً من الجدار المكتشف (A) ويبدو أنها كانت أكثر امتداداً نحو الجنوب نتيجة عثورنا فيما بعد على أجزاء كبيرة منها ضمن المدافن المكتشفة في الحنية . كما ظهر أثناء التنقيب باب بعرض ٢م وطول ٥٣ر٢م بعمق ٧١ سم كان يتوارى معظمه خلف الردميات والباب مبني بحجارة بازلتية كبيرة أما ساكفه فقد بني بحجارة كلسية ضخمة (صورة رقم ٦) . وقد تم تدعيم الباب لملاحظتنا وجود خطورة في ساكفه فبعد إزالة الردميات عنه وتعرضه لعوامل الطبيعة فجأة بدأت تظهر تشققات حديثة في الساكف إضافة الى تصدعات قديمة وعميقة لذلك قمنا بتدعيمه بمورينات خشب تلافيا للخطر الذي يمكن أن يحدث (صورة رقم٧) .

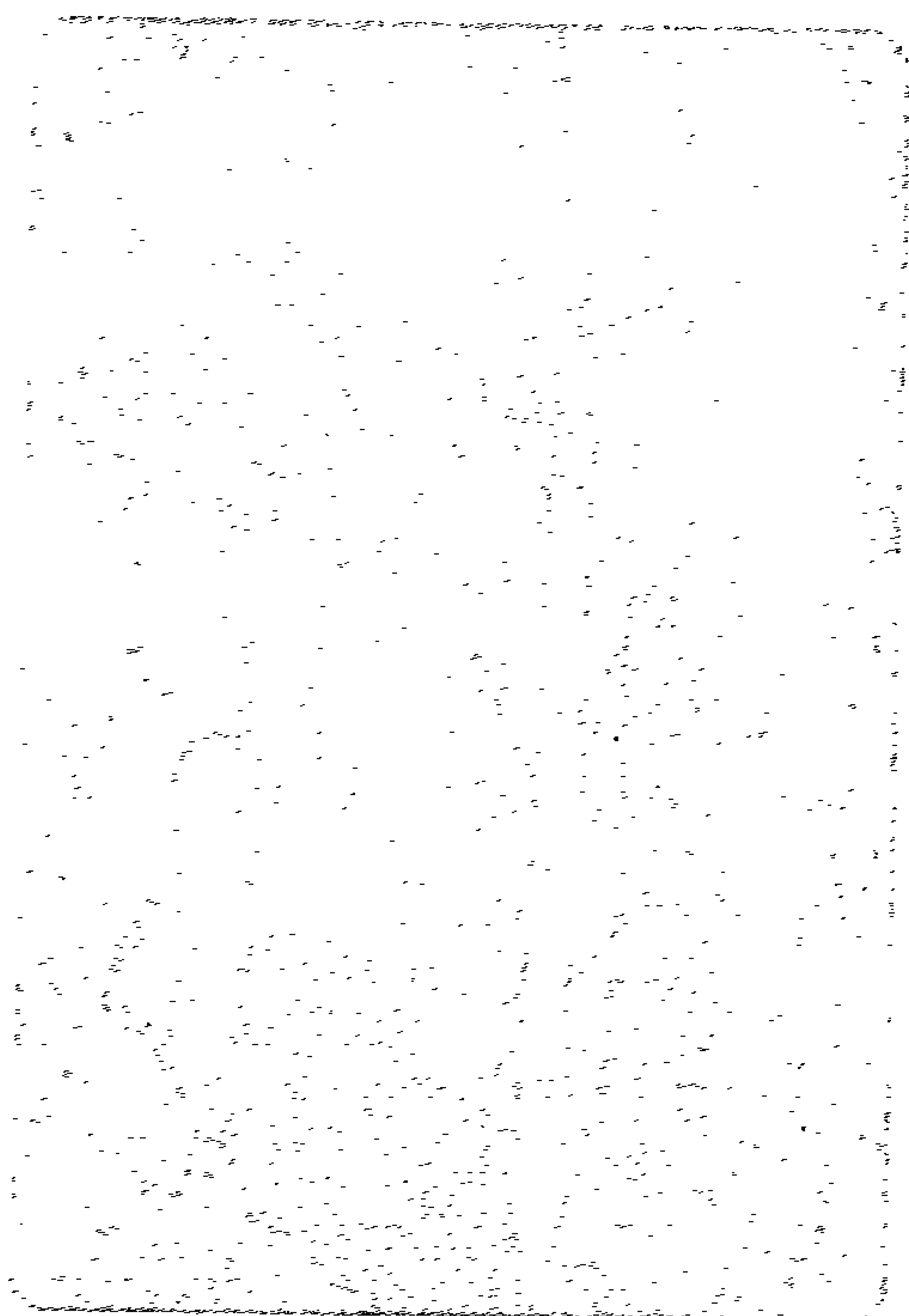
---

* شارك في التنقيب من دائرة آثار حمص الانسة نداء دندشي كما شاركت المهندسة مي النبهان برسم مخطط الحفرية فلهما الشكر .

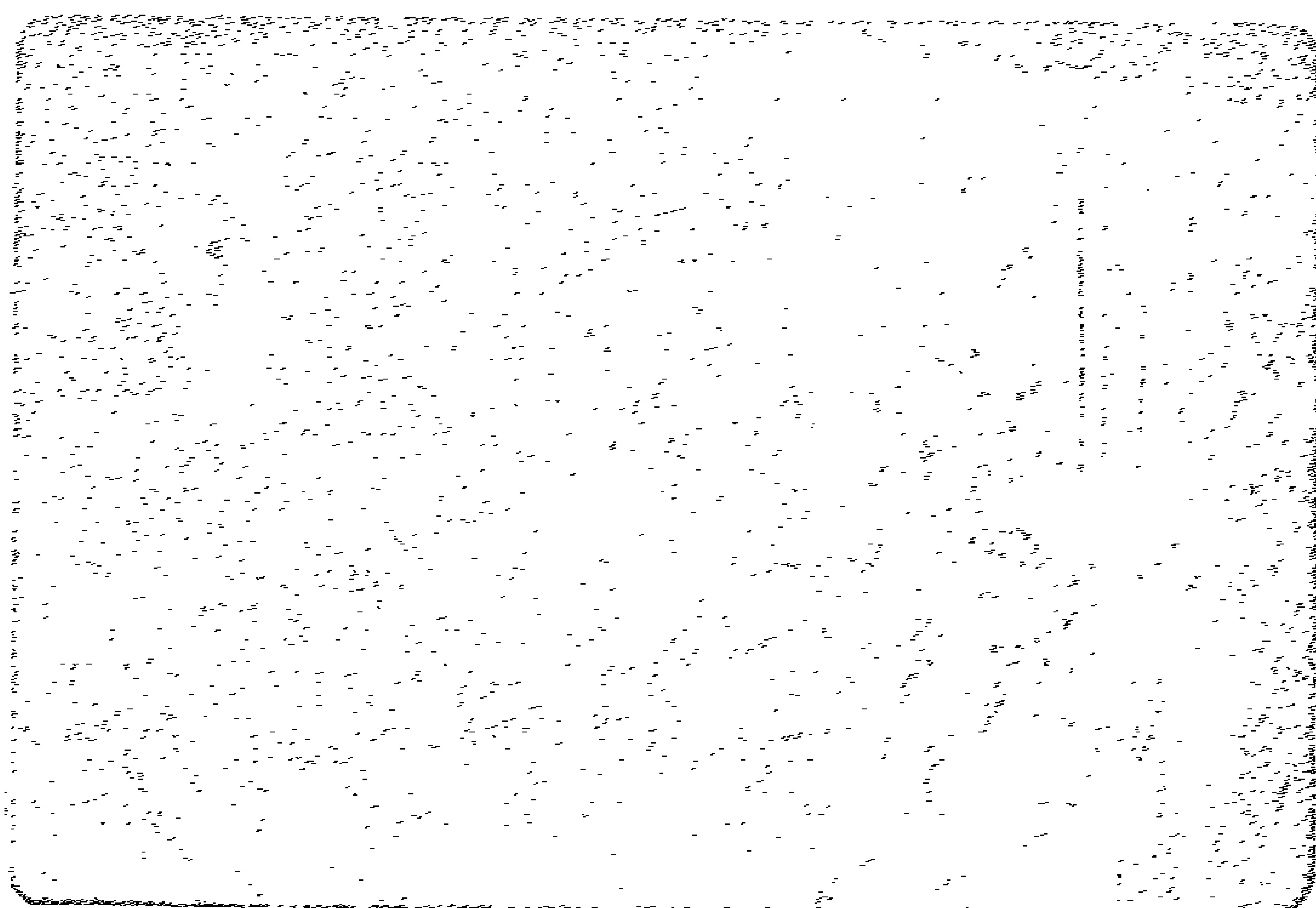


صورة رقم ٣٠

أساسات السور المكتشف

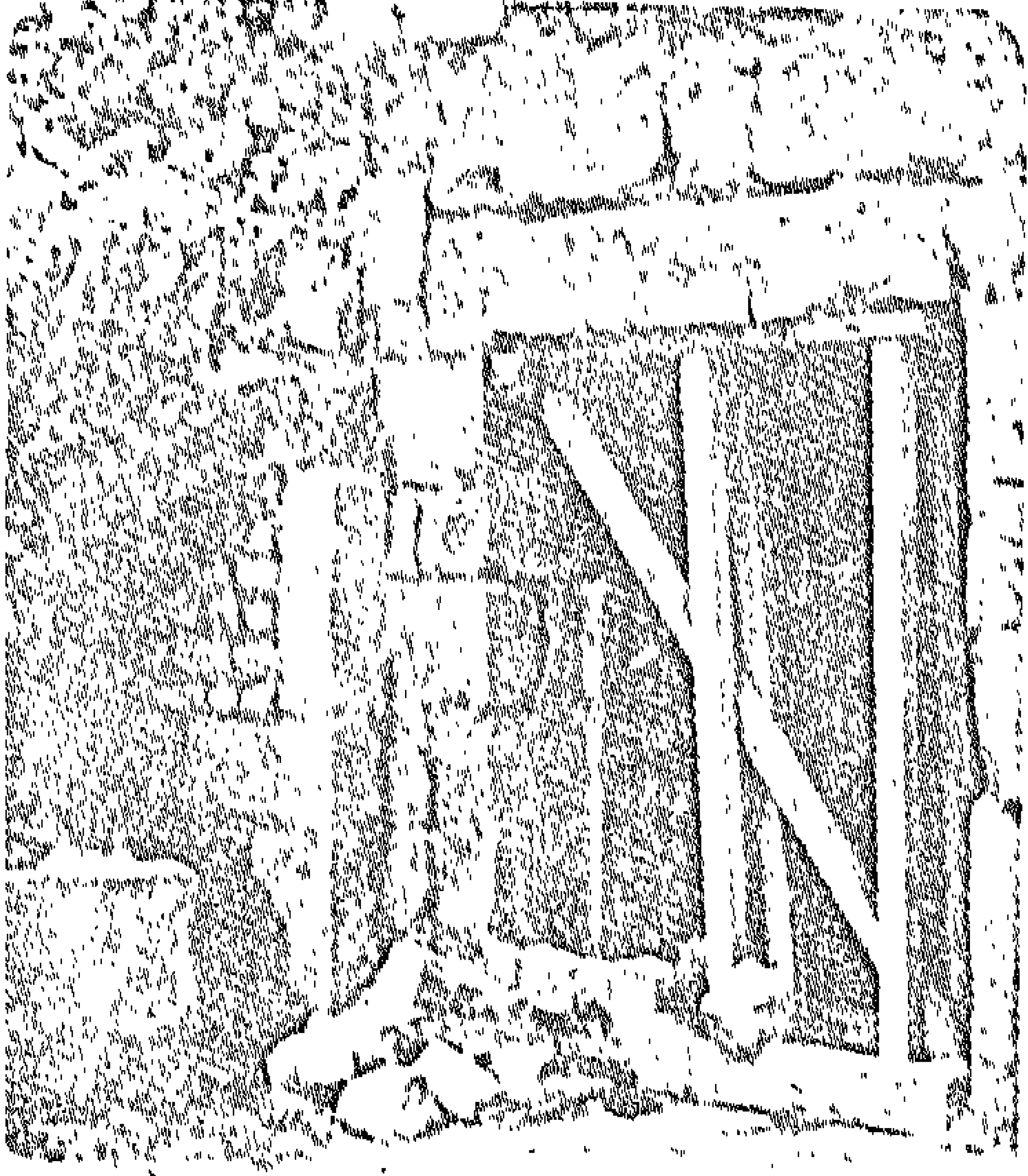


مصور رقم (٥)
إطار اللوحة الغربية

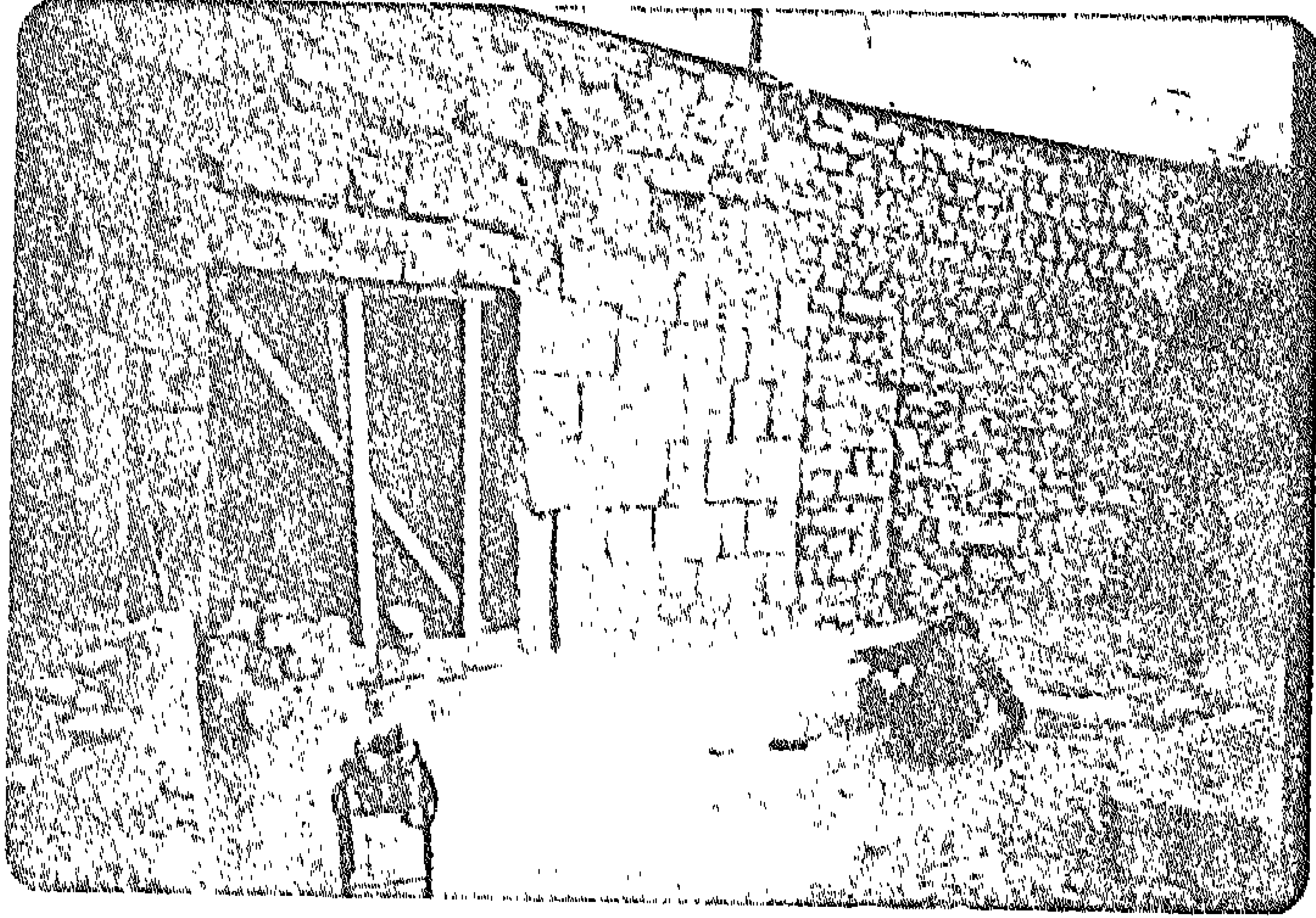


مصور رقم (٤)
لوحة الفسيفساء الغربية وجدت في الجزء الغربي
من العقارات ٣٠-٣١-٣٢ / تابعة

مصور رقم (٧)
الباب بعد تدعيمه



تظهر في الصورة بداية الحنية وجزء من الضريح



الجدار الغربي الفاصل بين كنيسة جامع النوري الكبير
والكنيسة المكتشفة

بعد الانتهاء من كشف الباب وتدعيمه بدأنا بالعمل في الزاوية الجنوبية الغربية التي كانت تبدومهمة للغاية لأنها بقيت بمنأى عن عبث الآليات الثقيلة التي عملت في الموقع سابقاً وكان يبدو واضحاً الترتيب الستاتيغرافي للطبقات فيها وفي هذه المنطقة بالذات توصلنا الى نتائج حفرية في غاية الأهمية فبعد إزالة الركام والأنقاض عنها بدأ يتوضح تدريجيا شكل نصف دائري (حنية) الى الجنوب الشرقي من الباب المكتشف يمتد قليلاً داخل حدود العقار المجاور وفي وسط الحنية ضريح مبنى بالآجر طوله ٢٠ر٢م بعرض ٣٠ر١م بارتفاع ٨٥ سم يتجه من الغرب الى الشرق تتوسطه حفرة صغيرة قطرها ٢٠ سم وعمق ٣٠سم وقد طلي الضريح مع الجدران بكلس يبدو أنه جدد ثلاث مرات . وقد تم العثور على قطعة صغيرة من الطلاء الكلسي الذي طليت به جدران الحنية وعليها خطوط ملونة حفظت للدراسة إضافة الى قطعة نقد برونزية متأكسدة ملتصقة بجدار الضريح . في الوقت ذاته استمر العمل لمتابعة كشف مسار الجدار المكتشف (السور) حيث بدأت تظهر تطورات في معالمه أولها زيادة عرضه حتى ٩٠ر٢م بالإضافة الى تخلخل سطحه الخارجي مما استوجب إحداث المربع (C) بأبعاد ٣×٣ م كما فتح المربع (D) في نفس اليوم في وسط الموقع .

في المربع (C) تم العثور على جزء من عمود غرانيتي داخل ضمن أساس السور ويبدو أنه من الأعمدة التي تعود الى المنشأة المكتشفة نفسها . وقد استخدم كأساس لجدار السور في العصر الإسلامي مما يدل على أن السور المكتشف أحدث عهداً من المنشأة ثم ظهر جدار آخر(B) بعرض ٨٠ سم يتصل مع الجدار(A) بزاوية التقاء حادة . ولدى العمل للوصول الى الأرضية التابعة له عثرنا على لوحة فسيفساء معظمها بحالة سيئة ماعدا الجزء الموازي للجدار والأرجح أنه يمثل إطار اللوحة المخربة . واللوحة المشار اليها مكونة من تزيينات هندسية مما يدل على أن اللوحة ترتبط تماما مع الجدار(B) وأثناء توسيع المربع (C) ظهرت آثار باب ذي عتبة حجرية بازلتية بعرض ١٢ر١ م

كما ظهر جدار آخر (C) يحدد أرضية من حجر البازلت ذات مستويات مختلفة مما يشير إلى مراحل بناء واستخدامات متعددة لهذا المكان .

وفي الجزء الجنوبي من السور ظهرت مساحة مرصوفة بحجارة بازلتية غشيمة بالإضافة الى كتل حجرية عادية متوضعة بشكل عشوائي يمكن أن يستخلص من بينها شكل قريب من الدائري وفي وسطه مواد مذابة وشديدة الصلابة بفعل حريق ذي درجة حرارة عالية ،وقد أرسلنا نماذج منها إلى معهد البتروكيمياء للتحليل لنستطيع تحديد هوية المنطقة المكتشفة واستخداماتها .

أما في المربع (A^2) فقد ظهر على عمق ٣٠سم جزء من لوحة فسيفساء لكن حباتها غير متماسكة وكانت تنفرط بسرعة باستثناء قطعة صغيرة منها مساحتها ٥٠ر١ × ٥٠ر١ م كانت بحالة جيدة وتمثل صلباناً بيزنطية الطراز ذات ألوان جميلة للغاية تتدرج بين الأبيض والرمادي والأزرق المتدرج الألوان . كان اكتشاف هذا الجزء من لوحة الفسيفساء ذا أهمية خاصة من حيث النتائج التي ترتبت عليه فمن خلاله استطعنا تحديد هوية المنشأة المكتشفة وأصبح واضحاً أنها كنيسة ذات شأن وبقي علينا أن نعرف اسمها .

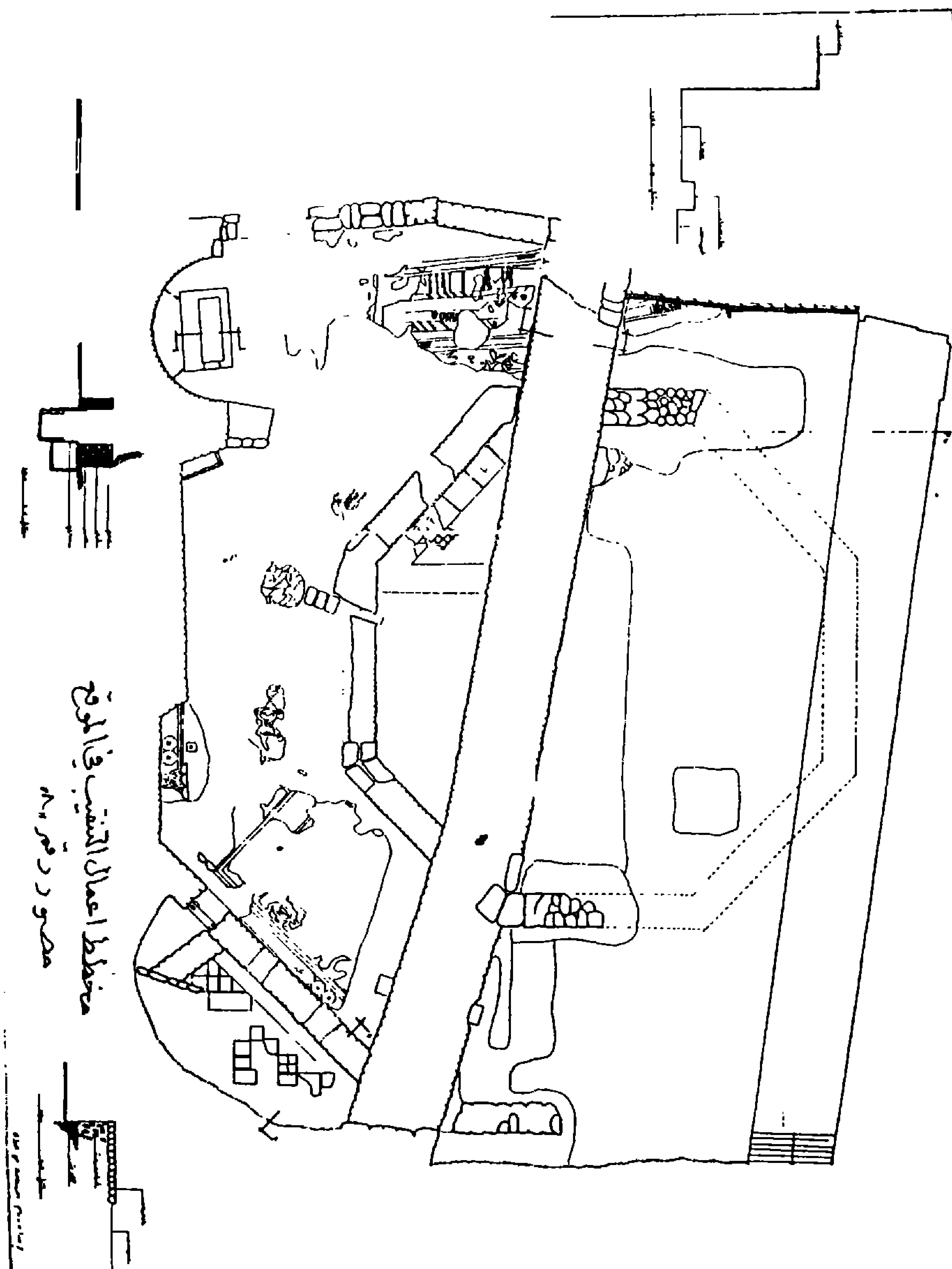
وبعد أن استكملنا التنقيب في الجزء الجنوبي من العقارات بدأنا باجراء الأسبار في الجزء الشمالي لمتابعة بقية أضلاع المثمن ولوحات الفسيفساء التي تزينه وان كنا نرجح آنذاك عدم وجود استمرارية لأضلاع المثمن في ذلك الجزء نظراً لانخفاض مستوى الأرض فيه مما يدل على أن تشويهها في أرضية المثمن وأضلاعه قد حصل منذ زمن ليس بالقريب ونتيجة لتراكم الأنقاض فيه وصعوبة العمل بالتالي عدنا للعمل في الجزء الجنوبي حيث قمنا بتنظيف لوحة الفسيفساء الغربية لتصويرها كما قمنا بإزالة الردميات من الفجوة التي وجدت الى الشرق من الضريح الذي يقع ضمن الحنية والتي يمكن أن تكون بئراً لأن التدقيق في شكله جعلنا نشك بأن يكون بئراً نظرا لوجود صخرة كلسية ضخمة عند نقطة الإلتقاء بين القوس الذي يضم الحنية وبداية القوس الآخر مما جعلنا نرجح بأن يكون مدفناً أو قبواً داخلياً يتبع للمبنى ،ولكن بعد

إزالة الردميات على عمق ٤ م لم نعثر على أي مؤشر يدل على وجود مدخل لمدفن ،فأوقفنا عمل رفع الأنقاض منه لأننا وجدناه دون جدوى لاسيما وأن التراب أصبح رطبا مما جعلنا نرجح بأن المكان هو بئر.

في تلك الأثناء تابعنا كشف الجدار(B) وهو بطول ٧٠ر٥م وعرض ٨٢سم وإرتفاع ثلاثة مداميك ،وتم تنظيف المكان قرب الباب المكتشف حيث ظهرت استمرارية الجدار المذكور بطول ١٠ر١م فيكون الجدار بالكامل ٩١ر٧م كما ظهرت آثار جدار آخر(G) يلتقي مع الجدار (B) وقد عثرنا على آثار في غاية الأهمية وقد حفظت للدراسة وهي عبارة عن بقايا لوحات جدارية (فريسك) ذات رسوم ملونة بألوان زاهية تتدرج بين الأحمر والبرتقالي والأصفر والعاجي مما أكد لنا بأن جدران هذه الكنيسة الهامة مزينة باللوحات الجدارية إضافة الى أننا عثرنا على بقايا من القرميد الذي يستعمل للأسقف وقد تم الكشف عن ٧٠ر٣م من الجدار (G) وأثناء متابعة العمل لكشف تتمة الجدار وتنظيفه عثرنا على لوحة فسيفساء أخرى ملاصقة للجدار(G) مما يدل على أنها بنيت في الفترة نفسها وأنها ترتبط تماما مع الجدار وهي بطول ٨٠ر١م وعرض ٢٠ر١م وهي بحالة سليمة نسبيا وتمثل إطار لوحة الصلبان البيزنطية المكتشفة في المربع (B) .

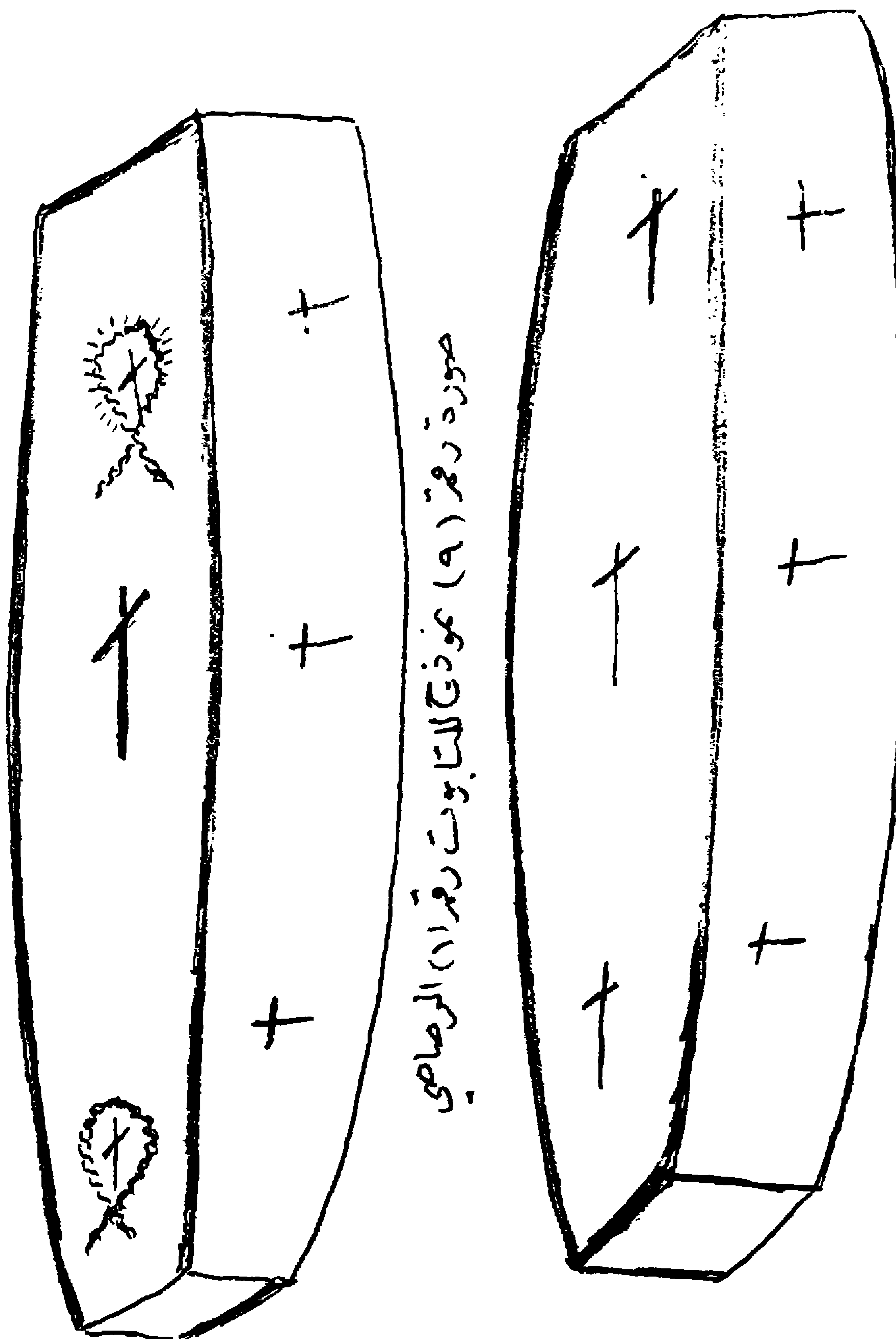
وتم الكشف عن ٧٠ر٣م من الجدار(G) بارتفاع مدماكين في قسمه الشرقي وأربعة في الجزء الغربي منه كما وجد في منتصفه شكل قريب من العتبة . وشيئاً فشيئاً بدأت تتوضح معالم الأبدة الأثرية المكتشفة والتي هي عبارة عن كنيسة مثمنة الأضلاع يتراوح طول الضلع بين ٨١ر٥ م للضلع الشرقي و ٥٠ر٦م للضلع الجنوبي و ٩٠ر٥م للضلع الغربي بسماكة تتراوح بين ٨٥ الى ٩٥سم ،وتزين لوحات الفسيفساء الاطار الخارجي للمثمن بينما يزدان المثمن الداخلي بالرخام الملون والمرصوف بأشكال هندسية جميلة (الشكل رقم ٨) .

وبعد أن قمنا بترحيل الأنقاض من الجزء الشمالي للعقارات بدأنا باجراء الأسبار فيه لكن الأمطار هطلت بغزارة يومها ولم نتمكن من العمل بتاتاً في ذلك اليوم حيث بقينا ننتظر مع الأستاذ نسيب صليبي(٥)


مخطط اعمال التنقيب في الموقع
مصور رقم

الذي جاء بتكليف من المديرية العامة للإشراف على التنقيب * آملين أن تكون سحابة صيف وتنقشع لكن الأمر كان أكثر صعوبة مما توقعنا مما جعلنا نقلق بشأن الفسيفساء أن يصيبها الضرر من جراء المطر الغزير فذهبنا تحت المطر لتفقدها وبدت لنا صورة المكان جلية بعد أن غسلتها مياه الأمطار . وتوضح مخطط الموقع أكثر فأكثر وظهر جمال لوحات الفسيفساء بألوانها الزاهية ورسومها البديعة . وكشف لنا المطر عن أشياء لم نكن قد رأيناها بعد فقد تبدت لنا بصورة جلية اللوحات التي كانت ترصف المثلثات التي تقع بين لوحات الفسيفساء بشكل هندسي جميل على شكل (حصير) . وقد عملنا يوم الجمعة في ١٩٨٨/٦/٢٤ عوضاً عن الخميس وبدأنا بفتح السبر الأول في القسم الشمالي (G) شمالي بطول ٤م × ٥٠ر٤م بعمق ٢٥ر١ م ثم تابعنا العمل في الأيام الثلاثة التالية لتوسيع الأسبار الشمالية حيث ظهرت على عمق أكثر من متر الأساسات العميقة لأضلاع المثمن المتبقية . ولكن على استمرار أقل من متر حيث بدأت تختفي المعالم نهائياً . وقد ظهرت لنا في اليوم التالي قطعة صغيرة من الفسيفساء غرب السبر P مستمرة داخل العقار المجاور ٣٢/ رابعة . وتمتد على نفس مستوى اللوحة الغربية المجاورة لجامع النوري والتي تم كشفها في السابق والتي تبدو غير مرتبطة بالمثمن المكتشف وفي الوقت نفسه كنا قد بدأنا باجراء سبر جديد في الجهة الشرقية من العقار قرب الطريق العام حيث ظهرت أساسات لجدار يتجه نحو الشمال يوازي الجدار (B) المكتشف في الجزء الجنوبي منه . وقد ظهرت أرضية من الرخام وأساس لجدار هو استمرار لأضلاع المثمن الخارجي . وبعد أن تم كشف واستكمال التنقيب في كامل العقارات المذكورة قمنا بفتح الضريح الذي تضمه الحنية نصف الدائرية وهو عبارة عن بناء من القرميد يحوي بداخله مجموعة عظام متفرقة إضافة الى كسر فخارية ،ويعلو الضريح المذكور ضريح آخر مبني بالحجر البازلتي يضم تابوتاً من الرصاص بطول ٨٨ر١م وتزين رسوم الصلبان غطاء التابوت وأطرافه (صورة رقم ٩) كنا قد علقنا آمالاً كباراً في العثور

* ـ تم العمل باشراف مديرية التنقيب لدى المديرية العامة للاثار والمتاحف ممثلة بالاستاذ نسيب صليبي الذي قدم الى حمص مرات عديدة للاشراف على العمل فله وافر الشكر والتقدير .



صورة رقم (٩) نموذج للتابوت رقم (١) الرصاصي

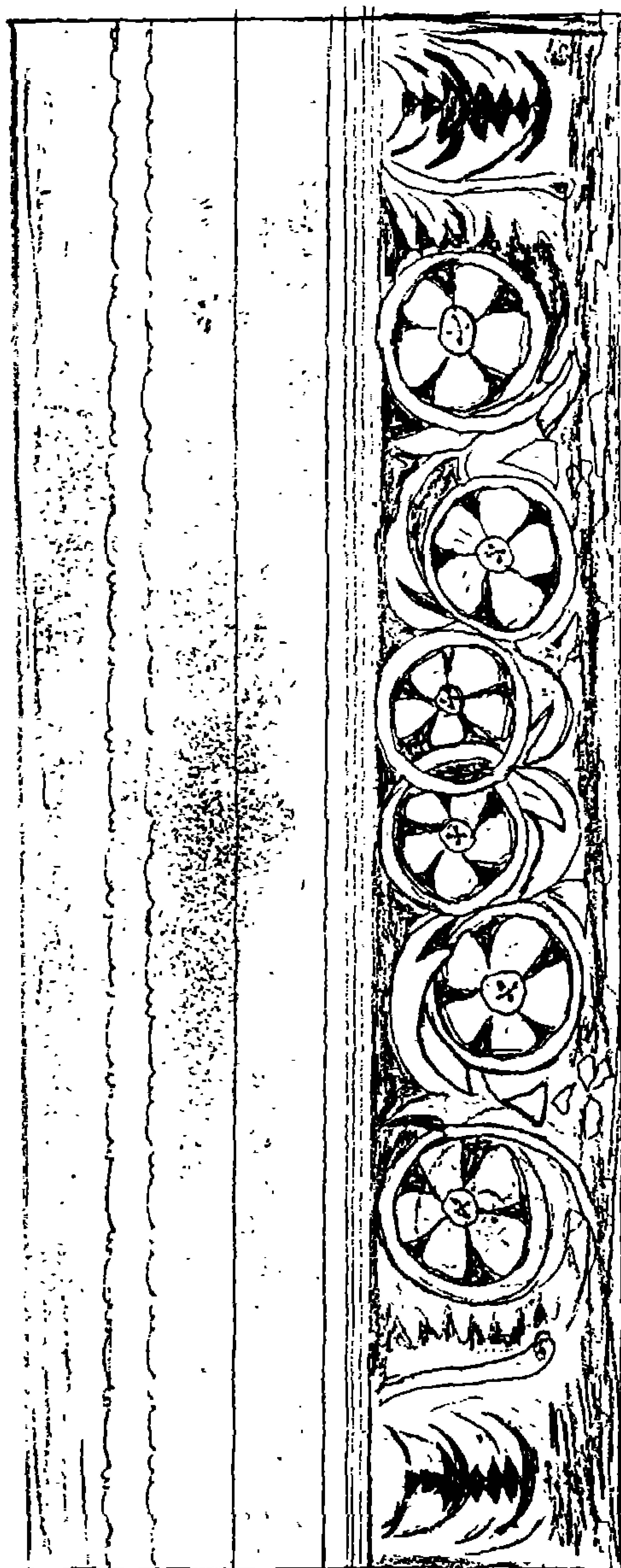
صورة رقم (١١) نموذج للتابوت رقم (٢) الرصاصي

على كتابات أو لقى مدفنية أو أي إشارات تفيدنا في تحديد عمره ولم نعثر بداخله على هيكل عظمي كامل وإنما على مجموعة عظام متفرقة تخلو من عظام الجمجمة لم توجد بمواضعها نظرا لتحويل مياه الصرف الصحي إليه، لذلك كان أسفل التابوت تالفاً نتيجة الرطوبة وكان الشيء الهام الذي عثرنا عليه بقايا خيوط مذهبة تالفة. والى جواره وجد ضريح آخر من الرخام تزدان واجهته بتزيينات نباتية جميلة وهي عبارة عن زهرات نافرة محاطة باطار دائري وفي كل جانب صورة لبجعة (صورة رقم ١٠) وقد وجد بداخله تابوت آخر من الرصاص لكنه أصغر من سابقه ومزين بإشارات صليب محاطة بأكاليل من الغار (صورة رقم ١١) ويحوي بداخله هيكلاً عظمياً كاملاً وقد نقل التابوتان الى المتحف بينما أرسلت بعض العظام للتحليل وقد اضطررنا الى إبقاء تتمة الضريح الرخامي في مكانه نظراً لخطورة وضع الجدار بقي ضريح رابع لم نستطع الكشف عنه للسبب الانف الذكر.

وبعد استكمال التنقيب في كامل العقارات المذكورة بقي علينا اتمام المرحلة الاخيرة من التنقيب وهي الكشف عن ساكف الباب الخارجي المكتشف وقد انتهزنا فرصة قيام مديرية الأوقاف بإجراء إصلاحات في مكتبة الجامع النوري لاحداث بعض الأسبار في أرض وجدار المكتبة . بدأنا بإجراء سبر في الزاوية الجنوبية الشرقية لأرض المكتبة بطول ١م وعرض ٢٠ر٢م حيث عثرنا ضمن الردميات على كسر عظمية وفخارية ثم قمنا بفتح سبر جداري بطول ٦٠ر١م × ٨٠ سم وعمق ٦٥ سم وارتفاعه من مستوى الأرضية ٩٠ سم في المنطقة التي حددنا وجود ساكف الباب فيها حيث تم كشف ساكف الباب الذي خلا من أي كتابة أو زخرفة أو تاريخ للمبنى وإنما هو عبارة عن حجارة صماء .

نتائج التنقيب :

كان للتنقيب في حي الفاخورة أهمية كبيرة بالنسبة لتاريخ مدينة حمص إذ إن التنقيب فيه فتح أمامنا آفاقاً جديدة بالنسبة لتاريخها في العصور الرومانية والبيزنطية والإسلامية وخاصة فيما يتعلق بالأسوار ومخطط المدينة القديمة وتاريخ بناء المسجد النوري الكبير



مصور رقم (١٠) واجهة التابوت الرخامي

وموقع الكنيسة التي أدى التنقيب في أنقاضها الى كشف منشأة هامة تعود الى العصر البيزنطي وعلى الأرجح تؤرخ بنهاية القرن الرابع أو مطلع القرن الخامس الميلادي ،وهي عبارة عن كنيسة مثمنة الشكل تزين الفسيفساء فيها أرضية المثمن الخارجية بينما رصفت أرضيته الداخلية بالرخام الملون بأشكال هندسية جميلة وازدانت جدرانها بالرسوم الجدارية (الفريسك)• وتعتبر لوحة الفسيفساء الغربية ذات أهمية كبيرة نظراً لندرة موضوعها فهي تصور مبنى على جانب كبير من الأهمية وقد يكون أحد الكنائس الهامة والمعروفة في ذلك الوقت بواجهتها الرئيسية الضخمة المبنية بالحجر البازلتي والتي تزينها الأعمدة • كما أنها مثلت صورة الهيكل في الزاوية الجنوبية الشرقية منها إضافة الى حي سكني ربما يصور بعض الأحياء السكنية في مدينة حمص آنذاك • ومن هنا تأتي أهميتها لأنها تدلنا على نمط العمارة في حمص آنذاك وكل ذلك يقع ضمن مجموعة من الإطارات الجميلة بعضها بأشكال هندسية وأخرى تبدو بتزيينات نباتية تشكل زهرة الأكانتوس بألوانها الجميلة العنصر الأساسي فيها • وحسب معلوماتنا تعتبر هذه اللوحة من أندر اللوحات التي تمثل المنظور•

ونعتقد بأن التدمير أو الحريق الذي تعرضت له المنطقة مراراً قد أصاب الباب الرئيسي للكنيسة ،إضافة الى واجهتها الرئيسية التي نرجح بأنها كانت تزدان بالأعمدة الغرانيتية • وحسب توقعاتنا فمن المحتمل أن يكون الباب الرئيسي لها في الضلع الجنوبي للصليب أو أن يكون مدخل الكنيسة الرئيسي في منتصف الجدار الغربي وقريب من موقع السور الحالي فإن الباب المكتشف ليس الباب الرئيسي وإنما هو ثانوي وقد يوجد في الطرف الشمالي للجدار باب فرعي آخر مناظر للباب المكتشف وقد يتم التوصل مستقبلاً الى الكشف عن أساساته عند التنقيب في تلك المنطقة • ويبدو لنا من أسلوب عمارة الجدار الغربي المكتشف أنه الجدار الأصلي للكنيسة في جزء كبير منه وأنه قد رمم أكثر من مرة للإستخدامات اللاحقة له ليكون جداراً للجامع النوري الكبير بدليل الاحجار المختلفة التي استخدمت في بنائه لذلك فان الجدار يمثل حدها الغربي

لكن لاتزال أمامنا مهمة معرفة حدودها الثلاثة الأخرى الشمالية والشرقية والجنوبية والتي نحن على يقين من وجود استمرارية لها في تلك الاتجاهات ،لأننا لم نعثر أثناء التنقيب على الهيكل أوالمذبح ولابد أنهما يقعان الى الشرق من المنطقة التي تم التنقيب فيها وتحت أرض الطريق العام شرقاً ،وهذا يدعونا الى القول إذا كان الجدار المكتشف هو حدها غرباً فإن الجامع الكبير يكون قد بني بجوار البيعة النصرانية من جهة الغرب وليس على أنقاضها كما يدعي الكثير من المؤرخين السابقين كابن حوفل وابن الفقيه والمقدسي وغيرهم لكونهم لم يطلعوا على مكان الكنيسة الحقيقي . وحسب المعطيات التي توصلنا إليها نتيجة التنقيب فقد بني الجامع مستنداً على جدار الكنيسة من الغرب وبعد تدميرها إثر زلزال أو حريق ، وعلى الاغلب اثر الغارات البيزنطية . كما تبين لنا بأن الجامع الكبير هو أحدث عهداً من السور المكتشف وقد استفاد المسلمون أثناء عمارته من الجدران القائمة وهي الجدار الشمالي الذي هو جزء من السور الشمالي للمدينة كما أنهم استفادوا من الجدران الغربية للكنيسة لذلك فإننا نرجح بأن السور الذي يشكل الجدار الشمالي لجامع النوري الكبيرهو أقدم عهداً من الجامع بدليل أنه استخدم مع جدار الكنيسة باعتباره حدوداً للجامع شرقا وشمالاً .

وبعد أن تأكدنا من هوية المكان المكتشف فإنه لاتزال أمامنا مهمة التأكد من إسم الكنيسة المكتشفة هل هي كنيسة مارقسطنطلين ؟ أم أنها كنيسة القديس يوحنا أو ماكان يطلق عليه إسم الكنيسة الكبرى أو البيعة النصرانية . ونعتقد ثانية بأن المسميات الأربعة ربما تكون لمسمى واحد . وقد تساعدنا أعمال التنقيب القادمة في التوصل الى نتائج قطعية في هذا المجال .

السؤال الثاني الذي يطرح نفسه الآن . كيف كان مخطط مدينة حمص في العصرين الروماني والبيزنطي ؟

وحسب اعتقادنا فان حدود المدينة كانت أوسع بكثير من حدود

المدينة الموجودة ضمن السور المكتشف لان اختراق سور المدينة للآبدة الأثرية المكتشفة في منتصفها تقريبا يدل على أنه بني بعد خراب الكنيسة من جهة كما أنه يدل من جهة ثانية على اضمحلال شأن حمص آنذاك وتقلص حدودها بالتالي . فإذا كانت حدود المدينة الواقعة ضمن الاسوار الحالية هي حدود المدينة الاسلامية لذلك أصبحت الضرورة ملحة الآن للبحث عن أسوار المدينة في العصور السابقة اليونانية والرومانية والبيزنطية لأننا وحسب المعطيات الحالية نؤكد بأن السور المكتشف والذي يمتد على طول ٢٤ م من العقارات المذكورة يعود قطعا الى العصر الإسلامي والذي يشكل جزءاً من السور الشمالي للمدينة والتي لاتزال بقايا جدرانه وأبراجه موجودة على الواقع بعضها ظاهر للعيان كالجدار الشمالي للجامع الكبير ببرجه نصف الدائري ،إضافة الى سور حي الاربعين . وبعضها الآخر طمس عندما ركبته المباني واستخدمت جدرانه كواجهات أمامية أو خلفية للبيوت المشادة حديثا أو أنه هدم لسبب أو آخر وانه بني حتما بعد دمار الكنيسة . إننا نعتقد جازمين بأن الأسوار السابقة للعصر الاسلامي تقع الى الشمال بعيداً عن الأسوار الحالية ولذلك لابد من تقصي معالم المدينة في الجهة الشمالية لملاحظة آية إشارات في طبوغرافيتها قد تشير الى احتمال وجود الأسوار التي تعود الى عصور أقدم .

لكن من الذي قام ببناء هذا السور ؟ وفي أي عهد تم تشييده ؟ إن المصادر التاريخية لاتسعفنا بجواب في هذا المجال وحسب المصادر التي اطلعنا عليها فإنها تتحدث عن قيام الخليفة الأموي مروان بن محمد بهدم أسوار حمص انتقاماً من أهاليها الثائرين عليه وربما فعل مثله الخلفاء العباسيون عندما ثارت حمص أيام الرشيد والأمين والمعتصم والمتوكل والمستعين .* وفي المصادر المشار اليها ذكر

* ـ حدثت فتن عديدة في حمص زمن الخلفاء العباسيين في عهد الرشيد سنة ١٩٠هـ و الامين سنة ١٩٤هـ والمتوكل ٢٤٠و٢٤١هـ وفي عهد المستعين مرة في سنة ٢٤٨هـ وثلاث مرات في سنة ٢٥٠ هـ .

لقيام الأمراء الحمدانيين والملوك الايوبيين بتدعيم القلعة والأسوار بينما لاتتحدث تلك المصادر عن مسألة تضييق رقعة المدينة ومن ثم بناء أسوار جديدة ٠

إن أهمية هذه الاكتشافات تعود لأسباب عديدة إضافة الى ماذكرناه آنفا : منها أن الآثار المكتشفة والتي تعود الى العصور السالفة قليلة في مدينة حمص ولم يعد يوجد فيها من المباني القديمة التي تشهد على مدى عظمتها في تلك العصور ومن هنا تأتي أهمية التنقيب الذي كشف عن آثر يعد من أهم الآثار التي تعود الى العصر البيزنطي ٠

ان التنقيب شرقي جامع النوري الكبير فتح أمامنا آفاقا كبيرة للعمل في مجال التنقيب عن الآثار ضمن المدينة القديمة والتي لم تحظ سابقا بمجهود يذكر على قلته ،وقد طرح التنقيب على بساط البحث أسئلة كبيرة هي بحاجة الى جواب ومنها أن بعض المعلومات التي وردت عند المؤرخين السابقين ماتزال بحاجة الى تحقيق وإعادة نظر على ضوء المعطيات الجديدة وبخاصة فيما يتعلق بالكنيسة المكتشفة وبناء الجامع النوري الكبير إضافة الى الأسوار ومن زاوية أخرى تحققنا من صحة المعلومات التاريخية التي كانت تتحدث عن أهمية حمص في العصرين الروماني والبيزنطي عندما كانت مدينة عامرة ثم كيف بدأت أهميتها تضمحل نتيجة لأسباب عديدة يمكن تلخيصها فيما يلي :

١ ـ ظهور نقمة على السلطنة في أواخر الحكم الاموي ٠

٢ ـ نقل مركز الخلافة من الشام الى بغداد أدى الى اهمال الشام ٠

٣ ـ الفتن والحركات الثورية العديدة التي قام بها أهالي حمص ضد السلطنة العباسية ووقوف أهالي حمص موقف المعارضة ٠

٤ ـ ضعف الدولة العباسية وبالتالي قيام دويلات عديدة متصارعة فيما بينها بالاضافة الى تعرض المنطقة للغارات البيزنطية والحروب الصليبية والمغولية والزلازل والاوبئة ٠

٥ ـ ضعف الامن وتفشي الامراض وانحسار الرقعة الزراعية وسيطرة البدو على زمام الامور ٠

كل ذلك ساعد في انحطاط شأن حمص ثم ازداد انحطاطها وتـردي الاوضاع فيها خلال فترة الحكم العصماني .

وقد جاءت الشواهد الاثرية التي بين أيدينا تؤكد هذه الحقيقـة لان اختراق السور الاسلامي لهذه الابدة يدل على خرابها واضمحـلال شأنها . لذلك استخدمت بعض الاعمدة الغرانيتية التي كانت تزينهـا لتدعيم الأسوار إضافة الى أنه يدل على تقلص رقعة المدينة .

إن المنطقة المجاورة لجامع النوري الكبير تبدو ذات أهمية كبيـرة من الناحيتين التاريخية والأثرية . لذلك فان التنقيب فيها خـلال الفترة القادمة قد يحمل إلينا الكثير عن تاريخ مدينة حمص وربمـا يوصلنا إلى نتائج هامة تنير لنا بعض الصفحات المجهولة وتعطينا الإجابة عن الاسئلة الكثيرة التي تبدو حالياً بدون حل .



حواشـــــي البحـــث

١ - قلعة حمص : وهي عبارة عن تل أثري يقع في الزاوية الجنوبية لمدينة حمص القديمة وتشرف قلعة حمص على سهلها من أعلى تل جزء منه طبيعي والاخر اصطناعي وتتخذ شكلا مستديرا في ذروته يبلغ قطرها نحو ٢٧٥م وترتفع حوالي ٣٢م عن سوية الطريق المجاور وتحاط بمنحدر ينحدر بسرعة نحو خندق كان يحيط بها وقد قامت بلدية حمص بردمه منذ عدة سنوات وتحول مكانها الى حدائق عامة بحيث لم يبق سوى أجزاء صغيرة منه في القسم الشمالي من القلعة .

٢ - قامت دائرة آثار حمص في عام ١٩٨٣ بتنقيب طارىء في قلعة حمص حيث تم اكتشاف كسر فخارية من النموذج المعروف بكؤوس حماة وهي نموذج من الفخار أرخ في الربع الثالث من الالف الثالثة قبل الميلاد وهذه القرينة الاثرية تؤكد وجود سكن في تل حمص معاصر لنفس السويات الاثرية المكتشفة في المشرفة (قطنا) وتل النبي مندو (قادش) وحماة وايبلا نشرت نتائج التنقيب في كتاب الموجز في تاريخ مدينة حمص وآثارها للاستاذ محمد ماجد الموصلي ،مطابع الروضة النموذجية ،حمص ١٩٨٤ صفحة ٩ .

٣ - د . سليم عادل عبد الحق - مقال مدينة حمص - الحوليات الاثرية - المجلد العاشر مطبعة الترقي دمشق ١٩٦٠ .
راجع مقال د . أنور حاتم - الذكريات السورية في روما - الحوليات الاثرية المجلد الحادي عشر والثاني عشر - مطبعة الترقي دمشق ١٩٦١ - ١٩٦٢ .

٤ - اسبيرو جبور - قديسون من حمص - المنشورات الارثوذكسية ١٩٨١ صفحة ١٥ .

٥ - أحمد وصفي ذكريا - جولة أثرية - دمشق - دار الفكر - طبعة ثانية ١٩٨٤ - صفحة ٣٣٤ ومابعدها .

٦ - شارك في ندوة "أسوار حمص وقلعتها" الزميلان الاستاذان محمد الشاطر ومنذر حمودي عضوا مجلس إدارة الجمعية التاريخية وأدار الندوة الاستاذ محمد علي المعاذ وهنا لابد لي من شكر الاستاذ منذر حمودي على الملاحظات القيمة والمعلومات الهامة التي أمدني بها فيما يتعلق بأسوار حمص وتصوره لمخطط المدينة قبل بناء الاسوار فله وافر الشكر .



حصار حمص والفتح العربي الإسلامي للمدينة (دراسة تاريخية نقدية)

بقلم الأستاذ محمد عبد الصمد الشاهر
عضو إدارة الجمعية التاريخية

في الفترة الاخيرة كثر الحديث عن حمص وكثرت الاتهامات واللوم لابنائها على تقصيرهم بحق بلدهم، لان ماعرف عن حمص حتى الان قليل. معظم المدن السورية درست مرات ومرات فلم يبق فيها قلعة أو سور أو كنيسة أو مسجد الا درس دراسة مستفيضة. أما حمص فمازال يغلفها النسيان. هذا القول فيه كثير من الحقيقة كما يحمل في طياته بعض التجاهل لماقيل وكتب عن حمص، وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر المؤلفات التالية :

تاريخ حمص لعبدالصمد بن سعيد، تاريخ حمص لعمر الاتاسي، تاريخ حمص لمحمد مكي، تاريخ حمص في حزأين للخوري عيسى أسعد وابنه منير حمص أم الحجارة السود ساطع محلي، ربوع محافظة حمص لعمادالدين الموصلي الموجز في تاريخ حمص ماجد موصلي .

رغم كثرة عدد التصانيف والمؤلفات بقيت صورة المدينة ضبابية في بعض جوانبها لعاملين اثنين :

الاول منهما :

ان تفاصيل تاريخ حمص قبل العصر الروماني بقي مجهولا ومشوشا لانعرف عنه الا النذر اليسير، وخاصة اذا ماعدنا الى ماقبل العصر الهلنستي، فالباحثون لهذه الفترة توفيقيون تنقصهم المادة التاريخية والخبر الواضح. يقحمون الامور اقحاما، فهم يتحدثون عن منطقة حمص وعن حمص المدينة وكأنهما شيء واحد، وغني عن البيان أن قادش وقطنا وارثوذا هي غير حمص.

قالوا انها ايمسيا اليونانية، (سترابون المؤرخ اليوناني أورد ذلك وكذلك بلنوس الروماني). ولكن قبل ايمسيا ماذا كانت ؟ . ثم ان ايمسيا هذه نفسها ماذا عنها ؟ لاشيء ولاشيء كثير فيما أعرف والى حد بعيد فيما يعرفون ويوثقون .

المسؤولون في مديرية آثار حمص نقبوا في قلعة حمص ووجدوا اكسرا فخارية يعود تاريخها الى ٢٤٠٠ قم مما يؤكد وجود سكن في تل حمص خلال هذه الفترة .

كما أن أهالي حمص عثروا عام ١٩٢٨ في الجهة الشرقية من المدينة أثناء الحفر على انسان متحجر غريب الشكل جدا طوله نحو ثلاثة أمتار وطول قبره يزيد عن أربعة أمتار وله جمجمة كبيرة جدا توازي قدر جمجمتين من الجماجم العادية ، ونابة لطول الاصبع يظن أنه من آثار أقدم العصور المعروفة في التاريخ وأن هذا الشاهد المحسوس يؤكد صحة النظرية بسكن العمالقة في البقعة الحمصية قديما قبل زمن التاريخ وقبل نزوحهم الى جنوب سورية ،ثم حل محلهم الاموريون(١)

وحمص كما يقول الدكتور جواد علي هي(Emesa - Hemesa - Homesay) فيشبه تاريخها من أوجه عدة تاريخ مدينة تدمر فقد حكمتها أسرة عربية وازدهر تاريخها في الزمن الذي ازدهرت فيه حكومات المدن الاخرى والتي ظهرت على أثر الضعف الذي حل بالسلوقيين ، وتقع في السهل الذي يرويه نهر العاصي وعلى مسافة ميل منه و عرفت ب(emesa) عند اليونان والرومان ، وفي أيام بومبيوس كانت مدينة Arethusa المجاورة لحمص وهي الرستن مقر أسرة عربية حاكمة وفيها ولد القيصر (Elagabalus) وبلغت أوج ازدهارها في أيام (سبتموس سفريوس) وقد استدل بعض الباحثين من صور أسماء ملوك حمص على أصلهم العربي.(٢)

ماذا نستفيد من هذا النص ؟:

المدينة بالاصل تدعى اما حمص أو حِمص أو اميسيا .

اذا الصحيح بأنها عرفت عند اليونان بهذا الاسم اميسيا) وليس اسما يونانيا لها ، فحمص بلا شك موجودة قبل اليونان والرومان بفترة طويلة .

---

١) ـ الخوري عيسى أسعد تاريخ حمص جا ص ٣٢ ـ ٣٤

٢) ـ جواد علي تاريخ العرب قبل الاسلام ص ٦٢٢ ـ ٦٢٣ ج ٢

كان هذا القول في السابق يحتمل كثيرا من الجدل فالكثيرون قالوا مازادت حمص في أقدم أصولها أن كانت بلدا سلوقيا، وآخرون قالوا بل هي رومانية ولم تتجاوز النقود المضروبة في حمص عام ٦٥ قم وتابعوا : ليست احدى ممالك الاراميين كحماة كما أنه لم يرد لها اسم في التوراة ، وتتالت عملية التعتيم على هذا المنوال ... الى أن قرئت ألواح ايبلا التي ازدهرت بين عامي ٢٤٠٠ - ٢٢٥٠ قم .فانسحبت بعض سحب التعتيم عن هوية حمص القديمة حيث ورد عنها : (ومن المدن التي يأتي ذكرها نورد على سبيل المثال : مدننا ماتزال حية هي مدينة (أرمان) التي يحتمل أن تكون مدينة حلب نفسها . ومدينة ايميسيا أي حمص ومدينة ايمات أي حماة ثم مدينة ديماشكي التي يغلب على الظن بأن تكون دمشق العاصمة السورية الحالية [١].

اذا حمص وقبل وجود اليونان اسمها ايمسيا وقد عرفها اليونان بهذا الاسم ولم يسموها به . وبهذا رد كاف على من قال بأن حمص مشكوك بقدمها وانها مازادت في القديم عن تجمع سكني صغير محصور في حدود القلعة فقد ورد اسمها مقرونا بأكبر المدن السورية الهامة والتجارية الكبرى . والقلعة بسكن أفقي لاتتسع الا لبضعة بيوت أو قرية صغيرة ، فوجود اسمها مقرونا مع أمثال هذه المدن يخرجها من هذه الدائرة الضيقة التي رسموها لها .

ليس لاحد أن يتحرج في شيء نريد المدينة تاريخها كما هو لاكما نريد ، فالتاريخ مجموعة حقائق انقضت لامجموعة أمان تراد .

العامل الثاني :

ان تاريخها الميلادي والاسلامي غير منسق عند معظم من كتبوا لان مصادرهم عن المدينة تكاد تكون واحدة نظرا لقلة وضآلة هذه المصادر من هنا لعبت الاهواء والخيال دورهما في تسجيل هذه الاحداث . اذ نجد أن تاريخ عبد الصمد بن سعيد مازال مجهولا أورده المصنفون فيما كتبوا أمثال ياقوت الرومي وغيره وتاريخ ابن مكي لم يلق ضوءا

(١)- وثائق ايبلا د . عفيف بهنسي ص ٢٨

يستنار به . وتاريخ عمر الاتاسي لاوجود له أورده فقط العلامة كرد علي في خططه [1] ويوميات الوفائي مازالت مخطوطة لم تنشر. ماذا بقي لنا بعد ؟ فلابد اذا من التفتيش في صفحات المصادر القديمة (الطبري - ابن الاثير - التاريخ المنصوري رحلة بن حبير - رحلة ابن بطوطة - أو لياجلبي - وصفى زكريا ... وهكذا نفعل ويفعلون ، وماورد في هذه المصادر غير كاف ولايروي ظمأ العطاش ، والمشكلة أن أحدا لم يعطف على مكتبات البيوت القديمة ويتصل بأصحابها ليرى ويرينا ماذا فيها ؟ .. والمشكلة الاهم والاوثق تلك هي مشكلة الحفريات الاثرية في مدينة حمص بالذات فمنذ القديم اسمها مسقط من قائمة المدن التي يجب أن تتم فيها الحفريات الاثرية . كل مانستطيعه الان دراسة بعض الاوابد الاثرية فيها وايضاح بعض ماغمض من تاريخها بقدر ماتسعف الحال . وهي خطوة متواضعة في آفاق تاريخ حمص العريق .

القلعة :

تل طبيعي ارتفاعه بالاصل لايزيد عن ستة أمتار حفر ماحوله ووضعت الحفريات في أعلاه حتى غدت القلعة المعروفة ، وغدا ارتفاعها حوالي ٣٢م ومحيطها ٩٠٠م لها في أعلاها أسوار وأبراج دفاعية ،فاذا ماهاجمها عدو ما مليء الخندق الذي يحيط بها من جميع جوانبها بالمياه ويتولى المحاصرون في أعلاها عملية الدفاع . يمدون من المدينة عند الضرورة على جسور متحركة ترفع وتوضع عند الحاجة اليها وهي أقدم ماسكن في المدينة ، وعندما ضاقت بهم توسعوا بالبناء فيما حولها واتخذوا للمدينة الموسعة سورا وأبوابا غير سور القلعة نفسها . وباب القلعة الرئيسي واقع في الجهة الشمالية للاتصال بالمدينة مباشرة .

وقد عرفت قلعة حمص بقلعة (أسامة) مع أن أسامة بن منقذ لم يبنها ،اذ أن أباه نصر بن علي بن منقذ أخذها من خلف بن ملاعب

(١)- خطط الشام كرد علي ج١ ص ٢٠

عام ٤٩٧هـ ١١٠٤م . كما أن القلعة الحمدانية انهارت عام ٥٦٥هـ نتيجة حدوث الزلزال ، فالابراج والجدران القائمة الان هي من صنع الايوبيين وهي التي امتنعت على السلطان . فعند مانزل السلطان صلاح الدين الايوبي على حمص دخل المدينة واستلمها وامتنعت عليه القلعة فخلف من يحصرها وسار الى حماة ثم الى حلب ثم رحل عنها بسبب نزول الصليبيين على حمص ووصل الى حماة ثامن رجب عام ٥٧٠ هـ وسار الى حمص فرحل الفرنج عنها فحصر القلعة وملكها في حادي عشرين شعبان ثم سار الى بعلبك[٥] ويخبرنا ابن نظيف الحموي في التاريخ المنصوري عما صنعه الملك المجاهد للقلعة والاسوار فيقول في حوادث سنة ٦٢٤ هـ (... وكذلك عمّر قلعة حمص ورفعها عما كانت عليه. وحصنها وعمق خندقها وأجرى المياه من الزراعة الى البلد نفسه وعمل قنوات وأجرى الماء في المدينة وعمل البساتين وتجرفت المياه في جميع أراضيها الغربية وزرع الارز عليها وغير ذلك وأطاعه العاصي وهذا لم يقدر عليه سواه من الملوك الذين تملكوا حمص[٦]. بينما نرى أن أولياجلبي يقول عن حمص بأن قلعتها ليس لها خندق وبابها متجه نحو الغرب ويأتي الماء الى المدينة بساقية شقت من العاصي(عاش مابين ١٦١١ - ١٦٧٩م) [٧].

هذا يوضح كيف يخطيء الرحالة والمؤرخون أيضا لعدم الدقة في تحري الخبر فالخندق موجود قبل الملك المجاهد/هوعمقه/وزيارة أولياجلبي تمت بعد اصلاحات المجاهد بمئات السنين .

---

(٥) - شفاء القلوب لاحمد الحنبلي ص ٨٦

(٦) - التاريخ المنصوري لابن نظيف الحموي ص ٨٦

(٧) - رحلة أثرية أحمدوصفي زكريا ص ٢٤ - ٢٥

الابواب والاســـوار : (٨)

في واقع الحال ما اتفق اثنان في عدد أبواب مدينة حمص ولا في أسمائها الحديدة والقديمة ، ولاغرابة في ذلك اذا أخذنا بعين الاعتبار أن كبار المؤرخين لم يتفقوا حتى الان على كيفية فتح المدينة حتى في التفاصيل الاساسية . وأقدم من تحدث عن الابواب بشيء من التفصيل الواقدي في كتابه فتوح الشام فقال بوجود أربعة أبواب للمدينة هي حسب توالي وتوزيع القادة عليها كما يلي : (فقسم أبوعبده عسكره فرقة" مع المسيب بن نجيه الفزاري وجعله على باب الجبل) مما يلي الباب الصغير ، وبعث فرقة أخرى مع المرقال بن هشام بن عقبة بن أبي وقاص فنزل بهم على (باب الرستن) وفرقة أخرى مع يزيد بن أبي سفيان فنزل بهم على (باب الشام) ونزل أبوعبيدة وخالد بن الوليد على الباب الصغير).

مركز القيادة اذا على الباب الصغير ويقع غرب الباب الغربي للجامع النوري الكبير . فالحمام الموجود بالقرب منه لفترة وجيزة كان يعرف (بحمام الصغير) والباب الذي يليه (باب الجبل) يعرف الان باسم (باب السباع). فلم يبق بابا يؤدي الى الرستن مباشرة سوى الباب الذي يعرف الان باسم (باب تدمر)وعلى هذا يكون هو (باب الرستن) بقي باب الشام بطبيعة الحال هو (باب الدريب) فهو الباب الرابع المتبقي والذي يؤدي الى الشام . بعدها تغيب المصادر عنا حول الابواب وأسمائها الى أن يأتي محمد المكي في يومياته عن الفترة (١٦٨٨-١٧٢٢) م فيقول ان للمدينة ثمانية أبواب هي (باب تدمر- باب هود - باب السباع باب الدريب - باب التكية - باب المدينة - باب البوابة - باب خان العشر) (٩)

(٨)- راجع مجلة البحث التاريخي العدد الثاني ص١٢٥ في دراسة ميدانية للقلعة والاسوار (محمد الشاطر- منذر حمودي) . وقد أظهرت الحفريات الجديدة بعض أجزاء السور وبعض الابراج في مناطق لم يكن للسور فيها أثر على ضوء ذلك وبناء على معلومات اضافية أخرى أتعرض لصياغة بعض فقرات البحث السابق بما يتفق مع المعطيات الجديدة .

(٩)- تاريخ حمص محمد المكي ص ١٨ تحقيق عمر العمر .

بينما الابواب المعروفة حتى الان عندأهالي حمصومازالتبعضآثارها قائمة حتى الآن هي : (باب التركمان ـ باب المسدود ـ باب هـود ـ باب السوق ـ باب تدمر ـ باب الدريب ـ باب السباع) وهكذا تختلف الابواب في عددها وأسمائها • أيام الفتح العربي الاسلامي كانتأربعة وفي ق ١٨م كانت ثمانية والمعروف الان سبعة أبواب على ماذكرأعلاه لاحظ أن الباب المسدود لم يذكر مطلقا لدى ابن مكي مع أنه موجود قبله بكثير اذ تشير الكتابة الموجودة على ساكفته أن بانيه المنصور ابراهيم الايوبي في ٦٤١هـ • بينما يقول الخوري عيسى عنه بأنه باب التركمان الذي دخل منه السلطان سليم فأغلق بالحجارة احتراما للسلطان وبقي مغلقا حتى نهاية الحرب العالمية الاولى ويعرف بالباب المسدود(١٠) •بينما باب التركمان يقع الى الجنوب منه بحوالي خمسين مترا ، ومازال البابان موجودين : الاول بشكل شبه كامل والثاني في آثاره وبقاياه ، شمال القلعة مباشرة • من المحتمل أن اسم باب التركمان كان يطلق على الباب المسدود فلما أغلق/اجلالاً للسلطان/فتح في السور باب آخر سمي بالاسم نفسه (باب التركمان) اذ أصبح البابالاساسي مسدودا • وهذا يفسر قرب البابين من بعضهما بحيث لاتدعو الضرورة الى وجودهما معا • كما أن باب التركمان لم يذكر لدى ابن مكي مطلقا باسمه مع كثرة ذكره للتركمان بمرارة واساءتهم للمدينة بأعمال النهب والتخريب • ولعل(الثغرة الموجودة في الجدار الشمالي للسور سماها باب البوابة • أما باب التكية وباب خان العشر فلا آثر لهما فيما بقي منآثار الابواب • مع أن آثار الابواب الاربعة الاساسية والاقدم مازالت موجودة • هذا وضع الابواب المحدثة على امتداد حدران السور • معظمها أقيم في العهد الايوبي ، خلا الابواب الاربعة الاساسية والتي كانت قائمة عند الفتح العربي الاسلامي للمدينة •

أسوار المدينة وأبراجها :

آسوار حمص لم تقتحم عنوة من قبل المسلمين • حاصروها غيرمرة

---

(١٠)ـ تاريخ حمص الجزء الثاني ص ٢٨٨ الخوري عيسى أسعد

وحرت حروب ومفاوضات كثيرة خارج المدينة كلها انتهت بالصلح.تكاد المصادر تحمع على ذلك مع اختلاف في التفصيلات الحزئية والشكليات لذا بقيت أسوارها وأبوابها البيزنطية سليمة لم تمس بشكل أساسي،حتى أواخر العصر الاموي اذ قام مروان الثاني آخر خلفاء الامويين برفع الاسوار وتقويتها عام ١٣٢ هـ بمساعدة القبائل القيسية ضد اليمنية المقيمة في حمص وماحولها . حيث خرجت عن طاعته فقمع ثورتها وحصنها ليأمن الفتنة ثانية.(١١)وفي العصر العباسي لم يتبدل شيء في وضع هذه الاسوار مع وحود ثورات يمنية بدأت تظهر بالمدينة منذ مطلع ق ٣هـ على عمالهم لانحيازهم الى القيسية . على عكس ماكان عليه الحال في أوائل قيام الخلافة العباسية (١٢)والتبدل الواضح في وضع الاسواربدأمنذ أواخر ق٤ هـ أواخر ق ١٠م حيث أحرقها وهدمها البيزنطيون أنفسهم من خلال الهجمات التي تمت في عهد نيكفورس الثاني وباسلسيوس .

وفي أواخر القرن الذي يليه /الخامس الهحري /أعاد الزلزال هدمها مرارا . وعاد الزلزال الى تخريبها في أواخر ق ٦ هـ فتهدمت القلعة الحمدانية الى أن جاء الايوبيون.فالقلعة وأسوارها وخندقها كلها من عمل الايوبيين . نخص بالذكر منهم الملك المحاهد(١٣) اذ نحده في عام ٦٢٤هـ يقوم بالاعمال التالية :(وفيها شرع السلطان الملك المحاهد صاحب حمص في حفر خندق القلعةوتعميقه وتوسعته وحصانته لانه من الثغور الاسلامية المندوب الى حصانته ، وقد كانت القلعةقبل ذلك مترجلة صغيرة فعلاها وكبرها وحصنها وعني بها آتم عناية لله تعالى. وساق

---

(١١)- الموجز في تاريخ مدينة حمص ص ٤٠ ماحد الموصلي .

(١٢)- الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلادالشام .د أمينة البيطار ص ٥٣.

(١٣)- الملك المجاهدشيركوه بن محمدبن شيركوه بن شادي ولاه الناصريوسف حمص بعد موت ابيه سنة (٥٨١)هـ وكان شجاعا شهمامقداما يباشرالحرب بنفسه وحفظ المسلمين من الفرنج والعرب أما من ناحية الفرنج فبنى الابراج على مخائض العاصي ويركب لقتال العرب من ناحية البرية (شفاء القلوب لاحمد الحنبلي ص ٢٣١) .

الى حمص المياه وأطاعه في ذلك العاصي الذي لم يطع قبله لغيره من الملوك(١٤) بعد الايوبيين ما أصاب القلعة ولا أسوار المدينة أي اصلاحات أو أعمال انشائية على العكس تعرضت المدينة بكليتها - بما فيها الاسوار والقلعة - لعمليات التخريب والهدم على يد البدو والتركمان وقطاع الطرق(١٥).

أما عن مسار الاسوار وأماكنها فقد أكدت الحفريات الاثرية والانشائية الجديدة صحة ماذهبنا اليه في العدد الثاني(١٦) اذ أن الاسوار في الجدار الشمالي بعد جامع حي الاربعين أصبحت واضحة وقائمة وتوقيع الباب الصغير مقابل الباب الغربي للجامع النوري الكبير لم يعد مجال مناقشة .

أما فكرة وجود سورين للمدينة فلم نعثر لها (حتى الان) على دليل مادي ملموس كما أن حفريات حي الفاخورة أظهرت امتداد السور في اطار توقعاتنا السابقة ، وقرب الزاوية الشمالية الشرقية للجامع النوري الكبير هناك ظهر السور وعليه من الجنوب مباشرة يقوم باب الكنيسة التي أوردتها أخبار الفتوح(١٧) مازال الباب قائما لم يمسح من الوجود شأن أطلال السور التي أزيلت لتقام مكانه الابنية الحديثة المقررة . وقد ظهرت ضمن غرف الكنيسة لوحات الفسيفساء البديعة التي اقتلعت من مكانها انقاذا لها وأرسلت الى معامل الترميم في معرة النعمان . ثم قلت العناية بالسور حتى سرح حراس الابواب وألغيت الضرائب والمكوس التي كانت تجبى من كل شخص يدخل المدينة ولم يعد له أي فائدة دفاعية ، في أواخر الحكم العثماني .

---

(١٤)- التاريخ المنصوري ص ١٣٧ ابن نظيف الحموي .

(١٥)- مقدمة تاريخ حمص ابن مكي تحقيق عمر نجيب العمر ص ٩٣

(١٦)- مجلة البحث التاريخي العدد الثاني محمد الشاطر منذر حمودي (ص١٢٥)

(١٧)- لاحظ رواية البلاذري في هذا "بحث حول فتح مدينة حمص واستثناء ربع كنيسة يوحنا للمسجد (الجامع الكبير)

الفتح العربي الاسلامي للمدينة :

تهدف هذه الدراسة الى التفريق بين أمور ثلاث :

١) عملية الفتح وما تبعها من معاهدات وحروب ودور أهل الجزيرة في مد المدينة .
٢) قضية جلاء المسلمين عن المدينة في طريقهم الى اليرموك
٣) اضطرابات حمص وتحرك هرقل ومحاولته تحريض الحزيرة مددا لمدينة حمص مما أدى الى فتح الجزيرة نفسها .

هذه الامور نجدها في مصادرنا القديمة ودراستنا الحديثة أيضا متداخلة مع بعضها بحيث يصعب تمييز بادرة عن أخرى .

١ ـ عملية الفتح :

آ) ـ روايات الواقدي :

وهو أكثر من فصل عملية الفتح هذه ـ والملفت للنظر أن رواياته في فتوح الشام تختلف عنها في المصادر الاخرى فروايات الفتوح تقول أن المدينة امتنعت على المسلمين أكثر من مرة وجرت حولها معارك طاحنة في أكثر من مكان ومع ذلك لم يدخلها المسلمون عنوة كما لم يدخلوها بعد الصلح الاخير مباشرة ... منذ بدء الفتح الاسلامي لبلاد الشام أراد أهالي حمص الصلح مع العرب المسلمين لذا نرى فرقتهم في حيث ورد ان تنسلخ عن الحيش الروماني الذى جاء مددا لاهالي دمشق وتطلب الصلح من خالد الذي لم يجده مناسبا ولما يصل الى مدينتهم بعد (١٨)

وبعد القاء الحصار على حمص عقب فتح دمشق خاف أهالي حمص ودفعوا الحيش المحاصر (نحن بين أيديكم ان فتحتم حلب قنسرين وهزمتم جيش الملك) ومرادهم كسب الوقت ليصل اليهم المدد (١٩).

---

(١٨) ـ الواقدي فتوح الشام جـ١ ص ٢٦
(١٩) ـ المصدر السابق ص ٦٤ ـ ٦٥

وبعد فتح قنسرين وانقضاء العام عاد خالد اليهم مسرعا ثم رفـده أبوعبيدة بعد فتح بعلبك ووزع جنده على الابواب الاربعة المـار ذكرها [٣٠]. وكانت المدينة قد تحصنت بعد أن أمدها هرقل بالبطريق هربيس فجرت مناوشات أعقبها صلح مقتضاه أن يرحل أبو عبيدة عنهم ثانية لقاء مده بالميرة. فقبل أبوعبيدة لانه وجد النصر الحاسم على المدينة سيكلف ثمنا باهظا لذلك قبل العرض واشترى الميرة وقايضها بغنائم الجنود فاشترى منهم (أهالي حمص) مايساوي ٢٠دينارا بدينارين حتى أفرغت المدينة من المؤن وكان الشرط أن لايعود اليهم المسلمون الا بعد أن يفتح الله على أيديهم مدينة من مدن الشام. وغاية أهل حمص الان كسب الوقت بانتظار مدد هرقل ثانية. والمسلمون لم تغب عنهم النوايا. فردوا عليها بشراء الميرة وترك البلد شبه خاوية من الزاد. وصلت أخبار الصلح هذا الى المدن العربية الاخرى فخافت وأسقط بيدها. أبوعبيدة استغل الفرصة وفتح الرستن حربا وشيزر صلحا وعاد الى حمص مسرعا، فقالت الروم غدرت العرب. وأرسلو وفدا منهم للمطالبة بالتقيد ببنود المعاهدة. وبعد المناظرة نفي الغدر وان الحمصيين لم يستوثقوا الانفسهم جيدا ولكنهم أبوا تسليم المدينة واستعدوا للقتال. وفي هذه الجولة استشهد عكرمة بن أبي جهل وقبره مازال قائما في الحي المسمى باسمه في جنوب حمص) - مع أن هذا يخالف رواية الطبري التي تقول: بأنه جرح واستشهد في اليرموك.

وكان الحمصيون يقاتلون في الوقت المناسب ويلجأون الى حصونهم في حال الشدة الى أن كانت المكيدة التي دبرها خالد بن الوليد ومضمونها كما رواها خالد لابي عبيدة نفسه: أيها الامير قد رأيت أن من الرأي أن ننكشف للقوم غدا وندع لهم سوائمنا وابلنا فاذا تباعدنا عن مدينتهم، وتبعتنا خيلهم وتباعدوا عن مدينتهم وصاروا معنا عطفنا عليهم ومزقناهم بالاسنة [٣١]

(٣٠) - المصدر السابق ص ٨٧

(٣١) - الواقدي فتوح الشام ص ٩٤ ج١

فانهزم خالد أمامهم وهو صاحب لواء الحرب يوم حمص فتبعه أهالي حمص وبدأوا عملية النهب فنهاهم أحد القساوسة الكبار قائلا لهم هذه مكيدة من مكائد العرب لان العرب لاتسلم أولادها وابلها ولو قتلوا عن آخرهم فلم يسمعوا له وتابعوا ملاحقة الجيش الاسلامي الذي تظاهر بأنه يريد (جوسيا أو الزراعة). وبعد أن تأكد خالد بأنهم ابتعدوا عن مدينتهم بما فيه الكفاية ثبت لهم والتفت فئة من جيشه حولهم وسبقتهم الى الابواب وأوقع فيهم مقتلة عظيمة من بينهم هربيس حاكم المدينة وقاتل عكرمة . ومع هذا النصر المبين لم يدخل أبوعبيدة المدينة حتى انه لم يقبل الضيافة والاكرامات التي قدمت له ولجنده ولم يدخلها المسلمون الا بعد اليرموك[٢٢]. وتبدأ بعدها قصة رحيلهم الى اليرموك التي اختلف الرواة فيها كما سيرد في بابه . ولم تكن شروطا للصلح هنا لانهم تجهزوا لليرموك وهذا من باب حسن المعاملة .

ب - الفتح برواية البلاذري :

وعملية الفتح لدى البلاذري في فتوح البلدان هي أيضا من رواية الواقدي ولكن بشكل مختلف وهي أكثر قبولا من روايته المماثلة في فتوح الشام :(قال الواقدي وغيره : بينا المسلمون على أبواب مدينة دمشق اذ أقبلت خيل للعدو كثيفة فخرجت اليهم جماعة من المسلمين ،فلقوهم بين بيت لهيا والثنية فولوا منهزمين نحو حمص على طريق قارا واتبعوهم حتى وافوا حمص فألفوهم قد عدلو عنها ورآهم الحمصيون وكانوا متخوفين لهرب هرقل عنهم وماكان يبلغهم من قوة كيد المسلمين وبأسهم وظفرهم فاعطوا بأيديهم وهتفوا بطلب

(٢٢)- الملاحظ أن الدكتورة سهيلة الريماوي في بحثها (الذي قدمته الى المؤتمر الرابع لتاريخ بلاد الشام) تجعل هذه المعركة بعد انسحاب أبي عبيدة الى اليرموك ورده الاموال الى أهالي حمص . والمعروف أنه بعد اليرموك لم تجر أي معارك مع أهالي حمص (المصدر السابق ص ٢٣٨)

الامان فأمنهم المسلمون وكفوا أيديهم عنهم فأخرجوا اليهم العلف والطعام وأقاموا على الارند. وهو النهر الذي يأتي انطاكية ثم يصب في البحر بساحلهاوكان على المسلمين السمط بن الاسود الكندي ،فلما فرغ أبوعبيدة من أمر دمشق استخلف عليها يزيد بن أبي سفيان ثم قدم حمص عن طريق بعلبك . فنزل بباب الرستن فصالحه أهل حمص على أن أمنهم على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم وأرحائهم واستثنى عليه ربع كنيسة يوحنا للمسحد واشترط الخراج على من أقام منهم . وذكر بعض الرواة أن السمط بن الاسود الكندي كان قد صالح أهل حمص فلما قدم أبوعبيدة أمضى صلحه. وان السمط قسم حمص خططا بين المسلمين حتى نزلوها وأسكنهم في كل مرفوض جلا أهله أو ساحة متروكة(٢٣)

حـ ـ الفتح عند الطبري :

(من رواية سيف بن عمر مبسطة وتتلخص بحصار واحد يلقيه المسلمون على المدينة التي امتنعت شتاء رجاء أن يهلكهم البرد لان طعامهم لحوم الابل وشرابهم آلبانها). وطال الحصار ولم يفعل الشتاء بالمسلمين شيئا. وبعد أن كبر المسلمون تصدعت الجدران وخاف الناس وطلبوا الصلح فحصلوا عليه . فأحابوهم وقبلوا منهم على أنصاف دورهم على أن يترك المسلمون أموال الروم وبنيانهم لاينزلون عليهم فتركوه لهم(٢٤)فصالح بعضهم على صلح دمشق على دينار وطعام على كل جريب أبدا أيسروا أوأعسروا وصالح بعضهم على قدر طاقته ان زاد ماله زيد عليه زان نقص نقص وكذلك كان صلح دمشق والاردن بعضهم على شيء انأيسروا وان أعسروا بعضهم على قدر طاقته وولوا معاملة ماجلا ملوكهم عنه . وبعث أبوعبيدة السمط بن الاسود في بني معاوية والاشعث بن مئناس في السكون معه ابن عابس والمقداد في بلي وبلالا وخالدا في الجيش بن شتير وذهيل بن عطية وذا شمستان

(٢٣)ـ البلاذري فتوح البلدان ص ١٣٢ حـ ١

(٢٤)ـ الطبري حـ ٣ ص ٦٠٠

فكانوا في قصبتها وأقام في عسكره . وكتب الى عمر بالفتح وبعث بالاخماس مع عبد الله بن مسعود ،وقد وفده وأخبره خبر هرقل وأنه عبر الماء الى الجزيرة فهو بالرهاء ينغمس أحيانا ويطلع أحيانا فقدم ابن مسعود على عمر فرده ثم بعثه بعد ذلك الى سعد بالكوفة ثم كتب الى أبي عبيدة :((أن أقم في مدينتك وادع أهل القوة والجلد من عرب الشام ، فاني غير تارك البعثة اليك بمن يكانفك ان شاء الله)) وبعدها بعث أبو عبيدة خالد بن الوليد الى قنسرين بعد فتح حمص وهي من حوادث عام ١٥ هـ .

د - الفتح برواية ابن الاثير[٢٥]

((لما فرغ عبيدة من فتح دمشق سار الى حمص فسلك طريق بعلبك فحصرها فطلب أهلها الامان فأمنهم وصالحهم وسار عنهم الى حمص فنزل على حمص ومعه خالد وقيل انما سار المسلمون الى حمص من مرج الروم - غربي دمشق[٢٦] وكان هرقل قد أرسل الى أهل حمص يعدهم المدد وأمر أهل الجزيرة جميعها بالتجهز الى حمص فساروا نحو الشام ليمنعوا حمص عن المسلمين . فسير سعد بن أبي وقاص السرايا من العراق الى هيت وحصرها وسار بعضهم الى قرقيسيا ، فتفرق أهل الجزيرة وعادوا عن نجدة أهل حمص . فكان أهلها يقولون تمسكوا بمدينتكم فانهم حفاة فاذا أصابهم البرد تقطعت أقدامهم فكانت أقدام الروم تسقط ولايسقط للمسلمين اصبع فلما خرج الشتاء قام شيخ من الروم فدعاهم الى مصالحة المسلمين فلم يجيبوه . فناهدهم المسلمون فكبروا تكبيرة فانهدم كثير من دور حمص وزلزلت حيطانهم فتصدعت ،فكبروا ثانية فأصابهم أعظم من ذلك فخرج أهلها اليهم يطلبون الصلح ولايعلم المسلمون بما حدث فيهم فأجابوهم وصالحوهم على صلح دمشق. وأنزلها أبو عبيدة السمط بن الاسود الكندي في بني معاوية والاشعث بن ميناس

(٢٥)- ابن الاثير الكامل جـ٢ ص ٣٤١ - ٣٤٢ دار الكتاب العربي بيروت .

(٢٦)- حدد موقعه الدكتور عبد الكريم رافق قرب التكية السليمانية (دراسات تاريخية - العدد السادس ص ٦)

في السكون والمقداد في بلي ، وأنزلها غيرهم وبعث بالاخماس الى عمر مع عبد الله بن مسعود وكتب عمر الى أبي عبيدة أن أقم بمدينتك وادع أهل القوة والجلد من عرب الشام فاني غير تارك البعثةاليك ثم استخلف أبوعبيدة على حمص عبادة بن الصامت وسار الى حماة ..))

رغم التشابه الظاهري في روايتي الطبري، وابن الاثير الانفتي الذكر فانهما يحملان في مضمونهما الكثير من التباعد والتشويش .

يستفاد من رواية ابن الاثير بأن نجدة أهل الجزيرة لاهالي حمص المحاصرين كانت بطلب من هرقل نفسه لمنع سقوط المدينة ولكن نجدات أهل العراق التي أرسلها سعد دونما طلب واضح من الخليفة عمر بن الخطاب ، منعت هذه النجدات من الوصول وتحقيق أغراضها . وبعد اعلام الخليفة بأمر الفتح بوصول الاخماس مع عبدالله بن مسعود،عمر يكتب الى أبي عبيدة بالاقامة بالمدينةويعده بالمدد . فلأي شيء يكون المدد الجديد طالما أن المدينة قد سقطت ونجدات أهل الجزيرة التي هيأها هرقل قد صدت .؟

رواية سيف بن عمر عند الطبري تجلي كثيرا من الغموض حيث نراه يقول أن أبا عبيدة بعد فتحه للمدينة أرسل الاخماس مع عبد الله ابن مسعود أيضا الذي أخبر الخليفة بخبر هرقل وتحريضه لاهالي الجزيرة / فهو ينغمس أحيانا ويطلع أخرى/ فيأتي رد الخليفة متوافقا مع واقع الحال هنا/ أقم بمدينتك واستعن بأهل الشام فالنجدةقادمة فكانت نجدة سعد . التي انهت تحشدات الحزيرة .

فهما متفقان في أن هرقل حاول ارسال النحدات من أهالي الجزيرة والاختلاف كما هو واضح حول زمان وأغراض هذه النجدات . وهي من حوادث عام ١٥ هـ عام فتح حمص/بأغلب الروايات/ وهو عام التوجه لليرموك بعد أن علموا بالحشود التي سيرها هرقل اليهم فاختار العرب اليرموك لتكون مكانا للمعركة بعد أن أخلوا مدن الداخل ومنها حمص .

ثم لنراقب فيما يلي رسالة أبي عبيدة الى عمربعد الفتح وقصة نزوحه عن حمص الى اليرموك كم تباينت الاراء حول هذه القضية وتشعبت حتى لاندري هل رسالة أبي عبيدة الى الخليفة بشرى بالفتح مع الاخماس

الواجبة ؟ أم هي استئذان في الجلاء عن مدن الشام لملاقاة حشود الروم في اليرموك ؟ ولماذا غضب الخليفة وطلب من قيادات العراق" وهي أمام مسؤوليات جسام وعلى أبواب القادسية "أن تمد جند حمص وتصد حشود الجزيرة ؟ثم لماذا غضب عمر هذه الغضبة المضرية واستنفر بنفسه ونزل الجابية على أثر انسحاب المسلمين من حمص ثم وفي العام التالي يأتي الجابية أيضا ومنها الى القدس التي أبت التسليم الا اليه ؟ •

لا أورد الروايات بتفاصيلها دفعا للاطالة وسأكتفي بالاشارة الى مصادرها لمن أراد التعمق والمتابعة (٢٧).

أرى أن المسلمين بعد فراغهم من أمر دمشق ضربوا حصارهم على حمص فامتنعت المدينة خلف أسوارها المنيعة وجرت مناوشات وحروب حول الاسوار • وعندما يئست المدينة من مدد هرقل سلمت بشروط المدن الشامية الاخرى • وعندما شرع هرقل بارسال قواته وحشوده لملاقاة المسلمين في المعركة الحاسمة (اليرموك) انسحبوا الى المكان الملائم للمعركة ولتلقي المدد من المدينة المنورة في آن واحد وحسب اشارة خالد بن الوليد عليهم •

تخبرنا مصادر اليرموك بأن المسلمين هم الذين نزلوا المكان أولا ووافاهم الروم بحشودهم الكبيرة الى هناك • فلا شيء يوجب لوم الخليفة وغضبه واستنفاره فكل شيء يسير وفق خطة محكمة ومدروسة •

والثانية أن أبا عبيدة رد الاموال التي أخذها من الحمصيين عند رحيله الى اليرموك وأن الحمصيين أقسموا بدفع جند هرقل عن المدينة أورد ذلك البلاذري اذ قال : (حدثني أبو حفص الدمشقي قال حدثني سعيد بن عبد العزيز قال: بلغني أنه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين اقبالهم اليهم لوقعة اليرموك ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم ، فقال أهل حمص لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم • ونهض اليهود

(٢٧)- الطبري ج٤ ص ١٥٤ وابن الاثير ج٢ ص ٣٤٠ - ٣٤١

فقالوا والتوراة لايدخل عامل هرقل مدينة حمص الا أن نغلب ونجهد فأغلقوا الابواب وحرسوها وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود • وقالوا ان ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا الى ماكنا عليه والا فأنا على أمرنا مابقي للمسلمين عدد،فلما هزم الله الكفرة وأظهر المسلمين فتحوا مدنهم وأخرجوا المقلسين فلعبوا وأدوا الخراج وسار أبو عبيدة الى جند قنسرين وانطاكية ففتحها(٢٨).

وعنه أخذكرد علي في خطط الشام(٢٩) وكذلك الازدي الذي قال عنه الزركلي لم أجد له ذكرا في المتقدمين (٣٠).

بينما الواقدي لايرى ذلك وعنده مايخالف هذا التصور: يقول الواقدي في مسيرجيوش الروم الى اليرموك(وأمرهم بالمسير الى اليرموك (لأمر هرقل) فسارت حيوش الروم يتلو بعضها بعضا لايمرون ببلد من مدائن الشام التي فتحها المسلمون الا ويعنفون أهلها ويقولون لهم : ياويلكم تركتم أهل دينكم وملتكم وملتم الى العرب • فيقولون لهم أنتم أحق بالملامة منا لانكم هربتم منهم وتركتمونا للبلاء فصالحنا عن أنفسنا فيعرفون الحق فيسكتون(٣١) هذا يدل على أنهم استقبلوا جيوش هرقل ولم يقاوموها واستضافهم زعيمهم أبو الجعيد في الزراعة ولكنهم غدروا به لاسباب مسلكية فقال الواقدي(حدثني أبوعبيدة عن صفوان بن عمرو عن عبدالرحمن بن حبير أن أبا الحعيد كان رئيسا من رؤساء حمص فلما اجتمع الروم على المسلمين في اليرموك دخلوا على حمص ونزلوا في بلدة تسمى الزراعة • وكان أبوالحعيد قد جعلها مسكنه لطيب هوائها ومائها وانتقل من حمص اليها فنزل عسكر الروم على الزراعة(٣٢).

(٢٨)ـ البلاذري فتوح البلدان حا ص ١٣٨

(٢٩)ـ خطط الشام كرد علي ج ١ ص ١٢٧

(٣٠)ـ الزركلي الاعلام •

(٣١)ـ الواقدي فتوح الشام ج ١ ص ١٠٠

(٣٢)ـ الواقدى فتوح الشام ص ١٣٨ ح

٣ - اضطرابات حمص وتحريض أهالي الجزيرة لتغذية هذه الاضطرابات :

هذه تحدث عنها الطبري في حوادث عام ١٧هـ بأن الروم بتحريض من أهالي الجزيرة اجتمعوا يريدون غزو حمص والقضاء على أبي عبيدة وخالد .(فلما سمع المسلمون باحتماعهم ضم أبوعبيدة اليه مسالحه وعسكر بفناء المدينة (حمص) وأقبل خالد من قنسرين اليهم فاستشارهم أبو عبيدة في المناجزة أو التحصين فأشار خالد بالمناجزة وأشار سائرهم بالتحصين ومكاتبة عمر فأطاعهم وكتب الى عمر بذلك. عمر يستنفر ويكتب الى سعد بن مالك باستنفار أهل العراق فنفرت قيادات العراق كلها لنجدة أبي عبيدة وخالد في حمص بل نفر عمر نفسه وخرج حتى حل بالجابية ولما بلغ أهل الجزيرة هذا الحشد الاسلامي تفرقوا..) . ومن قبل تفرقوا أيضا عندما حرضهم هرقل لنجدة حمص المحاصرة[٣٣] ومن الاهم من ذلك أن نجدات أهل العراق هي التي جعلتهم يتفرقون .

وعند ابن الاثير قبل ذلك فهو يعود الى أخبار حشود الجزيرة لمد هرقل ضد أهالي حمص وذلك في أواخر عام ١٦ هـ ثم يذكر الخبر نفسه في حوادث عام ١٧هـ تماما كما ورد لدى الطبري[٣٤] .

بعد هذا العرض يبدوا واضحا أن أبا عبيدة كتب الى عمر يستنفره ويستمده بسبب حشود أهالي الجزيرة مرتين : الاولى خلال عملية الفتح من عام ١٥ هـ . والثانية بعد أن استقر أبوعبيدة والمسلمون في حمص عام ١٧ هـ .

فقد حاول أهالي الجزيرة أثارة الروم والبلاد الشامية ضد المسلمين فيما يشبه التحريض على الثورة ، لذلك كتب أبو عبيدة يستمد عمر: (وكتب الى عمر بخروجهم عليه وشغبهم أجناد أهالي الشام عنه) . ثم نجد في نص الرسالة : (أن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على

---

(٣٣)- ابن الاثير جـ٢ ص ٣٤٢

(٣٤)- المصدر السابق نفسه ص ٣٦٦ و ٣٧١

أهل حمص ...)[٣٥]. وبهذا دلالة كافية على تشبث الروم ومحاولتهم المتكررة للعودة الى المدينة مرارا نظرا لمكانتها الخاصة لديهم فقد أولوها الكثير من اهتماماتهم وسخروا الكثير من امكاناتهم للاحتفاظ بالمدينة أو للعودة اليها . أمثال هذه المحاولات لم تبذل تجاه أي مدينة من مدن الشام .

(٣٥)- الطبري ج٤ ص ١٩٥ - القاهرة .

المنصور الأول صاحب حماة محمد بن تقي الدين عمر

بقلم الأستاذ محمد عدنان قيطاز

لم تكن حماة في نهاية العصر القديم وبداية العصر الوسيط سوى بلدة صغيرة حانية على نهر العاصي في خشوع الزاهدين ، تستعيد ذكريات الماضي البعيد ، أيام كانت ـ والآراميون في شباب الزمان ـ بارزة كالابريز في المعنى الوجيز ، ان لم تتألق جنباتها حضارة ونضارة.. توهجت اباء وفداء

وما كاد العصر الايوبي يلقي بجرانه رفيقا شفيقا.. حتى دب في عروقها نسغ الحياة الجديد، فأصبح قفرها خصبا ، ووحشتها أنسا ، وفقرها غنى ، وطلولها الدوارس معاهد علم، ومنارات فضل ،وغدت حماة في بلاد الشام مدينة العلم والادب" كما يقول محمد كرد علي،بل أصبحت جامعة كبيرة ، كل منزل فيها دار علم، وبيت حكمة ومجمع أدباء وفقهاء ورجال فكر، ومستودع كتب ومؤلفات شتى ماتزال بقاياها عابقة بأريج العتق وجلال القدم ، وذلك بفضل استنارة حكامها ورعايتهم للحركة العلمية . ويأتي على رأس هؤلاء الحكام المنصور الاول محمد بن تقي الدين عمر .

التعريف بالمنصور محمد :

هو ناصر الدين محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب(1) كان أبوه تقي الدين عمر ـ الملقب بالملك المظفر ـ سندا في البيت الايوبي ، شجاعا شديد البأس ، وعنده فضل وأدب . شارك عمه صلاح الدين في معظم حروبه مع الصليبيين وأبلى فيها البلاء الحسن ، كما ساعده على ارساء قواعد حكمه على مصر والشام ، وكثيرا ماكان يتولى تصريف شؤون مصر بالنيابة عنه . ثم قلده أمر حماة وملحقاتها سنة ٥٧٤ هـ

(١)ـ مفرج الكروب ٤ : ٧٧ وفيه شاهان شاه ،المختصر ٣ : ١٢٥

وبقيت بحوزته حتى وفاته سنة ٥٨٧ هـ .(١)

أما جدة نور الدين شاهنشاه بن أيوب ـ وهو الاخ الاكبر لصلاح الدين ـ فقد استشهد في حصار دمشق سنة ٥٤٣ هـ (٢).

وأصل البيت الايوبي يرجع الى أيوب بن شاذي بن مروان . وقد حاول بعض النسابة ـ على عادتهم في التقرب من أصحاب النفوذ ـ أن يردوا أصل الايوبيين الى العرب العدنانية ، وربما ردوهم الى البيت الاموي غير أن المؤرخ أحمد بن ابراهيم الحنبلي المتوفى سنة ٨٧٦ هـ يشير الى أن شاذي ـ الجد الثالث للمنصور محمد ـ من الاكراد الروادية ،وهي بطن الهذبانية من بلد دوين في أذربيجان(٣) .

ولادتـــــــه :

لم يذكر أصحاب التراجم سنة ولادة المنصور محمد بن تقي الدين عمر ، لكنهم أجمعوا على أن وفاته كانت سنة ٦١٧هـ ،وله من العمر خمسون سنة ، وأن مدة حكمه ثلاثون سنة ، فاذا كانت سنة حكمه على حماة هي سنة ٥٨٧ هـ فان سنة ولادته تكون ٥٦٧ هـ/١١٧١م وهي السنة التي قطعت فيها الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد ، وخطب باسم الخليفة العباسي المستضيء . وهذا يعني أن ولادته كانت في السنة التي تم فيها القضاء على الحكم الفاطمي في مصر وقيام الحكم الايوبي .

ومن المرجح أن المنصور محمد ولد في"منازل العز" المطلة على النيل في أجمل بقعة من بقاع القاهرة ، وهي المنازل التي بنتها أم الخليفة العزيز بالله الفاطمي ، وبذلت في سبيلها ماوسعها البذل حتى أصبحت بهجة للناظرين . وكان تقي الدين عمر مغرى بتلك المنازل

---

(١)ـ المختصر ٣ : ٦١ ـ ٧١ ـ ٧٤ ـ ٧٦ ـ ٨٠

(٢)ـ وفيات الاعيان ٢ : ١٦١ ، شفاء القلوب : ٤٩،المختصر٣ : ٢١

(٣)ـ شفاء القلوب : ٢١ وماتلاها ، ومن شاء مزيدا من التفصيل حول أصل الايوبيين فيمكنه الرجوع الى ماكتبه الدكتور علي ابراهيم حسن في كتابه القيم" مصرفي العصور الوسطى" أنظر : ١٧٢ .

كلفا بمناظرها وجمالها الاخاذ ، فأسكنه اياها صلاح الدين ،ثم أن له بشرائها ، ولكن نفس تقي الدين عمر آثرت عليها مادون ذلك ،وجعلها مدرسة للشافعية ، وقيل : وقفها على فقهاء الشافعية (١).

اخوته :

كان للمنصور محمد أخوان يكبرانه سنا ، أحدهما سعد الدين شاهنشاه وهو والد سليمان شاه صاحب اليمن - وقد أغراه بعض الصليبيين بالملك فاطمأن الى صدقهم ، فلما تفردوا به شدوا وثاقه وأخذوه أسيرا وبقي في الاسر أكثر من سبع سنين حتى افتداه السلطان صلاح الدين(٢). والآخر يقال له : شهاب الدين أحمد الذي استشهد في موقعة الرملة سنة ٥٧٣ هـ وهو في ميعة الشباب ، وقد حرضه أبوه على قتال الصليبيين ، ورأى من بسالته ما أثار اعجابه وسكن غضبه على أخيه (٣).

حياته الاولى :

نشأ المنصور محمد في كنف أبيه نشأة صالحة ، وقد تسنى له أن يأخذ نصيبا من العلوم الدينية والعربية . ولما آنس منه أبوه فطنة دفع به الى محدث الاسكندرية أبي الطاهر بن عوف السلفي فسمع منه الحديث وتأدب بآدابه (٤).

ولما استقرت حماة بيد تقي الدين عمر، رحل اليها ووجد على العاصي ماكان يجده من الجمال والجلال في" منازل العز" على النيل. غير أن الفترة الاولى من حياة المنصور محمد في ظل أبيه لم تكن وادعة كما يشتهي ، وانما كانت مشوبة بالحذر ، فالصليبيون يمدون أعناقهم الى حماة وماجاورها لبسط نفوذهم وتثبيت أقدامهم في

(١)- المختصر ٣: ٥٠ ،خطط المقريزي ٤ : ١٩٤

(٢)- مفرج الكروب ٢: ٦٠ ،الروضتين ٢: ٧٠ ،شفاء القلوب : ٢٧٢ - ٤٠٨

(٣)- مفرج الكروب ٢: ٦٠ ، المختصر ٤: ٥٩ - ٦٠

(٤)- شذرات الذهب ٥: ٧٧ ، فوات الوفيات ٢ : ٣١٥

المناطق الداخلية . وكانت رحلات الغزو أو المرابطة موصولة الاسباب وكثيرا ماكان المنصور محمد يرافق أباه في حروبه حتى أصبحت قعقعة السلاح وحمحمة الخيل مما تشتاقه النفس وتلذه العين . ولربما حضر مجالس أبيه ليكتسب خبرة في دنيا الناس ومرانا على أصول الحكم . ويحدثنا المنصور محمد في تاريخه " مضمار الحقائق" أنه ناب عن أبيه في حكم مصر سنة ٥٨٠ هـ خلال فترة وجوده مع صلاح الدين في بلاد الشام ، وعمره لايزيد عن الرابعة عشرة ، وكان الشاعر الكمال المغربي التنوخي ممن قصده مادحا راجيا نواله ، من ذلك قوله :

واذا خشيت من الزمان سجية ... تردي فلا تعلق بغير محمد
من معشر أحسابهم لم تنقطع ... عنا وجمرة عزمهم لم تخمد
زر محده تزر المكارم والعلا ... وترى الندى يغشاه في وجه ندي(١)

كما نجد في تاريخه جانبا من هذه الحياة التي استمرت حتى وفاة أبيه سنة ٥٨٧ هـ في حصار منازكرد ، وكان في صحبته المنصور محمد الذي أخفى خبر موته حتى لايتسرب الى الجند فيكون سببا في اضعاف معنوياتهم ، أو يسري الى أعدائه فيطمعون فيهم . وكان المنصور محمد من الحزم والصبر بمكان ، ثم قفل راجعا مع الجند الى حماة ، ودفنه في ظاهرها ، وبنى الى جانب تربة أبيه مدرسة ، وأجرى عليها الاوقاف تخليدا لذكرى أبيه ، وأصبحت تربة أبيه معروفة باسم " التربة التقوية "(٢) .

علاقات المنصور محمد مع الحكام الايوبيين:

خلف المنصور محمد أباه على حكم حماة وملحقاتها سنة ٥٨٧ هـ ، وقد حاول توسيع دائرة نفوذه ، فاستولى على المناطق الجزرية - ميافارقين وماحولها - وطلب من السلطان صلاح الدين عهدا بذلك وشرط عليه شروطا ، ولكن السلطان نسبه الى العصيان ، ورأى هذه الخطوة من جانب المنصور محمد تحديا لارادته واستهانة بسلطانه . فطلب من

(١)- مضمار الحقائق : ١٩٧ وماتلاها .
(٢)- المختصر ٣ : ٨٠

ابنه الملك الافضل أن يزحف بقواته على المنصور محمد صاحب حمـــاة ، كما كتب الى أصحاب البلاد الشرقية كالموصل وسنجار وديار بكر يحثهـم على نجدة الملك الافضل والوقوف الى جانبه .

ولما أحس المنصور محمد بغضبة السلطان ، بادر الى مراسلة الملك العادل – عم أبيه – لاسترضاء أخيه السلطان ، واصلاح ذات البين . وقد نجحت وساطة الملك العادل ، فأقر صلاح الدين المنصور محمد على حمـاة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم ، واسترد منه الاجزاء الشرقيـة وجعلها تحت ادارة أخيه الملك العادل مقابل التنازل عما كان تحـت سيطرته من بلاد الشام خلا بعض الاجزاء الجنوبية . ولما استتب للملـك العادل ما أقر له عاد الى مصر يصحبه المنصور محمد للمثول بين يـدي السلطان صلاح الدين وتقديم فروض الطاعة والولاء ، وعندما رآه صلاح الدين نهض اليه واعتنقه وأكرمه وأنزله في مقدمة عسكره ، ونسي ماكان منه وبذلك استقامت الامور للمنصور محمد ، وتحولت حماة من اقطاعيـة عسكرية الى مملكة وراثية (١).

وعندما مات صلاح الدين أصبحت بلاد الشام ومصر تحت ادارة أبنائه وآل بيته والامراء التابعين لهم ، ومع ذلك فقد تعرضت الاســرة الايوبية لخطر عنيف كاد يودي بحياة الاسرة لولا شجاعة الملك العـادل شقيق صلاح الدين – ودهاؤه . ولم يأت هذا الخطر من الوجود الصليبـي في المنطقة ، وانما جاءها ممن كانوا يتربصون بها الدوائر علـى أطرافها لاقامة ملك جديد على أنقاضها ، كما جاءها الخطر من داخـل الاسرة الايوبية نفسها .

فقد قاد بكتمر صاحب أخلاط تمردا في الجبهة الشرقية يؤيـده صاحب ماردين وصاحب الموصل وصاحب سنجار ، غير أن هذه الجبهة سرعـان ماتصدعت بعد أن وقف الملك العادل منها موقفا حازما ، يعضده أبنـاء أخيه وعلى رأسهم المنصور محمد صاحب حماة ، ويمثلون الجبهة الغربيـة

(١)– مفرج الكروب ٢ : ٣٧٧ وماتلاها ، المختصر ٣ : ٨٠ – ٨١ ، شفـاء القلوب : ٢٣٤ – ٢٣٥ ، الكامل فى التاريخ ١٢ : ٨٢ – ٨٣

ويبدو أن مقتل بكتمر صاحب أخلاط غيلة سنة ٥٨٩ هـ قد عجل بنهاية التمرد ،ودفع بأمراء الجبهة الشرقية الى الاعتذار وطلب العفو[1].

وماكاد التمرد ينتهي حتى شب النزاع على زعامة الاسرة الايوبية بين الاخوين : العزيز صاحب مصر والافضل صاحب دمشق .. كان الاثنان محور هذا النزاع الذي اشترك فيه أمراء البيت الايوبي ، وقد دام سبع سنوات من ٥٨٩ هـ الى ٥٩٦ هـ ، وانجلت الفتنة آخر الامر بتوحيد البيت الايوبي تحت زعامة الملك العادل الذي دخل أول الامر حكما في نزاع الاخوين ، ثم تحول الى مشارك فيه مع العزيز صاحب مصر ، وأخيرا الى طامع بالسلطة بعد وفاة العزيز وموقف الجند من سلطنة ابنه الصغير وقد تمكن الملك العادل بما أوتي من ذكاء وحسن سياسة من تحقيق مطامعه الشخصية في وراثة أخيه صلاح الدين .

ومن الثابت أن المنصور محمد صاحب حماة انحاز الى جانب الملك الافضل صاحب دمشق منذ بداية الصراع ، وكاد يودي بحياته ، ولكن المنصور محمد بعد أن استقل عمه الملك العادل بالسلطة أحس بضعف مركزه وعدم قدرته على مجابهة قوات الملك العادل ، فأرسل اليه يعتذر عن مساعدته للاخوين : الأفضل صاحب دمشق والظاهر صاحب حلب ،ويطلب رضاه . فلما قدم رسول المنصور محمد تلقاه الملك العادل بالترحاب وخلع عليه وأظهر الرضى عن المنصور محمد ، وكتب اليه الملك العادل أبياتا تنم عن أدب الكريم وحكمة الحكيم :

أتظنني من جفوة أتعتب ... قلبي عليك أرق مما تحسب
لايوحشنك ماجنيت فتنثني ... متجنبا .. وهواك لايتجنب
ما أنت الا مهجتي وهي التي ... أحيا بها ..فترى عليها أغضب
أنت البريء من الاساءة كلها ... ولك الرضى .. وأنا المسيء المذنب

وقال للرسول : ان كان قد صدرت منه هذه الزلة الواحدة ،فله من الحسنات مايمحوها ويمحقها . وطلب المنصور محمد من الملك العادل أن يزوجه

(١)ـ مفرج الكروب ٣ : ١٦ وماتلاها ،شفاء القلوب : ٢٠٢

ابنته ملكة خاتون ، فأجابه الملك العادل الى طلبه ، وزالت بهذه المصاهرة كل أسباب الجفاء[1].

وقد حاول الظاهر صاحب حلب أن يؤلب المنصور محمد على عمه الملك العادل في رسالة بعثها اليه ، يذكره فيها بسوء نية الملك العادل ، ويغريه بتوسيع ممتلكاته . ولكن المنصور محمد اعتذر عن اجابته متعللا باليمين التي حلفها للملك العادل ، ولايسعه أن يحنث بيمينه . فغيظ صاحب حلب ، وجرد حملة الى حماة وحاصرها سنة ٥٩٧ هـ ولكن المدينة امتنعت عليه . ولما أيقن الظاهر صاحب حلب باخفاق حملته صالح المنصور محمد على مال يدفعه اليه .. وعلى الدخول في طاعة الاخوين : الظاهر والافضل ان ملكا دمشق[2].

ولم يكن هذا الصلح سوى محاولة من المنصور محمد لكسب الوقت ، وبقي ملتزما جانب عمه الملك العادل ، وقد ساعده على ذلك : اخفاق الاخوين في حصار دمشق ، ووقوع الخلاف بينهما ، ومجيء الملك العادل من مصر . ولما شعر كلا الاخوين بضعف موقفه بادرا الى مصالحة الملك العادل واسترضائه ، وبذلك قطع الملك العادل دابر الفتنة ، وقضى على مظاهر الفوضى في البيت الايوبي ، وأصبح سيد الموقف في مصر والشام. وقد بارك الخليفة العباسي عمل الملك العادل ، وخلع عليه لقب الملك العادل شاهنشاه ملك الملوك وخليل أمير المؤمنين[3].

وفي عهد الملك العادل ضم المنصور محمد بارين" بعرين" بالقوة الى ممتلكاته ، وكانت بيد عز الدين ابراهيم بن المقدم، فألزمه الملك العادل بردها . ولكن المنصور محمد امتنع ثم مالبث أن أرضى ابراهيم بن المقدم،وتنازل له عن منبج وقلعة نجم بسبب بعدهما

(١)ـ مفرج الكروب ٣ : ٢٩ ـ ١١٣ ـ ١١٤

(٢)ـ المختصر ٣ : ٩٣ ، شفاء القلوب : ٢١٠ ، التاريخ المنصوري : ١٥ ، الكامل في التاريخ ١٢ : ١٦١ ـ ١٦٢ .

(٣)ـ مفرج الكروب ٣ : ١٣٢ وماتلاها ، المختصر ٣ : ١٠١ ،شفاء القلوب : ٢١٨ .

عن مركز حكمه • وقد اختار المنصور محمد عليها بارين لاكثر من سبب فهي أولا قريبة من حماة ويمكنه الاشراف عليها بصورة مباشـرة ، وثانيا فان بارين تشكل خط المواجهة مع الصليبيين الفرنجة المقيمين على الساحل ، ولهذا كان ضمها الى حماة عملا صائبا فرضته الضرورة العسكرية • وبذلك أصبحت ممتلكات المنصور محمد من البلاد : حماة والمعرة وسلمية وبارين(١) •

الحروب مع الصليبيين :

كان موت صلاح الدين وما رافقه من نشوب الصراع على السلطة بين أمراء البيت الايوبي عاملا هاما في خفوت حدة القتال مع الصليبيين ، وأصبحت المرابطة على الثغور أو القلاع ،والغارات الخاطفة أو الحصار المحدود هي البديل عن العمليات العسكرية الكبرى • ولعل الحكام الايوبيين كانوا يريدون التفرغ لتنظيم أوضاعهم الداخلية ، فرغبوا في تحقيق نوع من التعايش مع الصليبيين لانهم رأوا أن الوجود الصليبي على الارض العربية هو وجود موّقت وليس بذي خطر بسبب حالة الضعف التي يئن تحت وطأتها الصليبيون بعد هزيمتهم الشنعاء في حطين واخراجهم من بيت المقدس على يد صلاح الدين • لكن مثل هذه السياسة الوادعة لم تجد قبولا لدى المتشددين الاوربيين الذين كانوا يتطلعون الى الثأر والهيمنة على مقدرات الشرق العربي ،والتوسع ما أمكنتهم القدرة على ذلك • وكانت طوائف الداوية والاسبتارية تغذي مثل هذه الروح العدوانية ، وتعمل على ايقاد نار الحرب كلما استشعروا بانطفائها ، وهذا يفسر لنا دوام المرابطة على الثغور والقلاع والقيام بالغارات الخاطفة المتبادلة •

ففي سنة ٥٩٩ هـ أحرز المنصور محمد نصرا على فرنجة الساحل يعضده حكام حمص وبعلبك وحلب • وفي سنة ٦٠٠ هـ عقد معهم ـ أعني فرنجة الساحل ـ معاهدة بناء على طلبهم وموافقة الملك العادل • وفي سنة ٦٠١ هـ أغار الفرنج على حماة وتمكنوا من الوصول الى قرية الرقيطا على مشارف حماة ،وعادوا بغنائمهم وآسراهم مسرعين الى طرابلس بعد

(١)ـ مفرج الكروب ٤ : ٨١

تجديد الهدنة الى مدة معلومة ، وهي بالتأكيد ليست طويلة الامد. كما شارك المنصور محمد عمه الملك العادل في حصار طرابلس سنة ٦٠٣هـ رداعلى غارات الفرنج ، ولم يرجع الملك العادل الا بعد أن عقدوا معه صلحا وفي سنة ٦١١ هـ اجتمع الفرنج من قبرص وطرابلس وعكا وانطاكية تؤازرهم قوات أرمنية ، مستفيدين من وجود الملك العادل في مصر مع قواته ،فخشي المنصور محمد أن تكون حماة هدفا لعملية حربية كبرى لاطاقة له بدفعها ،فسارع الى الظاهر صاحب حلب ، وطلب منه التوسط لعقدالصلح،ونجحت الوساطة وبذلك تمكن المنصور محمد من ابعاد خطر الفرنج عن حماة من دون قتال .

وهكذا نجد أن حروب المنصور محمد مع الصليبيين لم تكن معارك ذات بال ، وانما كانت مقتصرة على الغارات والعمليات الثأرية التي تنتهي بالنصر حينا ، وبالصلح حينا آخر ، وهذا النوع من القتال هو الى التحريك أقرب منه الى التحرير ، أو قل هو ضرب من حرب الاستنزاف التي قادها المنصور محمد ضد الصليبيين(١).

وفاة المنصور محمد :

لم يعمر المنصور محمد طويلا ، فقد أصيب بالحمى بعد وفاة زوجته ملكة خاتون بنت الملك العادل بسنة واحدة ، وكانت امرأة ذات فضل ونبل ، جمعت بين رجاحة العقل وقسامة الوجه وسماحة اليد،وقد وجد فيها المنصور محمد ماكان يطمح اليه من كرائم النساء ، واختار أكبر أولاده منها المظفر محمود ليكون وليا لعهده ، وعندما ماتت سنة ٦١٦ هـ حزن عليها حزنا شديدا ،ولبس الحداد هو وأولاده ،وأمر بصعود أهل حماة الى القلعة للصلاة عليها . ويصف لنا ابن واصل مجلس العزاء في المدرسة المنصورية بقوله : ورأيته وهوجالس يمنةالمحراب ،وهو مكتئب حزين ، وهو لابس الحداد ، ثوب أزرق وعمامة زرقاء ،والى

(١)- مفرج الكروب ٣ : ١٤٣ - ١٤٤ - ١٦٢ - ١٦٤ - ٢٢٣ ،المختصر ٣ : ١٠٣ - ١١٦،شفاء القلوب : ٣٣٧ وماتلاها ،التاريخ المنصوري : ٤٤ والحاشية رقم ١

جانبه أولاده الملك الناصر قلج آرسلان واخوته وعليهم كلهم الحداد، وقرآت القراء بين يديه، ووعظت الوعاظ، وأنشدت الشعراء المراثي[1].

ويذكر أصحاب التراجم آن المنصور محمد مات في عهد الملك الكامل في شهر ذي القعدة سنة ٦١٧ هـ وعمره لايزيد عن خمسين سنة [2].

وقد أوصى المنصور محمد في مرضه باطلاق جميع مماليكه واماثه كما آوصى باطلاق كل من في حبوسه، وآثر عنه قوله: في الحبس من قد ظلمنا، وفيه من قدظلمناه [3]. ودفن في تربة آبيه "التربة التقوية" شمالي حماة، وتوهم الصابوني في تاريخه فذكر آنه مدفون بجانب الجامع الاعلى (الجامع الكبير) والصواب ماذكرناه [4]

الادارة والقضاء في عهد المنصور محمد :

يمثل المنصور محمد صاحب حماة رأس السلطة في محتمع المملكة الصغيرة الخاضعة لحكمه، وكان يتولى الاشراف بنفسه على أمور الرعية منذ فراغه من صلاة الصبح وحتى دخول الليل، لايشغله في ذلك مايشغل الحكام من الاستمتاع بملذات الحياة في ساعات لهوهم. وكان نهاره موزعا على أوقات العمل وقضاء المصالح، ولم يحتجب عن الناس فيأكثر أوقاته [5] يساعده في ذلك وزير يقوم بتنفيذ آوامره ونواهيه وآخر من تولى الوزارة في عهده زين الدين بن فريج الذي تآمر مع الجند بعد وفاة المنصور محمد وساعد على نقل ولاية العهد من المظفر محمود الى آخيه الناصر قليج آرسلان [6].

---

(١)- مفرج الكروب ٣ : ٦٤ - ٦٥ .

(٢)- مفرج الكروب ٤ : ٧٧ ،المختصر ٣ : ١٣٢ ،شذرات الذهب ٥ : ٧٧
النجوم الزاهرة ٦ : ٢٥٠ ،فوات الوفيات ٢ : الترجمة رقم ٤٤٤

(٣)- مفرج الكروب ٤ : ٧٧ ،التاريخ المنصوري : ٩٠ - ٩١ .

(٤)- تاريخ حماة : ١٢٠

(٥)- مفرج الكروب ٤ : ٨٠

(٦)- المختصر ٣ : ١٢٦ .

وكانت قلعة حماة هي مركز السلطة في المدينة ، وفيها مقر الحامية العسكرية ومستودعات السلاح والعتاد (الزردخاناة)۰ وقد أعاد المنصور محمد بناء أسوارها وجعلها من الحجر والكلس بعد أن كانت من اللبن أيام أبيه تقي الدين عمر ، ووسع الخندق المحيط بها وزادفي تعميقه حتى صارت القلعة كما يقول ابن واصل في تاريخه مضاهية لقلعة حلب ، بل أجود وأحصن[١] ، وربطها مع حمص بجسر أطلق عليه حسر الحديد لمتانة بنائه سنة ٥٩٤ هـ [٢]وقد عرف هذا الجسر فيما بعد باسم جسر المراكب أو جسر السرايا ۰

ويساعد المنصور محمد في تصريف شؤون المملكة نخبة من الامراء والعلماء ، فهناك كاتب الانشاء" كاتب السر" للديوان ، وهناك القضاة والفقهاء للمعاملات والخصومات واقامة الشعائر الدينية والحسبة والتعليم والنظر في أمور الاوقاف والمساجد وبيت المال والبيمارستان[٣]۰

أما بر حماة فله مسؤول خاص يدعى" محافظ بر حماة" وقد عرفنا ممن تولى المنصب في عهد المنصور محمد الفقيه شهاب الدين البلاعي الذي أسره الفرنج في احدى غاراتهم على حماة ثم تمكن من الفرار والعودة اليها[٤]۰

ولملحقات حماة كالمعرة وغيرها ولاة من قبل المنصور محمدللضبط والربط ، وربما كان الوالي من الفقهاء أو الامراء تسانده قوة من الحند ، والى جانبه قاضي للفصل في الخصومات والنظر في أمور الناس ۰

وقد حعل المنصور محمد لاصحاب الحرف مكانا يحتمعون فيه كل يوم لاعمال البيع والشراء وأطلق عليه سوق المنصورية (سوق الطويل)رتب فيه الباعة ، فكان كل أصحاب حرفة في جهة ، ورفع عنهم مايدفعونه من

---

(١)ـ مفرج الكروب ٤ : ٨٠

(٢)ـ التاريخ المنصوري : ٦

(٣)ـ المختصر ٣ : ١٧١

(٤)ـ المختصر ٣ : ١٠٦ ،التاريخ المنصورى : ٤٤ ـ الحاشية رقم١ نقلا عن تاريخ ابن الفرات ۰

مكوس أو خراج [1].

وهناك نقش حجري على قوس كتب في عهد المنصور محمد يعلن فيه بطلان المكوس والبدع من خراج السمن والعسل والقطن والعصفر والعفص وغير ذلك ، ولعن من بدله وغيره . وقد بقي هذا القوس حتى سنة ١٠٩٢هـ أي بعد أكثر من أربعة قرون من تشييده [2].

غير أن القضاء كان له الدور البارز في ادارة المنصور محمد ،فقد تولى القضاء في حماة ابان فترة حكم المنصورمحمد عدد من القضاةالذين تميزوا بعدالة أحكامهم ورجاحة أحلامهموالتزام جانب التقوى في كل مايصدر عنهم . وقد عرفنا منهم ضياء الدين بن الشهرزوري قاضي قضاة بغداد وكانت وفاته في حماة سنة ٥٩٩ هـ وزين الدين بن عبد المحسن الانصاري،وبهاءالدين أباليسر بن موهوب ،وحجة الدين بن مراحل السلماني ، ولكن المنصور محمد سرعان ماعزل الاخير وولى مكانه سالم ابن واصل والد صاحب"مفرج الكروب في أخبار بني أيوب "غيرأن ابن واصل مالبث أن استعفى بعد مدة مراعاة للقاضي حجة الدين لما كان بينهما من قديم المودة كما عرفنا من القضاة عماد الدين بن القطب ونجم الدين بن عبدالرحمن بن أبي عصرون وكان عظيما جليل القدر عند الملوك بسبب مكانة والده [3].

وكان للقضاة لباس خاص يميزهم في مجلس الحكم وهو ارتداءالطيلسان ولم تكن لهم دور خاصة بالقضاء بل كان جامع القلعة في حماة هو مكان التقاضي ، وفيه يجلس القضاة للحكم ، وفيه يحبس الجناة . وقد ذكر ابن واصل في تاريخه أن رجلا ولي أمرا فخان فيه ،فحبسه المنصور محمد بجامع القلعة [4].

---

(١)- مفرج الكروب ٤ : ٢٧١

(٢)- تاريخ حماة : ١٢٢

(٣)- مفرج الكروب ٤ : ٧٩-١١٨-١١٩- ١٦٥-٢٧٣-٢٧٤

(٤)- مفرج الكروب ٤ : ٨٤

ويقوم القضاة اضافة لما تقدم بمراسيم ولاية العهد ليسبغوا اعليها الصيغة الشرعية ، وقد جاء في تاريخ ابن واصل أنه في سنة ٦١٦هـ تقدم المنصور محمد بتحليف سكان حماة لولده المظفر محمود ، وعمره اذذاك سبع عشرة سنة ، فكتب القاضي سالم بن واصل والد مؤلف" مفرج الكروب" نسخة اليمين ، واستحلف له الناس بولاية العهد (١)

وكان في حماة قاضيان : لاول لاتباع المذهب الشافعي ،والثانـــي لاتباع المذهب الحنفي : وقاضي الشافعية هو المقدم لانه يمثل مذهـــب المملكة ، وهو الذي يخطب في جامع القلعة ،ويؤم المنصور محمد في الصلاة

أما العسكر فلهم قاض خاص يطلق عليه اسم "قاضي العسكر" ،كمـــا يوجد قاض في كل ولاية تابعة لحماة • فهناك مثلا قاض في سلمية ،وقاض في المعرة ،وقاض في بارين ، وكثيرا ماتجري التنقلات بينهمكما حدث عندما اختارالمنصور محمد قاضي المعرة ليكون قاضيا في حماة •

وللقضاة جرايات يأخذونها من بيت المال ،وقد يستعفي القاضي من الجراية ورعا وعفة اذا استغنى ، وهذا ماسوف نجده لدى بعض القضــــاة الحمويين أمثال شرف الدين البارزي وغيره ، وكانوا في عملهم هـــــذا قدوة لغيرهم من قضاة العصر •

حركة العلم والادب :

كان المنصور محمد من طراز الحكام المستنيرين الذين عرفتهم أوربة في بداية عصر النهضة ،ورغم الحوادث المتلاحقة التي كانت تشهدها بـــلاد الشام بسبب الوجود الصليبي ،فان ساحات الحرب ومتاعبها لم تشغـــــل المنصور محمد عن ساحات العلم والادب ومافيها من لذائذ لايعرفهـــــا الا أصحابها •

ويعود الفضل للمنصور محمد في ارساء قواعد النهضة العلميــــــة والادبية التي سطع نجمها في بلاد الشام ابان العهد الايوبي،حتى أصبحت حماة في عهده والعهود التي تلته من أبرز مراكز الثقافة العربية علـى

(١)- مفرج الكروب ٤ : ٦٤

امتداد أكثر من مائتي سنة . واني أعتقد أن عصر المنصور محمد كان ارهاصا لظهور عصر أبي الفداء الذي طبقت شهرته الافاق .

وقد نحج المنصور محمد ـ وهو العالم والمؤرخ والشاعر ـ في استقطاب العلماء والشعراء حوله ، وأسعدهم بحمايته ورعايته . وأصحاب التراجم يجمعون على أنه كان يحب العلماء والفضلاء من الناس وبخاصة أهل الادب والشعر ، ويحب سماع المديح ويجيز عليه . بل ان عدد من الشعراء الذين وفدوا اليه مادحين قد أتاح لهم فرص العمل في خدمته ، وأجرى لهم المرتبات التي تكفيهم عناء التنقل والارتحال طلبا للارتزاق ،فكنا نجد بين أعوانه من يقول الشعر سواء أكان الشاعر من طبقة العلماء أم من طبقة الجند، حتى أن قصيدة حسام الدين خشترين بن تليل كانت أجود ماقيل في تعزية المنصور محمد يوم وفاة زوجته ملكة خاتون،ولم يكن ابن تليل سوى واحد من جنوده (١).

ولعل أبرز الشعراء الذين نزلوا حماة ابان حكم المنصور محمد عليها أسعد بن يحيى السنجاري سالم بن سعادة الحمصي وشرف الدين الانصاري ،وكانت تهزهم شجاعة المنصور محمد في قتال الفرنج ،وتنشيهم انتصاراته عليهم ، فتثير في نفوسهم كوامن الابداع ويتبارون في انشاد قصائدهم في دار المزة بالقلعة ، فلاتنام العين الا على أهازيج الشعراء أو نعير النواعير . وحتى قال مارون عبود : لم يكن للملوك في هذا العصر شعراء مجيدون الا في حماة (٢).

ولم يكن العلم بأقل حظا من الادب ، فقد حرص المنصور محمد منذ بداية حكمه أن يكون في حماة من كل طائفة من أهل العلم أفضلهم ، وطار صيته بذلك ، حتى قصده القاصدون من أصحاب العلم والمعرفة ، ووجدوا عنده مالم يجدوه عند أصحاب الرئاسة في زمانه . فأصبحت حماة في عهده معهدا كبيرا يضم طوائف متعددة من أصحاب الثقافات كما أصبحت ملجأ لكل عالم أنكره قومه وضاقت عليه الارض .

(١)ـ مفرج الكروب ٤ : ٦٥ و ٧٧

(٢)ـ أدب العرب : ٣٠٦

ويذكر ابن واصل في تاريخه أنه كان في خدمة المنصور محمد أكثر من مائتي معمم من الفقهاء والنحاة وأهل اللغة والمشتغلين بالعلوم الحكمية زالمهندسين والمنجمين ـ علماء الفلك ـ والشعراء والكتاب [1].
وكان ممن ورد عليه الامام سيف الدين الآمدي، وكان محيدا في العلوم العقلية والنقلية ،وله في الاصول والمنقولات عدة مصنفات ،رد فيها على الامام فخر الدين الرازي والامام أبي حامد الغزالي وغيرهما من أكابر المتقدمين ، وأوضح بطلان أقاويلهم . ولذا تحامل عليه المتحاملون من رجال الدين ونسبوه الى انحلال العقيدة ومذهب الفلاسفة فهرب الآمدي من مصر الى حماة مدينة الفكر الحر .. ولما دخل على المنصور محمد رحب به وأكرمه ، وبنى له مدرسة هي المدرسة السلطانية المنصورية ، وجعل القاضي شهاب الدين بن القطب معيدا فيها. وكان المنصور محمد يواظب على حضور مجلس الآمدي ويشتغل بجميع فنونه .
وقد أثنى شيخ الاسلام العز بن عبد السلام على الآمدي بقوله: ماعلمنا قواعد البحث الا سيف الدين الآمدي . وحسب الآمدي شرفا مالقيه في رحاب المنصور محمد من اجلال وتقدير [2].

أما الكتب فكانت تحظى باهتمام خاص من المنصور محمد ، فقد جمع منها أعدادا ضخمة تضم سائر فنون المعرفة ، حتى أصبح لديه مالامزيد عليه . وكان حريصا على العناية بها وحفظها في خزائن داره في قلعة حماة . ويشير ابن واصل في تاريخه الى أن المنصور محمد كان يكثر من مطالعة الكتب ومراجعتها واستحضار العلماء والبحث معهم [3] وهذا ماسهل عليه تأليف طائفة من كتب الادب والتاريخ .

(١)ـ مفرج الكروب ٤ : ٧٩ ،المختصر ٣ : ١٢٥

(٢)ـ مفرج الكروب ٤ : ٧٨ ، المختصر ٣ : ١٥٥ ،طبقات السبكي: ٥ ١٢٩

(٣)ـ مفرج الكروب ٤ : ٨٠

آثار المنصور محمد :

جمع المنصور محمد في اهابه سجايا الحاكم ومزايا العالم، وكانت حماة في عهده قمة حضارية يفيء الى سفحها أعلام الادب والعلم من كل مكان . ولقد ترك المنصور محمد ـ فيما ترك من آثار ـ جملة من المؤلفات عرفنا منها : كتاب مضمار سر الحقائق وسير الخلائق، وكتاب طبقات الشعراء ، وكتاب درر الآداب في محاسن ذوي الالباب، وديوان شعر لم يسلم من قصائده الا القليل .

١ ـ مضمار سر الحقائق وسير الخلائق :

كتاب واسع في التاريخ ، اتبع فيه المنصور محمد طريقة الحوليات في سرد الاحداث . ومن المؤسف ألا يصلنا من هذا السفر الضخم سوى جزء واحد ، قام بتحقيقه الدكتور حسن حبشي عام ١٩٦٨ عن نسخة المكتب الاحمدية بتونس . وهذا الجزء يتضمن أحداث ثماني سنوات فقط : من بداية سنة ٥٧٥ هـ وحتى مستهل سنة ٥٨٢ هـ، ويمثل فترة من عهد السلطان صلاح الدين .

ويلاحظ أن المنصور محمد في تاريخه قد عمد الى بسط أخبار الدولة العباسية في بغداد ، وأعمال صلاح الدين وحروبه مع الصليبيين . وكان اهتمام صاحب المضمار بالغا بوقائع حملة قراقوش المظفري في المغرب لعلاقة ذلك بالبيت الايوبي ، وهذا الاهتمام نكاد لانجده عند مؤرخ سواه ولما كان المنصور محمد مشاركا في صنع الاحداث ، فهو يقدم لنا من خلال سرده لها سيرة ذاتية تتضمن تفصيلات أخباره وأخبار أبيه تقي الدين عمر ، حتى لتكتسب أحيانا صفة المذكرات اليومية مما يضفي على تاريخه قيمة خاصة .

وقد جرى المنصور محمد في تاريخه على أسلوب المتأدبين من غير عسرة ولاتكلف ، فألفاظه سهلة المأخذ ، وعباراته واضحة المقصد . وقد يلجأ الى الحوار وهو يسرد الاخبار ، فلا يشعر قارئه بالملل وأحيانا يستشهد بالنصوص الشعرية الكاملة مدللا على حسن تذوقه للادب وتقديره لاهله ، ولايختار منها الا ماكان طريفا نادرا ، ليجعل القارئ

أو السامع مستروحا بين جمال النثر وجمال الشعر ، وكلاهما واضح مبين.

وتاريخ المضمار بعد هذا لايخلو من حس نقدي سليم ، وفهم ذكي لسير الاحداث ، ولذا نرى صاحبه يعلل أحيانا مايراه بحاجة الى تعليل ، أو يحلل اذا كان في التحليل ابانة ونور . وقد لانكون مبالغين اذا قلنا ان كتاب المضمار من أهم الاصول التاريخية ، وأبرعها صياغة ، وأكثرها تصويرا ، وأشدها جاذبية ، وأعظمها متعة وفائدة .

ومن الواضح أن تاريخ المضمار قد حظي باهتمامات المؤرخين القدامى ، فمنهم من ذكره منوها بفضله ، ومنهم من نقل عنه نقلا يتراوح بين الاشارة والعبارة ، ومنهم من شكك بصحة نسبته الى المنصور محمد .

فقد اعتمد عليه ابن واصل في تاريخه ، وقال عنه : هو في عشرين مجلدة [1]. وأتى على ذكره أبوشامة في صدد الحديث عن المنصور محمد بقوله : وصنف كتابا سماه المضمار ، جمع فيه جملة من التواريخ وأسماء من ورد عليه وأقام عنده [2]. كما ذكره أبو الفداء في تاريخه بقوله : وصنف الملك المنصور عدة مصنفات مثل المضمار في التاريخ [3] وابن شاكر الكتبي حيث يقول : وجمع تاريخا على السنين في عدة مجلدات ، ونقل عن شهاب الدين القوصي قوله : قرأت عليه - يعني المنصور محمد - قطعة من كتابه مضمار سر الحقائق وسير الخلائق وهو كبير نفيس يدل على فضله ، لم يسبق الى مثله [4]. وقال ابن العماد : وجمع تاريخا على السنين في مجلدات [5]. وينقل أحمد بن ابراهيم الحنبلي في تاريخه عبارة أبي الفداء نفسها [6].

(١)- مفرج الكروب ٤ : ٨٤

(٢)- ذيل الروضتين : ١٢٤

(٣)- المختصر ٣ : ١٣٢

(٤)- فوات الوفيات ٢ : ٣١٥

(٥)- شذرات الذهب ٥ : ٧٧

(٦)- شفاء القلوب : ٣٣٨

وأشار الى تاريخ المضمار عدد من المؤرخين المعاصرين أمثال الشيخ أحمد الصابوني في تاريخه [١] والزركلي في أعلامه [٢] وكحالة في معجمه [٣].

أما حاجي خليفة فانه يشكك في صحة نسبة المضمار الى المنصور محمد ، اذ جاء في كتابه كشف الظنون قوله : وتوهم بعض المؤرخين فأسند اليه ـ يعني المنصور محمد ـ وانما صنفه رجل من علماء عصره ويعني سيف الدين الآمدي ـ كما هو المفهوم في المختصر [٤].

ولدى الرجوع الى تاريخ المختصر في أخبار البشر لم أجد حاجي خليفة على صواب فيما ذهب اليه ، ذلك أن أبا الفداء صاحب المختصر لم يستخدم أية عبارة توحي بالشك في صحة نسبة المضمار ، وانما كان واضح العبارة عندما أسند المضمار الى صاحبه المنصور محمد [٥].

ويبدو لي أن صاحب كشف الظنون كان يقصد ابن الوردي صاحب تتمة المختصر وليس أبا الفداء صاحب المختصر . ومن المؤكد أن ابن الوردي عندما قام بتلخيص المختصر والتذييل عليه لم يحافظ على جوهر الحقيقة التاريخية كما وردت عند أبي الفداء ، وانما أخل بها عند اختصاره ، فوقع في الخطأ ، ونسب كتاب المضمار الى غير صاحبه . وقد جاء في تاريخ بن الوردي ـ وهو يتحدث عن المنصور محمد ـ مانصه :وكان شجاعا يحب العلماء . وورد اليه منهم جماعة مثل السيف الآمدي وصنف له مصنفات مثل المضمار في التاريخ وطبقات الشعراء [٦]. وهذه الكلمات التي أوردها ابن الوردي في تاريخه تنفي عن المنصور محمد الصفة العلمية وتجرده من مكانته السامية بين المؤرخين . والحقيقة كما رأينا هي

(١)ـ تاريخ حماة : ١٢٠

(٢)ـ الاعلام ٧ ـ مادة الملك المنصور .

(٣)ـ معجم المؤلفين ١١ ـ مادة محمد الايوبي .

(٤)ـ كشف الظنون ٢ : ١٧١٢

(٥)ـ المختصر ٣ : ١٢٥ .

(٦)ـ تتمة المختصر ٢ : ٢٠٧ .

خلاف ذلك ، فهو صاحب المضمار في التاريخ بلا امتراء ،ويؤيدماذهبنااليه صاحب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب " وقد نقل عنه وكان معاصرا له وقريبا منه ، كما شهد بفضله ابن نظيف الحموي في " التاريخ المنصوري " وكان أيضا معاصرا له ولكنه غير قريب منه ، فقد جاء في تاريخه قوله : كان حسن السيرة ، عالما بالسير والتواريخ وعلم الكلام [١].

٢ - طبقات الشعراء :

يذكر الدكتور حسن حبشي أن الطبقات معجم للشعراء ، وفيه الكثيرون ممن طواهم النسيان [٢]، ويشتمل هذا الكتاب على طبقات الشعراء المتقدمين من الجاهلية والمخضرمين ٠ والاسلاميين والمحدثين ،كما يضم طائفة مختارة من أخبارهم وأشعارهم.

وقد أتى على ذكر الطبقات ابن واصل في تاريخه [٣]وأبو الفداء في المختصر [٤]وابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات[٥]وابن العماد في شذرات الذهب [٦]وأحمد بن ابراهيم الحنبلي في شفاء القلوب[٧] و حاجي خليفة في كشف الظنون[٨]والصابوني في تاريخ حماة [٩]والزركلي في الاعلام [١٠]وكحالة في معجم المؤلفين[١١]وفي كتابة التاريخ والجغرافية

---

(١)- التاريخ المنصوري: ٩٠

(٢)- مضمار الحقائق - ز

(٣)- مفرج الكروب ٤ : ٧٨

(٤)- المختصر ٣ : ١٣٢

(٥)- فوات الوفيات ٢ : الترجمة رقم ٤٤٤

(٦)- شذرات الذهب ٥ : ٧٧

(٧)- شفاء القلوب : ٣٣٨

(٨)- كشف الظنون ٢ : ١١٠٢

(٩)- تاريخ حماة : ١٢٠

(١٠)- الاعلام ٧ - مادة الملك المنصور

(١١)- معجم المؤلفين ١١ - مادة محمد الايوبي

في العصور الاسلامية [1]. وقد شذ ابن الوردي في تاريخه فنسبه الى السيف الآمدي خطأ ، وقد أشرنا الى ذلك وفندناه عند الحديث عن كتاب المضمار [2].

ومعظم هؤلاء المؤرخين يجمعون على أن طبقات الشعراء يقع في عشرة مجلدات وفي مكتبة جامعة ليدن نسخة غير تامة برقم ٦٣٩ محفوظات شرقية . ويشير صاحب فهرس المخطوطات المصورة الى وجود نسخة في مصر مصورة عن نسخة ليدن وتقع في/٥٨٠/ صفحة . وأعتقد أن هذه النسخة لاتشكل سوى جزء يسير من المخطوط الاصلي المسمى" أخبار الملوك ونزهة المالك والمملوك في طبقات الشعراء المتقدمين من الجاهلية والمخضرمين والاسلاميين والمحدثين وذكر مختصر من أخبارهم ومختار أشعارهم ومن تلاهم من الشعراء الى هذا الزمان والاوان " بدليل أن أول مافي النسخة الباقية ترجمة أبي الحسن علي بن محمدالتهامي،وآخرها تم الجزء الاول من طبقات الشعراء ، ويليه الجزء الثاني منه وهو آخر الكتاب ان شاء الله ، وأوله ذكر سعادة بن عبدالله الحمصي الشاعر الضرير ومختار شعره [3].

ويستفاد من هذه العبارة أن مابقي من كتاب طبقات الشعراء هو جزء من جزأين يشتملان على الشعراء المحدثين فقط ، أما أجزاء الكتاب الاخرى ـ أعني تتمة العشرة ـ فما تزال مفقودة ...

والكتاب ـ كما يفيد الجزء الباقي منه ـ من املاء الملك المنصور محمد في يوم الاربعاء ٢٢ ربيع الآخر سنة ٦٠٢هـ في دار المزة بقلعة حماة ، أي قبيل وفاته بخمس عشرة سنة .

---

(١)ـ التاريخ والجغرافية في العصور الاسلامية : ١٦٥
(٢)ـ تتمة المختصر ٢ : ٢٠٧
(٣)ـ فهرس المخطوطات المصورة ـ الجزء الثاني ـ القسم الثالث : ١٠ـ ١١

٣ - دور الاداب في محاسن ذوي الالباب :

لم يذكر هذا الكتاب سوى مؤرخين معاصرين هما : الزركلي في الاعلام [١] وكحالة في معجم المؤلفين [٢]. ونجد لدى الزركلي اشارة الى أن الكتاب مايزال مخطوطا ، غير أنه لم يحدد لنا مكان وجوده ،وقد حاولت مستقصيا أن أقف له على ذكر في معظم الفهارس الخطية أوالمصورة المطبوعة .. ولكني لم أوفق الى ذلك .

٤ - ديوان شعر :

ذكر ابن واصل في تاريخه ديوانا مجموعا للمنصور محمد [٣] ويبدو أن هذا الديوان لم يسلم من حوادث الدهور ،فلم تصلنا منه سوى قصائد ومقطعات وأبيات متفرقة أورد بعضها ابن واصل في موضع عدة من تاريخه [٤] ، كما أورد له صاحب فوات الوفيات [٥] وصاحب تاريخ حماة [٦] نتفا من أشعاره . ويكتفي أبوالفداء في تاريخه بذكرالعبارة التالية : ركان ينظم الشعر [٧] أما صاحب شفاء القلوب فينقل عبارة أبي الفداء نفسها [٨].

ويشير صاحب الاعلام [٩] وصاحب معجم المؤلفين [١٠] الى وجود الديوان ولكني لم أعثر على مايؤيد ذلك ، ومن المرجح أن الديوان مفقود مع جملة مافقد من تراث العرب الضخم .

---

(١) - الاعلام ٧ - مادة الملك المنصور .
(٢) - معجم المؤلفين ١١ - مادة محمد الايوبي
(٣) - مفرج الكروب ٤ : ٨١
(٤) - المرجع السابق : ٦٥ - ٦٨ - ٨١
(٥) - فوات الوفيات ٢ : الترجمة رقم ٤٤٤
(٦) - تاريخ حماة : ١٢٠
(٧) - المختصر ٣ : ١٣٢
(٨) - شفاء القلوب : ٣٣٨
(٩) - الاعلام ٧ - مادة الملك المنصور .
(١٠)- معجم المؤلفين ١١ - ماده محمد الايوبي .

يقول المنصور محمد من آرجوزة مفتخرا :

انـــي مـــن قوم كرام شـــمّ ... بحـــار جود وبحـــار علــــــم
من كل ذي بأس شجاع شهـم ... يذبّ عن هام العـلا ويحمـــي
يُرَبّ حسود لي.. ولا أسمـــي ... يهرب من سهمي حين أرمـــي
أغفل عنـــه غفلة الاصـــمّ ... ولايمـــر قتلـــه بوهمـــي
لـو حل من خوف محلّ العصـم ... أدركته بهمتـــي وعزمـــي(1)

وقال يذكر حروبه من الصليبيين :

كم قد أبدت بسيفي كل مفتخر ... حامى الحقيقة يوم الجحفل اللجب
وكم تركت بني الافرنج في رعب ... فصرت أدعى لديهم جالب الرعـــب
كفعل آبائي الغر الذين همـوا ... كانوا لدين الهدى كالوالد الحدب(2)

وقال متغزلا :

أربي راح وريحـــان ومحبوب وشـــادي
والذي ساق لي الملك..له دفع الاعـــادي(3)

وهذه الشواهد هي أفضل ماقرآته للمنصور محمد صاحب حماة ،ولئـــن دلت على كرم الخصال وشرف النضال ، فانها لاترقى به الى سماء الشعـــر والملوك هم حكام زمانهم ، أما الشعراء فهم ملوك البيان في كل زمـــان ومكان .

* * *

تلكهم هي صورة الحاكم الذي عرفته حماة ، وعاشت في أيامه عصرا زاهيا حافلا بالامجاد . لقد وطد دعائم البيت الايوبي فيها ،وأقام مملكة دامت أكثر من قرن ونصف ، وأرسى قواعد النهضة التي حمل لواءها أخلافـــه من بعده وعلى رأسهم الملك المؤيد أبو الفداء المؤرخ والجغرافي العظيم.

---

(1)ـ مفرج الكروب ٤ : ٨٣
(2)ـ المرجع السابق ٤ : ٨٢
(3)ـ فوات الوفيات ٢ : الترجمة رقم ٤٤٤

* كشاف المراجع والمصادر *

١ - أدب العرب : مارون عبود - دارمارون عبود - بيروت ١٩٦٨

٢ - الاعلام : خير الدين الزركلي - الطبعة الثانية

٣ - التاريخ المنصوري : ابن نظيف الحموي - تحقيق أبوالعيد دودو - مطبوعات مجمع اللغة العربية - دمشق ١٩٨٢

٤ - التاريخ والجغرافية في العصور الاسلامية : عمر رضا كحالة - المطبعة التعاونية - دمشق ١٩٧٢

٥ - تتمة المختصر في أخبار البشر (تاريخ بن الوردي) : زين الدين عمر بن الوردي - تحقيق أحمد رفعت البدراوي - الطبعة الاولى - بيروت ١٩٧٠

٦ - الروضتين في أخبار الدولتين : عبدالرحمن بن اسماعيل المقدسي الملقب بأبي شامة - القاهرة ١٢٨٧ هـ

٧ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب : ابن العماد الحنبلي - دار المسيرة - بيروت ١٩٧٩ .

٨ - شفاء القلوب في مناقب بني أيوب : أحمد بن ابراهيم الحنبلي - تحقيق ناظم رشيد - سلسلة كتب التراث (٦٥) بغداد ١٩٧٨

٩ - طبقات الشافعية الكبرى : عبد الوهاب السبكي - الطبعة الاولى - مصر

١٠- فوات الوفيات : محمد بن شاكر الكتبي - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - مصر ١٩٥١ .

١١- فهرس المخطوطات المصورة - الجزء الثاني - القسم الثالث : فؤاد سعيد - معهد المخطوطات العربية - القاهرة ١٩٥٩ .

١٢- الكامل في التاريخ : عز الدين بن الاثير - دار صادر - بيروت ١٩٨٢ .

١٣- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة - الطبعة الثالثة - طهران ١٣٧٨ هـ .

أبو الفداء صاحب حماة (تاريخياً وحضارياً)

بقلم الأستاذ وليد قنباز

ان حديثي* اليوم عن الملك العالم أبي الفداء صاحب حماة ذو فنون وشحون ، واني على يقين أننا سنعيش من خلاله حلما عذبا جميلا ، وستتناهى الى آذاننا وقلوبنا أنباء وأخبار ليس أحمل منها في الاحدوثة ، ولا أحسن في الذكر ولا أطيب في الخبر والنشر .

حماة مدينة أبي الفداء :

فحماة .. ابنة العاصي ، ومدينة أبي الفداء شهيرة في البلدان ، وقديمة الصحبة للزمان .. وقد أثبتت التقارير التي رفعتها البعثات الاثرية وفي مقدمتها البعثة الدانمركية برئاسة العالم الاستاذ هارولد آنفولت التي نقبت في قلعة حماة من عام ١٩٣١ - ١٩٣٨ أن تاريخ المدينة قديم جِداحدا .. فالمكتشفات التي توصلت اليها في الطبقة الثالثة عشر يعود تاريخها الى العصر النيوليتي ، أي الى الالف الخامس قبل الميلاد (العصر الحجري الحديث) في حين يرى باحثون آخرون أن حماة كانت مرتعا للانسان الحجري القديم اذ اكتشف في موقع الشريعة من المدينة فك حيوان ضخم قام بدراسته عالم المتحجرات الهولندي نورمان وتوصل الى أن عمره /٧٥٠/ ألف سنة ، كما عثر على أدوات وآثار وسكن في موقع القرماشي - غربي حماة تعود الى /٢٠٠/ ألف سنة أي الى العصر الاشولي الاعلى .

---

* هذا البحث أعد ليلقى كمحاضرة عامة ، ومن هذا المنطلق فقد خلا من الحواشي والاشارات الى المآخذ والمراجع والمصادر في أماكنها .. وسأورد في نهاية البحث ثبتا بأهم المراحع والمصادر التي اعتمدت عليها في اعداد البحث المطول والذي استقيت منه البحث المنشور في هذا المكان .

وهذا حميعه جعل حماة - ومن خلال الدراسات العلمية - من أقدم مدن الارض التي ماتزال الحياة تنبض في أرحائها.. ان لم تكن أقدمها على الاطلاق .

ويبين تقرير العالم آنفولت أن نواة المدينة قد تشكلت في القلعة منذ سبعة آلاف عام ، ثم شرعت النواة في التوسع ، وتمدنا المعلومات بأن الاكاديين استوطنوها في الالف الرابع قبل الميلاد في حين كانت مسكونة قبلهم من قبل العمالقة وهم أقوام من العرب القدماء ويسمون : الروتانيين أو اللوذيين .

ومع بداية الالف الثالث قبل الميلاد أضحت حماة مدينة مسورة وكان سكانها على دراية بالزراعة والري والسقاية والصناعات المحلية البسيطة ..

ومالبثت حماة أن خضعت لسلطة الاسرتين السومرية والاكادية حتى أواخر القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد عندما هاجمها العموريون متسللين اليها من البادية السورية فسلبوها ونهبوها وعاثوا فيها فسادا ، ولكنها سرعان ماعادت الى الحياة والتقدم وأضحت مركزا للعموريين أنفسهم .

وفي عهد العموريين تعرضت حماة لغزوات البابليين ، ثم جاءها الحثيون حوالي عام/٢٠٠٠/ قبل الميلاد وازدهرت المدينة حينا من الدهر

ولكن هذا الازدهار مالبث أن توقف في عام/١٧٥٠/قبل الميلاد بسبب اجتياح قبائل الهكسوس الرعاة لها ،وبقيت خاضعة لهم حتى عام/١٥٨٠ / قبل الميلاد ، ونالها العسف والتقهقر الى حد كبير في خلال هذه الفترة .

ومالبثت حماة أن عادت الى الازدهار والاستقرار مابين عامي ١٥٨٠ - ١٤٨٠ قبل الميلاد بسبب استقرار الاوضاع في أثناء احتلالها من قبل الحوريين والميتانيين ، ثم خضعت لملك مصر تحوتمس الثالث في خلال الحملة السادسة التي جردها على سورية وبقيت تحت الاحتلال الفرعوني حتى عام/١٣٥٠/ قبل الميلاد حين اجتاحت سورية قبائل الخابير (الحبيرو)فخربت مدنها وعاثت فيها فسادا ، ومن أبرزها مدينة حماة

التي هجرها أهلها وبقيت خالية من السكان وبقايا وأطلالا حوالــــي مائة عام ٠

ومع أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الثاني عشر قبـــل الميلاد ظهر الاراميون وهم الذين أسسوا ممالك مستقلة في أنحــاء سورية ، وكانت مدينة حماة من أهم المدن التي تحدد بناؤهــا فازدهرت ازدهارا كبيرا ونافست الممالك الارامية الاخرى ،وان الاثار المكتشفة من تلك الفترة تدل على استعمال سكانها معدن الحديـــد ، ومعرفتهم بالري والزراعة بشكل جيد ٠

ثم عانت حماة من ضربات الاشوريين وهجماتهم المتوالية ،ومالبثت أن خضعت لهم كغيرها من المدن السورية في عهد شالما نصر الثالــث /٨٥٩-٨٢٤/ قبل الميلاد ، ولكنها ثارت ضدهم فنالت التدمير الكامــل على يد الملك الاشوري صارغون عام/٧٢٢/ قبل الميلاد والذى أجبر سكانهـا على الرحيل ٠

ثم أعيد بناء المدينة من جديد ، وخضعت من بعد لسيطــرة الكلدانيين وفي خلال هذه الفترة احتلها فرعون مصر نخو الثاني عـام /٦٠٧/ قبل الميلاد ،ولكن الكلدانيين أعادوها بعد ثلاث سنــوات، وبانهيار حكم الكلدانيين استولى عليها كورش الفارسي وأعمل فيهـا يد الحرق ٠٠

وبعد اجتياز الاسكندر المقدوني الاناضول وتغلبه على الفــرس بعد معركة ايسوس عام/٣٣١/ قبل الميلاد ، دخلت حماة تحت نفـوذه ، وبعد وفاته كانت من نصيب القائد سلوقوس نيكاتور عام/٣١٢/قبــل الميلاد ، واستمرت تحت سيطرة خلفائه السلوقيين(الهلنستيين) فتــرة طويلة استطاعت في خلالها استفادة شيء من ازدهارها السابق ، وفـي هذه الفترة تطورت فيها الزراعة وفنون السقاية والري ، وتمكن سكـان حماة نفسها من ابتكار أسلوب فريد في فن ضخ الماء من نهر العاصـي بواسطة دواليب خشبية كبرى تدور بقوة تيار الماء اطلق عليهـا اسم " النواعير" وقد أصبحت من أبرز مميزات حماة وعلاماتها ،ومانزال هذه النواعير تدور حتى يومنا هذا ٠

وتمر الايام الى أن كان عام/٦٤/قبل الميلاد حين دخلت حماة مع جاراتها تحت الحكم الروماني الذي شهدت فيه نوعا من الاستقلال الداخلي واستمرت في تطورها وازدهارها حتى كان العصر البيزنطي الذي ابتدأ في عام /٣٢٤/م ، وفي خلال هذا العصر تابعت المدينة تطورها وازدهارها وصلاتها التجارية والسياسية المهمة مع ماحولها وبخاصة مدينتي أفامية وانطاكية .

وفي عام/١٧هـ - ٦٣٨م/ فتحت حماة صلحاً على يد القائد العربي المسلم أبي عبيدة الجراح وجعلت من أعمال جند حمص في عهد الخلفاء الراشدين واستمرت كذلك في عهد الامويين ، الى أن كان العصرالعباسي الذي أصاب منذ بدايته سورية كلها بنوع من الفتور والاهمال ..

وحين شرع بعض الولاة في الاستقلال بولاياتهم عن الخلافةالعباسية عانت حماة من الطولونيين والقرامطةوالاخشيديين معاناة كبيرة ... ثم مالبثت أن دخلت في ظل حكم سيف الدولة الحمداني وتبعت مدينة حلب في منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ثم دخلت في حوزة بني مرداس ، وطفقت تتبع حلب مرة وحمص مرة ثانية ودمشق مرة أخرى حتى استولى عليها عماد الدين زنكي عام/٥٣٣ هـ - ١١٣٨ م/ وفي عهد ابنه نور الدين محمود وصلت الى مكانة كبيرة من التقدم والعمران والعطاء ، وفي عهد نور الدين نفسه حدث الزلزال العظيم عام٥٥٢هـ - ١١٥٧م/ والذي سمي بالزلزلة الحموية ونجم عنه خراب مدن سورية كثيرة ، ولكنه أصاب حماة بسوء كبير اذ تخربت معظم أبنية المدينة وأسواقها وأحيائها ، فأعاد نور الدين بناء معظم ماتهدم ، كما أعاد بناء أسوار القلعة والمدينة ، وبنى فيها الجامع والمشفى المعروفين باسمه .

وحين اجتاحت الجيوش الصليبية في خلال حملاتها العديدة مختلف مدن سورية وفلسطين وقفت حماة سداً منيعا تجاه الغزاة الصليبيين ولم يستطيعوا دخولها اطلاقا .

وفي عام/٥٧٠هـ - ١١٧٥م/ دخلها السلطان صلاح الدين الايوبي وولى عليها خاله محمود الحارمي ، وبعد ثلاث سنوات سار الفرنج بجموعهم

الى حماة ، فشددوا عليها الحصار حتى كادوا يفتحونها قهرا ، فجد سكانها في قتالهم ، وأخرجوا الفرنج الصليبيين الى خارج السور بعد أن اخترقوا بعض جهاته ،واستمر القتال أربعة أيام ، ثم رحل الفرنج عنها الى حارم خائبين ، وفي هذه السنة توفي الحارمي فسير صلاح الدين تقي الدين عمر ابن أخيه شاهنشاه الى حماة وأمره بحكم البلاد وحفظها وكان ذلك في عام/٥٧٤هـ ـ ١١٧٨م/ فتسمى بالملك المظفر،وألحق له صلاح الدين بمدينة حماة كلا من منبج وكفرطاب وميافارقين واللاذقية وبذلك بدأ حكم الاسرة الايوبية بحماة والذي استمر على مدى مائة وثمانية وستين عاما •

ومن الطبيعي أن ماذكرته كان عجالة في تاريخ المدينة ولسوف أتبسط قليلا في الحديث عن ملوك حماة الايوبيين ، ثم أستفيض في احاطة وشمول منذ ظهور أبي الفداء وحتى رحيله الى العالم الاخر ••

الاسرة الايوبية في حماة :

فالملك المظفر تقي الدين عمر كان أديبا محدثا وشاعرا بليغا وقائدا شجاعا ، واستمر حكمه حماة ثلاثة عشر عاما/٥٧٤ ـ ٥٨٧هـ ١١٧٨ ـ ١١٩١م/ •

وعقب وفاة المظفر الاول ورثه ابنه ناصر الدين محمد الذي لقب بالملك المنصور، وكان صلاح الدين الايوبي مايزال حيا، فرفض صلاح الدين ماتم ثم مالبث أن تراجع وقرر للمنصور حماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم •• وجلب هذا الاعتراف الرسمي من السلطان الايوبي الى الوجود شرعيا دولة حماة الايوبية وحولها من اقطاعية عسكرية الى مملكة وراثية •

واستمر حكم الملك المنصور ثلاثين عاما / ٥٨٧ هـ ـ ١١٩١م/ ٦١٧ هـ ـ ١٢٢٠م/ كانت من السنوات الغر التي حفلت بالانتصارات على الصليبيين وغيرهم ، بالاضافة الى التقدم والازدهار الكبيرين اللذين عما حماة ،ناهيك أن المنصور نفسه كان قمة في العطاء في نواح عديدات

بالاضافة الى أنه كان شاعرا ومؤرخا ترك لنا عدة آثار أبرزها: طبقات الشعراء في الادب ، وكتاب مضمار سر الحقائق وسير الخلائق في التاريخ ويمكن تسمية عهد المنصور عهد ارهاص لظهور ملكنا أبي الفداء .

وبعد وفاة المنصور اغتصب ابنه قليبج أرسلان السلطة من أخية محمود الذي كان وليا للعهد واستمر حكمه حوالي تسعة أعوام/٦١٧هـ -١٢٢٠ م / ٦٢٦هـ - ١٢٢٨م/، ثم تولى الحكم الملك محمود الذي تلقب بالمظفر الثاني وبقي فيه ستة عشر عاما/٦٢٦هـ - ١٢٢٨م/٦٤٢هـ - ١٢٤٤م/ وكان عهده صورة لعهد أبيه وحده في الشجاعة وحب أهل العلم والادب والشعر، ثم تلاه ابنه محمد الذي تلقب بالمنصور الثاني ، وحكم مملكة حماة مايئوف على أربعين عاما/٦٤٢هـ - ١٢٤٤م/٦٨٣هـ - ١٢٨٤م/، وكانت هذه الفترة حافلة بالحروب مع التتر بخاصة ، وبازدهار العلم والادب بعامة وفي فترة حكم المنصور الثاني انتهى حكم الايوبيين في مصر عام/٦٤٩هـ ١٢٥٠م/ وبدأ حكم المماليك في مصر وسورية معا ، في حين استمرت مملكة حماة الايوبية في الحياة ..

وبعد وفاة المنصور الثاني محمد تسلم الحكم ابنه محمود الذي تلقب بالمظفر الثالث وحكم حوالي ستة عشر عاما/٦٨٣هـ - ١٢٨٤م/٦٩٨هـ ١٢٩٨م/ وكان يساعده في الحكم والمشورة عمه الملك الافضل علي والد ملكنا أبي الفداء واستمر على هذا خمسة أعوام ثم توفي علي ،وبما أن المظفر الثالث لم يكن ذا عقب فان وفاته جعلت السلطان المملوكي في مصر ينتظر رغبة الامراء الايوبيين في حماة باختيار أحدهم للمملكة ، ولكنهم لم يصلوا الى رأي واحد وحال واحدة ، فاختار السلطان مملوكا اسمه (قرا سنقر) لنيابة سلطنة حماة ،ومن هنا خرج الحكم من أيدي الايوبيين في حماة ولكن كان في الميدان مناضل قوي ومطالب ملح وساع حثيث في سبيل ارجاع السلطة الى الايوبيين اسمه اسماعيل بن نور الدين علي .. ولقد تمكن من ذلك بعدلأي وفترة عصيبة حافلة .. فمن هو اسماعيل هذا .. ؟

أبو الفداء:

هذا المناضل هو ملكنا العالم اسماعيل بن الملك الافضل نور الدين علي بن الملك المظفر الثاني محمود ابن الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه شقيق صلاح الدين الايوبي ابن أيوب بن شاذي ..

ولقد ولد اسماعيل عام/٦٧٢هـ - ١٢٧٣م/ أميرا من سلالة الايوبيين في دمشق حينما جفلت عائلته من حماة اثر احاطة الموغول بها، وهو ثالث اخوته : أسد الدين عمر وبدر الدين حسن .

كني منذ صغره بأبي الفداء ولقب بعماد الدين ، وبدأ حياته بالدراسة والثقافة والدراية والتدريب على فنون القتال والصيد والقنص والفروسية ولقد حفظ القرآن الكريم مبكرا مع عدد من كتب التراث واشتغل في العلوم وتفنن في جمع أشتات الكثير منها ، وتم ذلك جميعه في مدينة حماة بعد أن عادت اليها العائلة عقب زوال الخطر المغولي الذي لم يدم سوى شهور معدودات .

وحين بلغ أبو الفداء الحادية عشرة من عمره توفي عمه الملك المنصور الثاني محمد ، وصار الملك الى ابن عمه المظفر الثالث محمود فأنعم السلطان المملوكي على الملك الجديد وعلى الملك الافضل والد أبي الفداء وعلى أبنائه جميعا ومنهم أبو الفداء بخلع وتشاريف سلطانية .

وفي العام نفسه وكان أبو الفداء يقترب من عامه الثاني عشر قصد السلطان المملوكي قلاوون دمشق في طريقة الى حصن المرقب لانتزاعه من أيدي الفرنجة الصليبيين ، فسار معه الملك الافضل من حماة ورافق أبو الفداء أباه في هذه الحملة ، ودخل الحصن مع المهاجمين وكان النصر المبين ، وكان هذا القتال أول قتال رآه .

وعندما بلغ السادسة عشرة من عمره رافق السلطان قلاوون في حصار مدينة طرابلس الى جانب والده وابن عمه الملك المظفر، وكان النصر وهزيمة الصليبيين وعودة المدينة الى العرب بعد أن ظلت تحت حكم الفرنجة مايقارب القرنين من الزمان .

وتابع الامير الفارس أبو الفداء اسهاماته في القتال والجهادوالنصر

فاشترك وهو لم يبلغ العشرين من عمره في فتح مدينة عكا،وكان ذلك الفتح ايذانا بتطهير سواحل الشام جميعها من فلول الصليبيين .. كما شارك في العام نفسه في فتح قلعة الروم .. وبعد شهور رغب اليه والده أن يحمل بعض الهدايا الى السلطان في مصر ، فاجتاز المسافة من حماة الى مصر في ثمانية أيام فقط على خيل البريد .

وبعد وفاة والد أبي الفداء الذي كان يشارك ابن أخيه الملك المظفر في المشورة والحكم ، التحق أبو الفداء بخدمة ابن عمه الملك المظفر الثالث ، وبدأ يحتل المكانة التي كانت لابيه في المملكة .. وأصبح واحدا من كبار - ضباط جيش حماة الايوبي ..

وفي عام/٦٩٧هـ - ١٢٩٨م/ أسهم وهو ابن خمس وعشرين سنة في الحملة التي جردها السلطان المملوكي ضد الارمن في بلاد سيس في الاناضول (أرمينية) ووقعت الواقعة بعد عام واحد حين توفي الملك المظفر الثالث محمود من دون عقب عن/٤٢/عاما بعد مرض طارئ في أثناء رحلة صيد كان أبو الفداء رفيقه فيها، ولقد مرض أبو الفداء قبل ابن عمه،ولكن القدر عاجل محمودا واستبقى اسماعيل لما ينتظره من العظم والعظائم..

وكما ذكرت سابقا أن اختلاف الامراء الحمويين الايوبيين على اختيار المرشح الخلف جعل السلطان المملوكي يعين المملوك قرا سنقر الجوكندار نائبا للسلطنة في حماة ، وهو من القادة وأمراء الجند الذي كان السلطان بحاجة الى استرضائهم والاستعانة بهم ،وبذلك انتهى حكم السلالة الايوبية وبدأ حكم النواب واضطر أبو الفداء مع أخويه وأبناء عمومته الى استقبال قرا سنقر الذي نزل في دار الملك المظفر حين وفد حماة ، وقاموا بوظائف خدمته ..

سعي أبو الفداء في سبيل استرجاع الحكم :

وفي خلال حكم قراسنقر يتحرك أبو الفداء على رأس جيش حماة منضما الى الجيوش السائرة لملاقاة المغول اثر تحركهم الجديد .

وبعد قرا سنقر تولى نيابة السلطنة في حماة زين الدين كتبغا ومن بعده سيف الدين قبجق ، وفي عهد الاخير خرج أبو الفداء ثانية

على رأس العساكر الحموية للقاء الموغول من حديد .

وفي خلال هذه الفترة نال أبو الفداء وعدا من السلطان في مصر بامارة حماة والحق يقال انه كان يعمل بدأب ونشاط مستمرين في استرداد مملكة حماة للاسرة الايوبية واستخلاصها لنفسه ، وتابع في توطيد علاقاته مع السلطان عن طريق الاتصالات المستمرة والخدمات المتوالية .

وفي عام /٧٠٢هـ - ١٣٠٢م/ شارك في مطاردة الموغول الذين عاثوا فسادا في وادي الفرات حتى بلغوا القريتين من أعمال حمص ،ولقد تم النصر وأبيد الموغول عن بكرة أبيهم .

وعندما عزل السلطان الناصر محمد عن السلطنة المملوكية في مصر وهرب الى الكرك ومنها الى دمشق خف أبو الفداء لملاقاته ومناصرته ، فنال وعدا جديدا بحكم حماة ثم رافق السلطان نفسه في حملته على مصر لاسترجاع عرشه ، وتم الاسترجاع ونال وعدا جديدا ..

ولكن السلطان لم يف بوعده وعين مملوكا اسمه : اسندمر على حماة ووقع النزاع بينه - أي اسندمر- وبين أبي الفداء ، فغادر أبو الفداء حماة واستقر في دمشق ، وحاول اسندمر استرضاءه واقناعه بالعودة الى حماة ولكن لم يستطع .

وقام أبو الفداء بزيارة صديقة ملك البدو(العرب)في منطقة حماة عيسى بن مهنا وحثه على تذكير السلطان بوعده ، وذهب عيسى الى مصر وبالفعل نفذ السلطان وعوده فأصدر أمرا بنقل اسندمر الى حلب وتعيين أبي الفداء مكانه وذلك في الثامن عشر من حمادى الاولى من عام/٧١٠ / للهجرة الموافق الرابع عشر من تشرين الاول من عام/١٣١٠/ للميلاد،وبذا عادت حماة الى الحكم الايوبي كما يقول أبو الفداء نفسه في تاريخه بعد احدى عشرة سنة وخمسة أشهر وسبعة وعشرين يوما وصار أبو الفداء نائبا للسلطان فيها .

حكم أبو الفداء في حماة :

وبعد عامين فوض السلطان الى أبي الفداء حكم حماة ملكا لانيابة و أذن له أن يخطب له في حماة وأعمالها على ماكان عليه الملك المنصور وأضاف اليه

معرة النعمان وبارين(بعرين)·· وبعد فترة يسيرة أضحى من أبرز ملوك سورية وولاتها جميعا ·

وفي عام/٧١٥هـ - ١٣١٥م/ شارك أبو الفداء على رأس الجند الحموي في فتوح ملطية في تركيا الى جانب جيوش مصر وعساكر الشام ·

واستدعاه السلطان الى مصر غير مرة لمرافقته في رحلات الصيد وفي ندوات الادب والثقافة والفكر ثم مالبث أن منحه لقب سلطان في عام/٧٢٠هـ - ١٣٢٠م/ وكان عمره حينذاك/٤٧/ عاما ··

وهكذا أضحى أبو الفداء سلطانا الى جانب السلطان يزهو بعودة حماة الى حكم الايوبيين وأنه المحتفظ به ، وأنه المجاهد المقاتل الذي قاتل أعداء العرب والاسلام على اختلاف انتماءاتهم، وأنه قصد الحجاز ثلاث مرات لاداء فريضة الحج ، وأنه لاينى عن التنقل بين مصر والشام وأنه المنهمك في احداث عصره والمتصدي لها قائدا للجندوحاكما لولاية ونائبا مميزا من نواب السلطان ، ثم سلطانا على منطقة مهمة من مناطق سورية ·· وهو الى هذا استطاع أن يجمع الى هذه الحياة العملية الجاهدة المضطربة حياة التأمل والدراسة والتأليف وأن يشارك في العلوم جميعها مشاركة جيدة بالاضافة الى أنه الحاكم الهادىء الذي يتسم بالعدل والحلم والبساطة ولم يتسم بالشره وحب المال والمظهر لانه كان رجل علم وثقافة أكثر منه رجل احتراف سياسة وحكم·· ومن هذا جميعه كان أبو الفداء بدعا في الملوك والسلاطين جميعا ·

ولم يتوقف أبو الفداء عن الجهاد والعمل ، ففي السنة نفسها جهز عسكر حماة للاغارة على الارمن في بلاد سيس الاناضول فعادوا غانمين منتصرين وفيها أيضا شرع في عمارة المربع والقبة والحمام على ساقية نحيلة في ظاهر حماة (موقع ناعورة الدهشة وبستانها الى الشرق حاليا) وفرغ منها بعد عام وجاءت جميعها من أنزه الاماكن ·· فالمربع هو القصر الذي يسكن في فصل الربيع وهو في أجمل موقع لنهر العاصي في حماة وفي الدهيشة ·· لان الناظر أو الداخل اليه تأخذه الدهشة والحيرة لما كان يشاهده من جمال موقعه واحكام بنائه وحسن هندسته وبديع زخرفته ·· ولقد حاول السلطان الناصر محاراته ببناء دهيشة في قلعة مصر وأرسل المهندسين الى حماة لكشف دهيشتها ورسم تصاميمها··

والقبة كانت تضم على أحد أركانها المرقب(المرصد)الذي كان أبو الفداء يرصد من خلاله النجوم والكواكب والمحرات والآفاق .

وأما الحمام فكانت تقع الى الشمال من ذلك كله .

كتاب تقويم البلدان :

وفي هذه السنة نفسها/٧٢١هـ - ١٣٢١م/ فرغ أبو الفداء من تأليف كتابه العظيم" تقويم البلدان" في الجغرافية والذي بقي في صياغته وترتيبه وتبويبه أربع سنوات كاملات .. وان تمكن مليكنا العالم من علم الفلك وعلم الرياضيات وتضلعه فيهما دفعاه الى أن يتخذ موقف الناقد من سائر الكتب الحغرافية التي ظهرت حتى عصره فهي تهمل كما يقول - ضبط الاسماء أو ذكر المواقع الفلكية من طول وعرض من جهة ، أو تهمل الجهات نتيجة الحهل بالاطوال والعروض من حهة أخرى ولذا اعتمد أبو الفداء على مصادر ثلاثة في تأليف كتابه هذا :

١ - مشاهداته الشخصية في بلاد الشام وفلسطين والحجاز ومصر والصعيد والحزء الشرقي من آسيا الصغرى وأرض الحزيرة العليا .

٢ - المصادر الجغرافية التي ظهرت حتى عصره وأشار اليها بأمانة علمية

٣ - المصادر الشفوية الموثوقة .

ويتجلى المنهج العلمي في تضاعيف هذا الكتاب فهو يبدأ بمقدمة عامة يذكر فيها مساحة الارض وشكلها وتقسيمها الى أقاليم سبعة ، ثم يبدأ الحديث عن الاطوال بدءا من حزر الخالدات (حزر الكناري) والمسافات ، ووسائل قياسها ، ثم يشرع في ذكر البحار المعروفة فالانهار فالجبال ، ثم يجعل لكل بلد اقليمين : حقيقي(أحد الاقاليم السبعة المعروفة) وعرفي (الناحية أو المملكة الموجود فيها) ثم يتبع ذلك بدراسة جغرافية اقليمية ، ووضع في خاتمة كل منطقة من المناطق الثمانية والعشرين التي درسها جدولا مقسما الى عشرة أبواب ذكر في الاول اسم البلد وفي الثاني أسماء المنقول عنهم والثالث لدرجات الطول والرابع للدقائق الطولية ، والخامس لدرجات العرض والسادس لكسور درجات العرض من الدقائق ، والسابع للاقليم الحقيقي، والثامن

للاقليم العرفي ، والتاسع لضبط الاسماء والعاشر للاوصاف والاخبار العامة ..

ويرى الباحثون أن أبا الفداء اتبع في ذلك طريقة مبتكرة عن طريق عرض بيانات عن البلدان في شكل جداول لم يستخدمها جغرافي قبله ..

ويعددون مزايا الكتاب وأبرز أفكاره فاذا هي كثيرة ورائعة ويأخذون عليه بعض المآخذ التي لاتنقص من قيمته عربيا وعالميا .. فتقويم البلدان جعل أبا الفداء أحد الرواد المبكرين للجغرافية الحديثة وطريقة تأليفه جديدة وحديثة ومبتكرة ومن هنا فقيمته الذاتية متفوقة .. ولقد ملأ فراغا كبيرا لكونه مرجعا جغرافيا مختصرا ومركزا بالنسبة للعصر الذي وجد فيه سواء في المشرق العربي والاسلامي والغرب الاوربي .. ولقد اختصره ونقل عنه واهتم به وزاد عليه وذيله وتأثر به واعتمد عليه عدد كبير من علماء العرب والترك والفرس.. وأما الغربيون فقد وجدوا فيه كنزا ثمينا ونال من هذا المنطلق اهتمامهم المبكر وبشكل رائع وملفت للنظر ، فقد ذكروه وأثنوا عليه منذ أواسط القرن السادس عشر وأسموه جغرافية أبي الفداء واشتغلوا بدراسته علميا ونقديا واقتطفوا منه مقتطفات ، ثم نشروها مع ترجمة لاتينية عام/١٧٦٦/م في لايبزك على يد العالم جوهان . كوهلر.. ثم طبعوه في فينا عام/١٨٠٧/ ومعه ترجمته باللغة اليونانية وأصدره المستشرق رايزكة بترجمة كاملة ، ثم أخضعه العالمان الفرنسيان رينود وجوبار للترجمة والدراسة بتكليف من الجمعية الاسيوية الفرنسية .. ثم نشره البارون جوكان دي سلان بالاشتراك مع رينود باللغة العربية في باريس عام/١٨٤٠/في/٥٣٩/ صفحة وصدراه بمقدمة باللغة الفرنسية وهذه الطبعة هي التي صورتها مكتبتا المثنى في بغداد والخانجي في مصر وقدمتاها الى العالم العربي ...؟

ومن هنا فكتاب تقويم البلدان لم يطبع بعد في المطابع العربية وانما أخذناه عن أوربا التي نعمت بنصوصه ومعلوماته على مدى سنين طويلة وبقي أثره قائما فيها حتى أواسط القرن التاسع عشر ونحن عنه

غافلون..وهذه هي شهادات الغربيين به :

يقول العالم ميخائيل اماري الايطالي : " ان كتاب تقويم البلدان قد حاز الاعجاب لاسلوبه المتزن ونقده القويم".

ويقول العالم الفرنسي رينود:" ان العصور الوسطى الاوربية لم تعرف كتابا يمكن مقارنته بتقويم البلدان لابي الفداء".

ويقول العالم الروسي كراتشكوفسكي : " ان كتابين عربيين فقط أثارا من الاهتمام عند الغربيين أكثر من تقويم البلدان ، وهما القرآن الكريم وألف ليلة وليلة ".

ويقول العالم البلجيكي الكبير جورج سارتون في كتابه " المدخل الى تاريخ العلوم" المنشور باللغة الانكليزية :" ان أبا الفداء كان أعظم جغرافيي عصره ، لافي الديار الاسلامية فحسب ، بل في أي مكان ".

أبو الفداء العالم الموسوعي :

ولعل بروز أبي الفداء كعالم جغرافي يفتح لنا أفاقا واسعة في ميدانه الثقافي والفكري ، فلقد كان الرجل موسوعي الثقافة بحيث استوعب معظم علوم عصره ، وكان في تكثرها من المبرزين الاعلام حتى قال فيه الاسنوي في طبقاته :

" كان جامعا لاشتات العلوم ، أعجوبة من أعاجيب الدنيا ، ماهرا في الفقه والتفسير والاصلين ، والنحو والعروض ، وعلم الميقات والفلسفة والمنطق والطب والتاريخ ، وغير ذلك من العلوم ، وقد صنف في كل علم تصنيفا أو تصانيف " .

ويقول ابن الوردي : " ليس في الملوك بعد المأمون أفضل منه ".

ومن هنا فقدغدت حماة في عهده محط رحال أهل العلم من كل فن ومنزلا للشعراء ومركزا للادب ، وكان مجلسه يحفل بالعلماء والفقهاء والشعراء والفلاسفة والكتاب .. ومن الطبيعي أنه كان بينهم جميعا الرائد والمقدم والعالم .. الذي رفد المكتبة العربية بهذه المؤلفات :

١ ـ الكناش : في سبعة علوم وفنون(نحو وتصريف ـ فقه ـ طب ـ تاريخ ـ أخلاق وسياسة وزهد ـ أشياء ـ فنون مختلفة..)..وتوجد

في القسطنطينية أقسام مخطوطة منه .

٢ ـ الموازين : في علم الفلك ، وتوجد نسخة مخطوطة منه في مكتبة بودليان في أوكسفورد ـ لندن .

٣ ـ الحاوي : في فقه الامام الشافعي .

٤ ـ العروض والاطوال : في الجغرافية .

٥ ـ البئر المسبوك في تواريخ الملوك" وتوجد نسخة مخطوطة منه في دار الكتب المصرية في القاهرة .

٦ ـ مختصر اللطائف السنية في التواريخ الاسلامية في التاريخ .

٧ ـ تاريخ الدولة الخوارزمية .. في التاريخ .

٨ ـ شرح نظم الكافية..في النحو .

٩ ـ نوادر العلوم ..

١٠ـ المخطوطة في الاخلاق والاداب والزهد والوعظ .. وهناك نسخة مخطوطة منه في المغرب .

ولعل هذه الموسوعية الشاملة تبدو لنا عمليا الى جانب النواحي النظرية والتأليفية عند أبي الفداء ..

فهو طبيب .. وصيدلي .. وعالم نبات .. وفلكي .. وفيلسوف .. وفقيه .. ومؤرخ.. وجغرافي .. ووشاح .. وشاعر .. ونحوي .. وعالم منطق .. وعالم أصول عربية .. وأديب .. وعالم ميقات .. ولكل واحدة من هذه شواهد رائعة وطريفة ومؤلفات سامية وعظيمة جعلت من أبي الفداء واحدا من علماء عصره البارزين وندر بين ملوك المسلمين من بلغ مبلغ علمه ،وكان لهذا يحب العلماء ويقربهم ويحرص على اقتناء الكتب النفيسة النادرة حتى انه جمع في مكتبة جامعة /٧٠٠٠/ مجلد وقفها للناس كي ينهلوا من كنوزها ومجانيها.. وليس هذا فقط بل ان العلماء أنفسهم كانوا يقصدونه من كل حدب وصوب حتى غدا محاطا بجو علمي يتلاءم مع اتساع أفق ثقافته المتعددة الجوانب .. ولعل الشعراء كانوا في مقدمة الوافدين وأبرزهم : ابن نباتة المصري وصفي الدين الحلي وابن مطروح والشهاب محمود حتى قال مارون عبود في كتابه أدب العرب حين دراسته أدب عصر الدول المتتابعة :

" لم يكن للملوك في هذا العصر شعراء مجيدون الا في حماة حيث بقيت هذه العادة ردحا من الزمن ، ولهذا لم يكن الشعر هناك صناعة لفظية .."

عود الى سيرة أبي الفداء :

وأعتقد بأنه آن لنا بعد هذه الجولة أن نعود الى أبي الفداء ومسيرته الحياتية بعد أن غدا سلطانا فنراه في عام/٧٢٢هـ - ١٣٢٢م/ يشترك مع عسكر حماة في فتوح آياس من منطقة سيس .. وفي السنة نفسها ذهب الى مصر وانطلق مع السلطان الناصر الى منطقة الاهرام ، وحضر هناك وصول رسول صاحب برشلونة ، ثم رافق السلطان الى الصعيد ومنه الى القاهرة ، وعاد الى حماة مغمورا بالانعام والعطايا .. وبعد فترة وجيزة دعاه السلطان ثانية الى مصر ، وهناك حضر استقبال رسل التتر ، ثم انطلق مع السلطان الى الصيد ثم عادا الى القاهرة ،ومنهما قصد حماة عاصمة ملكه .

وفي تلك الفترة أنشأ أبو الفداء الجناح الشرقي من جامع النوري وضمه الى الجامع - وهو القسم المطل على نهر العاصي - وأسماه "الروشن "

وفي العام/٧٢٦هـ - ١٣٢٦م/ خرج بعسكر حماة شرقا ووصل الى قناة العاشق الواصلة من سلمية الى حماة ، وقام بقسمتها على الامراء والعسكر لانها آلت الى التلف بسبب ما اجتمع فيها من الطين والاحجار واستطاعوا جميعا تحريرها في نحو اسبوع ، ثم عادوا الى حماة..

ويموت أخوه السلطان حسن ، وفي العام التالي تموت والدته فيعمد الى عمارة جامعه .. جامع الدهيشة (الواقع الان في حي باب الجسر الى الشرق من القبة والمربع والحمام ، ويسميه العامة عندنا (جامع الحيايا) وذلك لتشابه ثمانية أضلاع رخامية في كل من عضادتي شبابيك حرمه المطلة على نهر العاصي على شكل الافاعي ، ولقد بنى في شمالي الجامع ضريحا له وشيد فوقه قبة وبجانبها مئذنة مثمنة ، وحين سئل عن بناء الضريح قال : "ما أظن أني أستكمل من العمر ستين سنة ،فما في أهلي - يعني البيت الايوبي الحموي - من استكملها .." .

المختصر في أخبار البشر :

وفي عام/٧٢٩هـ - ١٣٢٩م/ انتهى أبو الفداء من كتابة سفره الثاني الضخم.. المختصر في أخبار البشر " وهو في التاريخ ، ويحدثنا بنفسه عن أسباب تأليفه هذا السفر فيقول :

" انه سنح لي أن أورد في كتابي هذا شيئا من التواريخ القديمة والاسلامية يكون تذكرة يغنيني عن مراجعة الكتب المطولة " .

وهذا السفر مختصر لمؤلفات تاريخية سابقة وفي مقدمتها الكامل لابن الاثير وقد اختصر التواريخ القديمة في خمسة فصول وقعت في/١٠٠/ صفحة ، ثم أتبع ذلك بالتواريخ الاسلامية مرتبة على السنين بدءا من ظهور الاسلام وحتى بداية الحروب الصليبية ووقعت في/٣٤٠/صفحة ،ثم أتبع بالفترة التالية حتى عام/٧٢٩هـ - ١٣٢٩م/فوقعت في/٣٧٠/صفحة ومن هنا يرى بعض الباحثين أنه ليس لابي الفداء من فضل في الكتاب سوى حسن الاختيار والتنسيق والجمع في العصور السابقة له أما عندما يلج عصره ، فتصبح لمادة الكتاب قيمتها المباشرة وبخاصة فيما يتعلق بالاحداث التي شهدها المؤلف أو اشترك فيها ، فالكتاب لهذه الفترة الممتدة على حياة أبي الفداء والى حدما للفترة القريبة السابقة ولما يتصل من أحداثها بالدولة الايوبية وبفرعها الحاكم في حماة على وجه الخصوص .. هذا الكتاب هو أصل رائع وفريد يعكس لنا حياة ذلك العهد ، ونحن مدينون به لحس أبي الفداء التاريخي وشغفه العلمي.

ويلاحظ الدارسون أن أبا الفداء مع التفاته للشؤون العسكرية والعامة كان يعنى بالنواحي الفكرية ، ويلتزم بالاختصار في كل الفترات،ويحدد ذلك عن طريق الانتقاء وهو في ذلك جميعه متواضع ، واسع الصدر،متزن في أخباره ، معتدل في حديثه حتى عن الخصوم .

ولقد خضع الكتاب للبحث والنقدورأى فيه العلماء جوانب مضيئة وأخرى كابية.. فالدكتور عمر فروخ يرى في ثناياه علم تعليل التاريخ من طرف وسيطرة القصة على عدد من الجوانب في سرد التاريخ من طرفآخر.. وهناك آراء أخرى عديدة بين مؤيد ومتحفظ وبخاصة فيما يتعلق بالتواريخ السابقة لعهده ، في حين يتفق الحميع على ندرة الكتاب

وروعته بالنسبة لعصر أبي الفداء ، وعلى الرغم من ذلك كله فالكتاب احتل مكانة بارزة قديما وحديثا وأحدث أثرا مرموقا في الشرق والغرب على حد سواء ، فعند العرب هناك من اختصره وذيله وانتخب منه ، وعند الغرب حظي في وقت مبكر باهتمام المستشرقين ، وكان في مقدمة الاصول التاريخية التي اكتشفوها وعمدوا الى نشرها وترجمتها وهكذا أصبح المختصر كما يقول الاستاذ العالم جب : أصلا من أصول الاستشراق في القرن الثامن عشر ، فقد طبع أولا باللغة العربية في أكسونيا في مطلع القرن الثامن عشر ، ثم نشر العالم جادنير القسم المختص بسيرة الرسول العربي محمد عليه الصلاة والسلام في أوكسفورد مع ترجمة الى اللغة اللاتينية ·· ثم نشر العالم فيرجيس ترجمة فرنسية لهذه السيرة في باريس عام/١٧٣٧/م ، وتبعتها ترجمة العالم موراي الى اللغة الانكليزية في لندن ·

وعني بالتاريخ كله رائد الاستشراق الالماني رايسكه فنشر في عام /١٧٥٤/م ترجمته اللاتينية حتى عام/٤٠٦هـ - ١٠١٦م/وقام العالم آبلر في كوبنهاجن بترجمته كاملا وأصدره بخمسة مجلدات كبيرة بين عامي/١٧٨٩-١٧٩٤/م ثم نشر مع الاصل العربي في فيينا بخمسة مجلدات أيضا ·

وفي غوتنجن نقل القسم المتعلق بالجاهلية وطبع على حدة ،كما نقل القسم المتعلق بمصر وطبع مع ترجمة لاتينية وشروح في عام/١٧٧٦/م كما نقلت أقسام منه وطبعت مترجمة الى اللغة الفرنسية في الفترة ذاتها ·

وفي عام/١٨٣٧/ ترجمت منه أقسام ونشرت في باريس مع ترجمة فرنسية لدوفرجيه في حين نشر فيشر فيلايبزك أقساما مع ترجمة لاتينية وترجم في الهند الى اللغة الاوردية في عام/١٨٥٦/،ثم طبع كاملا باللغة العربية في القسطنطينية عام/١٢٨٦هـ - ١٨٦٩/م·· في أربعة مجلدات نقلا عن طبعة أوربا ثم طبع في مصر نقلا عن طبعة القسطنطينية ثم طبع في بيروت نقلا عن طبعة مصر ·

ويقوم الدكتور الباحث حسن الساعاتي بدراسة الكتابين معا: تقويم البلدان والمختصر في أخبار البشر،ويخرج من الدراسة بأن لابي الفداء منهجا خاصا في البحث يقوم على القواعد التالية :

١ ـ الوفرة في جمع البيانات ،وتظهر في كثرة المصادر التي استقى منها مادة كل بحث من بحوثه .

٢ ـ الدقة في تفسير البيانات وتفنيدها .. فهي دقة فائقة مرجعها الامانة العلمية التي كان يتحلى بها ، ومنطقه السليم في تفهم الامور .

٣ ـ الاختصار في العرض وايجازه الشديد في خطبة كل كتاب ، ودخوله المباشر الى لب الموضوع ، فهو انما يكتب مختصرات تكون بمثابة مذكرات يجد فيها الغناء عن مطالعة الكتب الكبيرة في كل موضوع من الموضوعات التي عالجها .

٤ ـ الوضوح في تناول البيانات وعرضها .. انه وضوح ارادي والتزام بتوضيح مايكون غامضا منعا للبس وسوء الفهم ، واجتهاد في تيسير الصعب الذى يحتاج من القارئ الى عملية اعمال فكر شاقة قد لاتوصله بالضرورة الى الرؤية الكاملة التي يصورها المؤلف .

وهكذا استطاع الملك العالم أبو الفداء بفضل سفريه الرائعين تقويم البلدان والمختصر في أخبار البشر .. أن يجعل اسم : أبي الفداء صاحب حماة علما بارزا في كل مكان شرقا وغربا ، ففي قاعة المحاضرات في الجمعية الجغرافية الفرنسية في باريس نقشت أسماء عدد من الذين شادوا علم الجغرافية انسانيا على مر العصور واسم أبي الفداء ثالث الاسماء ..

وعلى واجهة مكتبة السوربون في باريس نقش اسم أبي الفداء في رأس قائمة أسماء الشخصيات العالمية التي أثرت في الحضارة الانسانية كما أن هناك دراسات وأبحاثا أكاديمية في روسيا وفرنسا وألمانيا وانكلترا وبلجيكا وغيرها عن علم أبي الفداء وأبحاثه في التاريخ والجغرافية والفلك ، وقد تعجبون اذا سمعتم بأن أي عالم فلك في العالم اذا توجه الى دراسة القمر فان جبل أبي الفداء في القمر نفسه هو أول مايصادفه ، والسبب أن أبا الفداء كان أول من اكتشف هذا الجبل في القمر من خلال مرقبه في حماة ووصفه ، فكان أن أطلق العلماء الغربيون على هذا القمر اسم جبل أبي الفداء .. ونحن ـ وللاسف العميق ـ

لاندري شيئا عن الرحل وعن أعماله وعن أثره عربيا وعالميا ، وكم هو جميل ومشرف أن نستدرك مافات وأن نعوض تقصيرنا الفاضح في هذا المجال .

عودة أخيرة الى حياة أبي الفداء :

ونعود مرة أخيرة الى سيرة حياة أبي الفداء فنجده بداية عام/٧٣١هـ - ١٣٣١م/ يصاب بوعكة صحية ، ثم تزداد حالته الصحية سوءا ، فما كان منه الا أن قام بتوزيع كتبه ومخطوطاته الخاصة على أصحابه من العلماء العاملين ، وحين سئل عن السبب أجاب قد يأتي من نسلي وأهلي من لايعرف قيمتها فتضيع ، وأما عند هؤلاء العلماء فهي لن تضيع ..

ومع يوم السبت الثالث والعشرين من محرم عام/٧٣٢هـ/الموافق للسابع والعشرين من تشرين الاول من عام/١٣٣١/م ودع أبو الفداء الحياة الدنيا وختم أيامه بهدوء وهو لم يكمل الستين من عمره ،وبذلك تحقق كلامه وحدسه حينما بنى ضريحه بنفسه قبل خمسة أعوام ،وبموته انطوت صفحة مهمة من تاريخ حماة وتاريخ الفكر والثقافة العربيين وتاريخ العطاء الانساني ، ولقد خرجت مدينته وماحولها بكل من فيها وراء نعشه مودعة باكية ووقف الشعراء راثين باكين .



* أهم المصادر والمراجع المعتمدة في البحث *

آ ـ المخطوطات :

١ ـ المعتبر في تتمة المختصر في أخبار البشر لنوري باشا الكيلاني .
٢ ـ تاريخ حماة لاحمد قدري الكيلاني .
٣ ـ طبقات الشافعية للاسنوي .
٤ ـ الملك المنصور محمد لعدنان قيطاز .
٥ ـ أبو الفداء ـ حياته وآثاره لوليد قنباز .

ب ـ الكتب المطبوعة :

١ ـ تقويم البلدان لابي الفداء ـ طبعة مصورة عن طبعة باريس/١٨٤٠/ اصدار مكتبة المثنى في بغداد ومكتبة الخانجي في القاهرة .
٢ ـ المختصر في أخبار البشر لابي الفداء .. القاهرة/١٣٢٥هـ ـ ١٩٠٧م /
٣ ـ تتمة المختصر أو ذيل تاريخ أبي الفداء لابن الوردى ـ القاهرة /١٢٨٥هـ ـ ١٨٦٨م/
٤ ـ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل الحموي ـ القاهرة /١٣٧٢-١٣٩٢ هـ ـ ١٩٥٣ ـ ١٩٧٢م/.
٥ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي ـ القاهرة /١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م/.
٦ ـ صبح الاعشا في صناعة الانشا للقلقشندي ـ القاهرة / ١٣٣٠ ـ ١٣٣٧هـ ـ ١٩١٣ ـ ١٩٢٠م/.
٧ ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني ـ حيدر آباد ـ الهند ـ /١٣٦٤هـ ـ ١٩٤٥م/.
٨ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة ـ /١٣٤٨هـ ـ ١٩٢٩م/.
٩ ـ فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ـ القاهرة/١٢٩٩هـ ـ ١٨٨٢م/.
١٠ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة ـ استامبول /١٣٦٠هـ ـ ١٩٤١م/.

١١- الاعلام لخير الدين الزركلي - دار العلم الملايين - بيروت /١٣٩٩هـ ١٩٧٩م/ .
١٢- ترويح القلوب في ذكرملوك بني أيوب للمرتضى الزبيدي - دمشق /١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩م/.
١٣- تاريخ الادب الحفرافي لكراتشكوفسكي - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر في القاهرة /١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م/.
١٤- تاريخ حماة لاحمد الصابوني - المطبعة الاهلية في حماة/١٣٧٦ هـ - ١٩٥٦م/.
١٥- أدب العرب لمارون عبود - دار الثقافة - بيروت/١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م/
١٦- رحلة ابن بطوطة - القاهرة/ ١٣٤٧ هـ - ١٩٢٨م/.
١٧- رحلة ابن جبير - القاهرة/١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨م/.
١٨- مملكة حماة الايوبية لاحمد غسان سبانو - دمشق/١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م/.
١٩- أبوالفداء - عدد خاص صادر عن المجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية بمناسبة الاحتفال بمهرجان مرور/٧٠٠/ عام على ولادة أبي الفداء - مطبعة وزارة الثقافة والارشاد القومي - دمشق/١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥م/.
٢٠- ديوان صفي الدين الحلي- دار صادر ودار بيروت - لبنان/١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨م/.
٢١- ديوان ابن نباتة المصري - مطبعة التمدن القاهرة/١٣٢٣هـ - ١٩٠٥م/
٢٢- شفاء القلوب في مناقب بني أيوب لابن الحنبلي - طبعة وزارة الثقافة والفنون في بغداد /١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م/.
٢٣- التاريخ المنصوري لابن نظيف الحموي - طبعة المجمع العلمي العربي دمشق/١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م/.
٢٤- معجم المطبوعات العربية والمعربة ليوسف الياس سركيس - مصر /١٣٤٧هـ - ١٩٢٨م/.
٢٥- القاموس المحيط للفيروز آبادي - مطبعة البابي الحلبي - القاهرة /١٣٧١هـ - ١٩٥٢م/.

٢٦ـ مجلة الفيصل السعودية ـ العدد /٢٦/ لعام/١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م/
٢٧ـ مجلة العمران الصادرة عن وزارة الشؤون البلدية والقروية في دمشق ـ العددان (٢٩ـ ٣٠)لعام١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م/٠



قراءة اقتصادية في تاريخ القرامطة (الموحدون)

بقلم الأستاذ منذر خضر حمودي
عضو الجمعية التاريخية بحمص[٧]

إن أهل الشام هم الذين أطلقوا هذا الإسم على التنظيم الإسلامي الثوري الإنقلابي المناهض للممارسات الأموية والعباسية ،والذي كان يتزعمه فلاسفة إخوان الصفا ، وذلك لأول مرة ،في عهد المأمون العباسي وفي هذه التسمية إشارة إلى أن التنظيم المذكور كان يعمل سياسياً على قرمطة /قضم/ الدولة العباسية ، ليسهل الإنقضاض عليها وتصفيتها ، وفي بلاد الشام ذاتها يورد القصاصون الشعبيون العبارة التالية : لولا سلامك يسبق كلامك لقرمطتك وفصفصت عظامك . بينما كان أصحاب التنظيم القرمطي يسمون أنفسهم بالمؤمنين الموحدين .

إن دراستي للقرامطة ،لاتعني أنني سلفي أقدم الماضي لكي ينسخ ويطبق في هذا العصر ، ولكنها تعني أنني أقدم تراثاً متقدماً في عصره ،لأن القرامطة تحدوا غلق باب الاجتهاد واجتهدوا ،فكان اجتهادهم محترماً في نظر الأجيال اللاحقة لعصرهم رغم كثرة معارضيهم من أبناء ذلك الزمان ، أما عن وعي أو بلا وعي ، نعم أقدم هذا الماضي التراث لكي يكون حافزاً لنا اليوم من أجل الإقدام على كسر القيود والخلاص من سبات الجمود .

انني أرى القرامطة حركة سياسية إجتماعية تستلهم الإسلام بحسب اجتهادها كما أنها لاتتجاهل شأن الأديان الأخرى ، عملت على تثوير الناس ضد السلطات المستبدة أياً كان دين ومذهب هذه السلطات ،تسلحت الحركة القرمطية بنظرية توفيقية تجمع بين العقل والنقل وبين الدين والفلسفة /كما في فلسفة الفارابي وابن سينا/ وتوازن بين العمل والزهد كما توازن بين السلم والحرب.إن ما أقدمه اليوم من منجزات القرامطة هو أميل الى الايجابيات منه الى السلبيات وهذا لايعني أنني في المستقبل سوف أتجنب التحدث عن سلبياتهم إزاء عصرهم وتقصيرهم إزاء عصرنا .

أود في هذه الدراسة المحتزأة الذهاب بعيداً في دراسة ظهور

القرامطة وأسباب نشوئهم وانتماءاتهم قبل وصول المعتصم العباسي الى سدة الخلافة العباسية ، تاركاً هذا العمل الى دراسات أخرى ،لا أراها لازمة في الوقت الحاضر على الأقل .

لقد أقدم المعتصم العباسي على تسريح العرب من الجيش بعد استقدامه العساكر التركية ، وإحلالها محل العساكر العربية جنداً وقيادة/ بعضهم يعزي ذلك الى كون أمه تركية وبعضهم يرجع ذلك الى شجاعة الأتراك ورخص أجورهم ، ولكنني أرى أن الأهم في الأسباب يعود الى عدم قبول العرب السلالة العباسية بديلة لسلطة الرضا من آل البيت بعد سقوط الأسرة الأموية/ومع أن الأتراك حتى عهد الواثق العباسي ظلوا أداة مسخرة بيد الدولة العباسية ، لكنهم بعد ذلك العهد، جعلوا من الدولة العباسية ألعوبة بيدهم ،يتقاذفونها وفق مصالحهم(١) ونتيجة لذلك عاد العرب المسرحون إلى حياة البداوة ،والى العمل السياسي بجانب المعارضة بغية الإنتقام من الدولة التي آذتهم في موارد رزقهم ومشاعرهم العربية فاستفادت المعارضة عامة والقرامطة بخاصة من هذه الحادثة ، فضموا الى صفوفهم قوى ناقمة على السلطة العباسية ،وكانت القوى المشار إليها ،مدربة على إستخدام السلاح غالباً ومتمرسة على فنون القتال وتحمل قسوة الطبيعة العربية ، فازدادت حماسة لإسقاط السلطة ، بعد أن أشبعت بأفكار الحركة القرمطية المرتكزة على مبادىء الفلسفة وتقوى الدين(٢)/بمعنى آخر سيادة المنطق والعقل وفتح أبواب الجنة لكل فاعلي الخير والصلاح/ . بينما بقيت الدولة العباسية سائرة في ظل التغلب التركي ، نحو ظهور الإقطاع العسكري ، على نطاق واسع ، وتكاثر المكوس والضرائب غير المشروعة والتلاعب بالعملة ، باعتبارها وسيلة للتوفير والإثراء ، بحيث وصل النظام المصرفي في الامبراطورية العباسية الى درجة متقدمة من التطور ، رافقها ظهور طبقة رأسمالية متحالفة مع السلطة من أجل استغلال الجماهير،كما كان التحكم البيروقطاعي ، محالفاً وملازماً للاقطاع العسكري ، على حساب أملاك الدولة وأملاك الخلفاء الضعفاء بالدرجة الاولى ، وبالضغط والاكراه على حساب المواطنين بالدرجة الثانية ، وبوسائل الرشوة والالجاء

والتهجير والمصادرة والتزويد بالدرجة الثالثة وقد عبر عن هذا الظلم المحدق بالرعية المؤرخ مسكوية بقوله : وصاروا - أي الناس - بين هارب حال ، وبين مظلوم صابر لاينصف وبين مستريح الى تسليم ضيعته الى المقطع ليأمن شره (٣).

وفي مجال الصناعة ، سخط كل من المستغل والمستغل على النظام العباسي الفاسد ، سخط المستغل ،لأن الدولة لم تحمه من إغارة الأتراك على المؤسسات الصناعية ، بهدف السلب والإبتزاز ، كما أنها لم تحمي المستغل نفسه من تعدي الاتراك المباشر عليه ، ومن جشع الرأسماليين المالكين لوسائل الانتاج (٤)/من قراءتنا للتاريخ العام نرى أن الحكام الذين لايمثلون شعوبهم وبالتالي يفقدون ثقة هذه الشعوب بهم ،يلجأون الى اصطناع المرتزقة،في بادئ الأمر يلتزم المرتزقة جانب الطاعة والقيام بالأعباء الموكولة إليهم ، ثم عندمايطمئن المرتزق الى قوته ويكتشف ضعف سيده ، وبعد تساوي الحاكم والمرتزق في عدم الإرتباط بالوطن ومصالحه يظهر الصراع بين السيد والمسود على أشده ،كتنافس بين جانبين على المكاسب الخاصة فحسب / ومن هنا اضطرت الفئات المسحوقة الى التحالف ، ومن ثم العمل على إيجاد تنظيمات تهدف الى تحسين ظروفها والخلاص من المستغلين ، علماً بأن العمال كانوا من الأحرار والعبيد ، وكذلك كان المزارعون من هؤلاء وأولئك(٥).

لقد استطاعت الحركات الباطنية بعامة والحركة القرمطية بخاصة توظيف مساوئ النظام العباسي في نشر دعوتها ، التي بدأت بالعمل في المدن أولاً ، ثم في الأرياف والبادية ثانياً ، فأخذ دعاتها يفندون مساوئ النظام العباسي في أوساط العمال الزراعيين والصناعيين وأصحاب الحرف والتجارة والموظفين والجند والملاكين الناقمين والمتذمرين حتى شملت معظم فئات الرعية ، قائلين /أي القرامطة/ الى أتباعهم لاتعادوا علماً من العلوم ، أو تهجروا كتاباً من الكتب ، ولاتتعصبوا الى مذهب من المذاهب ، لان رأينا ومذهبنا يستغرقان/يستوعبان/ المذاهب كلها (٦).

ماكان لدعوة القرامطة أن تجذب الناس إليها، لولا فساد النظام العباسي وتململ الجماهير من شدة وطأته عليها، من ناحية، ولولا تسلح القرامطة بالعلم والمنطق المرتكزين على كتب الفلسفة عامة وعلى الفلسفة اليونانية وفلسفة الفارابي وسواه من الفلاسفة العرب بخاصة. حيث عملوا على تطبيق هذه النظريات في كل مكان سيطروا عليه وتبعاً لذلك قال القرامطة: بوجود تضارب حاد بين مصالح الأفراد أي بين الغني والفقير أو بين مجموع الفقراء ومجموع الأغنياء على الغالب... اذ أن الطبقة المالكة، بغية الإحتفاظ بثروتها ومصالحها قد لجأت الى قوتها الإقتصادية والسياسية، تدافع بهما عن وجودها ومكانتها، وبذلك أصبحت الملكية الشخصية في الامبراطورية العباسية أساساً للسلطة العباسية، واستأثرت الطبقة المالكة بالحكم والتشريع، بما يخدم الارستقراطية الحاكمة وأعوانها من ملاك الأراضي، ومن كان تابعاً لهما، فعمل هؤلاء جميعاً على معاداة القرامطة، واستعدوا كل القوى الرجعية على محاربتهم باستمرار.(٧)

وازاء كل التحالفات الرجعية، استقطبت الحركة القرمطية كل المستضعفين، من سائر العناصر والعصبيات المقهورة فضلا عن الطامحين الى تحسين واقعهم عبر تغيير الحكومات أو سقوط الدول الضعيفة، فانتظم في الحركة القرمطية أهل السواد والاكراد والفرس وبعض العرب ومعظم الأعراب(٨) وكل المقهورين والمضطهدين بشكل أو آخر. وعلى هذا الأساس نشأ الجيل الاول من القرامطة في شبه الجزيرة العربية، فكان تنظيمهم مهتما في بادئ الأمر، بسيادة مبادئه الهادفة الى تقديم المصلحة العامة على المصالح الخاصة، ولم يكن يفكر بجمع المال والجري وراء زخرف الحياة الدنيا، وكانت دعواهم: أنهم يعملون من أجل سيادة مبادئ الإسلام بروحه المحمدية، لامن أجل سيادة السلطان (٩) وانطلاقاً من هذا المنحى، وعندما كان أبو طاهر الجنابي يحاصر بغداد ويضايقها فقد أعطى الأمان الى كل الناس ماعدا أصحاب السلطان، لانهم يشربون الخمر، ويلبسون الحرير، ويعينون السلطان الذي يحجب عنه الرعية، ويظلم اليتيم والأرملة ويسمع القيان(١٠).

في الكلام الآنف الذكر إشارة واضحة الى إنحراف الخلفاء العباسيين عن روح الإسلام المحمدي وفيه غمزة صريحة الى فساد دولتهم،قياسا بدولة القرامطة الفتية وحكامها الثائرين على مظاهر الضعف والانحراف في دولة الخلافة والولايات التابعة لها . وهكذا كانت الحركة القرمطية تختلف اختلافاً بيناً بالافكار والاهداف عن ثورة الزنج ، فالحركة القرمطية هي حركة ثورية ، ذات أفكار إنقلابية ، مسلحة بفلسفة ذات تعاليم اشتراكية عميقة بفكرها ، جديدة بعنفها على المجتمع وذات أهداف بعيدة المدى ، بينما كانت حركة الزنج /التي سبقتها / ثورة لها هدف سلطوي، ولاترتكز على أسس فكرية متكاملة ، وليس لها جذور عميقة تمثل مختلف فئات المجتمع المتضرر من النظام القائم (١١) بخلاف الحركة القرمطية ، التي شدت الناس الى اصلاحاتها الثورية المبنية على أسس فلسفية دينية تمشيا مع مقتضى حياة ذلك العصر ، فشملت هذه الاصلاحات مختلف مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية .

إن صرخة احتجاج ونداء بالمساواة في عصر ، كان فيه الإنسان يباع ويشرى ، تعدل إن لم تفق ، كل أصوات ثوار الحركات الإجتماعية في أيامنا هذه ، علماً بأن القرامطة لم يقفوا عند هذه الصرخات فقط ، بل تعدوها الى حمل السلاح وإشهاره في وجه المستغلين ، بغية تحويل الطروحات النظرية الى ممارسات عملية (١٢) بدءاً من :

١ ــ التنظيم الطبقي :

/وفق مفاهيم العصر الحاضر/ : كان اليسار الإسلامي منذ صدر الاسلام ، قد تبنى الفهم الطبقي للإسلام ، وعمل على ترسيخ هذا الاتجاه ، ولذلك حاول سلمان الفارسي ، في نهاية خلافة عمر ابن الخطاب وبداية خلافة عثمان بن عفان ، خلق تكتل للحرفيين في الكوفة ، ولم يتح له أن يتمعمله ، لكن هذا الصحابي تحول الى رمز نقابي منذ القرن الخامس للهجرة ، فأصبح الحلاقون والماشطون والحجامون والجراحون يأتون سنوياً في النصف من شعبان لزيارة قبره في المدائن لذا من الانصاف ، أن نسجل للقرامطة ، مهمة تطوير العمل النقابي

إن لم نتمكن من تسجيل فكرة خلق النقابات المهنية لهم (١٣) لانه قبل القرامطة كانت نقابات العمال تنظيماً علنياً ، يقتصر على روساء النقابات والحرف ،الذين يعملون على تكييف علاقاتهم مع السلطة ، فعمد القرامطة إلى تحويل هذا الجهاز النقابي إلى تنظيم سري ، يضم العمال وقادتهم معاً ،وجعلوه جهازاً ثورياً يهدف الى العمل على إسقاط سلطان القمع والتقصير وبالتالى الى إقامة مجتمع جديد مبني على أساس سيادة العدل والقانون (١٤).

ومن الأمور التي عجلت في تبلور دور العمال والفلاحين وصغار الكسبة ، عبر تنظيماتهم النقابية ، ظهور الإسراف السلطوي والإستغلال الطبقي في الدولة العباسية ، فقد أنفق الوزير العباسي ابن الفرات ثلاثين ألف دينار على ستائر قصره من أموال الدولة ، وكان يشتري مسكاً وكافوراً بمبلغ عشرة آلاف دينار في السنة ، في حين كان يكفي الرجل وزوجته وأولاده للعيش الكريم ، مامقداره ثلاثمائة درهم في السنة (١٥) فكانت احدى مظاهر الرد على هذا الإسراف ، قيام القبائل العربية ،التي شرع أبناوها بقطع طريق الحج الذي هو أحد موارد الرزق للجياع من أعراب القبائل قبل القرامطة وبعدهم ، وذلك بسبب الظلم الإقتصادي الذي جاءت به سياسة الإنحراف لدى الامويين والعباسيين على السواء ، فضلا عن اضطراب حبل الأمن ، وتردي نظام القضاء ، وقد عبر عن هذا الواقع المر أحد شعراء الاعراب راجزا بقوله:

عليك ثوبان وأمي عارية

فألق لي ثوبك يابن الزانية

(١٦) وبالطبع كان يعني بذلك أحد الحجاج الموسرين والمحسوبين على السلطة اللاهية .

وهكذا نظراً لقيام المدن الكبيرة في أرجاء الامبراطورية العربية الاسلامية ، ونتيجة لظهور التمايز في الشرائح الاجتماعية/،فقد ظهرت على سبيل المثال في بغداد والكوفة الاسواق الخاصة بأبناء المهن،ويذكر لنا التاريخ كثيراً من حوادث الصراع بين الجزارين والحدادين أو بين الحجامين والحلاقين ، وظهرت أسواق للقطانين والحلاجين والصبانين... (١٧).

ولقد استفاد القرامطة من هذه الظاهرة وغيرها ، فنظموا هذه الفئات

المسحوقة في خلايا سرية ، مستفيدين من تجارب الأمم ومن تجارب الحركات الثورية العربية سابقا ، بل ومن ظاهرة الحياة الاجتماعية لدى النحل ، من حيث تقسيم العمل وتوزيع المهمات[18] ولكن كل ذلك ماكان ليلغي دور الانتماء الى العشائر والقبائل في الحركة القرمطية من جهة ، وبسبب موقف السلطة الحاكمة ، تجاه أكثرية الرعية ، فاندفعت القبائل المشار إليها وراء تحقيق مصالحها ، وجني المكاسب المادية والمعنوية ، ويظهر ذلك جلياً في حروب القرامطة مع خصومهم لدى الدارسين [19].

كان أكثر الذين اعتنقوا الدعوة القرمطية ، من الفلاحين والعمال وأهل الحرف ، وعلى العموم من الذين كان مستوى معيشتهم منخفضاً الى حد كبير ، /وكان قادتهم من الفلاسفة حسب تعبير خصومهم/فكان القاسم المشترك بين كل القرامطة ، وحدة المصالح والمشاعر ، فألف قادة ومنظرو القرامطة بين هؤلاء الثائرين[20] وأحلوا اخوانية الحرفة والعمل مكان اخوانية العشيرة والقومية قدر الامكان/ لان الظروف الموضوعية آنذاك كانت لاتسمح بأكثر من ذلك/ ولايتحقق مثل ذلك عادة في التاريخ الا في المجتمعات السائرة نحو المحتمع المدني ، وبذلك حقق القرامطة خطوة متقدمة نحو بناء مجتمع متمدن بالنسبة الى جيرانهم الذين تراجعوا عن مبادئ الإسلام الأساسية ، فيما يتعلق بالعرقية والعشائرية والمسؤولية الفردية [21] سعيا وراء ملاذ الدنيا التي تحدث عنها إخوان الصفا/ منظرو القرامطة/ بسخرية وأشاروا الى أهل اللذة المستهترين الذين وصفهم تعالى بقوله : (يأكلون كما تأكل الانعام والنار مثوى لهم/[22] فما دام موقف الله من الأغنياء والمستغلين هكذا فلماذا لايمشي قدماً في هذا الاتجاه كل من يتحلى باليقظة والحكمة ؟ كذي النون المصري الذي قال : لاتسكن الحكمة معدة ملئت طعاما[23] وهذا القول بما فيه من الوضوح ، غني عن الشرح والتعليق ، وتمشياً مع هذا الفكر، حاول القرامطة عن طريق نظام الألفة ، حمع فئات العمال في العالم الإسلامي ، في نقابات ، امتازت بخاصتين اثنتين هما :

١ ـ الاولى : إنها نقابات مهنية تمثل مصالح أعضائها طبقياً .

٢ ـ الثانية : إنها مؤسسة قرمطية من حيث أهداف الدعوة القرمطية [٢٤]

وضمن هذا الإطار، ساهم القرامطة في تطوير دور الحرفيين ، بغية توجيه الحياة الإقتصادية والسياسية .. نحو مايحقق بناء مجتمع الكفاية والعدل . ولذلك تطلع القرمطي الى الأمام محاولاً بناء المجتمع الحديد ، على مبادىء العدل والإنصاف ، ديناً وفلسفة/ بالشرع والوضع/ بينما كان غيره يتطلع الى الوراء محاولاً تكريس الواقع المليء بالظلم والطغيان/ على مبدأ:هذا ماوجدنا عليه آباءنا/ ولهذا قال شاعر القرامطة مخاطباً خصومهم :

فكنتم وأنتم تهدمون وأبتني
فشتان بين من يبني وآخر يهدم [٢٥]

ومن هنا كان إخلاص الفرد في المجتمع القرمطي ، ومايقدمه من خدمات الى الجماعة ، هو الذي يحدد مركزه بين أبناء المجتمع ،علماً بأن القرامطة ، كانوا يتعهدون بالإنفاق على جميع أفراد المجتمع بلا تفريق أو تمييزوبمايتناسب مع مركزالفردالاجتماعي النضالي ،وهذا المبدأ تأخذ به أرقى الدول الاشتراكية اليوم [٢٦].

وينبغي لنا ألا نتصور مابناه القرامطة ، وماحاولوا تحقيقه قد تم بدون مواجهة أعداء ، فمن قراءة تاريخ الشعوب ، يتبين لنا أن الملاك وكبار الاغنياء ، يكونون على رأي سياسة الدولة التي تحمي مصالحهم وتحقق أغراضهم ، وان كانوا من مختلف الأجناس ، بينما يكون الفقراء وكل الفئات المتذمرة من سلب الدولة وأعوانها لقوت معيشة الجماهير ، هي من نحلة المعارضة أو أحلافها ، وهم أيضا من مختلف الأجناس [٢٧].

ولكن هذا الحكم ، ليس حكماً مطلقاً ، فقد ذكر التاريخ أيضا أمثلة عن دور عدد من الاشخاص الاغنياء ، قد ساهموا في دفع عجلة التقدم ،الى الامام، ومنهم كان محمد بن الحسن الملقب بدندان ، أحد أغنياء وعلماء عصره ، الذي كان منظماً في صفوف الحركة القرمطية ، بل وقام بالتبرع الى بيت مالها بمليون دينار [٢٨] ويذكرنا هذا بدور السيدة خديجة بنت خويلد ، *التي قدمت كل ماتملك للدعوة الإسلامية* ، بهدف

نصرتها وإعلاء شأن كلمتها ، وبدور الشري والمفكر أنجلز،الذي دعم الماركسية بماله وقلمه ..

ومن حسن حظ القرامطة ، أنهم وفقوا في بداية تكوين دولةلهم بقيادة ، كان من أهم رجالها ، أبو سعيد الجنابي وخلفاؤه من بعده الذين كانوا يعاملون الشعب بالعدل والانصاف ، كما كانوا يسمعون الى مطالب الرعية بكل رقة وتواضع (٢٩)وذلك من منطلق تطلعاتهم الاشتراكية الاصلاحية في ذلك العصر ، حيث كان نظام الألفة لدى القرامطة مستوحى من الإسلام بدليل الآيات التالية :/واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا/ وقوله/ ولو أنفقت ما في الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم انه عزيز حكيم/وقوله :/وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الاثم والعدوان/ (٣٠).

وعلى هذا الأساس أعار القرامطة علاقات التعاون الإجتماعي أهمية قصوى ، باعتبار أن الانسان هو الأساسي في خلق المال ووسائل الانتاج بفكره وعمله (٣١)وتبعاً لهذا الفكر ، كلف في كل قرية رجل من ثقاتها ، بالإشراف على جمع وإحصاء الممتلكات لصالح بيت مال المجتمع القرمطي ، وكلف الشخص نفسه بالإنفاق على حاجات الناس .. وبذلك لم يبق فقير واحد من أتباع الدعوة القرمطية (٣٢)واذا انسان ما افتقر في دولة القرامطة أو استدان ، كانوا يتعهدونه حتى يتيسر عمله ، واذا كان لأحدهم دين على آخر لايطالبه بأكثر من رأس المال الذي له (٣٣)بل وكل غريب كان ينزل في بلاد القرامطة وله صناعة ، كان يعطى مايكفيه من المال حتى يشتري مايلزم صناعته من عددوآلات،ويرد الى الحكام ماأخذ حين يشاء ، دون أن يدفع فوائد عن المال الذي استدانه (٣٤)،وكما كانت حكومة القرامطة تعتمد على تأييد العمال والفلاحين في دعم نظامها الاشتراكي/وفق معايير ذلك العصر/ كان لابد لها من تقديم الخدمات اللازمة للجماهير عن طريق الإكثار من المرافق العامة ، للتخفيف من أعباء المواطنين(٣٥)وبالمقابل عمل أتباع الدعوة *القرمطية بحماسة من أجل زيادة الانتاج ، وقدموا* إنتاجهم للتنظيم

طواعيةً وانسجاماًمع شعاراتهم الاشتراكية المستوحاة من مبادئ أخوة الانسان للانسان في الاسلام المحمدي، وفي مبادئ العقل السليم لدى الفلاسفة (٣٦) ولاحكام قبضة الدولة على اقتصادها وبالتالي تمكينها من ممارسة استقلالها فقد حصرت دولة قرامطة البحرين التجارة الخارجية بيدها ، وفتحت الاسواق لها في الخارج ، كما تملكت الحوانيت والمستودعات اللازمة من أجل احكام سيطرة الدولة على مواردها وبالتالي تنظيم عمليتي الاستيراد والتصدير (٣٧) لما كان اصلاح المنازل والمزارع والمرافق العامة كافة ، من واجبات الدولة التي ألزمت نفسها ، بتقديم هذه الخدمات المشار اليها مجانا (٣٨) واستكمالا لهذا العمل التعاوني أقامت حكومة قرامطة البحرين نوعا من المصارف ، لتقديم القروض الى الزراع والصناع ، ومنع التعامل بالربا... كما قدمت للمعوزين الدواء واللباس والطعام مجانا .. وبغية استمرار الدولة في تقديم هذه الخدمات ، فقد أممت الافران اللازمة من أجل تأمين الرغيف الضروري لقوت الجماهير بعيدا عن الاستغلال ودعمت هذه الخطوة بمراقبة مذابح الحيوان ، وجعلت الحمامات مرفقا عاما لتأمين النظافة العامة للمواطنين ، ولكي تحقق شعار الفلاسفة الاطباء والذي يقول : العقل السليم في الجسم السليم (٣٩) ومن منطلق الشعور بالمسؤولية الاجتماعية فقد كانت دولة القرامطة تعطي الفقراء من مواطنيها بيوتاً للسكن مجانا ، وتطحن طواحين الدولة للناس حبوبهم مجانا أيضا (٤٠) وذلك الى جانب الطواحين الخاصة المشمولة برعاية الدولة ، بحيثاذا خرب منزل أو طاحون أحد الملاك في دولة القرامطة ، ولم تكن لديه القدرة على اصلاحهما ، أمرت الدولة جماعة من العبيد/ الذين أصبحوا موظفين لديها / بأن يذهبوا اليه ويصلحوا المنزل أو الطاحون ولايطلبون من المالك شيئا (٤١) مقابل جهودهم المبذولة .

٢ ــ التنظيم الاقتصادي :

كثرت الثورات في عهد المتوكل على الله العباسي /٨٤٧ ــ ٨٦١م/ حيث كان الضعف المالي والاداري قد تواكبا مع الضعف العسكري والسياسي وبدأ الهزال يتسرب الى جسم الدولة العباسية للاسباب التالية :

١ ـ كثرة نفقات جيوش الدولة
٢ ـ كثرة نفقات قصور الخليفة ورجال دولته .
٣ ـ كثرة الرشوة والتزلف وانتشار الفساد .
٤ ـ قلة الإنتاج وتدهور الوضع الاقتصادي .
٥ ـ اضطراب حبل الأمن وتحول حاميها الى حراميها .
٦ ـ استقلال أو شبه استقلال حكام العديد من الأقاليم (٤٢)

وبعد دراسة القرامطة لكل الحركات الثورية السابقة لتحركهم من حيث أسبابها وتطورها ونتائجها ، استخلصوا العبر منها وحاولوا تفادي الأخطاء قدر الامكان بعد ملاحظة جملة من الأمور الاقتصادية كتجمع المال بشكل احتكاري يتنافى مع روح الاسلام المحمدي الذى يعنى بمصلحة المجتمع ويرفض هذا الكنز للأسباب التالية :

١ ـ المال وسيلة تسلط اقتصادي واجتماعي .
٢ ـ المال وسيلة للهو والترف .
٣ ـ المال وسيلة للضغط على العمال والشغيلة كافة لكي يبيعوا قوة عملهم وفق ارادة ومصالح محتكري المال .
٤ ـ المال وسيلة لوصول غير الأكفاء الى مراكز لايستحقونها ولهذه الأسباب وسواها رفع أبو ذر الغفاري صوته عاليا محتجا على محتكري المال من المسلمين قائلاً :

المال للرعية وليس لله لان الله غني عن عباده اذ لو كان المال لله لنصب الحاكم نفسه وكيلا لله وتحقق الاستبداد والاستعباد بما لايتفق وروح الاسلام .

وعلى ضوء ماذكر سابقاً من فهم لروح الاسلام ، فقد أقام القرامطة نظامهم الاقتصادي ، وفق تطلعاتهم الاشتراكية الاصلاحية ، مهتمين بالجوانب التالية :

١ ـ تشجيع الزراعة وتنمية الثروة الحيوانية .
٢ ـ إقامة صناعة محلية لسد حاجات البلاد أولا ولتصدير الفائض قدر الامكان .
٣ ـ تنشيط التجارة بفرعيها الداخلي والخارجي .

٤ - توطيد النظام المالي من حيث نمو الواردات وضبط النفقات والاشراف على النقد .

آ - الزراعة والثروة الحيوانية :

بفضل همة ومساعي أبي سعيد الجنابي ، تقدمت زراعة الارض وعمارتها في دولة قرامطة البحرين[٤٣] فقبض على كل الاموال في البلاد/بمعنى تأميم الدولة لها/ وعلى الثمار، وعلى الحنطة والشعير[٤٤] وذلك من أجل توجيه الانتاج الزراعي وزيادة نموه من ناحية ولمنع احتكار المحتكرين ،/ أدوات الضغط على كل حركة تقدم من ناحية أخرى/،ولتوفير قوت الجماهير بعيدا عن الازمات المفتعلة أو الناجمة عن قصر النظر في التخطيط الاقتصادي ، ولتجنيب الناس استغلال بعضهم بعضا .

ولقد كان لحكومة القرامطة أراضيها الخاصة ، فجعلتها مزارع حكومية نموذجية[٤٥] وهي من الاتساع والاهمية بحيث شغلت فيها ثلاثين ألف زنجي وحبشي ، عملوا في زراعة الارض وفلاحة البساتين[٤٦] والى جانب المزارع الحكومية ، كان القرامطة البارزون يمتلكون ممتلكات خاصة الى جانب ممتلكات رأسمالية الدولة/ بلغة العصر/ التي ظلت صامدة أكثر من قرن في وجه خصومها ،ثم تغلب في النهاية القطاع الخاص على القطاع العام من جراء أسباب داخلية وأخرى خارجية ، وبذلك تتضح لنا صعوبة التوفيق بين النظرية والتطبيق ، تلك الصعوبة التي ما تزال تلاحق التجارب الاشتراكية عند الشعوب حتى الوقت الحاضر ، مرورا بكومونة باريز وتجربة محمد علي /باشا/ في مصر وتجارب تشيلي واندونيسية وغير ذلك[٤٧].

لم تلجأ حكومة القرامطة في البحرين الى نزع ملكية الاراضي من يد أصحابها، كي يعاد توزيعها ، وذلك لعدم الحاجة الى مثل هذا الاجراء ، لان كل الفلاحين كانت لديهم الاراضي الكافية [٤٨] بينما لجأت حكومة قرمطية أخرى الى انتزاع ملكية الاراضي من يد أصحابها الاحتكاريين لان الظروف الموضوعية أوجبت ذلك لكون الارض هي مورد الرزق والعيش الاساسي ، كما هو الحال في اليمن ، فقد أقدم ((علي بن الفضل)) أحد مؤسسي دولة القرامطة في اليمن ، على مصادرة أملاك اقطاعيي المخاليف ، ثم وزعها على الفلاحين الذين لم ينعموا بها طويلا، بسبب

تحالف القوى الرجعية داخل اليمن وخارجه ضد علي المذكور فاغتيل وبالتالي سقطت دولته من بعده تحت ضربات المتآمرين(٤٩).

ومن أهم المناطق الزراعية في دولة قرامطة البحرين ،كانت ((الحسا)) التي يكثر فيها الجوز الهندي المسمى : النارجيل وفيها تمر كثير ، حتى أنهم يسمنون به المواشي ، ويأتي وقت يباع فيه أكثر من ألف من/وزنة تزن مئتين وسبعة وخمسين درهما/بدينار واحد.. والى الشمال من الحسا بسبعة فراسخ ، تقع القطيف ، وهي مدينة كبيرة توجد فيها أشجار نخيل كثيرة (٥٠)وقد قدر ثمن محاصيل الحساذات مرة ، بحوالي ثلاثين ألف دينار(٥١).

وأما في ميدان تربية الحيوان ، فقد أقامت حكومة قرامطة البحرين رعاة للابل والغنم ومعهم قوم لحفظها ، والتنقل معها بنوبات معروفة ، وذلك لتنمية الثروة الحيوانية اللازمة لمتطلبات دولة القرامطة التي كانت تعرف مالها وماعليها ، لكي تدفع باقتصادها ورفاه شعبها نحو الأفضل(٥٢).

ب ـ الصناعة :

نظر القرامطة الى العمل من خلال نظرية إخوان الصفا الشاملة والتي ظهرت في عصر الإقطاع وتكون بذور علاقات بورجوازية تجارية في الإمبراطورية العربية الإسلامية خلال العصر الوسيط (٥٣) فقيموا الإنسان من خلال النزعة الاجتماعية لدى إخوان الصفا ، التي تقول:// بأن نقاء الإنسان وصفاءه ، مرتبطان بالحياة الدنيا ، ويمر الإنسان عبرها اجتماعياً من حيث سلوكه في القول والفعل// وبرأيهم يتفق ذلك مع قوله تعالى:// فمن كان في هذه الدنيا أعمى ، فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا// . ولكي يقتربوا من الصواب قسموا العمل وأكدوا قيمة الانسان من الناحية الاجتماعية بارتباطه الإنتاجي ، فوضعوا الحوافز المادية للعمال ، من أجل إنجاز العمل وإتقانه . وعلى هذا الأساس ميزوا بين إنسان وآخر ، كما قالوا بضرورة تعدد الأنشطة لأناس كثيرين ، لكي يكمل بعضهم بعضاً وليسرعوا المشي نحو الكمال كهدف ، ولكي يحصل

الناس على طيب العيش ، استعان القرامطة لتحقيق ذلك الهدف بالعلم والتعلم في ميادين مختلف العلوم ، ومن أجل دفع حركة التطور والتقدم باستمرار (٥٤) باعتبار العمل اليدوي وعمل الفكر يلتقيان في قوة مشتركة بمعنى وجود تبادل وتكامل بين النشاط الفكرى والنشاط اليدوي، ضمن نطاق الدأب الاجتماعي (٥٥) .

انطلاقا من هذا الوعي لاهمية العمل ، شجع القرامطة الصناع على تأمين حاجات البلاد من المصنوعات الاساسية ، فجلبوا الحديد من سورية باعتباره معونة مقدمة لهم من قبل الامير سيف الدولة الحمداني في حلب (٥٦) وصنعوا السفن من مختلف الأنواع لمختلف الاغراض ، وضربوا السيوف والأسنّة ، كما نسجوا الدروع والمغافر/ زرد يلبسه المحارب تحت القلنسوة / واتخذوا الروايا /ثلاثة جلود لوضع الماء/ والمزاود/مايوضع فيه الزاد/ والقرب ، وأقاموا صناعة الغزل والنسيج ، فنسجوا فوطا جميلة ، صدروها الى مدينة البصرة وغيرها (٥٧) كذلك أقاموا صناعة دباغة الجلود وصناعة الأحذية والأدوات الجلدية ، وأنشؤوا الصناعات الغذائية مثل مطاحن الحبوب ومعامل التمور ، على مستوى القطاعين العام والخاص ، وبذلك مكنوا دولتهم من الصمود والتصدي للطامعين بها عدة أجيال (٥٨) .

ح ـ التجـــارة :

كان أبو سعيد الجنابي ، قبل تأسيسه دولة القرامطة في البحرين مثالاً يحتذى ، في الوفاء والصدق بتجارته/ يمارسها في القطيف (٥٩) / وبعد تأسيسه دولة القرامطة في الحسا .. شجع العلاقات التجارية مع شعوب المنطقة المجاورة لدولته ، ولم يعترض على حرية مرور المسافرين عبر بلاده ، مدفوعاً برغبته وتطلعاته نحو كسب الجماهير في طول البلاد وعرضها (٦٠) ولكنه مع ذلك وضع يد الدولة على التجارة الخارجية وفتح الأسواق لها في الخارج ، كما فعل خلفاؤه من بعده مثل ذلك بهدف تنشيط التجارة ، حيث عينوا المقيمين لهم في المدن الهامة /كالملحقين والمفوضين التجاريين في السفارات في عصرنا/ ومن المدن التي كان لهم فيها مثل هؤلاء المقيمين البصرة وبغداد ودمشق .. وكلّلوا ذلك بتنظيم عمليتي الإستيراد والتصدير (٦١) .

وتبعاً لهذه الاجراءات ، أخذت عائدات الربح تتدفق على بيت المال العام في الدولة ثم تخرج منه لتنفق على مشاريع المجتمع وتحسين أحوال المزارعين والعمال والجنود (٦٢).ولتيمكن القرامطة من تحرير تجارتهم من النفوذ الأجنبي ، إمتلكوا أسطولا من السفن/الشداه/ عمل في مياه الخليج العربي والبحار المجاورة /ويدل على ذلك إتساع رقعة نفوذهم وتدفق الأتاوات عليهم/ وأحكموا سيطرتهم على هذه المياه ، فوصلوا الى شرق افريقية حاملين معهم بضائعهم ليعودوا ببضائع إفريقية المكونة من العاج والخشب والمعادن الثمينة ، وكذلك وصلوا الى الهند ببضائعهم ليقايضوها بالحديد والمعادن المتعددة والتوابل والمسك ، فكانت أهم صادرات القرامطة مكونة من الفوط واللؤلؤ والتمور فضلا عن البضائع المستوردة من البلدان المجاورة بقصد إعادة تصديرها من بلادهم الى ماوراء حدودها (٦٣).

د ـ الواردات المالية :

فرض القرامطة ضرائبهم تدريجياً على اتباعهم بشكل إختياري وبدافع من الحماسة للعقيدة على الشكل التالي :

١ ـ ضريبة الفطرة : ومقدارها درهم على كل فرد من الرجال والنساء والصبيان .
٢ ـ ضريبة الهجرة : ومقدارها دينار على كل منتسب أدرك الحنث .
٣ ـ ضريبة البلغة : ومقدارها سبعة دنانير عن بعض الاعضاء المميزين اجتماعياً .
٤ ـ ضريبة الخمس : مما يملك عضو الدعوة .
٥ ـ ضريبة الهبات والتبرعات المقدمة الى الدعوة .
٦ ـ خطوة الألفة : وهي المرحلة الأخيرة بحيث تساعد الظروف الموضوعية على جعل الملكية جماعية . ولم تكن هذه الخطوة عامة من حيث المكان والزمان ، بل عمل بها بحسب الظروف . (٦٤)

كذلك فرضت حكومة قرامطة البحرين والحسا الضرائب على المراكب وعلى مقاطعة عمان وعلى الحجاج وعلى صيد اللؤلؤ ، كما فرضت الضرائب

على مدن وقرى العراق /التي عجزت الدولة العباسية عن حمايتها والدفاع عنها/ قدرت بمليون ومئتي ألف دينار ، كانت منها الأعشار والخراج ثلاثين ألف دينار فقط(٦٥) . ومنذ عام ٣٢٥هـ - ٩٣٧م إحتل القرامطة مدينة الكوفة وفرضوا هدنة على الدولة العباسية ،وألزموها بدفع مئة وعشرين ألف دينار كل سنة بالإضافة الى ضريبة معلومة عن كل حاج ، وأخذوا يتدخلون في شؤون سياسة بغداد مدة قرن من الزمن(٦٦) ، كما كان للقرامطة ديوان/مال وجمارك/ في البصرة ، وكان لهم هناك رجل يأخذ المكوس من الميناء إلى جانب الموظفين العباسيين(٦٧) وكان الغواصون في الحسا يستخرجون من البحر اللؤلؤ ويقدمون مقابل ذلك الى دولة القرامطة نصف مايستخرجون(٦٨) . ومن أرباح التجارة الخارجية توفرت لدى بيت المال العام مبالغ كبيرة (٦٩)فضلاً عن الأموال المتقاطرة من مختلف أنحاء العالم الإسلامي آنذاك ويظهر ذلك جلياً في الجدول التالي: (٧٠)

مقادير خراج بعض الولايات القرمطية استناداً الى ابن خرداذبة في المسالك والممالك ليدن - ١٣٠٩ هـ .

كرمان	ستة آلاف ألف درهم
مكران	ألف ألف درهم
أصبهان	عشرة آلاف ألف وخمس مئة ألف درهم
سجستان	ألف ألف درهم
خراسان	سبعة وثلثين ألف ألف درهم
حلوان	تسع مئة ألف ألف درهم
ماه الكوفة	خمسة آلاف ألف درهم
ماه البصرة	أربعة آلاف ألف وثماني مئة ألف درهم
همذان	ألف ألف وسبع مائة ألف درهم

ماسبذان	ألف ألف ومئة ألف درهم
مهرجان قذق	ألف ألف ومئة ألف درهم
الايغارين	ثلثة آلاف ألف وثمانمئة ألف درهم
قم وقلسان	ثلثة آلاف ألف درهم
آذربيجان	أربعة آلاف ألف وخمسمئة ألف درهم
الري وديملوند	عشرين ألف ألف وثمانين ألف درهم
قزوين وزنجان وأبهره	ألف ألف وثمانماءئة ألف وثمانية وعشرين ألف درهم
نومس	ألف ألف ومئة ألف وخمسين ألف درهم
جرجان	أربعة آلاف ألف درهم
طبرستان	أربعة آلاف ألف ومائتي ألف وثمانين ألف وسبعمائة درهم
تكربت والطيرعان والسن والبوازيج	تسع مائة ألف درهم
شهرزور والصامغان	ألفى ألف وسبع مائة ألف وخمسين ألف درهم
كورة الموصل	ستة آلاف ألف وثلثمئة ألف درهم
قردى وبزبدى	ثلثة آلاف ألف ومئتي ألف درهم
ديار ربيعة	تسعة آلاف ألف وستمائة ألف وخمسة وثلثين ألف درهم
آرزن وميفارقين	أربعة آلاف ألف ومئتي ألف درهم
مقاطعة طرون	مئة ألف درهم
ارمينية	أربعة آلاف ألف درهم
امد	ألفى ألف درهم
ديار مصر	ستة آلاف ألف درهم

اعمل طريق الفرات	ألفى ألف وتسع مئة ألف درهم
قنسرين والعواصم	ثلثمائة ألف وستين ألف دينار
جند حمص	مائتي ألف وثمانية عشر ألف دينار
جند دمشق	مائة ألف وعشرة آلاف دينار
حند الأردن	مائة ألف وتسعة آلاف دينار
جند فلسطين	مائتي ألف وتسعة وخمسين ألف دينار
مصر والاسكندرية	ألفى ألف وخمس مائة ألف دينار
الحرمين	مائة ألف دينار
اليمن	ستمائة ألف دينار
اليمامة البحرين	خمس مائة ألف وعشرة آلاف دينار
عمان	ثلثمائة ألف دينار

ومما يدخل في شيء من الارتفاع جزية رؤوس أهل الذمة بحضرة مدينة السلم وهي مائتا ألف درهم

هـ ـ النفقات المالية :

كان من أهم إصلاحات حكومة القرامطة في البحرين والحسا أنها ألغت الضرائب المفروضة على الأراضي الزراعية ، كما أنها ألغت أو أنقصت الضرائب المفروضة على المزارع والعامل ، وعلى العموم ماكانت هذه الحكومة تأخذ عشوراً من الرعية ، بل ذهب الباحث/بندلي جوزي/ الى أبعد من ذلك حين قرر أن دولة القرامطة قد أعفت شعبها من دفع الضرائب تماماً ، ولايفهم سر ذلك إلا إذا كانت وارداتها المالية من أرباح المؤسسات العامة في الصناعة والتجارة ومزارع الدولة بالاضافة الى الغرامات المفروضة على بلدان أخرى ، قد كانت كبيرة وتكفي لتغطية النفقات المطلوبة (٧١) .

فيذكر أنه أثناء مرحلة الملكية الجماعية في دولة القرامطة ، كان يقوم قيم ثقة في كل قرية أووحدة جماعية بإكساء العاري والانفاق على الجميع مايكفيهم بحيث لايبقى فقير بينهم ولا محتاج أو ضعيف ، كما كانت الدولة تحري على موظفيها الجرايات اللازمة لتفادي العوز والحاجة (٧٢) ويذكر أن قرامطة البحرين قد أقاموا نوعا من المصارف لتقديم القروض الى الزارع والصناع لمنع التعامل بالربا وتيسير ظروف الشغيلة (٧٣) .كما كانت حكومة العقدانية القرمطية في البحرين ، تدفع دين المدينين وتساعدهم على إيجاد العمل المناسب، وكانت أيضا ترسل بعض المال الى صندوق الامام ووكلائه ، وتنفق أموالا أخرى على متطلبات دار الهجرة القرمطية (٧٤) .وفي مجال النقد / العملة / كان البيع والشراء والعطاء والأخذ في دولة قرامطة البحرين تتم عمليات ذلك التعامل بوساطة نقود من رصاص توضع في زنابيل ،يزن كل منها ستة آلاف درهم فيدفع الثمن عدداً من هذه الزنابيل ، وكانت هذه العملية لاتسري في خارج بلاد القرامطة منعاً لتهريب الاموال وتخريب الاقتصاد الوطني من قبل من مات ضميرهم واختاروا معاداة النظام (٧٥) إن إقدام القرامطة على ضرب النقود من الرصاص يقودنا الى الإستنتاج المنطقي في الأمور التالية :

١ ـ كان الأغنياء يهربون بأموالهم خارج البلاد ومن الخارج كانوا يحرضون على القرامطة بل ويشاركون في محاربتهم .

٢ ـ احتكرت الدولة النقود الذهبية والفضية من أحل تغطية حاجة ميزانها التجاري الخارجي من النقود الدولية .

٣ ـ كان الفقراء خارج دولة القرامطة يتطلعون الى هذه الدولة بإعجاب بل كان بعضهم يتوجه اليها ليتمكن من العيش بعيدا عن الاستغلال ولتأمين سبل العيش .

٤ ـ كان كل من القرامطة وخصومهم يحارب ويعمل بشراسة كي يحافظ على وجوده .

٥ ـ كانت معظم الدول المجاورة للقرامطة بل والمعاصرة لهم تناصبهم العداء والبغضاء خوفاً من دعاية نظامهم الشعبي .

وجدير بالأهمية والتنويه ، أنه كان من تعاليم القرامطة العمل على اسقاط الجزية عن أهل الذمة ، انطلاقاً من المبدأ القائل : الدين لله والوطن للجميع وذلك من أجل تساوي جميع المواطنين في المعاملة ،وبعد التأمل في أهمية هذه الخطوة ، ندرك أن القرامطة قد سبقوا العديد من دول العالم اليوم في التوجه نحو علمنة الدولة اجتماعياً على الاقل فيما يتعلق بالضرائب وبالحريات العامة ، وبالتالي نجد أنفسنا ملزمين بالقول : ان القرامطة قد سبقوا بأفكارهم أبناء عصرهم ، فضيعهم الجهال والسفهاء من قومهم ، وزادوا هم أنفسهم الطين بلة عندما تنازعوا واختلفوا إلى أن ذهبت ريحهم ،(٧٦) وضاعت معظم أخبارهم وآثارهم .



* المراجع والمصادر *

١ ـ الحركات السرية في الاسلام	د . محمود اسماعيل ص ١١٩
٢ ـ الحركات السرية في الاسلام	د . محمود اسماعيل ص ١١٥
٣ ـ الحركات السرية في الاسلام	د . محمود اسماعيل ص ١١٧
٤ ـ الحركات السرية في الاسلام	د . محمود اسماعيل ص ١١٨
٥ ـ الحركات السرية في الاسلام	د . محمود اسماعيل ص ١١٨
٦ ـ القرامطة	د . مصطفى غالب ص ٥٠×٦٠
٧ ـ القرامطة	د . عارف تامر ص ٦٤
٨ ـ الحركات السرية في الاسلام	د . محمود اسماعيل ص ١١٤
وقرامطة العراق	عليان ص ٢٨
٩ ـ أخبار القرامطة	د . سهيل زكار ص ٣٧ و ٢٢٣
١٠ـ أخبار القرامطة	د . سهيل زكار ص ١٥٦
١١ـ القرامطة	د . عارف تامر ص ٦٣
١٢ـ أخبار القرامطة	د . سهيل زكار ص ٥
١٣ـ ثلاثية الحلم القرمطي	محي الدين اللاذقاني ص ٩٨
١٤ـ الحركات السرية في الاسلام	د . محمود اسماعيل ص ١٢٠
١٥ـ ثلاثية الحلم القرمطي	محي الدين اللاذقاني ص ١٥٩
١٦ـ ثلاثية الحلم القرمطي	محي الدين اللاذقاني ص ٤٤
١٧ـ ثلاثية الحلم القرمطي	محي الدين اللاذقاني ص ٩٨
١٨ـ ثلاثية الحلم القرمطي	محي الدين اللاذقاني ص ٩٨
١٩ـ ثلاثية الحلم القرمطي	محي الدين اللاذقاني ص ٩٨
٢٠ـ قرامطة العراق	عليان ص ٢٠٤
وتاريخ الحركات الفكرية	بندلي جوزي ص ١٩٤
في الاسلام	
٢١ـ ثلاثية الحلم القرمطي	محي الدين اللاذقاني ص ٩٧
٢٢ـ ثلاثية الحلم القرمطي	محي الدين اللاذقاني ص ٣١٠
٢٣ـ ثلاثية الحلم القرمطي	محي الدين اللاذقاني ص ١٢٠

٢٤- ثلاثية الحلم القرمطي	محي الدين اللاذقاني ص ٢٠٥
٢٥- ثلاثية الحلم القرمطي	محي الدين اللاذقاني ص ١٦٦
٢٦- قرامطة العراق	عليان ص ٢٠٠
٢٧- ثلاثية الحلم القرمطي	محي الدين اللاذقاني ص ٧٦
٢٨- القرامطة	د . عارف تامر ص ٧١
٢٩- من تاريخ الحركات الفكرية	بندلي حوزي ص ٢٠٢
والقرامطة	دي خوية ترجمة زينة ص ١٤٤
٣٠- الحركات السرية في الاسلام	د . محمود اسماعيل ص ١٣٠
٣١- القرامطة	د . عارف تامر ص ٦٧
٣٢- القرامطة	دي خوية ترجمة زينة ص ٣٥
٣٣- أخبار القرامطة	د . سهيل زكار ص ١٩٦
٣٤- أخبار القرامطة	د . سهيل زكار ص ١٩٦
٣٥- من تاريخ الحركات الفكرية	بندلي جوزي ص ١٩٤
٣٦- القرامطة	دي خوية ترجمة زينة ص ٣٥
٣٧- القرامطة	د . عارف تامر ص ٦٦و ٧١
٣٨- القرامطة	د . عارف تامر ص ٦٦
٣٩- القرامطة	د . عارف تامر ص ٦٦و ٧٠
٤٠- القرامطة	د . عارف تامر ص ٧٧
٤١- أخبار القرامطة	د . سهيل زكار ص ١٩٦
٤٢- من تاريخ الحركات الفكرية	بندلي جوزي ص ٧٤
٤٣- أخبار القرامطة	د . سهيل زكار ص ٣٣٦
٤٤- أخبار القرامطة	د . سهيل زكار ص ٣٣٦
٤٥- من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام	بندلي حوزي ص ١٩٧
٤٦- القرامطة	د . عارف تامر ص ٧١
	وبندلي حوزي ص ١٩٦
٤٧- القرامطة	دي خوية ترجمة زينة ص ١٢٧
٤٨- من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام	بندلي حوزي ص ١٩٧

٤٩- ثلاثية الحلم القرمطي	محي الدين اللاذقاني ص ٩٢
٥٠- أخبار القرامطة	د . سهيل زكار ص ١٩٨
٥١- الاسماعيليون في مرحلة القرمطة	سامي العياش ص ٢٤٥
٥٢- أخبار القرامطة	د . سهيل زكار ص ٣٣٦
٥٣- النزعات المادية	د . حسين مروة ج٢ص ٣٧٤
٥٤- النزعات المادية	د . حسين مروة ج٢ص ٣٧٨
٥٥- النزعات المادية	د . حسين مروة ج٢ص ٤٠١
٥٦- النجوم الزاهرة	ابن تغري بردي ج٣ص ٣٦٦
وتجارب الامم	مسكوية ج٦ص ٢٠٣
٥٧- أخبار القرامطة	د . سهيل زكار ص ١٩٨
٥٨- أخبار القرامطة	د . سهيل زكار ص ٣٣٨
٥٩- أخبار القرامطة	د . سهيل زكار ص ٣٣٤
٦٠- من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام	بندلي جوزي ص ١٩٧
٦١- القرامطة	د . عارف تامر ص ٧١
٦٢- من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام	بندلي جوزي ص ٢٠٠
٦٣- أخبار القرامطة	د . سهيل زكار ص ٨٣× ١٩٨
ومجلة العربي الكويتية	العدد ١٨٠ ص ٩٨
٦٤- ثلاثية الحلم القرمطي	محي الدين اللاذقاني ص ٩٠
ومن تاريخ الحركات الفكرية	بندلي جوزي ص ١٩٦
٦٥- من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام	بندلي جوزي ص ١٩٦
٦٦- من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام	بندلي جوزي ص ١٨٩
٦٧- ثلاثية الحلم القرمطي	محي الدين اللاذقاني ص ٤٥
٦٨- أخبار القرامطة	د . سهيل زكار ص ١٩٨
٦٩- من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام	بندلي جوزي ص ٢٠٠

٧٠- ثلاثية الحلم القرمطي	محي الدين اللاذقاني ص ٣٨٤
٧١- من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام	بندلي جوزي ص ١٩٦و١٩٧
٧٢- من أخبار القرامطة	د . سهيل زكار ص ٣٣١و٣٣٦
٧٣- القرامطة	د . عارف تامر ص ٧٠
٧٤- من تاريخ الحركات الفكرية	بندلي جوزي ص ١٩٧
وأخبار القرامطة	د . سهيل زكار ص ٨٤
٧٥- أخبار القرامطة	د . سهيل زكار ص ١٩٦
٧٦- أخبار القرامطة	د . سهيل زكار ص ٨٤
ومن تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام	بندلي جوزي ص ١٩٧
٧٧- قرامطة العراق	عليان ص ٣١
٧٨- رسائل اخوان الصفا	المجلد٣ص ٤٠٢
٧٩- رسائل اخوان الصفا	المجلد٣ص ٥٢٩

٨. ـ ملاحظة : خلافاً لما هو معروف لدي سابقاً فقد أعلمني الاستاذ محمد الخولي مدير متحف الآثار الاسلامية بدمشق ، بوجود عملة ذهبية ، سكها القرامطه فاقتض التنوية بذلك وله وافر الشكر .

منذر حمودي



حمص في التاريخ (قصيدة)

بقلم الأستاذ جميل منصور

حمصُ ياموكبَ العُلا والأماني ... ياضياءً يزهو على الأزمانِ
ياحياةً تُعطي المَواتَ انْتِعاشاً ... ياربيعاً ذا مَنْظَرٍ فَتّانِ
أنتِ نورٌ خبأْتُهُ في ضلوعي ... أنتِ وحيٌ ، في خاطري وجَنَاني
أنتِ وهجٌ إشعاعُهُ في كِياني ... أنتِ فخري وشمختي وبَياني
كم حباكِ المولى نفوساً كِباراً ... هائماتٍ بالحُسنِ والإحْسانِ
كلُّ روضٍ زاهٍ حوالَيْكِ يبدُو ... بجميلِ الأشكالِ والألوانِ
أُشْرِبَ العالمونَ حُبَّكِ حُبّاً ... برفيفِ المُنى وروضِ الأمانِ
هل سُلُوٌّ لبائسٍ دونَ حمصٍ ؟ ... فيكِ ياحمصُ أعظمُ السلوانِ !!
هل شفاءٌ لمُدنفٍ دونَ حمصٍ ؟ ... أنتِ ياحمصُ بلسمُ الهَيْمانِ !!
لكِ عاصٍ يشدُّني بالتَّلاقي ... هل فراقٌ ياعاصيَ الخُلّانِ ؟
هَلْ بعادٌ وبُعدُكُمْ شفَّ جسمي ... هلْ جَفَاءٌ ياكوثرَ الجذْلانِ ؟
أَنتَ صفْوٌ في وحشتي واصْطِفاقٌ ... وارتياحٌ يانهلةَ الظَّمْآنِ
أَنتَ نهرٌ أمواجُهُ ساحراتٌ ... كلَّ حسناءَ غادةٍ مفْتَانِ
أنتَ تِبْرٌ من فيضِهِ صُبَّ فكرٌ ... وابتداعٌ في "نِيبَرِ" الرُّومانِ
قد تربَّعْتَ في سَمَا عرشِ "روما" ... بطُموحٍ وعزَّةٍ واتِّزانِ
وعلى شطِّكَ البديعِ المَغاني ... في حمى حمصَ منبعِ الإيمانِ
شعَّ نورُ الفادي المسيحِ ابْتداءً ... بالمضحِّي قِدِّيسِنا "إيلْيانِ"
وتلاهُ "رُومانُسُ" الشاعرُ الفرْ ... دُ بمدحٍ مرنَّمِ الألحانِ
ثمَّ خاضتْ صافي مياهِكَ فرسا ... نٌ أسودٌ من جَحْفلِ العُربانِ
نحوَ شعبٍ إيمانُهُ يعربيٌّ ... مستغيثٌ بخالدِ الشجعانِ
سيفُ دينٍ وخالدُ العرْبِ حقّاً ... حيثُ يَثْوي في زهرةِ البلدانِ .
تلك حمصُ أطيابُها عابِقاتٌ ... من خُزامى ميماسِها المزدانِ
زاهياتٌ أغصانُها مائساتٌ ... رائعاتٌ من القُطُوفِ الدَّواني
حولَ هذا العاصي ازْدَهى شعرُ ديكِ الـ ... جنِّ بين الخمورِ والأشجانِ .
وتسامتْ سهولُهُ بضريحٍ ... لفتى المجدِ مِنْ بني حمْدانِ

فاشمخي ياديارَ حِمْصٍ مديداً	فيكِ يثوي أبو فراسِ الطِّعَانِ
كم تصدَّى لعصبةِ الرومِ صُلباً	وتحدَّى في حلبةِ الاقرانِ
من دم القلب صاغ شعراً فريداً	أَلْهَبَتْهُ هواجسُ الاحْزانِ
وَجَرى عاصينا السريعُ التَّداني	في بلادٍ مخلوقةٍ للحِسانِ
قائلاً للنَّهرِ الكبيرِ التَّفاني	نهرٍ" واديإشْبيليا "والجِنانِ
قولَ ودٍّ "إشبيليا" هيَ حمصٌ"	بالشَّوقِ ولَقْيَةٍ واحْتِضانِ!!
بالفَنِّ مُحَلِّقٍ في عُلا أنـ	دلُس العُرْبِ رفعةً بالأغاني
كان سحرًا ، أنغامُهُ فائِقاتٌ	ببديعِ التَّلحينِ والإتْقانِ
ثمَّ أضحى العاصي طريحَ اعْتِسافٍ	يتلظَّى من عصبةِ الطُّغيانِ
حين غطَّى ضِفافَهُ زحفُ تُرْكٍ	مُشبَعُ بالحقودِ والأضغانِ
فاستكانتْ مدينةُ النُّورِ حيناً	ثمَّ غابَتْ في عالمِ النسيانِ
وَاسْتفاقَتْ من نومِها بعدَ ضيمٍ	هَلْ تُلاشَى مدينةُ العقبانِ ؟
فإذا النهرُ ينتحي باشتياقٍ	أرضَ "أمْريكا" واحةِ الصَّديانِ
فَالْتفاتاً الى السنينَ المواضي	هل تَرى غيرَ هُجرةِ الشُّبانِ ؟
كُلُّ نفسٍ أبيَّةٍ تتحدَّى	مستحيلاً بعزمِها المُتَفاني
فإذا الغربُ قطعةٌ من نعيمٍ	وإذا حِمْصُ غَضَّةُ الأفنانِ .
شَهِدَ الحقُّ أنَّ خيرَ المجاني	من سخاءِ المُهاجرِ المحْسانِ
شَهِدَ الحقُّ أنَّ أسمى المَعاني	قد تجلَّى بِهمَّةِ الإخوانِ
من رحيلٍ مكبَّلٍ بالرَّزايا	عَمَّروا المجدَ أيَّما عُمْرانِ
فسلامٌ على مُهاجِرِ حمصٍ	فارسِ الدَّهرِ والحَجا الفَنَّانِ
وعلى الشاعرِ العظيمِ نسيبِ الـر	وحِ وَالوحي والصِّبا الوَلْهانِ .
كيف لاتزهو حمصُنا بالدَّراري	لامعاتٍ في أروعِ التيجانِ ؟
كيف لاتزهو حمصُنا بالمُضحِّي ؟	كم شهيدٍ ضحَّى فِدى الأوطانِ !!
أنتِ ياحمصُ ربةٌ تُلهِمُ الشِّعْـ	ـرَ بما فيكِ من عميقِ المَعاني
أنتِ ياحمصُ طلعةٌ تبرزُ الحسـ	ـنَ بما فيكِ من عيونِ الرَّواني
سوف أبقى مناجِياً طولَ عُمْري	جنَّةَ الحبِّ دُرةَ الاكْوانِ

حضارات أمريكا قبل الكشوف الجغرافية

ترجمة بتصرف عن الموسوعة البريطانية الأستاذ جرجس مخول
نائب رئيس الجمعية التاريخية ومدرس التاريخ في دار المعلمين
والمعلمات بحمص

يرجع دور حضارة الانذز (في العالم الجديد) الى حضارة سكان أمريكا الاصيلين من الهنود الحمر التي نشأت وازدهرت في المرتفعات الجبلية في الشمال الغربي لأمريكا الجنوبية منذ عدة آلاف سنة ق٠م حتى احتلها الاسبان في عام ١٥٣٢م ،وبقايا عناصرها لاتزال موجودة حتى الان لدى الكثير من السكان الهنود للبيرو وبوليفيا والاكوادور وكولومبيا ،كما أن حضارة الانذز تشمل بصورة خاصة في أدوارها المبكرة سكان الساحل البوليفي ٠

ومثل كل الحضارات القديمة اعتمدت حضارة الانذز على الزراعة مع اتاحة الفرصة لعدد كبير من السكان والذين لديهم فراغ من الوقت ليؤسسوا ثقافة متطورة وأهم حضارات أمريكا قبل الكشوف ٠

١"- الانكا : تعد حضارة الانذز بالنسبة لمعظم الباحثين حضارة الانكا ونادرا مايكون كذلك في المفهوم الشعبي ،ومعرفتنا التامة عن حضارة الانذز هي عن الانكا ،كما أن كتابات العديد من المؤرخين الاسبان لفترة الاحتلال تدور حول ذلك ،ولكن لسوء الحظ ليس لديهم اتفاق بخصوص تاريخ الانكا(١)

والسبب ربما أنه ليس للانكا أسلوب للكتابة فتاريخهم نقل طبعا بالرواية وظهروا بشكل متأخر على مسرح التاريخ كالازتيك ،وحتى أن أساطيرهم لاتتعدى عام ١٢٠٠م وعرف تاريخهم من خلال حكم ملوكهم ، وتجمع معظم التقديرات على /١٣/ امبراطورا هم :

١ - مانكوكاباك ١٢٠٠م
٢ - سنتشي روكا
٣ - ليوك يوبانكي
٤ - مايتاكاباك

---

١ - الموسوعة البريطانية المجلد -١- ص ٨٨٩ - ٨٩١

٥ - كاباك يوبانكي
٦ - انكا روكا
٧ - ياهوار هواكاك
٨ - فيرا كوتشا انكا
٩ - باتشاكوتيك يوبانكي ١٤٣٨م - ١٤٧١م
١٠- توباك انكايوبانكي ١٤٧١م - ١٤٩٣م
١١- هويانا كاباك ١٤٩٣م - ١٥٢٥م
١٢- هواسكار ١٥٢٥م - ١٥٣٢م
١٣- اتاهوالبا ١٥٣٢م - ١٥٣٣م

ان الاباطرة السبعة الاول أسطوريون محليون ذوو أهمية ضعيفة رواياتهم مليئة بالاحداث المستحيلة وغير المعقولة وخاصة المتعلقة بالمؤسس .

شكل الانكا في هذا العصر قبيلة صغيرة كالعديد من القبائل التي لاتتجاوز سلطتها عدة أميال حول العاصمة التي عرفت عند الانكا باسم كوزكو ،كانوا دوما في صراع مع جيرانهم المساوين لهم في الاهمية ، أما التوسع الخيالي وتأسيس امبراطورية الانكا تتم على يد باتشاكوتيك عام ١٤٣٨م الذي يعد من عظماء المحتلين في التاريخ العالمي ،وفي هذا العام ١٤٣٨م يبدأ التاريخ المعول عليه والمتفق مع معظم الباحثين وقدلقب السيد كليمنت . باتشاكوشيك أعظم رجل أنجبه السكان الاصليون لامريكا كما يشبهه مع ابنه توباك بفيليب وابنه الاسكندر المكدونيين .

كان باتشاكوتيك بحق أعظم مخطط مدني كما تنسب اليه الرواية وضع مشروع مدينة "كوزكو" وشيد العديد من الابنية الضخمة التي لاتزال آثارها تدهش الزائر لهذه العاصمة القديمة .

كان التوسيع العظيم والمفاجيء لامبراطورية الانكا أحد أعظم الحوادث الغريبة في التاريخ والذي استغرق أقل من قرن/من ارتقاء باتشاكوتيك العرش في عام ١٤٣٨م الى احتلال فرانسيسكوبيزارو في

في عام ١٥٣٢م/ • معظمها أنجز على يد باتشاكوتيك وابنه توياك انكا بين عامي ١٤٦٣م و ١٤٩٣م خاصة فوصل أعظم امتداد للامبراطورية حيث بلغت مساحة تتجاوز/٣٨٠٫٠٠٠ ميلا مربعا/ ،أي مايعادل مساحة فرنسا وبلجيكا وهولندا واللوكسمبورغ وسويسرا وايطاليا مجتمعة ويشبه توسع الانكا توسع أعظم الامم الاخرى في التاريخ ،وربمادفعهم لذلك حب القوة والتوسع • فأول من هزموا في اقليم بحيرة "تيسيكاكا" للمنافسين لهم والناطقين بلغتهم ومن ثم قبائل"تشانكا" ،ومن الحوادث الغريبة في التاريخ أن يحتل بيزارو هذه الامبراطورية العظيمة وليس معه سوى /١٨٠/ جنديا اسبانيا فقد استغل تخاصم ولدي الامبراطور على العرش فأمر"أتاهوالبا" بقتل أخيه "هواسكار" ثم أمر بأسر أتاهوالبا وأعدمه وحل محله في قصره يصدر الاوامر واستمر الروتين الحكومي كالسابق •

حضارة الانكا :

كانت الزراعة أساس حضارة الانكا بما في ذلك الذرة والبطاطا الحلوة البيضاء والقرع والبندورة وجوز النخيل والفلفل والقطن ومعظم هذه لم تكن معروفة آنذاك في أوربا ،ويربى البط والخنزير الهندي للاكل ،كما استخدمو حيواني اللاما والالباكا للنقل والصوف ،أما الصناعة فعرفوا صناعة نسيج الصوف والقطن وبنوا بيوتهم من الحجارة واللبن ،والامبراطورية مزدهرة تخضع خضوعا كاملا للنظام فلا أحد يقاسي من الحرمان ،ولكن لايسمح لاحدبتغيير مكان اقامته ولابتغييروضعه الاجتماعي ،وملكية الارض جماعية توزع سنويا ولكن بين الاسر الاشد قرابة والاكبر حجما ،وتقسم الاراضي الى ثلاثة أقسام : قسمللدولة ،وقسم للمعبد ،وآخر للشعب الذي يطلب منه أن يزرع للجميع وتخزن محاصيل أراضي الدولة في مخازن خاصة لتوزع عند الحاجة على النبلاء والجيش والفنيين من الناس الذين يقدمون للدولة خدمات عامة ولعامة الناس في سنوات القحط أو سوء المحصول ،كما يعد اللاما من الممتلكات الرئيسية للدولة الى حد بعيد ،ويمكن أن تستبدل الضريبة

بدعوة المكلف دوريا للخدمة في الجيش أو الاعمال العامة كانشاء الطرق أو المعابد أو العمل في المناجم وتعرف عندهم هذه الخدمة باسم "الميبتا" ،والحرفيون موظفون حكوميون يذهب انتاجهم الى النبلاء والكهنة ، وينتقى الذكور الممتازون ليكونوا خدما أو معاونين دائمين للامبراطور والنبلاء . أما الفتيات الجميلات فيؤخذن الى العاصمة "كوزكو ليتدربن كمحظيات للامبراطور والنبلاء أيضا أو ليعملن كعذارى للشمس أو ليعشن في دير خاص بهن ليحكن شياب الامبراطور والنبلاء والكهنة .

كان ينظر لامبراطور الانكا أنه مقدس سليل الشمس ويتمتع بأعلى الامتيازات لديه عدد كبير من الحريم والاولاد وقد تزوج معظم الاباطرة أخواتهم ،وكلمة الامبراطور قانون لكنها مقيدة بالعرف والعادة ونادرا مايكون مستبدا ،ويشكل أقرباؤه الجزء الاكبر من طبقة النبلاء الذين يحتلون مراكز السلطة وخاصة في البلاد الخاضعة يأتي بعدهم في السلم الاجتماعي طبقة الضباط " الكواركا " وهكذا يتدرج السلم الى كبار النظار المشرفين على الاسر العشر .

أما عقيدتهم فنظمت تنظيما عاليا ،فهناك العديد من رجال الدين ومعابد الشمس تدار الاحتفالات الدينية من قبل الكهنة بشكل متقن وتستمر غالبا عدة أيام يقدمون خلالها الاضاحي ويضعون التنبوءات بعد استشارة الوحي ،ويسمعون الاعترافات ،وكثيرا ماكانت الاضاحي حيوان " اللاما" ونادرا تقدم الاضاحي البشرية مقارنة مع عادات الازتيك ،وتقام هذه الاحتفالات في أوقات منتظمة والهامة منها مرة كل شهر ،وهناك مئات الاماكن التي تقام فيها الاحتفالات ولكنها تختلف بحسب درجة قداستها ،وقد عبد الانكا اله الشمس ،مع اعتقادهم بأن " فيراكوشا" هو الاله الخالق العظيم ،كما عبدوا الكثير من الالهة الثانوية التي تمثل مختلف الامور المميزة .

أما الجراحة والطب عامة فقد تطور لديهم كثيرا فنشروا الجماجم لتحديد الكسور أو لاعتقادهم بطرد الارواح الشريرة ولو أن الفكرة غير واضحة ،والانكا ككل الحضارات الامريكية القديمة عدا الما يا ليس لديهم

أسلوب للكتابة فجميع معارفهم وخبراتهم يتم انتقالهاشفاها بطريق الرواية • ومع هذا فعدة معلومات أو بيانات حفظت بعقد حبال سميت عندهم"كويبو" التي استعملت في المقام الاول لاغراض خاصة كاحصاء السكان وذلك لمساعدة الذاكرة فقط •

وفي السنوات الاخيرة كانت الحرب من سياسة الدولة الرئيسية ،وكل الرجال مكلفون قانونا بالخدمة ،فجيوش الانكا كبيرة حسنةالتجهيز والتدريب مثل كل الجيوش القديمة يقاتلون مواجهة ويستعملون الهروات والفؤوس والحراب والمقاليع لقذف الحجارة الى مسافات قصيرة ،ومما ساعدهم على القيام بحملات عسكرية لمسافات بعيدة استخدامهم الجيد للطرق ومخازن الغلال ،وحالما يتوقف النزاع العسكريمع الشعوب المغلوبة تعامل معاملة حسنة على شرط الاعتراف بسيادة الانكا،وقد تتحسن أحوالهم الاقتصادية عن قبل ،أما المجموعات المتشددة في كل اقليم وخاصة القريب من العاصمة " كوزكو " فيجبرون على تغيير اقامتهم وغالبا مايؤخذ منهم رهائن الى كوزكو " •

ومع أن الانكا لم يتفوقوا على أسلافهم في الصناعة اليدوية لكنهم أتقنوا صناعة النحاس والذهب والفضة والخزف وخاصة النسيج الذي تفوقوا في نعومته وجماله على الصناعة الحديثة على الرغم من تقنيتها مع أنه كان يحاك من قبل النساء على أنوال صغيرة •

٢"- الازتيك :(١)

هم أحد أهم المجموعات الهندية في العالم الجديد والكلمة مشتقة من/AZTlon / وتعني الارض البيضاء ،فحسب اعتقادهم فيها نشأت قبيلتهم وهذه التسمية من المحتمل أنها مجرد اشارة عامة لمنطقة الشمال الغربي من مكسيكو ،ويعرف الازتيك باسم " تينوشكا" وهو مشتق من اسم الرئيس الاسطوري " تينوك " أو ربما جاء الاسم من المدينة التي أسسها الازتيك في جزيرة داخل بحيرة "تكسكركو ،في وادي مكسيكو والمعروفة ببحيرة القمر ،وقد أعطي اسم

١ - الموسوعة البريطانية المجلد -٢- ص ٩٣٧ - ٩٣٩

مكسيكا لبحيرة تكسكوكووربما أضاف الازنيك مقطع كالهوا ليعرفـوا باسم كالهوامكسيكا وليظهروا علاقتهم بأكثر الشعوب حضارة في وادي مكسيكو والذي كان مركزه مدينة كالهواكان .

وكانت لغة الازتيك (نهوا) من المجموعة اللغوية التي بقيت الى فترة اكتشاف أمريكا تسيطر على المساحة الممتدة منغرب الولايـــات المتحدة حاليا وحتى بناما ،مما دفع المحتلين الاسبان الى استخـدام لغة نهوا كاحدى وسائل الاتصال الرئيسية مع الهنود الحمر،وتقريبـا لايزال حتى الان حوالي مليون من سكان المكسيك يتكلمون اللغةالنهوية .

أما امبراطورية الازتيك في العالم الجديد فتعادل فيأهميتهـا امبراطورية الانكا في البيرو ،ويمكن مقارنة ازدهار حضارتهـم بالحضارات القديمة العظيمة الاخرى سواء في أمريكا أو العالم القديم وقد وصلنا ازدهارهم السريع وانهيارهم المأساوي من خلال الروايـات الشفهية التي يرددها الازتيك ،ومن خلال تدوين المؤرخين الاسبـان والمختصين بعلم الاجناس والمخطوطات الهندية ومن اعترافات ومشاهدات المهتمين بالتاريخ القديم .

اتخذ الازتيك أولا مدينة "تولا" (هيرالكو) عاصمة لهم ولـم يرتبط ظهورهم وازدهارهم بازدهار تولا والحضارة التوليتكية بقـدر ارتباطه بانهيارهم ولاسباب لم تعرف بعد ،ولكنها متعلقـة الصراعات الدينية والسياسية والاجتماعية الداخلية .

ويقارن انهيار حضارتهم بانهيار الامبراطورية الرومانيـة ولكن هذا حدث في نهاية القرن ١٢م فهوجمت تولا وبقية المراكز،مـن قبل قبائل دونها حضارة مستغلة الفوضى والانقسام ،حيث جاوّوا مـن النجد الجاف شمال المكسيك الى مناطق الاستقرار والخصب في وسط الـوادي فأسهموا في تدهور وتأخر حضارتهم السريع .

وعلى كل حال فالحقيقة أن الازتيك مزارعون قدامى خدموا لمدة طويلة جيرانهم كعسكريين قبل سقوط تولا على يد قبائل التشيميكـس وخلال بدايةالقرن ١٢ ـ ١٣م .تحول الازتيك الى باحثين عن مكان جديـد

للاستقرار بعد هدوء الاحوال في وادي المكسيك فأقاموا موقتا قرب آثار تولا حيث أتقنوا فنون الري والزراعة ،ولكن عقيدتهم دفعتهم لبحث عن مكان جديد وبدأت رحلتهم الطويلة ،وتجولوا في اقليم معاد وتعرضوا لمضايقات كثيرة ولكن الحظ ساعدهم بالتحالف الموقت مع جيرانهم ومنحوا بعض الاراضي مقابل تقديم خدمات عسكرية .

ولم تمض فترة طويلة على حمايتهم من قبل" الكولهواكان " حتى اضطروا للهرب من جديد ،وكادت رحلتهم تصل الى نهايتها حيث وجد المتجولون الارض التي تتحدث عنها نبوءاتهم في جزيرة صغيرة في بحيرة تكسكوكو وقام المعمرون في القبيلة برسم عقاب كرمز للشمس والههم " هو تيزيلوبوكتلي " مستريحا على الصبار،وشيدوا له معبدا وحوله مساكن القبيلة التي تحولت الى المدينة القوية " تينوكتيتلان التي أصبحت عاصمة للامبراطورية المكسيكية لاسبانيا المنتصرة وللامة المكسيكية الحديثة .

أحاط بالجزيرة مستنقع غير مغر باحتلاله ،لكن الازتيك حصنوه وتحالفوا مع عدة قبائل من بينها التيبانيكس فقد كانوا جنودا مرتزقة في خدمتهم حتى أن ملوك الازتيك الثلاث الاوائل وهم (آكابيكتلي ، هوتيزيلي هوتيك ،كيمال يوبوكا) ساعدوا في ترسيخ سيادة التيانيك وبدأوا بالتوسع وبهذه الطريقة بدأ بناء الامبراطورية حتى أصبحت مدينتهم غنية مزدهرة من وراء غنائم الحرب والتوسع على حساب الجوار.

أثناء حكم "اتزكوتل) رابع ملوك الازتيك (١٤٢٧ - ١٤٤٠م) استغل انقسام التيبانيكس وهزمهم وأقام تحالفا ثلاثيا بين "تينوكتيتلان وتيكوكو وتاكوبا " وانطلق توسع مكسيكا مع القادة العسكريين للتحالف الثلاثي وفرض الازتيك هيمنتهم على وادي المكسيك وفي عهد خامس ملوكهم " هوهوميكزوكا" (مونتيزوما الاول) (١٤٤٠-١٤٦٩م) امتد الاحتلال ووصلت حملات أخرى الى خليج المكسيك ولكن خلف مونتيزوما الاول وهو " اكسايل كاتل " شغل معظم حكمه في اخماد عصيان القبائل الخاضعة باستثناء حملة واحدة الى ساحل المحيط الهادي واحتلال"تلاتيلوكلو" المدينة التوأم لينتوكتيتلان .

وكانت فترة حكم سابع ملوك الازتيك "تيزوك "(١٤٨١-١٤٨٦) قصيرة ولكنها استمرار لسياسة سلفه مع المحافظة على الامبراطوريـــة أما حكم ثامن ملوكهم" أهويتزتـل"(١٤٨٦-١٥٠٢)فلم يحافظ علـــــى مكاسب أسلافه الاقليمية فحسب بل توسع على طول ساحل المحيط الهادي ثم خلفه "موكتيزوما أكسكوتيزن مونتيزوما الثاني(١٥٠٢-١٥٢٠م)الــذي أوجد تعديلا ملحقا لتنظيم الامبراطورية منح بموجبه ضباطه حـــــق فرض أتاوة على كل اقليم بحسب انتاجه ،وهكذا وجدت سلطـــــــــات بيروقراطية عسكرية عن طريق الحكام والحاميات وجامعي الضرائــــــب ولكن أكثر ايامهم ازدهارا كانت الاخيرة ،فمنذ عام١٥١٧م تواصلــت الحملات الاسبانية وتمكن كورتيز استغلال عصيان السكان ضد تينوكيتتلان ودمرها بعد مقاومة بطولية وأقام مدينة جديدة وشيدت كنيســــــة اسبانية بحجارة معبد هوتيزيلويوكتلي .

حضارة الازتيـــــك :

عبد الازتيك كغيرهم من الشعوب القديمة الشمـــــس وسموها الاله "هوتيزيلوبوكتلي " الذي يبدأ نضاله اليومي ضد النجوم والقمر طاردا اياها بشعاع من النور ،وعند الغروب يموت ويعود الــــى حضن أمه الارض/كوتيك كو / حيث يستعيد قوته من أجل كفاحه ضـــــد الظلمة الممثلة باخوته النجوم وأخته القمر فهذه الدورة اليومية تسمح باستمرار الحياة ،أما طعامه فالدماء البشرية/سائل الحياة النفيـــس "كالكي كوتل"/ فالازتيك هم شعب الشمس المختار من الاله "هوتزيلوبوكتي" لتزويده بالغذاء ،لذا تعد الحرب عملهم المفضل وواجبهم الدينـــــي والاسرى من أعدائهم يقدمون أضاحي بشرية للاله ،ويتم ذلك بفتـــــح صدورهم وانتزاع قلوبهم من أجسادهم وتزداد قوة الازتيك بازديـــاد ضحاياهم ،فجميع الاسرى من المقاطعات المحتلة يقدمون في العاصمـــــة "تينوكيتتلان " وهكذا يمكن استمرار الجنس البشري ،وقد وعدهم الالـــه بالسيطرة على العالم وسميت امبراطوريتهم بالارض العالمية ودعـــــي ملكهم بحاكم العالم .

ولقد اعتقد الازتيك بالقدر اضافة الى تقديم الاضاحي البشرية ونجحوا في استخدام الشدة الخالية من الرحمة ويذكر المؤرخون بأنه ضحي ب ٨٠٠٠٠ر٨٠ سجينا في العاصمة أثناء تتويج أحد ملوكهم،فقدمت قلوب الضحايا لاله الشمس واستخدمت أطرافهم في الاحتفالات الدينية فألقيت بقية الاجسام الى الوحوش المفترسة بعد التمثيل بها .

أما الزراعة فكانت أساس سيطرة الازتيك الاقتصادية المتمثلة بالحراثة والري وقد أخذوها عن " التولتكس " فساعدت في ازدياد السكان حتى قدر في بداية القرن السادس عشر للميلاد بحوالي مليوني نسمة في مدن تينوكتيتلان وتكسكوكو وتاكوبا وأكسوكي ملكو .

وتأمنت التجارة عن طريق البحيرات التي ترتبط مع بعضها بقنوات اصطناعية أغنت عن الطرق ووسائل الاتصال البري وساهمت في تأمين وحدة وادي المكسيك السياسية والاقتصادية المبكرة ، ووفقا لاراء المؤرخين الاسبان لتلك الفترة كان هناك مالايقل عن ٢٠٠٠٠ر٢٠٠ زورق في القرن ١٦م ،ومما ساعد في تنشيط التجارة اضافة الى واسطة النقل المائي السابقة الذكر تمركز السكان في الوادي والعقيدة الدينية وكان التجار منظمين في نقابات قوية حتى انها تستطيع اعلان الحرب وارسال الحملات التجارية الى الاماكن البعيدة ، فكثيرا ماكانت الحملات التجارية مقدمة للحملات العسكرية التي تعتمد في معلوماتها على التجار ووصول هؤلاء ينبيء عن وصول المحاربين الازتيك ،ولايختلف الاسلوب التجاري عن الاحتلال العسكري من حيث الادارة والضرائب .

أما تنظيمهم الاجتماعي فقد اعتمد على الاسلوب القبلي المتطور فتقسم القبيلة الى بيوت كبيرة " كاليبولي " اعتمد عليها الازتيك لفائدتها العسكرية والادارية ،وربما كانت القرابة خيالية بين البيوت ،ويتألف المجتمع الازتيكي من الاسرة الحاكمة ثم طبقة النبلاء وبعدهم الفرسان الذين يحق لهم امتلاك الارض ،ثم التجار وأخيرا بقية أفراد الشعب .

٣ - المايا (١): هم مجموعة كبيرة من الهنود الامريكيين يتكلمون ١٦ لغة ولهجة قريبة من بعضها جدا تعرف بالعائلة اللغوية المايوية

---

١ - الموسوعة البريطانية المجلد ١٥ ص ٥ ومابعد

استوطنوا وسط أمريكا واستعمل اسم المايا أيضا للحضارة التي سبقت الاحتلال الاسباني ،كما يطلق بشكل أضيق لفرع المايا المستوطن شبه جزيرة "يوكاتان " الولاية المكسيكية الحالية ،وتدعى لغتهم "توكاتيك " ويقدر عدد الهنود الامريكيين المتكلمين بالمايا حوالي مليوني نسمة بحسب احصاء عام ١٩٦٠م أكثرهم في المناطق المرتفعة من غواتيمالا ،فهم قصار القامة سمر البشرة ذوو شعر مسترسل واستدارة في الرأس . وجاءت الحفريات الاثرية تؤكد ذلك .

مر تاريخ المايا بمرحلتين[١] الاولى وهي القديمة لـ٣٠٠م- ٩٠٠م) كونوا خلالها امبراطورية كبيرة زالت بسبب الكوارث الطبيعية والاجتماعية من زلازل وأمراض وحروب أهلية ،أما المرحلة الثانية أو امبراطورية المايا الجديدة فقد ظهرت بعد القرن العاشر الميلادي حيث عاد بعض هنود المايا الى موطنهم الاصلي وشيدوا أهم مدنهم "تشن شن اتزا " التي بقيت مجهولة عدة قرون بعد الاحتلال الاسباني أخفتها الغابة المدارية الى أن أكتشفت مصادفة عام ١٨٤٠م.

احتل المايا معظم أمريكا الوسطى عندما داهمهم الاسبان ١٥٤٠م وتقسم بلادهم الى ثلاثة أجزاء :

آ - الجنوبية : بركانية ،وديانها عميقة ،كثيرة البحيرات مناخها حار .

ب - الوسطى : قسمها الاكبر أراضيه منخفضة حارة ،غاباتها كثيفة ،أمطارها غزيرة .

ج - الشمالية : كلسية ،نفوذة للماء ،فيها أنهار وبحيرات أقل أمطارا من سابقتها .

تمت معظم حضارة المايا في المنطقة الوسطى حيث بذل السكان جهودا كبيرة في انتزاع الغابة ،في حين كون سكان المرتفعات الطبقة الغنية من النبلاء ،ويعود الفضل الى سكان المنطقة الوسطى المنخفضة في انجاز حضارة المايا من نحت وعمارة ، شاركهم فيه ولكن بصورة أقل سكان الشمال .

---

١ - المعرفة المصورة ص ١٥٧٩ .

حضارة المايـــــا :

تشبه حضارة الازتيك المعاصرة لها من عـــدة وجوه ،وقد مرت بعد عصور : أولها العصر الكلاسيكي الذي استمـــر حتى نهاية ٩٠٠م والذي عرف آنذاك بالامبراطورية القديمة كما أسلفنا وأهم مامارسه السكان خلاله الاحتفالات الدينية موضع نواة الرمـــوز الهيروغليفية وبناء الاهرامات التي أقيمت في أعلاها المعابدالدينية .

ثم جاء عصر المكسيكان حيث زادت فيه أهمية مدينة "تشنشن اتزا" ثم يأتي عصر المايابان حوالي ١٢٠٠م ،خضعت فيه تشن شن اتز لسلطة "هوناك سيل" واستمرت هي كمكان مقدس يحج اليه . لان هوناك سيـــل وخلفاءه اتخذوا مدينة "كوكوم" عاصمة لكل شبه جزيرة يوكاتـــان وفي نهاية هذا العصر وقبيل الاحتلال الاسباني انقسمت شبه الجزيـــرة الى عدة أقسام مما سهل ذلك على المحتلين .

أما أهم ماامتاز به هذا العصر الانجازات العقلية الرائعـــة للمايا ،وخاصة في مجال الكتابة الهيروغليفية والفلك والتقويم،فكانت الهيروغليفية رمزية في قسم منها وصورية في قسمها الاخر مع اعتماد كبير على الاشتقاقات اللفظية ،نحتت على نصب تذكارية أو على الابنية والخشب ،وبعضها على الحجارة الكريمة والصدف ،كما كتب بعضها فـــي كتب لم يبق منها حتى الان الا ثلاثة أحدهما في" درسدن " يحتـــوي جداول دقيقة للتنبؤ عن الخسوف والكسوف ،وعرف المايا التقويم ودوران كوكب الزهرة الذي لم يخطئوا فيه الا بيوم واحد كل/٦٠٠٠ سنة/.

أما في العمارة فعلى الرغم من فشلهم في تطوير القوس واعتمادهم على العقود المنحنية فكانت غرفهم قليلة العرض ،ولكن أهم ماوصلـــوه رغم تخريب الغابة كان بناء المعابد فوق الاهرامات على ارتفـــاع /٢٠٠ قدما / .

أما النحت فاقتصر على النصب التذكارية وعتبات الابواب وبعـــض القطع الخشبية ،ولكن الاعمال الجصية استعملت بكثرة خارجا وداخـــلا بعضها لتمثيل مشاهد معركة حربية وبعضها لاحتفالات دينية ،وأكثـــر المعادن المستعملة من قبلهم النحاس والذهب اضافة الى الخشب والعظـــم

والحجر وخاصة الزجاج البركاني ،كما عرفو الحجارة الكريمة وخاصــــــة اليشــم أو اليشب الذي وصلوا فيه درجة فائقة من الدقة والمهـــــــارة وعرفوا النسيج واستخدام الريش .

أما في الزراعة فقد اهتموا بشجرة الكاكو والذرة التي زرعـــــت في الاراضي التي انتزعت موقتا من الغابة ،ولعبت الهة المطر دوراهاما في عقيدتهم ، اضافة الى آلهة أخرى تمثل القمر والشمس ،وانتظمــــــت عقيدتهم في مجموعة رباعية توافق كل واحدة منها احدى الجهات الاربع (الشمال والجنوب والشرق والغرب) أو الالوان الاربعة (الابيض والاســـود والاحمر والاصفر) ،وانتشرت تجارتهم وخاصة لدى سكان المناطق المرتفعـــة وبصورة خاصة تجارة الخزف فعثر على أنابيب فخارية في تشن شن اتـــزا" مصنوعة في الشمال ومنقولة اليها ،أما أشهر المهارات عندهم فظهــــرت على اليشب ،وقد عثر على مستودع كبير للجثث في أحد الاهرامات ،ثـــم أصبحت عادة حرق الموتى عامة وذلك في العصر القريب من الاحتلال .

صدر عن الجمعية التاريخية

١- العدد الأول من مجلة البحث التاريخي.
٢- العدد الثاني من مجلة البحث التاريخي.
٣- العدد الثالث من مجلة البحث التاريخي.
٤- ندوة حمص الأثرية التاريخية الأولى.
٥- العدد الرابع من مجلة البحث التاريخي.
٦- العدد الخامس من مجلة البحث التاريخي.

مجلة البحث التاريخي

«مجلة محكّمة»

Historical Searching Magazine

published by

Homs History Society

تصدر عن الجمعية التاريخية بحمص

بالتعاون مع مؤسسة عـلا للصحافة والطباعة والتوزيع

العدد السادس ـ آذار /مارس / ٢٠٠٠

المراسلات:

سورية ـ دمشق ـ ص.ب: ٣١٦٢٥

حمص ـ ص.ب: ٢٥٢٤

: ٨٤٨

الاشتراكات

أفـــــــراد : ٦٠٠ ل.س سنوياً

المؤسســـات : ٢٠٠٠ ل.س سنوياً

خارج سورية: ٣٠٠٠ ل.س أو مايعادلها

سعر النسخة: ١٠٠ ل.س أو مايعادلها

أسرة التحرير

مجلة البحث التاريخي ترحب بمشاركتكم وترجو من الراغبين في إرسال بحوث للنشر تحقيق المواصفات التالية:

١ - أن لايزيد عدد صفحات البحث عن ٥٠٠٠ كلمة ولايقل عن ٢٠٠٠ كلمة.

٢ - أن يكون البحث منضداً على الآلة الكاتبة أو على الكمبيوتر.

٣ - أن يرفق البحث بالمراجع والصور.

٤ - أن يكون البحث جديداً، ولم ينشر في أي مطبوعة دورية أو كتاب.

٥ - أن يرسل الكاتب بطاقة معلومات شخصية.

٦ - أن يكون البحث على علاقة مباشرة مع الموضوع التاريخي.

كلمة العدد

إن ما تشهده سورية في ظل القيادة التاريخية للرئيس المناضل حافظ الأسد من تقدم وتطور، وسعي حثيث لبناء المستقبل، كان لابد من أن يترافق باهتمام مماثل بالماضي، بتاريخنا، بجذور أمتنا التي تضرب عميقاً في باطن هذه الأرض التي رواها أجدادنا بدمائهم وعرقهم ليبدعوا حضارة أنارت العالم ردحاً طويلاً من الزمن. وإذا كان مشعل الحضارة قد انتقل من أيدينا الآن فهذا لاينفي أن علينا مسؤولية أدبية كبرى تتمثل بحفظ تراث الأمة ليكون نقطة ارتكاز لها في عودة قريبة للمشاركة في بناء الحضارة.

ونظراً للصراع المصيري الذي تخوضه سورية ضد العدو الصهيوني إن كان في معركة الحرب أو في معركة السلام فإننا الآن بحاجة أكثر من أي يوم مضى لوعي تاريخنا في إطاره الحضاري الإنساني.

وإنطلاقاً من هذه المفاهيم نسعى من خلال عملنا في الجمعية التاريخية السورية وفي مجلتها (البحث التاريحي) كي نساهم في صياغة صحيحة لتاريخنا وللقيام بتوعية تاريخية أفضل لشعبنا، ترتكز على الإيمان بأن الأمة العربية وحدة ثقافية متكاملة.

مستلهمين قول السيد الرئيس حافظ الأسد:

(إننا إذ نحيي تراث أجدادنا فإننا نجدد العهد على الاقتداء بالجنود العرب الأوائل الذين نقلوا حضارة العرب إلى بقية الأمم).

ولأننا نرغب أن تكون جمعيتنا بحجم الطموحات الكبيرة المرجوة منها كجمعية متخصصة وحيدة في مجالها في سورية، فإننا نهيب بكل المؤرخين والمثقفين العرب الذين يهتمون بالتاريخ أن يساهموا معنا، فمجلتنا تفتح صدرها لكل جهد مخلص وترحب بأبحاث الزملاء وكتاباتهم، وبكل نقد أو رأي يهدف لتقويم عملنا وتطويره.

منذر الحايك

افتتاحية العدد

بكل الاحترام والتقدير نقدم هذا العدد من مجلة البحث التاريخي الذي تأخر إصداره لظروف خارجة عن إرادتنا نحن مجلس إدارة الجمعية التاريخية السورية. وتفادياً لهذه الظروف انتهجنا منهجاً جديداً نأمل من خلاله أن نحقق غايتنا ليبقى نبض الحياة يخفق في مسيرة هذه المجلة التي عملت منذ إصدارها على نشر المواضيع التاريخية والتراثية بين طياتها خاصة وإننا في هذه المرحلة نواجه غزواً فكرياً وثقافياً يستهدف النيل من تاريخ أمتنا وتراثها كما يستهدف طمس حضارتها.

لذلك سنعمل على تسليط الأضواء على تاريخنا العربي العريق بكل عناصره البشرية والمادية.

فمن كهوف ومغاور هذا البلد وغيره من البلاد العربية انطلقت الحضارة إلى الآفاق الرحبة الواسعة لتنتشر في مختلف أصقاع العالم.

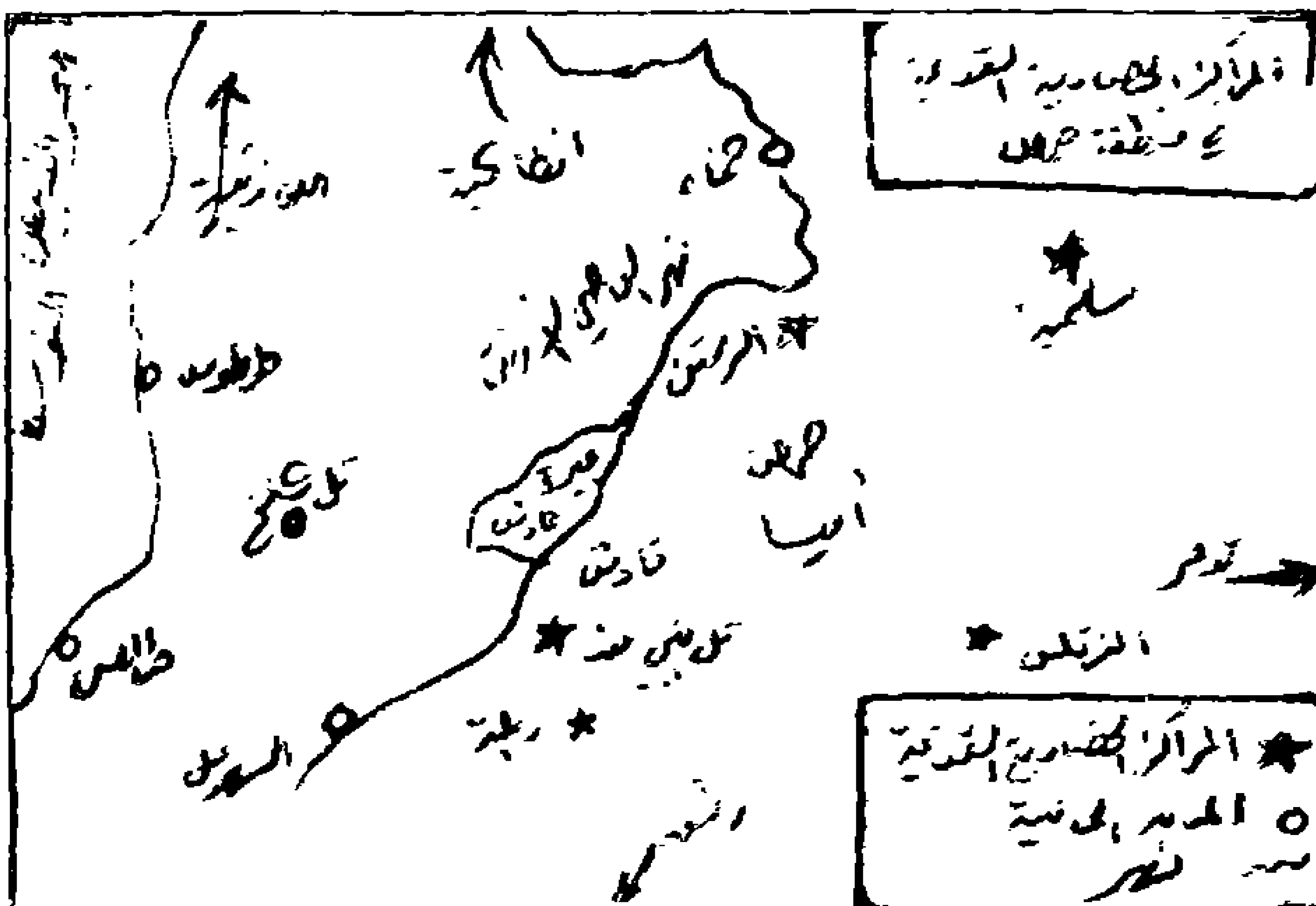
ومن خلال مجلتنا «مجلة البحث التاريخي» سنحاول وصل الحاضر بالماضي والتركيز على كل ما يمت إلى الحضارة العربية بصلة التي كانت مهد الحضارات البشرية في عهد تم فيه التركيز على العلم والعلماء وخاصة علم التاريخ ونحن كأسرة تحرير لهذه المجلة لايمكن أن نحقق أهدافها لولا تعاون زملاء لنا أفادونا بكثير من الأبحاث الجيدة التي أغنت هذا العدد وإنشاء الله ستغني غيره من الأعداد القادمة.

ولابد لنا في هذا من التوجه إلى المسؤولين لرعايتهم الكريمة للثقافة التاريخية ولتركيزهم الدائم على الأصول الحضارية لهذه الأمة المعطاء، ونخص بالشكر العقيد الركن الدكتور بشار الأسد وذلك لحرصه على رعاية الجمعيات العلمية والأدبية والتاريخية، فتحية له.

وتحية من القلب لكل من ساهم في إصدار هذا العدد، وتحية ملؤها الاحترام والتقدير لراعي العلم والعلماء وقائد البلاد نحو النصر والتحرير إن شاء الله سيادة الرئيس حافظ الأسد.

دعد تقلا

الفهرس



٧٧

المنصور من انجح الخلفاء الموحدين في قضية الصراع ضد الاسبان، بالرغم من مصاعبه الداخلية.

١٠٠

إن كراهية شعوب الارض لليهود على مر عصور التاريخ لاترجع إلى عقيدتهم وإنما ترجع إلى سلوكهم واخلاقهم وتصرفاتهم.

٩١

اللغارتم:
جاءت من (الخوارزمي) صاحب جداول الخوارزمي التي ترجمها روبرت تشستر.

١١٨

استخدام طريقة الكربون ١٤ في تحديد عمر الطبقات الاثرية

٦٥

القرطاس:
نوع من النسيج المصقول المصنع الرقيق الابيض، وهو من الحرير.
اسيران فرنسيان ينقلان سر صناعة الورق إلى فرنسا ثم اوروبا

قائد وشعب

مسيرة مظفّرة وإنجاز عظيم

د. سهيل زكار

يرى المستعمر لتاريخ بلاد الشام ـ ضمن إطار الوطن العربي ـ أن هذا التاريخ قد تأثر كثيراً بالموقع والتركيب الجغرافي، فالموقع المتميز جعل هذه البلاد مطموع بها من جيرانها وأصحاب الامبراطوريات، ثم إن الاطماع حين تفاعلت مع التركيبة الجغرافية كثيراً ماأدت إلى التمزق السياسي والاضطرابات الداخلية،

ومع هذا ظلت هذه البلاد ـ على الرغم من الواقع السياسي المفروض ـ تسعى دوماً إلى الوحدة، والمثير للانتباه أن وحدتها كانت في الغالب تقود إلى وحدة عربية كبرى وتأثير إنساني واسع، يضاف إلى هذا أن التمزق السياسي لم ينتج عنه تمزق اجتماعي خطير، وتلون حضاري وعقائدي عميق.

وفي وقفة لتفصيل بعض هذا المجمل، نجد أولاً أن الجغرافيين العرب، ومن قبلهم الجغرافيين الكلاسيكيين قالوا حين عرّفوا بلاد الشام: هي صقع كبير من البر الآسيوي يحده من الشرق سقي الفرات على الجانبين، ومن الغرب البحر المتوسط، ومن الجنوب البحر الأحمر وعريش مصر، ومن الشمال السفوح الشمالية لجبال طوروس.

وجعل هذا الموقع المتميز من بلاد الشام قلباً لقارات العالم القديم، ولاأقول جسراً بين الحضارات، لأن الجسر لاينتمي إلى أحد، وقد يتبدل في كل ساعة، فالشام بلاد متصلة بالقارة الأوروبية عبر جسر آسيا الصغرى، وعبر البحر المتوسط، وهي متصلة بالقارة الأفريقية عبر مصر وشواطىء البحرين: الأحمر والمتوسط، ومنها يمكن الانطلاق إلى مختلف بقاع القارة الآسيوية: إن إلى شبه جزيرة العرب، فبحر العرب، فالشرق الأقصى، أو عبر بلاد الرافدين فالنهضة الايرانية، ومن شمالها الشرقي يمكن الوصول إلى أرمينية وأذربيجان وجورجيا وروسيا، ولهذا صلحت هذه البلاد لتكون قاعدة لنشر المعارف والعقائد ذات السمة العالمية الانسانية، وخير مثال على ذلك انتشار كل من المسيحية والاسلام، وقبلهما بكثير الأبجدية والميثولوجيا والفلسفات، والتجارة، وأنظمة المدن، والقوانين والآداب وفنون العمارة وغير ذلك كثير.

وتميزت هذه البلاد دوماً بالأصالة العربية، وبالعطاء الإنساني، وبالتجربة القومية

تاريخ بلاد الشام صنعه جميع أهل الشام، لكن البنية الطبوغرافية والموقع ودول الجوار لونو بعض هذا التاريخ،

المنفتحة عالمياً، وأبدعت هذه البلاد الكثير، وتلقت تجارب غيرها فأعادت صياغتها، ومزجتها بأصالتها، ونقلتها إلى أم الأرض، فهي بلد مصنع ومنتج مبدع.

ومثلما أثر الموقع على صنع تاريخ بلاد الشام وعلى دورها، أسهمت البنية الطبوغرافية في هذا المجال كثيراً، فبلاد الشام إذا ماتفحصناها من الغرب نجد أولاً شريطاً ساحلياً ضيقاً، ثم سلسلة من الجبال عالية، يليها وديان الأنهار الداخلية الكبرى، وبعد ذلك البادية، وأوجد هذا عدة أنماط حياتية: أمتداداً من النمط الساحلي، إلى النمط الجبلي، فنمط المدن الحرفية التجارية والأرياف الزراعية، ثم نمط الحياة البدوية الرعوية المتنقلة.

ومقرر أن تاريخ بلاد الشام صنعه جميع أهل الشام، لكن البنية الطبوغرافية والموقع ودول الجوار لونو بعض هذا التاريخ، لاسيما من الجوانب السياسية، فمع الاتصال بجميع بقاع الدنيا، امتازت البلدان الواقعة إلى الشرق من بلاد الشام بكونها قارية استهدفت دوماً الوصول إلى شواطىء البحر المتوسط.

ثم إن البلدان التي جاورت الشام، عرف تاريخها قيام عدة امبراطوريات، وقد سعت كل امبراطورية إلى الاستيلاء على كل الأراضي الشامية، أو على بعضها، وهكذا غدت الأرض الشامية مسرحاً للصراعات العالمية، ومطموع بها دوماً، عانت من الأعداء، ومن الأصدقاء الألداء، وانعكس هذا عليها سلباً وإيجاباً، وجعل تاريخها يمر بعدد من الأطوار والمراحل، أهم معايير التحقيب فيه هو الوحدة أو التمزيق السياسي.

العصر المعاصر بمراحله المتتالية، التي أميزها مانعيشه الآن في ظل القيادة التاريخية للرئيس الأسد،

لاأريد الاستطراد في هذا المقام أكثر بالشرح، فلهذا مكان آخر، قد يتحقق من خلال دراسة مفصلة تتناول التاريخ الشامي في الإطار المحلي والعربي والإنساني، وتتناول عصور ماقبل التاريخ، ثم العصور التاريخية حتى نهاية الحقبة الكلاسيكية، فعصور الإسلام حتى العصر الحديث، وأخيراً العصر المعاصر بمراحله المتتالية، التي أميزها مانعيشه الآن في ظل القيادة التاريخية للرئيس الأسد.

وأعود إلى التذكير بأن أهل الشام عانوا أكثر من سواهم من التمزق السياسي، ولذلك كانوا دوماً، وعرفوا أكثر من سواهم أنه عندما توحدت بلاد الشام في العصر الأموي توحد الوطن العربي شرقاً وغرباً، وتحققت معجزة

الفتوحات العربية الكبرى، وباتت الدولة العربية تمتد من تخوم الصين إلى عدن، ومن شواطيء الشام إلى تخوم فرنسا وسويسرا في قلب أوروبا، لكن عندما تمزقت الشام بفعل الثورة العباسية، انفرط من يومها عقد الوحدة العربية السياسية وكذلك عقد الوحدة الإسلامية.

وأهل الشام بحكم تطلعاتهم الوحدوية تميزوا بالانفتاح الإنساني، فكانوا دوماً رواد حضارة وتفتح وسماحة وعطاء.

وليس بنيتي استعراض تاريخ متاعب الشام من التمزق كله، لكن بودي التذكير هنا أن هذه المتاعب ازدادت كثيراً إثر قدوم الغَزْو إليها في القرن الخامس هـ /الحادي عشر م، ثم ماحدث في أواخر هذا القرن لدى وصول الغزاة الفرنجة.

وكانت بلاد الشام قبل هذا تقاد من قبل المدن الكبرى: دمشق، حلب، وحمص، وحماة، وطرابلس، وجبلة، وأنطاكية، وعكا، وغزة، والقدس، وأريحا، لكن الآن باتت كل مدينة تحوي قلعة تمركز فيها حاكم غريب مع حامية عسكرية غريبة، وفرضت الصراعات مع الفرنجة ومع أنظمى الأقطاع بناء المزيد من القلاع، وتولت القلاع صنع أحداث تاريخ الشام، وفي ظل التمزق الدموي الحاد، جاء نور الدين محمود، فوحد الشمال الشامي مع الجنوب، ومالبثت حركة التحرر من الفرنجة إلا أن تسارعت، وتنامت عمليات الوحدة فوصلت إلى مصر، وامتدت إلى ليبيا واليمن، وأعدّت العدة لتحرير القدس، ولطرد الفرنجة، وتوفي نور الدين، فقام صلاح الدين بإكمال المسيرة، وخاض حطين، وحرر القدس، وأعاد لحمة الوحدة الشامية.

لكن لسوء الحظ توجب على صلاح الدين في أواخر أيامه التصدي لما يعرف باسم الحملة الصليبية الثالثة، ويقينا لولا وحدة الشام ومصر لأغرق الطوفان الغربي الشام والوطن العربي، ولسوء الحظ ثانية أن صلاح الدين لم يعمر بعد انحسار موجة الحملة الثالثة، وعاد التمزق مجدداً سياسياً وقاسياً ومؤذياً إلى بلاد الشام، وألهت الصراعات الأيوبية الأيوبية خلفاء صلاح الدين، وبددت طاقات، حتى أن الكامل محمد بن العادل تحالف مع فردريك الثاني ضد أخوانه وآله وسلمه القدس.

وعرفت بلاد الشام يومذاك فورات عارمة ضد التمرق والخيانة والتفريط

أهل الشام بحكم تطلعاتهم الوحدوية تميزوا بالانفتاح الإنساني، فكانوا دوماً رواد حضارة وتفتح وسماحة وعطاء.

بالحقوق، وشهدت ساحات البلاد قيام حركات ومنظمات شعبية فعالة، لكن هذه المنظمات لم تتوفر لها القيادات القادرة على طرد المتحكم من القلعة وإقامة حكم شعبي.

واستمر هذا الحال طيلة مابقي من العصر الأيوبي، ثم جاء الغزو المغولي، وحدثت معركة عين جالوت، وكان الـدور الشعبي في هذه المعركة كبيراً، مثلما كان يوم حطين، فأعداد المتطوعة كانت أكبر من أعداد الجند المحترف، والشعب هو الذي موّل الآلة الحربية وصنع السلاح، ودعا إلى الجهاد، وقدم الكوادر الإدارية والقيادية.

ووقف الشعب ضد المغول، فالشعب هو الذي انتصر في معركة شقحب لا الناصر محمد ابن قلاوون، والشعب هو الذي دافع عن مدن الشام ضد تيمورلنك، وهو الذي أعاد بناء البلاد بعد انحسار آخر الأمواج المغولية العاتية، وكان شعب الشام في أواخر العصر المملوكي قاب قوسين أو أدنى من استلام السلطة، والحلول محل المماليك.

كان شعب الشام في أواخر العصر المملوكي قاب قوسين أو أدنى من استلام السلطة، والحلول محل المماليك

لكن هو القدر، حيث نجح العثمانيون في أحتلال لبلاد الشام، ثم مصر، وفي معركة مرج دابق انتقمت القسطنطينية ـ التي جلس على عرشها امبراطور عثماني لهزيمتها يوم اليرموك، ودار التاريخ دورة رهيبة، وعادت الشام ومصر وأرجاء الوطن العربي تدار من القسطينية، كما كا الحال قبل حركة الفتوحات العربية الكبرى، ولم يتوقف أهل الشام ومصر عن النضال التحرري والوحدوي العربي، وتجلى هذا لدى التصدي للطورانية ولسياسات التتريك، وكادت الجهود تنجح لولا تدخل الاستعمار الأوروبي، ومع هذا باتت البلاد على حافة الانفجار الثوري، نظر الثوار العرب من حولهم وفي أوساطهم، فلم يجدوا لا نور الدين ولا صلاح الدين، بل وجدوا «شريف مكة العثماني» صاحب مكماهون وأولاده الذين تلبسوا بالرغبة الملك، على طريقة الكامل محمد ـ ولو بأي سبيل ومهما كان الثمن: خيانة، عمالة، طغيان، لابأس، فالمهم الوصول إلى الملك...

وفي ظل هؤلاء الأدعياء مزقت أشلاء بلاد الشام شر ممزق، فانتزعت منها ولاية الجزيرة بما فيها الموصل، وعانت من الحركات العنصرية مالم تعانه ديار في الدنيا، وإذا سلمنا أن أشهر عنصريات هذا القرن وأخطرها هي: الطورانية،

والصهيونية، والنازية، فأهل الشام عانوا من هذه العنصريات أكثر من أي فئة من بني البشر: اقتطعت الطورانية أنطاكية والاسكندرونة والرها ونصيبين وماردين وغير ذلك، واقتطعت الصهيونية فلسطين (يجمع بين الصهاينة والطورانيين الانحدار من أصل خزري واحد، وكانت الزعامات دوماً من يهود الدونما). واهل الشام هم الذين دفعوا ثمن آثار النازية.

وهكذا عاش أهل الشام في ظل قرون لاأطول ولاأحلك، ومع هذا ازدادوا أصراراً على الوحدة والتحرير، وفي أثناء النضال ضد الاستعمار الفرنسي، أسهم الشاميون في ثورات العراق، وحركات مصر، ودول المغرب العربي، وقامت ثوارهم في الغوطة وجبل الزاوية، وجبال اللاذقية وروابي فلسطين، وأسماء الشهداء جلها معروف ومدون، وتحقق الاستقلال بفضل النضال الشعبي، لكن لسوء الطالع تسلم القيادة بقايا أسر الاقطاع العثمانية مايعرف باسم «البرجوازية السورية» وكان هؤلاء يتسمون بقصر النظر والضعف والتخاذل، ولذلك عشنا عصر الصراع على سورية، وعصر الانقلابات.

وقامت الوحدة مع مصر، وجاءت نتيجة لزخم شعبي لامثيل له في أرض الشام، لكن لسوء الحظ، لم يكن هناك مايكافئه في أرض الكنانة، ولذلك تحولت الوحدة إلى تسلط وحكم بوليسي، لأنه كان من شروط الوحدة إلغاء الأحزاب، أو بالحري الغاء حرب البعث العربي الاشتراكي، الذي قاد نضال الجماهير في أرض الشام.

كان من شروط الوحدة إلغاء الاحزاب، أو بالحري الغاء حزب البعث العربي الاشتراكي، الذي قاد نضال الجماهير في أرض الشام.

واستعانت سلطات الوحدة ببقايا البرجوازية السورية، الضعيفة لأعطان والقصيرة للنظر، فكان الانفصال الذي لم يشارك في صنعه بعثي واحد، وتحكمت البرجوازية مجدداً بدمشق، ومجدداً أخفقت، وحبطت أعمالها، وسقطت يوم الثامن من آذار عام ١٩٦٣، وسعت الثورة إلى تحقيق الوحدة، فلم تتوفق، وقام عدوان عام ١٩٦٧ ، وتتالت الانتكاسات، وتسللت العقليات المناورة، أو التي بلا تجربة أو خبرة، أو إيمان، أو معرفة بتاريخ هذه الأمة إلى السلطة، وكانت هناك بارقة أمل مع حركة ٢٣ شباط، لكن العقلية المناورة التي لم تتحرر من رواسب الماضي عادت إلى التحكم، وإلى المزيد من الأنغلاق، واستيقظت من جديد

روائح الطائفية والاقليمية النتنة.

وكنت آنذاك طالباً في جامعة لندن، احضر للحصول على شهادة الدكتوراه، وفي أحد الأيام استدعاني الاستاذ المشرف المستشرق برنارد لويس، وشرع يسألني عن أوضاع سورية، وفاجأني وقتها بقوله: «أصحيح ان السلطة في سورية باتت عدس»؟ فأجبته: ماالذي تعنيه بقولك: عدس؟ فشرع يشرح لي بتشف صهيوني مقيت أن سورية تعيش في أجواء الصراع على السلطة، وباتت بالتالي ميداناً للطائفية والإقليمية.

ولقد كان ذلك اليوم من أقسى أيام حياتي، ثم عدت من الايفاد ـ بعد غياب سنوات ـ في أواخر عام ١٩٦٩ ، وشرعت من جديد أتعرف على أوضاع البلاد، وكنت في كل يوم أسمع خبراً وإشاعة، لكن شعرت «أن خلال الرماد وميض نار» وأن هذا الوميض «يوشك أن يكون له ضراماً».

شعرت «أن خلال الرماد وميض نار» وأن هذا الوميض «يوشك أن يكون له ضراماً».

صرت أسمع كثيراً اسم «حافظ الأسد»، وتملكني شعور اقتبسته من مشاعر الشعب أن الأمل هنا، وأن صلاح الدين قريب الوصول، وأن الشعب الذي انتظر ـ منذ أيام سيف الدولة ـ مجيء القائد التاريخي من بين صفوفه لن ينتظر أكثر، فلقد قربت ساعة الفرج، وجاء فجر السادس عشر من تشرين، ونجحت حركة التصحيح، وعشت ـ مثلما عاش كل مواطن ـ أفراح مابعد التصحيح، وتتبعت أخبار البهجة في كل مدينة زارها القائد الأسد آنذاك، وتسارعت الأحداث، وأدرك الشعب تمام الادراك ان القائد التاريخي الذي انتظره قرابة العشرة قرون قد خرج من بين صفوفه فارساً يعربياً أصيلاً، ترقى به الأعراق إلى زفر بن الحارث الكلابي، وإلى صالح بن مرداس، وإلى ذات الهمة والبطال، إلى الشعب العربي الأصيل وليس إلى الهجناء.

وحكايتي مع «القائد التاريخي» حكاية طويلة فيها من رعاية الذات مكارم مواريث آل مرداس حين تفردوا فأحاطوا العلماء والشعراء بالرعاية، نعم بنو مرداس وحدهم هم الذين منحوا كل شاعر متميز لديهم لقب أمير.

وصلتي مع فلسفة «القائد التاريخي» عميقة: النقطة العلامة فيها سيرة النبي المصطفى «صلعم» وشمائله، وفيها خلفاء النبي والأئمة، وآل البيت وأبطال ورجال قدمتهم امتي للإنسانية طيلة أكثر من الف عام، فلقد ظلت الحضارة العربية

الاسلامية تعطي البشرية أكثر من ألف عام، وعندما تولى غير العرب قيادة الحضارة أعطوا بني البشر: الاستعمار، والتلوث، والاستغلال، والتمييزي العنصري والكيل بمعايير مزدوجة لاأخلاقية، والاسلحة النووية، والايدز وغير ذلك من الآثام كثير، وذلك في مدة لم تتجاوز القرنين، مع حروب كونية كلها رعب وهوب.

والحديث عن القائد التاريخي ممتع، لايدخل في إطار الحديث عن عبادة البطل الفرد، لأن القائد التاريخي وإن كان بطلاً، هو ليس حاكماً فرداً، إنه صاحب رسالة، مثلما ائمة التاريخ، الذين صدرت رسالاتهم عن رسالة السماء التي أوحى بها الله تعالى إلى نبيه المصطفى، فختم بها بلسان عربي مبين رسائل الأنبياء قبله صلى الله عليه وسلم منذ آدم عليه السلام.

وترتبط حياة الرسل بالمعجزات، وحياة الأئمة بالكرامات، والكرامة أخت المعجزة، وعلى هذا الأساس يمكن أن أفقه ماحدث في سورية حين زالت الطائفية إلى ماغير عودة، وتحققت وحدة المجتمع، لا على أساس التعايش والتوازن، بل على أساس الاندماج، ولم تعد سورية البلد المصطرع عليه، بل البلد المسهم في الصراع من أجل البناء والوحدة والتحرير، وهكذا تحول الجيش خلال ثلاث سنوات من جيوش إلى جيش عقائدي، عالي التدريب والانضباط، مستوعب للسلاح، إرادة المقاتلين فيه حرة، يشعر كل منهم بالظهير الشعبي، وبمتعة أداء الرسالة، وكانت أولى المحصلات حرب تشرين التحريرية، وحرب الاستنزاف، والتصدي للمؤامرات وصيانة لبنان، ورفض كامب ديفيد، والوقوف ضد صليبية ٨٢ ـ ٨٣ حين اجتمعت جيوش وأساطيل الغرب وأمريكا والصهيونية ضدنا.

الحديث عن القائد التاريخي ممتع، لايدخل في إطار الحديث عن عبادة البطل الفرد. إنه صاحب رسالة، مثلما ائمة التاريخ.

لقد ناضل هذا الشعب طوال قرون عديدة حتى التقى بقائده التاريخي، ولقد دعا كل واحد من أمتي خلال القرون المديدة حتى يأتي من يجدد له دينه وحياته، وجاءت الاستجابة من رب العزة، والله تعالى وحده قادر على أن يقول للشيء: كن فيكون، أما اساطيل العدوان فعاجزة أمام إرادة الله، ومقرر أن صوت الشعب هو صوت الحق، ولم تجمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم قط على ضلالة، وهي مجمعة الآن على

قبل الحركة التصحيحية كانت سورية جمهورية مفتقرة إلى سمات الدولة، فغدت في سنوات قلال، دولة عربية نموذجية.

أن حافظ الأسد هو قائد الجماهير العربية والمسلمة بلا منازع.

قبل الحركة التصحيحية كانت سورية جمهورية مفتقرة إلى سمات الدولة، فغدت في سنوات قلال دولة، دولة عربية نموذجية، تصلح نواة لدولة الوحدة الكبرى، فسورية جزء من بلاد الشام، وبلاد الشام بعض من الوطن العربي الكبير.

وقبل الاستطراد في الحديث عن منجزات العقود الثلاثة المتقدمة، أجد من الضروري معاودة الوقوف مجدداً للحديث أكثر عن فلسفة القائد التاريخي.

شغلت ظاهر القائد التاريخي المؤرخين والفلاسفة، وهناك اجماع على أن شخصيته تشكل استثناء متميزاً، وظاهرة جددت سماتها الجماهير قبل ظهورها، وقبل وصولها إلى السلطة برمن، وبناء عليه تملك نفوذها على الجماهير وتأثيرها لأنها أملها ونمطها الذي صاغته من خلال حاجاتها، ولهذا يبقى القائد التاريخي مع الجماهير، لايبرحها ملتصقاً بها، ومدافعاً عن قضاياها وحامياً لها، ومقرر أن الدور السلطوي هو غير الدور القيادي الشامل، ففي القيادة التاريخية قضية عظمى ونضال فعال وجماهير ومواقف، وفي السلطة تنفيذ لتوجيهات القائد، ومع هذا قد تلتقي السلطة مع القيادة وتتحدا في بطل واحد، ووقتذاك يكون الانجاز محولاً وهاماً جداً.

والقادة التاريخيون ندرة، وإن أطلق كثيراً من الحكام على انفسهم لقب القائد والقائد رجل حكيم مخطط، استراتيجي، فيه مروءة وكرم وشجاعة، وليس فيه ضغينة، يؤثر على نفسه، ويوقف ذاته كلياً على قضايا أمته، فيه بعد انساني، يجمع بين الدماثة والمضاء، لايعرف غير الصعود، يتماشى مع تطورات الأيام، أو بالحري يقود التطورات، يرتقي من ذورة إلى أخرى أعلى حتى لاينزلق، هو صادق وأمين وصريح، يستوعب الآخرين ويجمع الشتات، ليس سلطوياً بل صاحب رسالة، يتخرج من بين الجماهير، ومن خلال نضالها، ولذلك يظل مرتبطاً بالجماهير، والإجماع الجماهيري هو دستور القائد التاريخي ومرشده.

ومنذ قرون طوال لم تجمع الجماهير في أرض الشام وفي الوطن العربي إلا على القائد التاريخي حافظ الأسد، ولأن

الأسد قائد تاريخي جاء نسيج وحده فيه جميع الصفات التي تطلع إليها العربي دوماً في قائده، قال الشاعر لقيط بن يعمر الإيادي لقومه:

فقلدوا أمركم لله دركم
رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
مسهد النوم تعنيه ثغوركم
يؤم منها إلى الأعداء مطلعا
ماأنفك بحلب در الدهر أشطره
يكون متبعاًطوراً ومتبعا

والقائد العربي هو من:

قوم إذا اشتجر القنا
جعلوا القلوب لها مسالك
اللابسين قلوبهم
فوق الدروع لدفع ذلك

وهو أيضاً من قوم شعارهم:

الموت غايتنا فلا
قصر ولاعنه جماح
وكأنما ورد المنـ
ـية عندنا ماء وراح

«وهالك معذور خير من ناج فرور إن الحذر لاينجي من القدر، ولكن الصبر من أسباب الظفر، المنية ولا الدنية، استقبال الموت خير من استدباره، الطعن في ثغر النحور خير منه في الاعجاز والظهور».

والقائد العربي هو:

حمال ألوية شهاد أندية
قوال محكمة جواب آفاق

وهو أيضاً كما قالت الخنساء:

رفيع العماد طويل النجاد
ساد عشيرته أمردا

وصحيح أن الحديث في هذا الباب غني وممتع، وهو والحق يقال يحتاج إلى افراده في دراسات خاصة، ولعله يفيدنا الآن ويكفينا أن نتذكر أن القائد الأسد ولد في ليلة القدر من عام ١٩٣٠ من أسرة نضالية عربية أصيلة، وقد أهتم والداه بتعليمه، وقرأ القرآن الكريم منذ صغره، ولعله حفظه، ثم انتقل من بلدته القرداحة إلى اللاذقية، والتحق هناك بثانويتها، وحدثني رفاقه في المدرسة أنه امتلك المؤهلاته القيادية وكان المرجع لهم والملاذ دوماً، وبعد نيله الشهادة الثانوية أراد أن يدرس الطب، فلم يستطع لأسباب مالية، فالتحق بالكلية الجوية وتخرج ضابطاً طياراً.

وكان القائد الأسد من أوائل الذين انتموا إلى حزب البعث العربي الاشتراكي ومن ثم تسلم طوال عمره قيادة رفاقه في المدرسة وفي المراحل اللاحقة، وقد تميز بين الضباط في سلاح

«وهالك معذور خير من ناج فرور إن الحذر لاينجي من القدر، ولكن الصبر من أسباب الظفر، المنية ولا الدنية، استقبال الموت خير من استدباره، الطعن في ثغر النحور خير منه في الاعجاز والظهور».

بعدما عرف الشعب قائده التاريخي بدأت مسيرة الاستقرار، والانتاج ومازالت مستمرة، وستبقى بمشيئة الله،

الطيران، وتفوق في جميع الدورات التدريبية، وخدم في مصر أيام الوحدة وأعاد تنظيم الضباط البعثيين هناك، وبعد الانفصال جرى تسريحه من الجيش، ولقد شارك بدور قيادي فعال في الإعداد لثورة الثامن من آذار، وتمكن يوم الثورة بمفرده من السيطرة على قاعدة الضمير الجوية، وبهذا ضمن للثورة النجاح المؤكد.

وناضل مع رفاقه من خلال الثورة، وسعى دوماً إلى لمّ الشمل، ورأب الصدوع، وظل كذلك حتى قاد الحركة التصحيحية المباركة، واستطاع كما أشرنا من قبل خلال سنوات ثلاث من عمر الحركة التصحيحية المجيدة، أن يعيد اللحمة إلى المجتمع وإلى الجيش، وخاض حرب رمضان التحريرية، وقضى على الفتن المدبرة من الخارج لاسيما فتنة الاخوان المسلمين، ثم تدخل لانقاذ لبنان، وكان في انقاذه للبنان انقاذ لسورية.

لقد مضى الآن على عمر التصحيح مايقارب الثلاثة عقود من الزمن، جاءت من حيث التقسيم الدستوري في أربع مراحل:

وتعد المرحلة الدستورية الأولى، أو السنوات السبع الأولى من حكم قائدنا التاريخي الرئيس الأسد سنواتاً عصيبة، ومع ذلك شهدت إنجازات لايمكن للدهر أن يمحوها، فقد بدأت سورية تشهد مخاضاً اجتماعياً جديداً، ودعت فيه التوازنات الطائفية والاقليمية - أو مايسميه بعضهم التعايش بين الفئات إلى غير مارجعة، وخطت نحو الاندماج، وإلى إزالة كل الحواجز، إذا كان قد بقي حواجز، اندماج قوامه الجبهة الوطنية التقدمية، ومجلس الشعب، والتحضير للإدارة المحلية، وبدأت سورية تأخذ المظهر الفعلي للدولة، ولم تعد البلد المتنازع عليه من قبل الجوار وسواهم، ولا البلد المتنازع على السلطة فيه، فبعدما عرف الشعب قائده التاريخي بدأت مسيرة الاستقرار، والانتاج ومازالت مستمرة، وستبقى بمشيئة الله، هذا بإيجاز على الصعيد الداخلي.

أما على الصعيد العربي: فقد جرت آنذاك محاولات حثيثة لنهضة عربية، ولجمع الشمل العربي والإرادة العربية مجدداً، وتركزت الجهود باتجاه مصر، الشريك التاريخي الدائم لبلاد الشام، وشريك محنة عام ١٩٦٧ ، واستطاع القائد الأسد أن يقنع الرئيس السادات

عن نتائج تشرين يطول الحديث، ويكفينا أن نقول: إننا منذ تشرين وإلى اليوم، ونحن نحتفل بالإنجازات، ويقوم العدو بإقامة المناحات لما حدث،

بضرورة القيام بعمل تحريري ضد اسرائيل في أسرع وقت ممكن، بهدف تحرير الأرض والكرامة، ولازالة أسطورة العدو الصهيوني الذي لايقهر ماحتاج هذا إلى جهود عظيمة جداً، وعمل متواصل في الليل والنهار، لقد احتاج الأمر إلى إعادة توحيد الجيش في سورية، وإلى تطويره، وإلى التدريب المتواصل، والاستعداد المستمر للحركة، وإلى تزويده بالأسلحة المتطورة، والقيام بوضع الخطط اللازمة ليوم التحرير، كل ذلك ضمن تكتم كبير، لكسب عامل المفاجأة في اليوم الموعود، وفي خلال سنوات ثلاث، حدثت معجزة توحيد الجيش، وتوحيد المجتمع، وأمكن للجيش استيعاب السلاح الجديد، وبات جاهزاً للقيام بمهامه، يتحرك بذكاء وفعالية، ويغرر بالعدو، ويربكه، وكانت حرب تشرين العظيمة، والحديث عن حرب تشرين مديد، وعن نتائج تشرين يحلو الحديث، ويكفينا أن نقول: إننا منذ تشرين وإلى اليوم، ونحن نحتفل بالإنجازات، ويقوم العدو بإقامة المناحات لما حدث، هذا العدو الذي لم ينل منذ تشرين طعم الاستقرار، ولم ينعم بالأمن، وحاول الانتقام من تشرين في لبنان، وفي أكثر من مكان، إنما بلا استقرار: العنف يزداد في داخل هذا الكيان المصطنع، والزلزال تلو الزلزال يهز أركانه بشكل متواصل، ووزارة تسقط تلو الأخرى، ودور يأتي ومعه وجه قيادي جديد ودور يذهب، ومعه سقوط للوجه القيادي مع اتهامات واختلاسات وفضائح، في حين أن عملية الاستقرار وعملية البناء استمرت لدينا، ففي سورية التي خاضت حرب تشرين للتحرير لا للتحريك استمرت الانجازات، وتحملت سورية تشرين التحرير حرب الاستنزاف، ودخلت إلى لبنان لتصونه من الطائفية، ومن التمزق، ومن التبعية لإسرائيل، وحين كانت سورية تصون وحدة لبنان وأمنه تمكنت من صيانة ذاتها من عملاء الرجعية والمأجورين، ومع هذا بقي الخطاب التاريخي الإسلامي للقائد الأسد واضحاً تمام الوضوح، جوهره التمسك بالإسلام الصحيح، والرفض المطلق للمتاجرة بالإسلام والإرهاب باسم الإسلام، والحرص على علاقات داخلية فيما بين المسلمين وغير المسلمين، علاقات كلها ود وتسامح، وتعاون وانسجام، وبالوقت ذاته الحرص على إبقاء الجسور ممدودة مع بلدان العالم

احبط اخيراً المشروع الصهيوني في لبنان، واخفق التحالف الغربي في صليبية ١٩٨٢ ـ ١٩٨٣ ، وخرج المارينز وحلفاء المارينز مدحورين من لبنان، وسقط اتفاق ١٧ أيار،

لم تتأثر سورية بإنهيار طيفها الاستراتيجي، وأجادت التعامل مع الاستعمار الجديد، الذي أعلن أنه يريد فرض العولمة، وأنه يريد تطبيق مفاهيمه عن الحرية والديمقراطية،

الاسلامي أجمع، ولاسيما مع كل من باكستان وإيران.

وفي الحقيقة هناك تداخل فيما بين الحقبة الدستورية الأولى والثانية، فقد استمرت في الثانية الأزمة اللبنانية، واستعضلت في كثير من الجوانب، ولم تستطع أية قوة من القوى أن تزيل قائدنا التاريخي عن موقفه القومي المتوازن، فهو مع لبنان كل لبنان، وليس مع طائفة دون أخرى، فأهل لبنان جزء لايتجزأ من الشعب العربي في سورية، الذي هو بدوره جزء لايتجزأ من الأمة العربية، وكما أنه لااعتراف بالطائفية في سورية، لااعتراف بأمراض الطائفية والاقليمية والعشائرية في سورية.

وأحبط أخيراً المشروع الصهيوني في لبنان، وأخفق التحالف الغربي في صليبية ١٩٨٢ - ١٩٨٣ ، وخرج المارينز وحلفاء المارينز مدحورين من لبنان، وسقط اتفاق ١٧ أيار، وكان سقوطه أول ضربة قاتلة لسايكس بيكو، وبات لبنان كتلة جهادية بنادقه ضد الصهاينة وأعداء الأمة، وانتقلت هذه الروح الجهادية إلى فلسطين المحتلة، فكانت ثورات أطفال الحجارة ثم قيام حماس وكتائب عز الدين القسام وسواها،واستعد لبنان في الوقت نفسه لخوض تجربة البناء والاستقرار، ولم تتوقف سورية أثناء ذلك كله عن تقديم كل المساعدات، فدائماً الأخ الكبير يحنو على الأخ الصغير ويرعاه، وستظل العلاقة فيما بين لبنان وسورية علاقة أخوية.

وفي أثناء ذلك كله امتلكت القيادة التاريخية للرئيس الأسد وضوح الرؤية تجاه المسلسل التدميري للمنطقة العربية واستمرت في مسيرة البناء الشاملة والاستقرار الذي لانظير له، والتطور الديمقراطي العقلاني المتوازن، والنماء الاقتصادي، فقد بنيت عشرات السدود، وخاضت سورية معركة الأمن المائي بكل نجاح اعتماداً على الذات، وصارت البلاد تمتلك شبكة استراتيجية من الطرق، وجرى تطوير الجامعات واحداث جامعات جديدة، وتأمين الكوادر اللازمة، وتضاعف عدد المدارس عدة مرات، وتضاعفت أعداد الطلبة في كل المراحل، وظل التعليم مجانياً وللجميع، وتطورت الصناعة، وصارت سورية هي البلد العربي الوحيد الذي ينتج من القمح والحبوب مايؤمن من كفايتها ويحقق الأمن الغذائي.

وازدادت أعداد المشافي والمعامل، وشهدت البلاد مسيرة ازدهار اقتصادي واعدة، على الرغم من الحصارات غير المعلنة ضدنا.

كل هذا والجهد مستمر لجمع الشمل العربي، ومواكبة التطورات العالمية، فبين أواخر المرحلة الثالثة وفي المرحلة الرابعة التي نعيش نهايتها في أيامنا هذه، انهار الاتحاد السوفييتي، وانتهت الحرب الباردة، وأعلنت أمريكا عن زعامتها للعالم، وأنها الوريث للامبراطورية البريطانية، التي لم تكن الشمس تغيب عن أطرافها، وذلك مع الامبراطوريات الاستعمارية الغربية الأخرى، ولم تتأثر سورية بإنهيار حليفها الاستراتيجي، وأجادت التعامل مع الاستعمار الجديد، الذي أعلن انه يريد فرض العولمة، وأنه يريد تطبيق مفاهيمه عن الحرية والديمقراطية، لكن بوساطة الصاروخ وطائرات الشبح وأحدث الاسلحة المدمرة.

والمثير للدهشة أن هذه الدولة العظمى سمحت داخلياً لمواطنيها بالتنافس الديمقراطي، لكنها لم تسمح بذلك فيما بين الدول والشعوب، وتحدثت دوماً عن مصالحها، وتجاهلت تماماً مصالح الشعوب وسيطرت على مجلس وسخرته لأهوائها، ولجأت دوماً إلى القوة المدمرة، واستنزفت طاقات الأمة العربية واموالها، وصدرت إلينا الاسلام الإرهابي الذي صنعته في أفغانستان.

واستطاع القائد التاريخي، أن يقلل إلى أبعد الحدود من هذا الأذى الذي لايعرف حدوداً ولاضوابط، وتمكن من ضبط الأمور، ومن ثم الاستمرار في مسيرة الاستقرار والنماء، وظل ثابتاً في مواقفه تجاه اسرائيل، ولم يتنازل قط، وفي عصر التنازلات أمام إسرائيل والولايات المتحدة، فقط سورية حافظت على الشرف العربي، وعلى كرامة الماضي، وضمان عدالة الحاضر والمستقبل، وهذا الموقف هو الذي ساند ـ ومايزال يساند ـ رفض التطبيع مع العدو في كل مكان من الوطن العربي، وبات القائد الأسد وحده الصائد للهوية العربية، ولأول مرة في تاريخ العرب الحديث، كان هو الزعيم العربي الذي امتلك شرعية الجماهير العربية عن قناعة كاملة. لاعن عاطفة وانفعال.

وفي واقع الأمر عندما نتناول المراحل الدستورية الأربع التي مرت، نجد القائد الأسد قد وصل في نهاية كل مرحلة إلى

لاول مرة في تاريخ العرب الحديث، كان هو الزعيم العربي الذي امتلك شرعية الجماهير العربية عن قناعة كاملة. لاعن عاطفة وانفعال.

الخط الكونفوشي وتمثله الصين، وسيشكل هذا الخط خلال سنوات القوة الأعظم في جميع المجالات البشرية والاقتصادية،

ذروة شامخة على الصعد العربية والداخلية والاسلامية والعالمية، وهو بحكم مواكبته للتطور وللتقدم لم يركبه الغرور ليخلد إلى النجاحات، بل ثابر على التقدم والعطاء، وهكذا كانت كل ذروة بالنسبة له قاعدة للانطلاق نحو ذروة جديدة، أيضاً متجددة موائمة دوماً لمقتضيات التطور السياسي والاجتماعي لعالمنا الذي يودع الآن قرناً عجيباً في التاريخ، هو القرن الذي شهد ذروة الاستعمار وزاوله، وفيه كانت الحرب الكونية الأولى ثم الثانية، وبعد ذلك الحرب الباردة والتبدل في القوى، وتعقد الصراع ضد اسرائيل، وها نحن في أواخر هذا القرن قد دخلنا إلى عصر المعلوماتية ومن ثم نحن في طريقنا نحو المرحلة المقبلة التي نتمنى من الله تعالى أن تلوها مراحل أخرى، وأن يمد الله في عمر قائدنا التاريخي، ويمنحه القوة للاستمرار في حمل الرسالة.

ومرحلة الاستحقاق الدستوري الجديدة قد تختلف عن جميع المراحل المتقدمة، وصحيح أنها استمرار لها، لكنها متميزة لأن العالم داخل الآن في عصر جديد، عصر ستظهر فيه قوى جديدة، وستنكمش فيه بعض القوى القديمة، عصر ستكون المواجهات فيه للثقافات أو لنقل الحوار بين الحضارات أو الصدام، وأهم خطوات الحضارات العالمية الآن هو **الخط الغربي الكاثوليكي البروتستانتي** بزعامة الولايات المتحدة، مع محاولة للتملص من مظلة هذه الزعامة من قبل عدد من الدول الأوروبية الغربية بزعامة فرنسا (دول اليورو).

والخط الثاني هو الخط الكونفوشي وتمثله الصين، وسيشكل هذا الخط خلال سنوات القوة الأعظم في جميع المجالات البشرية والاقتصادية، وربما العسكرية، وقد ينجح في أحتواء دول شرقي آسيا، ولربما سيكون بين ذلك اليابان، لابل أكثر من ذلك، لربما استراليا، والخط الآخر المفتت، لكنه الواعد جداً هو الخط الاسلامي، ثم هنالك **الخط الأرثوذكسي** الذي لم تظهر ملامحه بوضوح بعد، **أي خط موسكو ـ بلغراد ـ صوفيا ـ أثينا،** والذي نتلمس أثاره في حروب الصرب ضد مسلمي البلقان، لابل حتى ضد الكاثوليك، والمهم أن هذه الخطوط ستكون محور أحداث القرن المقبل.

ويحتاج الخط الاسلامي إلى دولة

مرجع او مركز عربية، ووحده القائد الأسد هو الذي يمتلك الرؤية الاستراتيجية، ويمتلك الأدراك والثقافة والحنكة، ويمتلك الثقة الجماهيرية العربية والاسلامية، وهو الذي يستطيع العمل بسرعة ونجاح في سبيل ايجاد دولة مركز عربية، تقود العرب والمسلمين، فدمشق العصر الأموي هي وحدها التي وحدت العرب والمسلمين، ولعل دولة المركز تكون في البداية مكونة من سورية ومصر والسعودية مع من يود الانضمام إليها، أو لنقل: الرئيس الأسد هو وحده الذي يملك القدرة على تطوير اعلان دمشق إلى دولة أو هيئة عربية مرجعية للعرب والمسلمين.

هذا إذا تركنا الصعيد الخارجي، تستدعي مقتضيات النجاح أعمالاً كثيرة في الداخل، على رأسها إعادة النظر في برامجنا وخططنا التعليمية والثقافية والاعلامية لتحمل مقتضيات المرحلة المقبلة والقيام بأعبائها، فنحن الآن نمتلك بنية تحتية صالحة لأن تشكل منطلقاً لما نستهدفه، ومتوجب علينا القيام علينا بها، وألح على كلمته المتوجب، لأن القائد الأسد أحرص الناس على أداء الواجب.

من غير الممكن ان نفي في محاضرة واحدة ذكر الانجازات العملاقة التي نعمنا بها، وحكم الاختصاص أقول: إن الحاجة قائمة لتوثيق هذا العصر بشكل علمي، وعلى العموم نلاحظ:

لقد نعم الناس خلال العقود الثلاثة الماضية بالاستقرار والأمن، وتطلعوا إلى السلم الاجتماعي الكامل، وإلى النمو الاقتصادي المتواصل، وإلى السلام والوحدة وإلغاء التخلف، ومواكبة مسيرة العصر، وتطلع الشعب بلهفة إلى الاستمرارية، ومثلما اكتشف يوم التصحيح قائده التاريخي، رأى شروط الاستمرار متوفرة في الباسل، النجل الأكبر للسيد الرئيس، وخلال حقبة قصيرة بات الباسل مالىء الدنيا وشاغل الناس، لقد بات هوية متميزة، وإن كانت متينة الروابط وعميقة الجذور، وقوية الأواصر بالمدرسة التي تخرجت منها.

الباسل مالىء الدنيا وشاغل الناس

وكان كلما ازداد الباسل تألقاً كلما عظمت أحلام المستقبل، وازدادت الطمأنينة على الوطن وعلى الأولاد، وعلى الرسالة وعلى التحرير والحضارة، وعلى أمانة الماضي وتطلعات المستقبل، لكن لامرد لقضاء الله، قضى الباسل

كلما ازداد الباسل تألقاً كلما عظمت أحلام المستقبل، وازدادت الطمأنينة على الوطن وعلى الاولاد،

كان بيننا غريباً، فطوبى للغرباء، الصالحون إذا فسد الناس.

شهيداً، فصنع بشهادته آخر الملاحم من جلجامش، إلى كربلاء وذات الهمة، وعنترة وحمزة البهلوان والملك الظاهر، ومثلما تفجرت المآقي تفجرت الأقلام، وكتبت شعراً ونثراً عن الباسل.

وكنت قد شهدت عشية الفاجعة شباب وفتيات جيل الباسل يندفعون بحزن عميق وعفوية مطلقة نحو سفوح قاسيون لتوديع الباسل، وكان الوقت - كما نعلم - شتاء، البرد فيه شديد، ومع هذا شاهدت الفتيات والفتيان يندفعون بملابس حفيفة، وبأحذية وبدون أحدية، أنستهم النازلة أنفسهم.

وشهدت في اليوم التالي - في الطريق إلى القرداحة، أمواج من شعبي، جاءت من جبل لبنان ومن كل مكان في وطني، لقد شعرت وقتها أن أمتي عادت فأتحدت، مشاهد لن أنساها، لن أنسى مطلقاً صورة السيد الرئيس، وهو داخل إلى حرم المسجد ليصلي على الباسل، يالهول تلك الساعة، وفي اليوم التالي صافحته معزياً، فإذا به هو الذي يعزيني، وفي هذا مصداق لما قلته: غدا الباسل هوية، امتلكها كل مواطن، وفقدانه كان فاجعة لكل مواطن، والقائد التاريخي، وإن كان الأول في الخسارة، لكن ريادته ورسالته ترقى به لتقديم التعازي لمواطنيه، وهذا ماحصل، وكلنا يذكر حديث السيد الرئيس ورسالته إلى مواطنيه.

أسأل الله تعالى الذي فجعنا بفقدان الباسل، وابتلانا بفراقه أن يغفر للباسل يوم الحشر، وأن يفسح له في القبر، وأن يجعل سبيل الخير سبيله، ودليل الرشاد دليله، فلقد عاش حميداً رشيداً، واستشهد فقيداً سعيداً، فلقد كان عظيم الفهم، كثير الحلم، رفيع العماد واري الزناد، منبع الحريم، سليم الأديم، ولقد كان في المحافل شريفاً، وعلى الأرامل والمحتاجين عطوفاً، وعن الفحشاء عفيفاً، لقد كان بيننا غريباً، فطوبى للغرباء، الصالحون إذا فسد الناس.

أمد الله بعمر السيد الرئيس، قائدنا التاريخي، وأعان الدكتور بشار وأنار سبيله.

★ ★ ★

قطنة

وآخر التنقيبات الأثرية فيها

دعد تقلا

سورية بلد الحضارة والحياة عاشت كمملكة معروفة لها تاريخها العريق وآثارها الباقية إلى الآن تحكي قصتها مع الحضارة والتاريخ وهي دولة خضراء محاطة بها الصحراء.

وقد أهتم المؤرخون وعلماء الآثار بهذه البقعة من الأرض منذ بداية القرن الماضي وركزوا بحثهم وثقلهم العلمي على دراسة بعض الأوابد الأثرية والتاريخية والتي كان بعضها مجهولاً مستندين في ذلك على دراسة الطبوغرافية التاريخية لهذه المنطقة معتمدين على أمرين أساسيين وهما علم الآثار واللغات القديمة إضافة إلى الوثائق التاريخية، فالطبوغرافية التاريخية للمدن والقرى يعود تاريخ نشأتها وازدهارها إلى العصور الكلاسيكية (العصور الهلنستية والرومانية والبيرنطية) والطبوغرافية التاريخية للعصور المسماة بالعصور الشرقية أي تلك التي سبقت العصر الهلنستي.

وكان من رواد البحث في تلك الفترة الأساتذة مارتين هاراتان الذي كتب عدة أبحاث حول Sxinidshope.

واعتمد الدارسون في أبحاثهم على المصادر المتعلقة بالعصور القديمة في سورية والعراق والتي تقسم إلى (مصادر مصرية ـ مصادر حثية ـ مصادر آشورية ـ مصادر آرامية).

وفيما يلي عرض لأهم المعلومات التي عرفناها عن مدينة قطنة (المشرفة)

قطنة: موقع أثري قديم يشهد على أهمية المنطقة عبر آلاف السنين وهي موقع تل المشرفة الحالية على مسافة ١٥ كم شمال شرق مدينة حمص على طريق سلمية تنتصب المدينة فوق تلة صخرية وكانت تزنرها ٤ كم من الأسوار فيها أبواب وتحصينات دفاعية قوامها حجارة ضخمة، وتميز بها حصون وقلاع هامة. وأهم من بدأ التنقيب في هذه المنطقة الفرنسي الكونت (دو سينيل دبوسون في الأعوام /١٩٢٤ و ١٩٢٧ حتى عام ١٩٢٩/ على سجلات معبد الرب ين أغال التي أثبتت بجلاء أن

قطنة: موقع أثري قديم يشهد على اهمية المنطقة عبر آلاف السنين وهي موقع تل المشرفة الحالية على مسافة 18 كم شمال شرق مدينة حمص

تل المشرفة هو مدينة قطنة القديمة وقد كتب أسمها في هذه الوثائق ووثائق ماري وآلالاخ ورسائل العمارنة (قطنة). أما في اللغة المصرية فقد كتب (قادن) أي قطنة. وأوردته الوثائق الحثية بثلاثة أشكال: قطنة، جتما، كتنتا. وليس لهذا الأختلاف في كتابة الأسم أي مغزى فالمعول عليه هو كيف وردت بالوثائق المحلية.

وأثبتت التنقيبات أن الموقع قد أستوطن في الألف الثالث ق. م وكان على صلات وثيقة مع مناطق بلاد الشام الأخرى وبلاد مابين النهرين، وقد عثر نتيجة هذه التنقيبات على بعض الجرار الفخارية من صنع بلاد سومر، وكانت من عصر سلالة أور الثالثة (٢١٥٠/ ١٩٥٠) ق. م كما ارتبطت هذه المدينة بعلاقات تجارية مع مصر حيث وجد تمثال (ايتا) ابنة الفرعون امين ايمحب الثالث (١٩٢٩/ ١٨٩٨ ق. م) والذي عثر عليه في قطنة والمؤكد من خلال حفريات ألواح أرشيف معبد ين أغال أن قطنة كانت عاصمة المنطقة خلال الألف الثاني ق. م فقد كان لها علاقات تجارية جيدة مع مصر وغيرها من الدول القديمة في المنطقة. ومن المفيد أن نقول ان نقل البيوت السكنية من تل المشرفة سيساهم حتماً في إعطاء صورة أوضح عن هذه المنطقة وقبل أن أتحدث عن آخر المستجدات التي وصل التنقيب إليها لابد وأن نعتمد على وثائق ماري وآلالاخ في كتابة تاريخ قطنة. فالوثائق التي تم العثور عليها في مملكة ماري القديمة استطاعت أن تعطي نتائج جيدة خاصة وأنه كان هناك علاقة مشتركة بين ماري وقطنة بسبب اعتداءات البدو على القوافل التجارية بين المملكتين طيلة القرن الثاني عشر ق.م. ومما ساهم في تمتين الروابط بين هاتين المملكتين علاقات المصاهرة. فقد طلب (شمسي آدد) ملك آشور من ملك قطنة (يسخي آدد) ان يزوج ابنته من ولده (يسمخ آدد) ملك ماري. فمن وراء هذا الزواج مصلحة لقطنة فما أن وصلت العروسة حتى عقد الطرفان (شمسي آدد) و(يسخي آدد) معاهدة تعهد فيها الأول بالوقوف إلى جانب قطنة في تعرضها لأي اعتداء من جارتها مملكة يمخاض (حلب). ويقال بأن هذا الزواج لم يكن موفقاً. لكن المهم في الأمر أن علاقات قطنة مع أواسط بلاد الشام وماري على الفرات وأشور على دجلة قد

ساعد هذا الموقع الجغرافي في السيطرة على الطرق التجارية بين بلاد الشام والأناضول من جهة وبلاد بابل من جهة أخرى.

وساهم أيضاً في منع مملكة يمخاض (حلب) من التوسع شرقاً، وهذا في عهد (يسخي آدد) أما في عهد خليفته أموت بي ال تحسنت علاقات قطنة مع مملكة يمخاض وذلك لأن مملكة يمخاض استطاعت أن تتوسع حتى سواحل البحر المتوسط غرباً ونهر الفرات شرقاً إضافة إلى عودة (زمري ليم) إلى عاصمة مملكة ماري بعد أن تعاون مع أخوانه ملوك يمحاض في طرد (يسمخ آدد) من ماري فانقلبت بذلك موازين القوى وتغيرت العلاقات بين الدول.

فبعد أن كانت ماري حليفة قطنة ضد يمحاض أصبحت حليفة يمخاض. إلا أن هذه الدول الثلاث لم تتحارب ولم تحاول أي منها التعدي على جاراتها فقام في المنطقة نوع من التوازن يأخذ بعين الاعتبار مصلحة كل مملكة وقد حافظ أموت بي ال على مكانة قطنة السياسية وحسن علاقاته التجارية مع بابل وفي عهده تنقل تجار قطنة بين معظم عواصم ممالك عصرهم، فوصلو إلى حلب وكركميش وبابل وماري وآشور وغيرها، ولكن هذه العلاقات المتوازنة لم تستمر فقد ضرب بها حمورابي هذا الحلف بهجومه على ماري وقضائه عليها ولم تقم بها قائمة كعاصمة من بعد وكان ذلك عام ١٧٥٩ ق.م تقريباً.

عمليات التنقيب في المشرفة

البعثة الوطنية تقوم بالتنقيب باشتراك عدد من المختصين

بعد أن تم نقل البيوت السكنية من تل المشرفة بدأ موسم التنقيب الأول ١٩٩٤ بتكليف من المديرية العامة للآثار والمتاحف بقيادة البعثة الوطنية التي قامت بالتنقيب ولمواسم متتالية شارك فيها عدد من المختصين من المديرية العامة للآثار والمتاحف بدمشق ومن دائرة آثار حمص إضافة إلى مشاركة عدد من طلاب قسم الآثار بجامعة دمشق وبعض المتخرجين من معهد الآثار بدمشق.

طبعاً تم تقسيم هذه المدينة إلى مواقع أُعطيت أسماء (ب ـ جـ ـ د) وبدء العمل بالطبقات السطحية وبشكل دقيق وبطيء حتى يستطيعون سبر أغوار هذه المنطقة، والعمل في هذا المجال لايعط نتائجه بين ليلة وضحاها، وإنما العمل في التنقيب يحتاج إلى فترات طويلة ولأيدي خبيرة لذلك كانت الأعمال محصورة في الطبقات السطحية تقريباً فقد بُوشر

تسليط الضوء على طبيعة ودور منطقة حمص في النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد بين مواقع الشمال (حماة ـ تل أفس ـ تل قرقور ـ تل رفعت).

العمل في هذه الحقول الثلاثة بدءاً من حقل (جـ) الذي يقع عند الأطراف الجنوبية للأكروبول ويبعد حوالي خمسين متراً إلى الغرب من الحقل (ب) حيث بدء بتنفيذ سبر لمعرفة طبيعة الطبقات حيث توضح أنها تعود إلى فترة الحديد الثاني المتأخر (القرن السابع قبل الميلاد) والتي نقب عنها سابقاً والذي يميز هذه الفترة أن الجدران كانت تبنى من اللبن وأساساتها حجرية مربوطة بأرضيات من التراب المدكوك والممزوجة مع نماذج فخارية من الأنماط المعروفة في تلك الفترة والمسماة (Redslip) والدراسة المعمارية لبداية فترة الحديد الثاني تحمل الكثير من التعقيد وتتألف بشكل أساسي من مجموعتين معماريتين متتاليتين طبقياً، فوق المجموعة الأولى وهي (الأحدث) تتوضح طبقة سميكة من التراب المسود بسماكاتٍ متفاوتةٍ والناتجة في أغلب الظن عن حريق كبير قضى على جدران وأرضيات هذه المجموعة. أما المجموعة الثانية (الأقدم) التي تتم دراستها بشكل منهجي مربوطة مع مجموعة من الكسر الفخارية التي تحمل في شكلها وزخارفها الكثير من خصائص المنتجات الفخارية لبدايات فترة الحديد الثانية، والدراسة النمطية لهذه المجموعة الفخارية سيكون لها أهمية كبيرة حيث يتوقع أن تسلط الضوء على طبيعة ودور منطقة حمص في النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد بين مواقع الشمال (حماة ـ تل أفس ـ تل قرقور ـ تل رفعت).

ومواقع الساحل السوري (تل الكزل ـ تل عربة ـ تل سوكاس ـ رأس ابن هانيء). وبنفس الحقل (ب) تم متابعة سبر الطبقات الأولى حيث ظهرت على أعماق بين (١,٧٠ م إلى ٢,١٥م) مجموعتان معماريتان طبقياً تقودان إلى فترة البرونز الوسيط الثاني دُرست المجموعة الأحداث بشكل دقيق ومُفصل وهي تتألف من جدران من اللبن محفوظة بشكل معقول ومربوطة مع أرضيات من التراب المدكوك والتي أنهار فوقها عدد كبير من الكسر الفخارية التي تحمل الكثير من الأشكال والزخارف المميزة للإنتاج الفخاري لمنطقة حمص وسهل عكار في النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد وبعد أو وصل التنقيب إلى هذه المرحلة في الحقل (ب) قامت البعثة الوطنية التي كلفتها وزارة الثقافة برئاسة

الدكتور ميشيل مقدسي بأعمال الرفع الهندسي والتوثيق العام وأخذ المناسيب ثم القيام بأعمال التصوير الفوتوغرافي إضافة إلى دراسة بعض المقاطع الهامة التي تظهر بشكل جيد التسلسل الطبقي للسويات المكتشفة على أن تتابع مواسم التنقيب المقبلة طبعاً هذا بالنسبة إلى الحقل (ب) أما الحقل (جـ) فقد تم التركيز على المربعات (E.VII/1.20 و E.VIII/l.1 و E.VIII/m.1 و /E.VIII n.1) وهذه المربعات واقعة عند القسم الغربي من الحقل حيث كُشف عن مجموعة معمارية مؤرخة في النصف الثاني من فترة الحديد الثاني تتألف من جدران من اللبن مربوطة مع أرضيات سكنية قاسية تتألف من الكلس المدكوك والممزوج مع الجص والتراب المصفر. هذه الجدران تؤلف فيما بينها مجموعة من الغرف المتصلة مع باحةٍ كبيرةٍ بينما المنتجات الفخارية فقد كانت كثيفة ومربوطة بشكل مباشر مع الأرضيات الأمر الذي يسهل دراستها بشكل منهجي. ولدى الكشف بنفس الموقع (جـ) في المربع (E.VIII.2,1) كشف في أعماق تصل إلى ٢,٧٠ م عن كتل من اللبن والتراب المدكوك قد تكون مؤرخة من البرونز الوسيط الثاني. كما كُشف بنفس المربع على أعماق تتراوح بين (٣,٨٠ و ٤ م) كشف عن سوية تتميز بأرضية قاسية من اللبن المدكوك المربوطة مع مجموعة من الأحجار المتوسطة الحجم والتي قد تؤلف فيما بينها جداراً من الحجم المتوسط.

وتعود المنتجات الفخارية ضمن هذه السوية إلى نهاية الألف الثالث قبل الميلاد (وتتميز بشكل أساسي من كوؤس سورية مزخرفة من النمط المعروف بـ (Reservedslip) والمؤرخة في تل مرديخ. وفي القسم الغربي من هذا الحقل تم الانتهاء من دراسة وكشف المجموعة المعمارية المؤرخة في النصف الثاني من فترة الحديد الثاني وقد بوشر بأعمال التصوير والرفع الهندسي.

الانتهاء من دراسة وكشف المجموعة المعمارية المؤرخة في النصف الثاني

أما مايخص الحقل (د) فقد تم متابعة التنقيب في المربعات (G.IX/F.14 و G.IX/F.13 و G.IX/F.12 و /G.IX e.15 و G.IX/e.13 و G.IX/F.15) حيث كشف عن سوية معمارية تعود إلى النصف الثاني من فترة الحديد الثاني تتألف بشكل أساسي من مجموعتين معماريتين منفصلتين. المجموعة الأولى ضمن المربعات الجنوبية، عثر فوق

مجموعات من العظام الإنسانية المخلوطة بشكل عشوائي مع عدد من الكسر الفخارية المؤرخة في فترة البرونز الوسيط الثاني،

أرضياتها على مجموعات فخارية هامة منها على سبيل المثال صحن له قاعدة طويلة من النمط المعروف (Redslip) بالإضافة إلى أجزاء من جرة تخزين من النمط السوري.

وبنفس الحقل (د) تم كشف سوية معمارية تعود إلى النصف الثاني من فترة الحديد الثاني وهذه السوية محفوظة بشكل سيء على أعماق قريبة جداً من سطح الموقع وفي المربع (G.IX/F.II).

اسفر السبر الطبقي وفي أعماق تتراوح بين ١,٤٠ و ١,٦٠ م عن فوهة بئر منحوتة بالصخر الطبيعي لها مسقط منتظم له شكل مربع. وبعد تفريغ هذا البئر ظهرت مجموعات من العظام الإنسانية المخلوطة بشكل عشوائي مع عدد من الكسر الفخارية المؤرخة في فترة البرونز الوسيط الثاني، هذه الكسر الفخارية تنتمي إلى أوان من الحجم الصغير والتي وجد مايشابهها في الكثير من المدافن التي كشف عنها في العديد من المواقع السورية مثل (قلعة حماة، رأس شمرة، تل سوكاس، تل عمريت) وبنفس الحقل وفي المربع (G.IX/F.II) ثم متابعة تفريغ الحقل (٧٠٢) الواقعة في النصف الغربي من المربع تم كشف تراكمات تجمعت بصورة عشوائية ضمن بقايا فخارية تعود إلى فترة البرونز الوسيط بالإضافة إلى عظام بشرية وحيوانية مختلفة ممزوجة مع كتل هشة بألوان مختلفة (بني مصفر، بني مسود، وأصغرها فاتح). وتوقف الكشف عن هذه البئر على عمق يصل ١٢,٩٠ م من سطح المربع لعدم وجود الإمكانيات الفعالة والسريعة لإخراج الأتربة وقد ظهر عند هذا المستوى مجموعات من الأحجار المختلفة الأحجام والمختلطة مع تراب بني هش.

وأخيراً نتمنى التوفيق للبعثة الوطنية الجديدة التي كلفتها المديرية العامة للآثار والمتاحف في متابعتها أعمال الحفر والتنقيب في هذا العام.

مراجع البحث:

١ - الحوليات الموجودة في مديرية الآثار بحمص.
٢ - الندوة الأثرية الأولى الصادرة عن الجمعية التاريخية السورية.
٣ - وثائق ماري وآلاخ.
٤ - تقرير موسم التنقيب الثالث في موقع المشرفة.

القباب تتوج سقوف المساجد

دراسة لمسجد خالد بن الوليد

في حمص ـ الشام

محمد فيصل شيخاني

أمين سر الجمعية التاريخية السورية
ومتحف الآثار الإسلامية في جامع خالد بن الوليد

أ ـ القباب في العمارة:
يعرف صاحب المنجد القبة (Dome) بانها بناء سقفه مستدير مقعر، وجمعه قباب وقبب، والقبة الزرقاء يكنى عنها بالسماء ويقال عن الخيمة القبة.

والقبة وثيقة الصلة بالسقف القوسي على شكل هلال وتوجد بعض السقوف المبنية بشكل أقواس في أبنية قديمة كما في بعض جوانب الأبنية الموجودة في رأس شمرة في الساحل السوري في حضارة أوغاريت وترجع إلى ١٤٠٠ سنة ق.م.

وتمتاز الأسقف المبنية على شكل قباب بأنها تريح الناظر إليها وتشعره بالرحابة والانطلاقة المتجهة نحو العلا ومشابهة السماء الزرقاء لها وهذا الشعور له مايبرره في دنيا المساحات، ففي حساب وتطبيق قوانين المساحة في الدائرة المستوية ونصف الكرة اللتين تشتركان بنفس قياس القطر الواحد نجد أن مساحة الكرة تشكل ضعف مساحة الدائرة المستوية، فإذا أضفنا مساحة الرقبة التي تستند إليها القبة الكروية أحياناً أدركنا ان المساحة ستزيد عندئذ عن الضعف في القبة عنها في المساحة المستوية.

وارتفاع قمة القبة عما جاورها يزيد في رحابة المساحة التي تعطيها القبة لناظريها وشعورهم بالرحابة والراحة والإطمئنان وقد أتيح لي أن أشاهد القبة الوسطى في

سبق المعماريون المسلمون المعماريين الآخرين في استعمال القباب في السقوف وزادوا في أطوال اقطارها

مسجد وجامع السليمانية في استانبول وشاهدت جموع السياح الألمان والإنكليز والفرنسيين ينظرون الدقائق الطوال إلى القبة الكبرى والقباب الأخرى وهم مشدوهون من عظمة هذا البناء السامق.

ومما لاشك فيه أن أبنية الكنائس قد سبقت ببناء هذا النوع من القباب ومما لاريب فيه أيضاً أن أولى المساجد في الإسلام كانت أسطحتها مستوية بسيطة وخاصة مابني منه زمن الرسول الكريم (ص).

كما لايغيب عن ذاكرتنا أن أول مسجد وجامع عظيم بني في بلاد الشام كان في دمشق زمن الأمويين قد بني جزء من سقفه بشكل سقف جملون هرمي galgele roof ولم يكن بشكل قبة.

ولكن الذي حدث فيما بعد أن سبق المعماريون المسلمون المعماريين الآخرين في استعمال القباب في السقوف وزادوا في أطوال اقطارها وبخاصة المعماري العثماني سنان باشا.

وكان هذا المعماري المبدع والبارع قد بني أول معمارية له في مجمع الخسرفية في مدينة حلب بقبة متسعة تغطي سطح الجامع بدون أعمدة وذلك في عام ١٥٣٦ .

وإنني افترض بأن عمالاً حلبيين عاونوا سنان باشا في العمل الريادي وهذا في رأيي لايعيب عمل هذا المعماري المبدع وبخاصة أنني شاهدت في بعض أنحاء حلب قباباً كاملة بنيت من الحجارة البيضاء المنحوتة وليس من الآجر الذي بنيت منه القباب الكبيرة الأخرى.

وقد وصف سنان باشا بأنه يخرج من الملاحظات والأفكار التي يلتقطها من هنا وهناك التقاليد المعمارية التركية(٤) وكان استاذاً كبيراً في بناء القباب وتنسيق المساحات فقد بلغت قبة جامع السليمانية ٢٦,٥ متراً في قطرها وفي الثمانين من عمره أبدع مسجد السليمية في أدرنة بقبقته ذات القطر ٣١,٥ متراً بأزيد من قطر كنيسة آيا صوفيا بعدما استحوذت فكرة لدى المعماريين الأوروبيين بأن لاأحد يجسر أن يزيد عن قطر آيا صوفيا.

وسواء أكانت الأقبية تشبه السراديب تحت الأرض Catacomb بدون دعامات أو بدعامات buttress فقد انتشر استعمالها في الأبنية الأوروبية والشرقية على السواء وقد انتشرت في

اسقف الأبنية المتنوعة في الشرق الإسلامي فغطت الأضرحة والحمامات العامة والمدارس والقصور والمساجد وصار يضاف إليها في قاعدتها رقبات تحتلها نوافذ تدخل الهواء والضوء لداخل الأبنية.

وفيما بعد صارت تقليداً تراثياً فلكلورياً تدخل في بناء البيمارستانات والمدارس والتكايا وقد وجد لها غرض مزدوج في الحمامات فهي تمد في ساحة الراحة بالإتساع ويمكن إضافة فناجين زجاجية للإضائة في النهار وفي مقاصير الإستحمام.

وعندما استعملت مادة الإسمنت في البناء في أوائل هذا القرن عادت أسقف الأبنية والمساجد إلى الإستواء ولم تستعمل مادة الإسمنت إلا فيما بعد عندما أدخلت التقنية والمهارة لدى المهندسين والمعماريين.

فصارت القباب تتوج رؤوس الأبنية من جديد وبخاصة في المساجد المحدثة.

ب ـ قباب مسجد وجامع خالد بن الوليد في حمص

مسجد وجامع خالد بن الوليد مَعلَمة تاريخية وأثرية ومعمارية متميزة، ولها من المكانة والشهرة مايتجاوز حدود حمص ليصل إلى كل قطر عربي أو إسلامي، ولايتجاوز الواقع إذا قلنا أنه يصل إلى أكثر من ذلك بكثير.

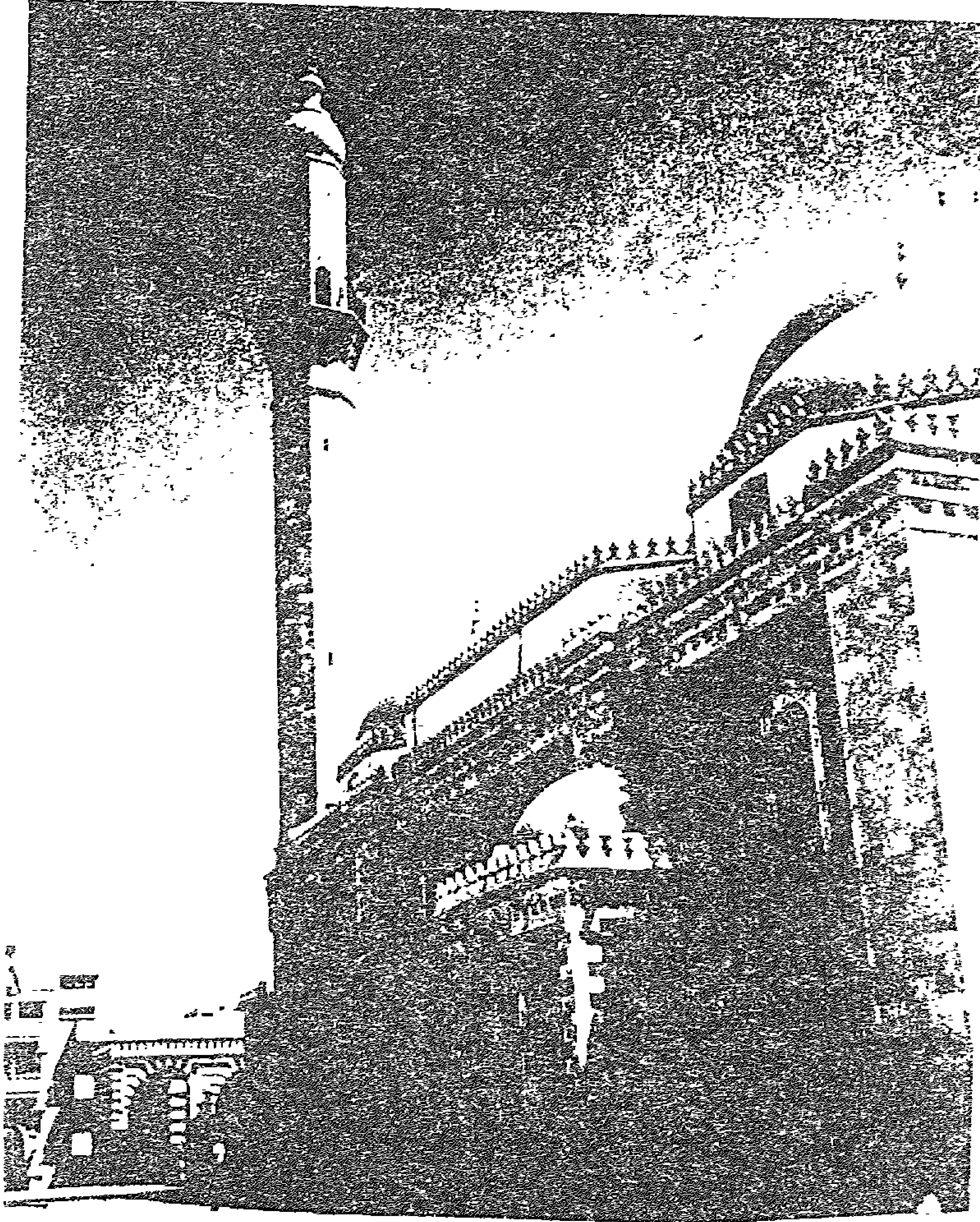
لاغرو في ذلك لأن ميزات شخصية الصحابي خالد بن الوليد قد عمت الأسماع في كل الأصقاع بما قام به من الفتوحات المذهلة وبما حباه الله من مهارة عسكرية لاتضارع في كل معاركه التي خاضها في الجزيرة العربية والعراق وبلاد الشام.

إن مساحة المناطق التي حررها ابن الوليد والتي تبلغ مليوناً وثمانمائة الف كيلو متر مربع لأمر بالغ الفخر لكل من يعشق البطولة والفداء والتضحية في كل زمان ومكان في دنيا القيادات العسكرية المتميزة بالاستراتيجية الواحدية والتكتيكات المعقدة في كل معركة على حدة.

مساحة المناطق التي حررها ابن الوليد والتي تبلغ مليوناً وثمانمائة الف كيلو متر مربع

لكل ذلك اكتسبت اعمال خالد بن الوليد الشهرة والمكانة اللائقة في نفوس القواد والعظماء وعامة الناس وصارت الصلاة في هذا المسجد تعبيراً عما يكنه الناس من تقدير ومحبة لهذا القائد خلال القرون.

لقد استمر التقدير لهذا القائد الفذ في نفوس العظام من القادة والزعماء أمثال



جانب من مسجد خالد وقد بدت مئذنته خالية من القاووق المخروطي الذي يميز المآذن العثمانية ويرى في الصورة وضوح ألوان الحجارة السوداء البركانية الواردة من منطقة الوعر في حمص
أخذت الصورة عام ١٩٩٦

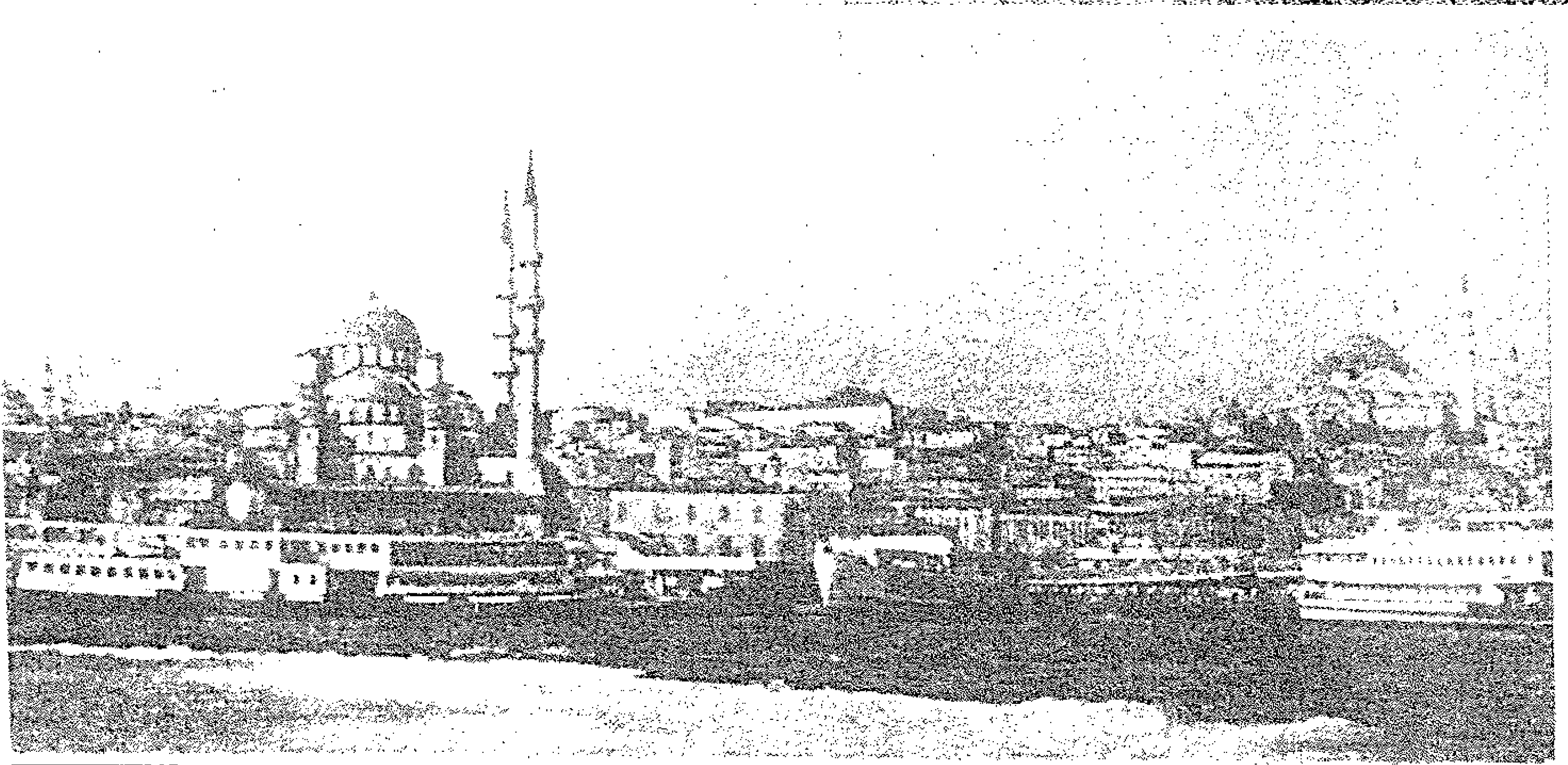
الظاهر بيبرس البندقداري الذي بنى أول مسجد فوق ضريح خالد بن الوليد ولم يصلنا شيء عن تصميم هذا المسجد ولكن يظهر أنه كان مبنياً على شكل مسجد بسيط مستطيل يشبه ماأقيم على ضريح عز الدين أبو حمرة خارج ريف حمص لأن المسجد المذكور كان في قرية الخالدية في ظاهر مدينة حمص وسقفه مستو وفي نهاية القرن التاسع عشر لم يعد المسجد بالشكل الملائم لمكانة هذا البطل ولأن قرية الخالدية التي يقع فيها المسجد صارت ضمن حدود المدينة بعد التوسع المعماري وقد اتجهت النية لتجديد هذا المسجد استطاع المسؤولون المحليون في حمص اقناع السلطة العثمانية الممثلة بشخص

السلطان عبد الحميد الثاني وقد امتد به العمر مبلغ ٧٧ عاماً بإعادة بناء المسجد بشكل جيد بعد هدم المسجد الأول.

أرسل السلطان المال والموافقة والمهندس المعماري التركي علاء الدين عبد الله أولصون وساهم المعماريون الحمصيون المهرة في تصميم المسجد وعمرانه واتخذ صفات معمارية متميزة بالخصوصية الحمصية بالمواد الموجودة وساهم ابناء حمص في جمع التبرعات وفي إتمام عمارة المسجد وصار أبناء كل حي يتبرعون بيوم عمل مجاني وبخاصة بعد انقطاع المدد السلطاني الحميدي بعد الإنقلاب الذي أطاح به، وقد بدىء بإشادة جامع خالد بن الوليد في بداية القرن العشرين وانتهى من اشادته عام ١٩١٢ وأما الرواق الشمالي فقد انتهى من عمارته عام ١٩٤٢ .

ومايهمنا من هذه الدراسة لهذه المعلمة الحضارية الإنسانية هو إخراج الفن المعماري لهذه الأنماط من البناء في هذه المعلمة وامتزاج الخبرة المحلية في الخبرة الوافدة، فأبعاد بيت الصلاة جاءت على النمط العثماني، والقباب جاءت على نفس النمط، لكنها صنعت وبنيت بأيدٍ حمصية عربية وإذا ألقينا نظرة متفحصة على المئذنتين المنارتين اللتين تنافسان لون السماء في ألقهما وبياضهما نرى فيهما لمحة من المعمارية المملوكية بكثرة أضلاع كل منهما وبما فيهما من

الفن المعماري لهذه الانماط من البناء في هذه المعلمة وامتزاج الخبرة المحلية في الخبرة الوافدة،



جامع السلطان أحمد بمناراته الست وجوامع أخرى كلها تنتهي بالقاووق المخروطي

مقرنصات بديعة وشيقة.

أما التراث المعماري الشعبي الحمصي فقد بدأ بإستعمال الحجارة التي يصفها المعماريون بالسوداء الزرقاء كناية عن صلابتها ومن وعر حمص والذي أعطى البناء الصلابة والقوة وبدا في بساطة الألوان الداخلية وخلو البناء من القيشاني والرخام فيما عدا المنبر والتكسية الجزئية للمحراب وماحوله.

وبدت العمارة الحمصية في الشبك الحديدي البسيط المجهز لدى الحدادين الحمصيين والذي ساد في فترات طويلة والذي يغطي المساحة الكلية للنوافذ بتناسق وجمال واستمرارية.

وما تم انجازه في هذه المعلمة هو تمازج الخبرة العثمانية للمهندس الإستانبولي مع الخبرة والتجربة الحمصية في تصنيع الفخار المشوي والقرميد الذي استعمل في إشادة القباب وأنصاف القباب في سقف الجامع.

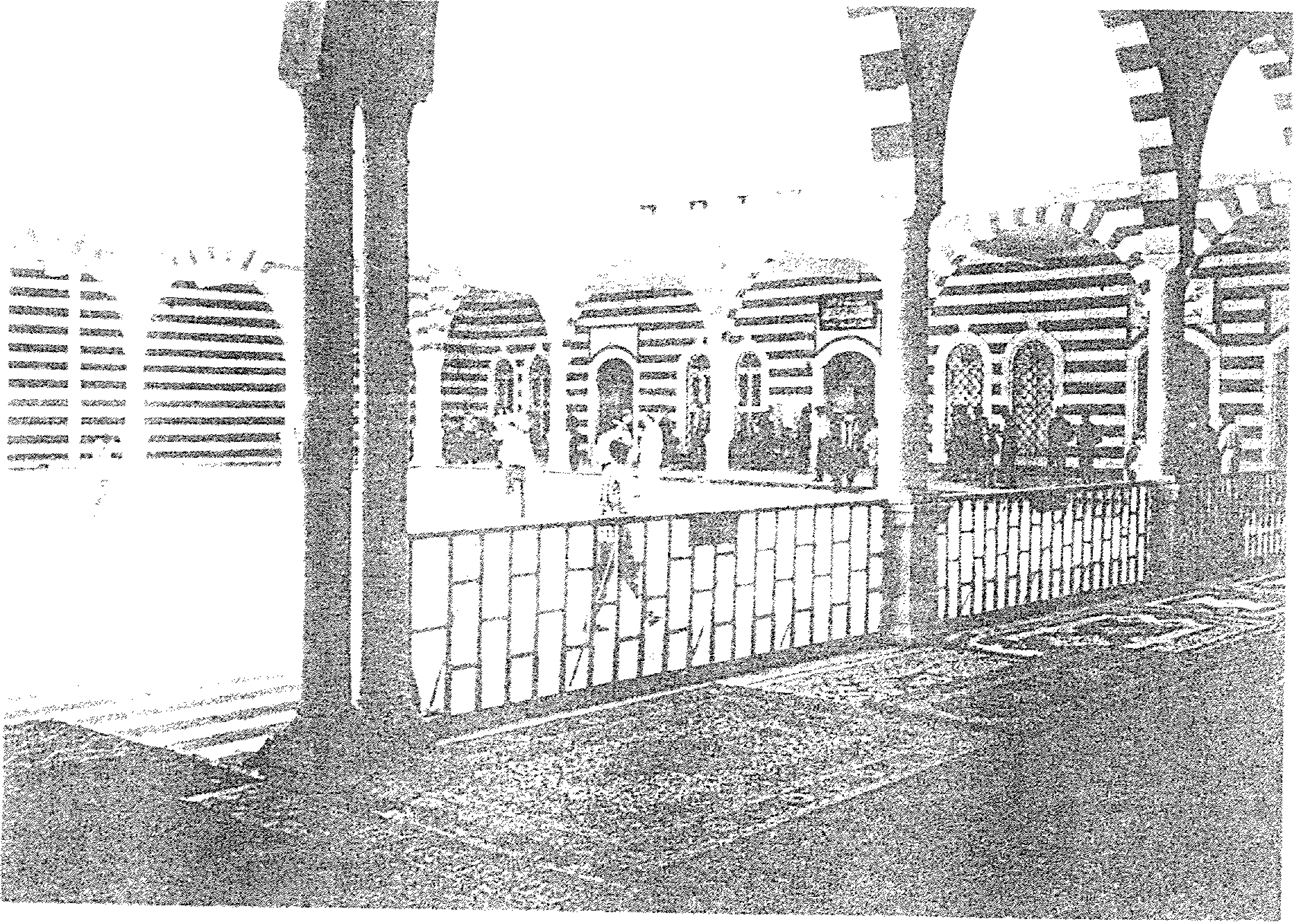
وقد حدثنا أحد أبناء آل الفاخوري الصانع البارع الذي صنع هذا القرميد ضمن التعليمات الخاصة بقياس اللبنات الفخارية من المهندس المسؤول وقام بإنشاء فرن قريب من منطقة الجامع لشي الفخار وقد بلغ عدد الفخاريات المستعملة حوالي /٥٥٠٠٠/ فخارية وقرميدية وقد كان ثمنها /٥٥٠٠/ ليرة ذهبية، ويتابع هذا الشاب الذي هو حفيد صانع الفخار بأن المهندس الإستانبولي قد قام بعمل قبة صغيرة تجريبية على أرض الجامع وعمرها بالكلس وتركها سبعة أيام ليتأكد من تشابكها وصلاحيتها، ثم أقدم بالفؤوس والمعاول والمطارق ضرباً بهذه القبة فلم تنفصل ولم تنكسر قرميداتها فتأكد له موافقة تربة حمص لهذا النوع من القرميد ومن ثم بدأ ببنيان القباب.

القبة ذات القطر الذي يبلغ /١٤/ متراً مؤلفة من أربعة صفوف من الفخار فوق بعضها

ولابد من الإشارة إلى أن القبة ذات القطر الذي يبلغ /١٤/ متراً مؤلفة من أربعة صفوف من الفخار فوق بعضها أما القباب الأربع الصغيرة فمشكلة من ثلاث طبقات وكذلك أنصاف القباب.

ويهمنا أن نذكر أن أبعاد هذا المسجد تكاد أن تقربه ليشكل مكعباً فأبعاده ٣٠ x ٣١ متراً وارتفاع القبة الكبرى عن الأرض ٣١ متراً ايضاً.

وتحمل القبة الكبرة والقباب وأنصاف القباب أربع دعامات سلمية متدرجة بدت بهذا التدرج رشيقة لطيفة وقد دخلت هذه المعلمة وصاحبها في عمق أفكار الجماهير ووجدانها وتراثها



باحة مسجد خالد وقد احتل الرواق الشرقي معه متحف الآثار الإسلامية والمعهد العلمي ١٩٩٦

الموروث فلا نجد أحداً في هذه المدينة إلا ويذكر أن أباه أو جده عمل فيه، فخالد بن الوليد رمز البطولة والفداء والشجاعة، وعندما يهرع الزوار والسياح للتفرج على هذا المكان الذي يضم مسجده وضريحه فإنما يبرهنون على حبهم للمثل العليا وللفداء والشجاعة التي تحلى بها هذا القائد الفذ.

ونضيف إلى ميزات هذه المعلمة ارتباطها بالتراث الفلكلوري الذي كانت تنطلق منه أعلام النصر (السيارات) أو (السناجق) في احتفال تراثي هو الوحيد في العالم العربي الإسلامي (هو خميس المشايخ) كان يقام في ربيع كل عام وكانت الجماهير تهرع إليه من المدن اللبنانية والسورية والأردنية قبل أن يلغى الاحتفال به منذ عام ١٩٥٤ ولايزال العلم الخاص بجامع

خالد بن الوليد موجوداً في متحف الآثار الإسلامية الكائن في الرواق الشرقي للجامع.

وتتلى في رحاب هذا المسجد في كل عام قصة المولد النبوي الشريف بتجمعات جماهيرية كبيرة وبإحتفال رسمي برعاية محافظ حمص وكبار رجالات المدينة ولهذا لانستطيع إلا ان نردد مع باني المنبر الخشبي القديم هذه الأبيات اللطيفة المحفورة على هذا المنبر:

لخالد بقعة للخير جامعه
فلا يضام ولايرتاع جامعها
شاد السباعي اسماعيل منبرها
وافته من نعمة الباري عواطفها
حوى زخاريف نوع في صناعته
حيث أشرقت تاريخ ظرايفها

جـ ـ اسلوب معمارية جامع خالد بن الوليد

مما لاشك فيه أن المصلى في جامع خالد تشبه أنماط العمارة العثمانية قاعة مربعة مسقوفة بقبة لها رقبة ويتقدم المصلى رواق مسقوف بالقباب لكن بناء هذا المسجد اختلف برواقه غير المقبب مثل جامع الخسرفية بحلب ذي القبة الواحدة، ولكن اختلافات بينه فرقته عن اسلوب هذه العمارة: فمآذن المساجد العثمانية تنتهي بقلنسوة مخروطية مكسوة بالرصاص وتعتني الكسوة الداخلية ببلاط من القشياني تكسو الجدران، كما نجد أن الكسوة الخارجية مصنوعة من الرخام وجزئياً من القيشاني أحياناً وإذا القينا نظرة متفحصة على مسجد السليمانية وعلى كنيسة أيا صوفيا وعلى مسجد أبي ايوب الانصاري ومحمد الفاتح في استنبول وعلى مسجد محمد علي في القلعة في مصر وحتى في مسجد الخسرفية في حلب.

كسوته الداخلية تتألف من لون أبيض وحيد

نجد أن الفخامة والتزيين بالغة الحد الأقصى في الخطوط والإضافات والأبراج والقبيبات والشرافات والزخاف الخارجية المعقدة مما لانجده في جامع خالد حيث تتألف كسوته الداخلية من لون أبيض وحيد فيما عدا المحراب المزين بالنقوش والألوان.

زيادة في التوضيح نجد منبر جامع الخسرفية العثماني يكاد يصل إرتفاعه إلى السقف بينما منبر خالد الرخامي بدا بإرتفاع معتدل بالنسبة لبقية المساجد ذات الاسلوب المعماري العثماني البحت.

وحتى عندما دخل الاسلوب

الامبراطوري على العمارة العثمانية التي سبقت بناء جامع خالد نجد الاختلاف بيناً بين مساجد هذا العهد مثل مسجد اوطاكوي على البوسفور ومسجد خالد الذي خلا من أي نوع من انماط العمارة الامبراطورية التي استمدت بعض اساليبها من العمارة الامبراطورية الأوروبية.

لذلك يمكننا القول أن مسجد خالد بن الوليد الذي شابه جزئياً بعض المساجد العثمانية لكنه في مواد بنائه من الحجر الأسود البركاني الوارد من وعر حمص ومن قلة التعقيدات فيه وفقدان البلاطات القيشانية والكسوة الخارجية الرخامية ومن ندرة النقوش الكورنيشية وعدم وجود نمط الاكساء والأبلق في داخله وعدم وجود الزنانير بالآيات القرآنية وبمآذنه التي خلت من القاووق المخروطي الرصاصي ومن جزئيات غنية عديدة تقول انه بناء قائم بذاته عبر عن تأثيرات محلية ولكنه بدا ببساطته ورشاقته بناءً قوياً معبراً عن شخصية صاحب القبر البطل خالد بن الوليد الموجود فيه.

* ظهر الاسلوب الامبراطوري في أوروبا في عهد الامبراطوريات الأوروبية بعد عصر الركوكو وانتقل إلى السلطنة العثمانية.

د ـ لمحات من حياة خالد بن الوليد

خالد بن الوليد بن المغيرة بن مخزوم ولد سنة ٥٨٥ م وأسلم في السنة الثامنة للهجرة وكان عمره يزيد على الأربعين عاماً، واتصف منذ صغره بالفروسية والمبارزات مع أقرانه كما اتصف بالكرم والشجاعة والأقدام والحزم.

فاز في كل معركة خاضها خلال عشرة اعوام في الجزيرة العربية والعراق والشام حارب وانتصر ضد جيوش امبراطوريتين عالميتين وعفّر انفيهما في الرمال كما انتصر في معارك ضد المسلمين في البدء ثم صار أكبر قادتهم وحارب وثنيي قريش ثم المرتدين ثم القبائل العربية المحالفة للفرس أو البيزنطيين.

فاز في كل معركة خاضها خلال عشرة اعوام في الجزيرة العربية والعراق والشام

كانت له استراتيجية حربية تتمثل بسرعة الهجوم على اعدائه فلا يترك لهم فرصة للم شملهم كما كان يجعل خطوط تموينية من ورائه دوماً.

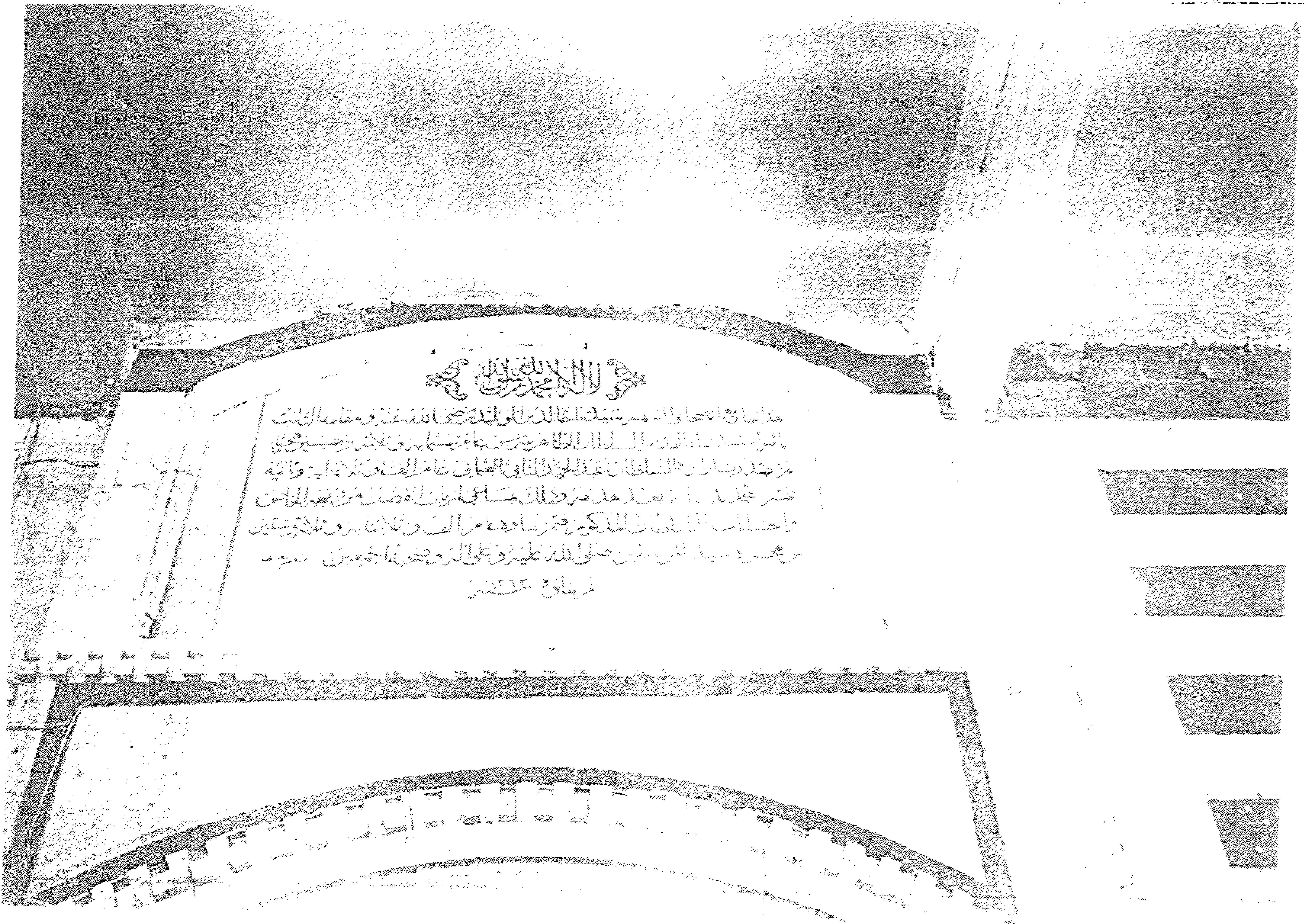
أما تكتيكاته فهي متنوعة حسب موقع المعركة وزمنها فطوراً يستعمل القتال الليلي وأخرى يستعين بالنبالة وثالثة بالإحاطة بعدوه ورابعة بالتقسيم

الخماسي لجنده كما في معركة اليرموك.

وهو على العموم قدوة لجنده وضباطه بقيادة المعركة امامهم يتلفح بالإيمان وحب الاستشهاد والجلد والصبر بتعاون تام وانضباط كامل وديموقراطية عفوية.

تحدث عن خالد بن الوليد وكتب عنه وحاضر الكثيرون وقد وجدت من المناسب أن أذكر بعضاً الملامح والصفات الإنسانية فيه ومنها:

ـ تأكيده على قوميته العربية في مجادلته



الكتابة التأسيسية المنقوشة فوق المدخل الرئيسي للجامع

إنه يمثل عبقرية عسكرية عالمية عربية قل أن يجود الزمان بمثلها ولكنه قبل هذا يمثل إنساناً اجتماعياً وشخصيته قوية جذابة وإدارياً مهيباً.

مع بعض العرب من حلفاء الفرس قوله: إذا كنتم من الفرس فلماذا لم تدخلوا في عدالتنا؟ وإذا كنتم عربا فلم لاتحالفوننا؟! وهذه العبارة وماشابهها قالها خالد لعمرو

بن عبد المسيح ولصلوبا.

- ومما لاشك أنه يعد من الخطباء المفوهين وإلا لما استطاع أن يقود هذه الجيوش الجرارة كما يعد من المحبين للمداعبات اللفظية التي تسحر مستمعيه من جنوده وضباطه فعندما دخل العرب المتصالحة معه في الصلح طلب انتقاء رسولين منهم لاعلام جيشين فارسين بالدعوة إلى الأسلام أو الجزية أو الحرب فقال لرسول صلوبا: ماأسمك؟ قال هزقيل! فقال امام الجمع (خذ الكتاب وقل اللهم أزهق نفوسهم) وقال للرسول الثاني: ماأسمك؟ قال: مرة! قال: (خذ الكتاب فآت به أهل فارس، لعل الله يمر عليهم عيشهم، أو يسلموا).

- ترد على لسان خالد بن الوليد كلمات حكيمة في الطبري وغيره تدل على قوة بيانه حتى أن بعض ذهبت ضمن نسائم الأمثال، كقوله: (قتلت أرض جاهلها، وقتل أرضاً عالمها) وله مثل قوي آخر: (أردت أمراً واراد الله غيره) في حادثة كرامة ام شويل ويكفي خالد فخراً قول بعض أدباء العصر الحديث فيه (إنه رجل الطاعة والنظام) ويكفيه فخراً عند وفاته في حمص عام ٢١ هـ قوله: لانامت أعين الجبناء!

هـ ـ البرهان على وجود ضريح خالد في حمص

وفي الجهة الشمالية الغربية من جامع خالد بن الوليد يقوم ضريح خالد بن الوليد وبجانبه ضريح ولده عبد الرحمن بن خالد الذي بقي والياً على حمص مابين ٢٦ ـ ٤٦ هـ وقد جاء ذكر وفاة خالد في حمص من الواقدي والطبري في أحداث عام (٢١) للهجرة مايلي (في هذه السنة مات خالد بن الوليد في حمص، وأوصى إلى عمر بن الخطاب، شكك بوجود ضريح خالد في حمص ياقوت الحموي الذي اضاف إلى أن هذا الذي يزار هو خالد بن يزيد!! ولكن الموافقين عن وجود ضريح خالد في حمص يوردون مايلي:

١ . إن ياقوت يناقض نفسه بنفسه عندما يقول أن قبر عياض بن غنم بجانب قبر خالد في حمص في جانب آخر من أقواله عن حمص.

٢ ـ إن هناك فرقاً في المدة يصل إلى ٧٠ عاماً مابين وفاة الرجلين فخالد بن الوليد توفي عام ٢١ هـ بينما توفي خالد بن يزيد على رأي ابن خلقان سنة ٨٥ هـ وعلى رأي ابن عساكر في ٩٠ هـ.

٣ ـ وقد ذكر المصدر أن وفاة خالد بن يزيد في دمشق وليس في حمص كما قال

ياقوت الحموي هذا الذي يزار في حمص هو خالد بن يزيد

ياقوت الحموي.

٤ - ليس من المعقول أن تنقل رفاة خالد بن يزيد إلى حمص لتدفن بجانب رفاة عبد الرحمن خالد.

٥ - تذكر كثير من الوثائق أن خالد اشترى قرية في حمص.

٦ - ماكان الظاهر بيبرس ليبني مسجد خالد لو لم يتأكد ورجاله من وجود ضريح خالد فيه عام ٦٦٤ هـ ونفس الأمر في القرن التاسع الهجري ماكان تيمورلنك ليقول قوله (تركت حمص لخالد) لو لم يكن هناك تأكيد لوجوده.

٧ - ونفس الأمر ذكره من شاهد عمارة جامع خالد عام ١٩٠٠ م من أنهم شاهدوا حجارة تدل على وجود الضريح.

٨ - ليس من المعقول ان يعود خالد بن الوليد إلى المدينة بعدما ساءت العلاقة بينه وبين عمر بن الخطاب.

٩ - لم يقل أحد من محققي المدينة المنورة أن خالد بن الوليد قد دفن فيها.

١٠ - ذكر البعض أن هناك ذكر لخالد المخزومي في أخبار المدينة ونحن نعتقد أن يخص ذكر خالد بن عبد الرحمن بن خالد الذي انتقم لقاتل والده في حمص وعاد إلى بيته.

ملاحظة: اضيف إلى ذلك مااطلعت عليه جاء في كتاب صحاح الأخبار في نسب السادة الفاطمية الأخيار لمؤلفه السيد الشريف عبد الله محمد سراج الدين وينفي فيه انتهاء عقب خالد بن الوليد وانهم موجودون في الشام ونجد والكتاب مطبوع عام ١٣٠٤ في مصر.

صورة

من الفكر الإداري والسياسي في عهد الخليفة المأمون

(الاستاذ نبيل صافي)

لاشك ان إحياء التراث يعني إضافة إلى نشره وإخراجه إلى حيز التناول، واجب القيام بقراءته، وبالتالي استخلاص المعرفة الكاملة بمكنوناته، هذه التي تكفي لرسم صورة عنه مع تفهم خلفيته.

وفي الثلاثينيات من هذا القرن عمل «أحمد زكي صفوت» من مصر على نشر شيء من هذا التراث، فقد قام بتحقيق وضبط ماأصطلح على تسميته: «جمهرة رسائل العرب» واحتوى المنشور على جملة من الرسائل بين الطويلة التي تجاوزت العشرات من الصفحات، والأخرى التي لم تتجاوز الكلمات، وبالتالي تراوحت بين الغث والسمين في مادتها.

من المؤكد أن الرسائل تعكس حالة حضارية معينة إن لجهة الشكل والاسلوب اللغوي والفني التي صيغت بها مما يهتم به مؤرخ الأدب عادة، أو لجهة المضمون الفكري أو السياسي، أو الإداري الذي تحمله مما يهتم به المؤرخ وستحاول الدراسة هنا الإطلالة على واحدة من هذه الرسائل الآتية إلينا من عصر الخليفة المأمون ١٩٨ - ٢١٨ هـ وعلى لسان رجل هام من رجاله، هو طاهر بن الحسين ت ٢٠٧ هـ ووجهها إلى ولده عبد الله عندما ولاه الخليفة الرقة والجزيرة عام ٢٠٦ هـ. ونقل صاحب الجمهرة نصها من مصادر عدة هي:

تاريخ الطبري، والكامل لابن الأثير، ومقدمة ابن خلدون، مختصر أخبار الخلفاء لابن الساعي، وتاريخ بغداد لابن طيفور.

لاشك أن المكان الأقدم لوجود النص هو كتاب الطبري الموف إليه، والطبري هو

فكراً سياسياً وخبرة إدارية، مؤطرة بخلفية دينية واضحة.

شيخ المؤرخين العرب توفي عام ٣١٠ هـ، ويعتبر رائد مدرسة التاريخ بالرواية تلك التي تعتمد التاريخ بالمنقول، وتحرص على النص بشقيه السند والمتن مع الحرص على عرض روايات متعددة للخبر الواحد مع بقاء الناقل خارج الرواية: «فنحن نؤدي على نحو ماأُدِيِّ إلينا»، ولقد أورد الطبري أخباره دائماً متتبعاً في الوقت نفسه المنهج الحولي في العرض، كذلك إستعان في عرضه في أغلب الأحيان بالوثائق أو الرسائل، أو الشعر لتأييد عرضه، لعل هذه إحداها، أشار إليها عند تقديمها بقوله: «كان طاهر بن الحسين، قد كتب إلى ولده عبد الله حينما وُلّي ديار ربيعة كتاباً نسخته» دون أن يشير إلى كيفية حصوله عليه.

وطاهر بن الحسين هو ابن قائد المأمون الذي دخل بغداد على رأس الجيش الذي وجهه الثاني لقتال أخيه الأمين بعد أن قام الأخير بخلعه، وتمكن هذا القائد من الخليفة وقتله وأخذ البيعة للمأمون، فولاه المأمون شرطة بغداد، ومالبث أن ولاه خرسان سنة ٢٠٥ هـ أما ابنه عبد الله فقد ولاه المأمون الرقة وديار ربيعة لحرب نصر بن شعث ومُضر سنة ٢٠٦ هـ كما تولى اعمالاً كثيرة للدولة منها ولاية الاسكندرية حيث قضى على من تغلب عليها من أهل الأندلس سنة ٢١٠ هـ.

ومن هنا تأتي اهمية الوصية فهي تأتي من قمة السلطة في الفترة الأزهى من العصر العباسي، وبالتالي تعكس فكراً سياسياً معيناً من جهة، وخبرة إدارية مؤكدة من جهة ثانية، مؤطرة ذلك كله بخلفية دينية واضحة.

إن الملامح العامة للوثيقة الوصية تندرج في ثلاث أطر هي:

١ - الإطار الأخلاقي الديني.

٢ - الإطار الإداري.

٣ - الإطار الذرائعي.

١ - الإطار الأخلاقي الديني:

بدء أبن طاهر وصيته بتذكير إبنه بتقوى الله والخوف منه ومراقبته، مع التذكير بالمعاد الأخير: «والعمل في ذلك بما يعصمك الله، وينجيك يوم القيامة من عذابه، وأليم عقابه».

كما خصه في الإطار ذاته على المواظبة على الصلوات الخمس، والجماعة عليها بالناس قبلها في مواقيتها وعلى سننها وفي أسباغ الوضوء لها، وافتتاح ذكر الله فيها، والترتيل في قراءتها،والتمكن من ركوعها،

وسجودها، وتشهدها، «ولنصدق فيها لربك نيتك، واحضض عليها جماعة من معك ومن تحت يديك». وكذلك اقتفاء آثار السلف الصالح، واستخارة الله وتقواه، ولزوم ماأنزال الله في كتابه من أمره ونهيه، وحلاله وحرامه، واتمام ماجاءت الآثار به عن النبي صلى الله عليه وسلم.

كما حذره من الحِدّة و الطيش والغرور، والقول أنه مسلط يفعل مايشاء، ويذكره بانه: «الملك لله يعطيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء».

٢ ـ أما الإطار الثاني الذي تندرج ضمنه الوصايا فهو الإطار الإداري وبيان الأساليب التي يجب اتباعها للوصول بالعمل إلى مراتب الكمال من حيث الغاية والوسيلة.

فهو يوصيه بإحسان اختيار عماله، بأن يكون من ذوي الرأي والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل والعلم بالسياسة، والشهرة بالعفاف، لكنه لايقتنع بحسن الاختيار وحده قاعدة لضمان حسن سلوك العمال والولاة، وأما يطلب من ولده أن يتابع عمله بالمساءلة، والبحث عن الأمور ومباشرتها بنفسه إحتياطاً للرعية، والطريق إلى ذلك برأيه بيّن وسهل وهو أن يختار في طل كورة من عمله أميناً يخبره أخبار عماله، ويكتب بسيرتهم وأعمالهم، على أن لذلك مزالقه ومخاطره التي يدعوه إلى اجتنابها، بالإبتعاد عن سوء الظن: «لاتتهم أحداً ممن توليه»، واقبل الحسنة وادفع بها. وابتعد عن الكذب والزور والنميمة، ولاتقرب أهل الكذب، وجانب الشبهه والبدع. وأحب اهل الصدق والصلاح....

ولعل ميزان الأمر كله لديه، هو الاقتصاد في كل شيء والبعد عن التطرف لكن دون أن يعني ذلك الشح أو البخل، بل يدعوه إلى: «إبعاد أهل الذمة والبخل، واجتناب الشح وأهله»

ويبقى للقضاء دوره الأهم برأيه، فيوصي بالعناية به، وبإقامة العدل، وتبعاً لذلك يؤكد على ضرورة اقامة الحدود في الجرائم، والابتعاد عن الشبهه، والبدعة، مع التفرد بتقويم النفس تفرد من يعلم أن مسؤول عما صنع».

«الملك لله يعطيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء»

٣ ـ تشغل الذرائعية الحيز الأكبر من وصية طاهر، ولعلنا نلمع بشكل مؤكد الفهم الواضح لديه لعنصريها، الغاية، والواسطة.

فالغايات لديه دينية إلهية، أو دنيوية

أرضية تهدف إلى تحقيق مرضاة الخليفة من جهة أو اكتساب محبة الرعية من جهة ثانية.

فإرضاء الله سبحانه وتعالى غاية مثلى يحض ابنه عليها: «فإن الله قد أحسن إليك، وأوجب عليك الرأفة بمن استرعاك امرهم من عباده، وألزمك العدل عليهم، والقيام بحقه وحدوده فيهم، والذود عنهم، والدفع عن مرميهم والحقق لدمائهم، والأمن لسبيلهم، وإدخال الراحة عليهم في معايشهم، ومؤاخذك بما فرض عليك، وموقفك عليه، ومسائلك عنه، ومثيبك عليه بما قدمت وأخرت».

وأضاف: «ولاتقصر في طلب الآخرة، والأجر والأعمال الصالحة، والسنن المعروفة فلا غاية للاستكثار من البر والسعي له، إذا كان يطلب به وجه الله، ومرضاته، وكذلك قوله: «ثم اعتصم في أحوالك كلها بأمر الله، والوقوف عند محبته، والعمل بشريعته وسنته».

كما كانت الذريعة الدنيوية المتعلقة بإرضاء الخليفة والحرص على الولاء له والوفاء لأمره واضحة كل الوضوح في سياق الوصية حيث يقول: «ولاتقبل من أحد منهم إلا الوفاء، والاستقامة والعوق في امور امير المؤمنين، ولاتضعن المعروف إلا على ذلك».

لاتقبل من أحد منهم إلا الوفاء، والاستقامة والعوق في أمور أمير المؤمنين، ولاتضعن المعروف إلا على ذلك

لكنه في نفس الوقت أكد ضرورة كسب رضا الشعب والرعية مرات عديدة: «والمعرفة بما يتقرب به إلى الله، فإنه الدليل على الخير كله، مع مافي ظهوره للناس من التوقيرلأمرك، والهيبة لسلطانك، والأنسة بك، والثقة بعدلك».

على أنه الأخطر من الغاية التي أكد عليها ابن الحسين هي الوسائل التي يرى أنه من المناسب اتباعها، للوصول إلى تلك الغاية المنوه عنها. مكمن الخطورة هنا أنه يجعل جميع المتاح مباحاً لتحقيق الأمر، فتصرفات الوالي الشخصية والعامة، وكذلك مؤسسات الدولة، وأموالها كلها مساقة نحو تلك الأهداف.

فتصرفات الوالي التي يجب أن تكون محسوبة، وموظفة لإرضاء الله سبحانه فعليه: «تقوى الله، والرأفة بمن استرعاك، والزمك العدل عليهم، ولزوم ماأنزل الله في كتابه من أمره ونهيه، وحلاله، وحرامه».

كذلك فإنها ستحسب له عند العامة، فعليه: «المواظبة على الصلوات الخمس

واقتفاء آثار السلف الصالح، واستخارة الله، واتباع آثار النبي، والاقتصاد في الأمور وعدم إتهام الناس قبل أن تكشف الأمور، واعتبار المتهم بريء حتى يدان، وتحسين الظن بالأصحاب، ومحبة أهل الصدق، والصلاح، مع إعزاز الإشراف بالحق ووصل الضعفاء.. كذلك أوصاه: «لاتمل عن العدل فيما أحببت أو كرهت، لقريب من الناس أو بعيد، وآثر الفقه وأهله، والدين وحملته، وكتاب الله والعاملين به...».

أما مؤسسات الدولة المتوفرة والمباحة لخدمة الغايات فعديدة لديه منها مؤسسة بيت المال، تلك التي عرفت في فترة ما باسم بيت مال المسلمين، والمال فيها مالهم، لايلبث وفقاً لهذه الوصية أن يصبح وسيلة مباحة لكسب رضا العامة منها الحث على الانفاق في اوجه مختلفة ليحصل على ذلك الرضا، فمن هذه الأوجه الانفاق على الرعية، وعلى الجند.

فالإنفاق على الرعية متنوع منه، عمارة البلاد، والتفقد لأمور العباد، وإغاثة الملهوف.. (ولتكن ذخائرك وكنوزك، البر والتقوى والعدالة، واستصلاح الرعية، وعمارة بلادهم، والتفقد لأمورهم والحفظ لدهمائهم، والاغاثة لملهوفهم، وأعلم أن الأموال إذ كثرت، وذخرت في الخزائن لاتثمر، وإذا كانت في إصلاح الرعية، واعطاء حقوقهم وكف المؤونة عنهم غث، وربت، وصلحت به العامة، وتزينت الولاة وطاب به الزمان».

الانفاق يكون مانعاً للثورة ومبرراً لجمع الخراج

ولعل هذا الانفاق برأيه يكون مانعاً للثورة ومبرراً لجمع الخراج إذ يشير بوضوح إلى هذه القضية الذرائعية. وكنت بذلك على جباية خراجك وجمع أموال رعيتك، وعملك أقدر ولتعظم حسبتك فيه فإنما يبقى من المال ماأنفق في سبيل حقه.

ولتأكيد ذرائعية الاستخدام لهذا الأمر الهام فقد أوضح له ميزاناً استثنائياً يستند إليه في تنفيذ ذلك إذ يقول: «واعرف للشاكرين شكرهم وأبثهم عليه..».

لاشك أن كسب مرضاة الجند كانت هي الأخرى الوسيلة المباحة الثانية التي يوصي بها طاهر إبنه بالحرص عليها سواء بتفقد أحوالهم، أو ايصالهم إلى اعطياتهم «تفقد أمور الجند في دواوينهم، ومكاتبهم، وأدر عليهم أرزاقهم، ووسع عليهم في معايشهم ليذهب الله فاقتهم، ويقوم لك امرهم،

ويزيد به قلوبهم في طاعتك وأمرك خلوصاً، وإنشراحاً. وحسب ذي سلطان من السعادة أن يكون على ضده ورعيته رحمة في عدله، وحيطته وانصافه وعنايته وشفقته وبره وتوسعته.. .

إضافة إلى ذلك فإن اقامة القضاء هي احدى تلك الوسائل المتاحة للحصول على رضا الله من جهة، ورضا العامة أيضاً.. يقول: «واعلم أن القضاء من الله بالمكان الذي ليس به شيء من الأمور لأنه ميزان الله الذي تعتدل عليه» أحوال الأرض، وبإقامة العدل تصلح الرعية، وتأمن السبل، وينتصف المظلوم ويأخذ الناس حقوقهم، وتحسن المعيشة، ويؤدي حق الطاعة، ويرزق الله العافية والسلامة.أحمل الناس كلهم على الحق فإن ذلط أجمع لالغتهم وألزم لرضا العامة».

القضاء هي احدى تلك الوسائل المتاحة للحصول على رضا الله من جهة، ورضا العامة ايضاً.

وإذا كانت الدراسة قد قامت حتى الآن بإبراز الأطر التي قدمت الوصية نصائحها من خلالها، فإن تلك الوثيقة عملت أيضاً في ثناياها مفاهيم محددة بدأت في النضوج في هذه المرحلة من تاريخ المجتمع العربي الأسلامي توضح مدى تطور الفكر السياسي والإداري وتبلوه بالتأكيد، من استعراض لواجبات الحاكم وبالتالي حقوق الرعية لديه، إضافة إلى ابراز آلية الشورى وإتخاذ القرار لدى ذوي السلطة، كما تبدي تصور أولئك للخراج وغرضه في المجتمع العربي الإسلامي، وكذلك مرجعية الحكم والملك في هذا المجتمع.

لعل أوضح ماأبرزته الوثيقة كانت تعداد واجبات الحاكم تجاه الرعية وحقوق هذه عند الحاكم وهي:

١ ـ العدل فيهم ـ بينهم.
٢ ـ القيام لحقه، وحدوده، واتمام حدود الله في أهل الجرائم.
٣ ـ الذّب عن الرعية، والدفع عن حريمهم.
٤ ـ الحقن لدمائهم.
٥ ـ ادخال الراحة عليهم في معايشهم.
٦ ـ استعمال ذوي الرأي، والتجربة والخبرة بالعمل والعلم بالسياسة والعفاف.
٨ ـ النوسع على الرعية بالرزق.
٩ ـ مصادقة أحرار الناس.
١٠ ـ اعطاء أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة.
١١ ـ النظر في امور الفقراء والمساكين.
١٢ ـ تعهد البؤساء واليتامى، والأرامل بارزاق من بيت المال.

١٣ ـ إعطاء المال لحملة القرآن والحافظين لأكثره.

١٤ ـ انشاء دور للمرضى المسلمين وإقامة أطباء يعالجون أسقامهم.

١٥ ـ تسهيل دخول الناس عليه.

١٦ ـ محاسبة العمال على ماجمعوه من الأموال.

١٧ ـ جماع القول أن: «الحاكم خازن وحافظ وراع، وإنما سمي أهل عملك رعيتك لأنك راعيهم،وقيمهم، تأخذ منهم ماأعطوك من عفوهم ومقدرتهم، وتنفقه في قوام أمرهم، وصلاحهم، وتقويم أودهم».

كما حددت الوصية آلية لاتخاذ القرار تقتصي مشاورة الفقهاء، وأهل التجارب وذوي العقل، والرأي، والحكمة، والابتعاد عن أهل الدقة والبخل في هذا الأمر وهذه الآلية استنسابية كما يمكن الملاحظة تتوائم وطبيعة العلاقة بين عبد الله ومن هم حوله ومزاجية تلك العلاقة وحرارتها.

كذلك بلور النص مفهوماً يختلف كلياً عن «الخراج» وطبيعته الذي بداء اصلاً كتعويض تحصل عليه الدولة لقاء ترك الأراضي المفتوحة بيد أصحابها في إطار العمل على استمرارية الحياة الزراعية فيها وصيانة للمصلحة العامة، التي عرفت باسم المصالح المرسلة فقها، وقد نسب إلى الخليفة عمر بن الخطاب البدء بالعمل في هذا النظام، لكننا هنا نرى تجلي الفكر البيروقراطي المحض المجسد للتسلط البيعد عن فهم روج الاسلام بقول: طاهر بن الحسين في وصيته: «انظر إلى هذا الخراج الذي هو للإسلام عزاً ورفعة، ولأهله سعة ومنعة، ولعدوه وعدوهم كبتاً وغيظاً، ولأهل الكفر ذلاً وصغاراً..» الأمر الذي يعني ابراز التعالي وتأكيد التمايز البعيد كل البعد عن روح التعاقد الاجتماعي بين الدولة، وبعض مواطنيها، تجاوزت خلاله الدولة تلك اللحظة التي أفرزت غالباً ومغلوباً.

وليس هذا التغير وحده هو البارز بل مصير هذا الحال العام وكيفية استعماله من قبل رجال الدولة، هذا الأمر ظهر هنا دون أية قيود سوى مايوائم مصلحة السلطة ولرجالها وهكذا انتهى وبموجب هذا النص وبصورة عملية واقعية تلك النصوص المقدسة التي توضح آلية صرف هذه الأموال.

كذلك تعرضت الوثيقة لمرجعية الحكم العليا، وأكدت الصفة الآلهية له فالملك

الحاكم خازن وحافظ وراع، وانما سمي اهل عملك رعيتك لانك راعيهم،وقيمهم، تأخذ منهم ماأعطوك من عفوهم ومقدرتهم، وتنفقه في قوام أمرهم، وصلاحهم، وتقويم أودهم

الله يعطي الملك لمن يشاء وينزع الملك ممن يشاء

لله يعطيه من يشاء وينزعه ممن يشاء.

يمكن القول أن أهمية الوثيقة تأتي من تكريسها جملة من ممارسات ومفاهيم كانت تتراكم عبر السنين وتجسد تجربة الحكم والإدارة والسياسية في المجتمع العربي الإسلامي فالوصية تؤكد على ترابط الإداري السياسي بالديني من جهة والذرائعي من جهة اخرى، فالحاكم الذي يؤدي الصلوات الخمس، يرضي الرب كما يكسب رضا العامة ويضمن تغطية دعائية مسبقة لأي عمل سيقوم به رجل السلطة إستناداً إلى مظهرية الايمان لديه المتأتية من اداء الصلاة، ومما لاشك فيه أن التأكيد على هذه المظهرية كانت نتيجة لحاجة رجال السلطة العباسية، ربما لتأكيد هويتهم العربية الإسلامية التي كثيراً ماشكك بها من خلال الصراع العروبي والشعوبي، ولقد ظهر هذا الأمر بداية باتهام نصر بن سيار الوالي الأموي الأخير في خراسان لأبي مسلم الخراساني بالزندقة، وكرر الجاحظ الاتهام لكتاب الدولة العباسية من الفرس بعدم الجدية والصدق في اسلامهم.

كما أكدت الوثيقة وعددت مايراه طاهر واجبات للحاكم وحقوقاً للمحكومين، هذا الأمر التي كانت بدايته في خطبة أبي بكر الأولى: «القوي عندكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه» وتراكم الأمر على مر السنين، والممارسة على الأرض سلباً وإيجاباً وجرى التأكيد عليه من خلال الخطب، ولالرسائل التي كانت تصدر عن رجال السياسة والحكم وقتدئذ، وتحسس رجال الفكر والأدب ضرورة تدوين ذلك بشكل مباشر أو بالمواربة من خلال ماترجمه ابن المقفع في كليلة ودمنة، وفي رسائل عبد الحميد الكاتب على لسان مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، لتكون تلك بذوراً لما سيعرفه الأدب العربي من كتب السياسة المتنوعة التي ألفها من كانوا على صلة وثيقة بالعمل السياسي في المجتمع العربي الإسلامي، وعلى امتداده، كالفخري في المشرق، والتذكرة الحمدونية في المغرب، تلك التي بدأت ترى النور بعد القرن الرابع الهجري.

وإذا كانت الوثيقة قد أكتفت بتعداد واجبات الحاكم فهي لم تلمح إلى آلية تنفيذ هذه الواجبات، ولا ماهية المؤسسات التي ستقوم بذلك والتي على السلطة ايجادها لمثل هذه الغرض،

هذا إذا تم تجاوز أن العدل يتحقق بالقضاء الذي اكدت الوثيقة على وجوده، وكذلك الأمن بالجند، وأبرزت الوثيقة في هذا المجال بشكل مؤكد اقامة المشافي للعناية بالمرضى، وتخصيص الأطباء لمعالجته اسقامهم، بينما تركت مسألة ساعدة المحتاجين والفقراء دونما توضيح لكيفية تحقيق هذا الأمر، أو المؤسسة التي من الممكن أن تؤمن ذلك.

ولقد أكدت الوثيقة على أن الحكم والملك وتولي أمور الناس انما هي منحه إليه فالرب يعطي الملك لمن يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ولعل هذا القول جاء تكريساً لمفهوم بدأت ملامحه بالظهور في نهاية العهد الراشدي عندما نسب إلى عثمان بن عفان قوله للذين طالبوه بالتنحي وترك الخلافة والله لأأخلع قميصاً، أو سروالاً ألبسينه الله وفي بعض الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم حذر عثمان بالقول: «إن الله مليسك قميصاً، فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه» ومع بداية العهد الأموي، وعلى لسان معاوية ورد في جداله مع الحسن بن علي بن أبي طالب أنه الله نصر معاوية على والده الذي مازعه ملكاً خصه الله به، ولقد شجع الأمويون هذه الفكرة، وكان لفرقة المرجئة دوراً مهماً في الترويج لها بالتأكيد على الجبرية إلى أن جاء العصر العباسي ومنذ بدايته تمسك المنصور بآلهية الخلافة ولقد برز ذلك واضحاً من خلال رسائله المتبادلة مع منافسه زعيم الشيعة الحسينية، محمد النفس الزكية... بقوله: «وميراث النبي له والخلافة في ولده فلم يبق شرف ولا فضل في الجاهلية أو إسلام في دنيا ولا آخرة إلا والعباس وارثه ومورثه.». على أنه لابد من الإشارة إلى أن هذه الجبرية الواضحة لاتتماشى وماسيثبناه المأمون فيما بعد ومنذ العام ٢١٨ هـ من فكر المعتزلة.

ميراث النبي له والخلافة في ولده فلم يبق شرف ولا فضل في الجاهلية أو إسلام في دنيا ولا آخرة إلا والعباس وارثه ومورثه.

تبقى القضية الأخيرة التي تبلورت كمفهوم مختلف عما بدأته ألا وهي قضية جباية الخراج، والتي لابد من وقفة مطولة حول تاريخته ذلك المفهوم وتطوره عبر العهود الإسلامية المتعددة.

في البدء تجب العودة إلى تحديد معنى المصطلح، ويجب أن يترافق ذلك بتحديد المقصود من مصطلحات أخرى جرى تداولها، وهي الغنيمة والضيء والجزية والعشر. فالغنيمة

الخراج، وهو أن مايجبى عموماً من غير المسلمين، إنما يجبى لقهرهم وإذلالهم،

ماغلب عليه المسلمون بالقتال والضيء ماصالحوا عليه، أي من الجزية والخراج والجزية هي ضريبة على الرؤوس تؤخذ من غير المسلمين، ويحدد تعدادها ضمن شروط الصلح، والعشر ضريبة تؤخذ من المسلمين لقاء استثمارهم الزراعي.

ولعله من المفيد التأكيد على أن كلمة الخراج أكثر شمولاً من غيرها إذ أنها تشكل كل مايجيء من ضرائب من غير المسلمين، ويبدو أن التباساً مستمراً شاب استعمال هذا المصطلح مع ملاحظة ان ماورد جاء من خلال مصادر فقهية ليس إلاّ. وبالتالي ليست هي التي تهم الدراسة هنا فهي لاتعطي صورة للفكر وبالتالي الغاية المحركة بقدر ماتقنن قضية مادية وتنظمها.. ولعله بالرجوع إلى تاريخية المصطلح مايفيد في معرفة تلك الفكرة والغاية المحركة ورائها.

إن التضاد الواضح هنا هو بين أمرين:

١ ــ الخراج: وهو أن مايجبى عموماً من غير المسلمين، إنما يجبى لقهرهم وإذلالهم، وهي ماعبر عنه طاهر بن الحسين، المذكور سابقاً يؤيده ظاهر «الآية ٢٩» من سورة التوبة «حتى يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون».

٢ ــ الخراج: بشقيه جزية الرؤوس، أو ضريبة الأرض، تجبى كواجب لقاء حق يحصل عليه الدافع، وبالتالي فهو حصيلة عقد بين الدولة، ومجموعة من رعاياها الجدد، تقدم فيه الدولة الحماية ويدفع المواطن لقاء ذلك ضريبة محددة بموجب عقد الصلح.

بالتالي فإن تمثل رجال السلطة في المجتمع العربي الإسلامي وتبينهما لأحد هذين المفهومين هو مانريد رصده لمعرفة كيف توصل طاهر بن الحسين إلى هذا التقرير الفظ لمفهوم الخراج بنظره.

قد يبدو للوهلة الأولى أن الاية ٢٩ من سورة التوبة هي الأساس الفكري العقائدي للمفهوم الأول، لكن الرجوع: إلى أسباب النزول وليس التفسير توضح الظروف التي نزلت خلالها الآية وبالتالي الخلفية الموضوعية لها، فالآية الكريمة إنما كانت توجيها لحالة معينة ورداً على تحدٍ قام به المشركون من سكان الجزيرة العربية بمنع توريد الطعام إلى مكة المكرمة بعد فتحها في العام الثامن للهجرة، وشكوى بعض المسلمين لذلك، مما شكل استفزازاً كانت الآية الكريمة الرد المناسب عليه.

وسرعان ماأنتفى هذا المفهوم من

خلال الممارسة العملية حيث ارتدت الجزية لتأخذ صفتها التعاقدية البحتة، وخلال فترة لاحقة وجيزة، وفي حياة النبي صلى الله عليه وسلم الذي عقد مع اهل نجران صلحاً ثم تلاه آخر مع أهل هجر في البحرين، وفي المرتين نوضع أن المال المؤدى هو في مقابل الحماية والمتعة وتمتع الطرف الآخر بكل مميزات الاستقلال الذاتي، والحرية التامة في الأمور الاجتماعية والدينية، (ولنجران وحاشيتها جوار الله، وذمة محمد النبي رسول الله، على أموالهم، وانفسهم، وأرضهم وملتهم، وعشيرتهم وبيعهم، وكل ماتحت أيديهم، لايغير اسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، ولايطأ أرضهم جيش...».

ولعل هذا المفهوم العقائدي استمر في العهد الراشدي ففي صلح الحيرة الذي عقده خالد بن الوليد مع أهلها ورد في النص: «عاهدهم على.. وعلى المتعة، فإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم، وكذلك مع تحسن الناطف، الذي جاء في صلحه.. (فإن منعناكم فلنا الجزية، إلا فلا حتى تمنعكم، وتأتي واقعة أهل حمص مع أبي عبيدة عندما أعاد إليهم الجزية عندما أراد إخلاء المدينة بعد حشد هرقل الذي أدى إلى وقعة اليرموك.

وإذا كانت الجزية مقابل المتعة، فإن المسلمين رضوا في بعض الوقائع أن يعفوا أهل الذمة من الجزية، حين تعهد هؤلاء أن ينهضوا معهم بواجب الدفاع ويحملوا عبء القتال إلى جانبهم، كما حدث حين غزا حبيب بن مسلمة الفلهري أهل الجرجومة فطلبوا الصلح على أن يكونوا أعواناً للمسلمين، وعيوناً، ومالح في جبل اللكام فقبل منهم ذلك، وكذلك حين توجه عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي إلى ناحية الباب جهة قزوين عرض عليه عامل الفرس الصلح دون جزية قائلاً: «يدي مع أيديكم، وجزيتنا إليكم النصر لكم، والقيام بما تحبون» وقد أجاز الأمر عمر بن الخطاب، وهكذا تبرز بوضوح الطابع التعاقدي للأمر حيث الجزية مساهمة مالية في واجب الدفاع، نظير ضريبة الدم التي كان يدفعها المسلم في حوقة القتال للدفاع عن الدولة كلها، وبالتأكيد فإن الظروف الموضوعية لذلك العصر هي التي فرضت ذلك، ولقد استمر هذا المفهوم سائداً طيلة العهد الراشدي فعمر

ولنجران وحاشيتها جوار الله، وذمة محمد النبي رسول الله»

يوصي الخليفة من بعده قائلاً: أوصي الخليفة من بعدي بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، خيراً أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولايكلفوا فوق طاقتهم» وكتب عثمان بن عفان إلى عماله: «إن الله أمر الأئمة أن يكونوا راعاة.. ولم يتقدم إليهم يأن يكونوا جباة».

على أن هذه الممارسة ومن خلفها المفهوم سقطت في العهد الأموي بدأً من معاوية الذي قبل إضافة إلى الخراج والجزية هدايا الفيروز والمرجان، وفرض الوظائف الضريبية المختلفة، واعتبر الأمر سيادة لغالب، وقهراً لمغلوب، وقد اتخذت هذه القضية أبعادها خلال هذا العهد بين مد وجزر إلى تام نصر بن سيار والي خراسان بإيجاد حل للأمر بحيث أعفى المسلم الجديد من جزيته مع تحميلها لمن بقي على دينه من الموالي ولم يكتب لمحاولة الخليفة عمر بن عبد العزيز رد الممارسة التعسفية إلى المفهوم العقائدي الناجح.. ذلك أن الخراج بشكله الكامل كان المورد الذي نعيش عليه الدولة ومنه تأتي نفقاتها.

وفي العهد العباسي الذي نحن بصدده جرت محاولة اصلاحية رئيسية أولى في الجمال السياسي في عهد المنصور، ثم أخرى في عهد الرشيد، وقد تبلورت هذه خلال طلب الخليفة الأخير من قاضيه أبي يوسف يعقوب بن آدم أن يضع له كتاباً جامعاً يعمل به في جباية الخراج والعشور والصدقات والجوالي.. وغير ذلك مما يجب عليه والنظر فيه والعمل به وإنما أراد بذلك رفع الظلم عن رعيته، والصلاح لأمرهم وقد استجاب القاضي مبيناً أنه قد كتب له ماأمر وشرحه، واني لاجور إن عملت بما فيه من البيان أن يوفر للأخراجك من ظلم مسلك ولا معاهد، ويصلح لط رعيتك.. ورغم الصيغة القانونية الفقهية التي طبقت الكتاب إلا أنه أكد على الروح التعاقدية للجزية والخراج كضرائب مفروضة على جزء من الرعايا مبيناً تاريخية هذه الضرائب بعيداً عن ذلك المفهوم الذي ظهر من خلال وصية طاهر ابن الحسين التي نحن بصددها.

ويظهر ان رجال السلطة لم يكونوا دوماً من المتقبلين للمفهوم التعاقدي يدل على ذلك قيام الثورات في مناطق مختلفة من الدولة في عهد المأمون شاكية من الخراج وممارسات عماله،

وصي الخليفة من
عدي بذمة رسول
لله صلى الله عليه
سلم، خيراً أن يوفى
هم بعهدهم، وأن
قاتل من ورائهم،
لايكلفوا فوق
طاقتهم

فمصر ثارت عام ٢١٣ فأرسل المأمون أخاه المعتصم وجعل على الخراج صالح بن شيرازاد، فظلم الناس وزاد عليهم في خراجهم فإنتفض المصريون وعسكروا وهزم جيش المعتصم.

يبدو أن الأمر قد جرنا إلى الإفاضة لكنه يبقى بشكل أو بآخر أحد أهم المعضلات التي عانت منها الدول والمجتمعات، وهي قضية الموازنة بين الإيرادات والنفقات والعدل فيها، بين متطلبات الانفاق والقدرة، والطاقة على ذلك النوع من الإدخار الإجباري، كي يبدو أن حاجة السلطة الدائمة للمال تدفع رجالها دائماً إلى إيجاد الذرائع، والمسوّغات لتلك التي اظهرها طاهر بن الحسين بقوله: «فانظر إلى هذا الخراج الذي جعله الله...»

وبعد فمما لاشك فيه أن الوصية كانت جامعة شاملة تعكس الفكر السياسي والخبرة الإدارية لرجل لعب دوراً مهماً في الحياة العامة لذلك العهد الذهبي للدولة العربية الإسلامية، ولقد تأكدت أهمية الوصية بما أشار إليه الطبري بعد نصها من أن المأمون أمر بنسخ الوصية وتوزيعها على العمال للعمل بمضمونها.

أن حاجة السلطة الدائمة للمال تدفع رجالها دائماً إلى إيجاد الذرائع، والمسوّغات

دعوة إلى الكتّاب والباحثين

إن هذه المجلة «مجلة البحث التاريخي» يسرها مشاركتكم والاستفادة من معلوماتكم لكي نقدم المادة الأفضل لقرائنا الأعزاء.

نتمنى ممن يرغب في الكتابة أن يرسل بطاقة تعريف

مع الشكر والامتنان
أسرة التحرير

صناعة الورق والوزاقة في بلاد الشام أواخر العصر العباسي

د. محمد زيود

- اسهم الورق اسهاماً كبيراً في حفظ الحضارة ونقلها وتطورها وعد بحق من أهم العوامل الداعمة لها، ولايقل دوره وأهميته عن دور اختراع الطباعة ومساهمتها في تاريخ الحضارة البشرية.

استعمل الإنسان مواد كثيرة في الكتابة من أقدمها الطين والحجارة ثم لحاء الأشجار والعظام والجلود وسعف النخل، كما أستعمل الحرير الأبيض، عالي القيمة في الكتابة أيضاً، وتفاوتت الأمم في ذلك كتب أهل الصين على ورق صنعوه من الحشيش والكلأ، وعنهم أخذ الناس صناعة الورق، وكتب أهل الهند في خرق الحرير الأبيض، واستعمل الفرس الجلود المدبوغة من جلود الجواميس والبقر والغنم والوحوش، وعلى اللخاف «وهي حجارة بيض رقاق» والنحاس والحديد وغيرها وفي عظم اكتاف الأبل والغنم. وفي كتابة القرآن في عهد الرسول (ص) اللخّاف والعُسب فعن زيد بن ثابت أنه قال عند جمعه للقرآن «فجعلت اتتبع القرآن في العُسب واللخّاف» وفي حديث الزهري «قبض الرسول (ص) والقرآن في العُسب» والورق جمع واحدة ورقة وجمعة أوراق وجمع الورقة ورقات وسمي الرجل الذي يكتب وراقاً واطلق عليه القرآن الكريم قرطاساً وصحيفة، ويسمى أيضاً الكاغد، ويقال للصحيفة أيضاً طِرْس ويجمع على طُروس، ومُهْرَق ويجمع على مهارق واحسن الورق ماكان ناصع البياض، واستعملت أوراق البردي، منذ العصور القديمة، واحتكرت مصر صناعته وتصديره منذ العصر الروماني، ويعد أعظم ماقدمه المصريون للحضارة، وبذلك خطت الحضارة البشرية خطوة واسعة في تحسين مواد الكتابة،

الورق اختراع صيني يعود إلى سنة (١٢٣ ق.م).

وكانت صادرات مصر إلى بيزنطة القراطيس المصرية، وهي الطوابير التي عدت من خصائص مصر، وافضل ماكتب فيه «وهو من حشيش أرض مصر ويعمل طوله إلى ثلاثين ذراعاً وأكثر من عرض شبر»، ولقد نافس تصدير القراطيس المصرية في بداية القرن الرابع الهجري وحل محله نوع من الورق المصنوع من الكتان سمي الكاغد، وبهذا يقول الثعالبي «إن كواغد سمرقند هي من خصائصها وقد عطلت قراطيس مصر والجلود التي كان الأوائل يكتبون فيها لأنها أنعم وأحسن وأرفق ولاتكون إلا سمرقند والصين».

ـ ويذكر المؤرخون بأن الورق اختراع صيني يعود إلى سنة (١٢٣ ق.م)، وعندما فتح العرب المسلمون سمرقند جلبوا منها مجموعة من أسرى الحرب الصينيين، وكان بعض هؤلاء الأسرى بارعاً في صناعة الورق فعمل على إقامة صناعة الورق في سمرقند في سنة ١٣٤ هـ/ ٧٥١ م فنشطت فيها، وصنعوه من القنب والكتان والياف الحشيش، وصدرت للعراق وغيرها من المناطق العربية والإسلامية.

القرطاس، نوع من النسيج المصقول المصنع الرقيق الأبيض، وهو من الحرير.

ـ وفي العصر الأموي صنع الورق من الكتان وكان يسمى بالخرساني، ويعتقد أن مدن الشام صنعت الورق قبل هذا التاريخ فقد صنع في دمشق وطبرية وطرابلس وحماة، ومنبج، ويستدل على ذلك من بيت شعر لطرفة بن العبد البكري في معلقته أن القرطاس ينسب إلى الشام ويقول طرفة:

وخد كقرطاس الشآمي ومشفر
كسيف اليماني قده لم يجرد

وإذا ماصدُق طرفة فتكون القراطيس من الصناعات القديمة التي تعود للفترة الجاهلية خلافاً لما ذكره مؤرخو العرب، وأن دمشق وطبرية كانت تصدران كميات كبيرة منه على ماأورده المقدسي وغيره من دون تحديد لزمن هذا التصدير، ولابد لنا من مناقشة هذه الفكرة التي اوردها بعض الدارسين والباحثين، ويبدو من قول طرفة أن القرطاس كان يصنع في الشام قبل الإسلام ولكنه ليس بالورق وإنما هو نوع من النسيج المصقول المصنع الرقيق الأبيض وقد كان من الحرير، واستمر تصنيعه كذلك في العصر الأموي، ومن ثم تمَّ استبدال الحرير بالقطن لأنه أرخص، وذلك في عهد الوليد بن عبد الملك (ت ٩٦ هـ ـ ٧١٤ م)، وربما

تكون الحاجة الماسة والكبيرة الى القراطيس، وخاصة بعد تعريب الدواوين في عهد الملك عبد الملك (ت ٨٦ هـ - ٧٠٥ م)، هي التي كانت وراء هذا الابتكار الذي أصبح القرطاس الدمشقي يصنع من القطن، واستمر الخلفاء في العصر الأموي يستعملون ورق البردي المصري لأنه أرخص من القرطاس الشامي القطني هذا، ونظراً للطلب المتزايد عليه ولاسباب أخرى كثيرة تعود لطبيعة الصراع العربي الإسلامي والبيزنطي - فقد توقف تصديره إلى بلاد الروم وابتداء من عهد عبد الملك بن مروان وتعريب الدواوين، وبقي الطلب على القرطاس المصري متزايداً في العصر العباسي الأول واستمر غالي الثمن، وقد شكا الناس من ذلك الوقت من ندرته وغلاء ثمنه، ولقد أعطت القراطيس المصرية، من البردي اسمها الدرب من دروب بغداد وسمي «درب القراطيس»، ولبعض الباعة حيث عرف بعضهم «بالقراطيس»، غير أن هذه القراطيس، تراجعت أمام الورق الصيني بعد أن بدأ بالإنتشار من الشرق في اواخر القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) وكثر على اثر ذلك ظهور الوراقة والوراقون، ولم يمض القرن الثالث الهجري حتى صار في بغداد أكثر من مائة وراقة، ويبدو أن الورق ظهر بشكل متدرج ومتطور واستعملت أنواع منه مختلفة في نفس الوقت وذلك تبعاً لجودتها وغلائها ورخصها، ووجد في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي عراقياً محباً للكتب كان لديه في خزانة كتبه مخطوطات فيها الجلود، والصطام، وقرطاس مصر، والورق الصيني، والورق الشامي، وجلود آدم وورق خرساني.

ونظراً للنهضة الفكرية، والاقبال الكبير على استهلاك الورق في العصر العباسي الأول، أقدم الوزير البرمكي «الفضل بين يحيى سنة ١٧٨ هـ / ٧٩٤ م» على إقامة أول مصنع للورق في بغداد، ثم امر أخوه فيما بعد جعفر البرمكي بإستخدام الورق محل الرق في دواوين الدولة وكان أخوه في السنة نفسها والياً على سمرقند، وهذا يوضع لنا أن دخول تركستان في الفلك السياسي والاقتصادي للعالم العربي الاسلامي سهل هجرة التقنيات الصينية نحو الغرب الإسلامي، ويؤكد الرأي القائل بانتقال صناعة الورق من الصين إلى سمرقند ومنها إلى بغداد ثم إلى بلاد

الوزير البرمكي الفضل بين يحيى يقيم اول مصنع للورق في

الشام وغيرها من الأقاليم العربية الإسلامية.

ـ ويقول بعض الكتاب ان صناعة ورق البردي وإعداده للكتابة انتهت نحو منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، ونجد أن ورق البردي المؤرخ ينتهي في عام ٣٢٣ هـ / ٩٥٣ م في حين أن الوثائق المكتوبة على الكاغد يبدأ تاريخها منذ عام ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م وهناك وثيقة تؤكد استعماله قبل سنة ٢٤٠ هـ/ ٨٥٤ م، وانتشرت هذه الصناعة بسرعة كبيرة لمواجهة الاستهلاك المتزايد جداً وذلك بسبب كثرة المترجمات والاقبال العام والكبير على اقتناء الكتب ومارافق ذلك من طلب كبير على الورق، فازدادت معامل الورق ونقلت مطاحنه إلى بلاد الشام وأسست معامل لصنع الورق في دمشق بعد تأسيس معمل في بغداد في (١٧٨ هـ) كما أشرنا، ثم تتابعت بعد ذلك مواكب صناعة الورق المتقدمة وزحفت سريعاً، فاقيمت المعامل في معظم المدن الشامية أمثال طرابلس، وطبرية وغيرها، وذلك ابتداء من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وهذا مايشير إليه المقدسي وغيره حيث صادفت زراعة القنب ظروفاً مناسبة في بلاد الشام، ومنذ القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين)، اصبح الورق أهم مادة للكتابة في العالم العربي والإسلامي إن لم تقل المادة الوحيدة، وكان مثل السكر يصنع في مصانع ضخمة وينتج بكميات وفيرة وبنوعيات والوان مختلفة، ويبدو أن صناعة الورق في العالم العربي الإسلامي كانت بيد الحكومات، حتى ظهر المصنعون الكبار في الأزمنة اللاحقة، ولقد نقل العرب استعمال عجينة الكتان في صناعة الورق من سمرقند إلا أنه سرعان مااستبعد الكتان فيما بعد وحل محله القطن لأنه أقل كلفة وأكثر انتشاراً في الشام وغيرها.

ـ وكانت طرابلس من أهم مراكز صناعة الورق في بلاد الشام وفاقت سواها من البلدان في ذلك، وقد زارها الرحالة ناصر خسرو واطرى على ورقها بقوله أن أهل هذه المدينة «يصنعون فيها الورق الجميل مثل ورق سمرقند بل أحسن منه، واشتهر ورقها بمختلف أنواعه المعروفة في ذلك الوقت، من الكاغد، والطوامير، والقراطيس وسد حاجة حوانيت الوراقين، وكانت

بغداد، طرابلس من أهم مراكز صناعة الورق في بلاد الشام وفاقت سواها من البلدان في ذلك،

مصانعها تمد المشتغلين ببيع أو نسخ أو تأليف الكتب بكميات وفيرة من الورق بختلف أنواعه، وكان لهذا أثره على حركة التأليف والكتابة والترجمة والنسخ التي نشطت في طرابلس خلال العصر الفاطمي، فكثر فيها الوراقون والمؤلفون، والكتاب، والمجلدون، وفي سنة ٤٧٢ هـ / ١٠٩٧ م قام جلال الملك ابن عمار (ت٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ م) ابن أخي أمين الدولة (ت ٤٦٤ هـ / ١٧٠١م) بتجديد «دار القلم» في طرابلس[٢٤] وبالغ المؤرخون في عدد الكتب التي كانت موجودة في مكتبة طرابلس عندما هاجمها الصليبيون. ومن المعروف أن الفاطميين قد اهتموا بنشر مذهبهم واولوه اهتمامهم، وعملوا على نشر التشيع وتعليم الدعاة والعلماء والفقهاء وغيرهم، ولهذا اكثروا من دور العلم حتى أصبحت طرابلس مركزاً هاماً لنشر المذهب الشيعي ونشطت فيها الحركة العلمية، واستمرت دار العلم فيها تؤدي رسالتها الدينية والفكرية في ايام بني عمار الشيعة أيضاً حتى لقد قيل «إن طرابلس في زمن آل عمار صارت جميعها دار علم»، وكان في هذه المكتبة عدد كبير من النسّاخ ممن يعملون بصورة دائمة بلغ عددهم أكثر من مئة وثمانين ناسخاً كانوا يعملون بشكل دؤوب لصيانة محتوياتها وتجليد مخطوطاتها وزخرفتها بالذهب والفضة والكتابة عليها بخطوط جميلة وانيقة، وبولغ في عدد محتوياتها من الكتب حتى لقد قيل أنها وصلت إلى ثلاث ملايين مجلداً منها خمسون ألف نسخة من القرآن الكريم وثمانون ألف نسخة تفاسير، ولهذا فقد اعتقد الصليبيون خطأ أنها لاتتحدث إلا القرآن وتفسيره فدمّرت المكتبة أثناء الغزو الصليبي لبلاد الشام.

وامتازت طبرية بصناعة الورق ايضاً وقد ذكر ذلك المقدسي البشاري وأما دمشق وهي أم المدن الشامية فقد اشتهرت اشتهاراً كبيراً في ذلك، وقد نوه بورقها المؤرخون البيزنطيون، أما المؤرخون العرب والمسلمون فقد مدحوا الورق الدمشقي واثنوا على محاسنه وجماله، فقال أبو البقاء البدري «وفيها تعمل صناعة القرطاس بحسن صقاله ونقي أوصاله»، ونظراً لجودة ورق طرابلس ودمشق وتفضيله على الورق المصنوع في سمرقند لقيت تجارته رواجاً عظيمياً وكان يصدر بكميات كبيرة إلى مصر، وتتحدث أحدى الرسائل عن

دمشق وهي أم المدن الشامية فقد اشتهرت اشتهاراً كبيراً في ذلك، وقد نوه بورقها المؤرخون البيزنطيون

حمولة «٢٨» جمل (١٤٠٠ ألف رطل تقريباً) من الورق تحمل العلامة (أو الماركة المسجلة) الخاصة بابن إمام من دمشق، وفي الوقت نفسه أرسل هذا التاجر إلى الأسواق المصرية عشرين بالة من الورق الدمشقي عن طريق البحر من صور، ويستدل من هذا إلى جانب ماسبق بأن كمية كبيرة من الورق الدمشقي كانت تصدر للخارج ومنها الأسواق المصرية والأقطار الأخرى «فقد كانت أوروبا الشرقية تبتاع ورقها من بلاد الشرق الأدنى مباشرة على مايشهد بذلك اسم الورق الدمشقي (شارتاداماسينا). وعبر العصور كان معظم الورق الشامي يصدر إلى مصر وبعضه يصدر إلى بيزنطة أيضاً. وقد وصف محمد كرد علي ورق الشام وطريقة صنعه وبين أهم المواد التي تدخل في صناعته كالخروق البالية، والحرير، واستبدل ورق القطن الذي منه الورق الدمشقي بالحرير في سنة ٨٨ هـ /٧٠٦م رجل اسمه يوسف بن عمر كما اشرنا سابقاً، ولايزال في خزانة دار الكتب العربية (الظاهرية) بدمشق كتاب سُطِّر سنة ٢٦٦ هـ/ ٨٧٩ م على ورق يظن أنه من الورق الشامي وهو أقدم

أوربا الشرقية تبتاع ورقها من بلاد الشرق الأدنى مباشرة على مايشهد بذلك اسم الورق الدمشقي (شارتاداماسينا)

مخطوط عرف بالشام ولايزال على متانته.

وكان الورق المعروف بورق الطير الذي تكتب به البطائق وتعلق في أجنحة الحمام الزاجل صنف من الورق الشامي الرقيق للغاية وفيه وعليه ملطفات الكتب وبطائق الحمام، ويعد هذا النوع من الورق مفخرة لتقنية صناعته في هذه الفترة.

وأما حلب فقد امتازت فيها صناعة الورق من حيث الجودة والكمية وصدر ورقها داخلياً وخارجياً، ولشهرة صناعته فيها وكثرته، سمي حي من احيائها، حيث اقيمت معامل الورق باسم الوراقة، وحافظ الورق الحلبي الصقيل المتين على شهرته حتى العصر الحديث، كما اشتهرت مناطق أخرى في بلاد الشام بصناعة الورق، وقامت مصانعه في حمص، وحماه، ومنبج، واستمرت هذه المدن بإنتاج الورق في الأزمنة اللاحقة.

رافق صناعة الورق وازدهارها ظهور طائفة من الناس يعملون بالورق والكتابة والكتب، فقد كان الورق عاملاً مساعداً على النشاط العلمي وتقدمه، وظهر التنافس الكبير في إقتناء الكتب والمكتبات وزاد عدد العاملين بالوراقة

وتجارتها، وكثر المشتغلون بتجليد الكتب ونسخها وبيعها، ونشطت صناعة الأقلام والبحث عن الحبر والصمغ واختيار اجودها، وتقدم فن التجليد وظهرت الحاجة إلى الجلود من الغزلان والماعز والعجول، واستخدم الحرير والديباج والأطلس في تجليد المصاحف بشكل خاص، ومهر أهل الشام بفن تجليد الكتب ومما يذكر في هذا المجال أن الجغرافي المقدسي كان قد برع في فن التجليد على الطريقة الشامية وكان في رحلاته يطلب لتجليد الكتب كلما نزل من منطقة، وعندما زار اليمن ونزل في عدن أعجب الأهالي هناك بتجليده وكانوا يدفعون له دينارين عن تجليد كل مصحف، وتعلم العرب المسلمون من المسيحيين العرب جمع الصحف بين دفتي كتاب مشدود، والمسيحين العرب في بلاد الشام والجزيرة وغيرها كان لديهم من الكتب الدينية المجلدة مما اتيح لبعض العرب المسلمين رؤيته والإعجاب بالجلود التي كانت تحفظ مافيها حق الحفظ، وفكر العرب المسلمون في اتباع هذه الطريقة وجمع صحف القرآن بين لوحين لحفظها، واستخدموا الأغلفة من الخشب وذلك قبل أن يتعلموا صناعة الجلود واتقانها عن القبط، لتأخذ عنهم بعد ذلك مدينة البندقية أساليبهم هذه وتنشرها بدورها في انحاء أوروبا.

كما أرتبط بالوراقة مهنة الخطاطة، واشتهر هؤلاء الخطاطون في العالم العربي والإسلامي، واحتلوا مراكز ممتازة في المجتمع، واعجب المؤرخون بمشاهيرهم واصبحوا يكتبون أسماء من يخط المخطوطة أو الكتابة عليها فيما إذا ماأرادو الرفع من أهمية المخطوطة وقيمتها.

ورافق الوراقة ايضاً مهنة المذهب وهو يلي الخطاط في المرتبة، ويقوم بعملية الزخرفة وكانت العناية تتجه إلى /المقدمة والفاتحة/ بحيث تلون وتذهب وتزين بعض المخطوطات وبالرسم والصور، متأثرة بالصناعة الفارسية في هذا المجال، وتقدمت هذه الصناعات وحفظت معظم المخطوطات في جلود جميلة النقوش بديعة الصنعة مما حدا بالمماليك فيما بعد للنسج على منوالها، وقام الأوروبيون بدورهم بأخذ هذه الأساليب واستعملوها.

وعرف الناس في هذه الفترة كثرة الدلالين، واقتصرت مهمتهم على البحث عن الكتب النادرة وشرائها

رافقة مهنة الوراقة،
التجليد..
الخطاطة..
المذهب..
****

دكاكين الوراقين ملتقى الأدباء والعلماء

ومن ثم بيعها، ولهذا كانوا يجوبون الأمصار ويبحثون في الأسواق والمكتبات للحصول على أندرها وأفضلها وشكل هؤلاء همزة وصل بين تجار الكتب في العالم العربي والإسلامي وسبب اتباع استخدام الورق انتشار الكتب في كل مكان، وقامت أسواق بيع الكتب والوراقين، وامتلأت حوانيتها، بالنساخين والخطاطين، وغدت مصدر زرق لعدد كبير من الناس، وألحق في هذه الفترة بمعظم الجوامع مكتبات عامة، غدت مقصد طلاب العلم للإطلاع عليها والنهل من مهارفها. وزاد الإقبال على هذه الأسواق كل يفتش عن علمه، فالشاعر، والفيلسوف، والفلكي يبحثون عن كل جديد من الكتب وفي هذه الحوانيت كانوا يعيشون ويلتقون فقد استقبل ابن النديم ندماءه وخلانه وتعرف إليهم في السوق حيث كان وراقاً يعمل تاجراً بالكتب على الرغم من أنه كان عالماً مشهوراً الف الفهرست الذي يتضمن اسماء جميع الكتب والترجمات التي ظهرت بالعربية حتى أيامه، وكانت واجبات الوراق كثيرة إذ كان ينتخب الورق وينسخ الكتب ويقوم بعملية النسخ والتصحيح حتى لايقع فيه التحريف ومن ثم يجري عملية التجليد والبيع، ولقد اشتهرت الوراقة في هذه الفترة وتدل الكتب التي صدرت، وتعدد المكتبات ودور العلم والنهضة الثقافية على مبلغ رقي صناعة الورق وتطورها ونشاط الوراقة وتفننها، فالوراقة كانت مهنة محترمة عمل بها علماء أجلاء ومؤلفون مشهورون منهم كما أشرنا ابن النديم، وكذلك كان ياقوت الحموي وراقاً يبيع الكتب ويقوم بنسخها وغيرهم كثيرون من أكابر العلماء كابن الجوزي، وابن الفوطي، وكانت دكاكين الوراقين ملتقى الأدباء والعلماء، ولعبت دوراً كبيراً في تثقيف المجتمع العربي والاسلامي، وكان الكثيرون من الوراقين يعرفون بدلالي الكتب.

وكان للاهتمام الكبير بالكتب والمكتبات أكبر الأثر على النهضة التي شملت كل مرافق الحياة فقد نهل الجميع من العلوم والمعارف وأهتم بها رجال الدين والحكام والأمراء والأغنياء والتجار، وعملوا جميعاً بسخاء على دعم النهضة الثقافية، ويكفي أن نتذكر سيف الدولة الحمداني ومجالسه وتشجيعه للشعراء والأدباء والاسراف

الكبير في العطاء وسكه الدنانير الخاصة لمنحها للشعراء والأدباء، وكان يزن الدينار منها عشرة مثاقيل، وجود سيف الدولة شمل كل من عمل وساهم في النهضة الحضارية والثقافية بشكل خاص وشمل الصناع، والعاملين والمبدعين وكل من احترمهم الأمير العربي فكانت النتيجة إبداعهم المتميز الذي ظهر في عصره وكان يضاهي شجاعته في ساحة الحروب وانتصاراته الباهرة والوقوف في وجه الأعداء، وقد اهتم أكثر مااهتم برعاية الأدباء والشعراء وكانت ندوته المشهورة التي كان يقيمها وقت السلم في قصره حافلة بالعلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة يقصدونه من كل صوب يلقون من كرمه مايدفعهم ذلك إلى تجديد صناعتهم والإرتقاء بها ويكفي أن نتذكر كرمه مع أبي فراس عندما أعجب في بيت واحد بشعره فأعطاه ضيعة بمنبج تغل ألف دينار، وماصنع مع المتنبي حين أنشده قصيدة فأكثر له الأمير العربي في العطاء لحد الإسراف، وأما قصته مع أبي الفرج الاصفهاني صاحب كتاب الأغاني فقد قدم له ألفا دينار معتذراً لقلة هذا المبلغ.

ويذكر ابن أبي اصيبعة في طبقات الأطباء أن سيف الدولة كان له أربعة وعشرون طبيباً منهم عيسى الرقي الذي كلف بالترجمة من السريانية إلى العربية وكان سيف الدولة يعطيه ويغدق عليه اربعة ارزاق، كما شجع سيف الدولة أصحاب الخط الجميل وأجذل العطاء للخطاطين الماهرين ولهذا فقد ازدان قصر الحلبة، قصر سيف الدولة في حلب بالآيات القرآنية وأبيات الشعر المكتوبة بخط مذهب جميل يثير الإعجاب والدهشة، وكان سيف الدولة لفرط اعجابه بصحائف ابن مقلة «وهو أخو الوزير أبي علي محمد بن علي بن مقلة» حيث كان هذا خطاطاً لسيف الدولة ـ كان يصحبها معه حتى وقت خروجه لغزو الروم ويذكر ابن العديم مشيراً إلى ذلك إن سيف الدولة خسر في معارك ٣٣٩ هـ / ٩٥٠ م خمسة آلاف ورقة بخط أبي عبد الله الحسن بن مقلة، ولاشك أن حلب في عهد سيف الدولة احتوت على مكتبة عظيمة كثيرة الكتب وقد ذكر أن مجلس سيف الدولة تضمن ملوك الشعراء وكان منهم الأخوين هما الخالديان: (ابو بكر محمد بن هاشم وأبو عثمان سعيد بن هاشم، وكانا من خواص سيف الدولة وندمائه وتوليا

سيف الدولة الحمداني يسك ديناراً خاصاً لمنحه للشعراء والادباء

طرابلس.. ا مائة الف كتاب في عهد امين الدولة ابن عمار... وثلاثة ملايين كتاب في عهد فخر الملك عمار بن عمار

الأشراف على خزانة كتبه).

واورد ابن العديم في كتابه الانصاف والتحري خبراً مفاده أن خزانة كتب الشرقية التي بجامع حلب نهبت في فتنة في بعض أيام عاشوراء، وكان ذلك في زمن ابي العلاء المعري، ولم يبق في خزانة الكتب إلا القليل وجدد الكتب فيها فيما بعد الوزير أبو النجم هبة الله بن بديع وزير الملك رضوان، ثم وقف غيره كتباً أخرى بها.

وكان هذا هو الحال في العصر المرواسي في الاهتمام بالكتب وبالعلم والمكتبات كما لم يقصر بنو منقذ من حيث الاهتمام بالكتب والمكتبات عن سيف الدولة ومما يذكر في هذا الصدد، شغف اسامة بن منقذ بالكتب وبالمكتبات، ويتضح ذلك من ملاحظة ابداها عندما عادت أسرته من مصر فوقعت في أيدي الأفرنج وخسر الكثير من المال فلم يأسف عليه اسفه على مافقده من الكتب وعددها أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة، وملاحظته جاءت «فإن ذهابها علي ماقال حزازة في قلبي ماعشت».

وبالغ الفاطميون كثيراً في اهتمامهم بالكتب والمكتبات، وينقل المقريزي علي بن أبي طي قوله «إن لم يكن في جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من التي كانت بالقصر في القاهرة ومن عجائبها أنه كان فيها ألف ومائتان نسخة من تاريخ الطبري، وبلغ عدد مجلداتها مليون وستماية ألف بالإضافة لدار الحكمة بالقاهرة وهي التي أسسها الحاكم سنة ٣٩٥ هـ/ ١٠٠٤ م وبلغ عدد مجلداتها مائة الف مجلد.

وفي طرابلس وصل المستوى الحضاري والثقافي أوجه في عصر أسرة بني عمار وساهم كما سبق القول مصنع ورق طرابلس في إثراء المكتبات بما يلزمها من كميات وفيرة من الورق الأمر الذي كان له الأثر الكبير على حركة التأليف والترجمة والكتابة والنسخ، وقد أقام امين الدولة بن عمار دار علم جمع من مكتبتها مايزيد على مائة الف كتاب، وارتفع هذا الرقم حتى وصل إلى ثلاثة ملايين في عهد فخر الملك عمار بن عمار ولايفوتنا إلا ان نتذكر هنا ابن العميد وزير البويهيين ومكتبته الرائعة التي زهت بأن خازنها كان المؤرخ الشهير ابن مسكوية، وكان ابن العميد يحب الكتب حباً شديداً فقد جمع مكتبة حوت كل علم وكل نوع من أنواع

المعارف والآداب وظهر طوال حياته مهتماً بها يتفقدها ويغذيها ويشتري لها الكتب ويأمر باستنساخها، وفاقه بحب الكتب والمكتبات تلميذه اسماعيل بن عباد المعروف باسم الصاحب ابن عباد فجمع مكتبة كبيرة بلغ فهرستها عشرات مجلدات ويعلق ول ديورانت في قصة الحضارة على ذلك بقوله «وكان عند بعض الأمراء كالصاحب ابن عباد من الكتب بقدر مافي دور الكتب الأوروبية مجتمعة».

ويجب ان نتذكر دائماً بأنه من المآثر الهامة لبلاد الشام على الغرب الأوروبي نقل الورق إليه، فخلال الحروب الصليبية تعلم اسيران فرنسيان في دمشق سر صناعة الورق وعندما عاد إلى بلادهما نشرا هذا السر. وعمت بعد ذلك صناعة الورق في فرنسا، وأوروبا. كما كان لمصانع الورق التي اقامها العرب المسلمون في صقيلية والاندلس أكبر الأثر في نقل هذه الصناعة إلى ايطاليا وبقية بلدان العالم الغربي التي كانت تزود مباشرة بالورق مما تصنعه معامل الورق في بلاد الشام لفترة طويلة، ومعروف ان الاوروبيين في القرون الوسطى كانوا يكتبون على رقوق من جلود الحيوانات غالية الثمن وكان ثمنها المرتفع عائقاً كبيراً أمام انتشار المؤلفات المكتوبة، ومع تقدم الزمن اصبحت الرقوق نادرة وقليلة مما أضطر الرهبان إلى حك المؤلفات القيمة لعظماء الرومان والاغريق ليكتبوا مواعظمهم الدينية عليها، ولولا العرب لفقدت أكثر المؤلفات الخالدة القديمة ويكفي أن نتذكر فضل العرب في هذا الميدان لندرك مبلغ اسهامهم في الحضارة البشرية وفضلهم في الحفاظ على التراث الانساني وتطويره، وماعلى الذين يريدون الانتقاص من شأن العرب والحضارة العربية الاسلامية إلا أن يفكروا قليلاً، ويتذكروا في آثار ونتائج هذه الصناعة الخالدة ودور العرب الايجابي في النهوض بها وتطويرها فقد جاء في الموسوعة البريطانية «ولما سقطت دولة العرب في اسبانيا وانتقلت صناعة الورق من ايديهم إلى النصارى الأقل كفاءة منهم انحطت الصناعة وانحط الصنف». وكل هذا وذاك يؤكد على الدور الهام الذي قام به العرب من حفظ الحضارة البشرية وتطويرها والإبداع في جميع مفرداتها وعناصرها وما مساهمتهم في الاهتمام بالورق

أسيران فرنسيان ينقلان سر صناعة الورق إلى فرنسا ثم أوروبا..

وصناعته وتطويره ومانقله إلى أوروبا إلا شاهداً ودليلاً أكيداً على الدور الهام والفعال للعرب في النهضة الأوروبية الحديثة وقيامها، وستبقى هذه الحضارة بمختلف اشكالها المتطورة مهما علت شاهداً على اصالة وعراقة ودور الحضارة العربية الاسلامية في تقدم وتطور الحضارة البشرية بجميع اتجاهاتها وفرعها.

ستبقى الحضارة الغربية بمختلف اشكالها المتطورة مهما علت شاهداً على اصالة وعراقة ودور الحضارة العربية الاسلامية

الأعمال الحربية بين الموحدين والاسبان

دبلوم دراسات عليا تاريخ عرب وإسلام
عبد الكريم الشيخ حمود (*)

كان المرابطون يقفون في وجه الاسبان في القسم الثاني من امبراطوريتهم أعني الاندلس واستطاعوا صد الخطر الذي يهدد بابتلاع الاندلس العربية في عدة معارك خاضها المرابطون بنجاح مثل معركة الزلاقة ومعركة إفراغه ومعركة اقليش

ولكن مالبث المرابطون أن ضعفوا وقامت الثورات ضدهم في الأندلس ولكنهم بالرغم من سقوط دولتهم في المغرب حافظوا على سلطانهم في الأندلس لفترة أطول وحينما بدأت الأمبراطورية الموحدية تمد نفوذها إلى الاندلس طلب الثائرون والمرابطون النجدة من أعداء الأمس الاسبان الشماليين ورحب الأسبان بمدِّ يد العون لان ذلك يعني مدَّ نفوذهم ويعني إضعاف الجبهة العربية المعادية وتفتيتها ولذلك وجد في شبه الجزيرة الإيبرية قوتان كبيرتان متصارعتان:

١ ـ الاسبان الذين اطلق عليهم المؤرخون العرب اسم الروم أو الإفرنج أو أسماً مشتقاً منه ديانتهم ألا وهو النصارى.

٢ ـ الموحدون.

واتخذ الصراع شكلين:

١ ـ صراع مباشر ويتمثل بالمعارك البرية والبحرية التي دارت بين القوتين الكبيرتين.

٢ ـ صراع غير مباشر وذلك بتشجيع الأعمال التي تضعف العدو وتؤدي إلى انهياره

(*) أثناء الإعداد لإصدار هذا العدد وخلال مراجعة ملفات الأعداد القديمة وجدت هذا البحث، وعند قراءتي اسم صاحبه وجدت نفسي أردد: رحمه الله، والذاكرة تقود بي سنوات طويلة عبر الزمن، نحو شاب كله تفتح على الحياة،طموحه بلا حد، وآماله بلا قيد. بكل جهد حصل ودرس، وبكل عصامية بنى نفسه وثقفها، إنه الزميل المرحوم عبد الكريم الشيخ حمود، الذي قضى شهيد العلم وهو يعد لرسالة الماجستير في بغداد. وكان لزاماً علينا أن نفي لذكرى زميل عزيز بذل نفسه وهو يسعى في سبيل العلم. فقدمت موضوعه هذا إلى هيئة التحرير بعد تحكيمه ومناقشته تمت الموافقة على نشره.

رحمك الله يا عبد الكريم. لقد فقدناك صديقاً وباحثاً ومحباً للتاريخ، وعهداً لنتابع الطريق الصعب الذي اخترته، وأن نبذل كل جهد لبعث تراث أمتنا

منذر الحايك

كالثورات مثلاً وتأييدها مادياً ومعنوياً.

هذا الصراع هو موضوع بحثنا القادم.

الصراع المباشر بين الموحدين والاسبان

١ - في عهد عبد المؤمن بن علي:

عين أبو زيد عبد الرحمن بين يخيت والياً على قرطبة CORDOBA وعين عبد الرحمن بن حفص والياً على اشبلية SEVILLA وذلك سنة ٥٥٠ هـ.

فهاجم ابن يخيت الحصون الإسبانية القريبة ومنها حصن البطروج LOSPEDROCHES ومايليه من الحصون وذلك سنة ٥٥٠ وفتحه واسر قائده القشتالي القمط وبعثه إلى مراكش ومالبث أن قام بحملة ثانية استولى فيها على حصني منتور والمدور ALMODOUAR جنوبي قرطبة وخرج عبد الله بن ابي حفص لغزو ابن الرنك - ابن الريق في بعض المصادر - في غرب الأندلس وكان معه براز صاحب المخزن وابن الجمام صاحب بطليوس BADAIOZ فعبر نهر التاجة عند قنطرة السيف ALCANTARA وهاجم حصن اطرونكش من أحواز بطليوس وانتصر عليه وقتل الاسبان الموجودين فيه فلما سمع الفنش بذلك أرسل قوة لإغاثة الحصن ونشبت معركة اخرة انتصر فيها العرب وقتلوا ٦٠٠ من عساكر الفنش - الأذفونش - وعاد ابن ابي حفص إلى اشبيلية ومعه الغنائم والسبي.

استعادة المرية ALMERIA

المرية مركزاً للبحريين العرب على سواحل اسبانيا، فرنسا، وإيطاليا

كانت المرية مركزاً للبحريين العرب الذين يغيرون منها على شواطىء اسبانيا وفرنسا وايطاليا فجهز الفرنج حملة صليبية برية وبحرية اشترك بها كل من قشتالة والنافار واراجون وقطلونية وجنوه وبيزة وحاصروها ثلاثة أشهر ودخلوها عنوة في ٢٠ جمادى الأولى سنة ٥٤٢ بقيادة السليطين - الفونسو السابع ريموند - الموافق ١١٤٧ م. وكان وجود الفرنج في المرية يهدد مواصلات الموحدين البحرية بين الأندلس وشمال افريقيا فارسل عبد المؤمن ابنه السيد أبو سعيد عثمان ومعه الشيخ أبو حفص فأرسل السيد حملة استطلاعية من غرناطة CRANADA وصلت باب المرية وقتلت عدداً من الفرنج ثم ارتدت إلى حصن برجة في الشمال الغربي من المرية وذلك سنة ٥٤٦.

ثم مالبث ان سار السيد بنفسه على رأس جيش ضخم وحاصرها براً واتاها

سطول سبتة وحاصرها بحراً بقيادة عبد الله بن سليمان وذلك سنة ٥٥٢ هـ وبنى سوراً على الجبل المشرف عليها إلى البحر وعمل عليها فندقاً حتى يمنع النجدات للفرنج المحاصرين بها. واستغاث النصارى بالفنش ـ الفونسو السابع ـ السليطين فسار على رأس ١٢٠٠٠ فارس وسار معه ابن مرونيش بـ ٦٠٠٠ فارس وحاولوا كسر الحصار والوصول إلى الحامية المحاصرة ولكنهم فشلوا وعاد كل إلى بلاده ولم يصل السليطين إلى بلاده لأنه توفي في الطريق إلى طليطلة TOLEDO في مورتله في ٢١ آب ١١٥٧ واستمر حصار الموحدين للمرية بضعة اشهر حتى سقطت سنة ٥٥٢ بأمان.

وفي ربيع الأول سنة ٥٥٢ جرت وقعة زغبولة قرب اشبيلية وهزم بها ابي يعقوب يوسف ابن الخليفة واستشهد فيها ابن عزون وابن الجمام والحافظ ميمون وهرب ابو يعقوب وابن وزير واسر الكثير من المسلمون.

وفي سنة ٥٥٥ استولى ابن الرنك ـ الفونسو هنريكيز على قصر ابي دانس ALCACEDOSAL وقتل جميع حاميته.

وفي نفس السنة جاءت «من جهة جيان» (JAEN) سرية من الاسبان لتتطلع الأخبار فخرج الأمر العزيز باتباعهم فادركهم الموحدون فغزوهم وسبوهم....

وفي سنة ٥٥٦ ارسل عبد المؤمن جيشاً إلى فحص البلقون فانهزم الاسبان وكان على القبائل ابن الشرقي وعلى الأندلسيين ابن صناديد.

وفي نفس السنة أرسل عبد المؤمن قائدين هما ابو سعيد بن الحسين وابو عبد الله بن يوسف وعندما وصلا اشبيلية أرسلا ٥٠٠ فارس لبطليوس فغزوا شنترين SANTAREN وهزموا الاسبان وملك الموحدون بطليوس وباجه BEJA ويابره وحصن القصر واراد عبد المؤمن أن يحقق انتصاراً ضخماً ضد الاسبان بغزوة عظمى براً وبحراً فأمر ببناء السفن فبنى منها ٢٠٠ قطعة على قول ابن صاحب الصلاة و ٤٠٠ قطعة على قول ابن أبي زرع وجمع الجنود وسار إلى سلا في يوم الخميس ١٥ ربيع الأول سنة ٥٥٨ فأجتمع له اعداد ضخمة قدرها ابن صاحب الصلاة بـ ١٠٠٠٠٠ فارس و ١٠٠٠٠٠ راجل بينما قدرها ابن ابي

٢٠٠ أو ٤٠٠ قطعة عدد السفن التي أمر ببنائها عبد المؤمن ليغزو الأسبان براً وبحراً

زرع بـ ٣٠٠٠٠٠ فارس و ١٠٠٠٠٠ راجل و ٨٠٠٠٠ من المطوعة جهات:

١ - جهة ابن الرنك بقلمرية COIMBRA

٢ - جهة الببوج بالبطاط.

٣ - جهة ادفونش بطليطلة.

٤ - جهة برشلونة BARCELONA.

من ذلك نرى ان عبد المؤمن كان يفكر بهجوم عام وشامل ضد الأسبان ولكن القدر لم يمهله فمرض وتوفي يوم الثلاثاء ١٠ جمادى الآخرة ٥٥٨ هـ ١٦ أيار ١١٦٣ ولكن ابن صاحب الصلاة يذكر أن اليوم هو يوم الجمعة ١٠ جمادى الآخرة ٥٥٨ .

٢ - في عهد أبي يعقوب يوسف:

كان يولي غزو الاسبان اهتماماً خاصاً حتى أنه كان أول الملوك الموحدين الذين غزوا بأنفسهم وقد شغل في بداية حكمه بالقضاء على خصومه وتثبيت دعائم حكمه فاستغل الاسبان ذلك وقاموا بمهاجمة العرب بالأندلس. فمثلاً مهاجمة اسبان شنترين نظر طلياطة بجهة اشبيلية فارسل ابو عبد الله بن أبي ابراهيم عسكر اشبيلية بقيادة ابو العلاء بن عزون فأدركوهم وانقذوا الغنائم واسروا مائة فارس منهم وكان ذلك سنة ٥٦٠ هـ.

أبي يعقوب يوسف أول الملوك الموحدين الذين غزوا بأنفسهم

وكذلك مهاجمة جراندة لمدينة ترجاله TRUJILLO في جمادى الآخرة سنة ٥٦٠ ومهاجمته لمدينة يابرة EVORA في ذي القعدة من نفس العام وهاجم قامرش في صفر عام ٥٦١ وحصن منتانجش في جمادى الأولى من نفس السنة وحصن شيربه في آخر جمادى الأولى وحصن جلمانية حيث اتخذه لمهاجمة بطليوس حيث احتل هذه الأخيرة بمساعدة ابن الرنك وحصر الموحدين في قصبتها وكانوا بقيادة أبي علي عمر بن تمصيلت وكان ذلك في رجب سنة ٥٦٤ وشدد الاسبان الحصار على الموحدين مما أدى إلى جواز الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى إلى اشبيلية وبينما هو يستعد للسير إلى بطليوس إذ جاء الخبر بأن فرناندة الببوج جاء لطرد ابن الرنك وجراندة وفعلاً استطاع الانتصار عليهما بمساعدة من الموحدين المحاصرين في العقبة الذين فتحوا باباً من أبواب المدينة وادخلوا جيش الببوج المدينة ودارت المعركة بين الببوج والغرب من جهة وابن الرنك وجراندة من جهة أخرى ففر ابن الرنك وكسرت ساقه اليمنى اثناء الفرار ثم اسر في

الموضع المعروب بقاية ولكن البيوج أحسن معاملته واطلقه وفر جراندة ايضاً وبذلك خرج الاسبان من بطليوس في ٢٢ شعبان سنة ٥٦٢ ثم عين ابو يحيى بن ابي حفص والياً عليها بعد تحريرها ودارت بينه وبين جراندة المقيم في حصن جلمانية عدة معارك وفي آخر هذه المعارك خدعة جراندة إذ تحالف مع أهل شنترين فامدوه بقوة كبيرة فأكمنهم ثم اغار على بطليوس فلاحقه ابو يحيى وجراندة يفر أمامه حتى وصل إلى مكان الكمين فخرج عليه الكمين وانهزم العرب واسر جماعة منهم ولم تكن الجبهة الغربية هي الجبهة الوحيدة وإنما وجدت عمليات حربية بين الطرفين في القطاع الأوسط فمثلاً في جمادى الآخرة سنة ٥٦٣ غزا أهل جراندة المقيمين في وادي اش GUADIX مدينة رندة RONDA فغنموا فعلم الشيخ ابو عبد الله بن ابي ابراهيم والي غرناطة بذلك فأرسل قوة لاقت الاسبان بين نظر وادي آش وبين نظر غرناطة فالتجأ الاسبان إلى جبل شاهق فهاجمهم الموحدون وانتصروا عليهم وقتلوا وسبوا واسروا ٥٣ منهم ساقوهم إلى غرناطة حيث قتلوا.

وتعرضت رندة إلى هجوم آخر من قبل نونة ظئر اذفونش بن السليطين ووصل في هجومه إلى الجزيرة الخضراء ALGECIRAS ووصل إلى البحر الأبيض المتوسط وقتل العرب وباسر منهم، وإذا عدنا إلى جبهة بطليوس نجد أن جرندة قد حاصرها بطليوس مما أدى إلى ضائقة تموينية بها مما سبب ارسال ٥٠٠٠ دابة ميرة من اشبيلية وكان قائد القافلة ابو يحيى زكريا بن علي ولكن عندما وصلت القافلة قرب بطليوس خرج جراندة عليهم ومعه أهل شنترين وهزمهم وقتلهم واسرهم ونهب الميرة وكان ذلك يوم الخميس ٢٦ شعبان ٥٦٥ واستشهد قائد القافلة في هذه المعركة.

انقسام في جبهة الاسبان وعقد الصلح بين العرب والبيوج

ولكن مالبث الموحدون بقيادة السيد ابو سعيد ان ساروا إلى بطليوس لإخراج الاسبان منها وفي نفس الوقت وصل فرناند البيوج إلى قرب بطليوس قاصداً احتلالها حتى لايتغلب عليها ابن الرنك وجراندة مما يدلنا على انقسام في جبهة الاسبان ثم مالبث أن عقد الصلح بين العرب والبيوج وتابع السيد ابو سعيد هجومه باتجاه حصن جلمانية وفتحه عنوة وطرد جراندة منه وكان ذلك في

ربيع الأول سنة ٥٦٦ وفي سنة ٥٦٦ جاز أبو يعقوب يوسف إلى الاندلس بنية الهجوم على الاسبان فوصل اشبيلية يوم الجمعة ١٢ شوال واقام بها (١٠ ايام) ثم شار إلى قرطبة فوصلها في أول ذي القعدة ووجه منها عسكراً يقدر بـ ٢٠٠٠٠ وعليهم أبا محمد عبد الله بن أبي حفص بن تقريجين إلى طليطلة فعبر وادي تاجه وغنم ثم انصرف إلى قرطبة ووجه الميره على ٤٠٠ دابة إلى بطليوس وبعد ايصال الميرة عرج الموحدون أثناء عودتهم على حصن لبيون وفيه اسبان من اصحاب جراندة ففتحوه.

وحدثت غزوتان لطليطلة الأولى بقيادة أبي يعقوب نفسه والثانية بقيادة السيد ابي بكر ابن الخليفة وقابل في هذه الغزوة شانسوفيمينو (ابو برذعة) فانتصر عليه ابي بكر وقتله وقتل جميع جنوده وعددعهم ٣٦٠٠٠.

غزوة وبذة HUETE

خرج ابو يعقوب بنفسه لهذه الغزوة يوم الأثنين ١١ شوال سنة ٥٦٧ فوصل قرطبة الأحد ١٧ شوال واقام بها حتى الاثنين ٢٥ شوال ثم سار إلى القصير واندوجر ANDUJAR حتى وصل قرب بياسة BAEZA ثم فتح حصن

المطر سقى الاسبان المحاصرين في القصبة ومنع العرب من اسقاطها.

بلج يوم السبت ٣٠ شوال وحصن الكرس ALCARAZ يوم الجمعة ٦ ذي القعدة ثم سار إلى بلاط الصوف ثم إلى غدر ثم إلى مرج البسيط ثم إلى وادي جزيرة شقر JUCAR حيث ارسل اخاه أبا سعيد في ١٢٠٠ فارس للإغارة على أول بلاد الاسبان بجهة وبذة ففتح حصن برج خمل ثم سار إلى وبذة حيث جرت معركة انتصر فيها الغرب وبات ابا سعيد على الجبل المطل على المدينة أما ابو يعقوب يوسف فقد وصلها يوم الثلاثاء ١٧ ذي القعدة. حيث اشتبك مع الاسبان وادخلهم المدينة وحاصرهم ومنع عنهم الماء وتجددت المعارك يوم الأربعاء ودخل العرب المدينة وحاصروا الاسبان في القصبة ولم يبق في المدينة قتال إلا في جهة الغرب جهة أبو العلاء ابن عزون الذي طلب العون من أبو يعقوب ولكن هذا لم يمده لاشتغاله بمذاكرة الطلبة.

في يوم الخميس ١٩ ذي القعدة وصل موفد من الاسبان لتسليم المدينة مقابل تأمين أهلها ولكنه صرف دون جواب طمعاً بفتحها بالقوة وعاد الموفد يطلب الأمان مساء اليوم نفسه ولكنه أيضاً لم يجاوب. واستمر الحصار وفي يوم الأحد

٢٢ ذي القعدة جاء مطر وابل سقى الاسبان المحصورين وهبت ريح شديدة وكذلك حدث صبيحة الاثنين مما أضعف معنويات العرب وتجددت المعارك بعد ظهر يوم الاثنين وفي ليلة الأربعاء ٢٥ ذي القعدة خرج الاسبان المحاصرين وهاجموا قبيلة هسكورة مما اضطرها إلى الفرار وفي يوم الجمعة ٢٧ ذي القعدة عرض الأمان على الاسبان وبذه فرفضوه وفي يوم الأحد ٢٩ ذي القعدة اقلع ابو يعقوب عن وبذه وبعد ان عجز عن فتحها فلما شاهده الاسبان المحاصرون خرجوا وهاجموه واشعلوا النار في معسكره وقتلوا الضعفاء والمرضى. وسار عائداً على طريق قونكة CUENCA فوصلها يوم الثلاثاء ١ ذي الحجة ثم سار منها إلى البورت يوم الأربعاء ٢ ذي الحجة حيث التقى باذفونش الصغير وقمطة نونة فلجأ ابو يعقوب إلى جبل حصين على الضفة الأخرى من وادي شقر بينما الاسبان على جبل توبنس وفي يوم الجمعة اشتبك الفريقان وانتصر العرب ثم انسحب اذفونش إلى بلاده في ٥ ذي الحجة.

ثم عاد أبو يعقوب إلى اشبيلية على طريق جبل الصومعة - وادي تامطة - وادي برج قبلة حيث عانوا قلة التموين - عقبة الاباليس - مرح القبداق - حصن ركانه - مجمع الأدوية - حصن بنيول - شاطبة - حصن بليانة - حصن عصف - حصن الج - حصن اوريوله - مرسيه - غرناطة - اشبيلية حيث وصلها يوم الخميس ٨ ربيع الأول ٥٦٨.

ما هو سبب فشل هذه الغزوة علماً أن الجيش كان يقدر بـ ١٠٠٠٠٠ فارس وراجل؟

١ - الظروف الجوية السيئة وذلك أن الأمطار نزلت في فصل الصيف وهذا غير مألوف.

٢ - الغلاء وقلة الأقوات وسوء الحالة التموينية للجيش.

٣ - فساد البنية في الجهاد.

وفي أثناء تراجع ابو يعقوب وفي شهر محرم من سنة ٥٦٨ هاجم ابن الرنك مدينة باجه واخذها من عمر بن مسحنون.

وفي شعبان من نفس السنة خرج شان منوس - الأحدب - من مدينة آبلة وعبر الوادي الكبير وهاجم استجه ECIJA فغنم ٥٠٠٠٠ رأس وأسر من العرب مايزيد على ١٥٠ رجلاً ثم عاد وعبر الوادي من مخاضة بليارش فارسل ابو

مطر الصيف (الغير مألوف) سبباً في فشل غزوة كبرى

يعقوب خلفه اخاه ابو زكريا يحيى يوم الخميس ١٣ شعبان وعبر الوادي الكبير من مخاطة قطيفان وسار إلى قرطبة حيث سار معه الشيخ ابو حفص ثم ساروا إلى حصن البطروج ثم لحقوا شان منوس بفحص كركوي قرب قلعة رباح CALATRAVA فهرب إلى جبل في المنطقة فهاجمه الموحدون وهزم الاسبان وقتل الأحدب وجميع من كان معه عدا مائتين واسترجعت الغنائم والأسرى يوم الأربعاء ١٩ شعبان. وفي سنة ٥٦٨ ايضاً ارسل ابو يعقوب ٤٠٠ فارس ومعهم ميرة على ٣٠٠٠ دابة إلى بطليوس فاوصلوا الميرة ثم خرجوا غازين لنظر طلبيرة TALAUERA فغنموا ٣٠ . . . رأس وسبوا وقتلوا وارسل ايضاً من غزا طليطلة ايضاً.

وفي سنة ٥٦٩ غزا ابو يعقوب مدينة كركونة في شرق الأندلس.

غارات دائمة بين العرب والاسبان ولم تكن أعمالا حربية كبيرة

وفي سنة ٥٧٠ يبدو أن الصلح بين الموحدين وفرناندة البيوج قد انفصمت عراه لذا نرى هجوماً من قبل الموحدين على البيوج واحتلالهم لقسم من اراضيه يتمثل بقنطرة السيف وناخوش.

وهذه الأعمال كلها كانت غارات دائمة يقوم بها الطرفان ضد بعضهما بعضاً بداعي الجهاد ولم تكن اعمالاً حربية كبيرة ذات اثر حاسم، وتستمر هذه الغارات فمثلاً:

في سنة ٥٧٢ نشبت معركة بين الموحدين والقتاليين وانصارهم الأرجوانيين فانهزم الموحدون واستولى المتحالفون على قونكة.

وفي شوال من نفس السنة اغار ابي الحسن على جهات طليطلة واغار ابو علي على طلبيرة وفتح حصناً على وادي تاجه.

وكرد على هجوم الموحدين على أراضي البيوج نجد أنه يغير في هذه السنة على أركش ARCOS DEAFRONTERA وشريش JEREZ ولكن جند اشبيلية يلاحق جنوده ويهزمهم ويأسر ٨٠ منهم وفي الجهة الغربية حيث كانت الحرب تدور ضد ابن الرنك نجد هذا قد حاصر مدينة باجة BEJA في سنة ٥٧٣ ثم اقلع عنها وتوغل في أراضي العرب حتى وصل طريانة قرب اشبيلية وتغلب عليها ورد العرب بهجوم ابن تمصليت على فحص ابي دانس وبينما هو يقاتل إذا اتت الامدادات من أهل شنترين لاعدائه فانهزم العرب.

وفي ١٠ محرم سنة ٥٧٦ حاصر محمد بن بوانودين الهنتاني يابرة ولم يتمكن من فتحها فرفع الحصار وسار إلى حصن فخ وفتحه.

وفي سنة ٥٧٧ اغار اهل شنترين على الشرف ALJARAFE فخرج عليهمي عسكر اشبيلية وقتلوا منهم ١٧٠ وتبعوهم فخرج على المسلمين كمين فانهزموا. واغار اهل طليطلة على اتجه وجهة قرطبة وفي سنة ٥٧٨ اغار أهل شنترين واشبونة ALSBONA على شلوقة من منطقة الشرف في ١٠٠٠ فارس و ١٠٠٠ راجل وكذلك اغاروا على حصن القصر.

أما في جبهة قشتالة فقد جرت حوادث برية هامة في سنة ٥٧٨ قام بها اذفونش الصغير اذحاصر قرطبة في ٤ صفر ثم سار إلى مالقة MALAGA ورندة وغرناطة واتجه واحتل حصناً من عمل روندة واسر فيه ١٤٠٠ مسلم ثم استولى على حصن شنتفيلة وحصن المنار في ١٧ صفر فاسر ٧٠٠ عربي ووضع فيه ٥٠٠ فارس و ١٠٠٠ راجل وعاد إلى بلاده في ١٣ ربيع الأول ولكن هذا الحصن مالبث أن عاد إلى العرب في ١٥ جمادى الأولى.

ورد العرب في ٨ جمادى الآخرى حيث خرج عبد الله بنن وانودين من اشبيلية إلى حصن بثه فاسر ٢٠ فارساً ثم سار إلى طلبيرة فغنم وعاد فتبعه أهل طلبيرة فاشتبك معهم وهزمهم وقتل منهم ١٠٠٠ ومن اليهود أحلافهم ١٠٠٠.

هجوم عربي واخر أسباني على مواقع هامة واسر وغنائم من الطرفين.

وهذه المعارك كانت كلها برية ولكن كانت هنالك معارك تدور في البحر أيضاً بين الطرفين على الشواطىء الشرقية والغربية وعند مصب نهر التاجه ولكنها لم تسفر عن نتيجة حاسمة.

فقد غزا غانم بن مردنيش اشبونة بحراً وغنم قطعتين وعاد إلى سبتة وكان ذلك سنة ٥٧٥ فرد الفرنج بغزو شلطيش SALTES فاسروا عدداً من العرب وفي منتصف محرم سنة ٥٧٦ اغار الاسبان على سبتة واسروا غانم وغنموا كثيراً من القطائع. فرد العرب على ذلك بهجوم بحري قاده عبد الله جامع وابو العباس الصقلي بعد أن اجتمعا بقادس GADIZ وكان معهما ٤٠ قطعة وجرت معركة مع اسطول اشبونة وانتصر العرب وغنموا ٢٠ قطعة واسروا ١٨٠٠ من الاسبان وكان ذلك في منتصف محرم ٥٧٧ .

جملة تلفظها الخليفة أودت بحياته

غزوة شنترين SANTAREN:

لكي يضع ابو يعقوب حداً لهذه الغارات رسم خطة لضرب الدويلات الاسبانية وأراد أن يبدأ بضرب اقوى أعدائه حتى إذا ماعم الرعب بعدها بقية الدويلات من جراء الانتصار اخضع بقية الدويلات بسهولة.

لتطبيق هذه الخطة اراد مهاجمة البرتغال براً وبحراً حتى إذا وصل نهر دويرة DUERO زحف على ضفاف التاجو ودويره إلى قلب قشتالة وليون LEON.

خرج أبو يعقوب من اشبيلية يوم الخميس ٢٦ صفر سنة ٥٨٠ فوصل في طريقه إلى حصن العرجة يوم الجمعة ٤ ربيع الأول ثم سار إلى بطليوس وتركها يوم الخميس ١٠ ربيع الأول حتى وصل شنترين وحاصرها يوم الأربعاء ١٦ ربيع الأول بينما يجعل ابن ابي ررع بدء الحصار في ٧ ربيع الأول واستمر في الحصار حتى يوم الأثنين ٢١ ربيع الأول بينما يجعل ابن أبي زرع نهاية الحصار يوم الثلاثاء ٢٢ ربيع الأول وارتكب ابو يعقوب خطأ وذلك بتحويل معسكره من شرق شنترين إلى شمالها وغربها مما يعرض الجيش لخطر التطويق. وحدث سوء فهم للأوامر الصادرة عن الخليفة فقد امر أبو يعقوب ابنه أبا اسحق ان يبكر صباحاً بالقيام بهجوم تجاه اشبونة لكي يحمي الهجوم على شنترين من مفاجأة من هذه الناحية وان يكون رحيله نهاراً.

ولكن أبا اسحق ظن أنه امره بالرحيل ليلاً وعبر نهر التاجو باتجاه اشبيلية بدلاً من السير باتجاه اشبونة واشيع عن عزم الخليفة على الرحيل بسبب رحيل أبو اسحق وبسبب جملة تلفظها الخليفة في مجلسه الخاص «نحن راحلون غداً ان شاء الله» ولكنه لم يصدر أمراً بالرحيل فقوض أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الرحمن المالقي خباءه وقوض الناس اخبيتهم عندما رأوه والخليفة لاعلم عنده بذلك وفي الصباح لم يجد الخليفة الا خاصته. فلما رأى الاسبان المحاصرين ذلك هاجموا الموحدين ووصلوا إلى خيمة ابو يعقوب وطعن عدة طعنات، وعاد أبو اسحق في هذه الأثناء بمن معه وجرت معركة اخرى انتصر فيها العرب وقتلوا ١٠٠٠٠ من الاسبان ثم مالبث ابو يعقوب ان توفي. واختلف المؤرخون بكيفية هذه الوفاة:

١ - يذكر ابن زرع ان الخليفة طعن عدة

طعنات وانه توفي متأثراً بها يوم السبت ١٨ ربيع الآخر.

٢ ـ يذكر عبد الواحد المراكشي أن الخليفة طعن تحت سرته وانه توفي في ٧ رجب.

٣ ـ يروي ابن الاثيرانة مرض وتوفي اثناء الحصار ويؤيده في ذلك الحميري.

ولكن بصورة عامة لم يكن أبو يعقوب موفقاً في قتاله للاسبان لا في حصار وبذه ولافي حصاره لشنترين حيث فقد حياته في هذا الحصار.

٣ ـ في عهد أبو يوسف يعقوب المنصور:

يعتبرالمنصور من أنجح الخلفاء الموحدين في قضية الصراع ضد الأسبان بالرغم من أنه عانى بعض المصاعب الداخلية عند تسلمه السلطة فاستغل الأسبان في الجبهة الغربية ذلك وأرسل ابن الرنك ـ ابن الريق ـ جيشاً برياً ودعمه بصليبيين قدموا من انكترا إلى مدينة شلب Slives فدخلها وسبى وقتل إذ كان عدد سكانها ٦٠٠٠٠ فلم ينجو منهم سوى ١٣٠٠٠ ثم تابعوا زحفهم واستولوا على باجة ويابرة.

أما القشتاليون فقد كانوا بقيادة اذفونش ـ الفونسو الثامن ـ فاستولى على حصن المنار اثناء غزوه لقرطبة واشبيلية وحاصر أم عزالة واحتل ربيئة ووصل إلى حصن شلير ثم سار إلى الجزيرة الخضراء وتحدى المنصور واستمر في غزوته من ربيع الآخر حتى أوائل جمادى الآخرة سنة ٥٨٥ .

أما رد فعل المنصور تجاه هذه الأحداث فقد وبخ قادة الأندلس عند سماعه سقوط تسلب وأمرهم بغزو الغرب وفعلاً سار والي قرطبة محمد بن يوسف في سنة ٥٨٦ واعاد فتح شلب وباجه ويابرة وفتح قصر ابي دانس ورجع إلى قرطبة ومعه ١٥٠٠٠ سبيه و ١٣٠٠٠ أسير في شوال ٧٥٨ وفي سنة ٥٨٥ أي قبل خسارة شلب عبر المنصور إلى الأندلس وأغار على شنترين لينتقم لهزيمة والده وعلى الأشبونة وقتل وسبا وعاد إلى العدوة بـ ١٣٠٠٠ سبية.

معركة الأرك ALARCOS:

في سنة ٥٩١ وبعد قدوم كتاب التحدي من الفونسو عبر المنصور البحر في جمادى الآخرة واسرع إلى لقاء عدوه الذي كان ينتظره في مكان يدعى الأرك ين قرطبة وقلعة رباح وقبل وصول المنصور إلى المكان بمرحلتين عقد مجلساً حربياً يوم الخميس ٣ شعبان ٥٩١

المنصور من انجح الخلفاء الموحدين، في قضية الصراع ضد الاسبان، بالرغم من مصاعبه الداخلية.

القلب.. الميمنة.. الميسرة.. المقدمة.. خطة انتصر فيها المنصور

استشار الأشياخ وخاصة الأندلسيين منهم وذلك لخبرتهم بقتال الاسبان فأقترح عليه ابن صناديد ان يقدم أحد شيوخ الموحدين بالجيوش للقتال وبقاء المنصور مع احتياطي جيوش الموحدين قريباً لحماية المنهزمين وبنفس الوقت يكون القدو قد انكسرت شوكته من قتال المتقدمين فوافق المنصور على الخطة وفي ٥ شعبان عين ابي يحيى بن أبي حفص قائداً للجيش المتقدم.

التعبئة عند المسلمين:

القلب: وفيه القائد العام أبو يحيى ومعه قبيلة هنتاتة.

الميمنة: وفيها ابن صناديد ومعه جنود الأندلس.

الميسرة: وفيها العرب بقيادة جرمون بن رياح ومغراوة بقيادة منديل المغراوي ومرين بقيادة محيو بن أبي حمامة وهسكورة والمصامدة بقيادة تجليد بن علي.

المقدمة: وفيها المطوعة بقيادة أبي خزر يخلف الأوروبي.

وتقدم الجيش وكان الأسبان على ربوة عالية فنزل العرب أمامهم في الوطا يوم الأربعاء ٩ شعبان ٥٩١ - ١٩ تموز ١١٩٥ وكان يحيى جناح العرب قلعة الأرك وبعض التلال.

سير المعركة:

خرج القادة يشجعون المقاتلين ولما أندفع للهجوم انقض عليهم ٧ - ٨ آلاف من الفرسان القشتاليين المثقلين بالدروع ورد العرب الهجوم مرتين وعززت قوى القشتاليين وهجموا للمرة الثالثة على القلب ووصلوا إلى القائد العام وقتلوه ولكن الجناح الأيمن بقيادة ابن صناديد التف على المهاجمين واصبحت المعركة اكثر عنفاً وتقدم الموحدون وحينئذ هجم المنصور ببقية الجيش وحطم بقية المقاومة وهزم الأسبان وفر الأذفونش في ٢٠ فارساً.

أما بالنسبة للخسائر:

١ - يذكر ابن عذاري ويوافقه الحميري أن قتلى العدو كان ٣٠٠٠٠ بينما خسائر العرب ٥٠٠.

٢ - بينما يذكر ابن الايتر أن قتلى الأفرنج ١٤٦٠٠٠ وان الاسرى ١٣٠٠٠ وخسر العرب ٢٠٠٠٠ قتيل واستفاد المنصور من النصر فحاصر قلعة الأرك ودخلها عنوة واسر في الحصن ٢٤٠٠٠ اطلقهم المنصور وغير كنيسة الحصن إلى مسجد وصلى بها المسلمون.

وفي سنة ٥٩٢ خرج المنصور يوم الأثنين منتصف رجب وفتح حصن منتانجش وترجاله وطلبيرة وشن الغارات على طليطلة وقطع اشجارها وانكى في الروم.

وجدد غاراته في السنة التالية ٥٩٣ وتوغل في بلاد الروم ووصل إلى مواضع لم يصل إليها ملك من العرب فقد فتح رباح ووادي الحجارة GUADAJARA ومجريط MADRID وجبل سليمان واقليج UCLES وحاصر طليطلة وفيها الفونسو لمدة ١٠ ايام ثم رحل إلى طلمنكة TALAMANKA فدخلها عنوة وفتح البلاد وترجاله وعاد إلى اشبيلية في صفر ٥٩٣.

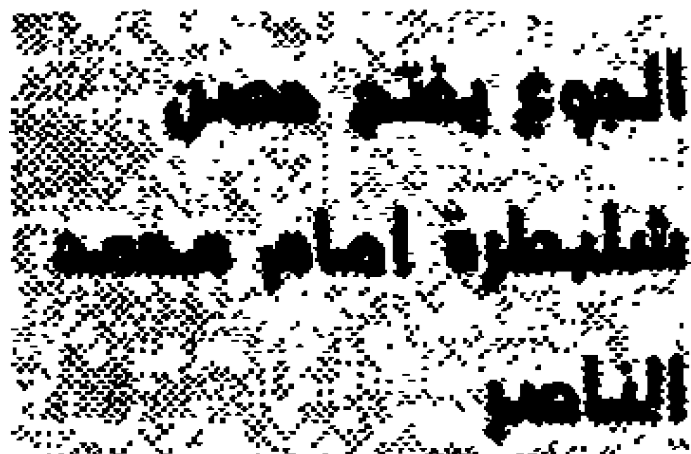
٤ ـ في عهد محمد الناصر:

استولى العدو البرجلوني على حصون من نظر بلنسية VALENCIA وكان ذلك سنة ٦٠٧ وجرت في عهده وقعة العقاب.

وقعة العقاب LASNAVAS DELOLSA

في سنة ٦٠٧ نقض القشتاليون الهدنة القائمة بينهم وبين العرب وقادهم الفونسو ـ اذفونش ـ عدة مرات إلى الأندلس يقتل دليسبي وخرب اراضي جيان وبياسة BAEZA واندوجر ووصل اهواز مرسية MURCIA وعاد إلى طليطلة فاستغاث المسلمون بالناصر الذي استنفر المسلمين للجهاد وجمع الجيوش وجاز بهم إلى الأندلس في ١٩ ذي القعدة سنة ٦٠٧ وقسم جيشه خمسة فرق: الأولى وتضم الاندلسيون والثانية الموحدون والثالثة المتوعة وعددهم ١٦٠٠٠٠ من الفرسان والمشاة والرابعة العرب ولايذكر ابن أبي زرع الفرقة الخامسة بينما السيد سالم يجعل الفرق كالآتي:

الأولى للعرب والثانية لزناقة وصفهاجة والمصامدة وغمارة وسائر قبائل العرب والثالثة للمتطوعة والرابعة للأندلسيين والخامسة للموحدين. وكان عددهم ٥٠٠٠٠٠ دون المرتزقة. في أول صفر ٦٠٨ سار الناصر إلى قشتالة ونزل على حصن شلبطرة بخيرة جنده وحاصره ثمانية أشهر حتى فنتيت ازواد الناس وقلت العلوفات وكلت العزائم وغلت الأسعار واشتد البرد ومرض الجند وحاول الفونسو مد الحصن إلا أنه فشل وفتح حصن شلبطرة بفعل الجوع في آخر ذي الحجة ٦٠٨ هـ. وفي أثناء ذلك كان وزيره ابن جامع يسيء الأشياخ


الجوع يفتح حصن شلبطرة امام محمد الناصر

قتل الناصر لابن قادس أثار حنق الأندلسيين ودفعهم إلى الفرار

الموحدين واهان قواد الأندلس ففسدت نياتهم.

وعند سقوط شلبطرة طلب ملك قشتالة تنظيم حملة صليبية ضد عرب الأندلس وفعلاً نجد أن ملوك الأسبان قد اتفقوا فيما بينهم وقدمت قواتهم إلى طليطلة واصبحت هذه القوات تتألف من قوات قشتالة وفرسان رباح وشانت ياقب SANTIAGO والفرسان الاستبارية والفراسن الداوية ونافار واراجون وجيليقية والبرتغال وكذلك اتت جيوش من فرنسا وايطاليا والمانيا.

وزحفوا من طليطلة ٢٠ حزيران ١٢١٢ - ٦٠٩ هـ وساروا في ثلاثة جيوش باتجاه الجنوب: الجيش الأول وقائده ديجولوبيت دي هارو وفيه ١٠٠٠٠٠ مقاتل.

الجيش الثاني وقائده بدرو الثاني ويضم الأرغونيين والقطلونيين وفرسان الداوية.

الجيش الثالث وقائده الفونسو الثامن ملك قشتالة ويضم القشتاليين والليونيين والبرتغاليين وفرسان رباح وشنت ياقب والاستبارية.

تقدم الجيش الأول وهاجم حصن مجلون في ٢٤ حزيران وقتلوا من فيه ثم اجتمع الجيش على قلعة رباح وحاصروها وسقطت المدينة ولكن القلعة لم تسقط ثم أعطي العرب المدافعون عن القلعة وعددهم ٧٠ فارساً بقيادة ابن قادس. الامان وانسحبوا دون سلاح مما أدى إلى انقسام في الجيش الفرنجي لعدم قتل العرب ثم تابعت الجيوش مسيرها واستولوا على حصن الأرك. أما الناصر فقد تألم لسقوط قلعة رباح وقتل ابن قادس فور وصوله مما آثار حنق الأندلسيين ودفعهم إلى الفرار من المعركة دون قتال.

خرج الناصر من اشبيلية في المحرم سنة ٦٠٩ على رأس جيشه فوصل قرطبة ثم سار منها إلى جيان ثم إلى بياسة ونزل بفخص البلوط بين جيان ورباح واحتلت سرايا من جنده ممرات جبال الشارات المؤدية إلى ابدة UBEDA وبياسة ومنع الفرنج من عبور هذه الممرات ولكنهم مروا من طريق في مرتفع آخر دون أن يفطن العرب وانحدروا إلى سهل ابده دون أن يتمكن العرب من اعاقتهم وبقي قسم من الجيش بمكانه لخداع العرب.

التعبئة:

الأسبان:

القلب وفيه ملك قشتالة وفيه ٤ فرق.

الجناح الأيمن وقائده سانشو ملك نافارا.

الجناح الأيسر وقائده بيدرو الأرجواني وفيه ٤ فرق.

العرب:

المقدمة وفيها المتطوعة وهم ١٦٠٠٠٠

الميمنة وفيها الاندلسيون.

الميسرة وفيها البربر

القلب وفيه الموحدون ومعهم الناصر

الساقة

اشتبك الجيشان في ١٥ صفر ٦٠٩ وهاجم المتطوعة ولكن الفرنج انطبقوا عليهم وافغرهم عن آخرهم ثم تقدم القشتاليون وهاجموا ففر الاندلسيون لقتل ابن قادس ومعاملتهم السيئة من قبل ابن جامع ومع ذلك صد هجومهم وتابعهم الفرسان العرب ولكن اتت الأمدادات للفرنج الفارين فعادوا للهجوم باتجاه القلب وكان جناحا الجيش العربي قد تحطما بسبب فرار الاندلسيين ثم مالبث القلب أن تحطم وفر الناصر باتجاه بياسة ثم إلى اشبيلية.

خسائر المسلمين: لم ينج من المسلمين سوى ١/١٠٠ أو كانت السبب في هلاك الأندلس إلى الآن. بينما يقدر العدو خسائر المسلمين ٦٠٠٠٠ كحد أدنى إلى ٢٠٠٠٠ كحد أعلى.

خسائر الأسبان: تقدر كحد ادنى بـ ٢٥ شخصاً وكحد أعلى ٢٠٠ شخص.

نتائجها: سقطت حصون فرال وبلقس وتولوسا وبياسة حيث احرق العرب اللأئذون بالمسجد وحوصرت مدينة ابدة وقتل فيها ٦٠٠٠٠ من العرب وسبي منها مثل هذا العدد وسقطت مدينة بسطة أيضاً وباغو.

وفي سنة ٦١٤ هـ هزم العرب بقصر ابي دانس هزيمة تقرب من هزيمة العقاب إذا حاصر الفونسو الثاني ملك البرتغال قصر ابي دانس فخرجت جيوش اشبيلية وقرطبة وجيان وغرب الأندلس لاعانة القصر ولكن المسلمين وقد خامر قلوبهم الرعب بسبب هزيمة العقاب فلم يلتقوا بالعدو إلا وقد فروا فقتلهم العدو عن آخرهم ثم عاد الفونسو إلى قصر ابي دانس وحاصره ودخله بالسيف.

هزيمة العقاب كانت السبب في هلاك الاندلس وسقوطها

الصراع غير المباشر بين الموحدين والاسبان

ويتمثل هذا الصراع بتشجيع كل طرف لكافة الأعمال التي تؤدي إلى اضعاف الطرف الآخر كتشجيع الثورات

وتأييدها مادياً ومعنوياً.

الجانب المسيحي:

يتمثل الصراع في الاندلس بتشجيع كل طرف للاعمال التي تؤدي الى إضعاف الطرف الآخر

حالف النصارى أبن مردنيش القائم بالثورة ضد الموحدين في شرق الأندلس وتمثل هذا التحالف بمساعدة كل طرف للطرف الآخر من الناحية العسكرية وقد مر معنا مساعدة أبن مردنيش لاذفونش عندما حاول الأخير امداد المرية المحاصرة من قبل الموحدين سنة ٥٥٢ هـ، أما ابن مردنيش فقد «استدعى النصارى.. فجعلهم اجناداً له واقطعهم.. واخرج كثيراً من أهل مرسية واسكن النصارى دورهم» وفعلاً نجد أنهم ساعدوه في كثير من معاركه ضد الموحدين وساعدوا صهره ابن همشك قبل توحيده.

ففي سنة ٥٥٤ قام ابن مردنيش بمساعدة «اصحابه النصارى» باحتلال جيان وحصار قرطبة ومهاجمة اشبيلية. وكذلك هاجم ابن همشك قرطبة في نفس السنة وكان «يستعين باخوانه النصارى» وهاجمم غرناطة واحتل المدينة وحاصرا لموحدين في القصبة وطلب النجدة عن ابن مردنيش وحلفائه النصارى الذين امدوه بـ ٢٠٠٠ فارس ورجالة كثيرة عليهم الأقرع حفيد البرهانس وساعدوه في موقعة مرج الرقاد ضد نجدة موحدية للمحاصرين في القصبة وكانوا بسبب انتصاره في هذه المعركة، ثم وصل ابن مردنيش واصحابه النصارى وقوادهم الأقرع والقمط ارجال واخوه وكان عددهم ٨٠٠٠ فارس ولكن الموحدين انتصروا عليهم في معركة جبل السبيكة وقتلوا الأقرع حفيد البب هانس وكانت المعركة يوم الجمعة ٢٨ رجب ٥٥٧ .

ونجد النصارى يساعدون ابن مردنيش في معركة الجلاب التي جرت يوم الجمعة ٧ ذي الحجة ٥٦٠ ولكن ذلك لم يمنعه من خسارة المعركة. وكان النصارى أكثر قتلى المعركة.

وكمكافأة لمساعداتهم نجد أن ابن مردنيش يعطيهم بعض الحصون مثل: حصن لبة وحصن بلج وحصن الكرس.

ونلاحظ أن ابن مردنيش قد اسكن النصارى بعض الحصون كحصن لبسة واسكن ٤٠٠ من النصارى مدينة لورقة LORCA مع قائده أبي عثمان بن عيسى.

ولكن النصارى فقدوا حليفهم بوفاته في ١٠ رجب ٥٦٧ وتوحيد أولاده.

وتدخل النصارى في الصراع على السلطة الذي جرى في فترة انقسام

وضعف الدولة الموحدية فقد ايدوا بعض المطالبين بالعرش بشروط كانت في صالحهم فمثلاً طلب السيد عبد الله البياسي التحالف مع الفونسو ضد أخيه العادل مقابل بياسة وقيجاطة QUESADA فامده الفونسو بـ ١٠٠٠٠ فارس. ولم يكتف البياسي بذلك وإنما اعطاهم ايضاً اندوجر ومرترس ومدسس والتراب و٢٠ حصناً ثم اعطاهم شلبطرة.

وكذلك نجد ملك قشتالة يسارع إلى دعم المأمون الذي استنصره على الموحدين الذين نكثوا بيعته وبايعوا يحيى فارسل معه ١٢٠٠٠ فارس بشروط قاسية:

١ ـ اعطاءهم ١٠ حصون مما يلي قشتالة.

٢ ـ بناء كنيسة بمراكش.

٣ ـ ان اسلم أحد من الروم لايقبل اسلامه ويرد إلى إخوانه.

٤ ـ من تنصر من المسلمين فليس لاحد عليه سبيل.

وحققوا له النصر على يحيى بالقرب من مراكش يوم السبت ٢٥ ربيع الأول ٦٢٧.

الجانب المسلم:

كذلك نجد المسلمين قد حالفوا فرناندة الببوج رايس صاحب ترجاله في سنة ٥٦٣ على ان يضمن عن نفسه ثغور الموحدين وان يكون حليفاً للمسلمين ثم حالفوا فرناندة الببوج صاحب البسطاط الذي كان على خلاف شديد مع القمط نونه ضئر اذفونش ونجد الموحدين يستجيبون إلى طلبه المساعدة العسكرية ليقاتل نونة فارسلوا معه عسكر اشبيلية بقيادة ابن عزون وابن تمصليت وابن حمو فساروا إلى بلاده وقاتلوا اعداءه ووصلوا في حروبهم معه إلى اشتريش واقاموا عنده خمسة اشهر.

وفعلاً نرى الببوج يرد الجميل حينما احتل جراندة وابن الرنك بطليوس نجدة قد سارع وأمد الموحدين المحاصرين في قلعتها وتمكن من هزيمة ابن الرنك وترك بطليوس بيد المسلمين وكان ذلك في ٢٢ شعبان ٥٦٤.

وجدد الصلح مع الببوج في سنة ٥٦٦.

بوفاة ابن مردنيش فقد النصارى حليفهم

ولكنهم مالبثوا ان خسروه فهاجموا اراضيه واحتلوا قسماً منها.

المصادر

١ ـ علي بن ابي زرع الانيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ط الرباط ١٩٧٢
٢ ـ ابن عذارى المراكشي البيان المغرب ط تطوان ١٩٦٠
٣ ـ عبد الواحد المراكشي المعجب في تلخيص اخبار المغرب ط القاهرة ١٩٦٣
٤ ـ محمد عبد الله عنان عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ط أولى القاهرة ١٩٦٤
٥ ـ السيد عبد العزيز سالم المغرب الكبير ط ١٩٦٦
٦ ـ ياقوت الحموي معجم البلدان ط بيروت ـ دار صادر ١٩٦٨
٧ ـ ابن الأثير الكامل في التاريخ جـ ٩ اصدار المكتبة التجارية الكبرى
٨ ـ عبد الملك بن صاحب الصلاة تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بإن جعلهم اللدائمة وجعلهم الوارثين جـ ٢ ط بيروت ١٩٦٤
٩ ـ أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري صفة جزيرة الأندلس من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ط القاهرة ١٩٣٧
١٠ ـ ابن خلدون كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ط دار الكتاب اللبناني ١٩٦٨ .

فضل العرب في تطوير أوروبا العلمي

نقولا زيادة

(١) مقدمة تاريخية في القرن الثالث للميلاد اتخذت القبائل البربرية، كما دأب المؤرخون على تسميتها، خطة الهجوم على الامبراطورية الرومانية، وكانت الحرب بين الفريقين سجالاً، فالامبراطورية كانت قد أصابها الانحطاط (الذي انتهى إلى زوالها رسمياً سنة ٤٧٦ م)

وبدل أن تكون الجيوش حصناً للامبراطورية اصبحت، في حالات كثيرة، اداة تخريب وتدمير إذ آل أمرها إلى أن صارت الاعيب في ايدي قوادها الطامعين في العرش الامبراطوري وأحياناً كان القواد أنفسهم العوبة في أيدي الجيوش الرومانية.

وفي مقابل ذلك كانت هذه القبائل البربرية نشيطة قوية، كانت موزعة الأصول: فهناك الجرمان، وهم الذين استقروا في القرن الخامس ومابعده في إطار الامبراطورية الرومانية، وهناك السلاف الذين انتهى بهم الأمر ان عمروا أواسط أوروبة وشرقها: وهناك المغول (مثل الهون والماغيار) الذين انتشروا بين هنغاريا وفنلندا.

خلال القرنين الثالث والرابع، وحتى في اوائل القرن الخامس، كانت هذه القبائل، ولنحصر اهتمامنا بالجرمانية منها، تقاتل وتحارب فإذا انتصرت جازت الحدود واحتلت. لكن في القرن الخامس قبلت هذه القبائل الإقامة داخل الحدود معترفة للإمبراطورية الرومانية بوجودها. وحتى لما قضي على الامبراطورية نهائياً ظلت بعض هذه الدول الجرمانية مقيمة، مثل القوط الشرقيين، في ايطالية وما إليها (٤٨٩ / ٥٢٥). ومملكة الفرنجة التي قامت في أوائل القرن الخامس، توسعت بعد سقوط أوروبة أيام ملكها كلوفيس (٤٨٦ / ٥١١). وكانت هذه اقوى الدول الجرمانية، ويعود ذلك إلى أن الفرنجة، بعد ان استقروا في جزء كبير من فرنسا والمانيا الحاليتين لم يرحلوا عن بلادهم، بل توسعوا فتحاً وضماً. وكانت دولة القوط الغربيين قد قامت في اسبانيا سنة ٤١٥ واستمرت هنالك حتى الفتح العربي سنة ٧١١ .

وليس من شك في أن دولة الفرنجة شهدت اكبر عصورها نشاطاً لما حكمها شارل الكبير (شارلمان ٧٧١ / ٨١٤)، وقد اعترف به البابا ليون، فتوجه امبراطوراً على ماعرف في التاريخ باسم الامبراطورية الرومانية المقدسة وذلك في عيد الميلاد سنة ٨٠٠ .

إلا أن امبراطورية شارلمان تدهورت تدريجياً حتى انتهى امرها سنة ٨٩٩ ، واقتصرت على مملكة فرنسا.

وفي القرن العاشر نعمت الأجزاء الألمانية من امبراطورية شارلمان السابقة بحكام أقوياء، وفي مقدمتهم اوتو (الأول) الكبير (٩٣٦ / ٩٧٣)، لكن اوتو الثالث (٩٨٣ / ١٠٠٢) الذي جرب ان يقلد شارلمان، كان دون هذا مقدرة بمراحل، فتسربت نواحي الضعف إلى الامبراطورية، إلا أن الدولة لم تنحل، وقد تمكن الأباطرة الألمان، على العموم، من دفع عادية قبائل جديدة اتجهت نحو أوروبا الغربية مثل الصقالبة (السلاف) والدانيين والهنغاريين، ومن ثم فإنها مكنت لهذه المنطقة من السير في طريق الحضارة، ولو بخطوات بطيئة جداً. ومنذ أواسط القرن الحادي عشر تصبح فرنسا وانكلترا مسرحي العمل الجدي المثمر.

البابا ليون، يتوج شارلمان امبراطوراً على الامبراطورية الرومانية المقدسة.

على أن قعقعة السلاح التي لم تنقطع عن الدوي خلال الفترة التي تحدثنا عنها وحتى فيما تلا ذلك، لم تكن الصوت الوحيد الذي كان يسمع في انحاء اوروبا الغربية. فقد كان إلى جانبها أصوات خافتة، لكنها كانت ذات شأن في بناء تلك المنطقة مع الزمن، فصوت المحراث الذي كان يكشف من الأرض سطحها دون أن يعمق اسنانه في أعماقها كان عاملاً مهماً في تطوير اقتصاد البلاد الزراعي، ولأن القبائل كان عدد افرادها يتزايد، وكانت قطعانها تتكاثر، ولم يكن للسكان معرفة فنية كافية لاستثمار الأرض، فقد كانت هجرات السكان، خاصة حتى القرن السابع، هي الطابع الذي ترك أثره في الحياة الاجتماعية والاقتصادية في ربوع أوروبا الغربية، وكان ثمة صوت القلم الذي كان الراهب يديره في عزلته ناسخاً بعض ماتبقى من الآداب الكلاسيكية، ذا أثر في تطوير الحياة الفكرية فيما بعد.

وكان هناك صوت المدرس الذي كان يعلم من تصبو نفسه إلى رتبة كنائسية أو وظيفة في البلاط، يترك بصماته في

نفوس الناشئة. ويجب أن لاننسى صوت الراعي الكنسي أو المتعبد في ديره أو صومعته الذي كان ينشد ترانيم التسبيح بكرة واصيلاً. هذه الأصوات تستحق منا نظرة خاصة، لأنها كثيراً ماكانت تلجأ إلى ماكتبه أباء الكنيسة الأوائل كي تحصل على ماتنشد أو ترنم أو ترتل.

(٢) عناصر الحضارة القديمة

ونحن إذا حاولنا التعرف إلى العناصر الحضارية، على ضآلتها أحياناً، وحيائها من بساطتها أحياناً أخرى، لوجدنا أموراً كثيرة ظلت في ضمير أوروبا الغربية، ولما آن لها ان تُستغل استغلالاً صالحاً مفيداً جاءت بثمار جيدة.

فإن أوروبيي العصور الوسطى، كانوا يرون في رومة ضمير الحضارة. فهي التي تركت في نفوس الناس آراء هامة تتعلق بالوحدة والعالمية والنظام وحاول أوتو الكبير، ملك المانية وأمبراطور الأمبراطورية الرومانية المقدسة (Otto I, the Great ٩٣٦ / ٩٧٣) وخليفتاه، أن يقوموا بالعمل الذي قام به شارلمان، لكن النجاح كان هنا حتى أقل مما أصابته آخن. وذلك أن اتو لم يكن له بلاط مثل بلاط شارلمان، فلم يكن للحركة مركزُ دفعٍ ونشاطٍ.

هذا الجو الفكري الذي حاولنا وصفه يمثل الناحية الوضاءة من حياة أوروبا في العصور الوسطى، لأنه يتحدث عن الذين تعلموا ودرسوا وكتبوا. أما القراء فكانوا ايضاً قلة، وهم الذين وصلت إليهم الخلاصات التي تحدثنا عنها. أما السواد الأعظم من الأوروبيين فلم تصل اليهم حتى هذه المعرفة. وقد استمر هذا الوضع حتى مطلع القرن الثاني عشر إذ تبدلت الحال. على أنه حري بالذكر أن التبدل لم يأت دفعة واحدة. فشؤون كثيرة ظلت تحتل حيزاً لايستهان به في حياة أهل الفكر.

فنحن إذا أخذنا مثلاً مكتبة محترمة تعود إلى سنة ١١٠٠ وجدنا أنها تحتوي على الكتاب المقدس، وقد يكون في نسخ متعددة وكتابات آباء الكنيسة من القرن الثاني حتى ذلك التاريخ والشروح والتعليقات على الموضوعين، والكتب المدرسية التي وضعها أمثال بوتيوس وسواه، ومن المرجح أن يرصع هذه المجموعة ايزيدور ومؤلفات الكتاب الكلاسيكيين باللاتينية. وكان من النادر ان تعثر فيها على كتاب باللغة اليونانية. فهي أصلاً لم تنتشر مافيه الكفاية في المنطقة الواقعة إلى الغرب من هنغاريا

روما ضمير الحضارة، كما يراها أوروبيو العصور الوسطى.

الحالية. والأفراد القليلون الذين كانوا يعرفون بعض اليونانية جاءهم ذلك من علاقاتهم التجارية مع بيزنطة.

أما بعد سنة ١٢٠٠ فقد كانت مثل هذه المكتبة تزينها مدونة جستنيان القانونية والتشريعات والمراسيم البابوية وكتب اللاهوت التي وضعها انسلم (Anselm) وبيتر لومبارد (Peter Lombard) وهي حديثة العهد نسبياً. وأهم من هذا أنه كانت تحتوي على كتب في الرياضيات والفلك والفلسفة ودواوين الشعر البطولي والغنائي، خاصة البروفنسالي. كان الكتاب المقدس وكتابات آباء الكنيسة تحتفظ بمكانتها. وكان هناك أيضاً مؤلفات بوتيوس وايزيدور وأمثالهما.

وحتى الموسوعة التي وضعها لامبرت (Lambert) سنة ١١٢٠ كانت تحتوي الكثير الكثير مما ضمنه ايزيدور موسوعته، مع إضافات وقع عليها، إلا أنها لاتمثل إلا خطوة أولى نحو التطور الذي شمل أوروبا في القرن الثاني عشر.

مابين سنة ١١٠٠ وسنة ١٢٥٠ خطت أوروبا، خاصة فيما وراء البرانيز، خطوات كبيرة في العلم والفلسفة، أقل مايقال فيها أنها كانت خطوات تختلف نوعاً وكماً عما عرفته البلاد نفسها في تاريخها القريب، بحيث أصبح العالم والفيلسوف، كل في المجال الذي يحبه، ولأقول الحقل الذي يتخصص فيه، فهذا أمر هو من تطورات العالم خلال القرنين الماضيين، اصبح العالم والفيلسوف يجادل ويناقش ويبحث ويجرب ويقارن ويقابل لأنه حصل على مادة جديدة واطلع على نهج جديد في التعامل مع المشكلات الفكرية والعلمية.

الترجمة والنقل من العربية إلى اللاتينية

أن الذي أحدث هذا التبدل، في اوروبا والغربية خاصة، كان حركة النقل والترجمة من العربية إلى اللاتينية أصلاً، مع بعض الترجمات من اليونانية إلى اللاتينية ـ على أن نذكر أن العمل الأول (أي النقل من العربية) كان الاسبق والأوسع نطاقاً والأعمق أثراً في تطوير الحركة الفكرية الأولى في اوروبا.

كانت الرقعة التي تم فيها نقل المؤلفات العربية إلى اللغة اللاتينية واسعة ـ فقد امتدت من بلاد الشام عبر الشمال الأفريقي (تونس) وصقلية إلى اسبانية. وكان الجزء الأقل انتاجاً في هذه الناحية بلاد الشام. فاولئك الذين حملوا السيف

حركة النقل والترجمة من العربية إلى اللاتينية، كان الاسبق والاوسع نطاقاً في تطوير الحركة الفكرية الأولى في اوروبا.

للقتال في أيام الحروب الصليبية لم يكونوا، في غالبيتهم، من أهل القلم، لذلك فالفترة التي امتدت قرنين من الزمان تمت فيها ترجمة كتابين: الواحد مؤلف لعلي بن عباس (٣٨/٩٩٤) والمعروف باسم الكتاب الملكي (Liber regius) الذي نقله اسطفان البيزي والمعروف أيضاً باسم اسطفان الانطاكي (لاقامته في هذه المدينة) وذلك حوالي سنة ١١٢٧ والثاني فهو «سر الأسرار» المعزو لارسطو، وقد نقله فيليب الطرابلسي (philip of tripoli) بعد ذلك بنحو القرن.

أما تونس فقد كان لها دور خاص، ذلك أن قسطنطين الأفريقي (Constantinus afticanus) الذي كان يتردد على مدرسة القيروان الطبية، التي يرجع انشاؤها إلى اواخر القرن الثالث أو أوائل القرن الرابع للهجرة (أواخر التاسع أو أوائل العاشر للميلاد). وقد وضع اساتذتها اسحق بن عمران واسحق بن سليمان وأحمد بن الجزار وسواهم كتباً طبية قيمة نقل عدداً منها قسطنطين وكان يدعي تأليفها. وأكثر الباحثين يربطون بين ماترجمه قسطنطين وبين تدريس الطب في جامعة سلرنو (Salerno) وهي أول معهد لدراسة الطب باللغة اللاتينية في أرض أوروبية إذ لعله كان يعني بالترجمة لهذه المؤسسة أو لاساتذتها. وقد قضى قسطنطين سنيه الأخيرة في دير مونتي كاسينو (تو ١٠٨٧).

وكان شيء من بقايا المعرفة الطبية والتنجمية قد ظل بين أيدي الناس في جنوب ايطاليا وكان الناس يتناقلون ذلك فيما بينهم، لكن دور هذه المنطقة بالنسبة للترجمة من العربية كان محدوداً جداً.

أما البلد الذي تم نقل القسم الأساسي من العلم العربي عن طريقه فهو اسبانية. وكانت الترجمة تتم في برشلونة وترزونة وسيغوفيا وليون (الأسبانية) وبامبلونة، لكنها تركزت أخيراً في طليطلة. أما شمالي البرانيز فقد كانت بينزيه وناربون ومرسيليا من الأماكن التي اسهمت بالترجمة أيضاً.

أسبانيا، تم عبرها نقل القسم الاساسي من العلم إلى أوروبا

والذين عملوا في نقل العلم والفلسفة العربيين إلى اللغة اللاتينية كثر. وقد جاء أكثرهم من خارج اسبانية بالذات - من انكلترا وفرنسا والمانيا وسواها.

ونود، قبل أن نعرض لعمل المترجمين والنقلة، أن نشير إلى بضعة امور مرتبطة بالعمل ذاته.

(١) لم يكن ثمة جرد للكتب الموجودة، على أن يتخير النافع والضروري والمفيد منها للترجمة. أن المصادفة اصلاً والميل الشخصي ثانياً كانا المرشدين للمترجمين.

(٢) عمل المترجمون في أماكن متباعدة، فلم يكن بينهم اتصال يحول دون التكرار في نقل الكتب.

(٣) لعل بين ماترجم مالم يكن يستحق الجهد، وإلى جانب ذلك فقد كانت ثمة كتب كثيرة لم ينتبه إليها، ومن ثم فقد خسرها العالم،

(٤) إلا أن الأمر الذي لاخلاف حوله بين الباحثين هو ان جماع ماترجم كان كبير الفائدة وعميق التأثير بالنسبة للحضارة العالمية، ويرى هوسكنز مثلاً أنه لولا ذلك لما تقدمت أوروبا في ذلك الوقت.

المصادفة والميل الشخصي من اهم أسباب الترجمة

ليس من اليسير التأريخ حتى لاشهر الترجمات، ذلك لأن المترجمين انفسهم لم يؤرخوا دوماً لأعمالهم، كما ان بعض الأرقام أمّحت أو محيت عمداً وزورت التواريخ واسماء المترجمين، فضلاً عن ذلك فهناك ترجمات على درجة من الأهمية لكننا لانعرف اسماء العاملين في الترجمة.

يجدر بنا ان نتذكر ان المترجمين لم يتقنوا جميعهم اللغة العربية بحيث انهم كانوا يستطيعون تفهم النص بشكل دقيق. ومن ثم فقد كان لابد من واسطة بين النص العربي والنص اللاتيني بشكله النهائي. وكانت الواسطة واحدة من اثنتين: أما أن ينقل النص من لغة الكتاب الأصلية إلى اللغة المحكية (ويغلب عليه في هذه الحالة أن ينقل شفوياً) وبهذه الطريقة يمكن للمترجم الأجنبي بالتعاون مع آخرين أن يصيغه باللاتينية. وفي هذا الأسلوب مافيه من ضعف ومايؤدي إليه أحياناً من تشويش في المعنى. وعلى كل فالذين درسوا تاريخ الترجمة في هذه الحقبة لم يعثروا على الكثير مما ثم نقله عن هذا السبيل.

وكان الأسلوب الآخر هو الذي يتم عن طريق علماء يهود كانوا قد شاركوا في الحضارة العربية إلى العبرية ثم يساعدون المترجم الأجنبي على نقله إلى اللاتينية. ونحسب ان هذا الاسلوب كان يؤدي أحياناً إلى اساءة فهم النص أو تفسيره. ومن ثم نقله إلى اللغة الأجنبية أي اللاتينية نقلا فيه شيء من البعد عن الأصل.

قد يكون من الصعب تتبع خط زمني

للترجمة، فهناك ترجمة لجداول فلكية قام بها ادلارد الانكليزي (Adelard of Bath) مؤرخة سنة ١١٢٦ . ولعله يصح القول بأن الربع الثاني من القرن الثاني عشر هو فترة الانطلاق نحو الترجمة.

ويعتبر جيرار الكريموني (Gerard of Cremoma ١١١٤ / ١١٨٧) شيخ المترجمين. أحب جيرار أن يتعرف إلى كتاب المجسطي من تأليف بطلميوس القلوذي[١] (القرن الثاني م) والذي نقل إلى العربية (٨٢٧ م). فرحل إلى اسبانية، وهناك تكشفت له، بالواسطة لأنه لم يكن يعرف العربية، محتويات المكتبة العربية. فاستقر في طليطلة وتعلم اللغة العربية وعمل في الترجمة، فنقل فيما أحصي، واحداً وسبعين مؤلفاً إلى اللاتينية، إذ ظل يقوم بعمله حتى وفاته سنة ١١٨٧ ، ويؤكد الباحثون أن الفترة التي قضاها في طليطلة متعلماً ومترجماً زادت عن الستين سنة. وقد حقق امله في ترجمة المجسطي سنة ١١٧٥ .

كان بين مانقله جيرار كتب ارسطو في المنطق مع شروح يميسينوس والفارابي ومبادىء اقليدس وكرويات ثيودوسيوس ورسالة لأرخميدس فضلاً عن كتب متعددة في فروع الهندسة والجبر والبصريات. لكن أكبر جزء من فهرست ترجمات جيرار كان في ميدان الطب. فقد نقل عن العربية مؤلفات جالينوس وابقراط وقانون ابن سينا وكتابي المنصور والحاوي للرازي وماوضعه أبو القاسم الزهراوي الأندلسي في الجراحة. وهو إلى ذلك الذي نقل ماكتبه الفارابي، خاصة في شرحه لارسطو.

وعندنا أن جداول الخوارزمي ترجمها روبرت تشستر (Robert Chester) سنة ١١٢٦ ، وفي السنة ١١٤٥ ترجم روبرت نفسه الجبر للخوارزمي (ومن هنا جاءت كلمة اللغار تم). وفي سنة ١٢٠٢ وضع أو ترجم (؟) ليونارد البيزي (Lenardo of Pisa) كتاب في الأباكوس، (وهي «مَعَدَّةٌ» تحسب فيها الاشياء على أسياخ تتعلق بها كلل خشبية صغيرة)، ولما تم نقل هذه الأمور في الجبر وصل هذا العلم إلى الدرجة التي ظل عليها حتى القرن السادس عشر.

ليس من اليسير وضع جدول كامل بأسماء الكتب جميعها التي نقلت إلى اللاتينية ولا باسماء النقلة، لكن حري بنا

اللغارتم جاءت من (الخوارزمي) صاحب جداول الخوارزمي التي ترجمها روبرت تشستر.

أن نتذكر أن افلاطون التيفولي (Plato of Tivoli) نقل زيج البتاني إلى اللغة اللاتينية سنة ١١٥٠ ، وتمت أيضاً ترجمة جداول الخوارزمي (ادلارد) ثم جداول الزرقالي الاندلسي والفرغاني (فرغانة في اواسط اسيا)، وتم نقل المجسطي رأساً من اليونانية سنة ١١٦٠ ، فأصبح في متناول المشتغلين بعلم الفلك كل المادة الأصلية، وصار بإمكان فلكي مونبيليه أن يكون لديهم مركز أساسي لهذا العلم.

وقد شهد القرن الثالث عشر ثلاثة من كبار المترجمين هم الذين يضعهم مؤرخو الفكر العربي بعد جيرار في الأهمية وهم الفرد الانكليزي (Alfred the Englishman) ومايكل الايقوسي (Michael the scot ١٢٥٣) وهرمن الجرماني (Hermann the German تو ١٢٧٢) فهم، من هذه الناحية، معاصرون للذين عملوا في بلاط فردريك الكبير أو الثاني (Frederock II, the great ١١٩٤ - ١٢٥٠) وابنه وخليفته مانفرد Manfred المتوفى سنة ١٢٦٦ ، ذلك بأن خروج صقلية عن سلطان العرب سنة ١٠٩١ لم ينتج عنه رحيل سكانها العرب المسلمين عنها. لذلك بقيت هناك جاليات عربية متعلمة وذات صناعات راقية فكانت عوناً لروجر وفردريك ومانفرد في تطوير الحياة في الجزيرة. بل أن روجر نفسه دعا الجغرافي العربي الكبير الأدريسي ليقيم في بلاطه وكلفه رسم خريطة للأرض ووضع معها كتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» (١١٥٤م). وكان في حاشية ملوك صقلية منجمون وفلكيون عرب.

الفرد الانكليزي ومايكل الايقوسي وهرمن الجرماني اهم المترجمين في القرن الثالث عشر

فالبلد كان جوه الفكري والاجتماعي والسياسي مهيأ لأن يقوم بدور في هذا العمل الكبير - نقل العلوم من العربية إلى اللغة اللاتينية. صحيح أن العمل كان في النصف الأول من القرن الثالث عشر، لكنه كان يجاري الإحياء العلمي الذي كانت أوروبا قد أخذت نفسها به، فكان كل عمل يتم هو لبنة في البناء.

والذين عملوا في البلاد الصقلي هم الأمير يوجين (Eugene the Prince) وثيودور الانطاكي (Theodor the Antichian) ومايكل الذي مر ذكره. وقد نقل يوجين البصريايت البطلميوسية، وقام ثيودور بترجمات متنوعة تتعلق بالحيوان بشكل خاص لأن الأمبراطور كان مغرماً بالحيوانات والطيور وكانت عنده حديقة كان شديد العناية بها عملاً

وعلماً.

ولنعد الآن إلى مترجمي القرن الثالث عشر، كان الفرد الانكليزي فيلسوفاً من حيث نشأته واتجاهه، وكانت فلسفة ارسطو في الطبيعة هي موضوع عنايته، وهذا معناه، عندما يحاول أن يترجم هذا الصنف من الفلسفة الأرسطية، فلا بد له من أن يشد على ابن رشد بالنواجذ، فكان الفرد من أوائل الذين أوصلوا ابن رشد إلى أوروبا، ولو أن بعض ماكان معروفاً قد نقل من قبل، وكان الجاكوب اناتولي (Jacob Anatoli ١٢٩٤ / ١٢٥٦) فضل في أنه أول من نقل فلسفة ابن رشد إلى أوروبا.

أما مايكل الايقوسي الذي عمل في طليطلة (كان فيها سنة ١٢١٧) فقد نقل دوائر (افلاك) البطروجي (في الفلك) سنة ١٢٢٠ وعمل على نقل ماكتبه ارسطو في الحيوان، وبذلك وضع بين ايدي العلماء اللاتين دروساً منظمة مبينة على المشاهدة والأختبار، فهذا هو المعروف عن الحيوان لأرسطو، ومع هذا كانت هناك تعليقات عربية، لكنها كانت في علم الحيوان قليلة، إذا قيست بغير ذلك من نواحي المعرفة. وعني مايكل بنقل شروح ابن رشد لارسطو، ومايكل كان أول من ترجم القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية.

وكانت عناية هرمان الألماني تدور بارسطو وخاصة بالأخلاق النيقوماخية وقد نقل كتاب الشعر وكتاب البيان (البلاغة) لارسطو مع الشروح التي دارت حولهما وعليهما.

كتاب الشعر وكتاب البيان لارسطو مع الشروح نالت اهتمام هرمان الالماني فنقلها

حري بنا أن نتوقف هنا لنشرح نقطة اشرنا إليها من قبل، وهي أن الكثيرين من المترجمين الأوروبيين كانت معرفتهم بالعربية بحاجة إلى مساعد ومعين. لذلك فإننا نعثر على أسماء لهؤلاء المساعدين منها غاليبوس (Galippus) الاسباني الذي كان ساعد جيرار الأيمن، واندراوس (Andrew) الذي كان يعرف العربية والعبرية والسريانية واللاتينية، وذلك بشهادة البابا فيه (سنة ١٢٢٦)، وبطرس الفونسي (Petrus Alfonsi) الذي انتهى به الأمر بأن طب لهنري الأول ملك انكلترا، وسافاسوردا (Savasorda)، واسمه الأصلي ابراهام بن حيا، وقد كان ضليعاً في اللغة العبرية وآدابها والفلسفة اليهودية، لذلك كان عوناً للذين نقلوا ارسطو وشروح ابن رشد، وابراهام بن عزرا (١٠٩٢ - ١١٦٧) كان ايضاً

عاملاً مساعداً في الترجمة. فضلاً عن ذلك فهناك اسماء وردت في مناسبات مختلفة، لكن لم يتضح دورها بعد مثل جون الاشبيلي وابن داود.

كان ابن رشد، فضلاً عن بروزه في الفقه والفلسفة الأرسطية، طبيباً، وقد نقل كتابه الكليات في الطب الى اللاتينية باسم (Colliget) في بادوا سنة ١٢٥٥ . ومع أننا لانؤرخ هنا لما أنجزه في نواحي المعرفة، فنحن معنيون بالترجمة والمترجمين، فإنه حري بالذكر ان ابن رشد وجه نقداً علمياً لجالينوس في شؤون التنفس. وبهذه المناسبة فهناك طبيبان عربيان آخران وجهاً نقداً لجالينوس هما ابن بطلان (٤٥٩/ ١٠٦٦) وابن النفيس (٦٨٧/ ١٢٨٨) وهذا هو الذي اهتدى، بطريقة التعليل المنطقي، الى دورة الدم الصغرى.

تفوق العرب في طب العيون بسبب انتشار امراض العين، واهتمام العرب بالبصريات.

وقد كان للعرب تفوق في طب العيون، ويعود ذلك، فيما يرى بعض الباحثين، إلى امرين - الأول انتشار امراض العين في المنطقة، والثاني اهتمام العلماء العرب بقضايا البصريات. واشهر اطباء العيون العرب هو علي بن عيسى الذي ترجم كتابه مرتين إلى اللاتينية كما نقل إلى العبرية.

ثمة عدداً من الكتب نقلت عن العربية إلى اللاتينية لكنها مجهولة المؤلفين والمترجمين، وتشمل هذه كتباً متفرقة في التنجيم والطبيعة وماوراء الطبيعة وأعمالاً صغيرة في العلوم معزوة لأرسطو، وقد ظهرت هذه في الغرب حوالي سنة ١٢٠٠ . وثمة نسخة من المجسطي مجهولة المترجم (غير ترجمة جيرار) ولكنها نقلت عن العربية، وقد ظهرت في أواخر القرن الثاني عشر واوائل القرن الثالث عشر رسائل لاتينية في الكيمياء اصلها عربي وهي منسوبة إلى جابر بن حيان.

وهنا نتوقف لنشير إلى أن أموراً هي في غاية الأهمية:

أولاً - ان لغة العلم كانت، بين القرن الثالث والسادس/ التاسع والثاني عشر، العربية، ونقل الكتب التي اشرنا إلى نموذج منها من العربية إلى اللاتينية كان الخطوة الأولى في انتقال المعرفة العلمية إلى اوروبا.

ثانياً - ان الذي نقل إلى أوروبا لم يكن العلم وتفاصيله فحسب، بل كان ثمة منهج مبني، في كثير من الأمور على التجربة، فقد أدخل العرب، وهم

يطورون ماأخذوه عمن سبقهم وينمونه، اسساً جديدة، فضلاً عن التطوير الذاتي للعلوم، هذا هو الذي يصح أن يسمى عادات عقلية ورغبات في إجراء التجارب، هذا كله انتقل إلى الغرب المسيحي.

ثالثاً ـ ان الرازي ترجمت أعماله الطبية إلى اللاتينية قبل اعمال ابن سينا. ولكن ابن سينا هو الذي اصبح «قانونه» كتاب الطب التدريسي في جامعات أوروبا. ويعود ذلك، على مايرى الذين بحثوا هذه القضية، إلى أن اسلوب ابن سينا كان على القارىء ايسر.

رابعاً ـ ان واحداً من أكبر اهل العلم الذي ظهر في دنيا العرب، وهو ابو الريحان البيروني (بعد ٤٤٢ /١٠٥٠)، لم تنقل كتبه إلى اللاتينية، ويبدو ان صعوبة لغة هذا العالم، مع فصاحة اسلوبه، حالت دون ذلك. ولسنا نشك في ان نقلة تلك الأيام وخلفاءهم قد خسروا الكثير لأن آراء هذا العالم لم تصلهم.

خامساً ـ ثمة أدب / علم لم ينقل من العربية إلى اللاتينية، وهو الأدب الجغرافي العربي.

ان حركة الترجمة للمؤلفات العربية إلى اللغة اللاتينية لم تتوقف في اسبانية بانتهاء القرن الثاني عشر. ذلك أن طليطلة ظلت مركزاً للدرس والنقل حتى في القرن الثالث عشر، فإن الفونس الحكيم، ملك قشتالة (١٢٥٢ / ١٢٨٤) كان يرعى مدرسة تعلم فيها العربية، وكان يرئسها ابو بكر الريقوتي. ويرى بعض الباحثين أن عدداً من الذين تعلموا العربية فيها قام بترجمة كتب من العربية إلى اللاتينية. ولعل الترجمة كانت هنا اقرب إلى الصحة من بعض مانقل من قبل.

الادب الجغرافي العربي لم ينقل من العربية إلى اللاتينية.

رغبة منا في اتمام الصورة نشير إلى ماترجم رأساً من اليونانية إلى اللاتينية، وقد تم أكثر هذا في بلاط الملوك النورمان في صقلية. فهي، وجنوب ايطاليا، كانا ملتقى اليونانية واللاتينية والعربية على مامر بنا. في صقلية عمل هنريكوس ارستبوس (Henricus Arstippus) والامير يوجين (Eugene). فنقل يوجين بصريات بطليموس وكليلة ودمنة، وعمل ارستبوس على نقل اعمال آباء الكنيسة وترجمة مينو وفيديو لافلاطون وجزء من كتاب الأنواء لارسطو. فضلاً عن ذلك فقد عمل هذا الراهب، الذي كان رئيساً

للكوريا (المجلس الكنسي) في صقلية، على حمل مخطوطات بيزنطية إلى صقلية (حفاظاً عليها بسبب اضطراب الأمور في الدولة الشرقية)، وكان بينها مخطوط جميل للمجسطي وعنه نقلت أول ترجمة لاتينية مباشرة عن اليونانية، وقد كان ليوجين الأمير دور في عمل ارستبوس.

يلاحظ من هذا ان الغالب على البلاط الصقلي ايضاً، كان النزعة العلمية، هذا الاهتمام العلمي في صقلية كان يجاريه وجود مدرسة سلرنو الطبية الايطالية، فكان للمؤسستين - البلاط والمدرسة اثر في توجيه العناية نحو العلم.

إلا ان العلاقات التجارية التي كانت قائمة بين القسطنطينية في الجهة الواحدة وبين البندقية وبيزا في الجهة الأخرى، يسرت للكثير من الأدب الفلسفي واللاهوتي واليوناني الانتقال إلى العالم اللاتيني مترجماً، وتظهر في تاريخ هذه الفترة (العقود الأولى من القرن الثاني عشر) ثلاثة اسماء هي جايمز البندقي (James the Venetian) وبرغنديو البيزي (Burgundio the Pisan) وموسى البرغاموي (Mises of Pergamo) وكان هذا ايطاليا. وقد تم

الترجمات في الشمال تمت من اليونانية إلى اللاتينية مباشرة.

على ايديهم نقل المنطق الحديث لارسطو وأعمال آباء الكنيسة وشروح نيميسيوس على افلاطون ومختارات من خلاصة قانون جستنيان على افلاطون ومختارات من خلاصة قانون جستنيان وحتى ماورد في كتاب قديم في الفلاحة عرف باسم جيوبونيكا (Geoponica)[٢]

واما إلى الشمال من جبال الألب فقد تمت ترجمات من اليونانية مباشرة إلى اللاتينية، وهي في مجملها فلسفية لاهوتية، الأمر الذي اقتضته الخلافات بين البابوية ومناوئيها، إلا أن هنالك ترجمات لأعمال ارسطو، فضلاً عن ترجمات مجهولة النسب والزمن. وثمة ترجمات من اليونانية ومن العربية إلى اللاتينية لكنها غير مؤرخة.

يجدر بنا، بعد أن أشرنا إلى الترجمة المباشرة وتحدثنا ببعض التفصيل عن الترجمة عن طريق العربية، أن نقارن بين نوعي العمل (ولو أننا اشرنا إلى بعض ذلك من قبل) كي تكون الصورة واضحة على قدر الإمكان.

أولاً - الترجمات المباشرة، على العموم، أصح وأدق إذ أنها تمت دون وساطة كما حدث بالنسبة للنقل من العربية، فالوساطة (العبرية أو العربية

المحكية) سهلت النقل لكن لعلها يسرت للأخطاء ان تتسرب إلى المتن.

ثانياً ـ الاهتمام في الحالتين كان يشمل الفلسفة والرياضيات والطب والعلوم الطبيعية.

ثالثاً ـ لقد ظل افلاطون يونانياً، أما أرسطو فقد تعرب في الطريق وحمل معه، لما نقل إلى اللاتينية، الشروح والاضافات التي ضمها العلماء العرب اليه.

رابعاً ـ اللاهوت والنحو انتقل من اليونانية إلى اللاتينية مباشرة، أما الموضوعات الأخرى فقد جاءت بطريق الواسطة، وثمة علم (أو شبه علم) التنجيم الذي كان يغلب عليه الطابع العربي.

والذي يتفق عليه الباحثون هو أن نهضة القرن الثاني عشر في أوروبا كانت علمية وكانت عربية / يونانية.

١ كان بطليموس كلوديوس (Cjaudius Ptolemaeus) يونانياً مقيماً في الاسكندرية، وفيها وضع مؤلفاته المتعددة ومنها كتابه «الجغرافيا» الذي عرف باسم الكبير (magestus)، ولما نقل هذا الكتاب إلى العربية سمي المجسطي، وظل اسمه كذلك خلال العصور الوسطى، والكتاب في الجغرافية الفلكية.

٢ كتاب في الزراعة وضعه كاسيانوس باسوس (Cassianos Bassos) بناء على رغبة الأمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع (٩١٣ ـ ٩٥٩ م).

اليهود في العصور الوسطى

دراسة مقارنة بين الشرق والغرب

د. حسن مبيض

دأب اليهود في دعايتهم الواسعة التي سمموا بها الراي العالمي، في القرنين التاسع عشر والعشرين، على تاكيد فكرة شائعة، هي ان امة من امم العالم لم تتعرض كما تعرض له اليهود في تاريخهم الطويل من اضطهاد وتشريد.

وتختار الدعاية اليهودية أمثلة واقعية في التاريخ وخاصة تاريخ العصور الوسطى - منتقات من أدق الوثائق والمصادر، ليستشهدوا بها على مالاقاه اليهود على أيدي المسيحيين جميعاً من اضطهاد في تلك العصور، حتى أنهم كثيراً ماشردوا في الأرض، بل ربما تعرضوا لمذابح جماعية، راح ضحيتها آلاف من الأبرياء. ويدّعون أن كل ذلك حل بهم لالشيء، سوى أنهم اتباع موسى عليه السلام.

وأمام الأمثلة الواقعية التي تسوقها دعاية اليهود قد يخدع الإنسان، ويتسرب العطف إلى قلبه على تلك الجماعات التي عانت الكثير بسبب عقيدتها الموسوية، فهل حرية العقيدة جرم يؤاخذ عليه الأفراد والأمم والشعوب؟ وهل التمسك بديانة الأباء والأجداد ذنب لايغتفر تعاقب عليه الأجيال بالقتل والتشريد.

ولكن مهلاً، إن نظرة فاحصة دقيقة تعتمد على دراسة علمية عادلة، كفيلة بأن تظهر لنا أن الدعاية الصهيونية لاتساير الحقيقة. وإذا سايرتها فإنها لاتظهرها كلها كاملة، وإنما تُظهر جانباً وتخفي آخر.

وبعبارة أخرى فإن الدعاية اليهودية تقول مالليهود ولاتقول ماعليهم، وبذلك تظهر المعتدي في صورة الضحية، وماهم بضحايا ولكنهم كانوا دائماً معتدين آثمين.

حقيقة أن اليهود تعرضوا لكراهية مختلف الشعوب في مشارق الأرض ومغاربها، وهي كراهية لاننكر أبداً أنها تحولت في بعض حلقات التاريخ إلى اضطهاد وتشريد، ولكن هل كانت هذه الكراهية لليهود لمجرد الإحساس بأنهم يدينون بعقيدة معينة؟

وهل تحولت هذه الكراهية في كل بلد حلَّ فيه اليهود إلى اضطهاد وتشريد لالشيء، سوى أن تلك الجماعة تتمسك بشريعة موسى عليه السلام وهنا يبدو الجانب المستتر الذي تحرص الدعاية اليهودية على إخفاءه وإسدال الستار عليه لحجبه عن الأنظار.

إن كراهية شعوب الأرض لليهود على مر عصور التاريخ لاترجع إلى عقيدتهم وإنما ترجع إلى سلوكهم وأخلاقهم وتصرفاتهم.

إن كراهية شعوب الأرض لليهود على مر عصور التاريخ لاترجع إلى عقيدتهم وإنما ترجع إلى سلوكهم وأخلاقهم وتصرفاتهم تجاه الشعوب التي حلّوا بينها، وهو سلوك لايتغير ويقوم دائماً على أساس الاستغلال ومقابلة الإحسان بالإساءة والمعروف بالجحود والجميل بالأذى.

إن عيسى عليه السلام عندما اصطدم ببني إسرائيل لم يصطدم بهم لمجرد أنهم اتباع موسى عليه السلام، ولكن لأنه نصحهم بتعديل سلوكهم الجشع فلم يستجيبوا، فقال لهم في صراحة:

«إنكم تركتم وصية الله وتتمسكون بتقليد الناس» بل لقد أنذرهم وقال: «ويل لكم أيها الناموسيون لأنكم تحملون الناس أحمالاً عسرة الحمل» ولكن اليهود كانوا لايستطيعون أبداً أن يتخلوا عن سياستهم في حب المال، وعندما خيروا بين الله والمال، اختاروا المال لأن فيه حياتهم وسعادتهم الدنيوية، ونسوا النصيحة التي قدمت لهم بأنه «لايقدر خادم أن يخدم سيدين، لأنه إما أن يبغض الواحد ويحتقر الآخر. لاتقدرون ان تخدموا الله والمال»، ولم يعجبهم هذا الكلام فاستهزأوا به «أي المسيح» وهكذا نادى اليهود بصلب المسيح، وكان في أمره عليه السلام ماكان.

وعندما دمر تيطس أورشليمو ٦٩ م تفرق بنو إسرائيل في الأرض، وانتشروا بين مختلف الأمم والشعوب، في المشرق والمغرب جميعاً، وأقبلت العصور الوسطى لتشهد على أن اليهود ظلوا طوال تلك الحقبة يمثلون طبقة رجال المال في العالم المعروف. حقيقة أن اليهود انتشروا في بلاد واسعة متعددة ولكن ربطت بينهم ثلاث روابط، هي الدين والدم والمال. وهكذا احتكر اليهود في العالم المسيحي النشاط المالي طوال العصور الوسطى. وسيطروا سيطرة تامة على التجارة المحلية والعالمية. وقد بلغ من سيطرة اليهود على التجارة الأوروبية أن لفظ يهودي في الغرب الأوروبي أصبح مرادفاً للفظ تاجر، ومن المعروف أن الكنيسة في العصور الوسطى حرّمت

أكل الربا الذي نهى عنه الأنجيل المسيح، ولذلك لم يجرؤ المسيحي في تلك العصور على المجاهرة بإقراض المال بفائدة، فاستغل اليهود هذه الظاهرة التي تتفق وأخلاقهم وحبهم للمال، واحتكروا النشاط المالي في غرب أوروبا على أوسع نطاق، فأقرضوا الفرسان والأمراء، بل أقرضوا الكنيسة نفسها لتتمكن من اتمام منشآتها الضخمة الباهظة التكاليف.

وكما يحدث في مثل هذا النوع من المعاملات كثيراً مايكون المدين فريسة للدائن، إذ لاتلبث ان تتراكم الديون وتتكاثر أرباحها وفوائدها الفاحشة، حتى يعجز المدين عن الوفاء بالتزماته ويصبح هو واملاكه تحت رحمة الدائن، الأمر الذي يولد الضغائن في قلوب المدنيين ويحرك الرغبة في الثأر.

وهكذا تلفت ملوك أوروبا وأمراؤها وفرسانها وأساقفتها وعليّة الناس فيها، فوجدوا أنفسهم أمام شراذم من اليهود تعيش بينهم، يزدادون غنى ويزدادون هم فقراً، يمتصون دماءهم وينتزعون ممتلكاتهم، دون أن تعرف الرحمة طريقاً إلى قلوبهم، وكان هذا وحده هو السبب الرئيسي لما يتعرض له اليهود على أيدي المسيحيين في غرب اوروبا من كراهية تحولت أحياناً إلى اضطهاد، إنه شعور الضيق والتذمر في جماعة اتصفت بغلظة القلب والحرص على الأذى.

وليس هذا مجال الإفاضة فيما تعرض له اليهود نتيجة لما كسبت أيديهم - من اضطهادات في غرب أوروبا طوال العصور الوسطى، ولكن تكفي الإشارة إلى أن لويس التاسع ملك فرنسا (١٢٢٦ - ١٣٧٠) ضاق ذرعاً باليهود فالغى ديونهم التي على الكنيسة والحكومة، كما ألغى قلق كل ماكان لهم على رعاياه من المسيحيين، ولما علم أن التلمود (وهو مجموعة التعاليم اليهودية التي وضعها الأحبار شرحاً للتوراة) يحوي عبارة نصها الحرفي «يحق لليهودي أن يغش غير اليهود ويبتز مالهم» عن طريق «الربا الفاحش» أمر بجمع كافة النسخ من بلاده واحرقها جميعاً في باريس، ثم أمر بطرد اليهود من فرنسا، وإذا كان لويس التاسع قد سمح لهم بالعودة بعد عشرين سنة، إلا أن فيليب الرابع (١٢٨٥ - ١٣١٤) عاد فطردهم. وهكذا ظل عمال اليهود في فرنسا، يتقلب بين الإقامة والطرد إلى أن ضاق الشعب بهم، فقامت ثورة شعبية

اليهود في أوروبا، أقرضوا الفرسان والأمراء، بل أقرضوا الكنيسة نفسها لتتمكن من اتمام منشآتها الضخمة الباهظة التكاليف.

جامحة في فرنسا سنة ١٣١٢ م وضد اليهود، أدت إلى قتل كثيرين منهم، وفر الباقون ينتقمون لأنفسهم بتسميم آبار المياه، مما أدى إلى إزدياد شعور النقمة عليهم، والحقيقة أن كل الاضطهاد الذي تعرض له اليهود كان بسبب محاولتهم السيطرة على التجارة والاقتصاد.

وفي إنكلترا رحب وليم الفاتح النورماني باليهود، وأحسن معاملتهم، ولكنهم أبوا إلا أن يتمسكوا بطباعهم، فمارسوا في إنكلترا نفس النشاط الهدام الذي مارسوه في فرنسا، وجعلوا الثروات الضخمة عن طريق اشتغالهم بإقراض الأموال بالرباء فانتهز الشعب الإنكليزي فرصة غياب مليكه ريتشارد قلب الأسد في الحملة الصليبية الثالثة، وعاقب اليهود عقاباً قاسياً.

في عهد الملك هنري الثالث (ملك إنكلترا) ثبت ان اليهود يجمعون العملة الذهبية والفضية ويزيفونها بمعادن أخرى.

وفي عهد الملك هنري الثالث ملك إنكلترا، ثبت ان اليهود يجمعون العملة الذهبية والفضية من الأسواق ويزيفونها بعد أن يستبدلوا مافيها من ذهب وفضة بمعادن أخرى رخيصة مما أخر باقتصاديات البلاد، لذلك أمر هنري الثالث بمصادرة ثلث أموال اليهود في بلاده. وعندما ثار الشعب الإنكليزي بأكمله ضد اليهود سنة ١٢٩٠ م آثروا النجاة بأرواحهم وأموالهم فغادروا البلاد ولم يستطيعوا العودة إليها حتى عهد كرمويل.

أما في ألمانيا فكانت أكبر موجة لاضطهاد اليهود في العصور الوسطى مرتبطة بالحركة الصليبية، ذلك أن اليهود أنفسهم وقفوا في تلك الحركة موقفاً معادياًلاعتقادهم أنها ستعرقل نشاطهم المالي، ليس في الغرب فحسب بل في الشرق أيضاً. وفي الوقت نفسه أحس الأمراء والفرسان الصليبيون المشتركون في الحملة الصليبية الأولى بأنه من الخطر أن يتركوا بلادهم متجهين إلى الشرق، وخلفهم بين ذويهم شراذم من اليهود، يستغلونهم دون شفقة أو رحمة، وربما ألقت الحروب الصليبية على كواهل الفرسان والأمراء أعباء مالية ضخمة أثقلتهم، في الوقت الذي أقروا بأن الديون التي تستوجب دفعها لليهود لاسبيل للخلاص منها إلا بالخلاص من اليهود أنفسهم. لذلك شهدت مدن حوض الراين كما شهدت براغ مذابح كبرى ذهب ضحيتها عدد كبير من اليهود سنة ١٠٩٦ م وجدير بالذكر أن البابوية نفسها لم تكن أقل عداء لليهود، فأصدر البابا أنوسفن الثالث مرسوماً

بابوياً سنة ١٢١٥ م يحد من استغلال اليهود للصليبيين سواء في عمليات الإقراض أو رهن المخلفات أو غير ذلك.

هذه عجالة سريعة عن شعور المسيحيين في بعض بلاد الغرب الأوروبي نحو اليهود ومعاملتهم إياهم في العصور الوسطى. فإذاً كيف كان أمر اليهود في العالم الإسلامي في نفس تلك العصور؟ الواقع أن ثمة حقيقة كبرى يصح أن نبدأ بها وهي أنه إذا كانت الحضارة العربية الإسلامية هي بإعتراف الباحثين أعظم حضارة شهدها العالم أجمع في العصور الوسطى، فإن السر في إزدهار تلك الحضارة إنما يرجع قبل كل شيء إلى روح التسامح التي عرف بها الإسلام والمسلمون.

ولسنا في حاجة إلى الإشارة أن الإسلام أوصى بأهل الكتاب من المسيحيين واليهود خيراً، وإن الله أمر آخر أنبيائه محمد (ص) بأن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة.

«فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد» وبمثل هذه الروح الطيبة فتح المسلمون أبواب بلادهم أمام اليهود ليدخلوها آمنين، وينتقلوا بين ربوعها سالمين، وسمحوا لهم بممارسة نشاطهم الخاص على أوسع نطاق، وأباحوا لهم التتلمذ على أيديهم والأخذ عنهم، وأجازوا لهم تولي الكثير من المهام والأعمال والمناصب الرسمية وغير الرسمية، فصار منهم التجار والصيارفة والأطباء و...

ولاأدل على تسامح المسلمين مع اليهود من السماح لهم بالاحتفاظ بهياكلهم ومعابدهم في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، في الوقت الذي أمرت الكنيسة في غرب أوروبا بتحطيم هياكل اليهود، وقد روى أحد المعاصرين من اليهود في القرن الثاني عشر للميلاد وهو بنيامين التطيلي، أنه أثناء زيارته الكوفة شاهد بها معبداً لليهود ينسب للنبي دانيال، وليس هناك دليل واحد في التاريخ يشير إلى أن المسلمين أساءوا معاملة اليهود لمجرد أنهم يهود، بل على العكس كثيراً ماأعطى المسلمون بعض اليهود حقهم من المديح والثناء، دون إعتبار الدين أو العنصر، ولاعبرة إطلاقاً بأن يلجأ بعض الحكام الذين عرفوا بعدم سلامة تصرفاتهم إلى اضطهاد الذميين من مسيحيين ويهود في فترات محدودة جداً من التاريخ الإسلامي.

لا أدل على تسامح المسلمين مع اليهو من السماح لهم بالاحتفاظ بهياكلهم ومعابدهم في مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

فإذا كانت قد حدثت موجات من

عدد اليهود في القرن الثاني عشر في بلاد المسلمين بحدود ثلاثمائة ألف يهودي:

الاضطهاد لأهل الذمة في عصر سلاطين المماليك مثلاً، فإنه ينبغي أن نقدر روح العصر - وهو عصر الحروب الصليبية - وطبيعة المماليك أنفسهم وحداثة عهدهم بالإسلام وعدم تشربهم روحه بالقدر الكافي.

وقد إضطر موسى بن ميلمون، الفيلسوف اليهودي - أمام موجة طارئة من تلك الموجات - إلى التظاهر بالإسلام والفرار من الأندلس إلى مصر حيث نزل بين اليهود في مصر القديمة، وكان أن وجد في مصر جواً مشبعاً بالتسامح، وتوثقت الصداقة بينه وبين القاضي عبد الرحمن بن علي البياني، ولكن رجلاً ممن كانوا يعرفونه بالأندلس - اسمه ابي غريب - لحق به في مصر، وحاول تجريمه لإرتداده إلى اليهودية، وعندئذ وجد ابن ميمون من عطف القاضي المسلم مافيه الكفاية، إذ حماه البياني وقال: «رجل يكره الإسلام لايصح إسلامه شرعاً» ويعلق أحد الباحثين من المستشرقين على هذه القصة بقوله: إنها تنطوي على تسامح جميل.

وثمة قصة أخرى تدل على روح التسامح التي نظر بها المسلمون إلى اليهود، وهي أن الوزير علي بن عيسة بن الجراح - وزير الخليفة المقتدر العباسي - أمر الطبيب سنان بن ثابت بإرسال جماعة من الأطباء وخزانة من الأدوية والشراب لتجدب السواد من أرض العراق وتداوي المرضى وكانوا أن وجد الأطباء أن هناك مناطق من العراق جمهرة سكانها من اليهود، فكتبوا يتساءلون عما إذا كان مطلوباً منهم علاجهم والاقتصار على علاج مرضى المسلمين، وبسرعة جاء الرد من الوزير بضرورة علاج الجميع، مع البدء بعلاج المسلمين.

ونخرج من القصة السابقة بدلالة أخرى، هي كثرة أعداد اليهود في العالم الإسلامي في العصور الوسطى. وهي ظاهرة تشهد على إحساسهم بالأمن والإستقرار في ظل الحكم الإسلامي بالذات.

ويذكر البلاذري أن معاوية بن أبي سفيان ماكان يستولي على طرابلس حتى جلب إليها اليهود وأسكنهم فيها، وكذلك حصل في الأندلس وغيرها، وفي ظل الأمن والسلام اللذين نظم بهما اليهود في بلاد المسلمين تكاثرت أعدادهم حتى أن بنيامين اليهودي قدر عددهم في القرن الثاني عشر بثلاثمائة

ألف يهودي في المشرق الإسلامي وحده ويقول بنيامين أنه كان يسكن دمشق ثلاثة آلاف يهودي تحت حكم المسلمين وفي حلب خمسة آلاف يهودي، كما يقول أن اليهود ازدحموا على جانبي نهري دجلة والفرات وفي مدن الجزيرة. فكان في الموصل سبعة آلاف... أما في مصر فيقول بنيامين أنه كان في القاهرة سبعة آلاف يهودي وبالإسكندرية ثلاثة آلاف.

وقد ازداد عدد أولئك اليهود بالقاهرة في عصر سلاطين المماليك نظراً لنشاط التجارة.

وكلما تقدمنا شرقاً إزداد عدد اليهود في الوطن الإسلامي فكان بهمدان ألفاً وبأصفهان خمسة آلاف وبشيراز عشرة آلاف وبسمرقند ثلاثون ألفاً. وهذه الأرقام التي يذكرها بنيامين يؤيدها المقدس في القرن الرابع الهجري.

وفي كثير من المدن الإسلامية نجد أحياء تنسب إلى اليهود مثل حارة اليهود بالقاهرة ودرب اليهود في بغداد وفي المغرب خصص الإمام إدريس الثاني حياً كبيراً لليهود في مدينة فاس.

وهذه الكثرة العددية لليهود في العالم الإسلامي وخاصة في الشرق تطلبت أن يكون لهم رئيس ديني يرعى أمورهم. ولقب هذا الرئيس «رأس الجالوت» وله السلطان والرياسة على جميع أبناء ملته. ولقبه المسلمون «بسيدنا» وفرض الخليفة المكتفي العباسي على المسلمين في بغداد تقديم واجب الإحترام له والوقوف أمامه إجلالاً له، ومن لم يقف له ضرب مئة سوط وبقيام الدولة الفاطمية لم يعد للخليفة العباسي في مصر والشام نفوذ، فصار لليهود في مصر رئيس طائفة مستقل لقبه «سرهاريم» أي أمير الأمراء وكان هو الذي يعين أحبار اليهود في مصر والشام، وقد تولى هذه الرئاسة سنة ٦٨٤ هـ الشيخ المهذب أبو الحسن الموفق بن شمويل الطبيب وكتب له توقيع برئاسة سائر الفرق اليهودية في جميع ديار مصر والشام.

وخير مثل نسوقه على الفارق العظيم بين مالقيه اليهود في ظل الحكم الإسلامي من تسامح وأمن واستقرار وماتعرضوا له على أيدي الصليبيين في العصور الوسطى من اضطهاد.

أن مدن الشام التي كانت بها جاليات ضخمة من اليهود تحت حكم المسلمين كادت تفتقر من اليهود بعد إستيلاء الصليبيين عليها. ويقول بنيامين أنه لم

لقب المسلمون رئيس الطائفة اليهودية «بسيدنا» وفرض الخليفة المكتفي العباسي على المسلمين في بغداد واجب الاحترام له والوقوف أمامه إجلالاً، ومن لم يقف له ضرب مئة سوط.

بلغ تسامح المسلمين مع اليهود أن استخدموا اليهود في وظائف الدولة، وعلى رأسها الوزارة.

يبق في بيت المقدس بعد إستيلاء الصيبيين عليها سوى أربعة من اليهود في حين كان في صور تسعة فقط لذلك لاعجب إذا هلل اليهود عندما سمعوا باستيلاء صلاح الدين على بيت المقدس سنة ١١٨٧ م.

وفي ظل التسامح الإسلامي تمتع اليهود بحرية واسعة في مباشرة نشاطهم الاقتصادي فاحتكروا التجارة بين الشرق والغرب، واعتادوا أن يبدؤوا رحلتهم التجارية في إقليم بروفانس بوادي الرون في جنوب فرنسا، ولذلك أطلق عليهم المسلمون اسم اليهود الراذانية بنسبة إلى الرون.. ويستأنفون رحلتهم إلى الشرق الأقصى عن طريق البحر الأحمر.

ومامن مركز تجاري كبير في العالم الإسلامي إلا وكانت به جالية ضخمة من اليهود تسيطر على النشاط المالي فيه. فكانت مدينة اليهودية، على مقربة من اصفهان، هي المركز التجاري لهذه المدينة الفارسية الكبيرة.

أما في مصر فيذكر المقريزي أنه حدث في أيام الخليفة الحاكم بأمر الله أن يتبع أخوان يهوديان يتصرف أحدهما في التجارة والآخر في الصرف وبيع مايحمله التجار من العراق. وفي بيت المقدس احتكر اليهود تجارة الأصباغ في حين اشتغل يهود الأندلس بخصي الرقيق الصقالبة.

وإلى جانب التجارة عرف عن اليهود احتكارهم لأعمال الصيرفة وهي الأعمال التي باشروها بحرية واسعة في العالم الإسلامي.

ولم يكن إطلاق الحرية لليهود لمباشرة نشاطهم المالي والمصرفي هو كل ماحظيوا به من امتيازات في ظل الحكم الإسلامي، بل لقد بلغ من تسامح المسلمين أن استخدموا اليهود في وظائف الدولة. وسمحوا لهم بتقليد اسمى الوظائف وأرقاها، وعلى رأسها وظيفة الوزارة، وظهر منهم في العصر الفاطمي يعقوب بن كلس الذي لجأ إلى مصر حيث تاجر لكافور الأخشيدي ثم استوزرة المعز لدين الله الفاطمي ويقال أنه هو الذي اشار عليه بفتح مصر. ورغم إعتناقه الإسلام إلا أنه ظل يتحيز لإخوانه اليهود، ومع ذلك فقد كان المعز لايفعل شيئاً إلا بمشورته. أما الخليفة العزيز الفاطمي فقد استوزر عيسة بن فطوروس النصراني واستناب في الشام يهودياً اسمه منشا فاعتز بهما أهل الذمة وأنزلوا اضراراً كبيرة بالمسلمين. وفي عهد

الخليفة المستنصر الفاطمي أصبح أبو نصر صدقة بن يوسف الفلاحي وزيراً ـ وكان يهودياً فأسلم ، فأشرك معه في تدبير شؤون الدولة أبو سعد التستري اليهودي.. وقد أثار هذا الأخير كراهية المسلمين لليهود، واسناده مناصب الدولة إليهم مما مكنهم من اضطهاد المسلمين اضطهاداً واضحاً. وعبّر عن ذلك الشاعر المصري الحسن بن خاقان بقوله:

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية مالهم وقد ملكوا

العز فيهم والمال عندهمو ومنهم المستشار والملك

ولم يقتصر الأمر على مصر فقد استوزر ملكشاه السلجوقي لنفسه أمين الدولة أبا الحسن بن غزال ـ وهو طبيب يهودي ـ وجدوا عنده بعد موته ثلاثة ملايين قطعة من الذهب.

وفي المغرب اتخذ باريس بن حبوس بن زيدي ملك غرناطة ٤٦٦ ـ ٥٣٠ هـ أحد اليهود ابن تغزالة وزيراً. وكان لمهنة الطب خطرها في المجتمع الإسلامي في العصور الوسطى ومع ذلك فقد أباح المسلمون لأهل الذمة مزاولة تلك المهنة. وسلم الخلفاء والحكام أرواحهم وأنفسهم لأطباء من اليهود وإذا كان قد عيب على الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي أنه إضطهد أهل الذمة خلال فترة معينة من حكمه، فإن كتب التاريخ تحكي عن الحاكم نفسه أنه أصيب بجرح في ساقه فأحضر إليه طبيب يهودي نجح في علاجه. وعندئذ منحه الحاكم ألف دينار وخلع عليه وجعله من أطبائه الخاصين، كذلك اختار الملك العادل الأيوبي يعقوب بن صقلان طبيباً خاصاً له. وقد أدركه وجع المفاصل في أواخر أيامه. فكان الملك العادل إذا احتاجه استدعاه إليه في محفة يحملها الرجال.

وبعد فلعله من الواضح بعد هذه اللمحة السريعة أن اليهود لم يلقوا طوال عصور التاريخ معاملة أكرم وأطيب من تلك التي عاملهم بها المسلمون. لقد أدت أنانية اليهود وجشعهم إلى تعرضهم لاضطهاد الرومان في العصور القديمة ومختلف شعوب أوروبا المسيحية في حين أنهم وجدوا في المسلمين ـ بإعتراف كتاب اليهود أنفسهم ـ أخوة رحماء، يعتبرونهم أهل كتاب ولايجعلون للفوارق الدينية وزناً في تحديد نوع المعاملة التي يعاملونهم بها.

ولكن تجربة المسلمين مع اليهود كانت دائماً مريرة قاسية، إذ كان اليهود يقابلون

تجربة المسلمين مع اليهود كانت دائماً مريرة قاسية، إذ كان اليهود يقابلون الوفاء بالغدر والإحسان بالنكران.

إن البلدان العربية والإسلامية هي التي دفعت ثمن الاضطهاد الغربي لليهود عندما شكلوا تجمع لليهود في دولة واحدة التي عرفت باسم إسرائيل»

الوفاء بالغدر والإحسان بالنكران والمعروف بالجحود، لذلك أخذ المسلمون في العصور الوسطى يتخوفون من السفر مع اليهود خوفاً من خديعتهم.

ولعل هذه الأمثلة وغيرها هي التي جعلت المستشرق أولبري يقول مانصه: «إن النظام الإداري للدولة الإسلامية قد أمدّ اليهود بفرص أظهروا فيها مدى ماأنطوت عليه نفوسهم من الظلم والخيانة، وهي تلك الأخلاق التي لم يستطيعوا كبح جماحها.

وبالمقابل بلغت الحملات ضد اليهود في الغرب ذروتها حيث تعرضوا للمذابح في اسبانيا وأوروبا ورغم ذلك فإن البلدان العربية الإسلامية هي التي دفعت ثمن الاضطهاد الغربي لليهود عندما شكل هذا الاضطهاد مبرراً معنوياً للغرب لتجميع اليهود في دولة واحدة هي التي عرفت بإسم «إسرائيل». أما المجتمع الغربي الذي تسبب في هذا كله فقد تنصل من مسؤولياته، بل ساعد في إلقاء الجريمة على اكتاف المجتمع العربي، ولايزال الصراع مستمراً حتى هذا اليوم لأن القضية الفلسطينية لاتزال تدور في دوامة مفرغة من القلق والإضطراب.

المصطلحات التقنية/ الأثرية وحدود مدلولاتها

د. محمد ماجد الموصلي

لكل علم من العلوم مصطلحاته الخاصة به، وقد عرفت المصطلحات الخاصة بالعلوم بالتعبير اللاتيني (Terminus tecnicus) أي المصطلحات التقنية حسب تعريفها الحرفي، ومن دون استخدام المصطلحات التقنية (مصطلحات عمل البحث العلمي)

لايمكن للشاغلين وللباحثين في حقل من حقول العلوم التفاهم وتفسير وشرح نتائج أبحاثهم ودراساتهم حتى أننا لن نكون فعالين إذا قلنا أن تلك المصطلحات التقنية لأحد العلوم هي لغة خاصة ضمن اللغة التي يكتب بها الباحث أو الدارس. وعلم الآثار والتنقيب هو أحد العلوم التي لها لغتها الخاصة بها أي أن علم الآثار يزخر بالمصطلحات التقنية. سوف نحاول في هذا الموضوع استعراض أهم وأشهر المصطلحات التقنية في علم الآثار والتنقيب وتحديد مدلولاتها والمفاهيم المرتبطة بها. نصنف المصطلحات ضمن الفقرات التالية:

أ ـ مصطلحات المراحل الحضارية.

ب ـ المصطلحات الخاصة بالمواقع الآثرية.

جـ ـ المصطلحات الخاصة بالفخار.

د ـ المصطلحات الخاصة بالتنقيب الآثري.

هـ ـ المصطلحات الخاصة بالتاريخ.

و ـ مصطلحات أخرى.

لنبدأ أولاً بمصطلحات المراحل الحضارية.

من المعروف أن الفيلسوف اليوناني لوكريتسيوس كاروس كان أول من تحدث عن ارتقاء الحضارة البشرية من الحالة الدنيا إلى الحالة الأكثر تطوراً فقد صنف الحضارات التي كانت قائمة في عهده وفق مايلي:

١ ـ مرحلة الإنسان الذي لم يعرف النار.
٢ ـ مرحلة الإنسان الذي تعرف على النار.
٣ ـ مرحلة الإنسان الذي تعرف على صنع الأدوات.
٤ ـ مرحلة الإنسان الذي يعيش في الحالة البربرية.
٥ ـ مرحلة الإنسان الذي ابتكر الحضارة المدنية (ويقصد اليونانيين).

النظرية الدورانية حول مسألة الارتقاء من الأدنى إلى الأعلى

ثم ظهرت النظرية الدروانية حول مسألة الإرتقاء من الأدنى ونحو الأعلى وطبقت تلك النظرية في مجالات الدراسات الثقافية والحضارية واعتبرت منهجاً اختلف الباحثون في التقيد به وخاصة بما يتعلق بتصنيف الحضارات البشرية ضمن نظرية الإرتقاء وفق خط واحد أو وفق خطوط متوازية الخ.

وهكذا اضطر الباحثون في علم الآثار لدى تقييمهم وتأريخهم للسويات الآثرية التي اكتشفوها إلى استخدام مصطلحات خاصة تفرق السويات الحضارية عن بعضها وتعبر عن المرحلة والزمن الحضاري لمكتشفاتهم.

١ ــ الحضارة البدائية: Primitiu Culture.

يبدو أنه يوجد اليوم مايشبه الاتفاق العام حول الاستغناء عن مصطلح بدائي وإبداله بمصطلح ابتدائي فحسب رأي الكثير من المؤرخين، لاوجود لحضارة بدائية فأكثر الشعوب بدائية عرفت شكلاً من أشكال الثقافة ولو كانت معرفتها قاصرة على مستوى معين من التعامل مع الطبيعة لإثبات الوجود الحياتي.

٢ ــ العصر الحجري القديم: Palalolithic.

مصطلح يطلق على السوية الحضارية التي عرفت نموذجاً معيناً من نماذج صنع الأدوات الحجرية ويغطي هذا المصطلح عصوراً زمنية طويلة ونظراً لاحتمال وقوع التباس في معرفة أية فترة من الممكن أن تغطي من خلالها السورية الحضارية المعينة لهذا فقد عرفت مصطلحات أخرى ترتبط بالمصطلح الآنف الذكر وهي:

العصر الحجري القديم الأدنى Lower Palaeolithic

العصر الحجري القديم الأوسط: Middle Palaeolithic

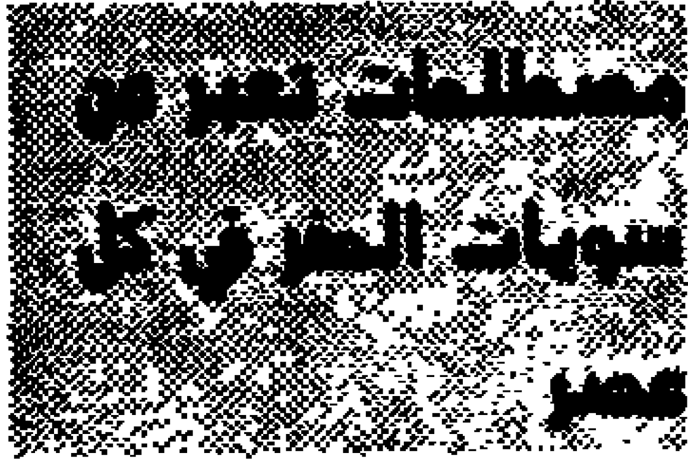
العصر الحجري القديم الأعلى: Upper Palaeolithic

يطلق مصطلح العصر الحجري القديم الأدنى على أقدم الحضارات البشرية الحجرية وهي الحضارة المرتبطة بصناعة حجرية ابتدائية للإنسان الجنوبي Austvalopithecus والإنسان المنتصب

(Homo Erectus).

أما مصطلح العصر الحجري القديم الأوسط فهو يغطي مرحلة حضارية حجرية انتقالية بين الصناعة الحجرية القديمة الدنيا (أدوات القبضة الحجرية البسيطة والحصى) وبين المرحلة الحضارية الحجرية القديمة العليا التي يعبر عنها مصطلح العصر الحجري القديم الأعلى وهي التي تبدأ نحواً من حوالي ٤٠,٠٠٠ عام قبل عصرنا الحاضر وهي مرتبطة بما يسمى بالإنسان العاقل.

هناك أيضاً مصطلحات تعبر عن سويات العصر الحجري القديم وهي في الحقيقة أسماء لمواضع جغرافية اكتشفت فيها سويات حضارية حجرية لكنها متفاوتة في الدنو أو الرقي وهي مستخدمة اليوم بشكل متواز مع المصطلحات الآنفة الذكر منها مثلاً حضارة Chellean (أقدم حضارة حجرية قديمة) وحضارة آشول (Acheulian) (سورية اكثر رقياً عن الشيلين) وليفالوا - موستريان (Leuallois - Mousterian) التي وجدت آثارها في جنوب فرنسا وفي منطقة الجبال التدمرية وهناك أيضاً الحضارة الحجرية المجدلانية (Magdalenian) وهي أحدث الحضارات الحجرية القديمة (عرفت من مواضع في بريطانيا وفرنسا واسبانيا / آلتاميرا) انتهى مصطلح الباليوليثيك.



٣ - العصر الحجري الوسيط (Mesolithic)

مصطلح يطلق على السوية الحضارية الحجرية الانتقالية بين الحجري القديم والحجري الحديث، ولايغطى هذا المصطلح نفس الفترات الزمنية لمختلف المواقع الحجرية في العالم شأن ذلك شأن مصطلح العصر الحجري القديم، إذ أن التاريخ الزمني لسويات العصر الحجري الوسيط في أوروبا لاتتطابق زمنياً مع تاريخ سويات العصر الحجري الوسيط المكتشفة مثلاً في المريبط أو الكوم ضمن أراضي القطر العربي السوري.

وهناك مصطلح معروف باسم الحضارة النطوفية (جبال الكرمل وهضاب القدس) الذي يتطابق زمنياً إلى حد ما مع العصر الحجري الوسيط وتقع فترته بين ١٠٠٠ و ٨٣٠٠ ق. م.

٤ - العصر الحجري الحديث (Neolithic)

يعبر مصطلح العصر الحجري الحديث عن آخر مرحلة من مراحل الحضارة

الحجرية وذلك قبل العصرالانتقالي إلى اكتشاف النحاس. ومسألة العصر الحجري الحديث غاية في التعقيد من حيث ابتدائه زمنياً واستمراره فالحضارة النطوفية هي من فترات العصر الحجري الحديث حسب بعض الآراء وحسب المواقع الجغرافية وهي حسب رأي البعض الآخر مجهولة كحضارة في مناطق أخرى.

وعليه تتأرجح التغطية الزمنية للعصر الحجري الحديث بشكل عام بين الألف العاشرة أو التاسعة ق. م وبين منتصف الألف الثامنة ق. م وهي الفترة المعروفة باسم أقدم سويات العصر الحجري الحديث (حسب تنقيبات الأستاذ كوفان في موقع المريبط) (أي بين ٧٦٠٠ و ٦٦٠٠ ق. م) وتمتد فترات العصر الحجري الحديث إلى نحو من إنتهاء عصر حلف وابتداء عصر العبيد.

العصر الحجري الحديث بين الألف العاشرة والثامنة ق.م

٥ ـ عصر حلف (Halaf)

نسبة إلى موقع حلف فقد درج على استخدام مصطلح عصر حلف الذي يغطي فترة الألف الخامسة ق. م ويعبر المصطلح عن أحدث فترات العصر الحجري الحديث وغالباً مايرتبط مصطلح حلف بنموذج فخار معين معروف باسم فخار حلف.

٦ ـ عصر العبيد

نسبة إلى موقع العبيد في بلاد مابين النهرين فقد درج على استخدام مصطلح عصر العبيد وهو عصر حضاري أحدث من عصر حلف أي أنه يقع زمنياً قبل الألف الرابعة ق. م، ظهرت سوية العبيد في مواضع آثرية كثيرة عن بلاد مابين النهرين وفي سوريا.

٧ ـ عصر الوركاء

الوركاء أو كما ترد في الآداب الأثرية الأوروبية باسم أوروك، موقع آثري اكتشفت فيه سوية بداية صناعة الآنية الفخارية فوق الدولاب، وتغطي هذه السوية الألف الرابعة ق. م.

اكتشفت سوية الوركاء أيضاً في مواضع مختلفة من بلاد مابين النهرين وسوريا. ويقسم عصر الوركاء إلى مرحلتين عصر الوركاء المبكر وعصر الوركاء المتأخر الذي ينتهي حوالي ٣١٠٠ ق. م.

٨ ـ عصر جمدة نصر

نسبة إلى موقع جمدة نصر ويغطي الفترة الزمنية بين ٣١٠٠ و ٢٩٠٠ ق.م.

٩ ـ عصر ماقبل السلالات (Pre - Dynashic)

يطلق مصطلح عصر ماقبل السلالات على الفترة الزمنية التي لم تعرف منها

سلالات حاكمة في المدن المصرية القديمة وخاصة من البداري والفيوم وغيرها وتتوافق تلك الفترة زمنياً مع الألفين الخامسة والرابعة ق. م).

أما الفترة الزمنية التي يتوافق معها مدلول عصر ماقبل السلالات في بلاد مابين النهرين فتعود إلى مابين ٢٩٠٠ و ٢٢٥٠ ق. م. وبالنسبة إلى مصطلح عصر ماقبل السلالات في بلاد مابين النهرين فهو يقسم إلى عصر ماقبل السلالات من I إلى III.

يقابل مدلول مصطلح عصر ماقبل السلالات في سوريا مصطلح فجر التاريخ السوري.

أما مصطلح العصر الحجري النحاسي أو مايسمى بـ الحجري الحديث المتأخر (Emealithic) فهو يغطي الفترة الزمنية الواقعة بين ٥٠٠٠ و ٣٠٠٠ ق. م وهي الفترة التي عرفنا أن مدلولها مغطى بمصطلحات عصر حلف وعصر العبيد وعصر الوركاء وعصر جمدة نصر.

١٠ ـ عصر البرونز القديم I و II و III Early Brenze196

يعتبر كريستيان تومسين الدانماركي رائد التصنيف الحضاري وفق النظام المعروف باستناده إلى صناعة الحجر ومن ثم الانتقال إلى اكتشاف المعدن وقد قسمت الفترة الزمنية التي اكتشف فيها معدن البرونز القديم (Early Brenze) وعصر البرونز الوسيط (Muddle Branze) وعصر البرونز الحديث (late Bronze) يغطي عصر البرونز المبكر الفترة الزمنية الواقعة بين ٣٠٠٠ أو ٢٩٠٠ و ٢٤٠٠ ق. م وتتوافق تلك الفترة زمنياً مع عصر جمدة نصر وعصر ماقبل السلالات الرافدية.

عصر ما قبل السلالات في مصر وسوريا

١١ ـ عصر البرونز القديم الرابع Early Brenze IV

يغطي هذا المصطلح الفترة الزمنية بين عامي ٢٤٠٠ و ٢٠٠٠ أو ١٩٠٠ قبل الميلاد ويتوافق عصر البرونز القديم الرابع زمنياً مع عصر أكاد وعصر أكاد المتأخر أو عصر سلالة لجاش وعصر أور الثالث. وهناك خلافات حادة حول استخدام مصطلح عصر البرونز القديم الرابع فبالنسبة إلى سوريا وفلسطين طرح مصطلح عصر البرونز الانتقالي بين عصري البرونز القديم والبرونز الوسيط ومثل هذا المصطلح يغطي الفترة الزمنية الواقعة بين ٢٢٥٠ و ١٩٠٠ ق. م أي عصري لجاش واور الثالثة ويرتبط الموضوع أصلاً بالكرونولوجي أو التقديم (التاريخ) المحلي والعام الذي

يشمل منطقة تاريخية محددة.

١٢ ـ عصر البرونز الوسيط Middle Brenze

يغطي مصطلح عصر البرونز الوسيط الفترة الزمنية الواقعة بين عامي ٢٠٠٠ أو ١٩٠٠ و ١٦٠٠ أو ١٥٥٠ ق. م حسب كرونولوجي تل مرديخ /ايبلا وحسب كرونولوجي مواقع أخرى الفترة الواقعة بين ١٩٠٠ و ١٥٥٠ ق. م. يقسم عصر البرونز الوسيط إلى مرحلتين هما عصر البرونز الوسيط I وعصر البرونز الوسيط II وهناك خلافات أيضاً وعدم استقرار حول التحديد الزمني الدقيق لمصطلح عصر البرونز الوسيط، فعصر البرونز الوسيط I يبدأ حوالي عام ٢٠٠٠ وينتهي حوالي عام ١٨٠٠ ق. م في تل مرديخ ويبدأ عصر البرونز الوسيط I حوالي عام ١٨٠٠ وينتهي حوالي عام ١٦٠٠ ق. م في نفس الموقع. يطلق أيضاً مصطلح العصر السوري القديم على نفس فترات عصر البرونز الوسيط.

١٣ ـ عصر البرونز الحديث (Late Brenge)

يبدأ عصر البرونز الحديث في وسط سوريا (تنقيب البعثة الدانماركية في حماة) حوالي عام ١٥٥٠ ق. م وينتهي حوالي عام ١٢٠٠ ق. م اما التقدير الزمني للبرونز الحديث في تل مرديخ فيبدأ عند عام ١٦٠٠ وينتهي عند عام ١٢٠٠ ق. م وهو يقسم إلى مرحلتين البرونز الحديث I من ١٦٠٠ أو ١٥٥٠ وحتى ١٤٠٠ ق. م والبرونز الحديث II من ١٤٠٠ وحتى ١٢٠٠ ق. م. وحول التقدير الزمني للبرونز الحديث وتقسيمه إلى فترات فهناك أيضاً عدم إجماع حول الموضوع حيث يقسم البرونز الحديث لمناطق لبنان والساحل السوري إلى ثلاثة مراحل تنتهي عند حوالي عام ١٢٠٠ ق. م وهي فترة إنتهاء الحكم الحثي لمناطق شمال ووسط سوريا. يطلق أيضاً مصطلح العصر السوري الوسيط على نفس الفترة الزمنية التي يغطيها مصطلح عصر البرونز الحديث.

١٤ ـ عصر الحديد: Iron - Ase

يطلق مصطلح عصر الحديد على الفترة الزمنية التي تبدأ من عام ١٢٠٠ ق.م وهي فترة اكتشاف معدن الحديد وتبدأ فترة عصر الحديد مع انهيار الحكم الحثي في سوريا وسطوع نجم الدول الآرامية. ويوازي مدلول عصر الحديد زمنياً مدلول مصطلح العصر السوري الجديد أما مصطلح العصر الآشوري الجديد فيغطي الفترة الواقعة بين ١١٠٠ و ٦١٠ ق.م وهو زمن سطوع نجم

ظات حول استخدام
مصطلح عصر البرونز
القديم الرابع في
سورية وفلسطين

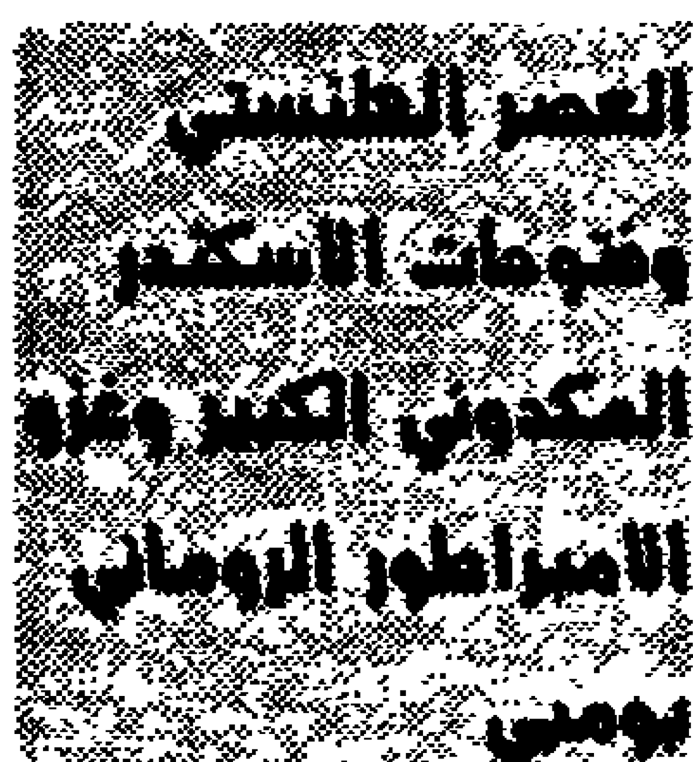
الدولة الآشورية. يقسم عصر الحديد إلى أربعة أو إلى ثلاثة مراحل: هي الحديد I من ١٢٠٠ وحتى ٩٠٠ ق.م والحديد II من ٩٠٠ إلى ٧٢٠ ق.م والحديد III من ٧٢٠ وحتى حوالي ٥٥٠ ق.م.

١٥ ـ العصر الأخميني

مصطلح يطلق على فترة سيطرة الدولة الفارسية على المنطقة وذلك بين حوالي عام ٥٥٠ وعام ٣٢٥ ق.م.

١٦ ـ العصر الهلنستي

يطلق مصطلح العصر الهلنستي على الفترة التي تقع بين ابتداء الغزو الهلنستي للمنطقة (فتوحات الأسكندر المكدوني الكبير) وغزو الامبراطور الروماني بومبي للمنطقة في عام ٦٤ ق.م.



١٧ ـ العصر الروماني

بين عام ٦٤ ق.م وانفصال القسطنطينية عن روما وقيام الدولة البيزنطية في عام ٣٠٦ م.

١٨ ـ العصر البيزنطي

من عام ٣٠٦ وحتى ٦٣٠ م

١٩ ـ العصر الإسلامي

من ٣٦٠ حتى يومنا هذا.

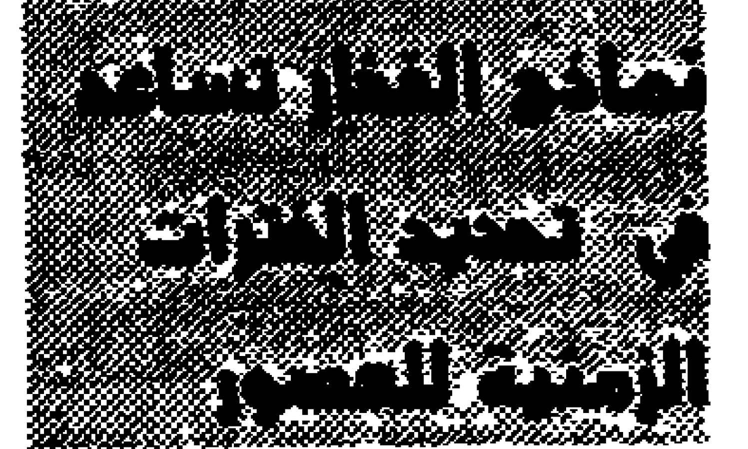
ب ـ المصطلحات الخاصة بالمواقع الأثرية

نتج عن القيام بالتنقيب في مواقع آثرية عديدة وعبر تاريخ التنقيب الآثري الحديث استخدام تعابير خاصة في نشر النتائج العلمية للحفريات وأضحت مثل تلك التعابير مصطلحات لم يعد من الممكن الإستغناء عنها أو تجنب الاستشهاد بها. من تلك المصطلحات مثلاً HamaJ أو مرديخ IIB ٢٤٠٠ - ٢٠٠٠ ق.م إلخ. ومثل تلك التعابير هي كناية عن اسم السوية أو الطبقة الآثرية حسب الحرف اللاتينية يضاف إليها اسم الموقع الآثري الذي جرى فيه التنقيب والكشف عن الطبقة الآثرية المعنية.

والتعبير المختصر من أسم الموقع والحرف المؤشر إلى الطبقة يعبر عن فترة زمنية للسكن في الموقع وظهور نموذج أو نماذج معينة من الفخار الآثري أو اكتشاف نموذج معين من العمارة وأسلوبها الخ. وأضحت مثل تلك التعابير مصطلحات يستخدمها الآثريون في تدوين نتائج حفرياتهم فمثلاً يقول الأستاذ فلان أنه اكتشف في الموقع الآثري الفلاني سوية تبين أن فخارها هو مماثل لفخار Hamaj أو غيره نستعرض فيما يلي أهم تلك التعابير المصطلحية الخاصة بمواقعنا الآثرية:

١ ـ العمق (Amuq F)

يقصد بالتعبير العمق F السوية الأثرية



المكتشفة في تلال الجديدة وتشاتال هويوك وغيرها من تلال آثرية تدفن مدن قديمة ازدهرت في سهل العمق (لواء الاسكندونة) ويغطي العمق F زمنياً من ٣٥٠٠ - ٣٣٠٠ ق. م ويقابل تعبير العمق F التعبير نينوي III وغاورا XI - XII.

٢ ـ حماة (J)

يغطي التعبير حماة (J) الفترة الزمنية الواقعة بين ٢٤٠٠ و ٢٠٠٠ ق. م وهناك تقسيمات معروفة أنها تبدأ بـ حماة J١ وتنتهي بـ حماة J٨ ونظراً لقبول أو رفض التحديد الزمني وتاريخ التسوية HJ لذا فيفضل عوضاً عن ذكر التاريخ القول أن السوية المعينة كذا هي مماثلة (HJ) الخ.

٣ ـ مرديخ من I إلى VII:

يقابل تعبير مرديخ IIB١ تعبير حماة ٤ - Hama J١ المتوافق مع الفترة الزمنية من ٢٤٠٠ - ٢٢٥٠ ق. م. أما فترة مرديخ IIB٢ فهي الفترة الواقعة بين ٢٢٥٠ - ٢٠٠٠ ق. م وفترة مرديخ IIB١ هي فترة ازدهار ايبلا قبل تدميرها من قبل نارام سين خليفة صارغون الأكادي.

ج ـ المصطلحات الخاصة بالفخار

هناك تعابير خاصة بالفخار لاحصر لها وقد أضحت مصطلحات يتفاهم بها الكتبة والقارؤون للآداب والأبحاث الآثرية وهي تعبّر غالباً عن نموذج محدد من نماذج الفخار الأثري الذي ظهر ضمن فترة زمنية محددة واختفى بعدها، لذا أضحت تلك المصطلحات رموزاً لفترات زمنية حضارية فمثلاً هناك مصطلح معروف باسم الفخار المعدني (metallic - Ware) وبما أن الفخار المعدني ذا المواصفات المحددة معروف على أنه ظهر بين ٢٢٥٠ و ٢٠٠٠ ق. م لذا فإن قارىء البحث الأثري يعرف عند قراءته لمصطلح الفخار المعدني أن المقصود هو الفترة الزمنية التي ذكرتها آنفاً. والمشكلة أنه إذا ورد لدى أحد الباحثين أنه اكتشف الفخار المعدني في سوية عصر البرونز الوسيط أي بعد عام ١٩٠٠ ق. م. فالمسألة تتعلق عندها باستمرار تقليد صناعة الفخار المعدني في الموقع الآثري المحدد.

١ ـ الفخار المعدني:

هو أحد نماذج الفخار الذي يتصف بأن التربة المصنوع منها ناعمة جداً وتحتوي على نسبة عالية من الذرات

المعدنية وهو مشوي تحت درجة عالية ورقيق القوام وينتج عند الطرق عليه رنيناً خاصاً.

٢ ـ الفخار المدهون المعروف بإسم Polychrome

هو الفخار المدهون بلون أو لونين فوق اللون الأصلي للطين المصنوع منه الآنية.

٣ ـ الفخار المدهون المعروف باسم Moraclrome

هو الفخار المدهون بلون واحد فقط فوق الطين المصنوع منه الآنية.

٤ ـ الفخار الفايانس Faience

هو نموذج محدد من الفخار المصنوع من الطين المخلوط مع الرمل وهو مشوي تحت درجة حرارة عالية تحول عندها الرمل إلى قوام زجاجي ذا لون أخضر اوز نجاري ومثل هذا النموذج من الفخار معروف من مصر وفلسطين وانتشرت صناعته خلال الألف الثانية ق.م.

إلخ من مصطلحات تتعلق بالفخار وأنواعه ونماذجه.

د ـ المصطلحات الخاصة بالتنقيب الآثري

من المعروف أن التنقيب والحفريات الآثرية هي أعمال تقنية منهجية بحتة ولها مصطلحاتها الخاصة بها. ومثل تلك المصطلحات غاية في الفقه والمدلول وهي مرتبطة أصلاً بنشوء علم الحفريات الآثرية ولايمكن الاستغناء عنها او تبديلها، نورد فيما يلي بعضاً من تلك المصطلحات:

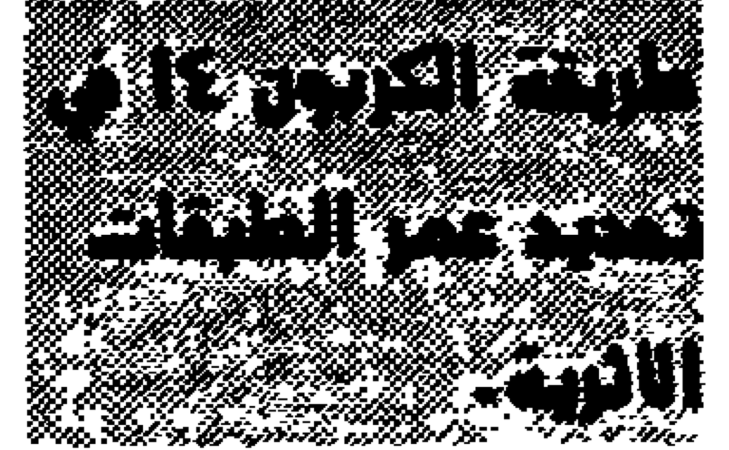
١ ـ الستراتيغرافي Strategvaply:

يعبّر مصطلح الستراتيغرافي عن تمييز الطبقات الآثرية أو دراسة الطبقات الآثرية فجّل المواقع الأثرية تتألف من طبقات أثرية تتوضع فوق بعضها البعض والمصطلح يتألف من كلمتين هما Strata ومعناها طبقة و graply ومعناها الوصف أي وصف الطبقات ومثلاً نجد تلاً أثرياً هو عبارة عن أنقاض عدة طبقات أثرية تتوضع فوق بعضها البعض أقدمها هو أدناها عمقاً وأحدثها زمنياً هو أعلاها.

٢ ـ الكرونولوجي (Chranalogy):

يعبّر مصطلح الكرونولوجي عن التسلسل الزمني وتتابع القدم وتعريه هو كما رأينا بشرح الوصف والمدلول المتعلق بالمصطلح وغالباً مايستخدم هذا المصطلح بلفظته اللاتينية شرحه في ذلك شرح مصطلح الستراتيغرافي. الكرونولوجي لموقع آثري معين هو البيان الزمني وتسلسل القدم بالنسبة لتاريخ السكن فيه، فالكرونولوجي لتل

مصطلحات التنقيب الاثري لايمكن الاستغناء عنها في علم الحفريات الاثرية



حمص مثلاً هو تاريخ السكن في التل المذكور ونحن نعرف من دراسة اللقى الفخارية السطحية أن تل حمص كان مأهولاً خلال النصف الثاني من الألف الثالثة ق. م وفي عصر البرونز الحديث وفي عصر الحديد وفي العصور الهلنستية والرومانية والبيزنطية والإسلامية.

٣ ـ في مكانه الأصلي (In situ)

تكتشف أثناء التنقيب قطع آثرية تماثيل أو آنية إلخ في مواضعها الأصلية أي التمثال في هيكل المعبد أو قدر الطبخ في المطبخ، لذا يقال أن القطعة الآثرية الفلانية وجدت insitu.

٤ ـ مربع الحفر٣Trench

يقصد به مربع الحفر المحدث وفق مقاييس محدثة فمثلاً مربع الحفر ٩x٩ م أو ٥ x٥ م إلخ...

٥ ـ المقطع Seetin

مقطع الحفر هو أحد الواجهات الداخلية لمربع الحفر حيث تحفر الأرض ضمن المربع باستقامة شاقولية وللمقاطع أهمية بالنسبة لفحص الطبقات الآثرية المتوضعة فوق بعضها البعض.

هـ ـ المصطلحات الخاصة بالتاريخ Datiuy

إن التاريخ من أهم المسائل في علم الآثار والحفريات، ومازال التاريخ الشغل الشاغل للآثريين والعلماء والباحثين في الحضارات وهي معضلة وجرت لها بعض الحلول، لكن تلك الحلول مازالت بدورها موضوعاً للجدل والمناقشات الحادة وتستخدم في عملية التاريخ مصطلحات أضحت شائعة نورد فيما يلي أهمها:

١ ـ الكربون ١٤ C14 datiuy

تعتبر طريقة الكربون ١٤ من أشهر طرق التاريخ المستندة إلى النتائج المخبرية. اكتشفت هذه الطريقة في عام ١٩٤٩. تتشكل في الجو وبتأثير الاشعاعات العالية نسبة ضعيفة من الكربون ١٤ المشع وتأخذه الكائنات الحية ويدخل إلى بنية عظام الإنسان والحيوان مع التغذية النباتية وعندها تموت تلك الكائنات تتوقف عملية أخذ الكربون ١٤ وتبدأ مرحلة فقدانه، فيفقد الجسم الميت خلال فترة زمنية تقدر بـ ٥٥٦٨ + ٣٠ عام حوالي نصف نسبة المركز منه وعليه فبحساب نسبة مابقي من الكربون ١٤ في عيّنة فحمية أو عظمية أو صدفية بواسطة قياس كثافة الإشعاع يمكن الحصول على عمر العينة المحددة وبالتالي عمر الطبقة الآثرية التي وجدت فيها. يضاف إلى الرقم المستخلص فترة زمنية

مصطلحات علم النقود الأثرية

تلحظ بإشارة + أو − وهي الفترة التي تعّبر عن إمكانية حصول خطأ في تحديد عمر العينة. ويعتقد بشكل عام أن نسبة صحة التاريخ بواسطة قياس الكربون ١٤ لاتتجاوز ٦٨٪ من مطلق العمر الزمني الحقيقي.

٢ ـ تحليل غبار الطلع (Pollen Analysis)

هي إحدى الطرق المخبرية للتاريخ، فغبار الطلع لمختلف أنواع النباتات يحتفظ بخصائصه المميزة والتي يمكن التعرف عليها بواسطة رؤيتها مكبرة ٥٠٠ مرة. وعن طريق الحصول على عينات من غبار الطلع يمكن الحصول على التاريخ النباتي لطبقة من الطبقات، ومثل هذه الطريقة تطبق في تاريخ العصور الحجرية القديمة وعصور ماقبل التاريخ وتاريخ الأدوار الجيولوجية.

و ـ مصطلحات أخرى

هناك مصطلحات أخرى لاحصر لها وخاصة في مجال علم النقود الآثرية (Nimismaty) (النميّات) وفي مجالات الزجاج والخزف الآثري ودراسة الكتابات الآثرية وغيرها. نقتصر الحديث في محاضرتنا هذه على البعض القليل من تلك المصطلحات:

١ ـ الدينار Solidus

هي الوحدة النقدية المصكوكة من معدن الذهب، وقد بلغت قيمة الدينار البيزنطي زمن صكّه ٦٠٠٠ فلس نحاسي.

٢ ـ الخزف:

هو المصطلح الذي يطلق على الآنية المصنوعة من الطين والمكسية بطبقة زجاجية تختلف سماكته أو براقته حسب درجة الشي ومواد السيليكس المؤلف منها قبل إدخال الإناء إلى الفرن.

٣ ـ الباليوغرافيا Palaeoynphy

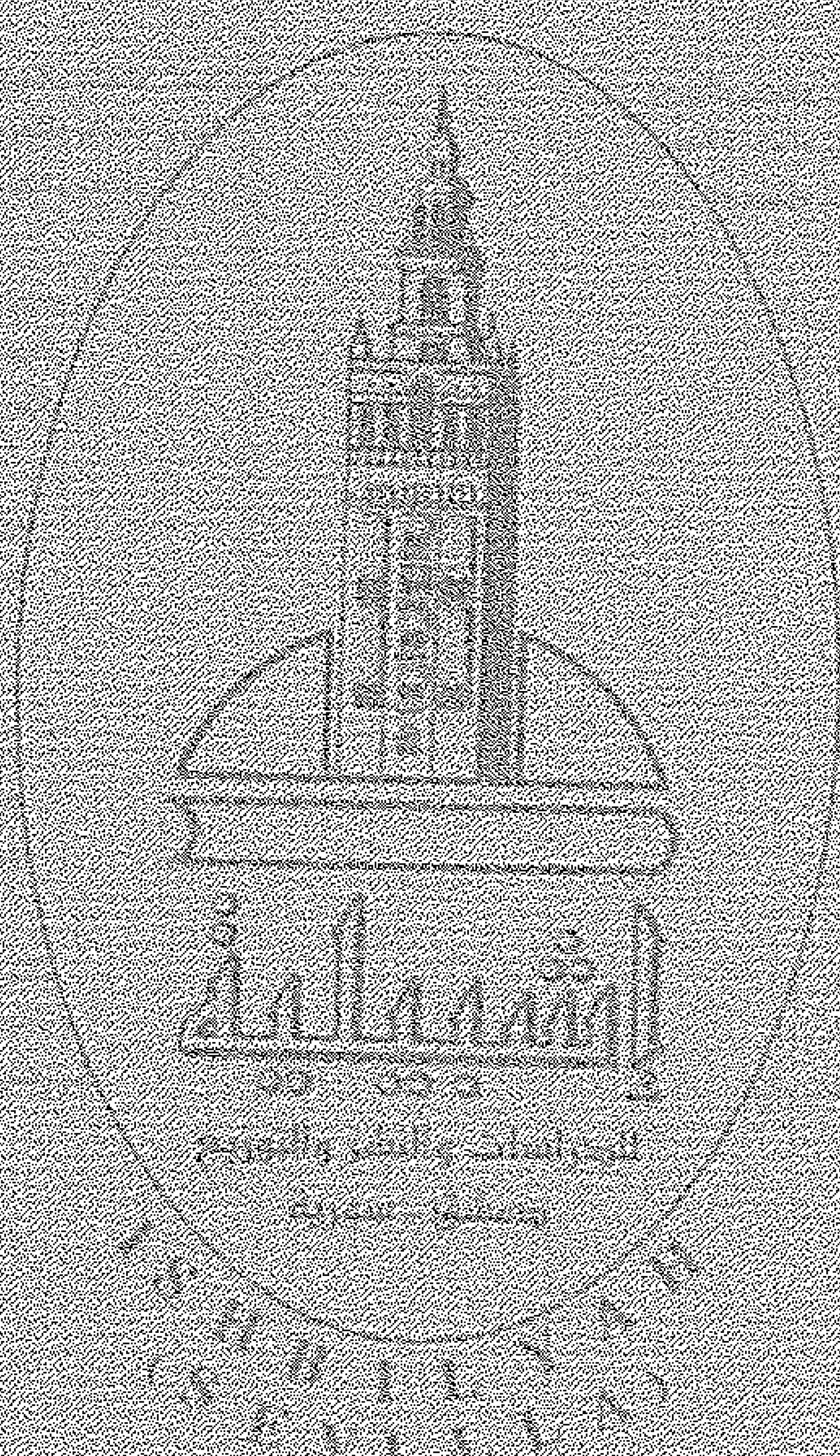
هو علم دراسة أشكال الأقلام الأبجدية القديمة وتطورها.

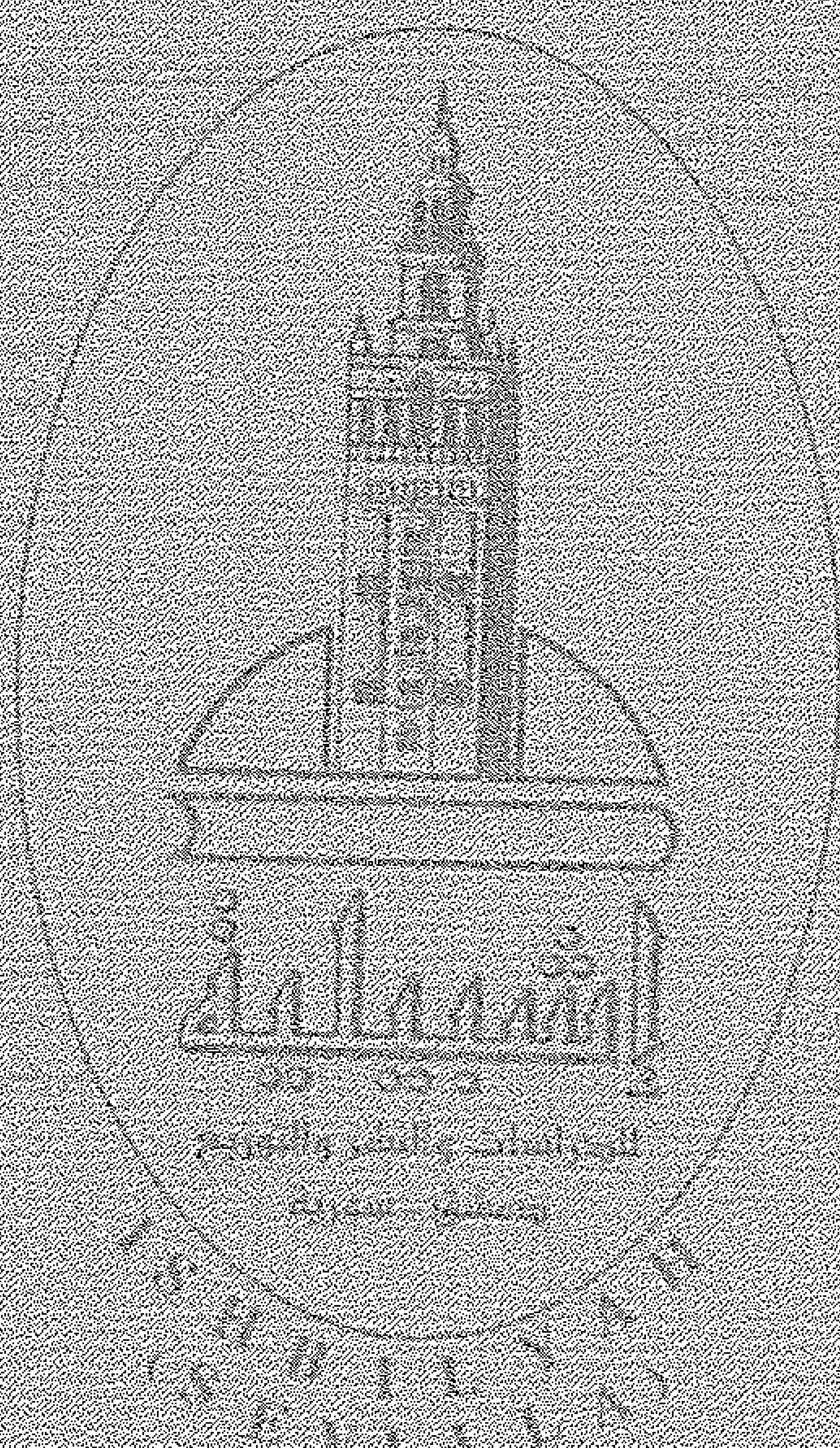
٤ ـ الايبغرافيك:

هو علم دراسة النقوش والنصوص والكتابات القديمة.

٥ ـ الاستنساخ Facsimile:

هو نسخ الكتابة كما نقشت زمن تدوينها والنقل Tramscriptien هو عملية نقلها إلى أحرف اللغة التي ينشر بها الباحث دراسته.


إشبيلية
للدراسات والنشر والتوزيع
دمشق - سورية
ISHBILYAH
(SEVILLA)
Studies, Publication & Distribution
DAMASCUS: P. O. Box 4365, SYRIA


إشبيلية
للدراسات والنشر والتوزيع
دمشق - سورية
ISHBILYAH
(SEVILLA)
Studies, Publication & Distribution
DAMASCUS- P. O. Box 4383, SYRIA

الجمعية التاريخية
حمص - سورية

مجلة
البحث التاريخي



إشبيلية
للدراسات والنشر والتوزيع
دمشق - سورية

المدير المسؤول محمد عبد الصمد الشاطر رئيس التحرير اسعد الحسين	مجلة # البحث التاريخي تصدر عن الجمعية التاريخية بحمص	هيئة التحرير الياس مقدسي عبد الحفيظ شما عبد الكريم قبجي منذر حمودي

العدد رقم (١) — ٩ رمضان ١٣٩٧ — الموافق ٢٣/٨/١٩٧٧

في هذا العدد

جميع المراسلات والحوالات ترسل باسم المدير المسؤول الى العنوان التالي :

حمص — الجمعية التاريخية — شارع عبد الحميد الدروبي

الافتتاحية

لاشك أن معظم الناس على اختلاف درجاتهم وأذواقهم متفقون في الميل الى دراسة التاريخ وتفهم أسراره وخفاياه ، ولكن ثمة هاجساً ظل يقلق بال الجميع ، وثمة أسئلة ظلت تطرح نفسها على مدى الأيام : أين مافيمة هـذه المعلومات وما مدى صحتها ؟ وما هو تأثير السلطة وذوي الأهواء الأخرى في إنحراف التاريخ عامة ؟ . لاريب أن هذه التساؤلات صحيحة بالنسبة لأي تاريخ يعتمد على سرد الحوادث ونقلها دون تدقيق أو تمحيص ، ولكن التاريخ الذي يخضع الحوادث والأخبار للنقد والتجريح فيشك بالخبر الى أن تتأكد له صحته ويبتعد ماأمكن عن أخبار ذوي الأهواء والأغراض ، مثل هذا التاريخ الذي يضع نصب عينيه القواعد التاريخية الثابتة (ادرس المؤرخ قبل أن تدرس التاريخ ، شك المؤرخ رائد حكمته ، إذا ضاعت الأصول ضاع التاريخ معها ..) لايقال عنه « لايمكن أن يصدق » كما أشار الى ذلك ديكارت معتبراً أن حوادث التاريخ لم تقع بالشكل الذي وصفها به .

بعض حوادث التاريخ يمكن أن يكون هذا شأنها ، ولكن التاريخ الذي طبقت في كتابته القواعد الآنفة الذكر تخرج بعيداً عن هذه الدائرة دائرة ديكارت .

نقول ذلك ونحن نقوم بوضع العدد الأول من مجلة **البحث التاريخي** بين يدي القراء في الوطن العربي ، صدر بعد لأي وطول انتظار . قد لايبلغ في اخراجه ومادته المستوى الأرفع الذي تهدف اليه ، ولكنه بداية مشجعة للسير في الطريق الذي ألمعنا اليه آنفا ، وهو دراسة التاريخ العربي دراسة واعية بعيدة عن العواطف والنقل المرتجل لحوادث اذا ماوزنت بموازين التاريخ الحقيقية كان نصيبها الاهمال ، وهذه مسؤلية كبرى ينبغي أن تتصدى لها كافة الأقلام الواعية والمختصة في القطر العربي السوري بل في الوطن العربي قاطبة .

نأمل للأقلام التي أحجمت عن المساهمة في عددنا هذا بعد طول انتظار أن تنطلق لتأخذ دورها في أعداد مقبلة . فمجلتنا ليست إقليمية متقوقعة ، فرحتنا الكبرى بزوال كل حدود بين الأشقاء وبوحدة عربية شاملة تزيد العرب منعة وقوة .

ختاماً نشكر كل من ساهم وآزر في عملنا هذا ، وأخص بالذكر السيد وزير الاعلام الاستاذ **أحمد اسكندر أحمد** لمساعدته المادية القيمة التي قدمها للجمعية التاريخية في سبيل إصدار هذا العدد .

نعمل بإذن الله وعونه ، وسنحاول سد ثغرات في هذا المجال ، بدلت وشوهت الكثير من تاريخنا العربي المشرق .

والله الموفق .

المدير المسؤول

محمد الشاطر

فلسفة أرنولد توينبي التاريخية ـ مضمونها وصلاتها

للاستاذ : سهيل عثمان

جميل أن يعيش الانسان عمر أرنولد توينبي ، فهو قد ولد عام ١٨٨٩ ومات في أواخر عام ١٩٧٥ ، والأجمل من ذلك أن يستطيع الانسان الاستفادة من عمره استفادة توينبي منه ، فهو قد أتم دراسته في جامعة أكسفورد وعلم بها وأتقن اللغتين اليونانية القديمة واللاتينية حتى قال الشعر بها ، ثم تعلم اللغة الفرنسية والألمانية والايطالية واليونانية الحديثة وألم بالعربية والتركية ، كل هذا فضلا عن لغته الانكليزية . واذا كان توسعه الراسخ في التاريخ الأوربي القديم وتاريخ بيزنطة فهو قد اطلع على التاريخ الحديث وترأس دار شاتام لمسح الشؤون الدولية عدة سنوات ، كما اطلع على تاريخ شعوب الشرق الأقصى والشرق الأوسط . وكانت له جولات في الأرض ومحاضرات على مستوى مسكوني . وقد عمل في مؤتمرات الصلح بين الدول الكبرى بحيث اصبح عارفا بكيفية اجراء الصفقات والمساومات وبحيث أصبح يرثي لحال المؤرخين الذين يتناولون الأمور من ظاهرها . وقد نشر كتبا عديدة ترجم بعضها الى اللغة العربية ، ولعل أبرز كتبه هو (دراسة للتاريخ) الذي جاء في اثني عشر مجلدا ، وقد لخصه (سمرفيلد) وترجم ملخصه الى العربية ، كما لخصه توينبي نفسه بعد ذلك ، ومن الكتب المعربة له كتاب (العالم والغرب) وكتاب (الحضارة في الميزان) وسلاسل من محاضراته ومقالاته نشرت على شكل مجموعات .

ويعتبر توينبي من رواد إنصاف العرب وبشكل خاص في القضية الفلسطينية على العكس من موقف اكثر معاصريه الغربيين .

منهج توينبي :

يتبنى توينبي منهجاً ثلاثياً ، فهو يرى أن عمله يقوم ، أولا : على التحقيق التاريخي للحوادث وهو عمل المؤرخ ، وثانياً : على استخلاص القوانين العامة للتطور التاريخي مما يقرب جهده من اسلوب العالم ، ويقوم عمله ثالثاً على التصوير وهو من

عمـــل الفنان .

ان توينبي يستفيد من الواقع والعقل والخيال ، واذا كان مهتما بالتأكد من صحة شواهده الكثيرة تاريخياً فهو أيضاً يلجأ الى تأويل القصص الديني والأساطير والحكايات الشعبية . ويستفيد من التراث الأدبي مثـل رواية (آغا ممنون) لأسخيلوس ورواية فاوست لغوته وشعر شيلّي . وله تفاعلات ايجابية وسلبية مع آراء العـديد من الفلاسفة مثـل برغسون وماركس وفختة وهيغل وابن خلدون واشبنغلر .. وتقـوم طريقته في عرض آرائه على ذكر رأيه متبوعا بجملة من الشواهد والأدلة ، ولا يخلو أسلوبه من أناقـة وميل الى الجاذبية الأدبية حتى أنه يبـــدع أحيانا بعض العبارات القابلة للسير على الألسنة كما سوف نرى . ولا ينسى أن يفند الآراء المخالفة لرأيه .

الحضارة وحدة الدراسة :

اذا أردنا أن ندرس الانسان بعد دخوله العصور التاريخية فان أصغر وحـدة تمتلك التكامل الكافي لاقامة الدراسة عليها هي الحضـارة . ان الشعب والدولة والأمـة والقطر تعجز كل واحدة منها عن أن تكون أساساً للبحث ، لأن البحـث الذي يقوم على كل منها سيكون مبتوراً .

ان فهم المجتمع الانكليزي المعاصر لايتم من خلال دراسة التاريـخ الانكليزي وحده فلا بد من النظر الى المجتمع الانكليزي من خلال الحضارة المسيحية الغربيـة وما فيها من زواج وحداني ومن نظرة خاصة الى المرأة والى العائلة والى العــلاقات بين البشر .

وليست الحضارات كثيرة جداً عند توينبي فالحضارات الأساسـية تمامـاً لاتتجاوز تسع عشرة حضارة ، وإذا أضفنا بعض الفروع الرئيسية بلغت إحدى وعشرين وقد تبلغ ثلاثاً وعشرين ، وإذا أضفنا الحضارات المتعطلة بلغ المجموع ثماني وعشـــرين حضارة . والحضارات عند توينبي أجيال : فالجيل الأول من الحضارات الذي يسـميه بالحضارات الأصيلة بدأ بالسومرية ثم المصرية ثم المينوية ثم الهندية والصينية القديمتين . وقد انقرض هذا الجيل لتحل محله حضارات الجيل الثاني كالهيلينية (وهي اليونانية والرومانية معاً) والسورية والبابلية والفارسية .. وينقرض الجيل الثاني لتملأ فراغه حضارات الجيـــل الثالث كالاسلامية والمسيحية . وقد انتجت القارة الأمريكية قبل غزو الحضارة الغربية لها أربع حضارات كالمكسيكية والبيروفية . وان أغلب الحضارات قـــد انقرضت ولم يبق من الحضارات المتطورة الا خمس : هي الحضارة المسيحية الغربية والحضارة المسيحية

الشـــرقية والحضارة الاسلامية والحضارة الهندية الهندوسية والحضارة الصينيـــة أو البوذية الماهايانية .

وأما الحضارات المتعطلة فلم يزل على قيد الحياة منها : حضارة البدو والبولينـــيزيين والاسكيمو ، وان أوشكت الأوليتان على الانقراض . ولكل حضارة انتاجها المعنـــوي والمادي ، ولكل حضارة سماتها المميزة : فالحضارة الهيلينية يغلب عليها حب الجمال ، ويغلب حب التنظيمات والآليات على الحضارة الغربيه ، كما يسيطر الاتجاه الروحي على الحضارة الهندية. وتتقدم البشرية من خلال الحضارات فكأنها عجلات تدور فتسير عربـة الانسان الى الأمام ، فصاحبنا لا يعتقد أن التاريخ يراوح في مكانه ، ولا يعتقد بدورات متشابهة تمـاما بل يعتقد بالتقدم من خلال دورات متشابهة في خطوطها العريضـة .. ولكل حضارة خط حياة تسير عليه ، اذ تنشأ وتصمد ثم تذبل وتنتهي . ويجمل توينبي مراحل الحضارة ثلاثاً : أولاها النشأة والارتقاء ،وثانيتها الانهيار أو الذبول ، وثالثتها الانحلال أو الانتهاء .

نشأة الحضارة بالتحدي والاستجابة :

الحضارة مسبوقة بمجتمعات بدائية . فكيف انتفضت بعض هذه المجتمعات وأنشأت الحضارات ؟ يرفض توينبي تعليل العرقيين القائلين : بان بعض السلالات متفوقة في تكوينها الدماغي أو البيولوجي تفوقا أتاح لهـا تطوير الانسان ونقله الى المرحلة الحضارية . ان جميع الجماجم في نظر توينبي قابلة لانتاج الحضارة وكذلك جميع الألوان فقد أنتجها البيض والصفر والحمر ، واذا لم ينتجها أصحاب الجلد الأسود قديما فلاشيء يمنـــع من انتاجهم لهـا اذا تحققت الشروط ، وليست العرقية في القديم والحديث الا ثمرة التفوق المؤقت أو نتيجة وهم ذلك التفوق والغرور .

ويرفض صاحبنا تعليل نشأة الحضارة بالبيئة وحدها ، فبعض البيئات الجغرافيـــة أنتجت الحضارات وبعضها لم ينتجها ، وماكل حضارات البيئات المتشابهة بمتشابهة .

وفي الحقيقة فان توينبي عدو التفسيرات الآلية الـتي تستغني عن عقل الانسان وارادته ، فالتقدم البيولوجي شيء آلي يمكن الحديث عنه أثناء انتقال النوع الانساني من انسان نياندرتال الى الانسان العارف الحالي أثناء العصر الحجري القديم ، ولكن لا يمكن التحدث عنه في المراحـل الحديثة التي نشأت فيها الحضارات ، ولا ننس أن التقدم البيولوجي للنوع الانساني قـــد توقف تقريبا وبقي التقدم القائم على الانتاج الفكري والاجتماعي . وان التعليل بالبيئة الجغرافية وحدها هو أيضا تعليل آلي ولذلك يرفضه توينبي.

واذا أردنا تفسير نشأة الحضارة حقـا فان توينبي يعيدنا الى الفرق بين المجتمع المتحضر

والمجتمع البدائي ، فمها قلصنا الفروق بينهما فان فرقا جوهريا لابد أن يبقى وهو (أن المجتمع المتحضر يواجه المشكلات التي تتحداه بحلول لها وهذه الحلول تثير مشكلات جديدة يواجهها المجتمع المتحضر بحلول جديدة ، وهكذا تتابع سلاسل التحديات والاستجابات طالما ظلت الحضارة قائمة . على حين يقتصر المجتمع البدائي على مواجهة مشكلات ثابتة بحلول ثابتة أيضاً فهو ، يراوح في مكانه . وهكذا يصل صاحبنا الى سر الحضارة وهو التحدي والاستجابة .

ففي الألف الرابع قبل الميلاد طرحت البيئة الجغرافية تحديا معينا على بعض الجماعات البشرية ، وهو جفاف السهل الافراسي الواقع بين افريقيا وآسيا نتيجة إيغال الجموديات في الانسحاب . وارتبكت هذه الجماعات وتشتت اجتهاداتها فقد ترك بعضها موطنه الأصلي ليتابع أسلوب حياته القديم فظل بدائيا يعيش على الصيد وجمع الثمار ، وقبع بعضها في مكانه مستسلما للجفاف فانقرض ، وغير بعضها مكان اقامته وأسلوب حياته معاً فماش وأنتج الحضارة . وهنا يبرز السومريون الذين تحولوا الى منطقة مابين النهرين وأقاموا زراعة الري الدائم وأنتجوا حضارتهم ودولتهم ، ثم لحق بهم المصريون القدماء الذين أنشأوا أيضا حضارة ودولة ، وأما المينويون فلم يبقوا على اليابسة بل انطلقوا الى البحر فأنتجوا الحضارة المينوية الكريتية البحرية .

وهكذا يتابع صاحبنا بحثه في بقية الحضارات الاصيلة أو حضارات الجيل الأول ، ليؤكد أن التحدي الأول الذي استجاب له الانسان باقامة الحضارات الأولى كان تحديا جغرافيا بيئيا . ولا ينفي صاحبنا وجود تحد بشري ، الا انه يراه غير أكيد . وأما دور التحدي البشري فيظهر أثره جلياً في انشاء حضارات الجيل الثاني كالهيلينية والجيل الثالث كالمسيحية والاسلامية ، فان تحدي المينويين المتقدمين للجماعات اليونانية هو الذي أدى الى قيام الحضارة الهيلينية . والاحتكاك الذي وقع بين الحضارة الهيلينية في أواخر أيامها وبين المجتمع السوري الذي كانت حضارته قد انهارت هو الذي أدى الى نشوء الحضارة المسيحية ثم الحضارة الاسلامية .

ويتخذ توينبي من التحدي مثيراً عاما للافراد والمجتمعات ، فيذكرنا ببراعة المضطهدين وذوي العاهات ونشاط الأقليات ، وبالانتصارات التي تلت الهزائم ، وتفوق مناطق الحدود التي تواجه الضغط الخارجي ، وبالتطورات الاقتصادية التي حصلت على يد ابناء البيئات الجافة والصعبة .

والتحدي المثالي عنده هو التحدي المتوسط سواء أكان بيئياً أم بشريا : لأن

التحدي الخفيف أو فقدان التحدي يبقي المجتمع راضياً بما وجد نفسه عليه فلا يتطلع الى تغيير وتقدم كآكلي اللوتس في الأوديسة. واذا كان التحدي قاسياً جداً فان الانسان ينسحق تحت وطأته، مثل اليونان الفناريين الذين كانوا يصعدون مع صعود الدولة العثمانية واعتمادها على مهاراتهم، فلما حاولوا السيطرة عليها صراحة وثاروا عليها دهمتهم بقوة لاقبل لهم بها فانتهى حلمهم الكبير.

واذا كانت التحديات متفاوتة التأثير فان الاستجابات أيضا متفاوتة القيمة، اذ أن منها مايؤدي الى نشوء حضارة قابلة للتطور والحياة السوية، ومنها مايؤدي الى نشوء الحضارات العقيمة والمتطلة التي سوف نفرد لها فقرة خاصة. ومن الاستجابات مايفشل فشلا تاما أو نسبياً ومنها ماينجح. وان تباين الاستجابات يتبع تباين التحديات من ناحية، ومختلف الظروف التي يجري فيها التفاعل من جهة أخرى، كما يتبع وجود أقلية متفوقة قادرة على الابداع في المجتمع أو عدم وجود هذه القوة. فالاستجابة ابداع، والابداع من طبيعة فردية، وان المبتكرات التي تصدر عن الهيئات واللجان هي أيضاً فردية لأن الابتكار يقوم به فرد أو أفراد معدودون ثم يناقشهم الباقون حوله ويتبنونه. واذا ماواجهت المجتمع التحديات فليس جميع أبنائه قادرين على المعاناة الملهمة بل تحمل ذلك العبء أقلية من بينهم تؤهلها لذلك مواهبها واهتماماتها وامكانياتها بحسب الموقف.

ومن العوامل التي تساعد هذه الأقلية على الابداع انعزالها فترة ثم عودتها الى الجماعة. فالعزلة المؤقتة تعرفها الأساطير حين تتحدث عن برسفون ابنة زوس كبير الآلهة اليونانية من ديمترا وهي تمثل القمح الذي تغيب بذرته مختفية مدة في التراب لتخرج بالخير الى الناس، كما يعرفها التاريخ الديني مثل غيبة السيد المسيح في الصحراء قبل انطلاقته العظيمة، ومثل هجرة محمد ﷺ من موطنه الاصلي واعتزاله قبل ذلك في الغار، كما أن الوحي كما صوره ابن خلدون يمثل صعوداً مؤقتاً الى المستوى الملائكي ثم عودة الى المستوى الانساني.

وتدل اسطورة الكهف الافلاطونية أن الاعتزال والعودة معترف بها في الفلسفة، لأن الأسير الذي يناشد زملاءه التحول عن أماكنهم والتطلع الى شمس الحقيقة يتركهم أول الأمر ثم يعود اليهم. وان تغيير البيئة أو الهجرة بشكل عام عامل محفز للابداع واتباع الابداع، لان الجماعة اذا ظلت قابعة في مكانها حافظت على تقاليدها وأساليبها، فلم يحسن قادتها الابداع ولم تحسن هي التقبل، وأما اذا ارتحلت فان الأحمال المادية والمعنوية تخف،

وخير الارتحال ما كان عبر البحر ، فيقطع الصلة تماما بالضغوط الاصلية ويرمي الأثقال بالبحر الواسع ، وتشبه الصحراء البحر في هذه المهام .

والابداع الحق هو الذي يطلق شرارة تشبه الدفقة الحيوية عند برغسون يهتز بها كيان المجتمع وينتقل من حال الجمود الى حال التغيير المتتابع ، حيث تأخذ الحلول والمشكلات بعضها بركاب بعض ، وتسير الحضارة الى الأمام . وينتقل أثر الابداع : اما عن طريق التمثل الداخلي للمريدين القلة ، واما عن طريق المحاكاة الآلية من قبل الاكثرية. ومع انتقال أثر الابداع وتقبل الحلول الجديدة تنتشر الحضارة .

امارات تقدم الحضارة :

يحسب بعض الباحثين أن الامتداد الجغرافي هو المؤشر الدال على تقدم الحضارة. ولكن توينبي يرفض هذا المؤشر ، بل يرى أن امتداد الحضارة جغرافياً كثيراً مايقترن بهبوطها وضعف توقدها بدلاً من أن يقترن بصعودها . وله على ذلك أدلة من تاريخ الحضارة الهيلينية والحضارة المسيحية الغربية وسواهما .. وقد راجت عند المؤرخين فكرة قياس تقدم الحضارة بمدى تقدمها التقني ، حتى أن العصور الأساسية سميت باسماء تقنية مثل العصر الحجري والبرونزي ثم الحديدي ثم عصر البخار والكهرباء والذرة ، وان الأدوات ومايتعلق بالتقنيات واضحة ذات ملامح محددة ولذلك يتمكن الباحثون من رصدها بسهوله فيحسبون أنها ضالتهم مع أن التقدم التقني ليس قرينة كافية دائماً على صعود الحضارة ، فانتقال البشر في العصور السحيقة من انسان نياندرتال الى الانسان الحالي تم بدون تقدم تقني ، وقد كان انسان العصر الحجري القديم أرقى حضاريا من انسان العصر الحجري الحديث الذي سبقه تقنياً ، ودليل توينبي على أفضلية انسان العصر الحجري القديم هو أنه فنان رسام فهو مرهف متقدم اذا قيس بخليفته ، وحين تقدمت الفنون العسكرية في عهد جستنيان لم يقترن هذا التقدم الا باضمحلال الحضارة الهيلينية ، وكثيراً ماانتجت الحضارة الآئلة للزوال بعض التقنيات فورثتها عنها الحضارات الوليدة الصاعدة التي لاتملك ذلك المستوى التقني المتفوق ، ثم ماقولنا بالتقنيات الحربية الحديثة التي أوشكت أن تدمر الانسان ؟.

فما هي علامة التقدم الحضاري اذن ؟ انها نمو القدرة على تقرير المصير ، انها قدرة الانسان ممثلاً في جماعة متعاونة على مواجهة البيئة واخضاعها لأهدافه . عند تقدم الحضارة يصبح كل شيء أكثر أثيرية : فالطبيعة مطواع والآلات مرهفة تكاد تشف عن

روح الانسان سيدها ، وكلما ارتفعت الحضارة قلت المشكلات الكونية وتفرغ الانسان للمشكلات الاجتماعية والمعنوية ، وكأن تقدم الحضارة نوع من تأنيس الكوني والحاقه بالانساني . ومادامت الحضارة في صعود فان القلة المبدعة تنتج الحلول والأكثرية تتبعها معجبة .

مرحلة انهيار الحضارة

بعد فترة الصعود تقع الحضارة في مستنقع الركود وجفاف معين الابداع التي يسميها توينبي مرحلة الانهيار . ولا تعني هذه المرحلة انتهاء الحضارة واقعيا وزوالها من عالم الوجود ، وانما تعني جمودها وتوقفها ثم انحدارها .

ويرفض توينبي التفسير البيولوجي لانهيار الحضارة وأنه نتيجة انحطاط دم العرق المنتج لها أو اختلاطه ، كما يرفض تعليله بتشيخ الأرض التي تقوم عليها الحضارة ونضوب خيراتها لأن الأرض دائما بخيلة على المهملين الجامدين سخية على المبدعين النشيطين . والتعليل الذي يضعه صاحبنا لانهيار الحضارات هو تقاعس القلة المبدعة عن الابداع واتكالها على حلولها السابقة مع أن المواقف تتغير والمشكلات تتجدد . وهكذا تجابه الحضارة المشكلات الجديدة بالحلول الجاهزة مسبقا والتي لم تخلق لها ، ويطلب من الخمر الجديدة على حد قوله أن تنصب في الزقاق القديمة ، وتحمل الوسائل أكثر من طاقاتها .

وتستطيع عين المؤرخ أن تلمح ذلك حين تجمد القوانين والتشريعات فلا تساير الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والطبقية المستجدة ، وحين تجمد الفنون العسكرية فتواجه الأعداء المتنوعين بوسيلة واحدة لاتتغير بتغير الظروف ، وحين يبدو على المجتمع ـ وبشكل خاص فئاته العليا ـ الانبهار بما قدمت سابقا والتمسك بما تم الوصول اليه بحيث يغلق باب التجديد . وعندئذ لاتنظر الأكثرية الى القيادات على انها أقلية مبدعة تتبع اعجابا بها وثقة بقدراتها وخصبها بل تعتبرها أقلية مسيطرة يجب التخلص منها ، وتلجأ هذه الأقلية الى القوة لتثبيت سلطانها ، وتحصل انشقاقات في المجتمع : منها انشقاقات بين المناطق ومنها انشقاقات بين الطبقات ، وتبرز مشكلة البروليتاريا الداخلية والبروليتاريا الخارجية . أما البروليتاريا الداخلية فهي الجماعات التي تعيش في منطقة حضارة ما وتعاني اضطهاداً أو حرمانا اما بسبب عوامل طبقية أو طائفية أو عنصرية ... وهذه البروليتاريا تغدو مع الأيام عنيدة ذليلة وتتطلع الى التغيير ، وأما

البروليتاريا الخارجية فتعيش خارج حدود حضارة معينة وبشكل قريب منها يسمح لها بالأحتكاك بها فتخافها وتحسدها وتتمنى الحلول محلها . فذا ماأضيف الى كل هذه المتاعب نمو الروح الحربية التي تسعى الى القتال لغير أغراض البقاء ، فان الحضارة تهدر دمها وتستنفد جهودها بنفسها وعلى يد أبنائها ، وقد يصبح حماتها أكلة لها فتبدو عليها أعراض الانتحار ، وتجد أمامها أحد طريقين : فاما الانقراض واما انقاذ يضحي بكثير من القيم الايجابية ، وغالبا ماتحظى الحضارات بهذا الانقاذ .

مرحلة انحلال الحضارة :

ويكون الانقاذ المؤقت بان تقوم حركة قوية تجمع شمل الحضارة ، وتقيم لها دولة عالمية أو دولة شاملة لجميع أجزائها بالقوة ، فتنعم الحضارة بفترة من الهدوء ، وتعيد هذه الحركة النظر في الاوضاع السائدة فتتخذ اجراءات عدة للقضاء على البلبلة والضياع ، اذ توحد الانظمة والمقاييس واساليب الادارة ، وقد تثبت الطقوس الدينية وتستفيد احدى اللغات فتسود محتملة بعض التدني في طبيعتها بسبب ذلك ، وقد تنعم الحضارة بفترة من السلم . وفي هذه المرحلة او في أوائلها على وجه الدقة تبدو على الحضارة امارات الصحة وتستعيد شيئا من ازدهارها ، وينخدع كثيرون فيظنون أن الامور قد وضعت في نصابها مرة اخرى ، وأن الحضارة سوف تستأنف طريق صعودها الا أن هذا التحسن ليس الا صيفا هنديا خداعا يخفي وراءه التحلل التدريجي الذي ينتهي غالبا بزوال الحضارة ، لان جذوة الابداع الحقيقي تكون قد انطفأت وكل ما يجري فانما هو ترميم وترقيع يحور في الظاهر ولا يتناول الجوهر المتعب .

وتتابع عوامل النخر عملها ، فالروح الحربية تستيقظ وتتابع تخريبها ، وهذا ماجرى للحضارة الهيلينية التي بلغت احدى ذراها في عهد صولون ، ثم واجهت التحدي المالتوسي حين لم تعد حاصلاتها تكفي سكانها بالاستعمار واتساع التجارة والحرف ، ثم أخذت تفتك بنفسها بعد أن اتسمت على يد المكدونيين الى أن نعمت بالسلم الرومانية التي هيأها لها أغسطس ، وقد شهر أغسطس السيف وأراده أن يغمد من بعده ، فلم يتحقق حلمه وان أتاحت امبراطوريته للهيلينية عمراً مديداً من بعده ، تحللت فيه على مهلها حيث أنضجت البروليتاريا الداخلية اليهودية ، الديانة الجديدة التي مالبث البرابرة الذين يمثلون البروليتاريا الخارجية أن تقبلوها وقضوا على الحضارة الهيلينية لتحل محلها الحضارة المسيحية . وقد ترفض الحضارة أن تزول بنتيجة مرحلة الانحلال مع أن الزوال هو

الغالب ، وحين تصر على البقاء فانها تبقى متحجرة مجترة لذاتها ، كما جرى للحضارة المصرية القديمة التي كان من حقها أن تزول منذ الألف الثالث قبل الميلاد، ولكن غزو الهيكسوس لها أيقظ في أبنائها الاصرار على التشبث بها فعاشت بعدذلك آلاف السنين وهي متصنعة جامدة .

وخلال مرحلة الانحلال تتبلبل الأنفس فتتقاذفها تيارات متطرفة مثل التيار السلفي الذي يريد أن يعيد الماضي الذهبي في الظروف المستجدة بالطرق القديمة، ومثل نقيضه التيار المستقبلي الذي يدعو الى قطع كل صلة بالماضي وتكوين مستقبل باهر ، وكل من هذين التيارين هارب من الواقع : فالسلفي هارب منه الى الماضي ، والمستقبلي الى المستقبل. وقد تنطلق بعض الانفس وراء دوافعها وغرائزهـا ، على حين تبالغ أخرى في ضبط النفس وقمعها ، وهذان التياران منحرفان عن التوازن الواقعي . وقد تتقدم الفلسفة محاولة سد الثغرة التي حصلت نتيجة لضعف الدين أو الرابطة الروحية ، ولكنها لا تعطي الافلسفات انتقائية : اما أن تسودها النزعة السلفية أو النزعة المستقبلية . وهكذا تظل الحضارة في تخبطاتها الاخيرة الى أن تنتهي .

حضارات عقيمة وحضارات متعطلة :

حين تتولد الحضارة من التفاعل مع تحد يفوق قدرة المستجيبين : فاما أن تنشأ هذه الحضارة عقيمة ، واما أن تكون متعطلة . والحضارة العقيمة تموت في مهدها بعد أن تعيش فترة وجيزة بالقياس الى العمر الطبيعي للحضارات ، والذي يمتد عند توينبي الى آلاف السنين . ومن المجتمعات العقيمة المجتمع الاسكندنافي الوثني الذي حاول منافسة الحضارة المسيحية وعرف ذروة ازدهاره في ايسلندة ، ولكنه مالبث أن ذاب في الحضارة المسيحية . والحضارة العقيمة الثانية هي الكنيسة المسيحية الكلتية في ايرلنده ، والتي حاولت أن تقيم نظاماً للدين والحياة مستقلاً عن نظام الكنيسه الكاثوليكية ، الا أن هذه مالبثت أن قهرته حضارياً في حوالي القرن العاشر .

وأما الحضارة المتعطلة فانها تعيش مدة طويلة ، ولكنها لا تتقدم خلال حياتها عن الخطوة الأولى التي خطتها عند نشوئها ، فالاستجابة الأولى تأسرها ، وكأن ثقل التحدي الذي واجهته في البداية كان كبيراً بحيث استنفد مجهودها الابداعي فلم تستطع أن تتابع تطوير نفسها وان حافظت على بقائها . ومن المجتمعات المتعطلة مجتمع الاسكيمو والبدو والبولينيزيين والعثمانيين ومجتمع اسبارطة . وليكن مثلنا التوضيحي هو المجتمع

العثماني نظراً لصلته بتاريخنا ، فالمجتمع العثماني فرع على الحضارة الاسـلامية انشأه الاتراك الذين كانوا مقيمين في سلطان أونو ورشحهم التحـدي الذين يواجهونـه أمام العدو ليكونوا أصحاب هذا الفرع الحضاري من دون بقية جيرانهم وأقربائهم الاتراك الآخرين . وقد كان ابداعهم المثمر هو أنهم كونوا لقوتهم مدداً بشرياً دائماً بانشائهم الجيش الانكشاري بغض النظر عن قواعد الاصل مهتمين بالتربية وتأسيس النفوس فلم يعودوا بدوا مفروضين بقوتهم الضيقة على سـكان المناطق المفتوحـة بل أصبحت هذه المناطق تمدهم بالمحاربين عن طريق النظام الذي اتبعوه بدقـة وأكثروا من أجله الترغيب والترهيب وهم في ذلك يشبهون المماليك الا أن نظام الجيش الانكشاري أدق وبهذه الطريقة نجوا من قصر العمر الذي تصاب به الدول البدوية عادة كما وصفها ابن خلدون .

وحين فسد الجيش الانكشاري لم يقدم العثمانيون ابداعا جديداً ملائماً يحـل محله وانما قلدوا الدول الأوربية في أنظمة الجيوش الحديثة التي يبـدو أنها لم تناسب تكوينهم فما لبثوا أن انهاروا .

ومما أسرع بانحلال العثمانيين انتشار مبدأ القوميات بين شعوبها فان هذا المبدأ اذا كان مفيداً لاوربا الغربية التي اتفقت فيها حدود الدول القومية مع حـدود اللغـات فقد كان سـما لمجتمعات أخرى كالسلطنة العثمانية التي كانت تضم مزيجاً معقداً من العنـاصر والطوائف .

الديانات والحضارات :

عبد الانسان في البدء قوى الطبيعة ، وحين انتصر عليها بانشاء الحضارات عبد ذاته بشكل صريح أو مقنع ، ولكن الحضارات القديمة لم تلبث أن وقعت في المتاعب وهبت عليها رياح الفشل فادرك الانسان وجود القوى العليا الحقيقية وظهرت الديانات العالية كاليهودية والمسيحية والاسلام والهندوسية والبوذية .

وفي نشأة حضارات الجيل الثالث لعبت الديانات دوراً تكوينياً أساسياً فان قسما من مضطهدي الحضارة الهيلينيـة أو البروليتاريا الداخليـة فيها افرز الديانة المسيحية فتقبلتها البروليتاريا الخارجية الفرنجية والقوطية وأمثالهـا وسيطرت بها على المناطق الهيلينية بعد أن كانت هذه الحضارة ذاتها قد استسلمت الدين الجديد وانفتحت بلادها للغزاة .

وقد حاول المجتمع السوري أن يرد على التأثيرات الهيلينية والمسيحية رداً يحفظ له تجدده وشخصيته بعد انهيار حضارته الأولى فعجزت النسطورية والمينوفستية وتجديد اليهودية والزرادشتية عن ان تحمل عبء الصمود الى أن ظهر الاسلام وحمله أول ماحمله العرب وهم بروليتاريا داخلية للحضارة السورية كانت مقصاة ، ونجحت هذه الاستجابة فاصبحت الرابطة المحركة لمنطقة الشرق الأوسط ملأت الفراغ الحضاري في كثير من بقاع الشرق .

واذا كانت المسيحية قد بدأت سلمية فان أمراءها مالبثو أن استخدموا كل أنواع القوة .

واذا كان الاسلام بدأ حربياً يخير الناس بين الدين الجديد وبين الجزية ـ لا بينه وبين الموت ـ فانه بعد مدة أخذ ينتشر بالطرق السلمية وتقبلته الفئات العليا والدنيا في المجتمعات الشرقية وانصهر فيه كثير من تراث الحضارات السابقة وبشكل خاص التراث السوري .

ويعطي توينبي لهذه البداية الدينية التي انطلقت بها حضارات الجيل الثالث أهمية كبيرة ويتوقف عندها طويلاً حتى يوشك أن يجعل منها قانونا عاماً مع أن الأجيال السابقة من الحضارات لم تبدأ بها .

وعلى كل حال فاذا كانت الديانات تستطيع أن تكون بذور حضارات فهي أيضاً غايتها فعالية الانسان هي السمو والاتصال بالكائنات العليا .

ويعتقد أن الديانات الكبيرة الباقية اليوم هي المسيحية والاسلام والهندوسية والبوذية والماهايانية ، وأن حل أزمة الانسان المعاصر يكمن في قدرة هذه الديانات على التفاهم والتعاون وترك التعصب بحيث تهيىء الجو لقيام حضارة انسانية عامة .

فصاحبنا يقيم تفكيره على قاعدة دينية ويرى أن الالهي لايقل واقعية عن البشرى . الا أن تدينه لايعيق قناعاته الأخرى العلمية والفلسفية فهو يفهم الانسان الأول فهماً يقوم على نظرية التطور مثلاً .

ويحاول توينبي ان ينصف كل ديانة فهو معجب بدعوة المسيحية الى المحبة وبتوحيد الاسلام الذي لاتشوبه شائبة .

الحضارة المسيحية الغربية :

نبدأ الآن باجراء تفحص مستقل لكل من الحضارات الخمس المتطورة الباقية

ـ أي الباقية من بين الحضارات غير المتعطلة ـ وهي الحضارة المسيحية الغربية والمسيحية الشرقية والاسلامية والهندية الهندوسية والصينية والبوذية .

وقد نشأت الحضارة المسيحية واحدة مالبثت أن انشقت الى فرعين كبيرين هما الفرع الغربي الكاثوليكي والفرع الشرقي الارثوذكسي .

وقد تطورت مراكز الغربية بحسب الضغوط وتنوع الأعداء إذ هي تارة تواجه أعداء من الشرق وأخرى من الشمال وثالثة من الجنوب الغربي ، وقد كان مسلمو الاندلس منأكبر مهدديها فانتهت منهم.وتفوقت على زميلتها الشرقية ونافستها على بعض أرضها . وحين كانت مهددة بالاجتياح اعتمدت على النظام الاقطاعي كحل لمشكلتها الدفاعية ، ولفظته حين تغيرت الظروف التي انسجمت معه ، وقد حررت علاقة الانسان بمجتمعه عن طريق الديموقراطية ، ثم اعتمدت على الصناعة لحل المشكلة الاقتصادية . ولم يعد لها منبروليتاريا خارجية بربرية تنافسها ولكنها تلقى كفاحا من قبل الحضارات الباقية الأخرى التي تقف موقف الدفاع عن النفس منها واكبر منافس الآن لها هي الحضارة المسيحية الشرقية ، كما أن مشكلة العمال والمحرومين أدت الى منازعات تشبه المنازعات التي تثيرها البروليتاريا الداخلية ولكن الغربية سارت قدما في حل مشكلة الطبقة العاملة لديها .

واذا كانت حتى الآن هي الحضارة السابقة لسواها فمن المتوقع أن تكون قد وصلت فترة الاضطرابات المصاحبة للانهيار .

ومن أخطائها غرورها حتى كادت أن تنسى أن التاريخ قد عرف سواها .

ومن أخطائها أيضاً الاستعمار الذي بدأ بالزوال .

ومن أخطائها أيضاً منح فلسطين للحركة الصهيونية .

وقد انتقل مركز ثقلها من أوربا الى الولايات المتحدة الأمريكية نظراً لاستغراق الدول الأوربية في الروح الحربية حتى استنفدت قسما كبيراً من مجهوداتها .

الحضارة المسيحية الشرقية :

بعد انشقاق المسيحية تمركزت الحضارة الشرقية حول القسطنطينية وفي بلاد اليونان وفي روسيا ثم خسرت القسطنطينية وبلاد اليونان كمنطقتين مستقلتين على يد العثمانيين فاصبحت روسيا تعد نفسها القيصرية الشرقية وخليفة بيزنطة المسيحية .

وقد كان التطور في الغربية يتم على يد قسم من الشعب وهم البورجوازيون وأما في المسيحية الشرقية فقد كان يتم على يد الحكام الذين يساعدهم المثقفون .

ومنذ البدء أصبحت الدولة هي الأساس والكنيسة مساعدة لها وتابعة عند اللزوم على عكس دور الكنيسة المستقل عن الدولة وأحيانا المتعالي عليها عند الغربيين .

وقد عانت المسيحية الشرقية من خصوم كثيرين من أهمهم الغربيون أنفسهم . وقد ردت هذه الحضارة على تفوق الغرب بان بدأت منذ أيام بطرس الاكبر تستعير تقنيته وما تحتاج اليه هذه التقنية .

وقد أتم الاقتباس لينين وحزبه اذ اقتبس العقيدة الماركسية وهي عقيدة غربية متمردة على الغرب فكيفها مع خصائص الامبراطورية الروسية السابقة وقاد بها النهضة التقنية والعلمية فلم تعد الحضارة الشرقية منافسة للغرب تقنيا فقط بل تنافسه معنويا اذ تلوح للشعوب المستعمرة بالتحرر وتلوح للمحرومين من أبناء الغرب نفسه بالعدالة الاجتماعية .

وان التنافس الاقوى الآن واقع بين الاتحاد السوفيتي كممثل للحضارة المسيحية الشرقية المتجددة وبين الولايات المتحدة ممثلة للحضارة الغربية .

ويعتمد الامريكي على المشروع الفردي والحرية ويظن أنه قد حقق العدالةويعتمد الشرقي على العمل الجماعي والعدالة ويظن انه يحقق الحرية .

والحل عند توينبي بين هذا وذاك فهو الاشتراكية الديموقراطية والمثمرة في آن واحد .

الحضارة الاسلامية :

رأينا كيف انصلقت هذه الحضارة على يد العرب تحمل التوحيد والتسامح الديني وقد استطاع الاسلام أن يملأ الفراغ الحضاري في منطقة الحضارة السورية السابقة ومنطقة الشرق الاوسط بشكل عام كما وصل تأثيره الى الشرق الأقصى وأوربا .

وما لبثت الحضارة الاسلامية أن انشقت كالمسيحية الى فرعين أولهما الفرع الغربي العربي وثانيها الفرع الشرقي الايراني أو الأعجمي ، وتغلب الفرع الشرقي الذي كان العثمانيون آخر ممثليه ، وقد عرفت هذه الحضارة بسالة ومجداً اعتزت بهما حتى أصبح من الصعب أن تستفيد من الدروس ، فهي من أكثر الحضارات تحفظاً تجاه الاقتباس

من الغرب المتفوق مع انها ليست بعيدة عنه في المكان والذهنية .

وقد جرت محاولات للتغريب فشل بعضها كمحاولة محمد علي في مصر ومحاولة أمان الله خان في أفغانستان ونجحت حتى الآن احدى المحاولات المتطرفة وهي محاولة أتاتورك في تركيا .

ويعد العرب من ابناء الحضارة الاسلامية وقد فقدوا الوحدة التي كان يفرضها العثمانيون باسم الاسلام وهم يتطلعون الى وحدة جديدة خاصة بهم . ومن واجبهم ان يسرعوا بها ليستطيعوا الاستفادة قبل فوات الاوان من موقعهم الجغرافي ومن محصولهم الرئيسي الهام الذي هو النفط ، فضلا عن أنهم يلقون من التحديات مايجعل الوحدة استجابة ناجحة .

ومن اهم التحديات التي يواجهونها التحدي الصهيوني ، فاليهود بقية من الحضارة السورية القديمة أبت أن تذوب في سواها ، وان ظاهرة البقايا من الحضارات المنقرضة ظاهرة معروفة ومن أمثلتها النسطوريون والبارسيون

وقد تنازع اليهود في العصر الحديث تياران يدعو أحدهما الى الانصهار في مختلف البلدان وبخاصة بعد انتهاء الاضطهاد الذي كان يوقعه عليهم الشرقيون ثم الغربيون بينما برىء المسلمون منه ، وأما التيار الثاني فهو الصهيوني الذي يدعو الى اقامة الدولة العبرية في فلسطين وقد تعاون الغرب مع هذا التيار وساعده ساسته على طرد السكان الاصليين وانشاء الدولة الصهيونية على أنقاضهم وكان هؤلاء الساسة يعرفون مايفعلون فيخدعون العرب وينفذون مخططات الصهيونية ، وليس لليهود في فلسطين الا ماشتروه بحق كما يرى توينبي ، فاذا تذكرنا هبات المندوبية البريطانية السافرة والمقنعة المؤسسات الصهيونية وأنواع الضغوط التي كانت تمارسها على الفلاح العربي وتعاون بعض الجهات الأخرى معها أدركنا أن ماشتراه اليهود بحق لايكفي لاقامة مزرعة فضلا عن دولة .

الحضارة الهندية :

نشأت في الهند حضارتان وإن الباقية منها هي الحضارة الهندية الهندوسية التي منحها الأباطرة المغول المسلمون دولتها الشاملة ثم استولى عليها الغرب تماما فقام غاندي يقود نضالا سلميا للتحرر ونبذ التغرب ولكن الحضارة الغربية المتفوقة تزحف على الحضارة الهندية التي يسعى كثير من قادتها الى اتباع النظام الديمقراطي البرلماني الغربي وهو نظام بدأته بريطانيا ، وقد اصبح هذا النظام مهدداً في بلاد الغرب ذاتها

لانه يقوم على مبـدأ الدائرة الاقليمية على حـــين ان الاهميـة الفعلية قد أصبحت للقطاعات الاقتصادية فهل تتمكن الهند من الثبات على هذه الطريق أم أن مشكلات الفقر ستوقعها في الطريق الماركسي ؟ .

الحضارة الصينية :

ان الصين عريقة حضارياً وقد علمت البشرية الشيء الكثير وان الحضارة الباقية فيها هي الحضارة القائمة على اساس البوذية وهي أيضاً تواجـه زحف الغرب المتفوق عليها وقد اختارت أخـــيراً أن تتبنى العقيدة الماركـسية والتقنية الغربيـة كالاتحاد السوفيتي وأخذت تصعد في هذا المضار .

الموقف الحضاري والدولي الراهن :

لاحظنا ان الحضارة الغربية وحدها من بين الحضارات الباقية مازالت في مرحلة الشباب ،وأماالحضارات الاخرى فقد دخلت في مرحلة الانحلال ،وهي تعاني من زحف الحضارة الغربية ،ولكنها تبدأ باقتباس الآلات والبضائع والتجهيزات وترفـــض مبدئياً قبول المبادىء ، والأنظمة ولكن الادوات تجر المبادىء ، فالزحف قوي!.

ولكن الحضارة الغربية نفسها مهددة أيضاً ،لأن أبناءها يهربون باستمرار من عقيدتها الأصلية ، حتى يمكن اقول بانهـا واشرقيـــة حضارتان شبه مسيحيتين أو حضارتان كانتا مسيحيتين .

ولهـــذا يتطلع توينبي إلى نشوء حضارة انسانيـة شاملة تستفيد من الخصائص الايجابية لجميع الحضارات الباقية ، وقد يقدم الغرب العلم والصناعةوالأنظمة،ويقـــدم الشرق السمو الروحي .

وأما الموقف الدولي فهو مرعب بعد ظهور الأسلحة الجديدة ، وتمركزا قوةفي يد الدولتين العظيمتين بشكل يجعل من المحتمل نشوب نزاع مفاجيء ،مدمر .

ويتطلع توينبي إلى نشوء دولة عالمية قائمة على القناعة لا على القوة، ولذلك يوصي بالأمم المتحدة خيراً ،ويطالب بتوجيه التربية توجيهاً يقوم على الاعجاب بخدام الانسانية لا بقاتليها ،ويجعل أمله في الشباب القادرين على التحرر من الانقياد والتعصب والمطامع والعداوات المقيتة . وأمله أن تعيش البشرية حياة اشتراكـية ،توفق بين حرية الفرد

وضرورات الحياة الاجتماعية . ولكنه في هذه المجالات يبدو موصياً وواعظاً أكثر منه صاحب مخططات علميـة . ويقيم أكبر أمله في حل الأزمة الحضـارية والدولية الراهنة على تفاهم الديانات الكبرى الباقية .

مقارنات :

يتضح مضمون فلسفة توينبي وأصولها بعقد المقارنات التالية :

١ — توينبي وابن خلدون : يعرف توينبي فيلسوف التاريخ العربي ويـستشهد به في عدة مواضع . ويتشابهان في اتـساع المعلومات وكثرة الشواهد وتتفق فلسفتاهما في اعتقادهما بالدور الثلاثي أو الأجيال الثلاثة للحضارة .

إلا أن ملاحظات ابن خلدون لما حوله جعلته يربط الحضارة بالدولة غالباً، فلكل دولة حضارتها التي تبـدأ بعد انتقال جماعة هذه الدولة من الاسلوب البـــدوي الى الأسلوب الحضري المستقر .

وتظل في ازدهار الى عهد قريب من سقوط الدولة . وعمر كل حضارة بشكل عام قصير عند ابن خلدون لانه يربطه بعمر الدولة كما يتصوره ،وهو غالباً ثلاثة أجيال تمتد على مئة وعشـرين سنة بل يقنع أحياناً بمئة سـنة ، ومن هنا أيضـــاً كانت الحضـارات عند ابن خلدون كثيرة فكأنها موج البحر الذي يعلو ويهبــط . واما الحضارة عند توينبي فليست مقترنة بدولة واحدة بل قـــد تضم العديد من الدول وبخاصة قبل وصولها الى مرحلة الدول العالمية الاخيرة ، والحضارة عند توينبي أطول عمراً من الحضارات الخلدونية بكثير ،وهي بالتالي اقل عدداً كما رأينا من قبل . ويبدو ان العصر الحديث قد اتاح لتوينبي بيانات عاليه عن الماضي والحاضـــر لم تتح لابن خلدون ، على ان ابن خلدون لايخلو من اشارات الى حضارات اوسع وأثبت من الحضارات الموجبة التي اكثر من الحديث عنها. ولكن تقصي هذه الفكرة يحتاج الى بحث خاص .

٢ — ويتشابه توينبي مع فيلـوف التاريخ الالماني شبنغلر في اقامة دراسة الانسان على أساس الحضارات ، وفي ان الحضارات حديثة نسبياً ، وأن حياة الحضارة لها مجرى معين . إلا أن توينبي يمقت جبرية شبنغلر ويميل الى الاعتقاد بوجود الحرية الى جانب الحتمية والقوانين العامة .

٣ — ويستفيد توينبي من مفهوم الدفقة الحيوية أو الوثبة الحيوية عند برغسن وهو بشكل عام يسير مع برغسن في تيار واحد هو التيار الروحي الذي يهتم بالدين والسمو الى الالهي ويكره الاقتصار على الآليات والماديات . إلا أن برغسن ينطلق من علم الحياة على حين ينطلق توينبي من علم التاريخ . ثم إن فلسفة برغسن فلسفة عامة ذات نظريات في الوجود والمعرفة والانسان ، واما فلسفة توينبي فتكاد تقتصر على الميدان التاريخي . ويعد بعض الباحثين فلسفة توينبي من أكمل الفلسفات وأكثرها معاصرة لانها تجمع الأبعاد الاربعة للمكان والزمان الى البعد الخامس وهو الحياة الى البعد السادس وهو الروح .

٤ — ويبدو أن توينبي قد استفاد من الماركسية ،فهو يبرز الصراعات الطبقية كنوع هام من أنواع الصراع ويتحدث عن الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية ، ويحتل مفهوم البروليتاريا مكانة خاصة عنده ، واننا لاننسى أن ماركس هو باعث الاهتمام بمفهوم البروليتاريا في الفكر الحديث وان استخدم توينبي هذا المفهوم بمعنى أوسع من المعنى الماركسي . وعلى كل حال فان الجانب الاقتصادي عند توينبي هو أحد الجوانب الرئيسية فى حياة الانسان وليس هو بالجانب الأساسي الوحيد، وينتقد بعض الماركسيين توينبي إذ يعدونه فيلسوف مثالياً وصاحب منظومة من الأفكار أنتجها الغرب لمنافسة الماركسية .

كما يكرهون حديثه عن الاقليات المبدعة ويعتبرونه من أنصار نظرية الأفراد الأبطال .

٥ — ولا يخلو فكر توينبي من صلة مع فكر تلميذي فرويد المنشقين عنه وهما الفريد أدلر وكارل يونغ . فقد اهتم توينبي بالتحديات ومحاولة التغلب عليها عند الفرد والجماعة ، وهذا قريب من اهتمام ادلر بمحاولة الانسان التغلب على عوامل نقصه والتعويض عنها بحيث تنشأ العبقرية والابداع عن هذه المحاولة كما قد ينشأ الجنون والعدوان . ويتحدث توينبي عن اللا شعور الفردي الذي اكتشفه فرويد وعن اللاشعور الجمعي للنوع الانساني الذي اكتشفه يونغ ، ويقترح أن يضاف اليها اللاشعور الزمري الذي يعود الى أصل جماعة أو حضارة معينة . وكأن توينبي يريد أن يطرق كل الأبواب وأن يستفيد من تراث العصر بأجمعه .

وأخيراً فقد قيل عن الرجل بانه فيلسوف انتقائي ، وقيل عنه إنه شاعر خيالي وقيل أنه يخضع الحوادث لنظرياته بدلاً من أن يخضع نظرياته للحوادث ، وقيل بانه

صاحب فكر يعد قمة في النور والتنوير . وعلى كل حال فقد وجدته من دراستي له جذاباً ومفيداً ويبغي الخير والانصاف ماالستطاع .

حماة في ١١/٦/١٩٧٧

سهيل عثمان

مصادر البحث

١ — موجز دراسة للتاريخ توينبي ترجمة : فؤاد شبل

٢ - العالم والغرب ״

٣ — الحضارة في الميزان ״

٤ — سلسلة محاضرات ارنولد توينبي

٥ مجلة — عالم الفكر — عدد خاص بفلسفة التاريخ العدد الأول لعام ١٩٧٤

٦ — في فلسفة التاريخ احمد محمود صبحي

٧ — التاريخ وكيف يفسرونه ويدجري

المميزات الحضارية
لفترة مجهولة من تاريخ سورية

د. مفيد رائف العابد

مدرس تاريخ الاغريق والرومان
بكلية الآداب – جامعة دمشق

يعز على أي باحث محب للتاريخ أن يرى بعض الفترات الحضارية وقد اكتنفها غموض شبه شامل كالغموض الذي يحيط بتاريخ الحقبة الهلنيسية ، وقد يزداد تأسفه بصورة أكبر حين يعلم ان هذه الفترة الحضارية تمثل حقبة هامة من تاريخ بلاده.

وقد اكتشفت هذه الحقيقة أثناء وجودي على مقاعد الدرس في جامعة دمشق ، وعقدت النية والعزم على أن أركز جهودي لالقاء ما أستطيع من أضواء وإبراز ما أقدر عليه من معلومات تخص تاريخ العصر السلوقي في آسية كجزء من تاريخ بلادي الذي لم يقدم على درسه – فيما اعلم – أي عربي آخر [1] وقد كان لتعييني معيداً بعد التخرج وإيفادي في بعثة دراسية أكبر الأثر في وفائي لوطني ونفسي بما قطعت من وعود سابقة.

ولست أدعي بأني قد اكتشفت وانني سأعرض هنا أو في مكان آخر معظم مايخص تاريخ آسية السلوقية بشكل عام وسورية في العصر الهلنيسي بشكل خاص ، فان الدراسات المتفوقة للأساتذة روستوفتزف (Rostovtzeff) وبفان (Bevan) وبوشيه لوكليرك (Bouchê Leclercq) وبيكرمان (Bikerman) وتارن (Tarn) وفيلكن (Wilcken) وجريفيث (Griffith) وولز (Welles) وغيرهم قد

---

١) باستثناء الرسالة الجامعية القيمة التي أعدها الأستاذ الدكتور جورج حداد باللغة الانجليزية حول تاريخ مدينة انطاكية في العصرين الهلنيسي والروماني (شيكاجو ١٩٤٩) (الرسالة غير منشورة) والدراسة المبدئية والمختصرة التي خطها قبل وفاته الأستاذ الدكتور أسد رستم والتي نشرتها الجامعة اللبنانية عام (١٩٦٩) في بيروت .

مهدت السبيل لكل دارسي تاريخ العصر الهلنيسي عامة والسلوقي خاصة .

إلا أن هذه الدراسات على جلال قدرها وسمو مكانتها والتي وضع معظمها أو أهمها لهذا البحث في أوائل هذا القرن ، أصبحت غير صالحة للاعتماد عليها بصورة مطلقة لسببين أولها : ماتجود به الحفائر بين سنة وأخرى من معلومات تغير أو تعدل أو تؤكد بعض فروض واستنتاجات المؤرخين السابقة لتاريخ الحفائر ، وثانيها : عدم توافر العدد الكافي من المؤرخين الشرقيين لكتابة هـذا التاريخ ، فأجدادنا — كما نعلم جميعنا — هم الذين صنعوا هذا التاريخ ، ونحن الأقدر دوما على كتابته .

وتحتم علينا قواعد البحث العلمي السليم ان نحدد - قبل الاستغراق في بحثنا - مدلولات الالفاظ التي سنستعملها درءاً لما يمكن أن يسبب أي لبس أو غموض وبخاصة ان العصر مدار البحث لم يكن في يوم ما موضوعاً لدراسة علمية موسعة بالعربية ، كما لم تكن سورية بمفهومها العام تلك الوحدة الجغرافية التي تماثل مانعرفه عن بلاد الاغريق أو مصر أو فارس .

فالعصر الهلنيسي (1) هو العصر الذي غطى مكانياً كل أصقاع العالم القديم التي غزاها الاسكندر المقدوني (٣٥٦ — ٣٢٣) ق م (2) من الأدرياتيكي غرباً إلى البنجاب شرقاً ومن البحر الأسود شمالاً حتى الصحراء العربية جنوباً ، وهو العصر الذي تعارف المؤرخون المحدثون على تحديده زمنياً بالقرون الثلاثة السابقة للميلاد ، وبصورة أكثر تحديداً منذ وفاة الاسكندر في عام ٣٢٣ حتى قيام الامبراطورية الرومانية في عهد أغسطس عام ٣١ . ولما كان معظم مؤرخي العصر يتفقون على ان معالم هذا العصر الحضارية قد بدأت قبل وفاة الاسكندر واستمرت الى مابعد عام ٣١ ، فان هذا الاتفاق يوضح لنا ان التحديد الزماني السابق للعصر ليس إلا اصلاح وضعي أضيف الى قائمة المصطلحات التاريخية الأخرى لتمييز عصر اتسم بسمتين أساسيتين أولها :

---

١) وهو العصر الذي تترجمه بعض مراجعنا خطأ بالعصر الهلنستي ، ووجه الخطأ في هذه الترجمة أنها تستعمل حرفي (السين والتاء) بدلا من حرف واحد لتفريق هذا العصر عن العصر الهليني ، والتسمية المعتمدة يعتمدها معظم كبار مؤرخي العصر من العرب انظر مؤلفات الأستاذين الدكتورين ابراهيم نصحي ومصطفى كمال عبد العليم.

٢) جميع التواريخ الواردة في هـذا البحث سابقة للميلاد مالم ينوه صراحة بغير ذلك .

إن أعمال وفتوحات الاسكندر غيرت وجه العالم المعروف آنئذ ، وثانيتها : أنه بعد خضوع العالم الهلنيسي لروما وانقياسه في صـراعاتها وحروبها الأهلية فترة من الزمن ، نهض هذا العالم من جديد في عهد الامبراطورية الرومانية على قواعد جديدة ذات طابع اغريقي روماني (١) .

ويختلف المؤرخون في تحديد معنى محدد للفظة « العصر الهلنيسي » وفي حين يرى بعض المنصفين انه عصر حضارة جديدة تكونت من عناصر اغريقية وشرقية ، يرى البعض الآخر القائل بتفوق الحضارة الغربية انه عصـر انتشار الحضارة الاغريقية بين الشرقيين ، ويرى بعض ثالث متحفظ ان العصر لايتعدى كونه استمراراً منقحاً للحضارة الهللينية القديمة بفضل ما أحاط بها من ظروف جديدة . وما من شك في ان جميع هذه الآراء تحتوي على بعض الحقيقة ، لكنها لاتمثل الحقيقة برمتها ، ولا يستقيم العمل بها إذا ماتناولنا معالم العصر وجميع ظواهره . ويمكن القول باختصار شديد ان لفظة « هلنيسي » ليست أكثر من عنوان مناسب للدلالة على حضارة القرون الثلاثة السابقة للميلاد التي تقسم الى طورين متميزين يتسم ابكرهما بابداع خلاف في معظم علومها الشرقية والاغريقية المشتركة مع تفوق ملحوظ للحضارة الاغريقية ، في حين يتسم الطور الأخير برد فعل شرقي روحي ومادي ضد هذه الاصول التي أصابها الاعياء نتيجة لما بذلته من جهود في الطور الباكر (٢) . والآن ماذا عن مميزات هذا العصر الحضارية ؟

مميزات العصر :

ويمتاز العصر الهلنيسي — دون باقي عصور التاريخ التي سبقته — بميزات عديدة أهمها شيوع التعليم وانتشار المدارس والتعليم المختلط وسيادة روح الاخاء إلى جانب تعاظم الثروة بين أيدي قلة من الناس مما أدى إلى اضطرابات اجتماعيـة متعددة . وقد ساعدت اللغة اليونانية التي سادت معظم أرجاء العالم المعروف وقتئذ على بروز ثقافـة مشتركة انتشرت في كنفها الآداب والفلسفة ، وعمت فى ظلها حرية الفكر

1) W. T arn, Hellenistic Civilization (London 1966) PP. I FF
2) iBiD

والقول ، وزالت الكراهية القومية باستثناء مابقي منها بين المصريين واليهود (١).

ويبدو ان فكرة العالمية التي تحمس لها الاسكندر أثناء حياته ، وانتشار التعليم من خلال سيادة لغة ثقافية مشتركة قد ساعدت على بروز مدارس فلسفية دعت باخلاص الى الاخلاق الفاضلة ونبذ الأحقاد وحل الخلافات بالتحكيم بدلاً من الحرب وعلى رأسها المدرسة الرواقية والأبيقورية (٢) . وقد تبنى عدد كبير من ساسة الدويلات الاغريقية مبدأ التحكيم في منازعاتهم مع جيرانهم وبخاصة خلال الشطر الأكبر من القرن الثالث ، وبذلك فقد عملوا على تخفيف ويلات الحروب التي كانت أعرافها تبيح عادة للمنتصر أن يقتل رجال العدو ويسبي نساءه وأطفاله . وعلى الرغم من بعض المخالفات التي ارتكبها بعض الساسة للعرف الحربي الذي استنه اسكندر الأكبر ببيع جميع السكان بدلاً من قتلهم ، فان انتشار « موضة » اعتراف الدويلات الاغريقية بان بعض المدن أو الأماكن « مقدسة » كالمعابد ولا يجوز أن يعتدي عليها ، والسخط والعداء الذي كان ينصب على منتهك هذه المقدسات من قبل الافراد والدول ينهض دليلاً رائعاً على استيقاظ العواطف الانسانية بدءاً من النصف الثاني من القرن الثالث (٣) .

ولا شك ان مركز المرأة في العصر الهلينسي قد تأثر بالأدوار التي لعبتها الملكات والأميرات المقدونيات بعد وفاة الاسكندر وتأسيس الممالك السلوقية والبطلمية والانتيجونية (٤) في كل من آسية الغربية ومصر ومقدونية على التوالي . فقد نافست أدوار بعضهن أدوار الملوك في المجالات السياسية والدينية . ومن القصور الملكية امتدت الحرية النسبية الى النساء العاديات واستطاع بعضهن التحرر من قيود التقاليد القديمة والحصول على قدر وافر من التعليم أتاح لهن الفرصة للبروز في مجالات الفلسفة والشعر والفنون (٥) .

---

1) Tarn, op cit , P . 3

٢) لمزيد من المعلومات حول اخلاقيات المدرستين الرواقية والابيقورية ، انظر : تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم ، وتاريخ الفلسفة الغربية لبرتراند رسل ترجمة زكي نجيب محمود .

3) Tarn, op cit' PP. 80 ff

٤) نسبة إلى البلاط السلوقي في انطاكية ، والبطلمي في الاسكندرية ، والانتيجوني في مقدونية وهي البلاطات الرئيسية في العصر مدار البحث .

٥) ابراهيم نصحي ، تاريخ مصر في عصر البطالمة (القاهرة - ١٩٦٦) ج ١ ، ص ٤٠ .

ولعل من أبرز المظاهر الاقتصادية للعصر مدار البحث هو ذلك التفاوت الشاسع في توزيع الثروة بين طبقات المجتمع وما تلاه من تفاوت بين سخاء الاغنياء وقلة الأجور ، وكان الأغنياء في ذلك العصر على أتم الاهبة للتبرع بسخاء في خدمة الدولة والصالح العام في الوقت الذي لم يكونوا فيه على استعداد لدفع أجور مناسبة لفلاحيهم أو عمالهم أو أقنانهم . ولدينا في مصادرنا أمثلة كثيرة على قيام الاغنياء بتلبية حاجات دولهم المادية تبرعاً أو اقراضاً أو تنفيذاً لخدمة عامة كاقامة جسر أو معبد أو تمثال أو رعاية حفل ديني وحتى تجهيز جيش للحرب . وكان من الطبيعي والحالة هذه أن تتفاقم الأزمة الاجتماعية وان تؤدي ـ مدعمة بافكار المذاهب الرواقية التي نادت بالاخاء والمساواة (١) ـ الى اضطرابات عجلت بنهاية ممالك هذا العصر على أيدي الرومان .

ويحلو لبعض مؤرخينا المعاصرين أن يستخرجوا بعض أوجه الشبه بين العصر الهلنيسي والعصر الحديث أو المعاصر ، ويذهبون الى القول بانه كانت توجد في العصر الهلنيسي الكثرة نفسها من الدول الكبيرة والصغيرة التي سادتها حضارة رفيعة مشتركة ، والتي نشأت فيها أفكار الانسانية والاخاء وتحرير المرأة ، وانتشر فيها التعليم انتشاراً أخرج أفواجاً من انصاف المتعلمين ، ونشأت فيه متاعب اقتصادية قاسية أدت الى المناداة بالأفكار الاشتراكية والشيوعية ، ويستدرك مؤرخونا سابقو الذكر ان مرد الخلاف بين العصرين ــ رغم كثرة ظواهر التشابه ـ هو ان العالم القديم لم يعرف الآلات ، وكان يعتمد في نشاطه الاقتصادي على العبيد الى حد كبير (٢) .

---

١) نصحي ، المرجع السابق ، ص ٤٠ — ٤١ .

2) Tarn, op cit, PP. 3 ff

الصهيونية

جزء ثالث سيضاف للتوراة اليهودية

رياض زيـــد

جنس اليهود . . . وعلاقتهم ببني اسرائيل . . . . والعرب

قد يكون صحيحاً ان اسماعيل واسحق كليهما أبناء إبراهيم عليه السلام من نسل سام ولكن في البداية فقط ، أما بعد ذلك فقد ذاب نسل اسحق مع المصريين والكنعانيين والفلسطيتيين والعموريين والحثيين وغيرهم ، ثم أخذ الذوبان بعد السبي البابلي حد الانحـــلال حتى أصبحنا في النهاية ازاء قـــوم غرباء لاعلاقة لهم البتة باسحق ، وحيث اطلقت عليهم تسمية اليهود نسبة ليهوذا ، أحد أبناء يعقوب ، وهو السبط الذي خرج منه داود واسم المملكة التي كانت أورشليم عاصمة لها ، وسنحاول وبشكل سريع تتبع مسيرة هذا الانحلال عبر التاريخ الطويل بمراحله الثلاث : الخروج ، فالشتات ، ثم التراكم .

١ ــ الخروج : ان الخروج من مصر يمثل نقطة انطلاق في هذا المجال ، فموسى عليه السلام عندما خرج بقبيلة بني اسرائيل من مصر عام ١٣٠٠ ق . م تبعته أعداد كبيرة من المصريين (١) الموحدين ، وخلال التيه انضمت اليه قبائل كثيرة مختلفة الأصول والعروق لتشكل هذه القبائل كافة عبر تزاوجها واختلاطها واتحاد مصيرها الحياتي وتحت قيادة زعيم واحد شعب اسرائيل ، وقد بدأ العملية موسى عليه السلام بنفسه عندما تزوج بابنة زعيم مدين . وقـــد وصل تعداد هذا الشعب ٦٠٠٫٠٠٠ نسمة بينما نلاحظ أن القبيلة الأم التي دخلت مصر عام ١٦٥٦ ق .م

---

١) لاحظ المؤرخون ان سبط اللاويين لم يكن من الأسباط الاثنى عشر ، وكانوا بطانة موسى ومن ثم رجال الأكليروس اليهود ولا يستبعد فرويد في كتابه موسى والتوحيد أصلهم المصري .

لم يتجاوز عدد افرادها ٧٢ نسمة .

٢ — الشتات : آ — البابلي : قضى سرجون الثاني البابلي على دولة اسرائيل، (السامرة) عام ٧٢١ ق . م ، ونقل سكانها لبابل ، ثم قام بعد ذلك نبوخذ نصر بالقضاء على دولة يهوذا (أورشليم) عام ٥٨٧ ق . م فدمرها وذبح سكانها ونقل ماتبقى من سكانها لبابل بعد ان أحرق المابد والتوراة . وبعد خمسين سنة وفي العهد الفارسي سمح لهم قورش بالعودة لأورشليم واعادة بنائها ، ولكن بدون أفراد وأبناء الأسرة المالكة القديمة ، أي سمح بتشكيل سلطة كهنوتية (١) يديرها رئيس الكهنة بمعاونة مجلس أعيان من المدنيين والكهنة (سندرين) ، تبقى أورشليم معها ولاية تابعة للدولة الفارسية .

ولهذا السبب لم يتجاوز عدد الذين عادوا لاورشليم أكثر من خمسين الفاً من المشتتين إضافة الى قلة من السكان استطاعت البقاء أثر الرجوع خلال الحكم البابلي ، وبقيت الاغلبية المطلقة في العراق ، والباقي اتجه قسم منه مع الجيوش الفارسية باتجاه افغانستان وبخارى وسمرقند والقوقاز والخزر وقسم لمنطقة البلقان مع الغزو الفارسي لليونان.

ب — الهلليني : بعد هزيمة الفرس على يد الاسكندر المكدوني عام ٣٣١ ق.م، وبدء العصر الهلليني الذي استمر مع السلوقيين والبطالمة ، انتشر اليهود على مسار هذه الجيوش ليشمل مراكز جديدة : الاسكندرية وآسيا الصغرى والبلقان والقرم وكييف الروسية وشرقاً حتى ضفاف الهندوس بالهند ، وقد قام اليهود في نهاية هذا العصر بثورة مكابية عام ١٦٧ ق م وبقيادة تتيا بن يوحنا ومن بعده ابنه يهوذا ،وقد استطاعوا هزيمة السلوقيين وارجاع الدولة والملكية ، ومن أشهر ملوكهم اسكندر جينوس ١٠٣ — ٧٦ ق.م، وعرف بالقسوة والوحشية ،وقد أخضع سكان الجليل العرب (الايطوريون) الى حكمه بعد أن أعمل فيهم السيف وقتل الآلاف ومثل بالنساء والأطفال ، وكذلك بالنسبة للادوميين سكان جنوب فلسطين اجبروا على اعتناق اليهودية بحد السيف .

ج — الروماني : قامت الجيوش الرومانية باحتلال فلسطين وقضت بذلك على الدولة المكابية عام ٦٣ ق.م ولكن اليهود استمروا في عمليات القتل والاضطهاد للسكان

١ — تاريخ الحضارات العام، موريس كروزيه . مجلد ١ صفحة ٢٦٨ .

الأصليين ، مما اضطر السلطان الروماني للتدخل لاعادة النظام ، وباستمرار التعديات اليهودية حدثت المجابهة الرومانية اليهودية .. عام ٦٦م ، وقد قام اليهود بعمل مجازر كبيرة للسكان المحليين وللجند الرومانيين مما اضطر القائد الروماني تيطس عام ٧٠ م الى أن يهاجمهم ، وهكذا سقطت القدس بيده بعد حصار عنيف ، واحتطماً للسلب والنهب والحرق والهدم .

إلا أن اليهود عادوا الى الفتك باعدائهم مابين عام ١١٥ - ١١٧ م فقد ذبحوا أعداءهم وأكلوا لحومهم وتمنطقوا بامعائهم ، ونضحوا أجسامهم بدمائهم ، وصنعوا لهم البسة من جلودهم ، ونشروا من الوسط عدداً كبيراً منهم ، وعرضوا جماعات عديدة منهم للسباع والضواري . وبلغ عدد من فتك بهم اليهود خلال هذين العامين اكثر من ٢٢٠٫٠٠٠ نسمة (١) .

وفي عام ١٣٢ م قام اليهود بثورة شاملة في القدس بقيادة شمعون بن كوزيبا (٢) الذي ادعى أنه المسيح المنتظر ، فقام هدريانوس بتجهيز حملة قضى عليهم وذبح منهم اكثر من ٥٨٠٫٠٠٠ نسمة ، عدا الذين قضوا نحبهم حرقاً أو جوعاً ، بعد أن أعمل فيهم الذبح والحرق ... واحرق مدنهم ومعابدهم وتوراتهم وكتبهم . وهكذا انهى وللأبد مصير اليهود في فلسطين ... وتشتت من بقي على قيد الحياة على مسار طويل شمل كل مستعمرات العالم الروماني ... حوض البحر الأبيض المتوسط وحتى المانيا .... عن طريق الرون - الراين - فرانكفورت .

وقد تسرب قسم منهم الى الجزيرة العربية حيث سكنوا المدينة وخيبر ، وأما ماتبقى في فلسطين فشرذمة قليلة هي السامريين ... الذين تحولوا الى قوقعة قزمية مغلقة في نابلس لاتزيد حالياً عن الالفين .

٣ - **التراكم** : استمر الشتات اليهودي حتى العصر الاسلامي حيث ازدهرت التجارة ، فتحركت الجاليات اليهودية من مواقعها المتناثرة نحو التراكم في مواقع مراكز اتصال الحضارات ، مستفيدة من التسامح العربي الاسلامي حيالها :

آ - شرقاً في منطقة الخزر حيث اتصال الدولتين الاسلامية والبيزنطية من جهة وأواسط وشرق آسيا من جهة أخرى .

ب - غرباً في الاندلس حيث الاتصال باوربا التي كانت في بدايةعصر النهضة .

---

١ - المؤرخ ديون كسيوس

٢ - تاريخ الحضارات العام

ج ــ عاصمة الخلافة بغداد .

اضافة الى التراكم الذي بدأ يتشكل في فرانكفورت بالمانيا نتيجــة عوامل سياسية أوربية .

آ ــ منطقة الخزر : شعب الخزر ، تحدر من سلالة تركية مغوليــة ، جاء من سهوب آسيا الصغرى ، واستقر مابين البحر الأسود وبحر الخزر في القرن الخامس الميلادي ، وكانت لغتهم قريبة جداً من اللغة التركية المسماة بالجاجتاي ، وقد اختلطت دماؤهم بدماء شعوب واعراق متعددة مثل الهانز والسابير .

ونظراً لموقعهم الحيوي الذي أشرنا اليه ، ثابر اليهود خلال مختلف العصور على الهجرة الى هذه المنطقة في العهود الساسانية والبيزنطية ، ثم الاسلامية والبيزنطية ، وكانت لهم دوماً مكانة في بلاط ملك الخزر .

وفي عهد الأمويين ، تقدمت جيوش مروان بن محمد ، فأعلن خاقانهـا الاسلام ، وهكذا عادت الجيوش الاسلامية وهي مطمئنــة الى أن أرض الخزر هي جزء من دار الاسلام . « إلا أن المفاجأة التي كانت في عام ٧٤٠ م حين أعلن بولان ملك الخزر دخوله في اليهودية بعد أن أقنعه احبار اليهود بان اعتناقه لليهودية من شأنه أن يجعل الله من شعوب القبائل الخزرية المغولية شعبه المختار وان اليهود في أنحاء العالم كافة سيكونون السند والدعم لهذه الدولة وتتحول القبائل الخزرية تبعاً لذلك الى سادة البشرية وأصحاب الحق الشرعي في حكم العالم » .

وقد اكتشف المؤرخون رسائل بين ابن شبروط الوزر اليهودي لعبد الرحمن الثالث في قرطبة بالاندلس وبين أحد ملوك هذه الدولة واسمه يوسف يصف فيها ابن شبروط سروره بان الله قد حقق حلم الشعب المختار في الدولة الموعودة التي تجمع شتات شعب إسرائيل .

ورد الملك يوسف برسالة دعاه فيها الى زيارة مملكة الخزر اليهودية ، ورسم له فيها شجرة الأسرة المالكة التي تعود جذورها الى الاجداد الاتراك المغول . . . . فما كان من ابن شبروط إلا ان ردّ عليه برسالة عبر فيها عن خيبة أمله من أن ملوك هذه الدوله ليسوا من القبائل الاثنتي عشرة التي شتت من كنعان .

وقـــد روى المؤرخون ان أحد ملوكهم : اوباديا قد قام باحضار الأحبار والحاخام من بغداد وقرطبة لتعليم أبناء الخزر التوراة والتلمود .

وهكذا تحولت هذه الدولة جملة واحدة الى اليهودية ، تمارس الدور والسلطان السياسي لليهودية في العالم ، حتى انها بدأت بمهاجمة ديار الاسلام وبدعم من الدولة البيزنطية ، واستطاعت ان تهدد في فترة من الفترات العواصم العربية ، ويقول المؤرخ الروسي ارتانانوف في ذلك :

« قام الخزر بخدمة عظيمة للتاريخ الانساني ، فقد نجحوا في سد جبهة القوقاز أمام الهجوم العربي ، ويجب علينا ان نضعهم في مستوى البطولة التي نضع فيها جماعة شارل مارتل في فرنسا » .

واستمرت هذه الدولة ثلاثمائة سنة حتى اجتاحها الفايكنج ، ونشروا فيها الدمار والرعب ، مما اضطر يهودها الى النزوح الى مدينة كييف ومنطقـــة القرم بمساعدة البيزنطيين .

ولكن نشوء دولة كييف السلافية الجديدة واعتناق الروس للارثوذكسية واتحاد الكنيسة البيزنطية الروسية ضدهم كانت نتيجته حملات عديدة بدأها أمير كييف عام ٩٦٥ م ثم الامبراطور باسيلوس الثاني عام ١٠١٦ م ، وتلاشى اثر الدولة نهائياً عام ١٠٣٠ م لتشكل الشعوب المغولية التركية لهذه الدولة وبشـــكل مرعب ورهيب نطاقاً بشرياً عرف تاريخياً باسم حظيرة اليهود ، غطى جنوب روســـيا وشمل جنوب دويلات البلطيق وكل بولندا ثم أقصى شرق المانيا وامتد حتى وصل النمسا والمجر ، وهكذا اتصل اليهود المغول بيهود المانيا (فرانكفورت) ليشـــكلوا قطب اليهودية في العالم وثقلها الطاغي أي ماززنته ستة ملايين يهودي .

وكانت عملية خلط ومزج استطاع فيها يهود المانيا قيادة هذا القطيع الكبير ، ومن أوضح مظاهر هذه السيادة : اللغة الجديدة (اليديشية) المســـتمدة من اللهجة الالمانية العليا واستعاروا لهم اسماً (الاشـــكناريم)(١) ليتميزوا عن يهـــود الأندلس (السفارديم) .

وقد حدث بعد ذلك في القرن الثاني عشر الميلادي ان حاول سليمان بن دوج الخزري تجميع يهود الخزر ثانية في محاولة زحف للقدس ، بعد أن ضاع وطنهم

---

١ — اليهود انتروبولوجيا ـ جمال حمدان

الاصلي مدعياً أنه اشعيا وان ابنه هو المهدي ، إلا أن محاولته باءت بالفشل فقتل فخلفـــه إبنه مناحم الذي بدل اسمه إلى (داود بن روى) فوصلت جيوشه الى شمال العراق حيث قتل وأعوانه ، ومنذ ذلك الوقت رفع اليهود في العالم أجمع راية (داود بن روى) التي تحمل النجمة السداسية ، وهـــذا يعني بان هـذه النجمة هي ليست لداود عليه السلام كما هو معروف .

ب ـ **الأندلس** : تراكم اليهود فيها نتيجة لازدهار التجارة حتى وصل عددهم إلى مليون نسمة ، وانتشرت إمتداداتهم عبر أقطار أوروبا الغربية وحوض البحر الأبيض المتوسط ، ودول البلقان حتى الأناضول ، وعندما سقطت الأندلس عام ١٤٩٢ م لحقتهم حرب الابادة والاضطهاد ، فشتتوا الى مواقـــع إمتداداتهم التي أشرنا إليها ، وحملوا معهم لغتهم الاسبانية المحرفة المعروفة (باللادينو) واستعيرت لهم كلمة السفارديم لتمييزهم عن الاشكنازيم الذين تحدثنا عنهم .

وقد أكدت دراسات الأنثروبولوجيا أن السفارديم قبل خروجهم من الأندلس كانوا قد استوعبوا دماء إيبيرية وغربية وبربرية في عروقهم بحيث يمكن وبسهولة ملاحظة الفوارق العرقية من حيث اللون وشكل الرأس ، والأنف وغيره ، مما يجعل الحديث عن نقاوة العنصر وعن السامية بالنسبة لليهود السفارديم وهم وخرافة . . . .

جـ ـ **بغداد** : تمركز اليهود في عصور إزدهار الاسلام في بغداد ، وانتشرت إمتداداتهم : شرقا ايران وتركستان والهند والصـــين وغرباً إلى شمال إفريقيا وجنوباً اليمن (١) والحبشة وسمي هـؤلاء باليهود الشرقيين ويتكلمون بالعربية إلى جانب إحتفاظهم باللغة العبرية ولا يتجاوز ثقل هذه الدائرة أكثر من مليون نسمة . . .

وكان شأنهم خطيراً في التاريخ العربي والاسلامي فتاريخهم سجل بالمكائد وإثارة النعرات الشعوبية والطائفية . . . . حتى أن بصماتهم واضحة على كل الكوارث التي حاقت بالعرب والمسلمين خلال التاريخ الطويل .

فمنـذ الأيام الأولى التي ظهر فيها الرسول العربي محمـد عليـه السلام واليهود ينصبون له العداء ، ولا يدعون سبيلاً من سبل الكيد له ولرسالته الا سلكوه ، وبالرغم من العهود والمحالفات التي كان وقعها معهم إلا أنهم كانوا يغدرون بمواثيقهم حتى إضطر عليه السلام الى حربهم . . .

---

١ ـ يهـــود اليمن والحبشه الأصليين ؟ هم ليسوا من الشتات بل تهودوا بالتحول في العصر السبئي .

وقد كان لهم دور كبير في إشعال الفتنة الأولى في الاسلام، وقتل الخليفة عثمان بن عفان وعلى رأسهم عبد الله بن سبأ، واستمرارهم في ذلك في عهد الخليفة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، مما اضطره إلى محاربتهم، ونفي ابن سبأ إلى ساباط المدائن.

التوراة .. . . والصهيونية

أنزلت التوراة على بني إسرائيل عام ١٣٠٠ ق.م (إنّا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور (١)) ولكنهم بوفاة موسى عليه السلام أضاعوها وإرتدوا إلى وثنيتهم، وتجلى ذلك في حرب الابادة والافناء التي مارسوها خلال حروبهم مع الكنعانيين سكان فلسطين الأصليين، فقد سحقوا وهدموا وأحرقوا كل شيء . . . . حتى الشجر والحيوان،

وفي عهد داود عليه السلام عام ١٠٠٠ ق.م هدم المعابد الوثنية، وبنى للرب معبداً في أورشليم وأمر باحضار تابوت العهد المحفوظة فيه ألواح الشريعة والتوراة، بأسفارها الخمس، إلا أن المفاجأة كانت في ضياع التوراة، فقام الكاهن ابياثار (٢) بكتابة نسخة جديدة محرفة، إلا أن هذه النسخة المحرفة قد انقطع تواترها بعد ذلك لعودة بني إسرائيل إلى الوثنية بعد عهد سليمان عليه السلام، حتى جاء يوشيا بن آمون عام ٦٢١ ق.م، وحاول إعاده قومه إلى التوراة، وبعد ثماني عشرة سنة أحضر له حلقيا الكاهن نسخة أكثر تحريفاً، وبالرغم من عدم اعتمادها رسمياً إلا أنها ضاعت كذلك خلال السبي البابلي عام ٥٨٦ ق.م.

وفي العهد الفارسي عام ٥٣٦ ق.م سمح لليهود بكتابة توراتهم من جديد، فكتبها عزرا مضيفاً إليها أحد عشر كتاباً، تبتدىء من كتاب يوشع بن نون وحتى السفر الثاني لعزرا ويسمى نحميا، إلا أن هذه الكتب جميعاً قد أحرقت مرات عديدة خلال المذابح التي جرت لليهود خلال العهدين الهلابني والروماني. ورد في الباب الأول من الكتاب الأول للمقابين هكذا :

---

١ – القرآن الكريم – سورة المائدة – آية ٤٤

٢ – موسى والتوحيد ص ٦٨ لسيغموند فرويد

« لما فتح ملك ملوك الفرنج أورشليم ، أحرق جميع نسخ كتاب العهد العتيق التي حصلت له من أي مكان بعد ما قطعها ، وأمر أن من يوجد عنده نسخة يقتل ، وتعدم تلك النسخة ، وكان تحقيق هذا الأمر في كل شهر » .

وخلال ثلاثمائة سنة أخرى ، قام أحبار اليهود بإعادة كتابة التوراة المعروفة حالياً بالعهد القديم ، مضيفين اليها اثنين وعشرين كتاباً ، كان آخرها ملاخيا لتشكل الجزء الأول من التوراة . وكذلك تسعة كتب تبدىء باستير وآخرها المكابين الثاني لتشكل الجزء الثاني من التوراة (٣) . . . إضافة إلى الشروحات التي أسموها بالتلمود . وقد أتت التوراة الجديدة مليئة بالتناقضات والتحريف والاختلاف ، وحوت مفاهيم وأمور شاذة ، وامتزج فيها مانسب لموسى عليه السلام بحشو غريب استقوه من الديانات الفارسية والبابلية والمصرية . . . حتى اننا لنجد لهذه التوراة نسخاً عديدة يختلف بعضها عن بعض اختلافاً بيناً وفيما يلي عرض للأصول فيها :

الاله : يهوه :

واحد ولكنه متحول ، يكشف سر المستقبل أما بظهوره للبشر لاسيما في الأحلام ، وإما بواسطة (قُرع) خشبية يسترئيها الكهنة . . . . خاص بهم ، لايهتم بشؤون الشعوب الأخرى ، يخصهم وحدهم بمحبته وعدله وعضده وقدرته الحامية ، مبغضاً جميع أعدائهم . . . . وقد تجلى حيال هؤلاء تحيزه وعنفه وتعطشه للدماء ، وحبذ كل مكيدة وأوصى بكل إبادة ، واستدر كل شفقة لكه ، مع ذلك يتصارع مع يعقوب عليه السلام فلا يقدر عليه . . . . .

ولنقرأ هذا النص العجيب كما ورد آية ٢٦ / ٣٢ سفر التكوين : «فبقي يعقوب وحده ، وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر ، ولما رأى أنه لايقدر عليه ، ضرب حق فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه ، وقال : أطلقني لأنه قد طلع الفجر . فقال : لا أطلقك إن لم تباركني ، فقال له ما اسمك فقال : يعقوب . . . . فقال : لايدعى اسمك فيما بعد يعقوب . . . بل اسرائيل . . . لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت . . . . »

---

٣ — إظهار الحق . . رحمه الله الهندي

٤ — تاريخ الحضارة العامة ، كروزيه .

الانبياء :

أثارو الفضائح وأجازوا لنفسهم الجارات بعضاً من نصوص التوراة . . .

إبراهيم عليه السلام : تزوج أخته ساره « انها أختي ، بالحقيقة إبنة أبي » وليست إبنة أمي ، وقد تزوجت بها . ١٢ : ٢٥ : سفر التكوين

دفع بزوجته سارة الى حاكم مصر . . . . لقاء مال . . . وقافلة من النوق والحمير . . . . سفر التكوين

يعقوب عليه السلام : كانت ولادته « . . خرج ويده قابضة بعقب عيو « توأمه » ٢٦ : ٢٥ : سفر التكوين

لوط عليه السلام : زنى بابنتيه وحملتا بالزنا . . . . ٢٩ سفر التكوين

يهود بن يعقوب عليه السلام : زنا بثامار زوجة أبيه ، وحملت بالزنا منه ، وولدت توأمين . ٣٨ سفر التكوين .

هارون عليه السلام . . . بنى معبداً لا عجل . . . وعبده » ٣٢ سفر الخروج

داود عليه السلام « كان يوصوص من نافذته على النساء . . . » « زنى بامرأة أوريا وحملت بالزنا منه ، فأهلك زوجها بالمكر وأخذها زوجة له . . »

١١ صموئيل الثاني

سليمان : « إرتد آخر عمره وكان يعبد الأصنام . . » سفر الملوك الأول

وهذا بعض . ! . . . .

الحساب :

لم يرد في التوراة الى ما يشير إلى إعتقاد كتبتها بالبعث والحساب . . . بل يلمح القارىء أن القصاص أرضي . . . . ويتجلى بالمصائب . . . . . ينتظرون مجد الله على الأرض . . . باقامة مملكة إسرائيل الخالدة في أورشليم . . . .

اليهود والشعوب الأخرى :

اليهود شعب الله المختار ، وانهم أبناء الله وأحباؤه ، وأنهم جبلة خاصة تمتاز على سائر أمم الأرض التي هي بمنزلة البهائم المسخرة لهم لذلك لاحرج في سلبهم

أموالهم بأية وسيلة غيرمشروعة . هم وحدهم نفوسهم مخلوقة من نفس الله ، وان عنصرهم من عنصره ، فهم وحدهم أبناؤه الاطهار جوهراً ، ومنحهم الصورة الخلقية البشرية تكريماً لهم ، وخلق غيرهم من طينة شيطانية أوحيوانية نجسة ، ولم يخلقهم الا لخدمتهم ولم يمنحهم الصورة البشرية الا محاكاة لهم اذ بغير التشابه لايمكن التفاهم .

هذه هي التوراة .... بجزأيها .

أما الصهيونية :

فهي الحركة اليهودية السياسية المعاصرة ، نشأت في القرن الأخير ، وأقامت فلسفتها على التوراة ومركزة على المفاهيم التالية :

١ — أبدية العداء للسامية : استغلت العداء والكراهية الموجه لليهود عبرعصور مديدة ، مدعية أن هذا الاضطهاد هو شكل من معاداة السامية ، بينما الحقيقة أن جل اليهود الذين تعرضوا لهذا ، ولاسيما في العصر الحديث هم أحفاد المغول التتريين وأحفاد الجرمان الألمان .... ولاصله لهم اطلاقا بالساميين كما أوضحنا سابقاً .

كما أن الاضطهاد المذكور كان الرد الطبيعي لممارسة الحياتية اليهودية الفردية ، وارتباط الفرد اليهودي بالمال والتجارة والسمرة والنخاسة والربا والجشع والدعارة والتجسس ، وغير ذلك من الأعمال الطفيلية ... وتجمعهم في داخل أحياء خاصة (جيتوات) ، يمارسون فيها سلوكياتهم المشار اليها وكأنهم (دولة داخل دولة) وهذا هو السبب الأصيل والعميق في كراهية هذه الشعوب والأمم لهم على مدار التاريخ اضافة الى المذابح الرهيبة التي ارتكبوها ضد مختلف الشعوب والأمم .

٢ — الجنس اليهودي المتميز ... بأنه (شعب الله المختار) .

٣ — الأمة اليهودية العالمية : باعتبار اليهود يحملون (رسالة قومية روحية) خاصة وأن هذه الرسالة هي (ظاهرة ثقافية خارقة ...) تتجلى في التوراة والتلمود العظيمين .

٤ — الوحدة اليهودية المنبثقة عن تعاليم التوراة في أن اليهود كلهم أخوة ، وأنه يتوجب عليهم البحث عن السعادة في (بلد الاباء الأولين) .

٥ — مضار اندماج اليهود ... ضمن الأمم والحضارات لأن الشعوب الأخرى (نجسه)

٦ — الدين اليهودي جوهر للصهيونية ... ومنه نأخذ تعريفها لليهودي التوراتي المتميز (بابن اليهودية) .

٧ ـ أرض الميعاد ... والتمسك (بالعهد) المزعوم .

فاي تناقض بين التوراة المكتوبة بأيدي أحبار اليهود بعد السبي البابلي ....
وبين النصوص الصهيونية المكتوبة بأيدي أحبارهم المثقفين في العصر الحديث ... كلها أسفار لكتاب واحد ، توراتهم / يكتبونها لاسرائيلهم الكبرى ـ على أشلاء العالم .

يقول حاييم نحمن بيانك في حفل افتتاح الجامعة العبرية بالقدس عام ١٩٢٥ م : (إسرائيل والتوراة شيء واحد) هي مركز أسرار الأمة وتطلعاتها المشروعة ، ان اخبار الأيام الاول والثاني ... آخر ما انزل من الكتاب وليست الأخيرة في تاريخ إسرائيل .

سيضاف جزء ثالث ... وربما كان هذا الجزء أهم من الجزئين الأولين .

في الجزء الثالث سوف يبدأ بدون شك (بوعد بلفور) وسيكون بعنوان الصهيونية ... فهل تنتبه هذه الأمة ..؟ .. وتستيقظ !! .

﴿ مصادر البحث ﴾

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ التوراة ـ العهد القديم

٣ ـ تاريخ الحضارات العام / موريس كروزية /

٤ ـ اليهود انترو بولوجيا ـ جمال حمدان

٥ ـ الصهيونية بداية ونهاية ـ أبو مازن

٦ ـ الفكرة الصهيونية ـ النصوص الأساسية ـ مركز الأبحاث الفلسطيني

٧ ـ اظهار الحق ـ رحمة الله الهندي

٨ ـ موسى والتوحيد ـ سيغموند فرويد

٩ ـ الجوهر الرجعي في الصهيونية ـ دار التقدم . موسكو

١٠ ـ القبيلة الثالثة عشرة ـ كوستلر

١١ ـ مجموعة مقالات للأساتذة ابراهيم البعثي ـ اميره الزين . فيما يتعلق بالخزر

١٢ ـ مكائد اليهود في التاريخ ـ الميداني .

موقـع تل الحديدي الأثري

بقلم

محمد الخولي : محافظ المتحف العربي الاسلامي

أمضيت في حوض الفرات قرابة خمس سنوات ، مثلت خلالها المديرية العامـــة للآثار والمتاحف لدى البعثات الأجنبية ، وتقلبت خلالها على عدة مواقع أثرية ، تعود إلى عصور تاريخية مختلفة ، مما أكسبني الكثير من الخبرة بأساليب التنقيب الأثري المختلفة ، وبطبيعة المنطقة في حوض الفرات ، وبنفوس سكانها وتقاليدهم وشؤون حياتهم والآن بعد أن طوت بحيرة الأسد صفحة من تاريخ المنطقة ، شعرت أنه مفيد أن أسجل ماخبرته عن هذه المنطقة لعله يمثل ظلاً لحياة كانت ثم زالت ، ولتلال ومواقع أثرية ثوت تحت الماء ، وقد وقع اختياري الأول على موقع تل الحديدي .

يقع تل الحديدي على هضبة تمتد حوالي ٣ كم بمصاقبة نهر الفرات الخـالد ، وتبلغ مساحة الخربة التي يمتد عليها حوالي ٤٠ ، دونماً وترتفع عن سطح البحر حوالي + ٣١٠ م ، وأما سطح البحرة فيرتفع الآن إلى + ٣٠٠ م فوق سطح البحر ، يحيط بالموقع سهل رحيب خصيب ، تحوطه سلاسل جبلية ، وتشغله مجموعة من القرى بعضها كان على جوانب سرير النهر ، وقد غابت الآن تحت الماء وهي قرى ، الكسرة الطعس ، أبو دارا . والبعض الآخر مبعثر في السهل الشمالي ويمكن استعراضهـا من الشرق إلى الغرب على النحو التالي :

شاش حمدان ، رسم مسطاحة ، جديدة مسطاحة ، رمانـة ، الجيزة ، المعاشانة جب الحمام مسطاحة ، جب خميس مسطاحة ، خربة برغوث ، عين الجاموس ، جب حمـــد الشلال ، رسم العبـد ، مسطاحة ، الكسرة ، مزرعـــة الحديدي ، الحديدي (القرية) .

يبعد الموقع عن جسم السد في إتجاه الشمال حوالي ٦٥ كم ، ويتوضع على منعطف من النهر ، يمكنه من الاشراف على مسافة بعيدة في اتجاه مورد النهر ، وعلى مسافة

مماثلة في إتجاه المصب ، كان النهر بالأمس القريب يلج المنطقة من ممر ضيق يساعد على الاتصال بالضفة الأخرى بسهولة ، كما يساعد على التحكم بهذا الطريق المائي التجاري الهام . لاشك أن الضفة الثانية للنهر جعلت منه مهوى لأفئدة أصحاب الفعاليات الاقتصادية في شتى العصور التاريخيــة ، شأن نظيريه الشهيرين النيل ودجلة ، لذا كانت الأودية والسهول المحيطة بهـــذه الأنهار الثـــلاثة محصورة منذ أن دبت أرجل البشر على ظهر هذه الأرض .

شهد نهر الفرات تقلب حضارات عـــديدة منذ العصور الحجرية الأولى ، وتبعتها عصور الحضارات التاريخيــة من سومرية وأكادية وأمورية وبابلية وآشورية ومتيانية وحثية . واستمرت تتوالى على جنبات النهر الحضـارة تلو الأخرى حتى العصر العثماني لذا فان ضفتي النهر تحتوي على ثقـافات شعوب توالت على المنطقة منذ ٢٠ الف عام على الأقل ، بالاضافة إلى كنوز هامة مما أغرى البعثات العلمية في بقاع العالم المختلفة أن تنتشر على جنباته من مصبه في جنـــوبي العراق حتى ينابيعه في تركيا ، وتتخير المواقع التي تناسب اختصاصها .

هذا النهر العذب الفرات الخير المعطاء الذي أنبت الحرث والنسل ، كان يهيج ويثور ويطغى ، فيجرف الحياة احياناً برمتها من على ضفافه وبسبب الكوارث والويلات ، فتضيع المحاصيل والدور والحيوان والسكان ، ولكن الثورة الـــتي كبحت الطغيان السياسي والاجتماعي والاقتصادي في هذا البلد ، كان موضوع النهر من بين مواضيعها وآلت على نفسها أن تكبح جماحه ، وأن تمسك بزمامه ، وتحيل العربدة والدمار والخراب الى نعماء وآلاء تفيء على المنطقة والقطر بأسره بالخير والسعادة ، فقررت اقامه سد الطبقة العظيم ، وكان ذلك القرار بمثابة حكم بالسلامة والطمأنينة والاستقرار على رقعة كبيرة ، تمتد من مدينة الثورة حتى قشلة يوسف باشا ، كما كان القرار بمثابـــة حكم بالغرق على المواقع الاثرية التي تتوضع على ضفتي النهر على طول المسافة المذكورة التي تتجاوز الـ ٧٠ كم ، وقد ترتب على ذلك اصدار نداء دولي عن طريق منظمـــة اليونيسكو لانقاذ المواقع الاثرية في منطقة الغمر ، ونظمت حملة دولية للقيام بعملية الانقاذ منذ عام ١٩٦٣ ، وبلغت هذه الحملة ذروتها في عام ١٩٧١ حين بـــدأ العمل الفعلي وقدمت بعثات التنقيب من جهات مختلفة من العالم ، تمثل الجامعات والمعاهـــد العلمية والمتاحف وبعض الانشطة الثقافية والاعلامية المختلفة ، وامتدت هذه البعثات على مايقرب من ٢٣ موقعاً بما في ذلك بعثاتنا الوطنية ، وقد اشتملت هذه البعثات على

جنسيات مختلفة كالانكليزية والاميركية والفرنسية والالمانية والبلجيكية والسويسرية والهولندية والايطالية واليابانية . وموقع الحديدي هو واحد من هذه المواقع .

وقد دل المسح الأثري الذي قام به العالم الأثري الهولندي فالوون لحوض الفرات أن هذا التل يعود الى عصر الحديد . وهذا ما أغرى العالم الأثري الهولندي الدكتور فرانكن الذي يعمل على إصدار دراسة عن فخار المنطقة تكون بمثابة أبجدية فنية لصناعة الفخار من الناحيتين التقنية والتاريخية تغطي جميع العصور التي مرت بالمنطقة ، وقد نجح في تصنيف فخار معظم العصور ماخلا عصر الحديد ، لذا استهواه هذا التل وبدأ باستخراجه في عام ١٩٧٣ وذلك بواسطة أسبار علمية ساعدت على إختراق عصوره المختلفة ، ووجد أن هذا التل كان معموراً منذ الألف الخامس قبل الميلاد ، والطبقة التي أخذ منها وثائق الألف الخامسة تتوضع فوق آثار للعمران ، ولكن عمق الأسبار ورخاوة التربة وعدم رغبة المنقب في آثار العصور المتوغلة في القدم حال دون الوصول إلى الأرض الحرة . ولسوء حظ المنقب لم يستطع العثور على أية وثيقة تعود إلى عصر الحديد وإنما العصور التي سبقته والعصور التي لحقته حتى العهد المملوكي من العصور الاسلامية .

باشرت البعثة الأمريكية المرخصة رسمياً بالتنقيب في هذا التل أعمالها في عام ١٩٧٤ ، وهذه البعثة تابعة الى متحف ميلووكي وجامعة ميتشغن . قامت بعملية مسح شاملة للتل بجزئيه الشرقي المنخفض المستوي تقريباً ، والغربي المرتفع غير المستوي ، وقد وزعت البعثة جهودها على الجزئين بآن واحد . وبعد انقضاء الموسم الثاني تبين لهم أن الجزء المنخفض كان معموراً من قبل شعوب عصر البرونز الأول (حوالي منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد) وأن العمران لايتعدى طبقة واحدة وهي لاتنخفض عن سطح التل بأكثر من ٣٠ سم ، ومن خلال اللقى التي عثر عليها تبين أن السكان كانوا من وسط اجتماعي متقارب يمثل طبقة بسيطة ، ربما كانت الطبقة التي تعمل لصالح سكان التل الأعلى ، وعلى التل الأوطأ هذا عدد من النماذج المختلفة المدافن المبنية تحت الأرض والتي تعود إلى عهود مختلفة ، ونظراً لأهمية المدافن بالنسبة لموضوع التنقيب الأثري وجدت أن أخصها بالحديث في هذا المقال . من هذه المدافن واحد يعود إلى عصر البرونز القديم ، ويدل أسلوب عمرانه أنه يخص أناساً يتمتعون بمستوى إجتماعي لائق . مخطط هذا القبر يتألف من درج

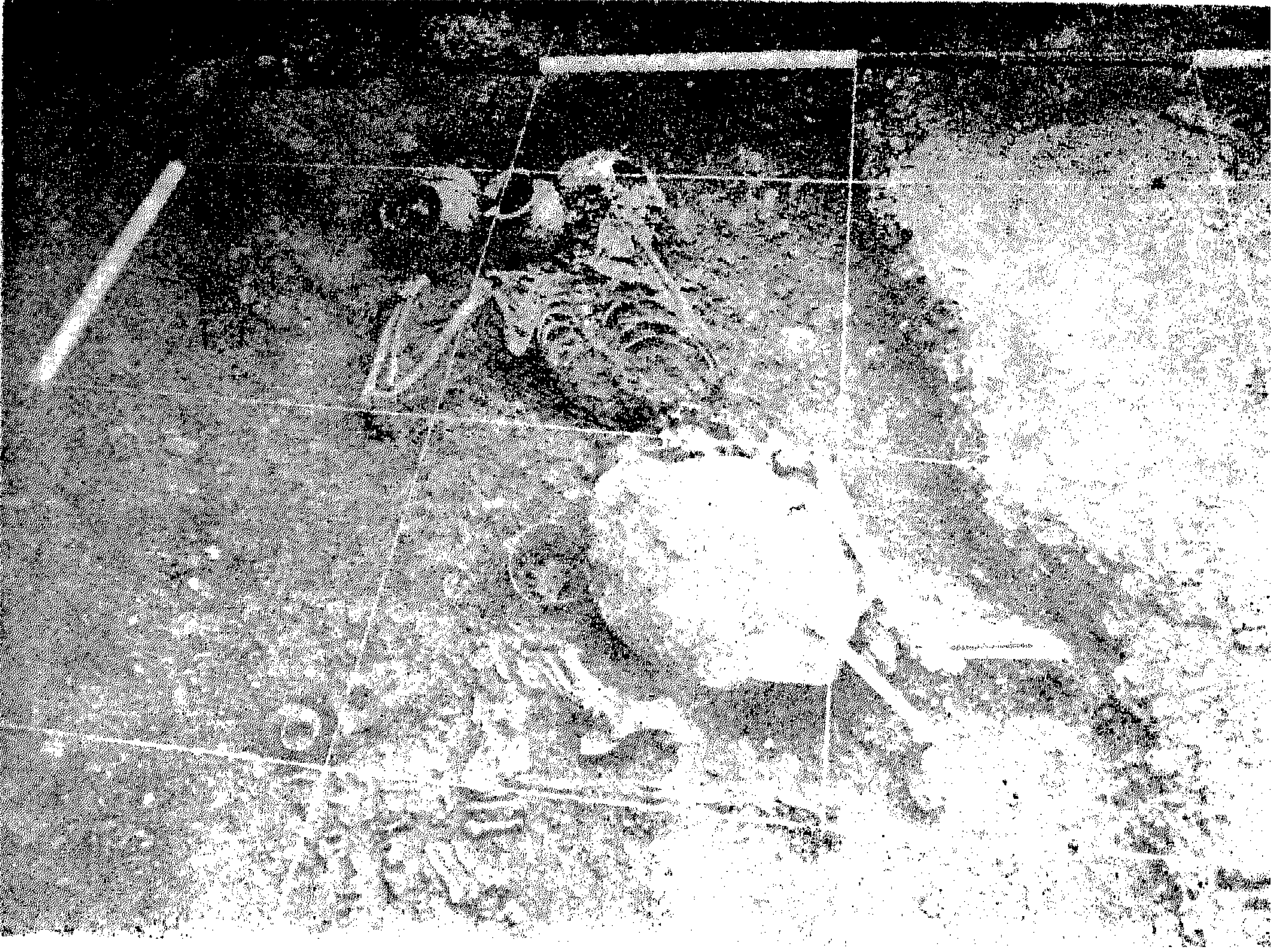


يؤدي إلى ردهة ، تتصل هذه الردهة بغرفة مقباة بطول يتراوح بين ٤ ـ ٦ أمتار وعرض ٤ ـ ٥ ، أمتار وإرتفاع ٣ ، م ويبلغ الطول الكلي المدفن حوالي ١٢ م ويأخذ إتجاه الشمال — الجنوب ، ويتميز هـذا النوع بكونه مبيناً من حجارة غير موجهة وبأن سقفه مغلق بشاطيح حجرية بسمك ٢٠ — ٣٥ سم وعرض أقصى ١ م وطـول يتراوح بين ٢ — ٤ م ويدعى هـذا الوع من المدافن بـ :

Corbelled Cyclopaean Construction

عثر على مثل هذا النوع في موقع محبانة على الضفة الجزيرية المقابلة من حوض الفـرات وفي تل برسيب قرب كركميش وفي موقع ماري . محتويات قبر من هـذا

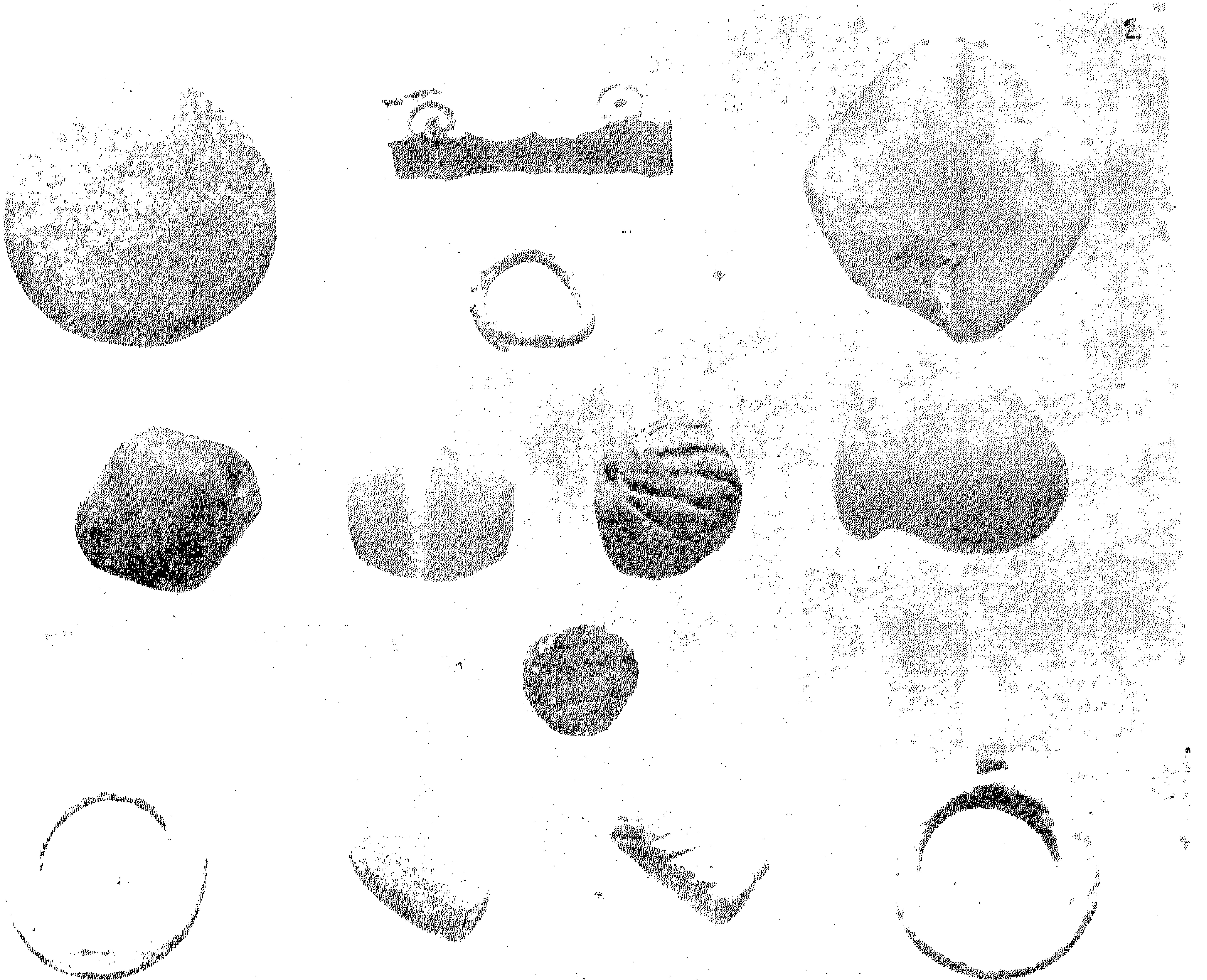
النوع عادة تشتمل على أوان فخارية صقيلة ناعمـــة ورقيقة ، أحياناً تزينها خطوط دائرية بعروض مختلفة منفذة باللون الكستنائي . هذا بالاضافة إلى تمائم فخارية تمثل الآلهة والأشخاص وأصناف متنوعة من الخرز المصنوع من الفريت والكوارتز والعقيق والزفت وتشتمل اللقى على دبابيس مختلفة الأشكال مصنوعة من البرونز وأشـــكال قرنية مصنوعة من الأصداف تنتظم بأشكال عقود ، هذه اللقى جميعها توجد منتشرة بين هياكل الموتى .



إن هذا النموذج الذي أرجعه المختصون إلى عصر البرونز القديم من حيث نمط بنائه كان يستعمل من قبل السكان في العهود اللاحقة ، وقد يستمر استعماله بشكل

متتابع خلال ألف عام أو أكثر ، وهذا ماحدث فعلاً في القبر الذي نتحدث عنه ، والظاهر أنه عندما إنتهى العهد الذي استعمل فيه المدفن أغلق ولكن عوامل الطبيعة من أمطار وتعرية كشفت عنه فاستفاد منه سكان العصر اللاحق نظراً لكونه مبنياً بشكل جيد ومازال به متسع ، فقاموا بتسوية الطبقة السفلية وشرعوا في دفن موتاهم ، وهكذا استفاد منه من أتى بعدهم . ولذلك فان بعض المدافن إذا مادرست طبقاتها فانها تعطي ثبتاً متدرجاً في العهود يفوق بكثير نظيره في العمران لأن طبقات المدفن لايحدث عليها تشويش بينا طبقات العمران في المواقع السكنية ينتابها كثير من الاضطراب بسبب الحفر التي يحدثها سكان الطبقات العليا وبالتالي إختلاط آثار العهود المختلفة .

ويحدث كذلك أن تخلى هذه المدافن إخلاء تاماً من محتوياتها ويستعملها الأحياء كسكن مؤقت فتكون ملجأ للرعيان من المطر والبرد والحر ويمكن الاستفادة منها كمخابىء إذا مادام عدو غاشم المنطقة .



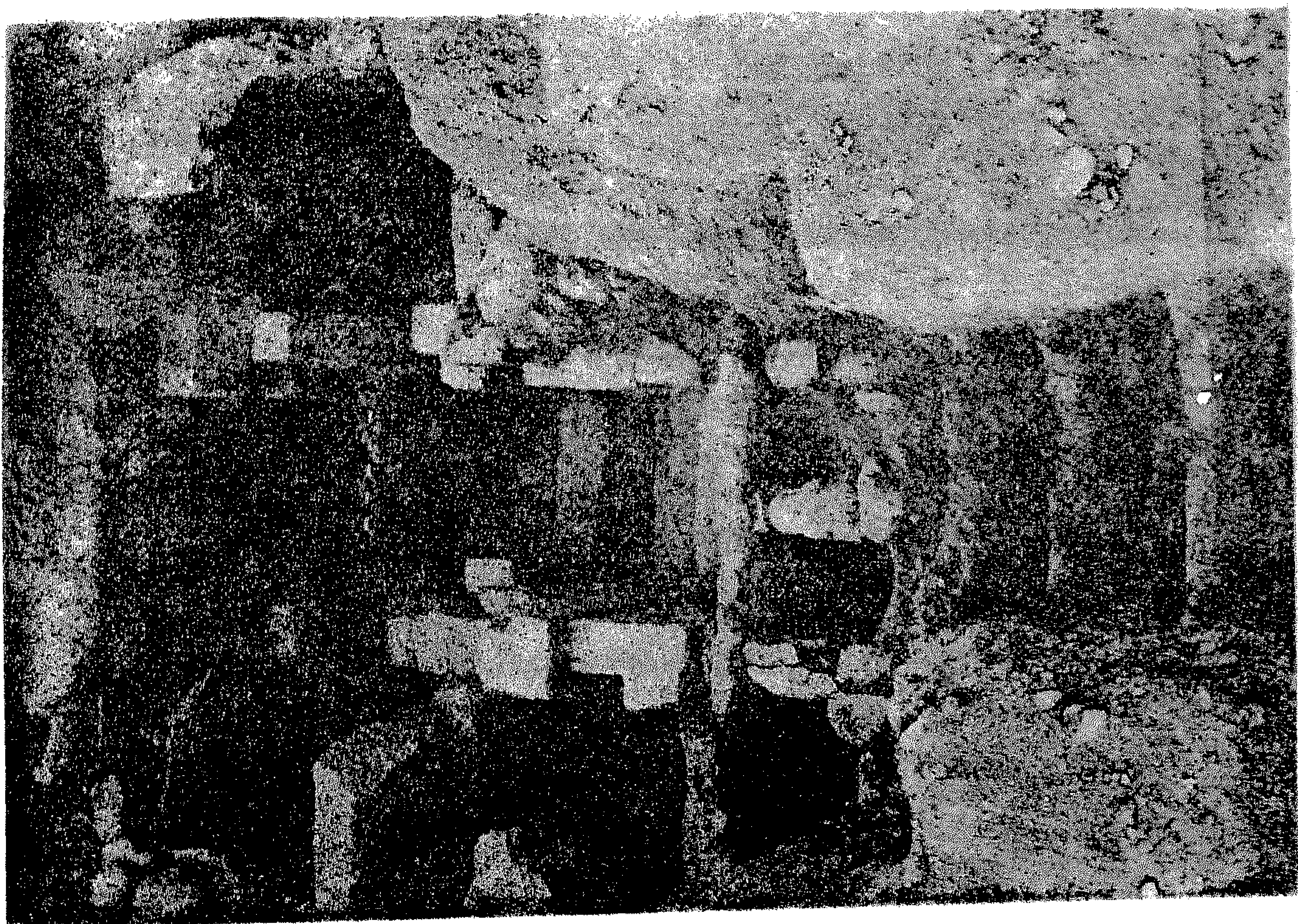
في عصر البرونز الوسيط تراجعت العناية بالمدافن وهزلت نوعية المحتويات ، فأصبح المدفن لايعدو بشكله حفرة يتراوح قطرهما بين ٢ — ٣ م . تارة تحفر في الأرض الصلبة وتارة أخرى تحفر في طبقات الحصى والرمل المتحجرة المترسبة منذ عهود بالية في القدم والتي تعرف علمياً بـ : (Braccia) .



وعثر على نموذج ثان لمدافن عصر البرونز الوسيط يشبه مدخله جحر الحيوان ، ما أن يلج أحد الى الداخل حتى يفاجأ بحفرة كبيرة غير منتظمة تتسع لحوالي العشرين شخصاً قاع أرضها ترابية وسقفها بنفس تركيبة البركسيا السالفة الذكر ، وهذا النوع من المدافن يكون له امتدادات في اتجاهات مختلفة وأحياناً يكون لها أكثر من مدخل ، ولتحاشي خطر سقوط السقف تترك دعامات سيبية تتصل مابين الأرض والسقف .

عثرنا في سفح التل المطل على السهل قبراً من هذا النوع واسعاً جداً وبعد إخلاء محتوياته عثرنا على أدوات صوانيـــة تتمثل بسكاكين وحراب وسهام يمكن إرجاعها إلى العصور الحجرية الحديثة ، وهذا يعني أن الانسان عندما تتاح له فرصة الاستفادة من جهد غيره لايتردد في ذلك . ليس هذا من طبيعة الانسان فقط بل من طبيعة الحيوان لأنه كثير مالتجأ الحيوانات إلى مثل هذه المدافن وتتخـــذ منها سكناً ، فمن ذكرياتنا : ضباع ودئاب وثعالب خرجت من قبور مماثلة في جبل أسيس في صحراء بلاد الشام وأما الزواحف من الثعابين وأسرتها والعقـارب فحدث عن ذلك ولا حرج .

محتوى هذه المدافن شبيه إلى حد بعيد بمحتوى نموذج العصر السابق من حيث الكمية ولكن النوعية متدنية المستوى فنياً . هناك نموذج ثالث هو نموذج عصر البرونز المتأخر ، انه نموذج مدروس بشكل جيد وهـــو مبني بكامله من حجر نحيت وبشكل متقن ويتجه بناؤه شأن نموذج عصـــر البرونز القديم شمالاً — جنوباً . يتكون من درج اعلاه من جهة الشمال ، بالقرب من منتصف الدرج يوجد الى كل من الجانبين باب حجري يؤدي إلى غرفة جانبية . في أسفل الدرج قبل ولوج عتبة المدفن توجد حفرة أعتقد أنها أوجـــدت لاستيعاب مياه الأمطار التي تتسرب عبر الدرج ، حتى لا تتوحل ردهة المدفن الوسطى . تتصل بالردهة الوسطى ثلاث غرف إثنتان جانبيتان صغيرتان وفي الصدر غرفة كبيرة لتودع بها جثث الموتى مع الأواني والأدوات والنذور ، عرف هذا النوع في مواقع أثرية معاصرة مثل الألاخ في شمال سوريا وفوري في العراق ورأس شمرا بالقرب من اللاذقية .



بقي لدينا نموذج أخير من القبور ، إنه القبر البسيط الذي لايعدو بشكله حفرة لايراعى فيها أي أساس سوى أنها تتسع لجثة المتوفى مع أوانيه المختلفة ، وهذا النمـوذج عرف في مختلف عصور البرونز ، ويتم التعرف على عهده فقط بواسطة اللقى التي تتوفر فيه ويتراوح عمقه بين ١ و ١٫٥ م .

نلفت النظر إلى أن سكان عصر البرونز اوسـيط والذين يظن أنهم من الهكسوس قد اتبعوا اسلوباً خاصـاً بالنسبة لدفن الأطفال حيث كانوا يودعونهم في جرار كبيرة يحفر لها في غرف البيت الذي يسكنونه بحيث تساوى فوهة الجرة وأرض الغرفة ثم تغلق بشكل محكم وهذا مايشجع على الاعتقاد بان كل بيت يدفن الجرار الفارغة في أرض الغرفـة احتياطاً لطوارىء الموت وأحياناً إذا كبرت الجثة عن حجم الجرة تحدث لها حفرة في أرض الغرفة وتدفن بها .



هذا النموذج وجد كذلك في رأس شمرا إلى جانب شكل آخر مجسم أكثر يتوضع خلف مدخل البيت مباشرة وهي عبارة عن حفرة في الأرض أحياناً يبلغ مقاسها ٢ × ٣ م وعمقها حوالي ٢ م وتبنى بالحجر النحيت وتتصل بدرج يبدأ من عتبة المدخل الرئيسي ، فان حضر صاحب الدار حياً تجاوز العتبة إلى داخل البيت وإن حضر متوفياً رفعت بلاطة خلف الباب وأنزل إلى مثواه الأخير .

أهمية المدافن من الناحية الاثرية :

للمدافن أهمية قصوى بالنسبة البعثات الاثرية وذلك لأنها تحتوي على مجموعات متنوعة من مصنوعات العصر ، وهذه المجموعات غالباً تكون الأدوات والأواني فيها سليمة كاملة لذا فان اكتشاف المدافن واستخراج محتوياتها يساعد البعثة على معرفة أشكال الأدوات والأواني، وذلك مايساعد على ترميم الكسور التي تعثر عليهافي مربعات التنقيب النظامية . والمألوف بشكل عام أن توجد في الحفريات النظامية الكسور أكثر مما توجد القطع الكاملة . لا شك أن ذلك رهن بالظروف التي أحاقت بالعمران موضوع التنقيب فان كان ذلك العمران مهجوراً فى ظروف سلم فلا يجد المنقب إلاّ ماأهمله السكان بخيارهم وإن كان مهجوراً قسراً فلا يعثر المنقب على نفائس لأن المواطن ينقذ أنفس مالديه وإن كان مخرباً من قبل الأعداء فيتوقع المنقب أن يعثر على أشياء هامة وإن كان التخريب بواسطة زلزال أو كارثة طبيعية فللمنقب حق في أن يتوقع العثور من مايريد. وفي كل الأحوال تقدم المواد المكتشفة في القبور عوناً هاماً في التعريف بالمكتشفات وبأشكالها .

سرقة المدافن :

إن سرقة المدافن أمر معروف منذ أقدم الأزمان ، ويمكن أن نرجعها إلى الزمن الذي إبتدأ فيه الانسان يودع الأشياء الحياتية مع المتوفى وقد سمعنا الكثير عن سرقة الاهرامات المصرية منذ عهود الأسر الأولى ، وكذلك سمعنا عن سرقة المدافن اليونانية والرومانية والتدمرية إذن . يكاد يكون شرطاً من شروط السرقة أن تتوفر في القبور مواداً تغري بذلك ، إذا كان ذلك حدث في القديم حين لم يكن للأشياء إلاّ قيمتها المادية الذاتية فلماذا لايفكر الناس اليوم بسرقة المدافن وقد أصبح لمحتويات القبور بالاضافة إلى القيمة المادية القيمة الأثرية ؟ .

في السنين العشر الاخيرة أصبحت منطقة حوض الفرات عرضة لصيادي الطيور الذين يأتونها من سائر جنبات القطر ومن القطر اللبناني الشقيق وذلك لتوفر أنواع من الطير مغرية مثل الدرغل والطيور البرية والحباري والقطا والدرّيج بالاضافة إلى أنواع مختلفة من العصافير والحيوانات .

وكان بين هؤلاء الصيادين أناس يحملون البنادق ولكنهم بدلاً من أن يرجعوا

بصيد يرجعون بحقائب مليئة بالآثار . هذا بالاضافة إلى أناس يتعاطون عمليات التهريب بشكل أو بآخر ، وكان تردد هؤلاء وتكاثرهم فيما بعد وشدة إغرائهم المواطنين الفقراء السذج من أهل المنطقة يغويهم بترك زراعاتهم وأعمالهم التقليدية والاستعاضة عن ذلك بالبحث عن الآثار ، فكانوا في النهار يقصدون المناطق النائية الوعرة التي لايراهم فيها أحد وفي الليل على ضوء المصابيح يداهمون المناطق الأخرى .

وقد بلغت حمى البحث عن الآثار ذروتها في فترة إرتفاع ماء بحيرة الأسد وتهديدها المناطق المجاورة بالغمر ، إذ لم يبق للمواطن هنا مورد رزق كاف بعد أن قضى الغمر على مناطق الزراعة المروية فهب جميع السكان للعمل (في المتشكة) أي في استخراج الأنتيكا ، وقد شجع على ذلك تغاضي السلطات هناك لأن المناطق المحيطة في البحرة سوف تبتلعها البحرة إن عاجلاً أم آجلاً .

كان الهدف المفضل للصوص هي المقابر الهلنستية الرومانية والبيزنطية ، لأن هذا النوع عادة يحتوي على آثار ذهبية والمواطن البسيط يرى في المادة الذهبية أعلى قيمة يمكن الحصول عليها ، والدليل على ذلك أننا كنا نجد إلى جوانب القبور المسروقة كثير من الأواني الفخارية المحطمة حيث كان اللص يكسر الاناء إما لأنه فخارياً وهو بنظره لاقيمة له أو لأنه يتوقع أن يجد فيه أشياء ثمينة . وقد اتبع نفس الأسلوب في مدافن العهود القديمة فكان اللص يكتفي بالدمي الطينية (الماجات) كما يسمونها في المنطقة وكذلك الخرز ، وما يمكن استخلاصه من موقف اللص أنه يعتني فقط بما يطلبه منه الصياد أو المهرب الذي لايعبأ بطبيعة الأمر بالقطع ذات الحجوم الكبيرة التي تكشف أمره أثناء تنقله ، لذا فان جميع الأواني الفخارية تكسر أو تهمل ويمكن تصور الخسارة الفادحة التي لحقت بالثروة الأثرية لو علمنا أن البعثة الهولندية رممت من قبر واحد حوالي ٢٦٠ قطعة فخارية تحتوي على أكثر من ٩٠ شكلاً مختلفاً .

أساليب اللصوص والادوات التي يستعملونها :

شاهدنا فئة من اللصوص في منطقة جبل خالد — بالقرب من قرية قشلة يوسف باشا — يعملون في نهب مقبرة رومانية ، وعندما شاهدوا سيارتنا تتجه نحوهم تركوا عدة عملهم ولاذوا بالفرار باتجاه الجبل حيث لاتستطيع السيارة اللحاق بهم . قمنا نحن بمصادرة الأدوات وأخذنا نتحرى أسلوبهم في العمل فوجدنا

أن ساحة كبيرة من سطح الأرض المجاورة مغروسة بالشارات المنتصبة التي تشتمل على عصي قصيرة وجذوع النباتات وغير ذلك وكلها موزعـــة تقريباً وفق مسافات متقـــاربة . لم نستطع أن نفهم معنى ذلك في البدء . وبعد مسافة أخرى من الطريق داهمنا رب عائلة يعمل مع عائلته في إخلاء أحد القبور ، فتجاهلنـا في بدء الأمر أن الموضوع يهمنا وتظاهرنا بالفضول وبعد بعض الموادعة والملاطفة بالحديث سألنـاه عن بعض أسرار المهنة ومنها عن الشارات التي شاهدناهـا سابقاً ، قال هذه خبرة أبو عفير وجميع هذه القبور محجوزة له لايستطيع أحد أن يقربها إلا إذ دفع مبلغاً مقدماً ، سألته ماهو أعلى مبلغ يدفع لقبر من هذا النوع ، فقال هذا يتبع مايكتشف في جواره فاذا تبين أن في هذه المنطقة ذهب يصل ثمن القبر حتى ٥٠٠ ل . س وقد حدث أن إشتريت قبور ولم يعثر بها سوى على القطع الفخارية والقطع الزجاجية التي لاتساوي جزءاً يسيراً من المبلغ المدفوع .

سألته هل يضع أبو عفير هذه الشارات بشكل اعتباطي كيفما اتفق فأجاب لا إن أبا عفـــير يعلم الكثير عن أسرار هذه المهنة ولديه فريق يعمل لصـالحه ويتقاضى أفراده أجوراً عالية وعندما ترى فريقه يعمل في مكان فلا بد أن ذلك المكان هام وأن المواد التي ستستخرج منه ذات أهميـة ، لذلك يغرى أحياناً برفع اليد عن المكان مقابل مبلغ معين .

سألته هل تعلم كيف أن أبا عفير يعلم مكان القبور فأجاب : يكفي أن يعثر على قبر في مقبرة فيحفر خندقاً مستديراً حوله على مدى معين فاذا إصطدم بقبر آخر يدرس المسافة بين القبرين ويدرس الزاوية التي يتحتم أن تتوضع القـــبر الثالث في رأسها ، ومن هذا المنطلق يقوم بتغطية المنطقة بالشارات ، وكلما فرغ عمـــاله من من إخلاء قبر ينتقلون إلى موضع شارة جديدة للعمل تحتهـا والفشل على مسؤولية أبي عفير . سألته عن مدى فائدة هذه العملية العفيرية فقال إنها أفضل من البحث الفوضوي لذلك تدفع لأبي عفير فروغات .

في مناطق القبور التي تعود إلى العهـــود القديمة يختلف الأسلوب بحيث يكون كما يلي : يؤخـذ قضيب من الحـديد غليظ ١٦ مم أو أكثر ويسمى مجساً ويغرس في الأرض في المكان المتوقع أن يكون قبراً ويدق القضيب بمطرقة ثقيلة وعنـــدما يغوص القضيب في الأرض إلى مسافة معينة ولا يصطدم بحجر هذا يعني الاخفاق ،

عندها يسحب القضيب وذلك بوضع عصاة غليظة في المقفة التي تصنع في أعلاه ثم تدار ثم يخرج وإذا إرتطم رأس القضيب بحجر يجس المـــكان في عدة مواضع ليعلم مـــدى حجم الحجر فان وجد كبيراً كشف المكان وإن كان صغيراً أهمل ويجري الانتقال الى مكان آخر وهذا لايعني أن كل حجر كبير هو ظهر قبر لأن كثيراً من الصخور الطبيعية تتوزع تحت سطح الأرض .

يحسن هنا أن نشير أن السكان حتى الآن يستعملون الأحجار الكبيرة فوق القبور حتى يحولوا دون إخراج الجثة من قبل الحيوانات الضارية . إن مثل هذه الفكرة ينفذهـا سـكان القرى الذين يبعدون عن مناطق الأحجـــار ولكن باسلوب آخر وهو أن يغطوا أعلى الحفرة الشوك .

أما أدوات اللصوص فانهـا : المجس ، المطرقة ، الكريك الطويل والقصير ، المحفار الطويل والقصير ، المسطرين ، الزنابيل المربوطة بالحبال .

أخيراً لاحظنا أن ركوداً أصاب هذه (المهنة) لأن معظم المناطق المغرية قد غرقت وكذلك فان نسبة كبيرة من السكان إرتحلت إلى منطقـــة الحزام العربي في الجزيرة ، هذا بالاضـافة إلى أن السلطات لم تعد تتساهل لأن الغمر أخـذ مـداه والمنـاطق التي تليه قابـلة للتنقيب الرسمي النظـامي ، لذا فقـــد غابت هـــذه الظاهرة تقريباً .

أقتصر الموضوع على هـذا القدر آملاً أن أتابعه في مناسبة مقبلة لاتحدث عن البعثات الأثرية وعن طبيعة عملها ومن ثم عن التل الأعلى موضع العمران .

حمص والقضية الفلسطينية

بين الذاكرة والنصوص

في سنتي ١٩١٩ و ١٩٢٠ كنا طلاباً في القسم الابتدائي من المدرسة الحسينية السلطانية (التي تطور اسمها حتى أصبح اليوم « ثانوية عبد الحميد الزهراوي ») وكان مقرها (في المصلحة) البناء العسكري القديم الذي تشغل طابقه الأرضي اليوم المؤسسة الاجتماعية العسكرية ، وكانت الحديقة الواسعة — التي تشغلها اليوم أبنية نادي الضباط — تابعة له ، وفيها كنا نقضي الفرص بين الدروس ، فنفيء إلى ظلال أشجارها ، ونتجمع في أحضان ورودها ننشد الأناشيد الوطنية ، ونهتف بالشعارات القومية ، مضطرمين حماسة ، شامخي الأنوف عزة ، فنحن في ظل الاستقلال . ومن هذا المكان خرجنا ذات صباح ، نشارك البلد فرحه وابتهاجه باستقبال جلالة الملك فيصل بن الحسين بعد أيام قليلة من تتويجه ملكاً دستورياً على سورية بحدودها التاريخية — من رفح إلى جبال طوروس .

وكان من المتبع ، إذذاك ، أن ينتظم الطلاب ، عند الانصراف ، في فرق بحسب أحيائهم أو شوارعهم ، ويرافق كل فرقة معلم يشرف على نظامها حتى تبلغ حيّها أو شارعها .

وذات يوم ـ ويجب أن يكون خميساً فقد كان الانصراف ظهراً ـ كان يشرف على فرقتنا الأستاذ المرحوم محمد الخالد الشلبي ، وهو معلم الموسيقى ومدرب فرقة النشيد في المدرسة ، وكان معروفاً بنشاطه الأدبي والفني والاجتماعي والسياسي .

ولما بلغنا دار الحكومة (في بنائها القديم) ألفينا في الجهة الشرقية منها (مكان فندق الخيام اليوم) جمهرة من الناس يصغون إلى خطبة شاب إعتلى إفريز دار الحكومة ، وهو يتقد حماسة ويتدفق بالخطابة بصوت جهوري ، فمال الشيخ نحوه وتبعناه حتى بلغنا الجمهور وإختلطنا به ، وإذا الخطيب هو المرحوم عبد الرزاق

الرستم الدندشي (مؤسس عصبة العمل القومي فيما بعد) ، وكان ساعة وصولنا يقول : « اليهود . . . اليهود الذين لم يدعوا فاحشة إلاّ إرتكبوها لاغتصاب بلادنا . . . أترضون بالذل ؟ ؟ » ، وإذا بالشيخ ، عليه الرحمة ، يلوح بعصاً كان يتوكأ عليها ويصرخ بملء صوته : « كلاّ ! » وينفعل الجمهور ويردد : كلاّ كلاّ ، ويضيف الخطيب : « أترضون بالعار . . ؟ ؟ » ويدوّي الجواب كلاّ كلاّ . . . وترتفع قضبان كانت بأيدي بعضهم ،وتلوّح سواعد العزل متساوقة مع عصا الشيخ ، و « كلاّ كلاّ » تدوّي في الفضاء ، ويلتفت الشيخ إلى تلاميذه مشيراً بيده :

نحن خواضو غمار الموت . . .

وتنطلق حناجر التلاميذ بالنشيد فاذا هي مظاهرة صارخة ويقفز الخطيب فيقودها إلى أمام دار الحكومة ، ويندفع ليظهر على شرفتها ويستأنف خطاباً جديداً ، والتلاميذ بقيادة معلمهم الشيخ ، ينشدون الأناشيد الحماسية ، والناس من حولهم — وقد تكاثر جمعهم بمن إنضم إليهم من المواطنين والطلاب والمعلمين — يطلقون الهتافات : الموت لليهود ، أرواحنا فداء للصخرة والبراق . . . حتى أطل من الشرفة شخص يلبس نظارات ملوّنة ، وألقي كلمة شكر فيها الجماهير على حماستهم وصدق وطنيتهم، وطمأنهم إلى أن الحكومة يقظة ، ولن تمكن اليهود من إغتصاب حجر واحد من فلسطين . وتفرق الناس ، وكانت أول مظاهرة يشهدها جيلنا في حمص ، بل لعلها أول تظاهرة عرفها البلد خارج نطاق (العراضات) .

ونأوي إلى بيوتنا نحدثُ أهلنا حديث (الهوشة) ونتساءل عن الصخرة والبراق اللذين كان الناس يفدونهما بالأرواح ، ماهما وما شأنهما ؟ فيقصون علينا حديث الاسراء بالرسول العربي عليه الصلاة والسلام (من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى) والعروج به من هناك إلى السماء ، يحدثوننا عن مكان الصخرة وحائط البراق في هذا الحادث التاريخي المقدس . ثم نسأل عن اليهود ، من هم وما قصتهم ؟؟ فنعرف أنهم قوم كفار ، عبدوا العجل وقتلوا الأنبياء ، فغضب الله عليهم ولعنهم ومسخ طائفة منهم قردة وخنازير ، وشتت سائرهم في جميع أرجاء الدنيا ، فأصبحوا منبوذين مكروهين ، لا يألفون ولايؤلفون ، وباتت حياتهم كلها تقوم على الكيد والدس والعداوة لكل البشر ، حتى ليدفعهم غدرهم وحقدهم على كل من ليس من دينهم الى اختطاف أطفالهم ، واستصفاء دمائهم بطرق وحشية شنيعة ، ليعجنوا بها عجينة يصنعون منها (فطاير) في بعض أعيادهم .

نسمع هذا فتمتلىء نفوسنا بغضاً وكراهية لهؤلاء الوحوش ، ثم نسأل عن علاقتهم بالصخرة والبراق ، فلا نحظى بجواب واضح ، ولكننا نجد بعض هذا الجواب في اليوم التالي عند معلمينا ، وعند بعض طلاب الصفوف المتقدمة في المدرسة فيكون ذلك أول عهدنا بقضية فلسطين ، وبدء اطلاعنا على الحركة الصهيونية .

ويبدو أن شباب حمص العاملين في الحقل الوطني إذ ذاك ، في ظل (النادي العربي) كانوا موفقين جداً في الخطة التي رسموها لتوعية الجماهير الشعبية وتعريفها بقضية فلسطين والعدوان اليهودي ، على قلة وسائل الدعاية والاعلام المتاحة لهم ، فلا صحافة في البلد ولم تكن الدنيا تعرف المذياع أو التلفاز ، ولكنهم فطنوا الى مكانة خيال الظل (الكركوزاتي) بين تلك الجماهير فاستفادوا منه أيما استفادة ، إذ دفعوا الى المخايل (أبو الخير البخاش) (بابة) ـ فصلاً ـ وضعوها حول يهودي قذر ماكر سموه (شمويل) تسلل الى بيت عربي آمن ، وأحس به صاحب البيت ، وتصدى له فراح يتصاغر ويتذلل ويدعي أنه ماجاء إلا ليساعده في أعماله الكثيرة : حراثة الأرض ورعاية الماشية والعناية بالدواجن ... ولكن صاحب البيت لايخدع بأقواله فيطرده ، ويهم بأن يعود إلى بيته ، فيغتنم الخبيث الفرصة ، وينتضي خنجراً يحاول أن يغمده في ظهره ، لولا يد صلبة تشد على معصه فتطيح خنجره ، ويلتفت صاحب الدار فاذا جيرته وأبناء عمومته قد استيقظوا وهبوا لنجدته ، فيسرع الى الخنجر يلتقطه من الأرض ويغرسه في قلب الغادر ، فاذا هو جيفة يتخبط بدمه .

ويدوي المقهى بالتصفيق وتتعالى الهتافات : « يعمر دينك » « تسلم إيدك » ... « صرميلو » [1] ... « شقفوا » [1] ...

وأعيد عرض (البابة) عدة ليال وكانت حديث الأوساط الشعبية لمدة طويلة ومن خلال شرح أحداثها وفك رموزها وقفت هذه الأوساط على المؤامرة اليهودية الصهيونية ، وأصبحت تتابع أحداث فلسطين وتنفعل بها وتتجاوب معها .

هذه الظاهرة و (البابة) التي تلتها لاتحتفظ الذاكرة بتاريخ محدد لهما سوى أنهما كانتا في العهد الفيصلي . ولكني أستأنس بالنصوص التاريخية فأقرر أنها كانتا في شهر نيسان عام ١٩٢٠ تجاوباً مع الانتفاضة الأولى في فلسطين نفسها .

ذلك أن وعد بلفور الذي أعطي لليهود في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ لم يتبلغه عرب فلسطين رسمياً إلا في ٢٠ شباط ، فقابلوه بالاحتجاجات الصارخة ، وفي أوائل نيسان

(١) صرميلو ـ اضربه بالصرماية ـ النعل ـ احتقاراً له . شقفو ـ مزقه

١٩٢٠ ، وأثناء احتفالهم في القدس بعيد النبي موسى (وهو يكاد يشبه خميس المشايخ بحمص وبزامنه) اصطدموا باليهود واشتبكوا معهم بمعركة قتلوا فيها عدداً منهم وجرحوا كثيرين ، فهب الجيش البريطاني لصيانة الأمن وحفظ النظام !! ... وشكلت محاكم عسكرية حكمت على زعماء العرب بالسجن مدداً متفاوتة . فكان لهذه الحوادث صداها في المدن السورية ، فتظاهرت واحتجت . وكانت مظاهرة حمص هذه ثم تلتها (بابة الكركوزاتي) . وبذلك تبدأ حمص مسيرتها مع القضية الفلسطينية من أول خطوة فيها .

وتمر العشرينات ليس فيها مايذكر . ففي فلسطين نفسها يعمد الانكليز إلى مخادعة الشعب العربي وإلهائه بلجان التحقيق والمفاوضات والمؤتمرات ، وإصدار البيانات على شكل كتب بيضاء ... وسوداء ... حتى يخدروا أعصابه ويخمدوا جذوة حماسته ، ويتيحوا لليهود فرصة من الزمن يرتبون فيها شؤونهم ويؤلفون عصاباتهم .

وفي سورية يطغى الاستعمار فينهار العرش وتغرق البلاد في جحيم الثورات ضد الافرنسيين .

وفي العراق ملك يشاد ومعاهدة تبحث فتشق البلاد فئات وأحزاباً .

وفي الجزيرة العربية حرب تثار بين السعوديين والهاشميين تنتهي بانهيار العرش الهاشمي ونفي صاحبه الحسين بن علي إلى قبرص وتكون قضية فلسطين نفسها واحداً من أسباب ذلك .

وفي اليمن سحب كثيفة من دخان مجالس (القات) تحجب عن عيون رجال (الامام) الحشود النجدية التي احتلت (عسير) وأصبحت تدق أبواب مملكتهم (المتوكلية) .

ولا تسل عن مغرب الوطن العربي ولا عن مشرقه فثمة تنيخ كلا كل الاستعمار .

وهكذا نرى كيف يتضافر البغي فيحيل دنيا العرب إلى مثل يوم الحشر . . لكل بلد فيه شأن يغنيه .

وما كان لحمص أن تنجو من غمرات هذا الخضم الزاخر ، خصوصاً وإن الثورة السورية الكبرى ٩٢٥ — ٩٢٧ قد ظلت قائمة فيها قرابة سنتين بعد إنتهائها في شتى الميادين .

ويأتي العـــام ١٩٢٩ حاملاً مثقلاً ، ويتمخض عن قضية حائط البراق وهـو الجدار الغربي للمسجد الأقصى ، وهو نفسه (مبكى) اليهود . . . وإذن فهو تراثهم المقدس ولا بدّ لهم من الاستيلاء عليه ! . . . وكيف وهو جزء من المسجد الأقصى ، بل هو أحد أركانه ؟ ؟ ؟ ! . .

ويشهد شهر آب من تلك السنة معارك دامية بين العرب واليهود ، فقد صحا عرب فلسطين من خدرهم ، وأفاق العالم العربي من رقاده ، وبدأ عهد نضال واسع ، دموي في فلسطين ، سياسي في سائر الأقطار العربية . ويتنبه العاملون فيه إلى مدّ آفاقه حتى يشمل العالم الاسلامي ، فيدعون إلى مؤتمر إسلامي عام . ويعقـد المؤتمر في المسجد الأقصى ليـلة السابع والعشرين من رجب ١٣٥٠ (ليلة ذكرى الاسراء والمعراج) الموافق للسابع من كانون الأول ١٩٣١ . وتشترك حمـــص فيـه بوفد يؤسفني أني لا أذكر من أعضائه غـــير المرحوم يحيى خانـــكان ، ومنه استقيت معلوماتي عنه .

ثم يدعو الشباب العربي الفلسطيني إلى مـؤتمر للشباب عقد في مدينة يافا أوائل كانون الأول من العـام ١٩٣٢ ولعلّ حمص اشتركت فيه . وأقول (لعلّ) لأن هذه المؤتمرات قد تعددت فذكرياتي متشابكة متداخلة أخشى خداعها فيما لاأملك عليه دليلاً قاطعاً .

ثم يقام في القدس معرض صناعي تجاري أواخر العـام ١٩٣٣ وتشترك حمص فيه ممثلة بغرفتها التجـارية ، ويـكون جناحها من أبرز الأجنحة وألمعها ، وتغـــدو قاعته ملتقى العديد من رجالات فلسطين وغيرها من سائر الأقطار العربية .

ولا تقل لي : ذاك معرض صناعة وإقتصاد فما هو والعمل السياسيّ النضاليّ ؟ ؟ فأنت عليم أن كل المؤسسات والتنظيمات الوطنية في عهود المقاومة إنما هي حجب وستائر للعمل السياسي النضالي ، كما أنها وسيلة لبث الأفكار وتمازج الآراء وتوحيد الصفوف ورصّهـا . تستوي في ذلك المؤسسات الاقتصادية والمنتـــديات الأدبية والثقافية ، والتنظيمات الفنية والرياضية والاجتماعيّة والنقابية . . . ومعرض القدس هذا لم يقم إلا لهدف سياسيّ نضـاليّ ، وبحسبك أن تعرف أن مديره العام كان المرحوم نبيه العظمة رئيس لجنة الدفاع عن فلسطين في دمشق .

وتستمر الحال تأييداً لفلسطين بالاضرابات والمظاهرات والاحتجاجات ، والمشاركة

في المؤتمرات والندوات حتى تنفجر الثورة الكبرى في فلسطين ١٩٣٦ — ١٩٣٩ .

وعلى الرغم من أننا — في سورية — كنا في سنتها الأولى نخوض معركة ضارية مع الافرنسيين بدأت بالاضراب الستيني في شباط وآذار ١٩٣٦ وظن أنها إنتهت بمعاهدة إيلول من السنة نفسها ، وأننا كنا في السنوات التالية ٩٣٧ — ٩٣٩ في معركة أشد ضراوة من أجل لواء اسكندرونة . . . فان ذلك لم يشغل البلد عن واجبه نحو فلسطين: تظاهراً واحتجاجاً وبذلاً سخياً للأموال . . . وإشتراكاً فعلياً بالقتال ، فقد التحقت كوكبة من شباب حمص بتلك الثورة ، ولا سيما حين هب لنجدتها القائدان فوزي القاوقجي وسعيد العاص . وما يزال بعض العارفين يذكرون أسماء بعض من هؤلاء الشباب : نيازي ختن وخالد النجار وأمين زيني ويحيى الجندلي وزهري الدروبي وشباب من آل النفري . . . الخ . وقد جرح في إحدى المعارك الشاب نيازي ختن فحمله رفاقه إلى حمص حيث عولجت جراحه وشفي منها وكتبت لهم السلامة جميعاً .

وفي أواخر تلك الثورة ٩٣٨ و ٩٣٩ كانت حمص ملجأ لبعض مجاهديها الفلسطينيين الفارين من أحكام الاعدام الانكليزية ، والملاحقين من قبل السلطات الفرنسية عندنا — تلبية لارادة الانكليز ووفاءً بما كانوا أسلفوها يوم قبضوا على الزعيم ابراهيم هنانو وغيره من المجاهدين السوريين في فلسطين نفسها وسلموها إياهم — وقد وجد بعض هؤلاء اللاجئين الأمن والحماية ، وعثر الحظ ببعض فاعتقلوا وسُلموا للانكليز .

وما أنس لا أنس واحداً منهم ، شاب في مقتبل العمر ، كله نخوة وعزيمة ونشاط أدخل الميتم الاسلامي كمراقب داخلي — حماية له — وأطلق عليه اسم (علي) إخفاءً لاسمه الحقيقي ، وأوصي بأن لايبرح بناء الميتم فهو حرم مقدس لايجرؤ الفرنسيون على انتهاكه . ولكن الذين تخونهم الجراءة يواتيهم الكيد وتسعفهم الحيلة ، فقد استطاع اثنان من شرطة الأمن العام الفرنسي الاحتيال عليه واستدراجه من داخل الميتم الى عرض الطريق ، وثمة اعتقلاه وأوثقا يديه قيداً ومضيا به في طريق الشام ، باتجاه الثكنة العسكرية . ولكنه إستطاع أن يفلت منهما في أثناء الطريق ، والقيد في يده ، وأن ينجوا بنفسه حتى يبلغ البساتين الغربية ، فيتلقاه بستاني بالعطف والرعاية ، ويدق قيده حتى يحطمه ، ويؤمن له مخبأً يحجبه عن الأنظار ، ويدلف إلى البلد لينقل نبأه إلى زعيم حيه المرحوم محمود السبيتي ، وكأنه لايمثر عليه فيلقي بالنبأ الى ولده اليافع

(جميل) ، فينطلق هذا الى البستان مع نفر من شباب حيّه ، ويعودون بالشاب المجاهد الى مكان أمين أعدوه له في حيهم (باب السباع) ، فيلبث فيه حتى تواتيه فرصة الخروج من حمص سالماً معافى .

وتندلع الحرب العالمية الثانية أول ايلول ١٩٣٩ فتتوقف الثورة العربية ، وقد أحرزت بعض المكاسب بحملها بريطانيا على تقدير قوة الحق العربي ، ولو جزئياً ، وإرغامها على الرجوع عن قرار تقسيم فلسطين الذي كانت اعتمدته بناءً على توصية إحدى لجان التحقيق التي أوفدتها في أوائل الثورة . ولكن الكيد اليهودي لم يتوقف ويخرج العالم كله من تلك الحرب منهوك القوى مضعضع الأركان إلا اليهود ، فقد خرجوا منها بالعصابات الارهابية (الهاغانا) و (شتيرن) واضرابها ، وبفرقة كاملة من الجيش المنظم كانوا ألفوها تحت جناح جيوش الحلفاء ، وبنصير جديد لباطلهم هو الولايات المتحدة التي استطاعوا ، هم وبريطانيا نفسها ، أن يجعلوها طرفاً رسمياً ورئيسياً في القضية ، وهي لم تكن من قبل كذلك ، وأن يحصلوا منها (من رئيسها روزفلت بالذات) على وعود قاطعة باقامة (دولة إسرائيل) في فلسطين .

ويراع العرب لذلك ويضطربون ، فيهبون لجمع شملهم ولمّ شتاتهم ، ولكن الأحداث لاتمهلهم ، فما ينقضي العام ١٩٤٧ حتى تكون الولات المتحدة قد حملت منظمة الأمم المتحدة على اتخاذ قرار بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود ، ذلك المشروع الذي كانت بريطانيا قد نبذته قبل عشر سنوات تحت ضغط الثورة العربية . فلا يبقى أمام العرب خيار ، وماهي إلا الحرب (حرب الانقاذ) .

وإذا كان حديثنا هذا مقصوراً على دور حمص وحدها في القضية الفلسطينية فان حمص جزء من قطر هو نفسه جزء من الوطن العربي الكبير ، ولن نستطيع فهم أحداثها إلا إذا ألممنا بالجو العام في القطر السوري ثم في الوطن العربي ، بقدر مايمس هذا الجو مدينة حمص ويتعلق بالقضية الفلسطينية .

منذ العام ١٩٢٨ أخذ العمل السياسي ، بل قل العمل الوطني ، في سورية يميل الى نوع من التنظيم ، بتأسيس هيئات تتحمل أعباء العمل السياسي وتوعية الجماهير وقيادتها في طريق النضال .

ففي ذلك العام أسست الكتلة الوطنية ، وفي العام ١٩٣٣ أنشئت عصبة العمل القومي ، وفي العام ١٩٣٥ شكلت جمعيات تحمل إسم (شباب محمّد) أو (الشباب المسلمون) التي انتهت بعد ذلك إلى تنظيم (جماعة الاخوان المسلمين) ، وفي العام ١٩٣٧ ظهر الحزب الشيوعي علناً وكان من قبل خلايا سرّية

وفي هذه الفترة ظهر الحزب القومي السوري في لبنان ولا أحقق تاريخ تسربه إلى سورية فحمص ، وفي العام ١٩٤٠ تكونت نواة حزب البعث العربي . وكانت الأهداف العليا لكل هذه الهيئات واحدة ومتفقة ، وهي تحرير الوطن العربي من الاستعمار بكل أشكاله وتوحيده وبناء نهضته . والاختلاف بينها ينصب على نظرة كل منها إلى هذه الأهداف وعلى الأسلوب الذي تتبعه لتحقيقها .

وحمص – بلدي الحبيب – خصب التربة ، غني بالعقول النيّرة والهمم المتوفرة . فما من صيحة إلاّ ويرتد صداها الأول من أفقه ، بل لعل بعض الصيحات تصدر من أفقه أولاً ، أو هي تجد في هذا الأفق المكان الأمثل لتنطلق منه . وعلى ذلك فقد كان يضم فروعاً ناشطة لهذه الهيئات كلها ، ومن ثم كانت سوق العمل الوطني فيه قائمة على قدم وساق ، وميدان التنافس بين تلك الهيئات رحب الساحات بعيد الآفاق ، والتسابق إلى كسب ثقة الجماهير الشعبية متعدد السبل متنوع الوسائل . وكان للمهرجانات الشعبية والحفلات الخطابية في شتى المناسبات – مايعرض منها عفواً وما يصطنع إصطناعاً – مكانها الأول بين تلك الوسائل . وكانت قضية فلسطين لاتكاد تنفك عن القضية السورية في كل تلك التظاهرات ، بل هي استأثرت بها وكاد يكون لها الميدان كله منذ أواسط الأربعينات ، مما أدى إلى زيادة وعي الشعب لها . وقد تحدثت آنفاً عن موقف حمص منها خلال ثورة ٩٣٦ – ٩٣٩ وقبلها ، ونحن الآن في أواخر العام ١٩٤٧ مع فكرة (حرب الانقاذ) .

من يتولى إدارة هذه الحرب ؟ أجامعة الدول العربية وكان عمرها لايزيد على سنتين ؟ وقد جربها عرب فلسطين في سنتي ٩٤٦ و ٩٤٧ حين طرحت القضية على منظمة الأمم المتحدة فلم يحمدوا غبّ التجربة . ثم هي إلى ذلك تتألف من دول أعضاء في منظمة الأمم المتحدة لاتستطيع أن تدفع جيوشها إلى بلد مازال الانتداب البريطاني عليه قائماً ولن ينتهي قبل منتصف أيار ١٩٤٨ .

إذن فلتكن الحرب شعبية تساندها الدول العربية وتمدها بالمال والسلاح والعتاد ، وبالضباط يستقيلون من وظائفهم وينضمون إليها قادة مدرّبين ، حتى يحين موعد إنسحاب بريطانيا من فلسطين فتبادر الجيوش العربية النظامية إلى أداء واجبها في نصرة العرب وإنقاذهم من عدوان اليهود الصهيونيين .

وإنثالت على فلسطين كتائب المتطوعين من شتى الأقطار العربية وفي طليعتها

سورية . وما أنتحل لها صفة الطليعة هـذه انتحالاً ، وإنما هي الحقيقة التي لاجدال فيها .

فاذا هبّت كلّ الأقطار العربية لتنجد فلسطين على اعتبار أنها قطر شقيق ، وأن الدفاع عنها واجب قومي ، فانّ سوريّة تهب لتنقذ جزءاً منها ولتجبر كسراً أصابها في جناحها ، ثم لتدفع عن نفسها بالذات مايخبئه لها الغدر اليهودي وأهداف التوسع الصهيوني . فقد أتيح للشعب العربي فيها خلال السنوات الماضية ، وبخاصة في أثناء الحرب العالمية الثانية ، أن يطلع على بعض الوثائق الرسمّية التي تشتمل على المخطط اليهودي التوسمي ، ولعلّ أجمعها وأوجزها ، فيما يتعلق بسورية (ومنها لبنان وشرق الأردن) ماجاء في كتاب وضع نصّه اليهود أنفسهم وحملوا رئيس الولايات المتحدة ويلسون « صاحب البنود الأربعة عشر وفي مقدمتها إلغاء الاستعمار وحق كلّ الشعوب في الحرية والاستقلال وتقرير مصائرها بأنفسها » على توقيعه . وهو يشتمل على مايلي :

« إن حققت مطاليب الفرنسيين المستندة إلى معاهدة (سايكس — بيكو) السريّة ، كان تحقيقها ضربة قاضية على الوطن القومي ، تنافي طبيعة أرضه الجغرافية وتهمل حاجاته الاقتصادية . إن نجاح القضيّة الصهيونيّة يتوقف على توسيع الحدود في الشمال والشرق إلى أن تشمل نهر الليطاني ومنابع المياه في الحرمون ، أي سهلي حوران وجولان . إن لم يكن وعد بلفور — الذي وافقت عليه فرنسة وسائر الدول الحليفة — قصاصة من الورق ، فيجب أن تتخذ التدابير اللازمة لتحقيقه » .

والكتاب هذا أرسل رسمياً إلى بريطانيا في أواخر العام ١٩١٩ أو أوائل العام ١٩٢٠ . فقبلت مضمونه ـ بل هي كانت ضالعة في وضعه ـ ودعمته بكل ماتملك من جهد وحيلة ، ولكنّ (مصلحة) الفرنسيين حملتهم على إتخاذ موقف عنيد ومتصلّب في عدم التنازل عن أي جزء من تلك المناطق . فأخفقت الخطة .

إذن فعرب سورية كانوا يعتبرون النضال من أجل فلسطين واجباً (قطرياً) وإمتداداً لنضالهم الذي توّج بإجلاء الفرنسيين عام ١٩٤٦ ، بالاضافة إلى كونه واجباً قومياً ، فكان إندفاعهم في سبيله أقوى وأشدّ من إندفاع سائر الأقطار العربية ، وتدفق متطوعوهم للانتظام في كتائب (جيش الانقاذ) فرادى وجماعات .

ولو رأيت حمص في تلك الفـــترة لرأيت البلد ، كما عرفته ، سباقاً إلى تلبية نداء الواجب ، موحّد الصفّ ، على تعدد الهيئات والأحزاب فيه ، تمثله لجنة عامة موحدة ألفت من شبابه المثقفين ورجاله العاملين وفتيانه الميـامـين ، برئاسة المرحوم الأستاذ عبد الحميد الحراكي ، مهمتها جمع الأموال لتأمـين السلاح والعتاد لمن عزموا الجهاد بأنفسهم وقصرت أيديهم عن التجهز له ، ثم تنظـيم عملية التطوع وإيصـال المتطوعين إلى معسكر (قطنا) ليوزعوا منه على شتى المناطق في فلسطين .

ولو أشرفت على شوارعه الرئيسية وساحاته العامـــة ، لراعتك غضبة الشعب الأبيّ الطيّب ، ولهالتك ثورته الجارفة الكاسحة ، ولألفيت البلد على بكرة أبيه بين كميّ يتطاير الشرر حارقاً من عينيه ، وتقيّ تنطلق الدعوات صادقة من شفتيه ، وهاتف بشعارات الحرب ، وداع إلى الاقدام والصبر عنـــد اللقاء . وليس أروع ولا أبدع عند الوداع من مرآى إمرأة (بـلدية) تلفها ملاءتها الزرقاء تحتضن إبنها المدجج بالسلاح بين ذراعيها ، وتطبع على جبينه قبلة الرجولة ، وتأخذ وجهـــه بين راحتيهـا « رح يا إبني أودعتك عند الذي لاتضيع عنده الودائع ، الله ينصركم ويسلمكم » وتزغرد كأنها تزف عريساً ، فتجـاوبها زغاريد النساء وزمجرات الرجال وأهازيج الأطفال ، وتضجّ الساحة بالتصفيق ، وتعجّ الخـــلائق بدعوات النصر والسلامة والتوفق .

وتمضي الكتائب ، وتتوالى الأنبـاء ، سارّة حيناً ، موجعة حيناً ، مشرّقة في كل الأحوال ، حتى بنتصف أيار فتزحف الجيوش العربية : سبعة في المدّ ، وإثنين في الشدّ ، يتقدمان من شمال وجنوب حتى ليوشكا أن يتعانقا في (تل أبيب) ، وتوشك القدم العربية أن تتمكن من عنق (شمويل) لولا سرعة النجدة ، وكانت له هذه المرة ؛ فقد قيل : « هدنة أربعة أسابيع حتى تتمكن (المساعي الحميدة ! !) من حقن الدماء وإجتثات جذور العداوة والبغضاء » .

وليس في النـاس من يجهل نتيجة تلك المساعي (الحميدة جداً) التي رجّحت كفة اليهود عند إستئناف القتال ، وأرغمت الدول العربية على الرضوخ لقرار الهدنة الدائمة والتوقف عن القتال ، واقتلعت مليون عربيّ فلسطينيّ من أرضهم وألقت بهم لاجئين في الأقطار العربية المجاورة .

وإذا كان التاريخ إنما يسجّل ويقرأ للعظة والاعتبار ، فان أبلغ عظة كانت لي من قضية اللاجئين ، ماسمعته من بعـــض ضيوف حمص منهم ، إذ ذاك ، وهو

أنّ إحدى الجهات العربية ، التي كانت ترفع شعار حماية الفلسطينيين والدفاع عنهم ، كانت تغريهم بالنزوح عن أرضهم ، وتحضهم عليه ، وتيسّر لهم سبله ، مقنعة إياهم بأنه لن يطول أمده ، فان مجلس الأمن سيبتّ الأمر في شهر أوشهرين ولو على أساس قرار التقسيم في أسوأ الأحوال ، فيعودون إلى ديارهم سالمين . وكانت خدعة لاتفوقها خدع اليهود أتخذت سبيلاً لبلوغ غايات وإرضاء شهوات .

وكان دخول الجيوش العربية إلى فلسطين إيذاناً بانتهاء الحرب الشعبية ، فانضمّ بعض المتطوعين السوريين إلى صفوف جيشهم ، وعاد سائرهم إلى مدنهم ، وراحت كل مدينة تتفقّد أبناءها وتحصي شهداءها . وكان لحمص صفحة مشرقة في سجل الخالدين زينتها بأسماء عشرات من الشهداء الأبرار ، تحتفظ الذاكرة بأسماء بعضهم ممن كانت تجمعني بهم صلات خاصة أو علاقة تربية : الضابطين الباسلين فتحي الأتاسي ومارسيل كرامه ، والفتى المرح روحي عادل الأتاسي ، والزهرتين الناضرتين إبني اليتم الاسلامي عبد الجواد مراد ومحمد القباني .

وبانتهاء هذه الرحلة ، ينتهي الحديث عن مواقف المدن فرادى في ميادين النضال من أجل فلسطين ، ويندمج في الحديث عن الحكومات ، وهو ليس من غرض كلمتي هذه . أفتراني قمت ببعض واجبي نحو بلدي حمص فسجلت كلّ ماوعته الذاكرة وما استقيته من بعض الأخوة المعاصرين للأحداث التي تصله بقضية فلسطين ؟ قد يكون ذلك ! إلا حديث (الكلمة) خلال تلك الأحداث . حديثها منظومة تنشد في الحفلات ، ومنثورة تنشر في الصحف والمجلات ، ومسموعة تنطلق من المسارح في مشاهد وتمثيليات . وإنها لجديرة بحديث خاص ودراسة مستقلة يقوم بها من لاتعقل لسانه عقدة (ضمير المتكلم) ، فسيجد فيها إرهاصات للنضال المسلح والعمل الفدائي وتحذيرات صريحة مما حدث في نكبتي ١٩٤٨ و ١٩٦٧ ، ونداءات صارخة للوحدة ودعوة واضحة إلى شهر سلاح البترول اللذين كانا عماد المعركة الظافرة سنة ١٩٧٣ .

ولو أتيح لهذه الدراسة من ينهض بها لتمت الصورة وبدا موقف حمص من القضية الفلسطينية واضحاً جلياً من جوانبه كلها ، أو قريباً جداً من الوضوح والجلاء .

حمص — رضا صافي

ملاحظات حول أهمية العلوم الانسانية كعلم الآثار والانثربولوجيا وعلم اللغات المقارن وعلم الاديان المقارن بالنسبة لعلم التاريخ

ماجد الموصلي

القسم (١)

مقدمـــة

أردفت فلسفة القرن التاسع عشر اللغات الأوربية بمصطلحات جديدة كمصطلح وحدة العلوم أو مصطلح علم العلوم أو مصطلح اجتماعية العلوم(١)وما كانت هذه المصطلحات الجديدة إلا تلمساً محسوساً ومشكوكاً في صحته وخاصة بالنسبة للعلاقات بين مختلف العلوم وإمكانية إفادة بعضها البعض ، إلا أن تنبؤ الفلاسفة ذلك كان قد بدأ يتحقق منذ بداية القرن العشرين وبدأ التأكيد يزداد عليه يوماً بعد يوم . وما يمكن ملاحظته اليوم هو التطور الهائل للعلوم وبشكل لم تعرفه الانسانية من قبل ، فالمعرفة البشرية تتضاعف باستمرار خـــلال فترات زمنية تقصر بدورها بشكل مضطرد ، كذلك فان التخصص والاندماج ينيران النظام التقليدي للعلوم ويحرضان على نشوء علوم جديدة كما نشأ علم الكيبرنيتيك (٢) الذي يوحد معرفتنا وينقلها إلى مستوى عال من التجريد وكما نشأ علم الباليونتولوجيا (٣) الذي بدأ يزودنا بمعلومات علمية عن أصل وتطور الانسان وبدايات الحياة في الحقبين الجيولوجيين الثالث والرابع . ومما تجدر الاشارة له في هذا الصدد القول بأن الأشكال والطرائق وقواعد التنظيم

---

١) فلسفة هيغل وماركس ص٦ من كتاب G.N. wolkow' , Soziologie der Wissenschaft

٢) ص (١١) Frank Fiedler , Einheitswissen Schaft

٣) علم نشوء الحياة والانسان ، النشرة الخاصة بالمعرض الخاص عن أصل الانسان الذي افتتح في خريف عام ١٩٧٦ في متحف الانسان في باريس .

للبحث العلمي تخضع اليوم لتحول جـذري ،فالعلاقـة بين العلم والعمل تقترب بشـكل ملحوظ ، ويأخذ العلم شكل القوة غير المبـاشرة للانتاج في المجتمع ، كما ويبني القاعدة النظرية لخطوط التطور الاجتماعي بالاضافة إلى أن مـــكانة العلم في الحياة الاجتماعية قد خضعت هي أيضاً لتحول جذري وبحيث يمكننا التحدث عن ثورة حقيقية .

١) تشكل كلتا علم الآثار مصطلحاً دخل على اللغـة العربية حديثاً وهو ترجمة للمصطلح الشائع في اللغة الانجليزية **Archaeology** وفي اللغة الألمانية **Archaeologie** وفي اللغة الفرنسية **Aachêologie** (١) وإذا ترجمنا حرفياً الكلمة الانجليزية **Archaelogy** إلى العربية فانهـا تعني علم القوس ، وبالحقيقة فان علم القوس كان قد نشأ كوصف لاتجاه خاص ضمن عـلم التاريخ وكان سـبباً في ظهور علم تاريـخ العمارة ، ويعني مصطلح علم القوس البحث في تاريخ ومنشأ ووصـف القوس الذي نبه إليه المؤرخون والرحالة الذين شاهدوا أو اطلعوا على المـدن والأوابد الحجرية التي خلفتها بشكل خاص الحضارات المصرية واليونانية والرومانية (٢) . كان منشأ علم الآثار إلى حد ما عشوائياً وغير منهجي إلا أنه سرعان ماتطور بشكل ملحوظ وعن وعي كامل سـواء من حيث طرائقه أو وظائفه أو أهدافه واسـتخدام ماقدمته بقية العلوم مثل الجيولوجيا والفيزياء والكيمياء وعلم اللغات المقـارن وعلم الأنثروبولوجيـا وعلم تاريـخ الأديان المقارن من معلومات في تطوير طرائقـه ووسائله وبنية الاسراع في التعرف على الحضارات المندثرة سواء تلك التي عاشت خـلال التطور البشـري ما قبل اكتشاف الكتابة أو تلك التي عاشـــت خلال الفترات التي تلت ابتـكار الأبجـديات . وقبل أن أنتقل إلى عرض مايمكن أن يفيد علم الآثار به علم التاريـخ سأتطرق إلى ذكر فروع علم الآثار وطرائقه .

١) لقد ذكرت في المقدمة أن علم الآثار قد ظهر في بدايته كوصف للهندسة المعمارية للأوابد الحجرية الضخمة التي بقيت ظاهرة فوق سطح الأرض والتي خلفتها الحضارات شـبه المتأخرة (٣) كالحضارة المصرية والحضارة اليونانية والحضارة الرومانية

---

١) إشتقت الكلمات الثلاثة عن اللغة اليونانية .

٢) كانت المخلفات الاثرية كأبنية المعابد الضخمة وغيرها قد بنيت بالأحجار الكبيرة وقد قاومت عوامل الحت الطبيعي والزلازل وغيرها مما أبقى على بعض من أجزائها ظاهراً فوق الأرض وقد لفتت هذه البقايا العمرانية أنظار الرحالة والمؤرخين وجعلتهم يقومون بوصفها والبحث في تاريخ بنائها .

٣) بالمقارنة مع التاريـخ السحيق للانسان .

إلا أن تتبع مخططات وأساس الأبنية الأثرية الظاهرة فوق الأرض قد لفت أنظار الجغرافيين والمهندسين والمغامرين منذ القرن السادس عشر الى ضرورة التنقيب ، علماً بأن نبش القبور وسرقة محتوياتها معروف في التاريخ منذ آلاف السنين ، فقد بنيت الاهرامات متضمنة ممرات سرية تعيق على سارقي القبور العبث بموجوداتها ، وقد أظهرت التنقيبات الاثرية الحديثة في التلال والمواقع الأثرية الواقعة على ضفاف الفرات أيضاً وخاصة التنقيب في المدافن الجماعية ان تلك المدافن كانت قد تعرضت للنهب والعبث بها في الألف الثالث ق . م ، وهذا الكلام يعني ان انسان الحضارات القديمة كان يعرف شيئاً عن الحفر في الأوابد الأثرية وإن كانت هذه المعرفة في حينها غير هادفة .

لقد سار التنقيب عن الآثار زمنياً في العديد من المواقع الأثرية المشهورة في العالم بشكل مختلف ، وتبنت معاهد الآثار كمعاهد المصريات ومعاهد الحضارات الهندية (١) ومعاهد علم الآشوريات وغيرها إعداد الدراسات وتشكيل بعثات التنقيب .

[١]٢) التنقيب هو عماد علم الآثار وهدفه إغناء المعارف الانسانية عن التاريخ القديم المكتوب وتقييمها وإعطاء معلومات علمية عن الحضارات الانسانية لما قبل التاريخ وحضارات ماقبل الكتابة والملموسات المادية لتاريخ المجتمعات القديمة يتمثل مثلا بالأدوات والأسلحة والفخار والجوهرات والقطع الفنية وكذلك ببقايا البيوت والمعابد والمدافن وغيرها من منشآت معمارية .

بدأ التنقيب العلمي المنهجي بشكل حقيقي في القرن التاسع عشر وقد طورت له طرائق علمية دقيقة ووصل إلى مستوى رفيع من التقدم منذ بداية القرن العشرين ، لكن التنقيب الفعلي عن الآثار كان قد بدأ منذ القرن السادس عشر وكان هدف ذلك التنقيب غير المنهجي هو الحصول على النفائس والتحف الثمينة وإغناء مجموعات هواة الجمع ، وقد جرى أول تنقيب في عام ١٥٠٦ في روما ، كما وتم الكشف عن الرسوم الجدارية الرومانية في مدينة روما الأثرية (٢) .

بـــدأ التنقيب عن الآثار في منطقة الشرق الأوسط عام ١٨١١ في كل من موقعي بابل وآشور ، وقد جرى أول تنقيب في سوريا عام ١٨٣٨ في ارواد ، وفي عام

---

١ ــ حضارات موهنجودارو وهارابا .

٢) راجــع Lexikon der Kuust, Leipsig 1968, archaeologie

١٨٦٠ جرى تنقيب عن الآثار في طرطوس وبيبلوس وصيدا ، ثم تبع ذلك تنقيب في كركميش (جرابلس) عام ١٨٧٨ ، وفي عام ١٨٩٩ جرى تنقيب في الموقع الأثري الهام تل حلف (محافظة الحسكة) بإشراف العالم الألماني الكبير فون اوبنهايم (١).

أما التنقيب عن الآثار في فلسطين فقد بدأ عام ١٨٦٥ وتوقف بعد حفريات البروفسور البرايت (٢) إلا أن حفريات كاثلين كينيون قبل وبعد الحرب العالمية الثانية وخاصة في موقع حفريات أريحا (٣) دفع بعلم التنقيب عن الآثار بخطوات عديدة إلى الأمام ، وكان لأعمال هذه الانجليزية الفضل في التحديد الزمني للحضارات الشرقية منذ العصر الحجري الحديث وحتى منتصف الألف الأول ق . م .

تعتمد طرائق التنقيب الحالية في الحقيقة على الخبرات العلمية المكتسبة لأجيال الأثريين والمنقبين الذين مارسوا التنقيب عن الآثار في مختلف بقاع الأرض وخاصة في منطقة الشرق القديم (مهد الحضارات الانسانية المتقدمة الأولى) . وتسبق عملية التنقيب الاثري الدراسات التحضيرية ، وتشتمل تلك الدراسات على الاطلاع على جميع المعلومات التاريخية عن الموقع المراد التنقيب فيه أو عن المنطقة المعنية بالامر ، وتضم عملية الاطلاع كذلك دراسة اللقى الأثرية والنتائج المستخلصة سابقاً إن كان الموقع قد نقب فيه من قبل وفي الحالة الأخرى دراسة كافة النتائج لحفريات في مواقع أثرية مجاورة ، وتشتمل الدراسات التحضيرية أيضاً على دراسة فخار المنطقة بشكل رئيسي لما للفخار من أهمية بالغة بالنسبة للتاريخ والتنقيب الأثري ، أما إذا كان الموقع لآثار ماقبل التاريخ والعصور الحجرية المتوسطة والحديثة فتدرس عندها كافة اللقى الحجرية للموقع أو المنطقة . وتضم الدراسات التحضيرية أيضاً الاطلاع على كافة المعلومات الجغرافية والجيولوجية والبيئية (The ecology) .

الحقيقة إن الدراسات الأولية عن الموقع تؤثر في الأسلوب الذي يتم فيه تشكيل بعثة التنقيب ، فبعثة التنقيب التي تنقب في موقع ما قبل التاريخ هي غيرها التي تنقب في موقع حضارات الكتابة ، وعليه تضم بعثة التنقيب لموقع آثار ما قبل التاريخ بالاضافة إلى الطلاب أو الخريجين اخصائيين في الجيولوجيا والبيولوجيا والنبات والانثروبولوجيا ويرأس البعثة أستاذ متخصص في آثار ماقبل التاريخ .

١) راجع كتاب تل حلف (von Oppenheim)

٢) مقدمة كتاب K.Kenyon,Archaeology in the Holy Land

٣) اسم موقع أريحا كما ورد في كتاب K.Kenyon هو Jericho

بينما تضم بعثة التنقيب لمواقع الحضارات القديمة بالاضافة الى الطلاب أو الخريجين اخصائيين في هندسة العمارة واللغات القديمة والفخار ، ويرأس البعثة استاذ متخصص في حضارات الموقع .

[١]٣) يتبع عملية التنقيب كتابة التقارير عن النتائج المستخلصة ، يلي ذلك دراسة تلك التقارير والصور ودراسة مقارنة للفخار ان كان التنقيب قد جرى في موقع أثري لحضارات مابعد العصر الحجري الحديث (النيوليتيك) ويتم التأريخ اما بواسطة الفخار المكتشف او بواسطة استخدام طريقة الكربون (١٤) وحديثاً باستخدام الطريقة المبنية على القياس الفيزيائي لتحرك ذرات المعادن باتجاه القطب، وتبنى وتربط النتائج المستخلصة في آخر موسم التنقيب بنتائج عمليات تنقيب سابقة وتنشر النتائج الجديدة وتناقش لتثبيت هويتها العلمية .

من دراسة النتائج المستخلصة عند نهاية موسم التنقيب يتبين لعلماء الآثار على اختلاف اختصاصاتهم ظهور معلومات جديدة تهم دارسي تاريخ الفنون والعمارة والتجارة والصناعة والاقتصاد والقانون والاجتماع والسكان كما وتهم دارسي تاريخ الاديان (١) وتاريخ الكتابة ودارسي اللغات القديمة (٢) وعلماء الأنثروبولوجيا (٣) وعلماء البيئة والحيوان .

٢) صدر في لايبزغ (٤) عام ١٩٦٧ كتاب عنوانه رمل فوق معابد بلاد العرب **Sand uebet den Tempeln Arabiens** للمؤلفة ايفا غيرلاخ وقد تضمن الكتاب استعراضاً تاريخياً لرحلات المغامرين والبحاثة وللنتائج التي توصلت اليها البعثات العلمية بتنقيباتها التي أجرتها في بلاد اليمن ، كما وحاولت الكاتبة البدء بعرض امكانية اعادة كتابة تاريخ اليمن وذلك عن طريق الربط بين كافة المعلومات العلمية الحديثة وبين ماورد من معلومات تاريخية في تدوينات مؤرخي اليونان والرومان والعرب .

[٢]١) كان أول المغامرين الأوربيين الذين وصلوا بلاد اليمن هو الدانماركي كارستن نيبور (**Carsten Niebuhr**) فقط حطت رحال ذلك المغامر في بلاد

---

١ ـ سوف أتطرق الى بحث علاقة علم الأديان المقارن بعلم التاريخ لاحقاً

٢ ـ سوف أتطرق الى بحث علاقة علم اللغات المقارن بعلم التاريخ لاحقاً

٣ ـ سوف أتطرق إلى بحث علاقة علمي الأنثروبولوجيا والاجتماع بعلم التاريخ لاحقاً

٤ ـ ألمانيا الديمقراطية

العرب السعيدة في خريف عام ١٧٦٢ ، ومع وصوله بـــدأت مرحلة البحث العلمي الحديث لبلاد العرب وتاريخها ، وكانت معلومات البعثة التي يترأسـها نيبور [١] قبل البدء باجراء أبحاثها مقتصرة على ماورد في وصف اليونانيين والرومان لبلاد العرب ، هذا الوصف الذي يعود تاريخه الى أكثر من الف وخمسماية عام ، فمنذ بطليموس الذي وصف البلاد المعروفة في زمنه (القرن الثاني الميلادي) لم ترد معلومات جديدة الى اوروبا عن بلاد العرب . كان من نتائج أعمال البعثة الأولى في اليمن التنبيـه الى غنى تلك البلاد بخلفية حضارية متقدمة والتنبيه الى الغموض الذي يحيط بتلك الحضارات البائدة وخاصة من ناحية تاريخها الجلي ، وقد تبع نيبور في شـــد الرحال الى اليمن الدكتور سيتزن (Dr. Seetzen) الذي كان من أهدافـه زيارة مأرب عاصمـــة مملكة سبأ .

قبل أن تحتل بريطانيا ميناء عدن بعدة سنوات بدأت في عام ١٨٣٤ بأجـــراء أعمال قياسات على الساحل الجنوبي للجزيرة العربية ، وقد لاحظ ضابط السفينة السيد ولستيد وجود صخور سوداء تقع على ساحل حضرموت وعلى بعد حوالي / ٤٠٠ / كم الى الشرق من عدن ، وعلم ولستيد لاحقاً ان اسم المكان الذي رآه من البحر هو حصن الغراب ، وتقع عند أقدام هذا الحصن قرية بير علي . ارتقى ولستيد الى هذا المرتفع البركاني مصطحباً معه زميلين من زملائه ، واكتشف عنده بقايا طريق ممهدة تقود السائر على الأقدام حتى أعلى المرتفع ، وهناك عثر الثلاثة على بقايا أسوار وبقايا جدران أربعة خزانات للمياه . لقد تساءل الثلاثة عندها من تحصن في حصن الغراب اي من بناه ولماذا ؟ لكنهم توصلوا بعد هنيهة الى الفكرة التاليـة : يجب علينا ان نبحث عن أحجار مكتوبة علنا نستطيع الهداية بها الى مبتغانا ، وفعلا عثر ولستيد على نصين محفورين على الحجر ، وباشر فوراً الى نسخ الكتابة وارســال هذه الطلاسم الى اوروبا .

---

١ ـ ضمت البعثة بالاضافة الى نيبور كلا من كريستيان فون هافن C.V.Haven كمتخصص في اللغات الشرقية ، وبيتر فورســكال P. Forskal بيولوجي ، والدكتور كريــــستيان كارل كرامر C. C. Cramer كطبيب ، وجورج باورن فانيد G. W. Buuernfeind كرسام .

تبع ولستيد كل من ادولف فون فريدي . (١) وآرنورد (٢) وجوزيف هالفي (٣) وسيغفريد لانجر (٤) وادوارد دغلازر (٥) .

---

(١) وصل ادولف فون فريدي إلى ميناء المكلا في عام ١٨٤٣ وكان يهدف الوصول الى طرب فبدأ أولاً بزيارة للأسوار القديمة التي وصفها ولستيد ومن ثم تابع السير في وادي حضرموت حيث كان قد تزيل بزي مسلم يريد الحج إلى قبر النبي هود ، ولكن البدو قبضوا عليه لشكهم بأمره ومزقوا أوراقه وأعادوه إلى الساحل ، ولحسن الحظ كان ادولف قد أرسل بعضاً من أوراقه المدونة عليها المعلومات التي سجلها عن آثار وادي حضر موت وخاصة عن مدينة لبنة إلى المكلا .

(١) توماس جوزيف آرنود T• J. ArnauD حط به الترحال في بلاد العرب السعيدة في تموز عام ١٨٤٣ مستغلاً وصول حامية تركية ومبتغياً زيارته مملكة سبأ ذات الغنى الخيالي . بدأ آرنود رحلته متخفياً بزي بدوي ، وخرج من صنعاء متجهاً إلى مأرب ليرى السد الذي قرأ عنه في كتاب الله عز وجل ، ولكن الصعوبات التي واجهته كوجوده في منطقة بيرو عبيدة لم تمنعه من نسخ بعض كتابات المنطقة .

(٢) جوزيف هالفي وصل إلى صنعاء في شباط من عام ١٨٧٠ وانطلق إلى منطقة الجوف متخفياً بزي يهودي ، وإستطاع خلال إقامته في اليمن القيام بنسخ عدد كبير من الكتابات والنصوص المحفورة على الحجر وخاصة كتابات لغة حضارة المعينين (عاصمتهم مدينة قرنوة) .

(٣) سيغفريد لانجر S.Langer وصل إلى اليمن في شباط من عام ١٨٨٢ واغتيل فيها في شهر حزيران من نفس العام .

(٤) ادوارد غلازر E.Glaser نزل في ميناء الحديدة في تشرين أول من عام ١٨٨٢ أي بعد حوالي أربعة أشهر من موت سيغفريد لانجر ، وتخفى بزي فقيه مسلم واستطاع بقدرته الفائقة على التلاؤم نسخ أكبر عدد من النصوص المحفورة على الأحجار الأثرية ، وبالمعاونة مع أسلافه فقد قارب عدد النصوص التي إستطاع نسخها الألفي نص وهي مكتوبة باللغات السبئية والمعينية والقتبانية والحضرموتية .

ثم وصلت البعثة البريطانية الأولى للتنقيب عن الآثار والتي تتألف فقط من ثلاثة نساء تقودهن سيدة تومبسون (١) وفي عام ١٩٥٠ بدأت البعثة الامريكية للتنقيب عن الآثار في جنوب الجزيرة العربية أعمالها برئاسة البروفسور البرايت . لنقرأ ترجمة المقطع من كتاب السيدة غير لاخ عن أعمال البعثة الامريكية : (البروفسور البرايت يبحث عن كسر فخارية) .

لم يهدف البروفسور البرايت عالم الآثار التنقيب الشامل في أوابد مدينة تمنا التي تبلغ مساحتها حوالي ٪ ٢٥ / هكتاراً ولم يكن في مخططه الكشف عن القصور الضخمة لكي يبهج أنظار العالم بأبهة الحياة التي عاشها ملوك قتبة لكنه يظهر من المؤكد أن رفع الأنقاض عن القصور الغارقة بواسطة المعول والرفش والفرشاة هو عمل ممتع ، ومع ذلك فان عمل الأثريين هو اليوم أبعد من أن يكون هدفه فقط حفر وتنقيب عن القصور والمعابد أو البحث عن الحلي الذهبية والتماثيل وجمع للنصوص المكتوبة وهو أيضاً أبعد من أن يكون هدفه رسم صورة لما كان عليه بناء قبل تدميره ، ولكن اعتماداً على اللقى والآثار التي يعثر عليها يجب الكشف عن علاقات تاريخيه ، لذلك يمكن ان يكون لكسرة من الفخار الملون بالنسبة للآثار تحت ظروف خاصة قيمة أكبر من قطعة أثرية مصنوعة من الذهب . ان لون الكسرة الفخارية نوعها أو الطريقة التي صنعت بها أو الطريقة التي دهنت بها كل هذه الأمور يمكن أن تزود المختص بالآثار بمعلومات جديدة تؤدي إلى إستنتاجات وربط علاقات جديدة ، وكذلك فان المقارنة بين تلك الكسر الفخارية مع كسر مشابهة ظهرت في موقع أثري آخر تعطي الاثري امكانية تحديد الزمن بدقة متى استخدم ذلك النوع من الفخار وكذلك تعطيه امكانية تحديد العمر للطبقة الأثرية التي وجدت فيها الكسر بشكل دقيق وسليم .

لقد تحددت الوظيفة الرئيسية للبعثة الأمريكية للتنقيب عن الآثار فى جنوب شبه الجزيرة العربية بالحصول على عدد كاف من اللقى الأثرية ذات المصدر الغريب عن المنطقة ، فمن هذا الطريق يمكن الوصول إلى كرونولوجى مقارنة بالنسبة لجنوب الجزيرة العربية .

لم تستطع تنقيبات عريترود كاتون توميسون في وادي عمد العثور على مثل

---

١ — نقبت البعثة في هريدة من وادي حضرموت عام ١٩٣٧

هذه اللقى ، فقد كانت هريدة وكان معبد الشمس فيها عبارة عن مكان مقدس صغير ، والآن يجب أن يستخدم المول للتنقيب في إحـــدى عواصم الماليك الأربعة لجنوب الجزيرة العربية ، ففي أوابد المدينة الملكية تمنا يمكن توقع العثور على لقي تستطيع البعثة بواسطتها تأريخ تاريخ قتبة بدقة .

أختيرت مقبرة تمنا لكي تكون موقعاً للتنقيب ، فالقبور تحتوي على الكسر فخارية والأختام الاسطوانية والعقود والتماثيل . بالمقابل فان تقارير رحلات آرنود وهالفي وغلازر أشارت بالاجماع على أن النصوص المكتوبة على الأحجار وجدت في مواقع آثار جنوب بلاد العرب بالقرب من أبواب المدن والمناطق المحيطة بأسوارهـا . لذا بدأت مجموعة تحت إشراف البروفسور هوني مان بالكشف عن الباب الجنوبي لتيمنا والمبني من ردم تبلغ سماكته ثلاثة أمتار .

يرتفع نصب آلهـة الشمس الغرانيتي من بين الرمال المحيطـة به وهو يقـع في مركز المدينـــة الملكية السابقة ويتوقـع تواجد بقايا عـدد لابأس به من الأبنية بالقرب منـه .

بينما بدأ التنقيب كلاً من الدكتور جامي والبروفسور هوني مان وفنديل فيليبس في الأمكنة الثلاثة التي ورد ذكرها أعلاه ، أعطى البروفسور البرايت كل اهتمامه للعنصر الهام ألا وهو التل الذى يرتفع حوالي عشرين متراً والذي يقع على بعد ١٥ كم إلى الجنوب من أوابد تيمنـا .

لقـد اكتشف البروفسور البرايت في وادي بيحان ليس فقـط أوابد المدينة الملكية تيمنا ولكن أيضاً مرتفعات ذات قمة شبه مسطحة وترتفع حـوالي من ١٥ إلى ٢٥ متراً ولها أطراف مائلة وهي موزعـة بشكل ملفت للنظر وعلى مقربة من بعضها البعض .

يدعو الأثريون تلك المرتفعات بالتلال ، والتل عبارة عن مرتفع مسكون تتوضع طبقاته السكنية فوق بعضها البعض . ردم وأحجار من الطين وكسر فخارية وبقايا جدران كل تلك الأشياء تنير للأثري ماضي المستوطنات المدمرة والتي قامت فوقهـا وعلى نفس المكان مستوطنات جديدة . مثل هذه التـلال كان تل حجر بن حميد وهـو يقـع على بعد ١٥ كم من تيمنا وقـد أصابه الحت الطبيعي في جزئـه الغربي فكشفت بذلك بعض الطبقات الأثرية . هنـا بدأ البروفسور البرايت وبكل حـذر إستخدام المول وضمن مربع يبلغ طول ضلعه ١٨ م .

حفر العمال التراب ضمن هـذا المربـع سنتيمتر فسنتيمتر ، وببطء باتجاه الأسفل حفروا طبقة بعد الأخرى . فقط من رأى مرة تنقيباً عن الآثار يعرف بـكم من الصبر والتأن وبكم من تحسس الانامل الضروري يمكن قراءة طبقـات الأرض المتوضعة فوق بعضهـا البعض والتي يعـود تاريخها إلى مئـات السنين وبل آلاف السنين ، يجب الانتباه إلى كل عنصر ولا يجب إضاعة أشياء تضمها الطبقات الأثرية وهي بعد غير مرئية ، كذلك تهم المختص طبقات الأرض ذات الألوان المختلفة فهي تساعده في الوصول إلى فكرة جديدة . اذا حدث وتوصل العمال إلى أرضية مسكن فيوضع عندها المعول جانباً ويبدأ العمل بحذر بواسطة السكين والفرشاة .

بعد مضي سبعة أسابيع على عمل البروفسور البرايت في حجر بن حميد كان عمق التنقيب إبتداء من السطح فقط أربعة أمتار ونصف ولم يؤد التنقيب إلى العثور على أشياء ذهبية أو بقايا أبنية فخمة لكن على الرغم من ذلك فقد ضم هــذا التل الأشياء التي يبحث عنها البروفسور ، فكسر الفخار التي عثر عليها في الطبقات العليا من التل أعانته في تحديد تاريخ آخر سكن للتل خلال القرون مابين العاشـــر والخامس عشر ميلادي ، وأما الطبقات الدنيـــا فتعود إلى مابين القرنين الخامس والثـالث ق . م (١) .

٢) من السرد الذي ورد آنفاً عن مضمون كتاب السيدة غير لاخ يمكن أن نخلص إلى النقاط التالية :

١ ـ تقسم المصـــادر المتوفرة عن تاريخ اليمن حتى وصـول اول المغامرين الاوربيين الى البلاد الى ثلاثة أنواع :

أ ـ الكتب المقدسة

ب ـ كتب التاريخ التي كتبت في العهود القديمة كتلك التي كتبت في العهـود اليونانية والرومانية والعربية الاسلامية (٢) .

---

١ ـ Eva Ger Lach p. 285 - 287

٢ ـ يعتبر كتاب الاكليل لمؤلفه اليمني الهمداني والمولود في صنعـاء عام ٩٤٥ من اهم المصادر القديمة عن تاريخ اليمن ، وقد كتبت في عشرة اجزاء ووصف فيه هذا الجغرافي القدير الذي كان يتقن قراءة النصوص القديمة المحفورة على الاحجـــار الاثرية القلاع والقصور القديمة، ويعتبر هذا الكتاب مصدراً علمياً هاماً بالنسبة للبحث في تاريخ جنوب الجزيرة العربية .

جـ — التراث الشفوي والمتمثل بالقصص والحكايات الشعبية والأساطير والأقمال والأغاني .

٢ — النتائج التي خلص إليها كافة الرحالة والعلماء والمغامرين الذين زاروا بلاد اليمن وحتى إجراء أول عملية للتنقيب عن الآثار .

٣ — الدراسات التي تمت في جامعات أوروبا حول ترجمة النصوص المدونة والمحفورة على الحجارة الأثرية ومقارنتها ضمن مجموعة اللغات العربية الجنوبية ومقارنتها ببقية لغات المجموعة السامية واستخلاص معلومات تاريخية منها .

٤ — النتائج التي توصلت إليها بعثات التنقيب العلمي الأثري الأولى والتي أجرت أعمالها فقط في الأوابد والمدن الأثرية الظاهرة فوق الأرض .

٥ — النتائج التي توصلت إليها بعثات التنقيب العلمي الأثرى والتي أجرت أعمالها لاحقاً في التلال الأثرية .

[٢] ٣ — وبناء على النقاط الخمسة التي ورد ذكرها أعلاه يمكن ملاحظة مايلي :

١ — علم الآثار هو علم من نوعية خاصة فهو يعتمد على الوثائق من كافة الأنواع لكن تلك الوثائق يمكن أن تتأرجح أهميتها بالنسبة لعلم الآثار ضمن حدين مرنين جداً في تقاربها إلى بعض أو في إبتعادهما عن بعض .

٢ — تتراكم المعلومات التي تنتج عن عملية إجراء التنقيب لتعطي جدولاً كمياً تتعدل علاقته مع الكيفية العلمية بثبات أو نفي أو تعديل للكم والكيف والجاهز قبل التنقيب .

٣ — تتحدد الأهمية العلمية والنتائج المستخلصة عن علاقة الكم والكيف بمقدار غنى المقارنة .

٤ — تتأرجح النتائج المستخلصة عن التقييم للمعلومات السابقة وربطها بالنتائج الحاضرة زمنياً وتبعاً للطرائق المستخدمة في البحث العلمي .

٥ — من الممكن أن تبدأ محاولة إعادة كتابة تاريخ منطقة مابحذر شديد وخاصة بالنسبة لاكتشاف العلاقات بين العناصر التاريخية المتشعبة .

٦ — يجب أن لانغفل في إعادة كتابة التاريخ كافة الأوجـه الحضارية المختلفة زمنياً بدءاً من الصناعة الحجرية الأولى ومروراً بمختلـف الاكتشافات الهامة بالنسبة للتقـــدم الحضاري والتقني بشكل خاص والفني والثقافي بشكل عام كما ويجب تجنب طغيان إبراز الوجه السياسي العام للحوادث التاريخية .

— يتبـع في العدد القادم —

ـ شيزر وبنو منقذ ـ

اعداد : المدرس جرجس مخول

كل أثر أو موقع هام يرتبط باسم شخصية بارزة أو أسرة معينة عاصرته أو مرت عليه ، واسم شيزر أينما ذكر ومتى ذكر يرتبط به اسم بني منقذ ، وهي الأسرة الكنانية المعروفة بين القبائل العربية بالفروسية والبطولة ، إلى جانب العلم والأدب ، وخاصة في الفترة التي تعرضت فيها بلادنا للمطامع الاستعمارية الأوروبية التي اتخذت اسم الحروب الصليبية قناعاً لها . فكان لشيزر ولبني منقذ وفارسهم أسامة القسط الهام في التصدي لهذه الهجمات وإبعادها عن مواقعهم الحصينة في شيزر .

موقع شيزر ودورها عبر التاريخ :

على مسافة ٣٠ كم إلى الشمال الغربي من حماة وعلى نهر العاصي في نقطة تحول إتجاهه نحو الغرب في منطقة الغاب تقع شيزر ، وقد لعبت دور الحصن المنيع منذ عهد الفراعنة ، فذكرها تحوتمس حوالي ١٥٠٠ ق . م في وصف إحدى حملاته باسم « شيزار أو سيزر » وذكرها بعده « امنحوتب الثاني » (١) ووردت باسم « زنزار » في رقم تل العمارنة . وسماها اليونان الأقدمون « سدزار » وأطلق عليها « ساوقس ١ » في أوائل القرن الثالث قبل الميلاد اسم « لارسا » حيث أسكنها مهاجرين من لارسا في تساليا . وذكرها البيزنطيون باسم « سيزر » وغلب عليها الاسم السامي العربي في صيغة « شيزر » وذكرها امرؤ القيس في قصيدته المشهورة :

تقطع أسباب اللبانة والهوى　　　عشية جاوزنا حماة وشيزرا (٢)

وتردد إسمها هذا في كتابات المؤرخين العرب كياقوت الحموي والأصطخري ، أما مؤرخو الصليبيين فأطلقوا عليها اسم «قيصرية» أو «قيصرية العاصي» تمييزاً لها عن غيرها .

---

١ — J. H. Breasted : Ancient Records of Egypt . V . 2 . 314 : 584

٢ — ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٣٥٣

أما عن أهميتها الستراتيجية ، فلوقوعها على الطريق الداخلية الهامة التي تصل الساحل الشمالي بالمنطقة الداخلية والتي كانت طريق أكثر الفاتحين ، ولسيطرتها على الوادي الذي تشرف عليه قلاع أخرى ، كان لها دور هام في الحروب الصليبية مثل أفاميا « قلعة المضيق » وكفر طاب وغيرها من المراكز التي احتلها الصليبيون مراراً واتخذوها كقواعد للهجوم على شيزر وحماة وغيرها .

أما تحصينها فتذكر أكثر المصادر التاريخية أن بني منقذ هم أصحاب الفضل الأكبر فيه ، وأن سديد الملك علي بن منقذ قد بدأ تحصينها فور تسلمها من البيزنطيين عام ١٠٨١ م ، كما أن نور الدين محمود زنكي اهتم بها اهتماماً زائداً وخاصة بعد أن هدمتها الزلازل عام ١١٥٧ م وينسب إليه بناء الجانب الغربي من البرج الجنوبي . وتؤيد ذلك الكتابة المذكورة عليه، ويذكر الأثري « مون برشم » في كتابه « رحلة في الشام » أن باشورة باب القلعة من آثار نور الدين محمود هذا ولكن لم يبق منه الآن إلا النذر اليسير .

تاريخها السياسي :

نظراً للدور الذي لعبه المنقذيون في حصن شيزر واجماع أكثر المصادر على اعتبار عظمة الحصن وأهميته تعود إليهم رأينا اعتبارهم مبدأ لتاريخ شيزر وقسمناه إلى ثلاثة عهود :

١ — قبل بني منقذ : ١٥٠٠ ق . م — ١٠٨١ م
٢ — عهد بني منقذ : ١٠٨١ م — ١١٥٧ م
٣ — بعد بني منقذ : ١١٥٧ م . . . .

١ — قبل بني منقذ :

أول من ذكر شيزر كما أسلفنا تحوتمس من فراعنة الأسرة الثامنة عشرة حوالي عام ١٥٠٠ ق . م وبعد « امنحوتب ٢ » لكن تاريخها السياسي يبدأ مع قيام الدولة السلوقية حيث جدد « سلوقس ١ » بناءها إلى جانب جارتها أفاميا عام ٢٩٨ ق . م وأسكنها مهاجرين من لارسا احدى مدن تساليا اليونانية وسماها باسم مدينتهم الأصلية . وبقوا فيها حتى الاحتلال الروماني عام ٦٤ ق . م .
ودخلت ضمن الامبراطورية التدمرية حيث يذكر أن الامبراطور « اورليانوس »

دخلها عام ۲۷۱ م بعد معركة انطاكية (١) وتراجع جيش زنوبيا باتجاه تدمر ، ثم ازدهرت في العهدين الروماني والبيزنطي وأصبحت دار أسقفية (٢) . وعندما جاء الفتح العربي الاسلامي سلم سكان شيزر مدينتهم إلى القائد أبي عبيدة بن الجراح بعد فتح حمص وحماة ، ومن أقوال أهلها للأمير العربي ، الفاتح : « إننا قتلنا بطريقنا في محبتكم » (٣) ويعنون بذلك قائدهم . واستوطنتها طائفة من الموارنة عند انتشارهم في وادي العاصي أواخر القرن السابع الميلادي (٤) ثم سكنها قوم من بني كندة . وغزاها القرامطة ، وكانت عرضة لهجمات البيزنطيين وخاصة فترة صراع سيف الدولة الحمداني معهم ، حتى أن وفاته كانت فيها ثم نقل جثمانه إلى حلب . وبقيت تتأرجح بين النفوذ البيزنطي والحكم الفاطمي إلى أن سيطر عليها البيزنطيون ، وبقيت تابعة لنفوذهم مدة ۸۲ سنة إلى أن احتلها بنو منقذ عام ۱۰۸۱ م .

٢ — عهد بني منقذ :

تتابع على حكم شيزر من بني منقذ بعد استيلائهم عليها من البيزنطيين كل من : « سديد الملك أبو الحسن علي بن مقلد بن نصر » وهو الذي ينسب إليه اصلاحها . ولما توفي خلفه ولده : عز الدولة أبو مرهف نصر بن عـلي ، وقد إتسع نفوذه خارج شيزر إلى المعرة واللاذقية ومصياف . وبعد وفاته خلفه أخوه « مجد الدين » والد أسامة الشهير ولانعكافه على نسخ القرآن وشغفه بالصيد تنازل عن الأمارة (٥) لأخيه الأصغر « عز الدين أبي العساكر سلطان » الذي لفترة حكمه تعود أكثر الحوادث التي دونها أسامة فى مذكراته وكتبه ، وبعد وفاته خلفه إبنه « تاج الدولة ناصر الدين محمد » وهو آخر الأمراء المنقذيين في عهده حدثت الكارثة المفجعة : « زلزال ۱۱٥٧ م » (٦) التي قضت على بني منقـذ ولم ينج منهم سوى أسامة الذي كان غائباً في دمشق فجـاء شيزر بعد الزلزلة وعاين مافعلته بشيزر وأهـله ،

١ — مجلة الشرق العدد « ٢٠ » صحيفة ١٠٣٦ ، ۱۸۹۸ نقلاً عن فوبيسكوس .
٢ — جرجي زيدان ـ تاريخ سورية ولبنان ص ٣٥٠ طبع بيروت ١٨٨١ م .
٣ — الحوليات الأثرية : ١٩٥٢ نقلاً عن الواقدي .
٤ - المسعودي : التبنية والاشراف .
٥ — أبو شامة : ذيل الروضتين ج ٢ ص ١١١ وابن الأثير ج ١ ص ٥٠٤ .
٦ — ابن الأثير : ج ١ ص ٥٠٣

فرثاهم بقصيدته المشهورة التي منها :

لم يترك الدهر لي من بعـــد فقدهم
قلبـاً أجشمه صـبراً وسلوانا (١)

هـــذي قصـورهم أمست قبـورهم
كذاك كانوا بهـا من قبل سكانا

وكان لبني منقذ في شيزر علاقات هامة مع جيرانهم من اسماعيلية ومماليك وفرنجة « صليبيين » وسنخص بالشرح علاقاتهم مع الصليبيين :

بقيت شيزر الحصن العربي الذي لم يستطع الفرنجة أن يسيطروا عليه طيلة المدة التي قضوها في بلاد الشام . ويعود السبب في ذلك إلى مناعة الحصن أولاً وإلى إستبسال أمرائه من آل منقذ في الدفاع عنه . فلقد انتزعوه من الروم البيزنطيين وظلوا حماته الميامين إلى أن أودت بهم الـكارثة المفجعة .

وطوال هذه المدة والغارات وأعمـال الغزو والسلب والنهب لم تنقطع ؛ فتـارة تبدأ من جهة الفرنجة وأخرى يكون المنقذيون هم السابقون ، فشيزر مركز المنقذيين الأساسي وأفاميا « قلعة المضيق » مركز الفرنجة الذي يمدون منه معظم حملاتهم . وكثيراً من الأحيـان يتعـاون الفرنجة والبيزنطيون في حركاتهم العسكرية وكتاب الاعتبار لأسامة .. حافل بذكر الحوادث والغزوات والمعارك التي كان بطلهـا ومحورها كاتب هذه الأخبار ؛ فسهلت على المؤرخين والنقاد كثيراً من العنـاء في النقد والاثبات ، فالراوي شاهد عيان وقائد معظم المعارك .

ولقد انتقينا أبرز الاحداث التي وقعت بين بني منقذ من جهـة والصليبيين والبيزنطيين من جهة أخرى ، والتي ألح عليها أسامة في كتابه وتناقلها أكثر المؤرخين عنه .

فـفي سنة ٥٠١ هـ ١١٠٨ م نزل شيزر « تنكرد » خليفة « بوهيموند » على انطاكية في عام ١١٠٤ م . فحاصرهـا إلى أن تم الصلح بينه وبين سلطان . وإستمر هـــذا الصلح حتى ١١١٠ م حيث عـاد وحاصر المدينة ولكن دون جدوى .

وقد جاءها في نفس العام ١١١٠ م . صـاحب طرابلس الصليبي « برتراند »

١ — ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٠٦ .

وكان أمراؤها في الصيد فرجعوا ودخلوا الحصن متسللين ومن بينهم أسامة الذي دخل من تحت السكر (١) . وفشلت محاولة « برانزند » وكان المسلمون لا يسكتون على هذه التعديات فكانوا يبادلون الحصار بالحصار والحملة بحملة مماثلة . ففي عام ١١١٥م اجتمع امير شـــيزر مع غيره من الأمراء وهاجموا حصن كفرطاب (٢) وأحرقوه واستخدموا في حصاره كافة الوسائل المعروفة آنذاك ، ولكنه لم يتداع فاتجهوا منـه الى « دانيث » حيث نشبت المعركة في أيلول ١١١٥ م التي هزم فيها الفرنجة وسلمت على أثرها كفرطاب . ولم يكتف المنقذيون بهذه الانتصارات بل كانوا يجددونها باستمرار . ففي آب ١١١٩م سير عز الدين أبو العسكر : أسـامة إلى نهب أفاميا ومعه رجاله . فيتصدى لهم الافرنج وتنشب معركة يتغلب فيها أسامة ويعود سالماً مع جماعته (٣)

وفي سنة ١١٢٢ م يأتي شيزر جماعة من فرسان الافرنج وعندما لم يتمكنوا منها قتلوا الحارس وعادوا إلى مراكزهم .

وفي سنة ١١٢٤ م جدد بنو منقذ الهجوم على أفاميا وكان على رأس الحملة أسامة وشهاب الدين قراجا . فحاولوا مهاجمة باب الحصـن لكن الافرنج صدوهم عنه وجرح شــــهاب الدين فتراجعوا عنها إلى شـيزر وعاد شهاب الدين إلى حمـاة حيـث مات متأثراً بجراحـه (٤) .

وفي عام ١١٢٧ أغار عسكر انطاكيـة على شيزر فلجأ عسكرها إلى القلعـــة حصنهم المنيع فعاد الافرنج من حيث أتوا .

وفي سنة ١١٢٩ م نزلت شيزر خيل انطاكيـــة من جديد بقيادة « بوهيموند الثاني » كما جاءها عام ١١٣٨ م القيصر البيزنطي « حنا جومنين » (٥) على رأس جيش من الروم ونصب منجنيقاته على جبل جريجيس المشـــرف على القلعة ، فاستنجد أبو العساكر سلطان بعماد الدين زنـكي الذي أسرع لنجدته ونزل حماة وأخذ يشن الغارات على الروم ويأخذ من يظفر به منهم وطالب مبارزة جيش الروم في السهول والصحاري والتخـلي عن التمركز في المناطق الجبلية . كما اتبـع سياسة الايقاع بين الروم

---

١ ــ أسامة . الاعتبار ص ٥٥ ٢ ــ المصدر نفسه ص : ٧٣-٧٤-٧٥ .
٣ ـ ٤ ــ المصدر نفسـه ص ٤٧ ـ ٤٨ .
٥ ــ احمد وصفي زكريا : جولة أثرية . ص ١٦١ ـ المطبعة الحديثة دمشق ١٩٣٤ .
والتميمي : الحروب الصليبية ص ٩١ ـ مطبعة اللواء القدس ١٩٤٥ .

والفرنجة مقتفياً خطة المسلمين في غزوة الخندق في مطلع الدعوة الاسلامية .

وهكذ غادر الامبراطور البيزنطي قلعة شيزر بعد أن حاصرها فترة من الوقت تاركاً وراءه المجانيق وسائر آلات الحصار ، فاقتفى عماد الدين أثره وظفر بكثير ممن تخلف من جنوده ، وأخذ جميع ماتركوه غنيمة له . وكانت كثير من المدن السورية وخاصة حماة تخشى وقوع شيزر في يد الروم لأن ذلك يؤدي إلى سقوطها هي الأخرى . وهذا دليل قاطع على أهمية شيزر الاستراتيجية بالنسبة للدفاع عن بلاد الشام آنذاك .

ولكن هذه المنازعات الحربية لم تكن تمنع من حدوث وفاق أحياناً بين شيزر والصليبيين وخاصة طرابلس . ومما يذكر أن صاحبها أرسل مرة إلى أبي العساكر سلطان رسولاً ليوصله من أفاميا إلى رفنية (١) منقذ سلطان ذلك (٢) . وهذا دليل على الوئام والسلام الذي كان يحدث بين الفريقين أحياناً . .

٣ — بعد بني منقذ .. عهد المماليك والأتراك :

لمّا حلّت الكارثة ببني منقذ ١١٥٧ م هرع اليها الطامعون ، فقد حاول الصليبيون أن يملكوا القلعة ليحققوا حلمهم التالي رغم تهدمها ، لكن الاسماعيلية هبطوا إليها من مصياف وطردوا الصليبيين واستولوا على شيزر . ثم جاء نور الدين محمود زنكي وطرد الاسماعيلية منها ورممها وجدد الدور وأقطعها إلى أخيه في الرضاعة « مجد الدين بن الداية » ، وبعد وفاة هذا انتقلت إلى أخيه « سابق الدين عثمان ابن الداية » ، فاختلف مع الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين الذي اعتقله ، مما أغضب السلطان صلاح الدين الأيوبي . وكان هذا من الحجج لانتزاع الشام من الزنكيين . ودخل أولاد الداية في خدمة صلاح الدين فأقرهم على شيزر وضم إليهم « أبا قبيس » .

وفي عام ١٢٣٢ م استولى عليها صاحب حلب الملك العزيز (محمد بن الظاهر غازي) ولما جاء التتر بقيادة هولاكو ١٢٦٠ م هدموا اكثر القلاع التي كانت للايوبيين ولا بد أن يكونوا نالوا أيضاً من شيزر لأنها ذكرت في جملة القلاع التي

---

١ — من الحصون المنتشرة في منطقة مصياف ، مقابل بعرين .

٢ — أبو الفداء . ص ١٦٠

زارها الملك الظاهر بيبرس مراراً ورممها (١) .

وفي عهد قلاوون الصالحي ظلت شيزر كجارتها أفاميا بيد الأمير سنقر الأشقر الذي عصى قلاوون ، لكن هذا استرجعها منه صلحاً على أن تبقى بيده . وتتالت على شيزر غارات الصليبيين إلى أن أقيمت هدنة في عام ١٢٨٣ م بين قلاوون وبين أمراء الصليبيين « أودوبوالشيان » نائب المملكة في عكا واتباعه لمدة عشر سنوات (٢) ورمم قلاوون بعض أركان شيزر واستكتب اسمه على جدرانها . وظلت في حوزة خلفائه المماليك حيث كانت نيابة من أعمال حلب .

وفي سنة ١٣٤٧ م وقعت فتنة في شيزر بين العرب والأكراد الى أن أتاها « ناصر الدين بن الحسني » من حلب وقمع الفتنة (٣) .

وفي سنة ١٣٥٢ م هاجمها أحد أمراء البادية « نصير بن حيار » فنهبها وفتك بأهلها ولعل خرابها بدأ منذ تلك الفتنة .

وفي العهد العثماني اقاموا فيها حامية بالتناوب مؤلفة من ٣٠ نفراً لحفظ الأمن فقط (٤) وذلك لزوال الحاجة للدفاع بعد استيلاء العثمانيين على بلاد الشام بكاملها ، فلم يبق لها مكانة حربية كما لم تعد القلاع والحصون تفي بمهمة الدفاع بعد اختراع الوسائل النارية الحديثة . ولذا أهملت شيزر وغدت قرية يسكنها البعض من الأعراب والاسماعيلية إلى ماقبل حوالي /٧٠ عاما/ حيث نزحت الاسماعيلية عنها الى قرية عقارب الصافي التابعة لسلمية وبقي السكان أخلاطاً من الأعراب وفلاحي القرى المجاورة الذين كانوا يغيرون عليها أيام الفتن في عهد المماليك والعثمانيين .

---

١ ـ المقريزي : السلوك ج ١ ص ٤٤٦ والنجوم الزاهرة .

٢ ـ المصدر نفسه ص ٩٨٧

٣ ـ كرد علي خطط الشام ج ٢ ص ١٥٨

٤ ـ بي براز دزدار قلعة شيزر شيخ مصطفى بن حسن « دزدار : حاكم حصن »

الفخار وأهميته الأثرية والتاريخية

رياض البدوي

مدير آثار حمص

الفخـار مادة رخيصة قابلة للانكسار ؛ وحين تنكسر يستغني عنها الانسان فيرميها أرضاً ، ومن هنا نجد ضمن أنقاض وطبقات الخرائب عـدداً كبيراً من القطع الفخـارية ، فاذا تواجدت في موقع أثري لم تعبث به الأيدي أو العوامل الطبيعية ، نستطيع عندئذ بالتنقيب الطبقي والمنهجي الدقيق ان نقدر عمر الطبقات التقريبي ؛ ونتعرف على حضـارة الأمة أو الشعب وعلاقاته مع جيرانه القريبين والبعيدين وذلك بتتبـع آثار هذا الفخار ، اذ أن لـكل نوع من الفخار ولانتاج كل منطقة ميزات خاصة يصنفها العلماء بدقة ، فهم يدرسون بنية الفخـــار وتركيبه الكيماوي وطريقة صنعه باليد أو الدولاب أو استعمال القـالب ، بالاضافة الى طريقة تزيينه بالختم أو الحز أو القطع أو الوخز أو القولبة التزيينية ، ودراسة معارف القـــدماء وذوقهم ودقتهم بالعمل ومستوى حضارتهم وأفـكارهم ومعتقداتهم وذلك بمعاينة الرسوم المتوضعة على الفخار . كما يمكن تقدير عمره التقريبي بواســـطة التحليل بالكربون المشع أو الفحم ١٤ وقد أذيعت هذه الطريقة لأول مرة عام ١٩٤٩ وهي طريقة مألوفة لبعض المواقع في بلادنا : جبيل وسوية عصور ماقبل التـاريـخ في رأس شمرة ؛ وفي تل الرماد وتل العبد ، كما انها نجحت في تقدير أعمار الآثار المصرية خاصة مايعود منهـا لما بعد ١٨٠٠ ق . م . كما توجــد طرق فيزيائية لتقدير عمر الفخـار (بالطرق المغناطيسية وطريقة التألق الحراري وهما طريقتان جديدتان لم تعطيا بعد نتائج أكيدة) . كثيراً مايتساءل المرء عن المادة الرئيسية المكونة للفخار . . . أو ربما يسأل أيضاً عن كيفية حصول الصانع على الفخار . . . ! ؛

يحصل الصانع على الفخار بواسطة التسيل بالمـاء والترسيب مكوناً عجينة لينة تأخذ شكلا يجففه ثم يشويه بدرجـــة عالية من الحرارة تصل الى الف درجة أو

أكثر ، ثم يبرد بالتدريـــج ليصبح الاناء المصنوع صلباً ومتينا ، إلا أنه لايصلح إلا لحفظ الماء لأن فيـــه مسام . ويصنع من المادة نفسها القرميد والآجر وأنابيب المياه ومصارف المياه المالحـــة . . ، ويكون الفضار جيداً بقـــدر مايكون صافياً وحاوياً على مواد معدنية مثل البوتاسيوم ومعدن الألمنيوم وحمض السيليس .

اكتشف الانسان القديم منذ العصر الحجري الحديث صناعة الفخـار صدفة ، فقد كان يؤلف الاناء من الاغصان الدقيقة على شكل سلة ويكسوها بالفضار ليتماسك الاناء ، ولكن بعد ان تعرض الاناء إلى حرارة عالية على سبيل الصدفة ؛ تمـاسك الفضار وأصبح متيناً . وقد برع الانسان القديم بصناعة الفخار وتفنن به إلى درجة معجبة ، واستمرت الصناعة راقية عنـــد الأمم حتى أتى العرب المسلمون فأخذوا يتفننون بتزيين الفخار بالحز والوخز والقطع واضافة الحبيبات واضـافة أشكال مجسمة (الباربوتين) ، والتلوين . كما احدثوا على سطح الفخار زخارف بارزة نباتيـــة وحيوانية وكتابية وهندسية . . في غاية من الدقة والجمال . . .

ومما يجدر ذكره ان الفخار بقي حتى وجود الكتابة المصدر الوحيد لامدادنا بالمعلومات التاريخية الحضارية لـكل تاريخ الشرق القديم ، ولقد كان الطين وما زال له مـــكانته المرموقة في حضارات مابين النهرين بصورة خاصة وفي جميع الحضارات الأخرى بصورة عامة . وقد خلف لنا الاقدمون من آثارهم الفنية الفخارية مجموعات كبيرة في الـكم تتغطى على ماسواها من الآثار ، وكان لهذا الفخـار فضل عظيم في تعريف الشعوب والاستدلال على نوع حضارتها ومدى رقيها .

وتعتبر الأواني الفخارية المكتشفة في حوض النيل من أقدم الفخار الموجود في العالم ويرجع الى ١٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، كما اكتشف أيضاً فخار مصنوع باليد في أنحاء انكلترا وبلجيكا والمانيـا وهي تعود الى حوالي ١٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، وتعتبر من بوادر نشوء صناعة الفخار في عصور ماقبل التاريخ . (لكن هـــذه التواريـخ غير مؤكدة لانها قدرت نسبة الى طبقات الارض التي وجدت فيها) .

كما وجدت في وادي النيل كسور القرميد والآجر ، بالاضـــافة الى الأواني الفخارية المسماة « تيراكوتا » التي يحفظ فيها أدوات الميت ومؤونته مثل قبور ممفيس التي تعود الى مابين ٥٠٠٠ — ٣٠٠٠ ق . م ، أما الرسوم الجدارية في قبور طيبة فتتضمن مشاهد تمثل حياة صناع الفخار وترجع الى مابين ٣٠٠٠ — ١٧٠٠ ق . م ،

وقد وصلت صناعة الفخار الى مصر الى الأوج في الفترة الواقعة بين ١٧٠٠ ـ ٥٠٠ ق . م .

وفي سورية يوجد أنواع عديدة من الفخار أقدمها يعود الى الألف السابع ق.م وجد اكثره في منطقة الجزيرة في تل براك .

أما في موقع رأس شمرة « اوغاريت » فقد بدأ باستخدام الفخار منذ الألف السادس ق.م ، واليها تعود أول أبجدية عرفت في العالم وهي عبارة عن رقيم فخاري صغير (الطول ٥ر١ سم والعرض ٣ر١ سم) كتب عليه ثلاثون حرفاً أبجديا أوغاريتياً مشتقاً من الخط المسماري .

ومدينة ماري العمورية ـ تل الحريري ـ أعطتنا فيضاً من القطع الاثرية والفخارية المتنوعة الاشكال والحجوم مثل الجرار والصحون والطاسات والقدور والكؤوس والمصافي والحقق الصغيرة وكلها تشير الى أن الفخار العموري قد بلغ شأناً عظيماً في تطوره وانتاجه من حيث الكم والكيف .

ومادمنا بصدد عرض الطين فلزاماً علينا ذكر انتاج آخر للفن العموري هو فن التمائم الذي يقدم لنا الشيء الكثير عن مظاهر الحياة والمعتقدات ، ومن أهم المواضيع التي طرقها هذا الفن هو الانسان (الرجل والمرأة) فقد أعطتنا حفريات ماري مجموعات تمثل الرجل والمرأة وهما بوضع الوقوف عارياً تماماً وابراز الثديين وصفيفات الشعر وتزيينات العنق ، وكان نموذج (الربة الام) المارية هو السائد في جميع تمائم المرأة في الألف الرابع والثالث والثاني والأول قبل الميلاد .

كما نجد من مخلفات الفن العموري في ماري مجسم بيت صنع من الطين غير المشوى مطلي بالكلس ، وهو نادر المثيل عظيم الاهمية لأنه يكشف عن ناحية مجهولة من فن البناء طالما اختلف العلماء حولها ، فنحن أمام مثال كامل للبيت السوري العموري في الألف الثالث .

وبالتنقيب العلمي الذي جرى على الضفة اليسرى للفرات في تل العبد ، عثر ضمن السوية الثانية العدد الكبير من الدمى البشرية والحيوانية ، ويجدر بالذكر العثور على فرن لصنع الفخار مليء بالأواني الفخارية (اصص فوق بعضها وصحون وأجزاء آنية متنوعة ودمى .. الخ) ويمكن أن ترجع هذه اللقى الى الألف الثاني قبل الميلاد .

واستناداً الى اللقى الفخارية المكتشفة في تل الحاج على الضفة اليمنى من الفرات

وخاصة الأواني الناقوسية والجرار المصقولة والمدهونة بالاحمر وبمقارنتها مع لقى مماثلة مكتشفة في تل حبوبة المجاور فان أعمق طبقة أثرية في تل الحاج ترقى الى أواخر الألف الرابع قبل الميلاد .

أما بلاد الرافدين فقد عثر فيها على توابيت مصنوعة من قطعة واحدة أو قطعتين تدل على مدى تقدم هذه الصناعة في تلك البلاد ، كما قام البابليون والآشوريون بصنع القرميد المطلي بالزجاج المتعدد الالوان وذلك في الفترة الواقعة بين القرنين التاسع والسادس ق.م ، ويحدثنا هيرودوت ان عاصمة ميديا في ايران كانت محاطة بسبعة أسوار من القرميد الملون ولكل سور لون خاص به .

ولا ندري ان كان الهنود قد تعلموا صناعة الفخار من بلاد الرافدين أو أنهم توصلوا اليها بانفسهم ، وقد وجد في الشمال الغربي من الهند اواني من الفخار الاحمر يدل على تقدم الحضارة الهندية في الألف الثالث ق.م وهو من النوع المصنوع باليد .

وعلى الرغم من وجود العلاقات التجارية بين اليونان وسوريا وبلاد الرافدين فان صانع الفخار اليوناني يتجه اتجاهاً خاصاً في صناعته ، حيث يعتمد على مادة الفخار الصافي النظيف النقي بالسيليس ، ويعتني بتكوين اناءه بدقة بالغة ويزينها برسوم ملونة تعطيها قيمة فنية راقية . ويمكننا القول أن الفنان اليوناني قد وصل بين القرنين السادس والرابع ق.م الى الاوج في صنع الفخار شكلا وحجما وجمالا واناقة وغنى بالرسوم والألوان ، وقد اقتنت معظم المتاحف العالمية تحفاً تعود الى هذه الفترة ، وكل متحف منها يفاخر بمجموعته وينشر عنها باستمرار معلومات مهمه تضاف الى معلومات الميثولوجيا القديمة .

وفي العصر الهلنستي أخذ الفنان السوري يبدع تماثيل فخارية جميلة تمثل آلهة الميثولوجيا (افروديت) و (ليدا) و (كيوبيد) وربة العدالة والانتقام (نيميسيس) ، بالاضافة الى التماثيل الفخارية التي تمثل مواضيع المقتبسة من الحياة اليومية تمثل أماً جالسة تحنو على رضيعها وعلى وجهها أجمل معاني العطف والحنان . او موسيقيات تعزف كل منهن على آلتها الموسيقية (اللير) أو القيثار أو العود أو الدف أو المزمار أو مغنيات أو راقصات ... الخ وهناك تماثيل فرسان ... ويعتقد بعض مؤرخي الفن أن هذه التماثيل الفخارية كانت تمثل أو تشكل جزء من الاثاث الجنائزي وتوضع في القبور كي تؤنس الموتى ، وكان بعض هذه التماثيل يسهم في تزيين مساكن الأحياء ومعابد الالهة في ذلك العصر . كما أبدع فنان ذلك العصر تماثيل فخارية تمثل حيوانات

أليفة (كالديك والحصان والخروف والجمل .. الخ) يتميز بعضها بالدقـة الفنيـة والاسلوب الواقعي .

أما الصناع الرومانيون ، فلم يتأثروا بالبلاد المفتوحة كمصر وبلاد الرافدين وسوريا في بادىء الامر وانما فضلوا متابعة اتجاه الفن اليوناني ، فقد استمر الصانع الفنان على ابتكار الاشكال الجميلة للأواني الفخارية ذات الفوائد الاستعمالية مؤكداً صلة الجمال بالفائدة قبل ظهور مانسميه في عصرنا الحديث بـ (علم الجمال الصناعي) . أضف الى ذلك السرج الفخارية التي تزين سطوحها مواضيع ميثولوجية ومشاهد موسـيقية وزخارف لما أهميتها الفنية وقيمتها الجمالية ولانسـتطيع أن ننكر أهمية الفخار في العهد البيزنطي على الرغم من أنه فخار رخيص من الاستعمالات اليومية لكنـه يتميز بتنوع عظيم وانتاج شعبي محلي ، وكان اكثرها أهمية ، وتنوع السرج بعضها بمنبع ضوئي واحد وبعضها باثنين أو ثلاثة أو أربعة أو أكثر ، وبعضهـا قابل للتعليق .. ويلاحظ أن الصانع الفني كان يتفنن في زخرفة هذه السـرج بكتابات مقدسـة أو تزيينها بمواضيع دينية أو رمز من رموز المسيحية (كالصليب) مما جعل السـرج أعمالا فنية لما أهميتها المقدسة ، ومما يميز الفن البيزنطي عن الفن الـكلاسـيكي بالرغم من أنه الوارث الوحيد له في جميع المجالات ، ظهور شمارات المعتقدات المسيحية على جميع المظاهر الفنية واختفاء الشمارات الوثنية وما يماثلها في جميع نواحي الحياة .

وبالرغم من التنقيبات العديدة في المواقع الاثرية التي أعطتنا فخاراً كثيراً فان الميزات ليست واضحة ، خاصة اذا كان الموقع الاثري قد سـكن من قبل العرب في العهود الاسلامية ، فان تحديد عهد الفخار يكون صعباً اذا لم يحمل شماراً أو كتابة تفصح عن هويته .

ولدراسة الفخار في العهود الاسلامية ، يمكن أن نصنفه في مراحله التطورية التالية :

١ — فجر الفخار العربي الاسلامي ويمتد من ظهور الاسلام الى أوائل القرن /٣/ هـ فمن الصعوبة تمييز الانتاج هنا في العهد العربي عنه في العهد السـابق ، الا من ظهور بوادر عربية خالصة كظهور الكتابة العربيـة بالخط الكوفي على الفخار ، أما الزخرفة فقد غلب عليها البساطة في الشكل والتنفيذ ، فقد لجأ الفنان الى تكوين نتوء فوق العروة بشكل لطيف استخدمه لوضع علامة تشير الى صاحبه ، اما تربـة هذا النوع من الفخار فكانت نظيفة وصافية لذا استطاع الفنان أن يجعل أوانيـه رقيقه مثال الاناء الذي يحمل اسم ابراهيم النصراني رقيق جداً يبلغ سمكه أقل من ملم واحد .

٢ — ضحى الفخار العربي الاسلامي ويمتد من القرن ٣ ـ ٥ هـ فقد حصل تجديد وابداع ملحوظين في جميع مظاهر الفن العربي الاسلامي وذلك عندما انشئت مدينة سر من رأى = سامراء ، فقد حورت الأشكال النباتية والطبيعية وجردت من كيانها الحي ، روعي فيهـــا التناظر والتكافؤ بين المساحات المشغولة بالزخرفـــة والمساحات العارية .

٣ — ظهر الفخار العربي الاسلامي ويمتد بين القرنين ٥ ـ ٨ هـ فمن خصائص هذه المرحلة ان الزخرفة نفذت بالقالب على الاغلب ، وتنوعت الأواني الفخارية ، وكان للعرى وظيفة عملية وأحياناً ذات صفة تزيينية .

وبعد هذا الاستعراض الشامل للفخار لابد من القول بان الفنان والصانع ترك في مختلف العصور روائع فنية فخارية تعتبر من اجمل ما أبدعه الانسان عبر التاريخ ، لما يتميز به من جمال المعنى والمبنى والصورة والشكل والمضمون مما جعل الفنانين المعاصرين يعجبون بها ويعودون اليها ويقتبسون منها ويعتبرونها نماذج جديرة بالتأمل والدراسة لأنها بمثابة مفاخر للفن ، وسبيل من سبل الكشف والاطلاع على حقيقة الجمال .

مصادر البحث :

الحوليات الأثرية العربية السورية ١٩٦٠ و ٩٦١ و ٩٦٢ و ٩٧٤

دراسات في مادة الفخار والخزف د . محمد أبو الفرج العش

مكتشفات الحملة الدولية لانقاذ آثار الفرات المديرية العامة للآثار والمتاحف

التنقيب الأثري الحديث الأستاذ عدنان البني

الفن السوري في العصر الهلنيسي الروماني الأستاذ بشير زهدي

الفن السوري الأستاذ عدنان الجندي

وهم تاريخي حول النحو والصرف

بقلم الاستاذ محي الدين الدرويش

عندما طلب إليّ الاخوه أعضاء الجمعيّة التاريخيّة الاسهام في العدد الأول من مجلتهم ، وقفت حائراً أتساءل : ماذا أحدثهم وقد جاسوا خلال التاريخ ؟ وأحاطوا علماً بخفاياه وأسراره *؟

وذكرت حديثاً شريفاً فحواه : استعينوا على الصناعات بأهلها ، فلماذا لاأجعل حديثي متّصلاً بما يتعلق باللغة العربية ، فأنا قيس هذه اللغة وهي ليلاي ، وقد أنفقت في مصافاتهـا شيخوختي وصباي ؟ لماذا لا أزيل وهما ساور الأذهان قروناً متعاقبة ، وتناقله المؤرّخون دون بحث عن صحته أو بطلانه ، يتّكل الواحد منهم على رواية الآخر ، وما أيسر هـذا الاتكال الذي مثله « موليير » بالمركيز الذي ينقد الرّواية بقوله : هي قبيحة لأنها قبيحة وفلان الذّي قعدت إلى جانبه يرى هذا الرّأي وفات هؤلاء المؤرخين جميعاً أن الغرض الحقيقي من مطالعة التاريخ هو إهاجة قوانا العقليّة ، وان ندرس أفكار غـيرنا وآراءهم لانقبلها دون تمحيص فالتاريخ متحـف حافل بروائع الصّور ، ولن نستطيع فهمه بطريق التصّورات المجرّدة . فمن الأوهام التاريخيـة مايتعلق بعلمي النحو والعروض ، فقـد زعم المؤرّخون أن واضع علم النحو هو أبو الأسود الدؤلي إمّا لكونه سمع ابنته يوماً تلحن فذهب إلى الامام علي بن أبي طالب فقال له : فشا اللّحن في ابنائنا وأخشى أن تضيع اللّغـة فقال الامام : اكتب : الكلام كلّه اسم وفعل وحرف والأسماء ثلاثة ظاهر ومضمر ومبهم والفاعل مرفوع أبداً والمفعول منصوب أبداً والمضاف إليه مجرور أبداً فافهم وقس وما عنّ لك من الزّيادة فاضممه . واما لكون عمر بن الخطاب جيء إليه برجل يقرأ : « إن الله بريء من المشركين ورسوله » بالجر فسأله ، فقال : هكذا قرأت في المدينة فقـال عمر : ليس هكذا ، إنما هي ورسوله بضم الـلام فان الله لايبرأ من رسوله ، ثمّ أمر أن لايقرأ القرآن إلاّ عالم بالعربيـة ودعا بأبي

الأسود فأمره أن يضع النحو ، ومقتضى هاتين الرّوايتين يتناقلها المؤرخون . ان هـــذا العلم لم يكن معروفاً قبل أبي الأسود وأن كلام الناس قبله إنما كان بمجرد الفطرة ، ولكن الامام السيوطي قال في المزهر : « النحو والعروض كانا قديمين وأتت عليهما الأيام فقلاّ في أيدي النّـاس فجددهما الخليل وسيبويه » وهذه وثبة ذهن سريعة لم تدعمها الدّراسة الكافية ، فقد حاول السيوطي الاستدلال فأتى بأدلّة لاتقوم على قدم ثابتة ولذلك اضربت عن ذكرها واجتزأت بذكر ماسنح لي في تأييد دعواه ، وازالة هذا الوهم السّائد من أمور ، إن لم يفد كل منها أفاد المجموع .

أولاً — تبيين الامام علي لأبي الأسود جملاً من القواعد الاصطلاحيـــة ظاهر الوضع بين البطلان فليس في وسع الذهن البشري أن يضع هذه القواعد فوراً ولا بد من الأناة والتأمّل ويبعده أيضاً قول الامام نفسه لأبي الأسود : وما عنّ لك من الزيادة فاضممه إليه أي مما كان كهذه الضّوابط فهذا صريح أو كالصريح في أنّ هذا كان معروفاً بينهم أو بين أفراد منهم لامجرد صحة النّطق سليقة .

ثانياً — قول عمر بن الخطاب : لايقرأ القرآن إلا عالم باللغة العربية فان المتبادر منه قواعدها وأصولها التي بها تعرف وجوه الكلام إذ لو كان المراد مجرّد التكلمين بالصواب لزم منح كلّ أعجمى منه ولم يكن وجه للتخصيص بالعـالم باللغة إذ القوم جميعاً أعراب معتدلو الألسنة بالسّليقة وتجويزه القرآن لمن كان عارفاً دون غـــيره صـــريح في انّ منهم عارفين باللغة وان منهم جاهلين بهـا فيلزم أن تكون معرفة العارفين قدراً زائداً على ماعند غيرهم وليس إلاّ القواعد والضّوابط المذكورة وإلاّ لانسدّ باب قراءة القرآن وصار نسياً منسيا .

ثالثاً — أمر علي بن أبي طالب أبا الأسود بوضع النحو إذ فيـه مايدل على ان هذا العلم معلوم لدى الآمر والمأمور على السّواء لاســـيا وانه أمره أمراً مطلقاً ولم يبين له ماينسج على منواله منه .

رابعاً — انه حيث كان عـلم العروض واصطلاحاته من خبن وطيّ وغير ذلك معلوماً لدى بعض العرب كما صرح به الوليد بن المغيرة إذ قال في القرآن لما قيل : انه شعر : والله لقد عرضته على هزجه ورجزه فلم أره يشبه شيئاً من ذلك ، والشعر لم يكن إلاّ لأفراد من العرب فلأن تكون قواعد العربية إلىّ هي لسانهم جميعاً أولى .

ونخلص من هنا إلى القول بان اللغة العربية بنيت وتطوّرت بمقتضى ناموس

النشوء والارتقاء الطبيعي في بيئة غنية منوّعة بالموارد الماديّة والبشريّة ثم تطوّرت بالاشتقاق والقلب والابدال والنحت والتعريب قبل الاسلام وبعده على مدى عشرات القرون من التاريخ المكتوب والمعروف ومن التاريخ غير المكتوب وغير المعروف وكان للعرب في ذلك الزمن السحيق دول معروفة .

ويفضي بنا الحديث إلى ذكر حقيقة لابد منها وهي ان اللغة العربية مفضّلة على جميع اللغات السّامية لمحافظتها اكثر من بقيــة اللـّغـات السّامية على الخصائص السّاميّة الأولى وعدم تنصّلها منها ، فما من قاعدة من قواعد اللـّغات السّاميّة ثابت نموّها ونضجت في تطوّرها كما نضجت في اللغة العربية بعد ذلك التقدم المتطاول عبر أقدم العصور ، ففي اللـّغات السّاميّة إعراب ولكنّه قاصر غير مطّرد ولا متناسق في مواضعه ولم يبلغ قط مبلغ القــانون الذّي نعرف فيه حدود الاطراد وحدود الاستثناء ، وفي اللغات السّامية اشتقاق ولكن قوالب الاشتقاق فيها لم تتميّز بأوزانها ومعانيها كما تميزت مع تطور اللغة العربية ، وفي اللغات السّامية نحو وصرف ولكنها واقفان فوق المنبت جذوراً كالخشب الذي لايقبل النمو بعدما وصل إليه ، وما من جذر من جذور نحونا وصرفنا لم يتفرّع ولم يحتفظ بقوة الحياة فيه ، ولغتنا العربية تجري دائماً على توافق تام مع روح الموضوع واندماج كامل في صميمه ، وهكذا تشكل بإشكال الاشياء وبرز مع كل حالة موقعــة بإيقاعها وحركة روحها توافقاً وانسجاماً ، كما تتناسق وتتوافق في الرّقص الايقاعي لقطات الرجل مع صفق الصفاقات أو نقرات اليد على الطّار بحساب ، ولست أدري إذا كان الشاعر ابن حمديس الصقلي لمح في راقصته خاصة اللغة العربية هذه توافق إيقاعها أم لمح في اللغة العربية خاصية رقص الراقصة في توافق لقطات رجلها ونقرات الطّار حين وصفها وصفه المشهور :

وراقصــــة لقطت رجلهـا حسـاب يد نقرت طـارهـا

وليس يعقل ان يكون مرتجلاً ذلك التهذيب والتنزيه الذي تتميز به لغتنا من كل نقيصة والمعلّى من كل خسيسة والمبرأ ممـا يستهجن أو يستبشع فلم تجمــع بين ساكنين أو متحركين متضادين ، ولم تلاق بين حرفين لايأتلفان ولا يعـذب النطق بها أو يشنع ذلك منها جرس النغمة وحسن المسمع كالغين مع الخاء والقــاف مع الكاف والحرف المطبق مع غير المطبق مثل تاء الافتعال مع الصّـاد والضّـاد في في أخوات لها والواو الساكنة مع الكسرة قبلها واليــاء الساكنة مع الضمة

قبلها ، ولذلك كان المؤرخ العظيم والفيلسوف الرياضي أحمد بن محمد البيروني من أهل خوارزم وهو يتمطق بحلاوة العربية يقول : « والله لأن أهجى بالعربية أحب إليّ من أن أمدح بالفارسية » وسمعنا الامام الزمخشري الاعجمي الذي أغرم باللغة العربية يقول في مقدمة كتابه المفصل في النحو : « الله احمد على ان جعلني من علماء العربية ، وجبلني على الغضب للعرب والعصبية ، وأبى لي أن أنفرد عن صميم أنصارهم وأمتاز ، وانضوي إلى لفيف الشعوبية وانحاز » ، وحسبنا استشهاداً على توغلها في القدم بحديث شريف دلل على ان العربية كانت لغة ابراهيم خليل الرحمن ، وهذا الحديث يعطي حقائق موضوعية هامة توضح بعض ماغاب عن التاريخ في منهجه الحديث .

الخليج العربي في تاريخه القديم

الخليج الزمردي الذي يحتضن اللؤلؤ والأصداف ويعوم فوق بحر من الذهب الأسود كان وما يزال يستدر لعاب الفاتحين ويحرك شهوات الطامعين ويمثل حلماً ذهبياً بالنسبة للمستعمرين . يتمتع بموقع استراتيجي فريد ومركز اقتصادي رائع فلاعجب أن تكون شطآنه على موعد مع كل مغامر وفاتح ، وأن تبقى منطقة الخليج قلقة طيلة العصور تتطاحن على أرضه مختلف القوى دون أن يتمكن أي من الغزاة تغيير عروبة الخليج أو تبديل سمات شعبه أو إيقاف تيار عطائه .

اسم الخليج بين الفارسية والعروبة :

كان الاسم الذي عرف به الخليج قديماً هو البحر الأدنى أو البحر المر كما ورد في النقوش الأكادية ويقابله البحر الأعلى أي البحر الأبيض المتوسط (١) وما أن قام الاسكندر بفتوحاته بين ٣٣٣ — ٣٢٣ ق م وقضى على الأسرة الأكمينية وعرف الساحل الشرقي من الخليج حتى أطلق عليه اسم الخليج الفارسي (٢) ثم استمر التداول بهذا الاسم ولم يسلم من الوقوع في خطأ هذه التسمية كثير من المؤرخين العرب والأجانب . لأن الساحل الغربي باجماع المؤرخين كان مجهولاً بالنسبة للاسكندر . ليس غريباً أن يقع الاسكندر في خطأ تسمية الخليج باسم الخليج الفارسي لأنه لم يكن يعرف سوى الشاطىء الشرقي من الخليج لكن الخطر يكمن في استمرار المؤرخين المغرضين وإصرارهم على تسميته باسم الخليج الفارسي ، لكن عودة إلى ماكتبه العديد من المؤرخين والمستشرقين توضح لنا أن نسبة الخليج لفارس تزوير

---

١ — العرب والملاحة في المحيط الهندي تأليف جورج فاضل حوراني ترجمة الدكتور يعقوب بكر صفحة ٣٠٩ .

٢ — الخليج العربي تأليف قدري قلعجي والكفاح العربي في عربستان تأليف خليل التميمي .

مؤكد أوجبته الأساليب الاستعمارية ولم تخف حقيقة عروبة الخليج على كثير من الباحثين الذين أعطوا للخليج اسمه الحقيقي (الخليج العربي) . فمنذ القرن الأول الميلادي أطلق المؤرخ الروماني (بليني ٦٢ — ١١٣ م) على الخليج اسمه العربي أثناء تحديده ووصفه لمدينة خاراكس التي يرجح الباحثون أنها مدينة المحمَّرة وفيما يلي ما قاله بليني : « خاراكس مدينة تقع في الطرف الأقصى من الخليج العربي حيث يبدأ الجزء الأشد بروزاً من العربية السعيدة وهي مبنية على مرتفع اصطناعي ونهر دجلة إلى يمينها . . . . » . (١)

ويقول المؤرخ الانكليزي المعاصر رودريك اوين في كتاب نشره عن الخليج العربي عام ١٩٥٧ مايلي : « ان التسمية الفارسية للخليج العربي ، بالنسبة للعرب ، لا وجود لها لقد كانت هذه المساحات في الرمال والمياه دائماً جزءاً لايتجزء من الخليج العربي . . . »(٢) ويقول أيضاً : « إن هذه المساحات الشاسعة من الرمال وتلك المياه الضحلة الزرقاء المترامية الأطراف وكل ما فوقها وما تحتها كانت وستظل أجزاء من الخليج العربي . . . » كما يقول : « بما أن كتابي هذا تقرير عن رحلة سلكت فيها بعد الجهد الأولي مسلكاً فيه أقل مايمكن من المقاومة وتعمدت أن أحرم فيها نفسي من القصد وأردت أن أجرد ذاتي من الارادة وأسلمت النتيجة إلى يد الله فلسوف أشير إلى هذا الخليج اللاهب الرطب من العالم كخليج فارسي ماقبل وصولي وكخليج عربي ما بعد ذلك لأن هذا مايفرضه التأدب . » (٣) نلاحظ من خلال دراساتنا لأقوال أوين أن رحلته إلى الخليج كانت لمعرفة حقيقة الخليج وتسميته وأنه جاء إلى المنطقة وهو يحمل في ذهنه صورة بان الخليج فارسي فاذا الحقيقة غير ذلك خليج عربي وليس خليجاً فارسياً .

ومن المعروف أن الشطر الغربي من الخليج لم يكن يعرف غير العرب سكاناً تربطهم باخوانهم عرب شبه الجزيرة العربية أواصر القربى ووحدة اللغة والحضارة والتاريخ . لقد كان يطلق على الشطر الغربي اسم البحرين أو شط عبد القيس بدءاً

---

١ — الخليج العربي صفحة ٩ تأليف قدري قلعجي نقلاً عن كتاب الخليج الفارسي تأليف أرنولد ويلسون .

٢ — الكفاح العربي في عربستان ، خليل التميمي صفحة ١٠ .

٣ — الخليج العربي صفحة ١٤ .

من رأس الخليج حتى عمان ويشمل الساحل والجزر الواقعة في الخليج (١) ويتمي سكانه إلى قبائل ربيعة ومضر منها عبد القيس وبكر بن وائل وعجل وضبيعه وعنزه .. (٢)

أما الشطر الشرقي من الخليج فهو فارسي بحكم السياسة وحدها بينما يؤكد الواقع التاريخي والبشري والجغرافي عروبته أيضاً وقد انتبه كارستن ينبور الذي قام برحلات في الجزيرة العربية عام ١٧٦٢ وعبّر عن هذه الحقيقة فقال : « لكنني لا أستطيع أن أمرّ بصمت مماثل بالمستعمرات الأكثر أهمية والتي رغم كونها منشأة خارج حدود الجزيرة العربية ، هي أقرب إليها . أعني العرب القاطنين على الساحل الجنوبي من بلاد فارس المتحالفين على الغالب مع الشيوخ المجاورين أو الخاضعين لهم ... » وقال أيضاً : « ومن المضحك أن يصوّر جغرافيونا جزءاً من بلاد العرب كأنه خاضع لحكم ملوك الفرس في حين أن هؤلاء الملوك لم يتمكنوا قط أن يكونوا أسياد ساحل البحر في بلادهم الخاصة . لكنهم تحملوا صابرين على مضض أن يبقى هذا الساحل ملكاً للعرب .. » ثم أوضح أكثر فقال : « لقد أخطأ جغرافيونا حين صوّروا لنا جزءاً من الجزيرة العربية خاضعاً لحكم الفرس لأن العرب هم الذين يمتلكون جميع السواحل البحرية للامبراطورية الفارسية من مصبّ الفرات إلى مصب الآندوس على وجه التقريب ... صحيح أن المستعمرات الواقعة على السواحل الفارسية لاتخص الجزيرة العربية ذاتها ولكن بالنظر إلى أنها مستقلة عن بلاد الفرس ولأن لأهلها لسان العرب وعاداتهم .. » (٣)

هذه بعض من الأدلة الدامغة والحقائق الثابتة تؤكد عروبة الخليج اسماً وحقيقة وتضع سكانه العرب وموطنهم في المكان الذي يستحقون من أمتهم العربية كما تثبت زيف الاساليب الاستعمارية وحملات ادعاءاتها المغرضة ، ويتضح لنا من الأدلّة التاريخية العربية والأجنبية أن نسبة الخليج لفارس تزوير مؤكد أوجبته الأساليب الاستعمارية .

لمحة عن جغرافية الخليج :

يؤلف الخليج العربي الذراع الأيمن من بحر العرب أو أحد خليجي المحيط

١ — معجم البلدان تأليف ياقوت الحموي صفحة ٤٤٩ .

٢ — العرب قبل الاسلام جرجي زيدان صفحة ١٨٣ .

٣ — الخليج العربي قدري قلعجي .

الهندي (البحر الأحمر والخليج العربي) وقد نشأ نتيجـــة عوامل متعددة منهـا الالتواءات والهزات الأرضية المنيفة التي حدثت في الطور الثالث من العصر الميوسيني ونهضت بسببها سلاسل طوروس وزاغروس وهيميلايا كما نهدت هضبة ايران وتكوّن غور فسيح في منطقة الخليـج أثرت فيه عوامل مختلفة ـ أهمها نهرا دجلة والفرات اللذان كانا وما يزالان يرسمان شطآنه ويبدلان أشكاله نتيجة عوامل الجرف والطمي . تبلغ مساحة الخليـج مئتين وخمسين ألفاً من الكيلو مترات المربعة وهو ضحل المياه لايتجـاوز عمقـــه مئة متر أما طوله فيبلغ في خط مستقيم بين مصب شط العرب وساحل عمان ثمانمائة كيلو متر ويتراوح عرضه بين ثمانية وعشرين ومئتي كيلو متر إلى الشرق من شبه جزيرة قطر وبين ستة وأربعين كيلو متراً في مضيق هرمز ويمكن تقسيم الخليـج جغرافياً إلى ثلاث مناطق :

آ ـ المنطقة الشرقية : تتكوّن من سهل ساحلي ضيق تكثر فيـــه الجونات (المنـ قعات الساحلية) وتليه إلى الشرق سلاسل جبلية تأخذ في الارتفـاع كلما إمتدت نحو الشمال لتؤلف الحدود الطبيعية الشرقية من الوطن العربي وما بين هذا الساحل وتلك السلاسل الجبلية يمتد اقليم عربستان الذي تواطأ الاستعمار البريطاني والايراني لسلخه عن الوطن الأم في أعقاب الحرب العالمية الأولى . لقد كانت الأطماع الاستعمارية في هذا القطر العربي الذي يرقد فوق أحواض غزيرة من النفط وتتوفر على سطحه التربة اللحقية الخصبة وتخاوف بريطانيا من ترشيح الشيـخ خزعل نفسه لعرش العراق مشترطاً لزوم قيام وحدة بين الاقليمين (العراق وعربستان) فراحت بريطانيا تسعى إلى اقناعه بسحب ترشيحه حتى تمّ لهـــا ما أرادت وأخذت توغر صدر إيران وتشجعها على احتلال الاقليم وتساعدها عن طريق الغدر والخديعة بعد الفشل العسكري .

أما سواحل هذه المنطقة فهي قليلة التعاريـج أنشأ عليهـا الايرانيون بعض الموانىء مثل بندر عباس وبندر كنجه وبندر شهر .

ب ـ المنطقة الغربية : وهي إمتداد طبيعي لشبه الجزيرة العربية شرقاً ، ساحلهـا كثير التعاريـج متعدد الخلجان والرؤوس تقابله مجموعات من الجزر يساعد وجودهـا على هدوء حركة الماء في الخليـج واستخدامها كمراكز لصيادي السمك ومـــوانىء لاستقبال السفن كما تنطوي سواحلها على مصايد اللولؤ والاسمـاك والى الغرب منها تمتد سهول الاحساء بطول أربعمائة كيلو متر وعرض ستين كيلو متراً ، وتليها غرباً سلاسل قليلة الارتفاع

كجبال شمّر والجبل الأخضر الذي يتميز بروعة مناظره .

جـ ـ المنطقة الشمالية : وتشمل سهوب جنوب بلاد الرافدين وغرب عربستان وهي سهوب رسوبية حديثة غنيَّة بالثروة المائية ، تكوّنت من رسوبات النهرين التوأمين (دجلة والفرات) ، اللذين أرغما الخليج على التراجع نحو الجنوب وقيام سهوب خصبة كانت من أهم عوامل إزدهار الحضارة في التاريخ القديم .

إن موقع الخليج وتداخله بين بلاد الشرق القديم قصر الطريق البري عبر وادي الفرات وبادية الشام وجعله الطريق التجاري الشمالي واستمر يلعب دوراً بارزاً في نقل التجارة وتحقيق الاتصالات البشرية بين عالمي المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط منذ أقدم العصور . ولم يفقد هذا الخليج جزءاً من أهميته إلا بعد شق قناة السويس ، لكن اكتشاف منابع النفط في منطقة الخليج واستخدام وسائط النقل الحديثة أعادت للخليج العربي أهميته الاستراتيجية ودوره الانساني .

الخليج ملتقى تيارات الصراع في العالم القديم :

تاريخ الخليج حافل بالأحداث الحربية منها والحضارية، تصارعت من أجل موقعه وثرواته مختلف القوى في العالم القديم ودرج على شطآنه رواد الحضارة الأوائل من سومريين وعيلاميين وبابليين وآشوريين وكلدانيين وعرب [1] . واذا استثنينا السومريين والعيلاميين نجد أن الشعوب التي شع نور حضارتها إلى أنحاء العالم القديم هي شعوب عربية ترجع بنسبها وأصولها إلى عرب شبه الجزيرة العربية الذين دفعتهم ظروف الحياة وقسوة الطبيعة وتبدل المناخ للهجرة نحو مواطن الماء والخصب في بلاد مابين النهرين وبلاد الشام ووادي النيل حيث أسسوا دولاً قوية وحضارات رائعة وتطلعت نحو التوسع والفتوحات .

لقد ورد في أخبار سرجون الأكادي أن فتوحاته بلغت البحر الجنوبي أو الأسفل أي الخليج العربي وأنه استولى على أجزاء منه . كما ورد في كتابة على تمثال من الديوريت لنارام سين تنص : أنه أخضع بلاد ماغان (عمان) وغلب سيدها مانيوم ويدل عثور المنقبين على أختام ومواد أخرى من عمل الهند في أور وكيش والبحرين ومواضع أخرى من الساحل العربي الشرقي . على أن الاتصال التجاري البحري كان

---

١ ــ عمان والخليج العربي تأليف فضيل عبيد صفحة ٧٧

معروفاً في الألف الثالثة قبل الميلاد، وأن حركة الاتصال هذه كانت مستمرة عامرة وأن بعض مواضع الخليج مثل البحرين كانت من مراسي السفن الشهيرة في تلك الأيام، تقصدها السفن القادمة من العراق في طريقها الى الهند والسفن القادمة من الهند في طريقها الى العراق. وتشير النقوش السومرية والآكادية التي ترجع الى الألف الثالثة قبل الميلاد الى صلات بحرية واسعة بين أرض الجزيرة وبلاد دلمون (البحرين) والعراق وماغان (عُمان) وميلوخا التي تقع جنوب الاحساء في عمان [1] ويظهر من النصوص أن (دلمون) كانت جزيرة تتمتع بقدسية خاصة، وقد رويت عنها أساطير دينية وعبدت فيها آلهة تعبد لها أهل العراق مما يدل على الاتصـــال الثقافي المتين الذي كان بين العراق والبحرين، وتشير اسطورة (أنكي) وزوجه (منخرساك) وملحمة (جلجامش) وأسطورة ارض الحياة وغير ذلك من القصص الشعبي الى هذا الاتصال الطبيعي بين جنوب العراق والعروض.

يرى بعض المؤرخين أن سكان الخليج هم أول من رفعوا شراعاً في البحار ومارسوا الملاحة وأتقنوا علمها فكانوا الصلة العاملة بين الشرق والغرب ويرى آخرون أن الفينيقيين هم من هذه الديار العربية [2] أي من سكان البحرين بينما يقول فضيل عبيد في كتابه (عمان والخليج العربي): (إن الفينيقيين كان موطنهم عُمان، وميناء تجارتهم مع افريقيا والشرق الأقصى هو ميناء صور الواقع إلى الشمال من رأس الحد). ليس المهم أن نتعمق في البحث عن الوطن الأصلي لهؤلاء الملاحين الفينيقيين العظام لكن الأهم من ذلك هو أن نعرف الدور الحضارى العظيم الذي قام به سادة الملاحة البحرية وأساتذة العالم القديم وما قدّموه للعالم المعروف آنذاك من خدمات اقتصادية وفكرية.

أما البابليون فقد أتقنوا فنّ الملاحة كأقربائهم الفينيقيين واتصلوا بالهندوسيلان والجنوب العربي والحبشة يصدّرون إليها مصنوعاتهم اليدوية المتقنة، وكان الخليج العربي يحظى برعاية ملكية بابلية (أرنولد ويلسون) ويقول الكاتب اليوناني ايشنوس: «إن بابل التي ترقد على كنوز من الذهب كانت تبعث بضائعها على متون السفن».

ثم أصبحت أرض جزيرة العرب مسرحاً لملوك آشور فقد جاء في نص آشوري أن الملك سنحاريب أرسل حملة إلى الخليج فانتصرب وحققت رغباته، وقد فرّ ملك

---

١ — تاريخ العرب قبل الاسلام جواد علي ج ١ صفحة ٥٥٤ — ٥٦٠

٢ — ملوك العرب الجزء الثاني صفحة ٢٢١ تأليف أمين الريحاني.

إلى الخضوع لآشور . ويظهر أن سنحاريب كان قد تمكن فعلاً من إخضاع الأعراب له ومن السيطرة عليهم . ويرى بعض الباحثين في نعت (هيرودوت) له بانه ملك العرب والآشوريين تعبيراً عن إخضاع الأعراب للحكم الآشوري وإن كان ذلك قد وقع لأمد محدود (١) . وقد افتخر آشور باني بعل بأنه ملك من البحر الأعلى حتى جزيرة دلمون من البحر الأسفل (٢) أما عن علاقة البابليين بالخليج فالمعروف أن البابليين كانوا قد ضموا جزيرة (دلمون) أي البحرين إلى أملاكهم وعينوا عليها حاكماً بابلياً وذلك بعد سنة ٦٠٠ ق . م بقليل . (٣)

الصلة بين العرب والفرس :

إن معارفنا بصلات العرب بالأخمينيين والبارثيين قليلة جداً فلقد ذكر كزينوفون العرب في جملة أتباع الملك كورش ٥٥٧ - ٥٢٩ ق.م وأنه عيّن والياً عنه على (العربية) ويظهر أن المراد بها (الجزيرة) أو جزء منها وذكر هيرودوت أن جميع سكان آسية الذين أذلهم كورش ثم قامبيز بعده قد اعترفوا بسلطانه إلا العرب ، فهؤلاء لم يخضعوا كالرقيق البتة لسلطان الفرس وانما كانوا قد تحالفوا معهم وساعدوهم في الوصول إلى مصر ، ولو كانت علاقاتهم غير ودية معهم لما تمكن الاخمينيون من غزو مصر . واهتم دارا بأمر التجارة البحرية فأمر سكايلاكس اليوناني بالذهاب إلى البحر الأحمر والمحيط الهندي لكشف تلك المناطق وتكوين صلات تجارية معها فوصل هذا المكتشف اليوناني - على رواية هيرودوت - إلى الهند وقد أثرت هذه الخطوة تأثيراً خطيراً على التجارة العربية في البحار إذ فتحت البحر الأحمر والبحر العربي والمحيط الهندي لمنافسين أقوياء صار بامكانهم شراء تجارة افريقية والهند وسواحل جزيرة العرب باسعار رخيصة لبيعها في الاماكن التي تريدها والتي كانت تشتريها بأثمان غالية وبذلك أخذت من التجار العرب جزءاً كبيراً من أرباحهم وألحقت بتجارتهم مع البحر المتوسط ضرراً لايستهان به (٤) .

١ — تاريخ العرب قبل الاسلام ج١ صفحة ٥٩١
٢ — جواد علي ج١ صفحة ٦٠٥
٣ — نفس المرجع صفحة ٦٢٠
٤ — جواد علي ج (١) صفحة ٦٢٤ - ٦٢٥

الخليج العربي في العصر اليوناني :

منذ بداية الثلث الأخير من القرن الرابع قبل الميـــلاد بدأ عصر جديد من عصور التنافس والصراع في منطقة الخليج العربي ، فقد داعبت الآمال مخيلة الاسكندر المكدوني لاكتشاف أرض العرب ومصب نهر الهندوس ومنـابع شروق الشمس كي يؤسس امبراطورية عالمية يتحقق فيها الاخاء وتزول منهـا عوامل الخصومة والحروب وتمتزج فيهـا حضارة الشرق بحضارة الغرب ، ولتحقيق هذه الطموحات قام بسلسلة من الحروب والفتوحات اجتاح خلالها بلاد الشرق القديم ونفّذ أمنية أبيه في الانتقام من الفرس الاخمينيين الذين غزوا بلاد اليونان .

لقد أسند الاسكندر مهمة بناء أسطول كبير إلى أحد كبار مهندسيه (كراشير) وسيّر حملات متواصلة إلى الهند لجلب الأخشاب من غاباتها وبنـاء الاسطول الذي أسند قيادته إلى صـــديقه نياركوس واختار له البحـارة من الفينيقيين والمصريين والقبارصة واليونان ثم سيّره للكشف في الحوض الأخضر (الخليج) ، وتـتابعت تلك الحملات للكشف والتوسع على أيدي قواد تابعين للاسكندر أمثال نياركوس وأركياس وهيرون دي سولي ولقد منيت الحملتان الأولى والثانية بالفشل ، وتمرد الجند أثناء الرحلة في جزيرة دلون فأمر الاسكندر بصلب ربابنة السفن وسيّر حملتين ثالثة ورابعة نجحت في الوصول إلى باب المندب .

كان اهتمام الاسكندر ببناء السفن وتحسين الملاحة في نهر الفرات والنهوض ببناء بابل يضاهي اهتمامه باكتشاف مصب نهر الهندوس وبالتالي منابع شروق الشمس (١) وشجع الاسكندر على بناء المدن الـــتي سميت (الاسكندريات) نسبة اليه وشجع اليونانيين على السكنى في تلك المدن وعلى التمازج بين الشرق والغرب كي يحقق الهدف الذي كان يصبو اليه فـكان من نتيجة دلك أن المنطقة عاشت في خير وبحبوحـــة ونشطت العلاقات التجارية بين الشرق والغرب عبر الخليـج على أيدي الملاحين الفينيقيين وعرب جزر الخليـج وشطآنه .

إن الفتح المكدوني للمنطقة الشرقية من بلاد العرب لم يؤثر على البنية الاجتماعية لسكانها واستمرت العروبة سمة مميزة للعرب القاطنين هناك . ثم كان موت الاسكندر في بابل بحمى الملاريا في الثالث عشر من حزيران عام ثلاثة وعشـرين وثلاثمائة قبل

---

١ ـــ الكفاح العربي في عربستان : خليل التميمي

الميلاد نهاية المطاف بالنسبة لتيار الكشف والفتوحات .

انتقلت السيادة على القسم الشرقي من الامبراطورية الى السلوقيين الذين شغلوا عنها بالنزاع مع البطالمة على جنوب بلاد الشام فتحررت السند وقامت الاسرة البارثية في فارس وانتزعت العراق من السلوقيين عام ١٣٨ ق م .

الصراع بين العرب والفرس الساسانيين :

ثار الساسانيون على البارثيين وانتزعوا الحكم من أيديهم عام ٢٢٤ ميلادية ومد الساسانيون نفوذهم إلى العراق وساحل غربي الخليج ودارت رحى الحروب بين فارس وبيزنطة وكان اللخميون في الحيرة حلفاء للساسانيين والغساسنة في بصرى حلفاء للبيزنطيين أما عرب شبه الجزيرة فقد كانوا يقلقون راحة الامبراطوريتين الكبيرتين بغارات خاطفة مستمرة . وظل الصراع بين خليجي المحيط الهندي (البحر الأحمر والخليج العربي) قائماً حتى تفوق الخليج العربي أثناء حكم الاكاسرة الأقوياء الذين الذين أسسوا موانىء على الخليج وسعوا لاقتناء المراكب وإنشاء الأسطول وقاموا بأعمال الملاحة عبر الخليج التي نراها تنمو وتزدهر إبان حكم الأكاسرة الأقوياء ثم تؤول إلى الضعف إذا ما إعتلى العرش أكاسرة ضعفاء لايحفلون إلا بأشخاصهم ولا يعيرون المصلحة العامة اهتماماً ، وكثيراً ما كان العرب يشنون الغارات على ثغور الفرس ومراكبهم التجارية ويخضدون شوكة الامبراطورية العظيمة (١) . وكانت مدينة الأبلة أهم موانىء أعالي الخليج في أيام فتح المسلمين للعراق وكانت حينئذ مسالح من قبل كسرى وكان تجارها يربحون ربحاً عظيماً (٢) .

وهكذا كان الخليج شرياناً حياً وميداناً لتبادل المنافع ومسرحاً لغارات الجيوش والقراصنة دون أن يتمكن كل ذلك من تغيير مجرى تيار العروبة في الخليج . فقد صنع الجاهليون سفنهم وقواربهم بأيديهم مستعينين بالخشب المستورد وبالخشب المحلي . صنعوها في مواضع متعددة من سواحل جزيرة العرب ولا سيما على سواحل الخليج حيث تيسر لسكانها استيراد الخشب الصالح لبناء السفن من الهند .

معارك عربية خالدة على شطآن الخليج :

إذا كان الفرس قد نجحوا في فرض نفوذهم على العراق والخليج واليمن إلى حين فان الأيام بالنسبة لهم لم تكن سهلة ميسورة فلقد دفعوا الثمن غالياً للوصول إلى أحلام الفرس وأطماعهم في أرض العرب دون جدوى وظل العرب أسياد أنفسهم

---

١ — الخليج العربي : قدري قلعجي .

٢ — تاريخ العرب قبل الاسلام : جواد علي ج ٧ صفحة ٢٥٧ .

وأرضهم ، حسبنا في ذلك ما تركه التاريـــخ الأدبي من منـاظرة النعمان بن المنذر لكسرى أنو شروان الذي أراد أن ينتقص من العرب ، وكيف ردّ عليـه (عامله) الردّ الشافي بوصف قومه : « لم يطمع فيهم طامع ولم ينلهم نائل حصونهـــم ظهور خيلهم ومهادهم الأرض وسقوفهم السماء وجنتهم السيوف وعدتهم الصبر . »(١)

كان الخليـج منطقة ساخنـة وشهد خلال تاريخه القـــديم مزيداً من الغزوات والمعارك منها غزوة بني عبـــد القيس من البحرين على بلاد فارس أيام سابور الثاني (ذي الأكتاف) ٣١٠ — ٣٧٩ ميلادية فغلبوا أهلها على مواشيهم ومعايشهم وغلبت قبيلة إياد على سواد العراق ثم مكث العرب حيناً لا ينزوهم أحد حتى كبر سابور فعبر الخليج إلى البحرين واليمامة والقطيف وشرع يقتل ولا يقبل فـــداء ، وسفك دماء لا حصر لها من تميم وبكر وعبد القيس انتقـاماً لغزو العرب الذي اســـتهدف الثغور الفارسية (٢) .

لكن معارك ثلاثاً دارت رحاها على أرض الخليج فكانت أياماً عربية خالدة ذاق الفرس فيها ألوان الذل والهوان .

آ — معركة قلهات حوالي ٥٣٦ ميلادية : كان الفرس قد احتلوا قلهات (مرفأ في عمان شمال رأس الحد) وفرضوا سيطرتهم على عمـان فخرج مالك بن فهم من السراة يريد عمان وانضمت إليه قبائل العرب من معدّ وغيرهم ، ودارت المعركة بين العرب والفرس فـــكانت نصراً للعرب ، وتجددت الحرب بعد عام فانتصر العرب أيضاً وطرد الفرس وتمّ نقل الهاربين منهـم على سفن العرب إلى الشواطيء المقابلة في إيران تسهيلاً لهم على النزوح والهرب . (٣)

ب — يوم **الصفقة** : هو اليوم الخالد الثاني من أيام العرب على الفرس في عهد كسرى أنو شروان (٥٣١ — ٥٧٩ م) يعود سببه إلى هجوم بني تميم على قافلة فارسية تحمل عدة القتال إلى عمال كسرى في اليمن في وادي نِطـاع باليمامة حيث استولوا عليها وقتلوا أساورتها (قوادهـا) وأسروا دليلها (هوذة بن علي الحنفي) الذي أخلى سبيله مقابل فدية ، فانطلق إلى كسرى وقصّ عليه أمر بني تميم فاغتاظ

١ — الخليـج العربي : قدري قلعجي صفحة ٩١

٢ — العرب قبل الاسلام : جرجي زيدان

٣ — عمان قديماً وحديثاً تأليف محمد علي الزرقاء صفحة ٥٩ — ٦٠

كسرى وأكرم هوذة بكأس من الذهب وثوب مذهّب من ديباج وعقد من درّ وقلنسوة ثمينة ثم قال : ياهوذة رأيت هؤلاء الذين قتلوا أساورتي وأخذوا مالي ؟ أبينكَ وبينهم صلح ؟ قال هوذة : « أيها الملك بيني وبينهم حساء الموت وهم قتلوا أبي » .

قال كسرى : « قد أدركت ثأرك ؛ فكيف لي بهم ؟ » قال هوذة : « احبس عنهم الميرة سنة ثم ارسل معي جنداً من أساورتك فأقيم لهم السوق. فانهم يأتونها فتصيبهم عند ذلك خيلك . » وفعل كسرى ذلك وكانت سنة مجدبة حتى أحسّ بضائقة العرب فأرسل إلى هوذة قائلاً : « إيتِ هؤلاء فاشفني منهم واشتفِ . » وأرسل معه ألفاً من الأساورة بقيادة شخص يدعى آذاد فردزين جشنس (١) حتى وصل حصن المشقّر من أرض البحرين ونودي الناس بأن كسرى قد بلغه الذي أصابكم في هذه السنة وقد أمر لكم بميرة . فقدم الناس وفيهم بنو سعد وهم بطن من تميم أخذوا يدخلونهم إلى الحصن واحداً واحداً بعد أن أخذ سلاحهم وفي داخل الحصن كان المكعبر يأمر بضرب أعناقهم فنظر عبيد بن وهب التميمي إلى قومه يدخلون ولا يخرجون فقال : ويلكم أين عقولكم ؟ فوالله مابعد السلب إلا القتل . وانتضى حسامه وضرب سلسلة كانت على باب المشقّر فقطعها وانفتح الباب واكتشفت الجريمة ، فاقتحموا الحصن واختلطت دماء الفرس بالنجيع العربي وخرج عبيد مفتخراً يقول (٢) :

تذكرت هنداً لات حين تذكّر ... تذكرتها ودونها سير أشهر
حجازية علوية حلّ أهلها ... مصاب الخريف بين زور ومنور
ألا هل أتى قومي على النأي أنني ... حميت ذماري يوم باب المشقّر
ضربت رتاج الباب بالسيف ضربة ... تفرج منها كل باب مضبر

جـ — يوم ذي قار : صفحة ناصعة من صفحات تاريخ العرب القومي والعسكري هو عدة أيام بين العرب الفرس حدثت عند ماء لبكر بن وائل قرب الكوفة اختلف المؤرخون في تحديد العام الذي حدث فيه هذا اليوم منهم من جعله

---

١ — سماه العرب المكعبر لأنه كان يقطع الأيدي والأرجل .

٢ — أيام العرب في الجاهلية تأليف محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد البخاري ومحمد أبو الفضل إبراهيم .

جمله قبل الهجرة والمهم في الامر انه حدث في مطلع القرن السابع الميلادي ، عند بزوغ فجر الاسلام إذ كان النبي ﷺ قد بعث ووصله نبأ نصـــر العرب في ذي قار فقال : « هذا أول يوم انتصف فيه العرب من العجم وبي نصروا » .

ترجع أسباب القتال في هذا اليوم إلى مقتل النعمان بن المنذر في المدائن ورفض هانيء بن قبيصة بن هانيء بن مسعود أحد بني ربيعـــة بن ذهل بن شيبان تسليم ما أودعه النعمان عنده قبل ذهابه لمقابلة كسرى إلى إياس بن قبيصة الطائي عامل كسرى على الحيرة فالتفت جموع العرب حول بني شيبان وساهمت النساء العربيات بدورهن المشرّف في القتال وأخذن يردّدن :

إن تهزمـــوا نعانق ونفـــرش النمارق
أو تُهزمـــوا نفارق فراق غير وامق . .

وثبت العرب في القتال وصمدوا صموداً عجيباً وألحقوا بالفرس هزيمة كانت بداية النهاية لامبراطورية الفرس . وأثبت العرب أنهم أمة واحدة تلتقي عند الخطر وتزلزل الأرض تحت أقدام الغزاة . .

للبحث صلة

---

١ — جواد علي ج ٣ صفحة ٢٩٤

اعداد المدرّس
جميل عازار

من مآثر العرب الحضارية :
صناعة الورق ونشره في العالم

١ — اشتهر العرب بالحفظ والرواية والحكم منذ القدم وكان لهم حضارة متواضعة تلبي حاجات مجتمعهم البدوي والحضري البسيط ، وليس سوق عكاظ إلا صدى لما طبع عليه العرب من شغف بالأدب والمشاعر الانسانية والفخر .

ولما ظهروا على مسرح الحضارة العالمية بعد ظهور الاسلام تفتقت طاقاتهم الكامنة وأبدعوا أيما إبداع في مختلف صنوف أبواب الحضارة ماشادته لهم قريحتهم الخصبة . . واعترف بفضلهم أساطين المؤرخين ، وفيما امتدت امبراطوريتهم من جنوب باريس في فرنسا إلى كاشغر في الصين هضموا وتمثلوا كافة الحضارات التي وجدوها في البلدان المفتوحة كالحضارة السريانية والهندية والفارسية واليونانية . . . وأجادوا في الطب والفلك والهندسة والفلسفة والزراعة وطوروا بعض الصناعات كالبارود والزجاج وصناعة الأسلحة والقماش والفخار . . .

وسنشرع الآن بدراسة ما أسداه العرب المسلمون إلى الانسانية من الفضل في تطوير الصناعة الورقية الهامة التي من الصعب أن يتخيل أحدنا تقدم المعرفة الانسانية بدونها ، ولكن لابد من اعطاء القارىء لمحة قصيرة عن المواد التي كانت تستعمل لتسجيل المعارف البشرية منذ تعرف الانسان على طريقة الكتابة بواسطة النقش بالازميل والمطرقة على الحجارة وتخلصه من هذه الطريقة الشاقة والمضنية . . . ومواد الكتابة تكاد تنحصر فيما يلي :

١ — ورق البردي .

٢ — الرقم الفخارية .

٣ — الرقوق (الجلود) .

٤ — الألواح الخشبية . . .

وسنتناول بشيء من الشرح كلاً من هذه المواد :

١ — ورق البردي في مصر :

في عصور ماقبل التاريخ كان الفيضان يأتي إلى مصر كل صيف ، فيشكل البرك والمستنقعات بعد ارتداد المياه الى مجراهـا الأصلي في النيل ، وتنمو ضمن هذه البرك أدغال" وحشائش ونبات البردي ، وقد استفاد المصريون من نبات البردى ، ذي الساق المثلثة والتي تحتوي على عصارة لزجة ، وطول هـذه النبتة يتراوح بين المترين والثلاثة أمتار ، وقطرها حوالي أربعة سنتمترات ؛ وبعد قلع النبات ونقله إلى المخازن ، ينزع الغلاف الخارجي (القشر) ويقطع الجسم الى شرائح رقيقة وتوضع هـذه الشرائح بجانب بعضها ثم توضع طبقة متعامدة فوق الطبقة الأولى حسب الطلب ، وتضغط الطبقتان معاً وتدق بمطارق من الخشب على سطح مستو ، وهنا تلعب العصارة اللزجة دورها في التثبيت واللصق ، بعد إضافة قليل من الماء . . وتصبح بعد ذلك صالحة للاستعمال . وكان الكاتب المصري يستعمل نوعين من الحبر : الاسود والأحمر وتكون الكتابة على شكل أعمدة أفقية أو رأسية بواسطة فرشاة يغمسها في المداد ويخط مايكلف به من الأعمال . . . .

٢ — الفخـار :

لم يستعمل سكان الرافدين الرق أو ورق البردى ، ربما لأنهم اعتقدوا أن الفخار — [وهم على صواب في ذلك] — أكثر مقاومة لعوامل الفناء وأطول بقاء من النوعين السابقين رغم أن الصلات كانت وطيدة بين القطرين : مصر والعراق منذ القدم . وكانت كتابة السومريين تعرف بالخط المسماري الذي سمي كذلك لأنها على شكل المسامير أو الأسافين .

وكان الكاتب يرسم علاماته فوق سطح اللوحة الطينية وهي طرية بواسطة قلم مثلث الشكل يمسك به مائلاً ، وعند الانتهاء يقوم بتجفيفه أو حرقه ، وبذلك يسهل حفظه ، وكذلك كتب البابليون ١٩٠٠ — ١٦٠٠ ق . م وثائقهم بهذا الخط ، وكانت تحفظ هذه الوثائق ضمن حرارة كبيرة فوق أرفف تلحق بالمعابد والقصور . . .

٣ — صناعة الرق :

نشأت هذه الصناعة بصورة أصولية ومنتظمة في مدينة برغاموم في آسية الصغرى عام ٢٦٢ ق . م على أثر انفصالها عن الدولة السلوقية ، وحدثت منافسة حضارية بين

الاسكندرية وبرغاموم بوصف الأولى المركز الأول للحضارة ، ولاوغام برغام على الاعتراف بزعامتها ، منعت الاسكندرية تصدير ورق البردى إليها ، فرد عاهلها أمنيز الثاني (٢٠٤ — ١٨١ ق . م) على هذه المضاربة بتشجيع صناعة جلود الضأن والماعز والعجول . . لتكون مادة الكتابة بدل البردى . ومع أن الرق كان يستعمل منذ القديم في الكتابة إلاّ أنه لم يأخذ شكل الصناعة المنظمة إلاّ زمن هذا العاهل البرغامي . ويسود الاعتقاد أن الاسم الأوربي للرق وهو البرشمان . . (parchment) مشتق من اسم مدينة برغاموم . وكانت أفضل أنواع الرق هي جلود العجول . . ومعالجة الجلود تكون على النحو التالي : يغسل الجلد ويدفن لمدة أيام ضمن الأحجار الكلسية للتخلص من شحمه وقذارته ثم يبسط على إطار ويترك ليجف وتحلق شعراته بواسطة السكين . ويصقل الجلد للحصول على سطح أملس للكتابة . . .

٤ — أما الألواح الخشبية الرومانية فكانت على نوعين :

١ — يطلى لوح الخشب بمادة بيضاء لتظهر عليها الكتابة واضحة .

٢ — يستعمل لوح ذو حواف بارزة ويسكب شمع منصهر على اللوح فيتكون بعد تجمد الشمع سطح مستو تحفر عليه الكتابة بقلم معدني مدبب (استيلوس) طرفه الآخر مستوياً لطامس الشمع بعد انتهاء الغرض المطلوب من النص المحفور عليه .

أما في بلاد العرب وخاصة في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين فقد استعملوا للكتابة جريد النخل والرقاع (الخرق) والرق وعظام أكتاف الشاة والابل وكانت الرق عند العرب هو أثمن هذه المواد ، ومنه قوله تعالى في كتابه الكريم (في رق منشور) (١) .

هذا وظلت مصر المورد الرئيسي لورق البردي في العالم القديم وخاصة الى بلاد اليونان ، ولما تعرف العرب على سر صناعة الورق كما سيأتي فيما بعد ، ونشروه في العالم قضى على صناعة ورق البردي نهائياً مع الرقوق ، وأصبحت مواد الكتابة متاحة لجميع جماهير الشعوب الاسلامية لأن الورق مادة سهلة ورخيصة . وأصبح لدى العرب المصانع الكثيرة وأسواق لبيع الورق والكتب ، وعندما كان رهبان الأديرة في أوروبا يقومون بحك الكتابة الموجودة على الرق لاستعمالها مجدداً في الكتابة (٢) كانت مراكز الاشعاع العقلي في بغداد وقرطبة ودمشق وبخارى وسمرقند والقيروان تعج بالخطاطين والنساخ وتجار الورق (الوراقين) والمجلدين والمُذَهبين والمزخرفين والمصورين للكتب لشرح مضمونها وخاصة الكتب الطبية والأدبية . وكان كثير من سكان

الامبرطورية الاسلامية وعائلاتهم يعيشون على أجر ماينسخونه من الكتب ، وليس سبب الخصومة بين ابن العميد وأبي حيان التوحيدي إلاّ عندما كلف الأول الثاني نسخ عدد من الكتب رآها التوحيدي مرهقة له . (٣) وإذا كان مقياس الحضارة في عصر من العصور هو نسبة المتعلمين إلى الأميين أو الذين يفكون طلاسم الحرف فيمكن اعتبار سكان الامبراطورية الاسلامية في أعلى السلم الثقافي . . وما تعجبُ رجال شارلمان من هدية هارون الرشيد الخليفة العباسي وظنهم أنها من قبيل السحر إلاّ دليلاً على مازعم :

والآن : كيف تعرف العرب المسلمون إلى الورق بعد نهضتهم الجبارة . . إن المتتبع للمصادر التاريخية التي أولت هذه الناحية اهتماماً بالغاً لايسعه إلاّ الاعتراف بالفضل العظيم للأيادي العربية التي طورت هذه الصناعة .

فلم يكن الاسلام يقيم عمد الأساس لصرحه الأشم في آسيا الغربية حتى اندفعت كتائب المسلمين المظفرة إلى ماوراء النهر عبر الطريق التي سلكها الاسكندر المكدوني من قبل . في عام ٤٦ هجرية الموافق ٦٦٦ ميلادية سير الخلفاء العرب من دمشق عدة حملات لفتح تلك البلاد . ولكن صفة الفتح المستمر والدائم لم تأت إلا عندما سير الحجاج القائد المظفر قتيبة بن مسلم الباهلي عام ٨٦ هـ / ٧٠٤ م وركز راية الاسلام فوق أسوار بلخ وسمرقند . . . ونشبت ثورة في بخارى عام ١٣٤ هـ قضى عليها العرب زمن حكم أبي مسلم الخراساني لتلك البلاد بزعامة القائد زياد بن الربيع الذي قمع الفتنة التي أضرم أوارها الثائر : شريك بن الشيخ المهدي وانضم إليه من الزعماء عبد الجبار بن شعيب وأمير خوازم ، (٤)

واستطاع زياد بن الربيع أسر عدد كبير من الفتية الذين كانوا يعرفون صناعة الورق حيث أفضوا بها إلى العرب .

ويكاد يتفق رأي العلماء أن الورق ابتكرته الصين خلال القرن الثاني للميلاد . . . في عام (١٠٥) م اخترع (تساي لون) مادة لكتابة مكونة من قشور الشجر والقنب والخرق البالية وشباك الصيادين وأصبح له مكانة محفوظة لدى الامبراطور الصيني . ولكنه تورط بعد ذلك مع الامبراطورة في بعض الدسائس ، وافتضح أمره . فذهب إلى منزله واغتسل ومشط شعره ولبس أحسن ملابسه ثم تجرع السم ومات .

وطريقته لصنع معجونة الورق كالتالي : تقطع المواد النباتية وتنقع في ماء الجير ،

فتصبح رخوة ثم تدق وهي مغمورة في السائل ،فتنفصل الالياف عن بعضها ، ويصفى المحلول خلال منخل حريريضيق المسام ، فتبقى فوق المنخل طبقة من الألياف تجفف ثم يصقل سطحها ويضاف إليها مادة ماسكة من الغراء لتقوية الألياف (٥) .

وبذلك تمكن العرب من إقامة مصانع للورق وانتـاجه بـكميات كبيرة وأصبح الكتان والقنب عماد صناعةالورق الأبيض الناعم ،وكانت الضربة التي تلقتها صناعة أوراق البردى على يد الخليفة أبو جعفر المنصور ٧٥٤ – ٧٧٥ م الذي حرّم على دوائر الدولة استعمال ورق البردى، وبنيت أول مطحنـة للورق في بغداد عام ٧٩٤ م في ظل حكم هارون الرشيد (٦) .

ثم شمل إقامة المطاحن الورقية أنحاء العالم الاسلامي، ويقال بأن أقدم مخطوطة على ورقٍ كتبت بالعربية في القرن التاسع (غريب الحديث) المنسوخ عام ٨٦٦ م ويعتبر أحد أقدم الكتب وهو الآن محفوظ بمكتبة جامعة ليدن وأما أول وثيقة أوربية كتبت على ورقٍ فتعود للملك روجر الصقيلي في سنة ١١٠٢ م بعد خروج العرب من الجزيرة ؛ وأمر بكتبته زوجته باليونانية والعربية في سنة ١١٠٩ م (٧) .

وكما تتنوع أصناف البضاعة فانأسعارها تختلف بحسب الجودة ومن سوق لآخر ، والورق أيضاً لم تكن أسعاره بعد انتشاره واحدة بل كانت تختلف حسب النوعية وحسب الجودة . . فالورق الأبيض الصقيل الذي يصنع في الصيـف أغلى ثمناً من الورق الأسمر الذي يصنع في الشتاء ويرجع الفرق بين نوعي الورق إلى المادة المستعملة : فقد كان يصنع من الكتان (ويكثر في مصر) المضروب بالقطن كما يصنع من الخرق البالية . (٨) ثم أين كانت تقام المصانع (المطاحن) الورقية من قبل العرب لهذه المادة الحيوية فهل كان انشاؤها يختص به قطر دون آخر ؟ يحدثنا لويجي لينيالد العالم الايطالي : إن العرب أول من أدخل هذه الصناعة إلى أوروبا وقد أنشأوا مصانع عظيمة في الأندلس وصقلية ومن ذلك الحين انتشرت صناعة الورق في إيطاليا (٩) .

هذا في جناح العالم الاسلامي الغربي ولكن مانصيب الجناح الشرقي في تطوير هذه الصناعة وهو الذي نقلها إلى الأندلس : فقـد ازدهرت صناعة الورق زمن هارون الرشيد الذي أمر بكتابة المصاحـف على هـذا الورق ، بدلاً من الرق (البرشمان) وانتشرت صناعة الورق انتشاراً هائلاً في البلاد الاسلامية كلها منذ القرن الثاني للهجرة (أي القرن ٨ للميلاد) ومن طريق العرب دخل الورق قارة أوروبا (١٠)

وجاء في مقال : ديار الكتب العربية ومشاكلها للعلامة العربي التونسي عثمان الكعاك مايلي :

نشر الكاغد : جلبه هارون الرشيد من الصين ونشره ببغداد فانتقل الى القيروان في نهاية القرن الثاني للهجرة وصنع بالمنازل والمعامل وتحول إلى الأندلس - مدينة شاطبة وبين وجوده بالقيروان ووجوده بفرنسة بمدينة اسون (Esson) خمسة قرون هذا ماقاله العلامة العربي .ونستدل من دراساتنا لهذا النص أن صناعة الورق أصبحت منزلية نظراً لسهولتها ويسرها وخيرها [11] .

ونحن الآن نرى كثيراً من السلع الاستهلاكية تزاحم بعضها البعض مما يجعل سوقها رائجة للسماسرة والمضاربين لدى الشركات والحكومات بقصد الربح التجاري واحداث الأزمات الاقتصادية ،فهل الورق مر بهذه الأدوار حسب جودته وأصنافه ؟ [وقد راجت صناعة الورق في العصر العباسي الثاني وكان ورق البردى الذي اشتهرت به مصر منذ عهد بعيد كثير الاستعمال حتى أوائل العصر العباسي الثاني ثم حل محله الكاغد الذي انتقل من الصين إلى البلاد الاسلامية واشتهرت به سمرقند حتى قبل أن كواغد سمرقند عطلت القراطيس وانتشرت صناعة الورق في دمشق وطبرية وطرابلس الشام وحافظت سمرقند على شهرتها في هذه الصناعة [12] .]

والشيء الجدير بالذكر أن العرب كانوا يستخدمون القوة المائية والهوائية في إدارة رحى طواحين الورق وهاك ماتقوله زيغريد هونكه :

[. . . حتى أنه اضطر (روجر الثاني) في عام ١١٠٢ م إلى تجديد وثيقة كانت قد دبجتها أمه النبيلة أديلازياAdelasia في العام السابق وتقضيبامتلاك مطحنة كان قد بناها عربي في دير القديس فيليبس [13] . SanFilippo ويستدل من كلام السيدة زيغريد هونكة ان بناء المطاحن كان اختصاصاً عربياً حققه العرب بأنفسهم ومنحوا أوروبا كل أنواع المطاحن المائية والهوائية . . .

وعندما ابتلى هذا الشرق الاسلامي بهجمة غادرة من قبل الغرب تحت ستار الدين والدين منها براء وأعني بها الحروب الصليبية ٤٩٠ هـ-٦٠٩ هـ ١٠٩٦- ١٢١٢ م . اقتبس الغربيون كثيراً من فنون الشرق وصناعته ، ففي الحرب اقتبسوا لبس الدروع الخفيفة وقرع الطبول والرتب العسكرية ؛ ونقلوا صناعة السكر والزجاج وغيره ونسوا كثيراً من عاداتهم واقتبسوا صناعة الورق [14] .

وعندما زحف الجنرال غورو على دمشق واحتلها عام ١٩٢٠ كان على رأس قواته الضابط غوابة وقد سجل غوابة مذكراته كضابط حربي وذيلها بهذا التعليق الفريد:

[انا في دمشق .. ان هذا الاسم كان يمثل لي شيئا خرافيا عندما كنت أقرأه في سجلات عائلتي وأنا بعد في سن الطفولة. إن جان مونتوليه الجد البعيد لجدتي من جهة (ابي لويز) كان قد وقع في الأسر خلال الحرب الصليبية الثانية ١١٤٧م ونقل الى دمشق: انه كان من السواد الاعظم [يقصد جنود الجيش] ولذلك لم يعامله السرافون (يقصد بها المسلمين) المعاملة الحسنة التي كانوا يختصون بها الفرسان اللامعين وأهل دمشق جعلوا منه ذلك الحين عبداً يشتغل في أحد المصانع التي يصنع بها الورق من القطن فاشتغل المسكين هناك شغلا شاقا خلال ثلاث سنوات، وبعد ذلك فر من دمشق وتمكن من الالتحاق بالجيش الصليبي بعد اجتياز آلاف المخاطر. وعندما عاد الى مسقط رأسه بعد غياب دام عشر سنوات أسس أول طواحين الورق التي عرفتها أوروبا. (١٥)

وأخيراً نقول: ان نهضة أوروبا جاءت بعد اطلاعها على تراث العرب العلمي والفكري وأخذ يساورهم شعور عظيم بالعجز والفشل أمام تيار العرب العلمي، وكاد يثبت في الاذهان انه لاسبيل الى مضاهاة العرب، وقد صور هذه الحالة النفسية أصدق تصوير الشاعر الايطالي تيرارك: ماذا لقد استطاع شيشرون أن يكون خطيبا بعد ديموشين واستطاع فيرجيل أن يكون شاعراً بعد هوميروس ثم بعد هؤلاء جاء العرب، لايسمح لأحد بالكتابة؟ لقد جارينا اليونان غالباً وتجاوزناهم أحياناً ثم تقولون (الكلام موجه لمواطنيه الطليان) إننا لانستطيع الوصول الى شأو العرب بالخيال بالعبقريه ايطاليا الغافيه.

عبد الرحمن ايوب

الرستن ـ ١٧/ ٧/ ١٩٧٧

المراجع لهذا المقال

١ ـ قصة الورق وصناعته في مصر : دكتور محمود عبد الواحد ص ١٢

٢ ـ أثر العرب في الحضارة الأوروبية : جلال مظهر ص ٣٣٨

٣ ـ أبو حيان التوحيدي : بقلم الدكتور زكريا ابراهيم

٤ ـ تاريخ بخاري : المستشرق المجري ارمينوس فامبري ص ٧٩

٥ ـ الورق وصناعته في مصر ص ٧٨

٦ ـ شمس العرب تسطع على الغرب : زيغريد هونكة ص ٤٦

٧ ـ أثر العرب في الحضارة الأوربية ص ٣٣٩

٨ ـ تاريخ الدولة الفاطمية : د . حسن ابراهيم حسن ص ٥٨٩

٩ ـ العلوم عند العرب : قدري حافظ طوقان ص ٣١

١٠ ـ دور العرب في التكوين الأوربي : د. عبد الرحمن بدوي

١١ ـ مجلة الآداب البيروتية العدد ٢ ـ ص ٧٠ شباط سنة ١١

١٢ تاريخ الاسلام السياسي : د: حسن ابراهيم حسن جزء ٣ ص ٣٢٥

١٣ ـ شمس العرب تسطع على الغرب. هونكة ص ٤٦

١٣ ـ الحروب الصليبية : رفيق التميمي ص ٢٧٢

١٥ يوم ميسلون : ساطع الحصري ص ٣٦٨

الهجرة اليهودية الصهيونية بين

١٨٨٠-١٩٤٨

اعداد المدرس : منذر حمودي

مع أن الكثير من الكتاب والمؤلفين ، قد ألفوا الكتب وصنفوا الدفاتر في موضوع القضية الفلسطينية ، وأثرها على حركة تطور الوطن العربي ، لدرجة ما ، بدأ بعض الناس معها بالتساؤل قائلين : أو لم تشبع القضية الفلسطينية درساً وتمحيصاً ، أو ليس من المفيد والأجدى أن نصرف جهدنا ووقتنا ومالنا في سبيل القضايا الأخرى التي نعاني منها ؟! في هذا الوقت بالذات أجد نفسي مضطراً لدراسة القضية الفلسطينية ، انطلاقاً من اعتقادي بأن الامبريالية وحلفاءها ، قد خططوا لايجاد إسرائيل بقصد تعويق وعرقلة مسيرة النضال الكفاحي المنتظر من الأمة العربية . وانني لأرجو أن يساعدني الحظ في بحث الهجرة الصهيونية وما رافق ذلك من أساليب ماكرة وغير أخلاقية ، مارستها الجهات المعادية للأمة العربية بشكل يتفق وينسجم مع الأهداف الاستعمارية . لذا نبدأ بعوامل الهجرة (١) الصهيونية ، التي يمكن اجمالها فيما يلي :

١ — عامل أساسي : يشارك فيه طرفان هما :

أ — البورجوازية الغربية - التي أصبحت امبريالية -

ب — البورجوازية اليهودية ، التي نمت وتكونت داخل البلدان الأوربية ، قبل ظهور البورجوازيات الغربية ، فأتاحت الظروف للبورجوازيين اليهود ، أن يلعبوا دوراً هاماً في حياة أوربة ابان تأسيس الدول الأوربية الحديثة ولاسيما خلال مرحلة الاستعمار والتنافس الاستعماري . لذا كانت البورجوازية اليهودية مقبولة لدى الانظمة الأوربية لارتباطها واستفادتها من الرساميل اليهودية من جهة ولعدم وجود بورجوازيات أوربية بديلة في بادىء الأمر . الا ان هذه الحالة لم تستمر طويلاً بسبب تكون البورجوازيات الوطنية الغربية ، التي راحت تضيق ذرعاً أكثر فأكثر

بحسب حجمها وازدياد نفوذها ، بالبورجوازية اليهودية ، في مجال التنافس الاقتصادي الداخلي ، لذا اقتضت المصالح البورجوازية المشتركة ، ان تحسم الخلافات الناشئة بين البورجوازيات الغربية والبورجوازيه اليهودية غير المطمئنة على سلامة مستقبلها ، وتم رأب الصدع عن طريق خلق تحالفات احتكارية عالمية موجهة ضد شعوب العالم وفي طليعتها ، الأمة العربية ، التي كانت في القرن التاسع عشر تعاني من آثار التجزئة والاحتلال والتخلف ، فتطلع المتحالفون نحو الوطن العربي كعالم جديد لم يوزع بين المستعمرين ولم يتمكنوا من نهب خيراته كما يريدون .

٢ — عامل ثانوي : يتكون هو أيضاً من عنصرين ، هما :

آ — شعور عدد قليل من المتدينين اليهود بالرغبة في الهجرة الى فلسطين للعيش بجوار الأماكن المقدسة — فكان هؤلاء عرضة لتضليل الصهيونية والامبريالية — .

ب — تعرض اليهود الفقراء للاضطهاد جزاء تصرفات البورجوازيين اليهود تجاه الشعوب الأوربية من ناحية طبقية ، ونتيجة بقاء رواسب الفكر الديني المتوارث من عهود الأنظمة الاقطاعية لدى الأوربيين من ناحية أخرى .

— ٢ —

مراحل الهجرة الصهيونية :

١ — المرحلة الأولى بين ١٨٨٠ — ١٩١٨

أسس المهاجرون اليهود أول مستعمرة (١) زراعيـــة في فلسطين عام ١٨٨٠ م وكانت بدائية متأخرة كما يقول المؤرخ ارنولد توينبي ، ثم بعد اشتراك بعض اليهود الروس في مؤامرة اغتيال القيصر الروسي اسكندر الثـــاني عام ١٨٨١ م ، تعرض اليهود الروس لاضطهادات وملاحقات ، هاجر على أثرهـا قسم كبير من اليهـود الى أوربة الغربية وامـيركا ، حيث تتمركز الرساميل ، ويشتد عود الامبريالية — التي تسهم في احتكاراتها بعض البيوتات المالية اليهودية — بينما اتجه قسم صغير من اليهود نحو فلسطين بتأثير جمعيات — أحبّاء صهيون — الداعيـــة الى تجميـع اليهود في

١ — من هذه المستعمرات : بتاح تكفا ـ ريشيون ليستيون ـ رونسون بتاح ـ زخروف يعقف .

فلسطين ، تحت ستار الأغراض الدينيــــة ، لاخفاء الغرض الحقيقي ، الرامي الى السيطرة على البلاد واستعمارها . ولهذا السبب قدمت الجمعيات المذكورة الدعم والمساعدة لليهود المهاجرين إلى فلسطين من أجل الاستيطان .

ثم مالبثت جمعيات صهيون أن تعـاونت مع ـ صندوق اكتشاف فلسطين ـ في عملية دفع اليهود باتجاه احياء التاريـخ العسكري اليهودي بغية استخدام القوة في السيطرة على البـلاد ، ونظراً لذلك اصدرت الدولة العثمانية في عام ١٨٨٨ القرارات والقوانين التي تحرم الهجرة اليهودية الجماعيـــة الى البلاد العثمانية وتحدد مدة دخول اليهود الأجانب بثلاثة أشهر للحج . ولكن اليهود حصلوا في عام ١٨٩٠ م من الدولة العثمانية على (اعـــتراف رسمي بهم ، باسم جمعية دعم الزراعيين والحرفيين اليهود في فلسطين وسورية) وكان ذلك بمثابة تراجع عن قرارات الحظر السابقة الى حد ما . وفي عام ١٨٩٣ م قام الرأسمالي اليهودي الأصل ـ بول فريدمان ـ بمغامرة عسكرية ، ونقل جيشاً مكوناً من حوالي ستين فرداً ، محمولين على ظهر يخت بخاري ، لاحتلال مدين ، واستعان بيهودي انكليزي للطقوس الدينية اليهودية ، كما استعان بيهود آخرين من الاسكندرية ، يتكلمون اللغة العربية ، يساعدونه على اغراء البدو والسكان الأصليين . كان معظم جيشه يتكون من أعضاء جمعيات حب صهيون ، إلا أن هذه المغامرة باءت بالفشل بعد أن قام الجنود بالعصيان على النظام العسكري ـ البروسي ـ القاسي الذي طبق عليهم .

ولمواجهـة الدولة العثمانية وا كراههـا على قبول الهجرة الصهيونية في فلسطين ، قابل تيودور هرتزل قيصر ألمانيا وطلب مساعدته من أجل انشاء شركة قانونية لتنمية الأراضي في فلسطين عام ١٨٩٨ م تكون تحت حماية ألمانيا ، لكن القيصر الألماني رفض تأييد هـــذا المشروع لأنه يثير مخاوف كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا على مصالحها ! . ولما لم تفلح مساعي الاعتماد على الدول الكبرى بما فيه الكفاية ؛ شجع زعماء الصهيونية قوميّي الشعوب والأمم المختلفـــة على ترويج افكار اللاسامية بين الجماهير ضد اليهود ، واشار إلى هذه الناحية هرتزل عام ١٨٩٦ بقوله : ان (من أشد أنصاري قـــوة حتى اليوم هو لاساميّي بطرسبورغ ايغـان (١) وسيموني) وتزداد الفكرة وضوحاً من خلال الحديث الذي دار بين هرتزل ووزير قيصر روسيا حول

---

١ ـــ روسيان متعصبان ضد اليهود .

ما تستطيع روسيا فعله لتشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين عندما قال الوزير : (كان من عادتي أن أقول للامبراطور المرحوم اسكندر الثاني : لو ان في الامكان اغراق ستة ملايين يهودي أو سبعة ملايين في البحر الأسود لبلغت قمة الرضا ولكن هذا غير ممكن إذن يجب علينا أن ندعهم يحيون) .

ولما ألح هرتزل على ضرورة تحرك روسيا نحو التعجيل في تهجير اليهود الروس ، أجابه الوزير الروسي - رايت - ساخراً : (ولكننا نقدم لليهود كل التسهيلات الممكنة للهجرة : رفسات مثلاً) . وتحمس للصهيونية كل من الألمان والانكليز والفرنسيين والاميركان بهدف المساهمة في تهجير اليهود الى فلسطين .

وفي موجة ثانية من الهجرة امتدت بين ١٩٠٤ — ١٩١٣ بلغ عدد المهاجرين بين ٣٥ — ٤٥ الفاً كان أكثرهم من اليهود الروس ، بينما كان معظم المهاجرين من الناحية الطبقية ، من العمال الذين اقاموا مستعمرات يهودية صرفة ، منع العمال العرب من المشاركة فيها وحصر العمل بالعمال اليهود فقط ؛ فكان هـــذا التصرف بمثابة مقاطعة اقتصادية يهودية للسكان العرب ، أصحـاب البلاد الأصليين . إلا ان هـــذه المقاطعة زادت في تحسب المثقفين العرب من الحركة الصهيونية وما ترمي اليه من زيادة الهجرة . ولكن وبالرغم من معارضة العرب للهجرة ووجود قانون الحظر الذي فرضته الدولة العثمانيـة ، فقد استمرت الهجرة بتأييـد من متصرف القدس احمد رشيد بك المعين عام ١٩٠٤ بل ازدادت رغم اوامر الباب العالي بمنع دخول المهاجرين وبذلك نرى شكلا آخر من اجراءات تعطيل قـوانين حظر الهجرة الصهيونية الى فلسطين مارسته السلطات الحاكمة . وفي عام ١٩٠٦ جرى استبدال احمد رشيد بك بمتصرف جديد هو علي اكرم بك ، نزولاً عند الضغوط العربية ، ونفذ هـــذا المتصرف التعليمات التي وصلت اليه من السلطات العثمانية بحذافيرها ، وكان ذلك نتيجة فشل المنظمة الصهيونيـة في كسب عطف الدولة العثمانيـة رسمياً رغم العروض المغرية التي قدمتها الصهيونية للدولة العثمانية ، التي عبَّر عنها هرتزل بقوله : (لو أعطانا جـــلالة السلطان فلسطين ، لبذلنا مافي وسعنا لتنظيم مالية تركيا تنظيماً كاملاً) . غير ان فرص نجاح المساعي الصهيونية لدى الدولة العثمانية ازدادت بعد قيام ثورة تركيا الفتاة عـام ١٩٠٨ واكراه السلطان عبد الحميد الثاني على اعـــلان الدستور والعودة بالبلاد الى الحياة البرلمانية التي سمحت لعدد كبير من اليهود بأن يصبحوا أعضاء بارزين في حزب تركيا

الفتاة وفي البرلمان العثماني . فقد تعاطف هؤلاء الحزبيون والبرلمانيون اليهود مع الحركة الصهيونية ، وكان من أبرزهم نيسم روسو ونيسم مازلباغ .

في عام ١٩١٠ وصف قائمقام الناصرة النوبي سلوك ومطامع الصهيونيين بقوله : (لايختلط اليهود بالعثمانيين أبداً ولا يبتاعون منهم شيئاً ، كما ان لهم مصرفهم الخاص . وأسسوا في كل قرية وفي كل مستعمرة لجنة مركزية ومدرسة . . . ولليهود أيضاً علم أزرق تتوسطه نجمة داود ؛ يرفعون هذا العلم بدلاً من العلم العثماني . . . ويصرخ اليهود عندما يخاطبون السلطات الادارية بأنهم مسجلون في السجلات العثمانية أي أنهم مواطنون عثمانيون وهذا كذب وخداع . . .) . ان ماتحدث عنه قائمقام الناصرة كان نتيجة ماخططت له الصهيونية في مؤتمراتها وخاصة مؤتمر لاهاي المنعقد عام ١٩٠٨ حيث قرر فيه الصهاينة تأسيس شركة للاراضي الفلسطينية وتخصيص قرض يقدمه البنك الوطني اليهودي لبناء حي عصري للمهاجرين اليهود بالقرب من يافا — نواة تل أبيب — كما تقرر اعتبار اللغة العبرية لغة التخاطب الرسمية للحركة الصهيونية ؛ لتصبح لغة الحياة اليومية والعلمية تجاري لغات الامم المتقدمة .

وتمشياً مع هذه السياسة أنشأ الصهاينة الجامعة العبرية في القدس عام ١٩١٣ فكان لها فضل كبير في مجال تطوير اللغة العبرية وتقدم الحركة العلمية العبرية من خلال جهود المعاهد والكليات التابعة لها مثل : معاهد الدراسات اليهودية والشرقية والفلسفة وكليات الآداب والتاريخ والعلوم بأقسامها : العلوم الطبيعية ، الكيمياء غير العضوية ، الكيمياء البيولوجية ، الكيمياء العضوية ، الكيمياء الطبيعية ، والرياضيات والهندسة . . . وفي الجامعة العديد من الأجهزة العلمية المعقدة الى جانب مكتبة تحتوي على ربع مليون من المجلدات في مختلف الأغراض الفكرية والعلمية .

بعد جهود مضنية بذلتها الحركة الصهيونية ، وصل عدد اليهود في فلسطين عام ١٩١٣ الى حوالي ٨٥ الفاً فتساءل عن ظاهرة الهجرة الصهيوني الدكتور روبين عام ١٩١٣ قائلاً : (وماذا جنى اليهود بعد عشرين عاماً ؟) ثم أجاب نفسه بقوله : (لاشيء أو مايقرب من العدم إذا قيس بالأحلام الأولى ولا علاج لذلك إلا إذا جلبنا دماء فتية من مختلف أنحاء أوربة تعيد الشباب وتنفخ في الأرض روحاً وثابة جديدة) . ولتحقيق ماطرح الدكتور روبين من أفكار فقد أقدم على تأسيس مكتب فلسطين في حيفا وراح يفاوض السلطات التركية ويوسع دائرة نشاط مكتبه

بواسطة الاستعانة بمزيد من الخبراء والقانونيين والزراعيين والفنيين من أجل جعل الهجرة ممكنة ومشجعه . إلا أن وقوع الحرب العالمية الأولى أحدث الخلل والفوضى في الجهاز الاداري الصهيوني ، وبرزت الى السطح ظاهرة الهجرة المعاكسة بين ١٩١٣ و ١٩١٨ وانخفض عدد اليهود في فلسطين من ٨٥ الفاً عام ١٩١٣ الى ٥٥ الفاً عام ١٩١٨ نتيجة تدني الحالة الاقتصادية وتوقف تدفق المونات (١) الخارجية ، فاستدعى كل ذلك جعل الهجرة تبدو وكأنها عديمة الجدوى ، قبل خضوع البلاد للاحتلال البريطاني عام ١٩١٨ .

المرحلة الثانية بين ١٩١٨ — ١٩٣٩

ما كادت تخضع فلسطين للاحتلال الانكليزي ثم للانتداب حتى بادرت بريطانيا الى التعاون مع الحركة الصهيونية والتصرف وفق مخططاتها لتعيين الصهيوني البريطاني هربرت صموئيل مندوبا سامياً في فلسطين ، والاعتراف بالمنظمة الصهيونية وحقها في تكوين وكالة تقدم النصح للانتداب وتتعاون مع حكومة فلسطين في المسائل (٢) الاقتصادية والاجتماعية التي من شأنها ان تؤثر على اقامة الوطن القومي اليهودي ، بل التزمت بريطانيا بالاعتراف بشرعية الهجرة وتسهيلها امام من يود دخول البلاد عن طريق المندوب السامي الذي يملك حق تحديد عدد المهاجرين من آن لآخر حسب الظروف وان مافعلته بريطانيا في فلسطين من اجراءات وتصرفات كان في الغالب مدبراً ومخططاً له ، وفق المصالح الاستعمارية البريطانية والمخطط الصهيوني الذي عبر عنه حاييم وايزمن بقوله : (ان مركز الثقل في الحركة الصهيونية ، ليس هو البرنامج المتطرف ، ولكن هو العمل المنجز ، الاستيطان ، التعليم ، الهجرة ، الحفاظ على علاقات لبقة مع دولة الانتداب ـ بريطانيا ـ وان التقدم بمطالبات غير عملية سوف يستثير العرب ويستبق المتاعب التي تحرج دولة الانتداب) . ولكي لا تثار مثل هذه المتاعب

---

١ — كان ذلك بسبب ظروف الحرب العالمية الأولى والتي كانت الدولة العثمانية احدى أهم الدول المشاركة في رحاها الدائرة .

٢ — سهلت بريطانيا الهجرة الصهيونية باقدامها على منح الجنسية الفلسطينية الى المهاجرين وتسليمهم العديد من امتيازات المشاريع كالكهرباء والبوتاس .

والاحراجات التي أشار اليها وايزمن ، لأن صك الانتداب قد صيغ بالشكل الذي يؤمن الوفاق ، ويمنع الطلاق بين الحركة الصهيونية راعية الهجرة ومعيلة المهاجرين وبين الدولة المنتدبة بريطانيا كفيلة تحقيق ذلك امام المؤتمرين في سان ريمو ، كما في المادة الثانية والتي تقول : (تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن وضع البلاد في احوال سياسية وادارية واقتصادية تضمن انشاء الوطن القومي لليهود) . وتنص المادة الرابعة على انه : (يعترف بوكالة يهودية ملائمة لهيئة عامة لاسداء المشورة الى ادارة فلسطين والتعاون معها في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك من الامور التي تؤثر في انشاء الوطن القومي اليهودي ومصالح السكان اليهود في فلسطين ، وتساعد وتشترك بترقية البلاد على ان يكون ذلك خاضعاً دوماً لمراقبة الادارة) . ونصت المادة السادسة قائلة : (على ادارة فلسطين مع ضمان عدم الحاق الضرر بحقوق ووضع فئات الأهالي الأخرى ، ان تسهل هجرة اليهود في أحوال ملائمة وان تشجع وبالتعاون مع الوكالة اليهودية حشد اليهود في الاراضي الموات غير المطلوبة للمقاصد العامة) .

كذلك أكدت المادة الثامنة والعشرون على : (أن تكون الانكليزية والعربية والعبرية ، اللغات الرسمية في فلسطين ، وكل عبارة أو كتابة بالعربية وردت على طوابع أو عملة تستعمل في فلسطين يجب ان تكرر بالعبرية وكل عبارة او كتابه بالعبريه يجب أن تتكرر بالعربية)

وفي الجلسة المشرين للجنة الانتداب الدائمة في عصبة الأمم بجنيف ، صرّح ممثل الحكومة البريطانية قائلاً : (ان الدولة المنتدبة ــ بريطانيا ــ تبذل كل ما في وسعها للسماح لليهود بالهجرة الى فلسطين وان حكومة فلسطين تنفق جزءاً من أموالها بطريق مباشرة وغير مباشرة في سبيل انشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين) . وفي مذكرة سرية أرسلتها بريطانيا الى يهود امريكا جاء فيها : (إن الحكومة البريطانية تعترف بجعل فلسطين موطناً قومياً لليهود وعلى منح يهود فلسطين جميع الحقوق القومية والسياسية والمدنية وعلى اطلاق الهجرة اليهودية الى فلسطين من كل قيد وعلى تكوين شركة يهودية يكون لها حق إمتلاك الأراضي) . وتنفيذاً لهذا المخطط التآمري الصهيوني ــ البريطاني بدأ اليهود يستولون على الوظائف ولا سيما الهامة منها بينما كان العرب يفقدون وظائفهم يوماً بعد يوم ، فغدت الوكالة اليهودية دولة ضمن دولة تتمتع بما يشبه حق الرقابة على السلطات البريطانية التي طلب منها بأن (... التشريعات التي تصدرها السلطات العسكريه يجب ان تعرض أولاً

على اللجنة الصهيونية) التي لم تخف أطماعها الاستعمارية الا عندما تخاف من تفجر المقاومة العربية ، عندئذ تلجأ الى التصريحات العلنية للتضليل ، وفي نفس الوقت تصدر المنشورات السرية إلى هيئاتها ومؤسساتها تعلن فيها عن عزمها واصرارها على حق تطويب فلسطين قاعدة لتحركات النشاط الصهيوني الهادف الى اغتصاب البلاد وتشريد سكانها ، كما أشار الى ذلك عام ١٩٢١ نائب رئيس الجمعية الصهيونية الدكتور ايدر بقوله : (لايمكن ان يكون في فلسطين الا وطن قومي واحد هو الوطن اليهودي ومن المستحيل ان تكون هناك مساواة في الشركة بين العرب واليهود بل يجب أن تكون هناك سيادة يهودية حالما يزداد عددهم ازدياداً كافياً) .

ومع ان السلطات البريطانية قد اصدرت في آب عام ١٩٢١ قانوناً يحدد الشروط المالية التي ينبغي أن تتوفر فيمن يود الهجرة إلى فلسطين من اليهود كما يلي :

١ — آ — أصحاب رأسمال لايقل عن الف جنيه .

ب — العاملون في المهن الحرة مع خمسمائة جنيه .

٢ - ذوو الفرص المؤكدة في ايجاد العمل في البلاد .

٣ — الأشخاص الذين يكفلهم سكان يقيمون في فلسطين .

وبذلك يكون القانون المشار إليه في جوهره ليس أكثر من مغالطة بريطانية لايهام العرب بأنها أرادت ان توقف الهجرة الصهيونية ، بينما هي ساهمت بتنظيم الهجرة نيابة عن الوكالة الصهيونية وعلى نفقة الشعب الفلسطيني وبرهنت عن حسن نيتها تجاه الصهاينة باقدامها على منح الجنسية الفلسطينية للمهاجرين اليهود . ونتيجة لهذه لهذه السياسات المعادية للحق العربي ، فقد دخل فلسطين خلال العقد الأول من الانتداب — ١٩٢٠ — ١٩٢٩ — حوالي مئة الف من المهاجرين ، وكان من أهم العوامل التي ساعدت على زيادة تدفق المهاجرين الى فلسطين ، وضع الولايات المتحدة الاميركية لعدد من الاجراءات التي تحدد عدد المرغوب بهم من المهاجرين وشروط قبولهم ، بينما كانت بولونيا ايضاً تعمل على تقليل عدد اليهود العاملين في بعض المجالات الاقتصادية التي تؤثر على مصالح الشعب البولوني قومياً ، ولهذا السبب أو ذاك يمم المهاجرون اليهود وجوههم نحو فلسطين ، في الوقت الذي

راحت الولايات المتحدة الاميركية تتطلع فيه الى أهمية المنطقة ومبادرتها الى تأسيس الشركة الاقتصادية الفلسطينية . وبسبب مواءمة الظروف وصل عدد المهاجرين في عام ١٩٢٩ الى ١٥٠ مئة وخمسين الفاً ، يعادلون ١٦٪ من مجموع سكان البلاد يوزعون وفق النسب التالية :

١ — ٣٣٪ يعملون في الصناعة .

٢ — ٢٠٪ يعملون في الزراعة .

٣ — ٢٠٪ يعملون في التجارة .

٤ — ٢٧٪ يعملون في المهن الحرة .

إلا أن تيار الهجرة الي فلسطين تأثر بالأزمة الاقتصادية الكبرى في العالم الرأسمالي والبلدان التابعة عام ١٩٢٩ ، وأصبحت الهجرة المغادرة لفلسطين ، أكثر من الهجرة القادمة اليها ، وخصوصاً ، بعد توقف تدفق الأموال من الخارج الى الصهاينة في فلسطين ، مما سبب اختناقاً في الاقتصاد اليهودي الصهيوني ، وخلق معاناة صعبة لليهود المهاجرين في نفس الوقت الذي انخفضت فيه نسبة المهاجرين الروس بشكل متزايد منذ قيام الثورة الاشتراكية واصدار القوانين التي تحرم الانتماء الى الحركة الصهيونية ، باعتبارها حركة رجعية كشفت عن طبيعتها المعادية للثورة الاشتراكية وباتت ذات صلة بالتيارات الشوفينية والتحريفية ، وحليفاً وثيق الارتباط بالامبريالية والأنظمة الرجعية ، وفي الثلاثينات توقفت الهجرة تماماً من الناحية الشرعية والرسمية ، ولكن ذلك لايعني توقف الهجرة غير الشرعية ، التي استمرت بتشجيع من الدوائر الامبريالية ، ودعاة الصهيونية المبثوثين هنا وهناك للعب بعقول العديد من بسطاء اليهود وفقرائهم واقناعهم بصحة حكاية وجود اللبن والعسل في فلسطين وتصويرها لهم بلاداً مهجورة من السكان ، تنتظر من يسارع الى استيطانها وجمع خيراتها وهكذا تجاوزت الصهيونية المحنه واستمرت الهجرة الى فلسطين ، إذ دخل البلاد عام ١٩٣٢ حوالي ٢٦ سته وعشرين الف مهاجر بصورة شرعيه ودخلها حوالي ١٤ أربعه عشر الفاً من المهاجرين بصورة غير شرعيه ، واستمرت نسبه المهاجرين في عام ١٩٣٣ بمعدل ثلاثه آلاف مهاجر في الشهر الواحد . وفي عام ١٩٣٤ — ١٩٣٥ دخل البلاد حوالي ١٠٤ مئة وأربعه آلاف مهاجر .

بينما اشترت شركات الاستيطان من الأراضي عام ١٩٢٩ — ١٩٣٠ حوالي ٢٥٠ مئتين وخمسين الف دونم وكان عدد الأسر العربية المطرودة من أرضها ٢٠ عشرين الف عائلة . وقد يكون من العوامل التي ساعدت على تحقيق ذلك تآمر السلطات البريطانية مع الأسر الاقطاعية عن طريق استخدام القوة أو التلاعب بقوانين تسجيل العقارات ـ الطابو ـ ومن أجل زيادة عدد المهاجرين لم تدع الصهيونية فرصة وصول هتلر الى السلطة تمردون الافادة منها ، لذا تحالفت مع اجهزته بغية تحقيق أهداف هتلر بالخلاص من اليهود ، وتحقيق أهداف الصهيونية في زيادة عدد المهاجرين الى فلسطين ، واتفق الطرفان على خطة ترويع اليهود وتخويفهم ليضطروا الى مغادرة أوربة والتخلي عن فكرة البقاء فيها ، وفي مجال تطبيق الاتفاق (كان رجال الغستابو يظهرون براعة خارقة في تنظيم الهجرة اللا مشروعة ، وسرعان ماتظهر تأشيرات السفر والخروج بصورة سحرية . وكانت شركة الملاحة الألمانية في الدانوب تنقل المهاجرين الى موانيء رومانيا) ليتوجهوا من هناك الى موانيء البحر الأبيض المتوسط ومنها الى فلسطين ، ولكي تكسب الصهيونية عطف العالم عليها وتيسر سبل تنفيذ مخططها الرامي الى السيطرة على فلسطين ، عمدت دعايتها الى المبالغة في تصوير الاضطهاد النازي لليهود . وقد أشار الى وجود المبالغة في تصوير الاضطهاد النازي الليفتينانت جنرال فريد ريك مورغان ، الرئيس البريطاني لادارة الاغاثة والاسكان التابعة للأمم المتحدة في المانيا بقوله : (١) (فاليهود الوافدون بالآلاف من مدينة لودز وغيرها من المراكز البولندية يرتدون الملابس الفاخرة ويبدون في صحة جيدة ، يتفجر الدم من وجناتهم وجيوبهم منتفخة بالنقود . وليس على أي فرد منهم سيماء البؤس أو الاضطهاد رغم أنهم جميعاً يروون نفس القصة الخيالية المملة عن المذابح والتعذيب) .

وبالرغم من مشاركة الدول الرأسمالية للحركة الصهيونية في التشهير بهتلر الذي هجر اليهود واضطهدهم كما يزعمون ، فان تلك الدول نفسها ، لم تسمح لليهود والغجر بدخول بلادها ، اذا ماوفقوا بالفرار من معسكرات الاعتقال . وان ذلك الموقف هو الذي يفسر لنا عدم اعطاء اليهود أكثر من ٤٧٦٧ شهادة هجرة بالدخول الى الولايات المتحدة الاميركية ، ويوضح الروابط المشتركة بين عنصرية هتلر ومشاعر الامبرياليين ازاء الجاليات اليهودية والغجرية في بلادها ، فعملت على تنشيط الهجرة نحو فلسطين بطرق مشروعة أو غير مشروعة ، وعلى سبيل المثال فقد دخل فلسطين

١ — قضية فلسطين . للدكتور طربين ص ٦٤٦ .

عام ١٩٣٦ حوالي ٣٦ ستة وثلاثين الفاً من السواح ، الا أنـه لم يخرج من هؤلاء السواح سوى ٤ أربعة آلاف فقط . ومن الاساليب التي اتبعتها الصهيونية في زيادة عدد المهاجرين بشكل غير أخلاقي وغير قانوني ، اقدام الصهيونية على خطف الأطفال من بين أحضان أهلهم وارسالهم الى فلسطين مع أن هؤلاء الأطفال لم يكونوا جميعهم من اليهود . وعلى كل حال وجد المهاجرون مايشجعهم ويغريهم على البقاء في فلسطين كاعطائهم أراضي الموات واقدام الاقطاعيين على بيع أراضيهم وقرام الى المؤسسات الصهيونية وبالاتفاق مع حكومة الانتداب البريطاني على اخراج الفلاح العربي من أرضه وتسليمها الى الصهاينة كاقدام المندوب السامي واكهوب على تهجير بدو وادي الحوارث من أرضهم وصرع بعضهم بالرصاص ، في الوقت الذي كان الصهاينة يفرضون على العرب مقاطعة اقتصادية شاملة من أجل افقارهم ودفعهم الى بيع أراضيهم والرحيل عنها . وقد وصف الخبير الانكليزي ـ سمبسون ـ هذه المقاطعة التي استمرت بعد فرض الانتداب بقوله : (ولا يؤلف ـ بشكل ـ مبدأ الاصرار المتعمد على مقاطعة العمال العرب وعدم تشغيلهم في المستعمرات اليهودية ، مناقضة للانتداب فحسب ، وانما يؤلف كذلك مصدراً دائماً ومتزايداً للخطر الذي يهـدد البلاد) . ولم يكتف بذلك بل وصف الصهاينة بالرذيلة أيضاً وأكد في تقريره (ان ٣٠٪ من القرويين العرب هم بحاجة الى مساعدة بسبب حرمانهم من الأرض) لتعاون كل من المشتري والبائع والمرابي مع بريطانيا والصهيونية ضد الفلاح المسكين الغارق بالديون،وكذلك دعا الى وجوب نشر التعليم الى جانب المساعدة المادية ، بغية ايجاد فرص جديدة للعمل والتخفيف من اندفاع الفلاحين نحو المدن للبحث عن عمل يهرب امامهم بسبب المحاصرة والمقاطعة . وتحدث عن مسألة الأرض الخبير الانكليزي فرنـش بقوله : (لو لم ترتكب الحكومة خطأ عظيماً في الماضي والحاضر لما رأينـا مشكلة المزارعين الذين لا أرض لهم) ووصف ايضاً تقرير لجنة شو حظر الهجره على العـرب كالتالي : (. . . ان الشعور السائد اليوم بين العرب يستند الى خـوفهم المزدوج من أنهم سيحرمون وسائل معيشتهم ويسيطر عليهم اليهود سياسياً يوماً ما بسبب المهاجرة اليهودية وشراء الأراضي وأصبح العرب لايرون في المهاجرة اليهودية خطراً على معيشتهم فقط بل يرون فيه ذلك الذي قد يسيطر على البلاد في المستقبل أيضاً) . ان ماورد في تقرير لجنة شو كان نتيجة مالوحظ من استيلاء الصهيونية على مليوني دونم من أخصب الاراضي في سهل الحولة ومرج ابن عامر وبيسان وسارونة ، وفي تلك الاراضي الطيبة

كانت تؤسس المستعمرات والمدن التي تكبر وتتسع يوماً بعد يوم وتصبح أكثر فأكثر قدرة على استقبال المزيد من المهاجرين الذين يتم توطينهم على الشكل التالي :

١ ـ التوطين في المستمرات الزراعية التعاونية (الموشاف) .

٢ ـ التوطين في المستعمرات الزراعية التعاونية الجماعية (الكيبوتز) .

٣ ـ التوطين في الملكيات الزراعية الصغيرة والخاصة .

وفي عام ١٩٣٦ وصف احد التقارير الهجرة اليهودية ووضع اليهود في فلسطين بأن (الطائفة اليهودية في فلسطين تبلغ أكثر من ٤٠٠ اربعمائة الف شخص ولها عاصمتها ، تل أبيب ، وهي اكبر مدينة في فلسطين ، ولهـا علمها الوطني ونشيدها الوطني ، ونظامها الثقافي ، ولها شبكة من المصالح الاجتماعية . وترتبط هذه الطائفة باليهودية العالمية بواسطة الوكالة اليهوديه ، بينما تدار شؤون هذه الطائفة الداخلية بواسطة مجمع وطني ومجلس ملي ومجلس ربانيين) .

أسس المهاجرون اليهود في فلسطين الأحزاب السياسية العديدة ، إلا أنها كانت أحزاباً عنصرية مرتبطة بالصهيونية والامبريالية ، تسعى جاهدة لتسويغ اغتصاب فلسطين والتوسع على حساب الأقطار العربية المجاورة . وفي الثلاثينيات كانت المنظمة العسكرية بيطار تردد النشيد التـالي :

مجـال حيوى للملايين	عـلى ضفتي الأردن
الأردن له ضفتـان	واحدة لنا وكذلك الأخرى

تبنت الأحزاب الاشتراكية اليهودية فكرة العمل باليد ، وحظرت العمل بالاجرة لدى الآخرين ، فكثرت مزارع الموشاف والكيبوتز الموزعة هنـا وهناك ، واستغلت الصهيونية بذلك ظاهرة العمل التعاوني في مجـال الدعاية والتشدق بامكانيـة تطبيق الاشتراكيين في فلسطين بعد تحررها من الانتداب الانكليزي . وكان لهذه الدعاية أثرها لدى الاشتراكيين اليهود ، الذين خدعوا بالدعاية وصدقوا خرافة اقامة النظـام الاشتراكي الرائد في فلسطين ؛ ثم مالبث معظم المخدوعين أن بدأوا يكتشفون مع الزمن زيف الادعاءات وتوزع الاشتراكيين بين الأممية الثـانية والاشتراكية البوندية وان المزارع التعاونية تتحول الى معسكرات انتاجية موجهة ضد العرب اولاً وضد الطبقة الكادحة من اليهود والعرب ثانياً بسبب سيطرة البورجوازية اليهودية على البلاد مالياً

واداريا ، كما تبين ارتباط معظم المؤسسات بالهستدروت الصهيوني ـ اتحاد العمال ـ الذي هو بدوره يخضع الى البورجوازية عن طريق مؤسسات (صنـــدوق المرض والعجز ـ بورصة العمل ـ شركة المقاولات ـ بيع المنتجات الزراعية ـ تعاونية البيع بالجملة ـ شبكة مدارس عمالية . . .) .

وان النقابات اليهودية لم تستطع الافلات من قبضة البورجوازية التي دفعتها في طريق الشوفينية لذلك رفعت شعار : العمل والأرض واللغة . لذلك كان لابد من قيام ثورة ١٩٣٦ التي عبرت عن رفض العرب للانتداب والصهيونية ، ونجم عن قيام الثورة تناقص عدد المهاجرين الى فلسطين من ٣٠ ثلاثين الف عام ١٩٣٦ الى ١١ أحد عشر الف عام ١٩٣٧ و ١٣ ثلاثة عشر الف عام ١٩٣٨ . وبعد سحق الثورة والقضاء على المقاومة عادت نسبة الهجرة الى الارتفاع وسمحت بريطانيا بدخول ١٥ خمسة عشر الف شخص في العام الى البلاد لمدة خمسة أعوام مع العلم ان الهجرة غير الشرعية استمرت بفضل سكوت بريطانيا التي (لم تفعل . . . كثيراً للحؤول دون الهجرة اللاشرعية ، كما أنها لم تطرد المهاجرين الذين قدموا بطريقة غير شرعية عند اعتقالهم) .

المرحلة الثالثة بين ١٩٣٩ — ١٩٤٨ :

استطاع هتلر منذ وصوله الى السلطة في ألمانيا ان يجند كل الطاقات والامكانات المتاحة في بلاده من أجل النهوض بالبلاد ودفعها في مجال التنافس الاقتصادي وبالتالي الدخول في الصراعات العسكرية مع جيرانه ومع الدول الامبريالية المنافسة لألمانيا اقتصادياً وعسكرياً ، مما فجر شرارة الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ . وفي تلك الأثناء (جهد الصهيونيون لاقناع دول الهجرة مثل الولايات المتحدة وكندا بعدم قبول اللاجئين اليهود ،مدعين بان اللاجئين لايريدون الذهاب الى اي بلد سوى فلسطين ، وهكذا رفضت عدة بلدان بما فيها الولايات المتحدة قبول قدوم اللاجئين اليهود) . ولتأكيد هذا الادعاء وكسب مواقف الدول وحيازة تعاطف الرأي العام لدى الشعوب ، أقدمت الصهيونية على ارتكاب جريمة قتل آلاف الابرياء من اليهود المهاجرين كاغراقها للباخرة باتريا والتسبب بمقتل ٢٥٠ مئتين وخمسين من ركابها ، والاقدام ايضاً على اغراق الباخرة ستروما والتسبب في مقتل ٧٥٠ سبعمائة وخمسين من ركابها أيضا . وهكذ نظراً لاساليبها الشريرة وتوسلاتها الملحة لدى الدول الكبرى ، مددت بريطانيا

مدة قبول المهاجرين الى فلسطين حتى عام ١٩٤٥ أي حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، ربما تسمح الظروف بتنفيذ ماهو مبيت للشعب العربي الفلسطيني . ثم ما كادت تعلم بريطانيا ان الحصان الانكليزي المكلف بجر العربة الصهيونية الي فلسطين ، قد شاخ ، واعدت له طلقة الخلاص بعد استبداله بحصان آخر ، لكنه هذه المرة كان حصاناً امريكياً حتى بادرت الى الاعراب عن عدم الرضا بواسطة وزير خارجيتها بيفن ، الذي علق على طلب الرئيس الامريكي ترومان الذي طلب : (من بريطانيا ، الدولة المنتدبة ، السماح لمئة الف مهاجر بدخول فلسطين قائلاً ـ أي بيفن ـ [1] : (أنا أقول بكل جد اذا كان الموضوع فقط هو موضوع التفريج عن مئة الف من يهود أوربه ، واذا كانت المسألة التي يجب علي حلها هي مسألة انسانية بحتة ، فاعتقد أنه يمكن المثور على تسوية ولسوء الحظ لم يكن الموضوع كذلك ، فان المئة الف من وجهة النظر الصهيونية هم فقط بداية ، وان الوكالة اليهودية تتحدث عن الملايين . ان طلب العرب هو طلب عسيرة جداً اجابته . نحن هنا في بريطانيا العظمى كمجلس العموم نقرر ما إذا كنا سنقبل الناس في هذا البلد أم لا . لا أحد غيرنا يقوم بذلك ، فلماذا يجب ان تقرر وكالة خارجية ممولة بسخاء من أمريكا كم من الناس يجب ان يدخل الى فلسطين ، وتتدخل باقتصاديات العرب ، الذين كانوا هناك منذ ألفي عام ؟ هذا مايجب علي مواجهته) .

نعم كانت بريطانيا مضطرة الى قول الحقيقة بعد أن شعرت بالخطر الامريكي الذي يهدد المصالح البريطانية في الوطن العربي أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية ولا سيما بعد اقبال الولايات المتحدة الامريكية على امتلاكها وسيطرتها لشركات البترول العاملة في آسية العربية . وكانت بريطانيا مضطرة الى المشاركة في اللجنة الانكلو اميركية عام ١٩٤٥ لكي تتمكن كل من الولايات المتحدة وبريطانيا من [2] (حل مشكلة فلسطين بطريقة عملية تخدم مصالحها) في المنطقة . درست اللجنة القضية الفلسطينية ورفعت بعد ذلك توصياتها لدعم الهجرة الصهيونية على الوجه التالي :

١ — منح مئة الف شهادة دخول الى فلسطين للصهاينة ومساعدة من يود الهجرة من اليهود الى فلسطين .

---

١ — قضية فلسين ص ٨٠٨ للدكتور أحمد طربين

٢ — دولة اسرائيل ص ٤٠ جالينا نيكيتينا

٢ — إطلاق حرية بيع الأراضي واجارتها بغض النظر عن المنصر أو المذهب أو الطائفة .

قدمت هذه المطالب وفرضت على الاطراف المعنية ، في وقت تطورت فيه فلسطين من الناحية العسكرية لصالح الصهيونية التي (أصبحت دولة شبه عسكرية أو دولة بوليس) ، أرادتها بريطانيا كذلك ، بدليل ان المفوض السامي البريطاني قد سارع الى القول : (قررت الحكومة البريطانية الآن لأسباب قوية وجـوب السماح باستمرار الهجرة بصفة مؤقتة بالمعدل المقترح وهو الف وخمسمائة مهاجر شهرياً) . وفي بلتمور بالولايات المتحدة الاميركية ، عقـد الصهاينة عام ١٩٤٢ مؤتمراً صهيونياً اميركياً ، قرروا فيه التوصيات التالية :

١ — التعجيل في قيام دولة يهودية كجزء من العالم الديموقراطي الجديد .

٢ — رفض الكتاب الابيـض الصادر عام ١٩٣٩ الذي يطالب بتحجيم الهجرة الصهيونية .

٣ — السماح بحرية الهجرة اليهودية .

٤ — السماح للوكالة اليهودية في السيطرة على الاستيطان .

٥ — انشاء جيش يهودي له رايته الخاصة والاعتراف به ويسمح بالمشاركة بالحرب الى جانب جيوش الحلفاء . والغرض من المطلب الاخير هو اظهار الصهيونية كأحد الأطراف المتحالفة ضد هتلر من جهة يمكن الافادة منها في الاتفاقات الدولية والدعاية للصهيونية . ولاستخدام هذا الجيش المدرب ضد العرب من جهة أخرى إذا ما سمحت الظروف .

وفرض على اليهودي الامريكي دفع ضريبة مقدارها ٢٥٠ مئتين وخمسين دولاراً امريكياً عندما يعتذر عن الهجرة الى فلسطين ومع هذا كانت نسبة المهـاجرين من اليهود الاميركيين ضئيلة بسبب قدرتهم على دفع الضريبة والتبرعات نتيجـة اشتراكهم مع الامبريالية الاميركية في نهب ثروات الشعوب ومنها طبعاً الشعوب العربية .

وبالرغم من الاجراءات الامبريالية الصهيونية المتخذة ضد العرب ، كان عدد سكان فلسطين عام ١٩٤٧ وفق الاحصاءات الانكليزية ، قد وصل الى (١٫٩٣٣٫٦٧٣) نسـمة منهم ٣١٪ من اليهود فقط نظـراً لعدم قيـام اليهود العرب بالهجرة الى فلسطين وذلك لاقتناعهم بانتمائهم العربي من جهة ولعدم وجود تمايز طائفي يستحق الذكر من ناحية أخرى . وعلى هذا الأساس كان اليهود الغربيون يشكلون ٩٠٪ من مجموع سكان يهود فلسطين حتى ١٩٤٧ .

المراجـــــع

اسم الكتاب	اسم المؤلف أو المترجم
١ ــ الهجرة اليهودية الى فلسطين	الياس سعد
٢ ــ تاريخ فلسطين	لوران غاسبار
٣ ــ ضد إسرائيل	بيير ديميرون
٤ ــ الخطر اليهودي	محمد التونســـي
٥ ــ محاضرات في التوجيه القومي	ادارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي للجيش السوري
٦ ــ مع الكلمة الصافية	قاســـم الشواف
٧ ــ الصهيونية في المجال الدولي	محمد عبد المعز نصر
٨ ــ هي هي الصهيونية	لجنة الثقافة والنشر بهيئة التحرير بالقاهرة
٩ ــ خنجر إسرائيل	علي كنمـان ـ ترجمة ـ
١٠ ــ الصهيونية العالمية	عباس محمود العقاد
١١ ــ دراسات يسارية	جلال صادق العظم
١٢ ــ إسرائيل بنت بريطانيا البكر	محمد الزعبي
١٣ ــ مفارق الطرق الى إسرائيل	خيري حماد ـ ترجمة ـ
١٤ ــ الصهيونية العالمية وخطرها الكبير على البشرية	سليمان حاتم
١٥ ــ إسرائيل والشرق الأوسط	علي محمد علي
١٦ ــ القضية الفلسطينية	اكرم زعيتر
١٧ ــ قضية فلسطين	أحمد طربين
١٨ ــ التمييز ضد اليهود الشرقيين في إسرائيل	هيلدا شعبان صائغ
١٩ ــ الحكم غيابياً	خالد قسطيني
٢٠ ــ في الادب الصهيوني	غسان كنفاني
٢١ ــ الضعف والسلام	ابراهيم العابد
٢٢ ــ التحدي الصهيوني	جاك دومال
٢٣ ــ الصهيونية أعلى مراحل الاستعمار	فتحي الرحلي

٢٤ — المذهب العسكري الاسرائيلي	هيثم الكيلاني
٢٥ — إسرائيل واقع استعماري	مكسيم رودنسون
٢٦ — دولة إسرائيل	جالينا نيكيتينا
٢٧ — عاجلاً أو آجلاً ستزول إسرائيل	١٥ كاتباً فرنسياً
٢٨ — المسألة اليهودية	كارل ماركس
٢٩ — فلسطين مسألة ماثلة	نادي كتاب الساعة بالهند
٣٠ — فلسطين جريمة ودفاع	ارنولد توينبي
٣١ — احذروا الصهيونية	يوري ايفانوف
٣٢ — تاريخ الاقطار العربية المعاصرة	نخبة من المؤلفين السوفييت ـ دار التقدم ـ موسكو
٣٣ — سلسلة شؤون فلسطينية حتى العدد ٥	منظمة التحرير الفلسطينية
٣٤ — مجلة المعرفة ـ عدد خاص ـ	وزارة الثقافة السورية

في متاهات الفكر الصهيوني

بقلم الياس مقدسي

فكر اليهود بعد أن دمر الملك الكلداني نبو خذ نصر مملكتهم عام ٥٨٦ ق. م اقامة دولة جديدة فثار (زور بابل) أحد زعمائهم عام ٥٢٢ ق. م مستفيداً من دورة الفوضى القصيرة التي مرت بها الامبراطورية الفارسية والتي تقع مابين وفاة قمبير وتولي داريوس الحكم ، ولكن سرعان ماتبخرت أحلامهم كما اخفقت فيما بعد جميع المحاولات التي بذلوها في اجتذاب اليهود للاقامة بأرض الميعاد المزعومة فلم يستجب لنداء (عذرا) أحد زعمائهم عام ٤٥٨ ق. م سوى عدد قليل وعدد أقل لنداء (نحميا) عام ٣٨٤ ق. م .

ومنذ ذلك الحين كان هدف اليهود الحفاظ على وجودهم ومقاومة مغريات الحضارات التي يعيشون بينها خشية أن ينجرفوا في تيار الاندماج [١] لذا عاشوا في أوربا بشكل خاص منغلقين على أنفسهم ضمن دائرة الجيتو / وهي الحارات اليهودية الانعزالية . / ويبدو أنه نتيجة لطبيعة البناء الفوقي الذي كان قائماً في الجيتو والذي كان يؤكد لليهود باستمرار أنهم المتفوقون المختارون فقد انجذب كثير من شبابهم للافكار العنصرية السائدة في أوروبا كفلسفة / نيتشة / فتأثروا بها ورأوا « أن اليهودية قد ابتعدت عن جوهرها منذ عصر الأنبياء وحتى الوقت الحاضر لأنها أعلت من شأن المجردات وأهملت القوة الجسدية وفضلت الكتاب على السيف والظل على الحياة ، وتحول اليهود إلى شيء ملتصق بالقانون المجرد ليس له إرادة مستقلة »

هذا وقد طالب هؤلاء الشباب وعلى رأسهم الفيلسوف الصهيوني / آحاد هعام / بضرورة اطلاق العنان للروح اليهودية ، كما رأوا أن اليهودي يعلو فوق التاريخ ويجسد كلمة الرب ويصلب من أجلها .

---

١ — مشكلة اليهود العالمية : دراسة تحليلية لآراء المؤرخ البريطاني ارنولد توينبي تأليف فؤاد محمد شبل ص ١٣

والواقع إذا كان تأثر الوجـدان اليهودي بالافكار المنصرية قد جاء فتأخراً فان الدول الاستعمارية في أوروبا قد تبنت قضية توطين اليهود خارج القارة الأوربية منذ منتصـــف القرن السابع عشر . ففي عام ١٦٥٤ كانت فرنسا ترغب في توطينهم في كينيا ، وفي عام ١٧٩٩ حاول نابليون توطينهم في فلسطين ولكن المحاولة باءت بالفشل إثر هزيمته على أسوار عكا .

وأما بريطانية فقد اهتمت بتوطينهم في فلسطين وقد أشار إلى ذلك (ايفانوف) في كتابه / احذروا الصهيونية / . كما ذكرت صحيفة التايمز في عددها الصادر بتاريخ ١٧ آب ١٨٤٠ :

« إن الاقتراح القائل بتهجير اليهود الى بلاد آبائهم ليسكنوها لم يعد مسألة جديرة بالبحث وحسب بل هو موضوع قائم فعلاً ويتطلب دراسة جدية . . . »

وفي المانيا كان بسمارك يفكر باستغلال هذه الفكرة ولكن بتهجير اليهود إلى البقعة الممتدة على طول خط سكة حديد برلين — بغداد .

وهكذا يتضح أن الدول الاستعماريه هي التي ابتكرت فكرة خلق الدولة اليهودية في الشرق العربي وانها كانت تدفع اليهود إلى قبول هذه الفكرة والترحيب بها .

وهنا يجب أن لاننسى دور الرأسمالية اليهودية التي كانت تملك زمام السيطرة المالية في كل من انكلترا وفرنسا وتتمتع باوضاع ممتازة في المانيا والنمسا كما كانت تقود التيار السياسى بزعامة أسرة روتشيلد . لقد كان روتشيلد من ألد أعداء ثورة باريس عام ١٨٤٨ تلك الثورة التي دقت ناقوس الخطر للرأسمالية اليهودية وحولت فكرة استطيـان اليهود في فلسطين من غرض استعماري مجرد إلى فكرة عنصرية تستهدف إبقاء يهود العالم في قبضة التحالف اليهودي العالمي المكوّن من كبار الرأسماليين اليهود .

وكان على الرأسمالية اليهودية أن تتحرك ، وتذكرت أن هناك رقعة من الأرض في هذا العالم ينظر اليها اليهود أنها مقدسة وتستطيع توجيههم نحوها بدعوى الاحسان وتخليصهم من الاضطهاد . وهكذا تحول اهتمامهم في اتجاه عنصري استعماري لتقضي على ظاهرة اندماجهم في المجتمعات البورجوازية .

إذن التقت المصالح الاستعمارية المتعددة مع الرأسمالية اليهودية حول هدف واحد وهو « توطين اليهود في فلسطين » ولكن ذلك الهـدف لم يثر فضول اليهود ويحول أنظارهم بشكل جماعي الى فلسطين . وكان لابد من ولادة الحركة الصهيونيـة لتحيل

الفكرة الاستعمارية إلى عقيدة سياسية . وفي اواخر القرن التاسع عشر جاءت الحركة الصهيونية كتعبير عن الذات القوميـة الوهمية . ولكن هذه الحركة ليست فكراً أو مذهباً أو عقيدة سياسية وإنما هي تشويه متعمد للمفهوم الانساني ، وهي تدعو لالغاء العقل والوعي والارادة الانسانية عن طريق الارتماء في أحضان المطلق ، والمطلق بطبيعته شامل وعالي يتخطى الزمان والمكان حيث أن كل مايجري في الطبيعة وحياة البشر بإرادة الاله / يهوه / ونتيجة لهذا الارتماء العفوي في احضان المطلق فقـد أصبح اليهود أمة مقدسة طُبعتْ جميعُ طقوسهم وكتبهم الدينية بطابع قومي عميق ، كما أصبحت فكرة الأمة المقدسة هي إحدى أسس الفكر الصهيوني الذي يري أن اليهودية ضرب من ضروب الفلكلور الشعبي الذي يستحق الاحياء بل والتقديس ويتبنى هـذا الرأي الحاخام / صموئيل حايم لاندو / وعدد من المفكرين الصهاينة أمثال (نحمن سيركين) .

يؤمن لاندو بالأمة اليهودية المقدسة ويُشيرُ في لغة صريحة إلى « أن الاقامة في الأراضي المقدسة هي أحد الأوامر الدينية اليهودية » .

وبذا تكون القومية هي القيمة الاساسية والمطلق الأول بالنسبة للشعب اليهودي ، كما تعتبر الأرض مطلقاً ثانيـاً لابد من توفره لأن القبس الالهي لايؤثر في الشعب اليهودي إلا وهو على أرضه (1) ثم يُشير لاندو إلى العمل ويعتبره مطلقاً ثالثاً ولكن تقديس العمل عنده لاينبع من احـترامه للعمل الانساني كوسيلة للتغلب على الطبيعة ولا هـو محاولة لتحقيق فكرة الانسان المتكامل الذي يفكر بعقله وقلبه ويده بل يتنبُع من إيمانه بأن العمل اليـهودي في أرض الميعاد عامٌ لاعادة خلق الانسان اليهودي والوجود القومي .

العمل إذن ليس نشاطاً ثقافياً ولا سياسياً ولا حتى أخلاقياً لأن مثل هذه المفاهيم لاتشمل الحياة الازلية التي هى صفة الشعب .

وبشكل عام يمكن القول إن الحركة الصهيونية لم تقابل بالترحاب من قبل اليهود فحينما عرض هرتزل كتابه / الدولة اليهودية / على حاخام فيينا استنكر فكرة الوطن القومي اليهودي ، وحينما حاول عقد المؤتمر الصهيوني الأول في ميونخ احتج

---

1 ـ الفكرة الصهيونية : النصوص الأساسية . إشراف الدكتور أنيس صايغ بيروت : منظمة التحرير الفلسطينية مركز الأبحاث 1970

أعضاء الأقلية اليهودية هناك مما اضطر الحركة الصهيونية في أن تتخذ من بال مركزاً لها . إلا أن الرفض اليهودي للصهيونية يختلف في درجاته ومنطلقاته .

ولعل أكثر اتجاهات الرفض ثورية هو الاتجـــاه العلماني الاندماجي الذي يرى أصحابه « أن الصهيونية ليست إلا تعبيراً عن عقلية الجيتو في خلطهـــا بـين الدين والقومية وأنها لاتعبر عن المستقبل وإنما هي رواسب من الماضي .. »

كما يرى أصحاب هذا الاتجاه أيضاً :

« أن اليهود ليس لهم تاريخ مستقل وإنما يشاركون في تاريخ الشــــعوب التي يعيشون بينها ، فتاريخهم فرنسي في فرنسا وانكليزي في انكلترا ، واللغة التي يجب أن يتحدثوا بها هي لغة الوطن الذي يعيشون فيه » وقد رفع هؤلاء الصيغة الاندماجيـة القـائلة :

« كن يهودياً في منزلك مواطناً خارجه »

والى جانب هذا الرفض العلماني هناك رفض آخر للصهيونيـة بخصوص تداخل الانتماء الديني والقومي عند اليهود ، يتمثل في موقف « صهيونية الدياسبورا » أوصهيونية المنفى وهي مدرسة تحاول أن تربط مابين الرؤية الصهيونية المطلقة وواقع الأقليـات اليهودية في الغرب . ومن اتباع هذه المدرسة الحاخام « سلفر ١٨٦٣ — ١٩٦٣ » الذي يرى أن المنفى ليس مصدر بلاء خالص بل هو حقيقة ينبغي الترحيب بها .

ويرى أيضاً « أن اليهود الامريكيين ليس لديهم مايدفعهم للعودة الى أرض الميعاد فظروفهم طيبة للغاية ، كما أنهم ليسوا ضحية للاضطهاد العنصري الذي ينصب أسـاساً على الزنوج ... »

لكن موقف الصهيونية التقليدي من يهود المنفى يتسم بالرفض التام لأنها تؤمن بان كل الجهود المبذولة للحفاظ على الكيان اليهودي في المنفى هي في الواقع عمل قسري لحفظ وجود غير طبيعي ولأن حياة المنفى ليست جديرة بالبقاء كغاية في حد ذاتهـا وقد عبر المفكر الصهيوني « جوردن » عن هذه الافكار بقوله :

« هدفنا أن تصبح فلسطين الوطن الأم ليهود العالم وأن تكون الجاليات اليهودية في الشتات مستعمرات لها وليس العكس ... »

ومن أجل تحقيق هذا الهدف عقد زعماء اليهود ثلاثة وعشـــرين مؤتمراً كان الأول في « بال » بسويسرا عام ١٨٩٧ وقد تدارس المؤتمرون الخطط الـتي تؤدي الى

تأسيس مملكة صهيون المالية واحيطت قراراتهم بأشد أنواع التحفظ والكتمان ومن هذه القرارات :

١ — يجب أن يكون شعارنا كل وسائل العنف والخديعة ويتحتم علينا ألا نتردد في أعمال الرشوة والخيانة إذا كانت تخدمنا في تحقيق غايتنا .

٢ — يجب علينا أن نصادر الأملاك بلا أدنى تردد إذا كان هذا العمل يمكننا من السيادة والقوة .

٣ — إن حكومتنا ستشبه الاله الهندي / فشنو / وكل يد من أيديها المائة ستقبض على لولب في الجهاز الاجتماعي للدولة (١) .

لقد كان تيودور هرتزل رئيس المؤتمرات الست الأولى يتحرك من مكان الى آخر حاملاً في عقله آلاف الأساطير اليهودية خاصة اسطورة العودة واسطورة الامة المرتبطة بالأرض رغم شتات آلاف السنين ، وكان يقول « شعارنا هو فلسطين داوود وسليمان » ولكنه عملياً كان يطالب بالأرض العربية « من الفرات الى النيل » .

إن هرتزل مثل كل صهيوني يعتقد أن له علاقة ميتافيزيقية بارض الميعاد يحملها في قلبه اينما سار ولهذا فهو دائم الحنين الى العودة ، وبسبب مثاليته الفلسفية المفرطة وايمانه العميق بالأساطير فانه يرفض دراسة الواقع التاريخي في فلسطين ويبحث عن وسيلة يتخلص بها من العرب أصحاب البلاد ويفرغ بواسطتها أرض الميعاد وتفريغ أرض الميعاد لايتم على حد تعبيره إلا عن طريق العنف لذا يشير في مذكراته الى ضرورة تدريب الشباب في الدولة المزمع تأسيسها ليكونوا جيشاً محترفاً كما يجب تدريب الباقين ليكونوا قادرين على الخدمة كمتطوعين إذا لزم الأمر .

« والتدريب يجب أن يكون عن طريق الأناشيد والدين والمسرحيات البطولية والتكريم » .

هذا الاحساس المعادي للتاريخ يظهر عند هرتزل على هيئة جمود ادراكي حاد فهو لايؤمن بحركة التاريخ ولا بقدرة الانسان العربي على الاحتفاظ بأرضه بل يؤمن أن الارادة الصهيونية قادرة على انتزاع الأرض من أصحابها .

هذا الجمود الادراكي الذي خدر ضمير هرتزل في مطلع القرن العشرين هو ذاته الذي لعب دوراً خطيراً في حرب تشرين عام ١٩٧٣ .

---

١ — بروتوكولات حكماء صهيون ١-٢-٣ ص ١٨٨

فلقد كان عند الاسرائيليين من الدلالات مايؤكد أن العرب يستعدون للحرب ولكن الدلالات بقيت معلومات مبعثرة لاينتظمها أي اطار وليس لها اتجـــاه محدد لأن الاطار والاتجاه لايمكن أن يدركها الا من يقرأ التاريخ ويفهـــم حركتـــه والاسرائيليون بطبيعتهم لايؤمنون اطلاقاً بحركة التاريخ لأنهـم لوفعلوا لآمنوا بحتميـة استيقاظ العرب وهو استيقاظ سيؤدي الى سـقوط واختفاء الكيان الصهيوني المزروع ميكانيكياً في المنطقة :

والآن بما أننا نتعرض لمتاهات الفكر الصهيوني يجدر بنا أن نلقي الضـــوء على حركة الكنعانيين وعلى موقف أوري افنيري من الصهيونية وهما حركتان ترفضان بعض مثل وأفكار الصهيونية ولكن هناك قاعدة مشتركة تربط بينها وبين الصهيونية .

أولا — حركة الكنعانيين

وهي حركة سياسية — ثقافية ذات نظرة خاصة للتاريخ اليهودي وقـد بدأت نشاطها في الأربعينات في فلسطين . وتصدر هذه الحركة عن اسـطورة مفادها أنـه عندما عاد اليهود من مصر الى أرض كنعان فانهم لم يجدوا فيها قبائل معادية لهم ، بل وجدوا شعباً ينطق بالعبرية ويشبههم في الملامح والخصائص البدنية .

وبهذا لم يكن خروج اليهود من مصر وذهابهم الى أرض كنعـان غزواً وانمـا كان مجرد عودة لأن اليهود والعبرانيين ليسوا سوى كنعانيين .

هذه الاسطورة تختلف عن الاسطورة الصهيونية في بعض خطوطها حيث تجمل ارتباط اليهودي أو العبراني بالأرض ارتباطاً حقيقياً وتعمق من أهمية الأرض كما أنها تلغي اسطورة الشعب المختار والعودة الى أرض الميعاد ، وترى أن اليهود أمة فقط على عكس ماتراه الصهيونية أن الشعب اليهودي أمة وجماعة دينية .

ولكن رغم هذه الاختلافات فان حركة الكنعانيين تشارك الصهيونية في بعض السمات فهي ترفض الواقع التاريخي وتنـــادي بتحرير اليهودي من دور المتفرج ازاء التاريخ . وفيما يتعلق بموقفها من العرب في فلسطين فانها ترفض وجودهم وتنظر اليهم بانهم أقلية دينية يمكنها أن تدخل الحياة الاسرائيلية شريطة أن تحافظ على طابعهـا كجماعة دينية مميزة ، وفي عام ١٩٦٩ نشرت اعلاناً في احدى الصحف الاسـرائيلية طالبت فيه بتجنيد العرب في الجيـــش الاسرائيلي وتعليمهم اللغة العبرية كما نادت بضرورة الاحتفاظ بالأراضي العربية المحتلة وتصعيد الهجرة اليهودية وزيادة نسبة المواليد .

والواقع يمكن القول إن هذه الحركة ليست حركة شعبية وانما حركة غرضها تشويه الوجود العربي في فلسطين وهي تعبر عن فشل الفكر الصهيوني بعد احتكاكه بالواقع التاريخي كما تعبر عن عجز بعض قطاعات المجتمع الاسرائيلي عن التأقلم مع هذا الواقع . انها حركة تتعمد انكار حق الانسان العربي الفلسطيني في أرضه عن طريق التهويم أن العرب أقلية دينية من جهة وعن طريق ربط وجود اليهود العبرانيين تاريخياً بالكنعانيين العرب أصحاب البلاد من جهة أخرى .

ثانياً ـ موقف اوري افنيري من الصهيونية

يرى افنيري أن الصهيونية والحملات الصليبية لها سمات مشتركة عديدة فالدفعة العاطفية وراءها لم تكن سياسة محضة بل كانت خليطاً عجيباً من الدوافع العملية والصوفية فقد كان الصليبيون يتحدثون عن إرادة الله التي ارسلتهم لبيت المقدس ، وكان الصهاينة يتحدثون عن العودة الى أرض الميعاد لتشييد مملكة الرب

هذا وقد رسم افنيري أوجه التشابه بين الغزو الصهيوني والحروب الصليبية بما يلي

١ ـ هرتزل = البابا أربان الثاني [1]

٢ ـ المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧ = مؤتمر كليرمونت عام ١٠٩٥

٣ ـ الارتباط بين اليهودية العالمية واسرائيل = الارتباط بين اوربا ومملكة الصليبيين

٤ ـ اعتماد اسرائيل على التمويل اليهودي العالمي = اعتماد الصليبيين على تدفق المال من أوربا .

إلا أنه رغم هذا التشابه فان أفنيري يصر على اختلاف التجربة ، لأن الصليبيين كانوا أقلية وكان بامكانهم أن يعودوا إلى بلادهم أما الاسرائيليون فلا ، ولذا فانه هاجم اسحق رابين عندما قال في الذكرى السبعين للمؤتمر الصهيوني الأول : « إن اسرائيل هي مملكة الصليبيين الجديدة » لأن في ذلك اضعافاً لارادة اليهود الذين علموا كيف انتهت مملكة الصليبيين على أيدي العرب .

ويرى أفنيري أيضاً أن الدولة الصهيونية محاصرة عسكرياً لأنها وريثة التناقضات

---

١ ـ المرتكزات النفسية للفكرة الصهيونية ص / ٤٦ / تأليف عبد الرحمن غنيم

الصهيونية ولا تحاول أن تتخطاها . فالصهاينة الجدد قد تجاهلوا الوجود الفلسطيني أحياناً عن وعي وأحياناً أخرى عن غير وعي ، ورفضوا الاعتراف بان أرض فلسطين كان يقطنها العرب منذ آلاف السنين .

وبينما يرى الصهاينة أن صلة صوفية مطلقة تربط بين اليهودي وأرض الميعاد وأن هذه الصلة كفيلة بتغيير الذات اليهودية والتركيب النفسي اليهـودي يرى أفنيري على على العكس من هذا ان النفس البشرية ليست نتاج تفاعل ميكانيكي بينها وبين الواقع بل هي كُلٌّ مركـب ينمو ببطء ، وعلى مر الزمن من خلال معـايشة واقع تاريخي محسوس

ومنطلقاً من هذا التصور يبين أفنيري أن المشكلة الرئيسية لاسرائيل أنها دولة لاتزال تدور في عالم الاحلام والمطلقات دون أن تعايش واقعها التـاريخي والاجتماعي معايشة حقيقية بل تسيطر عليها الذهنية الجيتوية حتى بعد أن ماتت أنماط التفكير والواقع الذي أدى إلى ظهورهـا ، وهذا مايفسر انقسام الشخصية الاسرائيليـة على نفسها فهي تعيش عالمين مختلفين :

أحدهما له أساس موضوعي « الواقع الاسرائيلي » والآخر هو من مخلفات الماضي لم يعد له وجود « الجيتو » .

ويتضح الخلاف بين رؤية الصهاينة الصوفيـة ورؤية افنيري النسبية في حديثهم عن بطولة الشخصية اليهودية (١) ، فبينما يُصر الصهاينة على أن اليهود أبطال وضحايا وليسوا بشراً عاديين ، يرفض افنيري حتمية الاستشهاد الصهيونية ويرفض أيضاً أن يكون اليهود مثل أبطال المآسي اليونانية الذين حكمت عليهم الآلهة بمصير محتوم ، كما يعرض في مقاله عن الشخصية الاسرائيلية صورة طريفـــة لستة مغنين يرقصون ويتقاذفون الكرة الأرضية بأرجلهم / ابطال خارج التاريخ / ولكنهم في الوقت ذاته يغنون في مرح الأغنية الشعبية الاسرائيلية « العـالم كله ضدنا ولكن لايهمنا » والحل عند افنيري هو أن يدخل الاسرائيلي الكرة الأرضية كأي إنسان آخر وأن يبتعد عن المطلقات ويجني ثمار واقعه الجغرافي والسياسي والاجتماعي وأن يرفض الرؤية الصهيونية التي تقسم العالم إلى الاعداء « العرب » والمنهزمين « اليهود خارج اسرائيل » والصفوة المختارة « الصهاينة المحاربون » .

---

١ ـ الفكر الصهيوني المعاصر بيروت : مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية ١٩٦٨

وأخيراً يمكن القول إن الفكر الصهيوني في حالة صراع دائم مع ذاته ، وإذا كان قد اهتدى إلى اقامة الدولة الاسرائيلية في فلسطين عام ١٩٤٨ . إلا أن هذه الدولة قامت على التضليل والاغراء وتشويه التاريخ ، وهي لاتملك مقوماً واحداً من مقومات الأمة ، وهذا ماجعلها تتحول إلى واقع مليء بالمشاكل والمتاعب ، ذلك أن مجيء اليهود إلى فلسطين من دول كثيرة ليسكنوا في بلد ، هم غريبون عنه بقدر ماهو غريب عنهم وليقيموا فيه بالقوة والعنف مجتمعاً واحداً ، لم يكن بالأمر السهل الذي حلم أوائل الصهاينه بتخطي صعوباته (١) فما أن قامت دولة اسرائيل حتى قامت معها عشرات المشاكل والصعوبات السياسية والاجتماعية التي هزت كيانها المصطنع وما تزال تعبث به إلى أن يزول .

يقول عالم الأجناس البريطاني الدكتور / فانتون / الذي زار اسرائيل عام ١٩٦٦ « إن اسرائيل مجتمع في طريقه إلى التمزق » .

وإضافة إلى ذلك فان الارهاب الصهيوني في فلسطين المحتلة يعتبر فصلاً أسود في التاريخ الانساني ، فكما أن عدداً كبيراً من الناس أصبحوا وحوشاً بشرية بفعل العرقية النازية وتلطخت أسماؤهم بألوان من الفظائع البربرية فان الاسرائيليين قد انقلبوا بفعل العرقية الصهيونيه إلى وحوش إرهابيين تملأ أعمالهم القلب الانساني بالأسى والاستنكار مما دعا « جيرمان ديون » (٢) إلى القول : « إن لعنة القسوة والوحشية ستصل الى اليهود الصهاينة ولن يفلتوا من أيدي القدر . . . »

انتهى البحث

---

١ ـ التمييز ضد اليهود الشرقيين في اسرائيل تأليف / هيلدا شعبان الصايغ / .
٢ ـ الارهاب الصهيوني : تأليف / فرانتز شايدل / ص ٤٨ .

الوثائقية التاريخية في صحيح البخاري

بقلم الاستاذ عبد الرزاق الاصفر

لقد أصبح التاريخ اليوم علم الحقائق لا علم الروايات ، وأخذ المؤرخ بمنهج البحث التاريخي الذي يعتمد على النصوص الوثائقية ومحاكمتها والبحث عن حيثياتها ومصادرها وتقدير قيمتها التاريخية بمقارنتها مع غيرها من النصوص ، ومن ثم استنتاج الحقائق التاريخية منها وربط هذه الحقائق بعضها ببعض ضمن السياق التاريخي العام . ومن هنا أصبح التاريخ يعتمد على الحفريات والنقوش والوثائق والمخطوطات والنقود واللقى وعلى الاجهزة العلمية التي تساعد على البحث والكشف عن الاعمار الزمنيّة ، وذلك حتى تكون أحكامه أقرب ماتكون إلى الحقيقة وأبعد ماتكون عن التخمين والظنّ والرجم بالغيب .

وحين ننظر إلى كتبنا التاريخية نجد أنها بحاجة إلى إعادة التمحيص . وهـذا ماعبر عنه الكثيرون باعادة كتابة التاريخ ، وذلك لما يتسرب الى معلوماتها من الشك بسبب ما يعتورها من التأرجح والتخبط والتناقض والمبالغة والتعصّب في كثير من الأحيان . وهنا تبرز أهمية النصوص الأكيدة التحقيق كالقرآن الكريم أو العالية التحقيق كالأحاديث الصحيحة .

ولئن كان القرآن النصّ الذي لا يأتيه الشك من بين يديه ولا من خلفه فأتي بعده في الصحّة الأحاديث الشريفة الصحيحة . ومن حظ التاريخ العربي والاسلامي أن الحديث خضع إلى منهج مبكر في التدقيق والتحقيق والتحري من قبل علماء الحديث وجامعيه ، وكانت الغاية في أول الأمر دينيّة محضاً بسبب حرصهم على السنّة التي تكمّل القرآن الكريم شرحاً وتوضيحاً وتفصل ما أجمل فيه وتروي سيرة النبيّ وأفعاله وهي بالنسبة للمسلمين واجبة الاقتداء ولاسيما في الأمور التعبدية والعقدية وفي المعاملات والأخلاق والآداب لقوله تعالى :

« وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » وقوله : « ولكم في رسول الله أسوة حسنة » .

وليس هنا مجال البحث عن القيمة الدينية للأحاديث ، بل مجال البحث عن قيمتها التاريخية .

ولنتحدث مباشرة عن أول كتبها وأعظمها ألا وهو الجامع الصحيح للامام البخاري . ولا بد قبل ذلك من لمحة موجزة عن صاحبه . فالامام محمد البخاري من الموالي الفرس ، ولد في بخارى عام ١٩٤ هـ . وكان أبوه محدثا . وقد نشأ البخاري يتيماً وورث عن والده مالاً ساعده في رحلاته العلمية فيما بعد . وكان على جانب كبير من الذكاء والورع والأمانة والصدق . وحفظ وهو في العاشرة كتب وكيع وابن المبارك . وكانت أولى رحلاته إلى الحجاز وهو في السادسة عشرة حيث تخلف ليجمع الأحاديث من مكة والمدينة ثم غادرها إلى بلخ فمرو فنيسابور فالري فبغداد فالكوفة فالبصرة وواسط ثم ذهب الى الشام فزار دمشق وحمص وقيسارية وعسقلان ثم غادر الشام إلى مصر ثم عاد الى وطنه بعد هذه الرحلة الطويلة التي دامت ستة عشر عاماً قضاها في البحث عن علماء الحديث ورواته وحفاظه ولقي فيها من التعب والمشقة مالم يلقه أحد من العلماء. كل ذلك في سبيل العلم . وتوفي البخاري في عام ٢٥٦ هـ وله عدا الجامع الصحيح مؤلفات كثيرة منها التاريخ الكبير والتاريخ الأوسط والتاريخ الصغير وكان يسلك في تحقيق أخباره التاريخية مسلكه في تحقيق روايات الحديث وله مؤلفات في الفقه والسنن جليلة القدر .

والذي حمل البخاري على تأليف كتابه مارآه ، في عصره ، من كثرة رواية الحديث ومن الشكوك التي تكتنف الأحاديث بسبب العصبية القبلية أو الاتجاهات السياسية والنزاع بين الشعوبية والعروبية والمنازعات الكلامية ، ورغبة بعض ضعاف النفوس التقرب من الخلفاء والأمراء ، وما أدخله الوعاظ من أحاديث الترغيب والترهيب وما اخترعه القصاصون من الروايات المختلفة لجذب الناس ، أو من الأساطير والخرافات الاسرائيلية وسواها . . .

كل ذلك أدى بأصحاب النظر إلى التردد في قبول الحديث وجعل من الصعب الوثوق بصحة أي حديث يسمعونه مما أدى إلى وجود فراغ في الدين وبحوثه التي كانت على أوجها في النصف الأول من القرن الثالث الهجري . ولذلك قرر الامام البخاري الخروج إلى الناس بكتاب يجمع الأحاديث الصحيحة المعتمد عليها ، فكان أن ألف هذا الكتاب بعد أن اختار أحاديثه من مئات الآلاف من الأحاديث التي جمعها وحفظها وأعمل في متونها واسانيدها مبضع الفاحص المدقق .

يبلغ عدد أحاديث الجامع الصحيح ٩٠٨٢ حديثاً وهي كل ما أورده البخاري،فاذا حذفنا من هذا العدد الأحاديث المكررة التي تدخل في أكثر من باب وعددها ٤٥١٣ حديثاً ثم أسقطنا الأحاديث المتابعة وهي الأحاديث التي تعاد روايتها من طريق اسنادي آخر وعددها ٥٦٦ حديثاً ثم حذفنا بعد ذلك الأحاديث المعلّقة وهي التي رويت فقط عن الصحابي الأول الراوي عن رسول الله كأن يقال: عن عمر رضي الله عنه .. أو التي سقط من اسنادها أحد الرواة وعددها ١٣٤١ حديثاً . . أقول إذا أسقطنا هذه الأحاديث بقي لدينا ٢٧٦٢ حديثاً هي زبدة كتاب البخاري التي اختارها خلال عشرين عاماً من بين مئات آلاف الأحاديث . وهذا يصور لنا مدى دقته وحرصه على اتقان عمله .

وقد نهج البخاري في تأليف كتابه منهجاً خاصاً . فجعل منه كتاب فقه علاوة على كونه جامع أحاديث ، ولذا رتبه وبوّبه حسب أبواب الفقه . وكان يأتي بجميع الأحاديث التي تتعلق بباب معيّن ، ثم يأتي بالآيات القرآنية التي تتعلق بالموضوع نفسه ثم يوفق بين الأحاديث والآيات ويستخرج الأحكام ، ويعطي رأيه ، وهذا مادعاه المحدثون بترجمة الأحاديث . ذكر البخاري أولاً كتاب الصلاة فالزكاة فالصيام فالحج والبيوع والمعاملات والمرافعات والشهادات والوصية والوقف والجهاد ، وكل هذه الأبواب فقهية ، ثم أورد كتباً غير فقهية تتعلق بالعقائد كبـدء الخلق والجنة والنار ، ثم أورد تراجم الأنبياء وفضائل الصحابة والمهاجرين والأنصار والسيرة النبوية والمغازي وتفسير بعض الآيات ، ثم عاد إلى الفقه فذكر الطلاق والزواج والأطعمة والأشربة والآداب والاستئذان وصلة الرحم والحدود والنذور والاكراه وتعبير الرؤيا والفتن وأحكام الاجتهاد والوصية وغيرها . . . وقد بلغ مجموع هذه الكتب سبعة وتسعين كتاباً .

وكان كل كتاب يحتوي على أبواب وفصول بلغ عددها ٣٤٥٠ باباً وفصلاً . منها مايطول ومنها مايقصر حتى ليرد فيه الحديث الواحـد ومنها ماهو أبيض لايحوي شيئاً . وكثيراً مانجد فيه عناوين ولا نجـد تحتها شيئاً من الأحاديث أو نجد أحاديث بدون عنوان ضمها الشارحون إلى أحد الأبواب . ويظهر أن البخاري توفي قبل أن يتم كتابه أو أتمه بشكل مسودة نظمها الشارحون فيما بعد .

وإذا كان لهذا الترتيب فضائله الفقهية فقد اضطره إلى أن يقطع بعض الأحاديث ليوزعها بين بابين إذا كانت متعلقة بموضوعين مختلفين . فكثيراً مانرى مثـلاً شطر

الحديث في باب الصلاة وشطره الآخر في باب البيع . ويصعب الجمع بين الشطرين لولا وحدة السند .

شروط البخاري : إذا تحدثنا عن شروط البخاري في قبول الحديث فهذا لايعني أنه وضع شروطاً مسبقة قبل أن يشرع في جمع الأحاديث أوقبل أن يبدأ تأليف كتابه . ولكن هذه الشروط التي سنذكرها إنما استنتجت من قراءة الكتاب وتتبع الأحاديث والتأمل في آرائه حول المتون والأسانيد وما فيها من قوة أو ضعف . فوجد كأنما يسير على منهج مرسوم وقواعد منظمة وشروط معينة . إلا أن هذه الشروط لاتضطرد بل يعترضها بعض الشذوذ الذي لايمنع من اطلاق القاعدة . وعلى كل حال فهذه الشروط ليست من نصه بل من استنتاج الدارسين . وهي على قسمين :

(الأول) شروط السند والسند عنده شرط واحد وهو أن يكون متصلاً من رواة الحديث حتى النبي عليه السلام أي ذكر كل رواته واحداً عن آخر بلفظ السماع أو التحديث كأن يقول الرواي : سمعت فلاناً يقول أو حدثني فلان عن فلان... الخ وكلها تعني الأخذ الصريح المباشر . وخلاف السند المتصل السند المنقطع وقد ذكرناه في مطلع هذا البحث . ورواية البخاري للمنقطعات قليلة .

(الثاني) شروط الرواة : وهي سبعة شروط :

١ — أن يكون الراوي مسلماً . فلا تقبل رواية الكافر أو الذمي .

٢ — أن يكون عدلاً مشهوداً بعدالته .

٣ — أن يكون صادقاً فلا تقبل شهادة الكاذب ولو مازحاً أو هازلاً .

٤ — أن يكون ضابطاً والضبط هنا قوة الحافظة وقلة الخطأ والنسيان والبعد عن الخلط ، وهو أن يكون الراوي ثقة في نفسه ولكنه لايدري ممن سمع هذا الحديث أو يخلط إسناداً بآخر .

٥ — أن يكون غير مدلس . والتدليس في الاصلاح قريب من الكذب وهو أن يسقط فرداً ضعيفاً من أفراد إسناده واقعاً بين رجال أقوياء فيتجاهله ليكسب حديثه القوة والشهرة .

٦ — أن يكون متبعاً غير مبتدع . والمبتدع صاحب البحث والرأي والأخذ بالعقل والفلسفة واتباع المذاهب المبتدعة كالمعتزلة والمرجئة والزنادقة . أما الخوارج ،

فقد روى عنهم البخاري لأنهـــم يعتبرون الكذب كبيرة يكفر صاحبها . وقد روى البخاري عن عمران بن حطان حديثاً واحداً . والغالب أنه يجيز الرواية عن غير الغلاة منهم ، كالقمدية أو عمن دهب مذهبهم ثم تاب (ذهب بعض المحدثين إلى أنه لاتجوز الرواية عنهم جميعاً لأنهم كفروا علياً ولا يجوز تكفير المؤمن) .

٧ - أن يكون معروف الحال غير مجهول الاخلاق والأعمال .

ويظهر من هذه الشروط أن المقصود منها مجتمعة في شخص الراوي أن يكون موثوقاً به ولكن ماهو مقياس الثقة ؟ إنه مقيـاس نظري محض ، يستند إلى نظرة المرء وأقوال الناس وإلى ملاحظة الظاهر من السلوك والاعمال . وهذا جهد الدارس . وإذا كانت النوايا والضمائر من الأمور المغيَّبة فعليها من السلوك دليل .

فاذا اجتمعت هذه الصفات للراوي ، وكان معاصراً لمن روى عنه وملازماً له ملازمة طويلة كان من رواة الطبقة الأولى . وهي الطبقة التي اعتمد عليها البخاري في رواية أحاديثه الأصلية . وإن كان معـاصراً له ولم يلازمه أو لازمه فترة قصيرة كان من رواة الطبقة الثانية . والبخاري يروي عن هؤلاء أحاديث التقوية . أما الامام مسلم فقد اعتبر الطبقة الثانية بمنزلة الطبقة الأولى . وهنالك طبقات أخرى دون هـاتين لم يروعنها البخاري . وروى مسلم" عن الثالثة للتقوية . وهذا مايؤكد لنا تشدّد البخاري في قبول الرواية بالنسبة إلى غيره من المحدثين

وقد لاحظ بعضهم أن البخاري يؤثر الأحاديث التي يرويها اثنان عن اثنين حتى الرسول فظنوا ذلك شرطاً من شروطه . ولكنه في الحقيقة لم يلتزم بهذا الشرط في كتابه ولاقصده .

الانتقادات الموجهة الى صحيح البخاري :

وجهت إلى الجامع الصحيح الانتقادات التالية :

١ - إتيانه بالترجمة والآيات والأحكام مع الأحاديث . بخلاف صحيح مسلم الذي أفرد للأحاديث فقط . وقد أجيب عن هذا الانتقاد بأن البخاري أراد أن يخـدم الفقه بتدوين ماحصل لديه من العلم نتيجة ممارسته الطويلة للحديث .

٢ - تقطيعه بعض الأحاديث بين بابين أو أكثر .والحق إنه إذا أراد أن يذكر من الحديث ماله عـلاقة بالباب وجب أن يفصل ماسواه . وعلة ذلك أيضاً التبويب الفقهي .

٣ — كان البخاري ، في الغالب ، يوجه نقده لرجال الحديث بدون أن يحاكم متن الحديث نفسه . فقد أورد أحاديث يكذبها العقل والواقع والتجربة ، كالحديث الذي رواه عن سعيد بن غفير عن الليث عن عبد الرحمن بن خالد عن ابن شهاب عن سالم عن عبد الله بن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ يوماً في آخر حياته بعد أن صلى العشاء وسلَّم : « أرأيتم ليلتكم هذه ، فان رأس مائة سنة منها لايبقى على ظهر الأرض أحد ! » . وهذا ماظهر للبخاري خلافه .

٤ — طعن علماء الحديث المتقدمون بثمانين رجلاً من رواة البخاري ، فمثلاً روى عن عكرمة مولى ابن عباس ، الذي قال فيه عبد الله بن عمر يخاطب مولاه نافعاً : لاتكذب علي كما كذب عكرمة على ابن عباس . . وعكرمة هذا كان يرى رأي الخوارج الصفرية . وكذلك روايته عن اسماعيل بن أويس الذي أقرَّ على نفسه بوضع الأحاديث .

وأجيب عن هذا بان عدد المطعون فيهم من رواة البخاري قليل إذا قيس بالعدد الضخم من الرواة الذين روى عنهم ويقدرون بالآلاف . وكذلك إذا قيس بعدد المطعون فيهم من رواة مسلم وعددهم / ١٦٠ / رجلاً أكثرهم من المنتقدين من رواة البخاري . ثم إن البخاري كان يورد أحاديث هؤلاء على سبيل التقوية لاعلى سبيل الأصالة والاعتماد .

هذه هي المآخذ التي وجهت إلى صحيح البخاري وهي بسيطة جداً بالنسبة إلى حسنات الكتاب ومزاياه . وفي الحقيقة إنه يعد بالنسبة لعلم الحديث فتحاً جديداً إذ ظهر بشكل كتاب منهجي متكامل محقَّق بعد طبقة كتب المسانيد التي جمعها رجال الطبقة الثالثة من تابعي التابعين سواء من أهل الحجاز مثل مالك وابن جريج أم من أهل الشام مثل الأوزاعي أم من أهل العراق مثل الثوري وحماد . ولكن رجال هذه الطبقة ضمنوا كتبهم كثيراً من أقوال الصحابة وفتاواهم . وقد تلاهم جماعة أفردوا كتبهم للرواية عن صحابي واحد ، فكانت كتب المسانيد مثل المسند عن أبي بكر أو المسند عن عائشة . ومن هؤلاء المؤلفين أحمد بن حنبل . ولم يستقر تدوين الحديث بشكل منهجي محقق إلا على يد البخاري . ولهذا يعد فتحاً جديداً اتبعه فيما بعد كثير من الجامعين مثل مسلم والنسائي والترمذي ، فترسموا خطاه واعترفوا له بالفضل والتقدم فأضافوا إلى علم الحديث روافد جديدة وإن لم يبلغوا من الكمال العلمي مابلغه الامام البخاري .

والخلاصة إن كتاب البخاري كتاب نصوص وثائقية يمكن للمؤرخ أن يعتمد عليها إلى درجة كبيرة وبخاصة بعد أن عكف المحدثون على نقدها وتبيان مواضع العلة والضعف فيها وفرغوا من ذلك منذ زمن طويل . ولا يسع الباحث في تاريخ الاسلام إلاّ أن يجعل صحيح البخاري أحد مصادره المعتمد عليها . أما قيمة الكتاب من الناحية الدينية ومن الناحيتين اللغوية والأدبية فهي عظيمة جداً ولا مجال للحديث عنها في هذا البحث. وأهم ميزة لصحيح البخاري أنه قدّم لنا منهجاً علمياً للتحقيق في الروايات أفاد منه المؤرخون العرب بل والأدباء أيضاً . على أن مؤرخ العصر الحاضر يفيد من جميع كتب الأحاديث ولو اختلفت وتناقضت فيما بينها لأنه سيعمل منهجه العلمي التاريخي أيضاً في سبيل الوصول إلى الحقائق الراجحة نسبياً إن لم نقل الأكيدة . وإن المؤرخ ليستفيد أيضاً من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة إذ لابد أن يتساءل : ما الدافع السياسي أو الديني أو الاجتماعي الذي دفع القوم إلى وضع هذا الحديث أو ذاك . أليس هنا مجال للبحث عن حقيقة كامنة ؟

مصادر البحث :

١ — ضحى الاسلام لأحمد أمين

٢ — طبقات الشافعية للسبكي

٣ — تاريخ بغداد للخطيب البغدادي

٤ — وفيات الأعيان لابن خلكان

٥ — الفهرست لابن النديم

٦ — دائرة المعارف الاسلامية

٧ — مقدمة عمدة القاري في شرح صحيح البخاري للعيني

٨ — هدى الساري لابن حجر العسقلاني

٩ — شروط الائمة الخمسة للخوارزمي

١٠ — البداية والنهاية لابن كثير جـ ١١

١١ — صحيح البخاري .

مدخل الى دراسة
ديك الجن الحمصي

عمر روحي الفيصل

تتطلع الدراسة التالية إلى نتيجة مبدئية مفادها الاعتماد على المصادر في تكوين هيكل لديك الجن الحمصي أقرب إلى الشخصية التاريخية الحقيقية .

ومن هنا يستفيد المرء من طرائق البحث التاريخي وبخاصة المنهجية منها .

— ١ —

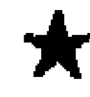
ديك الجن واحد من الذين تتمثل فيهم الحقيقة القائلة إن الأدب العربي لم يؤرخ بعد تأريخاً منظماً ، وإنه مازال في خضم من الاضطراب لانعلم مداه ، إلا أنه اضطراب يعقبه هدوء ، وفوضى ستؤول إلى نظام . وسنحاول في هـــذه الأسطر رسم معالم الطريق التي نراها صحيحة في دراسة شاعر العصر العباسي ديك الجن الحمصي .

تكاد كتب الأدب تجمع على أن ديك الجن من أكبر شعراء العصر العباسي ، وأنه خير ممثل للمدرسة الشامية التي عرفت في القرن الثالث للهجرة بتثقيف الشعر ، والعلم بفنونه درساً وتأليفاً ، والاستقصاء ، والجزالة والسلاسة والعذوبة . ولا غرو بعد ذلك أن تقرأ عن تلمذ أبي تمام الطائي عليه ، وأنه كان سبب شهرته وذيوع صيته . وتكاد كتب تاريخ الأدب تمدنا بالمعلومات التالية عن حياة ديك الجن الحمصي .

ولد عبد السلام بن رغبان الملقب بديك الجن (١) في حمص سنة إحدى وستين ومائة ، وعاش بضعاً وسبعين سنة ، وتوفي سنة خمس وثلاثين ومائتين في حمـــص ذاتها (٢) . ولم يبرح خـــلال ذلك نواحي الشام ، لأنه آثر البقاء في حمص بجانب المجان وأهل الخلاعة ، فقد كان مثلهم خليعاً ماجناً منعكفاً على القصف واللهو . ولم يجد مع هؤلاء الصحب غير بساتين حمص المونقة مكاناً لايثار هذه اللذات ، فاعتكف بها ، وصار لايبارحها إلا لماماً . على أنه تغير حين عرف ورداً بنت الناعم ، فأحبها وتزوجها لكنه قتلها بيده نتيجة وشاية قام بها ابن عمه أبو الطيب (؟) . وملخص

هذه الحادثة أن ورداً خانت زوجها مع غلام له في أثناء غيابه في سلمية في زيارة أصدقائه من بني هاشم . ويكتشف ديك الجن الخديعة بعد فوات الأوان ، فيظل يبكي على زوجه ، أو عليها مع غلامه ، بقية حياته ، ويقول فيها شعراً مافتئت كتب الأدب ترّدده ، وأهم أشعاره في هذا قصيدته :

يا طلعةً طلع الحِمامُ عليها ... وجنى لها ثمرَ الردى بيديها
روّيت من دمها الثرى ولطالما ... روّى الهوى شفتيَّ من شفتيها
قد بات سيفي في مجال خناقها ... ومدامعي تجري على خديها
فوحق نعليها وما وطىء الحصى ... شيء أعزّ عليَّ من نعليها
ما كان قتليها لأني لم أكن ... أبكي إذا سقط الغبار عليها
لكن ضننتُ على العيون بحسنها ... وأنفتُ من نظر الحسود إليها



هذه النقاط هي أهم ماتناقلته كتب تاريخ الأدب ، ويلاحظ الباحث أنها أهملت فترة حياته الأولى حتى حبه لورد (٣) ، وفترة حياته الأخيرة بعد قتله لورد . ليس ذلك فحسب ، بل إن ماروته هذه الكتب مليء بالثغرات التي تقلل من أهمية هذه الروايات ، إن لم تنقلها إلى ساح الشك في أحايين كثيرة . وفي هذا المجال نورد الاشارة - بشيء من اليقين — إلى أن معظم المعلومات التي وردتنا عن هذا الشاعر مأخوذة من كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (الجزء ١٤) ، وعن هذا الكتاب تفرعت معلومات أخرى اجتهادية لعب في أكثرها خيال أصحابها دوراً كبيراً ، صوروا فيه ديك الجن رجلاً أهوج يتحكم فيه حب الذات .

بعد هذا كله ، أين ديك الجن من ذلك كله ؟ وما صحة ماورووه عنه ، وكيف نستطيع الوصول إلي معلومات كافية وافية تنير لنا حياته وشعره ؟ .

- ٢ -

معالم الطريق

الطريق الصحيحة في رأيي أن نعتمد على شعره في سد ثغرات حياته أولاً ، وهي الصحيحة ثانياً في دراسة شعره دراسة أدبية وافية ، فأين هذه الأشعار ؟ .

١ – الديوان :

لايوجد ديوان يجمع أشعاره كلها ، فقد ضاع هذا الديوان مع ماضاع من تراثنا ، وقيل إنه موجود في الهند ، لكن أهل العلم لم يروه ، ومايزال لديهم أمل في العثور على ديوانه بين المخطوطات العربيـة الموزعة في أرجاء العالم . وعلى هذا فلم تبق بين أيدينا غير قصائد ومقطوعات وأبيـات مفردة مبثوثة في كتب الأدب القديمة ، وقد توفر على جمعها بين دفتي كتاب واحد ، بعض الأدباء فأخرجوا مجموعين تحت اسم ديوان ديك الجن الحمصي :

الأول :

قام به الشاعران الحمصيان عبد المعين الملوحي ومحي الدين الدرويش ، وقد أخرجا هذا المجموع (٤) بعد جهد خمسة وعشرين عاماً ، فاستحقـا بذلك شكر أهل الأدب أجمعين ، لأن لهما فضل إحيـاء هذا الشاعر بين أناس كادوا يجهلونه . ويضم هذا المجموع اثنين وعشرين وأربعمائة بيت فقط .

والثـاني :

قام به المحققان العراقيان عبد الله الجبوري والدكتور أحمد مطلوب ، وقد جمعا فيه أشعار الديوان الأول وأشعاراً أخرى عثرا عليها بأنفسهما ، فـكان لهما بذلك فضل متابعة الجهد وثناء أهل الأدب (٥) .

على أن الديوانين لايجمعان أشعار الشاعر كلها ، بدليل أننا وجدنا له أشعـاراً أخرى جديدة لم نعثر عليها فيها ، ونكتفي الآن بالاشارة الى أماكن وجود بعضها :

– حماسة ابن الشجري ٢/٨٩٩

– قطب السرور في أوصاف الخمور ٣٥١ – ٥٤٨ – ٥٦٠ – ٦٤٧ – ٦٤٨ – ٦٥٨

وهذان الكتابان رأيا النور بعد إخراج الديوانين ، ولم يكن في مكنـة المحققين الأفاضل الاطلاع عليهما .

مادمنا نتحدث عن شعره فعلينا التأكد أولاً من صحة نسـبة القصائد التي نتناولها بالدراسة اليه . فقد وجدنا كثيراً من شعره ينسب الى غيره ممـا يدعو الى الحيطة في هذا الأمر ، فقصيدته المشهورة :

ياطلعة طلع الحمام عليها   وجنى لها ثمر الردى بيديها

منسوبة في الاغاني نفسه للسليك بن مجمّع ، وقصيدته (٦) :

وليلةٍ بات طلُّ الغيث ينسُجُها حتى إذا كملت أضحى يدبجها

منسوبة الى الخباز البلدي مع اختلاف في عدد أبياتها وألفاظها ، كما ذكر ذلك الثعالبي صاحب يتيمة الدهر . وغير ذلك كثير نلاحظه في حواشي الدرانين المطبوعين ، مما يدل على عدم دقة الرواية بسبب ضياع الديوان الأصلي ، وإذن فأمام الباحث عمل شاق لكنه مجد في النهاية .

٢ — أخبار الشاعر :

في هذا المجال ، علينا أولاً استبعاد رواية الاغاني ، أو ترك الشك يداعب ماورد فيها دوما ، فلكتاب الاغاني سيطرة على أدبنا العربي لانعرف لغيره مثل هذهالسيطرة . ولا علينا إن أردنا الدراسة العلمية الصحيحة أن نستبعد رواية هذا الكتاب ، أو أن ندرس هذه الرواية دراسة دقيقة دون أن نعتبرها أصلاً ننطلق منه ، ذلك أننا نراها عند كل من تحدثوا عن هذا الشاعر من قدماء ومحدثين . وسبب اقتراحنا استبعاد رواية هذا الكتاب أننا نشك في صحتها جملة وتفصيلاً ، وربما كان لتشيّع ديك الجن دور في كون الرواية على هذه الصورة .

بعد هذا ، على الباحث أن يحص مصادر أخبار الشاعر وهي في رأيي قسمان :

أ — مصادر أصيلة : وهي

١ — كتاب الأغاني - أبو الفرج الأصفهاني - دار الكتب - القاهرة - ١٩٢٧

٢ — شعراء الشام في القرن الثالث - خليل مردم بك - مطبعة الترقي - دمشق - ١٩٢٥

٣ — أعلام الأدب والفن (ج ١) - أدهم الجندي - مطبعة مجلة صوت سورية - دمشق - ١٩٥٤

٤ — ديك الجن الحمصي - البدوي الملثم - (لم أعثر على الكتاب)

٥ — محاضرات الموسم الثقافي ٦١ - ١٩٦٢ - وزارة الثقافة - دمشق ١٩٦٣

٦ — مقدمة ديوان ديك الجن الحمصي - جمع : اللوحي والدرويش - حمص ١٩٦٠

٧ — مقدمة ديوان ديك الجن الحمصي - جمع الجبوري ومطلوب - بيروت ١٩٦٤

ب ـ مصادر فرعية :

وهذه المصادر تنير بعض النقاط المجهولة لدى الباحث ، وهي كثيرة جداً بحيث يصعب حصرها ، وسأذكر أهمها مراعياً ذكر أرقام الصفحات التي ذكر فيها ديك الجن ، والأجزاء ، والطبعة ، والمحقق ، ودار النشر إن وجدت :

١ ـ قطب السرور في أوصاف الخمور ـ الرقيق النديم ـ تح : أحمد الجندي
مط : مجمع اللغة العربية بدمشق ـ ١٩٦٩
ص : ٢٧٨ ـ ٣٥١ ـ ٥٤٨ ـ ٥٦٠ ـ ٥٩٢
ـ ٦٢٣ ـ ٦٤٦ ـ ٦٥١ ـ ٦٥٨ ـ ٧٠٣ .

٢ ـ الموشح ـ المرزباني ـ تح : علي محمد البجاوي
دار نهضة مصر ـ القاهرة ـ ١٩٦٥ ص ٥٣٣

٣ ـ إعتاب الكتّاب ـ ابن الأبّار تح ـ : د. صالح الأشتر
مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ـ ١٩٦١ ـ ص ١٥٩

٤ ـ ألحان الحان ـ عبد الرحمن صدقي
دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٥٧ ص ٩٦

٥ ـ تاريخ الأدب العربي ـ كارل بروكلمن ـ تر : د: عبد الحليم محمود
دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٦٨ (الط ٢) ص ٢/٧٢ ـ ٧٧

٦ ـ أخبار أبي نواس ـ ابن منظور المصري ـ تح : محمد عبد الرسول إبراهيم
ـ عباس الشربيني : مطبعة الاعتماد ـ القاهرة ـ ١٩٢٤ ـ ص ١/٢٤٢ ـ ٢٤٣

٧ ـ حياة الحيوان الكبرى ـ الدميري ـ
كتاب التحرير ـ القاهرة ـ ١٩٦٥ ـ ص ١/٦١٦

٨ ـ المسالك والممالك ـ الاصطخري ـ تح : د . محمد جابر عبد العال الحيني
تراثنا ـ القاهرة ـ ١٩٦١ ـ ص ٤٦ (عن حمص خاصة)

٩ ـ عجائب المخلوقات ـ القزويني
كتاب التحرير ـ القاهرة ـ ١٩٦٥ ـ ص ٣١٨ ـ ٣٢٥

١٠ ـ الموازنة ـ الآمدي ـ تح : محي الدين عبد الحميد
المكتبة التجارية ـ القاهرة ـ ١٩٥٩ (الط ٣) ص ٥٤

١١ ـ المثل السائر ـ ابن الأثير (ضياء الدين) ـ تح : ـ د . بدوي طبانة
مكتبة نهضة مصر ـ القاهرة ـ ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠ ـ ص ١/١٧٠ و ٢/١٠١
١٢ ـ النثر الفني ـ زكي مبارك
المكتبة التجارية ـ القاهرة ـ ١٩٥٧ (الط ٢) ص ٢/٢٥
١٣ ـ أمالي الزجاجي ـ الزجاجي
المؤسسة العربية الحديثة ـ القاهرة ـ ١٣٨٢ هـ ص ١٠٢ وما بعد
١٤ ـ العمدة ـ ابن رشيق
مطبعة أمين هندية ـ القاهرة ـ ١٩٢٥ (الط ١) ص ١/٦٤ و ٢/١١٩
١٥ ـ ذم الهوى ـ ابن الجوزي ـ ص ٦٤٩ وما بعد (؟) .

هذا ، إلى كتب التراجم التي لاغنى عنها في كل بحث علمي ، وبخاصة هنا كتاب وفيات الأعيان (ج ١) ، وكتب التاريخ والأدب العامة كتاريخ ابن عساكر (لاتوجد له طبعة محققة تحقيقاً علمياً ، عدا الأجزاء التي أخرجها مجمع اللغة العربية بدمشق ، ومحاضرات الأدباء ، وتزيين الأسواق ، والمستطرف من كل فن مستظرف ، وديوان الصبابة ، وعقلاء المجانين ، ومدامع العشاق ، و . . .

٣ ـ تصنيف الأشعار والأخبار :

وهذه خطوة أخرى هامة في سبيل دراسة شاعرنا ، إذ اننا نرى ركاماً من الأخبار والأشعار الموثوقة ، فماذا نفعل بها ؟ .

أ ـ الأشعار :

سيلاحظ الباحث أن شعر ديك الجن يقع في معظمه ضمن النقاط التالية :

- ★ شعره في الخمرة
- ★ شعره في ورد خاصة
- ★ شعره في غلامه بكر
- ★ شعره في مديح الهاشميين
- ★ شعره في الموضوعات العامة (الوصف ـ الغزل . . .)

على الباحث تصنيف هذه الأشعار ، ومحاولة معرفة الأزمنة التي قيلت فيها ، لأهمية ذلك في أثناء الكتابة عن الشاعر . وعلى الباحث أيضاً التنبه إلى قوافي أشعار شاعرنا ، فهناك قواف لانجدها ، وأخرى يُكثر ديك الجن منها ، وثالثة يقول عليها بيتاً أو بيتين . في ديوانه (جمع الملوحي والدرويش) لانجد قوافي على الأحرف التالية : الخاء والذال والزاي والشين والضاد والطاء والغين والواو ، بينما تكثر القوافي على الأحرف التاليـة : (الباء ٦٩ بيتاً) ، الدال (٢٤ بيتاً) ، الراء (٨٣ بيتاً) ، الفاء (٢٠ بيتاً) ، اللام (٧٩ بيتاً) ، الميم (٣٢ بيتاً) ، النون (٢٥ بيتاً) ، ولا نجد على باقي الأحرف غير أبيات قليلة : الألف (٦) ، التاء (٣) ، الجيم (٤) ، الحاء (٨) ، السين (١١) ، الصاد (١) ، الظاء (٢) ، العين (١١) ، الهاء (٨) ، الياء (١٠) .

وعلى الباحث قبل الشروع في دراسة الشاعر ، التنبه إلى اختلاف الرواية بين بيت وآخر في كل من الديوانين المطبوعين وكتب الأدب الأخرى . ففي حماسة ابن الشجري مثلاً بيتان ، أولهما غير موجود في الديوان ، والثاني موجود إلا أن فيه اختلافاً عن رواية الديوانين المطبوعين « ٧ » .

ب ـ الأخبار :

وهذه الناحية جديرة بالاعتبار لأنها تنير طريق الأشعار ، وتمهد سبيل الدراسة ، وهي كثيرة لاحصر لها . نصنفها في النقاط التالية :

١ ـ أخبار حياته
٢ ـ أخبار مأساته
٣ ـ أخبار مجونه
٤ ـ أخبار انتجاعه ديار بني هاشم في سلمية .

وقد سبق أن لاحظنا أن هذه الأخبار لاتفي بالغرض ، غير أنها هامة في هذا المجال . وننبه إلى تصنيفها زمنياً لمعرفة الخبر الأصلي والفروع الاجتهادية المأخوذة عنه . ولا غنى للباحث عن استعمال خياله في ربط هذه الأخبار ، كما فعل عبد المعين الملوحي حين ألقى محاضرته في السويداء عن ديك الحمصي .



مرة أخرى يعزو المرء غياب ديك الجن عن الدراسات الأدبية والنقدية إلى وعورة الطريق إليه ، ولعل في الذي فعلناه خيراً .

هوامش البحث

(١) ذكر القزويني في عجـــائب المخلوقات (ص ٣٢٥) ، والدميري في حيـاة الحيوان الكبرى (٦١٦/١) ، ان ديك الجن دويبة توجد في البساتين . وقـال غيرهما : سمي بذلك لاخضرار عينيه . وأقرب الرأيين إلى الصواب الأول ، لكثرة اختلاف ديك الجن الى البساتين وملازمته لها . انظر أيضاً شعراء الشام لخليل مردم / ص ٥٨ .

(٢) : وفي رواية أخرى سنة ست وثلاثين .

(٣) : حاول الاستاذ عبد المعين الملوحي سد هذه الثغرة ، فقسم مراحل حياة شاعرنا إلى ثلاث :

أ : ولادته وتلقيه العلم بحمص ، وتنتهي عند حادثة المسجد

ب : فزع الفتى الى البساتين واعتكافه بها ، واطلاق لقب ديك الجن عليه .

ج : جنوحه نحو المجون والخمرة ، وقصة حبه ، ثم مأساته التي مرت كذلك بثلاثة أدوار :

١ : الدور الذي كان فيه مايزال يعتقد أن ورداً خائنة

٢ : دور يقظة الضمير ، والشك في خيانتها .

٣ : دور معرفة الحقيقة ، وفيه نرى الحزن العميق والالم الدفين .

(محاضرات الموسم الثقافي ص ٢٣٩ وما بعد)

(٤) : طبع على مطابع الفجر الحديثة - حمص ١٩٦٠

(٥) : طبع في دار الثقافة - بيروت - ١٩٦٤

(٦) : هذه القصيدة غير موجودة في الديوانين المطبوعين ، بل هي في قطب السرور ص ٥٤٨

(٧) : انظر الحماسة ٨٩٩/٢ ، وديوان الملوحي ص ٣٦ ، وديوان الجبوري ص ١٦٥

النشاط العربي الواسع للجمعية التاريخية في حمص بين ١٩٧١ – ١٩٧٧

تأسيس الجمعية التاريخية في حمص :

حيا الله تلك الأيام التي جمعتنا على الحب والمودة والاخلاص من عام ١٩٧١ وما قبل ، فقد كنا مجموعة من الشباب ، متفاهمين ، منسجمين ، مؤمنين بحقنا في الحياة ، نحاول اثبات هذا الحق وتأكيده بأية طريقة من الطرق ، ونحاول الاصلاح في ميدان اختصاصنا وفيما تطاله أيدينا من الفساد ، ما استطعنا من اصلاح ، فاجمعنا الرأي على الاجتماع ، مرة في الاسبوع ، في بيت كل منا بالتناوب ، نتباحث ونتداول في أمور الحياة العامة ، حتى اقترح أحدنا – أحسن الله إليه الجزاء – أن نؤلف جمعية تاريخية نطلب لها الترخيص رسمياً فتكون لنا نعم النادي العلمي والترفيهي ، فيه يبذل هاوي العلم جهده حتى يحقق هواه ، ويجتمع من ينوء بثقل العمل وهموم البيت فيستجم بعض الساعة مع رفاقه المخلصين ، بعيداً عن أماكن الاجتماعات العامة التي ترهق الصدر والأذن والعين بجوها المشحون بكل مانكره . وفي هذا النادي نعمل جميعاً – أو على الأقل من يحب العمل – في سبيل غاية علمية نضعها مثلاً اعلى لنا هي أن ندرس تاريخ أمتنا القديم والحديث دراسة علمية موضوعية نصدّ ونرد بها خطر أولئك الذين يلفون في تاريخ أمتنا فيحاولون فيه الدس والافتراء لاظهاره في أسوء مظهر .

وبدأنا العمل لتحقيق تلك الفكرة ليل نهار وتم لنا ما نريد بفضل الله ، وصدر الترخيص من وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل في ١٩٧١/١٠/١٢ بانشاء الجمعية التاريخية في حمص . وتشمرت الزنود للنشاط وشحذت الأذهان للتفكير .

النشاط العربي بين ١٩٧١ – ١٩٧٤ :

كان من أول الاعمال التي قامت بها جمعيتنا بعد تأسيسها أن أرسلت كتباً عديدة إلى كبار

الأساتذة في الجامعات السورية واللبنانية تدعوهم لالقاء أبحاث في مقرها ، كما ارسلت كتباً إلى الجمعيات التاريخية في الوطن العربي تنبئها بتأسيس جمعية تاريخية في حمص وبأهدافها وترجو مراسلتها ودعمها بكل منشوراتها العلمية والتاريخية . وكان أول جواب يأتي من الجمعية المصرية للدراسات التاريخية التي يرأسها آنذاك - الدكتور أحمد عزت عبد الكريم - الذي تتمذ على يده طلاب التاريخ في كلية آداب الجامعة السورية بين ١٩٤٦ - ١٩٥٥ - فقد رد الأستاذ الكبير مهنئاً بتأسيس الجمعية و واعداً بتقديم كل مساعدة ممكنة ، ثم بعد مرور سنة ونيف تقريباً وردت منه رسالة ثانية يدعو فيها الجمعية للاشتراك في الندوة التي ستعقدها بالاشتراك مع المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية بمناسبة مرور / ١٥٠ / عاماً على وفاة المؤرخ الكبير عبد الرحمن الجبرتي وحملت الدعوة الجهة المدعوة نفقات الانتقال إلى القاهرة بينما تقدم مساعدة رمزية للاقامة مدة اسبوع فقط ، واجتمع مجلس الادارة ودرس الدعوة وكنا آنذاك نشكو الافلاس ، فليس للجمعية إلا وارد بسيط من اشتراك بعض الأعضاء الذين يلتزمون بدفع ليرة سورية فقط في الشهر ، فكثيراً ما كنا نتعاون من جيوبنا لتسديد بعض الواجبات الالزامية للمحاضرين والضيوف الذين يزورون الجمعية أو لدفع أجور مقر الجمعية ، وخرجنا من الدراسة بوجوب تلبية الدعوة فهي ابراز لوجه الجمعية واعلان عام لكل من يحضر الندوة ، إن هناك في حمص جمعية تاريخية ، وقرر مجلس الادارة تكليفي باعتباري رئيسة بالسفر للقاهرة لحضور الندوة والقيام بما يجب من نشاط لتمثيل الجمعية .

وفي ١٥ نيسان ١٩٧٤ كنت في القاهرة وبدأت الندوة في اليوم التالي ودامت اسبوعاً وحضرها ممثلون من جميع جامعات العالم تقريباً من الشرق والغرب ، وبلغ عددهم حوالي / ١٠٠ / مندوب كما ارسل الذين تعذر مجيئهم ابحاثاً لتلقى بالنيابة عنهم مثل المؤرخ الانكليزي الكبير ارنولد توينبي ، فقد قرأ كلمته الأستاذ فؤاد محمد شبل ، وكانت الندوة حافلة بالابحاث القيمة عن عبد الرحمن الجبرتي وكتبه وعصره ، ألقيت باللغات الثلاث : العربية والانكليزية والفرنسية وكانت الأبحاث تلقى في كل مساء بين الساعتين ١٧ - ٢٠ ، وفي كل صباح نجتمع الساعة العاشرة لنخرج في زيارات موجهة إلى الجامعات والمتاحف والمناطق الأثرية ، وهكذا غطيت فترة الاسبوع تغطية علمية وسياحية وأثرية كاملة ، وأقيمت عدة حفلات عشاء من قبل وزير الثقافة ، والجامعات والمجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية ، وكنت استغل هذه الحفلات

فأتحدث باسم جمعيتي التاريخية في حمص عن اهدافها ومشاريعها وآمالهـا ، كما ألقيت كلمة في مجلس ادارة كلية دار العلوم في الجامع الأزهر عن أهمية اللغة العربية واصالتها في كل العلوم وضرورة التمسك بها وواجب الدولة والمواطنين في المحافظة عليها ، والقيت كلمة ثانية في جامعة الاسكندرية ـ وقد زرناها في نهاية المؤتمر ـ شكرت فيها القائمين على النهضة العلمية والراعين لها وخاصة في ميدان التاريخ وتكلمت عن ضرورة الاهتمام بموضوعية البحث التاريخي وواجب الدولة في السماح للمؤرخين بمناقشة الحوادث التاريخية بموضوعية علمية وروح متجردة ، ودعوت المؤرخين أن يكونوا حياديين علميين أثناء بحثهم ، وأثناء احد تلك الاجتماعات اجتمعت بالوفد العراقي الذي يمثل الجمعية العراقية للتاريخ والآثار برئاسة الدكتور حسين أمين وحدثته عن جمعيتنا حديثي المعهود فقال وهل يمكن ان تقبلوا دعوتنا للاشتراك في تكوين اتحاد للمؤرخين العرب ؟ فقلت انها فكرة حسنة تستحق المناقشة ونحن مستعدون لهذه الدراسة .

وانتهت ندوة الجبرتي وعدت إلى سورية بمجموعة قيمة من الأبحاث التي ألقيت فيها وبعـــض الكتب التي حفظت في مكتبة الجمية وقدمت للجمعية تقريراً شفوياً عن الندوة .

وفي خلال أيام قلائل بعد العودة من القاهرة وصلت الجمية بطاقة دعوة لحضور مناقشة فكرة تأسيس اتحاد عام للمؤرخين العرب في بغداد مع بطاقة طائرة ذهاباً وايابأ واجتمع مجلس الادارة فأقر وجوب ايفادي باعتباري حلقة الوصل التي كانت في الأصل في القاهرة .

واستمرت زيارتي هذه اسبوعاً من / ١٤ — ٢١ / أيار ١٩٧٤ وحضـــر ذلك الاجتماع مندوبون عن / ١٣ / قطراً عربياً هي حسب التسلسل الأبجدي : الأردن البحرين ـ تونس ـ الجزائر ـ سورية ـ الصومال ـ العراق ـ الكويت ـ لبنان ـ ليبيا ـ المغرب ـ اليمن الجنوبية ـ اليمن الشمالية . ودامت المناقشات أربعة أيام / ١٥ ـ ١٨ / أيار وضع خلالها نظام أساسي لاتحاد المؤرخين العرب المقترح وتبرعت حكومة العراق بعشرين الف دينار للاتحاد المؤسس ، وكانت أكبر صعوبة لاقاهـا الاتحاد العتيد عـــدم اشتراك القطر المصري فيه كما رأيت من ذكر اسماء الأقطار المشتركة فيه وقد ظهر من المناقشة أن العراق ومصر تتنازعان زعامة الاتحـاد ومركزه الرئيسي .

وكان من الطبيعي في الاجتماع ان يختار الامين العام للاتحـاد مندوب العراق

الدكتور حسين أمين كما اختير خمسة أمناء عامون مساعدون روعي في اختيارهم تمثيلهم لانحاء العالم العربي الجغرافية المتباعدة . واعتبر الحاضرون جميعاً أعضاء للمكتب الدائم لاتحاد المؤرخين العرب خمسة سنوات كاملة واوصى الجميع بأن يسعوا لدى حكوماتهم لعقد مؤتمر للاتحاد عندها في كل سنة مرة على أن يكون مؤتمراً علمياً موضوعياً .

وكان حضور ممثل الجمعية في تأسيس اتحاد المؤرخين العرب كسباً كبيراً للقطر العربي السوري وللجمعية اذ اعتبر القطر عضواً في المكتب الدائم واسمع صوته إلى كل الأقطار العربية . وليس هنا مجال البحث في قانون اتحاد المؤرخين العرب فلذلك بحث خاص مطول .

مؤتمر بنغازي ١٩٧٥ :

وفي النصف الأول من شهر حزيران يونيو ١٩٧٥ تلقت الجمعية بشخص ممثلها عضو المكتب الدائم لاتحاد المؤرخين العرب دعوة إلى حضور المؤتمر الأول للاتحاد في بنغازي ضيفاً على الحكومة الليبية ولبحث المواضيع الآتية :

١) الموافقة على قبول الجمعيات التاريخية والباحثين في الحقول التاريخية الذين تقدموا بطلبات للانتساب للاتحاد .

٢) النظر في ميزانية الاتحاد .

٣) تنظيم عقد المؤتمرات العلمية في الوطن العربي .

٤) مناقشة امكانية كتابة تاريخ الأمة العربية .

٥) مناقشة توحيد مناهج تدريس التاريخ في مراحل التعليم المختلفة في الوطن العربي .

وعين يوم ١٨/١٠/١٩٧٥ موعداً لعقد المؤتمر .

وسافرت إلى بنغازي وعقدت الاجتماعات في كلية الآداب بين ١٨ - ٢٠ تشرين الأول اكتوبر وحضرها اضافة إلى الاعضاء السابقين ممثل حكومة قطر الذي وجه دعوة حكومته لعقد المؤتمر القادم في عاصمة قطر في تشرين الأول اكتوبر ١٩٧٦ وفي نهاية الاجتماعات اتخذ المكتب الدائم التوصيات الآتية :

١) الموافقة على قبول الجمعية التاريخية السودانية والجمعية المغربية للبحث التاريخي وجميع الباحثين العرب الذين تقدموا بطلبات انتساب .

٢) الموافقة على ميزانية الاتحاد .

٣) الموافقة على انعقاد مؤتمر المكتب القادم في الدوحة ـ قطر في آخر ١٩٧٦ .

٤) الموافقة على اعادة كتابة تاريخ الأمة العربية بروح موضوعية تهـــدف إلى بيان معطياتها الحضارية والدور الذي أسهمت فيه في بناء الحضارة الانسانية وتخويل الأمين العام القيام باتصالات مباشرة مع المسؤولين في الدول العربية لطلب مساعدتها في هذا العمل .

٥) تخويل الأمين العام الاتصال بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم من أجل توحيد مناهج التاريخ في مراحل التعليم المختلفة في الوطن العربي .

ويجب أن أذكر ان الامين العـام نجح بادخال عدد من المؤرخين المصريين في الاتحاد فمثلهم الدكتور عبد النعيم حسنين وبذلك زالت الصعوبة الكبرى التي كانت أمام الاتحاد بعدم انتساب القطر المصري اليه ، كما حضر ممثل الجمعية السودانية المتشبة حديثاً وهو الدكتور عباس ابراهيم رئيس قسم التاريخ في جامعة الخرطوم .

وبعد عودتي إلى الوطن من بنغازي تقدمت بتقرير مفصل إلى الجمعية عن الاجتماعات ورفعت نسخة من ذلك التقرير إلى المسؤولين تنفيذاً لتوصيـات المؤتمر ، أملاً بمساندة الدولة في الجمهورية العربية السورية للاتحاد في خطواته ومساعيه .

النشاط خلال ١٩٧٦ — ١٩٧٧ :

في آذار ١٩٧٦ وردت رسالة من حكومة قطر تعتذر عن عقد المؤتمر في موعده في كانون الأول ديسمبر ١٩٧٦ نظراً لانشغال الدوحـــة بعقد مؤتمر الأوبيك في نفس الفترة وتعين شهر آذار مارس ١٩٧٧ موعداً جديداً لعقد المكتب الدائم للاتحاد ، ولعقد مؤتمر تاريخي كبير باسم مؤتمر الدراسات التاريخية لشرقي الجزيرة العربية يحضره مندوبون عن جميع الدول العربية وعن الجامعات الأجنبية في أوربا وآسيا وافريقيا المهتمة بتاريخ المنطقة .

وتتابعت المراسلات في سبيل تنظيم المؤتمر حتى حان وقته فسافرت إلى الدوحة في منتصف آذار مارس ١٩٧٧ وكان تنظيم المؤتمر رائعاً جداً إذ اشتركت فيه حكومة قطر واتحاد المؤرخين العرب وجامعة الدول العربيـة والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم فجاء مؤتمراً عالياً بتنظيمه ، كما شاركت فيه كل جامعـات الوطن العربي بكبار علمائهـــا ومؤرخيها وجاء ممثلون عن جامعات كندا والولايات المتحدة

الامريكية وانكلترا وفرنسا والمانيا واسبانيا وتركيا واليابان وإيران والهند والباكستان والجمعية التاريخية الدولية بشخص أمينها العام وكانت قاعة المؤتمر قد جهزت تجهيزاً كاملاً فهيئت فيها وسائل الترجمة الفورية / مع مكبرات الصوت / باللغات العربية والانكليزية والفرنسية . ووزعت ملخصات للأبحاث التي تلقى كي يدرسها من يشاء من الحاضرين ويستمدون لمناقشتها .

وفي يوم الافتتاح حضر مندوب أمير قطر ولي عهده والقى كلمة رحب فيها بالحاضرين وتمنى لهم طيب الاقامة والتوفيق في العمل على كتابة تاريخ شرقي الجزيرة العربية كما يجب . وجاءت الأبحاث العلمية شاملة لتاريخ المنطقة شمولاً جيداً منذ العصور القديمة حتى مابعد الحرب العالمية الثانية ووقتنا هذا واتصفت بموضوعية وحيادية رائعتين من قبل العرب والأجانب حتى ان السيد ميشيل فرانسوا الأمين العام للجمعية التاريخية الدولية أثنى على الندوة وعلى القائمين على تنظيمها وترتيبها ، وبلغ عدد الابحاث المقدمة نيفاً وثمانين بحثاً باللغات الثلاث سيكون طبعها ونشرها في مجلد أو مجلدين (حسب الامكان) شاملاً لتاريخ شرقي الجزيرة العربية وباعثاً ومشجعاً للباحثين على الاستزادة من البحث والمراجعة .

وإلى جانب تلك الندوة كان أعضاء المكتب الدائم يجتمعون اجتماعاتهم الخاصة لدراسة نتائج جهود الامانة العامة خلال العام المنصرم وخلاصتها انضمام عدد كبير من الباحثين التاريخيين وامانة عُمان ودولة الامارات العربية المتحدة والسعودية ، واعتذار الصومال عن عقد المكتب الدائم في عاصمتها مقديشو في شتاء ١٩٧٧ - ١٩٧٨ لعجزها المالي عن تمويله ، والدعوة للاهتمام بالمخطوطات العربية الكثيرة الموجودة في امانة عمان ، ومحاولة الامانة بالتعاون مع جامعة الخرطوم اقامة مؤتمر عربي افريقي في الخرطوم لدراسة العلاقات العربية الافريقية خلال التاريخ ، ولكن أهم بحث جرت مناقشته هو اتصال الامانة العامة بالحكومة الاسبانية لنيل السماح منها لاقامة مهرجان تراثي ثقافي عربي في الاندلس ، وكان الاتفاق على أن يتصل أعضاء المكتب الدائم بحكوماتهم لتبيان اهمية ذلك المهرجان وإمكانية استغلاله اعلامياً للقضية العربية الكبرى - كما حدث في مهرجان لندن الاسلامي عام ١٩٧٦ وتشجيع كل الحكومات العربية الاشتراك فيه .

وانتهى مؤتمر الدراسات التاريخية لشرقي الجزيرة العربية وعاد جميع الأعضاء إلى بلادهم حاملين معهم خلاصات للأبحاث التي القيت في المؤتمر وبعض نشرات عن إمارة قطر ، وقد ارسلت الامانة العامـة في الايام القليلة الماضية نتائج اتصالاتها مع الدول العربية فبيّنت نجاحها مع السعودية والكويت اذ تبرعت السعودية مقـدماً منذ الآن بمائة وخمسين الف دولار كدفعـــة أولى لتحضير مهرجان الاندلس ، كما أعلنت الكويت استعدادها للمساهمة فيه إلى أبعد حد ممكن والأمل كبير بمساعـــدة بقية الدول العربية .

ذلك عرض موجز لنشاط جمعيتنا التاريخية في حمص في الميدان العربي الواسع والأمل كبير جداً بأن يزداد ذلك النشاط ويتسع اتساع فكرة الوحـــدة الفكرية العلمية العربية ونسأل الله تعالى ان يزيل الخلاف والتنافر بين ابناء الامة العربيـــة جماهير وحكاماً حتى يستطيعوا الاتحاد النافع القاضي على اطماع اعـــدائنا ، اعداء الأمة الخـالدة .

عضو الجمعية التاريخية في حمص
عضو المكتب الدائم لاتحاد المؤرخين العرب
محمـــد الحروبي

مجـــلة

البحث التاريخي

مجلة

البحث التاريخي

تصدر عن الجمعية التاريخية بحمص

العدد الثاني	ذو القعدة ١٣٩٩ هـ	تشرين الأول ١٩٧٩ م

العنوان :

مركز الجمعية

حمص ـ الجمعية التاريخية

شارع عبد الحميد الدروبي

☎ ٢٦٢٨٠

طبعت في

مطابع الروضة النموذجية

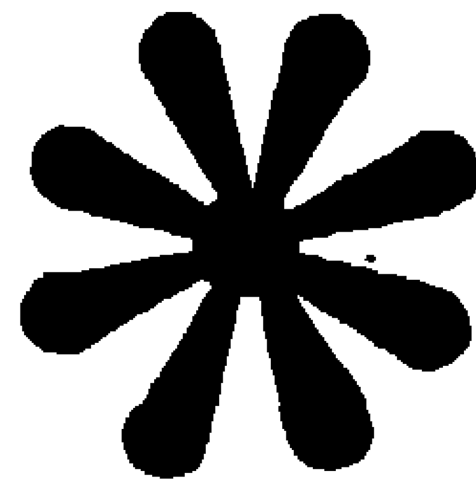
[illegible]

ملاحظات

- البحوث والمقالات التي ينشرها الكتاب في هذه المجلة تعبر عن آرائهم الشخص

- ترتيب مواد العدد يخضع لاعتبارات فنية فقط .

- المراسلات باسم المدير المسؤول : حمص ـ الجمعية التاريخية .



في هذا العدد

كلمة العدد

محمد عبد الصمد الشاطر
رئيس الجمعية التاريخية

تقترن اطلالة العدد الثاني من مجلة البحث التاريخي ببروز أحداث جسام علـى امتداد الوطن العربي جعلته يقف وجهاً لوجه أمام تحديات مصيرية من نوع فريد .

هذا الوطن العربي الكبير في امتداده الشاسع الفسيح شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً سبق ان نزلت به نوازل قاصمة ، وأحدق به مـن الملمات والكوارث مالو نزل بغيره من الاوطان لرأيته متصدع البنيان مهدوم الاركان وقد غاب رسمه وعفا اثره ولكن :

سِـر الصحارى وسلها كلما يَبستْ   من اين ينبع فيها الظل والشجر ؟ . . !

ان التاريخ يعيد نفسه ، نعم ، لكنه لايعيد نفسه بكل التفصيلات وانما يعيد ذلك ضمن خطوط عريضة وأطر عامة في كل زمان ومكان اللهم الا في أحوال الطفرات ، وتلك لها حديث طويل . . . كما ان سعي الأمة العربية نحو الوحدة له حديث اطول ، فعلى المدى البعيد من خلال القرون ، ومنذ ان بدأ التصدع في وحدة الصف العربي بدأنا نرى المحاولات الجادة تسعى لتوحيد الصف العربي بعد تمزق ، ولتلم شمله بعد تشتت ، وفي التاريخ تبرق نقاط مضيئة هنا وهناك ، وينطلق شعاع رائع لايلبث ان يتلاشى ، ولننظر الى

الاضاءة التي تمثلها محاولة صلاح الدين الايوبي التي تعد استمراراً ومتابعة لما بدأ به سلفه العظيم نور الدين محمود زنكي في توحيد الشمل الشتيت ، ولكن هذا التوحيد على الرغم من الغرض الجليل الذي اداه الى العالم العربي والاسلامي في كسر شوكة الصليبيين ومحق جيوشهم واسترداد مااغتصبوه وتطهير مادنسوه ، اقول : هذا التوحيد لم يكن وردة بلا اشواك سواء في بدايات الامور او نهاياتها اوفي اثنائها . لقد كان للعامل الشخصي « شخصية البطل » أثر كبير في توحيد القلوب واستمرارهذا التوحيد ، وان شخصية صلاح الدين بآفاقها الرحبة مقترنة بالامانة التى تحملها واعني واجب الجهاد المقدس ، كان لها بما اقترنت به اكبر الاثر في تجميع الامراء والقادة في كتلة واحدة وحول نقطة ارتكاز اساسية ، ومع ذلك فكثيراًمارأينا بعض القادة والامراء يعصون امر صلاح الدين في لحظات حاسمة ، ولم يكن يجرد قتالاً ضدهم لاعادتهم مقهورين الى الجماعة ، بل كان يلوح لهم بالخطر المحدق تارة ويمسّهم باللوم والعتاب تارة اخرى . . وبمزيج من هذه الاساليب السياسية الجامعة للقوة استمر صلاح الدين يسير الامور كما تقتضي اصول السياسة والحزم والاخلاق وبذلك دفع الاذى عن الاوطان واسترد مااغتصبه الصليبيون امداً طويلاً .

وتعاقبت امواج الغزاة على العالم العربي ، وهجمت الظلمات امواجاً يركب بعضها بعضاً ، ومازال الغزاة يمّدون اذرع الاخطبوط الى عالمنا العربي ويعيثون فساداً ، وتتالت الدول وترادف الملوك والسلاطين الى ان ناء العثمانيون بكلكهلم على البلاد ، وساءت احوال العالم العربي - او قل استمر سوءها على ماكان عليه وازداد - في ظل حكمهم ، ولما اعتراهم الوهن ودب اليهم الانحلال طمع بهم وبالعالم العربي الاستعمار الجديد الفتي آنذاك . وبلغت

الامور من التسيب والانحلال وضياع التبعات درجة دفعت الناس او كادت تدفعهم الى اليأس من كل تحرر اواصلاح . . . ولكن .. هذا رجل ألباني يجيء مصر ، رجل امي ، بدهائه وحكته وذكائه المتوقد استطاع ان يحقق من الاصلاح ماعجز عنه سيده في الآستانة ، وكاد يحقق مشروعاً لوحدة العالم العربي او لرقعة فسيحة منه ، وظن الناس انه القوة التي لاتقهر بعد ان اصبحت الطريق الى الاستانة مفتوحة امام جيوشه وهُدد البسفور . . ولكنّ القوى الاستعمارية القت بثقلها كله ضد محمد علي لاحباً بالسلطان العثماني ، ولكن خوفاً من تجمع قوة عربية فتية على ارض عربية موحدة ، ولذلك تصالح الخصمان ، انكلترا وروسيا ، وانضمت اليهما اطراف التآمر الأخرى ، وتمكن تحالف الشيطان هذا من قتل الوليد في مهده واتلاف الثمرةاوان حملها . وامعاناً منهم في سياسة - فرق تسد - عبؤوا بعض القوى الوطنية ضد محمد علي ، وحرضوا الناس ليثوروا ضد ماسموه بالاحتلال المصري ، ونفروهم من قسوته في ادارة دفة الامـــور بسوط اشد عسفاً من سوط عساكر السلطان العثماني . . . زعموا . .

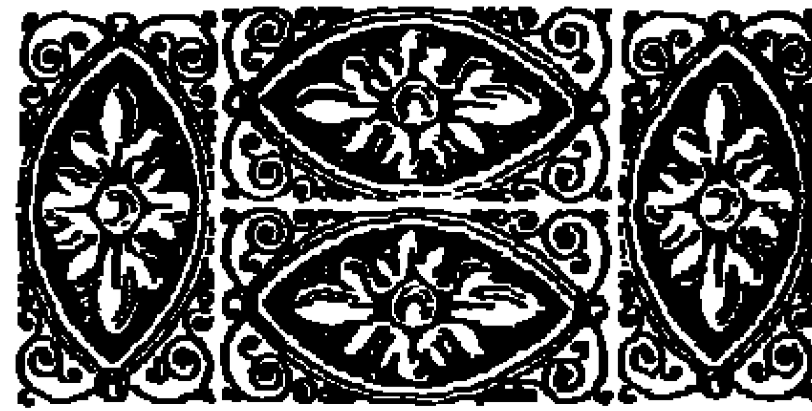
وصدق المغرورون وذوو المصالح الخاصة الضيقة ، صدقوا مازينه شيطان الاستعمار لهم ، وران على قلوبهم واسرجوا انفسهم في خدمة المستعمرين وكان ماكان فظن شراً ولاتسأل عن الخبر ! ! . . .

هذ اللحن النشاز كرر عزفه بتوزيع جديد قبل تحطيم وحدة مصر وسورية سنة ١٩٥٨ م . والناس مازالوا يذكرون ويعرفون النكبات التي اصابت الوطن العربي في الحالين في القرن التاسع عشر والقرن العشرين .

ولم يقصر المستعمرون اعداء العروبة جهدهم على اسقاط المحاولتين السابقتين

من محاولات التوحيد فقط ، بل انهم كانوا قد راشوا سهامهم واشرعوا رماحهم ووجهوا لثورة العرب الكبرى بقيادة الشريف حسين ولثورة مصدق في ايران ولغيرها مـــن ثورات البلاد المشرقية سهامهم المسمومة لترسيخ الفرقة والانفصال . وبعد :

ان الحل امامنا بات واضحاً ، ولاخيار لنا فيه ، اننا نراه بيناً جلياً ، انه الوحدة العربية ، وان كان هناك من يلقي على هذاالحل طائفة من الشكوك ، ويختلق امامه طوائف من العقبات ، من اجل مصالح شخصية وشهوات خسيسة ، الا ان جمهرة الناس في عالمنا العربي تدرك جيداً اهمية التوحيد وضرورته ولزومه ، والادراك بحد ذاته ليس مهماً الا بقدر مايكون فعالاً في الحركة والتحريك ، ان المهمة العاجلة امام الوطن العربي ان يبدأ خطواته نحو الوحدة ، وليس المهم اصدار البيانات الرسمية بل المهم ان تبرز الوحدة حقيقة الى عالم النور وتنتقل الى حيزالتحقق والوجود .



شقيقة لأوغاريت في رأس ابن هانئ

الدكتور عدنان البني

الآن بعد سنوات خصيبة حافلة بالأحداث الأثرية المثيرة في الفرات وتل مرديخ وتدمر وعلى شاطيء المتوسط ، تلك الأحداث التي تمت نتيجة للاهتمام الذي توليه الجمهورية العربية السورية للآثار وللتعاون العلمي النزيه مع المؤسسات الأثرية الأجنبية ، بدأ العالم يرد لسورية الأثرية مكانها كمركز الثقل في الهلال الخصيب ودورها البارز في تاريخ الحضارة ؛ ذلك الدور الذي يقوم ، من جهة على إبداع فكر وفن وعمارة وصناعة شعبية تتسم بالأصالة والذوق. ومن جهة ثانية، على توطيد الصلات الثقافية والإنسانية بين مختلف اجزاء العالم القديم بإبداع الابجدية إحدى أبرز المكتشفات البشرية إن لم تكن أبرزها على الإطلاق .

ويحضرني ، ونحن مازلنا في صدد الاصالة والتفرد ـ أن أورد ماتركته في نفس العالمة الفرنسية السيدة « بورد » زيارة القطر العربي السوري .

قالت السيدة « بورد » :
«إن انطباعي قوي جداً (عن بلادكم) ففيها أصالة عميقة واستمرار تاريخي وحيوية معاصرة . وهذه الخصائص بذاتها تسبغ على سورية تفرداً رائعاً في عالمنا الذي يفقد روحانيته . »

النشاط الاثري في سورية يتسع وينتشر من الجزيرة إلى الفرات الى وسط البلاد وباديتها والساحل السوري حتى أقصى الجنوب ، والمديرية العامة للآثار

والمتاحف تبدأ منــذ وقت بأسلوب جـديد في عمليات التنقيب الاثري ، وهــو أسلوب المشاركــة ، أومايسمي بالبعثــات الاثرية المشتركة العربيــة السورية والاجنبية ، وهي مرحلة انتقال بين البعثات الاجنبية الوطنية الصرفة ، وخطوة أساسية هامة لتبادل الخــبرات وتطوير الكوادر الوطنية . إن كثرة مواقعنا الاثرية وحداثة عهد كوادرنا الوطنية نسبياً في عمليات التنقيب المعقدة ، تجعلنا نرحب بالتعاون مع كوادر تابعة لمؤسسات أثرية أجنبية عريقة في هذا المجال . وقد تكون المقارنة الإفرادية بين عناصرنا والعناصر الاجنبية إيجابية في أحيان كثيرة ، ولكننا نفيد كثيراً من جماعية العمل وتطوير التجهيزات والمخابر وتنوع الاختصاص . ومهما كانت الحال فإننا لاننسى ان أسلوب المشاركة يذلل بالنسبة للبعثات الاجنبية أيضاً عدداً كبيراً من الصعوبات المادية والادارية حتى التقنية في وقت يصعب فيه تأمين الاعتمادات واستجلاب المعاونين حتى في الدول البالغة التطور .



وقد تهيأت ظروف مواتية لانشاء بعثة مشتركة عربية سورية فرنسية في (رأس ابن هانيء) شمال اللاذقية . ففي العام ١٩٧٤ كنا نجري في رأس الشمرة مع الزميل نسيب صليبي وطلابنا عملية مشتركة محدودة مع أثريين فرنسيين هما (جاك لاكارس) وزوجته (اليزابيت لاغارس) . وكانت التجربة مشجعة . وكانت على بعد خمسة كيلو مترات منــا إلى الغرب تجري أعمــال إنشاءات سياحية في رأس ابن هانيء كشفت أوابد أثرية مغيبة وأظهرت في عام ١٩٧٣ مدفنا أوغاريتيا كشف عنه الزميل الاستاذ قاسم طوير .

ورأس ابن هانيء ابرز رؤوس الساحــل السوري ، يقع على بعــد ١٠ كم

شمال اللاذقية ، هوبقعة جميلة جداً يكتنفها بحر ازرق وبلاجات بديعة ، ويطل من أفقه البعيد جبل الاقرع « كاسيوس » وقد اختير هذا الرأس موقعاً لفندق سياحي دولي المواصفات ولمدينة سياحية تخترقها طرقات عريضة . وكان البدء بالفندق في أعلى نقطة من الرأس التي تبين أنها تل أثري كبير وتلان صغيران كان اشار إلى وجودهما من قبل الاستاذ جبرائيل سعادة ، وارتطمت الآليات الثقيلة بجدران يصل سمكها إلى متر ونصف تشبه بنيتها الجدران المعروفة في رأس الشمرة فما العمل ؟ .

لقد نقل موقع الفندق إلى القسم الرملي الجنوبي من الرأس بإصرار من المديرية العامة للآثار والمتاحف ، وبتجاوب من السلطات المعنية ، وخصص التل الاثري وجواره بالمديرية العامة للآثار والمتاحف على ان يخضع إنشاء المدينة السياحية وطرقها لرقابة السلطات الاثرية التي كان عليها أن تتحرك بسرعة قبل أن تزيل الجرافات كل شيء . كان الوقت عاملاً هاماً . وثمة قطاع هام من التل الاثري نفسه مهدد بشق طريق دولية عريضة تمر من جنوبه بينه وبين الموقع الجديد للفندق ، ولابد من استجلاء خباياه قبل فوات الاوان .

وحدثت ظروف بالنسبة للعمل المشترك في رأس الشمرة لامجال للتفصيل فيها حالياً ، وعرض علينا إنشاء بعثة إنقاذ مشتركة عربية سورية فرنسية ، ووقع السيد المدير العام للآثار والمتاحف الدكتور عفيف بهنسي اتفاقية بين المديرية العامة للآثار والمتاحف وبين لجنة البعثات الاثرية بالإدارة الثقافية بالخارجية الفرنسية بإنشاء بعثة أثرية عربية سورية فرنسية للعمل في رأس ابن هانيء يديرها من الجانب السوري الدكتور عدنان البني مدير التنقيب والدراسات الاثرية . ومن الجانب الفرنسي الاستاذ جاك لاغارس الملحق في

المركز الوطني للبحث العلمي في فرنسا ، وتضم أعضاء عرباً سوريين وفرنسيين يتعاونون جميعاً في الدراسة الاثرية والجيولوجية والجيومورفولوجية والجيوفيزيائية لرأس ابن هانيء . وقد أدت البعثة في الرأس المذكور أربعة مواسم حتى الآن ١٩٧٥ ، ١٩٧٦ ، ١٩٧٧ ، ١٩٧٨ استغرق كل موسم ماعدا الموسم الاول حوالي ثلاثة اشهر (حزيران ، تموز ، آب) مع فترة متممة في أواخر عام ١٩٧٧ .

اسهم في المواسم الآنفة الذكر من العرب السوريين من موظفين في الآثار وغير الموظفين السادة والسيدات والاوانس :

د . عدنان البني ، نسيب صليبي ، بدر الدجاني ، رامز ديب حوش ، حنان المدرس ليلى بدر ، سحر الحسامي ، مي توما ، نابغة السيوفي ، محمد الرومي ، محمد مكي حسن زرقش ، محمد فارس ، أنور عبد الغفور ، إحسان هندي ، وعدد من الطلبة خريجي قسم الآثار بجامعة دمشق وطالبتان لبنانيتان . . .

كما أسهم من الجانب الفرنسي السادة والسيدات والاوانس :

جاك لاغارس ، اليزابيت لاغارس ، بول غارزنسكي ، آني كوبيه ، يولاند دوبوتيسون ، جاك كلود دوكدر ، بيير لويش ، بيير بورد روي ، دوغلاس كينيدي ، وكذلك جول بوسويه وجان سانلافيل .

وليس المجال متسعاً لذكر كثيرين قدموا لعملنا الاثري ما كتب له النجاح وأولهم عمالنا الذين وصل عددهم أحياناً الى قرابة مائة عامل وعاملة .



إن مايسمى حالياً باسم رأس ابن هانيء (باسم القرية القريبة منه) كان في وقت مايعرف أيضاً باسم « رأس الفنار » وهو عبارة عن شبه جزيرة ممتدة في البحر من الشرق إلى الغرب بطول يقرب من ثلاثة كيلو مترات ،

وعرض وسطي حوالي نصف كيلومتر يصل إلى حوالي كيلو متر من الجهة الشرقية . القسم الغربي من شبه الجزيرة صخري مرتفع في الجهة الشمالية بشكل جروف منكسرة . في أساس شبه الجزيرة أساس حواري ميوسيني أو ايوسيني سابق للدور الرابع الطبقي وفوقه طبقة حوارية رمليه صفراء مقاومة لاتصاح كثيراً للبناء ، توضعت على مايظهر خلال الفترة ما بين الجمودية المعروفة باسم « مندل ريس » وتغطي هذه الطبقة تربة رملية حمراء غير سميكة . وفي القسم الشرقي من شبه الجزيرة ، تختفي الطبقة الحوارية بخط جنوبي غربي وشمالي شرقي ، تحت رمال كثيفة نسبياً ترسم خليجين ، الشمالي المعروف بالقبان صغير نسبياً محصور بين بروزين صخريين وهو محمي بشكل جيد وفيه على مايرجح كان المرفأ الرئيسي لموقع ابن هانيء . أما الجنوبي فهو واسع يتصل برأس الخضر وهو اكثر تعرضاً للأنواء وأقل صلاحية للملاحة بسبب الارصفة الصخرية القائمة فيه . وكانت شبه جزيرة ابن هانيء بالاصل عبارة عن جزيرة اتصلت باليابسة بذراعين رمليين (تمبولو مزدوج) كان أثرهما واضحاً حتى وقت قريب قبل عمل الجرافات (ارتفاع الشمال حوالي ٩ م) وكان كل ذراع يحيط بأحد الخليجين وبينهما منطقة واطئة تمتلىء بالمياه شتاء .

ولقد وجدنا رصيفاً ممتداً من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي وأرصفة متوازية بشكل السنة في البحر وهذه الارصفة كلها مشيدة من كتل الحوار الرملي ، وقد غطست جزئياً فيما بعد وعمل فيها نحات البحر حتى اقتطفها على مستوى + ٨٠ سم فوق المستوى الحالي للبحر ، والتحمت كتلتها البحرية بيولوجيا بالاشنيات والصدفيات الدقيقة ، ثم ارتفع مستوى البحر إلى + ١،٥٠ م عن المستوى الحالي ، وقطع ذراع بحري القسم الصخري من ابن هانيء عن اليابسة ثم ملأت الرمال البحرية هذا الذراع البحري ، ثم اخذ مستوى البحر

ينخفض مشكلاً الذراعين الرمليين وبينهما القسم المنخفض وهو الشكل الذي بقي حتى الآن .

لسنا الان في صدد تفصيل الاسباب الطبيعية من بحرية وبرية الارتفاع وانخفاض مستوى البحر . إن الميل العام للشاطيء السوري- اللبناني يميل بشكل عام نحو الارتفاع ويتخلل ذلك فترات ينعكس فيها الامر . ومن المحتمل أن ارتفاع مستوى البحر من + ٨٠ سم عن المستوى الحالي إلى + ١٫٥٠ م قد حصل في مطلع العهد الهيلينستي ، وتشكل ذلك التوضع الرملي الكثيف الذي احدث شبه الجزيرة (أوما يسمى بالتومبولو) من جديد . و ثمة دلائل على معاودة طغيان البحر على القسم الرملي من شبه جزيرة ابن هانيء في القرون الميلادية الثلاثة الاولى .



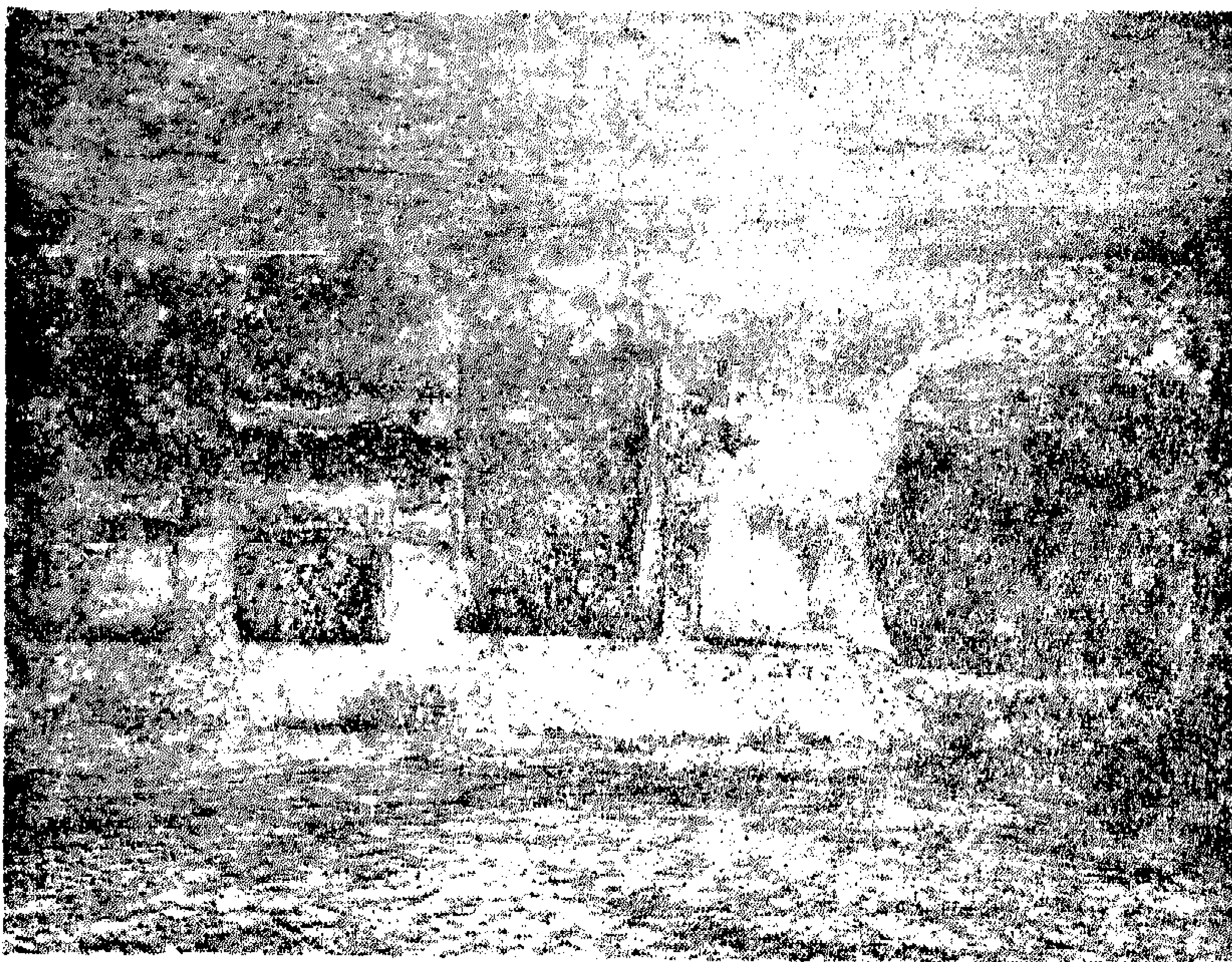
وحوالي نهاية القرن التاسع عشر ، مر العالم الفرنسي الشهير (رينيه دوسو) فرأى في رأس ابن هانيء مسرحاً ومعبداً وقدر أن هذا الرأس هو مدينة « ديوسبوليس » المذكورة في « الستاديارم » وهو دليل للبحارة اليونان .

أما الوضع الذي كان عليه موقع ابن هانيء في مطلع القرن العشرين فلا يتجاوز بعض أقسام مزروعة وممالح محدودة على الشاطىء الصخري الشمالي . وكانت هناك بقايا أسوار ضخمة ظاهرة ابرزها في الجهة الغربية (حيث يقوم السور الغربي) كانت تقتلع وتنقل على الجمال لبناء بيوت في اللاذقية والقرى المجاورة . وقد استقينا ذلك من بعض المسنين واكد الامر احد النصوص .

ولكن هل كانت البقايا التي ذكرها (دوسو) اوبقايا السور الغربي هي الوحيدة في رأس ابن هانيء ؟ لا . لقد كان ولم يزل حتى الان المدفن الهيلينستي الضخم المعروف بمدفن القبان ، وكان بالاصل تحت ركام ترابي (تومولوس)



« جانب من الأسوار المكتشفة في ابن هانيء »



« داخل من مدفن هيلينستي وجد في القسم الغربي من راس ابن هانيء »

على مايظن وقد حول إلى كنيسة في العهد البيزنطي . ويضاف إلى هذا المدفن مدافن منقورة في الطبقة الصخرية ، منها مدفن ديمترياس غوثينوس المكتشف بطريق المصادفة عام ١٩٦٥ وقد رأينا في القسم الغربي من رأس ابن هانيء مدفنين آخرين مماثلين منقورين في الصخر وفي كل منهما معازب للدفن .



« جانب من الأسوار المكتشفة في ابن هانيء »

وعلى الشاطيء الجنوبي وعلى الشاطيء الشمالي بعض الارصفة الحجرية الممتدة داخل البحر التي المحنا لها من قبل ولايمكن تحديد زمنها حالياً . يضاف إلى ذلك آبار كثيرة ضخمة ويكون قسم من البئر صخرياً والقسم الآخر مشيداً بالحجارة على الواجح ولم تزل فيها المياه .

ولانتسى التل الاثرى والتلين الصغيرين وكذلك المدفن الاوغاريتي وكنا أوردنا شيئاً عن ذلك في مطلع بحثنا .



وكانت الهيئات المختصة قد استملكت جل أراضي رأس ابن هانيء لصالح العمل السياحي وخصت المديرية العامة للآثار والمتاحف بالقسم الاوسط الذي يضم التل الاثري وملحقاته . وبمناسبة تحديد القسم الذي يخص الاثار تجمعت لدينا الوثائق اللازمة للبدء بالعمل من مخططات فوتوغرامترية ومساحية وعقارية وبدأنا أعمال المسح المفصل والتربيع في ١٣ تموز ١٩٧٥ ونظراً لطول الرأس قسمناه إلى قطاعات طولانية عـــرض كل منها ٤٠٠ م وسميناها (آ، ب، ج، د، الخ) وقسمنا كلا من هذه القطاعات إلى مربعات (١٠×١٠)م وأشرنا إليها بالحروف A. B. C. D. E. الخ من الغرب إلى الشرق وبالارقام ١، ٢، ٣ الخ من الجنوب الى الشمال . ومن اجل الدقة قسمنا كل مربع الى اربعة مربعات (٥ × ٥) م ميزناها بوضعها الجغرافي شمال – شرقي، جنوب غربي الخ .

وبعد ايام، وفي السادس عشر من تموز ١٩٧٥ بالدقة اصبحنا نستطيع البدء بالتنقيب الذي سيستمر حتى غاية آب، ويتجدد كما أسلفنا كل عام حتى هذا العام، وقد يستمر اعواماً كثيرة اخرى .

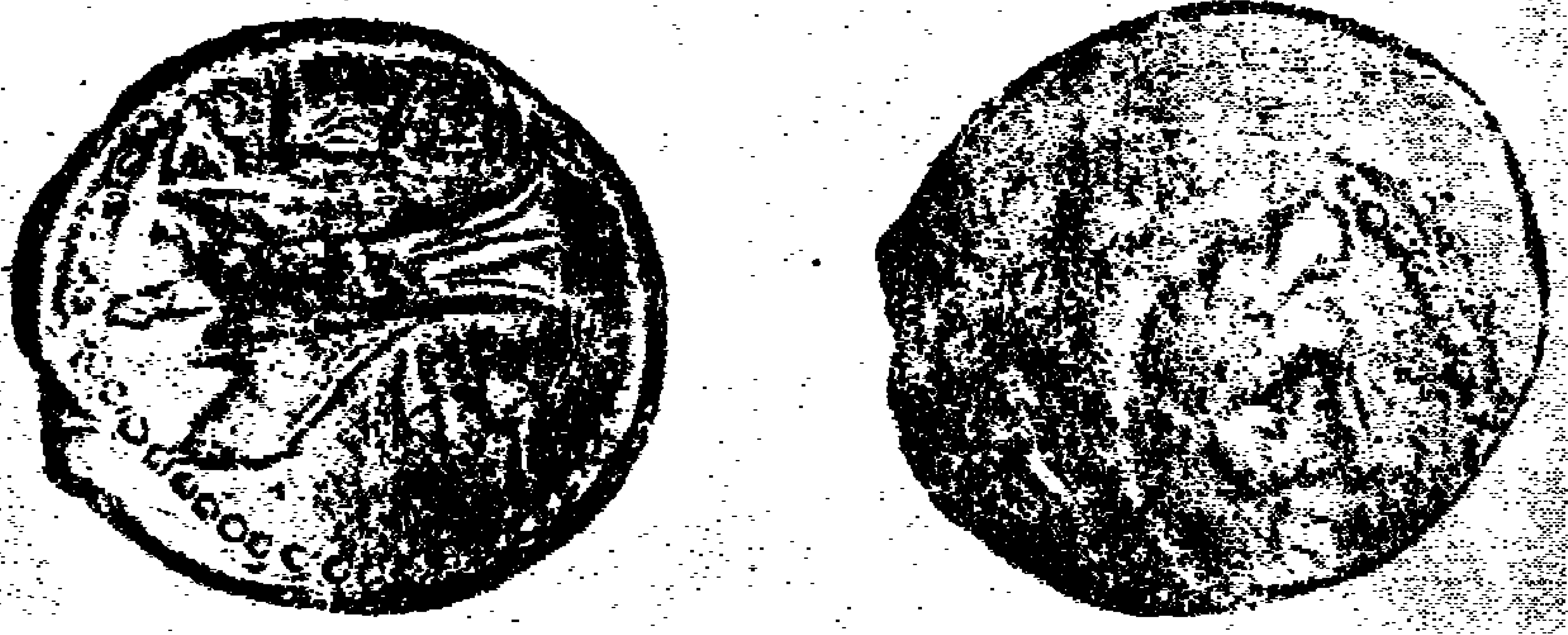
كان من البدهي ان نبدأ بالقطاع (هـ) الذي منه التل فهو اعلى اقسام الرأس (حوالي + ٩ م) ولان فيه معالم ضخمة وصفات اثرية جديدة ظهرت خلال التمهيد لإنشاء الفندق ولان الفندق بجواره مباشرة، ولان الطريق الجديدة جنوبه ستقتطع منه قطعة كبيرة اعتباراً من ١٩٧٦ . وخلال هذه المواسم الاربعة

أنجز التنقيب جزئياً او كلياً في حوالي ثمانين مربعاً (١٠ × ١٠) م من هذا القطاع ، والتل امتداده نحو الشاطيء الشمالي ونفذت اسبار عديدة . وعقب هذا الموسم يمكننا ان نلخص الوضع الطبقي والكرونولوجي بما يلي من الادنى الى الاعلى :

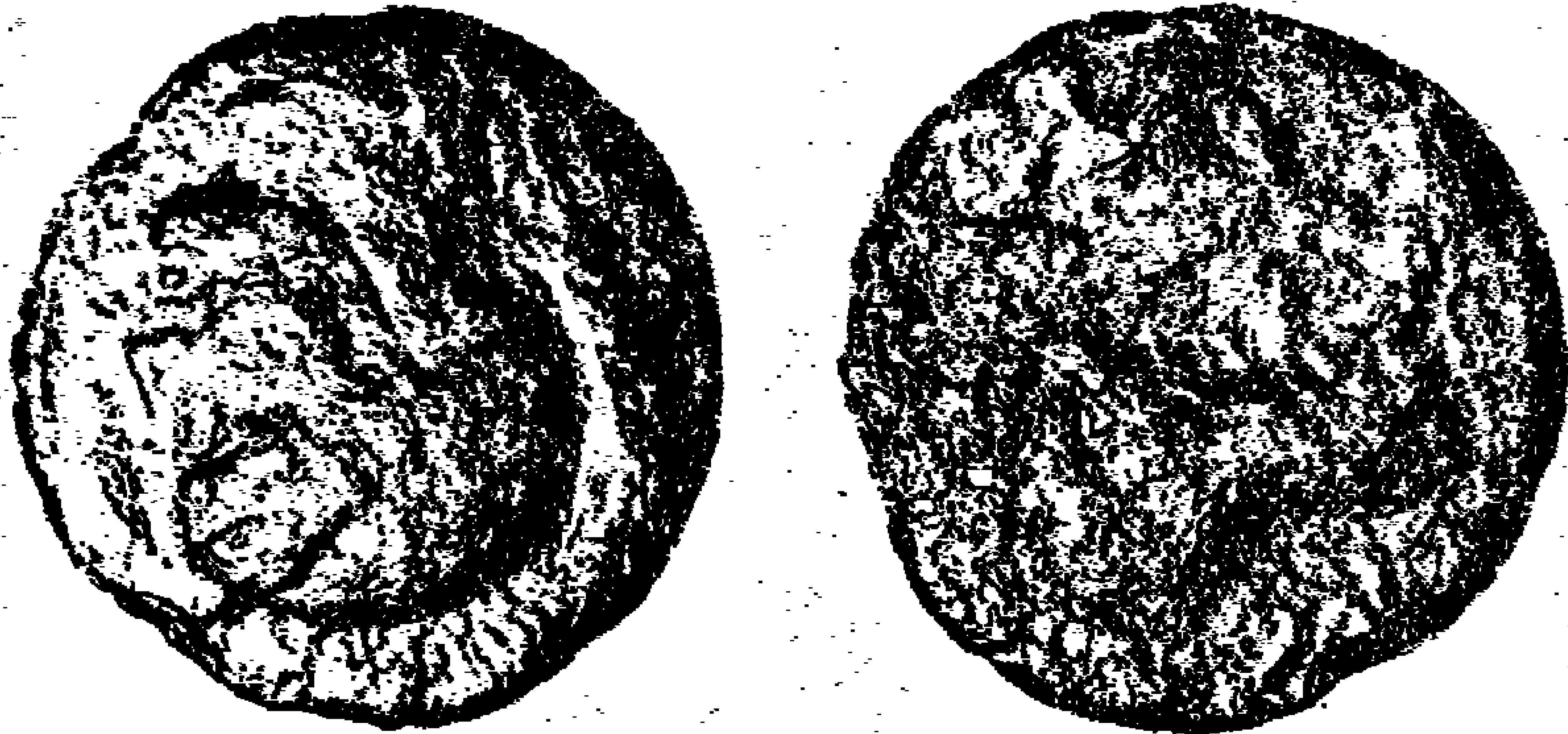
- نصلات صوانية من نماذج الدور الحجري الجديد (حوالي الالف السابع قبل الميلاد) توجد غير متوضعة في تربة نهرية قدتكون مجلوبة من مكان آخر.
- كسرات فخارية من أوان بسيطة تعود لعصر البرونز القديم الالف الثالث قبل الميلاد ، وجدت مجتمعة في ركام الأسوار شرقي التل ، ولايمكن حالياً معرفة ما اذا كانت مرتبطة بمنشأة معينة او أنها مجلوبة مع تربة منقولة من مكان آخر .
- سوية فيها منشآت معمارية ولقى ورقم أوغاريتية وبابلية تعود لعصر البرونز الحديث الثالث (١٤٠٠ — ١٣٠٠ — ١٢٠٠ ق . م .) مرتبطة بتربة حمراء غضارية . وهذه السوية التي تتميز فيها مرحلتان مبدئياً متوقفة بهجمة شعوب البحر .
- سوية فيها منشآت معمارية وفخار ولقى ، تعود لعصر الحديد الاول (١٢٠٠ — ٩٠٠ ق .) تتميز فيها ثلاث مراحل مبدئياً وهي مرتبطة بتربة سمراء .
- سوية كثيرة الفخار والمواد العضوية لم نتعرف فيها حتى الآن على معالم معمارية ، وهذه السوية تعود لعصر الحديد الثاني (٩٠٠ — ٦٠٠ ق . م) وهي مرتبطة بتربة رمادية ضاربة للسواد . ويظهر أن هذه السوية قد توقفت بالاحتلال الفارسي للساحل السوري , ولعل هذا العهد الفارسي ترك بعض الآثار في

أماكن أخرى من الرأس .

ـ سوية هيلينستية تمتد في التل وخارجه وهي ذات منشآت ضخمة حصينة دفاعية ومرفأية ومساكن ومدافن وفخار غزير نجده في حفر عميقة وفي كل مكان تقريباً ولقى كثيرة وخاصة العملة . ولاتخلو من النصوص المنقوشة وهي زمنيا تمتد من حوالي فتح الاسكندر (٣٣٣ ق . م .) حتى الفتح الروماني (٦٤ / ٦٣ ق . م .) وفيها فترتان إحداهما تم فيها الاحتلال البطلمي . وقد انقطعت هذه السوية بسبب طغيان البحر .



« نقد ارّوادي من ابن هانيء القرن الثاني قبل الميلاد »



« نقد لسلوقوس مؤسس الدولة السلوقية في سورية »

ـ سوية رومانية متأخرة وبيزنطية تستخدم كثيرا البقايا المعمارية الهيلنستية ممتدة على التل وعلى أقسام كثيرة خارجية • معززة بالمنشآت والفخار واللقى

مع عملة كثيرة وهي مؤرخة من القرن الرابع الميلادي حتى عهد جوستنيان ويرجح أنها آخر مراحل سكن الرأس وأنها انقطعت بالزلزال الذي دمر انطاكية عام ٥٢٨ ويمكن أن تميز فيها فترتان بدلالة العملة وبعض الدلالات المعمارية.

إن هذا التقويم المبدئي والتحليل الطبقي هو في الواقع حتى الآن صالح للتل وقطاعة (هـ) والمواقع المتبقية فيه . وبالنسبة للعهدين الهيلينستي والروماني البيزنطي صالح بالنسبة للموقع كله أو على الاقل للقطاعات (د - هـ - و) وسنحاول تلخيص أهم الاكتشافات في كل من القطاعات الثلاثة .

القطاع هـ

اهم شيء تم الوقوع عليه في هذا القطاع حتى الآن قصران الأكبر من عصر البرونز الحديث الثاني والثالث (الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد) موجود في الجنوب وهو الذي أحدث المرتفع الذي سميناه تلاً ولم ينته التنقيب فيه بعد ، ولكن يظن أننا عرفنا حدوده الجنوبية والشرقية ومخططه بشكل صحيح على الرغم مما عانى من نهب حجارته في العهود التالية له . والقصر موجه بزواياه إلى الجهات الأربع ، محاط من الجهة الشرقية على الأقل بسور يذكرنا بسور رأس الشمرة وكان بناء القصر بالأصل على سطوح متدرجة مهيئة برمل مجلوب وتراب ، ومحصور بأساسات عميقة حسب تضاريس شبه الجزيرة وإشرافه إلى البحر الجنوبي ، وتأمين التمتع بالمنظر الجميل ونسيم البحر المنعش الذي يهب حوالي الظهيرة كل يوم.

في القصر الجنوبي بالأصل الواسع (٨٥ × ٥٥ م) شبكة جدران عريضة (١و٢٠ — ١و٥٠ م) متعامدة فيما بينها ومشيدة بالحجر الغشيم المغموس بالتراب الغضاري الاحمر البني . وأطراف الجدران المماثلة في أكثر تفاصيلها لجدران رأس الشمرة كانت مربوطة مثلها بجذوع خشبية زائلة حالياً كانت تؤلف مدماكاً ممتداً

من أول الجدار الى آخره . وهذه الشبكة من الجدران كانت تؤلف بالاصل باحة مكشوفة مستطيلة واسعة « ١١ × ١٧ م » أو أكثر ، محاطة بالمرات والحجرات ، وبعضها له مداخل مماثلة لمداخل الحجرات في أوغاريت المزودة بقاعدتي عمودين يضاف الى ذلك مجرورا مياه متجهان من الشمال الغربي ، إلى الجنوب الشرقي ، ومنتفعات كالمألوفة في رأس الشمرة وبيوتها . هـذا وقد ظهرت في المواسم الاخيرة « ١٩٧٨ » الزاوية الجنوبية الشرقيه وتبين أن حجارتها قد تآكلت بمياه البحر ، الامر الذي يدل على أن القصر كان مشيداً مباشرة على الماء .

وقد كانت نهاية حياة القصر ، على مايبدو بنهب دقيق ثم حريق أتى على بعض أقسامه . ومن المحتمل أن يكون القصر قد هجر وأفرغ من محتوياته لاحد الاسباب كالإصلاح والتعديل أو اثرتهديد شعوب البحر لمنطقة شرقي البحر المتوسط في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي . وفي أوغاريت عثر على رسالة من ملك آلاشيا « قبرص » إلى ملك أوغاريت ينصحه فيها ان ينسحب إلى مدن داخلية قد يكون حصنها .

والشيء الذي يلفت النظر في هذا القصر هو قلة اللقى حتى الفخار العادي ، الامر الذي قد يفسر كما ذكرنا بإفراغ القصر من محتوياته . على أن القليل المتبقي من اللقى والفخار هو واضح من حيث تأريخه فليس فيه شيء من البرونز الحديث الاول والثالث ، ومن ذلك الجرار الاوغاريتية الطراز ذات الرقاب القصيرة والقعر المحدب ، والطاسات القبرصية (التي كانت تعرف باسم طاسات الحليب) أو « وايت سليب » وبعض الاواني الميسينية وأباريق الزيت المدبدبة ، والفخار ذو القعر الحلقي « بيز رينغ » الخ . . وأكثر النماذج من النوع المتأخر العهد ، ولابد من التنوية بكؤوس فخارية وقدور لاتشبه أمثالها في رأس الشمرة .





« ختم جرة من جزيرة رودس »



« منظر عام لأحد أجنحة القصر الملكي الاوغاريتي في رأس ابن هانيء »

أما القصر الشمالي فقد هدانا إليه ، في الواقع ، وجود المدفن الاوغاريتي على الشاطيء الشمالي . فقد كان في برنامج العام ١٩٧٧ أن نقوم ببعض التحريات في موقع المدفن المذكور . لان المدافن الاوغاريتية كما هو معروف تكون ضمن البيوت والقصور وتؤلف جزءاً أساسياً من اجزائها . كما أن بعض أعمال التسوية والتجريف الحديثة قد اظهرت بعض المعالم على السطح .

بدانا في موسم ١٩٧٧ بـداءة محدودة فافتتحنا ٣ أجزاء من المربعين « E85 , E86 » وفي موسم ١٩٧٨ توسعنا على كامل سطح المربعين المذكورين فظهرت معنا في الموسمين بعض معالم هيلينستية سطحية وفخار هيلينستي وحفر ملأى بفخار عصر الحديد الاول . ولكن الشيء الاساسي هو عبارة عن جزء من قصر . وهذا القصر موجه بزواياه إلى الجهات الاربع كالقصر الجنوبي ، ومماثل له ايضاً من حيث مخططه العام ومن حيث عمارة جدرانه وتفاصيلها كالحجارة الغشيمة والمونة ، ومونه الارضيات ويبلغ سمك الجدران في القصر الشمالي حوالي المتر دون كسوة ويصل الى ١٠و١ م مع الكسوة وهذه الكسوة كلسية بعض أقسامها ، ذائبة من شدة الحريق الذي قضى على حياة القصر والذي سنعود له فيما بعد . وفي كسوة الجدران اقسام مختلفة اللون ، إما بسبب الحريق وإما بنتيجة إصلاحات .

مايزال امامنا بعض الوقت حتى نعرف تفاصيل القصر الداخلي وامتداده ولكننا نتصور انه اصغر من القصر الجنوبي مبدئياً . والتفاصيل المعروفة منه حتى الآن عبارة عن دهليز في الجهة الشمالية الغربية منه درج دائر ، محفوظ منه سبع درجات « L. I » والى الجنوب باحة سماوية لم يتم التنقيب فيها بعـد « L. II, » وهذه الباحة المبلطة اصلاً ينطلق من زاويتها الجنوبية الشرقية دهليز آخر ينتهي بدرج « L. VI. » وقد يكون له باب يغلق على الباحة « ؟ » ، وهناك

الردهة التي يتوسطها المدفـــن « L. VL. » ومدخلها إلى الشمال وفيها سويتان واضحتان . يضاف إلى ذلك كله ثـــلاث حجرات واحدة ضخمة « L. IV » ومدخلها إلى الجنوب الغربي وقد كشف منها حوالي ستة امتار حتى الآن . وفي جميع هذه الاقسام تقريباً وجدت رقم مسمارية كاملة او اجزاء رقم اكثرها في غير موضعه متساقطً من الجدران المنهارة ومتناثر هنا وهناك وبعضها واقع في موضعه ، كما هي الحال في الحجرة « L,VIII » حيث وجدت بعض الرقم ملتصقة بكلسة الجدران المحترقة وكانت على مايبدو في طاقات اوعلى رفوف ومع الرقم كسر اواني من الالباستر وجرار فخار .

ويلاحظ ان كل ارضيات الحجرات مخترقة بحفر للبحث عن مطمورات او عن مدافن . وبدلالة الفخار نعرف ان هذا العمل قد تم في عصر الحديـــد الاول وعلى عدة مرات « خلال القرن الثاني عشر قبل الميلاد » . وكان هذا القصر الشمالي قد انتهب نهباًشبه منهجي ثم أحرق بحريق هائل ، فتداعت الاقسام العليا من جدرانه وسالت كسوة جدرانه على الارضيات حاملة معها احياناً خشب القوف المحترق كما في الدهليز « L. IV » والباحة « L II » والحجرة . « »

ويبدو ان محتويات القصر كانت غنية بالاصـــل ، وذلك من بقايا اواني الالباستر وغيرها من اللقى التي نجت من النهب فالخاتم الفضي المزين بحيوان راكض في « L. III »و الرأس العاجى الصغير للربة حتحور في « L. IV » وغيرها .

اما الرقم واجزاء الرقم التى كشفت في موسمي ١٩٧٧ و ١٩٧٨ فقد قارب عددها الخمسين وهي محررة بالابجدية الاوغـــاريتية وبالمقطعية البابلية وبعضها في وضع سيء بسبب الحريق . وهذه الرقم ذات اهمية غير اعتيادية من حيث كونها اول مجموعة رقم اوغاريتية وجدت حتى الان خارج اوغاريت من



« بعض الدمى من حوالي القرن الثاني قبل الميلاد »

حيث محتواها وهي على فئات .

الفئة الاولى : مراسلات داخلية بين أهل هذه المدينة ومدينة أوغاريت.

الفئة الثانية : مراسلات مع ممالك خارج أوغاريت .

الفئة الثالثة : من النصوص والرقم ، دينية الطابع تعطينا معلومات جديدة عن عوالم الأرباب الكنعانية وعن الطقوس وعن الاساطير التي كانت في الواقع من مصادر التفكير الديني في هذه المنطقة من العالم. وبعضها طبية سحرية .

الفئة الرابعة : هامة أيضاً لانها تختص بالعلاقات الاقتصادية ويمكن إدراجها تحت فئة الرقم الاقتصادية .

إن مضامين الرقم في موسم ١٩٧٧ كانــت تبعث على الدهشة ويمكــن تلخيصها كما يلي :

إن جزء الرقيم (هاني ٧٧ / ٢١) يذكر شد قادش (أي شد القدس) وبذلك يضاف الى مجمع الأرباب الاوغاريتي اسم رب جديد .

أما رقم ١٩٧٨ فقد فاقــت على سابقتها في الموسم ١٩٧٧ وقــد هنأنا الاختصاصي الكبير بالاوغاريتية الاستاذ اندره كاكو بهذه الاكتشافات في رسالة بتاريخ ٢ آب ١٩٧٨ وذكر أن هذه النصوص الجديدة عناصر هامة جداً وأن بعضها يجب أن يتركه الإنسان تحت مخدته أسابيع .

ويمكن أن نجمل بعض محتويات الرقم الأوغاريتية في الموسم الاخير فنذكر أولاً رسالة ملكيــة (١٢ / ٧٨) من ملك أوغاريتي أو ولي عهد الى أمــه (لملكت أمي) يذكر فيها شخصياً اسمه عبد الملك . ورسالة ملكية أخرى (٣ / ٧٨) تذكر أهل أوغاريت (أغوتيم) وملك مصر (ملك مصرم) كما تذكر البيت المالك في اوغاريت وانف (حوت اغوت وأف) ومــن المحتمل ان رأس ابن هانيء هو موقع انف ، خاصة وان شكل شبه جزيرة ابن هانيء هو اشبه بالأنف منــه بالرأس .

وقبل أن ننجز الحديث عن سورية عصر البرونز لابد أن نذكر أن سبرا تم إجراؤه في المربع (076) قد أوقعنا على بنــاء من عصر البرونز الحديث أيضاً ، جدرانه حسنة الحفظ عرضها متر وهي مكسوة كالارضيات بمونــة نظيفة صقيلة ، وقد توضح التنقيبات المقبلة هوية هذا البناء الذي تخترقه حفر ملأى بالفخار الهيلينستي وسنعود لذلك مرة ثانية .

يمكننا أن نلخص الوضع في سوية البرونز الحديث المتركزة كلها تقريباً في

القطاع هـ E باكتشاف مدينة معاصرة لأوغاريت ممتدة إلى ١٠ – ١٥ هكتاراً (تملأ كامل سوية ٦ أمتار عن سطح البحر) وهـــذه المدينة التي تتكلم لغـــة اوغاريت متحدة معها بطراز العمارة والتنظيم الداخلي وقد تكون المقر الصيفي لملوك أوغاريت أو مركزاً متقدماً لهم لمراقبة التجارة البحريـة أو لاهـــداف استراتيجية . وليس من المستبعد بل من المرجح حتى الآن أن تكون هذه المدينة هي مدينـــة الانـــف (آفو) المـــذكورة مـــراراً في النصوص الاوغاريتية والمقرونة مع اوغاريت حيث تذكر « سلالة أوغاريت وآفو » .



من دوار الحضارة

الاستاذ
سهيل عثمان

لعل التجمعات الانسانية ثلاث بالنسبة لامتلاك الحضارة ، منها المجتمعات المتحضرة تحضراً متقدماً . ومنها المجتمعات التي عرفت التقدم الحضاري في عصر من العصور طال أوقصر ، ثم ارتدت الى حال هي إما مختلفة عن حال الحضارة أوتمثل مستوى غير رفيع من مستوياتها ومع ذلك لم تندثربل ظلت تحيا وتتفاعل. والتجمع الثالث هو التجمع الذي يمثل البشر الذين لم يتحضروا بعد ، أولم يبلغوا عبر التاريخ الانساني شأوا عالياً في الحضارة .

وإن كلا من هذه الجماعات الثلاث يمكن أن تمتلىء بالقلق حول المسألة الحضارية . فالزمرة الاولى وهي زمرة المتقدمين ينشغل تفكيرها بقيمة الحضارة ومدى استمرارها وكيفية الاحتفاظ بها وتطويرها ، على الرغم مما يتبادر إلى الذهن لاول وهلة من ان الحضارة المتقدمة مطمئنة إلى تفوقها ومكانتها اطمئناناً يحول بينها وبين القلق على مصيرها وقيمتها فالغرور الحضاري ليس مطبقاً بشكل دائم على تفكير المتقدمين أجمعهم . .

وأما الزمرة الثانية وأعني بها زمرة الذين ارتفعوا ثم تدنوا مع احتفاظ تجمعهم بوجوده ، فهي أشد قلقاً وبخاصة اذا حاولت النهضة من جديد لتستعيد دورها الحضاري الرائد ، بل يدل هذا القلق حين تعاني منه على بداية النهضة .

وهي في هذه المرحلة تطرح على نفسها أسئلة عديدة تتعلق بالنشاط الحضاري ، منها أسئلة المتقدمين أنفسهم ولكنها مأخوذة من وجهة نظرها أومن الناحية التي تهمها ، ومنها قضية العود الحضاري وهل يمكن أن يتم وماشروطه وما مضمونه ؟ هل هو تكرار للمضمون السابق الذي قدمه التجمع أم أخذ عن الحضارات المستجدة أم مضمون اكثر من هذا وذاك جدة . . . ؟ . واما التجمع الثالث المتأخر دون ان يعرف التقدم الحضاري سابقاً فهو يقلق عندما يستيقظ اوعندماتفرض عليه الظروف أن يتخذموقفاً من الحضارة وقيمتها وشروط قيامها. ولعل تجمعات الزمرة الثانية هي اشدالتجمعات قلقاً حول المسألة الحضارية • وبخاصة عندما تهم بالعودة الى متابعة التقدم لانها تحس بالذنب والمهانة وتعذيب الضمير مع الفخر والاعتزازبالقدرةالحضارية التي تثبتت لأسلافها وهي موضوع للجذب والشد بين ماض تنتمي اليه وتشعر أنه قد انقضى ، وحاضر تراه دون هذا الماضي بكثيرولايعبر عن كامن قدرتها ومستقبل تتطلع الى سموه فيحول غموض الرؤية بينها وبين الحركة المطمئنة نحو تحقيقه . ولعلي لااواجه بكثير من الاعتراضات اذاقررت ان المجتمع العربي مثل على جماعات الزمرة الثانية هذه فهو قد عرف الارتفاع الحضاري في مرحلة سابقة ثم اصيب بالتدهور ، ثم عاد عن طريق الصعود مرة اخرى ولم يزل في مرحلة المحاولة الآن ولذلك تكثر بين ابنائه التساؤلات حول الحضارة والتقدم .

من هذه التساؤلات كيف تقوم الحضارة ؟

سؤال اجاب عنة ابن خلدون بان اعتبر الحضارة احد الشكلين اللذين تتبدى عليها التجمعات البشرية وهما : الشكل البدوي والشكل الحضري . الحضارة عند ابن خلدون مرادفة للتحضر وترك حياة البداوة وهي ظاهرة اجتماعية

متعددة الوجوه إلا ان القابلة التي تخرجها الى مجال التحقق هي الفاعلية السياسية لعشيرة من العشائر البدوية ، نشطت فيها رابطـة العصبية فحملت ابنـــاءها على التناصر فتغلبت على ماحولها من عشائر والحقتهم بنضالها ثم استولت على المدن او اسست المدن فبدأت حضارتها ناقلة شيوخاً من مستوى الرئاسة العشائرية الى مقام ملوك الدول . فالحضارة والدولة توأمان في الولادة تكمن وراءهما قوة العصبية وهي قوة وهميه كما يرى ابن خلدون ، ولكنها فعالة لتأثيرها على قناعة ابناء العشيرة ومواليها وحلفائها . وتوجد الى جانب العصبية عوامل مساعدة كالدين والاقليم المعتدل وحسن القيادة إلا ان الاساس الذي لابد منه هو فاعلية الجماعة تحت دفع النابض العصبي .

واما توينبي فيرى ان الحضارة تشرق عندما يواجه مجتمع من المجتمعات تحدياً معقولاً لايكون على درجة من الشدة بحيث يسحقه ولايكون في الوقت نفسه تافهاً ، امام مثل هذا التحدي يعمـــل المجتمع النشاط المبدع فيجد حلاً للمشكلة من هذا المستوى اوذاك ويجعله الحل احد المجتمعات الحضارية او المرشحة للحضارة إلا ان الحل الامثل الذي يدخل المجتمع في حمى الحضارة الحقيقية الفعالة هو الحل الذي يحمل إمكانية استمرار الإبداع ، لان المجتمع ، حين يحل مشكلته الاولى تنبثق امامه مشكلات جديد عليه ان يحلها ، فإذا استمرت قوة الإبداع قادرة على مواجهة تتابع المشكلات بتتابع الحلول المبتدعة دامت حضارة المجتمع فترة زمنية كافية ووصلت إلى رقي رائد وعدت من بين الحضارات المتكاملة . . والمشكلات التي تتعرض لها المجتمعات متنـــوعة فمنها مشكلات طبيعية ومنها مشكلات إنسانية بحتة . ومن المشكلات الطبيعية التي يمكن ان تتعرض لها المجتمعات مشكلة الجفاف ونقص النباتات والحيوانات المغذية لابناء المجتمع ، وقد

وقعت هذه المشكلة في بداية الحضارة بشكل عام حين ادى انسحاب العصور المطيرة إلى جفاف مناطق واسعة تقع بين إفريقيا وآسيا ، ونقص الغذاء على الجماعات التي كانت تعيش هناك فاجتهدت للحل فمنها من اخفق في حل مشكلته فانقرض ومنها من نجح نجاحاً جزئياً بأن تراجع إلى المناطق المحتفظة بخصبها ، ومنها من نجح نجاحاً تاماً بان تحول من مكانه لا ليلحق المناطق المطيرة ولكن ليتمكن من إجراء عملية هامة جديدة وهي الحصول على موارد العيش عن طريق الزراعة القائمة على الري المنظم عند السومريين والفراعنة اوكسب العيش عن طريق البحر كما هو الحال عند المينويين الذين اتجهوا إلى كسب رزقهم عن طريق البحر ، وقد عرف التاريخ الحضاري تحديات إقليمية اخرى في الشرق الاقصى والقارة الامريكية . واما التحدي الذي هو من طبيعة بشرية فمثل تحدي الحضارة الهيلينية ثم المسيحية للمجتمع السوري القديم ومجتمعات الشرق الاوسط القديمة بشكل عام ، وقد ادى هذا التحدي إلى عدة ردود فاشلة ثم جاء الرد الناجح المتمثل في الإسلام فنشأت على يد العرب الحضارة الإسلامية التي مالبثت ان شاركتهم فيها شعوب شرقية اخرى كثيرة . ويفرد توينبي للدين منزلة رفيعة في نشوء الحضارات وبخاصة في نشوء جيل من الحضارات تلا الجيلين الاول والثاني ، وهو حضارات الجيل الثالث مثل الإسلامية والمسيحية الغربية والمسيحية الشرقية ، وهو يصل احياناً إلى درجة التعميم حتى ليجعل الحضارات ادوات للديانات ، ولكن الأثر الفعال للدين يظهر عنده اكثر مايظهر في حضارات الجيل الثالث . ومادام توينبي قد تحدث عن تحديات البيئة الجغرافية فهو كابن خلدون انتبه إلى دور العوامل البيئية في تكوين الحضارات إلا أنه مثله أيضاً لم يتخذها العامل الوحيد أو الرئيسي ، واذا كان العامل الاول عند ابن خلدون في قيام

للدولة والحضارة هو العصبية فإن المحرك الاول للفوز الحضاري عند توينبي هو الابداع المواجه للتحدي ، وإذا كانت العصبية أمراً اجتماعياً يعم أفراد العشيرة فإن الابداع ينشأ عند القلة المتفوقة ذات المعاناة والذكاء ، ولهذا نعد توينبي أقرب إلى نظرية الصفوة من ابن خلدون الذي نعده اجتماعي النظرة أكثر منه ، وقد ربط ابن خلدون بين الحضارة والدولة ربطاً وثيقاً على عكس توينبي الذي لم يجد هذا الارتباط ضرورياً في كل حين وإن لم يهمله إهمالاً تاماً . وعلى كل حال فإن وينبي لايوحد بين مجال الحضارة ومجال الدولة ، فقد توجد في الحضارة الواحدة في الزمن الواحد عدة دول .

وتحضرني إجابة (أنجلز على تساؤلنا الاول ، وهو يرى أن البشرية تبدأ بالوحشية والبربرية كما يرى مورغان ثم تصل المرحلة الحضارية . والفرق بين المراحل الثلاث فرق اقتصادي راجع إلى تطور الإنتاج وأدواته وعلاقاته . الجماعة الوحشية تعيش على تحصيل المنتوجات الطبيعية فهي قاطفة للثمرة صائدة للحيوان والسمك نظراً لبساطة أدواتها وليس عندها ادخار ولاطبقات إذ لايمكن تجميع الثروات ، وفي المرحلة البربرية يكرر الانسان إنتاج المنتوجات الطبيعية عن طريق تربية الحيوان والزراعة وفي هذه المرحلة تبدأ الثروات المتمثلة في القطيع والارض والمحصول ، ويشرع المتنفذون بالاستئثار فتبدأ الملكية الخاصة غريبة في أول الامر ثم يشتد عودها بالتدريج وتتهيأ الامور إلى المرحلة الثالثة وهي الحضارة حيث تتطور أدوات الإنتاج فيصنع الانسان المنتوجات غير الطبيعية أويتوسع في إنتاج مالم تنتجه الطبيعة من لباس وبناء طعام وأثاث ويستخدم المنتوجات الطبيعية كمواد خام لمصنوعاته . ومن ثم تتطور علاقات الانتاج فتزداد الحاجة إلى تشغيل الآخرين واستثمار جهدهم فتعمل الطبقات

المالكة مستعينة بالقوة المسلحة على إقامة الدول التي هي بحكم نشأتها حامية للنظام الطبقي القائم على استغلال الانسان للانسان مادامت غير اشتراكية . والحضارة يرافقها التوسع في استخدام معدن الحديد كما ترافقها الكتابة ، ويضرب أنجلز الامثلة من تاريخ اليونان والرومان والجرمن وسواهم ليؤكد نظريته التي هي جزء من الماركسية طبعاً وليبين كيف ابتدأت الملكية مشاعاً ثم تخصصت ومع تخصصها ظهر الاسترقاق وانتهت الدساتير العشائرية لتحل محلها الدساتير الحزبية المرتبة لخدمة أصحاب المصالح الواسعة . . ويتفق أنجلز مع ابن خلدون في التأكيد على دور القوة في ولادة الدولة والحضارة وفي الربط المتين بين ظهور كل منها ، وفي إقامتها على عوامل اجتماعية هي العصبية عند ابن خلدون ، والمصالح الطبقية عند أنجلز ، فكأن الطبقة الماركسية تقابل العشيرة الخلدونية . وعلى كل حال فان ابن خلدون لم يكن مهملاً لقيمة الظاهرة الاقتصادية وعلاقتها بالحضارة فهو قد عرفها بها إذ رأى ان البداوة تعتمد على الرعي والزراعة فقط وأن الحضارة تعتمد على الصناعة فكان تصنيف ابن خلدون للمراحل هو التصنيف الذي نادى به بعد ئذ مورغان وأنجلز مع تغيير الاسماء كالبدواة الخلدونية والوحشية والبربرية عند الآخرين وأما اسم الحضارة فمشترك .

وثمت اجابات أخرى عديدة عن تساؤلنا الاول المتعلق بقيام الحضارة ، منها إجابة اشبنغلر الذي يرى ان الحضارة تبدأ حين تستيقظ الروح الانسانية من خلال أحد جوانبها ، اي حين تستيقظ روح امة من الامم في مواجهة مصيرها ، ومن ثم تشع في العطاء لمدة من الزمن ، ويعد كتاب اشبنغلر من الأصول التي اعتمد عليها توينبي في آرائه الحضارية إلا أن اشبنغلر يكاد يتميز بغيبيته الشديدة في هذا المجال .

وأفضل الآن ان اقتصر على هـــذه الاجابات عن السؤال الاول لانتقل الى السؤال الثـاني وهو ما مسيرة الحضارة بعد ولادتها ؟

أما صاحبنا ابن خلدون فيرى ان الحضارة تزدهـــر فترة ثم ماتلبث ان تذوي وتموت . وآلية ذلك لم تعد مجهولة ، فأصحاب العصبية او العشيرة الحاكمة يميلون إلى نعيم الحياة بعد ان استقروا ، إلى الكماليات والمعشية الراضية ، فينفقون المال لشراء السلع المصنوعة على يد الحرفيين المهرة ، ويستدعون البنائين لإقامـــة القصور والنقاشين لزخرفتها، ويميلون إلى الغناء والموسيقاويتبارون في اقتناء الكتب وضم العلماء إليهم ، فتزدهر الحضارة بجوانب نشاطها المختلفة ويزداد عدد السكان فيزداد الانتاج والتبادل .

ولكن هذا النهوض يحمل في أحشائه الجنين الذي سيقتله، إذ تشتد حاجة الجميع الى المال ويشتد الطمع من أجـــل التحصيل ، ويسبق الحكام غيرهم في نمو الحاجة الى المال لأن الملك منهم يتخلص من اعـــوانه السابقين الذين كانوا يرون أنفسهم أنداداً له ، ويحل محلهم المرتزقة الذين يطالبون دائماً بالمزيد ، فيسرف الحاكم في فرض الضرائب ، وقد يدخل السوق ـ بشركائه ـ تاجرا يشتري رخيصاً ويبيع غالياً فتختل المـوازين الاقتصاديـة ويهرب الناس بمهاراتهم وأرزاقهم ، ويضطرب حبل الامن فضلاعن ان ازدحام السكان واكتظاظهم في المدن دون تنظيم يؤديان إلى انتشار القذارات والأوبئة فتميل الحضارة إلى السقوط ، ولكنها لاتسقط الا بسقوط زميلتها الدولة وهي حتما ساقطة لان الحكام المتعاقبين ضعفت عصبيتهم وهمتهم عن احتمال الكفاح فتنهار الدولة ، وتنهار معها حضارتها لينتقل الزمام إلى دولة وحضارة فتيتين . وهكذا نلاحظ وجودنوع من التفكير الجدلي عند ابن خلدون لان الشيء يحمل نقيضة ، كما أنه يربط هنا أيضاً ربطاً وثيقاً

بين الحضارة والدولة . وعمر الحضارة عند ابن خلدون قصير ، فكل حضارة تعيش عمر دولتها الذي لايتجاوز غالباً الاجيال الثلاثة اوالمائة وعشرين عاماً ، ويتساهل ابن خلدون فيقبل ان تختصر إلى مائة سنة ، فحديث ابن خلدون في معظمه ليس عن الحضارات الكبيرة الواسعة كحضارة العرب او الفرس بشكل عام ، بل عن حضارات ودول ذات اصل عشائري قصير النفس وإن صدر عنه مايدل على إدراكه وجود استمرار حضاري أطول وأعقد . ان ابن خلدون قصر اكثر بحثه واستقرائه على ما شاهده اوسمع به عن قرب ولذلك منح كل تلك الاهمية لدول العشائر . . ويظل ابن خلدون اجتماعياً إذ يذكر ان بعض الحكام الطموحين يحاولون في أواخر عمر الدولة ان يعيدوا لها سابق قوتها ، ولكن تأثير محاولاتهم يظل ضعيفاً اذ ان عوامل الهرم قد فعلت فعلها في الدولة والحضارة ولن يستطيع فرد او أفراد ان يعيدوا الفتوة إلى عجوز . . ولا يرى ابن خلدون طريقاً حضارياً صاعداً تقدمياً مستمراً من حضارة إلى اخرى فكل حضارة تنتج عنده بحسب ظروفها وعصبيتها، وقد تكون الحضارة الاحدث أدنى مستوى من حضارة سبقتها زمنياً ، وابن خلدون صاحب عقل حتمي.

ويشبه اشبنغلر ابن خلدون في حتميته اذ يرى ان الحضارة بعد ان تبدأ تزدهر فتمر اولاً بمرحلة الحضارة بالمعنى الدقيق حيث يكون العطاء السخي في اوجه ، ويكون النتاج مترعاً بالبراءة والرجولة والطموح المرهف الذي لايقيم كل شيء على حساب الارباح والخسائر او على منطق المصلحة ، في مرحلة الحضارة ينتشر الدين الوجداني والشعر الذي تختلج به الصدور والفلسفة المرافقة للإنسان وامانيه وآلامه ثم تنقضي هذه المرحلة لتحل محلها مرحلة المدنية حيث يبدو المحصول وفيراً الا أنه سطحي ، فالقدرة التقنية في ازدياد والانتاج المادي في تحسن

ولكن العنصر الوجداني البريء يضمر ويصبح المال معبوداً حقيقياً ، وينتشر الاستعمار وتتراجع تقاليد النبالة لتحل محلها طبائع التجار واصحاب المصارف وتمضي المدينة الصغيرة أو المعقولة وتحل محلها مدينة كبيرة مكتظة بأناس غير منصهرين في جماعة واحدة فكأنهم في معسكر او محطة مثل نيويورك . ولابد في النهاية من سقوط الحضارة لان الروح التي أنتجتها تجـــف وتــذوي وتمــوت . ويستخدم اشبنغلر كابن خلدون العبارات الحيوية مثل الشباب والشيخوخة كما يستخدم التشبيهات المستمدة من تعاقب الفصول فيقول : ربيع الحضارة وصيفها وخريفها وشتاؤها . إلا ان عمر الحضارات التي يهتم بها طويل كالحضارة المصرية القديمة والهلينية والعربية والغربية . . وهي على كل حال ليست كثيرة العدد . . وعنده ان الخطوات التي تمر بها الحضارات هي ذاتها حتى أننا نستطيع ان نجد في مختلف الحضارات شخصيات وظواهر متناظرة التوقيت متشابهة الدور مثل روما ونيويورك ومثل الإسكندر ونابليون ومثل أرسطو وكانت .

واما توينبي فهو ايضاً يعتقد بالازدهار ثم التراجع الذي يعاند ثم ينتهي بالموت غالباً . والازدهار في نظره واقع مادام في مقدور الاقلية المبدعة ان تبتكر حلولا للمشكلات التي ماتنفك تتوارد على المجتمع ، ويبدأ الانهيار حين تفقد تلك الأقلية القدرة على الابداع ويملؤهـــا الغرور والطمع في السيطرة ، فتحاول ان تلتف على الواقع وتحاول فرض الحلول القديمة على المشكلات الجديدة فتخفق ولاتعترف بالإخفاق ، بل تفرض نفسها على المجتمع حيث تنقلب من أقلية مبدعة مرغوبة متبعة بقناعة الى اقلية مسيطرة مستبدة تحكم على الرغم من من عدم اقتناع شعبها بها ، وتكثر الخلافات والحروب لغير الاغراض الدفاعية فتفسد الحضـارة وتكاد تنهـار ، ولكنهـا لاتنهار مبـاشرة اذ يقيض لهـــا من يجمعون شملها بالــقوه ويؤسسون لها دولة شـاملة يسميها بدولتها

العالمية تعيش في ظلها متخذة موقف الدفاع الحريص على الدقائق والتفصيلات والترتيبات الطقسية والآليةدون الإبداع ثم تحل نهايتها . ويختلف توينبي عن ابن خلدون وعن اشبنغلر بتأكيده أن الحضارة التي لايشاء لها ابناؤها ان تموت فانهالن تموت لان توينبي يتبنى موقف الحرية والامل ويفضلها على الجبريةالتي أثرت عن اشبنغلر ، غير ان بعض الباحثين رأوا ان مجمل مذهب توينبي يميل إلى حتمية الانهيار وان ردد في نهاية البحث كلمة الحرية السابقة .

واما عمر حضارات توينبي فهو اطول من اعمار حضارات ابن خلدون وإذا كانت الحضارات البارزة عند اشبنغلر دون العشرةفإن حضارات توينبي دون الثلاثين، وقد بقي منها حتى الان الحضارة المسيحية الغربية والمسيحية الشرقية والإسلامية والهندية والصينية . ويعتقد توينبي بالتقدم فكل حضارة تقدم بعض مايعلي صرح الحياة والقدرة الإنسانيتين ، كما يميل إلى ضرب من التفاؤل الحذر بمستقبل الانسان الذي قد يصل إلى إنشاء حضارة إنسانية واحدة . وهو يرى ان الحرب قاتلة للحضارة إذا زادت عن الحد المشروع لانها تستهلك الانسان وما ينتج ، وهذا الموقف مغاير لموقف اشبنغلر الذي يرى في الحرب ظاهرة تجدد الروح وتكلها وهو في ذلك ـ أي اشبنغلر لاتوينبي ـ شبيه بهيجل .

واما انجاز فهو لايبحث الامور بهذه الطريقة لان الحضارة عنده طبقية وتستمر حضارة الطبقة مادامت الطبقة قادرة على توجيه الامور وإلا انتقل الزمام إلى يد طبقة أخرى ولكن الماركسية عموماً تعتقد بوجود تقدم يطرد في مجرى التاريخ البشري إلا أنه ليس تقدماً عادياً يسير على خط مستقيم لانه تقدم جدلي يقوم على تصارع الأضداد، وهكذا تجد كل طبقة تقود الحضارة طبقة اخرى تنافسها ومن موت الاولى مع الحصول على مكتسباتها تقوم حضارة طبقة جديدة تقدم عطاء جديداً .

ولايستغرب ان يقف شعب في بعض المراحل عند مرحلة معينة لايتجاوزها فيتابع الطريق أمامه شعب آخر او الطبقة الصاعدة في هذا الشعب فيحافظ الركب على تقدمه وإن اختلف المنفذون .

ومن الاسئلة التي تدور في الذهن عند البحث الحضاري السؤال المتعلق بقيمة الحضارة أهي خير أم شر ؟ وقد يعجب بعضنا لهذا السؤال لان خيرية الحضارة أصبحت عندهم أشبه بالمسلمات . ولكن رجال الفكر بتشريحاتهم المدققة التي تتجاوز الظاهرة ذهبوا مذاهب شتى فابن خلدون مثلاً يذكر خصائص البداوة والحضارة ولايبدو من كلامه أنه يعطي للحضارة قيمة تفوق قيمة البداوة فالحضارة إن كانت أحذق تبقى البداوة اكثر طيبة وبراءة وسخاء واحتمالاً وشجاعة وصفاء ذهن . ويقترن صعود الحضارة بمتاعب عديدة اشرنا اليها سابقاً ووجدنا أن الحاكم لايعاني منها وحده بل يفرض على شعبه مايرهقه فكأن الحضارة تسترد بيد ماأعطته بأختها . فابن خلدون إذاً من أنصار الاعتقاد بالطيبة في حياة البشر المبكرة حيث كانت العصور الذهبية والاخلاق النبيلة . وقد كرر هذا الاعتقاد روسو الذي أشاد بطيبة الانسان الاول وكشف عن المساوىء التي تعلمها الحضارة للناس .

ولم يكن انجلز من المعتقدين بأن الحضارة خير ونعمة دائماً فهي قائمة في نشأتها على الاستغلال الطبقي وظلم الإنسان لأخيه الإنسان في سبيل الثروة . وإذا عددنا قيام الحضارة خيراً فمن ناحية نسبية ، بمعنى أن المراحل الاولى منها تسبق المراحل المتأخرة التي سوف يتحقق فيها العدل ، فقيمتها آتية من كونها طريقاً لما نريد ان يحدث . وتصبح الحضارة خيرة عندما ينتهي الاستغلال الطبقي ويتعاون الجميع من اجل الهدف المشترك واما اشبنغلر فيعطي قيمة ايجابية كبيرة لمرحلة

الحضارة بالمعنى الدقيق ويمتدح عطاء الانسان فيها ، ويقف من مرحلة المدنية موقفاً متجهماً لانها اسر للإنسان وتقييد وضياع وان برز التفوق التقني وتحسنت ادوات الرفاه. وفي مقابل هؤلاء المتحفظين نحو قيمة الحضارة او الذين لايرون في الحضارة لمجرد كونها حضارة اومدنية خيراً للإنسان ، توجد جحافل ممن يرقمون للحضارة وقيمتها الايجابية بالاصابع العشر ويعتقدن بشكل خاص بفضل الحضارة الحديثة التي يكفيها فخراً علمها وصناعتها فيذكرهم توينبي بأن العلم والصناعة إذا لم يوجهها الانسان لخدمة حاجات الانسان وسموه يصبحان بلاء وتدميراً ولربما قضيا على النوع الانساني او استخدما أداتين طيعتين من اجل ذلك

وارجو الا اخرج عن موضوع البحث إذا تساءلت عن الحضارة أهي حضارة انسانية واحدة أم عدة حضارات مختلفة نوعياً . ؟

اما حضارات ابن خلدون فهي كثيرة عدداً ، اذ لكل دولة عنده حضارتها على المستوى الفعال عنده ، وقد تتباين نسبياً في طول العمر ضمن الحدود التي عينها لذلك. واختلاف أعمارها راجع إلى كثرة عدد المتعصبين لها عند قيامها وقوة عصبيتهم فمرحلة التأسيس ذات اثر يمتد الى بقية المراحل ، وقد يكون اختلاف اعمار الدول والحضارات راجعاً إلى خصائص الشعوب التي انتجتها وتلك الخصائص اجتماعية غالباً ناتجة عن ظروف الشعب الطويلة وتفاعله معها . فحضاره شعب كان في الاصل ممعناً في البداوة والبعد عن العمران ينقص عمرها عن حضارة شعب آخر بعد عهده بالبداوة او كانت بداوته خفيفة نسبياً لأنه يعيش في اثنائها في مناطق قريبة من مراكز الحضارة والعمران ويحتك بها . ويختلف المستوى الذي تصل اليه حضارة عـن حضارة بسبب خصائص شعبها التي نوهنا بها منذ قليل .

ويتجه اشبنغلر الى تخصيص أشد فهو يرى ان الحضارات مختلفة نوعياً بشكل

صريح وإن تشابهت في المراحل التي تمر بها . كل حضارة لها نظرتها إلى الوجود وتذوقها للأمور ولها تصورها لموقف الانسان وطموحه وعلاقاته بالكون والحياة والموت . ويعبر روح الحضارة الباطن عن نفسه بالرموز الخارجية مثل تصور المكان ، فالمكان في الحضارة الهيلينية محدود سكوني يتجلى في تمثال أبو لون مثلاً، وأما المكان في الحضارة العربية فهو ذو ثلاثة ابعاد إلا أن بعده الثالث يغوص في الاعماق ويمثله الكهف حيث يتصارع النور مع الظلام والخير مع الشر . وأما الحضارة الغربية التي يسميها بالحضارة الفاوستية — نسبة إلى بطل رواية الشاعر الالماني غوته — فمكانها مجال واسع غير متناه يمتد بعده الثالث في الفضاء وتعبر عنه الموسيقا وحساب اللانهايات ثم الارقام والهاتف واللاسلكي والاستعمار ، على حين تميل الحضارة العربية إلى الزخارف المجردة ، وكذلك يختلف تصور الاله من حضارة الى اخرى وان تشابهت اسمـــاء الديانات أحياناً . وعنده ان كل حضارة مستقلة بشخصيتها ، وهـــي اذا تأثرت بسواها فإنها لاتقبل التأثير على علاتــه بل تتمثل الاثر وتحيله الى طبيعتها الخاصة قبل ان تدخـــله في سياق وجودها . واذا ما أكرهت الحضارة على الخضوع لسواها فإنها تعيش فترة من التشكل الكاذب الذي لايدل على حقيقتها الى ان تتاح لها فرصة الانطلاق الحر المعبر عن روحها . ومن الامثلة على ذلك ان معركة أكتيوم التي خسرتها كليوباترة وحليفها أنطونيوس امام جيوش روما التي يقودها أغسطس كانت معركة بين الحضارة الهلينية وبين الحضارة العربية النامية ، وقد انهزمت فيها الحضارة العربية ، انهزم فيها الخليفة امـــام الامبراطور ، والاعتقاد بالاله الواحد امام التعدد ، فانكفأت الحضارة العربية على ذاتها ولم تظهر منها غالباً الا التشكلات الكاذبة المناسبة لغالبيها كانت بين الحين والحين تنتفض محاولة استرداد طبيعتها المستقلة

بدون جدوى إلى أن استطاعت ذلك عن طـــريق الإسلام . ونلاحظ في هذا المثل النظرة الواسعة التي ينظـــر بها اشبنغلر إلى الحضارة العربية ، كما نلاحظ التشابه في هذا المجال بين اشبنغلر وبـــين معاصره الاصغر منه قليلاً وهو توينبي مع بعض الخلاف في المصطلحات . ويعلل اشبنغلر بهذا الكبت الطويل للطبيعة العربية اندفاع الحضارة العربية وسرعة امتدادها ، كما يجدها في تعجلها تتمثل شيخوختها وهي في الشباب . وإذا طرحنا السؤال المتعلق باختلاف الحضارات على توينبي نجده ممن يذهبون إلى اختلافها نوعياً . وهوية كل حضارة تبدأ منذ التحدي الذي يواجهها ، فحضارة واجهت في المهد تحدي الجفاف ، وأخرى تحدي بيئة الهضبة واخرى تحدي بيئه الغابة . . ثم تختلف بالحل الذي أبدعته لمواجهة التحدي سواء أكان جغرافياً أم بشرياً ثم في نوع الحلول المتعاقبة للمشكلات التالية . وحين يبحث مثلاً في الحضارة الغربية يذكر من خصائصها استقلال المؤسسة الدينية عن المؤسسة السياسية بحيث تطـور جانب من حياة شعوبها تطوراً حراً إلى حد كبير قام على جهود فردية ولم يحدث نتيجة للتعليمات الرسمية ، ولذلك نجد الحرفيين والتجار يلعبون دوراً كبيراً في تطور الحضارة الغربية ، وتلعب الكنيسة دوراً متميزاً عن دور الدولة هو غالباً أقرب إلى الجمهور . ونتيجة لهذه المقدمات انتشرت الديمقراطية البرلمانية الليبرالية في اكثر أنحـــاء الحضارة الغربية وتطور علمها وصناعتها وبرامجها على نحـــو معين ، وهي تعاني الآن من المشكلـة الاجتماعية الطبقية ومن علاقاتها الاستعمارية ومن تنافس أجزائها . وأما الحضارة المسيحية الشرقية التي تمثلت في روسيا القيصرية فقد كانت المؤسسة الدينية فيها مقرة بسلطة المؤسسة السياسية عليها ولذلك جاء التطور من الاعلى بقرارات من الحاكم ولعبت الطبقة المثقفة الموظفة فيه دوراً يفوق دور الطبقة البورجوازية التي كانت أقرب إلى القيادة في الجانب الغربي .

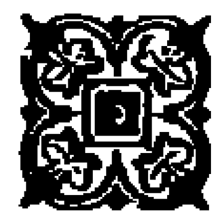
وقــد كانت الحضارة الشرقية على الدوام في تنافس مــع الحضارة الغربية وانهزمت أمامها في أواخــر أيام القيصرية ، فتبنت مذهباً جديداً متطوراً هو الماركسية التي افرزها المجتمع الغربي ، ولكن الحضارة الشرقية على يد لينين طورت المذهب الماركسي حتى جعلته يلائم عقليتها فأصبحت به أقدر على مواجهة الغرب ، وأصبحت ابعد منه عن الصراعات الطبقية الداخلية وعن الأحقاد الناتجة عن الاستعمار وان ظل على اعتقاده ان الحضاره الغربية مازالت في المقدمة بالنسبة الى هذا العصر .

ويندد كل من اشبنغلر وتوينبي بجمهور المؤرخــين الغربيين الذين كانوا يعتقدون ان الحضارة الغربية وحدها هي الحضارة الحقيقية وان الحضارات السابقة ماهي الاتمهيدات لها ، والذين لايقرون بخصائص حضارية الاخصائصها ويقيسون كل امــر حضاري عليها فهم ضيقو الأفق غير مــوضوعيين ، وقــد جرفهم غرور حضارتهم البارزة في عصر مــن العصور ، مع ان حضــارات اخرى عرفت التفوق في عصور أخرى ، وليست الحضارة الغربية هي الكلمة الاخيرة في التاريخ . وان تنوع الحضارات عنــدهما لاينفي استمرار التقدم من حضارة إلى اخرى على الاقل من بعض النواحي .

وأما انجلز في كتابه عن اصل الامرة والملكية الخاصة والدولة فتظهر الحضارة عنده حضارة إنسانية عامــة تتطور حسب تقــدم ادوات الإنتاج وبالتالي علاقاته من مرحلة غير طبقية سابقة على الحضارة إلى مراحل طبقية متحضرة تقوم على استغلال الإنسان تسيطر فيها الطبقــة المالكة للرقاب أو للأرض أو للمال فتنطبع الحضارة كما تنطبع الدولة بطابع الطبقة المسيطرة

أولا وبطابع الطبقات المنافسة ثانياً ثم بطابع الطبقات المسحوقة ، فكأن كل مرحلة حضارية فيها ملامح عامة وملامح خاصة بحسب التكوين الطبقي والمستوى الذي وصلت اليه ادوات الانتاج ، فمثلاً مر وقت على الحضارة اليونانية سيطرت فيه الطبقة الرأسمالية التاجرة والمسيطرة على الحرف الكبرى فأعطت تلك الحضارة في ذلك الظرف شكل التكوين الرأسمالي ، إلا ان الحضارة الغربية حين سيطرت عليها الطبقة الرأسمالية عرفت هذه السيطرة في ظرف متقدم علمياً وصناعياً على الظرف الرأسمالي اليوناني فاتخذت ملامح خاصة تميزها عن تلك الفترة اليونانية وان تشابهتا في الطابع العام . ولايعدم كتاب انجلز المذكور حديثاً عن خصائص الشعوب وهي طبعاً خصائص مكتسبة نتيجة التفاعل مع الظروف على انه يذكر رأي مورغان القائل بأن الشعوب السامية والآرية قد سبقت غيرها إلى الرعي فازدادت كمية اللحوم التي تناولتها فنما دماغها أكثر من الشعوب الاخرى وسبقتها إلى الحضارة ، إنه يذكر هذا الرأي دون ان يرفضه فالتعليلات البيولوجية واردة على الاقل في المراحل المبكرة ، ولاننسى ان أنجلز يتطلع إلى حضارة جديدة خالية من الاستغلال الطبقي . وقد وجد آخرون غير انجلز يرون الحضارة واحدة بل قد يصورون وحدتها اكثر مما صورها ولكن البحث طال ونأمل ان تكون لنا عودة إلى الموضوع لنلقي اسئلة لم نلقها بعد ونستمع إلى الاجابات المتعدده ثم نحاول ان نعبر عن قناعة متواضعه .

سهيل عثمان



بعض المراجع

مقدمة ابن خلدون

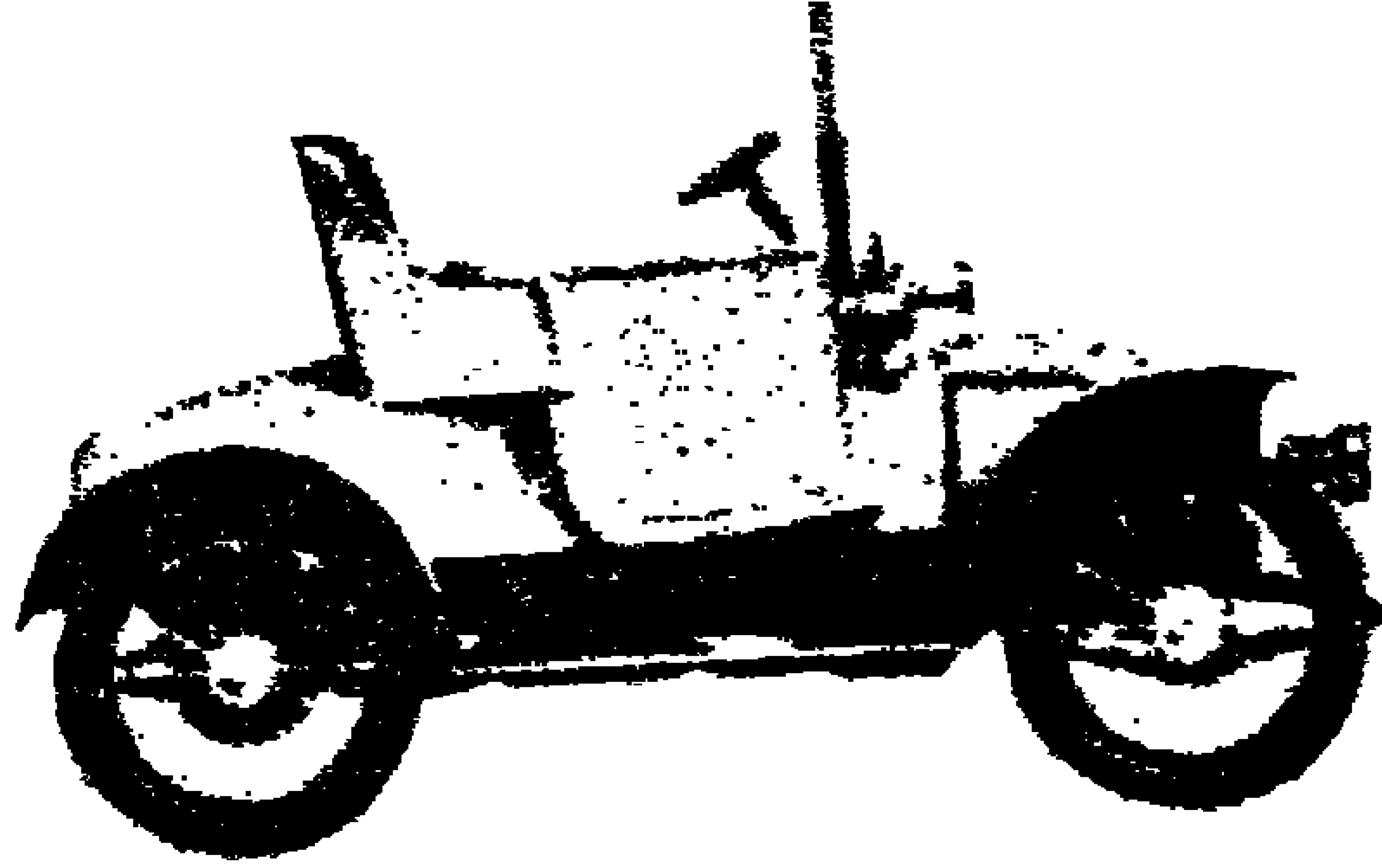
موجز دراسة التاريخ (ارنولد توينبي)

تدهور الحضارة الغربية (ازوالد اشنبنغلر)

أصل الاسرة والملكية الخاصة والدولة (فريدرك انجلز)

من مقدمة ابن خلدون (سياسة واقتصاد) سهيل عثمان ومحمد درويش

مجلة البحث التاريخي ـ حمص ـ العدد (١) ١٩٧٧



البعثات الأثرية وتل الحديدي

بقلم الاستاذ: محمد الخولي
محافظ متحف الآثار الاسلامية بدمشق

هـذا هو المقال الثاني في سلسلة اخبار منطقة أعـــالي بحيرة الاسد من حوض الفرات ، وكنت في المقـــال الاول الذي نشر في العدد الاول من هـــذه المجلة قدمت فكرة سريعة عن المنطقةمن النواحي التاريخية والاثرية والجغرافية وعن المقدمات التي استهوت البعثة الامريكية للسعي بالترخيص للعمل في هذا التل ، ثم تحدثت عن المدافن التي اكتشفت في تل الحديدي بأنواعها وعن المدافن الاخرى الموجودة في المنطقة وعن سرقة المدافن وسأقصر حديثي في هذا المقال على البعثة التي نقبت في تل الحديدي ثم عـــلى جزء المرتفع وهو الجزء الاهم في التل مع استعراض مقتضب لعمليات التنقيب وأهم الاكتشافات . (١)

---

(١) إن المعلومات الاثرية التي اوردتها في المقال السابق وفي هذا المقال ومايليه هي ماثقفته من مرافقتي للبعثات الاثرية كممثل للمديرية العامـــة للآثار والمتاحـف . وهـذه الوظيفة تقتضي ملازمة دائمة لهذه البعثات خلال مراحـل العمـــل الميدانية وبطبيعـة الامر كنت على صلة بجميع المباحثات النظرية الاولية . هذا بالاضافة الى ممارستي شخصياً العمل الميداني فكنت لا أضيع اية فرصة من المناقشات العلمية التي تـدور مابـين رئيس البعثة وأعضائها الآخرين من ذوي الاختصاصات المتنوعة ، وكذلك حضرت تقريباً جميع المناقشات التي جرت خلال الزيارات العلمية للموقع من قبل البعثات الاثرية الاخرى العاملة في الموقع الآخر من حوض الفرات ، ولم تفتني الزيارات الخاصة التي يقوم بها بعض المختصين الذين يحضرون خصيصاً لمعاينة الموقع ومشاهدة مكتشفاته ، وشهدت جميع المحاضرات التي قدمها المختصون في مدينتي دمشق وحلب حول هذا الموقع وكنت اقوم بالترجمة الفورية لهذه المحاضرات كما أسهمت بترجمة بعض الابحاث الأثرية والمحاضرات للاختصاصيين الذين عملوا في مـــواقع هذه المنطقة من الهولنديين والامريكيين،

بعثة تل الحديدي :

إنها بعثة امريكية تنتمي الى متحف ميلووكي وجامعـــة ميتشغن يرأس البعثة الدكتور رودولف دورنمان Dr. Rudolph H. Dornemann محافظ دائرة الاثار الشرقية في متحف ميلووكي وتحتوي في عضويتها التي تصل في بعض المواسم إلى عشرين شخصاً شخصيات علمية كبيرة تنتمي الى جامعات ومعاهـــد علمية امريكية شهيرة ، كجـــامعتي ميتشغن وديسكاونسن امثـــال الدكتور جورج مندنهول والدكتور بوب روس والدكتور توماس ماكيلان . اما بقية الاعضاء فهم من ذوي الاختصاصات الفنية والتقنية العلمية التي تحتاجها البعثة كالمصورين والرسامين والطبوغرافيين والمرممين ، بالاضـــافة الى مجمـوعة من الطلاب الجامعيين الذين أسهموا في أعمال البعثة المختلفة لان ذلك من مقتيضات دراستهم الجامعية . وقد صحب البعثة عالم انتروبولوجي كما اعتمدت البعثة في بعض المجالات الاخرى كدراسة العظام ونماذج التربة والعناصر النباتية على خبرات الجامعات والمخابر في هولندا .

أسلوب البعثة في التنقيب :

اعتمدت البعثة في التنقيب الاسلوب الكلاسيكي التقليدي في الكشف الافقي عن الطبقات حسب طريقة المنقب الانكليزي مـــورتيمر هويلر Mortimer wheeler (١) . ومن الناحية العلمية اعتمدت أسلوب التشابه والتماثل وذلك بربط الاكتشافات بنتائج الاكتشافات السابقة التي درست وصنفت وعرضت نتائجها بالمتاحف والكتب ، وتعطي مكتشفاتها تعريفاتها على هذا الاساس ، لذلك اعتنت بالدرجة الاولى بدراسة الاشكال Typology وهي تختلف

(١) للاستزادة انظـر د . عـدنان البني ـ التنقيب الاثري الحـديث ـ منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي ـ دمشق ١٩٧٦

في هذا المجال عن بعض البعثات التي تعتمد أسلوب البحث والتحري الحر الاصيل غير المنتمي معتمدة في سبيل ذلك الوسائل التقنية الحديثة من تحاليل مخبريـــة وفحوص مجهرية تساعد على معرفة عصر الموضوع بعيداً عن الاختلاطات التي يوقع بها أسلوب دراسة الاشكال . وعيب الطريقة الكلاسيكية في أنها تستقري الاكتشافات والمعلومات من الاعلى الى الاسفل شأن من يقرأ كتاباً مبتدئاً من صفحاته الاخيرة ، وعلى عكس ذلك المدرسة الحديثةالتي تأخذ مربعات من التل وتقوم بتنقيبها طبقة اثر طبقة حتى تصل الى الارض الحرة وفق الأسلوبالمعروف بالستراتيغرافي Strtigraphy وميزة هـــذه الطريقة أنها تساعد على تبين تأثير الحضارات المتتالية على الموقع ابتداء من أقدمها وانتهاء بآخرها ، وعيبها صعوبة الاطلاع على قطاع سكني واسع يعود لطبقة واحدة .

طبيعة البعثة ومصادر تمويلها :

تختلف طبيعة البعثات الاثرية بحسب الجهات العلمية المنتدبة لها، والاهداف التي تسعى إلى تحقيقها وتتأثر أحياناً بانتماءاتها القومية والعقدية ومصادر تمويلها فإن كانت هذه الجهات مؤسسة علمية كالجامعة فإنها تلتزم غالباً بالاساليب المنهجية النموذجية ولاتبالي كثيراً بوضوع الاكتشافات واللقى ، فإن وجدت شيئاً ابتهجت وسعدت به ، وربما أقامت حفلة شراب تتبادل خلالها الانخاب . وإذا لم تعثر على شيء ذي اهمية كالكسرات الفخارية والمصنوعات الحجريـــة البسيطة فهذا لايحزنها لانه يكفيها ان تكتشف آثاراً تساعد علىتأريخ أو تعريف السوية أو الطبقة التي تعمل بها . ويكفي ان تكون الكسرات الفخارية تساعد علىاستكناه الاشكال وعناصر الزخرفة والتعرف على طبيعة الصناعات وميزاتها الفنية ، هذا النوع من البعثات هو اصلح الانواع اذ أنه لايضطر الى الخروج عن

الأسلوب العلمي المنهجي الذي يساعد على استمزاج الموقع الاثري بتؤدة وروية ولا يضيع الفرصة في التعرف على الدقائق في شتى المجالات . هنا يحضرني موقف لاحد علماء الآثار في هولندا (١) إذ سأله مدير مركز الابحاث في هولندا (هذا المركز الذي يعد ويمول جميع البعثات الهولندية التي تنقب في هولندة وخارجها) سأله هل اخترت موقعك الذي تود العمل فيه ؟ فأجاب نعم ، سأله ثانية ماذا تتوقع ان تكتشف فيه ؟ ؟ فأجاب العالم أتوقع الايخيب املي في ان أجد تراباً كان للإنسان في القديم صلة به . ثم اضاف إذا كنتم تقبلون مني نتيجة بهذه الحدود فأنا ذاهب إلى عملي ، وإذا كنتم تحلمون باكتشاف النفائس الباهرة والاكتشافات النادرة فإني اعتذر عن المهمة .

هناك بعثات تختار مواقع معينة أملاً في ملاحقة افكار محددة ربما كانت ذات مغزى حضاري بحت ، وربما كانـــت ذات مغزى تاريخي اوقومي ، وربما كانت للحفاظ على تقاليد مؤسسة علمية اعتادت ان يكون لها شأن في مجال السبق العلمي ، وأخيراً وليس آخراً هناك بعثات تضع نصب عينيها اكتشاف النفائس والآثار القيمة النادرة لتبرهن للجهات الممولة عن جدوى مهمتها وغالباً ما تكون هذه الجهات الممولة لاتستطيع ان تقدر المشروع الابقدر مردوده الملموس ، وهؤلاء لاتجدي معهم الاكتشافات العلمية مهما كان شأنها مالم تقترن باللقى الثمينة التي تساعد على اخراج مطبوعات هامة تخلد ذكر المسهمين كما تساعد على إقامة محاضرات جذابة تعجب الجميع ، لذا يضطر العاملون في البعثة حرصاً على إذكاء حوافز المموليين والفوز برضاهم إلى اتباع أساليب غير علمية احياناً وتلك

---

(١) هو الدكتور فرانكين مدير معهد الدراسات الفلسطينية في جامعـة لايدن وهورائد مدرسة حديثة في التنقيب اسلوبها الكلي هو الستراتيغرافي .

هي أسوأ انواع البعثات لان قلقهم على اكتشاف اللقى يكون على حساب التنقيب العلمي المنهجي الجاد ، وكثيراً مايكون العلماء والمسؤولون في هذه البعثات لايشاطرون االممولين نظرتهم للأمور ولكنهم لايجدون خياراً آخر إذا ماأرادوا الاستمرار في متابعة كشوفهم وابحاثهم ،والممولون في هذه الاحوال لايحلمون بالحصول على الآثار نفسها كما يتبادر الى الذهن ، بل ستكون الاكتشافات الهامة وسيلة للتحدث عن مآثرهم في تمويل المشاريع العلمية ، وستكون كذلك مادة للصحافة ودور النشر التي تشيد بذكرهم وترفع من شأنهم . ومعلوم مالهذا العلم من جاذب شديد لدى المجتمعات المتطورة الراقية . وإذا كان للمعاهد والمتاحف شأن لدى مثل هذه البعثات فستكون فائدتها كبيرة إذ سيكون لها نصيب ـ في بعض الاحوال ـ من اللقى تشغل فيه جانباً من معروضاتها ويساعدها على تقديم ابحاث جديدة تحملها مطبوعاتها إلى مكتبات العالم ، بالاضافة إلى انها تغتنم مثل هذه الفرص لإعداد كادر علمي وفني إعداداً ميدانياً يكون عائده للمؤسسة والوطن .

أما بعثتنا التي نحن بصدد التعريف بها فإنها على مذهب البعثات الامريكية الاخرى التي تنقب في منطقة الشرق الاوسط ، وهي تدين بتمويلها إلى عدد من المصادر أهمها مجلة (ميلودكي) ثم جامعة (ميتشغن) ثم المجلة الجغرافية في الولاية ، ولا ادري فيما اذا كان لبعض الشخصيات البارزة في الولاية دور في التمويل . ومما تجدر الاشارة اليه أن رئيس البعثة يقوم بالدعاوة بشكل حثيث لموقعه من حين انتهاء موسمه وحتى يبدأ الموسم الجديد لدى الهيئات التي يتوقع منها الدعم المادي ، لذا فهو يعلم تماماً أيستطيع أن يتابع التنقيب في الموسم القادم املا ؟ لانه لا يستطيع ان يقدر نتيجة مساعيه سلفاً .

برنامج البعثة اليومي والاسبوعي :

اتبعت البعثة في الموسمين الاخيرين اسلوباً مشوقاً ومفيداً جداً من اجل تثقيف عناصرها فنظمت زيارات دورية يومية إلى مربعـــات العمل تقوم بها جميع عناصر العمل الميداني ، ويقدم المسؤول عن المربع المزار شرحاً عن سير العمل في مربعه ، ويطرح مشاكله التي يتناقش بها الجميع ويخلصون إلى حل معقول لكل مشكلة ،وفي اليوم التالي يقصدون مربعاً آخرا ، وهكذا يكون جميع مشرفي المربعات على اتصال تام بالمعلومات التي تعطيها هـــذه المربعات ، وهذا مايجعلهم قادرين على المشاركة في المناقشات التي تدور حول مشاكل العمل التي تحدث كل مساء بعد تناول العشاء . هذا بالاضافة إلى برنامج ثقافي يومي تقدمه عناصر البعثة الذين توزع عليهم مواضيـع من أجل إعدادها وتقديمها كل بدوره ، وهذه المواضيع ينبغي ان تكون ذات صلة بالعمل ، مثلاً كلف احدهم باعداد محاضرة عن (إبلة) وآخر عن (ماري) وآخر عن (نوزي) وآخر عن (الالاخ) ، تقدم هذه المحاضرات بعد العشاء حيث يتواجـــد الجميع فـوق سدة تشرف من ناحية على نهر الفرات ومن جهة ثانية على سهل رحيب ، هذا بيده كأس وآخر يلوك سيجاره وآخر ينفث دخان غليونه . وهناك يجلسون على الارض وبعد سماعهم للمحاضرة يتصدى المحاضر للاجابة عن الاسئلة وبعد الانتهاء من المحاضرة يقومون بالاستماع إلى أشرطة تحتوي مواد فنية متنوعة تذكرهم بالوطن ، وأحياناً يقوم الجنس اللطيف المرافق للبعثة بتقديم أغنيـات أو رقصات ، ومما يـــدعو للدهشة ان بعضهن يجدن الرقص العربي بشكل يلفت النظر . ويحدث ان تجهز مراكب صيد السمك في بعض الامسيات وتزين بالشموع وتقوم البعثة مـــع بعض المواطنين بقضاء سهرة فوق صفحة الفرات لايخالط سكونها سوى صوت المجاذيف

تصفع سطح المـــاء برفق وصوت غنـاء رخيم يصدر من هنـــا وضحكات مرحة تصدر من هناك .

في نهاية كل اسبوع من العمل الجاد تعد البعثة رحلة للاستجمام والراحة ومزيد من الاطلاع والفائدة وتستهدف رحلاتهم المواقع الاثرية بالدرجة الاولى



« زيارة اعضاء البعثة الى موقع السلنكحية من حوض الفرات »

وبشكل اخص المواقع التي تعـــود لنفس الحقبة الزمنية التي يعملون ضمنها ، فيقومون بجمع الكسرات الفخارية واللقى الاخرى ، ويلتقون مـــع رئيس البعثة ويضعون كل ماجمع أمامه ويشرعون في مناقشة النواحي الاثرية والتاريخية معتمدين على المعطيات التقنية والفنية لمـــا جمعـوا من مـــواد . وعندما يحين وقت الغداء يبحثون عن مكان ترتاح اليه النفس ويجلسون لتناول الطعام الذي يكون غالباً بشكل سندويشات وبعد قضاء وقت من اللهو والاستمتاع يشدون رحالهم ويعودون إلى الموقع .

وعندما يشعر بعضهم ـ وغالباً يكون هؤلاء من الشباب اليافعين ـ انه لم يعد شيء يغني عن إقامة ليلة في فندق مريح ، والتمتع بمباهج المدينة ولذائذ

الحياة فيها او قضاء سحابة نهار في احد المسابح ، او على شاطىء بحري ، يحدث ذلك ، ولكنه لايخلو في أية حال من الاحوال من زيارات اثرية ؛ ففي حلب يقصدون القلعة أو المتحف او الاسواق وفي اللاذقية يقصدون اطلال مدينة رأس شمرة او إحدى القلاع الاثرية القريبة .

من خلال معايشتي لهم وللبعثات الاخرى أستطيع ان أعمم انه لاأثري من غير ما مهمة اخرى ، إما ان يكون مكلفاً بها أو يكلف نفسه بمهمة حتى لايضيع وقته سدى، وبعض هذه المهمات نافع جداً ومكمل لاعمال التنقيب مثل الدراسات الاجتماعية والفولكلورية للمجتمع الذي يقيم الى جوانب الموقع، وكثيراً ماتساعد هذه الدراسات على التعرف على بعض مظاهر الحياة لدى الاقدمين وبالتالي يكتسبون ثقافة قد تساعدهم في ميدان عملهم ، مثلاً طريقة اعداد الخبز وبناء التنور لم يطرأ عليها تغير جوهري فهي نفس الطريقة تقريباً ، ومعظم المنازل في المواقع الاثرية القديمة لاتخلو من مثل هذه الضروريات وكذلك عملية خزن الحبوب في المنازل ، اضف الى ذلك الاوعية التي تحفظ بها مواد البيت مثل جرار الماء وجرار الزيت ، المطاحن، الاجران ، ادوات الزينة الخاصة بالمرأة ، ديكورات المنازل ومادة العمارة ـ كالاحجار غير الموجهة ـ والطوب ـ والاخشاب . جميع هذه المظاهر تجد لها صلة ما بحياة المجتمعات القديمة ، لذا توزع على الاعضاء المهمات فقد يكلف احدهم بإعداد دراسة عن الزواج وحفلات الافراح والأتراح ، ويكلف آخر بإعداد دراسة عن حياة الحل والترحال وما يتبع ذلك من تقاليد مختلفة ، ويكلف عضو آخر بإعداد دراسة عن سكن المواطنين قرية ـ مجمع ـ بيت ، مع ديكورات المنازل وأنواعها المختلفة ، وهم يشفعون هذه الدراسات بالصور واشرطة التسجيل . ومهمة ناجحة من هذا القبيل

يمكن ان تساعد على إقامة معرض رائع في بلد البعثة يمثل قطاعاً مـــن حياة المجتمع المذكور تشترك فيه الصورة والجسم والصوت وبعض الادوات والاوعية والملابس ، وعندما تقصر الصورة الفوتوغرافية عن اداء المهمة تقوم الكاميرا السينمائية بإكمال المهمة . وبمثل عنايتهم بالحياة الاجتماعية تكون عنايتهم بالحياة الاقتصادية من رعي وزراعة وصيد أسماك وتربية الحيوان الى غير ذلك . وبكلمة اخرى عندما تنتهي مهمة البعثة من التنقيب في الموقع يكون الاعضاء قد أنهوا عملية مسح شاملة ودقيقة لقطاعات الحياة المختلفة ، ولكي ينجح هؤلاء الاعضاء بمهامهم هذه تراهم يتحلون باستعدادات نفسية عجيبة تتجلى في سرعة تكيفهم مع المجتمع الذي يحلون فيه ، فلايلبث الفرد منهم إلاالوقت القصير حتى يتعلم شيئاً عن تقاليد القوم ويمرس نفسه على مجاراتهم فيلبس ملابسهم ويتعرف على فنونهم ويشاركهم في رقصاتهم الشعبية فينضم الى حلقات الدبكة ويؤاكلهم على طريقتهم بيده ومن المنسف ، لذلك ترى هؤلاء الاعضاء خلال وقـــت قصير يصبحون في قلب القوم .



« اختلاط افراد البعثة مع المواطنين والمساهمة في افراحهم »

مما يلفت النظر ان نجد مجموعة مؤلفة من عشرين شخصاً تتحرك بارادة واحدة وتتبادل فيما بينها الاحترام المتبادل عـــلى الرغم من تفاوت السن وتباين الامزجة واختلاف المستويات ، عـــلى الرغم من انالفرد منهم قد لا يكون على معرفة مـــع اي مـــن عناصر البعثة الآخرين ولكننا نلاحظ كأنهم قدموا من بيت واحد ، وإن اختلفوا في أمر يصلحون ذات بينهم بطريقة عجيبة حتى لايكاد الغريب يشعران خلافاً حدث فيما بينهم .



« اليزابيت سافج »

تمنت لوتتاح لها فرصة لقضاء بقية حياتها في الوطن العربي .

تقوم الآن بدراسة اللغـــة العربية في جامعة القاهرة

وأملها ان تصبح قادرة في المستقبل القريب على الاطلاع على تراث امتنا الحضاري



ان معظم هؤلاء الذين يقدمون الينا من الغرب يحملون في أذهانهم صوراً مشوهة عن حياتنا ، فهم يتصوروننا شعباً يتخبط في ظلام الجهل والهمجية وليس لنا أي نصيب من حياة التمدن والرقي . إنها الصورة التي ترسمها ريشة اعدائنا عنا في ديار الغرب . اعتقد أنه لاخيرة للمجتمع الغربي لانهم يستمعون لكلمة الاعداء فقط ، اما كلمتنا فهي ضعيفة خافتة إن وجدت ولاتكاد تصل إلى آذان احد .

سأضرب لكم مثلاً بأحد اعضاء البعثة الهولندية العائدة لجامعة (لايدن) ويدعى ماريشال مارتن من أصل تكساسي من الولايات المتحدة كان قدم إلى هولندا ليحصل على درجة الدكتوراه من جامة لايدن وشاءت الظروف ان يختار للعمل مع البعثة في بلدنا . كان اول لقاء لي به في مطار دمشق عام ١٩٧٤ ، عندما كنت استقبل البعثة الهولندية هناك ، وكان عضواً جديداً لم تسبق له زيارة اي من الاقطار العربية بعد . أثناء عودتنا من المطار ركب هو في المقعد الاول من السيارة إلى جوار السائق وكان مقعدي خلف مقعده تماماً . لاحظت خلال الطريق انه كان يحرف وجهه بحذر وانا اتبادل الحديث مع الآخرين ، تكرر ذلك منه عدة مرات وكانت كل مرة تسهل نظرته إلي ، وعندما وصلنا البلد ذهبنا إلى بيتي اولاً للتعرف ـ بشيء من الراحة ـ الى الاعضاء الجدد ثم غادروا جميعاً الى الفندق . في اليوم الثالث مضينا إلى موقع العمل في «تل الحديدي» وقد رافقتهم بصفتي ممثلاً للمديرية العامة للآثار والمتاحف لدى البعثة شأن الاعوام السابقة وبعد بضعة أيام من اقامتنا هناك دعينا خلالها إلى عدة ولائم من قبل المواطنين ، وجدت هذا الإنسان بالذات « مارشال » يحاول الدنو مني أكثر فأكثر ، وذات أمسية بعد تناول العشاء ترك

مقعده الى كرسي مجاور لي ومـال إلي يرجـو ان أتريـث قليـلاً بعد ذهاب الجميـع ، فأجبته الى ذلك . أحضر الى الطاولة بعض الشراب وأحضر الى زجاجة من الاشربة الملونة وببعض الارتباك قال انني أود ان أعرض عليك صداقتي ، ولكن بعد ان أعتذر اليك عما كنت اكنه لك ولقومك في نفسي وتابع حديثه قائلا : قبل قدومي الى بلدكم اتصل بي اكثر من صديق ممن أعرفهم واوصوني ان اكون حذراً جداً منكم ، وأكثر من ذلك اوصاني احدهم ان اودع ميلودي « زوجته » وآدم « ابنه » وكانا في مدينة جرونتنكن (البعيدة عن لايدن) عندما هممت بالقدوم مع البعثة ، فذهبت فعلا اليهم وكنت في أثناء وداعي لهم أشعر بخوف يملأ قلبي مما جعلني أهم بالاعتذار اكثر من مرة لولا ان اعتذاري يربك البعثة ولاسيما وهي في اللحظات الاخيرة من عزمها قبل السفر ، وقد حضرت وأنا اكتم ذلك في نفسي وحينما جلست أمامك في السيارة العائدة من المطار كان شعوري انك ستغمد سكيناً في نقرتي في أية لحظة ولكن حديثك مع الآخرين وانفتاح قلبك للبعثة بدأ يبدد مافي قلبي ويضفي برد الراحة إليه شيئاً فشيئاً وبعد خروجنا من بيتك بت اعتقد ان ماتفعله من اجلنا لايمكن ان يكون تمثيلا ولاخداعاً ، وانما هو عطاء كريم يدل على اصالة . والان بعد ان التقيت بمجتمعكم ايضاً في الحديدي لم اعد أبرىء ساحتك وساحة مجتمعك مما يقولون عنكم في الغرب فقط بل اصبحت افكر في تعلم لغتكم فأجبته انني على استعداد لتقديم العون الممكن مقابل مزيد من المعرفة باللغة الانكليزية واتفقنا على ذلك ، واستطاع الرجل بعد مضي شهر على مقدمه ان يتحدث بالعربية الى العمال الذين يعملون في مربعه في معظم مايحتاج إليه منهم في شؤون العمل ، وذات يوم ذهبت إليه في مربعه خلال فترة راحة العمال فلم أجده وقد ملكتني الدهشة

عندما رأيته يحاول التوضؤ من القرات مع العمال ولم تكد تمضي ثلاثة الشهور ـ مدة موسم العمل ـ حتى أصبح اسم «ابو آدم» يتردد على السن الكبار والصغار كاسم أبي علي وأبي جاسم وأبي حسين ، وأصبح أبو آدم يمازح القوم ويمازحونه ، وفي



« مارشال مابين العمال فكأنه واحد منهم »

الايام الاخيرة لم يكن يغيب عن مجالسهم أبداً وكان هذا شأن اعضاء البعثة الآخرين الذين أخذو يطوفون على بيوت العمال ليودعوهم وليتبادلوا معهم الهدايا الرمزية كقرط بقرص وسكين بمسبحة وكوفية بقلم ، وعند ساعة الوداع الاخيرة رأيت الاعين تفيض بالدمع من كلا الجانبين وسمعت من بعضهم صوت البكاء المرتفع عندما كان بعضهم يعانق بعضهم الآخر . واثناء الغياب اصبحت سفير الجانبين أقوم بايصال رسائل بعضهم الى بعضهم الآخر وكنت مسؤولاً عن الترجمة ومازلت مسؤولاً حتى الان عن بعض العلاقات .

هناك مثل ثان أسرده بسرعة وهو عن احد الهولنديين ويدعى (ياب) الذي قام بضرب أحد الهولنديين في هولندا بقبضة يـــده فأسقط له سنين ونال الجزاء القانوني في بلده على فعلته ، وذلك لأنـــه سمع ذلك الشخص يسب

العرب في احدى المناسبات ، فأجابه (ياب) ان العرب افضل منه ومن مجتمعه وذلك لانه لوغرق هو وسيارته في هولندا لعز عليه أن يجد من يبادر إلى انقاذه من المواطنين كما فعل العرب في حوض الفرات ، وملخص الحادثة أن هذا الرجل كان يجتاز بسيارته منطقة واطئة تقع مابين السلنكحية ومحطة المياة الثانية وهطل المطر بغزارة فائقة وما ان وصل إلى منتصف هذه المنطقة حتى ارتفع الماء ولم تعد السيارة قابلة للسير ، وانتظر خمس دقائق فقط راجياً ان يسكن المطر أويخف ولكن العاصفة اشتدت اكثر فأكثر وأصبح المطر يتدفق كانه من أفواه القرب ـ على حد تعبيره ـ وانحدرت السيول من سفوح الجبال القريبة ، وصارت تدخل من باب السيارة وتخرج من الباب الثاني وأيقن الرجل ألامفر من الهلاك ، وفي تلك اللحظات العصيبة لاحت سيارة « لاندروفر » قادمة من محطة المياه وأصبحت تدنو منه حتى وصلت رأس المنطقة المنحدرة وخرج منها رجل مدني أخذ يقوم بتوجيه ثلاثة رجال كانوا إلى جانبه ، فربط احد الرجال نفسه بطرف حبل وربط الطرف الآخر بالسيارة وألقى نفسه مع الماء واخذينحرف والتيار يجرفه حتى وصل إلى السيارة الغارقة ، وهناك ربط (ياب) معه بالحبل وقاما بربط السيارة الغارقة ، وبعد انأنقذ الرجلانسحبت السيارة الغريقة ، ولم يكد الجميع يغادرون المنطقة حتى ارتفع الماء الى حد لايمكن معهان تثبت السيارة لوبقيت مكانها ، وذهب الجميع إلى بيت الاستاذ محي الدين النوري مدير محطة المياه وهو الرجل الذي قاد عملية الانقاذ وهناك غير «ياب» ملابسه وتدفأ وأخذ شراباً ساخناً وعاد إلى بعثته بعد ان اعيدت سيارته من طريق عال ، ونفسه مترعة بالتقدير والاعجاب بهؤلاء الناس الذين انقذوه وانقذوا سيارته على غير معرفة .

لوكان المجال يتسع لحدثتكم عـن أمثلة أخرى ، ولكن اكتفي بما اوردت لاشير إلى أن لهذه البعثات منافع غير المنافع التي تجنيها مـن استخراج آثارنا من باطن الارض ، وهنا قد يخطر ببال بعضنا أن يكون لبعض هـذه البعثات أو الاعضاء دور مشبوه ، إنني لاأنفي احتمال وجـود بعض المغرضين ولكنني أجزم بأن الممثل الكفء الذي يصحب هذه البعثات يمكن أن يحول تماماً مابين المغرضين وبين مايصبون اليه وذلك بقليل من اليقظة والحـذر وربما نجح بلباقته في كسب هؤلاء إن وجدوا وجعلهم أصدقاء يعملون لنـا بدل أن يكونوا علينا .

الاعمال الاثرية :

أولاً يحسن أن نأخذ فكرة عـن هذا الجزء الهام من الموقع الذي نحن بصدد التعرف إليه ، يقـع التل الاعلى في الجهة الغربية مـن الموقع ويمتد إلى مسافة (١٥٠٠ م) طولاً مصاقباً لنهر الفرات وإلى مسافة (٥٠٠ م) عرضاً ، أي تبلغ مساحته حـوالي ٥ر٧كم² ويرتفع عن سطح البحر حوالي (٣٢٥ م) وعن سطح النهر بحوالي (٢٥ م) ، تتوضع الذرا العليا من التل في الجهة الشمالية منه وينحدر نزولاً نحو الجنوب إلى النهر محدداً بأودية حفرتها سيول الامطار التي تنصب على التل في مواسم الشتاء .

يبدو التل للرائي من عل كشامة توضعت على الخد الثاني من حوض الفرات محاطة بسوار من الجبال الكلسية ، يقطعه النهر من فجوة ضيقة عند مدخله ويخرج منـه منفتحاً على مساحة عريضة تتخللها الجزر الخضراء (الحوائج) باللهجة المحلية (١) . يجاور الموقع مباشرة من الجهة الشامية سهـل لحقي

(١) مفردة حويجة وهي تعني باللغة العربية الفصحى الحديقة ويقصد بها المواطنون هناك الرقعة اليابسة من الارض في وسط الماء

خصيب مما أعطى الموقع أهمية اقتصادية بالإضافة إلى أهميته الستراتيجية لتوضعه على رأس منحن قاس لمسار النهر ، الامر الذي يجعل النهر تحت اشراف الموقع إلى مدى بعيد في اتجاهي الشرق والجنوب . واعتقد أن شعوب المنطقة القديمة قد فطنت إلى هذه الاعتبارات الهامة فكان الموقع محط أنظارهم ، لذا أغنيت طبقات الاستيطان فيه التي امتدت من الألف الخامسة قبل الميلاد وحتى القرن ١٢ بعد الميلاد . وكذلك فإن الاعتبارات الآنفة الذكر جعلت من التل هدفاً لبعثات التنقيب تتسابق إلى العمل فيه . وقد توالت على التل بعثتان الاولى هولندية وقد حصلت على امتياز بإجراء أسبار في جنبات هذا التل وقد شملت



« تل السويحات »

مشهد لأحد الاسبار الذي تستعرض من خلاله طبقات التل .

هذه الاسبار الارتفاعات المختلفة ، ودلت على أن التل كان معموراً في بعض أجزائه منذ الالف الخامسة قبل الميلاد ، وتوالى العمران عليه حتى العهد الايوبي ، مع حدوث بعض الفجوات الزمنية التي قد لاتكون فيما لو نقب التل بكامله . وكان الهدف من هذه الاسبار التي أجرتها البعثة الهولندية التابعة لجامعة لايدن مع الاسبار الاخرى التي قامت بها في منطقة حوض الفرات

الواسعة ، هو إعداد دراسة كرنولوجية للصناعات الفخارية تكون بمثابة أبجدية لصناعة الفخار في هذه المنطقة الهامة جداً وسيكون لهذه الدراسة شأن هام في تأريخ المواقع الاثرية التي تجري فيها عمليات التنقيب ، بالاضافة الى أنها تساعد في التعريف بالمواقع الاخرى من خلال مقابلة محتوياتها من الفخار بالنماذج التي شملتها هذه الدراسة ، ومن المعلوم ان الفخار يتواجد بوفرة في معظم المواقع لانه يمثل المادة الشعبية الرخيصة والصناعة اليومية الدائمة التي تعبر عن ذوق المجتمع وعن تقدمه الحضاري ، وهو المادة التي تحتل المكان الثاني في تأريخ السويات والطبقات إذا ماغابت الوثائق المكتوبة مثل الرقم ، الاختام ، النقود.

هذا يعني ان البعثة الامريكية عندما قدمت في الموسم الاول عام ١٩٧٤ وجدت ان جزءاً هاماً من مهمة العمل قد أنجز من قبل البعثة الهولندية مثل المسح الطبوغرافي ، المسح الاثري ، عمل المخططات واجراء الاسبار ، والاهم من ذلك أنها تمكنت أن تضع إشاراتها على النقاط الهامة من التل ، وكان على البعثة الامريكية أن تباشر التنقيب الفعلي منذ اللحظات الاولى من وصولها ، وقد أبقت على المربعات الواعدة التي بدأت بها البعثة الهولندية وتابعت العمل فيها ، وفتحت مربعات جديدة حتى بلغ عدد مربعاتها حوالي ثمانية مربعات استخدمت في كل مربع حوالي ستة من العمال المحليين يعملون تحت إشراف عضو منها يدعى المشرف (Plat Supperviser) . كانت البعثة تنسحب من بعض المربعات عندما لاتتأمل منها خيراً وتفتح مربعات جديدة بديلة ، حتى استقرت على عدد منها تتوزع كمايلي : ثلاثة فوق أسوار المدينة ، اثنان في سويات هلنستية ، واحد في منطقة الافران الخاصة بصنع الفخار ، اثنان في مناطق لم تؤثر بها عوامل التعرية كثيراً ولم يصبها اضطراب من جراء احداث حفر اوحفر



« تل الحديدي »

« مشهد العمل في احد المربعات »

قبور حديثة ، وذلك من أجل القيام بدراسة استرايتغرافية منظمة للتوضعات الحضارية التي تناوبت على التل المذكور ، هنا اسمح لنفسي بتجاوز التفصيلات التي تمر بها مراحل العمل في المربعات المختلفة ، والتي تعني المختصين فحسب لاقوم بالتحدث عن حصائل الاكتشافات ملخصة بمايلي :

١ ـ إن التوضعات السكنية في المواقع خلال العصور التي سبقت عصر البرونز الاول لم تكن هامة ، لانها على مايبدو كانت تشغل مكاناً محدداً من التل مجاوراً للنهر وفق نموذج الاستيطان العشوائي غير المنظم .

٢ ـ بلغ الموقع ذروة أهميته في عصر البرونز الاول ، عندما قامت مدينة هامة ذات اسوار تجاوز عرضها في بعض النقاط ثلاثة الأمتار وهي مبنية من الاحجار غير الموجهة ، وخلال تفحص أحجار السور المذكور تبين أن بعضها يعود لعمران سابق ، إذ وجد بينها اجزاء من مطاحن او أجران وثقالات كانت تستعمل في أنوال النسيج . وقد تميز ظاهر السور بأنه كان مطيناً

بطبقة طين سميكة ممزوجة بالحشائش ومسيعاً بالحوار الابيض الذي مازال المواطنون حتى الآن يعرفون مصدره الكائن في سفح جبل (عرودا) ويستعملونه في تسييع دورهم . وقد أوجدت مابين السور والمنحدرات المحيطة بالتل خنادق عميقة لم تكن تملأ بالماء كماهي الفكرة عن الخنادق لانها كانت اعلى بكثير من مستوى النهر وإنما استحدثت لاعاقة تدافع اعداد المهاجمين للأسوار ، وجعلت بشكل مسنمات ذات انحدار نحو الخارج وانحدر مثله نحو الداخل ، وقد غطيت هذه المنحدرات بالحصى لتنزلق تحت اقدام المتسلقين وسنابك خيلهم (١) .شغل مدخل المدينة الشمالي ببرجين أقيما بشكل يسد ثلمتي الخندق من الجانبين ولوظيفة الدفاع المطلوبة ، ولكن الملاحظ أن البرجين المذكورين لم يكونا من الاتقان بمستوى بناء السور . لقد عفت مخلفات هذا العصر بسبب استعمال مواد بنائه من قبل سكان العصر اللاحق ، وأهم ماتبقى من معالم العمران في الداخل هو جزء صغير من سوق كان يتبع المدينة ، وقد عثرنا في الدكاكين وعلى المساطب التي تشتمل عليها على مواد الخرز والقار والصدف والمصنوعات العظمية بالاضافة إلى بعض الادوات البرونزية .

٣ - في عصر البرونز الوسيط أقام السكان سوراً غير السور الآنف الذكر الذي هدمته صروف الدهر ، والمرجح ان الاعداء هدموه لان تأثيراتهم تتمثل في تباين نقاط الارتفاع والانخفاض ، كما عثر تحت بعض انقاضه على جثه إنسان متجمعة ربما قتل صاحبها اثناء الهجوم ثم انهدم السور

(١) الخيل كانت معروفة منذ غزوة الهكسوس فقط الى هذه المناطق وقبلها كان يعرف حيوان شبيه وحجمه مابين الفرس والحمار ويدعى بالاونجر Oneger

فوقها وبقيت حتى يومناهذا ، ومما يشجع على الاخذ بهذا الراي ان اصول الدفن تختلف عن الوضع الذي وجدت عليه الجثة المذكورة . وأما السور الخاص بهذا العصر فقد بلغ في أعرض نقاطه ١٫٢٠ م وقد انحسر نحو الداخل في معظم اجزائه مسافة مترين وفي بعض النقاط ركبوا به السور الاول ،



« مشهد لمقطع من سور عصر البرونز الوسيط وخلفه عمران من نفس العصر »

وقد استفادوا من احجار السور القديم في بناء سورهم وأساسات دورهم اما بقية الدور فقد بنيت بالطوب المخلوط بالتبن والاعشاب ، وليست هناك مظاهر عمرانية متميزة في هذا العصر . اما الظاهرة الاجتماعية التي تلفت النظر فهي ان مجتمع هذا العصر ذو تقاليد هيكسوسية ، وقد تجلى ذلك في دفن الاطفال في جرار وقد عثرنا في أرض احدى الغرف المصاقبة للسور جرة تحتوي على ثلاث جثث لاطفال لاتتجاوز اعمارهم ست سنوات اما مكتشفات هذا العصر من اللقى فهي متنوعة جداً، ويكفي لاخذ فكرة ان نعلم ان البعثة الهولندية رممت من بقايا قبر منهوب يتوضع



« قاع جرة يحتوي على ثلاث جماجم لاطفال ، وقدر فخارية تمثل تقاليد الهيكسوس في المنطقة . »

في الزاوية الغربية الجنوبية من هذا التل ، ويعود لنفس هـــذه الحقبة ـ مئتا قطعة منها (٩٠) شكلاً فخارياً متنوعاً مابين قدر وصحن وطاس وقارورة وفأس .

من خلال المشابهة مابين محتويات طبقات الموقع ومحتويات الطبقات المعاصرة في السلنكحية وماري وآشور وإبلة ، يمكن أن نستدل على وجود وحدة حضارية مابين منطقتي مابين النهرين وسورية . وهـــذا بدون شك سوف يغير في النظريات التي تفصل بين حضارة مابين النهرين وحضارة سورية ويقود إلى نظرية جديدة تعرف حضارة المنطقة بالحضارة الرافدية السورية او العكس .

٤ ـ اما الكشف الهام جداً فهو في طبقات عصر البرونز المتأخر ، فقد عثر خلالها على مدينة ميتانية ضائعة تعرف بمدينة « آزد » كانت ذكرت في رقم نوزي وهو موقع عراقي وفي رقم الالاخ وهو موقع تركي ونظراً لطول البحث سوف ندخر الحديث عن هذا الاكتشاف الهام الى مقال قادم إن شاء الله .

محمد الخــولي

محافظ متحف الآثار الإسلامية بدمشق

المعالم العامة لتاريخ سورية في العصر الهلنستي

الدكتور : مفيد رائف العابد

نظراً لقصور الدراسات العربية عن تعريف القاريء العربي بالمراحل السياسية الرئيسية لتاريخ سورية في العصر الهلنستي ، ونظراً لأهمية الإلمام بهذه المراحل قبل البدء في عرض أهم المعالم الحضارية للعصر نفسه ، يبدو من المناسب أن نمهد لدراستنا عن تاريخ سورية في العصر الهلنستي بصورة خاصة او تاريخ الإمبراطورية السلوقية عامة بالتعرض بإيجاز إلى إنشاء الامبراطورية المقدونية ذلك أن سلوقس (مؤسس الامبراطورية السلوقية) كان أحد الضباط الذين شاركوا الإسكندر في بناء الامبراطورية المقدونية فضلاً عن أنه كان من أبرز الذين أسهموا فيما بعد في فصم عراها . هذا إلى أن تتبعنا الموجز لبناء هذه الامبراطورية يتيح لنا إلقاء نظرة عاجلة على المسرح الذي جرت عليه أحداث تأسيس سلوقس الامبراطورية ، كما يهيء لنا الفرصة لأن نبسط أفكار الإسكندر السياسية ولأن نتبين إلى أي مدى سار ملوك سورية من خلفاء الاسكندر على نهجه أو خرجوا عليه .

أولاً ـ تأسيس الامبراطورية المقدونية :

كان من نتيجة إيمان الاغريق في بلاد اليونان القارية بأفضلية نظام المدينة الدولة (Polis) على غيره من الانظمة السياسية الأخرى ، وشدة تعلقهم

بحريتهم الشخصية أولاً ، واستقلال مدنهم الذاتي والخارجي ثانياً ، أن تعاظمت مشاكل التشيع الحزبي داخل المدينة الواحدة وبين المدن المتعددة ، كما عزف الجميع عن القيام بأية خطوة جادة على طريق الوحدة السياسية وانجلت بعض أنانياتهم التي غلفوها بستار من وهم الحرية المزيفة عن تحطيم الاحلاف المرحلية التي أقاموها تحت ضغط الظروف الخارجية (١) . وفي النهاية كانت نتيجة المغالاة في التمسك بالحرية الوقوع في عبودية دولة ناشئة شمال بلادهم ، كانوا حتى فترة قريبة يعدونها دولة تدخل في دائرة دول البرابرة (غير الاغريق) رغم بعض روابط اللغة والدم التي ربطتهم بها ، وهذه الدولة هي (مقدونية) .

والمقدونيون كما تبين مصادرنا أفراد من القبائل الهندية الأوروبية عاشوا في بلاد البلقان وشابهوا في أنظمتهم السياسية والاجتماعية المتخلفة الاغريق في العصر الهومري ، من حيث وجود الامراء الاقطاعيين والنظام العقاري الوسط الذي يجمع بين الملكية المشاع والفردية ، في حين لم يكن حكمهم الملكي يرتبط بقانون يحدد الخلافة ، كما لم تكن قوتهم الجسدية وشجاعتهم تلتزم بأي انضباط أو تخضع لاي تدريب .

ولايعرف الكثير عن تاريخ المقدونيين قبل فيليب والد الاسكندر الذي تذكر المصادر أنه كان ابناً للملك أمونتاس « Amyntas » الذي توفي عام ٣٦٩ (٢) عن ثلاثة أولاد انجلت منازعاتهم الخاصة عن استيلاء اصغرهم فيليب على العرش (٣) . وكان فيليب الذي تسلم الملك وهو لم يتجاوز بعد العشرين من عمره شاباً مقتدراً

---

(١) أنشأ الاغريق خلال تاريخهم الطويل عدداً من الاحلاف أشهرها (حلف ديلوس حلف البلوبونيز — والاتحاد الكونفدرالي والحلف الايتولي والآخي) انظر :
Oxford Classical Dictionary . S. V. Leagves.

(٢) جميع التواريخ الواردة في هذا البحث سابقة للميلاد مالم ينوه صراحة بغير ذلك

(3) W. Pickard, " The Rise of Macedonia " C. A. H. , VI, p. 203

في الحرب والسياسة ، تتلمـــذ في أثناء اقامته في مدينة طيبة على أيدي مشاهير القادة الطيبيين ، وتعرف في اثناء تجواله بعـــدد من أشهر مثقفي الاغريـــق وفلاسفتهم منهم أفلاطون وايسوقراط وأرسطو. كما تمكن بعد التغلب على جميع منافسيه في المجال الداخلي من إعداد جيش قومي محترف على أسس مبتكرة قوامها نظام الفيلق « Phalanx » الذي أثبت قدراته القتالية ضد أعداء مقدونية شمالاً وشرقاً ، ومن إعـداد أسطـــول ينافس فيه الاسطول الأثيني فيما لو دعت الحاجة (٤)

وكانت أثينا في الواقع من أقوى الاعداء الذين خشي فيليب شرهم ، وذلك نظراً لقوتها البحرية المتميزة وقوة الحزب المناوىء لفيليب داخل المدينة العريقة ، وعلى الرغم من ذلك فقـد استغل فيليب انشغال الاغريق في حربهم المقدسة الثالثة (٥) ، وحالف اسكندر ملك « ابيروس » (٦) وتزوج اخته أولمبياس ، وقام بتأكيد سيطرته على أصقاع بلاد الاغريق الشمالية كافة ، وعندما حاولت أثينا الانتصار لبعـــض حليفاتها التي هاجمها فيليب والتصدي له أوقع بجيشها وجيوش حليفاتهـا في مـــوقعة خايرونيه « Chaeronia » عام ٣٣٨ ق . م ، وهي الموقعة التي شارك فيها الاسكندر الاكبر قائداً لميسرة جيش أبيه . (٧)

وفي عام ٣٣٧ ق.م لبت جميع المدن الاغريقية باستثناء إسبرطة دعوة

(4 Pickard, on cit , pp. 204- 9

(٥) جرت الحروب الثلاثة متقطعة خلال الفترة (٥٩٠ - ٢٤٧) بين بعض أهم دويلات بلاد اليونان وذلك نتيجة للخلاف بين مدينة (دلفي) المقدسة وميناءها (كيرها) حول أحقية الميناء في فرض رسوم على الحج القادم عن طريقه .

(٦) ابيروس مملكة تقع في الشمال الغربي من بلاد الاغريق « البانية حالياً » ، لعبت دوراً سياسياً بارزاً في تاريخ بلاد الاغريق بعد اسكندر سابق الذكر .

(7 Pickard , on cit , pp. 209 - 63

فيليب إلى مؤتمر عام ، كانت من أهم مقرراته إقامة حلـــف هيليني بزعامة مقدونية ، وتكليف الاخيرة بالاعداد لحرب الإمبراطورية الفارسية للرد على الاهانة التي لحقت بالاغريق في الحروب الفارسية « ٤٩٠ – ٤٧٨ » ، وحدد المؤتمر مساهمة كل عضو من أعضاء المؤتمر . وعلى هذا حقق فيليب أول هدف من أهدافه وهو توحيد بلاد الاغريق وإرغامها على تأييده ، ولكن القدر لم يمهله . الهدف الثاني وهو محاربة الفرس إذ اغتيل في عام ٣٣٦ وخلفه ابنه الاسكندر ملكاً على مقدونية وزعيماً للحلف الهيليني وكان لايتجاوز العشرين من عمره (٨)

ثانياً ـ الاسكندر الاكبر :

ورغم السمعة العسكرية الكبيرة التي خلفها فيليب الثاني ، فإنه ما إن قضى حتى استهانت معظم المدن التي خضعت له سابقاً بخبرة ابنه الاسكندر وثارت عليه في محاولة للتخلص من التزاماتها تجاه مقدونية بموجب المعاهدات المبرمة معها . وأثبت الاسكندر للجميع مالم يكن أحد يتوقعه من حزم في معالجة الامور وكفاءة عسكرية هائلة . وبعد جولة عسكرية مثمرة في الشمال والجنوب قضى فيها على ثورات القبائل المتمردة شمال مقدونية وثورة تساليه وثورة طيبة عاد إلى مقدونية لاستكمال استعدادات أبيه لغزو الشرق (٩) .

والواقع أن فكرة قيام ملك غربي ولاول مرة في التاريخ بغزو الشرق على رأس جيش صغير نسبياً كانت خرافية الطابع في أذهان الكثيرين ، ولهذا فإن محاولة إيجاد مسوغ لهذا الغزو تبدو منطقية للحفاظ على التسلسل الموضوعي للبحث . فمن المؤكد أن الاسس القوية التي أقام عليها فيليب صرح مقدونية

---

8) Pickard, on cit , pp- 268 - 9

9) Arrian. , Anabasis, 1 - 2 - 8 , Diodorus,, xvii , 14 , 4 , W . Tarn , Alexander the Great (Cambridge 1951) pp.4 - 6

والاستعدادات التي جهزها قبل اغتياله قد سهلت كثيراً من المصاعب العسكرية أمام الاسكندر ، وكانت عاملاً مادياً هاماً جداً يضاف إلى عامل فوزه برئاسة حلفي تساليه وكورنثة ـ وكانا من اقوى الاحلاف العسكرية في بلاد اليونان ـ ولاشك أن الاسكندر ورث فيما ورث عن أبيه عزمه على محاربـــة الفرس تحقيقاً لدعـــوة معظم فلاسفة وخطباء الاغريق بما فيهم افلاطون وأرسطو وكذلك ايسوقراط ، وكان من أشهر فلاسفة وخطباء الاغريق في القرن الرابع ذلـــك ان هـــذا الفيلسوف اتجـــه إلى فيليب مطالباً اياه تحقيق دعوته التي رددها على مدى نصف قــرن تقريباً ولكنها ذهبت وسط انهماك المدن الاغريقية في صراعاتها التقليدية . وفحوى هذه الدعوى أن خير وسيلة لانقاذ بلاد الاغريق من صراعاتها كانت تكاتف الاغريق للثأر من البرابرة وحكمهم بحق سمو الحضارة الاغريقية على ماعداها . والواقع أنه إذا كان الاسكندر قد تأثر بأفكار إيسوقراط من حيث انه يمكن علاج مشاكل الاغريق بمحاربة الفرس ، فإننا سوف نلاحظ كيف انه اي الاسكندر طرح أفكار أفلاطون وارسطو وايسوقراط بوجوب معاملة الشرقيين معاملة قاسية (١٠)

ولاشك في ان رغبة الاسكندر في الاطلاع وحب المعرفة وهي التي بثها في نفسه استاذه ارسطو ، قد كونت دافعاً هاماً من دوافـــع الحملة بدليل اصطحابه عدداً كبيراً من الادباء والعلماء المتخصصين في مختلف فروع المعرفة وهو الامر الذي لم نعهده في حملات من سبقه من الغزاة (١١) . ولايفوتنا هنا

(١٠) مفيد رائف العابد ، عصر سلوقس الاول ، رسالة جامعية غير مطبوعة « القاهرة ـ ١٩٧٥ » ص ٧

(١١) جورج سارتون ، تاريخ العلم « القاهرة ـ ١٩٥٩ » ج ٣ ، ص ١٨٠ - ١٨١ ؛ ص ٢٥٨ - ٢٦٠

أن نذكر ان موارد الامبراطورية الفارسية من الاموال والرجال كان يقلل من شأنها افتقارها إلى القادة المجربين وما احرزه الاغريق والمقدونيون من تقدم هائل في فنون القتال خلال النصف الاول من القرن الرابع (١٢) . وإذا كان بعض المؤرخين المتعصبين لغربيتهم يهونون من قيمة هـــذه النقائص في محاولة لإضفاء المزيد من صفات العظمة الخارقة على انتصارات الاسكندر السريعة ، فإن أي منطق سليم يجعلنا ننكر على هؤلاء اعتقادهم ، فمن غير المعقول إطلاقاً ان يقوم غاز مهما تبلغ درجة تهوره بتدبير هجوم على دولة تتفوق عليه عدداً وعدة دون الوقوف على مايؤكد له انه يكمن في هذه الدولة مـــن عناصر الضعف مايهيء له فرصاً معقولة للانتصار (١٣) .

ثالثاً - الحمـــلة :

تذكر المصادر القديمة أن الاسكندر تحرك في ربيع عام ٣٣٤ ق.م باتجاه آسية الصغرى على رأس جيش بلغ تعداده ثلاثين الف من المشاة وخمسة آلاف فارس ، وان الملك الفارسي « دارا » لم يقدر الخطر الذي وفد عليه من وراء البحر فكلف عدداً من ولاته في آسية الصغرى بصد هجوم الغزاة ، وعهد الى احد المرتزقة الاغريق ويدعى ممنون « Memnon » بقيادتهم . والتقت في معركة نهر «جرانيكوس » قلة الكفاءة العسكرية والاستهانة في مواجهة احدث التقنيات العسكرية والخبرة المشوبة بالكثير من الحماس ، ولم تفلح المقاومة اليائسة التي ابداها الفرس في تقليل حجم الخسائر التي منوا بها فعادوا شرقاً يلمون

---

(١٢) ابراهيم نصحي ، تاريخ مصر في عصر البطالمة « القاهرة - ١٩٦٦ » ج١ ، ص ١٦

(١٣) لطفي عبد الوهاب يحيي ، دراسات في تاريخ مصر « البطالمة » « الاسكندرية ١٩٦٧ » ص ٦٣

اذيال الخيبة ويمنون النفس بنصر في معركة قادمة يكونون فيها اكثر استعداداً (١٤)

وكان الفرس يعتمدون في حكمهم مدن آسية الصغرى على الطغاة (١٥) والحكومات الاوليجاركية « = حكومات الأقلية » ، وبحكم الصوالح المتبادلة ، فقد قام الاسكندر بتأييد الدمقراطين الذين تمكنوا بسهولة من السيطرة على مقاليد الامور في مدن آسية الصغرى كافة وبذلك ضمن الاسكندر مؤخرته وتابع المسير باتجاه الجنوب . وفي معركة « اسوس » عام ٣٣٣ ق . م بالقرب من انطاكية أثبت الفيلق المقدوني مرة أخرى قدراته القتالية ضد الانماط التقليدية للحرب القديمة وهزم الجيش الفارسي مرة اخرى هزيمة قاسية وتفرقت فلوله في كل حدب وصوب (١٦) .

ودلل الاسكندر مرة أخرى على كفاءته العسكرية بعدم تعريض اسطوله لمجازفة الاشتباك مع الاسطول الفارسي وكان ثلاثة اضعاف أسطوله ، بل قرر الاستيلاء على قواعد هذا الاسطول في آسية الصغرى وسورية ومصر . وبعد استيلائه على أهم موانىء آسية الصغرى سرح اسطوله المرافق وتابع مسيره مساحلاً الساحل السوري الذي فتحت مدنه أبوابها باستثناء صور ، فحاصرها

(14) Arrianus. , Anabasis , I , 13 - 14 , Diodorus . , xvll ; Quintus Curtius . , Alexander . II ; Justin . , xl , xll

(١٥) كان الاغريق يطلقون على كل من يستولي على الحكم بالقوة أو يفرض نفسه حاكماً مطلقاً كلمة (Tyrannos) أو طاغي ، وكان الطغاة يظهرون عادة بتعقد امور الحياة نتيجة انتفاضة اقتصادية معينة وينصبون انفسهم اوصياء على الطبقات المستضعفة ليكسبوا من اعداد افراد هذه الطبقات دعماً . وكان معظم الطغاة حكاماً مستنيرين حققوا الكثير من الانجازات الاجتماعية لصالح الجماهير في حين كان بعضهم (وبخاصة العملاء لدولة أجنبية) دموياً وعنيفاً ارتكب مجازر شنيعة حتى اصبحت كلمة طاغية في المفهوم الحديث تعني الحاكم الذي لايتورع عن القيام بأي عمل لا أخلاقي في سبيل دوام حكمه .

(16) Arrian . , I , 17 - II 11 ; Diodorus . xvll,Curtius. , II - III

الاسكندر سبعة اشهر ثم استسلمت له كما استسلمت فيما بعد غزة التي قاومته مدة شهرين كاملين غير متعظة بمصير صور المفجع (١٧) . وفي خريف عام ٣٣٢ ق . م وصل الإسكندر إلى مصر التي استقبلته أيضاً استقبال المنقذين . وبعد تقديمه فروض الاحترام للآلهة المصرية في العاصمة « ممفيس » اتجه إلى موقع الاسكندرية حيث وضع أساسات أعظم مدينة حملت اسمه ، وبعد زيارة سريعة قام بها إلى معبد آمون في واحة سيوه في صحراء مصر الغربية اتجه الاسكندر شرقاً لملاقاة الجيش الفارسي ثالثة ، بعد ان أعاد تنظيمه وتولى قيادته الملك الاكبر بنفسه (١٨) .

وفي دمشق عين الاسكندر والياً عاماً على سورية الكبرى ، وجعل له معاونين في إدارة المال والجيش ، لكنه قبل أن يبرحها خشي من طموح من يحكم مثل هذه الرقعة الهائلة من الارض ، فجعل من أراضي الجزيرة « الحالية في سورية » ولاية جديدة واستبقى للمدن الفينيقية حكمها ونظامها الذاتي ونظامها الملكي (١٩) .

وفي صيف عام ٣٣١ لحق الاسكندر بقواته الاستطلاعية التي كانت قد عبرت الفرات ثم اتجه صوب قرية صغيرة تدعى جاو جميلا « Gaugamela » عسكر بالقرب منها جيش دارا . ولم يكن صعباً على الاسكندر استغلال المعنويات المرتفعة التي تمتع بها جنده بعد نصرين سابقين ، ولا الإمكانات العسكرية الممتازة لفيالقه فاحرز بالتالي نصراً كبيراً بعد معركة ضارية فر على أثرها دارا وزحف الاسكندر إلى مدينة بابل « مستودع التجارة الهندية »

(17) Arrian., II, 13 - 26

(١٨) نصحي ، المرجع السابق ، ص ص ١٨ - ٣٦

(19) Curtius., IV, I, 19; Justin.., xi, 10; F. Eiselen, Sidon, A Study in Oriental history (N. Y. 1907) P. 70 ff.

فاستسلم قائدها كما استسلمت بعد ذلك مدينتا برسبوليس واكباتانا والعواصم الفارسية الاخرى كافة ويبدو أن قواد دارا يئسوا من قتال الاسكندر فتآمروا على ملكهم وقتلوه في خريف العام نفسه (٢٠) وبذلك طويت آخـــر صفحة من صفحات الإمبراطورية الفارسية « القديمة » وبدأ حكم جديد في الشرقين الادنى والاوسط تحت رعاية ممثلين جدد يحملون رايات حضارية جديدة .

وبعد جـــولة عسكرية تلامس أحداثها أحداث المغامرات الشائقة في مناطق الهضبة الإيرانية ومناطق شمال الهند وبخاصة منطقة البنجاب استغرقت الفترة مابين ٣٣٠ ــ ٣٢٤ تمكن الاسكندر من فرض سيطرته على الاقاليم التي لم تخضع له سلماً ، كما عقد معاهدات مثمرة مع بعضها الاخر وبخاصة معاهدته مع بوروس « Poros » حاكم البنجاب ، عـاد الاسكندر إلى الشرق وسط تهليل جنده الذين لم يجدوا مسوغاً لحملتهم الهندية بعد تحطيمهم الامبراطورية الفارسية وكانت غايتهم الرئيسية (٢١) . وفي مدينة « سوسا » أقام الاسكندر وليمة كبرى احتفالاً بإتمام غزو الإمبراطورية الفارسية ، وفي الحفل نفسه عقد قرانه وقران عدد من ضباطه على نبيلات فارسيات ، كما عقد قران عدد كبير من جنوده على فارسيات . وكان هـــذا الاجراء أكبر خطوة من الخطوات التي خطاها الاسكندر في سبيل تقوية أواصر الرباط بين الشرق والغرب عـــن طريق المصاهرة التي لم يكتب لها النجاح بوجه عام ، نظراً لعدم إيمان معظم إن لم نقل كل الذين تزوجوا ــ باستثناء سلوقس ــ بجدوى مثل هذه الفكرة (٢٢).

وفي ربيع عام ٣٢٣ وصل الاسكندر إلى مدينة بابل وأنقذ هراكليدس

Arrian. , III ; 7 , 21 ; Diodorvs, , xvii , 56 (20

Tarn , Alexander , pp. 99 ff (21

Arrian. ; Vii ; 4 ; 2 - 7 ; G. H. Macurdy , Hellenistic Queens (Oxforq (22 1932) pp. 77 ; E. Bevan . The houseof Seleucus (Chicago 1902) lVol I , p , 31

« Heraklides » لمحاولة التأكد أية النظريتين أصح : نظرية أرسطو القائلة بأن بحر قزوين لم يكن إلا بحيرة كبيرة ، أم النظرية القديمة القائلة بأن هذا البحر ليس إلا خليجاً في محيط كبير (٢٣) . وحين كان معنياً بوضع مخططاته الحربية لغزو بلاد العرب (٢٤) دهمه مرض أقعده عن الحركة وأدى إلى وفاته في تموز من العام نفسه وكان وقتها يناهز الثالثة والثلاثين من العمر .

رابعاً ـ الصراع بين القادة :

وعقب وفاة الاسكندر عقد قادته في بابل مؤتمراً لبحث مشكلة وراثة العرش والنظم الواجب اتباعها في حكم الامبراطورية ، وقدتفتحت امام كل منهم الآمال والمطامح بموجب الموقف الجديد والمفاجيء .وبعد بحث مشكلة ولاية العرش بحثاً مستفيضاً تم الاتفاق على ان يرتقي المعتوه فيليب « ارهيدايوس » أخ الاسكندر غير الشقيق والطفل اسكندر بن الاسكندر العرش مشاركة تحت وصاية أحد الضباط ويدعى كراتروس « Krateaos » كما قرر المؤتمرون تعيين القائد برديكاس في منصب القائد العام للجيش ، وتوزيع ولايات الامبراطورية على القواد الكبار لحكمها باسم العرش المقدوني (٢٥) . وعندما انصرف كراتروس الوصي من بابل إلى مقدونية اغتصب برديكاس القائد العام للجيش الوصاية لنفسه وأخذ يصدر الاوامر إلى حكام الولايات باسم العرش ويطلب إليهم الامتثال إلى هذه الاوامر . ولما كان معظم هؤلاء الحكام ينتمون الى اعرق الاسر المقدونية النبيلة ويعتزون أشد الاعتزاز بأصلهم العريق وانتصاراتهم الباهرة وكان بعضهم يعتبر نفسه جديراً بأن يخلف

---

(23) Tarn , op cit , p. 118

(24) Diadorus. , xviii , 3 - - 48

(٢٥) مفيد رائف العابد ، المرجع السابق ، ص ٣٥

الاسكندر بل إن اقلهم اعتزازاً بنفسه كان لا يمكن أن يسمح بأن يعامل غير معاملة الند للند . ولما كان لكل من هؤلاء الحكام أطماع شخصية فإنه لم يكن هناك مفر من أن يؤدي تضارب الاطماع إلى صراع عنيف . ولم ينقض وقت طويل حتى خرج كثير من حكام الولايات على طاعة برديكاس (٢٦) وبدأت سلسلة من المحالفات والمعارك استغرقت الفترة مـــا بين ٣٢٣ – ٣٠٢ برز فيها قادة من الصف الثاني على مسرح الاحداث التي انجلت عن سيطرة ثلاثة قواد من قواد الاسكندر على امبراطوريته فحكم بطلميوس مصر وليبية وبعض جزر آسية الصغرى ، في حين حكم دمتريوس بن أنيتجونوس – وكان الاخير من اقوى القواد نفوذاً في فترة الصراع الرهيب بين القادة – بـــلاد اليونان ومقدونية . وآلت منطقة آسية الغربية بكاملها من البنجاب حتى البحر المتوسط ومـــن البحر الاسود حتى الصحراء العربية إلى سلوقس الاول .

خامساً ـ سلوقس الاول مؤسس الامبراطورية السلوقية :

هو واحد من الشباب المقدوني الذين صاحبوا الاسكندر في حملته الشرقية ، ولكنه لم يلعب دوراً في أثناء الحملة يضاهي الادوار التي لعبها بقية القادة الذين شاركوا في الصراع السابق . ولد سلوقس في مدينة يوروبوس « Europos » في مقدونية بين عامي ٣٥٨ – ٣٥٤ ، وهو ابن لانطيوخس ولاوديكي . قاد اثناء حملة الاسكندر بعض الفرق الصغيرة التي اثبت في قيادتها كفاءة عسكرية دعت القادة المجتمعين في بابل بعد موت الاسكندر إلى أن يسندوا إليه قيادة فرقة « الفرسان الرفقاء » وكانت تضم نبلاء مقدونية ، وتعد قيادتها شرفاً عظيماً وتكسب شاغلها مكانة سامية لاتفوقها إلا مكانة القائد العام للجيش . ولاشك

(٢٦) نصحي ، المرجع السابق ، ص ص ٤٦ – ٥٨

في أن رجلاً مثل سلوقس عريق الاصل ومحارباً شجاعاً كان واسع الأطماع ويعد نفسه جديراً بأن تسند إليه واحدة من الولايات الهامة في الامبراطورية . ويبدو أن قناعته بعدمؤتمر بابل بتولي قيادة فرقة الفرسان الرفقاء لم ترض هذا الطموح فبدأ يعمل حثيثاً حتى اعترف له القادة في مؤتمر تريباراديسوس « Triparadisos » عام ٣٢٠ (٢٧) . بولاية بابل وكانت من أهم ولايات الامبراطورية ، واستمر في حكم هذهالولاية حتى عام ٣١٦ حيث أجبرته ظروف الصراع على الهروب منها إلى صديقه بطلميوس والي مصر ، وبدأ من هناك العمل علىاسترداد ولايته السليبة حيث تمكن في عام ٣٢١ من استعادتها بتأييد من أهاليها وبمساعدة عسكرية متواضعة قدمها له بطلميوس . ومنذ ذلك التاريخ وحتى عام ٣٠٢ صرف سلوقس جهوده لاعداد قواه لمواجهة الصراع المتوقع بين القادة لامتلاك سورية ، وبعد احتلاله معظم مقاطعات الهضبة الايرانية عقد معاهدة مع الملك الهندي تشاندراجوبتا « Chandragaputa » حصل بموجبها على فوائد اقتصادية جمة وعلى عدد من الافيال الحربية ، وفي معركة ابسوس « Ipsos »عام ٣٠٢ حقق سلوقس نصراً على أقوى هؤلاء القادة وهو انيتجونوس وآلت إليه سورية بكاملها . وكان سلوقس قد عقد اتفاقاً مسبقاً مع بطلميوس على ان يحصل الاخير على سورية الجنوبية لقاء مشاركته سلوقس في معركته ضد انيتجونوس ، ولما لم يشترك بطلميوس في معركة أبسوس فقد اعتبر سلوقس اتفاقه السابق معه وكأنه لم يكن وانكر عليه زعمه في الحصول على أية مكاسب إقليمية . ولكن بطلميوس تجرأ رغم خيانته صديقه في أحلك ساعات الحاجة إلى مساعدته واحتل منطقة جوف سورية (٢٨) تمشياً

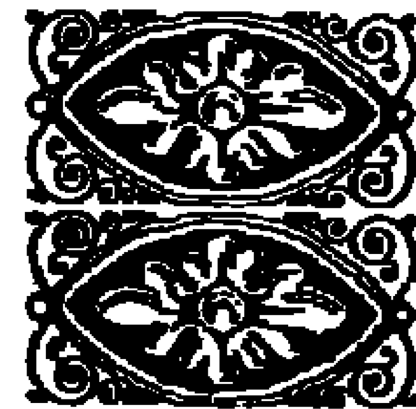
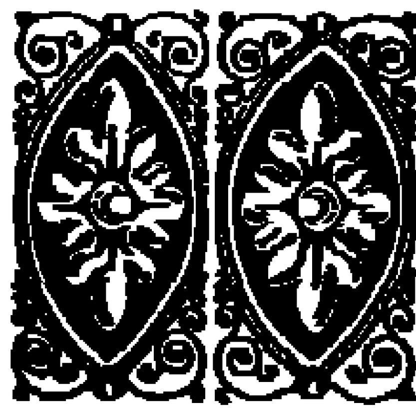
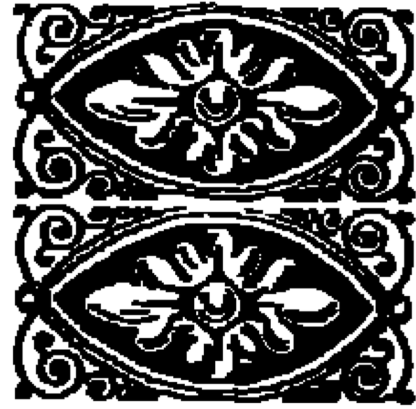
---

(٢٧) وهو مؤتمر عقد في فاتحة الصراع بين القادة في احد مواقع جنوب لبنان .

(٢٨) (Coele Syria) وتشمل سورية الجنوبية والساحلية حتى نهر الكبير الشمالي جنوبي اللاذقية .

مع اتفاقه السابق الذكر . بيد أنه رغم استياء سلوقس من تصرف بطلميوس واتجاهه على رأس جيشه جنوباً للرد على عمله ، فإنه وقد كان يدين لبطلميوس بماقدمه من مساعدة مكنته من استرداد بابل على نحو ما أسلفنا رفض الاشتباك معه مكتفياً بالتصريح بأنه « من اجل الصداقة فقط سيؤجل البت في هذه القضية وسيأخذ بعين الاعتبار فيما بعد كيف يعامل صديقاً اقتنص أكثر من حقه (٢٩) . وسنرى فيما بعد كيف سيؤدي تعليق البحث في هذه المشكلة إلى نتائج وخيمة على البيتين المالكين في سورية ومصر . ورغم النجاح الذي حققه سلوقس في السنوات التالية في مجال السيطرة على منطقة آسية الصغرى وإقليم تراقية « شرق البلقان » فإنه لم يتمكن من العودة مـــرة أخرى إلى مقدونية وضمها إلى امبراطوريته إذ اغتيل في عام ٢٨٠ عن عمر يناهز الخامسة والسبعين بعد ان خلف امبراطورية امتدت من الهند الى البلقان ومن البحر الاسود حتى العقبة جنوباً وحكمها مـــن ذريته سبعة وعشرون ملكاً قسم المؤرخون فترة حكمهم الى عصرين : التوسع والقوة ثم التفكك والانهيار وهذا ماسنتناوله في القسم الثاني من هذا البحث بإذن الله .

دكتور مفيد العابد
جامعة دمشق

(٢٩) مفيدرائف العابد ، المرجع نفسه ، ص ص ٣٩ - ٨٢

اسم استانبول أقديم أم جديد

الأستاذ عدنان قيطاز

القسطنطينية مدينة تربط بين حضارتين ، وجسر يصل بين قارتين ، تربط بين حضارة الشرق والغرب ، وتصل بين آسية وأوربة . وقد بنيت في موقع بيزنطوم (١) القديم على سبعة تلال تطل على القرن الذهبي ذراع البوسفور عام ٣٢٤ م ، تماماً كما بنيت مدينة روما على سبعة تلال وأطلق عليها أول الامر اسم « روما الجديدة » . وهذه التسمية أقدم تسمية عرفت بها مدينة القسطنطينية ، غير أن هذه التسمية لم تدم أكثر من اثنتي عشرة سنة ، أي حتى سنة ٣٣٦ م (٢) .

ويرى المؤرخ « مير » في كتابة « التاريخ العام » أن اسم بيزنطة تحول إكراماً لبانيها إلى اسم القسطنطينية نسبة الى الامبراطور قسطنطين ، وهو أول من تنصر من أباطرة الرومان . وقد دفعه لبنائها اسباب متعددة :

أ ـ دينية : وتتلخص في اعتناقه دين النصرانية ونبذه آلهة روما الوثنية ،

ب ـ حربية : لان أشد أعداء الامبراطورية خطراً كانوا في الشرق ، وهم الفرس .

جـ ـ اجتماعية وسياسية : وتتعلق بالفتوح الرومانية في الشرق ، والتي

---

١ ـ نسبة الى مؤسسها الأسطوري بيزانس، (الموسوعة الفرنسية) .

٢ ـ انظر الموسوعة الفرنسية ـ مادة استانبول

نقلت غنى الامبراطورية وآدابها إليه (١) .

وقد طغى على القسم الشرقي من الامبراطورية الطابع اليوناني ، والذي أصبح يعرف فيما بعد باسم الإمبراطورية البيزنطية ، وهي التي وردت في المصادر العربية باسم « دولة الروم » وكانت القسطنطينية عاصمة لها ، وقد وأخفقت في العصور الإسلامية كل محاولات العرب المتكررة لفتحها وبسط سيادتهم عليها أيام الامويين والعباسيين ، وبقيت القسطنطينية مدينة شامخة طوال احد عشر قرناًمن الزمن كعاصمة للإمبراطوريةالبيزنطية وكمركز ديني للطوائف المسيحية وكانت اكبر مدينة أروبية في العصور الوسطى حتى تضاءل شأنها إثر هجمات الاتراك العثمانيين مما أدى الى هجرة الاغريق عنها ونزوحهم إلى ايطالية ، وبخاصة علماؤهم . . فكانت هجرتهم عاملاً من عوامل النهضة الاوربية . وما كاد عام ١٤٥٣ الميلادي يسطع حتى سقطت المدينة بيد السلطان العثماني محمد الثاني الذي اصبح يعرف في التاريخ باسم محمد الفاتح تخليداً لهذا الفتح المبين . وكان سقوطها إيذاناً بانتهاء العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة ، على رأي بعض المؤرخين ، وآخر أباطرتها قسطنطين الحادي عشر (١٤٤٨ – ١٤٥٣) م الذي سقط صريعاً على ارض المعركة دفاعاً عن القسطنطينية .

لكن المدينة سرعان ما ازدهرت في ظل سلاطين بني عثمان ، واصبحت مركزاً سياسياً وتجارياً عظيماً في أوربة ، كما ازدهرت عمرانياً ، فهي تزخر بالعمائر الإسلامية من مساجد ومدارس وأضرحة أهمها المسجد السليماني وهو اجمل وافخم مساجدها ، ومسجد السلطان سليم . . ويعد منبره ومحرابه آيتين في فن النحت الاسلامي ، ومسجد السلطان أحمد وهو اعجوبة في فن العمارة العثمانية . . كما يتفرد بين مساجدتركية بمآذنه الست ، ويعرف بالمسجد

---

١ – التاريخ العام – مير ص ١٨٣

الازرق لان جدرانه مغطاة بالقاشاني الأزرق والاخضر (١) .. بالاضافة الى مسجد أبي أيوب الانصاري الذي جرت العادة فيه ان كل من يتولى السلطنة من آل عثمان يتقلد سيف عثمان خان الغازي الاول بهذا المسجد تيمناً وبركة ، وهذا الاحتفال يعد بمثابة التتويج عند ملوك الافرنج (٢) . ولم تزل هـــذه العادة متبعة حتى انقضاء عهد السلطنة وقيام الجمهورية وانتقال العاصمة إلى أنقرة ايام مصطفى كمال أتاتورك عام ١٩٢٣ .

ولفظة « القسطنطينية » تعرف حينا وتنكر حيناً آخر ، فقد ذكرها الطبري في تاريخه بـدون « أل » التعريف ، وذكرها المسعودي في « التنبيه والاشراف » معرفـــة . بينما نجدياقوتاً الحموي في معجم البلدان يعرفها تارة وينكرها أخرى . ووردت عنـــد أبي الفداء في « تقويم البلدان » معرفة . و « أل » التعريف هنا زائدة غير لازمة كزيادتها في بعض اسماء الاعلام كقولنا : النعمان والرشيد . . ولذا يجوز فيها الحذف والاثبات .

وهناك اعتقاد سائدلدى طائفة من الباحثين العرب ان اسم « استانبول » هو الاسم الجديد لمدينة القسطنطينية ، ولم تعرف به إلابعـــد الفتح العثماني عام ١٤٥٣ م حتى أن الموسوعة الفرنسية تذكر بأن القسطنطينية هي الاسم القديم لمدينة استانبول .

كما يرى بعضهم أن السلطان محمد الثاني بعد انهيار الإمبراطورية البيزنطية وسقوط القسطنطينية على يديه قد عمد إلى تغيير ملامح المدينة القديمة وإضفاء الطابع الإسلامي حتى على اسمها فأطلق عليها « اسلام بول » أي مدينة الاسلام ، ومع الزمن تحورت التسمية وانقلبت إلى استانبول اواسطنبول .

غير أن هذا الاعتقاد لايقوم على حقيقة ، ولم يثبت أمام الادلة التاريخية

---

١ ـ الموسوعة العربية الميسرة ـ مادة استانبول

٢ ـ انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٥٩

التي عثرت عليها في بعض المصادر العربية القديمة والاجنبية الحديثة :

١ ـ يذكر المسعودي (٣٤٦) هـ في تاريخه « التنبيه والاشراف » : ان الروم يسمونها إلى وقتنا هـــذا المؤرخ به كتابنا (بولن) واذا أرادوا العبارة عنهـا أنها دار الملك لعظمها قالوا (استن بولن) ولايدعونها القسطنطينية ، وإنما العرب تعبر عنها بذلك .. » (١)

٢ ـ ويذكر ياقوت الحموي « ٦٢٦ » هـ في كتابـــه « معجم البلدان » مانصه : « اصطنبول بسكون النون وضم البـاء الموحدة وسكون الواو هو اسم لمدينة القسطنطينية » (٢)

ويشير ياقوت في مكان آخر بأن قسطنطين الاكبر انتقل الى بيزنطة وبنى عليها سوراً وسماهـا قسطنطينية ، وهي دار ملكهم الى اليوم ، واسمها اصطنبول . (٣)

٣ ـ كما يذكر أبوالفداء صاحب حماه « ٧٣٢ » هـ في كتابه « تقويم البلدان » بأن القسطنطينية هي اسطنبول · (٤)

وقد أخذت بعض المصادر الحديثـة بهذه المقولة ، إذ جـــاء في الموسوعة البريطانية ان القسطنطينية أطلق عليا اسم « استانبول » قبل عام ١٤٥٣ م أي قبل الفتح العثماني للمدينة (٥) خلافاً لما ورد في الموسوعة الفرنسية التي تقول بأن القسطنطينية هي الاسم القديم لمدينة استانبول كما مر آنفاً (٦) .

---

١ ـ انظر التنبية والاشراف ص ١٢٠

٢ ـ انظر معجم البلدان ج ١ ــ ٢٧٧

٣ ـ المرجع السابق ج ٧ - ٩٤

٤ ـ تقويم البلدان ص ٣٢

٥ ـ المجلد الثاني عشر ــ مادة استانبول

٦ ـ المجلد السادس ـ مادة استانبول

ويستفاد من عبارة المسعودي أن كلمة « استانبول » مركبة من لفظتين :

ـ « استن أو استان » وهي فارسية دخيلة على اليونانية وتعني « موضعاً أو مكاناً أو بلاداً » . وقد ورد في تاريخ الطبري أكثر من مكان باسم « استان » فهناك « استان العال » قرب المدائن (١) « و استانبهرسير » إلى جانب دجلة (٢) .

ـ « بولن » وهي من أصل يوناني وتعني « مدينة » .

وبذلك يكون معنى كلمة « استانبول » مدينة البلاد ، وفي هذه التسمية إعظام للمدينة ، ومثل هذه التسميات أمر مألوف ، فنحن نقول مثلاً عن مكة المكرمة أم القرى ، في القرآن الكريم قوله تعالى « لتنذر أم القرى ومن حولها » (٣) أو نقول عن لندن عاصمة المملكة المتحدة عاصمة العواصم .

وفي الموسوعة البريطانية خلاف ذلك ، فهي تقول بأن كلمة استانبول تحريف للكلمة العامية اليونانية « استنبولي Stinboli » وتتألف من ثلاث مقاطع « Eis - Tin - Polin » ولاتعني أكثر من « في المدينة in the City » كأن نقول لأحدهم إذا حضر من غياب أو سفر : أين كنت ؟ فيجيب في المدينة .. مشيراً بذلك إلى مكان معلوم ولايحتاج إلى تسمية لشهرته .

وقد نقل العرب عن اليونان اسم « استانبول » ووردت في آثارهم كما ذكرت سابقاً . وهذا يعلل قول المسعودي " . . وإنما العرب تعبر عنها بذلك .

وسواء أصدقت عبارة المؤرخ والجغرافي العربي المسعودي ام عبارة الموسوعة البريطانية فإن اسم « استانبول » مرافق لاسم القسطنطينية منذ القديم

---

١ ـ تاريخ الرسل والملوك ج ٦ ـ ١٢٢

٢ ـ المرجع السابق ج ٥ ـ ٢٠٤

٣ ـ سورة الشورى الآية ٧

وليس اسماً جديداً شاع بعد الفتح العثماني . والخطأ التاريخي أولى بالتصويب .

نعم .. هناك حقيقة تاريخية لابد من ذكرها ، وهي أن السلطان العثماني محمداً الثاني فاتح القسطنطينية أطلق على المدينة اسم « اسلام بول » أي مدينة الإسلام حسب ماذكر محمد فريد بك في تاريخــــه (١). ومن كلمة «استانبول » أخذ العثمانيون كلمة «الآستانة » ، كما أطلق عليها في العصر الحميدي اسم «فروق» ودار السلام وقبلاً كانوا يسمونهادار السلطنة ودار الخلافة .

قال أمير الشعراء أحمد شوقي وهو في طريقه الىالآستانة قادماً من أوربة :

تاهت (فروق) على العواصم وازدهت

بجـــلوس أصيد باذخ المقـــدار

أخذت على (البوسفور) زخرفها دجى

وتلألأت كمنازل الأقمــــار (٢)

وقال الشاعر اللبناني الدكتور نقولا فياض في حريقالآستانه عام ١٩٠٨ وفي قوله إشارة إلى أن استانبول هي « إسلام بول » مدينه الإسلام ودار السلام:

أحريق (إسلام بول) هجت لواعجاً

وجعلت أيام السرور قصـــارا

دار السلام سلمـــت للعليا ولا

أخلى الزمان من الرضى لك دارا (٣)

١ ـــ تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٦١

٢ ـــ الشوقيات ج ٢ ص ٣٩

٣ ـــ ديوان رفيف الاقحوان ص ٢١

وسوف تبقى استانبول مدينة مجيدة ومركزاً عالمياً ، وسوف يظل صوت الشاعر الفرنسي جيلياس « Gyllias » في أنشودته القادمة إلينا عبر القرون :

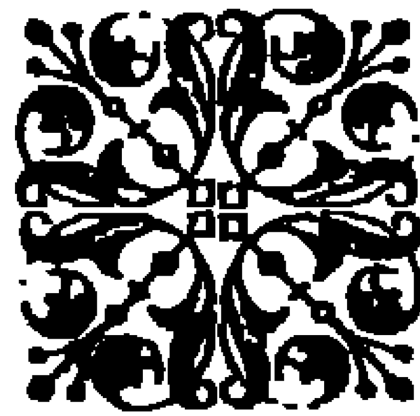
« بعض المدن يمكن أن تموت ، أما استانبول فستبقى مابقي على الارض بشر » .

عدنان قيطاز ـ حماة



★ مصادر البحث ★

- تاريخ الرسل والملوك للطبري : تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم - الطبعة الثانية دار المعارف بمصر - ١٩٦٧
- تاريخ التنبيه والاشراف للمسعودي : طبعة دار التراث بيروت - ١٩٦٨
- معجم البلدان لياقوت الحموي : الطبعةالأولى - مطبعةالسعادة بمصر ١٩٠٦
- تقويم البلدان لأبي الفداء : طبعة مصورة عن الطبعة الباريسية - ١٨٤٠
- تاريخ الدولة العلية العثمانية لمحمد فريد بك : الطبعةالثانية - مصر - ١٨٩٦
- السلطان محمد الفاتح للدكتور محمد مصطفى صفوت : دار الفكر العربي مصر - ١٩٤٨
- التاريخ العام للمؤرخ الامريكي فيليب فانس ميرـ ترجمة المرسلين الامريكيين في بيروت - الطبعة الاولى - المطبعة الامريكية - ١٩١٢
- الموسوعة البريطانية - المجلد الثاني عشر - ١٩٧١ مادة استانبول Istanbul
- الموسوعة الفرنسية - المجلد السادس - ١٩٧٤ مادة استانبول Istanbul
- الموسوعة العربية الميسرة - الطبعة المصورة - دار الشعب -مصر ١٩٦٥
- ديوان الشوقيات - الجزء الثاني - طبعة مصرية - ١٩٥٨
- ديوان رفيف الاقحوان للدكتور نقولا فياض - المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٥٠
- مجلة العربي الكويتية : العدد ٢٣٢ آذار ١٩٧٨



مع رواد اليقظة القومية العربية

الشهيد
عبد الحميد الزهراوي

الدكتورة

سهيلة زكية الريماوي

يعد الشهيد عبد الحميد الزهراوي (١) ، من اوائل الذين عرفهم الوطن العربي في عصر اليقظة القومية .

فقد شهد النور في مرحلة « التفتح » الفكري العربي ، بل والنهضة في مجالاتها المختلفة ، في القرن التاسع عشر .

كما عاش وساهم في ازدهار مرحلة « التكون » الثوري القومي العربي التي بدأت مع مطلع القرن العشرين ، وقدم روحه الطاهرة لتثبيتها ونموها .

فعصره اذاً هو العصر الذي شهد تفاعل الحركتين التاريخيتين الضخمتين :

الاولى . حركة اليقظة العربية من مواجهة التسلط والاستبداد والتخلف التي كان

---

(١) عبد الحميد الزهراوي ، ولد بحمص عام ١٢٧٢ هـ ١٨٥٥ م ودرس على علمائها ، وقاوم السياسة الحميدية قبل الدستور العثماني ، وسافر الآستانة فنفته السلطة إلى دمشق ثم عاد الى حمص وفر منها الى مصر ، وعاد بعد اعلان الدستور ١٣٢٧ هـ - ١٩٠٨ م الى سورية وانتخب مبعوثاً عن « حماة » فذهب الى الآستانة واشترك في تأسيس احزاب مناوئة للاتحاديين . أعدمه جمال باشا السفاح في قافلة الشهداء الثانية في دمشق عام ١٣٣٤ هـ - ١٩١٦ م وله مصنفات منها رسالة في الفقه والتصوف وكتاب عن خديجة وقد طبع له المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ماوجد من مقالاته بعنوان « الارث الفكري للمصلح الاجتماعي عبد الحميد الزهراوي عام ١٩٦٣ .

« هيئة التحرير »

الحكم العثماني قد فرضها على ربوع هذه الامبراطورية .

والثانية : حركة نشوء و نمو الرأسمالية الاوربية وتطورهـــا السريع الى حركة استعمارية ، تبحث لاهثة عن المواد الخام والاسواق لتستغل — بمنهجية العصر الفيكتوري — الثروات الطبيعية والبشرية اسوأ استغلال .

لذلك فانه امر طبيعي ، أن نجد نشاط هؤلاء الرواد الفكري أو السياسي والصحفي . . تجسيماً لتفاعل الحركتين التاريخيتين الرئيسيتين .

وغير غريب أن نجد انعكاس هذا التفاعل في انتاج هؤلاء الرواد الثوار منهم والمصلحين ، فنراه في ادبياتهم ، وفكرهم السياسي ، بـــل وفي الصيغ والشعارات التي رفعت ، سواء أكانت اصلاحية ام ثورية ، تدعو للانفصال عـــن جسم الدولة أوتطالب بحقـن هـــذا الجسم بمعاني التقدم ليصبح قادراً على مواكبة حركة التطور . .

لذلك فان تحرك هؤلاء الرواد ، كان يتسم بسمة التحرك التاريخي دون شك ، ويتجه بشكل مباشر « للتراث » بحثاً عـن اسس الثورة أوالاصلاح وقيمها ، فيحاول ان يجد في هذا التراث ، مضامين الحياةالسليمة ودوافع التمرد والثورة على ماهو قائم من الجمود الحياتي والحضاري ، وما كانيتجسم من تسلط وتأخر واستبداد من جهة ، وان يصمد لمقاومة الاستعمار الغازي الذي بـــدأ يتسلل تسللاً خبيثاً الى بعض اجزاء الوطن العربي .

ويتجه الباحث عن « الرواد » من مفكرين وصحفيين ومصلحين وقادة سياسيين إلى المصادر التي تزود البحث والباحث بالحقائق الموثوقة عن كل منهم ، وهذه المصادر نوعان :

اولاً : السيرةالسياسية وماتنطوي عليه من فعاليات ونشاطات ومسالك ،

ذات على دلالة الفكر السياسي سواء في الاهداف أو في الأسلوب عند هذا المفكر.

ثانياً : آثاره الكتابية التي يتحدث فيها عن افكاره السياسية بصور مباشرة أو ضمنية ، سواء أكانت هذه الآثار في صورة مؤلفات أو مقالات أو رسائل.

ونجد من تتبع سيرة عبد الحميد الزهراوي انه اختار الصحافة ميداناً لافكاره ، وتقلد مراكز ذات مسؤوليات سياسية - كعضو في « مجلس المبعوثان » العثماني - فاتخذ من ساحة المجلس ميداناً لنشر افكاره السياسية ، كما ادرك قيمة « التنظيم » فكان عضواً في عدد من المنظمات التي التزم بميثاقها وافكارها بل كان من الاعضاء المؤسسين لهذه المنظمات في كثير من الاحيان ، ولذلك يتطلب منا البحث ، ان نلقي نظرة على هذه الساحات ، ونتابع - بقدر الامكان - فعاليات ونشاط الزهراوي من خلالها.

عبد الحميد الزهراوي والصحافة السياسية :

لقد ثار الزهراوي على الاوضاع التي كانت تتجسم في الدولة العثمانية ، واختار الصحافة ميداناً للدعوة إلى افكاره والتعبير عنها ، فكان من رواد الصحفيين السياسيين المناضلين العرب.

وكانت جريدة « المنير » التي أنشأها في مدينة حمص ، من اوائل الصحف العربية السرية التي تحدت السلطان عبد الحميد وسياسته الاستبدادية ، إذا كانت ابحاثها تتناول موضوعات متعلقة بشخص السلطان نفسه وتعالج القضايا التي تدور حولها محاور العصر ، كقضية الامامة والخلافة والاستبداد . . . وغيره.

وكانت الصحافة في سوريا خاضعة « للمكتوبجي » - مراقب المطبوعات بلغة عصرنا - ولذلك لم يطل الامر بهذه الجريدة الثورية ، فقد شددت السلطة الحصار عليها ، ووضعت المراقبين لمصادرتها ، وعاقبت بشدة كل من وجدت

لديه نسخة منها ، فاضطر الزهراوي إلى التوقف عن اصدارها ، وفضل الهجرة إلى مصر سنة ١٩٠٠ تعبيراً عن تحديه لهذا الموقف الغاشم وطلباً لموقع يتمكن من خلاله ان يعبر عن فكره السياسي ، الذي يتركز اساساً في دعوته للاصلاح والتقدم ، ومقاومة الاستبداد سبيلاً لتحقيقها .

وقد ساهم الزهراوي بتحرير جريدة « المؤيد » في القاهرة ، ثم تولى تحرير جريد « الجريدة » وظهرت مقالاته الى جنب عدد كبير من مقالات الصحفيين العرب الاحرار من السوريين والمصريين ، وحذا حذو الذين سبقوه الى الكنانة امثال عبد الرحمن الكواكبي ورشيد رضا وغيرهما . .

ومن أهم المقالات التي كتبها الزهراوي ، مقالة بعنوان « الى اليقظة ياقومي » نشرتها جريدة المفيد البيروتية بتاريخ ١٨/١/١٩١٢ كان الزهراوي ينبه فيها الى خطر الغزو الاوربي الذي تسلل إلى المغرب العربي ، وعلا صوته منادياً . « لكم ايها الاخوة العرب » انتم في هذه المملكة جزء عظيم فانظروا ماشأنكم فيها أمس ومـا خطبكم فيها اليوم وامركم فيها غداً . . ويشير الزهراوي الى الواقع المؤلم في الوطن العربي بقوله : (أمس لم يكن في مصر وتونس يد اجنبية وهما من امهات بلادكم ، واليوم فيهما تلك اليد ، أمس كانت طرابلس الغرب آمنة مطمئنة واليوم يفعل فيها الاجنبي ماقد سمعتم ، أمس قد كانت سواحل نجـد والعراق خالية واليوم هي شجية به ، وقولوا لي : هل سوريا اليوم هنيئة البال فارغة الفكر من المخاوف ؟ ؟ .)

واضح بغير عناء ان الرواد العرب كانوا يؤمنون بوحدة الاقطار العربية ، وانها تمثل بمجموعها وطناً عربياً واحداً ، بالرغم من كونها تقع في اطـار الامبراطورية العثمانية ، وهـذا ماتؤكده دساتير الاحزاب والتنظيمات التي قام

على تأسيسها وصياغة دساتيرها هؤلاء الرواد ، وفي مقدمتهم عبـــد الحميد الزهراوي ، الذي شرح في جريدة الحضارة التي كان يصدرها في الآستانة مبادىء حزب الحرية والائتلاف . فقد وجدناها في وثيقتين منشورتين في العددين (٨٦) و(٨٧) المؤرخين ٣٠ تشرين الثاني و٧ كانون الاول ١٩١١ . وهما من أهم الوثائق الصحفية التي عثرنا عليها (١) وهما تقدمان لنا فكرة عن جرأة الزهراوي الصحفية وايمانه العميق بمبدأي الحرية والمساواة بالاضافة إلى الاسلوب الصحفي الذي كان يتميز به رائدنا ، وسأقدم شرحاً وافيا عنهما في الصفحات التالية .

عبد الحميد الزهراوي والتنظيمات الحزبية :

ساهم الزهراوي في التنظيمات الحزبية التي تأسست إثر الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ ، ومناداة الاتحاديين – بعد تسلمهم الحكم – بعودة الحياة البرلمانية إلى البلاد ، وفي الوقت نفسه بامتصاص جميع الاحزاب التي وجدوها امامهم او حلها مثل حزب الشورى العثماني ، وحزب التثبت الشخصي واللامركزية الادارية الذي كان ينادي باللامركزية ، وجمعية النهضة العربية ، التي يدل اسمها على عروبتها وقوميتها .

وكان اول هذه الاحزاب حزب الإخاء العربي العثماني الذي تأسس في (٥ آب اغسطس سنة ١٩٠٨) وقام على تأسيسه عدد من العرب في مقدمتهم عبد الحميد الزهراوي وصادق المؤيد وشفيق المؤيد من سوريا ، وشاكر الالوسي وعبد الله الحيدري من العراق ، والشريف جعفر باشا من اشراف الحجاز ، وشكري الحسيني من القدس ، ونجيب الاسعد من لبنان ويوسف شتوان من

(١) الوثيقتان المذكورتان منشورتان في كتاب « الارث الفكري للمصلح الاجتماعي عبد الحميد الزهراوي» ص ٤٨٠ - ٤٨٢ والاولى بعنوان « حزب الحرية والائتلاف » والثانية بعنوان « الحزب الجديد الحرية والائتلاف » وقد نشرتا في الحضارة من غير توقيع ، ويرجح أنها للزهراوي . « هيئة التحرير »

طرابلس الغرب . . وغيرهم .

ولابأس من سرد ماقصه علي السيد احسان الجابري لوضع القارىء في الصورة وفي الظروف التي تأسس فيها هذا الحزب قال :

بعد يومين من اعلان الدستور سنة ١٩٠٨ اجتمع عدد كبير من العرب الموجودين في الآستانة وقرروا أن يوجهوا دعوة يطالبون فيها اخوانهم العرب بعقد اجتماع في تياترو (١) « الفاريتي » وكان نص البرقية التي نشروها ووزعوها كالآتي :

« اخوانكم العرب يرجون حضوركم في الساعة الحادية عشرة إلى تياترو الفاريتي » ثم يضيف السيد الجابري قائلاً « لم أر في حياتي حشداً عربياً هائلاً مثل هذا الحشد » وامتلأ الفاريتي الذي يسع اكثر من الفي شخص ، وقام ندرة مطران وألقى كلمة شكر فيها الحضور ثم قال : لقد قررنا ان نشكل جمعية عربية نطلق عليها اسم جمعية الاخاء العربي العثماني .

وتوالى الخطباء مؤيدين فكرة تشكيل الجمعية ، واخيراً قام عبد الحميد الزهراوي ليعلن مبادىء الحزب . .

ويؤكد الجابري ان ماشاهده في ذلك اليوم يفوق أي وصف قائلاً : لأول مرة في حياتي سمعت الهتافات التي تعالت في ارجاء المكان ، كنا نعرف اننا جميعاً عثمانيون ، ولكن كانت هذه هي المرة الاولى التي نقول فيها تحيا الامة العربية ويحيا العرب . . وكأن اعلان الدستور قد فجر فينا عروبتنا وقوميتنا وحبنا الدفين لامتنا .

---

(١) Theater : المسرح



ماذا قال الزهراوي في خطابه ؟

أعلن الزهراوي في كلمته ، تأسيس « جمعية الاخاء العربي العثماني » ونص دستورها على انها مؤلفة من ابناء العرب العثمانيين على اختلاف مللهم وعلمهم ومصادرهم ، وانه يحق لكل فرد من أبناء العرب أن يكون عضواً فيها .

وعرف العربي بقوله : هو كل من انتسب الى العرب مولداً وموطناً . . وان هدف الجمعية هو المحافظة على الدستور والحريات وضرورة حمايتها .

وعلى الرغم من ان مؤسسي الجمعية لم يعلنوا عـــن مطالبتهم بتحقيق اللامركزية أو الاستقلال ، ولم يطرحوا هـــذا المفهوم صراحة ، ولم يتخذوا لجمعيتهم العلنية اسماً عربياً قومياً ، فإن دستور الجمعية نادى « باعلاء شأن الامة العربية واتخاذ جميع الوسائط والتدابير لنشر انوار العلوم والمعارف بـــين ابنائها كتأسيس المدارس وطبع الكتب والجرائد وغير ذلك .

فإذا انتبهنا جيداً الى هذا الاستدراك ، والى اشتراط الجمعية ان يكون اعضاؤها من «ابناء العرب» ادركنا ان جمعية الاخاء كانت أول خطوة على طريق نشوء احزاب عربية علنية « قومية التكوين والهدف » وان مؤسسيها كانوا يؤمنون بأن حماية الدستور والحريات ، السبيل السليم لتحقيق اعلاء شأن الامة العربية .

وقد خاض اعضاء الجمعية معركة الانتخابات ، وفاز منهم ـ بعد معركة انتخابية مريرة ـ يـــوسف شتوان مبعوث طرابلس الغرب ، وعبد الحميد الزهراوي مبعوث حماة ، ونافع المؤيد ورشدي الشمعة مبعوثا مدينة دمشق ، هذا الى جانب عدد كبير من ابناء العرب الاتحاديين . .



نشاط الزهراوي تحت قبة البرلمان

يصف احسان الجابري استقبال العرب في الآستانة للمبعوثين العرب بقوله : كنت في هذه الفترة من انصار الاتحاديين بسبب وظيفتي - مفتش شرطة - دعيت لحضور الجلسة الاولى لمجلس « المبعوثان » حيث كان السلطان عبد الحميد سيد شنه ، ودهشت عند حضوري للمنظر الذي رأيته قبل الاجتماع ، فقد كان العرب متكتلين في ناحية واحدة ، والاتراك في ناحية ثانية « أي بدأنوع من الانقسام القومي » حسب رأيه ، وسمعت نداءات واقاويل تلح على المبعوثين العرب بتحقيق المطالب القومية ، فرجوت اخي نافعاً - مبعوث حلب - ان يدعوهم للاجتماع في مكان ما ، ليتمكنوا من تنسيق مطالبهم ووضع خطة يسيرون عليها في اثناء الاجتماعات فلبي طلبي . . .

نستدل من كل ماتقدم ، انه في هذه الفترة ، لم يكن هناك ازمة بين الاتحاديين والعرب ولكن كان هناك ريبة وعدم ثقة وتربص اوبالاحرى صراع من وراء ستار ، كشفت عنه الحوادث تحت قبة البرلمان .

وكانت البداية ان طعن الاتحاديون في شرعية انتخاب نائب البصرة «طالب النقيب » ، و « شفيق المؤيد » نائب دمشق ، ولما احتج « يوسف شتوان » نائب ليبيا قام في وجهه النواب الترك وطردوه من المجلس ، فانسحب معه النواب العرب وآزرهم عدد من نواب القوميات الاخرى ، وعندما تنبه الاتحاديون الى هذا التكتل بين ابناء القوميات تساهلوا في تثبيت انتخاب النواب العرب . .

وعندما أخفق الانقلاب المضاد في ٣١ مارس سنة ١٩٠٩ ، عاد الاتحاديون الى الحكم في ١٣ ابريل نيسان سنة ١٩٠٩ وهم أشد شراسة واتهموا نواب القوميات الاخرى في المساهمة بهذا الانقلاب واغتنموها فرصة واعلنوا حل

جميع الاحزاب السياسية ، وفي مقدمتها حزب الاخاء العربي العثماني ، وبقي المجلس للاتحاديين ، بينما كان يسود الوجوم نواب القوميات الاخرى الذين كانوا يتربصون ريثما يستقر مناخ الامبراطورية بعد اضطرابه إثر الانقلاب المضاد .

وجاء أول اصطدام في البرلمان بعد الانقلاب ، عندما بحث المجلس اعادة انتخاب « جامي بيك » مبعوث الفزان ـ بطرابلس الغرب ـ فلما استشير ناخبوه مرة ثانية انتخبوه فثبتت مبعوثيته بينما رفض الاتحاديون تثبيت مبعوثية النائب العربي يوسف شتوان نائب بنغازي ، بالرغم من ان ناخبيه اعادوا انتخابه مرة ثانية عندما استفتوا . . .

اجتمع النواب العرب ، وسأل عبد الحميد الزهراوي الاتحاديين عن معنى تصرفهم هذا ، ولماذا تحفظ اوراق يوسف شتوان العربي ، ابن المنطقة العربية ، دون عرضها على المجلس للتصديق بينما تثبت مبعوثية جامي بيك وهو ليس من ابناء المنطقة ؟ ؟ .

وتطورت المناقشة عندما التف حـــول الزهراوي المبعثون العرب ، وتكلم عـــدد من النواب الاتراك قائلين بأن العثماني ينتخب في أي مكان تابع للدولة ، وبدأت خطورة الموقف تتجلى عندما بدأت المناقشة تأخذ صيغة قومية بين العرب والترك ، فما كان من طلعت بك ـ وكان نائباً لرئيس المجلس ـ إلا أن أمر بانهاء البحث واقفاله ، دون اخذ رأي المبعوثين ، وهنا هدد النائب العربي خضير بك نائب دير الزور بالخروج من الجلسة وأيده سائر النواب العرب بالاحتجاج معه على هذا التصرف . .

أما الاصطدام الثاني فكان في جلسة ٧ / ٧ / ١٩٠٩ ، حيث أثيرت مناقشة المادة الرابعة من نظام الاجتماعات العامة وتنص على انه : « يمنع قيام الجمعيات

ذات الاهداف السياسية والتسمية القومية في الدولة العثمانية » .

وقد ناقش هذه المادة عدد من المبعوثين الارمن والاغريق والعرب وبرهن الجميع على تمسكهم بجنسيتهم ، وتساءل المبعوث العربي عبد الحميد الزهراوي فيما اذاكانت الاجتماعات العنصرية مجحفة بحقوق الوطنية ؟ ؟ فأجابه مستشار الداخلية بأن الحكومة لاتريد مساس لغة او طبائع عنصر من العناصر الوطنية غيرانها تريد أن يسلك الوطنيون سياسة واحدة ، وهي ترى أن الجمعيات تبالغ في محافظتها على سياسة الجنس ـ أي القومية ـ .

ولكن الزهراوي اجاب باسم المبعوثين العرب ، بأن الجمعية العربية لاتتبع طريقاً خفية ، كما ذكرت الجرائد المحلية ، مؤكداً أنه لم يسمع قبلا بأن شعباً أنكر لسانه وطبائع عنصره ، حتى يجـــوز للعرب أن ينكروا لغتهم ويغيروا طباعهم .

كان الزهراوي يدافع عن لغة قومه وطبائعهم ، ويؤكد كما أكده غيره من مبعوثي الاجناس الاخرى « ان الامة العثمانية تتألف من عناصر كثيرة ذات صفحات في التاريخ كلها مجد وسؤدد » كما كان الزهراوي بنفس الوقت يرد على تخرصات الجرائد التركية التي اتهمت العرب بأنهم يسلكون طريق الجمعيات السرية لمقاومة الحكومة .

وبالرغم من هذه المقاومة ، فإن المادة الرابعة فازت عندما عرضت على الاقتراع ـ فنالت اكثرية ٩٠ ـ ٦٠ صوتاً .

وهذا أمر بدهي ، فإن المجلس في هذه الاثناء لم يكن فيه مـن احزاب وتكتلات سوى حزب الاتحاد والترقي ، لذلك قرر نواب القوميات الاخرى تأسيس احزاب برلمانية ، الغاية منها توثيق روابط الاتحاد بين العناصر المختلفة

مع المحافظة على شخصية كل عنصر ومميزاته ، لتتمكن من مقاومة حـــزب الاتحاد والترقي العنصري .

وكان أهم الاحزاب البرلمانية التي تأسست ، حزب الاحرار المعتدلين أو « الحزب الحر الدستوري المعتدل » وحزب الاهالي ، وقد ساهم مبعوثو العرب في وضع دساتير هذه الاحزاب وكان في مقدمتهم عبد الحميد الزهراوي ورشدي الشمعة واشترك في عضويتها المبعوثون العرب وغيرهم من مبعوثي القوميات الأخرى .

أما السمات المميزة لهذه الاحزاب فكانت سمات مشتركة أهمها : من حيث المبدأ : المناداة باللامركزية ، ومن حيث اسلوب العمل : العمل العلني ، ومن حيث التكوين : عثمانية شاملة ، ومن حيث موقفها من الحزب الحاكم : المعارضة .

وفي ٨ تشرين الثاني سنة ١٩١١ اشترك الزهراوي مـع طاهر خير الدين (التونسي) بتأسيس حزب الحرية والائتلاف حيث امتص الاحزاب البرلمانية السابقة جميعها ، وجاء من حيث التنظيم ، محصلة لجميع هذه الأحزاب ، وكان بحق ندأ لحزب الاتحاد والترقي ، وانضم اليه نواب الاحزاب السابقة الى جانب الاعضاء الذين انشقوا عن حزب الاتحاد والترقي ، من العرب والقوميات الاخرى فجاء هذا الحزب تعبيراً مهماً عـــن الاحزاب العثمانية التي قامت في مواجهة الاتحاديين وسياستهم العنصرية المركزية .

تناول الزهراوي شرح مبادىء الحزب في جريدة الحضارة التي كان يصدرها في الآستانة ، وهي بنفس الوقت تلقي ضوءاً ساطعاً على مضمون الفكر السياسي عند الزهراوي ، يقول :

أ ـ عزمنا على تأليف فرقة سياسية على أشد « الأسس » التصاقاً بالحرية .

ب ـ واعظم الاسس لبروغرام الفرقة ـ اي الحزب ـ المحافظة على الحرية

والمساواة بين الافراد والجماعات دائماً .

هـ ـ ان « الروح الاصلي » في هذا البروغرام هو صون حرية الافراد وحفظ حقوق العناصر وتأييد الدستور فهذا لايتغير .

وواضح من عبارات « الاسس » ثم « اعظم الاسس » ثم « الروح الاصلي » ان عبد الحميد الزهراوي يريد أن يؤكد بأن الحزب الذي انتمى اليه وساهم في صياغة دستوره ، يتبنى المبدأين اللذين يؤمن بهما ، وهما مبدأ الحرية والمساواة وان مضمون الحرية والمساواة ، كان ينصرف للأفراد والجماعات ، أو للأفراد والعناصر ، ـ القوميات ـ وان نوع الحكم اللازم لإمكانية قيام الحرية والمساواة هو الحكم الدستوري ، وان هذين المبدأين ـ بهذا المضمون وفي ظـــل الحكم هما مبدآن ثابتان لايتغيران ، كما يبدو في تعبيري « دائماً » وتعبير « فهذا لايتغير » .

واستناداً الى هذه المبادىء يحدد الزهراوي اهداف الحزب بقوله (١) :

الغرض الاعظم لهذا الحزب شيئان :

أ ـ مقاومة الاستبداد ولاسيا الاستبداد تحت ستائر القانون .

ب ـ إصلاح ذات البين بين جميع العناصر .

وجدير بنا أن نلاحظ في تحديد الهدف عبارة : ولاسيا الاستبداد تحت ستائر القانون ، فهي تشير الى أنه من الممكن أن يقوم الاستبداد على الرغم من وجود القانون بل وتحت ستاره ، كما أنه يقصد واقعياً حكم حزب الاتحاد والترقي .

وفي بيان المضمون العملي التطبيقي لهذا الهدف أو « الغرض الاعظم » على الاوضاع القائمة في الامبراطورية العثمانية ، نجد أن حـــزب الحرية والائتلاف كما يقول الزهراوي يسعى « لاصلاح ذات البين بين جميع العناصر » .

(١) الارث الفكري ، ٤٨١ . «هيئة التحرير»

ويحدد هـذه العناصر في ثلاثة أنواع : عنصر الجنسية ، وعنصر الدين ، وعنصر الفكر والاجتهاد والاجتماعي .

ويتضح لنا من ذلك ان الزهراوي ورفاقه ، كانوا يدركون ثلاثة انواع من التناقضات القائمة في الإمبراطورية العثمانية حينئذ هي : التناقضات القائمة على أساس الجنسية — وتعني هنا « القومية » — والتناقضات القائمـة على أساس « الدين » وتعدده ، والتناقضات القائمة على أساس الفكر الاجتماعي .

ويطالب الزهراوي بالحرية والمساواة لهذه العناصر ، في حدود عـدم الاضرار بالعثمانية فيقول : (٢)

« والمقصود أن يكون كل عنصر من هذه العناصر حراً ليس مضغوطاً عليه ، ولامضايقاً في رغائبه بما يعود لمصلحة عنصره ، ممـا لاتضر بالعثمانية ، وان تكون هذه العناصر كلاً متآلفة مع التخالف ، متعارفة متعاطفة مع التغاير » .

ودرءاً لكل الشبهات حول هدف الحزب أو غرضه ، فإن الزهراوي يصفه قائلاً : « هذا ولأننا لانسعى الى غاية شخصية ، أو قومية ، وإنما نسعى لادامة حياة هذه الدولة واعلاء شأنها ، وسعادة الامة ، وترقية عمرانها .. الخ » .

فواضح ان الزهراوي ورفاقه من مؤسسي الحزب كانـوا يعدون سكان الإمبراطورية العثمانية امة واحدة — رغم قومياتها المتعددة — وان الدولة العثمانية هي دولة هذه الامة ، وقد ترتب على هذا المفهوم ان كانت عضوية الحزب مفتوحة لجميع العناصر . أو على حد قول الزهراوي :

« لذلك يضم هذا الحزب ضماً حقيقياً المسلم وغير المسلم ، والتركي وغير التركي من سائر الأجناس ، والمتعصب ديناً وغير المتعصب ديناً . .

وانسجاماً مع تلك المبادىء والاهداف التي شرحها عبد الحميد الزهراوي ،

---

(٢) الارث الفكري ، ٤٨١ . « هيئة التحرير »

فقد كان حزب الحرية والائتلاف ينادي باللامركزية الإدارية التي آمن مؤسسو الحزب واعضاؤه بضرورة تطبيقها .

ولابد لنا من الاشارة الى ان عبد الحميد الزهراوي من الرواد العرب الذين كانوا يؤمنون بضرورة الوفاق ، بين قوميات الامبراطورية العثمانية ، والابقاء على هذه الإمبراطورية ، رغم مناداته باللامركزية ، فالإستقلال شيء واللامركزية شيء آخر ، أضف الى ذلك المادة الرابعة التي شهرها الاتحاديون في وجه التنظيمات الحزبية ، ومن الجائز ان يكون المبدأ الثالث لحزب الحرية والائتلاف الذي ينص « على وحدة الامة والدولة العثمانية » تكتيكاً حزبياً ليضمن بقاء الحزب وانتشاره .

أمام هذا التكتل تمكن الاتحاديون من حل مجلس (المبعوثان) في اواخر شهر كانون الثاني يناير سنة ١٩١٢ ، وبعد ثلاثة اشهر جرت معركة الانتخابات الجديدة ، وكانت معركة حامية الوطيس بين الاتحاديين والائتلافيين ولكن تمكن الاتحاديون من الفوز على الائتلافيين بالتزوير ، مما دعا إلى ثورة ضباط الجيش احتجاجاً على تزوير الانتخابات بقيادة اليوزباشي الالباني طياربك ، وطالبوا بحل المجلس وتشكيل حكومة من غير الاتحاديين ، وقد تجاوب مع هؤلاء الضباط وبياناتهم ضباط حاميات « ازمير ودمشق وحلب » وغيرها ، واطلقوا على انفسهم اسم ضباط الإنقاذ ، فاضطرت حكومة الاتحاديين الى تقديم استقالتها في ٩ تموز « يوليو » سنة ١٩١٢ ، ليتسلم انصار حزب الحرية والائتلاف زمام الحكم في الامبراطورية العثمانية .



نشاط الزهراوي خارج المجلس

اتفق عدد من العرب في (الآستانة في مقدمتهم عبد الحميد الزهراوي عزة الجندي (١) وعبد الكريم الخليل (٢) وغيرهم على تأسيس « منتدى أدبي » تلتقي في ارجائه الشبيبة العربية والاحزاب والكتل العربية ، وكأنه « جبهة » تسعى لبلوغ الاغراض السياسية في رفع شأن العرب وتأمين حقوقهم ، عن طريق التوعية الثقافية ، وافتتح المنتدى في الآستانـــة بتاريخ ٨/٢ سنة ١٩١٠ بمظاهرة عربية رائعة ، والقى معروف الرصافي قصيدة جاء فيها :

وإن تكن عربي الاصل لا كذباً   فمت لإحياء مجد كان للعرب

دع المجامع في لهو وفي طرب   واجعل مقرك هذا المنتدى الادبي

بقي المنتدى الادبي حتى عام ١٩١٥ «بيتاً قومياً عربياً ، يجمع شمل ابناء العروبة في العاصمة العثمانية من انحاء الوطن العربي » فكان « قبلة العروبة في عاصمة الدولة » وكانت خطته نشر الدعوة للقضية القومية الوطنية ، وبالرغم من هذه الصفات التي اطلقها عليه المعاصرون ، وبالرغم من ان فكرة القومية العربية كانت واضحة

---

(١) عزة الجندي ، هو عزة بن محمد بن سليمان الجندي العباسي ، طبيب من العاملين في القضايا العربية ولد في حمص عام ١٢٩٩ هـ = ١٨٨٢م وتعلم بها وبدمشق ودرس الطب في الآستانة ثم في المعهد الطبي العثماني بدمشق وعمل في ثورة طرابلس الغرب على الايطاليين ثم اقام مدة في مصر شارك خلالها بحركة اللامركزية ثم عاد الى سورية واستدعاه جمال باشا السفاح عام ١٩١٦ من حمص الى دمشق فكان آخر العهد به ، قيل ان السفاح قتله في احدى غرف الفندق ودفنت جثته بمكان مجهول .

عن الاعلام ٤/٢٣٠ الطبعة الرابعة   « هيئة التحرير»

(٢) عبد الكريم بن قاسم الخليل ، محام ، من شهداء العرب في عهد الترك ولد عام ١٣٠١ هـ ١٨٨٤ م واعدم ببيروت عام ١٣٣٤ هـ = ١٩١٦ م

عن الاعلام ٤/ ٥٤ الطبعة الرابعة   « هيئة التحرير»

في احاديث اعضائه ، إلا أن كتاباتهم كانت تدور - في بادىء الامر - في اطار الرابطة العثمانية ، التي كان الأعضاء حريصين عليها .

كتب الزهراوي في جريدة الحضارة بتاريخ ١٠ نيسان ابريل سنة ١٩١١ مقالاً بعنوان « تربيتنا السياسية » يدعوفيها إلى الاتحاد النافع : « الذي يبقى فيه العربي عربياً والرومي رومياً ولايسيء أحد بأحـــد الظن حين يريد خدمة لسانه ويسعي في ترقية افكار قومـــه ، ويظهر تمنيه بأن يكثر بينهم العلماء والأدباء ، وان يتعارف شعبه فيا بينهم ، ويتعاضدوا على تحسين أحوالهم الاجتماعية سواء فعل ذلك العرب ام غيرهم (٣) .

ولكن في عام ١٩١٣ بدأ أعضاء المنتدى الادبي يدعون جهراً وعلانية إلى قوميتهم العربية رداً على التعصب التركي وسياسة التتريك التي طبقها الاتحاديون

كتب الدكتور عزة الجندي في جريدة الاهرام بتاريخ ٢٢ / ٤ / ١٩١٣ مقالاً جاء فيه ،« إن المسلم عربي ، والمسيحي عربي ، اننا عرب قبل كل شيء وقد تركنا مسألة الديانات أوالعبادات إلى الجوامع والكنائس ، فإذا كنا عرباً قبل أن نكون مسلمين أومسيحيين ، فالاولى أن نكون عرباً قبل ان نكون عثمانيين . »

وهكذا نرى أن مؤسسي المنتدى الادبي قد تخطوا الطائفية ، وتخطوا صيغة التنظيم الحزبي إلى صيغة جديدة هي الصيغة الجبهوية ، ومجال سياسي جديد هو المجال غير المباشر لمواجهة ظروف الضغط التي تحرم العمل الحزبي الصريح واوضاع الاخطار القوميةالتي تتطلب الجهد الموحد .

---

(٣) الارث الفكري ، ١٦ « هيئة التحرير »



الزهراوي ومؤتمر باريس العربي :

ترأس عبد الحميد الزهراوي المؤتمر العربي الذي عقد في باريس من ١٨/ ٥ ـ ٢٣ / ٥ عام ١٩١٣، وجاء هذا المؤتمر خطوة إلى الامام في العمل الجماعي العربي .

والمؤتمر العربي يحتاج إلى دراسة خاصة ، ولكن من المهم هنا الاشارة إلى أن صاحب فكرة عقده هو حزب العربية الفتاة السري ، وفي مقدمتهم الاعضاء الذين كانوا يتلقون العلم في فرنسا ، على ان توجه الدعوة ـ باسم الجالية العربية في باريس ـ الى حزب اللامركزية في مصر ليتبناه بشكل عملي .

وعندما أقرت اللجنة العليا لحزب اللامركزية في جلستها المنعقدة في ١١ / ٤ / ١٩١٣ قبول اقتراح لجنة المؤتمر ، عينت وفداً ليمثلها وكان يتألف من عبد الحميد الزهراوي صديق الحزب ، واسكندر عمون (١) ، ويشغل منصب وكيل لجنة الحزب .

وقد انتخب الزهراوي في الجلسة الاولى رئيساً للمؤتمر، كما انتخب عضواً في لجنة الاطلاع على الخطب وإجازة القائها مع اسكندر عمون وغيرهما . (٢)

وقد افتتح الرئيس الزهراوي المؤتمر بخطبة كان عنوانها «تربيتنا السياسية» ابتدأها بلمحة تاريخية لوضع البلاد العربية ، وتاريخ الحكم التركي في البلاد

---

(١) اسكندر عمون ١٢٩٢ - ١٣٣٨ هـ = ١٨٥٧ - ١٩٢٠م عالم بالحقوق ، له اشتغال بالادب ، ولد في دير القمر « بلبنان » وسكن مصر ، كان من البارزين في حزب اللامركزية الادارية العثماني » . دعي الى دمشق في عهد الحكومة العربية « ١٣٣٧ هـ » فتولى فيها وزارة العدلية ، ومرض ، فاستقال وعاد الى القاهرة فتوفي فيها .

عن الاعلام ١/٣٠٢ ط ٤

وكتاب رواد النهضة الادبية في لبنان الحديث : ١٩ « هيئة التحرير »

(٢) جمعت محاضر جلسات المؤتمر وما دار فيه من مناقشات وما القي من خطب في كتاب بعنوان « كتاب المؤتمر العربي الاول » وطبع في مصر عام ١٩١٢ « هيئة التحرير »

والعلاقة بين العرب والترك .

ودعا الزهراوي إلى نقطة مهمة ، حيث ينبه العرب « لواجب عظيم كان الترك والعرب جميعاً غير مهتمين به كما ينبغي ، وهـو وجوب اشتراك الفريقين بسياسة البلاد . » اي أنه جعل العرب والترك بمثابة الند للند ، وبين الزهراوي بوضوح أنه «لا العرب انتفعوا بتحملهم وحدهم تبعية ذلك العبء الثقيل .» ثم اشار الزهراوي « إلى أن هذا الاشتراك لاينافي الإخاء ، بل الذي ينافي الاخاء هو عدم هذا الاشتراك » وطالب أن يكون أساس « تربيتنا السياسية » بث هذه الفكرة والتعصب لها » وعندما أخذ يشرح الوسائل التي تؤدي إلى مافيه خير البلاد قال : « لقد وجدنا اللامركزية من خير الوسائل لظهور أثر هذا الاشتراك خارج العاصمة » .

وعندما القى اسكندر عمون خطبته بعنوان « الاصلاح على قاعدة اللامركزية » علق الزهراوي وأكد : « بأن اللامركزية هي الطريقة السياسية التي أجمعت جماهير أمتنا على أنها خير الطرق لادارة ممالك متعددة كالممالك العثمانية » .

وهكذا حقق دعاة اللامركزية ، في مؤتمر باريس ، هدفهم وبينوا أن الامة العربية تنادي باللامركزية ، وهاجموا مفهوم المركزية الذي يحصر ادارة أُمور الامة ـ السلطة ـ في عنصر واحد ، وأن الحـكم المركزي يتناقض مع الحكم الدستوري ، وبينوا أن هذا التناقض « هـو السبب الحقيقي في خيبة الأمال التي كانت معلقة باعلان الدستور » وبالتالي قاموا بشرح مبادىء حزب اللامركزية وأهدافه أمام اعضاء المؤتمر وكان حزباً حديث العهد .

ومما تجدر الاشارة اليه ، أن حزب العربية الفتاة السري تبنى شرح مبدأ القومية العربية ، أما مبدأ الطائفية واللاطائفية فقـد أثاره وتناوله

اكثرية اعضاء المؤتمر .

وكان عبد الحميد الزهراوي قد أكد لمندوب جريدة « الطان » الفرنسية قبل انعقاد المؤتمر قائلاً : « بأن المؤتمر ليس له صفة دينية وكل اعماله تنحصر في الدائرة المحددة له من البحث في شؤوننا الاجتماعية والسياسية ، ولذلك ترى عدد اعضائه المسلمين والمسيحيين متساوياً ».

وقد اصدر المؤتمر قراراتـــه وملاحقه ، ويهمنا هنا بالنسبة لهذا البحث الملحق الاول وينص : « على أنه إذا لم تنفذ القرارات التي صادق عليها هـــذا المؤتمر ، فالاعضاء المنتمون إلى لجان الاصلاح العربية ، يمتنعون عن قبول أي منصب كان في الحكومة العثمانية ، الابموافقة خاصة من الجمعيات المنتمى اليها » .

ولم يأخذ المؤتمر العربي بسياسة القطيعة مع حزب الاتحاد والترقي الحاكم في الآستانة ، من أجل تحقيق مقرراته بل أخذ بسياسة الاتصال والتفاوض والحوار مع ذلك الحزب وحكومته ، وقـد تم التوصل فعلا إلى اتفاق وقع عليه عبد الحميد الزهراوي بالنيابة عن المؤتمر العربي ومدحت بك شكري بالنيابة عن جمعية الاتحاد والترقي ، وهو اتفاق يعرف « باتفاقية باريس » .

وبالرغم من أن بنود هذه الاتفاقية ، كانت دون المطالب العربية ، كما يبدو من مقارنة بنودها بمقررات المؤتمر العربي ، فقد وقع عبد الحميد الزهراوي هذه الاتفاقية تدليلا من قادة المؤتمر عن حسن نواياهم تجاه الدولة العثمانية ، وتعبيراً منهم عن مرونة سياسية أرادوا بها أن تعطي حزب الاتحاد والترقي فرصة اخيرة للتفاهم مع العرب .

واتفق أن يعود عبد الكريم الخليل ، مـــع ممثل الاتحاديين إلى الآستانة لعرض الاتفاقية على اللجنة المركزية للحزب ، وان يبقى رئيس المؤتمر – الزهراوي –

مع عدد من المندوبين في باريس كهيئة متابعة تنتظر نتائج مباحثات عبد الكريم الخليل في الآستانة وتتأهب للاشتراك في تنفيذ الاتفاق إذا ماأقره الاتحاديون

وسرعان ماكشف الاتحاديون عن سياستهم التي تستهدف ضرب الحركة العربية وتفتيت جبهة مؤتمر باريس على الشكل التالي :

أ ـ بعد توقيع الاتفاقية من قبل وزير الداخلية الاتحادي طلعت باشا باسم الحزب ، وعبد الكريم الخليل عن المؤتمر ، طلب طلعت باشا أن تبقى الاتفاقية سرية حتى يتم تنفيذها .

ب ـ اتصل الاتحاديون باعوانهم من البشوات والاعيان العرب وطلبوا منهم مواصلة الهجوم على مؤتمر باريس وهيئاته وقادته .

جـ ـ عندما اعلن رفيق العظم(١)رئيس حزب اللامركزية شروط الاتفاقية بعد أكثر من شهر من توقيعها ، نتيجة التباس صنعته وكالة رويتر الإنكليزية ، ثار الاتحاديون وذهبت جريدة (طنين) التركية إلى درجة انكار وجـــود الاتفاق ، وانكار ان سفر مدحـــت شكري إلى باريس كان من أجل التفاوض مع رجال المؤتمر العربي .

د ـ وعندما قررت حكومة الاتحاديين تنفيذ ماأسمته « الإصـــلاح » استصدرت ارادة سنية ، وتراجعت عن أهم بنود الاتفاقية وهو البند الثاني عشر الذي يقضي بأن تكون المعاملات الرسمية في البلاد العربية باللغة العربية .

وهكذا بينما كان النشاط السياسي في الإمبراطورية يدور مـــن ناحية

---

(١) رفيق العظم « ١٢٨٤ - ١٣٤٣ هـ = ١٨٦٧ - ١٩٢٥ م »
عالم بحاث من رجال النهضة الفكرية في سورية . ولد في دمشق ، زار مصر ثم استقر فيها عام ١٣١٦ هـ واشترك في كثير من الاعمال والجمعيات الاصلاحية والسياسية والعلمية وتوفي بالقاهرة . عن الاعلام ٣٠/٣ ط ، ٤ « هيئة التحرير »

الشكل باسم المؤتمر وفي صيغة التعاون الجبهوي التي أقامهـا ، اصبح النشاط يدور من ناحية المضمون حول تحقيق مقررات المؤتمر وما تعبر عنه من ارادة عربية عامة ، تمكن الاتحاديون من خلال هذه الخطوات ، أن يبذروا بين صفوف الجبهة العربية المتحدة ، خصوصاً عندما رغبي عبد الكريم الخليل رئيس المنتدى الأدبي بخطوات الاتحاديين ، وفتح بذلك ثغرة في موقف الجبهة العربية ، بـــل اكثر من ذلك بدأ يحاول اقناع عبد الحميد الزهراوي بالتوجه نحو الآستانة .

ولكن الزهراوي ارسل واحداً مـــن اعضاء هيئة المتابعة إلى الاستانة للمشاركة في اقناع الاتحاديين بتنفيذ بنود الاتفاقية ، وبقي الوفد عدة أسابيع شهد أعضاؤه خلالها تلاعب الاتحاديين ، وتأكدوا بأن الاتحاديين نقلوا النزاع والمطاحنة إلى العرب أنفسهم ، العرب الاتحاديون والعرب الثوريون ، واخيراً قـــرر أعضاء الوفد العودة .

مكث الزهراوي مدة خمسة أشهر في باريس ، كان خلالها على اتصال بحزب اللامركزية في مصر ، وعندما أرسل له عبد الكريم الخليل برقية يدعوه فيها إلى الاستانة ، استأذن حزب اللامركزية ، ويقول محمد رشيد رضا (٢) في مجلة المنار ، ان الحزب خيره بين مصر والاستانة وكان هو يفضل الاستانة ، بينما الحزب يفضل حضوره إلى مصر .

وهكذا وصل الزهراوي عاصمة الامبراطورية في ٢٨ / ١٠ / ١٩١٣

---

(٢) محمد رشيد رضا « ١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ=١٨٦٥ - ١٩٣٥ م » من كبار رجال الاصلاح في العصر الحديث ، تتلمذ على الشيخ محمد عبده ، واصدر مجلة « المنار » في مصر لمدة (٣٤) عاماً ترأس المؤتمر السوري ثم عاد الى مصر بعد دخول الفرنسيين الى سورية ولد في القلمون وتوفي بالقاهرة . وله مؤلفات كثيرة .

عن الاعلام ٦ /٢٦ ط ٤ — هيئة التحرير

فاستقبلته الشبيبة العربية في المحطة بالهتاف للاصلاح وزعمائـــه ، وزعماء العرب . . واتجـــه إلى المنتدى الأدبي حيث تبودلت الكلمات وعلت الهتافات وفي ٣٠ / ١٠ بدأت مفاوضات الزهراوي بصورة رسمية ، مع مدحت شكري ولم يمض اسبوع ونصف على بدء المفاوضات ، حتى ادرك الزهراوي تسويف الاتحاديين ومماطلتهم لتحقيق الاتفاقية ، وحاول العودة إلى مصر غير أن عبد الكريم الخليل وانصاره الحوا عليه بالبقاء واعطاء فرصة اخرى للاتحاديين ، ولكن الزهراوي شرح موقفه في الصحف مؤكداً أن الحكومة تعده وعوداً دون تنفيذ ، وانه قرر مغادرة البلاد « إذ مافائدة الوعود ونحن نريد أعمالاً لااقوالاً » وعندما سأله مندوب احدى الصحف ولكن « ماهو السبب في مماطلة الحكومة قال : أظن السبب خلافاً بين أعضاء جمعية الاتحاد والترقي ، فإن فريقاً مـــن اعضائها يؤيد مطالبنا ويريد معاملتنا بالحسنى ، وفريقـاً يرفض مطالبنا كل الرفـــض ، ويشير باستعمال الشدة معنا . ولانعلم أي الفريقين يرجح ، فإن استطاع اولهما اقناع ثانيهما كان لنا ماطلبنا ، والا ساءت العاقبة كثيراً . »

واخيراً تمكنت حكومة الاتحاديين من اقناع عبد الحميد الزهراوي بأنها في الطريق إلى إقامة مدرستين سلطانيتين « ثانويتين » في دمشق وبيروت اساتذتها من العرب ، وجعل اللغة العربية رسمية في المحاكم والدواوين العربية ، وأنهم بحاجة الى المال لتحقيق بقية المشروعات التي تم الاتفاق عليها ، .

وفي ٤/ ١ / ١٩١٤ صدرت الارادة السنية بتعيين سبعة من العرب اعضاء في مجلس الاعيان ، كان عبد الحميد الزهراوي رئيس المؤتمر العربي ، هو الوحيد بينهم من دعاة اللامركزية ، وكان ثلاثة من الاتحاديين وثلاثة من الحياديين . .

وقد قبل الزهراوي هـــذا التعيين مخالفاً للقيد الذي وضعه مؤتمر باريس

حول قبول مثل هذه التعيينات وقبله من غير ان يستشير حزب اللامركزية الذي كان على صلة وثيقة به واصبح متفقاً في الرأي مع عبد الكريم الخليل في أنه من الضروري أن يمد طلاب الاصلاح العرب ايديهم الى الاتحاديين . .

لقد ارسل الزهراوي بعد ذلك رسائل مفصلة الى حزب اللامركزية ،



شهيد العرب وفقيد الفضل والشهامة والادب

العلامة عبد الحميد الزهراوي

تدور حول هذا الموضوع ـ وجدتها بين اوراق محب الدين الخطيب (١) في مكتبه بالقاهرة وكلها بخط عبد الحميد الزهراوي ـ يبرر فيها وجهة نظره مؤكداً . « ان الاتحاديين ناوون نية قاطعة ان يجددوا شباب الدولة بقدر ماتسمح بـه الظروف ، ويشتهون ان يخلص إليهم العرب ويساعدهم فضلاؤهم في هذا السبيل».

وتشير الرسائل المتبادلة بين الزهراوي وحزب اللامركزية إلى وجود أزمة حزبية كادت تؤدي به الى الانشقاق ، كما ان موقف حزب اللامركزية أمام الاحزاب الاخرى ، كان موقفاً لايحسد عليه ، اذ كان موقف الاحزاب موحدا يرفض خطة الاتحاديين ويشجب انشقاق الخليل والزهراوي ، بل ان الجمعيات العربية في المهجر طلبت التمسك بقرارات مؤتمر باريس ، واتهمت الزهراوي وحزب اللامركزية بمسايرتهم للاتراك وان الاتحاديين اشتروا تأييدهم ورضاءهم ببعض المراكز والمناصب .

وكان هناك من انصف الزهراوي مثل الضابط الكبير سليم الجزائري، عندما كتب في ١٥ / ١ / ١٩١٤ قائلاً . . . أيجوز لنا ان نخطيء الزهراوي وننقده على هذا الاتفاق ؟ انا لست على هذا الرأي ، لان الزهراوي لولم يتفق مع الحكومة لكنا الآن في أشد المآزق حرجاً . . »

ويقول الشيخ محمد رشيد رضا تجاه تعيين الزهراوي (٢) : « اما أنا فكان يغلب على ظني ان جعله من الاعيان احبولة يريدون بها اصطياد المخلصين من طلاب

---

(١) محب الدين الخطيب « ١٣٠٣ - ١٣٨٩ = ٢٨٨٦ - ١٩٦٩ م » من كبار الكتاب الاسلاميين ، ولد في دمشق ، وتعلم بها وبالاستانة وشارك في النضال السياسي . حكم عليه الاتراك بالاعدام غيابياً . استقر في القاهرة بعد دخول الفرنسيين دمشق واصدر عدداً من المجلات والكتب . عن الاعلام ٥/ ٢٨٢ ط ٤ « هيئة التحرير »

(٢) انظر كلام محمد رشيد رضا في مجلة المنار المجلد ١٩ ص ١٧٤ «هيئة التحرير»

الاصلاح في خارج المملكة ، ليفتكوا بهم بعد جلبهم اليهم جملة واحدة . » وهو رأي لم تلبث الاحداث ان أكدت صحته خلال الحرب العالمية

ومهما كانت قيمة التفسيرات والمسوغات التي تتجسد في كل من تصرفات عبد الكريم الخليل وعبد الحميد الزهراوي ، فاننا نرى انهما لم يكونا منتسبين – في أثناء انعقاد المؤتمر – لاي حزب يمارس عليهما أي ضغط انضباطي سواء في تكوين « الرأي » اوفي « المسلك » ، وانهما كليهما كانا يقيمان في الآستانة ، ويلمسان عن كثب اتجاهات الاتحاديين وما يضمرونه للقوميات الاخرى ، ثم ان الزهراوي ، كان أقرب في عقليته وتكوينه إلى تغليب أمل التفاهم والوفاق مع الدولة العثمانية على ضرورة النزاع معها وإلى تغليب اسلوب الحوار على أسلوب الصراع كما تدل رسائله التي وجهها إلى حزب اللامركزية ، بعكس ماكان عليه رجال حزب العربية الفتاة وحزب العهد السريين . .

ومهما تكن الامور فان حقد الاتحاديين على أبناء الامة العربية قد كشرعن انيابه ، ونال من روادها في اول فرصة سنحت لهم ، سواء أكان هؤلاء الرواد ممن حسن ظنه بالاتحاديين اوممن قاومهم ، وكان اعضاء مؤتمر باريس في المقدمة ، وكان عبد الكريم الخليل من القافلة الاولى للشهداء التي قدمتها الأمة العربية بتاريخ ٢ آب أغسطس سنة ١٩١٥ ، وكان عبد الحميد الزهراوي من قافلة الشهداء الثانية في ٦ أيار مايو سنة ١٩١٦ .

الدكتورة
سهيلة ياسين زكية الريماوي - عمان

النظم الإدارية في بلاد الشام

من سنة ١٣٢ - ٣٥٨ هـ / ٧٥٠ - ٩٦٩ م

الدكتورة أمينة بيطار
استاذة التاريخ الاسلامي بجامعة دمشق

كانت بلاد الشام في الفترة الواقعة بين سنتي ١٣٢ - ٣٥٨ هـ / ٧٥٠ - ٩٦٩ م ولاية تابعة للخلافة العباسية ، ولكنها كانت من الولايات التي احتاج العباسيون إلى بذل جهد كبير لفرض طاعتهم فيها . فقد تسببت في إثارة الكثير من المشاكل للخلافة العباسية ، كما اضطرت العباسيين لتسخير قسم من قوتهم لتهدئة الاحوال فيها والسيطرة على الامن .

وعلى وجه الاجمال فإن خلفاء العباسيين اهتموا بشؤون بلاد الخلافة إدارياً اهتماماً كبيراً ووجهوا جل اهتمامهم لاختيار ولاة الاقاليم . فاختاروا ولاتهم ممن يثقون بهم .

وعلى الرغم من ذلك فإن ولاة الاقاليم في العصر العباسي الاول لم تكن لهم سلطة مطلقة كتلك التي كانت لولاة في عهد الأمويين . فلم يسمح للوالي بالبقاء في ولايته مدة طويلة ، لئلا تسنح له الفرصة بالاستغلال والاستبداد بالأمور .

كما كان عليه ان يقدم بياناً مفصلاً عن شؤون ولايته بعد عزله ، وقد يتعرض لمصادرة أمواله إذا احتاج الأمر إلى ذلك (١) .

وكان على رأس كل ولاية الأمير وهو قائد الجيش وإمام المسلمين في

١ - محمد جمال الدين سرور ، الحضارة الإسلامية في الشرق ، ص ٩٥

الصلاة ، ثم يليه العامل ويسمى صاحب الخراج ، لأنه يختص بحمل خراج الولاية إلى خزانة الدولة والانفاق عليها مما يحصله من الاموال . وكان الامير يخاطب في المراسلات بما يخاطب به العامل (١) وأخشى ما كان يخشى منه ان يتضافر الأمير والعامل في الولاية ، ليفعلا مايحقق مصلحتهما دون مصلحة الولاية . او ان يختلفا فيتسببا في قيام الفوضى في البلاد . ففي سنة ٢٢٦ هـ / ٨٤٠م حدث خلاف في دمشق بين أميرها علي بن اسحق بن يحيى بن معاذ ، وعامل خراجها رجاء بن أبي الضحاك فقتل الاخير (٢) .

أما إذا تقلد رجل واحد المنصبين معاً ، فيصبح كالحاكم المستقل بولايته . وهذا مافعله كل من ابن طولون والاخشيد (٣) . ومن الواضح أن الولاية كانت تتضرر إذا كثر عدد العمال فيها ، لان كلاً منهم كان يعمل على اثراء نفسه على حساب الرعية . ففي سنة ٢٢٩ هـ / ٨٤٣ م كان في مدينة الرقة قاض ، وكاتب سلعة يعرف بالبذار لجمع الخراج ووجوه المال ، وصاحب جند ، وصاحب بريد ينهي أخبار الولاية للخليفة ، ومتول للضياع السلطانية (٤) . وكان هؤلاء يعينون من قبل الوزير ويعزل كثير منهم بعزله . مما ادى إلى كثرة التعطل وإثارة الفتن والاضطرابات (٥)

ولم تجمع بلاد الشام تحت حكم وال واحد إلا فيما ندر . ففي أغلب الاحوال كان يعين وال لكل جند من أجنادها . وفي احيان كثيرة يجمع لوال واحد اكثر من جند . وقد أدى هذا الامر في النهاية إلى صعوبة التنقل من جند إلى

---

١ ـ محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٩٧

٢ ـ الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ١١

٣ ـ ادم ميتز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، الطبعة الثالثة ١٩٥٧ م جزء ١ ص ١٢٩

٤ ـ ادم ميتز ، المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٢٩

٥ ـ محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٩٧

آخر . كما أدى إلى تعقد الاعمال التجارية . ومما يؤكد أن كل قصبة في الشام كانت مستقلة عن الاخرى ، ماتذكره كتب التاريخ عن ارتفاعات كل قصبة على حدة (١) . ومما لاشك فيه أن هذا الوضع الإداري الجديد لم يرق الاهالي الشام بعد أن كانوا نواة الدولة العربية الإسلامية .

وقد أورد ابن المقفع فيكتابه الى الخليفة المنصور نصيحة يبدي فيها رأيه في إدارة الشام وأهله. فذكر انهم اشد الناس مؤونة ، وأخوفهم عداوة وبائقه . ونصح بأن يختص منهم خاصة ممن يرجو عنده صلاحاً ، أو يعرف منه نصيحة او وفاء . وأكد بأن هؤلاء لايلبثون أن ينفصلوا عن أصحابهم في الرأي والهوى . وان يدخلوا فيا حملوا عليه من امرهم وأورد مثالاً عملياً عن نتائج سوء معاملة الامويين لاهل العراق . وما على العباسيين إلا ان يعتبروا بمن سبقهم، وأن لايجعلوافيء أهل الشامإلى غيرهم . بليصرف فيهم ، و وان لايبعدوا عـــن المنابر والمجالس والاعمال . كما نصحه بأن يستفيد ممن عنده قدرات خاصة منهم دون أن يفضل أحداً منهم على غيره ، إلا على خاصة معلومة . وقدم عذراً على نزوات أهل الشام ، فهم كغيرهم من الناس حين يخرج الملك من بينهم (٢) .

وكان الخلفاء العباسيون في بداية الامرعلى قدر كبير من القوة والسلطان ،

---

١ ـ انظر الجشهياري : الوزراء والكتاب ، ص ٢٨١ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ قدامة بن جعفر ، نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، طبعة ليدن ١٨٨٩ ، ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ وص ٢٥١ ـ المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ص ١٨٩ ـ ابن خرداذبه ، المصدر السابق ، ص ٧٥ ـ ٧٩ ابن حوقل : صورة الارض ، ص ١٨٨ ـ ١٨٩ ـ ابن خلدون، مقدمة، منشورات الاعلمي ، بيروت ١٩٧١ ، ص ١٥١ ـ جرجي زيدان ، المرجع السابق « جزء ٢ ، ص ٥٤ ، ٥٩ ، ٦١ ، ص ١٠٧ ـ ١١١

٢ ـ كرد علي ، الاسلام والحضارة العربية ، جزء ، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦
ـ الادارة الاسلامية ، ص ١٣٢ ـ ١٣٣

تمكنهم مـــن السيطرة على الولاة . فقد عزل الخليفة هارون الرشيد واليه على دمشق حين لمس منه عـــدم مقدرته على تسيير أمـــور البلاد ، ولاحظ تدهورها اقتصادياً .

وقد بدأ فساد الولاة منذ أن ظهر إلى الوجود نظام الضمان . ويعني هذا النظام ان يوظف على العامل مال معين يدفعه في السنة إلى بيت المال في بغداد ، مقابل ان يتولى هو قبض الخراج والجزية وسائر الضرائب . وان ينفق ماينفقه كما يشاء ، وفي ذلك مافيه من الضرر على الولاية .

ويبدو ان هذا النظام نشأ في العصر العباسي الثاني ، عندماساءت الاحوال المالية والاقتصادية وإن بدأت فكرة التضمين للولايات قبل ذلك ، فقد تولى ابراهيم بن الأغلب ولاية افريقية وبذل ان يحمل كل سنة أربعين ألف دينار للخلافة ، وان يتنازل عن المعونة التي كانت تدفع لها من مصر وقدرها مائة ألف دينار (١) وكان الهدف من هذا التضمين إقامة حكم محلي يعتمد في حماية الولاية وتقويتها على مواردها الخاصة وأن يقف حائلا في وجه الأدارسة والدولتين الخارجيتين دون انتظار القوات العباسية .ولكن الامر أُسيء استعماله فيما بعد .

وفي الشام اخذت بعض مناطقه تضمن تضميناً إلى من يدفع أكثر . فقـــد عقدت فلسطين لنواب كافور بخمسمائة ألف دينار ، وكذلك جند دمشق .

وكثيراً ماكان كافور يطلب من عماله على سبيل القرض ، وقبل ان يحين موعد الدفع . وكان يدع عماله مقابل ذلك يجبون مايشاؤون من المال ارضاءلهم ، إذ كان يرى ان أولياءه يجب ان يتنعموا لئلا تنتقل النعمة الى الاعداء (٢) . كما لجأ البعض الى تعيين ارزاق لقوم لايؤدون عملاً ، وأرزاق لآخرين ليس لهم وجود

---

١ ـ زيدان ، التمدن الاسلامي ، جزء ٢ ، ص ٤٦

٢ ـ ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص ١٧٣

على قيد الحياة (١) .

وكثيراً ما كانت أموال بلاد الشام تحمل خارجها مع الثائرين او مع البيزنطيين في غزواتهم على البلاد مما أنهك البلاد اقتصادياً . فقد حمل لؤلؤ مولى بن طولون معه الى بغداد زهاء ثلاثمائة خزانة (٢) وكذلك استولى الامبراطور البيزنطي على ٣٩٠ بدرة دراهم من قصر سيف الدولة عدا ماأخذه من خزائن السلاح ، ومن البغال (٣) .

ويبدو انه كان يوجد في قصر كل ولاية في الشام اوكل جند من اجنادها دار لضرب النقود . ففي سنة ١٤٦ هـ/ ٧٦٣ م ضربت فلوس بمدينة حلب باسم صالح بن علي وفي سنة ١٥٧ هـ/ ٧٧٤ ضربت فلوس أخرى باسم مولى أمير المؤمنين (٤) . كما كانت تضرب النقود في دمشق في قصر الخضراء في القرن الرابع . فقد اصبح هذا القصر مجلساً للشرطة وداراً للضرب (٥) .

كما كان في كل قصبة بيت مال يعلق على اعمدة في مسجدها الجامع. فبيت مال دمشق كان في صحن الجامع الأموي مرفوعاً على ثمانية أعمدة ، وكانت حيطانه مرصعة بالفسيفساء (٦). وبعد ان كان ديوان الخراج الرئيسي في دمشق في العهد الأموي انتقل إلى بغداد . ولم يعد في دمشق إلا دواوينها الخاصة . وكانت الاموال

---

١ ـ محمد جمال الدين سرور ، المرجع السابق ص ١٠٠

٢ ـ ابن العديم ، زبدة الحليب ، جزء ١ ، ص ٨٠

٣ ـ ابن العديم . المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٣٨ ، ١٣٩

٤ ـ ابن العديم ، المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٦٠

٥ ـ انظر مجلة معهد المخطوطات العربية لسنة ١٩٥٨ م ، مجلد ٤ ، جزء ١ ، مقال عن عصر المؤرخ المهلبي المتوفى سنة ٣٦٧هـ، ص٦٥

٦ ـ المقدسي ، المصدر السابق ، ص ١٨٢ و ١٥٧

تجمع في بلاد الشام من الخراج والجزية والمكوس على التجارة (١) وما كان يجبى من الفنادق وبخاصة في بيت المقدس (٢) ، فيصرف منها على العمال وحاجات البلد ، ثم ينقل الباقي إلى دار الخلافة ليوضع في بيت المال . (٣)

ولثقل الضرائب عمل صغار ارباب الضياع على الإفلات من عبء الخراج العادي بإلجاء ضياعهم الى الكبار الاقوياء . فكانت تجري بأسمائهم ليخفف عن اهلها الخراج ، فيدفعون العشر فقط كما هو الحال في الاقطاعات ، ولكنها كانت تبقى في ايدي أهلها يتبايعونها ويتوارثونها وهي بأسماء من ألجؤوها إليهم . ويقال إن هذه التلجئة كانت موجودة في عهد الأمويين (٤) .

وتجلى في هذا العصر كثرة مصادرة اموال العمال والكتاب . فقد صادر محمد بن طغج عماله مراراً ، وإذا أفلت احد من المصادرة حياً لم يكن يسلم من أخذ امواله بعد وفاته ، فكان يتعرض ابن طغج لورثته ويأخذ منهم ويصادرهم . وكان العامـــل إذا صودر وثقل عليه عبء المصادرة تبرع له اصحابه ، وجمعوا له الاموال للتخفيف عنه . وكذلك كان يفعل مع التجار والاغنياء (٥)

ومن القصص التي تذكر في هـــذا المجال ان الاخشيد كان في احد الايام خارجاً للصيد بظاهر دمشق ، فرأى حماماً فأرسل عليه الجارح فأخذه فإذا مع الحمام كتاب الراشدي إلى بعض الدمشقيين يقول فيه : قـــد حصل عندك تمام

١ ـ آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ٢١٣

٢ ـ المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٨٩

٣ ـ آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢١٣

٤ ـ آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٩٧ .
ان نظام التلجئة هذا كان بداية لنشأة نظام الحمايات الذي شاع في الدولة الاسلامية في الفترة المتأخرة .

٥ ـ محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ١٠٠ ـ احمد امين : ظهر الاسلام ، جزء ١ ص ١٢٢ وجزء ٢ ص ١٠

ثمانين ألف دينار . وانصرف الاخشيد إلى داره واحضر الرجل وطالبه بالمال واخذه منه (١)

وسار الحمدانيون على نفس الطريقة. فقام سيف الدولة بمصادرة الاموال ، كما كان يصادر التركات . وكان قاضية ابو حسين الرقي يقول : التركة لسيف الدولة وليس لابي الحسين إلا اخذ الجعالة . وشاع بين الناس القول : من هلك فلسيف الدولة ماملك .

وأدت سياسة سيف الدولة في المصادرةالى كره اهالي دمشق له ، وتفضيل حكم الاخشيديين على حكمه ، وبخاصة حين ادركوا مطامعه في غوطة دمشق لاعجابه بها من الحديث الذي دار بينه وبين احد رجالات دمشق والمسمى العقيقي ، إذ صرح له بقوله ـ بعد ان اوضح له الاخير بأن غوطة دمشق تعود ملكيتها الى اسر مختلفة ـــ ، بأنهم سيتركونها اذا استولت عليها القوانين السلطانية (٢) وقد أدت هذه الحال الى ضعف مركز رؤساء الدواوين وعمالها لكثرة ماتعرضوا له من مصادرات .

وكثيراً ماكانت الولاية تعطى للأقوى ، كما انها كانت مجال مساومة بين العمال . فقد ولي طريف حلب سنة ٣٢٤ هـ/ ٩٣٥ - ٩٣٦م ، ثم بلغه ان الخليفة قلد بدراً الخرشني ولاية المدينة ، فاتصل طريف بالوزير ابن مقله ، ودفع له عشرين ألف دينار ليتوسط لهلدى الخليفة لابقائه والياً على حلب. ولكن طلبه جاء متأخراً إذا أن الخرشني كان قد وصل الى حلب ، وجرى قتال عنيف بين الطرفين

---

١ - ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ص ١٥٥

٢ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٢١٨ - ابن الوردي ، المصدر السابق ، جزء ١،ص ٢٧٩ CANARD Sayf al Doula - ,pp 31 - 32

انتهى بانهزام طريف ، واستيلاء الحرشي على المدينة (١) .

وبالاضافة الى ذلك كان ولاة حلب يتبدلون بسرعة ، فأدى ذلك الى عدم استقرار الاحوال في المدينة . ففي ولاية مؤنس الخادم على مصر والشام الخليفة المقتدر ، اناب عنه في حلب أبا العباس احمد بن كيغلغ ، ثم ابا قابوس الخراساني ثم وصيفاً البكتمري الخادم ، ثم هلال بن بدر ، ثم وصيفاً مرة أخرى وهكذا (٢).

واكثر ما كان يهم الخلفاء العباسيين وصول أنباء الولايات الاسلامية اليهم ، ولذلك لقي ديوان البريد اهتماماً خاصاً منهم . فمما يذكر ان أهم ما كان يشغل الخليفة المنصور معرفة أحوال الناس ، وقد تمكن بفضل نظام عمال البريد عنده من معرفة أنصاره واعدائه ، فساس الرعية وهو من معرفتها على مثل وضح النهار (٣) . وكان عمال البريد يكتبون للخليفة المنصور في كل يوم عن سعر القمح والحبوب والادم ، وسعر كل مأكول ، وبكل مايقضي به القاضي في نواحيهم ، وبما يعمل به الوالي ، وبالمال المجبي ، وبكل مايهمه . وعند ورود كتبهم إليه ينظر فيها ، فإذا رأى تغيراً في الاسعار كتب الى الوالي والعامل هناك وسأله عن السبب في ذلك (٤) .

وكان الرشيد أيضاً من أشد الخلفاء بحثاً عن أسرار رعيته ، وأكثرهم بها عناية وأحزمهم فيها أمراً . وعلى نحو هذا كان المأمون . والدليل على ذلك رسالة المأمون إلى اسحق ابراهيم في الفقهاء وأصحاب الحديث وهو بالشام ، والتي

---

١ ـ سامي الكيالي : سيف الدولة : ص ٦٦

٢ ـ سامي الكيالي : سيف الدولة ، ص ٦٥

٣ ـ الجاحظ . التاج في اخلاق الملوك ، ص ١٦٩ - ١٧٠

صلاح الدين المنجد . بين الخلفاء والخلعاء ، ص ٨٧ - ٩٢ - ٩٣

٤ ـ محمد جمال الدين سرور . المرجع السابق ، ص ١٠٢

خبر فيها عن عيب واحد واحد وعن حالته وأموره التي خفيت او اكثرها عن القريب والبعيد (١) .

ومن شدة اهتمام العباسيين بالبريد أنهم كانوا يكتبون لصاحبه عهداً عند توليته يوضحون له فيه الخطة التي يجب عليه ان يحتذيها في عمله ، فقد كان عليه ان يعرف حال عمال الخراج والضياع ، وحالة عمارة البلاد ، وماهي عليه من الكال والاختلال ، ومايجري في أمور الرعية ، وان يعرف ماعليه الحكام في حكمهم وسيرهم ، وأن يعرف حال دار الضرب ومايضرب فيها من العين والورق وان يكون ماينهيه من الاخبار شيئاً يثق بصحته . وأن يفرد لكل مايكتب فيه من اصناف الاخبار كتباً . فيفرد لاخبار القضاة وعمال الخراج والضياع ، وأرزاق الاولياء ونحو ذلك كتباً ليجري كل كتاب في موضعه (٢) .

وقد راج استعمال الحمام في نقل الرسائل السريعة ابتداء من عهد الخليفة المنصور (٣) . وقد استعمله الخليفة المعتضد لسرعة وصول الاخبار إليه . فقد ارسل احد رجاله إلى اليرموك ، ليعاقب أحد الاعراب الذين تطاولوا على رجال دولته . وطلب من الرجل ان يرسل إليه الخبر مع الطير (٤) . وقد استخدم القرامطة وعامة دعاة الاسماعيلية الطير في مراسلاتهم . ومما يذكر في ذلك أن دعاة المهدي كتبوا له على اجنحة الطيور من بغداد يخبرونه بما فعله والي سلمية التركي . وانه اخبر الخليفة عن وضع المهدي في سلمية مما اضطر المهدي معه

١ ـ الجاحظ : التاج في اخلاق الملوك ، ص ١٦٩ ـ ١٧٠

ـ صلاح الدين المنجد : بين الخلفاء والخلعاء ، ص ٨٧ وص ٩٢ ـ ٩٣

٢ ـ محمد جمال الدين سرور . المرجع السابق ، ص ١٠٢ ـ ١٠٣

٣ ـ كرد علي . الاسلام والحضارة الاسلامية ، جزء ٢ ، ص ٢٠٠ ـ الادارة الاسلامية ص ١٢٦

٤ ـ كرد علي . الادارة الاسلامية ، ص ١٧٨ ـ ١٧٩

إلى ترك سلمية والتوجه إلى الرملة (١) .

وكان للبريد محطات تسمى السكك ، تتشعب من مركز الخلافة الى أطرافها ، وينقسم كل طريق إلى محطات أو مواقف أفراس . فيستبدل عمال البريد افراسهم بأفراس مستريحة في كل موقف التماساً للسرعة (٢) . ومن أهم طرق البريد التي تمر بالشام :

١ ـ الطريق من بغداد إلى الشام عن طريق الضفة الغربية للفرات ماراً بالأنبار وهيت ودمشق . وقد استخدم العباسيون هذا الطريق لنقل البريد إلى مصر بالجمازات (المراكب السريعة) . وحين عزم الفاطمون غزو مصر سنة ٣٠١ هـ / ٩١٣ ـ ٩٤١ م ليقفوا على حقيقة الحال في كل يوم (٣) .

٢ ـ الطريق الممتد من بغداد الى المغرب ويمر بالموصل ، ثم يخترق ارض الجزيرة الى سنجار ونصيبين والرقة ومنبج وحلب وحماه وحمص وبعلبك ودمشق وطبرية واللجون . ومن اللجون الى الرملة ومنها الى القاهرة فالمغرب (٤) .

وكان لطريق البريد أثر كبير في تسهيل انتقال قطر الندى ابنة خماوريه الى العراق عند زواجها من الخليفة المعتضد . وقد أمر خماوريه عمال بريد مصر باعداد الطريق بين القطائع وبغداد ، فبنوا لها على رأس كل مرحلة قصراً تنزل فيه (٥) .

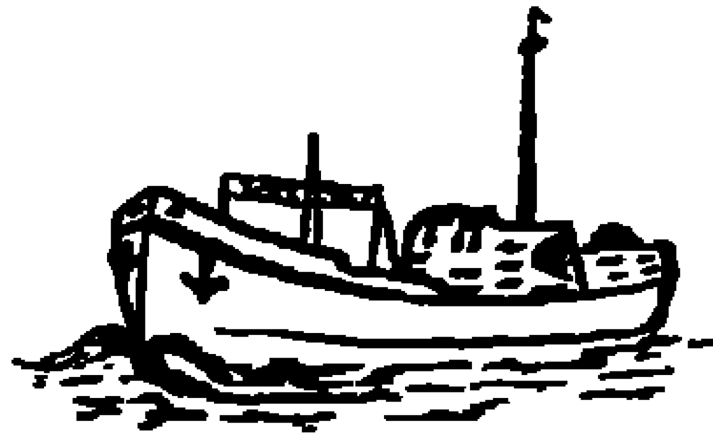
---

١ ـ محمد بن محمد اليماني . سيرة جعفر ، ص ١١٠
٢ ـ زيدان . التمدن الاسلامي ، جزء ١ ص ١٨٢
٣ ـ محمد جمال الدين سرور . المرجع السابق ، ص ١٠٤ ـ حسن ابراهيم حسن . المرجع السابق ، جزء ٣ ص ٢٧٥
٤ ـ محمد جمال الدين سرور . المرجع السابق ، ص ١٠٤ ـ آدم ميتز . المرجع السابق ، جزء ٢ ص ٤٠٦
٥ ـ حسن ابراهيم حسن . تاريخ الاسلام السياسي والثقافي . جزء ٣ ، ص ٢٧٧

وهكذا يبدو أن الادارة في بلاد الشام في هذه الفترة كانت إدارة شديدة من حيث اشراف الخلافة على البريد والاخبار ، وخاصة في الدور العباسي الاول . كما كانت الاخبار تصل بسرعة الى خلفاء هذا الدور فيجرون مايلزم . ومايشوب الادارة في هذه الفترة ، عدم توحيد الشام تحت سلطة وال واحد ، إلا في بعض الفترات البسيطة .

أما في الدور العباسي الثاني ومنذ قيام الدول المستقلة فإن الاوضاع الإدارية ساءت إلى حدما لضعف سلطة الخليفة في مركز الخلافة . ولذلك ساد تضمين الولايات وانتشرت المصادرات ، واصبحت الولاية لصاحب الساعد القوي .

الدكتورة
أمينة بيطار - جامعة دمشق



ملاحظات حول
صلة علوم الانثروبولوجيا بعلم التاريخ

(تاريخ صلات العلوم الانسانية بعلم التاريخ)

ماجد الموصلي
مدير آثار حمص

القسم (٢) (١)

١ ـ الحقيقة ان القارىء العربي الذي اطلع على بعض ماترجم حول موضوع علم الانثروبولوجيا والمجالات التي يتطرق اليها ذلك العلم ، لاشك انه قد تعرف ايضاً على بعض المصطلحات الاخرى المعربة والمتعلقة بعلوم مثل علم الاتنوغرافيا وعلم الاتنولوجيا وعلم السوسيولوجيا ، لذا اجــد من الضروري اولا التعريف بهذه العلوم قبل الانتقال الى ملاحظة علاقتها بعلم التاريخ .

طبقاً للتقاليد المعروفة حتى الان لمجالات علم الانثروبولوجيا يمكننا تحديدها على الشكل التالي : علم الانثروبولوجيا الطبيعية (دراسة الانسان وتاريخ نشوء السلالات والاعراق من الناحيه الفيزيائية) ، عــلم الانثروبولوجيا الاجتماعية (دراسة المجتمعات والشعوب ماقبل الصناعة ودراسة بنيتها الاجتماعية) ، علم الانثروبولوجيا الاقتصادية (دراسة اقتصاد السلالات وخاصة تلك التي مازالت

---

١ ـ نشر القسم الاول من هذاالبحث في العدد الاول من مجلة البحث التاريخي ص ٦٣

بعيدة عن الاندماج في الحياة الصناعية الحديثة والعالمية) وعلم الانثروبولوجيا الثقافية وهو العلم الذي يدرس ثقافات وحضارات الشعوب والسلالات البشرية لما قبل العصر الصناعي الحديث . وعلى كل حال فإن مجال علوم الانثروبولوجيا يبقى في حـــدود الانسان البدائي وحضاراته وذلك من وجهة نظر المدارس والجامعات الناطقة باللغــة الانجليزية ، أما علم الاتنولوجيا فيدرس تاريخ نشوء الشعوب وتشكلها وهو مايعرف بعلم السلالات المقارن ويتعرض هـــذا العلم في مجالات ابحاثه الى ماتتعرض له الانثربولوجيا بمختلف فروعها التي أشرنا اليها اعلاه . يدرس علم الاتنوغرافيا السلالات البشرية وحضاراتها وثقافاتها وهو العلم الذي يعرف بعـــلم وصف السلالات البشرية ، وأخيراً تدرس السوسيولوجيا المجتمعات البشرية في العصر الصناعي وبشكل خاص المجتمعات المدنية ومواضيع الاوربانيزم .

١ ـ ١ الحقيقة ان موضوع صلة علم الانثربولوجيا بعلم التاريخ شائك للغاية وذا تشعبات عديـــدة والسؤال الذي يطـــرح نفسه اولاً هو : ما وظيفة علم الانثروبولوجيا وما وظيفة علم التاريخ ؟ بعد الاطلاع على الأدب الانثروبولوجي يتبين للقارىء ان الخط العام لهذا العلم هـــو اغناء المعرفة البشرية بمعلومات عـن الشعوب التي تفتقد بشكل خاص لتاريخ مكتوب مع الاصرار على ان لها جذوراً حضارية ذات مستوى محدد وعليه فإن الشعوب المعالج موضوعها من قبل الانثروبولوجيا هي جميع الشعوب التي عاشت وتعيش جغرافياً خارج القارة الاوربية مع استثناء دراسة الحضارات ذات البعد التاريخي التى عاشت في بلاد العالم القديم (الصين والهند وبلاد مابين النهرين ومصر) فهذه الاخيرة هي من صلب موضوع الدراسات التاريخية والتاريخ الحضاري ، هذا وقد ساهمت الاتنولوجيا بمنهجها

التاريخي بإيضاح مسائل تشكل الشعوب الاوربية وحضاراتها .

هل الوظيفة التقليدية لعلم التاريخ هي فقط استعراض تقييمي لما سجل حتى يومنا هذا في الوثائق التي ندعوها بالوثائق التاريخية وللمعلومات التي يمكن لعلم الآثار أن يفيد بها علم التاريخ ؟

لقد ورد في الكتاب المترجم الى العربية والذي يحمل عنوان الانثروبولوجيا البنيويه (١) مايلي : (ولكن التوازي المنهجي الذي يراد رسمه بين الاتنوغرافيا والتاريخ لمقارنتها هو تواز وهمي : ذلك أن الاتنوغرافي يجمع الوثائق ويقدمها (اذا كان اتنوغرافيا جيداً)وفقاً لمقتضيات المؤرخ ذاتها . وانما يقوم دور المؤرخ على استخدام هذه الاعمال ، عندما تسمح له بذلك ملاحظات موزعة على فترة زمنية كافية ، ويقوم دور الاتنولوجي على استخدامها ، عندما تيسر له ذلك ملاحظات من الطراز نفسه ، تتناول عدداً كافياً من المناطق المختلفة في جميع الحالات ، يضع الاتنوغرافي وثائق يمكن ان تفيد المؤرخ . واذا وجدت قبل ذلك بعض الوثائق واختار الاتنوغرافي دمج خلاصتها في دراسته افلا ينبغي على المؤرخ - شريطة اتباع الاتنوغرافي ، بالطبع ، منهجاً تاريخياً جيداً - ان يحسده على مزية كتابة تاريخ مجتمع يملك عنه تجربة معاشه ؟

يؤول النقاش ، اذاً ، الى العلاقات بين التاريخ والاتنولوجيا بمعناها الضيق ونحن سنثبت ان الفرق الاساسي بينهما ليس فرقاً في الموضوع ولا في الهدف ولا في المنهج ، ولكنهما (باعتبار أن موضوعهما واحد ، هو الحياة الاجتماعية وهدفهما واحد ، هو فهم الإنسان فهماً ممتازاً ، ومنهجهما يتغير فيه تقدير طرق

---

١ - ص ٣٦ من كتاب الانثروبولوجيا البنيوية لمؤلفه كلود ليفي ستروس ترجمة د . مصطفى صالح ، دمشق ١٩٧٧ (حفاظاً على العلمية فقد اوردت الاستشهاد بحرفيته) .

البحث فقط ـ يتميزان على نحو خاص باختيار الآفاق المتممة .)

١ ـ ٢ (ترتبط العلوم الانثروبولوجية بعلاقات وثيقة مع بقية العلوم الأخرى فمنذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر تقوم علاقات وثيقة بين علم الآثار باختصاصاته في ماقبل التاريخ والتاريخ القديم والتاريخ المبكر وبينها ، والهدف من تلك العلاقات اعادة النظر في تقييم المفاهيم حول التطور الحضاري من البدايات الدنيا وحتى بدايات التاريخ الموثق بمصادر مكتوبة ، وعليه فإن علم الآثار بخاصيته المبنية على البعد الأفقي الواسع للتطور الانساني يزودنا بإمكانية تصور لموضوع الانتشار المتقدم للحضارة البشرية (٢) وبكلمة اوضح نستطيع القول إن علم الآثار يفيدنا بالمعلومات حول ماطمر تحت التراب من حضارة بشرية وبالمقابل يزودنا علم الانثروبولوجيا بالمعارف المتعلقة بالحضارة البشرية التي مازالت تعيش فوق التراب ، ولاشك أن علم التاريخ سوف يعتمد على العلمين في نتائج ابحاثهما لابالضرورة اعتماد طريقتهما المنهجية . (ينتج عن العمل المشترك بين علم الآثار وعلم الانثروبولوجيا البرهان على استمرارية التطور الحضاري لمنطقة محددة جغرافياً وبالتالي الوصول الى اساس متين يعتمد في البحث عن التاريخ الاثني والسلالي) (٣) كذلك الحال بالنسبة لعلم اللغات المقارن والوثائق التاريخية التي يدور موضوعها حول وصف الشعوب قديماً ، فهذه العناصر سوف تعتمد من قبل الانثربولوجيا للوصول إلى فهم افضل للديناميكية الحضارية الحاضرة ولاعادة فهم التاريخ المكتوب نفسه من جديد . وتنعكس علاقة الانثروبولوجيا ببقية العلوم وخاصة بالتاريخ على مدى ما أكملت به مادتها اوعلى مدى السرعة

---

٢ ـ ص . / ١٦ من كتاب Voelkenkunde Puen Tedermann leipzig 1967

٣ ـ ص . / ١٦ / نفس المصدر السابق

التي تحتاجها إلى اكمالها ، وحيث ان علوماً مثل علم تاريخ الاقتصاد وعلم تاريخ الفن وعلم تاريخ القانون كانت قد نشأت قبل ظهور علم الانثروبولوجيا الا ان تلك العلوم تراجعت عن بعض مواقفها بسبب استشهادها بالمعلومات الجديدة التي وفرهالها كل من العلمين الجديدين (الانثروبولوجيا) و (السوسيولوجيا) وعلى كل حال يبدو و كأن الانثروبولوجيا قد تمكنت من الوصول إلى بناء قاعدة متينة ادت بدورها إلى فهم أفضل للبنية الاجتماعية للشعوب والحضارات كما ادت بالتالي الى توفير امكانية اعادة كتابة وفهم أفضل للتاريخ المكتوب حتى الان .

١ – ٣ ورد في كتاب علم الشعوب لكل انسان (Voelkenkunde fuen Tedermann) (٤) الذي صدر في لايبزغ عام ١٩٦٧ عـن علم الشعوب ، مقطع يدور حول تطور المعرفة البشرية ونظراً لاهميته بالنسبة لموضوعنا لذا ارتأيت ترجمة بعض ماورد فيه (اذا عدنا قليلاً الى الوراء نجد ان التاريخ يفيدنا بوجود علاقات بين سكان البلاد المختلفه فمن خلال العلاقات التجارية والغزوات الحربية والهجرات تم الاتصال بين ممثلي الشعوب المختلفة بعضهم مـع بعض ، وتعلم كل منهم أساليب معيشة الاخر وقد وثقت شعوب عرفت الادب موضوع علاقاتها مع الشعوب الأخرى ، منها التي كانت تعرف الكتابة ومنها التي كانت تجهلها . . . ونتيجة للتطور التاريخي العالمي في القرن الماضي فقد احتكت الثقافات وتبودلت المعرفة ، وبعد ان تم الكشف مـن خلال أعمال التنقيبات الاثرية عن الوثائق الكتابية القديمة وجرى سبر محتواها وترجمتها إلى اللغات الحية ، ازدادت معرفتنا عن الشعوب واصبحت تلك المعلومات الأساس والمنطلق للكثير من تحليلاتنا حول تاريخ وحضارات وشعوب الأرض . . . .

فاللوحات الطينية المكتشفة في تل العمارنة والمشهورة برسائل تل العمارنة

---

٤ – ص . ١٧ نفس المصدر السابق

اوتلك المكتشفة في بوغا سكوى (آسيا الصغرى) والمعروفة بارشيف الملوك الحثيين أفادتنا بالكثير عن الشعوب والحضارات التي عاشت قبل الميلادواصبحت تعتمد ركيزة للبحث في تاريخ وحضارات الشعوب عند بداية الكتابة) (٥) وبالطبع فإن اكتشاف أرشيف ايبلا الذي يعد حوالي ١٥ ألف رقيم طيني مكتوب سيقلب الموازين بالنسبة لاعادة كتابة تاريخ سوريا ومعرفة الشعوب واللغات في زمن تسجيلها (الألف الثالث ق . م) .

١ ـ ٤ صـــلة علوم الانثروبولوجيا بمجموعة علوم اثار ماقبل التاريخ والباليونتولوجيا هي صلة وثيقة جداً ، فمن المعروف ان الحضارات البدائية التي اصطدم بها الاوربيون الغزاة عند بداية الاستعمار كانت قدصنفت من قبل العلماء الانثروبولوجيين طبقاً لنفس النظام المتبع في تصنيف الاثار التي عثر عليها تحت التراب والتي تمثل حضارات العصور الحجرية وما قبل التاريخ .ومن الجدير بالذكر هنا القول بأن أعمق سوية حضارية صنفت على اساسها حضارات شعوب بدائية معزولة جغرافياً حتى اليوم هي سوية العصر الحجري الوسيط ، وهكذا فإن كتابة تاريخ ماقبل التاريخ لشعوب بدائية انقرضت هي وحضارتها (مع مراعاة الاستمرارية) الى مراحل لاحقة اولشعوب بدائية حافظت على حضارتها نظراً لاسباب تأتي في مقدمتها العزلة الجغرافية ، اعتمدت نفس الطريقة المنهجية في التصنيف الحجري للحضارات الابتدائية ونفس النظام العلمي التطوري وعليه فقد أثرت تلك الطريقة بالتالي على أسلوب البحث والطرائق العلمية المستخدمة في الدراسات الانثروبولوجية .

كذلك الحال بالنسبة لكتابـة التاريخ السلالي والعرقي فإن الابحاث

٥ ـ ص . ١٧ نفس المصدر السابق

الحديثة المتعلقة بالتطور السريع لعلم الباليونتولوجيا سوف تؤثر تأثيراً ملحوظاً على علم التاريخ وسوف يسبب تراكم المعلومات الجديدة التي أفادنا بها هذا العلم الجديد الأخذ بمزيد من الحذر عند كتابة تاريخ الانسان القديم .

١ ـ ٥ توضحت صلة علم الاتنولوجيا بعلم التاريخ و التاريخ القديم عندما انجز فريتز هنزيل كتابه (مسائل البحث فيما قبل تشكل الشعوب) وذلك في عام ١٩٤٠ (٦) .

يعزو هنزيل تطوير طرائف البحث في أمور وصلات الاتنولوجيا مع علم ماقبل التاريخ الى البروفسور ريتشاد موكي ، وقد حدد ماركوفيتش الذي تعرف على أعمال ونظرية موكي بعد وفاة الاخير بعدة سنوات ، طريقة موكي بمايلي : اعتماد كلي على البحث في الحياة البدائية للشعوب وتحديد اتجاه الهدف بدقـــة وتعتمد نظرية موكي على بندين الاول : نظرية العلاقات المشتركة للانسان وهي مبنية على تطور شكل القوم والعائلة في ماقبل التاريخ . ثانياً : التاريخ القديم للزراعة والرعي وضمنا تاريخ الحرف اليدوية ، ترتبط النظريتان إحداهما بالاخرى ارتباطاً وثيقا وتوضحان من منطلقها الابتدائي الموحـــدموضوع تشعب اشكال الظواهر الاجتماعية والاقتصادية ، كما وتعتمدان على ملامح الظواهر الاتنوغرافية وقد أدى عرض هاتين النظريتين الى ظهور كتاب مسألة القرابة بين الشعوب الذي صدر في (غرايفسفالد) عام ١٩٠٥ وبالتالي ولد العلم الجديد ألا وهو علم اتنولوجيا ماقبل التاريخ ، وانطلق باستقلالية بعيداً عن استخدام ماعرضته بقية العلوم من نظريات حول مسائل التاريخ القديم وماضي الشعوب والقبائل وذلك بغية اعادة كتابة التاريخ وبغية حـــل مسائل موضوعها نشوء الشعوب

---

٦ ـ اسم الكتاب Probleme der - Vor - Voelker Forschung
F. Haensell . Frank furt - main - wien 1955

والقرابة بين الشعوب وغيرها (٧) .

يعتبر هنزيل الاختلاف في ظواهر الشعوب موضوع أساس البحث في اتنولوجيا ماقبل التاريخ وعلى الرغم من اشتراك الاتنولوجيا مع بقية فروع العلوم الانسانية بموضوع البحث الاساسي إلا انها تختلف عنهم باتباع منهج خاص وبالانقياد إلى البحث من خلال الاطار التاريخي للعناصر المعالجة وقد ادت ابحاث هنزيل الى معالجة مسائل معقدة مثل نشوء القبائل ، والبنية الاجتماعية المتعلقة بنظام القرابة تبعا للأم ، ونشوء الاقتصاد القبلي والاشكال البدائية لاقتصاد ماقبل التاريخ ، ونشوء اللغات وموضوع الاختلاف الاثني عند نشأة الشعوب ومسألة الشعب والعرق وصلة الاتنولوجيا بعلم آثار ماقبل التاريخ وغيرها .

١ ـ ٦ تماثل صلة علم الاتنوغرافيا بعلم التاريخ صلة علم الفولكلور اوكما يدعوه الالمان بعلم الشعب (فولكس كونده) هو علم التراث الشفوي والمادي لشعب واحد يعيش ضمن منطقة جغرافية واحـــدة والاختلاف بين الاتنوغرافيا الفولكس كونده هو اختلاف فقط من ناحية توجيه البحث إلى الشعب الذي يعيش فيه الباحث (في حالة الفولكس كونده) أوتوجيهه إلى الشعوب الاجنبية (في حالة علم الاتنوغرافيا) الا ان كلا من العلمين يشتركان في استخدام نفس المنهج الميداني وعليه فإن الفولكس كونده في ابحاثها المتعلقة بموضوع دراسة العناصر الثقافية الشفوية والمادية هي في الوقـت ذاته علم تاريخ الحياة الثقافية والاقتصادية لشعب ما في حاضره و (بالمقارنة) في ماضيه .

٢ ـ بناء على ماورد اعلاه يمكننا أن نخلص إلى النقاط التالية :

١ ـ علم الانثروبولوجيابفروعه الثلاثة (الانثروبولوجيا الثقافية والانثروبولوجيا الاجتماعية والانثروبولوجيا الاقتصادية) هو علم جـديد يتصف بالمنهج

---

٧ ـ ص . ٢٧ نفس المصدر السابق

الميداني ويعتبر المعطيات التاريخية جانباً ثانوياً يمكن أن تفيد في توضيح الخلفية والبعد الزمني لمواضيع البحث .

٢ ـ علم الاتنولوجيا هو علم يقوم بدور الوسيط بين المعطيات التاريخية واللغوية من جهة والمعطيات الاتنوغرافية مـــن جهة اخرى ، وينبغي حل المسائل الاثنية الغامضة مع اعتماد مناهج متغايرة وطبقاً لموضوع البحث .

٣ ـ علم الاتنوغرافيا هو علم وصفي يستخدم المعطيات التاريخية لإكمال وصف العناصر الثقافية المبحوثة مع اعتماد المنهج الميداني في البحث .

٤ ـ علم السوسيولوجيا هو علم الاجتماع بحرفية الكلمة ويعتمد على المعطيات التاريخية الاتنولوجية والاتنوغرافية كبعد زمني مـــع الاصرار عـلى اعتماد المنهج الميداني فقط في ابحاثه .

٥ ـ يعتمد علم التاريخ على جميع المعطيات العلمية التي تنتج عن ابحاث العلوم المنوه عنها اعلاه .

٦ ـ تعتبر المعلومات العلمية التاريخية الناتجة عن أبحاث علم آثار ماقبل التاريخ مفيدة جداً بالنسبة للعلوم الانثروبولوجية .

٧ ـ تعتبر الاتنولوجيا من أقرب العلوم الانثروبولوجية إلى علم التاريخ لسبب اعتماد المنهج التاريخي المقارن والواحد في البحث

٨ ـ ان الاختلاف في اعتماد المنهج الواحد في البحث العلمي بين كل مـــن علم التاريخ وعلوم الانثروبولوجيا يمكن أن يؤدي إلى تناقض في علاقة الكم والكيف للنتائج المستخلصة عن بحث موضوع واحد .

٩ ـ لاشك ان المعلومات الناتجة عن الابحاث الانثروبولوجية يمكن ان تكون معياراً محترماً لعملية اعادة كتابة تاريخ منطقة ما .

١٠ـ من أفضل الامثلة عن العلاقة الوطيدة بين التاريخ والانثروبولوجيا هـو ظهور كل مـــن المدرستين الانثربولوجيتين (المدرسة الثقافية التاريخية الالمانية (٨) ومدرسة التاريخ الثقافي الامريكية (٩) .

للبحث صـــلة

ماجد الموصلي



٨ ـ تدعى هذه المدرسة باللغة الالمانية Die Kulturhistorische - Schule

٩ ـ تدعى هذه المدرسة بـ History Of Cuerure وتنسب الى مؤسسها فرانتز بواس لذا تعرف بـ Boas Schule

حمص

قلعتها - أسوارها القديمة - أبوابها

اعداد الاساتذة

محمد الشاطر - منذر حمودي

عندما حاولنا البدء بكتابة تاريخ حمص برزت أمامنا عدة صعوبات واقعة ، أهمها ان ما كتب عن حمص قديماً وحديثاً من القلة والتبعثر بحيث لايساعد على كتابة أبحاث منظمة مختصة . وأيضاً فإن الآثار القديمة قد زالت أو ازيل معظمها . فاجتمعت عليها قلة الكلام و كثرة النسيان ، وكلما مرت الايام على هذا المنوال زادت الصعوبات فما كان قائماً مفيداً اضحى اليوم في حكم المجهول يتساءل عنه الناس . ومعول الهـدم مازال مستمراً وهكذا نغوص في المجهول اكثر فأكثر ، فوادي القلعة وبقايا السور في الشرق وحي الاربعين كلها الآن في طريق الزوال ، من هنا كنا في الجمعية التاريخية أمام مهمة دقيقة وعاجلة لرصد ماتبقى واستطلاع ماغاب ، ومهما بذلنا من جهد وأوتينا من عزيمة فإننا لن نبلغ المستوى المطلوب الامثل مـع حرصنا على اتباع المنهج التاريخي الصحيح ، حسبنا أننا بدأنا الرحلة ونأمل من الاخـوة والزملاء المعنيين بهذا النوع من الكتابة أن يقدموا للمجلة مالديهم من بحوث وموضوعات جديدة حول المدينة وتوابعها ليصار إلى نشرها (١) . وسنبدأ بالاطـار الخارجي للمدينة (القلعة الأبواب

١ ـ ان مجلة البحث التاريخي تفتح صدرها لكل بحث تاريخي اوميداني يتعلق بمدينة حمص وترجو السادة الباحثين والعلماء والقراء ان يتفضلو بابداء ملاحظاتهم وتصحيحاتهم حول مانشر من هذه البحوث ليصارالى استدراكه في أعداد قادمة .

الأسوار) مراعين في البحث النواحي الثلاث التالية :

أ ـ ماورد في المصادر القديمة حول القلعة والأبواب والأسوار

ب ـ وصف الوضع الراهن لهذه المعالم

جـ ـ ربط حاضر هذه المعالم بماضيها

د ـ ورد في فتوح الشام للواقدي (١) ص ٩٧ عن فتح حمص مايلي :

وقسم الامير ابو عبيدة (٢) عسكر المسلمين أربع فرق فبعث فرقة مع المسيب بن نجية الفزاري (٣) فنزل بهم على باب الجبل ممايلي الباب الصغير . وبعث فرقة أخرى مع المرقال هشام بن عتبة بن أبي وقاص (٤) فنزل بهم على باب الرستن وبعث فرقة أخرى مع يزيد بن ابي سفيان (٥) فنزل بهم على باب الشام ونزل الامير أبو عبيدة وخالد بن الوليد (٦) رضي الله عنهما على باب الصغير والعرب قادمون هنا من بعلبك بعد فتحها .

وعلى هذا فلحمص أربعة أبواب « باب الجبل ـ باب الصغير ـ باب الشام باب الرستن » .

---

١ ـ الواقدي ؛ محمد بن واقد السهمي من أقدم المؤرخين في الإسلام ومن أشهرهم ، ولي قضاء بغداد أيام الرشيد . فقال الزركلي وينسب إليه كتاب « فتوح الشام » وأكثره مما لاتصح نسبته إليه . توفي الواقدي عام ٢٠٧ هـ ـ ٨٢٣ م .

عن الأعلام ٦ / ٣١١ ط . ٤

٢ ـ ابو عبيدة بن الجراح ؛ عامر بن عبد الله بن الجراح ، وهو احـ العشرة المبشرين بالجنة توفي بعمواس قرب الرملة عام ١٨ هـ

أسد الغابه ٣/ ١٢٨

٣ ـ ورد اسمه في تاريخ الطبري المسيب بن نجبة « بالباء » ٤ / ٤٨٨ وفي مواضع أخرى

٤ ـ هشام بن عقبة بن ابي وقاص المرقـال أسلم يوم الفتح ، وكان مـن الشجعان الابطال والفضلاء الأخيار ، شهد صفين مع علي بن ابي طالب .

أسد الغابة ٥ / ٣٧٧

٥ ـ يزيد بن ابي سفيان ، كان أفضل بني سفيان ، وكان يسمى يزيد الخير . من الابطال الفاتحين ، توفي بطاعون عمواس سنة ١٨ هـ .

أسد الغابة ٥/ ٤٩١

٦ ـ خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي ، سيف الله ، الفاتح الكبير ، قاتل الردة وشارك في فتح العراق ، وقاد الفتح في الشام ، توفي في حمص عام ٢١ هـ ـ ٦٤٢ م

عن الاعلام ٢/ ٢٠٠ ط ، ٤

وعن القلعة جاء في مجلة الحوليات الاثرية (٧) . ولدينا في كتاب « الرحلة الشائقة إلى مصر وسوريا » للرحالة كساس صور تمثل قلعة المدينة دون أسوارها وتبدو القلعة المذكورة في هذه الصورة على شاكلة القلاع الايوبية والمملوكية المعروفة والتي بنيت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادية والتي لدينا نماذج متعددة منها كقلاع حلب وحماة وشيزر ودمشق والنمرود وغيرها.

وقد ظهرت أبراجها المربعة فوق منحدرها الذي يحيط به الخندق على اشكال منشآت قلعة حلب ، ولاشك أن هذه القلعة كانت كمدينة ملكية يقيم فيها سلطان حمص وترتفع على ماحولها بنحو ٣٢ م » .

وفي نفس المصدر السابق ص ٢٧ جاء حول الاسوار والابراج مايلي :

« اما أسوارها وأبراجهافزالت ايضاً ولم يبق منها الا الشمالي الذي يحوي كما أسلفنا الكتابتين الاثريتين وقد انصرفت المديرية العامة للآثار والمتاحف الى ترميم هذا البرج الشمالي وكشف مايحيط بالبرج المذكور من سور ، كما اكتشفت وتحته باباًمدخلاً كان ينفذ منه الى القلعة ولعل هذا الباب كان باب القلعة



الشكل (١)

---

٧ ـ انظر المجلد العاشر ص ٢٦

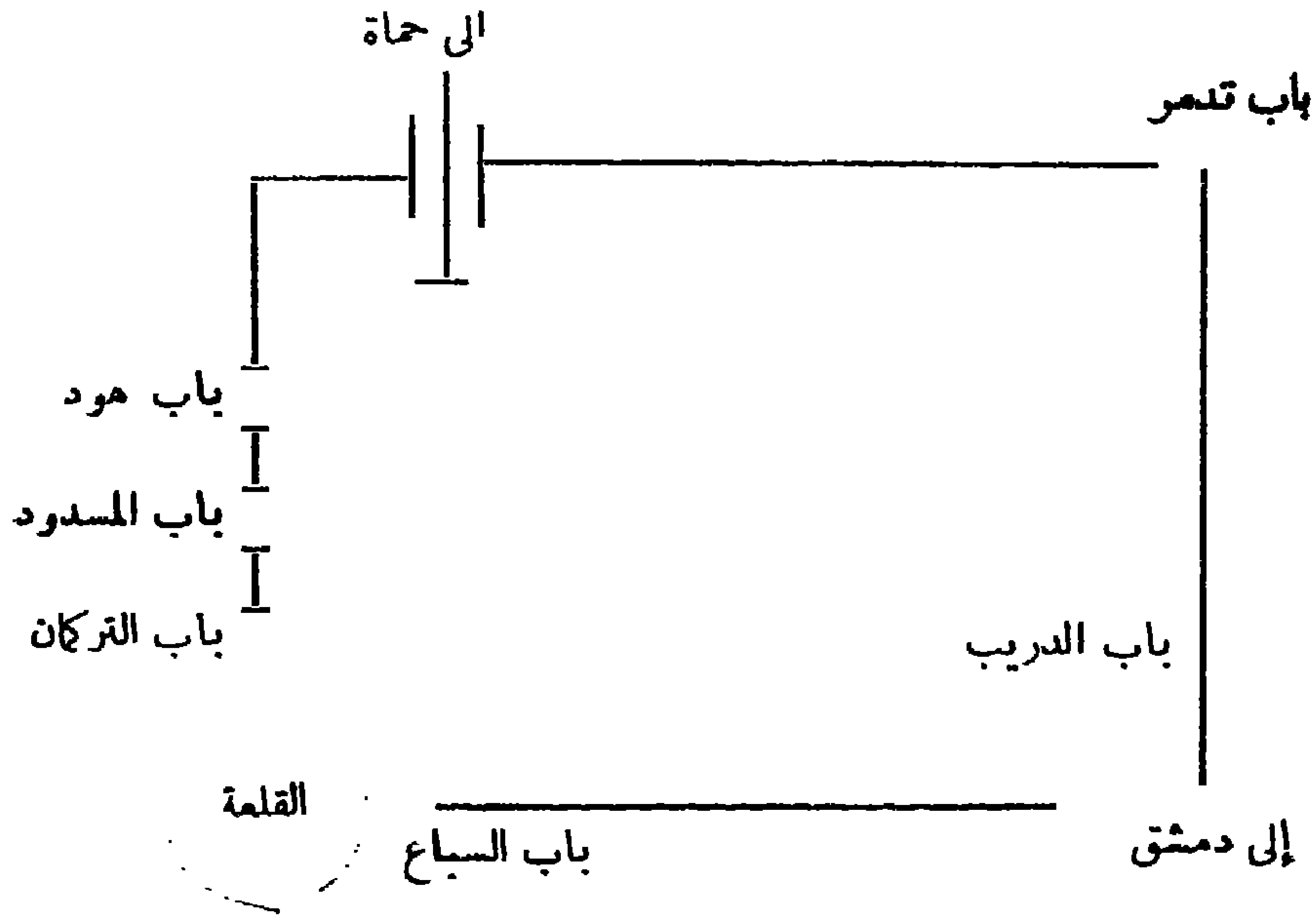
الرئيسي القديم . »

وعـــن تهدم المدينة واسوارها جاء في كتاب الحروب الصليبية في الآثار السريانية للقس اسحق أرملة للسرياني ص ١٤٢ مايلي :

وفي هـــذه السنة ١١٥٧ حدثت زلازل شديدة أخربت بلاداً شتى في سوريا كحماة وسلامية وحمص وحلب وكفر طاب وأفاميا وحصن الاكراد وعرقا وأغلب بلد انطاكية وطرابلس ، وأتلفت الزلزله في شيزر أربعين الف نسمة ، وانهار مضف جبلها الذي تعلوه قلعتها المشهورة » .

كما أن معبد اله الشمس « ايبلا غابال » الذي كان الحجر الاسود موضوعاً فيه والذي كان يعد ملاذاً مقدساً يحرم مس من يلجأ اليه بسوء وكان مكانه موضع الجامع النوري الكبير الحالي (١) . « الحوليات الاثرية » ص ١٧ .

وقد وضع الدكتور ساطع محلي في كتابه عن حمص مخططاً للمدينة يعود تاريخه إلى عام ١٨٠٠ م.وإليك المخطط (٢) .



١ ـ الحوليات الاثرية ١٠ / ١٧

٢ ـ حمص أم الحجار السود ، ١١٦

بعد استعراضنا ماورد في المصادر القديمة ننتقل الى البحث الميداني للقلعة والاسوار :

تقع القلعة ضمن الحي المعروف باسم «باب السباع» وهي عبارة عن تل طبيعي حفر ماحوله ورد التراب الى القلعة فازداد حجمها وعلى ذلك يكون القسم الأدنى منها طبيعياً والاعلى اصطناعياً .

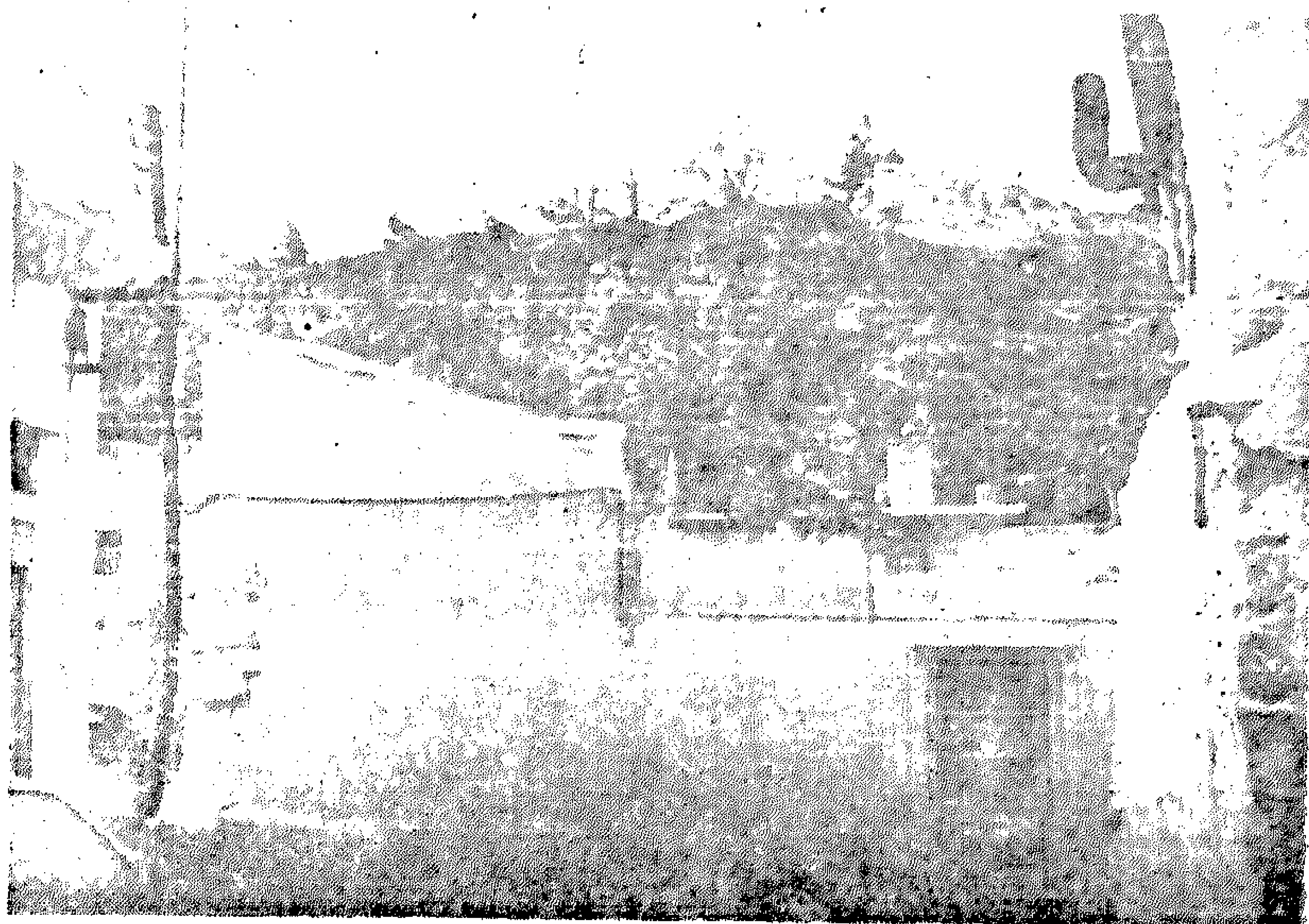


الشكل (٢)

سور حمص وخندقها في الجنوب :

فإذا وقفت في الشرق في الشمال الغربي من حمام الفرج حالياً على الطريق النازل الى سوق الحشيش ونظرت إلى القلعة لوجدت جداراً مبنياً من حجارة سوداء

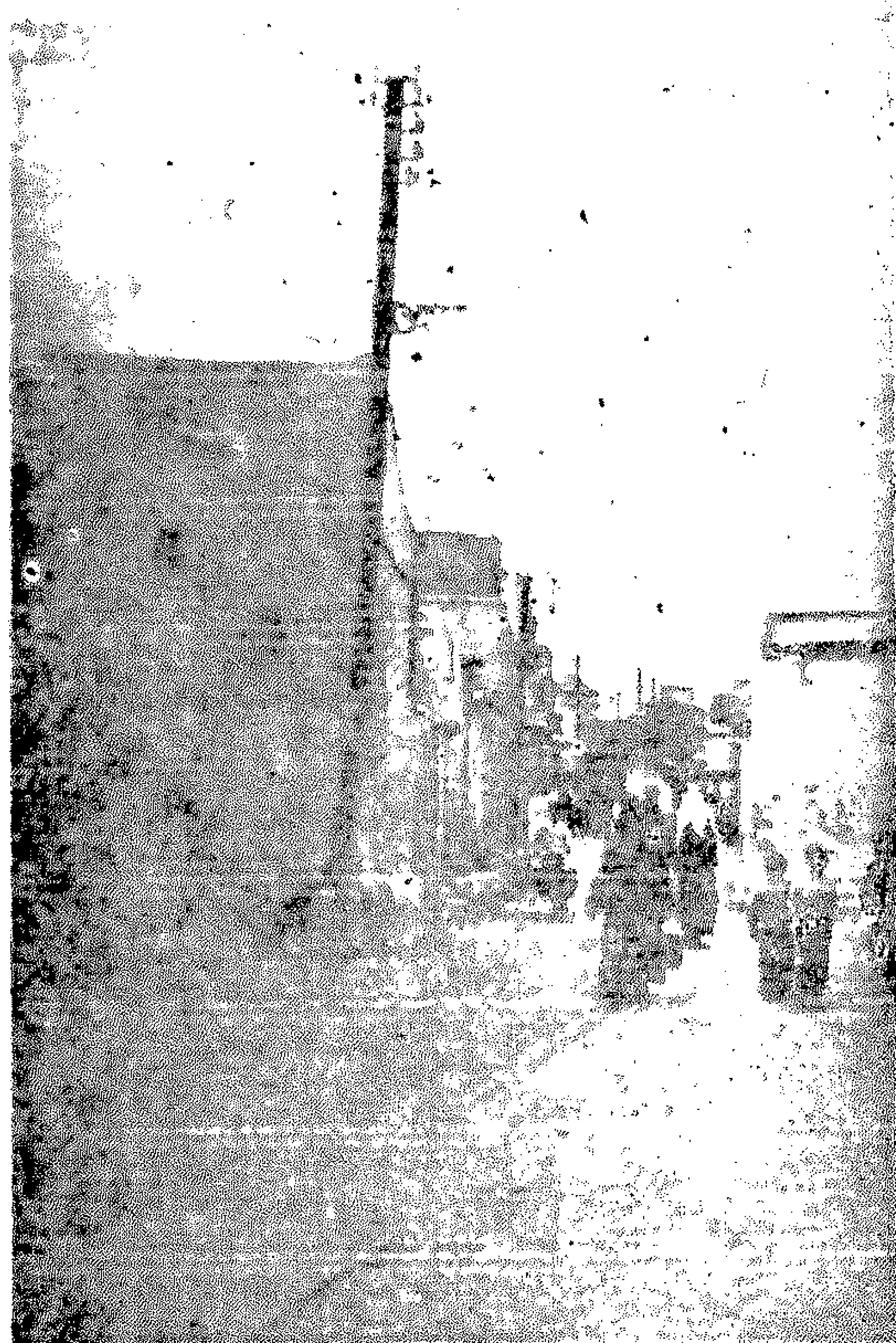
وبيضاء كبيرة هابطاً نحو الشرق ليطل في اسفل القلعة بحجارة كبيرة مازال بعضها قائماً حتى الآن على نفس الطريق ، هذه الحجارة هي بقايا السور القديم .



الشكل (٣)

والحجارة الموجودة على الطريق هي بقايا الباب الجنوبي القديم لمدينة حمص والمعروف حالياً باسم باب السباع (انظر الشكل ٤) والقلعة كلها محاطة بخندق اصطناعي يسير ليحيط بالاسوار والابواب كلها فيحدق بالبلد من جوانبها الاربعة. فإذا ما اتجهنا من باب السباع شرقاً مقابل السور الهابط من القلعة وجدنا آثار الخندق القديم واضحاً بينما لاأثر للسور حيث تهدم واقيمت مكانه الابنية المختلفة ، تظل هذه الحال قائمة حتى نصل إلى مايعرف اليوم باسم مقام كعب الاحبار الواقع إلى الزاويه الجنوبية الشرقية للمدينة مقابل الجهة الغربية حيث نجد بقايا احجار مشابهة لتلك التي وجدناها في باب السباع وسور القلعة العلوي هي بقايا الباب الثاني أو مايعرف اليوم باسم « باب الدريب »



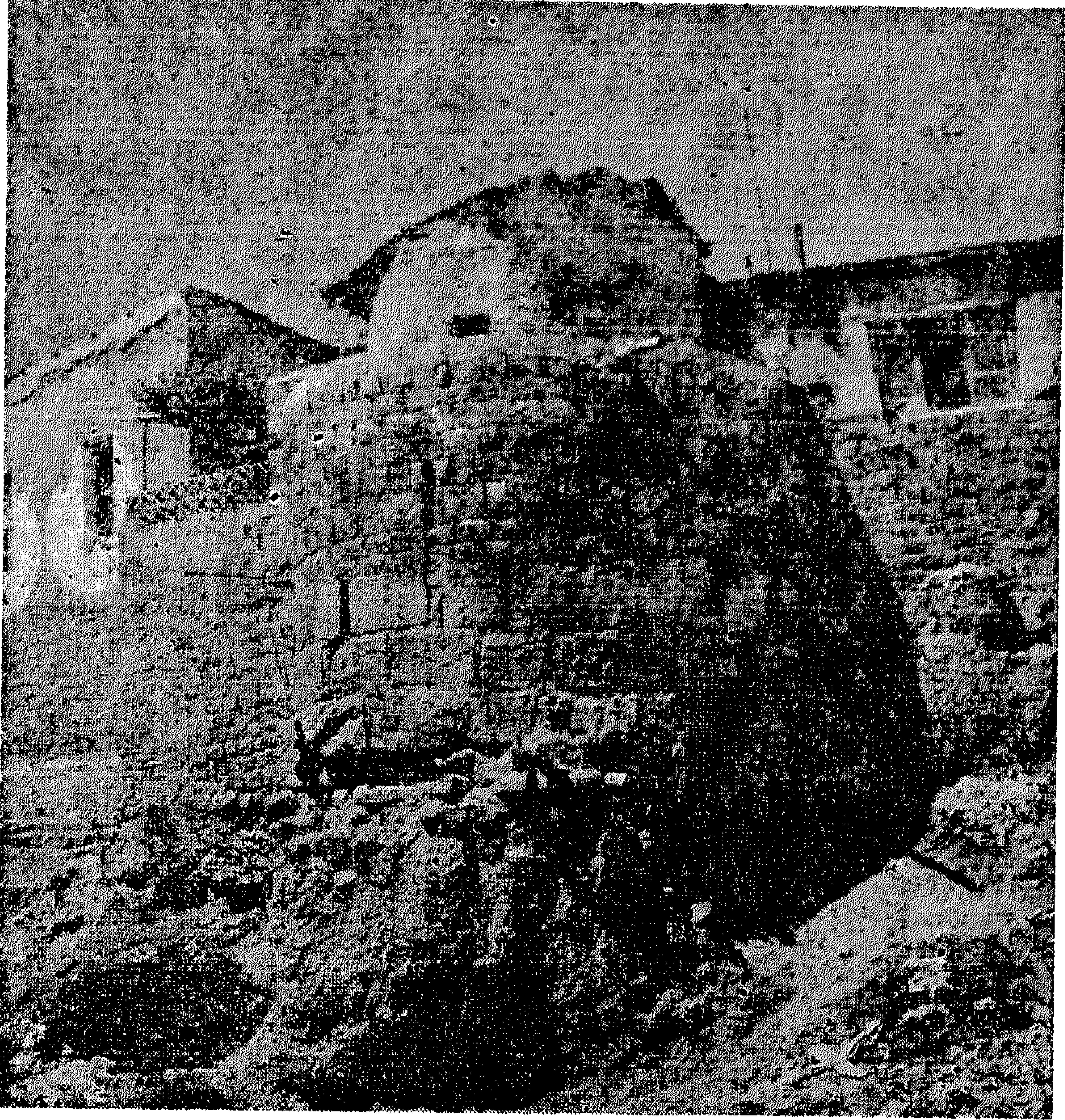


الشكل (٤)



الشكل (٥)

إلى الشمال يبدأ الوضوح حالياً في كل من الخندق والسور حيث تجد بقايا السور بعرض « ١٫٥ م » وعلى السور مازالت بقايا بعض الابراج المبنية من حجارة



الشكل (٦)

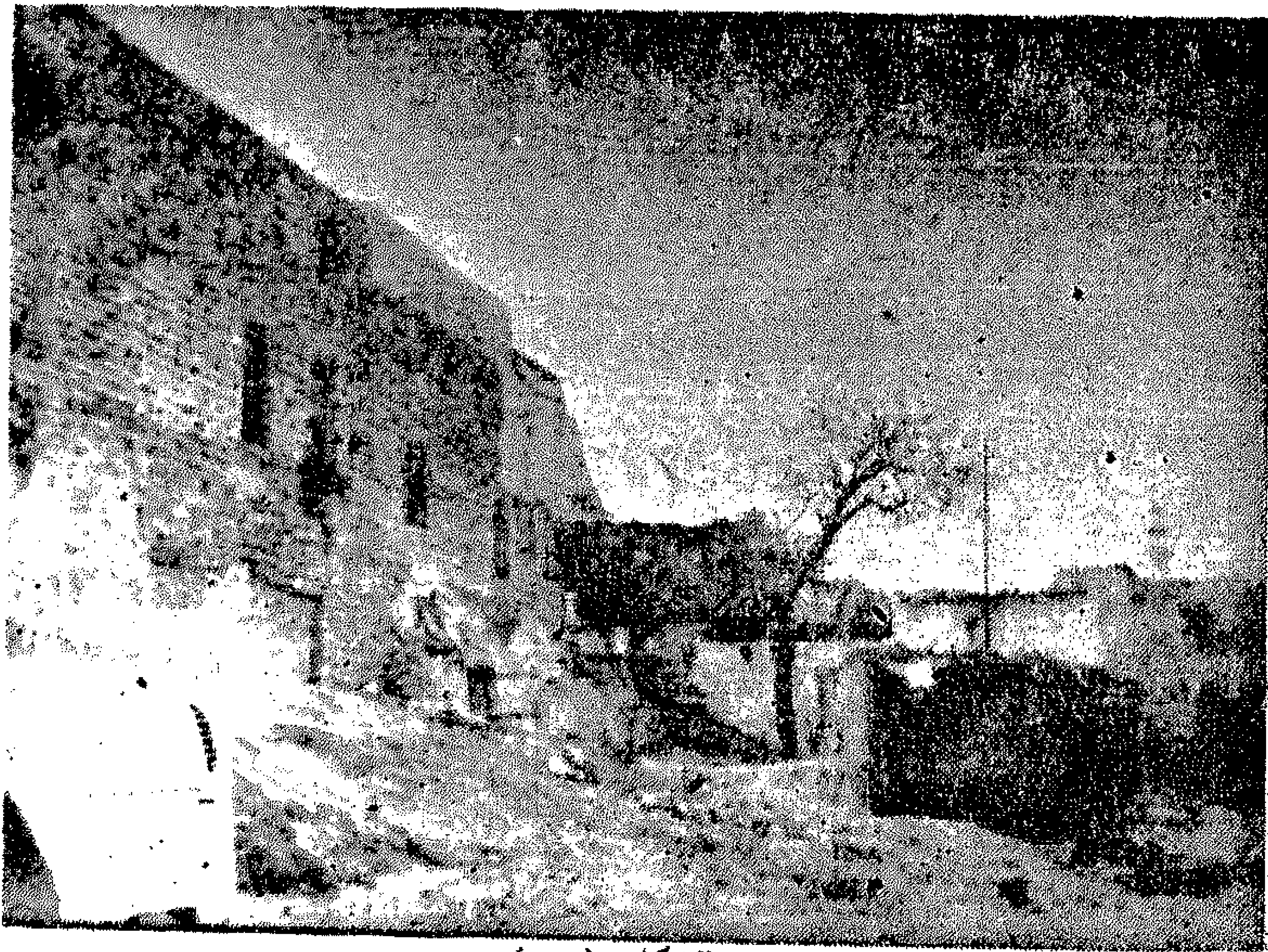
مختلفة ومتباينة بعضها مشابه لحجارة ابراج القلعة نفسها وبين البرجين القائمين الآن ومقابل اعدادية عزة الجندي يقع المكان المعروف باسم طاقة أبي جرس، ومن هذه الطاقة دخل المسلمون إلى المدينه خلال عمليه الفتح، ومن الطاقه يمكن رؤية جرس ماراليان ، حتى إذا ماوصلنا الى النهاية الشرقية لشارع الحميدية وبعد أن نسير

غرباً بطريق صاعدة قرابة عشرين متراً وعلى امتداد السور نفسه نلاحظ ايضاً بقايا احجار قائمة وملقاة على الارض هي بقايا الباب الثالث المعروف اليوم باسم « باب تدمر » وهنا يسير الخندق باتجاه الغرب جاعلاً سوق الحميديه الحالي



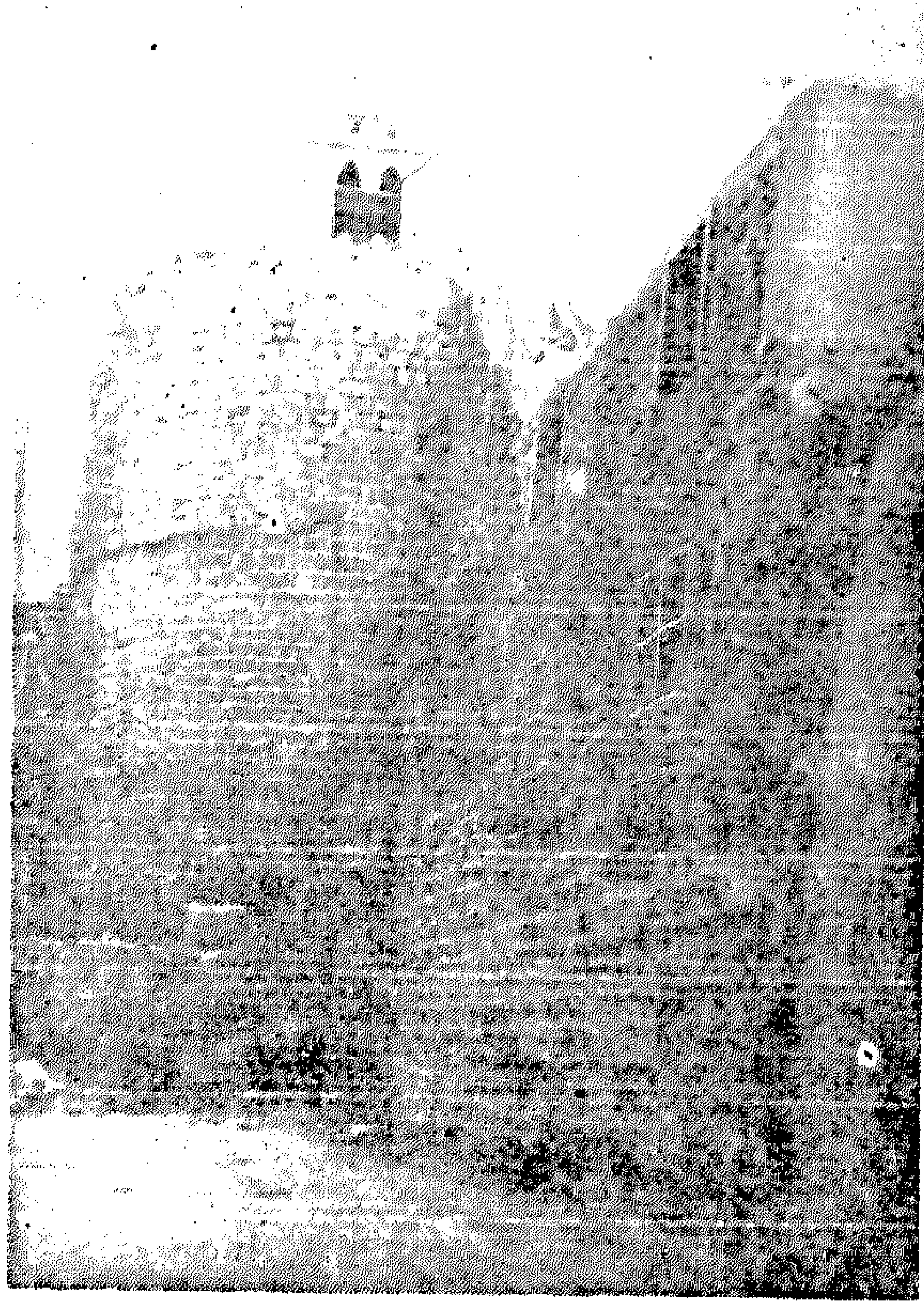
الشكل (٧)

بجانبه خارج السور ، ولمسافة ١٠٠ م باتجاه الغرب تظهر بوضوح بقايا السور والخندق وبرج من نفس النمط الشرقي بعدها تزول معالم السور والخندق حيث



الشكل (٨)

لاتجد لها أثراً الا في حي لأربعين خلف المجمع الحكومي الحالي حيث آثار السور والابراج واضحة في غرب المدينه القديمة ٠



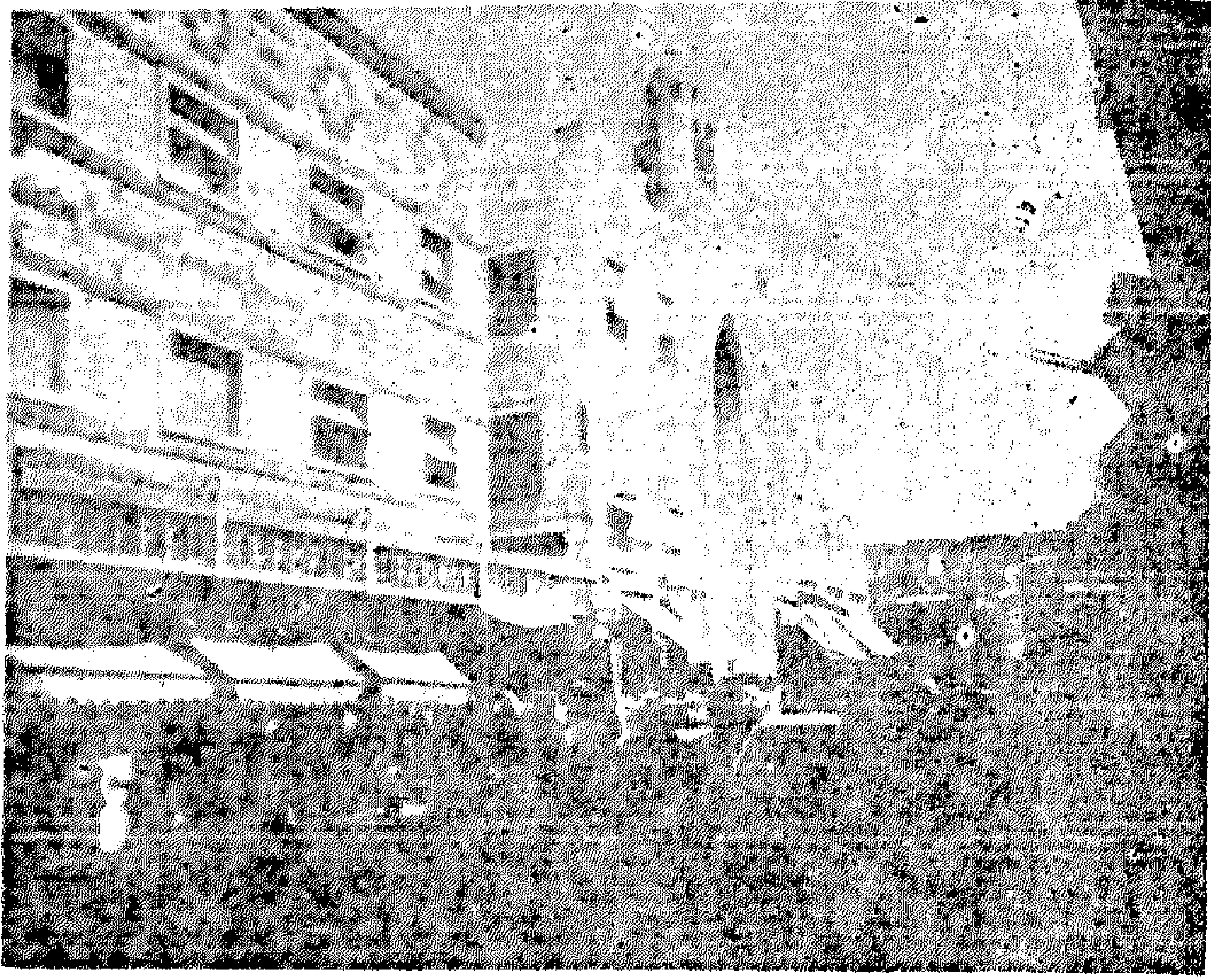
الشكل (٩)

جـ ـ أما الباب الرابع الذي عرف باسم « باب السوق » فلا اثر له ومن اقوال القدماء صح لدينا بانـــه يقع مقابـــل الزاوية الشمالية الغربية لبناء الاوقاف الحالي كما هو مبين في الشكل . (١٠)

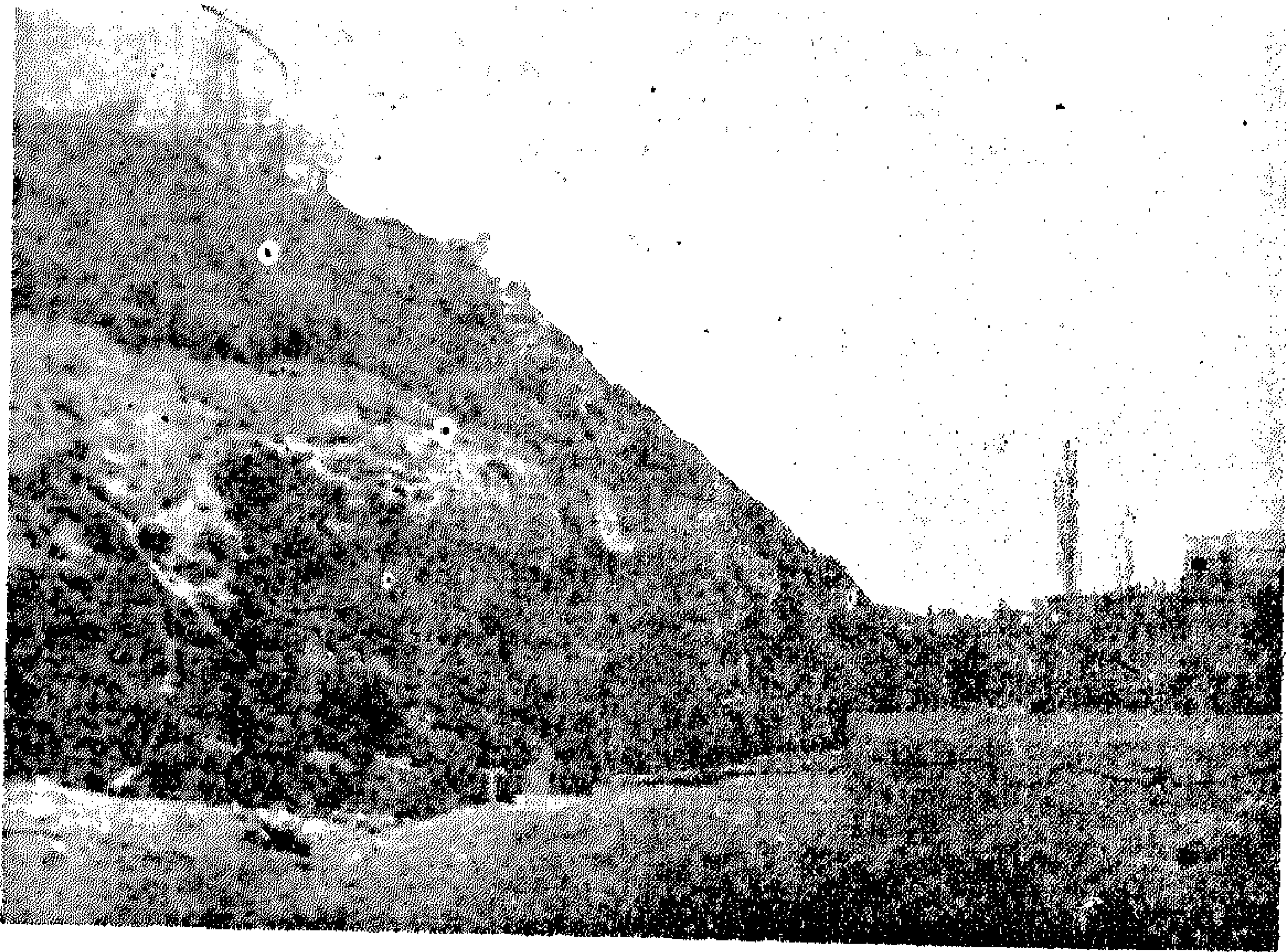
وهذا الموقع يقابل السور الثاني الهابط من القلعة من الشمال ليصبح شكل البلد مستطيلاً اذا أربعة ابواب متقابلة ومتناظرة تماماً . **أنظر الشكل ١١**

أما الابواب (باب التركمان - باب المسدود - باب هود) فهي من الابواب

أنظر الشكل ١٢ و ١٣



الشكل (١٠)



الشكل (١١)

الملحقة غالباً في العصر الايوبي وهـــذه الظاهرة تجدهـــا واضحة في الباب المسدود القائم بشكل واضح حتى الان . اذ نجد خليطاً من أحجار متعددة غير متجانسة مما يدل على أنها جمعت جمعاً من ابنية مهدمة .هذه الابواب تجد سورها



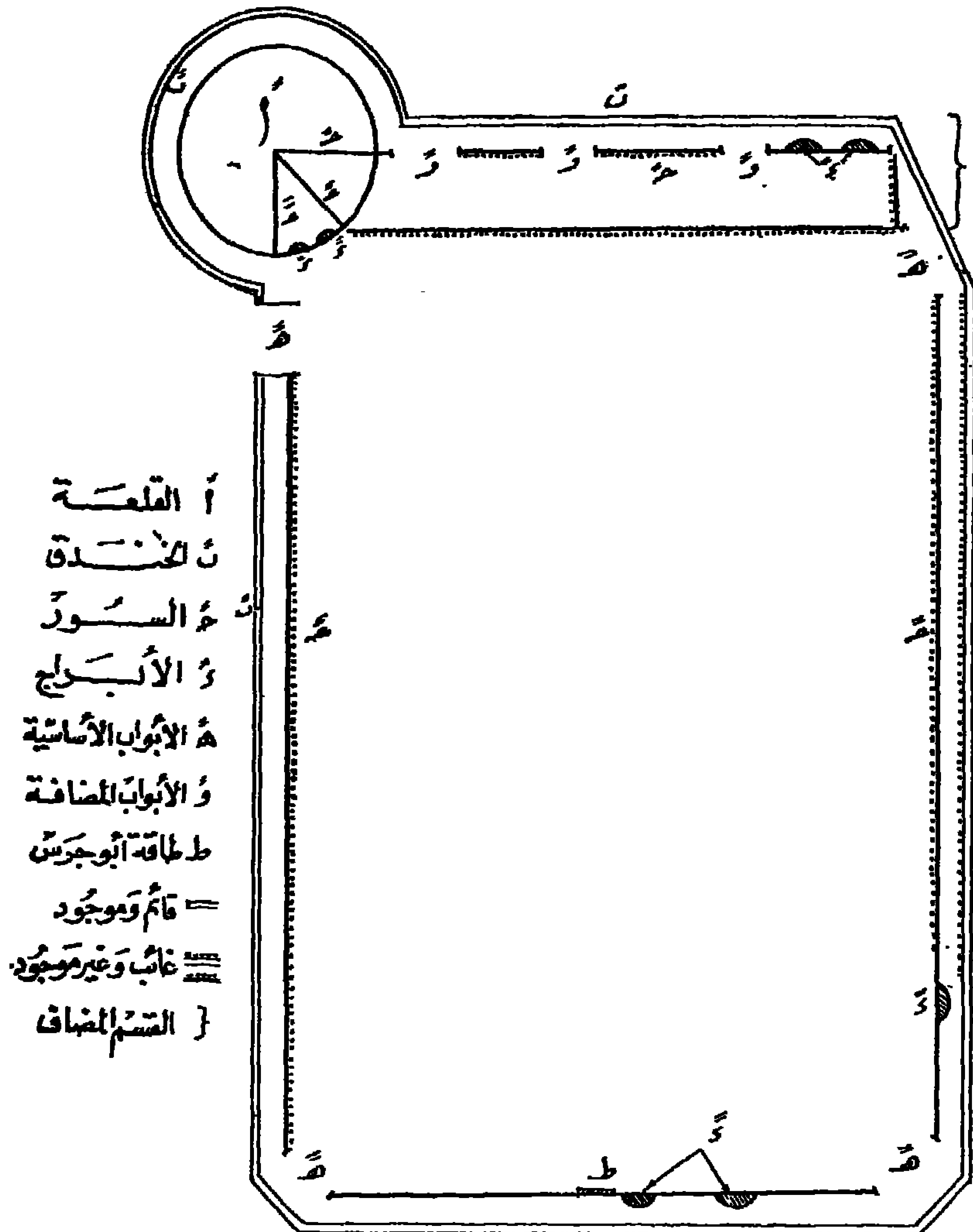
الشكل (١٢)



الشكل (١٣)

هابطاً من أعلى القلعــة ليتصل بباب التركان كما في الشكل ٧ ثم الى الباب المسدود لينتهي اخيراً في حي الاربعين حيث بقايا الاسوار وايتجه شرقاً ويلتقي

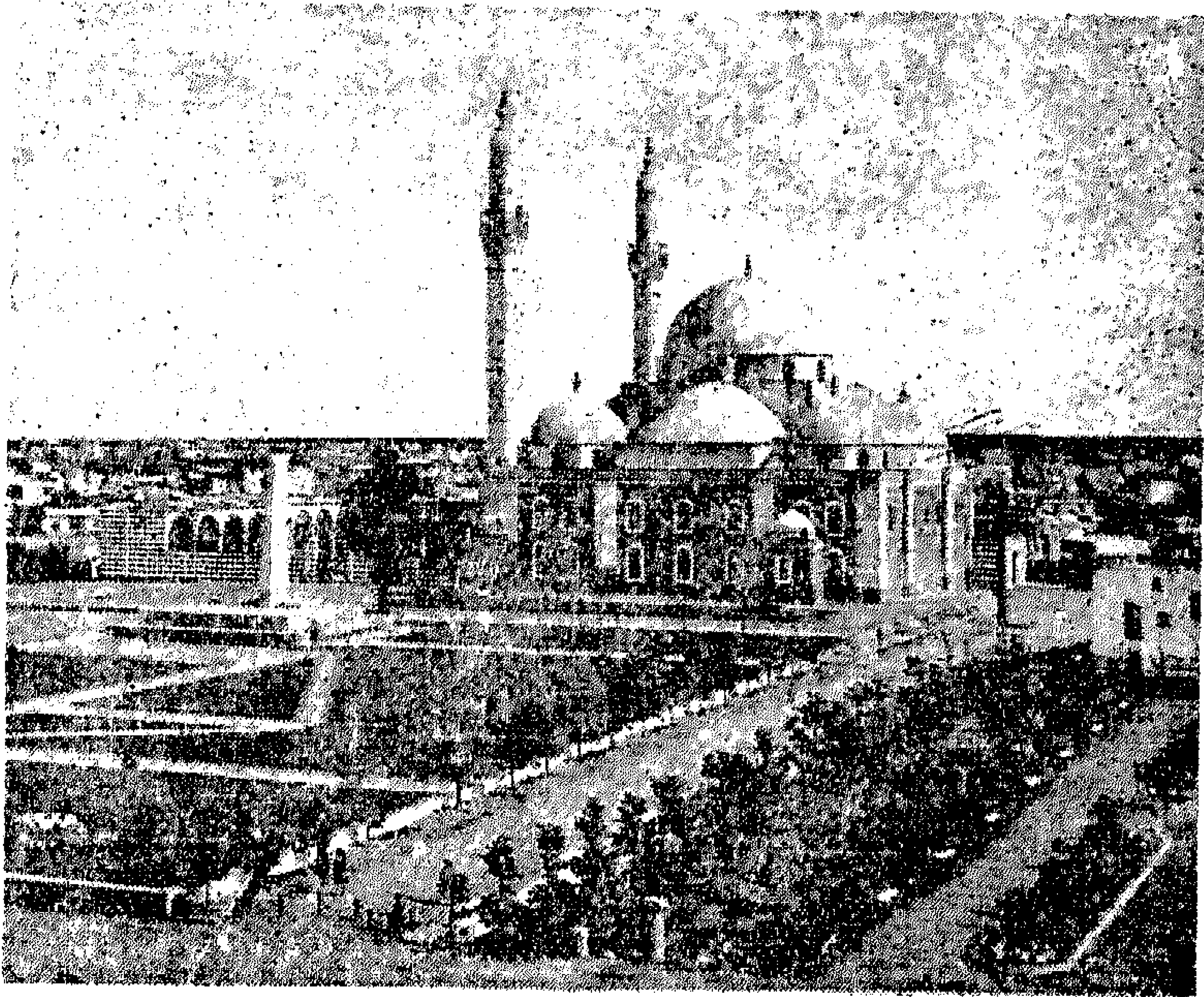
بالباب الرابع (باب السوق) كما هو مبين في الشكل ١٠ اذن هـــذا هو القسم الجديد وخندق باب هود هو الخندق الحالي لهذا القسم من السور . أما الخندق المحيط بالسور الاساسي من جهة الغرب فقد زال وتجد بقاياه في الارض المنخفضة او الممتدة مابين جامع النوري ونهايــة باب التركمان حيث يلتقي مـــع السور الهابط من القلعة .



الوضع القائم والتكويني لأسوار حمص القديمة وقلعتها

مسجد خالد بن الوليد

للأستاذ رياض البدري



تعرف حمص (١) بمدينة بن الوليد لأن تربتها تحتضن رفات القائد العربي المظم خالد بن الوليد الذي سنتحدث في هذه المقالة عن تاريخ المسجد المسمى باسمه وقبل أن ندخل فى صلب الموضوع لابـــد لنا من أن نلم إلمامة سريعة بحياة

١ ـ مدينة قديمة يعـود بناؤها الحالي الى ما قبل ميلاد السيد المسيح بحوالي ٢٣٠٠ سنة . ذكرت قديمـاً باسماء عـدة (حامـات ـ صوبات ـ أميـا ـ أميز ـ حومـوس) وهي المدينة الثالثة بعد دمشق وحلب ، وتقع وسط الجمهورية العربية السـورية ، شرقي نهر العاصي نحو ٢ ـ ٤ كم وترتفع عن سطح البحر حوالي ٥٠٠ م ، وقد شغلت من تاريخ سورية مكاناً ممتازاً لما تتمتع به من ميزات ولما شهدته من احداث .

الفاتح المظيم (١) .

هو خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي القرشي . كان من أشراف قريش في الجاهلية ، يـلي أعنة الخيل ، وشهد مـع مشركيهم حروب الإسلام إلى الحديبية ، وأسلم قبل فتح مكة سنة ٧ هـ ، فسر به الرسول ﷺ وولاه الخيل ، ولما ولي أبو بكر وجهه لقتال مسيلمة ومن ارتد مـن أعراب نجد . ثم سيره إلى العراق سنة « ١٢ هـ » ففتح الحيرة وجانباً عظيماً منه . وحـوله إلى الشام وجعله أمير فيها من الأمراء ، ولما ولي عمر عزله عن قيادة الجيوش بالشام وولى أباعبيدة بن الجراح ، فلم يثن ذلك من عزمه واستمر يقاتـل بين يدي أبي عبيدة إلى أن تم لهما الفتح سنة « ١٤ هـ » فرحل إلى المدينة ،فدعاه عمر ليوليه فأبى. ومات بحمص في سورية وقيل بالمدينة . (٢)

وكانت وفاته عـام ٢١ هـ = ٦٤٢ م .كان مظفراً خطيباً فصيحاً يشبه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلقه وصفته . قـال أبو بكر رضي الله عنه عجزت النساء أن يلدن مثل خالد .

تاريخ الجامع

تذكر المصادر التاريخية بأن قبر خالد بن الوليد شمله الاصلاح سنة ٦٦٤ هـ ولم يكن قبر خالد آنذاك إلا مقاماً مـن المقامات التي كثرت بحمص فيذلك العصر . إلاأنه لم تذكر أوصاف عن بناء هـذا القبر ، واكبر الظن انه كان

١ ـ اعتمدنا على كتاب الاعلام في سرد خلاصة مركزة لحياة ابن الوليد .
الاعلام ٢/٣٠٠ ط ٤

٢ ـ قال ابن الاثير في أسد الغابة ٢ / ١١١ :
وتوفي (خالد) بحمص من الشام ، وقيل بل توفي بالمدينة . وانظر أيضاً العبقريات الإسلامية للعقاد : ٨٩٩

« هيئة التحرير »

كالمدارس والمدافن الايوبية والمملوكية التي نشأت آنذاك .

وقد أدرك الظاهر بيبرس ضريحه فبنى فوقه مسجداً صغيراً ، وكان المسجد تابعاً لضاحية المدينة ، التي كانت تسمى قريـــة سيف الله خالد بن الوليد ، وتبعد عن حمص نحو ميل ، لكنه حالياً الى الشمال في ظاهر مدينة حمص بحي الخالدية ، نظراً للتطور العمراني الكبير الذي حظيت به المدينة .

وكان تجديد الملك الظاهر بيبرس لمقام خالد اثناء عبوره حمص للاغارة عـلى مدينة سيس (١) وماحولها في كيليكيا .وتشير الى حادثة مرور الملك الظاهر بحمص كتابتان اثريتان هامتان ، وهما مكتوبتان بخط نسخي جميل سنأتي على ذكرهما فيما بعد .

وبعد ان كان بناؤه القديم قوياً ذا ركائزضخمة وسقف عقد متين ، قام ناظم باشا احد ولاة الشام في عهـــد عبد الحميد الثاني واستحصل على مبلغ / ٦٠٠٠ / دينار عثماني اكملها بثمن الحلي التي كانت على الضريح ، وهدم البناء القديم كله وشرع بإقامة البناء الجديد على نسق جامـع القسطنطينية (جامع السلطان احمد) فجاء عند ختامه في سنة ١٣٣١ هـ آية في الجدة والروعة ، وهو احدث المباني الاثرية في حمص إذ بني مكان المقام المملوكي الذي تقدم ذكره ، وقد انتهى ناظم من بناء الجامع المذكور في سنة ١٩١٢ م .

« وقد جرى تكليف عبد الحميد باشا الدروبي بالاشراف على مراحل البناء واجراء مـــايلزم بوصفه رئيساً للبلديـــة آنذاك . فأذاع الباشا الدروبي نداء

---

١ ـ سيس عاصمةأرمينيا الصغرى (كليكيا) وكانت مدينة كبيرة ذات أسوار ، وتقع على جبل وتحيط بهـا بساتين ونهـر صغير (أبو الفداء ص ٢٥٧) هي الآن بـلدة صغيرة جنوبي الاناضول .



إلى الاهالي للتبرع بالعمل والحفر ورفع الانقاض والقبور الدارسة . فكان في كل يوم تذهب محلة (حي) من المحلات للعمل هناك بالتناوب ... وهكذا شاركت حمص بشبابها ورجالها بهذا العمل . . . ، علماً بأن رئيس البلدية وقف بنفسه مراقباً لايترك العمال من الصباح حتى المساء إلا عندما تدعوه الضرورة للذهاب إلى مكتبه لتسيير بعض الاعمال الادارية . وقد بنى إلى جانب المسجد تكية تقدم الخبز والحساء الممزوج باللحم الى فقراء المدينة ، ويصرف المصروف من واردات

الجامع باعتباره اغنى جامع في ذلك الوقت . وفي أوائل العشرينيات تقرر الغاء التكية وصرف مصروفاتها على تأسيس كلية شرعية في الجهة الشمالية من باحة المسجد » . (١)

كتابات أثرية وتاريخية

الكتابة الاولى على باب خشبي ، وهي مؤلفة من خمسة أسطر من الخط النسخي المملوكي ونصها : « بسم الله . . . أمر بانشائه على حرم قربة سيف الله وصاحب رسول الله خالد بن الوليد رضي الله عنه مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة قاهر الخوارج والمتمردين محيي العدل في العالمين مالك البحرين صاحب القبلتين خادم الحرمين الشريفين وارث الملك سلطان العرب والعجم والترك اسكندر الزمان صاحب القرآن بيبرس الصالحي قسيم أمير المؤمنين أعز الله سلطانه عند عبوره حمص للغزاة ببلاد سيس وذلك في شهر ذي الحجة سنة اربعة وستين وستمائة » . (٢)

الكتابة الثانية على حشوة خشبية ، وهي مؤلفة من خمسة اسطر من الخط النسخي المملوكي الجميل ونصها :

« بسم الله . . . أمر بانشائه على ضريح سيف الله وصاحب رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين قاهر الخوارج والمتمردين محيي العدل في العالمين ملك البحرين صاحب القبلتين خادم الحرمين الشريفين وارث

---

١ ـ تكرم الاستاذ الفاضل المؤرخ قاسم الشاغوري بسرد واعطاء هذه المعلومات ، فله شكري واحترامي وتقديري .

٢ ـ عن الحوليات الاثرية السورية ١٩٦٠

الملك سلطان العرب والعجم والترك اسكندر الزمان صاحب القرآن بيبرس الصالحي قسيم أمير المؤمنين أعز الله سلطانه عند عبوره على حمص للغزاة ببلاد سيس وذلك في شهر ذي الحجة سنة اربعة وستين وستمائة ». (١)

والكتابة الأثرية الاخرى، على لوح خشبي تذكر بانتصار آخر أحرزه المماليك على الصليبيين في عهد السلطان الملك الاشرف خليل بن السلطان سيف الدين قلاوون سنة ٦٩١ هـ وتتألف هـــذه الكتابة من ثمانية اسطر مدرجة على لوح خشبي بالخط النسخي وهي كما يلي :

« بسم الله . . جدد هذا الشباك المبارك في هذا المشهد الخالدي رضي الله عنه في أيام مولانا السلطان الاعظم الملك الأشرف العادل المجاهد المرابط المثاغر المظفر المنصور الهمام مالك الانام صلاح الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين ناصر الملة المحمدية محيي الدولة العباسية ملك البحرين صاحب القبلتين ووارث الملك سلطان العرب والعجم والترك مالك رقاب الأمم جامع فضيلتي العلم والسيف ابي الفتح خليل خـــلد الله سلطانـــه وافاض عليه الرعاية كافة عدله واحسانه ابن مولانا السلطان الشهيد المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون قدس الله روحه ونور ضريحه وذلك عند توجهه الى فتح قلعة الروم سنة احدى وتسعين وستمائة ». (٢)

التابوت الاثري

ولزام علينا أن نشير الى تابوت اثري (ضريح) من الخشب المحفور، مزين بكتابات قرآنية من الخط الثلث والخط الكوفي المعقود بزخارف نباتية متداخلة:

« أمر بصنعه الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي سنة ٦٦٤ هـ =

١ - ٢ - عن الحوليات الاثرية السورية ١٩٦٠ م

١٢٦٥ / ١٢٦٦م احياء لذكرى البطل الفاتح خالد بن الوليد في حمص وذلك بمناسبة انتصار المسلمين على المملكـــة الارمينية في كيليكيا وفتحهم مدينة سيس » (١) .

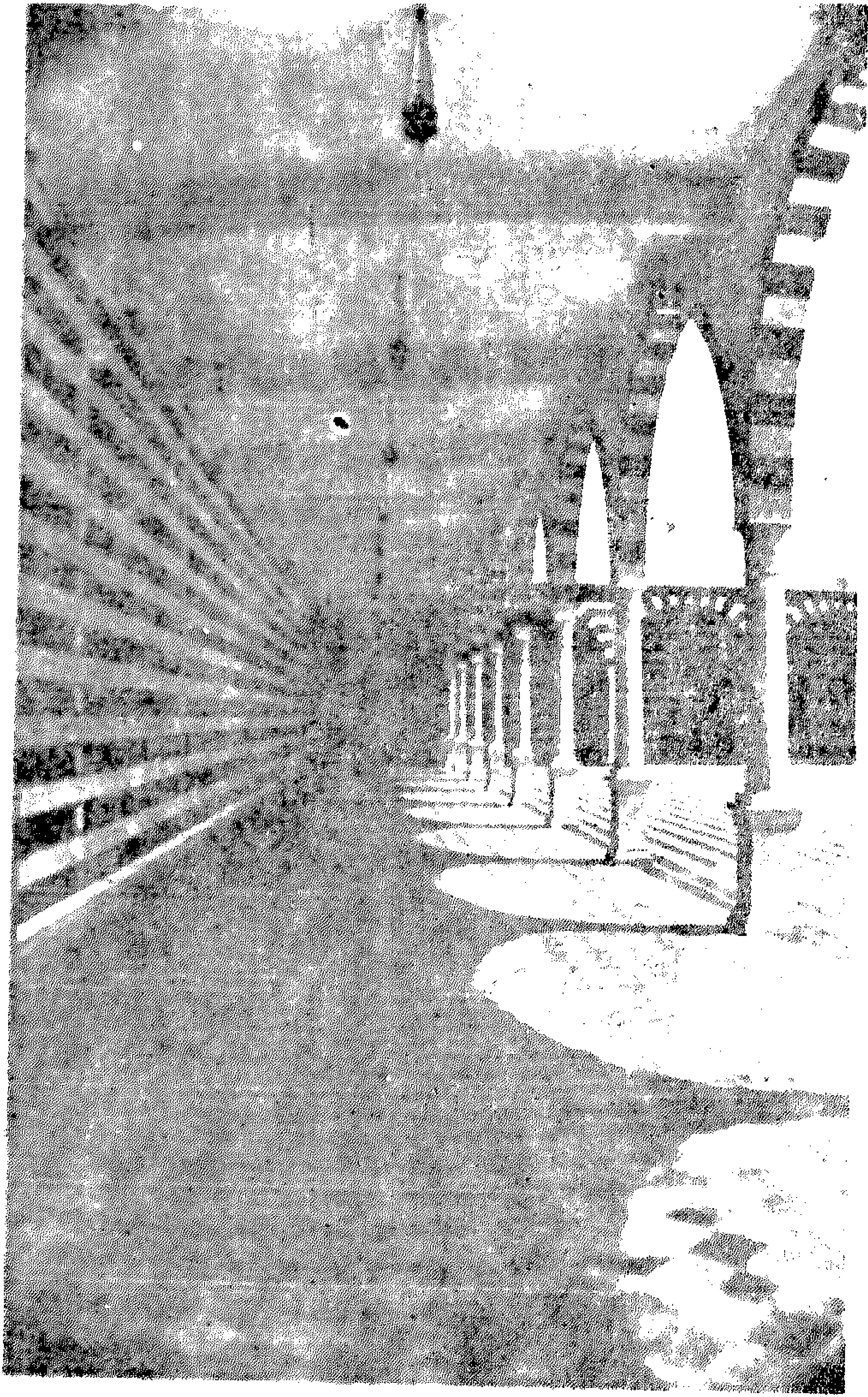
والتابوت المذكور هو من مقتنيات المتحف الوطني بدمشق ـ فرع الآثار العربية الاسلامية ـ معروضات القسم الثاني من قاعة الخشب . وقدأصلح هذا التابوت في المعمل الفني التابع للمديرية العامة للآثار والمتاحف بدمشق ، وأنقذ من التلف ويتألف شكله من موازللمستطيلات ، وله قاعدة سفلية يقوم فوقها صف من ستة محاريب ضامرة في كل مكان من الجانبين العريضين ، وثلاثة في كل من الجانبين الضيقين وكل هذه المحاريب مملوءة بالزخارف الهندسية والنباتية البارزة ، ثم يأتي فوقها صف من الزخارف الكتابية الكوفية وفوق هذه صف آخر من الزخارف الكتابية النسخية .

مخطط الجامع

يتألف من ثلاثة مداخل ، الرئيسي منها بالوسط ، تعلوه لوحة رخامية دون عليها مايلي:

لااله الا الله محمد رسول الله .. هذا جامع الصحابي الشهير سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه ومقامه الثابت بالتواتر ، شيد بناءه القديم السلطان الظاهر بيبرس عام ستماية وثلاثة وخمسين هجرياً ، ثم صدرت ارادة السلطان عبد الحميد الثاني العثماني عام ألف وثلاثماية وثمانية عشر بتجديد بنائه بعد هدمه وذلك بمساعي أرباب الفضل ، من ريعه الخاص واحسانات السلطان المذكور فتم بناؤه عام الف وثلاثماية وثلاثة وستين من هجرة سيد المرسلين ﷺ وعلى اله وصحبه اجمعين . .

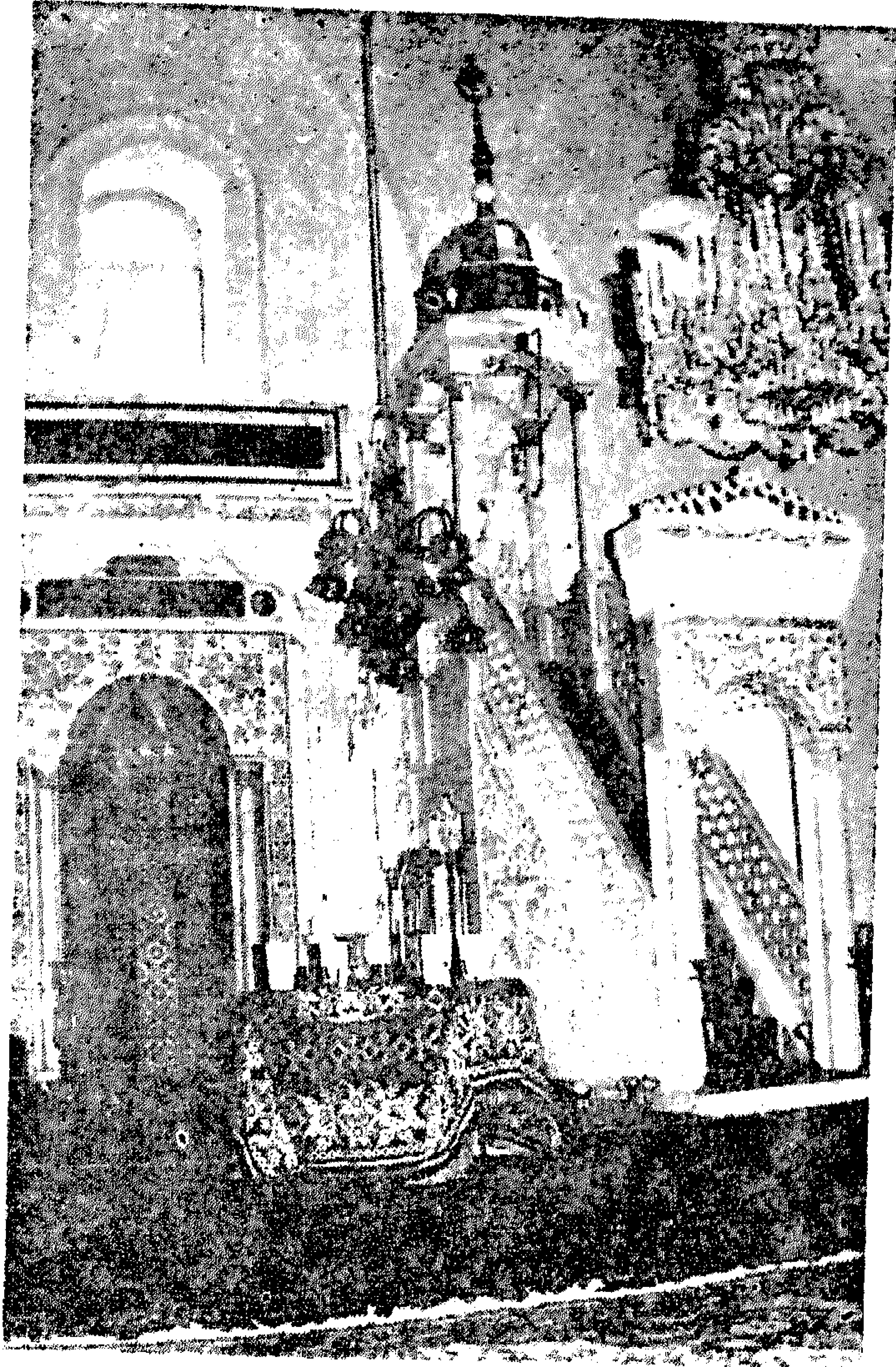
١ ـ عرفت هذه المعلومات من الالواح المكتوبة التي وجدت مع الضريح في مدفن خالد بن الوليد بحمص . والمحفوظة في المتحف الوطني بدمشق .



« الرواق الشرقي للمسجد »

تم بناؤه ١٣٦٣ هـ » .

وشكل الحرم مربع تقريباً ٥ر٣٠ × ٥ر٣٠ م ، يقوم سقفه المؤلف من خمس قباب نصف كروية ، الوسطية مرتفعة وكبيرة جدا (قطرها ١٢ متراً ، وترتفع الى ٣٠ متراً) ، وأربعة انصاف بيضوية الشكل تحملها جميعاً أربع دعائم مربعة ومقواة بعضائد ، وفي صدر الحرم ثلاثة محاريب . وفي زاوية الحرم الشمالية الغربية



« المنبر والمحراب »

ضريح خالد بن الوليد ، وهو على شاكلة قبة سيدنا يحيى في الجامع الاموي بدمشق » ، وفي زاوية هــذا الضريح ، ضريح صغير لعبدالرحمن بن خالد، وفي الزاوية الشمالية الشرقية ضريح ثالث لعبيد الله بن عمر بن الخطاب ، وهو عبارة عن تابوت خشبي محاط بشبك حديدي ومغطى بقماش أخضر .

اما المحراب فمرصوف بفسيفساء رخــامية ملونة بشكل هندسي ، والمنبر من

الرخام أيضاً ، زخرفته النافره حديثة من انواع الروكو كو . كما يوجد المنبر الخشبي المزخرف والمرمم من قبل المديرية العامة للآثار والمتاحف ، ويعود عهده الى أواسط العصر العثماني قبل ٢٠٠ سنة تقريباً وفي اعلاه كتابة .

وصحن الجامع واسع ، أبعاده (٣٦ × ٤٧ متراً) يطل عليه رواقان من شماله وشرقه ، وفي الاخير غرفة استعملت مدرسة شرعية وغرفة ميضأة . وتقوم مع بناء الحرم مئذنتان رشيقتان ، ويلاحظ بأسفل البناء أحجار اثرية كبيرة الحجم استخدمت قواعد لما فوقها .

النصب التذكاري

يوجد في حديقة المسجد الغربية ، نصب تذكاري دون عليه مايلي :

«بسم الله الرحمن الرحيم ـ شيد هذا النصب التذكاري للصحابي الجليل خالد بن الوليد من أموال معونة الشتاء بأمر من قيادة الجيش العربي السوري ١٣٨٣ هـ ١٩٦٣ م كما دونت العبارة المأثورة المشهورة لخالد بن الوليد وهي : لقد شهدت مائة زحف أوزهاءها ومافي بدني موضع شبر الاوفيه ضربة بسيف أورمية بسهم أوطعنة برمح وهاأنذا أموت على فراشي حتف أنفي ، فلا نامت أعين الجبناء » .

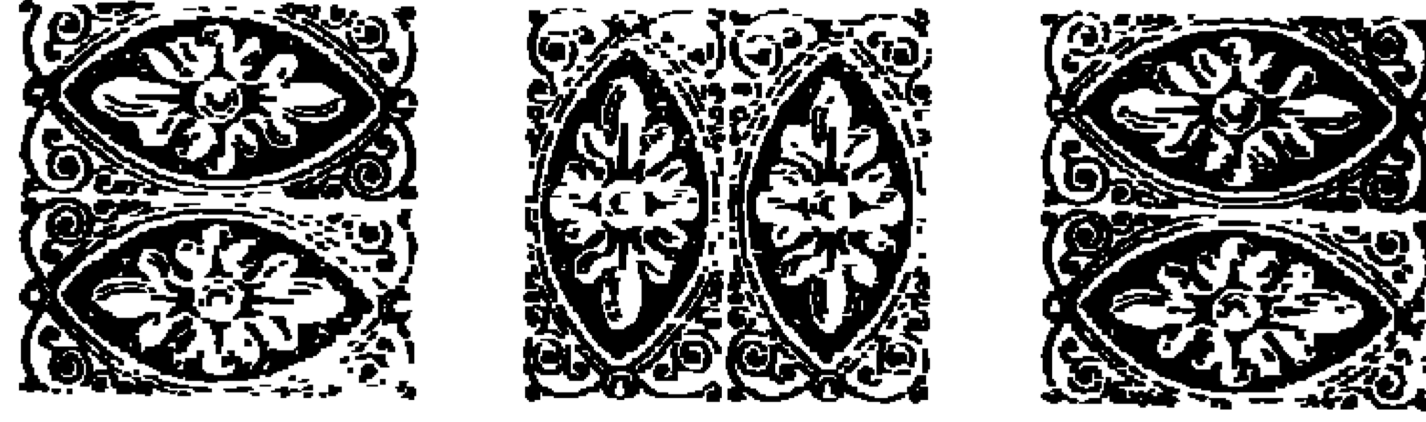
شهرة الجامع

يتمتع جامع خالد بن الوليد بشهرة واسعة بين السياح العرب والاجانب ، يحظى بزيارته كل سائح يؤم حمص عابراً أو مقيماً ، وقد زادت شهرته بموقعه الذي أصبح رئيسياً بعد ان قامت محافظة حمص سنة ١٩٦٠ برفع

المقابر الموجودة غربي الجامع وتنظيم المنطقة وتجميلها وأزالت المرتفع القائم في حمص الشمالي وأحالت المنطقة الى حديقة جميلة مزينة بالاشجار والزهور باتساق فني بديع يليق بقدسية الجامع وروعته .

الاستاذ رياض البدري

مديرية آثار حمص



مصادر البحث ومراجعه

١ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة ـ ابن الاثير

٢ ـ الاعلام ـ خير الدين الزركلي ـ طبعة رابعة

٣ ـ تاريخ حمص ١١٠٠ ـ ١١٣٥ هـ . تحقيق عمر العمر

٤ ـ تقرير الأستاذ كامل شحادة ١٩٦٣

دائرة اثار حماة

٥ ـ حمص أم الحجار السود ـ ساطع محلي

٦ ـ الحوليات الاثرية السورية ـ المجلد العاشر ١٩٦٠ ـ المديرية العامة للاثار والمتاحف

٧ ـ دليل السياحة بحمص ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ ـ دائرة السياحة بحمص

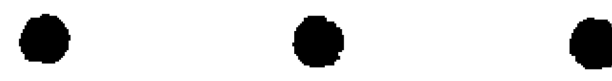
٨ ـ دليل المتحف الوطني بدمشق ١٩٦٩ . المديرية العامة للآثار والمتاحف .

٩ ـ سيف الله خالد بن الوليد ـ الجنرال أكرم ترجمة العميد الركن صبحي الجابي

١٠ ـ العبقريات الاسلامية . عباس محمود العقاد

مارغريغوريوس يوحنا أبو الفرج بن العبري
مفريان المشرق (١)
١٢٢٦ - ١٢٨٦م

سيادة المطران ملاطيوس برنابا
مطران حمص وحماة وتوابعها للسريان الارثوذكس



فيلسوف كبير غاص في أعماق العلوم الفلسفية وعلامة لوذعي ، بل مؤرخ مدقق ، وشاعر من الطراز الاول ، ولغوي محقق ومشرع له اليد الطولى في القانون الكنسي والمدني وطبيب حاذق ، وعالم في الطبيعيات والرياضيات والمساحة ، وخطيب مصقع ومحدث لبق يأخذ بمجامع القلوب ويسيطر على سامعيه ببلاغته واسلوبه الاخاذ ، ومرشد حكيم ، وعلم من اعلام الدين ، وعبقري يشار اليه بالبنان في الادارة والحكمة ، ونعني به المفريان مارغريغوريوس يوحنا ابن العبري . « ابو الفرج »

كان ابوه الشماس اهرون الطبيب ابن توما الملطي الملقب بتاج الدين (٢) وهو حكيم زمانه من أعظم أهل عصره تقوى وورعاً وعلماً وفضلاً وهو ينحدر من

---

١ ـ مفريان المشرق ، رتبة كنسية تلي البطريرك ، وهو رئيس أساقفة المشرق

٢ ـ اللؤلؤ المنثور للبطريرك افرام برصوم

اسرة ملطية (١) عريقة وكانت امه ايضاً من فضليات النساء في زمانها ، وملطية منبت رهط كبير من علمائنا السريان وفلاسفتنا ومؤرخينا امثال البطريرك ميخائيل الكبير ، وابن صليبي ، وسعيد ابن الصابوني ، وأخيه باسيليوس أبي غالب ، وابن وهبون وغيرهم . (٢)

وكان والده الطبيب اهرون عريقاً بالمسيحية لا كما توهم بعض المستشرقين انـــه كان يهودياً فتنصر ، منخدعين بالاسمين اهرون وابن العبري . اما اسم اهرون فكان مستعملا عند المسيحين كثيراً حتى ان بعض الاساقفة كان يسمى - اهرون - مثل البطريرك ابن المدني . واما الاسم الثاني « ابن العبري » فليس دلالة على اليهودية وقد نفى هذا الظن ابن العبري نفسه في بيت شعر له مشهور ، واليك قوله عن نفسه بالسريانية ماترجمته :

إذا كان الرب قد سمى نفسه سامرياً ، فـــلا غضاضة عليك اذا دعوك بـ « ابن العبري » فهذه التسمية متأتية من نهر الفرات ، ولم تتخذ عن دين مشين اولغة عبرية (٣) وقـــد دحض العلامة البطريرك افرام برصوم(٤) الاول وهم المستشرقين هذا بمقال مستفيض نشره في مجلة الكلية الامريكية في بيروت

١ - ملطية ، مدينة في ولاية معمورة العزيز (تركيا) كانت مشهورة عظيمة مذكورة واقعة قريباً من نهر الفرات على الضفة اليمنى منه ، من امهات مدن السريان كان لهم فيها ست وخمسون كنيسة سنة ١٠٤٩ م وهي موطن نخبة من اقطاب علمائهم ، امست اليوم بليدة .

٢ - يعقوب ابن الصليبي مطران آمد ١١٧١
ابو غالب اسقف جيحان ١١٧٧
ابن وهبون بطريرك دخيلا ١١٩٣
البطريرك ميخائيل الكبير بطريرك السريان ١١٩٩
البطريرك يوحنا ابن المورني ١٢٦٢
سعيدابن الصابوني مطران ملطية
باسيليوس ابو غالب مطران ملطية ١١٢٩

٣ - ديوانه بالسريانية ص ٧١

٤ - افرام برصوم بطريرك السريان الانطاكي ١٩٣٣ - ١٩٥٧

سنة ١٩٢٧ وفي مجلة الحكمة السريانية في القدس وفي كتابه اللؤلؤ المنثور (١) وهكذا فعل المرحوم المطران بولس بهنام (٢) . وقداسة البطريرك يعقوب .

ابصر نور الوجود في مدينة ملطية سنة ١٢٢٦ وابواه من علت وجاهة وثقافة وتقوى ، وسمي في المعمودية يوحنا ، فتدرج في بيئة علم ودين وادب ونشأ منذ نعومة اظفاره على حب الفضيلة وحب العلم لنباهة وذكاء خارق تميز بهما ، فوطد العزم على طلب العلم والادب منذ طفولته ، وراح يتلقن اصول العلم واللغات في وطنه . وحـــذق طقوس الكنيسة والكتاب المقدس وشرحه وتفاسير ائمة المسيحيين الاولين ، ثم قرأ الطب على ابيه مقتفيا اثاره فيه وهـــو حكيم زمانه ، كما درس عليه ايضاً علوم الفلسفة حين اشتد ساعده في درس المعارف البشرية .

ويحدثنا كاتب سيرته المنظومة انه كان ينتجع موارد العلم اينما كانت فيبحث عن مهرة العلماء يأخذ عنهم ويرتاد البلدان طلباً للمعرفة فتشبه بالنحلة التي ترتاد الازهار لتجمع الشهد (٣)

وفي سنة ١٢٤٣ رحل مع ابيه الى انطاكية وكانت نفسه تتوق الى العلا والحياة الروحية وسيرة الكمال فانزوى في مغارة منقطعة في دير مجـــاور لانطاكية ، وقضى في هذه العزلة سنة كاملة حيث هبط على نفسه الطاهرة صفاء الايمان وزاره في منسكه هذا البطريرك اغناطيوس داود (٤) .

ولكن نفسه التواقة الى العلم لم تشبع فترك صومعته الهادئة وانتجع مع رفيق

---

١ ـ اللؤلؤ المنثور ـ طبعة اولى ص ٤١٣

٢ ـ بولس بهنام : مطران بغداد والبصرة للسريان الارثوذكس

٣ سيرته المنظومة

٤ ـ اغناطيوس داود : بطريرك السريان ١٢٥٢

له يدعى صليبا (١) مدينة طرابلس الشام حيث انهى دراسة الطب والبيان والمنطق على الاستاذ يعقوب النسطوري (٢) وحذق هذا العلامة من اللغات السريانية والعربية والفارسية والارمنية ـ وكان في جميعها من الكتاب المبرزين حتى نعت بـ « بحر الحكمة » ونور المشرق والمغرب ، وملك العلماء واكبر الحكماء والاب القديس ، والاب العارف بالله ، وزينة المؤلفين ، واكليل المفارنة وتاج الرؤساء ودائرة معارف القرن الثالث عشر (٣) .

اسقفيتـــه

ولما اشتهرت فضيلته ، وظهر علمه اختاره البطويرك أغناطيوس داود ، ورسمه اسقفاً على بلدة جوباس القريبة من ملطية في ايلول ١٢٤٦ ولم يكن قـــد جاوز العشرين من عمره ، فاهتم بأمور رعيته التي سعدت به ولكن لم يطل الامر به اكثر من سنة واحدة فقط ، حيث نقل إلى اسقفية لاقبين على اثر استقالة اسقفها اهرون (٤) . فمكث في ابرشيته هذه الجديدة خمس سنوات يفرغ قصارى جهده في رعايتها واعـــلاء شأنها من النواحي العمرانية والروحية .

وفي سنة ١٢٥٢ نقل الى مطرانية حلب على اثر ارتقاع باسيليوس صليبا (٥) إلى رتبة مفريانية المشرق باسم اغناطيوس ، وكان حظ حلب سعيداً بهذا المطران الهمام فمكث فيها زهاء اثنتي عشرة سنة كان فيها مثلا اعلى في السهر على رعيته والاهتمام بها .

وفي سنة ١٢٥٨ حاصر هولاكو مدينة حلب فخرج المطران يوحنا ابن العبري

١ ـ اللؤلؤ المنثور ص٤١٣ . وصليبا المذكور هو رفيق ابن العبري ومعاهد له

٢ ـ يعقوب النسطوري ، استاذ المنطق سنة ١٢٤٠ م

٣ ـ ترجمة بقلم الاب دولباني في ديوانه السرياني

٤ ـ اهرون اسقف لاقبين ١٢٣٩ م وجوباس ولاقبين مدينتان مجاورتان لملطية وقد خربتا

٥ ـ باسيليوس صليبا ؟

الى الفاتح المغولي يستعطفه لسكان المدينة غير ان شفاعته لم تأت بطائل لان الجند اقتحموا المدينة وانتشروا في ارجائها يعملون السيف في رقاب اهلها ، فقتل خلق كثير مـــن المسلمين والنصارى (١) حتى ان الذين قتلوا في حلب كانوا اكثر من الذين قتلوا في بغداد (٢) .

وفي اثناء رئاسته على حلب بنى فندقاً كبيراً بجانب الكنيسة لفائدتها ونال حظوة كبرى عندهولاكو بواسطة الطب الذي كان يتفوق فيه على كثيرين من اطباء زمانه ـ وكانت له هيبة كبرى واحترام جزيل في البلاط سواء عند رجال البلاط أو عند ملك الملوك نفسه .

اما روحه السليمة فتتجلى في كونه اخلص المودة للبطريركين المتنازعين على الرئاسة في زمانه . فإن دينيسيوس (٣) عنجور كان صديقاً لاسرته منذ كانت في ملطية فرعى له حرمة هذه الصداقة وبعد وفاته عاد إلى نده البطريرك يوحنا بن المعدني (٤) فصار من اكثر الاساقفة تأييداً له ، وقدادى بذلك حق شخصية ابن المعدني وقداسته وعلمه ، حتى انــه رثاه عند وفاته بقصيدة ، فخلع عليه اوصافاً فائقة لايمكن أن يصورها شاعر مالم تكن منبعثة من نفس تجيش بالالم الشديد على فقده من جهة وتقديسه وتعظيمه مـــن جهة اخرى فقد سماه فيها ـ شمس الزمان وضياء الكنيسة وعمودها وتاج الامة الرفيع (٥) .

مـفريانتـه

طارت للاسقف العلامة ابن العبري شهرة واسعة في جميع أنحاء الكنيسة السريانية وذاع عبير فضله وعلمه في كل الاقطار وعرف عنه أنـــه مثال للراعي

---

١ ـ تاريخ الدول السرياني ص ٥١٠

٢ ـ نفس المصدر

٣ ـ دينيسيوس عنجور ؟ بطريرك السريان

٤ ـ يوحنا بن المعدني ؟ بطريرك السريان

٥ ـ ابن العبري الشاعر للمطران بولس بهنام ص ٢٢

العالي . توفي البطريرك ابن المعدني وكتب عنه إلى أبناء كنيسة المشرق يصف مواهبه السامية ومناقبه التي تؤهله ليكون ابا عاماً لكنيسة المشرق الارثذكسية . وفي هذه الأثناء توفي ابن المعدني وخلفه البطريرك يشوع عام ١٢٦٤ فاجتمع البطريرك الجديد باساقفته في مدينة سيس (كيليكية) ودعا المترجم لمفريانة المشرق لما عرف عنه من الحكمة والادارة والمنزلة العلمية والدينية واللاهوتية ، وكانت حفلة تنصيبه في كنيستنا ... سيس وحضرها حاتم ملك كيليكية ونال الامراء والوزراء واعيان دولته ورؤساء اساقفة الأرمن وعلماؤهم وشعب غفير منهم فضلا عن الجماهير الغفيرة من شعبنا السرياني واساقفتنا ومطارنة معظم ابرشياتنا وكان ذلك في ١٠ كانون الثاني سنة ١٢٦٤ . وفي نهاية حفلة التنصيب ارتقى المفريان الجديد منبر الخطابة والقى خطبة بليغة في رئاسة الكهنوت (١)

وأول عمل جليل قام به المفريان العلامة بعد تنصيبه سعيه المشكور في توطيد سلطة البطريرك مار اغناطيوس يشوع . فقد سافر هذا البطريرك صحبة المفريان ابن العبري برهط من الاساقفة إلى مدينة أرزنجان من حواضر الارمن للمثول بين يدي هولاكو المعروف بملك الملوك . وقد سبق المفريان البطريرك إلى ملك الملوك ، وكان يستعين بطبه في السفر فيساعده الولاة والعمال حتى بلغ هولاكو نفسه ، فدخل بلاطه موفور الكرامة ، ومثل بين يديه ومهد الطريق للبطريرك القادم فاصدر ملك الملوك أوامر ملوكية سامية لمساعدته حتى اذا ماوصل ادخله المفريان حالا ، فسر به الملك وحادثه طويلا وأكرم مثواه ومنحه براءة سامية ، أردفها بكتاب آخر اثنى فيه على المفريان واطرى محامده

---

١ ـ تاريخ كنيسة المشرق وترجمته

ومنحه براءة ملكية ايضاً (١)

قدومه إلى المشرق

بعد ان انهى المفريان الجديد مهمته بتأييد سلطة بطريركه ، جاءت البشائر بقدومه إلى بلاد المشرق فاستبشرت به وفرحاً هذه الكنيسة العريقة وكانت الموصل اول مدن العراق التي تشرفت بطلعته القدسية فلما دخلها استقبلته بابهة رائعـــة باعيانها واشراف دولتها وسكانها من المسلمين والمسيحيين عـــلى اختلاف طبقاتهم (٢) .

ان حظ كنيسة المشرق كان سعيداً جداً بهذا الحبر العلامة لانها كانت منذ عهد طويل متعطشة الى عالم جليل مثله ، ويخبرنا كاتب سيرته المنظومة ، ان كنيسة المشرق لم تر لاهوتيا ومفسراً مثله منذ عهد سويريوس موسى ابن كيفا المطران اللاهوتي الكبير عام « ٩٠٣ » ، اردف قائلاً ان الله الذي انار به كنيسة المغرب لم يرد ان يحرم كنيسة المشرق انوار تعاليمه الساطعة ، ولم تكن فائدته خاصة بكنيسته فقط بـل كانت عامة للجميع . وكانت هناك بغضاء شديدة بين الارثوذكس والنساطرة في بلاد العراق منذ القرن السادس فازالها هذا المفريان القديس بروحه الطيبة وسياسته الحكيمة وادارته الرشيدة (٣) .

ثم توجه الى دير مار متى فاحتفل رهبان الدير ورئيسه بتنصيبه شرعياً لرئاسة ابرشيات المشرق حسب التقاليد القديمة المرعية في تنصيب المفارنة . وكانت حفلة التنصيب في الدير بالغة حد الروعة والابهة ، وبعد حفلة التنصيب في دير مار متى قفل راجعاً الى الموصل ليهتم بامور الرعية فيها فوجدها في حالة يرثى لها

---

١ ـ تاريخ كنيسة المشرق ـ مترجم
٢ ـ المصدر نفسه وابن العبري الشاعر
٣ ـ المصدر نفسه

من جراء الظروف القاسية التي مرت بها منذ اربع سنوات خلت فكانت سبباً في معظم نزوح أُسرها الى مدينة اربيل وتوطنهم فيها وبنائهم هناك كنيسة فخمة رغماً عن حالتهم المالية الضيقة ، وكان لقدوم هذا الراعي الصالح تأثير عظيم بتحسين حالة شعبه فقد طلب الى ذوي الأمر أن يخففوا عنهم فنجح في ذلك ونال حظوة معتبرة عند الجميع ويقول كاتب سيرته المنظومة : انه رفع رأسنا بعد ان أن كنا اذلاء ، ومنح المشرق الحكمة والعلم بعد ان كانت كنيسته صفراً من كل ذلك وصار تلامذته ملافنة (١) وعلماء في بلادنا ، ونشر الايمان بوعظه في مدننا وقرانا (٢)

كان في كنيسة المشرق إبان مجدها الاول اثنتا عشرة ابرشية تخضع بادارتها الروحية العليا لمفريان تكريت « العراق » وقد رتب هذه الابرشيات في القرن السادس المفريان ماروثا في مجمعه الاقليمي الذي جمعه في دير مار متى ، وحضره اساقفة المشرق الارثوذكسيون جميعاً ، ثم اضيف اليها ثلاث ابرشيات اخرى جديدة في عهد ماروثا نفسه وذلك في بلاد فارس ، على اثر نزوح جماعات كثيرة من الرهاويين الارثوذكس الى مقاطعتي سجستان وخورسان فبلغت ابرشيات المشرق الخاضعة للمفريان خمس عشرة ابرشية ، ماعدا ابرشيتي مار متى ونينوي بما فيها الموصل الخاضعتين مباشرة لمطران دير متى نفسه (٣) .

ظلت هذه الابرشيات بين مد وجزر حتى القرن الثالث عشر حيث ارتقى غريغوريوس ابن العبري كرسي مفريانية الشرق فوجد بين يديه عشر ابرشيات فقط ، ولكنها كانت عامرة بكنائسها واساقفتها وكهنتها وشعبها ، وقد

---

١ ـ ملافنة : علماء ـ اصلها سريانية

٢ ـ سيرته المنظومة بقلم جبرائيل البرطلي ـ بالسريانية

٣ ـ تاريخ كنيسة المشرق ، ترجمة المفريان ماروثا

فضلها المفريان ابن العبري نفسه عـــلى ابرشيات المغرب الخاضعة للبطريرك بقوله : انني اتمتع براحة كبرى في ابرشيات المشرق ولايعوزني شيء لكي اهرب منها وانتقل إلى غيرها كما فعل اسلافي المرحومون ، وان كان زماننا صعباً غيران الراحة التي لاقتني في المشرق لم تلاق غيري .

اما هـــذه الابرشيات فهي : ـ ١ ـ مار متى ـ ٢ ـ وبيت صيدا ـ ٣ ـ بغداد ٤ ـ باوهوار ـ ٥ اذربيجان ـ ٦ ـ تبريز ـ ٧ـ سنجـــار ـ ٨ ـ نصيبين ـ ٩ ـ الجزيرة ـ ديارربيعة ـ ١٠ ـ جزيرة ابن عمر ـ ١١ ـ اربيل

رحلاته الراعوية

لما كانت الابرشيات التي يدبرها المفريان ابن العبري كبيرة وواسعة فكان لابد له من تعهدها بيقظة وهمة عالية ، وقد قضى أيام رئاسته متنقلاً من بلد الى آخر يعظ ويرشد ويشجع ويبني الكنائس والاديرة ، ويؤيد المؤمنين في ايام كانت قاسية جداً ، ولكنه كان يضفي عليها حياة بعلمه وفضله وحظوته العظمى عند الملوك والامراء والحكام والعلماء والرؤساء ، واهم رحلاته الراعوية هي :

١ ـ الرحلة إلى بغداد : بعـــد ان نظم الامور في نينوى وابرشيات الموصل ودير مار متى ، ونصب رسميا في الدير التاريخي ـ رحل إلى بغداد سنة ١٢٦٥ لزيارة هذه الابرشية الهامة مركز الخلافة وموطن العلوم والادب، وهي لازالت متأثرة بجراحها بسبب الاهوال التي نزلت بها يوم اجتاحها المغول بخيلهم ورجلهم (١) .

فرحت بغداد بقدوم المفريان العلامة ، فابتهجت الكنيســة ورفعت رأسها لتباهي الملأ بهذا الرئيس الجهبذ وخرجت لتستقبله بابهة منقطعة النظير ، كما يليق بمثله

١ ـ ابن العبري الشاعر ـص ٢٨

من الرجال الكبار ـ وكان يتقدم المستقبلين الارخد ياقون (١) « رئيس الشمامسة »وطبقة صالحة من أشراف السريان البغداديين وبينهم وفد معتبر من اشراف النساطرة من قبل الجاثليق (٢) مار مكيخا (٣) يتقدمه ابن أخت الجاثليق وابن أخيه ، دخل هذا الموكب الفخم بالمفريان الضيف الى مكيخا الجاثليق فاستقبلته استقبالاً حاراً واعجب بمواهبه وشخصيته الفذة ثم ودعه وجاء الى الكنيسة السريانية الكائنة في باب موحول فاستقبله هناك جميع افـــراد شعبه بشوق واكبار وارسل الجاثليق في هذه الاثناء وفده ثانية الى الكنيسة يحمل للمفريان هديته التقليدية ، وهي حلة حريرية بيضاء فألبسوها المفريان ، فأرسل بدوره ايضاً هدايا سنية للجاثليق (٤) .

وصـــل المفريان بغداد في ايام الفصح فترأس الحفلات الدينية الرائعة في الكنيسة واضفى عليهـــا جلالاً وأبهة جديدين من شخصيته العظيمة وهيبته الرائعة : فتقاطرت جموع غفيرة لمشاهدة هذه الاحتفالات الدينية المؤثرة ، وبينهم كثيرون من النساطرة الذين لم ترق لهم هذه الامور كلها خوفاً من أن يطغى المفريان على جاثليقهم ولاسيما بعد ان شاهدوا ما كان عليه المفريان من الخصال العالية والمزايا الفريدة ، واخذ شعبه يعطيه حقه من المدح والاطراء اللائق بمنزلته العلمية السامية .

احتفل المفريان في خميس الفصح بتقديس الميرون (٥) في بغداد ، وحدثت

١ ـ الارخيد ياقون كلمة يونانية تعني رئيس الشمامسة
٢ ـ الجاثليق : كلمة يونانية . مرتبة رئيس اساقفة النساطرة
٣ ـ : مارمكيخا : جاثليق النساطرة
٤ ـ ابن العبري الشاعر
٥ ـ الميرون : كلمة سريانية وتعني : الزيت المقدس

اعجوبة (١) باهرة على يده يذكرها التاريخ وهذا مارفع منزلته في اعين شعبه وعند الغرباء الذين شاهدوا تلك الاعجوبة باعينهم فتحدثوا بها في المجالس والانديـــة .

وفي مدة قليلة حاز المفريان في اوساط بغداد مالم يحرزه غيره من الرؤساء السابقين حتى توجس النساطرة منه خوفاً ، فشرع الجاثليق في طرده من بغداد ، غير أن الجاثليق توفي في هذه الايام نفسها ١٢٦٥ ، قبل ان يستطيع ان يؤذي المفريان

اما المفريان فهو بانتهاء الصيف كله يتمتع بمنزلة رفيعة جداً عند الجميع ، فرسم هناك شمامسة كثيرين ثم عاد في الى نواحي نينوى .

٣ ـ رحلته إلى المغرب : وفي سنة ١٢٦٨ قام المفريان برحلة إلى سورية لزيارة اهله بعد أن رتب شؤون ابرشيته الواسعة .

وفي الطريق لقي البطريرك متوجهاً إلى ملك الملوك لتقديم شكاية على الطبيب القسيس شمعون الذي اغتصب دير مار برصوم (٢) ولكن المفريان لم يكن يرغب في هذه الطريقة وحاول ان لايقابل البطريرك وتبع رحلته ، وفي « سيس » « كيليكية » اصابه مرض خطير كاد يودي بحياته لولا رحمة الله فتلقى من البطريرك رسالة رقيقة يشكر الله على شفائه ، ولما ابل المفريان زار البطريرك في دير مار برصوم ، ثم غادر من هناك عائداً الى المشرق فحط رحاله في تبريز فمراغة ، وكان يشتغل بتفسير كتاب « اقليدس » ثم عـــاد الى نينوى .

وفي صيف عام ١٢٧٢ رحل المفريان ثانية إلى مراغة فبنى دار اسقفية

---

٦ ـ هي فيضان الزيت في اثناء تقديسه كما يذكر التاريخ .

١ ـ دير مار برصوم : بالقرب من مدينة ملطية على جبل

ومصلى كبيراً في بيعتها الجديد ومكث فيها سنة كاملة يشتغل بتفسير كتاب « المجسطي » لبطليوس .

وفي سنة ۱۲۷۳ لبى طلب الطبيب القس شمعون وتوجه إلى كيليكية فصالح اسرة القس شمعون الطبيب مع البطريرك ، واصطحب معه القسيس شمعون الطبيب وشقيقه القس يعقوب والشماس نمرود ابن أخيهما ، وعربوناً لهذا الصلح رسمه البطريرك قسيساً ثم مطراناً لملطية وعاد المفريان إلى ملطية ثم نينوى محموداً سعيه .

وكانت رحلته الثانية الى بغداد سنة ۱۲۷۷ للاشراف على تجديد الكنيسة التي كانت تبنى بهمة الرئيس « صفي الدولة سليمان بن جملا » (۱) بالقرب من دار الخليفة ، وترأس ايضاً حفلات عيد القيامة في بغداد ، ورسم شمس الدولة بن توما شماسا ومعه كثيرين من ابناء الملة وقدس ميرونا في كنيسة مار توما الكاتدرائية في بغداد ورسم شمامسة ايضاً في كنيسة العذراء

ونال المفريان اكراماً لائقاً بمقامه الكبير من الجاثليق النسطوري ماردنحا، فقبل وصوله الى بغداد أُخبر رئيس الشمامسة بذلك فأخبره الاخد ياقون بدوره الجاثليق ، فارسل من قبله اساقفة واشرافاً من ابناء طائفته ، فذهبوا مع ابناء الكنيسة السريانية ووجوهها لاستقبال المفريان ولما زار الجاثليق في دار الخلافة التفت الجاثليق الى الجمهور الغفير من السريان والنساطرة وأطرى المفريان وقال : طوبى للشعب الذي له مثل هذا (۲)

وبعد أن بقي في بغداد الصيف كله تركها متوجهاً الى مدينة تكريت ودخلها في هذه السنة ۱۲۷۸ بعد أن لم يدخلها مفريان منذ ست سنوات ، ففرح به

---

۱ - وهو احد اعيان السريان في بغداد ، ووزير ؟

۲ - تاريخ كنيسة المشرق - سيرته -

اشراف تكريت وأعيانها وشعبها فوحاً لايوصف وزار كنائسها الاثرية الفخمة ومكث فيها شهرين يتعهد شؤون الكنيسة هناك ثم عاد إلى نينوى .

وفي سنة ١٢٧٩ رحل المفريان الى مدينة مراغة ليتعهد شؤون كنيستها الصغيرة ، وبعد مكوثه فيها مدة غادرها الى تبريز في أيام الربيع لانهاء بيعتها الجديدة ، وهناك بلغه نبأ وفاة الملك « اباقا » المغولي وجلوس ابنه على عرش المملكة ، فسافر اليه لتهنئته فادخله وزراء المملكة ،وبعد انقدم له آيات الدعاء نال منه براءة سامية تؤيد رئاسته على اذربيجان وآثور ومابين النهرين .

ثم عاد الى تبريز فاكمل بناء الكنيسة . ومـــن هناك عاد إلى نينوى في ايام الصيام الكبير سنة ١٢٨٤ .

رحلته الاخيرة إلى مراغة : في سنة ١٢٨٦ وهي السنة الستون لولادته كان يتخيل الموت يقترب اليه مسرعاً ، استناداً الى تكهنات علمية أبرزها امام اخيه الصفي ، وكان يتشاءم من هذه السنة كثيراً وكان يقول بيته المشهور : ياشبكة العالم في سنه ١٥٣٧ يونانية صادني شركك واظن اني في سنة ١٥٩٧ لن أكون موجوداً فيك (١) .

وكانت في هذه السنة قد كثرت الغوائل والمصائب في ديار نينوى والمشرق ، وكثر اللصوص في المدن والقرى فأصر برصوم الصيفي على اخيه المفريان بالسفر الى مراغة وكان المفريان يأبى الرحيل غير انه اطاع رغبة أخيه وشد الرحال الى تبريز ثم مراغة وكانت هذه الرحلة خاتمة لحياة هذا الرجل العظيم ، ففي مدينة مراغة انهى المفريان العلامـــة رسالته وذهب الى ربه محموداً سعيه مشكوراً فضله .

---

١ ـ السنتان يونانيتان والسنة اليونانية تبدأ عام ٣١١ ق . م

اساقفتـــه :

منذ ان وصل المفريان الهمام ارض المشرق صرف كل همته في ملء جميع الشواغر بالاساقفة والكهنة والشمامسة فرسم لابرشياته الواسعة عدداً لايحصى من الكهنة والشمامسة بجميع درجاتهم(١) ثم عاد الى هذه الابرشيات فملأ كراسيها الشاغرة بالاساقفة الاكفياء وكان ينتخبهم من افضل الرهبان واقدمهم وأوسعهم علماً وابعدهم صيتاً في المقدرة وفي المواهب الروحية (٢)، وقد رسم اثني عشر اسقفاً لتلك الابرشيات . وهم :

١ ـ اثناسيوس بهنام ابن سمانة ـ لابرشية باتوهورا ١٢٦٥

٢ ـ طيمثاوس يشوع لابرشية بغداد ـ ١٢٦٥

٣ ـ ايونيس دنحا بن حمزة ـ لابرشية اذربيجان ـ ١٢٦٥

٤ ـ يوحنا وهب ـ رسمه سنه ١٢٦٦ لابرشية جزيرة ابن عمر

٥ ـ سويريوس يشوع ، لابرشية اذربيجان ـ وتوفي عام ١٢٧٧

٦ ـ ديونيسيوس يوسف ـ وخلف خاله الاسقف سويريوس على ابرشية اذربيجان

٧ ـ ميخائيل مخلص ـ لابرشية بارمان ـ وهي البوازيج

٨ ـ باسيليوس ابراهيم لابرشية بيت صيدا ـ القريبة من اربيل

٩ ـ ايونيس نعمه رسمه لابرشية باعربايا

١٠ ـ يوحنا دنحا ـ رسمه اسقفاً لابرشية دير مار سرجيس في الجبل المطشان (القاحل) .

١١ ـ ايونيس ايوب الملفان ـ رسم سنة ١٢٨٥ لابرشية باتوهورا

---

١ ـ سيرته المنظومة

٢ ـ اللؤلؤ المنثور

١٢ - ديوسقورس جبرائيل البرطلي : رقاه المفريان الى رتبة الاسقفية - مكافأة لفضيلته وعلمه وتقواه - لابرشية جزيرة ابن عمر وكان شاعراً وقد نظم سيرة استاذه المفريان شعراً ، وهي احدى مصادر هذا المقال .

علاقاته بالبطريركية :

كانت علاقاته بالبطريركية مثل كل المفارنـــة الذين سبقوه وكانت البطريركية ترعى جانبه اكثر من الجميع لما كان له من المنزلة العليا في الكنيسة عامة ، وكان غالباً مايبدي لها النصح والارشاد في تسيير دفة الامور وكانت آراؤه في هذا المضمار صائبة جداً . كما حدث بينه وبين البطريرك يشوع ، ولما توفي هذا البطريرك اقام بعض الاساقفة فيلكسينوس نمرود بطريركا بتأثير عمه القس يعقوب الآنف الذكر سنه ١٢٨٣ - كادت الكنيسة تتخلى عن البطريرك الجديـــد لمخالفته القوانين المرعية في رسامات البطاركة ، وحاول البطريرك استمالة المفريان اليه بشتى الوسائل ولكنه ابى وبعد محاولات اخرى من القس شمعون الطبيب وهو عم البطريرك نمرود ، زاره تلميذه تاج الدولة ابن القس شمعون وكان يحبه وطلب اليه الاعتراف بالبطريرك نمرود ، فلم يشأ المفريان ان يعيد تلميذه خائباً بل نزل عند رغبته وكتب رسالة مطولة الى البطريرك يعترف به بعد ان أنبه على تسرعه بالجلوس على الكرسي البطريركي بدون اجماع الاساقفة والمفريان .

اعماله العمرانية :

كان عهد المفريان الهام نشاطاً متواصلاً ، وعملا دؤوباً في خدمة الكنيسة والتفكير بمصالحها وحاجاتها ، ولم يكن محباً للمال بل كان يستخدمه لخير رعيته ، حدثنا أخوه الصيفي عنه قال : اني لم اره أربعين سنة يتناول درهماً اوفلساً بيده . ولما كان يقدم المؤمنون له شيئاً للبركة كانوا يلحون عليه أن يأخذ بيده فيأبى فيضعون

امامه - فيبقى هناك حتى يأتي أحد تلاميذه فيأخذه وكان بعضهم قد اعتاد وضع المال تحت فراشه عند تقبيل يديه ، وعند انتقاله من محل إلى آخر كانوا يجدون تحت الفراش ربطات كثيرة من المال ، ولما كان يجتمع لديه شيء كان يفكر في طريقة مفيدة ينفقه فيها (١) .

وقد قام باعمال عمرانية كثيرة افادت كنيسته فوائد كثيرة اهمها :

أنه بنى كنيسة في مراغة ، وأقام بجانبها غرفاً كثيرة وانفق عليها من جيبه الخاص ، كما اهتم بتوسيع كنيسة تبريز وملحقاتها . ودير مار يوحنا في برطلي - (الموصل) وزين الكنيسة الجديدة وبذل في سبيلها جهوداً كبيرة من اموال والقاب .

كنيسة العذراء في بغداد التي جددت بهمته وهي الكائنة يومئذ بالقرب من دار الخلافه عام ١٢٧٤ بالاشتراك مع الوزير صفي الدولة سليمان بن جملا - أحد اعيان السريان في بغداد .

وفاتـــه :

كان عام ١٢٨٦ عاماً قاسياً فقد اختل فيه حبل الامن وكثر اللصوص وتكررت الغارات ، وفقد الأمن فخاف الصيفي برصوم على أخيه المفريان واقنعه بضرورة السفر إلى اذربيجان بينما كان هو يمانع بغية البقاء بين شعبه الذين احبهم واحبوه ليلقى ربه بين ظهرانيهم ولكنه استسلم إلى رغبة اخيه ورحل إلى إذربيجان وحط رحاله في مراغة . فطلب اليه فضلاء المسلمين ان يعرب تاريخه السرياني المدني لفائدتهم ففعل واتى عليه خلال شهر واحد فألبسه حلة قشيبة مــن العربية ، وسماها « تاريخ مختصر الدول » .

---

١ - ذيل التاريخ الكنسي بقلم اخيه برصوم الصيفي

وفي ليلة السبت ٢٨ تموز من عام ١٢٨٦ شعر بحمى خفيفة تتغلغل بين مفاصله ، ثم زاد عليه لهيبها في أواخر الليل ، وفي صباح الاحد تألب حوله اطباء البلدة واشاروا عليه بشرب الدواء فأبى وقال ، قد اعيا الداء عن الدواء والساعة الرهيبة قد دنت ـ وقبل ان تغيب شمس هذا النهار كانت شمس حياة هذا الفيلسوف الكبير والاب البار القديس تتسارع نحو المغيب فشعر الرجل العظيم بدنو الساعة وطلب قلماً ليكتب وصيته الاخيرة غير ان انامله الطاهرة التي خطت الحكمة و الفلسفة من بشرية وروحية لم تستطع كتابة كلمة واحدة . فشعر الجميع بالخطب الجلل ـ واطلقوا العنان لدموعهم ، ولكن المفريان القديس كان يشجعهم ويقول تشجعوا ولاتحزنوا اكثر من الواجب فالموت ليس جديداً في العالم ، ثم دعا احـــد تلاميذه واشار اليه ليكتب وصيته فشرع يقول والتلميذ يكتب :

« الانسان مثل العشب ايامه كزهر الحقل هكذا تزهر مز ١٠٣ ـ وبعد ان انهى وصيته ، ثم ادى الاعتراف القانوني واوصى اخاه بتدبير قلايته (١) وسلمه محتوياتها . ثم نظر الى تلاميذه بابتسامة هادئة . وقال لهم : اوصيكم ان يحب بعضكم بعضاً . فالمحبة ياأبنائي رباط السلام ، سأغادركم الى دار الخلود واحظى برؤية الرب وادعو لاجلكم . وهكذ انطفأ مصباحه الوهاج في ٣٠ تموز عام ١٢٨٦ ريعت مراغة بالخطب الجلل وبكته جميع الملل والنحل في تلك المدينة وتتالت الجموع الغفيرة لتنال بركته يتقدمهم الجاثليق ياباالاها ـ وبعد ان صلى عليه جميع الكهنة واحتفلوا بدفنه احتفالا مهيباً وضع في مذبح كنيستنا الصغيرة الذي كان يصلي فيه ويقدس كلما حضر الى مراغة ـ واصدر ياباالاها الجاثليق اوامره الى جميع مسيحيي مراغة ان يمتنعوا عن العمل ويلبسوا الحداد على ركن النصرانية ونورها الساطع (٢) .

---

١ ـ غرفته الخاصة ٢ ـ تاريخ كنيسة المشرق سيرته

منزلته ومؤلفاته :

لقد حاز المفريان منزلة سامية عند الملوك والامراء والرؤساء والعلماء، وجماهير الشعب لزهده وترفعه عن المادة وعلومه الغزيرة ومعارفه الواسعة ، وقد اطلق عليه العلماء ونعتوه بدائرة معارف القرن الثالث عشر ، وقد ترك لنا ذخيرة روحية عظيمة من كتاباته وتآليفه القيمة التي أربت على خمسة وثلاثين كتاباً في شتى العلوم :

وهي في تفسير كتاب الله ، «مخزن الاسرار ، اللاهوت ، « منارة الاقداس والفلسفة والطبيعيات وماوراء الطبيعة والفقه والشرع « كتاب الهدايات » والاخلاق « الايثقون » واللغة - كتاب اللمع - والارجوزة النحوية « مدخل النحو » قال المستشرق الاميركي مارتان سبرنكلن : «ان ابن العبري اكبر كاتب في تاريخ الادب السرياني باجمعه فضلا عن كونه من اعلم رجال عصره بأسره وقد سخر لكتاب الله العزيز علمه بأسره في « مخزن الاسرار » وكل من اللاهوتي والمؤرخ والباحث في علم الانسان وفي النفس والفيلسوف يجد ذخراً لابحاثه في هذا المصنف الجامع الذي دبجه رجل القرن الثالث عشر (١) وقد ألف كتباً في الطب - وترجم كتاب الاشارات والتنبيهات لابن سينا الى السريانية .

أما في التاريخ فقدألف اربعة مجلدات ، اثنان منها في التاريخ الكنسي يشمل المجلد الاول تاريخ بطاركة انطاكية من عهد مار بطرس الرسول حتى أيامه - وثانيها تاريخ جثالقة المشرق ومفارنته من أيام القديس توما الرسول وختمه بترجمة مسهبة لنفسه إلى سنة وفاته اكمله اخوه الصيفي .

تاريخ الزمان : من اول الخليقة حتى سنة ١٢٨٥ ضمنه تاريخ العالم والدول

---

١ - مقدمة الكتاب بالانكليزية . في ليبغ -

والعلماء بغاية مايكون من من الضبط والدقة . طبعه الاب بيحان ١٨٩٠ (١)

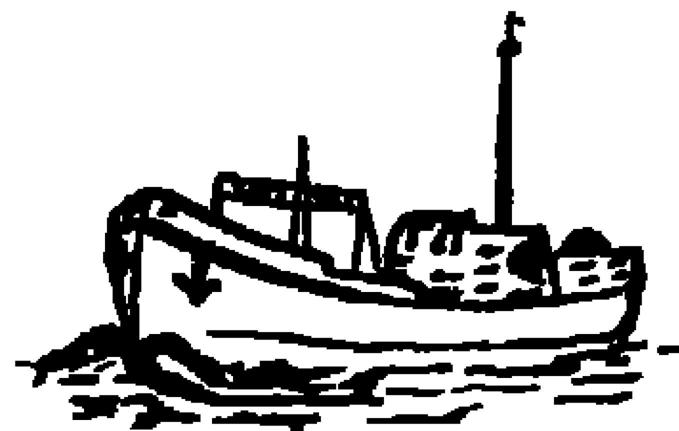
ثم تاريخ مختصر الدول : وهو تاريخ الزمان نقله بتصرف من السريانية إلى العربية قبيل وفاته اجابة إلى رغائب بعض علماء المسلمين في مراغة والجزء الاثلاث صفحات في مدة شهر واحد .

وضمنه فوائد تتعلق بعلماء العرب المسلمين نقلاً عن تواريخ عربية أورد بعضها بنصها وفصها ، وبحث في دول الاولياء الاولين وقضاة بني اسرائيل وملوكهم وملوك الكلدانيين والفرس واليونان والافرنج والرومان واليونانيين المتنصرين والعرب والمغول وصفحاته ٥٢٢ طبع في بيروت ، سنة ١٨٩٠ –

وله ديوان شعر نفيس يحوي غرر القصائد في الحكم والمدح والتقريع والفلسفة والمحبة الالهية ، والكمال الروحاني ، نشر في القدس عام ١٩٢٩ -

وكان ابن العبري يتقـــن اللغـــات السريانية والعربية واليونانية والفارسية والارمنية .

قال في حقه البطريرك افرام برصوم بعد ترجمة ضافية : ويلذ لك في امهات مصنفاته الفواتح المبتدعة والديباجات المشرقة التي تحمل القارىء على مطالعتها مشغوفاً بكلام حلق في أعلى سماء البلاغة ، وكلما غاص في بحر الكتاب وقعت يده على درة يتيمة ولؤلؤة نفيسة وطرفـــة نادرة وانتهى باحناء هامته اجلالاً لامير الكتاب وملك العارفين واشهر علماء السريان على الاطلاق (١)



---

١ ـ اللؤلؤ المنثور ص ٤٣٠

وصف كتاب تاريخ مختصر الدول ومقتطفات تاريخية منه

كتاب ضخم يشمل ٥٢٢ صفحة ، طبع في المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين في بيروت سنة ١٨٩٠م وقد سبق لبعض المستشرقين ان طبعوه في أوروبا ونقلوه إلى اللغات الاجنبية ، أضاف اليه الطابع مقدمة ثم ترجمة للمؤلف لاتخلو من أخطاء بالنسبة إلى اعتقاد ابن العبري في تجسد السيد المسيح ـ وأضاف في نهاية الكتاب جدولاً بأسماء الاعلام التي وردت في متن الكتاب وايضاحات اخرى .

وكما قلنا فقد نقل المؤلف المظيم كتابه هذا من السريانية إلى العربية بانشاء على جانب من البلاغة والتهذيب ، وضمنه اموراً كثيرة لاتوجد في المطول السرياني ولاسيما فيما يتعلق بدولتي الاسلام والمغول وتراجم العلماء والاطباء ، فإنه افرد لهم فصولاً خاصة فيها حوادث نادرة ونوادر ممتعة .

بحث المؤرخ الكبير في تواريخ الدول المتداولة الثانية بحسب تقسيمه فجاءت بمائة وسبع وخمسين صفحة اما بقية الكتاب فقد ضمنه اخبار دولة العرب المسلمين ودولة ملوك المغول ، حتى سنه وفاته ١٢٨٦ ، الامر الذي يدل على تبسطه في إيراد اخبار الدول العربية التي تعاقبت منذ الخلفاء الراشـــدين ثم الامويين فالعباسيين ثم المغول ، وقد بلغت صفحاته ٣٦٥ صفحة .

يبتدىء المؤلف العلامة مقدمته بعد الحمد له بقوله :

وبعد فهذا مختصر في الدول قصدت في اختصاره الاقتصار عـلى بعض ماأوتي في ذكره اقتصاص احدى فائدتي الترغيب والترهيب من امـــور الحكام

والحكماء خيرها وشرها على سبيل الالتقاط من الكتب الموضوعة في هذا الفن بلغات مختلفة سريانية وعربية وغيرها مبتدئاً من اول الخليقة ومنتهياً إلى زماننا (١٢٨٦ م)وهو مرتب على عشر دول داولها الله تعالى بين الامم فتداولتها تداولا بعد تداول .

الدولة الاولى : دولة الاولياء من آدم أول البرنساء (١) أي الناس .

الدولة الثانية : الدولة المنتقلة من الاولياء إلى القضاة ، قضاة بني اسرائيل .

الدولة الثالثة : الدولة المنتقلة من قضاة بني اسرائيل إلى ملوكهم .

الدولة الرابعة : الدولة المنتقلة من ملوك بني اسرائيل إلى ملوك الكلدانيين .

الدولة الخامسة : الدولة المنتقلة من ملوك الكلدانيين إلى ملوك المجوس .

الدولة السادسة : الدولة المنتقلة من ملوك المجوس إلى ملوك اليونانيين الوثنيين .

الدولة السابعة : الدولة المنتقلة من ملوك اليونانيين الوثنيين إلى ملوك الافرنج(٢)

الدولة الثامنة : الدولة المنتقلة من ملوك الافرنج إلى ملوك اليونانيين المتنصرين .

الدولة التاسعة : الدولة المنتقلة من ملوك اليونانيين المتنصرين إلى ملوك العرب المسلمين .

الدولة العاشرة : الدولة المنتقلة من ملوك العرب المسلمين إلى ملوك المغول .

وإليك بعض مقتطفات مما جاء في فصول الكتاب :

الدولة الاولى ص ٤

للاولياء قبل الدخول الى ارض الميعاد

قال من عني باخبار الامم وبحث عن سير الاجيال : ان اصول الامم في سالف الدهر سبعة : الفرس والكلدانيون واليونانيون والقبط والترك والهند والصين ،

---

١ ـ برنساء معربة عن كلمة برنوشو السريانية ومعناها الانسان .

٢ ـ يريد بملوك الافرنج ـ ملوك الرومانيين .

ثم تفرعت كل واحدة من هذه الامم إلى امم وتشعبت اللغات وتباينت الاديان ، وكانوا جميعاً صابئة يعبدون الاصنام تمثيلا للجواهر العلوية والاشخاص الفلكية وهم على كثرة فرقهم وتخالف مذاهبهم طبقتان : طبقة عنيت بالعلوم كالكلدانيين والفرس وسائر من يأتي ذكره في موضعه ، وطبقة لم تعن بهذا كأهل الصين والترك والصقالبة والبرابر والحبشة ومن اتصل بهم . امـــا الصين فأكثر الامم عدداً وأفخمهم مملكة وأوسعهم دياراً ، ومساكنهم محيطة باقصى مشارق المعمورة مابين خط الاستواء الى أقصى الاقاليم السبعة في الشمال، وحظهم من المعرفه التي بزوا فيها سائر الامم إتقان الصنائع العملية واحكام المهن التصويرية العملية، واما الترك كثيرة العدد ايضاً فخمة المملكة وفضيلتهم التي برعوا فيها معاناة الحروب ومعالجة آلاتها ، فهم احذق الناس بالفروسية وابصرهم بالطعن والضرب والرماية . وأما سائر هذه الطبقة التي لم تعن بالعلوم فهم اشبه بالبهائم منهم بالناس ، لان من كان موغلا في الشمال فإفراط بعد الشمس عن مسامتة رؤوسهم برد امزجتهم وفجج اخلاطهم فعظمت ابدانهم وابيضت الوانهم واسدلت شعورهم فعدموا بهذا دقة الافهام وثقوب الخواطر فغلب عليهم الجهل والبلادة وفشا فيهم الغي والغباوة كالصقالبة ومجاوريهم . ومن كان منهم قريباً من معدل النهار وخلفه إلى نهاية المعمورة في الجنوب لطول مقاربة الشمس رؤوسهم ، سخنت امزجتهم واحترقت اخلاطهم فاسودت الوانهم وتفلفلت شعورهم فعدمـــوا بهذا الاناة وثبوت البصائر كالحبشة وباقي السودان الا الهند ، فان الله فضلهم على كثير من السمر والبيض وهم معدن الحكمة وينبوع العـــدل الا انهم يثبتون أزال العالم ويبطلون النبوات ويحرمون ذبح الحيوان ويمنعون ايلامــــه . وجاء في صفحة ٢٠٧ مايلي :

« أبو جعفر المنصور » هو عبد الله بن محمد الامام بن علي بن عبد الله بن العباس ، بويع له سنة سبع وثلاثين ومائة ،وفي هذه السنة قتل ابومسلم الخراساني ، قتله المنصور بسبب انهما حجاماً في أيام السفاح وكان ابو مسلم يكسو الاعراب ويصلح الآبار والطرق ، وكان الذكر له ، فحقدابو جعفر ذلك عليه . ولما صدر الناس عن الموسم تقدم ابو مسلم في الطريق على أبي جعفر فأتاه خبر وفـــاة السفاح فكتب إلى أبي جعفر يعزيه عن أخيه ولم يهنه بالخلافة ولم يقم حتى يلحقه ولم يرجع اليه ،فخافه ابو جعفر المنصور واجمع الرأي وعمل المكايد وهجر النوم الى ان اقتنصه ثم يورد خبر مقتل ابي مسلم الخراساني .

الى ان يأتي على ذكر بناء بغداد فيقول :

وفي سنة خمس واربعين ومائة ابتدأ المنصور في بناء عمارة مدينة بغداد وسبب ذلك انه كان قد ابتنى الهاشمية بنواحي الكوفة . فلما ثارت الراوندية فيها ، كره سكانها ، لذلك ولجوار اهل الكوفة أيضاً فإنه كان لايأمن اهلها على نفسه وكانوا قد افسدوا جنده . فخرج بنفسه يرتاد موضعاً يسكنه هو وجنده فقال له اهل الحذق إنا نرى يا أمير المؤمنين أن يكون على الصراة (١) ، وبين انهار لايصل اليك عدوك الا على جسر فإذا قطعته لم يصل اليك ، وأنت متوسط للبصرة والكوفة وواسط والموصل والسواد ، ودجلة والفرات والصراة خنادق مدينتك . وتجيئك الميرة فيها من البر والبحر فازداد ،المنصور حرصاً على النزول في ذلك الموضع ولما عزم على بناء بغداد امر بنقض المدائن وايوان كسرى ، ونقله إلى بغداد فنقضت ناحية من القصر الابيض وحمل نقضه ، فنظر وكان مقدار مايلزمهم له اكثر من ثمن الجديد ، فأعرض عن الهدم .

---

١ ـ قال ياقوت : الصراة نهر . . .

وجعل المدينة مدورة لئلا يكون بعض الناس اقرب الى السلطان من بعض ، وعمل لها سورين الداخل اعلى من الخارج ، وبنى قصره في وسطها والمسجد الجامع بجانب القصر وقبلته غير مستقيمة يحتاج المصلي ان ينحرف باب البصرة ، وكانت الاسواق في مدينته فجاءه رسول لملك الروم فأمر الربيع فطاف به في المدينة ، فقال : كيف؟ قال : رأيت بناء حسناً الأأني رأيت اعداءك معك وهم السوقة فلما عاد الرسول عنه امر باخراجهم إلى ناحية الكرخ وأمر ان يجعل في كل ربع من مدينته بقال يبيع البقل والخل . . . .

ومما يدل على ان مؤرخنا المدقق قد تناول الاخبار التي ضمنها كتابه هذا ، من مصادر ثقة يعول عليها ويركن اليها ، ماجاء في صفحة ٢٣٥ من الكتاب نفسه

« فصل »

قال القاضي صاعد بن احمد الاندلسي ان العرب في صدر الاسلام لم تعن بشيء من العلوم الا بلغتها ومعرفة احكام شريعتها حاشا صناعة الطب فإنها كانت موجودة عند أفراد منهم غير منكورة عند جماهيرهم لحاجة الناس طراً اليها ، فهذه كانت حال العرب في الدولة الأموية ، فلما أدال الله تعالى للهاشمية وصرف الملك اليهم ثابت الهمم من غفلتها وهبت الفطن من ميتتها ، وكان أول من عني منهم بالعلوم الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور ، وكان مع براعته في الفقه كلفا بعلم الفلسفة وخاصة بعلم النجوم . ثم لما افضت الخلافة فيهم إلى الخليفة السابع عبد الله المأمون بن هارون الرشيد تمم مابدأ به جده المنصور فأقبل على طلب العلم في مواضعه وداخل ملوك الروم وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة فبعثوا اليه ماحضرهم فاستجاد لها مهرة التراجمة وكلفهم احكام ترجمتها فترجمت له على غاية ماأمكن . ثم حرض الناس على قراءتها ورغبهم

في تعليمها ، فكان يخلو بالحكماء ويأنس بمناظراتهم ويلتذ بمذاكرتهم علماً منه بأن أهل العلم هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده لانهم صرفوا عنايتهم إلى نيل فضائل النفس الناطقة وزهدوا فيما يرغب فيه الصين والترك ومن نزع منزعهم من التنافس في دقة الصنائع العملية والتباهي باخلاق النفس الغضبية والتفاخر بالقوى الشهوانية اذ علموا ان البهائم تشركهم فيها وتفضلهم في كثير منها . أما في احكام الصنعة فكالنحل الحكمـــة لتسديس مخازن قوتها ، واما في الجرأة فكالاسدوغيره من السباع لايتعاطىالانسان اقدامها ولايدعي بسالتها . وأما في الشبق كالخنزير وغيره ممـا لاحاجة الى ابانته . فلهذا السبب كان أهل العلم مصابيح الدجى وسادة البشر واوحشت الدنيا لفقدهم . فمن المنجمين في ايام المأمون حبش الحاسب المروزي الاصلالبغدادي الدار ، وله ثلاثة ازياج . . . .

ومنهم احمد بن كثير الفرغاني صاحب المدخل إلى علم هيئة الافلاك يحتوي على جوامع كتاب بطلميوس باعذب لفظ وابين عبارة ، ... إلى انيقول : ومن الحكماء يوحنا بن البطريق الترجمان مولى المأمون كان اميناً على ترجمة الكتب الحكمية حسن التأدية للمعاني . . . وكانت الفلسفة اغلب عليه من الطب . ومن الاطباء سهيل بن سابور ويعرف بالكوسج ، . . وتقدم في الطب في أيام المأمون وكان اذا اجتمع مع يوحنا ابن ماسويه وجيورجيوس بن بختيشوع وعيسى بن الحكم وزكريا الطيفوري قصر عنهم في العبارة ولم يقصر عنهم في العلاج . . . .

إلى ان يقول : ومن اطباء المأمون جبريل الكحال وكانت وظيفته في كل شهر الف درهم وكان اول من يدخل اليه كل يوم . . . .

ومن هذه الصفحات القليلة يمكن القارىء أنيطلع على الجهود الكبيرة والاتعاب الجسيمة التي كابدها مؤرخنا الكبير فيتأليف الكتابوترجمته والتقاط الاخبار الثابتهمناصدق مظانها ، فيقدر له ابحاثهالتاريخية ودقته في هذا المصنف الثمين.

المراجع :

١ تاريخ كنيسة المشرق لابن العبري بالسريانية الجزءان ١ و ٢

٢ ـ سيرته المنظومة للمطران جبرائيل البرطلي بالسريانية

٣ ـ تاريخ البطاركة بالسرياني لابن العبري

٤ ـ تاريخ مختصر الدول لابن العبري

٥ ـ اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والاداب السريانية للبطريرك افرام برصوم

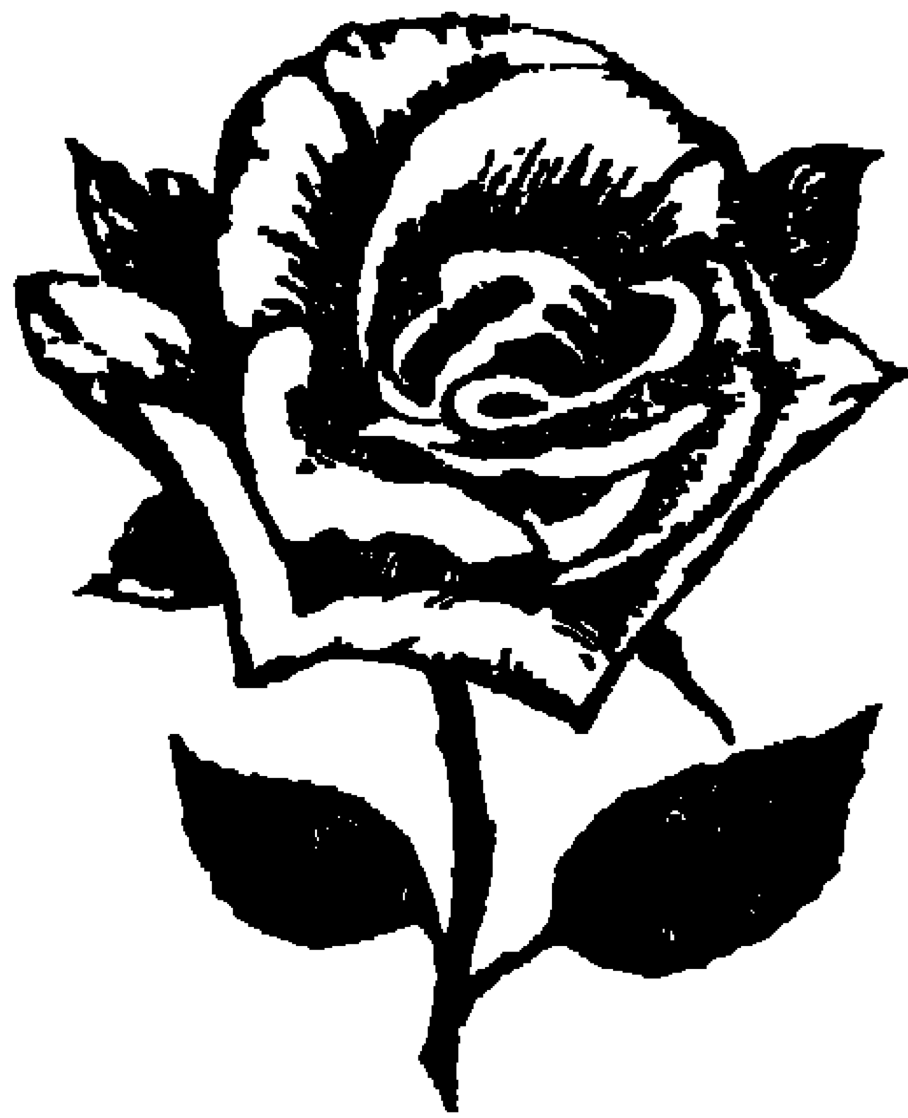
٦ ـ كتاب الحمامة ـ لابن العبري ـ طبعة دولياني ـ

٧ ـ ابن العبري الشاعر : للمطران بولس بهنام . .

٨ ـ ديوان ابن العبري بالسريانية طبعة دير ماروقس بالقدس .

٩ ـ كتاب الايثيقون ـ لابن العبري ـ ترجمة المطران بولس بهنام ١٩٦٦

١٠ ـ الحقائق الجلية ـ في الابحاث التاريخية ـ للبطريرك يعقوب الثالث



رجال الفتوح

السمح بن مالك الخولاني وعنبسة بن سحيم الكلبي

الأستاذ محمد كمال الطرقي

بعد أن فتح العرب إفريقيا ورسخوا أقدامهم فيها، فكروا في عبور بحر الزقاق الفاصل بين أفريقيا وأوربا سنة ٩١ هـ ٧١٠ م فأرسلوا سرية مؤلفة من أربعمائة فارس بقيادة فارس عربي أبو زرعة طريف بن ملوك حيث نزلوا في جزيرة صغيرة تسمى بالوماس على مقربة من المكان الذي سيحمل اسم بلدة طريف وعادوا محملين بالغنائم الكثيرة .

في ربيع عام ٩٢ هـ ٧١١ عبر المسلمون بقيادة طارق بن زياد المضيق بين المغرب واسبانيا ونزلوا في اطراف الجبل الذي سمي فيما بعد باسم جبل طارق، حيث تقدموا في البلاد بعد عدة انتصارات باهرة . لحق موسى بن نصير والي افريقيا مدعماً بالنجدات والرجال بعد ان امر طارقاً بالتريث حتى يقدم . . .

سار موسى بن نصير بطريق غير التي سلكها طارق حيث التقيا في وادي

الأوركامبو في مكان يسمى المعرض بين ماردة وطليطلة (١) ، ثم تابع الاثنان سيرهما بقيادة موسى عبر جبال البرت الى بلاد الغال (٢) التي يطلق عليها العرب اسم الارض الكبيرة (٣) .

يذكر المقري في كتابه نفح الطيب ان هدف موسى مـن التقدم في بلاد الغال هو ربط بلاد الفرنج بالشام عن طريق البر . . . كان ذلك سنة ٩٥ هـ ٧١٤ م إذ احتل أربونه وانطلق مـن هناك في حمـلة خفقة على أفينيون ووادي الرون الأعلى (٤) .

ويذهب بعض المؤرخين إلى ان موسى وطارقاً استوليا على برشلونة ثم عبرا جبال البرت وفتحا أبورنة وأفينيون وواصلا التقدم حتى بلغا ليون الا ان الدكتور حسين مؤنس في كتابه فجر الاندلس يقول : « ليس بين ايدينا دليل واحد يؤيد مثل هذا الزعم » .

خشي الخليفة الوليد بن عبد الملك ان يغتر موسى بنصره فيدفع بالمسلمين في أرض واسعـة مجهولة فاستدعاه وطارقاً إلى دمشق ، فلاطف موسى مبعوث الخليفة الوليد مغيثاً الرومي وسأله إنظاره حتى يتم فتح الاندلس على ان يكون شريكه في الاجر والغنيمة فمشى معه حتى بلغ المفازة فافتتح حصن بارو وحصن لك فاقام هناك وبعث السرايا حتى بلغوا صخرة بلاي . . . وبينما موسى كذلك قدم رسول آخر مـن الخليفة يتعجله في القدوم الى دمشق . . . فترك موسى مدينة لك وخرج الى الفج المعروفة باسم فج موسى ، ووافاه طارق في الطريق

---

١ ـ فجر الاندلس . د . حسين مؤنس ص ٩٨

٢ ـ بلاد الغال : فرنسا

٣ ـ نفح الطيب : المقري

٤ ـ الاسلام في الغرب : جان‌بول رو ـ مترجم ص ٤٧

منصرفاً من الثغر الاعلى فأقفله معه مع الرسولين واحتلوا اشبيلياء فاستخلف موسى ابنه عبد العزيز على امارة الاندلس سنة ٩٥ هـ ٧١٤ م. اتخذ عبد العزيز من مدينة اشبيليا عاصمة للامارة وتابع سيرة والده في الفتح واستطاع اخضاع جنوب شرقي شبه الجزيرة الاندلسية حتى اقليم مرسية الذي كان يحكمه اميرقوطي اسمه تدمير فصالحه على دفع الجزية وتقديم المعونة للعرب المسلمين والصدق والنصح . . . اما في المنطقة الغربية فقد احتل لبلة وباجة حتى قلمرية .

خلف عبد العزيز بعد مقتله أيوب بن حبيب الذي تابع سيرة خلفه بالغزو خلال ولايته القصيرة التي دامت شهوراً . . . وفي ذي الحجة عام ٩٧ هـ ٧١٦ م تولى الحر بن عبد الرحمن الثقفي الولاية وكان ذا نشاط ملحوظ في متابعة الغزو في غالة وماوراء البرت إلا انه لم يظهر كفاءة عالية في تدبير أمور الولاية إذ كانت البلاد في حاجة إلى شخص قدير يرتب أمورها ويضع اسس الادارة العربية فيها .

كانت ولاية الاندلس مرجعها القيروان في افريقية ، وولاية افريقية مرجعها دار الخلافة في دمشق ، فلم يكن من الممكن في سلطة موزعة هذا التوزع أن يستقر فيها النظام وأن تقيم على الطاعة رجالا نشؤوا في ظلال السيوف . . . إضافة الى النزاع الذي وقع بين العرب والبربر وبين المسلمين وغير المسلمين بسبب أراضي المسيحيين التي دخلت في حوزة الفاتحين وقد صارت إلى عدد من ذوي الاطماع ، حيث حرم عدد كثير من المستحقين للفيء هذا إذا استثنينا النعرات العصبية بين القيسيين واليمنيين . . . كل ذلك أدى الى القتال بين الاطراف إذ سالت الدماء ومشت الصفوف بعضها الى بعض (١) .

---

١ ـ تاريخ غزوات العرب ، شكيب ارسلان ص ٧٠

تولى الخلافة الاموية في دمشق عمر بن عبد العزيز المتميز بالتقوى و الفضل والعكوف علـــى رضى الله وطاعته والتقرب اليه بخدمة الاسلام والمسلمين ومن يساكنهم في دولتهم (١) . . . وقد وجد نفسه بعد سنة ونصف من ولايته يتفرغ لأمور الاندلس حيث كان أمامه أمران اثنان ، اما اخلاء الاندلس أو تنظيمها واعمارها . . . فاختار للولاية الجديدة رجلا من أفاضل عرب إفريقية وهو السمح بن مالك الخولاني وأمره ان و يحمل الناس على طريق الحق ولايعدل بهم عن منهج الرفق وان يخمس ماغلب عليه من ارضها وعقارها ويكتب اليه بصفة الاندلس وانهارها (٢) وعين الى جانبه رجلاً يقال له جابر لتنظيم شؤون خراج الولاية ، وكان ذلك سنة ١٠٠ هـ ٧١٩ م . . .

كان السمح مدبراً ، حكيماً مقاتلاً باسلاً ،وسائساً حازماً ذا دراية ادارية واسعة فأصلح الامور ، ورمم الثغور ، ورتق الفتوق ، ووازن بين الدخـــل والخرج ، وانصف الجند في الاعطيات ووزع على المجاهدين جانباً من الاراضي ، وعهد بما بقي منها إلى وكلاء من ذوي الامانة ورد ريعها إلى بيت المال .

كان الخليفة قد طلب من السمح أن يقدم له بياناً عـن البلاد المفتوحة وما فيها من النفوس والجبايات ليبرم فيها رأياً . . . فقد كان شديد الخوف على المسلمين ، حيث هاله بقاء ذلك العدد الكبير من أبناء البلاد الاصليين . . ففكر في إجلاء مسيحي اسبانيا وجنوبي فرنسا الى افريقية حيث لايكون من وجودهم تهلكة على الدولة ، إلا أن السمح طمأن الخليفة وأرسل اليه أن الاسلام ينمو وينتشر وتمتد شماريخه بسرعة في الاندلس ، وأنه لايبعد اليوم الذي تصير فيه

---

١ ـ التاريخ الاندلسى : عبد الرحمن علي الحجي ص ١٨٩

٢ ـ البيان المغرب : ابن العذاري ج٢ ص ٢٦

تلك البلاد بأجمعها تابعة لدين محمد (١) .

اتخذ السمح قرطبة عاصمة لولايته ، وعمل جاهداً على تحسينها واعمارها ، فترك فيها عملاً خالداً هو بناء القنطرة على نهر الوادي الكبير . . . فعندما فتح العرب قرطبة وجدوا فيها فيها آثار قنطرة فوق نهرها من تأسيس الامم الغابرة قد هدمتها مدود النهر على مر الازمان ، فاستأذن السمح الخليفة لاعادة بنائها فورده جواب الخليفة عام ١٠١ هـ يأمره ببناء القنطرة بصخور السور وبناء السور باللبن ، ثم عمل السمح على اخراج خمس قرطبة ، فخرج من الخمس البطحاء المعروفة بالربض فاتخذها مقبرة للمسلمين بناء على أمر الخليفة . . .

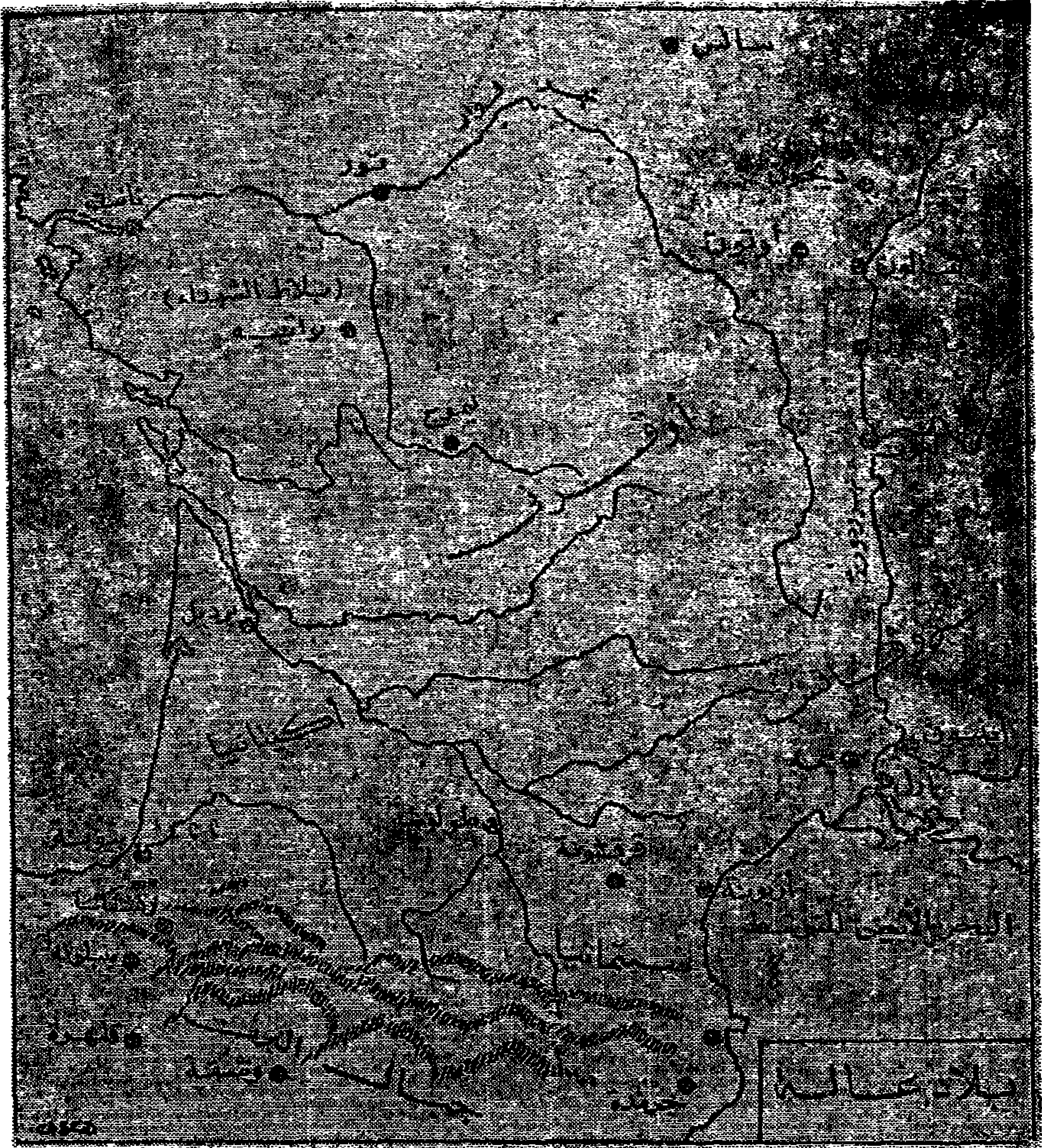
استقرت الامور في الاندلس ، فأعمل السمح همته في الجهاد ليستأنف المسلمون اندفاعتهم الاولى وليجددوا من عزائمهم ففي سنة ١٠٢ هـ ٧٢١ م ، وفي خلافة يزيد بن عبد الملك عمل السمح على تحقيق الفكرة التي دارت في رأس موسى بن نصير من قبل وهي ان يصل الى بلاد الشام عن طريق أوربا . . . . فاجتاز بجيشه جبال البرت وفتح اقليم سبتمانية ، وهي منطقة ساحلية تمتد من البرت غرباً الى مصب نهر الرون شرقاً ، وتتصل بما يعرف اليوم باسم الرفييرا الايطالية وهي تطل على البحر الابيض جنوبي فرنسا ، وعرفت بهذا الاسم لاشتمالها على سبعة أقسام ادارية ، كذلك عرفت هذه المنطقة باسم جوثيا نسبة إلى القوط ، إذ كانت من بقايا مملكة القوط الغربيين ، وكان يتحكم فيها يومئذ جماعة من نبلاء القوط وعاصمتها أربونة (٢) .

استولى السمح على اربونة بعد حصار دام شهراً تقريباً وغنم المسلمون الكثير الكثير من الاموال والتحف التي يرجع اغلبها الى كنوز رجال الدين

---

١ ـ تاريخ غزوات العرب ، شكيب ارسلان ص ٧١

٢ ـ المسلمون في أوربا د. ابراهيم علي طرخان ص ١٤١ ـ ١٤٢



«(أُخذت هذه الخريطة من كتاب تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس)»

للدكتور السيد عبد العزيز سالم

الذين فروا بها مـــن الاندلس عقب الفتح الاسلامي لها ، فقد حملوها معهم وأودعوها المؤسسات الدينية في هذه المدينة وغيرها ، وساعد سقوط هذه المدينة في أيدي المسلمين انها كانت مفتوحة مـــن جهة البحر مما يسر للعرب وصول الامدادات والنجدات . . . . ونظراً لاهميتها الجغرافية فقد عمل السمح على

تحصينها وشحنها بالميرة ، ووضع الحاميات في المدن المجاورة لها (١) ، واتخذها قاعدة لعملياته الحربية في غالة ، ولايزال يوجد في هذه المدينة شارع ينسب الى السمح يعرف باسم شارع السمح .

تابع السمح زحفه متتبعاً مجرى نهر الرون واتجه غرباً وفتح جميع ماصادفه من المدن والحصون وأرغم اهلها على دفع الجزية مثل بيزية وماجلون ، وهذه الاخيرة عرفت باسم ثغر المسلمين . . . ثم فتح قرقشونه وتابع زحفه حتى وصل الى طولوشة عاصمة اكويتانيا ، غير انها قاومت الحصار الذي فرضه السمح حولها رغم استعماله المنجنيقات ، وظلت المدينة تقاوم حتى وصل دوق اكويتانيا أودو على رأس جيش ضخم . . . فاشتد القتال بين الطرفين ، وكان السمح يجول بين جنوده ويشدد أزرهم (٢) ويقرأ قوله تعالى :

« إن ينصركم الله فلا غالب لكم . »

وكانت معركة رهيبة استشهد فيها عدد كبير من المسلمين ، على رأسهم السمح بن مالك الخولاني ، الذي أصيب بطعنة بالغة قضت عليه يوم عرفة سنة ١٠٢ هـ ٧٢١ م .

جاء في كتاب فجر الاندلس للدكتور حسين مؤنس :

« تذكر المراجع العربية ان الهزيمة وقعت عند طرسونة والاصح ان يقال عند طرسكونة على مقربة من طولوشة عند مصب نهر الرون ، وقد ذهب الى هذا الرأي المؤرخ سافدرا معتمداً على ماذكره ايذيدور الباجي من ان السمح استشهد عند طولوشة في موقعة حامية بينه وبين دوق اكويتانيا ، ويؤكد صاحب مدونة مواسياك هذا الرأي ايضاً » .

---

١ ـ تاريخ غزوات العرب ، شكيب ارسلان ص ٨٥ ـ ٨٨

٢ ـ المسلمون في أوربا ، د. ابراهيم علي طرخان ص ١٤٣

كان لمقتل السمح اثر كبير على الجند ، فدبت الفوضى ، ووهنت الهزيمة حتى استطاع أحد امراء الجيش وهو عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ان يجمع شتات فلول الجيش ويتراجع بهم الى أربونة . . . كانت هذه المعركة أول انكسار للعرب في اوربا ، فلو احتلوا طولوشة لأمكنتهم التحكم في وادي نهر الجارون وفي الحدود الشمالية لمقاطعة غسقونيا ، ولتابعوا سيرهم لتحقيق هدفهم في ربط الشرق بالغرب براً .

تولى عبد الرحمن الغافقي شؤون ولايـــة الاندلس أشهراً قلائل حيث استبدل بـــه عامل افريقيا عنبسة بن سحيم الكلبي سنة ١٠٣ هـ ٧٢١ م أيام الخليفة هشام بن عبد الملك (١) .

كان عنبسة من طراز السمح ، تقياً ، ورعاً ، إدارياً صلباً ، وعسكرياً مجاهداً ، امينا على الولاية ، حريصاً على المسلمين وقـــد ظهر ذلك من أعماله وجهوده الادارية والعسكرية .

نظم الخراج ، فتضاعف بحسن تدبيره وتنظيمه . وقسم الاراضي بين المسلمين بدون تجاوز على الاراضي التي لها ملاك من أهل البلاد الاصليين فكان يستوفي العشر من الذين خضعوا لدولة العرب من أنفسهم ، ويستوفي الخمس ممن لم يخضعوا إلا بالسيف ، وأنجز مابدأ بـــه سلفه السمح مـــن بناء جسر قرطبة العظيم (٢) .

طاف عنبسة في المقاطعات ينظر في مظالم الناس ، ويوزع العـــدل والانصاف بدون تمييز بين الاديان . . . . فقضى مدة السنوات الأولى من ولايته في تنظيم أمور الاندلس بعد الاضطراب الذي حصل بسبب الخلافات العصبية بين العرب أنفسهم وبين العرب والبربر . . . فما إن استقرت الاحـــوال

---

١ ـ الاعلام : خير الدين الزركلي ج ٥ ص ٢٦٩

٨ ـ الاعلام خير الدين الزركلي ج٥ ص ٢٦٩

وهدأت الخواطر حتى جهز جيشاً عظيماً لغزو غالة والثأر لمقتل السمح بن مالك الخولاني .

سار عنبسة بجيشه متجهاً نحو نهر الرون حيث لم يتبع الطريق الذي سلكه السمح ، بل سار من برشلونة بمحاذاة الساحل حتى قرقشونة فحاصرها وشدد عليها الحصار حتى أرغم اهلها على التسليم والصلح فقبلوا شروطه ، وصالحوه على نصف أعمالها ، وعلى جميع مافي المدينة من أسرى المسلمين واسلابهم وان يدفعوا الجزية ، ويلتزموا بأحكام الذمة من محاربة من حاربه المسلمون ومسالمة من سالموه (١) وأخذ بعض الرهائن من اهلها وأرسلهم إلى برشلونة .

واصل عنبسة سيره باتجاه نيم فاستولى عليها وأخذ ايضاً بعض الرهائن وارسلهم الى برشلونة ، ثم تابع طريقه مع مجرى نهر الرون الى الشمال فاجتاح أوز وفيين ونواحي فلانسي ، واغار على منطقة دوفيني وعاصمتها غرنوبل حتى وصل إلى مدينة ليون التي يسميها العرب حصن لودون . . . دخل منطقة بورجونيا دون مقاومة واحتل مدينة ماسون وشالون التي تقع على نهر الساؤون وقد وجد الطريق امامه خالية فسار مسرعاً دون ان يلقى مقاومة تذكر واستولى على أتون ونهبها وحرقها ثم اتجه نحو ديجون وبيز حتى لانجر ، وعاد ثانية الى أتون (٢) وقد بعث سراياه الى جهات نيفير بالقرب من نهر اللوار ثم الى كونتية برجنديا التي عرفت فيما بعد باسم فرانش كونتي ، ولاتزال توجد فيها إلى يومنا هذا آثار عربية (٣) .

لم يقف جيش عنبسة ولم يلق مقاومة تذكر الا بالقرب من مدينة سانس على بعد ثلاثين كيلو متراً جنوبي باريز ، وهي عاصمة اقليم بوند وتقع على

---

٢ ـ تاريخ غزوات العرب ،شكيب أرسلان ص ١١٢

١ ـ فجر الاندلس ، د حسين مؤنس ص ٢٤٧

٢ ـ المسلمون في العصور الوسطى د. ابراهيم طرخان ص ١٤٦

نهر السين . . . وهناك واجه عنبسة المقاومة الاساسية حيث تصدى له ايبون اسقف سانس واستعد له من قبل ، فحصن المدينة وحشد مواطنيه ، فهبوا معه لحماية مدينتهم ، ونجحوا في وقف الزحف العربي بعد ان اخترق قلب بلاد الغال حيث غزوا حوض نهر الرون بأسره .

يشك المؤرخون العرب بأن اسقف سانس هو الذي كان السبب في رجوع عنبسة وايقاف غزوه ، ويبدو ان عنبسة أدرك بعد هـذا التقدم الظافر الذي جعله يقترب من باريز ، انه توغل كثيراً في بلاد الغال ، حيث ابتعد عن خط تموينه قرطبة بنحو ألـف ميل ، اضافة إلى سماعه في ذلك الوقت بانبعاث العصبية في الاندلس ووقوع خلافات بين العرب والبربر ثانية ، حيث عمت الفوضى بسبب تنازع عماله الضعفاء على الحكم فيها ، فحالت دون وصول الامدادات والنجدات للجيش الفاتح (١) . . . فكان لابد من رجوعه إلى مقر ولايته حفاظاً على استقرار أمور المسلمين . . . ولولم توجد مثل تلك الاحوال القاهرة في ذلك الوقت لما انصرف عن فتوحاته الموفقة في بلاد الغال بعد أن حاز النصر العظيم .

وفي طريق العودة لم يكن عنبسة حذراً ، فداهمته جموع كبيرة مـن الافرنج ، فالتحم معها في معركة ضارية أُصيب فيها بجراح بالغة توفي على أثرها في شعبان سنة ١٠٧ هـ ٧٢٥ م ، فعادت فلول الجيش العربي بقيادة عذرة بن عبد الله الفهري الى اربونة . وقد اختلفت روايات المؤرخين حول مقتل عنبسة او وفاته : ـ

ـ يذكر ابن الاثير ان عنبسة توفي في شعبان سنة سبع ومائة ، وكانت ولايته أربع سنين وأربعة أشهر ، ولما مات ارسل والي افريقيا بشر بن صفوان ، يحيى

١ ـ الاسلام في الغرب جان بول رو مترجم ص ٤٧

ابن سلمة الكلبي والياً على الاندلس بدلاًمنه وذلك في ذي القعدة ١٠٧ هـ(١)

- يقول ابن خلدون ان استشهاد عنبسة كان في اراضي الفرنجة سنة ١٠٧ هـ. (٢)

- ابن عذارى يقول ان مقتل عنبسة كان في اراضي فرنجة غازياً سنة ١٠٧ هـ

- يقول رينو حيث لم يشر الى المراجع التي استند عليها في ذلك : -

« وقد قتل عنبسة في احدى غزواته سنة ٧٢٥ م ، واضطر خليفته عذرة الى قيادة الجيش في طريق العودة الى الحدود ، ولم تلبث الحرب ان استعرت من جديد في عنف ، ولما كانت أمداد كبيرة قد أقبلت من الاندلس فقد نهض قادة المسلمين ، وشجعتهم المقاومة القليلة التي صادفوها، واخذوا يرسلون الحملات في كل وجه ، ويقول مؤرخ عربي : إن رياح الإسلام أخذت تهب على النصرانية من كل ناحية ، فاقتحم المسلمون سبتمانية مرة أخرى وعادوا الى حوض الرون وغزوا بلاد الالبيين وليفلية ونهبوهانهباً ذريعاً وأتت النيران على ماأغفلته سيوف العرب ، حتى لقد استنكر الكثيرون من الفاتحين أنفسهم هذا الاسراف في أعمال العنف » (٣) .

ويعلق الدكتور حسين مؤنس في كتابه فجر الاندلس على هذا القول :

« ولسنا نستطيع تحقيق ذلك على وجهه الصحيح ، وان كنا نقبل ماتذكره الروايات اللاتينية عن الاعمال التي وقعت أثناء ولاية عذرة لان عبد الرحمن الغافقي حينما تولى وجد المسلمين في حالة طيبة في غالة ، ولوكان أمرهم

١ - الكامل لابن الاثير المجلد ٤ ص ١٩٧

٢ - تاريخ غزوات العرب ، شكيب ارسلان ص ٨٤

٣ - فجر الاندلس د . حسين مؤنس ص ٢٥٥

وقف عندما انتهت اليه أعمال عنبسة وهو الرجوع الى الاندلس ، ولما استطاع عبد الرحمن الغافقي أن يقوم بالعمل الكبير الذي قام به » .

والمعروف أن عـذرة واصل جهاد سلفه في بلاد الغال حيث اقتحم سبتمانية وحوض الرون .

وبعد هـــذا العرض السريع لاعمال بعض رجال الفتوح لابد من ذكر الملاحظات التالية :

أولاً :

إن حملة عنبسة تميزت بالحذق والمهارة ، كما يقول المؤرخ ايزيدور الباجي ، أكثر مما تميزت بالبطش والقوة (١) . . . وقد قيل ان عنبسه كان يكره العيث في بلاد العدو ، إلا أنه كان يداري جنده ويحذر من أن يتهم بفتور الحمية الاسلامية .

ثانياً :

ان حملة عنبسة قد بينت الخطر الحقيقي لامراء الدوقيات في غالة وجعلتهم يفكرون في الموقعة الحاسمة مع العرب التي تمت فيما بعد مع عبد الرحمن الغافقي في بلاط الشهداء .

ثالثاً :

إن حملة عنبسة لم تكن في الحقيقة غير غارة بعيدة المدى ، ولو كان لدى عنبسة نية الفتح الثابت لأتم الاستيلاء على ما غلب عليه من المدائن ولأقام الحاميات في بعضها على عادة العرب في فتوحهم ، وربما كانت نيته من أول الامر ان يقوم بحملة تشبه حملة عقبة بن نافع الكبرى ، غارة بعيدة المدى تشق البلاد شقاً وتطلع المسلمين على احوالها وتمهد لما بعدها .

ولو استقر عنبسة في ليون مثلاً او في أحد مراكز غالة الوسطى لكان في

---

١ ـ تاريخ غزوات العرب شكيب ارسلان ص ٩٧

امكاننا ان نقرر انه فتح جنوبي غالة ووسطها ، أما وقد عاد ادراجه بعد ان سار نحو الف ميل شمالي قرطبة فلا نستطيع القول الا أن حملته الرائعة تلك لم تكن اكثر من غارة سريعة طويلة اتت بغنائم كثيرة ووفيرة ونشرت في نواحي غالة كلها رعباً شاملا ، ومهما يكن من الامر فإن عنبسة ينفرد بين الفاتحين المسلمين بهذا الفخر ، فخر الوصول برايات الإسلام الى قلب أوربا الغربية ، ولم يدرك هذا الشأو بعد ذلك فاتح إسلامي آخر (١) .

رابعاً :

كان البربر الفضل الاكبر في الحملات التي قادها السمح بن مالك الخولاني ومن بعده عنبسة بن سحيم الكلبي ، فقد كانت هذه الجماعات ترد الى الاندلس وقلوبها متعلقة بالجهاد والفتح وما يتعلق بها من مغانم واسلاب ومكاسب . . . وكانوا يتجمعون في الاندلس فلا يستطيع الولاة تركهم دون عمل يتسكعون في العاصمة وماحولها . . . فكانوا ينهضون معهم للغزو . . . وكلما زاد نشاط الفتح ازداد هؤلاء البربر ضراوة في الحـرب وطمعاً في المغانم ، وربما استبد طمع بعضهم في الاسلاب فكان ذلك من اسباب فشل بعض الحملات كما تراها في وقعة بلاط الشهداء .

خامساً :

تذكر روايات مؤرخي الفرنجة اخباراً كثيرة عن اعمال العرب في غالة خلال الفترة مابين موت عنبسة وقدوم عبد الرحمن الغافقي بكثير من المبالغات عما تسمية مساءات العرب اومظالمهم التي انزلوها بأهل المنطقة ، إذ ليس من الانصاف ان يقال ان العرب لم يفعلوا في غالة غير تخريب

١ ـ فجر الاندلس د . حسين مؤنس ص ٢٤٨

الكنائس وحرق الاديرة . . . والثابت المعروف عنهم انهم لم يخربوا كنيسة او يحرقوا ديرا ، وإذا قارنا المسلمين بالشعوب التي كانت تسود غالة في ذلك الحين من فرنجة وقوط غربيين وقوط شرقيين وبرغنديين ومن اليهم لتبينا ان المسلمين كانوا اعظمهم حضارة وابعدهم عن النهب والتخريب . ومهما بحثنا في حوليات ذلك العصر فلن نجد بين من ظهروا على مسرح الحوادث في غالة خلال النصف الاول من القرن الثامن الميلادي رجالا نستطيع ان نقارنهم بالسمح بن مالك الخولاني وعنبسة بن سحيم الكلبي او عبد الرحمن الغافقي (١) .

ان النصوص التاريخية لاتذكر ان المسلمين هم الذين قاموا بأعمال التخريب ولكنها تقول ان « الوند » اوالوندال » او الجندال » هم الذين كانوا يخربون ، فجاء مؤرخو الكنيسة فقالوا ان المراد بهذه الالفاظ هم المسلمون . . . وتابعهم رينو وغيره من المؤرخين المحدثين في ذلك ، وهو تعسف لامعنى له وخاصة ان هذه التسميات اطلقت فيما بعد على المجريين الذين اغاروا على هـــذه النواحي وخربوها ايام قارله وبيبين وشارلمان . . . وقد عادرينو فتشكك في ان المسلمين هم الذين قاموا بهذ التخريب ، بل ان الفرنجة انفسهم بقيادة عاهلهم الاكبر شارل مارتل ، نهبوا الكنائس واستولوا عـــلى كنوزها وخربوها فيما بعد في وقعة تور (٢) .

سادساً :

يقول المؤرخون ان الذي ساعد على نجاح المظاهرة العسكرية العربية في أواسط بلاد الغال تحالف الدوق اودو حاكم مقاطعة أقطانية « اكويتانيا » مع

١ ـ فجر الاندلس د . حسين مؤنس ص ٢٥٩

٢ ـ المسلمون في أوربا في العصور الوسطى د ابراهيم علي طرخان ص ١٤٨

العرب ، ويقولون ان احـد قادة البربر ويدعى عثمان بن ابي نعسة المعروف بـ « مونوسة » (١) وقد كان صهراً للدوق اودو ، وبما ان الدوق لم يكن على علاقة طيبة مع شارل مارتل ملك الفرنجة لان هذا الاخير كان ذا مطامع بأملاك الدوق أودو ، اضافة الى ان معظم الاشراف الاقطاعيين في غالة كانوا يخافونه ويكرهونه ، وفي حالة حرب دائمة معه . . . الامـــر الذي دفع دوق اودو الى مصادقة المسلمين ومصاهرة احد مواطنيهم .

ان وجود ابن ابي نعسة في الجيش العربي كان السبب في انصراف المسلمين عـــن بلاد الدوق اودو ، وربما كان هذا الاتفاق هو السبب فيما وفق اليه المسلمون من انتصارات فاقت كل ما كان منتظراً من حملة عنبسة . وفي ذات الوقت لولا هذا الاتفاق لكان العرب في ذلك الحين من القدرة بحيث يتمكنون من التوغل في اراضي مقاطعة اكويتانيا والاستيلاء على معاقلها . (٢)

محمد كمال لطفي ـ حماة

المركز الثقافي العربي



---

١ ـ سطرت الراوية الاوربية حول مونوسة أوهاماً ، ولايوجد أساس قوي لاعتبار صحة مثل هذه القصة « التاريخ الاندلسي د . عبد الرحمن الحجي ص ١٩٢ »

٢ ـ د . حسين ـ فجر الاندلس ص ٢٥٣

ابن عساكر وتاريخ دمشق

إعداد : عبد الإله نبهان

بلغ ابن عساكر في كتابه « تاريخ مدينة دمشق » الذروة في فن تاريخ المدن فيما روته لنا قصة الحضارة العربية على كثرة ماألف المؤرخون والاخباريون في هذا الفن الحبيب .

« الدكتور شاكر الفحام »

يتسم التراث التاريخي للامة العربية بضخامتة واتساع مداه وغزارة مادته وغنى مكتبته وكثافة مؤلفيه واصالتهم ، وإن كل مانشر حتى الآن من كتب التاريخ العربي في مختلف اتجاهات لايعدو جزءاً مما ألف في هذا الميدان . وإذا كانت كل الامم تهتم بتاريخها وتسجيل أحداثها فإن الامة العربية تأتي في طليعة الامم التي تأثل لديها هذا الفن وتأصل ، وتفرع وتشعب مما دفع بالدكتور شاكر مصطفى إلى القول : (١)

« مامن أمة في الارض قبل العصور الحديثة كتبت في التاريخ وألفت فيه المؤلفات الضخمة جدّ الضخامة وفرعت الفروع العديدة وسجلت دقائق ماعاشت من الاحداث مثل ما كان في العهد العربي الإسلامي . . . فقد تميزت

١ - التاريخ العربي والمؤرخون ١ / ٦ - ٧

الحضارة العربية الاسلامية بالنزعة التاريخية الواضحة التي تجلت في ظهور حوالي خمسة آلاف مؤرخ على الاقل فيها ، ومايزيد على عشرة الى اثني عشر ألف كتاب تاريخ – في اقل تقدير – لديها » .

وإذا كانت الامة العربية قديماً قد عنيت بالتاريخ فإن عنايتها به حديثاً تبرز على المستويين الفردي والجماعي ، الفردي المتجلي في جهود الافراد من المؤرخين والباحثين والمحققين ، والجماعي الذي تقوم به الجامعات والجمعيات التاريخية من جهة ، والمؤتمرات التي ترعاها الدول العربية من ناحية أخرى .

وفي إطار هذا لاهتمام احتفل القطر العربي السوري هذا العام لمدة ثلاثة ايام اعتباراً من ٢٦ /٥ حتى ٢٨ /٥/ ١٣٩٩ هـ الموافق ٢٣ /٤/ حتى ٢٥ /٤/ ١٩٧٩ م بذكرى مرور تسعمائة سنة على ولادة مؤرخ الشام الكبير « ابن عساكر » الذي سنقف معه وقفة عاجلة ، وقفة تحية وتقدير لاسترجاع ماغبر من شذاه ورَوْحه وريحانـــه .

لعل إلمامة بالجزع ثانيةً يدب منها نسيم البرء في عللي

ابن عساكر في سطور (١)

هو ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين الدمشقي الحافظ من اصحاب الحديث (٢) ولد بدمشق سنة ٤٩٩ هـ = ١١٠٥ م (٣) أيام طغتكين (٤) وبدأ تلقي العلم من صغره ، ولم يلبث ان أخذ يتردد على كبار

١ ـ كان اعتمادنا الاساسي على ماكتبه الدكتور صلاح الدين المنجد في تقديمه لتاريخ ابن عساكر ـ المجلدة الاولى ـ ولن نشير إليه مرةأخرى .

٢ ـ خريدة القصر ـ قسم شعراء الشام ـ ١ / ٢٧٤

٣ ـ الاعلام للزركلي

٤ ـ هو أبــو سعيد سيف الإسلام ظهير الدين معتمد الدولة طغتكين مــن بني بوري أتابكة دمشق .
معجم الأنساب والاسرات الحاكمة ٣٤٠

الشيوخ في دمشق يقرأ ويستمع ، قرأ على سبيع بن قيراط ، واستمع إلى أبي القاسم النسيب وابي الفرج الصوري وقوام بن زياد وأبي طاهر الحنائي ، وأخذ عن جده النحو والعربية . وأخذ يستكتب شيوخ بغداد وخراسان ولما يبلغ الحلم

وبعد وفاة أبيه عزم على الرحلة في طلب الحديث فاتجه الى العراق سنة ٥٢٠ هـ شأن المحدثين في ترحالهم طلباً للمزيد من العلم وتلقي الاسانيد العالية .

وأقام الحافظ في بغداد سنة واحدة ، عاد بعدها إلى دمشق ، ولم يلبث ان عاد الى بغداد يريد الحج عن طريقها . وفي مكة والمدينة ومنى سمع الحافظ ممن لقيه من العلماء ، وعاد بعد ذلك إلى العراق بعد ان حدّث بمكة .

وأقام الحافظ ابن عساكر في العراق خمس سنين يستمع الدرس في المدرسة النظامية ببغداد ، ويطوف في العراق فمن الكوفة الى الرحبة إلى الجزيرة الى ماردين . . . يستمع ويحدث ، حتى إذا آن أوان الرحيل شد راحلته ويمم شطر مدينة دمشق سنة ٥٢٥ هـ ليتابع الاستفادة والافادة .

وفي سنة ٥٢٩ هـ يترك الحافظ دمشق قاصداً خراسان ليأخذ عن علماء العجم ومحدثيهم وهم مَنْ هم في علو كعبهم وغزارة روايتهم وقد نص الحافظ نفسه على الغرض من هذه الرحلة فقال :

« والى الامام محمد الفراوي كانت رحلتي الثانية . لأنه كان المقصود بالرحلة في تلك الناحية لما اجتمع فيه علو الإسناد ووفور العلم وصحة الاعتقاد ولين الجانب والاقبال بكليته على الطالب فأقمتُ في صحبته سنة كاملة ، وغنمت من مسموعاته فوائد حسنة ، وكان مكرماً لموردي عليه ، عارفاً بحق قصدي إليه ومرض مدة مقامي ، وكنت أقرأ عليه في حالة مرضه ، ثم عوفي وفارقته متوجهاً إلى هراة . فجاءنا نعيه إلىهراة . وكان موته سنة ثلاثين وخمسمائة (١) .

---

١ ـ تبيين كذب المفتري ص ٣٢٥ نقلاً عن مقدمة المنجد .

وأخذ الامام الحافظ يتجول في خراسان يأخذ عن علمائها وأدبائها وفقهائها ومحدثيها . وقد وضع الدكتور صلاح الدين المنجد اعتماداً على معجم الادباء والوافي بالوفيات وطبقات الشافعية الكبرى الثبت التالي الذي يبين أشهر المدن التي زارها ابن عساكر :

أ	ح	س	ن
ابهر	حلوان	سرخس	نوقان
ابيورد	خ	سمنان	نيسابور
أرجيش	خرباذقان	ط	ه
أسداباد	خسروجرد	طابران	هراة
أصبهان	خوى	طوس	همذان
ب	د	غ	ي
بسطام	دامغان	غشت	اليهودية
بوشنج	ر	م	
بيهق	الري	مرغاب	
ت	ز	مرند	
تبريز	زنجان	مشكان	
توث	زوذراورد	مروالشاهجان	
ج		ميهنه	
جي			

وعاد الحافظ إلى بعداد سنة ٥٣٣ ولقي بها السمعاني (١) ، وكان قد فارقه في

---

١ ـ السمعاني (٥٠٦ ـ ٥٦٢ هـ = ١١١٣ ـ ١١٦٧ م) عبد الكريم بن محمد السمعاني ، أبو سعد ، مؤرخ رحالة من حفاظ الحديث ، مولده ووفاته بمرو . رحل الى أقاصي البلاد ولقي العلماء والمحدثين أخذ عنهم وأخذوا عنه . والسمعاني نسبة إلى بطن من تميم . أشهر كتبه (الانساب) عن الاعلام ٤/٥٥ ط ٤

خراسان . ثم قفل عائداً الى دمشق حيث عقد مجلس التحديث سنة ٥٣٣ هـ .

ومن سنة ٥٣٣ إلى سنة ٥٧١ انصرف الحافظ إلى التصنيف إلى جانب قيامه بالتدريس . وكانت مرحلة خصبة مثمرة رفد فيها الحافظ المكتبة العربية بتراث زاخر لاتزال تعتز به ، ولايزال الباحثون ينكبون عليه ويستمدون منه ويعتمدون عليه في شتى مجالات الثقافة الإسلامية . وفي هذه المرحلة علا نجم الحافظ ابن عساكر وطار صيته في الافاق وقصده العلماء وطلبة العلم وارتفع شأنه لدى نور الدين ومن بعده لدى السلطان صلاح الدين .

وشاء الله ان يسترد أمانته ويأخذ وديعته ، وعادت نفس الحافظ الى ربها راضية مرضية ، وكان ذلك بين المشائين ليلة الاحد حادي عشر رجب سنة إحدى وسبعين [وخمسمائة] ودفن بمقبرة باب الصغير ، وصلى عليه الملك الناصر صلاح الدين في ميدان الحصا ، (١) ورثاه عدد من الفضلاء منهم فتيان بن علي الاسدي (٢) الذي اورد العماد الاصفهاني له قصيدة تامة في رثاء الحافظ منها هذه الابيات :

علماء البلاد حلّت حُباها | لك يا مَن عم الورى بالحباء
ماعسى أن نقول فيك وقد فا | تت أياديك جملة الاحصاء
أنت أعلى من ان تحدّ بوصف | بلغته بلاغة البلغاء
أنت اولى بأن ترثيك حتى | يبعث الخلق ، ألسنُ الشعراء
فعليك السلام مالاح وجه الصبح | ـ م ـ من تحت طرّة سوداء
وسقى التربة التي غبت فيها | كلّ جون وديمة هطلاء

١ ـ هو الحي المعروف حالياً بالميدان في دمشق .
من تعليقات د . شكري فيصل على الخريدة .
٢ ـ الخريدة ١ / ٢٨٠

ولعل خير وصف للإمام الحافظ ماوصف به نفسه ، واوجز فيه سيرة حياته قال :

يامعشر الاخوان لوظفرت يدي ... بمساعد ومؤيد وملاطف
لشرحت ماحاولت شرحاً بيناً ... وشفعت سالف ذاك بالمستأنف
تالله أو في حلقة للحالف ... مايبغض العلماء غير مخارف
يامن توعدني لفرط جهالة ... اكفف وعيدك لي فلست بخائف
لو كنت تعرفني لما خوفتني ... فذر الوعيد فلست لي بالعارف
مالنتُ قط لغامز أو حاقد ... كلا ، ولا لاينت حتف الحاتف
فأنا الشجى في حلق كل منافق ... وأنا القذى في عين كل مخالف
وأنا الذي سافرت في طلب الهدى ... سفرين بين فدافد وتنائف
وأنا الذي طوفت غير مدينة ... من أصبهان إلى حدود الطائف
والشرق قد عاينت أكثر مدنه ... بعد العراق وشامنا المتعارف
وجمعت في الاسفار كل نفيسة ... ولقيت كل مخالف ومؤالف
وسمعت سنة أحمد من بعدما ... أنفقت فيها تالدي مع طارفي
ورويتها بأمانة وصيانة ... ونزاهة تنفي سفاهة قارف

والأبيات تشير بوضوح الى غنى جوانب الحافظ ابن عساكر ، وتعدد مناحي نشاطه . وإن المقام لايتسع في هذه العجالة للإلمام بجوانب الحافظ وسنكتفي بالتعريج على الناحية التاريخية .

مؤلفاته في التاريخ :

بلغت مؤلفات الحافظ ١٤٣ مؤلفاً حسب إحصاء الاستاذ مطاع طرابيشي (١) وسنقف عند مؤلفاته التاريخية ذكراً وتعداداً اعتماداً على

١ ـ انظر كتاب ابن عساكر ص ٢٤٤

قائمة الاستاذ الطرابيشي وعلى تعداد الدكتور شاكر مصطفى : (١)

١ ـ تاريخ دمشق

٢ ـ فضل البيت المقدس اوفضل القدس

٣ ـ فضل مكة

٤ ـ فضل المدينة

٥ ـ فضل عسقلان

٦ ـ فضل الخليل (٢)

٧ ـ المعجم المشتمل على ذكر اسماء شيوخ الأئمة النبل (٣)

٨ ـ المعجم لمن سمع منه أواجاز له

٩ ـ معجم النساء (٤)

١٠ ـ شيوخ ابن البناء

١١ ـ شيوخ الحلواني

١٢ ـ كتاب البلاد والقرى التي حدث فيها ابن عساكر (٥)

١٣ ـ معجم أسماء القرى والامصار التي سمع بها

وله ايضا معجم لشيوخ البخاري ومسلم ومعجم للصحابة .

هذه جملة مؤلفاته التاريخية ، وسنقف عند كتابة العظيم تاريخ مدينة دمشق.

---

١ ـ التاريخ العربي والمؤرخون ٢ / ٢٤٣

٢ لم يذكره الاستاذ الطرابيشي

٣ ـ ذكره الدكتور شاكر مصطفى باسم (معجم الشيوخ ومعجم الشيوخ النبل) أي جعله معجمين .

٤ ـ ذكره الاستاذ الطرابيشي (معجم النسوان) وباسم (من سمع منه من النسوان)

٥ ـ ذكره الاستاذ الطرابيشي باسم (معجم القرى والامصار التي سمع بها) وذكر ان اسم هذا الكتاب اورد في سير النبلاء « اسماء الاماكن التي سمع فيها + معجم القرى والامصار

تاريخ مدينة دمشق :

يعد تاريخ مدينة دمشق للحافظ ابن عساكر من اهم المراجع التاريخية وأوسعها وأشملها ، ولعله أكبر تاريخ وضع بالعربية حتى الآن . ويغلب على ظن القدماء والمحدثين أن ابن عساكر بدأ عمله في هذا التاريخ في مرحلة مبكرة من عمره فالحافظ المنذري علامة مصر ومحدثها يقول وقد ذكر تاريخ ابن عساكر :

ماأظن هذا الرجل - يعني ابن عساكر - الاعزم على وضع هذا التاريخ من يوم عقل على نفسه ، وشرع في الجمع من من ذلك الوقت » والا فالعمر يقصر عن ان يجمع فيه الانسان مثل هذا الكتاب بعد الاشتغال والتنبه (١) .

كما أن الدكتور شاكر مصطفى ينص على أن ابن عساكر كان منذ أيام الدراسة يداري مشروعاً في خاطره لتاريخ دمشق يضاهي به عمل الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ، وقد شرع بـــه ثم توقف ، ثم سمع الاتابك (٢) نور الدين بن زنكي مهتم بهذا المؤلف وبإنجازه فأنجزه وكان من ذلك تاريخ دمشق (٣) .

والاسم الكامل لهذا التاريخ هو :

« تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الاماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها »

---

١ - عن مقال الشيخ محمد احمد دهمان . كتاب ابن عساكر ٢٠٧

٢ - يتألف هذا اللقب من لفظين هما « أتا » بمعني أب ، و « بك » بمعنى أمير . واصله أن السلاطين السلاجقة منذ أيام ملك شاه بن ألب ارسلان كانوا يطلقون لفظ (اطابك) على كبير أمرائهم ، يولونه الوصاية من بعدهم على سلطان او امير قاصر صغير ، ثم اطلق هــذا اللقب في ايام المماليك بمصر على مقدم العساكر او القائد العام على اعتبار انه ابو العساكر والامراء جميعاً وكان يسمى « اتابك العسكر »

انظر كشاف الاصطلاحات في الاعلاق الخطيرة الجزء الثالث القسم الثاني ٨٧٧

٣ - التاريخ العربي والمؤرخون ٢٤١

وقد يكون العنوان أضيق مما اشتمل عليه الكتاب ، لأن هذا التاريخ في حقيقته ليس تاريخاً لدمشق فحسب بل إنه كما يقول الاستاذ عبد المعين الملوحي : (١) تاريخ الامة العربية » ولذلك نرى الدكتور شاكر مصطفى يدون الملاحظة التالية :

« وقد تتسع حلقة دمشق في خاطرة لتشمل الشام احياناً فيترجم لمن كان في صيدا أو حلب او بعلبك او الرقة او الرملة » (٢)

وقد امتد الكتاب على مدى خمسمائة جزء وسبعون جزءاً كما ذكر ياقوت او إلى ثمانمائة جزء في ثمانين مجلدة (٣) . وعلى كل حال فإن العاملين الآن في تحقيق تاريخ دمشق يقدرون له إذا تم تحقيقه وإخراجه أن يصدر في حوالي مائة مجلد من القطع الكبير .

صرف الحافظ في جمع مادة كتابه مالايقل عن ثلاثين سنة ، (٤) واستمد مادته الغزيرة من مصادر ثلاثة :

١ ــ السماع من الشيوخ

٢ ــ المكاتبة معهم

٣ ــ الكتب المخطوطة « مؤلفات السابقين »

ونهج في تصنيفه من منهج المحدثين ، فهو يذكر كل خبر بسنده وقد يكرر الخبر إذا ورد بسند جديد أو مختلف ولو قليلا عن السند السابق . ورتب تراجم الكتاب على حروف الهجاء إلا أنه بدأ بمن اسمه احمد تيمناً باسم الرسول الاعظم ﷺ .

---

١ ـ كتاب (ابن عساكر) ٢٢٥

٢ التاريخ العربي والمؤرخون ٢٤١

٣ ـ معجم الادباء ١٣ / ٧٦

٤ ـ التاريخ العربي والمؤرخون ٢ / ٢٤١ وانظر مقدمة المنجد

وخصص المجلدة الاولى الحديث عن مدينة دمشق وخططها وفضائلها وفتوح الشام بشكل عام .

ونظراً لضخامة الكتاب وحاجته إلى العمل الشاق المضني في تحقيقه وإخراجه فإنه لم ير النور منه سوى أجزاء ، لقد طبعت منه المجلدة الاولى سنة ١٩٥١ والقسم الاول من المجلدة الثانية سنة ١٩٥٤ . وفي سنة ١٩٦٣ صدرت المجلدة العاشرة ، وفي سنة ١٩٧٨ صدر قسم من حرف العين « العين مع الألف » (١) ولا يزال الاساتذة المحققون يوالون عملهم الشاق في تحقيق هذا الكتاب الذي يعد مصدراً أساسياً من مصادر تأريخ الحضارة الإسلامية لذلك نجد الدكتور شكري فيصل يقول : (٢) « اننا حين نعرض الكتاب نجد أن المؤلف لايقدم لنا تاريخاً دمشقياً ولا تاريخاً شامياً فحسب ، وانما يقـــدم تاريخاً حضارياً لهذه البلاد كلها التي انتشر فيها الاسلام وسادت العربية وانساحت فيها مهاجرة العرب المسلمين بين أقصى الشرق فيما وراء النهر وبين اطراف المحيط » .

إن إحياء هذا الكتاب ونشره على نطاق واسع يجب ان يقدم على أي عمل تاريخي آخر ، وإذا كانت الاصوات في هذه الايام ترتفع في كل جانب من جوانب الوطن العربي تطلب إعادة كتابة التاريخ على أسس جديدة (٣) فإن على أصحاب هذه الدعوات أن يعلموا أنه لاارتفاع لبناء ولاديمومة له إذا

---

١ ـ المجلدة الاولى والقسم الاول من المجلدة الثانية نشرهما مجمع اللغة العربية بدمشق بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد

ـ المجلدة العاشرة نشرها المجمع بتحقيق الشيخ محمد احمد دهمان

ـ قسم العين مـــع الالف وقـــد نشره المجمع في مايقرب مـــن ألف صفحة بتحقيق الدكتور شكري فيصل .

٢ ـ عن كتاب « ابن عساكر » ٢٣٦

٣ ـ اجرت المعرفة التي تصدر عن وزارة الثقافة بـــدمشق استفتاء حـــول « كيف نكتب تاريخنا القومي » ثم جمعت الاجابات وطبعت في كتاب مستقل صدر عن وزارة الثقافة

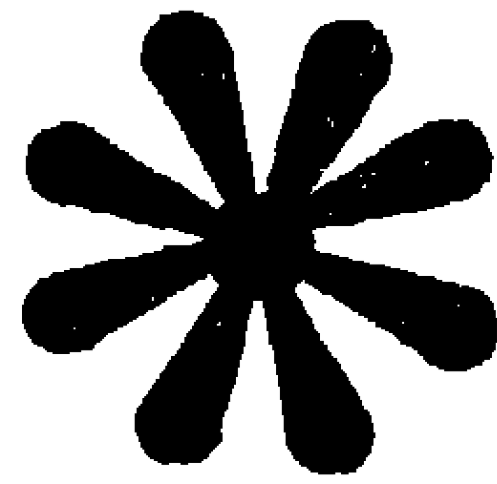
لم يبن على أساس وطيد ، وإن الأساس الذي يجب أن نبتدىء به لكتابة تاريخنا هو أولاً نشر التراث التاريخي ، ويجب أن ينظر إلى ضرورة إحياء التراث التاريخي نظرة جدية ، لان الامر ليس أمر إيجاد عمل للمطابع ومعامل الورق ، بل ان القضية أخطر من ذلك وقد لخصها الدكتور مصطفى زيادة بقوله :

« ان احياء الكتب القديمة ليس للتقوى والزلفى فحسب بل لبناء حاضر الثقافة في امم الشرق على اسس منه » (١)

هذه عجالة أعددناها عن تاريخ دمشق ومؤلفه الحافظ ابن عساكر الجدير بأن تكتب عنه المطولات وان يسجل اسمه بأحرف من نور في سجل الخالدين .

عبد الاله نبهان

حمص ـ الجمعية التاريخية

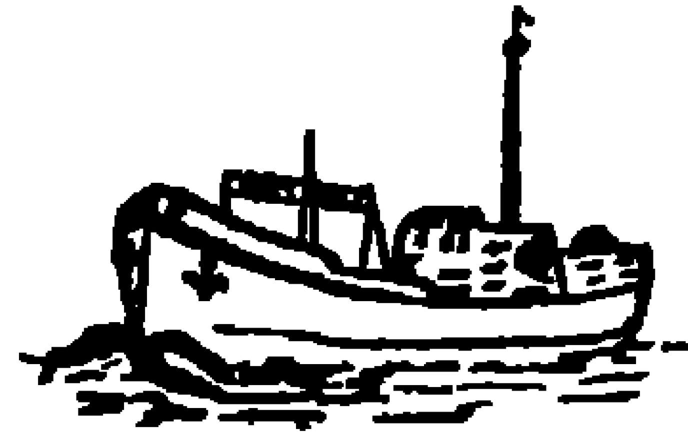


١ ـ عن كتاب ابن عساكر ٢٢٠

مراجع اعداد البحث

- خريدة القصر - قسم شعراء الشام - للعماد الاصبهاني - تحقيق الدكتور شكري فيصل
- معجم الادباء - ياقوت الحموي - طبعة أحمد فريد الرفاعي
- الاعلاق الخطيرة - ابن شداد - تحقيق يحيى عبارة - وزارة الثقافة
- التاريخ العربي والمؤرخون الدكتور شاكر مصطفى - دار العلم للملايين
- الاعلام . خير الدين الزركلي
- ابن عساكر في ذكرى تسعمائة سنة على وفاته

وزارة التعليم العالي بدمشق
- تاريخ مدينة دمشق . مصورات مجمع اللغة العربية بدمشق



عرض الكتب

التاريخ العربي القديم

تأليف جماعة من الأساتذة المختصين
ترجمه واستكمله : د. فؤاد حسنين علي
راجع الترجمة المرحوم : د. زكي محمد حسن

عرض وتلخيص
الأستاذ خالد السباعي

تمهيد : في يناير / ١٩٢٧ ظهر بالالمانية كتاب « التاريخ العربي القديم» يبحث في تاريخ بـــلاد العرب السعيدة قبل الاسلام ، مشتملاً على خمسة فصول كتبها عدد من الاساتذة المختصين في الجزيرة العربية آثاراً وتاريخاً ، ولغة ، وأدباً

كتب الفصل الاول الدكتور : ديتلف نيلسن بعنوان : تاريخ العلم ونظرة حول المادة .

وكتب الفصل الثاني الدكتور : فرتز هومل بعنوان : التاريخ العام لبلاد العرب الجنوبية .

وكتب الفصل الثالث : نيكولوس رودكاناكين بعنوان : الحياة العامة للدول العربية الجنوبية .

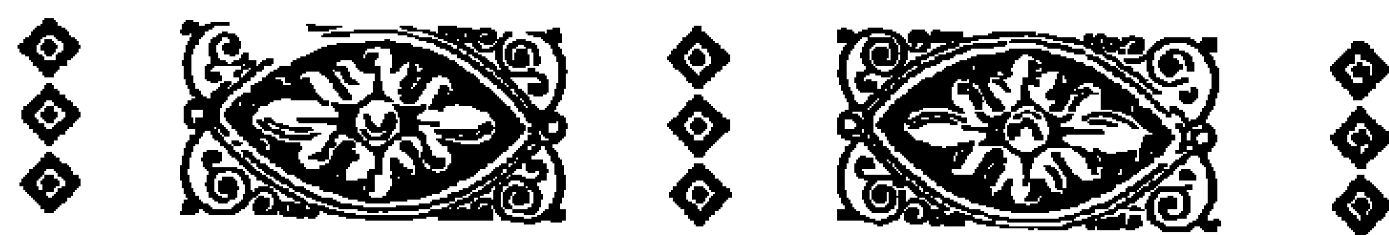
وكتب الفصل الرابع الدكتور ادولف جرومان بعنوان الناحية الاثرية لبلاد العرب الجنوبية

وكتب الفصل الخامس الدكتور : ديتلف نيلسن بعنوان : الديانة العربية القديمة .

ثم استكمل المترجم الدكتور : فؤاد حسنين علي ، بعض فصول الكتاب بما استجد من معلومات منذ صدوره عام / ١٩٥٨ / أغنى بها فصوله .

في عرضنا للكتاب سنكتفي بتلخيص الفصل الاول منه ، وذلك لما يتضمنه من معلومات قلما تتوفر في أي كتاب آخر .

في هذا الفصل بحث الدكتور « ديتلف نيلسن » في تأريخ علم البحث والتنقيب عن الآثار والنقوش في بلاد العرب الجنوبية ، فتحدث عن البعثات العلمية الأوربية التي اقتحمت هـــذه البلاد ، في الفترة الممتدة من /١٧٦٠/ حتى اندلاع الحرب العالمية الاولى / ١٩١٤ - ١٩١٨ / وقد حاول « نيلسن » جهده ان يكون المصور الامين ، فنقل الينا اخبار هذه البعوث والنتائج التي جاءت بها ، ومدى الفائدة التي عادت على العلم منها ، واستغرق منه ذلك / ٥٠ / صفحة ثم استكمل المترجم بـ /٨/ صفحات تأريخ عمليات البحث والتنقيب في بلاد العرب الجنوبية منذ صدور الكتاب عام ١٩٢٧ وحتى ترجمته عام ١٩٥٢ . ونحن هنا - كما كان المؤلف والمترجم في تأريخهما لبعثات التنقيب ، أمينين - سنحاول في تلخيصنا ان نقتفي اثرهما في الامانة بذكر تأريخ جميع تلك البعثات والرحلات التي وردت عندهما ، كما يجدر التنويه ان ترقيم البعثات من اجل تنظيم التلخيص،



بلاد العرب الجنوبية

البعثة الاولى : في منتصف القرن الثامن عشر اتصل مستشرق دانيماركي وهو « كريستنس ف . هافن » العالم في جامعة جو تنجن الالمانية بنبيل دانمركي هو « الجراف برنشتورف » وحدثه عن الفوائد التي تعود على العلم من وراء ارسال بعثة علمية الى بلادالعرب الجنوبية ، فاقتنع «الجراف» بوجاهة الفكرة ، ففاتح«فريدرك الخامس» ـ ملك الدانمرك في ذلك الوقت ـ في أمر هذا المشروع ، فأجابه الى طلبه ، واصدر أمره بوجوب تأليف البعثة ، وكانت على الوجه الآتي:

١ ـ كريستنسن هافين ـ لعلوم الاستشراق ٢ ـ بيترفورسكول ـ العلوم الطبيعية ٣ ـ كارستن ينبور ـ الضابط ٤ ـ كريستنسن كارل كرامر الطبيب ٥ ـ جورج فلهلم بور نفيند ـ الرسام .

وفي / ٤ / يناير / . تركت البعثة « كوبهنا جن » فوصلت بلاد اليمن في أواخر /١٧٦٢ / ولم يأت شهر أيار /١٧٦٢/ الاوتوفي « المستشرق » ضحية حمى وتوفي في « مخا » . ثم لحقه « عالم الطبيعيات » فيتموز / ١٧٦٣ / بمدينة « يريم » ثم واصلت البعثة السير الى « صنعاء » فاحتفى الامام باستقبالها . وفي جزيرة « سقطرة »شيعت البعثة الرسام وخادمه . في آب / ١٧٦٣ / وفي « بومباي » مرض « الطبيب » ودفن هناك في شباط / ١٧٦٤/ . ولم يبق من البعثة الا « نيبور » فنفذ الخطة التي رسمت للبعثة . ولم تطأ قدماه كوبنهاجن « الا في عام / ١٧٦٧ والجدير بالذكر ان بعثة « نيبور » بلغت اماكن لم تطأها قدم أوربي من قبل اومن بعد ، ولقد لفت نظر من جاء بعده الى تلك الخرائب وما تشتمل عليه من نقوش « حميرية » باشارته اليها في خريطته .

وكذلك يظهر أن « نيبور » أول عالم اوربي ، رأى نقشاً عربياً جنوبياً وذلك لانه لما مرض في « مخا » زاره هولاندي اعتنق الاسلام واطلعه على نقش دوّن في الجدية غير معروفة فقال «نيبور » لاأشك ابداً في ان الانسان ليجد في الجهات الجبلية باليمن ، خاصة فيما بين « تعز - صنعاء - تهامة » نقوشاً في اللغة الحميرية».

وعن طريق هذه البعثة ، عرف العلماء هذه الكنوز ، التي تنتظرهم ، والتي تتصل بالاثار القديمة لبلاد العرب الجنوبية ، لذلك كانت بعثة « نيبور » فاتحة البحث واللهاث وراء الاثار العربية .

الثانية :

في صيف /١٨١٠/ نجد الدكتور « و . ي ستزن » يحاول البحث عن النقوش التي تحدث عنها «نيبور » وماكاد يترك « صنعاء » ويتجه الى الجنوب حتى عثر على النقوش التي اشار اليها «نيبور» واستطاع أن ينسخ بالقرب من المدينة الحميرية «ضمار» النقوش العربية الجنوبية الاولى ثم واصل سيره ماراً « بعدن » حتى بلغ «مخا » فاعتقد القوم انه ساحر ، لما وجدوا معه ثعابين ثم اختفي داخل البلاد نهائياً .

ثم جاء رحالة آخر وهو « ارنود » وقد علم من سكان «مأرب» عن مخلفات « ستزن » من رسوم واوراق وكتب ممهورة بامضائه الى جانب بعض الرسائل والنقوش .

ولم يمر حادث اختفاء « ستزن »دون ان يترك أثراً في نفوس المغامرين الاوربيين في الاحجام عن السفر الى بلاد العرب زهاء ثلاثين عاماً .

الثالثة :

وفي صيف عام «١٨٣٦» استطاع كل من « هلتون » و « كروتندن » الوصول

الى « صنعاء » بطريق كان السير فيها شاقاً لجفافها وشدة حرارتها ، مما أدى لمرض « هلتون » ووفاته . ونجح « كروتندن » فيما بعده في نشر النتائج التي وصلت اليها بعثته ، ومن بينها ، خمسة نقوش قصيرة سبائية وجدها في صنعاء

الرابعة :

نظراً لاهتمام الانكليز بالشواطيء اكتشف الفتنت « ولستند » عام ١٨٣٤ «حصن الغراب » الواقع على الشاطيء شرق « بال حاف » ، كما وجد فوق الصخر الاسود الذي بني عليه الحصن ، بعض النقوش ، من بينها نقش اشتمل على عشرة اسطر عرف باسم « نقش حصن الغراب » ويعود الى عام/ ٦٤٠ / . ويعد أول نقش طويل كامل واضح عثر عليه . وفي العام التالي انتهز « ولستد » رسو السفينة في خليج قبة العين فقام برحلة متجهاً الى الشمال لمسيرة يومين في الصحارى ، فعثر على بقايا مدينة يطلق عليها اليوم (نقب الهجر) ، اما الاسم الاصلي فهو (ميفعة) وقد ورد ذلك في نقش بحائط نقله الانجليزي ، واسمه نقش نقب الهجر

الخامسة :

في عام ١٨٣٢ قام المبشر (ولف) برحلة من مخا إلى صنعاء وعاد بخفي حنين وكذلك كان نصيب عالم النبات (بوتا) الذي قــــام برحلته ١٨٣٨ الى الجهات الغربية الجبلية .

وبعد هاتين الرحلتين ادرك العلماء ان مالديهم من النقوش يصلح لان يكون أساساً لدراسة اللغة العربية الجنوبية ، فاضطلع العلماء الالمان بهذه المهمة وظهر (جزنيوس)و (روديجر) .

السادسة :

في عام ١٨٤٣ سار الالماني « ادولف فون فريده من ميناء مكلا متجهاً باتجاه

الشمال الغربي حيث «حضرموت» . فعثر بعدها في سهل ميفعة الشرقي بوادي « اوبنه » على بقايا حائط قديم وعليه نقش حضرمي من خمسة سطور يعرف باسم نقش «اوبنه » .

السابعة :

وفي عام ١٨٤٣ ايضاً رحل الصيدلي « توماس يوسف ارنود » كطبيب للسفارة التركية الى صنعاء . وهناك هرب من رفاقه ، ووضع نفسه تحت حماية احد افراد قافلة متجهة من صنعاء الى مأرب واستطاع ارنود بتصريح خاص من أمير المدينة ان يدخل مأرب وخلفها تاريخها الغني المجيد ، وما كاد ارنود يدخل مدينة مأرب حتى سارع ورسم تخطيطاً يبين السد ، كما نسخ عدداً من النقوش ولان الامير وضع ارنود تحت حمايته ، استطاع ان يفحص خرائب مأرب القديمة وهي عبارة عن طبقة أرضية من بقايا سور المدينة المحيط بها ، وكذلك معبد (المقة) (١) الواقع خارج المدينة ، الذي يطلق عليه العرب اسم (حرم بلقيس)

---

١ ـ المقه ، اسم الاله القمر السبائي ص ٢١٦ وهو سين الحضرمي وعم القتباني و(ود) المعيني وكلها أسماء لاله القمر ص ١٨٩ ـ (عن كتاب التاريخ العربي القديم وديتلف نيلسون) واليه يشار دائماً أما الاسماء العادية للقمر كاله قمري ، والتي نجدها عند مختلف الشعوب السامية فهي (ورخ)و(سين)و(شهر) فهذه الاسماء غالباً ما نجدها في مختلف النقوش سواء أكانت في جنوب بلاد العرب او بلاد الحبشة او في شمال البلاد العربية . لكن الشيء الاهم هو ان كل الاساطير التي لدينا بمحتوياتها الدينية المختلفة ترجع كلها الى القمر ص ٢٠٧

وكما ان الشمس هي الام العظمى للآلهة كذلك القمر هو الاب السماوي ص ٢٠٨ (ومن عدد عظيم من الاسماء والالقاب يتضح لنا ان هذا الاله كان ينظر اليه كالجد الاكبر القبيلة و الشعب ، وبني آدم . من هذه الاسماء نجد لفظ (أب) وكذلك (عم) وقد اصبح ذلك اللفظ في العربية المتأخرة قاصراً على (العم) . لكن قديماً كان يدل على نفس المعنى الذي يدل عليه لفظ (أب) بمعنى الجد الاكبر والاصل . وبهذا المعني يلعب هذا اللفظ الدور الهام في وصف ذلك الاله بكونه الرحمن الرحيم بالبشر وحاميهم ص ٢٠٨

وفي اثناء عودته الى صنعاء ، انتهز استراحة القافلة بمكان قريب من خوبة غنية بالخرائب ، سار اليها ليلا ، برفقة دليله ، فاستطاع ان ينسخ بعض النقوش التي تتحدث عن بناء العاصمة السبأية الاولى صرواح ، وقد قاسى ارنود الاهوال في الطريق من صنعاء الى شاطيء تهامة الا ان وصفه للرحلة والنقوش السبائية التي يبلغ عددها ٥٦ نقشاً وصلت الى القنصل الفرنسي (فرسنل) وكان هذا القنصل من المعنيين بمثل هذه الدراسات ، خاصة اللهجات العربية الجنوبية ، وكانت ترجمته لمثل هذه النقوش في ذلك الوقت ، مسألة صعبة ، ومع ذلك ارسلها (فرسنل) الى المجلة الآسيوية عام ١٨٤٥ وقد استخدمت الحروف العربية الجنوبية للمرة الاولى ومن بعض ملاحظاته ، تبين لنا انه كان على حـــق في شروحه ، كما كان على شيء من الخبرة في النقوش العربية الجنوبية . وقـد قام (ارنست اوسيندر) ببعض البحوث حول نقوش (ارنود) وشرحها كاملة قبل وفاته ١٨٦٤

الثامنة :

اذا استثنينا نقوش ارنود فمعظم النقوش التي وصلت أوربا كانت على يـد الانكليز ، ولذا بدأت فرنسا تهتم بالامر ، فقررت اكاديمية الفنون الجميلة ارسال المستشرق يوسف هلفي في بعثة إلى بلاد اليمن ، استطاع هلفي ان يتصل هناك باليهود اليمنيين ، كما تبين له ، انه من السهل على اليهودي ان يتجول بين افراد القبائل العربية المستقلة ، كما تقتضي الشهامة العربية ، عدم الاعتداء على اليهودي الاعزل حفاظاً على الكرامة البدوية ، لذلك استغل هلفي هذه التقاليد ، وتزيا بزي يهودي فقير ، حضر من القدس الى اليمن عام ١٨٧٠ ، وأخذ يتنقل في مختلف الجهات التي كان من العسير على غيره بلوغها .

ومن صنعاء بدأ رحلته مخترقاً الجوف الى نجران وهناك وقف امام خرائبها

ثم تركها متجهاً جنوباً ماراً بمأرب و صرواح عائداً الى صنعاء .

لكنه عاد يحمل الكثير من المواد العلمية الى فرنسا ، وقدم للاكاديمية ، مالايقل عن ٦٨٦ نقشاً لم يعرف العالم منها من قبل إلا ١٥ نقشاً جمعها من ٣٧ مكاناً ، ونشرها هليفي عام ١٨٧٢، مع ترجمة لها تتفق والمستوى العلمي لعصره وبعدها نشر هليفي بحثاً حول لغة النقوش .

والقيمة العلمية الكبرى لهـذه الرحلة ، ليست في كمية نقوشها ، وانما للمعلومات الجديدة التي جاءت بها . فمنها عرفنا أنه كان هناك حضارة راقية رفيعة لشعب ضرب في المدينة بحظ وافر .

في الجوف العربي الجنوبي وشمال شرقي صنعاء اكتشف « هليفي » آثار تلك الحضارة الرفيعة التي مدنها فـــوق مرتفعات حصينة ، تبين من النقوش فيما بعد أنها مدن « معينية » قديمة بينما النقوش التي عرفت من قبل كليا في اللغة السبائية ، وقليل منها في اللهجة الحضرمية ففي خرائب المدن المعينية عرف « هليفي » العالم على معابد هي على جانب عظيم من البهاء ، وعثر على مرتفع يظهر أنه كان مكاناً مقدساً ، نسخ منه / ١٥٤ / نقشاً دينياً يتصل بالحياة الدينية العامة ، ومنها نعرف أن المدينة الحالية « براقش » سميت قديماً « يطيل » وهي من المراكز الثقافية المعينية . ووجد أيضاً مدينة تعرف اليوم « السوداء » أعتقد قديماً انها كانت صناعية بالرغم من انها اليوم خرائب ، واكبر مدينة لم تصلنا الاخرائبها ، هي عاصمة دولة معين « قرناو » واليوم « معين » حيث تقع على مرتفع طوله / ٢٨٠ / م وعرضه / ٢٤٠ / م يحيط به سور عظيم ، وجـــد عليه « هليفي » وعلى غيره / ٨٠ / نقشاً .

في تلك الفترة أصبحت اليمن منذ عام ١٨٧٠ أيالة تركية ، حتى الحرب

العالمية الاولى . وكثيراً ما كان الموظفون الاتراك يشترون بعض النقوش التي كان العرب يجلبونها الى صنعاء ، ولذا اصبح المتحف التركي يضم /٥٠/ قطعة معظمها سبأية .

وكان من نتيجة رحلة «هليفي» ومشتريات الاتراك ، أن زاد الاهتمام بآثار البلاد العربية الجنوبية لذلك قام الكثيرون يقلدونها ويبيعونها للمتاحف الاوربية إلا أن العلماء اهتدوا إلى هذا التزوير ، عن طريق جمل متقطعة ، أو كلمات مكتوبة على مادة جيدة ، وقد أفادت من حيث أنها كانت تقليداً لاجزاء اصلية

التاسعة :

وفي عام ١٨٨٠ أقـــدم العالم المستشرق النمساوي استاذ اللغة العربية « ادوارد جلازر» على رحلة من قبل الاكاديمية الباريسية الى مصر ، ليتزود باللغة والعادات والتقاليد العربية .

وبينما كان « جلازر » في طريقه إلى اليمن ، اقترح مستشرقو « فيينا » ارسال المستشرق الشاب أخصائي اللغة العربية « سيجفر لينجر » عـــام ١٨٨٢ إلى اليمن عن طريق سورية ، فجدة ، فقنفذه ، فالحديدة وفي طريقه الى صنعاء مخترقاً بلاد حمير القديمة ، عثر على نقش حميري كبير واهتدى إلى الخرائب الحميرية ، التي اشار اليها « نيبور » وفي صنعاء استطاع نسخ نقشين ، ولم يسمح له الاتراك بالتقدم داخل البلاد فأعادوه الى الحديدة .

لكن « لينجر » لم يفقد الرغبة في المغامرة فتوجه إلى عدن • وتوصل الى نقوش لايعرف من أي الجهات وصلت لعدن . من بينها نقش هام جداً من الناحية اللغوية ، فهو في اللهجة الحضرمية ومن عدن تنكر في زي احد الاعراب ليصل الى الخرائب داخل البلاد ، فكشف دليله أمـــر حيلته ، فقتله بعد

مسيرة أيام قلائل من عدن ومن حسن الحظ ان لنجر كان قد أرسل من قبل هذه النقوش والتي يبلغ عددها ٢٢ نقشاً الى «فيينا» ونشرت بعد وفاته .

العاشرة

وفي نفس العام الذي قتل فيه « لينجر » وصل جلازر الى صنعاء فاحتجزه الاتراك محتجين بمصير لينجر لكن جلازر اقنع كبار الموظفين بأهمية مهمته فاستطاع أن يقوم مابين ١٨٨٢ – ١٨٨٤ بثلاث رحلات في شمال بلاد اليمن .

الرحلة الاولى : كانت بمرافقته لحملة تركية حربية لفتح مدينة سودة التي كانت تناصب الحكومة العداء ، حيث نجح « جلازر » تحت حمايتهم في القاء نظرة عامة على البلاد .

الرحلة الثانية : قرر القيام برحلة في رفقة بعض اليمنيين الى شبام - كوكبان - رهجة عمران ، وجميعها بالقرب من همدان . وهناك فحص خرائبها ونسخ نقوشها ، ثم واتته فرصة ثمينة بدخول منازل قبائل «حاشد » و «بكيل» فاستغلها بمعونة الحاكم التركي الذي اكتسب ود القبيلتين الاختين المتنازعتين اللتين كثيراً ماجاء ذكرهما في النقوش القديمة .

الرحلة الثالثة : في يناير ١٧٧٤ بدأ رحلته مع بعض شيوخ « ارحب » ثم أرسل نتائج رحلاته الثلاث الى الاكاديمية الفرنسية ، وهذه النتائج تلخص في أربعة أحجار فيها نقوش سبائية ، و ٢٨٠ نسخة لكتابات شاهدها .

الحادية عشرة :

في عام ١٨٨٥ يعاود « جلازر » السفر إلى بلاد العرب الجنوبية ، ولكنه يخص المنطقة الواقعة بين صنعاء و عدن بعنايته ، لانه يرمي إلى زيارة الخرائب - التي اشار اليها نيبور - الواقعة بالقرب من «ضمر » و «يريم » ، اتجه شمالاً شرقياً الى

رداع » . وحصل على ٣٧ نقشاً أصلياً معظمها في اللغة المعينية ومن اقليم «جوف » اضيفت. هذه المجموعة ايضاً الى مجموعات المتحف البريطاني ، وتعتبر اكبر مجموعة معينية وصلت إلى أوربا بعد مجموعة « هليفي » وقد عاد « جلازر من رحلته هذه ، ومعه اكثر من ١٥٠ نسخة من النقوش الجنوبية .

الثانية عشرة :

وفيمابين ١٨٨٧ – ١٨٨٨ قام جلازر أيضاً برحلة أخرى قاصداً مأرب العاصمة القديمة لسبأ وهي واقعة في وادي ضنة شرق صنعاء . وقد وفق جلازر اذ قضي ستة أسابيع وسط خرائب مأرب ومعالمها التاريخية .

ففي مأرب استطاع ان يرسم جلازر تخطيطاً لاثار القنوات القديمة وسدودها العظيمة التي كانت مصدر خصوبة لمملكة سبأ وسبباً قوياً من أسباب حضارتها ونسخ الكتابات التي كانت على السدود كما قاس محيط المعبد لاله القمر وقد ظل هذا المعبد قروناً عديدة صامداً امام قـــوة الصحراء ، يحمل في بنيانه دلائل الحضارة والرقي .

كانت نتيجة الرحلة مايقرب من ٤٠ نقشاً سبائياً ، عداالقطع الأثرية والعقود والخواتم ، وجميعها محفوظة « ببرلين » وقد أحضر أيضاًمايقرب من ٤٠٠ نسخة لكتابات عربية جنوبية ، لم يقم أحد حتى اليوم بنشرها ، ثم قضي جلازر عواماً صرفها في الابحاث العلمية ، ودراسة تلك النقوش .

الثالثة عشرة

وبين عام ١٨٩٢ – ١٨٩٤ عاود جلازر الكرة بمساعدة « اكاديمية براغ » إلا ان الظروف السياسية في بلاد اليمن ، كانت غير مواتية ولاتشجع على التوغل داخل البلاد لان القبائل كانت ثائرة على الاتراك ولذلك علم جلازر بعض البدو طريقة طبع النقوش على الورق ثم أرسلهم من صنعاء الى الجهات المختلفة وكانت لهذه المحاولة نتائج باهرة فقد كان يعطي مبلغاً مغرياً من المال عن كل نقش

يطبعونه . فأخذوا يبحثون عـــن الخرائب التي لم يصلها اوربي من قبل ، واستطاع جلازر عن طريقهم الحصول على الكثير من النقوش المعينية من اقليم «الجوف» منها ما كان قد احضره سابقاً «هليفي» بشكل غير واضح كما حصل جلازر على نقش صرواح العظيم الذي يشتمل على اكثر من ١٠٠٠ كلمة وعلى مايقرب ١٠٠ نقش ظهر انها ترجع الى الدولة القتبانية .

فمن طريق رحلة الصيدلي الفرنسي « ارنود » والمستشرق هليفي ظهرت دولتان بفضل النقوش « السبائية » و « المعينية » ، كنا نعرفهما مـــن النصوص الكلاسيكية ، والتي بدورها تحدثنا عن أربع دول عربية جنوبية (للمعينيين والسبائيين، والحضرميين ، والقتبانيين) . ولكن النقوش لاتحدثنا الاعن ثلاث لهجات لثلاث دول اما الدولة « القتبانية » الاخيرة ، فلم يرد ذكرها اوذكر ملكها الا في نقش واحد ومنه عرفنا بوجود دولة بهذا الاسم ، ولم نعرف شيئاً عـــن لغتها أو أدبها وثقافاتها او موقعها . حتى ظهرت وثيقة منحوتة في الحجر تتحدث عـن سكان تلك الدولة . والفضل في الحصول تلك الوثيقة ، يرجع الى البدو الذين احضروها الى « جلازر » والنقوش المائة تتحدث عن الحياة السياسية والتاريخية والدينية ، وجـــدت في اماكن عديدة في الدولة القتبانية ، وبذلك أزيح الستار عنها من الناحيتين التاريخية والثقافية .

أما القيمة العلمية لرحلات « جلازر» يكفي ان توصف بأنها فتحت عهداً جديداً لمعلومات عن بلاد العرب السعيدة ، كما أغنتنا في معرفة تاريخ الشرق القديم . اما السر في نجاحه فيرجع الى اعداده العلمي ، فقد امتاز من غيره انه درس العادات والتقاليد واللغة العربية ، ثم انه كان يحدد هدفه قبل البدء في الرحلة وجلازر قضى عشرة اعـــوام بين العرب ، فاكتسب صداقتهم ، كما

كان محبباً لهم ، والا لما استطاع ان يحصل على ماحصل عليه .

وبرحلات جلازر تكاد الابحاث حول بلاد العرب الجنوبية تبلغ نهايتها فيما يتصل بالنقوش والكتابات ، ولذلك نستطيع ان نلخص هـــذه المجهودات العلمية للرحلات في اعمال ثلاثة رجال هم « نيبور ـ هليفي ـ جلازر » .

الرابعة عشرة

ونظراً للنتائج الباهرة لرحلات جلازر أعدت اكاديمية فيينا تحت اشراف كل من « د . هـ . ملر » و « ك . لند برج » بعثة علمية الى بلاد العرب عام ١٨٩٨ ، وحين وصلت ميناء عدن بدأت الصعوبات امامها ، لان البعثة لم تحصل على اذن خاص من الحكومة البريطانية ، بالتوغل داخل البلاد . لذا أبحرت إلى « بال حاف » بحضرموت ، وهناك زارت البعثة الخرائـــب الواقعـــة بالقرب من شبوه عن طريق « عزان ـ انصاب ـ وحبان » . ولم تستطع البعثة إلا طبع النقش الموجود في نقب الهجر بالقرب من عزان التي سبق ان زارها « لستد » ١٨٣٤ وطبع نقش « اوبنه » و « حصن الغراب » .

وفي عام ١٨٩٩ توجهت السفينة الى جزيرة سقطرة لدراسة لهجتهم ، كما درست فيما بعد اللغات الحديثة في الصومال ومهرة وسقطرة وشخوري، ونشرت ابحاثاً فيها فيما بعد .

جهود متفرقة

وفي الاعوام الاخيرة ، ساهم أمثال (فان دن برج) و (ا. دفلرز) و (ج . و . بري) وآخرون في زيادة معلوماتنا عن بلاد العرب الجنوبية ، وذلك لان الساحل الجنوبي العربي واقليم حضرموت الغني بالآثار والنقوش ، يقع تحت النفوذ البريطاني ، ومن الصعب الحصول على تلك النقوش عن طريق الرحلات . ولما نشبت الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨ دب الكسل لدى

العلماء عـــن الاهتمام ببلاد العرب الجنوبية ، لكن (أولف هوير) المبشر الدانمركي في عدن اغلق أبواب مدرسته ، وعاد الى بلاده ومعه طبعات لبعض النقوش العربية الجنوبية ، كما تمكن زوج ابنته الماجور الانجليزي (يعقوب) من ارسال مجموعة من الآثار الى دلهي .

الدراسة العلمية للآثار .

ان دراسة بلاد العرب الجنوبية . قبل الحرب العالمية الاولى ، كانت قد خطت خطوات واسعـة بفضل (جرنيوس وأوسيندر وبرتوريوس و ا د . هـ ملر) والأخير نشر كثيراً من النقوش ، كما عني بالقواعــد وحاول ترتيب النقوش ترتيباً زمنياً، ووجه اهتماماً كبيراً لدراسة المصادر العربية الشمالية الاسلامية التي عنيت ببلاد العرب الجنوبية .

وقد اهتم بمثل هذه الدراسات القنصل الالماني في القسطنطينية الدكتور (ي . هـ مورتمان) ويشاركه (مارك ليدزبرسكي) في جوتنجن في دراسة كثير من النقوش ومعالجتها علاجاً علمياً دقيقاً . وأخيراً نجد الدكتور (فريتزهومل) يضع في ميونيخ كتاباً في قواعد اللغة العربية الجنوبية مـع ثبت بالمراجع والنصوص ومعجم لها .

ومن حسن الحظ ان الدكتور (جلازر) منذ عودته من رحلاته حتى وفاته ١٩٠٨ وجد أمامه فسحة من الوقت مكنته مـــن العناية بالنقوش ، ودراسة مشاكلها ، لوضع تاريخ لبلاد العرب الجنوبية .

كذلك الحال مع استاذ جامعة برلين (مارتن هرتمان) ، فإنه بعد ان سبق ونشر النصوص ، توجه لدراستها وكتابة بعض البحوث حول الحياتين الرسمية والاجتماعية في بلاد العرب الجنوبية معتمداً على الاثار ، وكذلك فعل

زميله في الجامعة (هو جو فنكر) درس بعض النصوص العربية الجنوبية ، ونشرها فخدم بذلك تاريخ الشرق الأدنى وثقافته وعقائده .

والآن لابد ان يتساءل القارىء ماالفوائد التي عادت على العالم من تلك الرحلات ؟ وعم تحدثنا هذه الاثار ؟ .

إن تلك الاثار كلهاقد دونت بلغة واحدة وتحدثنا عن عظمة غابرة لبلاد تمكن أبناؤها أن يقيموا مدنية رفيعة وقصة هذه المدنية كغيرها من القصص تنمو وتزدهر مادامت عوامل النمو متوفرة ، أما إذا زالت الاسباب انعدمت النتائج .فالمدنيه العربية الجنوبية ظلت قوية حتى افلتت الطرق التجارية من يـــد العرب الجنوبيين فذبلت وقضي عليها . وكما ان حـــل رموز اللغة (الهيرو غليفية) فتح صفحة جديدة في تاريخ العالم كذلك حل رموز المسارية الاشورية البابلية اضاف فصلاً جديداً على فصول سجل العالم . وهكذ الحال مع بلاد العرب الجنوبية فقد كشفت هذه الآثار عـــن حضارة عربية قديه لاتقل عن أُختيها المصرية او البابليه الاشورية .

ملاحظة : ثم يكمل المؤلف (نيلسن) بحثه تحت العناوين التاليه :

الكتابة

فقد كشف حل رموز تلك النقوش للعلماء الغربيين ان لغتها لم تدون في اشارات تعبر عن افكار اومقاطع ، كاللغة السامية الاشورية وانما . جاءت بأبجدية تعبر عن تسعه وعشرين صوتاً ، وهي تقابل الابجدية العربية الشمالية وان الكتابة من نوع الكتابة السامية العربية ، أعني كتابه حروف فقط تقرأ من اليمين الى اليسار ويلاحظ ان الابجدية العربية الجنوبية اقرب الابجديات السامية الى الحبشة الا أنها مع مرور الزمن ، أخذ يطرأ عليها بعض التحول ، إذ

ان الحروف القديمة مستقيمة عادة ومن السهل التمييز بينها وبين الحديثة المموجة لحد ما فهذه الفوارق هامة جداً لانها تؤرخ هذه النقوش وتميز بينها .

مادة الكتابة :

استخدم الحجر بأنواعه المختلفة مادة للكتابة . أما النقوش فتوجد عادة في المباني محفورة بدقة وجمال . أما كتابات المعابد فقد كانت حروفها كبيرة يمكن قراءتها من مسافات بعيدة ، وقد عثر على الواح مدفونة مكتوبة . ورؤوس التماثيل من الرخام وخواتم واختام وقطع نقود ذهبية وفضية ونحاسية .

اللغـــة :

ثبت أنها لهجة سامية قريبة الى الحبشية ، واللغة العربية الشمالية لغـــة القرآن الكريم . وقد فرق العلماء في اثناء شرحهم وترجمتهم للنقوش بين أربع لهجات تمثل كل منها دولة من الدول التي قامت في بلاد العرب السعيدة . ولم تبلغ بعد دراسة اللغة العربية الجنوبية مرحلة الكمال . وحاول « فريتز هـــومل » سد النقص فوضع كتاباً في القواعد السبائية ، ولاتزال تحتاج الى اخراج معجم لغوي للغة الجنوبية ، خاصة وأن هذه النقوش تقرب من الألفين .

المحتويات :

تعبر الآثار التي وصلتنا عن مواضيع مختلفة ،الا أن أغلبها يتحدث عن العبادات وكتابات المعابـــد التي تتصل بتقديم القرابين ، وهي تكاد تكون ذات صيغة واحدة مكررة في نقوش كثيرة وغالباً مايكون النص كالآتي :

« فلان بن فلان قـــدم للآله « عثتر » (١) مثـــلا أو

١ ـ عثتر ، تدل على آلهة من آلهة الطبيعة أي الزهرة . ص ١٧٨. وهي (عشترت) عند الكنعانيين .

« ود » (١) أو « شمس » (٢) مابأتي - مذابح ، هدايا الخ . . . شكراً للآلهة الذين استجابوا دعاءه ، وبعد ذكر سبب تقديم القربان نجد غالباً التاريخ يذكر باسم الملك الحاكم ، و يختتم النص بدعاء موجه للآلهة » .

والنصوص لاتنفصل الحديث عـــن الدين لكنها تكاثر من ذكر أسماء الآلهة ، والاعلام المستمدة من اسماء الالهة كلها ولاشك تعيننا على فهم الدين ونوع الالهة والعبادات .

الحبشة

ليس الساميون الذين خلفوالنا في بلاد الحبشة آثاراً وآداباً هم العنصر الاصلي فيها بـــل هم هاجروا إليها من بلاد العرب ، وذلك لان لغتهم عبارة عن لهجة عربية جنوبية ، أما اللغة والخط والثقافة فسبائية منذ البداية ، وذلك لان بعض المهاجرين من بلاد العرب الجنوبية ، نزحوا إلى البلاد فيما يظن في قرون بعيدة قبل الميلاد وأسسوا مستعمرات ، ووضعوا الاساس لدولة الحبشة التي اخضعت فيما بعد في القرن السادس الميلادي بلاد العرب الجنوبية لسلطانها .

١ - ود : صنم كان يعبد في وادي القرى بدومة الجندل . قال الكلبي : فحدثني مالك بن حارثة الاجداري أنه رآه يعني « ودا » قال : وكان أبي يبعثني باللبن اليه فيقول اسقه الهك قال : فأشربه قال ثم رأيت خالد بن الوليد بعد كسره فجعله جذاذاً . وكانت العرب تسمي « عبدود » « كتاب الاصنام لابن الكلبي ص ٥٢ »
لها دلالة معنوية اصبحت آلهة ومعناها « حب » ويقصد به الحب الالهي ص ٢٠٩ وقد ورد معناه في نقش سبائي « اله القمر » وفي نقش معيني أنه وصف « النامي » كأنه اله القمر ، وفي الثمودية كتحية وكاله وجد في النصوص اللحيانية ، ففي النقش اللحياني رقم «٤٩» نجد « عبدود » أي كاهن « ود » وقبيل ظهور الاسلام ورد ذلك اسم الاله ضمن اسماء اعلام كما ذكر في القرآن الكريم « سورة ٧١ آية ٢٢ » وقد حكى القرآن عنه بأنه صنم جاهلي قديم وجد قبل زمن الطوفان ص ٢٠٩ .

٢ - شمس . صنم قديم قال صاحب التاج ان ابن الكلبي ذكره « وليس له ذكر في كتاب الاصنام فلعل ابن الكلبي اشار اليه في كتاب اخر » وقد سمت العرب « عبد شمس » وهو بطن من قريش ، قيل سموا بذلك الصنم واول من تسمي به سبأ بن يشجب
« احمد زكي محقق كتاب الاصنام لابن الكلبي »

ففي ربيع عام ١٩٠٦ وصلت بعثة المانية برئاسة « انوليتهان و د. كرنكو » الحبشة لدراسة خرائب « اكسوم » ، نشرت نتيجة أعمالها في أربعة مجلدات وتشتمل على ٥١ لوحاً و٨٧٣ صورة للنصوص . فآثار الحبشة لاتبلغ في الكثرة تلك التي وجدت ببلاد العرب الجنوبية ، فقد جاءنا من الحبشة ١١ نقشاً طويلاً و ٤ نقوش قصيرة ، وجميعها وثائق تاريخية هامة وهي تشمل عصراً يبلغ نحو ١٥٠٠ عاماً وتكشف اللثام عن حضارة كانت مجهولة تماماً .

واقدم هذه النقوش جاءت في اللغة السبائية والخط السبائي ، وترجع إلى منتصف الالــــف الاول قبل الميلاد . وفي حائط كنيسة قائمة على قمة جبل « الانبابنتليون » وجد حجر يتحدث عن مكان سبائي مقدس ذكر فيه الالهة السبائية « ذات بعدن » (١) كا وجد جزء من نقش سبائي لتقديس الاله العربي الجنوبي « عشتر »

وقد وجدت وثيقة هامة تتصل بالملك عزانا وهي على لوح الجرانيت الاسود ترجع إلى القرن الرابع الميلادي وتذكر في اللغة القومية آلهة الاكسوميين ، في

---

١ ـ ذات بعدن ، آلهة سبأية وضعت كصفة او للتعبير عن شكل خاص . ففي العربية نجد مثلا ضمير الاشارة « ذو » للمذكر و «ذات» للمؤنث،وبعض اسماء ـ فمثلا : « ذو عقل » أي سيد اوصاحب عقل اي عاقل . ومثل هذا التعبير نجده مع اسماء الآلهة مثلا «ذو خلاص » و « ذو شرى » « ذو قبض »و« ذات انواط » و « ذات حميم » و « ذات بعدن »جميعها مستعملة في معاني وصفية ، وهيمستعملة كألقاب وليست اسماء ص ١٩٠ واسماء الشمس في بلاد العرب الجنوبية غالباً ماتبدأ بلفظ (ذات) كا يرجع ان آلهة الشمس كانت تسمى عند المعينيين (نكرح) وهو اسم غريب غامض وعند السبائين نجد من اسمائها (ذات بعدن) و (ذات غضرن) (ذات برن) وفي النقوش القتبانية نجدها تسمي (ذات صنتم) و (ذات صخرن) و (ذات رحين) . ص ٢١٧

ذلك الوقت مثل اله الحروب القومي « محرم » (١) وهـــو اللقب الملكي الوحيد و « عثتر » و « بحير » . (٢) و « مدر » والى الملك « عزانا » يعـود ادخال المسيحية الى « اكسوم » في القرن الرابع الميلادي ويؤيد هــذا الرأي ، ان لهذا الملك نقوداً وثنية ، وأخرى مسيحية جاءنا بعضها

بلاد العرب الشمالية

إذا ما تتبعنا سير الثقافة السامية الجنوبية واتجاهها نحو الشمال استولت علينا الدهشة ، وذلك لاننا إلى وقت قريب لم نكن لنعثر على شاهد ما في الصقع الشرقي لشبه جزيرة العرب يشير إلى بقايا تلك الحضارة الذهبية الغابرة وهذه الحقيقة أي عدم العثور على شيء من بقايا الحضارة السامية الجنوبية السائدة صادقة سواء في «عُمان» المشهورة بالخصوبة او شمال شرق بلاد العرب . أما الاثار التي وجدت خارج بلاد العرب الجنوبية فمعظمها في الجهات الصحراوية القاحلة والجبلية الحجرية في شمال غرب بلاد العرب حيث تكشف لنا القناع عن الحالات المختلفة التي مر بها الطريق التجاري العربي المار « بمكة » و « المدينة » والذي يمتد حتى يبلغ « دمشق » . واكثر هذه الاثار وجدت في المدن التي فقدت كثيراً من اهميتها اعني « العلا » و « الحجر » (مدائن صالح) و « بطراءة » و «بصرى» و فيها الكثير مـــن الخرائب التي ترجع الى ماقبل الميلاد ممـــا يؤيد انها كانت مركزاً تجارياً هاماً . وقد عثر العلماء على كثير من الاثار في قلب الجزيرة

---

١ - محرم : عند الساميين الجنوبيين كانوا ينظرون الى آلهتهم كأشخاص لها ماللافراد من خصائص ومميزات مثل (محرم) بمعنى (القديس) ص ١٨١ وقد جاء ذكره أيضاً عند القتبانيين (حرم أن) أي المقدس ص ١٩١

٢ - بحير : آلهة من الهة الطبيعة ويعني (أرض) وهو من الاسماء النادرة وكذلك (مدر) ص ١٨٨

« نجد » والجانب الغربي لبادية الشام وفي شبه جزيرة سيناء ويظن ان هـــذه الكتابات انتشرت الى قلب الجزيرة عن طريق القواعد التجارية .

والفضل في الحصول على كثير من النقوش العربية الشمالية ، يرجع الى امثال « دوتي - وهوبر - وأتينج » الذين قامـــوا برحلات شاقة في شمال غرب بلاد العرب ، في الفترة الممتدة مـــن / ١٨٧٦ - ١٨٨٤ / وقد بلغ ثلاثتهم « هايل » في شمال قلب الجزيرة .

وعندما اقيم خط حديد « مكة » استطاع امثال « جوسن وسافيناك » الوصول الى خرائب « الحجر » و « العلا » و«تيماء » كما نجـح « برينو - وموصل ودلمان » وآخرون في الكشف عن « بطرا » وماجاورها . اما الاشياء الاثرية التي عثر عليها في سورية ، فيرجع الفضل فيها الى رحلات امثال « فوجيه - ودنجتون » عام ١٨٦١ - ١٨٦٢ وقـــد أتمت مابدأه هـــذان العالمان ، فيما بعد ، بعثتان فرنسيتان وأخريان امريكتيان .

وإذا ماقارنا هـــذه الاثار ، بتلك التي وجدت في جنوب بلاد العرب او الحبشة ، ادركنا أننا في شمال بلاد العرب أمام مجموعة متنوعة من الاثار .

كانت الثقافة العربية الجنوبية قاصرة على اقليم ضيق غـــاص بالسكان ، والقبائل العربية الجنوبية أجمعت أمرها على ان تتحد بـــدول لها لغاتها وكتاباتها ودياناتها الرسمية والخاصـة ، وهي ثقافة سامية جنوبية خالصة بعيدة عن المؤثرات الاجنبية بفضل الصحاري الواسعة الممتدة حولها . وعلى النقيض منها كانت الاثار العربية الشمالية منتشرة في جهات بعضها قفر ، والبعض الاخر آهل بالسكان حيث ان تلك الاماكن لم تكن خاضعة لحكومة مركزية واحدة . بل كانت ملكاً مشاعاً بين القبائل ، ويزيد في اهمية هذه الاثار ان قلب الجزيرة لم يعرف الوحدة السياسية قبل الاسلام . ويلاحظ ان الثقافة

السامية الشمالية ، لم تقتصر على وطنها الاصلي ، بل تسربت الى قلب الجزيرة عن طريق العمارة اوالكتابة او الدين والمعبودات الدخيلة .

لكن سهول شمال بلاد العرب بما فيها الشام كانت منذ زمن بعيد مرتعاً بعيداً للبدو وماشيتهم . وذلك بفضل التقاء تلك السهول ، وهذه البوادي بطراف البلادوان تكن سامية الاانها كانت تحيا حياة نصف بدوية ، فهناك تجد الفلاحين والتجار والجنود المرتزقة الذين كانوا يعملون في خدمة الدول الاجنبية بحماية حدود املاكها ، بفضل هؤلاء الجنود وأولئك التجار الذين كانوا على اتصال مستمر بعرب قلب الجزيرة ، تزاوجت الحضارة السامية الشمالية بأختها في قلب الجزيرة وذلك قبل الميلاد .أما هذه الثقافة الساميةالشمالية فهي الثقافةالارامية .

ففي الوثائق الاربع القديمة التي عثر عليها في «تيماء» بين المدينة وبطرة نقرأ مثلاً كيف أنه قامت هناك مستعمرة آرامية تجارية حوالي القرن الخامس قبل الميلاد . كما أن كثيراً من النقوش النبطية يرجع تاريخها الى ماقبل الميلاد وبعده ، والتي عثر عليها في شمال غرب بلاد العرب ، وفي شبه جزيرة سيناء وحوران ناطقة بالعرب والعروبة ، إلا ان العرب هنا كانوا تجاراً يتكلمون الارامية ويكتبون بها .

وتنقسم الوثائق العربية الشمالية الى أربعة أقسام :

١ ـ الكتابات المعينية الشمالية التي وجدت في « العلا »

٢ ـ الكتابات اللحيانية

٣ ـ الكتابات الثمودية

٤ ـ الكتابات الصفوية .



الكتابات الشمالية المعينية :

امام مركز الثقافة العربية قبل الاسلام فيظهر مما جاءنا من آثار أنه كان يقع في الجنوب ، وذلك ليس لاسباب جغرافية فحسب بل تجارية واقتصادية ففي الجنوب نجد بضائع هندية متنوعة ، كلها كانت تحمل على ظهور القوافل العربيه الجنوبية الى الشمال مخترقـــة مكة والمدينة والعلا الى بطرة حيث توردها لشعوب البحر الابيض المتوسط . ولحـراسة تلك القوافل انشئت مستعمرات معينية في « العلا » شمال « المدينة » .

في ذلك المكان اكتشف اوبتنج ٢٥ نقشاً و ٥٠ خربشة تنسب للمستعمرة المعينية المعروفة باسم « معين مصران » التي جاء ذكرها في النقوش العربية الجنوبية .

ومنها نستدل ان المعينيين الشماليين كانوا يستخدمون الكتابة والديانة المعينية التي استخدموها في وطنهم الاصلي ، فعند المعينيين الشماليين نجـــد نفس الثالوث « عثتر » و « ود » و « نكرح » (١) كما ان ود يرد ذكره عند الشماليين ككبير للالهة شأنه في ذلك شأنه في الجنوب . وتبين للعلماء ان تدوين تلك النقوش المعينية الشمالية لن يكون أحدث من منتصف الالف الاول قبل الميلاد . ويستنتج من اسماء الملوك أنها عمرت في الشمال حوالي قرنين من الزمن .

الكتابات اللحيانية :

في (العلا) وجد مايقرب من ٤٠٠ نقش يعرف باسم (اللحياني) وترجع هذه النقوش الى شعب او قبيلة يعرف باسم لحيان كما وجـــد تمثالان حجريان وقد يمثلان ملكين لحيانيين وقد اهتم رجال الكتابات السامية الجنوبية بدراسة

١ ـ نكرح : هي آلهة الشمس عند المعينيين ومعناها لازال حتى الآن غامضاً وموضع الحدس والتخمين ونحن نعرف اسماء آلهة الساميين الجنوبيين مـن النقوش ولانعرف مدلولاتها ص ١٨٤

هـذه الاجزاء مـن النقوش والخربشات العربية الشمالية لدراسة العصر الجاهلي الشمالي ، لأن ماروي لنا في المصادر العربية لايشفي ولاينفع والكتابة اللحيانية كتابة محلية حروفها سامية جنوبية وهي قريبة جداً الى الكتابة العربية الجنوبية والحبشية اما اللغة فلهجة غربية شمالية وهي ايضاً سامية جنوبية والدين ، كما يتبين من أسماء الافراد ، سامي جنوبي أيضاً مثل ود وسميع (١) وعثتر ومناة (٢) ونسر (٣) أما كبير الالهه فيظهر انه المسمى ذو غبت (٤) وبعض العلماء يرى أن تلك النقوش اللحيانية ترجع الى القرن الخامس اوالسادس قبل الميلاد .

الكتابات الثمودية :

في قلب الجزيرة وشمالها الغربي لايكاد يخلو حجر من نقش تذكاري ،وقد نسخ من هذه النقوش حتى مطلع القرن العشرين حوالى ٢٠٠٠ نقش ،ومما يؤسف أن لدأن مالعرفه عن هذه النقوش العربية الجاهلية ضئيل جداً ، وبعض العلماء أطلق عليها لفظ « ثمودي » لأن القرآن الكريم كثيراً مايذكر الثموديين « الأعراف ، آية (٧٣) التوبة (٧٠) هود (٦١ - ٦٨ - ٩٥) » كوثنيين .

وهذه النقوش تشتمل على كثير من الاسماء والمعبودات الوثنيه ، كما وجد

---

١ - سميع : ومن مجموعة الاسماء الواردة في القرآن الكريم وفي النقوش العربية القديمة التي تصف الله بأنه حبيب البشر وانه هو الذي يريد لهم الخير ، وانه قريب وصديق نجد لفظ (ود) ولفظ (ود) يدلنا حقيقة على هـذه المعاني وكذلك الحال مـع الاسماء الاخرى الواردة في القرانمثل (سميع و (حليم) ص ٢٤٢

٢ - مناة : كان اقدم الاصنام «مناة» وكانت العرب تسمي « عبد مناة» و « زيد مناة » وكانت قريش وجميع العرب تعظمها

« كتاب الاصنام - ابن الكلبي ص ١٤ - ١٥ »

٣ - نسر : صنم كان بموضع من ارض سبأ يقال له يلخع تعبده « حمير » ومن والاها فـلم يزل يعبدونه حتي هودهم « ذو نواس » كتاب الاصنام - ابن الكلبي ص ٥٧ - ٥٨»

٤ - ذو غبت : اسم اله لحياني من الاسماء التي لايزال معناها غامضاً

بينها نقش كتب في لغتين النبطية والثمودية ، ويرجع تاريخه الى ٢٦٧ م ، لكن يستدل من كتابة النقش انها ترجع إلى ماقبل الميلاد .والشيء الجدير بالذكر أن هذه النصوص ، تؤيد ان شمال بلاد العرب كانت له كتابة جاهلية خاصة ، وثقافة وثنية خاصة ، وذلك لأن الكتابة ظهر أنها مشتقة من العربية الجنوبية وليست من نوع الكتابة العربية الشمالية المتأخرة التي دون بها القرآن الكريم فالكتابه الاخيرةمشتقه من الا بجدية السامية الشمالية من الآرامية .

واكثر أسماء الالهه وروداً اسم « إله - آل »(١) و الهه - الات ورضى(٢) والاسمان الاولان لايردان كما هو الحال في النقوش العربية الجنوبية والحبشية واللحيانية في اسماء الاعلام فقط ،بل في النصوص أيضاً ولهما دور كبير اذ ان المعبود إله ، آل، اصبح ينادى غالباً بلفظ « ال » أي الله بينما نجد ذكره نادراً عند الشعوب السامية الجنوبية حيث طغت علية في الطقوس معبودات أخرى .

ملاحظة : (لقد أشرنا في بداية المقال الى ان المؤلف نيلسن كتب ايضاً الفصل الخامس وتحدث فيه عن الديانة العربية الجنوبية بمقـــدار ٧٠ صفحة

---

١ - آل - اله - الهة - الات : يقول « نيلسن » ان الاسم المشترك لكل القاب اله القمر هو « ال » و « اله » بمعنى « الله » او ال . . . لكن نلاحظ في جميع اللغات السامية ان لفظ « ال » او « اله » في عهد تعدد الالهة يقابـل تماماً لفظ (الات) او الهة ليس فقط كبدل لكل « اله » او « الهة » لكن كثيراً ماجاء كاسم علم كاسم خاص لاله وجاء في النقوش العربية الجنوبية من مدينة حرام ذكر ال كالهة

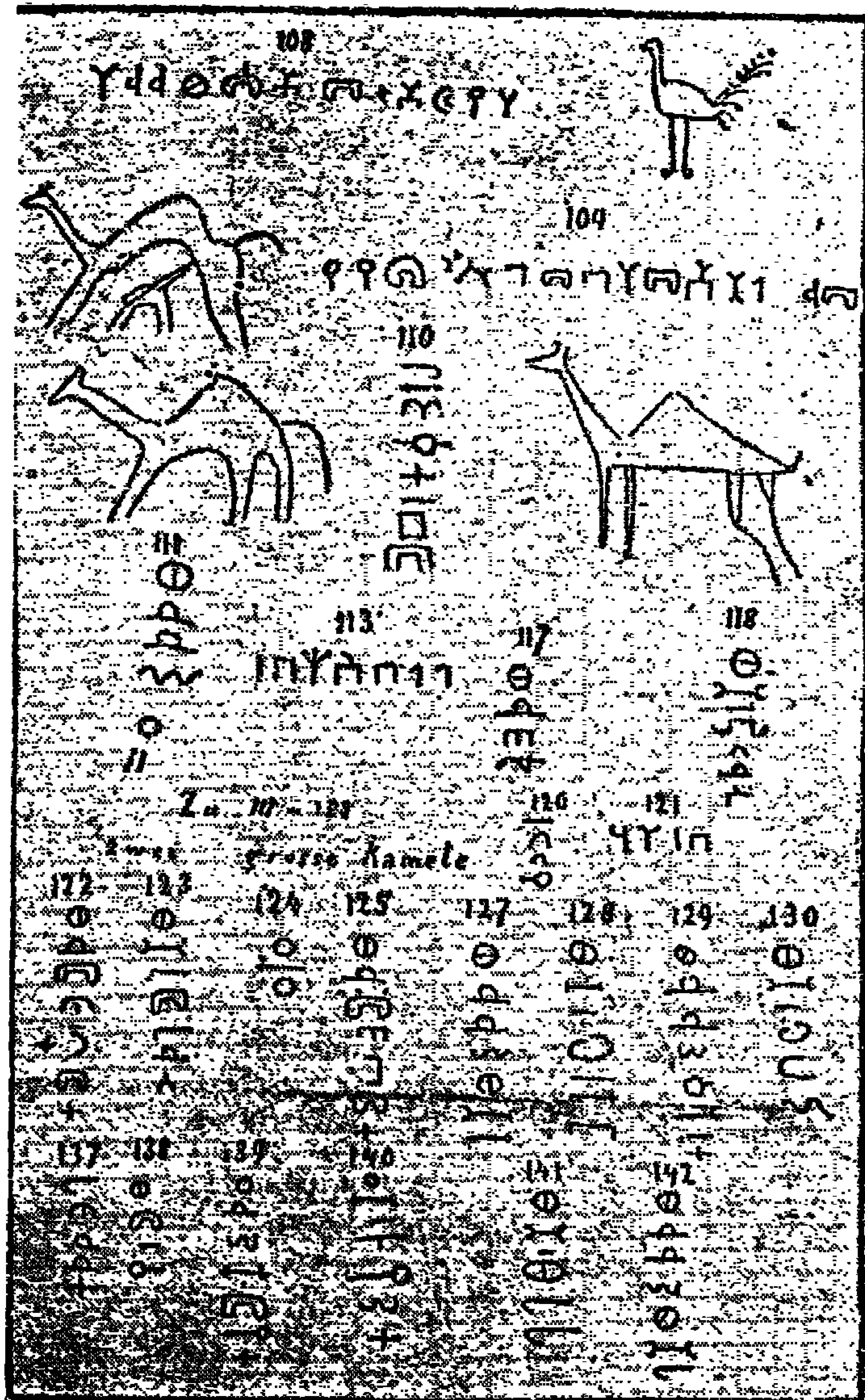
٢ - رضى : وقد كانت العرب تسمي باسماء يعبدونها منها عبد ياليل عبد غنم عبد كلال عبد رضى . ويذكر بعض الرواة ان رضى كان بيتاً لبني ربيعة فهدمه المستوغر ، وقال المستوغر في كسره رضى في الاسلام

ولقد شددت عـلى رضاء شدة   فتركتها تـلا تنازع أسحما

كتاب الاصنام لابن الكلبي ص ٣٠

لها دلالة معنوية اصبحت ومعناها رحمة

الاسم العربي الشمالي للمشتري هو رضي ص ١٩٢



خربشة ثمودية من بلاد العرب الشمالية عن أوريتنج اونليتان حل الكتابات الثمودية ١٩٠٤ اللوح ٣ منشورات جمعية الشرق الادنى العام التاسع المجلد ١

تعرض فيها لاسماء هذه الالهه بالتفصيل) .

الكتابات الصفوية :

مجموعه أخرى من النقوش تقدر بحوالي ٣ الاف نقش عثر عليها فوق جبال الصفا جنوب شرق دمشق ، وهي قريبه جداً من حيث الخط واللغة

وأسماء الآلهة للمخربشات الثمودية . منهامايرجع الى ٢٠٦ م و ١٢٤ م و ١٠٦ م . وفيها نقرأ اسماء المعبودات مثل : آله (ه ال ه و آ لت) و « رضى » الى جانب اسماء معبودات سامية شمالية ونستطيع القول إن تلك المنطقة تقف على الحدود الفاصلة بين ثقافتين سامية جنوبية وأخرى سامية شمالية .

فالصفويون هم الوحيدون الذين نعرف شيئاً عنهم ، قبل ان يمتزجوا في الشعوب السامية الشمالية . فقد عرفناهم عن طريق هذه النقوش ، وهم مازالوا محتفظين بالخط السامي الجنوبي واللغة والعقائد السامية الجنوبية أيضاً . وذلك لانهم كما يتبين من اثارهم لم يتركوا حياة البداوة نهائياً ، بل كانوا يحيون حياة تجمع بين البداوة والحضارة وبالتدريج امتزجوا مع القبائل الشمالية المستقرة فبدأت تدخل المفردات والتراكيب السامية الشمالية الى هذه الوثائق الصفوية . ففي العصر الذي دونت فيــه النقوش الصفوية كانت الثقافة الهلينية جامحة قوية ، فقـد عثر العلماء مثلاً على نقوش تذكارية ترجع إلى القرن الرابع الميلادى في اللغـة اليونانية جـاء فيها ذكر للآلهة الصفوية التي اطلـق عليها اليونان (اثينا) كما اطلق على كبير آلهة الصفويين اسم (زويس صنا ئنوس) ومن بين النقوش العربية الشمالية التي ترجع الى ماقبل الاسلام ، ماكانت لغتها تتفق واللغة العربية الادبية التي نعرفها ، ومن الجدير بالملاحظة أنها ليست مدونة بالخط السامي الجنوبي ، بل دونت بالكتابة الارامية السامية الشمالية التي تطورت عنها فيما بعد الكتابة العربية الادبية في التدوين . وأهم هذه النقوش « نقش النمارا » الذي عثر عليه « رينيه ديسو » جنوب شرق دمشق على جبل الصفا ، وهو نقش على قبر الملك « امرؤ القيس بن عمرو ملك جميع العرب » وقد توفي كما يدل النقش عام ٣٢٨ ويختتم هذا النقش بنص يفيدنا في تاريخ الاديان وهو :

ب ال س ع د ذ و ل ده ومعنى هــذه العبارة : بالاله سعد الذي ولده « أي امرؤ القيس » ، والى القرن السادس الميلادي يرجع نقشان عربيان

مؤرخان أحدهما في ثلاث لغات وهـــو « نقش زبد » جنوب شرق حلب وكتب باليونانية والسريانية والعربية ويرجع الى ٥١٢ م .

والنقش الثاني هو « نقش حران » ودون بلغتين اليونانية والعربية ويرجع تاريخه الى ٥٦٨ م · وقد اكتشفت نقوش سبائية جديدة ، غير التي تعرف باسم الخربشات السينائية النبطية . وقد أثارت اهتماماً عظيماً .

ففي عام ١٩٠٥ عثر « فلندرز بتري » بوادي « مغارا » في الجانب الغربي من شبه جزيرة سيناء ، فيما يقرب من منتصف الطريق بين السويس ورأس محمد على مجموعة من الرسوم البدائية ، و١١ نقشاً في ابجدية جديدة ، هي خليط من « الهيروغليفية » المصرية ، واشارات اخرى اجنبية . هذه النقوش الفريدة التي فهم بعضها ، ويظهر فيها لفـــظ « ب ع ل ت » أي « بعلة » أي « سيدة » وضعت مسألة أصل نشأة الابجديـــة السامـيـــة بشكليها الشمالية والجنوبية تحت ضوء جديد للبحث والدرس فتبين ان الابجدية السامية الشمالية والجنوبية نشأتا في الألف الاول قبل الميلاد وترجعان الى ابجدية واحدة كانت معروفة في الألف السابق على انقسامهما، وان هذه الابجدية الام تشير الى الاصل المصري كما أن هذه النصوص السينائية التي ترجع الى الفترة الممتدة فيمابين ١٨٠٠ ــ ١٥٠٠ ق . م هي الحلقة المفقودة في تطور ابجديتنا .

استكمال (من قبل المترجم)

ــ لقد وقف « نيلسن » بحديثه عن آخر أعمال البحث والتنقيب التي قام بها العلماء الغربيون في بلاد العرب الجنوبية عند اندلاع نيران الحرب العالمية الاولى ، و اذا كان من نتيجتها ان أوقفت البعوث الى الدراسات السامية .

ــ ففي عام ١٩٢٨ وصلت بعثة الى بلاد اليمن من العالمين « ريجنز » و « فون

فيسهان » احتفل الامام بها ، وطلب منها الاشراف على اعمال الحفر التي كان يقوم بها في قرية « حقه » شمال صنعاء .

ـ وفي عام ١٩٣٦ . أرسلت جامعة « القاهرة » بعثة أثرية إلى بلاد اليمن وصرفت ستة شهور زارت « حضرموت » و « ناعط » قرب صنعاء . ونشر الدكتور « خليل يحيى نامي »عضو البعثة ما أحضرته البعثة من نقوش .

ـ وفي عام ١٩٣٦ أيضاً زار اليمن سوري يدعي « نزار مؤيد العظم » واقام في « صرواح » و « مأرب » وكتب عن رحلته رسالة نشرها في القاهرة عام ١٩٣٨ . اما نقوشه فقد درسها « ج . ريكنز» .

ـ وفي عـــام ١٩٣٧ نجد ثـلاث رحالات هـن « ج . كاتون تمسون » و« آ. جاردنر» و « ف . شترك » يفدن إلى حضرموت ووادي « عمد » مقابل « حريضة » فكفشن عن معبد « لاله القمر » وعدد من النقوش وقد نشرت نتيجة رحلتهن عام ١٩٤٤ .

ـ كما قام بعض المغامرين برحلات إلى بلاد العرب السعيدة ، اقتصر نشاطها على نقل النقوش والكتابات وأشهرهم (فيلبي) حيث بدأ من (جدة) ماراً (بخرمة) (فعسيو) (فنجران ا إلى (شبوة) ويريم في حضرموت ونشر نتائج رحلته بكتاب عام ١٩٣٩ .

ـ ثم نجد رحلات سياسية المظهر كالتي قام بها (هارولد) و (انجرامز) أفادتنا من الناحية الجغرافية عن اقليم حضرموت .

ـ وفي عام ١٩٣٨ نجد الصاغ (ا. هاملتون) يقوم بزيارة الى (شبوه. عاصمة حضرموت .

ـ وفي عام ١٩٤٥-١٩٤٦ قام (تزيجر) بعدة رحلات إلى بلاد العرب السعيدة كتب عنها في الصحيفة الجغرافية .

ـ وفي عام ١٩٤٥ غزت ارتال من الجراد بلاد اليمن ، فاستغاث الامام بمصر فأرسلت جامعة القاهرة (محمد توفيق) فانتهز وجوده فقام بزيارة الى الجوف وصور خرائبه ، ونشر جزءاً منها عام ١٩٥١ وانفرد الدكتور خليل يحيى نامي بنشر بعض النقوش التي جاء بها .

ـ وفي عام ١٩٤٧ زار الدكتور « أحمد فخري » اليمن عدة مرات ، وزار ثلاث مناطق أثرية . صرواح ـ مأرب ـ الجوف . واحضر صوراً ونقوشاً لـ ١٣٠ نقشالم تنشر من قبل .

رأينا من العرض السابق المجهودات التي بذلتها بعض الدول الاوروبية والعربية في سبيل الكشف عـــن آثار بلاد العرب الجنوبية ودراستها . والآن مامدى مساهمة الولايات المتحدة الامريكية في هذا النشاط العلمي . ؟

ـ في عام ١٩٤٧ حلقت طائرة أمريكية تحمل عدداً من اعيان اليمن وبعض الامريكيين فوق خرائب اليمن وفيمابين عامي ١٩٥٠ ـ ١٩٥٢ نظمت مؤسسة دار الانسان الامريكية حملتين علميتين برئاسة الاثري « وندل فيلبس » الحملة الاولى اهتمت بعدن و الثانية باليمن . وقد توصلت البعثة إلى نتائج قيمة سواء في اليمن اوعدن وقامت بدراسة مستفيضة حول طرق الري قديماً في مملكة قتبان كما كشفت عن معابد (تمنع) العاصمة القديمة لـ (قتبان) ومنها علمنا ان آخر مرة خربت فيها (تمنع) كان حوالي ٢٥ ق . م وكشفت أيضاً البعثة في مأرب عـــن خرائب ترجع الى القرن السابع قبل الميلاد . مثل معبد « اله القمر » و « سد مأرب » وبعض النقوش السبائية . وقامت بحفائر في « ظفار » والبليد «وخور روري » . والفضل في ازدياد ثروتنا العلمية عن بلاد العرب الجنوبية يرجع ولاشك في الاعوام الاخيرة إلى هاتين الحملتين

ـ وفي عام ١٩٥١ تحرك في السعودية ركب مكون من « ريكمنز » وابن اخيه

و لنبنز » بزعامه « فيلبي » من جدة ماراً بالطائف و أ بها إلى نجران . ومـــن هناك على طريق الربع الخالي الى (الرياض) فقطعوا بسيارتهم ٥ كم الاف في أرض مجهولة . وعادوا ومعهم من الاثار نحو ١٢ ألف كتابة قـــد نسخت من بينها ٩ الاف كتابة ثمودية و٣ الاف نقش سبائي . وفي عين مار عثرت البعثة على نقش (لابرهة الحبشي) يرجع إلى عام ٥٤٧ م ونقش آخر الى عام ٥١٨ م وهو لذي نواس . كما وجدت عدداً كبيراً من النقوش العربية و الاسلامية .

ولكن يجب ان نقرر ونحن « الكلام للمترجم » نختتم كتابة هـــذا الفصل الخاص بأعمال الكشف والتنقيب التي تمت في بلاد العرب اخيراً ان بلاد العرب بعامة في حاجة ماسة الى اعمال البحوث العلمية لتجلو الكثير من تاريخها وحضارتها وثقافتها وعقائدها بل وحتى لغاتها وذلك لان تاريخ هذه البلاد مازال غامضاً حتى اليوم ، وهو في حاجة ماسة الى الكشف عنه .

عرض خالد السباعي



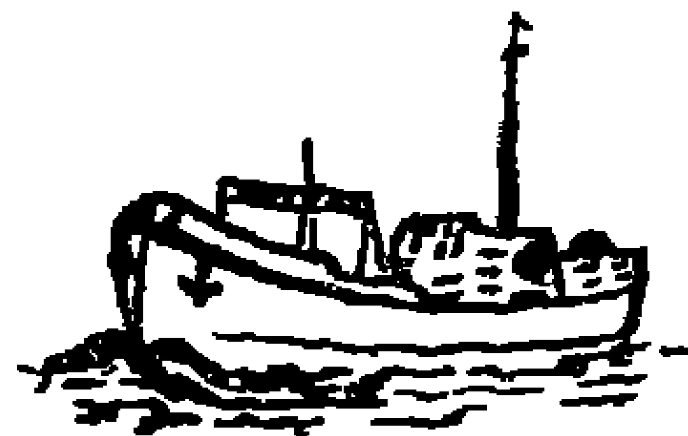
١ - المعينيون : يرجع تاريخهم إلى ١١٢٠ ق . م — ٦٣٠ ق . م

٢ - الحضرميون : يرجع تاريخهم إلى ١٠٢٠ ق . م — ٢٩٠ م

٣ - القتبانيو : يرجع تاريخهم إلى ٨٦٥ ق . م — ٥٤٠ م

٤ - السبئيون : يرجع تاريخهم إلى ٨٠٠ ق . م — ٦٢٨ م

اندمجت قتبان في سبأ . حيث سلم (باذان) المندوب السامي الفارسي الرابع (سبأ) الى النبي محمد ﷺ .



جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٢	١٥	مهيئة	مهيأة
٢٤	٧	ويتبي	تويني
٤٨	٨	همت	هممت
٥٦	١١	السور جرة	السور على جرة
٦١	٥	لم يمهله	لم يمهله ليحقق
٧٤	١٥	عليا	عليها
١١٣	٨	الفاطمون	الفاطميون على
١٢١	٧	طرانف	طرائق
١٢٦	٢٤	صفن	صفين
١٢٧	١٣	وتحته	تحته
١٢٨	٧	مضف	نصف
١٣٩	٧	أمير فيها	أميرمن فيها
١٦٠	١٤	فأخبره	فأخبر
١٧٠	١٩	أزال	أزل
١٧٢	٤	باب	إلى باب
١٨٦	١	ولما	لما
١٩٧	١١	ثم سمع	ثم سمع أن
٢٠١	٨	وفاته	ولادته
٢٠٤	٣	بنبل	بنبيل
٢٠٩	١١	علياً	كلها

ملاحظة : اقتصرنا في هذا الجدول على ذكر ماهو ضروري ، اما سائر الأخطاء المطبعية الطفيفة والمدركة لأول وهلة فلم نذكرها .

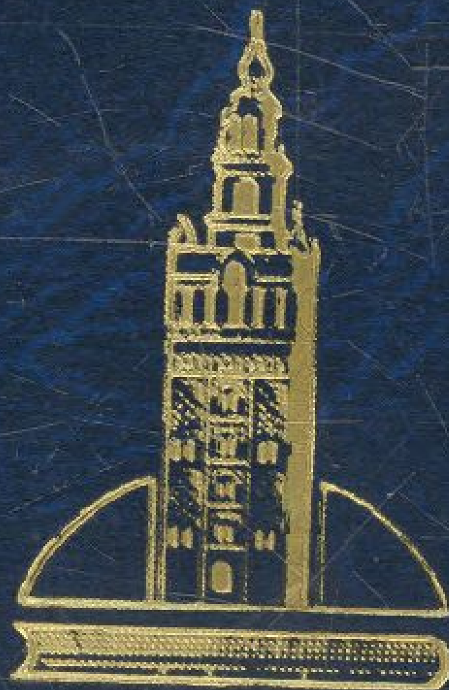



الجمعية التاريخية

حمص ـ سورية

سلسلة الندوات

- ندوة حمص الأثرية والتاريخية الأولى
- سبعة قرون على خروج الصليبيين من بلاد الشام



إشبيلية
للدراسات والنشر والتوزيع
دمشق ـ سورية



Studies, Publication & Distribution
DAMASCUS P. O. Box 4363, SYRIA



Studies, Publication & Distribution
DAMASCUS. P. O. Box 4363, SYRIA


الندوة التاريخية والأثرية لحمص
تشرين الثاني ١٩٨٤

ندوة حمص

الأثرية والتاريخية الأولى

من ٢٦ - ٢٩ / ١١ / ١٩٨٤

شارك في الندوة :

١ - ماجد الموصلي
٢ - الدكتور شاكر مطلق و الدكتور سامي سحلول
٣ - بشير زهدي
٤ - محمود السباعي عضو الجمعية التاريخية
٥ - الدكتور علي أبو عساف
٦ - منذر حمودي عضو الجمعية التاريخية
٧ - محمد فيصل شيخاني عضو الجمعية التاريخية
٨ - رياض البدري

مقدمة

تتشرف مدينة ابن الوليد أن تقيم الندوة الأثرية التاريخية الأولى بالتعاون بين المركز الثقافي العربي والجمعية التاريخية ومديرية الآثار ومن قبل اللجنة الثقافية لمجلس محافظة حمص وباشرافها . كما يسرها أن تنعقد هذه الندوة في غمرة احتفالات شعبنا العربي بالذكرى الرابعة عشر لقيام الحركة التصحيحة المباركة التي قادها الرفيق المناضل حافظ الأسد الذي دعم الحركة العلمية في قطرنا العربي السوري باقامة مختلف الفروع العلمية في الجامعات الحديثة والمعاهد والمكتبات .

ولن نطيل عليكم ففي أبحاث ندوتنا الأثرية / التاريخية الشيء الكثير عن تاريخ حمص وآثارها ونترك الحديث لزملائنا الكرام المحاضرين ليزودوننا بشيء من دراساتهم وخبراتهم .

المجلس الاداري للجمعية التاريخية

بحمص

الطوبوغرافية التاريخية

للمدن القديمة في وسط سورية

ماجد الموصلي

يساعد في عملية البحث عن المدن والممالك القديمة وتحديد موضعها الجغرافي حقلان من حقول العلوم الإنسانية ، اللغات السامية القديمة أولاً وعلم الآثار والتنقيب ثانياً .

عرفت عملية البحث تلك بما يسمى بالطوبوغرافية التاريخية وهي إحدى مجالات الدراسات والدراسات المقارنة في علم الآثار واللغات القديمة .

سنتطرق في حديثنا هذا إلى معالجة بعض المعلومات المتعلقة بالطوبوغرافية التاريخية لمناطق وسط سورية .

اهتم علماء الآثار والباحثون في حضارات سورية القديمة منذ مطلع القرن الماضي بالبحث عن أوابد المدن التي ازدهرت عبر التاريخ الحضاري

وغابت بعدها عن مسرح التاريخ وأضحت أطلالاً أو خرائب أوتلالاً أثرية . لقد احتفظ منها فقط النذر القليل بأسمائها الأصلية مثل تدمر ، وعرفت أسماء أخرى لتلك المدن الآبدة من وثائق اكتشفت عن طريق التنقيب الأثري ، لكن مواضعها أضحت منسية وبل مجهولة . كما وأن الوثائق الكتابية الأثرية زودتنا بأسماء مدن وقرى اختفت تماماً وحتى أسماؤها كنا نجهلها قبل عشية كشفها .

نحت الطوبوغرافية التاريخية التي استهدفت تحديد المواضع الجغرافية للمدن والأوابد القديمة في اتجاهين ضمن نطاق علوم الآثار واللغات القديمة . والوثائق التاريخية هي أولاً :

الطوبوغرافية التاريخية للمدن والقرى التي يعود تاريخ نشأتها أو ازدهارها إلى العصور الكلاسيكية (العصور الهلنستية والرومانية والبيزنطية) وثانياً : الطوبوغرافية التاريخية للعصور المسماة بالعصور الشرقية أي لتلك التي سبقت العصر الهلنستي .

تعرف الطوبوغرافية التاريخية للعهود الكلاسيكية باسم إيتينيراريوم – Itinerarium أو كتب الرحلات . لدينا في علم الآثار من تلك المصادر الا نوتيتيا ديغينيتاتوم (Notitia Diginitatum) و الا باتروم نيسينورم (Patrmo Nicaenorum) و الا ايتينيراريوم انتونيني اوغستي (Itinerarium Antonini Augusti) (وجغرافية كلاودي بطوليمايي (Claudi Ptolemaei) وجيورجي تسيبريي ديسكر يبتي اوربيس روماني (Gerogii Cyprie Descriptio Orbis Romani) .

كان من رواد البحث في تلك المصادر الأساتذة مارتين هارتمان الذي كتب عدة أبحاث حول Syrisd Shope الصحراء السورية

وأوابدها القديمة و ب ، موريتس الذي كتب عن الطوبوغرافيا التاريخية لتدمر ومناطقها وأخيراً الأستاذ رينيه دوسو الذي نشر كتابه الشهير (طوبوغرافية سورية القديمة) . هناك أيضاً أعمال جليلة أخرى قدّمها مثلاً الأستاذ موتارد حول الطرق الرومانية المنطلقة من قنسرين (خالسيس) إلى أوجاء ما يعرف باسم (Koily Eupia) أي اقليم سورية في العصر الروماني .

اعتمد هؤلاء الدارسون في التحقق وتحديد المواضع الجغرافية للمدن من العصور الكلاسيكية على مصادر الجغرافيين والاخباريين العرب .

أما المصادر التاريخية الوثائقية المتعلقة بالعصور الشرقية فتقسم إلى :

أولاً : المصادر المصرية

يأتي أرشيف تل العمارنة أو ما يعرف باسم رسائل تل العمارنة في مقدمة المصادر المصرية الهامة . هناك أيضاً حولية تحوتمس الثالث في سنة حكمه الثالثة والعشرين ، وقد حققها فولفجانج هيلك وحوليته من سنة حكمه الثلاثين ووثائق أمنوفيس الثاني من معبد آمون والكرنك والكتابات الهيروغليفية المنقوشة على اللوحات والنصب التذكارية وخاصة تلك التي تعود إلى عهد حكم الفرعون سيتي الأول ورعمسيس الثاني .

ثانياً : المصادر الحثية وأهمها أرشيف بوغازسكوى .

ثالثاً : المصادر الآشورية وأهمها أرشيف نينوى ونمرود .

رابعاً : المصادر الآرامية وأهمها نصوص السفيرة و كتابات الالفنتين (الفيلة) .

خامساً : المصادر الكنعانية القديمة والوسيطة وأهمها أرشيف ايبلا وأجاريت وماري وقطنه نورد فيما يلي أهم المعلومات المتعلقة ، بالطوبوغرافية التاريخية لمنطقة وسط سورية :

قادش :

اقترح Tompsen تومبسون في عام ١٨٤٠ أن يكون تل النبي مندو هو موضع قادش القديمة المعروفة من المصادر المصرية ، وقد اعتمد في شرح فرضيته على المشهد الطوبوغرافي المصّور بشكل لوحة تذكارية تخلّد انتصار رعمسيس الثاني على الحثيين بقيادة مواتاللي (Muwatallis). لم يشك أحد بتوقيع قادش في موضع تل النبي مندو منذ فرضية تومبسون . ومع أنه جرت حفريات أثرية في التل المذكور برئاسة الفرنسي بيزارد خلال عام ١٩٢٠ ، إلا أن تلك الحفريات لم تضف شيئاً أو عنصراً مادياً يؤكد هوية الموقع باستثناء لوحة تذكارية تعود لزمن الفرعون سيتي الأول وهي مرتبطة حتماً بحملة هذا الفرعون على سورية حوالي عام ١٣١٧ ق.م .

ورد اسم قادش في المصادر الحثية بلفظة (Kinza) ووردت في أرشيف قطنا باسم كي إيدشي (Ki - id - Si) .

غابت قادش عن مسرح التاريخ خلال النصف الأول من الألف الأولى ق.م وغاب معها اسمها من المصادر التاريخية ، ثم عاد السكن إلى الموقع في العصر الروماني حيث أطلق عليها اسم لاوديسيا أدليبانوم (أي اللاذقية المحاذية لجبل لبنان) وأيضاً لاوديسيا سكابيوزا (Laodicia Scabiosa) ولم تظهر أية صعوبة في التحقيق من أن لاوديسيا أدليبانوم هي تل النبي مندو ، فقد ازدهرت تلك

المدينة بسبب وقوعها على طرق الجيوش والقوافل التجارية بين ايميسا (حمص) وهيليو بوليس (بعلبك) عن طريق ماوريكوبوليس (جوسية الخراب) .

وفي عام ١٩٧٥ تأكد وبشكل قطعي ومادي توقيع قادش في موضع تل النبي مندو وذلك إثر اكتشاف خمسة ألواح طينية منقوش على إحداها رسالة موجهة إلى آيتا غاما حاكم قادش المعروف من أرشيف تل العمارنة .

قطنه :

نقب الفرنسي الكومت دومزنيل دوبويسون في المشرفة خلال الأعوام ١٩٢٤ و ١٩٢٧ و ١٩٢٨ و ١٩٢٩ واكتشفت خلال حفرياته ألواح ارشيف معبد نين آغال (Nin - egal) . كانت قطنا عاصمة المنطقة خلال الألف الثاني ق.م وهي أكبر المواقع الأثرية القديمة في سورية . ورد اسم قطنا في النصوص المكتشفة في ماري بلفظة (Qa - ta - nim) أو بلفظة (Qa - ta - na) في رسائل الالآخ (تل عطشانة) أو بلفظة (Qat - na) في أرشيف بوغاز سكوي .

من الرسائل الهامة التي ورد فيها اسم قطنا رسالة يشخي أدد (Ishiadad) ملك قطنا الموجهة إلى يسمخ أدد (Ismahadad) ملك ماري ورسالة يشخي أدد إلى اشمي داغان (Ismedagan) .

وهكذا أثبت التنقيب الأثري هوية موقع المشرفة على أنه موضع مدينة قطنا الشهيرة .

تدمر :

وردت في إحدى رسائل أرشيف ماري لفظة (تادمير) أو (تادميرا) وهي لفظة الاسم تدمر . ويأتي هذا الدليل ليثبت بقاء استعمال نفس الاسم منذ النصف الأول من الألف الثانية ق.م.وهي حالة نادرة في الطوبوغرافيا التاريخية لمنطقتنا الحضارية . دعيت تدمر خلال العصر الروماني باسم بالميرا (Palmyra) .

نزالا أو نشالا :

نشر الباحث الفرنسي وادينغتون في عام ١٨٤٧ دراسة وقراءة لكتابة اكتشفت في القريتين وهي مدوّنة بالقلم اليوناني وتعود إلى العصر الروماني . تتضمن الكتابة اسم نزالا وهو اسم لمدينة معروفة من خاوطة Peutinfer . وقد أتت تلك الكتابة كدليل مادي يثبت الاسم القديم القريتين وهو نزالا . كما وأثبت أحد الألواح الطينية المكتشفة في ماري نفس الاسم بلفظة ناشالا (Na - Ša - la - a) وهو أبكر لفظة لنفس الأسم نزالا المعروفة من المصادر الرومانية . وهكذا أثبت موضع نزالا أو ناشالا وحدّد موضعها الجغرافي في تل القريتين الأثري المعروف باسم تل رأس العين .

تونيب : Tunip

كانت إحدى عواصم الممالك الشهيرة في مناطق وسط سورية خلال الألف الثانية ق.م . وقد اختلف الباحثون في تحديد موضعها فرأى دوبسويسون أنها تقع في تل الدنيبة شمال المخرم التحتاني ورأى الأستاذ هورست كلينفيل أنها تقع بين نهر العاصي والنهر الكبير الجنوبي

وذلك استناداً إلى مراسلات ملك آلالاخ نيقمابى ، ورأى الأستاذ كوشكي أنها هي نفس تل حمص (قلعة حمص) وهناك آراء أخرى ومتناقضة حول توقيع تونيب جغرافياً ، إلا أن الجدل مازال مستمراً ومن دون جدوى ولكن التنقيبات الحديثة سوف تحدد موضع تونيب مستقبلاً .

بلاد نوخاشي Nuhhaše

عرفت في مصادر أرشيف الألف الثانية ق.م . منطقة أو مناطق أو بلاد نوخاشي ، وحسب رأي الأستاذ كلينفيل فان المنطقة الممتدة بين حلب وحماه وإلى الشرق هي المنطقة المعنية باسم نوخاشي ، وورد ذكر بلاد نوخاشي في أرشيف قطنا ولربما كانت مملكة قطنا تصل حدودها الشمالية إلى بلاد نوخاشي .

بلاد اوبى Upe

ورد في المصادر المصرية اسم اوبى وهو اسم المنطقة الممتدة إلى الشرق من جبال لبنان الشرقية أي إلى الشمال من دمشق وإلى الجنوب من حمص وقد أثبت الباحثون تحديد بلاد اوبى وفق مسار الحملات وطرق الجيوش المصرية ، التي غزت سورية خلال الألف الثانية ق.م .

آبزو Abzn

وقعت هذه المدينة المعروفة من حملة شوبيلوليوما على وسط سورية في موضع تل تلبيسة افتراضاً ولم تثبت هذا التوقيع أية قرائن كتابيةأو أثرية أخرى بعد .

الفرقلس :

عرف في مصدر الـ نوتيتيا ديغينيتا توم اسم بيت بروكليس أو بيت بروقليس (Bet - Proclis) وقد رأى الأستاذ دوسو أنها هي نفس الفرقلس ويبدو أن اللفظة اليونانية هي لنفس الأسم الفرقلس فعليه نعتقد أن الفرقلس هو نفس الاسم القديم لموضع سكني مدفون في تل الفرقلس وقد أثبتت التحريات الأثرية أن الفرقلس كانت موجودة خلال الألفين الثانية والأولى ق.م .

الغنثر :

هي Ottora المذكورة في الـ Notitia Dizinitatum وهي موضع سكني مجاور لجبل أبي رباح شمال القريتين .

الحدث :

هي حداثا (Hadatha) وهي مذكورة أيضاً في نفس المصدر السابق .

حوارين

هي أو يماوس (Eumaris) المذكورة في المصادر الرومانية أو آويريا (Aueria) .

صدد :

ذكر الأستاذ دوسو أن Saltatta سالتاثا هي نفسها صدد ، وسالتاثا معروفة من مصدر الـ نوتيتيا وكانت موضعاً حربياً هاماً خلال العصر الروماني .

مهين :

وقعت دانابا (Danaba) المعروفة من خارطة Peutinfer جغرافياً في موضع مهين . فقد ورد لدى دوسو نقلاً عن وادينفتون أنها تقع في خارطة Peutinper على بعد ٢٠ ميلاً عن القريتين (نزالا) . وكانت دانابا المركز الحربي للفرقة الغالية الثالثة من الجيش الروماني .



معركة قادش

الدكتور شاكر مطلق
و الدكتور سامي سحلول

الصراع بين الحثيين والمصريين هو صفحة من الصراع التاريخي للسيطرة على الرقعة الجغرافية الواقعة بين بلاد ما بين النهرين وحوض البحر الأبيض المتوسط .

ومعركة قادش هي المعركة الأهم بين هاتين القوتين العظيمتين الوحيدتين في تلك المرحلة من التاريخ القديم .

اخترناها لتكون من مواضيع هذه الندوة لأنها حدثت حول قرية تل النبي مندو على بعد كيلو مترات من هذا المكان .

الحيثيـــون

الحثيون عرق آري وصلوا الأناضول في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد وكان قد سبقهم إلى هذه المنطقة حضارات عرفت **Pro Hittiteo** وتكاثروا واستقروا وأسسوا عاصمتهم هاتوس **Hattus** بوغازكوي حاليا شرقي نهر هاليس ــ قرب أنقره على منحدرات جبال بويك ــ كال .

كانوا في البدء امارات وحدها بالقوة حوالي سنة ١٩٠٠ ق.م . الملك انتياش Anitash ووسعها من بعده Talabarna أو Lab-arna باجتيازهم طوروس واحتلالهم كركميش – جرابلس على يد ملكهم الأول Maursili أصبح وادي الفرات مفتوحا أمامهم فتقدموا نحو بابل ودخلوها عام ١٨٠٦ ق.م ونهبوها ونقلوا كنوزها إلى عاصمتهم .

تلي هذه المرحلة ضعفا في نفوذهم نتيجة ضغط الهكسوس وتقدم الآشوريين إلى نهايتها وظهور المصريين لأول مرة في هذا القسم الآسيوي بقيادة ملكهم تحوتمس الأول من السلالة المصرية الثامنة عشرة ولأول مرة تصل الجيوش المصرية إلى النهر المقلوب – نهر الفرات .

وتلي هذه الفترة ازدياد قوتهم من جديد فاستعادوا نفوذهم وبسطوا من جديد سيطرتهم فعاد المصريون في عهد تحوتمس الثالث ، وهو من المع فراعنة مصر . فتقدموا من جديد واحتلوا قادش ووصلوا الفرات من جديد .

بظهور شوبيلوليوما أقوى وأعظم ملوك الحثيين والذي دام حكمه ٣٤ سنة من عام ١٣٨٠ – ١٣٤٦ ق.م الذي استفاد من ظروف وأحوال الأمبراطورية المصرية في عهد امنحوتب الرابع وصاحب الدعوة التوحيدية والمعروف باسم اخناتون .

الأمر الذي ساعد شوبيلوليوما فصفى حساباته مع خصومه المجاورين وأجهز على دولة ميتاني وتوغل الحثيون بعده في سورية حتى أرض كنعان ، وبهذا أصبحت الدولة الوحيدة القوية في المنطقة .

وهنا وصل الحثيون إلى ذروة قوتهم وقد امتازوا بقدرتهم القتالية وحسن تخطيطهم العسكري وسرعة الحركة ، يساعدهم في ذلك مركباتهم

الخفيفة ذات الدواليب المفرغة تقودها خيول ممتازة وتحمل كل منها ثلاثة أفراد ، السائق ومقاتلاً من النبلاء وحامل نبال وترس للحماية ، إلى جانب فرق مشاة مسلحة بالنبال والسيف المنحني والرمح والبلطة .

ثلاثة صفات تميز بها الحثيون وساعدت على تفوقهم :

١ ــ استعمال الحديد الذي استخرجوه من الجبال المجاورة لصناعة أسلحتهم .

٢ ــ العربات السريعة .

٣ ــ الحصان ، ويقال أنهم أول من أدخل الحصان إلى منطقة الشرق الأوسط وقد يكون على الأصح القول أن الحصان الحثي هو من نوع الممتاز الذي لم يكن معروفا في المنطقة .

الديانة الحثية مقتبسة من ديانات الأقوام المجاورة وخاصة البابلية خطوطهم بابلية مسمارية وهيروغليفة مصرية أحيانا ، يكتبون من اليمين إلى اليسار ثم يتابعون من اليسار إلى اليمين .

تشريعهم وقوانينهم تأثرت بشريعة حمورابي ، غير أن عقليتهم العسكرية لم تستوعب النواحي الإنسانية التي تميزت بها الشريعة البابلية ليس فيها ما يشبه هذا النص :

(أنا حمورابي نادتني الآلهة أن أمنع الأقوياء أن يظلموا الضعفاء وأنشر النور في الأرض وأرعى مصالح الخلق) .

الدولة الحثية باختصار كانت دولة حديد ونار وقوة عسكرية .

بقيت الدولة الحثية الوحيدة والأقوى إلى أن تبدلت أحوال مصر واعتلى عرشها رعمسيس الأول مؤسس الأسرة التاسعة عشرة وتبعه

سبتي الأول وتلاه رعمسيس الثاني الذي حكم مصر ٦٧ عاما من ، ١٢٩٨ - ١٢٣٢ ق.م فأعاد إلى مصر زخمها وتطلعاتها نحو التوسع ، نقل عاصمة ملكه إلى شرقي الدلتا ليكون قريبا من الحدود الآسيوية تسهيلا لمواصلاته واتصالاته ، وقرر ان يتخلص من النفوذ الحثي المتزايد الذي استفاد من ضعف مصر في عهد اسلافه ، فجهز أربع فرق وعبر قناة الزالو في التاسع من شهر بيباني - يقال أوائل الربيع في السنة الخامسة من حكمه وانتقل بدون توقف مجتازا الأراضي الكنعانية إلى الجنوب اللبناني فوادي الليطاني وتقدم إلى وادي العاصي قادما من البقاع وعسكر عدة أيام في شابتونا على نهر السبتا إلى الجنوب الغربي من قادش في قلب البلاد الآمورية ، وراح يدرس طبيعة الأرض ويحاول كشف مواقع الحثيين لأن معلوماته عن المنطقة كانت غامضة .

حدد بعض المؤرخين مكان شابتونا على الهضبة التي تقع عليها حاليا قلعة الحصن ، الخوري عيسى أسعد يذكر أنها قرب دير مار جرجس من الجهة الشمالية قريبا من قلعة الحصن ، هذه الفرضية وافق عليها Mariette وكان بلانش Blanche حددها في هذا المكان في مقاله ملاحظات حول قلعة الحصن وذلك في النشرة المصرية عام ١٨٧٤ م .

ولكن وكلنا نعلم بعدم وجود أي نهر قرب قلعة الحصن أو دير مار جرجس غاستون ماسبيرو يعتقد أنها ضاحية واقعة في السهل جنوبي غربي بحر القادش (بحيرة قطينة) ليس بعيدا عن الجنوب الغربي لتل النبي مندو على مقربة من الغابات والأحراش التي تغطي منحدرات لبنان حتى تل معيان عند الحدود السورية اللبنانية حالياً . من الطريف بهذه المناسبة أن نروي للمستمع الحمصي بعض المعلومات عن نهر العاصي .

المصريون عرفوه باسم أون راتي Aounrati وأرونتي Arounti كما جاء في شعر Pen - Ta - Our عن المؤرخ دوروجي الذي اعتمده الاختصاصيون بالتاريخ المصري كمرجع رئيسي .

في النقوش الآشورية ذكر النهر تحت اسم Arantou . نقلا عن المؤرخ فريدريك ديليتيس Delitch وهو يعتقد أنه اسم آري دون تقديم دليل موثوق .

سترابون الرحالة المعروف يقول انه سُمي نهر التيفون لشدة جريانه أما اسم oronte فأتى من اسم الرجل الذي بنى عليه أول جسر ويسمى Orontes .

احدى الجاليات اليونانية أطلقت عليه اسم Axios تخليداً لأحد أنهار مكدونيا الذي يحمل نفس الاسم ، ومن المحتمل أن يكون العرب حولوا الاسم إلى العاصي .

كان النهر مشهورا بعنف مجراه وغزارة المياه وأسماكه المقدسة بعكس حالته الحزينة الحاضرة ، جان يانوسكي وجول دافيد يقولان أن العرب سموه العاصي بمنى المتمرد ويضيفان نعم المتمرد ولكن على الجهل والكسل ، فنهر الرون في فرنسا متمرد أيضا ولكننا عرفنا كيف نروضه ونجعله نهرا صالحا للملاحة .

معركة قادش

Ki : Ud - S - chi ق.م ١٢٩٣

لنعد إلى قادش أو كؤدشي واللفظ يختلف عما كان شائعا في حينه وهي تلة محصنة تحصينا جيدا اتقنه الحثيون ، يحميها نهر العاصي بشكل

جيد ، وهذا الموقع استراتيجي يحمي المدينة والمنطقة من الغزاة القادمين من الفجوة الغربية ، ويسمح للجيوش من التحرك نحو البقاع إلى أراضي كنعان والوقوف في وجه المهاجمين القادمين عبر هذا المحور .

رعمسيس سلك هذا الطريق وتوقف يترصد حركات الحثيين بقلق لأنه عجز عن معرفة تحركاتهم وكشف مكانهم ، ملك قادش Muwatallu كان بارعا في تخطيطه وفي أساليب التمويه وفي الحيل العسكرية ، اذ أرسل اثنين من اتباعه تتكرا بزي رعاة وأوهما القادة المصريين ، أن الملك الحثي غادر مع جيشه قادش متوجها نحو حلب Khaloupou .

أمام هذا الوضع أصبح أمام رعمسيس الثاني خياران ، أما تطويق قادش حتى يأتي الحثيون لنجدتها ، أو ملاحقتهم حتى الفرات ، فاختار الحل الثاني كأنه أراد أن يتخطى منجزات سلفه تحوتمس الثالث وتصرف وهو مقتنع بما قاله الجاسوسان الحثيان ولا سيما وأن طلائع جيشه لم تلحظ وجودا حثيا .

كان الجيش المصري مؤلفا من أربع فرق Soutkhou , Phtah , Phra , Amon اضافة إلى العربات الملكية والحرس الخاص ، أمر رعمسيس فرقه بالتحرك مطمئنا لعدم وجود الحثيين الذين كانوا يعلمون كل شيء عن تحركات فرعون مصر ، والذين عسكروا في الشمال الشرقي من قادش بقوتهم العسكرية الهائلة المؤلفة من ١٨٠٠٠ — ٢٠٠٠٠ مقاتل ، بما فيهم ألفان إلى ثلاثة آلاف عربة في كل واحدة ثلاثة مقاتلين ، وصدف بعد تحرك المصريين المطمئنين وتقدمهم ، أسر جنديين حثيين مثلا أمام الملك المصري الجالس على

عرشه المصنوع من الذهب والفضة ، وتم معهما التحقيق باشرافه ، فاوسعا ضربا حتى اعترفا بأن الملك الحثي أرسلهما للتحري عن مكان وجود جلالته ، واعترفا أن الملك الحثي وجيشه متأهب للقتال وراء قادش القديمة .

المفاجأة كانت مذهلة وخطرة ، استدعى رعمسيس قادة جيشه وأنبهم وأصبح في وضع محرج وفي صراع مع الساعات ، أرسل على وجه السرعة رسولا ليستعيد فرقة رع التي ابتعدت عنه ، ولكن الحثيين لم يمهلوه وكانوا أسرع ، فاندفعوا نحو فرقة رع وكانت ضربهم مفاجأة فشطروا فرقة رع المطمئنة شطرين وبعثروها ، وتقدمت عرباتهم إلى مواجهة رعمسيس نفسه الذي قاتل بنفسه وأشرف على الهلاك لولا رباطة جأشه وحارسه Manna وأحصنته وسباعه واستمرت المعركة محتدمة على أشدها إلى أن وصلت فرقة Soutkrou و Phtah اللتان عادتا بأقصى السرعة بعد وصول أوامر الملك والتحقتا بالمعركة .

القسم الأكبر من المهاجمين الحثيين الذين وصلوا معسكر الملك أبيد أو أسر ، فانكفأ الملك الحثي وتراجع ، وبحلول الظلام هدأت المعركة لتحتدم عند مطلع الفجر وتنتهي بتراجع الحثيين نحو قادش ومقتل حارس الملك Garbatousa وقائد المشاة وقائد العربات Khaloursarou . العربات المتراجعة سقطت في العاصي . شقيق الملك استطاع النجاة ، أمير حلب نجا من الغرق وكاد أن يفقد الحياة ، لولا السرعة باسعافه وقلب رأسه إلى الأسفل واخراج الماء من احشائه . المصريون انهكوا في المعركة ، الحثيون تعبوا ، وأصبحت متابعة القتال متعذرة . الاستمرار بالمعركة أصبح مخاطرة بالنسبة للطرفين ،

الملك الحثي اقترح الهدنة . الملك المصري قبلها فورا ، فغادرت الجيوش المصرية إلى بلادها وأراد رعمسيس أن تسجل هذه المعركة بتفاصيلها على أعمدة الأقصر وأوكلت هذه المهمة إلى الشاعر Pentaour أو Pentaourit الذي أطنب وضخم الأمور وصفاً ومديحاً ومبالغات، جاء في بعضها مايلي :

« لم يكن مع الملك أمير أو قائد حرب أو حامل ترس ولا جندي مقاتل عندئذ صرخ الملك ، من تكون أنت يا أبي آمون ؟ هل ينسى الأب ابنه ؟ هل أسأت إليك ؟ هل سرت أو توقفت الا بأمرك ؟ من يكون هؤلاء الآسيويون في قلبك ؟ كيف تعطف على الذين لا يعرفون الآلهة ؟ أنا الذي بنيت لك المعابد ووهبتك أملاكي . . . ويتابع السرد على هذا المنوال وصوت فرعون يدوي في جبال حرمون إلى أن يظهر آمون ويقف إلى جانب رعمسيس ويقاتل معه ويدب الخوف في قلوب الحثيين ويفقد الجندي الحثي القدرة على رفع يده » .

الحقيقة أن المعركة انتهت بنصف انتصار ونصف انكسار ، تقاسم فيها الحثيون والمصريون نشوة النصر ومرارة الهزيمة .

الصراع لم يتوقف ، الحثيون عوضوا خسائرهم المادية والبشرية واستعادوا قوتهم وبدأوا من جديد يسببون المتاعب في الجنوب السوري وقريبا من الحدود المصرية ، الأمر الذي واجهه رعمسيس الثاني بالتدخل من جديد .

أمام هذا الطريق المسدود أمام الحثيين أصبح التفاهم ضروريا مع المصريين ، ففي العام ٢١ وفي ٢١ من شهر Tybi أرسل ملك الحثيين Hattousil iii وفدا إلى مصر يحمل مشروع معاهدة

مكتوبة باللغة الاكادية على لوحة من الفضة يقترح فيها الملك الحثي الصداقة والسلام الأبدي والمعاملة بالمثل .وهذه المعاهده تعتبر في رأي المؤرخين من أجمل وأدق المعاهدات الديبلوماسية ، أحد نصوصها وجد محفورا على أعمدة الكرنك ، والثاني وجد حوالي عام ١٩٢٥ م في ألواح المكتبة الحثية في هاتوشي .

هذه المعاهدة في العلاقات الديبلوماسية تسمى Condominium وتعني تقاسم السلطة والنفود المتبادل بين قوتين على بلد ما ، تمت عام ١٢٧٨ ق.م ، هذه المعاهدة أمنت السلام في المنطقة لفترة دامت نصف قرن تراجع فيها النفوذ المصري قليلا نحو الجنوب وتقلص عما كان أيام تحوتمس الثالث ، وتوجت هذه المعاهدة بزواج فرعون مصر من ابنة الملك الحثي Hattousil iii .

بعد موت رعمسيس عن حكم طويل وعمر مديد أنجب خلاله ١٥٠ ولداً ، انكفأت مصر إلى حدودها ، ملامح المنطقة بدأت تتغير وموازين القوى بدأت بالتبدل ، نجم آشور أخذ بالصعود ، شعوب البحر أصبحت مصدر خطر على الحثيين والمصريين ، والسياسة مواقف والدول تعدل خططها لمواجهة هذه المواقف لتحسن التعامل مع الظروف الجديدة بخطط جديدة وباختلاف المعادلات والعوامل تزداد قوة الدولة أو تضعف.

تخلت مصر عن التوسع في آسيا وتخلت عن فكرة تجاوز حدودها وانتهى عصر قوتها ، ولكن مصر بقيت وحضارتها خالدة وما تزال أصيلة في وادي النيل .

الدولة الحثية بدأت تضعف لعوامل داخلية في قيادتها ومنازعاتها وتلاشت أمام ضربات الآشوريين واختفت من الوجود شعبا ودولة .

حمص — ١ تشرين ثاني : ١٩٨٤

الدكتور سامي سحلول

قطنة وقادش

الدكتور علي أبو عساف

هجر الكنعانيون حياة البداوة واستقروا في بلاد الشام . ثم أسست كل قبيلة منهم مملكة مستقلة ، عظمت قوتها وكبرت رقعتها تبعا لقوة القبيلة .

ومن هذه الممالك مملكتي قطنة وقادش ، اللتان ازدهرتا وبلغتا عصرهما الذهبي في الألف الثاني ق.م . تقع المملكتان المتجاورتان في أواسط بلاد الشام وعاصمتهما خربتان منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام . وهما : قطنه أي تل المشرفة إلى الشمال الشرقي من حمص على بعد حوالي ١٨ كم وهي عاصمة المملكة المسماة باسمها .

وقادش وهي تل النبي مند على العاصي إلى الجنوب الغربي من حمص حوالي / ٢٤ / كم وهي عاصمة مملكة كنزا / قادش .

ونظرا لأن الوثائق التي بين أيدينا تثبت أن مملكة قطنه أقدم من قادش سوف نبدأ الحديث عنها .

مملكة قطنة :

كشفت التنقيبات الأثرية التي أجراها الفرنسي الكونت دي منبيل دي بي سون في الأعوام/١٩٢٤و١٩٢٧حتى١٩٢٩/على سجلات معبدالرب نين كال التي أثبتت بجلاء أن تل المشرفة هو مدينة قطنه القديمة وقد كتب اسمها في هذه الوثائق ووثائق ماري وآلالخ ورسائل العمارنه (قطنة) . أما في اللغة المصرية فقد كتب (ق د ن) أي قطنه . وأوردته الوثائق الحثية بثلاثة أشكال : قطنه ، جتما كنتنا . وليس لهذا الاختلاف في كتابة الاسم أي مغزى فالمعول عليه هو كيف وردت بالوثائق المحلية . فدا ماسكس هي دمشق وان كتبها الغير باسم مخالف .

قلنا أن التنقيبات الأثرية قد أعانتنا في التحقق من موقع قطنه ، وأثبتت أيضا أن الموقع قد استوطن منذ الألف الثالث ق.م . وكان على صلات وثيقة مع مناطق بلاد الشام الأخرى وبلاد ما بين النهرين .

وقد عثر في بيوت وقبور سكان قطنه على جرار فخارية من صنع بلاد سومر نقلت فيها سلع تجارية من هناك إلى هنا . ونحن وان كنا لا نعرف نوع تلك المواد فاننا نعرف على الأقل أن الجرار من عصر سلالة أور الثالثة (٢١٥٠ – ١٩٥٠ ق . م)

ويبدو من كسر تمثال إيتا ابنة الفرعون أمين ايمحت الثالث (١٩٢٩ – ١٨٩٨ ق.م) . التي عثر عليها في قطنه ، ان هذه المدينة كانت ترتبط مع مصر بعلاقات تجارية جديدة فاستحقت هذه الهدية القيمة .

كانت التنقيبات الآثرية التي أجريت في الموقع محدودة ، لأن البيوت السكنية الحديثة قد انتشرت فوقه فأعاقت التوسع في أعمال

التنقيب ، وأضاعت علينا فرص الكشف على كنوز تلك المدينة إن صح التعبير . والآن وبعدأن أخليت المساكن من ساكنيها الذين انتقلوا إلى بيوت جديدة ، أصبح من الممكن الكشف على قطنه .

وحتى يتحقق ذلك الحلم يبقى اعتمادنا على وثائق ماري وآلاخ في كتابة تاريخ قطنه . ولا نبالغ اذا قلنا أن تاريخ ماري في النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد هو تاريخ بلاد الشام الشمالية . ولا غرابة في ذلك فالتنقيبات الأثرية بدأت مبكرة في ماري ، وأعطت نتائج جيدة منها دار محفوظات كبيرة ضمت عشرات الألوف من الرقم التي سطرت عليها مراسلات المملكة ، المعاهدات ، العقود ، ايصالات المبيعات والايرادات . . . الخ ، هذا بالإضافة إلى أن ماري كانت صلة الوصل بين ممالك بلاد مابين النهرين وبلاد الشام .

وقد أعطاها هذا الموقع الممتاز فرصة المشاركة في صنع تاريخ جاراتها . زد على ذلك أنه كانت لماري وقطنه مصلحة مشتركة في معالجة أمور البدو والقوافل التجارية وغيرها من الأمور . لذا أخذت مخابرات المملكتين المتعلقة بالبدو والمصاهرة والمساعدات العسكرية والشؤون التجارية تدور بين المملكتين طيلة القرن الثامن عشر ق.م .

يبدو أن ملوك ماري كانوا يقيمون وزنا كبيرا لانتقاء زوجاتهم وزوجات أبنائهم ، ويحرصون على أن تكون الزوجات من البيوت الملكية الشهيرة . ففي ذلك فائدة بابعاد العداوة من بين الأسر المتصاهرة . وفرض تعاونهما في زمن الشدائد ضد الأعداء . وانطلاقا من هذه النظرة . طلب شمشي حدد (= شمسي هدد) ملك آشور ، من ملك قطنة يشخي حدد (= يسعي هدد) ، أن يزوج ابنته التي لم يذكر أسمها ، من ولده

يسمخ حدد (= يسمع هدد) ملك ماري . اذ أن البيت المالك في قطنه ذو شهرة واسعة وذكر حميد كالبيت المالك في ماري . ونفهم من المراسلات التي تناولت تحديد الطرحة (المهر) ، وكيفية تسيير موكب العروسة من قطنه إلى ماري ، أن وراء هذا الزواج مصلحة لقطنه في التحالف مع ماري ضد مملكة يمخاد (= حلب) . وما أن وصلت العروسة إلى ماري حتى عقد الطرفان شمشي هدد ويشخي حدد معاهدة تعهد فيها الأول بالوقوف إلى جانب قطنه في تصديها لتعديات جارتها الكبرى يمخاد .

كانت لهذا التقارب بين البيتين أثره على العلاقات بين يمخاد وكل من ماري وقطنه . فلم نعد نسمع عن منازعات بينهم .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد اتضح أن هذا الزواج لم يكن موفقا . فالزوج يسمع هدد (= يسمخ حدد) تمنع عن مرافقة زوجته لزيارة أبيها ورغب في طلاقها ، لولا تدخل والده الذي أنبه وطلب منه الاكتفاء بهجرها وحشرها في أحد أجنحة القصر حتى يتجنب الفضيحة .

أذعن الولد لرغبة والده ووافق أيضا على السفر إلى قطنه . ولا ندري فيما اذا كانت زيارته قد تمت . ولكنه من المؤكد أن قوات من جيش ماري كانت تعسكر في قطنه ، وتأتمر بأمر ملكها . وعندما رغب حكام ماري لسحب هذه القوات ، واعادتها إلى ماري ، طلبوا موافقة ملك قطنه على ذلك وتمت المراسلات بينهم وبينه ولم يخاطبوا قائد قواتهم مباشرة . وقد يعني هذا أيضا أن ملك قطنه كان يدفع لهم نفقات اقامتهم .

ومهما يكن الأمر فان علاقات قطنه في عهد ملكها يشخي حدد (= يسعي هدد) ، في النصف الأول من القرن الثامن عشر ق .م . مع ملك ماري وصهره يسمخ حدد (= يسمع هدد) ووالده شمشي حدد ملك آشور كانت حميمة ووثيقة . ومن الواضح أن هذا التحالف بين قطنه في أواسط بلاد الشام ، وماري على الفرات ، وآشور على الدجلة ، قد أشرف على المنطقة الممتدة من حمص عبر الصحراء إلى ماري على الفرات ومنها إلى آشور على الدجلة . وقد يسر هذا الموقع الجغرافي الهام لهذه الدول الثلاث السيطرة على الطرق التجارية بين بلاد الشام والأناضول من جهة وبلاد بابل وسومر من جهة أخرى . وقد أفلح هذا التحالف منع مملكة يمخاد من التوسع شرقا إلى ما وراء الفرات وجنوبا إلى ما وراء جبل الأحص . وقد أفلح أيضاً في إيقاف توسع مملكة بابل نحو الشمال والشمال الغربي .

في عهد يشخي حدد (= يسعي هدد) استقرت قواعد المملكة وتوطدت علاقاتها مع ماري . وفي عهد خليفته آموت بيل تحسنت علاقات قطنة مع يمخاد ولم نعد نسمع عن نزاعات بينهما . ومرد ذلك إلى توسع مملكة يمخاد من حلب حتى سواحل البحر المتوسط غربا ونهر الفرات شرقا . هذا بالإضافة إلى عودة زمريليم إلى عاصمة ملكه ماري بعد أن تعاون مع أخواله ملوك يمحاد في طرد يشمخ حدد (= يسمع هدد) من ماري لقد انقلبت موازين القوى وتغيرت العلاقات . فبعد ان كانت ماري حليفة قطنة ضد يمخاد ، أصبحت حليفة يمخاد . إلا ان هذه الدول الثلاث لم تتحارب ولم تحاول . أي منها التعدي على جاراتها . فقام في المنطقة نوع من التوازن يأخذ بعين الاعتبار حقوق كل مملكة .

ومما يدل على عدم تأثر مملكة قطنة بهذا التحالف الحديد ، وبقائها على قوتها، ان أكثر من خمسة عشر ملكا كانوا يتبعون آموت بيل وان مكانته بين معاصريه من الملوك كانت عالية . وذلك حسبما ورد في وصف الكاتب اتورا حدد للملوك زمانه .

ومن هذه العبارة نفهم أن خمسة عشرة شيخا من شيوخ العشائر وليس خمسة عشرة ملكا . كانوا من أتباعه .

وكما حافظ آموت بيل على مكانة قطنه السياسية حسن علاقاته التجارية مع بابل وبلاد سومر . ففي عهده تنقل تجار قطنة بين معظم عواصم ممالك عصرهم .

فوصلوا حلب ، كركميش ، ايمار ، ماري ، بابل ، أشنونه ، وآشور ، وكانت الطريق التجارية التي تربط بين بلاد الجزيرة وقطنه تمر بتدمر ، فالسخنه فالميادين فماري . التي منها تتابع القوافل سيرها نحو الشمال والشرق والجنوب . وفي هذا المكان اقتضى التنويه إلى أن الحمار كان الحيوان الذي يحمل البضائع بين البلدان ويجر العربات .

ان العلاقات المتوازنة التي قامت بين مختلف ممالك المنطقة ، والمبنية على الاحترام المتبادل لسيادة وحقوق كل دولة ، ضرب به حمورابي ملك بابل (١٧٢٨ – ١٦٨٦ ق.م) . عرض الحائط . فهاجم ماري عند نهاية القرن الثامن عشر ، وقضى عليها . ولم تقم لها قائمة كعاصمة مملكة قوية بعد هذا التاريخ . وقبل ذلك كان قد أخضع لسلطانه جميع ممالك بلاد سومر وأكاد وآشور .

هذا إلى الشرق والشمال الشرقي من البادية الشامية ، أما إلى الشمال والشمال الغربي ، فقد بقيت دولة يمخاد الدولة الوحيدة القوية في

المنطقة ، التي حافظت على علاقات عادية مع قطنه ، وامدتنا بمعلومات عنها . فقد ذكر في بعض الرقم التي عثر عليها في مدينة آلاخ ، العاصمة الثانية ليمخاد ، والتي يعود تاريخها إلى القرن السابع عشر ق.م . أن عمالا زراعيين كانوا يفدون إلى بلاد آل لخ للعمل . ولم تتحدث الوثائق عن حروب بين الدولتين بل عن اصطدام واحد وقع بين مراكز حدودهم .

والحقيقة التي لا تطمس هو أن تاريخ قطنه بعد القرن الثامن عشر قد أصبح شبه مجهول لقلة الوثائق . في خضم الأحداث التي شهدتها بلاد الشام خلال القرنين الخامس والرابع عشر ق.م ، مثل الصراع بين الفراعنة والحوريين والميتانيين ، وبين الحثيين والميتانيين فوق أرض بلاد الشام ، اكتنف الغموض موقف قطنه . ولا نعلم عنه شيئا موثقا .

ولكن مما لا شك فيه أنها بقيت مملكة مستقلة يحكمها ملوك من سلالة يشخي حدد (= يسعي هدد) . ونعرف من سجلات معبد نين جال . أسماءهم فقط .

وفي عصر العمارنة الذي يوافق حكم الفرعون امنوفس الرابع أي اخناتون (١٣٧٧ – ١٣٥٨) ق.م . كان إكزي ملكا على قطنة ، مواليا للفراعنة ، وللملك أوفه (= دمشق) بيراوزه .

وقد ناصبه العداء ملك قادش ايتاكاما وآزريرو ملك آمورو . وعند منتصف القرن الرابع عشر ق.م ، وفي عهد الملك الحثي شوبي لي ليوما ، احتل الحثيون قطنة فأحرقوها ، وسبوا عددا كبيراً من سكانها . فأفنوا زهرة مبانيها ، ونهبوا ثروتها .

وبذلك تكون قطنه كعاصمة مملكة قد اندثرت ، وأصبحت قرية من الدرجة الثانية أو الثالثة .

مملكة قادش :

تشير جميع الدلائل المتوفرة لدينا حتّى الآن أن مملكة قطنة أقدم من مملكة قادش فهذه الأخيرة لم تذكر في وثائق ماري ولا في وثائق آلالاخ (القرن الثامن عشر ق.م) كما ذكرت قطنه وبما أن عاصمتي المملكتين متجاورتان يبدو أن السلطة في المنطقة قد آلت أولا إلى قطنة ثم إلى قادش .

وفي استعراضنا للاحداث التّي مرت بها مملكة قطنة وجدنا انها قد ولت وجهها نحو الشمال والشرق وكانت على علاقات مع ماري ويمحاد . أما قادش فقد اهتمت بالمناطق الجنوبية من بلاد الشام . اذ يذكر الفرعون تحوتمس الثالث (١٤٩١ – ١٤٣٦) أنه في عام حكمه الثالث والعشرين قد جرد حملة على بلاد الشام فتصدى له أمير قادش الذي جمع تحت قيادته جيشا جرارا من ممالك بلاد الشام الجنوبية قابل المصريين في مجدو بفلسطين ولم يكن النصر حليفه وانتهت المعركة بمعاهدة صلح بين الأطراف وان دل هذا على شيء فانه يدل أولا على المكانه المرموقة لقادش بين ممالك بلاد الشام الجنوبية .

حاول الفرعون تحوتمس الثالث احتلال قادش بضع مرات ولكنه ارتد عنها دون دخولها أو حتّى محاصرتها ومرد ذلك على ما نعتقد التزام الطرفين بمعاهدة مجدو . ولكن في عام حكمه الثالث والثلاثين وخلال حملته الشهيرة على بلاد الشام والتّي وصل بها إلى كركميش على الفرات هاجم قادش وحاصرها . ويذكر أحد قادته آمين أمحب حادثة طريفة وقعت للجيش المصري أثناء الحصار وتتلخص في أن أمير قادش قد لجأ إلى حيلة للايقاع بالجيش المصري اذ أطلق من داخل أسوار المدينة فرسا

لتتغلغل بين الاحصنة التي تجر عربات المقاتلين المصريين فيطاردونها وبالتالي تدب الفوضى في صفوفهم ، عندها قفز آمين أمحب من عربته ورمى الفرس بسهمه ثم قاد أفراد جيشه وتسلقوا سور قادش لاحتلالها . ويبدو أن الأسرة الحاكمة وغيرها من سكان قادش قد وقعت في الأسر .

بعد هذا التاريخ حافظت قادش على ولائها لتحوتمس الثالث ولم تذكر أية معارك معها . والغريب في الأمران الوثائق التي تعود إلى عصر تحوتمس الثالث قد تحدثت عن أمير قادش دون ذكر اسمه : وهكذا فعل خلفاؤه من بعده الذين حافظوا على علاقات جيدة مع قادش دون ذكر اسماء أمرائها .

ورغم هذه الأحداث التي مرت بها قادش حاولت دوما أن تدافع عن أرضها وعندما غزا شوبي لي ليدما الحثي (١٣٧٠ — ١٣٣٠) بلاد الشام وتقدم حتى نعيا (قلعة المضيق) . تصدى له ملك قادش شوتاترا وولده ايتاكاما إلى الشمال من حمص فهزما أمام الجيش الحثي الجرار ووقعا مع قوادهما في الأسر .

نقلوا جميعا إلى بوغاز كويي العاصمة الحثية . وأثناء ذلك يبدو أن الوالد قد توفي وعاد الابن إلى عرش قادش بناء على طلب مصري كما نظن .

كان ايتاكاما من أقوى امراء بلاد الشام في القرن الرابع عشر وعلى وجه التحديد في عصر العمارنة . وقد تجنب الدخول في منازعات مع المصريين والحثيين ولكنه حاول توسيع مملكته على حساب الممالك المجاورة فاتجه نحو الجنوب إلى البقاع ومملكة أوفه (= دمشق) وذكرت رسائل

العمارنة أن امراء منطقة البقاع وخاصة (تعواني أمير لبانة) (وعرزادي أمير روخزي) . قد طلبوا منه تخليصهم من حكم أمير أوفه ويول هذا على نفوذ ايتاكاما في تلك المنطقة . وعندما علم بيراوزه ملك اوفه بالأمر غزا قادش قبل أن تغزيه وأحرق كثيراً من مدنها فاشتكى الطرفان لفرعون مصر واتهم كل منهم الآخر ببدء الغزو . ولم يجد اتياكاما بدا من التحالف مع عزيروأو ازيرو ملك آمورو الذي أرسل عسكره إلى قادش .

ولا ندري ماذا جرى بعد ذلك لان الوثائق النادرة بين أيدينا ولان رسائل العمارنة غير مصنفة تاريخيا بحيث يمكن ترتيب تسلسل الأحداث بالنسبة اليها .

وهذا ما كان من أمر ايتاكاما مع مصر ومع جيرانه ، أما علاقاته مع الحثيين فكانت بين مد وجزر وكثيراً ما ذكر أن قادش كانت في عهد شوبي لي ليوما الحثي .

معادية أو صديقة له . وكانت علاقات ممالك آمورو في الغرب وتونيب ونوخشي في الشمال هي التي تتحكم في هذه العلاقات ، فان اعلنوا ولاءهم للحثيين سايرتهم قادش وان فترت علاقاتهم مع بوغاز كوي فترت علاقات قادش أيضا ومما لا شك فيه أن النفوذ الحثي لم يكن قويا في قادش ولم ترتبط معهم بمعاهدات كجاراتها .

ونعلم من حوليات الملك الحثي مورشيللي الثاني ان ايتاكاما قد اغتاله ابنه آري تيشوب وجلس مكانه على العرش في العام التاسع لحكم مورشيللي عندما اجتاحت القوات الحثية بلاد نوخشي إلى الشمال من حمص ووصلت إلى أبواب قادش .

ومن المرجح أن غرض هذه القوات كان احتلال قادش وأسر ملكها اتيا كاما ، فأقدم ولده على هذا العمل لتجنب دمار المدينة . .

لم يمنع هذا العمل القوات الحثية من دخول المدينة فدخلتها وأسرت آري تيشوب واقتادته إلى مورشيللي الثاني الذي كان يعسكر في بلاد أشتاتا إلى الشرق من حلب على الفرات . هناك عامله الملك الحثي بلطف وثبته على عرش قادش معلنا ولاءه لاسياده ملوك ختي .

لم يرق هذا العمل لفراعنة مصر بل حاولوا استعادة سيطرتهم على قادش وبلاد آموره فغزا سيتي الأول هذين البلدين وخلد ذكر انتصاره على قادش بنصب اقامه فيها وعثر عليه أثناء التنقيبات الآثرية .

جرت كل هذه الأحداث فوق أرض بلاد الشام بقصد السيطرة عليها من الحثيين والمصريين ولم تتقابل قوات الطرفين وجها لوجه حتى معركة قادش بين رعمسيس الثاني (١٢٩٠ — ١٢٢٤) ق.م ومرواتلي في العام الخامس لحكم رعمسيس .

وصف المصريون والحثيون المعركة بشكل دقيق واعتبر كل منهما انه المنتصر . ومن تحليل الأحداث التي جرت بعد هذه المعركة مثل معاهدة السلام التي أبرمت بين الطرفين أي بين رعمسيس الثاني وختوشيلي الثالث زواج رعمسيس الثاني من أميرة حثية يتبين لنا أن النفوذ المصري قد امتد حتى الرستن شمالا . اذ قضت الترتيبات التي وضعت لسير موكب العروسة الأميرة من خاتوشة (= بوغازكوي) إلى مصر بان ترافقها

قوات حثية وأخرى من ممالك بلاد الشام الشمالية حتّى مدينة أيو التي هي على الأرجح تل أيو إلى الجنوب من حماه حوالي ٧ كم . ثم تتولى مرافقتها قوات من مملكة اوفة (= دمشق) من آيو وحتّى رفح .

لا شك أن قادش قد تعرضت لغزو شعوب البحر بلاد آمورو المجاورة ، ثم خضعت للآراميين ولم تعد عاصمة مملكة قوية بل تراجعت إلى مدينة عادية استمر فيها الاستيطان حتّى يومنا هذا .

• • •

حول كتاب
"تاريخ حمص"
للمرحوم الخوري عيسى أسعد

محمود السباعي
عضو الجمعية التاريخية

يقول أحمد وصفي زكريا ، في كتابه / جولة أثرية في بعض البلاد الشامية/ عند كلامه عن زيارته لحمص« وإنّ أحسن من أجاب عن أسئلتي بين الحمصيّين كان الخوري البحاثة » « عيسى أسعد (١) » ، « ثم أروني رسالة موقوفة أدبية . ظهرت سنة / ١٣٥١ هـ / اسمها « البحث ؛ في كل عدد منها مقال موجز عن تاريخ حمص ، للخوري عيسى أسعد المذكور آنفاً » « فأعجبني ورجوت له التوفيق لأنجازه(٢) » .

وقد جمع الخوري عيسى أسعد هذه المقالات ووسعها وجعلها في كتاب واحد صدر في حمص عن مطبعة السّلامة سنة١٩٣٩ بعنوان / تاريخ حمص / من سنة ٢٣٠٠ ق.م ــ ١٩٤٠ م . وقد قسمه قسمين :

الأول من / ٢٣٠٠ ق.م ـــ حتّى ظهور الإسلام .

والثاني من ظهور الإسلام حتّى عام ١٩٤٠ م .

(١)ص ٣٣٦ ، دار الفكر ١٩٨٠

(٢) المصدر نفسه ص : ٣٣٨

وتمكّن ، رحمه الله ، من اصدار الجزء الأول ، وباشر في الثاني ولكنّ الأجل لم يمهله لإنجازه فأكمله من بعده ابنه الأستاذ / منير الخوري / وقد نشر هذه السنة من قبل مطرانية حمص ١٩٨٤ . .

وهذه الدراسة تقصد إلى الجزء الأول أي تاريخ حمص القديم من أقدم أدوارها حتّى ظهور الإسلام واعتمدت في هذه الدراسة الطبعة الصادرة في حمص عن مطبعة السلامة ١٩٣٩ م .

إنّ أجمل ما يطالعك في أول الكتاب : أهداؤه إلى الخالدَين : العلاّمة عبد الحميد الزهراوي والذكي الفؤاد رفيق رزق سلوّم(٣) » مما يدلّ على وطنيّته الصادقة وإحساسه القومي العميق .

ثم يورد أربع صفحات بعنوان / فاتحة الكلام / يعترف في نهايتها بالشكر لكل الذين ساعده ه؟ من « أصدقاء لهم صلة بالمكاتب الأوروبية والأمريكيّة الشهيرة فاجتمع عندي أضابير مما تبعثر » في مطاوي تلك الأسفار جعلته مادة لما نوّهت عنه(٤) » . ثم يتابع قوله : « وآن لي الآن أن اعترف بأنّ رهطاً كريماً من أفاضل السادة والإخوة والتلامذة أعانوني بما وصل إليه اجتهادهم وشجعونيّ بمتابعة البحث والتنقيب لبلوغ النتيجة التي تطالت اليها أعناق الحمصيّين خاصة ، وقراء الضاد عامة ، وأخص بالذكر من هؤلاء الأفاضل أربع شخصيات كبيرة لها وزنها في قسطاس العلم والتاريخ؛ إثنان منهم أمدّوني بمعلوماتهم الثمينة لأجل القسم الأول واثنان منهم آزروني لأجل القسم الثاني باختباراتهم

---

(٣) من شهداء / ٦ / أيار / ١٩١٦ الذين أعدمهم السفاح جمال باشا في دمشق .

(٤) ص . (٥)

السدّيدة وما خزن في ذاكرتهم القويّة وحافظتهم الواعية بما حُظر تدوينه فيما سلف .

فالأولان هما بطريركا للشرق الأرثوذكسي : العلاّمتان الكبيرتان : السيد الكسندروس الثالث : البطريرك الأنطاكي للروم الأرثوذكس الحاصل على أعلى شهادة لاهوتيّة علميّة : والسيد أفرام الأول البطريرك الأنطاكي للسريان الأرثوذكس الممتاز بتنقيباته الكثيرة ومطالعاته الوفيرة : أمّا اللذان ساعداني من أجل الجزء الثاني فهما صاحب الفضيلة إبراهيم أفندي الأتاسي وثانيهما المنقّب المجتهد المرحوم / محمد طه الدكّاف (١)/

ثم يلي ذلك تقسيم التاريخ الحمصي إلى قسمين : **الأول حمص قبل الإسلام والثاني حمص بعد الإسلام .**

مصادرهُ :

يبدأ القسم الأول بذكر / الينابيع التي ارتشفنا معلوماتنا عنها(٢) / أي المصادر التي رجع إليها ويرتّب تلك المراجع على النحو التالي :

١ً – الآثار (آرخيولوجيا) ويقسمها إلى :

الآثار الآشورية والآثار المصريّة :

٢ً – الأساطير (ميثولوجيا) ويذكر منها أساطير الكلدان / قصة شيشت / وأساطير مصر / أنبوو بانا / وأساطير اليونان / قصة بروميثيوس /

٣ً – قدماء المؤرّخين : ويورد منهم واحداً وخمسين مصدراً(٣)

---

(١) – ص / ٦ /
(٢) – ص / ١٤ /
(٣) – ص / ٢٨ /

بعضها أسفار من العهد القديم وبعضها لكتاب وشعراء يونان وروماں ويبدأ بيوسف العفيف / ١٧٤٥ ق.م – ١٦٣٥ ق.م / وهي قصة يوسف الواردة في سفر التكوين من الاصحاح (٣٧ —— ٤٨) وتنتهي بيوحنا الآسيوي / ٥٠٧ م – ٥٨٥ / م .

ويقول عنها في الصفحة / ٣٠ / « إن أسفار هؤلاء المؤرخين تبعثرت وأصبح كل منها في ناحية من الأرض يتعذّر على أيّ امرىء مهما عظم شأنه أن يحتويها كلها؛ وأنْ غِيَرَ الدهر قد ألمّت بكثير من الموضوعات المشار إليها ولم يبق منها سوى فقرات حفظها كتّاب آخرون أحدث منهم عهداً بالوجود » .

فاذا كان الأمر كذلك فكيف تمكّن هو من الرجوع إليها ؟ ؟ مع جهله باللغات الأجنبيّة كلّها ! ! !

لا بدّ أنّ الذين أعانوه ، كما ذكر في المقدّمة ، قدّموا له هذه القائمة فأثبتها على علاتها ، وقد نجد له عذراً في المصادر اليونانية واللاتينيه لأنه يَجهلُها ولكن أسفار العهد القديم معرَّبة وكان بوسعه،قبل اثبات الأسفار في قائمة المصادر ، أن يعود إلى تلك الأسفار ويتحقق من كلامها عن حمص ! ! ! .

وقد قمت بالرجوع إلى عدد من الأسفار أخذتها من القائمة ، لا على التعيين ، وهي : سفر يوسف العفيف ، والواقع أنه ليس سفراً بل مجموعة من الإهتمامات تتضمن قصة يوسف من أولها حتى وفاة والده يعقوب / اسرائيل / كما أشرت إلى ذلك سابقاً ، فلم أجد فيها لا من

قريب ولا من بعيد ، ما يشير إلى حمص وكذلك في سفر يشوع ابن نون أما سفر صموئيل النبي فقد ذكر كلمة / صوبه / .

ومع ذلك فهو يذكر في الصفحة / ٣٢ / « ولكن الآثار لم تذكر حمص باسمها الحالي الا حوالي الميلاد » وفي الصفحة / ٣٧ / تحت عنوان اسم حمص يقول « إنّ لفظ حمص لم يرد في التوراة ولا في الآثار القديمة قبل القرن الرابع للميلاد» وإذن فَلِمَ تذكر مصادر ليس فيها ما يشير إلى حمص ؟ ؟ ! .

طريقته في التأليف :

لقد قسم تاريخ حمص إلى عشر حِقَبٍ وبعد أن ينهي الكلام عن الحقبة ويذكر فيها الأحداث التي جرت في الهلال الخصيب كلّه ، يضع في آخر الحقب ملخصاً لما ذكره تحت عنوان / خلاصة ما تقدّم / ثم يذكر تحت عنوان « المُلمِعون إلى هذه الحِقبة » أسماء المؤرخين وتفاصيل حياتهم ولم يذكروا حمص وبلغ مجموع هذه الحقب عشراً. الحقبة الأولى من ٢٣٠٠ ق.م ــ ١٩٠٠ ق.م : حمص في أيام الروثان والعمالقة والآموريين : وهنا ترد الأخطاء التالية :

آ ــ الروثان اسم أطلقه المصريوّن على الآموريين سكان سورية وقد وردت الكلمة في قصة سنوحي .

وكان الآموريون ضخام القامات « تبدو قاماتهم في المباني الآثرية طويلة عسكرية ولا بد أن حجمهم وحضارتهم أثرا على سكان الكهوف القصار القامة والبدائيين في جنوبي سورية حتى إنَّ الأساطير قامت تتحدث عن جيل من الجبابرة أتى وتزاوج مع بنات الإنسان ؛ وانتقلت

هذه الأساطير إلى الاسرائيليّين(١) » . فاطلقوا عليهم اسم العمالقة وأنزلوهم في جدول الأنساب الوارد في سفر التكوين ونسبوهم إلى / عماليق / أحد أولاد / لاود / « لود » . كما نسبوهم في مكان آخر إلى عماليق حفيد عيسو(٢) .

ووصفهم سفر عاموس « بانّ قامة الآموريين كانت مثل قامة الأرز وانّهم أقوياء كالسنديان(١) » .

وهكذا ترى أنّ الروثان والآموريين والعماليق هم ثلاثة اسماء لمسمّى واحد وليس كما ادّعى صاحب الكتاب .

ب – عند محاولته العثور على أصل اسم / حمص / واشتقاقه يفترض عدة فرضيات ثم يخلص إلى القول « إنّ أول ما استوطن من / حمص / إنما هو التلّ الذي أصبح بعدئذ قلعة ، والحصن يدعى بلغة قدماء الشرقيين / ولم يُعيّنهم / حامات ثم ولما بنى بعضهم المساكن في المنبسط الموازي القلعة دُعيت تلك المنازل / صوبا / وهي باللغات السّامية / محلّة / فلما ازداد عدد المنازل وصارت بلداً أهمّ من القلعة صارت القلعة مضافاً والبلد مضافاً إليه فدعيت : / حامات صوبا / وذكرت بهذا اللفظ نفسه بالتوراة / ٢ أي ٨ : ٣ ولما صار هذا اللفظ المركّب علماً للمدينة نحتته الألسن فصار / حميصويا / واقتصر العبرانيون على شطره الأخير فقالوا / صوبا / واختار اليونان الشطر الأول وخففوه فصار / اميسا وأخذ الشرق معظم معلوماته عن اليونان ومنها هذا اللفظ الذي عرّبوه فصار حمص » ! ! ! / ص ٣٨ /

(١) – حتّى تاريخ سورية ولبنان وفلسطين : ج ١ ، ص (٨٢)
(٢) تكوين : ٣٦ : ٩
(١) – عاموس : ٢ : ١٠

انّ هذا الاستخراج واللفّ والدوران للوصول من صوبا إلى حمص لم تتعرّض له أية مدينة في الهلال الخصيب كلّه نعم قد يتغيرّ اسم المدينة كاملاً ، كما حدث في عهد السلوقييّن ، فقد أطلقوا على بيروت اسم / جوليا ، وغوستا فيلكس / وعلى بعالبك هليوبوليس / ، وعلى عكّا / بتوليمايوس / وعلى حماة / ابيفانيا / .

ولكن هذه الأسماء المستحدثة زالت مع زوال حكم السلوقييّن وعادت إلى المدن المذكور أسماؤها القديمة .

أمّا أن يُنحت اسم حمص من / حماة صوبة / ويتحوّل هذا التحول فأمر عجيب لا نظير له ويبدو التكلّف واضحاً فيه .

إذا رجعنا إلى كتابات المؤلّفين المحدثين نرى أنّ جدول الأنساب الوارد في سفر التكوين ليس علمياً إطلاقاً وهو من باب الأساطير . فالدكتور فيليب حتيّ يقول « إنّه ليتضح أنّ التاريخ الذي كتبه العبرانيون ، عمّا سبق الدور القبلي ، ليس بتاريخ وليس من السهل استخلاص لب الحقائق التاريخيّة من المرويات التي تتعلّق بالدور القبلي نفسه(٢) » .

ويقول أيضاً « انّ التفسير التقليدي الذي يذهب إلى أن الساميّين قد تحدّروا من كبير أبناء نوح (أي سام) لا تؤيده الأبحاث العلمية الحديثة(١) » وهذه إشارة لطيفة وصريحة إلى عدم صحة سلسلة الأنساب الواردة في سفر التكوين .

---

(٢) – حتي تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج ١ ص / ١٩٢ /

(١) حتي تاريخ العرب (مطوّل) ج ١ ص (٩)

ثم لو عدنا إلى اسم / صوبة / لرأينا أنّ المطران غريغوريوس صليبا شمعون رئيس أساقفة الموصل للسريان الأرثوذكس يقول في كتابه الممالك الأرامية ص (٣٧) أنّ مملكة صوبا هي البقاع حالياً » كما يقول أيضاً الدكتور حتّي . إنّ صوبة عاصمة مملكة آرامية تحمل الأسم نفسه » ، كتونس والجزائر مثلاً ، « والكلمة مشتقة من Sehaluch بمعنى أحمر أو نحاس ويظنّ أن موقعها في كالسيس أو عنجر الحديثه جنوبي زحلة في البقاع » (٢) .

فكلمة / صوبا / إذن آرامية وهذا اللفظ قريب من الجزر العربي صَهِب صهُوباً الشَعَرُ إذا كانت فيه حمرةً أو شقرةً .

ويستشهد صاحب تاريخ حمص بأن / حماة صوبة / وردت في التوراة / ٢ أيام ٨ : ٣ / « وذهب سليمان إلى حماة صوبا » وهي التي بشرها بأنها حمص .

ولو عدنا إلى قاموس الكتاب المقدّس(٣) لرأينا أنّ القاموس بشرح كلمة / صوبا / الواردة في صموئيل الأول ، كما يلي وظنّ بعضهم أنّ صوبا هي حمص ، أمّا « حماة صوبا » فيقول عنها القاموس المذكور (مملكتا حماة وصوبا المتجاورتان أو مكان صغير يدعى حماة مملك لمملكة صوبة(٤) وهكذا نرى أنّ كل محاولات المؤلف التي بذلها للبحث عن أصل حمص وساكينها هي استنتاجات شخصية لا سند تاريخياً لها مطلقاً .

---

(٢) حتّي تاريخ سورية ولبنان وفلسطين جـ ١ ص / ١٧٨ /

(٣) الطبعة السادسة / ١٩٨١

(٤) قاموس الكتاب المقدس مادة / حماة / ص / ٣١٦ /

وكلّ ما كتبه في بقية الحِقب حتّى نهاية الحِقبة الخامسة قائم على أساس أنّ / حماة صوبا هي / حمص ويشير اليها / بالمنطقة الحمصيّة/ فتنتهي هذه الحقبة في الصفحة (٢٥٧) وحتّى هذا أن أكثر من نصف الكتاب ليس فيه أي ذكر لحمص وإنما / لحماة صوبا / وهذه غير حمص كما رأينا . واذن فليس لدينا شيء موثوق عن حمص خلال تلك الفترة ، ويبدوا أنه ضاق ذرعاً بعدم من يشير الى حمص من قريب أو بعيد فانقلب حبّه لمدينته ورغبته في تخليدها على أمانته العلمية فيذكر حين الكلام عن معركة / مجدو / سنة ١٨٦٤ ق.م بين تحوتمس الثالث وبين المخالفين ضدّه ، وعددهم / ٣٥٠ / أميراً أنّ ملك حمص ، ولا يذكر اسمه ، قد أوجد اتحاداً بين إمارات الشام كلّها (ص : ٨٦) أمّا الدكتور فيليب حتيّ فيذكر « أنّ المخالف كان أمير قادش على العاصي رئيسه(١) » وينقل ذلك عن براستد وهو مؤرخ أمريكي ثقة جداً في تاريخ مصر ، وتكرر ذلك عند كلام عن معارك في سهول حمص في عهد البطالسة ص /٢٤٢/ فهو ينقل عن سفر المكابيين لأول الآية / ٢٤ / كما يذكر بعضها وأخلص يوثاثان له (أي لـ أنطيوخوس نيوس) وحارب القوّة التي جمعها ديمتريوس بمعركة حدثت في سهول حمص (١ ملك ١٢ : ٢٤) .

وعندما رجعتُ إلى سفر المكابيّن الأول وجدت أنّه يذكر في الآية / ٢٥ / فخرج ، أي يوثاثان من أورشليم ووافاهم في أرض حماة ولم تـمهلهم أن يطأوا أرضهم(٢) » وهذا تحريف لا نرضه له وبأخذ على مؤلّف سفر الملوك الثاني الحاقه / ربلة / بحماة (ص ١٨٦)

(١) حتّى تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين جـ (١) ص / ١٤٠ /
(٢) الكتاب المقدس العهد العتيق ، الطبعة الكاثوليكية ، بيروت / ١٩٦٠ /

ويستنتج أن المدينتين حمص وحماة كانتا تحملان اسماً واحداً وهذا من اختراع خياله كما رأينا .

جـ ـ وفي الحقبة الرابعة من تاريخ حمص عندما يتكلم عن الكلدانين ص / ١٧٣ / يقول : « هم احدى الأمم القديمة في التاريخ وجدت في العراق العربي ونشأت كأمه ودولة في القرن الثالث والعشرين ق.م ومؤسسها حسب التقليد المتناقل نمرود الجبار وأقدم دولها الدولة الأكادية» ودارسوا التاريخ الآن ، يعرفون أنّ الأكاديين غير الكلدان . فالأكاديون هاجروا من الجزيرة العربية مع الآشوريين حوالي / ٣٥٠٠ / ق.م وأقاموا دولة عاصمتها / أكاد / وأبرز ملوكها صارغون الاكادي مؤسس أول امبراطورية عربية في الهلال الخصيب كلّه .

وهاجر الآموريون من الجزيرة العربية أيضاً بعدهم بألف سنة أي حوالي / ٢٥٠٠ / ق.م وأقاموا دولتهم وأنشأوا عاصمتهمبابل ومنهم حمورابي المشرع العظيم ، وتسمّى دولتهم الدولة البابلية الأولى ، أمّا الدولة البابلية الثانية فأقامها الكلدان وهم آراميون ، بعد تأسيس بابل بألفي سنة ، إذ أسقطوا الدولة الآشورية وأقاموا دولتهم الكلدانية وفي عهد ملكهم بُختنصر تمّ القضاء على مملكة يهودا وسقوط أورشليم سنه / ٥٨٦ / ق.م وماتلا ذلك من السبي البابلي ، والقضاء على مملكة يهوذا ، وفي سفر التكوين أول ذكر لهذا الخلط بين الدولتين : فقد ورد في الأصحاح الحادي عشر الآية / ٢٨ / ومات هاران، قبل تارح أبيه ، في أرض بلاده اور الكلدانيين وأور / مدينة سومرية وجدت قبل الكلدانيين بثلاثة الاف سنة / ٣ / وخضعت للأكادين كما خضعت المدن الأخرى .

---

(٣) قصة الحضارة ، ويل ديورانت جـ / ٢ / ص / ١٦ /

ونحن لا نحمل المؤلف مسئولية هذه الأخطاء التاريخية لانّه نقلها عن مصادر ذكرها ، ولكن نأخذ عليهم التحريف الذي لجأ إليه ، كما ذكرنا آنفاً باستبدال حمص بحماة وقادش .

حـ وفي الحقبة السادسة تحت عنوان حمص في أيام حكومتها الوطنية من سنة ٨٠ ق.م – ٧٩ م يربط بين قيام الحكومة الوطنية في حمص وبين ثورة اليهود على الدولة اليونانية ، كما يسميها والأصح السلوقية . ثم يبدأ بذكر تاريخ اليهود بعد عودتهم من السبي فاستغرق ذلك منه ثلاث عشرة صفحة ، بينما تكلّم عن تاريخ حمص المستقلة في عشر صفحات فقط . ومما يلفت النظر محاولته في الصفحة (٢٧١) ايجاد الشبه بين اليهود وبين أهل حمص في عدة نقاط اجتماعية أو أخلاقية سهلت تفاهمهم وسيرهم في طريق واحدة أو متابعة بعضهم بعضاً» وبني على ذلك وجود صلتين احداهما سياسية والأخرى / قوميّه / ! ! فالأولى خضوعهم لدولة واحدة والثورة ضد هذه القوة والثانية تعصّب كل من اليهود وأهل حمص لقوميتهم ! ! ! ثم بذكر صلة ثالثة بين بين اليهود وبين قاطني المنطقة الحمصيّة : هي رابطة المصاهرة بين إحدى الأسر الناهضة في حمص ، ولا يسمي تلك الأسرة ، وبين احدى الأسر اليهوديّة / حمص ٢٧٢ وبنقل ذلك عن / المباحث / ٤ / ص / ٢٦٨ .

لقد كتب هذا الكلام في الثلاثينات ، وكانت القضية الفلسطينية قضية العرب القومية واندلعت خلالها الثورات الكبرى في فلسطين ضد اليهود الذين كانوا يقرضون الأراضي الفلسطينية منطقة منطقة ويتدفق مهاجروهم على فلسطين سراً وعلناً ، فهل كتبت تلك الفقرة

التي تشير إلى حسن العلاقات مع اليهود لتخفيف نقمة الشعب العربي ضد اليهودية والصهيونية ؟ ؟ ؟ لقد سمعت عن المرحوم الخوري عيسى أسعد أنّه كان ماسونياً ولم آبه للأمر عندئذ وتكرر ذلك أثناء حديث جرى مع أحد الزملاء في الربيع الماضي في قاعة مدير المركز الثقافي وأكدّ لي المتحدث ذلك وعندما قرأت الفقرة المنوه عنها تأكدت من انتسابه إلى الماسونيّة لان المشّكلة بين المأسونيّة والصهونية لم يعد يجهلها أحد ولعل الذين أشار اليهم في المقدمة بأنهم ساعدوه هم من الماسونين وقدّموا له تلك المعلومات فقبلها بطيبة قلب دون أن ينظر إلى ما كان يفعله اليهود في الثلاثينات في فلسطين . ولا نجد كلمة ضدّهم في الكتاب بل مدحاً لدرجة أنه ذكر : إذا اعتبرنا في تاريخ اليهود مالديهم من الكتب القديمة والآثار الباقية حكمنا بأنه لا توجد أمة من أمم الأرض تملك من تاريخها مثل ما يملك بنو اسرائيل من الأسانيد والأعلام ص / ٢٥٨ / ونحن نكتفي بالرد عليه يقول المستشرق الألماني / زاغا و ED. Sachaue (١)« إنّ العرب كتبوا في التاريخ أكثر مما كتبته أمم الأرض كلها » .

وكم كنت أتمنىّ أن يَخْلو كتابة من تلك الصفحات ، علماً أنها تؤرخ لليهود بثورتهم وتجعل أهل حمص مقلديهم في ذلك ! ! ! ولا تثير شيئاً مهماً من تاريخ حمص ! ! !

ء ـ في الحقبة الثامنة تحت عنوان حمص في أيام التدامرة (٢٣٦ ـ ٢٧٣) يستهلها بقوله« في هذه الحقبة كان لحمص صلة قريبة جداً / بالانباط قاطني تدمر / ورافعي لواءها عالياً » ص ٣٤٤ .

---

(١) محاضرات الدكتور كامل عياد للعام الدراسي / ٩٤٧ – ١٩٤٨ / في كلية الآداب قسم التاريخ .

وهذا خطأ تاريخي محض لأن الانباط كانت دولتهم في جنوب شرقي الأردن الآن وعاصمتهم البتراء ولم يقطنوا / تدمر / قط .

ثم يتكلم عن تاريخ الأنباط في ثماني صفحات لا علاقة لها بحمص من قريب أو بعيد . وفي آخر الصفحة / ٣٥١ / يضع عنواناً : / دولة التدامرة / يتكلم فيه عن العلاقة بين تدمر والأنباط ويتساءل عن أصل سكانهما أعرب هم أم آراميون .

ثم يضع عنواناً . / تدمر / ويقول عنها : « أما تدمر قاعدة أنباط التدامرة ؟ ؟ ؟ ! ؟ فهي مدينة قديمة العهد جداً وورد ذكرها في التوراة (آية ٩ : ١٨ و ٢ أي ٨ : ٤ وذكر ثمة أنّ بانيها سليمان بن داود ؛ وهو يشك بذلك : فيقول ولعلّ المراد بذلك أنه حسّنها وزاد في أبنيتها .

والواقع أنّ سليمان لم يرَ تدمر ولم تطأ قدماه أرضَها قط ، فالدكتور عدنان البني نال شهادة الدكتوراة من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة القديس يوسف بيروت على رسالة (تدمر والتدمريون) وباشراف الأستاذ الدكتور نقولا زيادة . وقد ناقشته بتاريخ ١٧ / آذار ١٩٧٨ لجنة برئاسة الدكتور قسطنطين زريق ، وعضوية الأستاذ الدكتور نقولا زيادة والأستاذ الدكتور ديمتري برامكي والأب الدكتور يوزيه . ونال على تلك الرسالة مرتبة الشرف الأولى وذكر في الصفحة / ٦٨ / عند الكلام عن : تدمر قبيل الفتح الروماني « كانت تدمر مدينة زاهية ويرى جونز « أنّ خطأ مؤلف « أخبار الأيام » بنسبة تأسيسها إلى سليمان يدل على أنها كانت مركزاً هاماً في أيامه أي في القرن الرابع ق.م على الراجح » وهذه إشارة أخرى واضحة وصريحة على أنّ ما جاء من معلومات

تاريخية في العهد القديم يجب أن ينظر إليه بعين الشك لأنّ كتبة الأسفار كتبوها وفق أهوائهم وتصرفوا بالأحداث وفق ما يريدونه .

لو كان هناك شك في ذلك لاعترضته اللجنة ويؤيد ذلك الدكتور أنيس فريحة فيقول « لم يستطع العبرانيون بتثبيت أقدامهم شمالي جبل الشيخ . فان / دان / منطقة الحولة كانت أقصى حدودهم الشمالية ، وحاولوا ، زمن النبي / داود / إخضاع « آرام دمشق » فلم يفلحوا(١) » وهذا يعني أن سليمان لم يصل تدمر ولم يرها انّ حمص كانت موجودة في عهد السلوقيين ، وخير دليل على ذلك الكتابات اليونانية المنقوشة على حجر الوعر الأزرق المعروف باسم / البازالت / والّتي لا تزال منه قطع موجودة في بعض المباني القديمة منها على سبيل المثال القطعة الّتي تعلو باب جامع أبي لبّادة في حي السباعي .

ويتضح تاريخ حمص في عهد أسرة سمسيغرام في القرن الأول قبل الميلاد ثم يزداد وضوحاً شيئاً فشيئاً بعد الفتح الروماني ، / ٦٤ / ق.م لا سيّما في عهد سفيروس الذي تزوج جوليا دومنه بنت كاهن حمص ثم أصبح أمبراطوراً . وخلّف عدداً من الأباطرة في هذا الاستعراض لا ترى أثراً لحمص في العصور القديمة فمن أين جاء اسمها ومتى نشأت في رأينا أنّ الذين بنوها اسموها / حمص / مباشرة ، وهناك في لبنان قرية تابعة لقضاء عاليه اسمها / حمص Hums / ويفسرّ الدكتور أنيس فريحة معناها أنها تعني في جملة معانيها الخجل / وبما من اللون الأحمر (١) /

(١) أنيس فريحة أسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها : المقدمة : حاشية الصفحة / ٤٩ / (×) (×) بيروت ١٩٥٦

(١) انيس فريحة : اسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانوها بيروت ٩٥٦ ص / ١١٣ /

ونحن نعلم أن تربة حمص الزراعية حمراء تختلف عن التربة الزراعية في حماه وأنّ جذر الكلمة كنعاني . أو فينيقي ولعلّ الذين بنوها أطلقوا عليها هذا الاسم بسبب لون تربتها الزراعية . كما فعل الآراميون عندما أطلقوا كلمة / صوبا / على مملكتهم وعاصمتها في البقاع ، كما مرّ بنا ذلك سابقاً . ولا تدري من بنيت قبل الأخرى .

وفي رأينا أن هذا الغموض الذي يلفّ حمص وتاريخها في العصور القديمة مصدر الكوارث البشرية والطبيعية ، فالأخيرة هي الزلازل التي هدمت المدينة عدة مرات وأشهرها الزلزال الذي وقع سنة ٥٢٢ هـ . في عهد نور الدين زنكي ، ثم الكوارث البشرية فهي تلك الغارات التي كانت تشنّ عليها من الروم البيزنطيين كغزوة الأمبراطور نقفوروفوكاس (٩٦٨ م) ثم غزوة / باسيل / ٩٩٠ م . « ثالثة الأثافي كانت عندما غزاها دوق انطاكية سنة / ٩٩٩ / م . فنازلوها ولجأ بعض أهلها إلى كنيسة / مار قسطنطين / تحرّماً بها فأحرقوها بمن فيها ، فهذا الخراب والحرق اللذان كررهما الروم ثلاث مرات مترادفات أجهز على عمران حمص القديم بالكليّة وحرماها المعابد العظيمة والقصور الضخمة والآثار القيمة التي كانت تزدان بها في عهد الرومانيين والأمويين » حتى وصفها شيخ الربوة شمس الدين الدمشقي في القرن العاشر الهجري أو الرابع عشر الميلادي بأنها / مدينة فوق مدينة / إشارة إلى تكرار عمران حمص بعد كل خراب كان يعتريها ، فالجفّال الراجعون بعد الحروب والزلازل كانوا لضعفهم ولاسراعهم بتدبير المأوى لأنفسهم . لا يستطيعون رفع الأنقاض فيبنون فوقها(٢) .

---

(٢) جولة أثرية أحمد وصفي زكريا ص / ٣٣٤ /

وهكذا ترى أن حمص تحوي تاريخها في أحشائها،وطبعاً لا يمكن هدم المدينة لمعرفة تاريخها ولكن يمكن أن ننتظر عملين قد يغيران شيئاً من غموض تاريخها الأول أن تقوم المديرية العامة للآثار باجراء سَبرٍ طبقيٍ لتل القلعة لعل ما قد يوجد فيه من لقى يساعد على تحديد عمره وبالتالي عمر المدينة .

وأما الثاني نشر الرقم التي وجدت في / ابيلا /فلعل بها إشارة إلى مدينتنا المحبوبة . ووالله ما سرت في احيائها القديمة إلاّ تذكرت . قول أبي العلا المعرّي :

خفف الوطء مـــــا أظنُّ أديم الأر
ض إلاّ مـــــن هذه الأجســـاد

وعلى كل حال فانّ الكتاب ، على علاته ، يعدّ مبادرة شجاعة لاثارة تاريخ حمص حسب المعلومات التي وفرّها له أصدقاؤه وتلامذته ، وفيه زاد ثقافي يتعلق باسماء الشعراء والكتاب والعلماء والفلاسفة القدماء مع لمحة عن حياتهم وذكر لمؤلفاتهم ، ولعله أيضاً يكون حافزاً للجيل الجديد على إعادة كتابة تاريخ حمص وعلى ضوء ما يستجد من مكتشفات أثرية وأبحاث تاريخية ويبقى للمرحوم الخوري عيسى أسعد الفضل لأن الفضل للمتقدّم والسلام عليكم .

حمص في ٢٧/١١/ ١٩٨٤

محمود عمر السباعي

حمص :
واسهامها الفني والجمالي في العصر الهلنستي والروماني

بشير زهدي

تحدث الجميع عن (حمص) وأهميتها كمدينة قديمة ذات حضارة وتاريخ عريق يعتبر جزءاً من تاريخ قطرنا ووطننا العربي الكبير .

وإذا كان المؤرخون لم يتفقوا علمياً على حقيقة اسم مؤسسها . فإن الباحثين يؤكدون أهمية موقع حمص (في مفترق طرق المواصلات العالمية وخصب تربتها ، ونشاط سكانها . كل ذلك مما أسهم في تأسيس مدينة (حمص) الجميلة في هذا الموقع الجغرافي الهام الذي تعاقبت فيه عدة مدن قديمة في حمل شعلة الحضارة الإنسانية مثل : —

— قادش / تل النبي مندو ، ذات الموقع الحربي الحصين . . .

— قطنة : Katna / مشرفة ، ذات الأهمية التاريخية والأثرية . . .

— ماريامون / مريمين ، التي تدل آثارها ولا سيما لوحة فسيفساء فرقة موسيقية على أهميتها التاريخية والحضارية اعتقد أن اسم (حمص) أحدث عهداً من تاريخ أنشائها وتأسيسها وقد ظهرت في العصر الهلنستي

أهدي هذا البحث العلمي المتواضع إلى مدينة حمص العربية الجميلة وسكانها الكرام مع فائق الاحترام

وازدهرت كثيراً في العصر الروماني . وقامت بدورها العربي الكبير في عهود الغساسنة والبيزنطيين والعرب المسلمين وعصرنا الحاضر .

وكان كثير من قدماء المؤرخين والمفكرين قد تحدثوا عن حمص وأهميتها الحضارية مثل : -

- آميان مارسيلان Ammie - Marcelli : الذي أكد بأن حمص تعود إلى قرون سابقة .

- بوزيد ونيوس : الذي تحدث عن حمص كامارة .

ان الأراضي الواسعة الممتدة من حوض العاصي حتى حوض الفرات والمعروفة باسم (بارابوتاميا) (Phrapota Mia) كانت في كل العصور بمثابة أراضي مملكة عربية واسعة مستقلة يقيم فيها العرب ويمارسون فيها سيادتهم وفعالياتهم الاقتصادية ونشاطاتهم الثقافية .

وان أهمية موقع (حمص) جذبت قدماء العرب اليه . فأقاموا فيه خيامهم التي استعاضوا عنها فيما بعد تدريجيا بمساكن حققت لهم حياة الاستقرار باستمرار . فتمتع هذا الموقع الهام الجميل بالأعمار واستمرار الازدهار والجدير بالذكر أن قدماء عرب المنطقة كانوا قد اتخذوا موقع (الرستن (كحصن منيع لهم . . . وكان عدد عرب المنطقة وتزايد قوتهم ونفوذهم وفعالياتهم ونشاطاتهم مما جعلها ذوي السلطة الحقيقية فيها . حتى ان الملوك السلوقيين في العصر الهلنستي كانوا يستعينون بهم ويعتمدون عليهم في تحقيق انتصاراتهم على خصومهم وتجدر الاشارة بهذه المناسبة إلى الملك السلوقي (اسكندر بالا ١٥٧ – ١٥١ ق.م) وحذره من نتائج عنف خصمه (ديمتريوس نيكاتور ١٢٩ – ١٢٥) مما جعل اسكندر يعهد بابنه انطيوخس إلى أحد رؤساء قبائل حمص المعروف

باسم (جامبليق / ياملك) وكان هذا الشيخ العربي الوقور الأصيل يقيم مع قبيلته قرب (أفاميا) فخص الفتى الأمير السلوقي بكل رعاية . وقد صدق حدس (اسكندريالا) اذ انتصر خصمه (ديمتريوس نيكاتور) في عصر انحطاط وتمزق ويأس ومعاناة . فطالب (ديود وتوس) (Diopotos) الأفامي الشيخ العربي بالفتى (انطيوخس) لمساعدته لاستعادة عرش ابائه فوافق الشيخ العربي ولكن (ديمتريوس نيكاتور) تمكن من القضاء على (اسكندربالا) عام ١٤٣ ق.م . والانتصار على (ديود وتوس الأفامي) . . . الخ كل ذلك مما يوضح أهمية نفوذ العرب وقوتهم في هذه المنطقة في العصر الهلنستي .

ويذكر المؤرخون أيضا أن آخر الملوك السلوقيين (انطيوخس الثالث عشر) كان قد أرسل من قبل أمه (كليو باترا سيلينه C . Sélé Né) إلى روما مما جعله ذا صلة بالرومان حتى ان (شيشرون) دعاه بلقب (صديق وحليف الشعب الروماني) . ولكن ذلك كله لم يجنبه من صعوبات أثارها ضده (فيريس Ve Rrés) وعندما أصبح (لوكولوس) سيد آسيا الصغرى عام ٧٠ ق.م وتمكن من طرد (تيجران الأرمني) انطاكية وعد (انطيوخس) عام ٦٩ ق.م بتاج آبائه السلوقيين ولكن هذا الأمير السلوقي (انطيوخس) لم يتمكن فعلا من اعتلاء العرش السلوقي باسم (انطيوخس الثالث عشر) إلا بدعم العرب وتأييدهم ولا سيما بمساعدة أمير حمص (شمسيجرام) من السلالة العربية الحاكمة في حمص .

والجدير بالذكر أن أبناء حمص تميزوا بالوطنية والشجاعة ويذكر التاريخ عنهم قصص حوادث بطولية هامة كقصة شجاعة الشاب

الحمصي (ليبتين libtine) الذي قلق من خطر تزايد نفوذ الرومان في القرن الثاني الميلادي بعدما كانوا قد قضوا نهائياً على مملكة قرطاجة العربية الفونيقية وقد أخذوا يزعمون مزاعم مختلفة ويحرقون السفن ويقضون على الفيلة التي كانت من عناصر قوة الجيش السوري في العصر الهلنستي . . . فأثارت تصرفاتهم استياء الجميع مما جعل الشاب الحمصي (ليبتين) يهجم على رئيس الوفد الروماني (أوكتاف) ويصرعه بصفعة شديدة ذهبت بحياته . . . وقد استطاع هذا الشاب الحمصي الجريء أن يختفي بين المحتشدين فاستاء الرومان من هذا الحادث واتهموا وقتئذ خصمهم (ليسياس) بما حدث .

سلالة شميسجرام العربية الحاكمة في حمص : —

ان اسم (شميسجرام) في نصوص من العصر الهلنستي والروماني يدعونا إلى دراسته فهو مؤلف من (شمس + جرم) وربما كان يفيد (الحاكم باسم رب الشمس) .

كان (شمسيجرام) من زعماء القبائل العربية في المنطقة وربما كانت قدراته الذاتية وصفاته الأخلاقية من أسباب شهرته كأكبر زعيم عربي في المنطقة استطاع أن يفرض احترامه على الجميع ويجعل الملوك السلوقيين أنفسهم في العصر الهلنستي يتقربون منه ويستعينون به ويعتمدون عليه مما أسهم جدياً في تأسيس سلالة عربية حاكمة في حمص في بداية القرن الأول قبل الميلاد حتى نهاية القرن الأول الميلادي في عهد الأمبراطور (دويسيان ٥١ — ٩٦ م (.

وبحسب تقاليد ذلك العصر كان (شمسيجرام) كبير سدنة (معبد الشمس) في حمص يتمتع بسلطة روحية ومدنية . وقد تحدث عنه عدة

مؤرخين في عدة مناسبات ، واهتم بدراسة آثار سلالته العربية الحاكمة في حمص عدة علماء اثريين ورحالة وجغرافيين مثل : —

— المؤرخ والجغرافي (سترابون ٥٨ ق.م — ٢٥ م) الذي ذكر اسم (شمسيجرام) في حديثه عن حصار (أفاميا) وان القائد فيها استنجد بالزعماء المحليين ولا سيما (شمسيجرام ومن بعده) جامبليق بن شمسيجرام في الرستن) .

— في العالم الآثاري (واد نجتون) الذي قرأ كتابة منقوشة والمتعلقة بـ(سيلا Sylla) الذي اقتحم مدينة (ليسيا) المجاورة لمدينة (أفاميا (. . .

وفي الواقع كان (شمسيجرام) أميراً عربيا وزعيما كبيراً ، حكم حمص وقلعة الرستن وان قوته الحربية أتاحت له امكان قمع الفتن الداخلية في العاصمة السلوقية (انطاكية) في عهد ملكها السلوقي (انطيوخس الآسيوي الذي طلب منه النجدة والمعونة . . .

وبعدما قضى الرومان نهائيا على الحكم السلوقي في سورية عام ٦٤ ق.م أدركوا أهمية قوة العرب في المنطقة أو امكانات (شمسيجرام) وحاجتهم إلى الهدوء في هذه المنطقة . . . كل ذلك جعلهم يتقربون من هذا الأمير العربي ويعترفون بسيادته على هذه المنطقة العربية الواسعة وبلغ الأمر بسكان روما درجة جعلتهم يلقبون هذا الأمير العربي الشجاع بلقب (صديق الرومان) .

كان (شمسيجرام الأول) معاصر للخطيب الروماني المشهور (شيشرون ١٠٧ — ٣٣ ق.م) الذي ذكره في احدى رسائله ، وشبه القائد الروماني (بومبه) به وذلك على سبيل التشبيه الأدبي .

وبعد وفاة شمسيجرام الأول استلم الحكم ابنه (جامبليق) الذي تطلبت ظروف عصره انضمامه إلى (ماركوس انطونينوس في نزاعه ضد خصمه (اوكتافيوس) ويبدو أن ماركوس انطونينوس (خشي جانب (جامبليق) مما دفعه إلى القضاء عليه والتخلص منه عام ٣١ ق.م .

تولى حكم حمص (اسكندر بن شمسيجرام الأول) الذي كان موضع ثقة (ماركوس انطونينوس) حتى أنه اوفده بمهمة مقابلة (هيرود ٣٩ ق.م – ٤ ق.م) وعمل كل ما من شأنه أبعاده عن تأييد خصمه اوكتافيوس ولكن النزاع بين (انطونينوس) و (اوكتافيوس) انتهى بانتصار (اوكتافيوس) في معركة (اكتيوم) عام (٣١ ق.م) مما أثار قلق (اسكندر) الذي قضى عليه بنفيه إلى روما واغتياله فيها .

ظلت حمص بدون حاكم وطني محلي يرعى شؤونها ويتولى أمور ابنائها حتى عهد (تيبريوس ١٤ – ٣٧ م) فأصبح (جامبليق الثاني) ابن (جامبليق الأول) حاكم حمص عام ٢٠ م ، ووجد بذكائه ودهائه ضرورة اتخاذ موقف جديد مناسب مما اسهم في جعل مملكته تنعم بالازدهار والاستقرار في عهده الذي اعتبر بمثابة العصر الذهبي مملكة حمص .

ثم تولى الحكم (شمسيجرام الثاني) الذي تصفه كتابات أثرية عثر عليها بصفات الملك العظيم والمجيد C . Jvlivsregis S ambigeamc . Gavro ويبدو ان الظروف المختلفة تطلبت منه القيام بعدة لقاءات مع الحكام والملوك المعاصرين مثل (آجريبا) في طبرية وغيرها . . . وقد تم زواج ابنته (يوتاب) من ارسطو بولس

(ثالث أخوة هيرود وآجريبا) وينسب إلى (شمسيجرام الثاني) فضل تشييد قصر تاريخي في ضاحية حمص الغربية اشتهر موقعه فيما بعد باسم (الصومعة) وكان ما تبقى منه عبارة عن برج ارتفاعه نحو ١٥ م مؤلف من ثلاث طبقات ولكنها تهدمت وبقيت منها الزاوية الغربية الشمالية وعليها كتابة يونانية تفيد اسم (كايوس ابوليوس فاريا شمسيجرا موس) أضف إلى ذلك النقوش الهندسية الجميلة والحجارة الملونة المستخدمة في عمارة هذا المبنى . . . وقد ظل هذا المبنى قائما زمن الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ وتحدث عنه الرحالة وقتئذ ولكن الإهمال أدى إلى انهياره فشيد مكانه مبنى توزيع البترول .

وعندما تولى الحكم (عزيز بن شمسيجرام الثاني) تطلبت ظروف عصره التقارب مع (آجريبا الأول) الذي زف ابنته (دروسيلا ، Drusilla) إليه ، ولكن هذه المرأة الحسناء مالت إلى الوالي الروماني (فيليكس Felix) الذي كان من طباعه ممارسة الأغواء . . . الخ وهناك من يعتقد بأن (عزيز) هو الذي طلّق (دروسيلا) ليتحرر من ضغطها عليه لتبنّي ديانتها ، وعندما توفي (عزيز) دفن في ضاحية حمص في قبر يشبه الهرم خارج باب المدينة الشمالي .

فتولى الحكم (سهيم بن شمسيجرام الثاني) الذي عاصر الامبراطور (نيرون ٣٧ — ٦٨ م) و (فيسبازيان ٦٩ — ٧٩) م واشترك مع الرومان في حملتهم الحربية إلى القدس . وهناك كتابة أثرية في بعلبك تشير إلى الملك الكبير جايوس يوليوس سهيم بن الملك الكبير شمسيجرام محب القيصر ومحب الرومان)

وكانت سياسة روما تهدف دائما إلى ضم الممالك المحلية العديدة إلى الأمبراطورية الرومانية وإذا كان الرومان نفذوا سياسة ضم الممالك

إلى امبراطوريتهم ولا سيما قضاء (كورنيليوس بالما) على مملكة العرب الأنباط عام ١٠٥ / ١٠٦ م فان مملكة حمص استطاعت أن تحافظ على سيادتها واستقلالها بفضل ذكاء ودهاء ملوكها وأتباعهم سياسة ترضي الرومان وتجمد مشروع ضم مملكة حمص إلى امبراطوريتهم الرومانية المتزايدة القوة والنفوذ في العالم القديم وعندما تولى الأمبراطور (دوميسيان ٥١ – ٩٦ م (الحكم وتمسك بفكرة ضم الممالك والإمارات المختلفة إلى الأمبراطورية الرومانية مما يفسر أسباب القضاء نهائيا على سلالة (شمسيجرام (العربية الحاكمة في حمص في نهاية القرن الأول الميلادي .

– حمص مدينة أباطرة روما : –

اشتهرت حمص بمعبد (الشمس) الضخم والجميل وحجره الأسود المقدس لدى الجميع في ذلك العصر وقد زينت بصورته نقود حمص المختلفة التي حفظتها كوثيقة تاريخية وفنية معمارية ، وكان سدنة هذا المعبد الكبير لهم مكانتهم الإجتماعية والثقافية والاقتصادية بل والسياسية وقد اشتهرت أسرة (باسيانيوس) بخدمتها لمعبد الشمس الكبير في حمص .

وأنجبت حمص فتيات جميلات مثل (جوليا دومنا) ابنة ، (باسيانوس) كبير سدنة معبد الشمس الضخم في حمص والجدير بالذكر أن العرّافين تنبأوا لها بمستقبل مشرف وزواج سعيد ورأوا أن هذه الطفلة ذات نجم عال وحظ حسن وسعيد وسيقترن بها يوما ما رجل يتسنم العرش الأمبراطوري نفسه . . .

ومرت سنوات فوصل إلى سورية القائد الليبي الأصل (سيبتيم سيفير ١٩٣ – ٢١١ م) فتعرف على أسرة (باسيانوس) وابنته الجميلة

(جوليا دومنا) التي كانت لغتها العربية الآرامية لا تختلف عن لغته العربية البونيقية ، ولكن كان هناك فارق في السن نحو عشرين سنة ... ومع ذلك فقد تحولت هذه العلاقة من صداقة إلى مصاهرة .

كانت (جوليا دومنا) تتمتع بالجمال واللطف والذكاء والدهاء والتفاؤل والطموح . . . وقفت إلى جانب زوجها في مختلف المناسبات والأزمات وشجعته أن يعتلي عرش روما في فترة انحطاط وتمزق مات فيها الامبراطور (كومود ١٦١ — ١٩٢ م) وخلفه (برتيناكس ١٢٦ — ١٩٣ م) والي سورية الذي قتله جنوده في ٢٨ آذار ١٩٣ م كما قتل (ديدوس جوليا نوس) عام ١٩٣ .

كان القائد (سيبتيم سيفير) قائد جيش الدانوب ويتمتع بقدرات كبيرة وصفات أخلاقية رشحته لأعظم المناصب وقد دخل روما بموكب فخم وأعلن فيها امبراطورا فأسس عهدُه سلالة الأباطرة السيفيريين السوريين .

فتمتعت حمص وغيرها من مدن سورية بامتيازات كاعفائها من الضرائب . . . الخ وكان الأمبراطور (سيبتيم سيفير) يدرك أهمية الجيش والاعتماد عليه وله أقوال حكيمة في ذلك غدت كأمثال للأجيال وأحاطت (جوليا دومنا) نفسها بنخبة من المثقفين من فلاسفة وأدباء وأطباء وفقهاء . . . اعتمدت عليهم وأفادت منهم ، وبعد وفاة زوجها شب نزاع عائلي بين ولديها (كارا كالا ١٩٨ — ٢١٧ م) و (وجيتا ٢٠٩ — ٢١٢ م) وكان لمقتل ابنها (جيتا (عام ٢١٢ م أثره الأليم في نفس أمه (جوليا دومنا) فحاول ابنها (كارا كلا) أن ينسيها مأساتها فجعلها ذات نفوذ كبير في الدولة ، ولكن الأقدار فاجأتها من جديد

بمأساة أخرى عندما تمكن (مقرينوس ٢١٧ - ٢١٨ م) من القضاء على ابنها (كاراكالا) عام ٢١٧ م مما جعل حزنها الكبير يدفعها إلى الانعزال عن المجتمع والموت حزينة لما أصابها .

وكانت شقيقتها (جوليا مايزا) قد ولدت في حمص ونشأت طموحة وبعدها تزوجت أنجبت فتاتين غدت كل منهما بعد زواجها أم امبراطور وهكذا :

أنجبت (جوليا ساميابنت جوليا مايزا) الأمبراطور هليو جبال (أو ايلا جبال) عام ٢٠٤ م .

وأنجبت جوليا ماميا بنت جوليا مايزا (الأمبراطور الكسندر سيفر .

كان (ايلا جبال ٢١٨ - ٢٢٢ م) كبير سدنة (معبد الشمس) في حمص وكان جمال ملامح ايلا جبال يثير الارتياح والتفاؤل لدى الجنود الذين اعتبروا الوجه مرآة الروح فنادوا به امبراطورا وعمره لا يتجاوز الرابعة عشرة . ويحدثنا الأستاذ (هومو) في كتابه عن الامبراطورية الرومانية ووصف حفلة استقبال شيوح روما للامبراطور السوري الشاب (ايلا جبال) وتبادلهم النظرات الماكرة المعبرة عن ارائهم فيما حل بهم وبامبراطوريتهم وآلهتهم في عصر لم يعد لأرباب روما شأن أمام أهمية (رب الشمس في حمص) واستقبالهم كبير سدنة . هذا الرب مصطحبا معه الحجر الأسود المقدس المنقول من حمص .

كان الصراع مستمرا وقد حاول (مقريتوس) قتال الامبراطور (ايلا جبال (ولكن محاولته فشلت وانتهت باغتياله والتخلص منه عام ٢١٨ ولكن فلسفة (ايلا جبال) كانت تختلف كثيراً عن فلسفة (شيوخ روما) مما يوضح مواقفهم منه .

وقد أحسن الامبراطور (ايلا جبال) في منح ابن خالته (الكسندر سيفير) لقب قيصر واختياره خليفة له في الحكم ، وان مواقف شيوخ روما من (ايلا جبال) مما شجع الحراس البرتيوريين على اغتياله عام ٢٢٢ م فانتخب (الكسندر سيفير) امبراطورا .

كانت جوليا ماميا قد اهتمت بحسن تربية ابنها (الكسندر سيفير) واعداده لمعركة الحياة وقد مارست الوصاية عليه ، وعندما اعتلى عرش الامبراطورية الرومانية اتخذت الاجراءات الحكيمة التي جعلته في رأي المؤرخين خير أباطرة السيفيريين السوريين ويعود اليه فضل رعاية المسيحيين للمرة الأولى في تاريخ الامبراطورية الرومانية وكانت أمه تحيط نفسها بنخبة من المفكرين والعقلاء المستشارين .

ـ حمص واسهامها الثقافي : ـ

ان أهمية حمص وذكاء ابنائها وميلهم إلى الثقافة في العصر الهلنستي والروماني جعل حمص عصرئذ من أهم مراكز الاشعاع الثقافي في العالم القديم نبغ منها الفلاسفة والروحانيون والمؤرخون والجغرافيون والأطباء والأدباء والفقهاء والمشرعون والعسكريون والفنانون وغيرهم

ـ الفكر الروحاني في حمص : ـ

تدل الآثار المكتشفة على آلهة آمن بها الإنسان القديم في حمص وابتهل إليها وتقرب منها بالقرابين وشيد لها المعابد ونظم لها الطقوس والعبادات الجامعة لمختلف فنون الشعر والنثر والموسيقى والغناء ومن أشهر تلك الآلهة الرب ايل رب الكون وقد عرف كثير من أبناء حمص عصرئذ باسم يتضمن اسم الرب ايل مثل (ايلا جبال) .

ـ الرب شمس : رب الشمس والنور والضياء والدفء وقوة الانبات في الكون انه شعلة ربانية توضح الحق الواضح المنير المتميز عن الباطل المظلم القبيح ، ورب الشمس طاقة لا تنفد وقوة عظيمة لا يستهان بها وجمال رائع وخالد وفاتن ، وان أهمية عبادة الشمس عصرئذ توضح عادة تحيتها عند شروقها ، وتفنن النحاتون في تمثيل رب الشمس بصورة نسر كبير وقوى وضخم يبدو باسطا جناحيه على الكون والكائنات ، واشتهر عدد من أبناء حمص القدماء بأسماء تتضمن اسم الشمس مثل (شمسيجرام) .

ـ سيميوس Simios / كانت تشكل مع (ايل) و (وشمش) ثالوث آلهة حمص وهناك الرب (عزيز) رب القوة ويبدو بملابس مقاتلين كالتدمريين و اشتهر عدد من أبناء حمص القدماء بأسماء تتضمن اسم (عزيز) وهناك أيضاً آلهة أخرى مثل (منعم) و (سلمان) الذي كان رب الخير والاحسان وكان لنجم الصبح والمساء أثرهما الكبير في معتقدات القدماء من سكان حمص والمجتمع العربي القديم أضف إلى ذلك الربة العربية (اللات) التي انتشرت عبادتها في العصر الهلنستي والروماني ، ووحدتها تلك الأجيال مع آلهات متشابهات مثل (اثينا (و (آثار جاتيس) و (نيميسيس) وظهرت أسماء كثيرين تتضمن اسم الربة اللات مثل (وهب اللات) و (تيم اللات Tirradlanos) وهناك ربة الحظ والسعادة (تيكة) . . .

والجدير بالذكر أن النصوص العديدة المكتشفة في مختلف أقطار العام القديم التي وجد فيها سوريون وتركوا لهم فيها تلك النصوص في بانونيا في المجر وألمانيا وشمال انكلترا وفي فرنسا وفي نوميديا على الحدود

التونسية الجزائرية ... . تدل على مدى تمسك أولئك السوريين بتقاليدهم المحلية وآلهتهم التي نظموا أشعار مديح لها .

وتجدر الاشارة إلى أثر اتصال الشعوب بعضها ببعض وما نتج عنه من تفاعل حضاري وثقافي وفني ، وقد تمسك أبناء حمص كبقية مواطنيهم بلغتهم العربية الآرامية في أحاديثهم ومراسلاتهم وتعلموا اليونانية التي ساعدتهم على الاطلاع على الفكر الاغريقي كما تعلموا اللاتينية التي كان يعتمد عليها في الدواوين الرومانية كل ذلك مما يوضح اسهام أبناء حمص في مختلف ميادين الثقافة في العصر الهلنستي والروماني وكان من أشهر أعلامها : الفيلسوف الجمالي لونجينوس الحمصي الذي ولد في حمص عام ٢١٣ م في بيئة أحسنت تربيته و زادت معرفته بفضل أساتذة مشهورين مثل (آمونيوس ساكاس) من المدرسة الافلاطونية الحديثة و (اوريجين) .

وبعدما تمثل (لونجينوس) الثقافة التي تلقاها غدا زعيم مدرسة ثقافية وكان من تلاميذه الفيلسوف (بورفير) وقد اشتهر بمحاضراته القيمة التي ألقاها في (اثينا) و (سورية) وان سعة اطلاعه وإنسانية ثقافته جعلا ملكة تدمر (زنوبيا) تختاره كرئيس وزرائها وكبير مستشاريها فكان فعلا خير وزير حكيم ومستشار خبير وقف إلى جانبها في صمودها ضد الرومان الذين بعدما قضوا على حكم زنوبيا اتهموه بمساعدتها في حروبها ضدهم وحكموا عليه بالموت فاستقبل (لونجينوس) الموت بشجاعة الإنسان العظيم المتمسك بمثله العليا الإنسانية ومن مؤلفاته : —

— في الحكم الصالح : Sv Irlesovverainbien

— في الخطابة : Traité De Rmetoro Qve

واشتهر لونجنيوس الحمصي كناقد أدبي وفني ومفكر جمالي ينسب إليه بعضهم كتاب (في السمو Traité Ae Su Blime) الذي تأثر به الأديب الفرنسي الكبير (بوالو Boileo) فترجمه إلى اللغة الفرنسية ومن أقوال (لونجينوس الحمصي) الجمالية / في الأعمال الفنية تراعي التناسب وفي الطبيعة نلاحظ العظمة . . . وذكر الأستاذ ميشيليس P . A Michelis / في كتابه (استطيقا الفن البيزنطي) ان (لونجينوس الحمصي) رأى في الجليل صدى روح سامية وازدادت أهمية مفهومه عن (الجليل) في العصر المسيحي وقد تفوق هذا المفهوم على مفهوم (الجمال) الكلاسيكي . . . وفي الواقع نجد صدى هذا المفهوم في فنون القرن الرابع وما بعده ، واعتماد الفنان على معيار (الجلال) بعلما كان يعتمد على معيار (الجمال) في تذوق العمل الفني وتقويمه .

وهناك الطبيب (آرفجيننس الحمصي) الذي اشتهر بتخصصه بالأمراض العقلية وممارسته مهنة الطب في روما التي هاجر اليها وأقام فيها وقد ذكره الشاعر الهجاء اللاتيني (جوفنال ٦٥ – ١٢٨ م) ومن أشهر مؤلفات (آرخيجينيس) كتاب في (النبض) شرحه الطبيب المشهور فيما بعد (جالينوس) .

وهناك اللغوي الحمصي (تيرانيو) الذي أفاد منه (استرابون ٥٨ ق.م) – ٢٥ م والمشرع الفقيه (بابينيان) الذي أدى موقفه الشريف من قتل (جيتا) في عهد (كاراكالا) واستنكاره ذلك إلى موته ولكن اجتهاداته الفقهية توارثتها أجيال الحقوقيين وأسهمت في شهرته .

وإذا كنا لم نعرف أسماء أعلام فنون العمارة والنحت والحفر والفيسيفساء والرسم والخط وعمل الفخار والخزف والزجاج والعاج والعظم والحلي الذهبية . . . فان روائعهم الفنية تدل على مهارتهم اليدوية وخبرتهم المهنية وثقافتهم الجمالية والفنية ومتطلبات مجتمعهم من المصنوعات الجميلة التي تلبي رغبتهم في رؤية الجمال وابداعه والتعبير عنه .

وفي الواقع تعتبر الحلي الذهبية المكتشفة في (تل أبو صابون) من أجمل ما أبدعه فن الصياغة في نهاية العصر الهلنستي وبداية العصر الروماني، وتضم هذه الحلي الذهبية خواتم وأساور ووريقات ذهبية مختلفة أضف اليها الخوذة الفضية والحديدية المشهورة .

وتتميز الخواتم المكتشفة بتنوعها فهناك خاتم ذهبي مرصع بفص عقيق نقش عليه مشهد رب الفنون والموسيقى (آبولون) بأسلوب يبدو فيه آبولون ينظر إلى اليمين إذا وقفنا في جهة اليمين ويبدو ينظر إلى جهة اليسار إذا وقفنا في جهة اليسار وهناك خاتم زين أعلاه بصورة نافرة جانبية تمثل رأس امبراطور أو حاكم محلي وتعتبر الأساور المكتشفة ذات أهمية فنية وقيمة جمالية فهناك سوار مؤلف من قطع لكل منها شكل (S) ومرصعة بأحجار الزمرد التي كان القدماء يعتقدون بأنها تجعل الإنسان ينعم بأحلام سعيدة .

وهناك سوار ابدعه ذلك الفنان الصائغ بطريقة تقنية كسر الجفت وزينة بأحجار السيلاني وتتميز الوريقات الذهبية المكتشفة بتنوع أشكالها (مستديرة . مستطيلة (ومواضيعها) رأس ميدوز . ربة نصر جنائزية ترفع بيدها اكليلا ، آبولون يمسك آلته الموسيقية . . . وهناك عصبات

ذهبية مضغوطة تمثل غصنا نباتيا . . . كل ذلك يفسر أهمية فن الصياغة في حمص وبقية مدن قطرنا في العصر الهلنستي والروماني ويوضح أهمية اعتقادات القدماء بأن الذهب معدن الآلهة لأن المعدن الوحيد الذي لا تؤثر فيه العوامل المختلفة . . . وإن منْ يتجمل به ينعم بما يحلم به من سعادة وخلود . . . الخ . . .

كما اشتهرت حمص بجمال عمارتها الدينية والمدنية والعسكرية والجنائزية وتدل صورة (معبد الشمس) على نقود حمص على جمال ذلك المبنى الديني بأعمدته الأمامية (الستة التي يعلوها) فريز فوقه جبهة مثلثة مزينة بصورة هلال ؛ ويرتفع مبنى هذا المعبد عما حوله ببضع . درجات . . . ويبدو أن جمالية معبد حمص لا تقل أهمية عن جمالية معبد بعلبك وتدمر .

وهناك ملعب حمص كانت تقام فيه المباريات في مختلف المناسبات والجدير بالذكر أن ملك تدمر (اذينة) حقق انتصاراته مع ابنه ثم حضر معه حفلة مباريات في ملعب حمص الذي اغتاله فيه ابن أخيه عام ٢٦٧ م وتذكر النصوص التاريخية أهمية القصر الملكي الذي شيده (شمسيجرام الثاني) في ضاحية حمص الغربية ومدى ازدهار اقتصاد حمص لوقوعها على طريق الحرير العالمية مما أتاح لابناء حمص امكانات مادية ساعدتهم على تشييد أجمل القصور والدور التي تدل على أهمية العمارة المدينة وخبرات المهندسين المعماريين في حمص عصرئذ .

وان قلعة حمص وأسوار المدينة مما يدل على أهمية فن العمارة العسكرية في حمص ومدى اهتمام اولئك المهندسين بتشييد القلعة المنيعة

والأسوار ذات الأبواب الجميلة والمؤدية إلى الطرق الرئيسية الخارجية التي أعطت اسماءها إلى أبواب المدينة كباب تدمر وغيره . . .

وان اهتمام القدماء بدفن الموتى في مدافن مناسبة أدّى إلى ظهور فن العمارة الجنائزية في مجتمع يعتبر (الموت بمثابة حياة جديدة في عالم ما بعد الحياة) ويحرص على تشييد المدفن كمقرّ أبدي تحفظ فيه مع الموتى ممتلكاته كالتي اكتشفت في (تل أبو صابون) وقد تحدث بعض الرحالة عما يسمى بتربة (شمسيجرام) وقد صور كل من كوهل Kohl) و (واد نجتون) هذه التربة التي بدت لها بمثابة زيقورة .

وقد قرأ (واد نجتون) الكتابة المنقوشة على المبنى (كايوس جوليوس شمسيجرام) من قبيلة قابيا المعروف بسيلاس . . . شيد في حياته هذا القبر له ولأولاده عام ٣٩٠ / ٧٨ – ٧٩ / م وهناك مدافن أخرى تحت الأرض على عمق ١٠ – ١٢ م في حي الحميدية في حمص خارج السور نقب فيها بعض اليسوعيين وأخص بالذكر منهم (لامانس La Mmens) وجدت فيها أنصاب بازلتية كبيرة .

واستخدم الفنان الحمصي في العصر الهلنستي والروماني في مختلف المواد المتوفرة في بيئته (غضار . حجر . برونز ، عظم ، عاج) في ابداع روائعه النحتية .

وان التماثيل الفخارية الصغيرة المكتشفة في حمص تؤكد أهمية الإرادة الفنية القادرة على جعل التراب العادي يصبح عملا فنيا يثير الإعجاب والغبطة ولا شك أن تمثال (كورة) الخزفي المموه بالمينا يعتبر من روائع فن النحت الخزفي في القرن الأول الميلادي يتميز بجمال

التكوين الفني وأهمية موضوعه الميثولوجي وقوة التعبير في ملامح الوجه الإنسانية .

والجدير بالذكر أن هناك كتابات يونانية في أسفل هذا التمثال النصفي الخزفي الرائع .

كما أن تمثال (فينوس) البرونزي يجسد المثل الأعلى للجمال الإنساني النسائي ويدل على أهمية النسبة في عصر كان فيه معيار الفن يعتمد على القياس الدقيق واعتبار الإنسان المثل الأعلى للجمال ومقياس المقاييس الجمالية .

وان تمثال ربة الحظ والسعادة (تيكه) من الذهب على أهمية هذه الربة في ذلك العصر ومدى اهتمام أولئك الفنانين في ابداع تماثيلها لتلبية طلبات مجتمعاتهم الجمالية والفكرية .

ويعتبر النصب الحجري البازلتي الكبير من روائع فن النحت المحلي في القرن الرابع الميلادي يمثل قائداً أو حاكما محليا واقفاً متدثراً بملابسه الرسمية ، كما أن تمثال السبع من الحجر الجيري المكتشف في التربة الخالدية والمعروضة في حديقتها يعتبر من روائع فن النحت في القرن الثالث الميلادي .

وقد اكتشف (ديامیس حمص) توابيت فخارية مغطاة بطبقة كلسية ومزينة برسوم جدارية جميلة تدل على أهمية هذا الفن الذي ازدهر في حوض الفرات الأوسط في بداية الألف الثاني ثم انتقلت تقاليده الفنية إلى دوراً اوريوس ثم تدمر ثم حمص فانطاكية فأوروبا التي زين جدران كنائسها الرومانيكية .

والجدير بالذكر أن توابيت دياميس حمص مزينة برسوم ذات مواضيع فنية ومفردات رمزية وألوان محلية استخلمت بذوق فني .

وتعتبر لوحة الفسيفساء المكتشفة في ديامس حمص من روائع فن الفسيفساء في القرن الرابع الميلادي وتمثّل كاهنين شابين بملامح جميلة .

وان الدبابيس العاجية والعظمية المكتشفة في مقبرة الخالدية ذات أهمية فنية وجمالية وتدل على مدى اهتمام حسان حمص بدبابيس الشعر في تصفيف شعورهن والظهور بمظهر الأناقة والرشاقة مما يزيد في جمالهن في عصر قال فيه أحد الأدباء : الكواكب والنجوم تزين قبة السماء والشعر يزين رأس المرأة ويزيد جمالها وفتنتها .

وان الأواني الفخارية المختلفة المكتشفة في المقبرة الخالدية تدل على أهمية هذه الصناعة الفنية في حمص في العصر الهلنستي والروماني وإذا كان الفن ابتكاراً وابداعاً فان دراسة هذه الأواني تدل على مدى حرص ذلك الصانع الفنان على ابداع أجمل الأشكال المبتكرة المتميزة بفائدتها وجمالها .

وتدل الآثار الزجاجية العديدة المختلفة على أهمية هذه الصناعة الفنية في قطرنا وممارسة ذلك الصانع الفنان مختلف التقنيات الزجاجية في ابداع روائعه من الزجاج المعتم أو الشفاف أو الخمري اللون وان مجموعة القوارير من الزجاج الأبيض المنفوج في قالب تعتبر من أجمل ما أبدعته هذه الصناعة الفنية لبعضها شكل وجه انسان جميل الملامح وهناك قارورة زجاجية صغيرة حليبية اللون تمثل مشهد مركب تجاري بحري

فينقي وتعتبر من اندر أنواع الزجاج والجدير بالذكر أن هذه المجموعة اكتشفت في تل النبي مند .

وإذا كان المنقبون لم يعثروا حتى الآن على قطع من ملابس قديمة في حمص فان المنحوتات وصور الأباطرة السيفيريين تدل على مدى اهتمام أبناء حمص بالمنسوجات والملابس الجميلة ولا شك أن موقع مدينتهم حمص على طريق الحرير وتوفر المراعي الكثيرة في منطقتهم مما زودهم بالمواد النسيجية الصوفية والحريرية التي لا تختلف عن قطع المنسوجات التدمرية المكتشفة في مدافن تدمر .

وان نقود حمص التي تمثل صور أباطرتها السيفريين ومعبد حمص تدل على أهمية فن صك النقود لتلبية المتطلبات الاقتصادية المختلفة . والجدير بالذكر أن المتحف الوطني بدمشق يحتفظ بدينار ذهبي وحيد من نوعه في العالم يمثل الامبراطور الحمصي السيفري (ايلا جبال) .

والخلاصة :

مما تقدم تبدو أهمية دراسة حمص واسهامها الفني والجمالي في العصر الهلنستي والروماني ونشاط أبنائها في مختلف الميادين الحربية والرياضية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية وان دور حمص الحضاري يفسر قول الشاعر اللاتيني الهجاء (جوفنال) ان نهر العاصي يبدو كأنه يصب في نهر التيبر ، معبرا بذلك عن تأثير حمص والشرق العربي القديم في حضارة الرومان .

دمشق : بشير زهدي

تحرير حمص

من السيطرة البيزنطية

منذر حمودي
عضو الجمعية التاريخية

ان الموضوع الذي أقدمه ما هو إلا خطوة متواضعة قد يعوزها الكثير لكي تحقق هدف الجمعية التاريخية بحمص لكتابة تاريخ المدينة أسوة بالمدن السورية الأخرى لذا بدأت بمرحلة حروب الفتح والتحرير العربية الاسلامية وعملت على جمع الروايات من هنا وهناك علها تكون نافعة في انجاز كتابة تاريخ للمدينة أقرب إلى الدقة والصواب مما تناثر في كتب المكتبة العربية من أخبار وروايات مفككة الحلقات بعيدة عن التسلسل الموضوعي والشمول الموسوعي في تدوين تاريخ مدينتنا الغالية على قلوبنا . وقبل أن أبدأ بتحرير مدينة حمص من السيطرة البيزنطية — لا بدّ لي من المرور سريعاً عبر حروب التحرير وذكر بواعثها في بلاد الشام عامة بحيث نذكر منها :

١ — وجود ثاني الحرمين الشريفين في بلاد الشام ومقدسات أخرى يقدسها العرب المسلمون والمسيحيون معاً .

٢ — بدأ الرسول الكريم بتوجيه السرايا والجيوش نحو بلاد الشام لتحريرها وحث المسلمين على الالتحاق بهذه الجيوش . كما أنه بشّر

بفتحها وكتب الكتب إلى بعض الأشخاص يمنحهم فيها بعض ، الاقطاعات(١) .

٣ — اقتداء بالرسول وتنفيذاً لأوامره ومن أجل نشر العقيدة الاسلامية قام الخلفاء الراشدون بحركة حروب الفتح والتحرير استمراراً لمحاولتي جعفر بن أبي طالب وأسامة بن زيد .

٤ — ولدمل جروح حروب الردّة في الداخل اقتضى الوضع العسكري الداخلي وكذلك الوضع الاجتماعي والاقتصادي ، توجيه العرب مجتمعين نحو حروب خارج الجزيرة العربية .

٥ — إقدام الروم على اتخاذ خطوات عسكرية ، على الحدود الشمالية لجزيرة العرب ، استوجب التحرك المضاد ، وفي هذا المجال ذكر المؤرخون أن هرقل قد جيّش الجيوش في بلاد الشام(٢)وكان ذلك منذ وصل إليه كتاب من الرسول الكريم يدعوه إلى الاسلام،ومن ذلك الحين كانت أخبار الشام ترد كل يوم لكثرة القادمين من الأنباط آنذاك ، فقدمت قادمة ، فذكروا أن الروم(٣) قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام ، وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة ، وأجلبت معه لخم ، وجزام ، وغسان ، وعاملة ، وزحفوا وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء وعسكروا بها وتخلف هرقل بحمص(٤) ، ولما كانت بلاد الشام تُشدّ إليها أنظار المسلمين فقد وصفها أحد الأدباء إلى أحد الخلفاء بقوله : (وأعلم يا أمير المؤمنين أن بلاد الشام هي أرض السحب والتلال والرياح والخصب . فهي تنعش الجسد وتنقي البشرة . خاصة أرض حمص التي تجمل الجسم وتنمي المداوك وماؤها نقي يرهف الحواس . إن بلاد الشام يا أمير

المؤمنين ، هي أرض الخضرة البهيجة والغابات الكبيرة ، وأنهارها تجري في مجراها الصحيح ، ونوقها تدرّ اللبن الوفير(٥) .

بالإضافة إلى ما ذكرنا ، من دواعي العمل على تحرير بلاد الشام . فقد كانت السلطة العربية مهيأة لذلك . فعلى سبيل ذكر بعض جوانب هذا النظام ، فقد كان إلى جانب الخليفة أبي بكر ، ما يشبه الوزراء(٦) معاذ بن جبل للجند ، وعمر بن الخطاب للقضاء ، وأبو عبيدة عامر ابن الجراح للمال ، وعثمان بن عفان للأخبار ، وزيد بن ثابت للرسائل .

وفي تلك الأيام كانت مدينة حمص أي في النصف الأول من القرن السابع الميلادي ، مركزاً إداريا هاماً تلحق به معظم أراضي محافظتي حمص وحماه الحاليتين(٧) ، وكانت الاكثرية الساحقة من سكانها ، كباقي سكان سورية من العرب والساميين الآخرين ، الذين كانوا ساخطين على الدولة البيزنطية ، التي كانت بدورها تعمل بجد لعزل بلاد الشام وسكانها عن أشقائهم ، سكان الجزيرة العربية ،فمارست عليهم سياسة قمعية(٨) ، خاصة بعد أن بدأت شبه الجزيرة العربية تتلمس طريقها إلى النور وإلى فجر جديد ، وظهرت فيها دولة فتيّة ، أعطت كل ذي حق حقه ، وأحلت القانون مكان شريعة الغاب ، وأصبح فيها الناس سواسية كأسنان المشط(٩) . ولذلك وبالإضافة إلى الأسباب القومية والمذهبية كان سكان سورية(١٠) يزدادون تطلعاً إلى شبه الجزيرة العربية ، كلما ازدادت الدولة البيزنطية حقداً على العرب ودولتهم الفتيّة ، حيث (كان الرومي يقول للعربي الشامي اذهب إلى بني عمك(١١)) . وحول هذا الموضوع قال : فيليب حيّ ولم يعرف عن السوريين منذ فتح الاسكندر أنهم فقدوا طابعهم القومي أو أضاعوا

لغتهم الأهلية أو أهملوا دينهم السامي . . . . وغالب الظن أن السوريين من أبناء القرن السابع قد اعتبروا العرب المسلمين أقرب إليهم عنصراً ، ولغة ، وربما ديناً أيضاً ، من أسيادهم البيزنطيين الممقوتين (١٢) من أجل هذا وذاك .

فرأى العرب المسلمون لزاما عليهم أن يمدّوا يد العون والمساعدة إلى أشقائهم الراضخين إلى حكم أجنبي ،فبدأوا بتجميع المعلومات الكافية عن المدن الشامية(١٣) وعن حامياتها البيزنطية وقادة هذه الحاميات ، ليستفيد من ذلك الخليفة ومساعدوه في العاصمة – المدينة المنورة – وليستفيد منها أيضا ، قادة الجيوش العربية المكلفة بتحرير الشام من الاحتلال البيزنطي ، وتوضيحاً لذلك قال سعيد بن عامر(١٤) : (كنت عارفاً ببلاد الشام وطرقه وكنت أسير إليه في السنة مرة أو مرتين عسفاً من غير جادة ، أسير على الكواكب . . .) .

ولمختلف هذه الأسباب والدواعي الآنفة الذكر ، سارع الخليفة أبو بكر الصديق إلى اتخاذ قراره القاضي باعلان الحرب على البيزنطيين ، فقسم الجيش العربي المكلف باقتحام بلاد الشام إلى فرق ، تعدداد الواحدة ، ازداد تدريجياً من ٣٥٠٠ – ٧٥٠٠ مقاتلاً(١٥) . وبعد أن استكملت الاجراءات اللازمة لهذا الجيش المحاوب كتعيين قادته وتحديد مهماتهم ، أخذت الجيوش العربية بالتقاطر نحو أهدافها في بلاد الشام ، على أن يكون القائد العام لها في حالة الاجتماع أبو عبيدة عامر بن الجراح :

١ – فرقة يقودها عمر بن العاص ووجهته فلسطين .

٢ – فرقة يقودها يزيد بن أبي سفيان ووجهته وادي الأردن .

٣ ـ فرقة يقودها شرحبيل بن حسنة ووجهته دمشق .

٤ ـ فرقة يقودها أبو عبيدة عامر بن الجراح ووجهته حمص .

في بداية الأمر سارعت الجيوش العربية إلى دخول المناطق المخصصة لها ، فقد احتلت حمص عام ٦٣٥ م عقب موقعة أجنادين(١٦) حيث كان وردان حاكم حمص قائداً لجيوش الروم فيها ـ أجنادين (١٧) . ولكن دون تحقيق نصر حاسم يمكن أحد الفريقين المتصارعين من الاستمرار في الاحتفاظ بالمواقع ؛ إلا أن هرقل أخذ يجمّع قواته في فلسطين بأعداد كبيرة فاضطرت بالمقابل القوات العربية التي توغلت في الأردن وأعمال دمشق وحمص إلى الانسحاب والتجمع لمواجهة المعركة الحاسمة والمرتقبة مع هرقل في اليرموك الثانية . ولكي يكسب هرقل حمص(١٨) في صفه عمل على تأمير أحد أهل حمص على أحد الجيوش المشتركة في القتال ويقال لهذا الرجل ـ أبو الجعيد ـ . وبالفعل علم العرب بمحاولة هرقل ونواياه ازاء تجميع قواته ، ووجدوا أنفسهم مضطرين إلى الانسحاب من حمص وسواها لمواجهة الروم الذين جمعوا جموعهم في فلسطين ، وأخذوا يهددون العرب بالتطويق . فجمع أبو عبيدة السكان ـ أعني سكان حمص(١٩) ـ وأعاد لهم الأموال التي أخذها منهم كجزية وقال لهم نحن لسنا بقادرين على مساعدتكم والدفاع عنكم وأنتم الآن أحرار بأنفسكم ، فأجاب أهل حمص : (إن حكمكم لنا وعدالتكم أعزّ لدينا من الظلم والقسوة التي كنا نعيشها من قبل) وللخلاص من هذا المأزق الصعب الذي تعرض له العرب ، أمر الخليفة أبو بكر خالد بن الوليد بأن يلتحق بجبهة بلاد الشام ، فسارع إليها قادماً من العراق بسرعة تدعو إلى الإعجاب ـ وكان رافع بن عميرة دليل

خالد بن الوليد في اجتياز الصحراء ـ محاربا جباراً وزوج ابنة خالد نفسه(٢٠) كما كان خالد بن الوليد يعرض على جنوده ضرورة التقيد بأوامره ، ويحتفظ ببعض القوات والقادة كقوات احتياطية يستفيد منها عند الحاجة في عملياته العسكرية(٢١) .(٢٢) . وقد رحب سكان السخنة وكلدمة بخالد بن الوليد أثناء اجتيازه لمناطقهم(٢٣) . وعندما رأى أبو عبيدة نفسه مضطراً إلى مغادرة حمص ، ليشارك في القتال بمعركة اليرموك الثانية فيما بعد ، كان إصرار أهل حمص على موقف التأييد والولاء لأشقائهم لا يزال يتفاعل في نفوسهم وقد عبروا عن ذلك بترحيبهم بالعرب ثانية بعد دحر الروم في اليرموك الثانية ، وبينما كان العرب يحاربون الروم حول دمشق قبيل فتحها(٢٤) (خرج من ميمنة العقبان في جيش الروم كردوس فتأهب الناس لحربهم ، وتقدم خالد وحوله أبطال المسلمين ، فلما قربوا من القوم ، رموا رماحهم وسيوفهم من أيديهم ، وترجلوا ونادوا بالأمان ، فقال خالد : اقبلوا أمانهم وأتوني بهم فأتوا إليه فقال خالد من أنتم فقالوا نحن من جند هذا الرجل وردان ومكاننا بحمص وقد تحقق عندنا أنه لا يطيقكم ولا يستطيع حربكم فاعطونا الأمان واجعلونا من جملة من صالحتم من سائر المدن ، حتى نؤدي لكم المال الذي أردتم في كل سنة فكل من في حمص يرضى بقولنا ، فقال خالد إذا وصلت إلى بلادكم يكون الصلح ان شاء الله تعالى ، إن كان لكم فيه أرب ، ولكن نحن هاهنا لا نصالحكم ، ولكن كونوا معنا إلى أن يقضي الله ما هو قاض) .

وما أن تحقق تحرير دمشق حتى أصدر الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب(٢٥) أوامره إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح يأمره باحتلال

حمص ، وكان بالتالي على القائد أبي عبيدة أن يسارع لإعداد العدة لاحتلال حمص . فقاد جيشه نحو حمص على طريق البقاع واللبوة(٢٦) ، مسايرا نهرالعاصي على الطريق التقليدية التي تصل وسط سورية بدمشق ففلسطين ، والتي سلكها معظم الفاتحين من قبله ومن بعده ، ولانجاز المهمة بدقة طلب أبو عبيدة(٢٧) إلى القائد الكبير خالد بن الوليد ، والذي أصبح أحد مرؤوسيه منذ موت الخليفة أبو بكر – طلب إليه أن يسبقه إلى حمص بثلث الجيش عن طريق مباشرة ربما كانت الطريق التي تقع إلى الشرق من ساسلة لبنان الشرقية والتي تجتاز ثنية العقاب مارة عبر مدن القطيفة والنبك وقارة وحسياء . وسار أبو عبيدة على طريقه آنفة الذكر حتى وصل إلى موضع يقال له الزراعة (احدى قرى القصير التابعة لحمص) وفيها أخذ ينظم جيشه ويقسمه إلى عدة فرق . فقد وجه فرقة قوامها خمسة آلاف فارس بقيادة ميسرة بن مسروق العبسي حمص لينضم إلى جيش خالد بن الوليد في التواجد بالمنطقة . ثم وجه فرقة أخرى قوامها خمسة آلاف فارس بقيادة ضرار بن الأزور ، وانتدب فرقة ثالثة بقيادة : – عمر بن معد يكرب الزبيدي وقاد بنفسه بقية الجيش باتجاه حمص . والوثائق تقول : إن فرقة خالد بن الوليد كانت تتكون من عناصر يمانية وحجازية وعراقية وموال . وكان تعدادها يتراوح بين الأربعة آلاف فارس وستة آلاف فارس ، وعليه أتوقع أن يكون تعداد الجيش العربي الإسلامي كما يلي :

١ – خمسة آلاف بقيادة خالد بن الوليد .

٢ – خمسة آلاف بقيادة ضرار بن الآزور .

٣ خمسة آلاف بقيادة ميسرة بن مسروق العبسي .

٤ ـ خمسة آلاف بقيادة أبي عبيدة وعمرو بن معد يكرب .

وبذلك يكون الحد الأعلى لتعداد الجيش عشرون ألفاً أو يكون التوزيع كما يلي : ـ ستة آلاف بقيادة خالد بن الوليد ـ خمسة آلاف بقيادة ميسرة بن مسروق العبسي ـ خمسة آلاف بقيادة ضرار بن الأزور ـ ألفان بقيادة أبي عبيدة وعمرو بن معد يكرب ، ويكون العدد الوسطي للجيش العربي الإسلامي المكلف باحتلال حمص ثمانية عشر ألفاً من المقاتلين الذين عسكروا في مشارف المدينة ثم بدأوا حصارها . ومنذ ذلك الوقت كتب أبو عبيدة إلى حاكم حمص هربيس يعرض عليه اختياراً واحداً من ثلاثة شروط :

١ ـ اعتناق الإسلام وفتح المدينة .

٢ ـ فتح المدينة مع دفع الجزية .

٣ ـ اللجوء إلى الحرب .

ولما لم يكن جواب هربيس يشجع على السلام ، عزم أبو عبيدة على القتال فأعاد تقسيم عسكره وعبأه في أربع فرق قتالية . بعث فرقة مع المسيب بن نجية الفزاري فنزل بهم على باب الجبل ـ الذي أظنه مكان باب السباع الحالي شرق القلعة مما يلي خندقها مباشرة ، وبقيت فرقة أخرى مع المرقال بن هشام بن عقبة بن العاص فنزل بهم على باب الرستن(بجوار باب تدمر حاليا)،وبعث فرقة أخرى مع يزيد بن أبي سفيان فنزل بهم على باب الشام (باب الدريب حاليا) ، ونزل أبو عبيدة وخالد على باب الصغير (باب السوق حالياً) ، ثم زحف العرب نحو أسوار المدينة من كل مكان ، ودافع الروم(٢٨) عن أسوار المدينة حتى المساء ، واضطر الجيشان إلى ايقاف القتال ليلاً .

وفي صباح اليوم التالي عاد العرب إلى تشديد الخناق على المدينة وكانت الاشتباكات عديدة وضارية ، واضطر هربيس إلى طلب الصلح مع العرب ، كما اضطر العرب إلى الدخول في المفاوضات مادامت هذه المفاوضات توفر للعرب كسباً يساعدهم على التوغل شمالاً في سورية بأقل الخسائر . فأرسل هربيس /حاكم حمص/ وفداً برئاسة « جاثليق » إلى أبي عبيدة وقد خرج الوفد (٢٩) من باب الرستن الذي أظنه باب تدمر الحالي نفسه كما أشير إليه أنفاً ، وأظن أن مكان تجمع الكتيبة تنسب إليه مقبرة الكتيب الحالية ، وعلى أثر اللقاء توصل الطرفان إلى اتفاق بأن أعطى المسلمون الروم ميثاقاً وعهداً (٢٩) يقضي برحيل العرب المسلمين عن حمص مقابل تقديم المدينة للجيش العربي المؤن التي تكفيه خمسة أيام وتقديم العلوفات التي تكفي الخيل والدواب لمدة خمسةأيام أيضاً بالأضافة إلىعشرة الاف دينار ومئة ثوب من الديباج – البروكار – كما تعهد أعيان حمص بعدم قبول نجدات بيزنطية وحددت مدة العقد بسنة كاملة أولها ذو القعدة وآخرها شوال سنة أربع عشرة للهجرة الموافقة ٦٣٥ ميلادية .

وقبل أن يأذن أبو عبيدة بالرحيل عن حمص طلب إلى عسكره أن يكثروا من الزاد والعلوفات عن طريق تبادل البضائع ومقايضتها(٣٠) فاشترى أهل حمص من العرب المسلمين مايساوي عشرين ديناراً بدينارين ورغب أهل حمص بشراء الرخيص ، ولم يزل أهل حمص يتبايعون لمدة ثلاثة أيام رأوا من خلالها سماحة العرب من بيعهم وشرائهم وربحوا ربحاً وفيراً .

وجدير بالذكر انه كان للروم في عسكر العرب (٣١) جواسيس وعيون بلغوا الأربعين رجلاً يأخذون لهم الأخبار كما كان للعرب

أيضاً في جيوش الروم عيون وجواسيس من المعاهدين يتعرفون لهم الأخبار، بل تجاوز الأمر كذلك بحيث كانت أخبار الشام ٣٢ تصل إلى أهل المدينة - يثرب - كل يوم لكثرة من كان يرد عليهم من الأنباط فضلاً عن سواهم ، وكان للخلفاء الراشدين أيضاً العيون الذين يرصدون بها قادة الجيش العربي الاسلامي ويرقبون تحركاتهم ثم يكتبون بكل ذلك إلى الخليفة .

بعد دخول الجيش العربي حمص بموجب معاهدة الصلح المشار إليها أنفاً فقد قام الجواسيس بنشر خبر استسلام حمص للعرب بين سكان المدن الواقعة إلى الشمال منها . وسواء كان نشاط الجواسيس مقصوداً لصالح العرب المسلمين أو لم يكن - فقد ساعد هؤلاء الجواسيس في التأثير على معنويات الحاميات البيزنطية وعلى شجاعة بعض السكان الموالين للروم - فأخذت تنهار عزائم المقاومة في وجه الزحف العربي - وبالتالي أخذت المدن تستسلم الواحدة بعد الأخرى .

وبينما كان أبو عبيدة قد انتهى لتوه من فتح شيرز ، تمكن عسكره من القاء القبض على بعض رسل هرقل إلى حامية حمص ، فاستجوب هؤلاء الروم وتأكد منهم أبو عبيدة بأن هرقل قد عزم على بعث نجده لمعاونة حامية حمص ، عندئذ جمع أبو عبيدة عسكره وخطب فيهم قائلاً : (يامعشرالعرب قد فتح الله على ايديكم هذه المدينة أيسرفتح وأهونه، وقد خرج روم حمص من ذمتكم ووفيتم لهم ماعاهدتموهم عليه فارجعوا بنا إليهم)

ثم أمر أبو عبيدة عسكره بالتوجه نحو حمص وسيّر لواء العراق بقيادة خالد بن الوليد في مقدمة عسكره جريدة في آذار عام ٦٣٦ م

الموافق أول صفر عام ١٥ هـ وبالفعل استطاع خالد بن الوليد أن يفاجيء حمص بخَيْله واضطر الروم إلى الرجوع نحو المدينة وغلقوا أبوابها دون العرب . بينما كان عسكر أبي عبيدة يواصل قدومه ويأخذ بتطويق المدينة فارضا الحصار عليها لمدة عدة أشهر حتّى نفذ الزاد من المدينة ، عاماً بأن الكثير من سكان المدينة ، كانوا خارجها يمارسون التجارة ويجمعون الميرة . فعمل أبو عبيدة على دحض ادعاء هربيس حاكم حمص (المدعي بأن العرب قد غدروا) بما تجمع لديه من اثباتات الاتصال بين هربيس وهرقل بحيث يكون ذلك نقضا لشروط الصلح المبرم بين الفريقين والمشار إليه سابقاً ولم يلق هربيس من أبي عبيدة إلا القول له : (فلا عهد لكم عندنا ولا صلح إلا أن تصالحونا على فتح المدينة وتكونوا في ذمتنا . . . .) وبالطبع لم يستجب هربيس إلى هذا الطلب فكان ذلك إيذانا باستعداد الطرفين للدخول في جولة من الحرب . حيث خرج هربيس من باب الرستن يقود خمسة آلاف من أفضل فرسان الروم . وخرج قادة آخرون من الأبواب الأخرى ، وتم التحام الجيشين المتحاربين في معركة ضارية . تعادلت فيها قوى الفريقين حيث هاجم العرب الروم في عدة مرات دون جدوى ثم مالبث العرب أن رجعوا القهقري يشكون من زيادة عدد القتلى والجرحى فيهم ، ولم يتمكنوا من تحقيق أي مكسب سوى دحر الروم إلى المدينة واستمرار القتال من على الأسوار . إلى أن هاجم الليل الفريقين المتقاتلين وفرض عليهما وقف القتال حتّى الصباح التالي . وبعد نوم قلق استقبل أبو عبيدة الصباح وأخذ يحث جنده على القتال بقوله(٣٤) : يا معاشر المسلمين . . . ما بالكم هزمتم وجزعتم منهم مع أن الله ألبسكم عافية مُجلّة وسلامة سابقة ،

وأظفركم على بطارقة الروم وفتح لكم الحصون والقلاع ، فما هذا

وبينما كان العرب يستعدون للمواجهة الحاسمة ، فتحت حمص أبوابها فجأة ، وخرج الروم من جميع الأبواب ، واندفعوا بقوة وعنف نحو العرب ، الذين تظاهروا بالضعف ، وطلبوا وقف القتال من الروم ، ثم أخذوا بالتراجع جنوباً متظاهرين بالخوف ، مستدرجين الروم للّحاق بهم ، مخلفين وراءهم عيالهم وسوائمهم فأسقط بيد الروم . وأخذ هربيس يجدّ في طلب الجيش العربي وقد وصف ذلك سراقة بن عامر بقوله : (انهزمنا أمام القوم كأننا نطلب الزراعة وجوسية وأخذت تدركنا بطارقة الروم وقد مال بعضهم إلى السواد طمعاً في الزاد والطعام) وهكذا عندما وجد أبو عبيدة الفرصة مؤاتية الانقضاض على جيش الروم ، أمر جيشه بالالتفاف حول الروم وفق خطة محكمة ومدروسة . ثم بدأ الجيش العربي هجومه على الروم كردوساً واحداً كالصاعقة . إلا أن الروم فطنوا إلى مغزى تظاهر العرب بالهزيمة . وأدركوا مدى الخطأ الذي وقعوا فيه . فحاولوا التعويض عن ذلك بالاستبسال والصمود في ميدان المعركة في وقت لم يعد يجدي فيه ذلك نفعاً . إذ بينما كان الروم يكتوون بنار جيش على رأسه أبو عبيدة وخالد بن الوليد كان معاذ(٣٥) بن جبل يقود خمسمئة فارس ويلاحق الروم الذين طمعوا بالسواد وما فيه من مال وغلال ، كما كان فرسان آخرون من العرب قد أمروا بالاسراع إلى أبواب حمص لاستخلاص عيال وسوائم العرب (فك أسرى)، وليمنعوا الروم الفارين من دخول المدينة والاستعانة بالاسوار ثانية وتأخير فتح المدينة . قال صهيب بن سيف الفزاري(٣٦) : (فوالله ما انفلت من الخمسة آلاف الذين كانوا مع هربيس صاحب

حمص إلا ما ينوف عن مئة فارس . وهكذا تتبعنا القوم إلى الأبواب ، لأن أكثر الرجال من العواصم وغيرهم كانوا من المدينة) .

من الرواية السابقة نتبين أن الروم لم يتمكنوا من الاعتماد على عرب حمص في حربهم ضد عرب شبه الجزيرة العربية ولكن جل اعتماد الروم كان على الجند المتكسب أكثر من اعتمادهم على تجنيد سكان المدينة والذي هو غير مضمون العواقب .

وخلاصة القول إن العرب استطاعوا انزال ضربة قاصمة بجيش الروم سواء عن طريق المبارزات الفردية بين قادة الفريقين والتي انتهت غالباً إلى صالح العرب . أو عن طريق ابادة فرسان ومشاة الروم في ميدان المعركة كما رأينا آنفاً . وبالتالي كان لا بدّ للروم من طلب الصلح وتسليم المدينة للعرب وفق الشروط التي اعتاد العرب فرضها على المهزومين من خصومهم .

وعلى أثر هزيمة الروم قام العرب بجمع الاسلاب والدروع والأسلحة الأخرى مع بقية الغنائم من أرض المعركة ثم وضع كل ذلك بين يدي القائد أبي عبيدة عامر بن الجراح الذي أخرج بدوره منها الخمس لبيت مال المسلمين وقسم الباقي بين المقاتلين(٣٧) . أما عدد القتلى في الجانب العربي فقد كان مئتين وخمسة وثلاثين فارساً كلهم من حمير وهمدان إلا ثلاثين رجلاً من أهل مكة منهم : عكرمة بن أبي جهل — يوجد له مشهد في حي عكرمة جنوب القلعة بحمص على طريق دمشق وفي رواية أخرى استشهد في معركة أجنادين عام ٦٣٤ م(٣٨) — وصابر بن جريه والرّيس بن عقيل ، ومروان بن عامر ، والمنهال بن عامر السلمي ابن عم العباس وجمح بن قادم ، وجابر بن حويلد الربعي و . . . .) .

أما بخصوص الصلح فقد روى البلاذري(٣٩) (. . إن الصلح جرى على مئة ألف وسبعين ديناراً ، وعلى أن أمنهم – يعني سكان حمص – على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم وأرحائهم واستثنى عليهم ربع كنيسة يوحنا للمسجد – وأظنها كنيسة أم الزنار الحالية والتي يقام بجوارها مسجد محمد بن مسلمة وعلى مساحة تعادل ربعها – واشترط الخراج على من أقام منهم) وقيل : تمّ الصلح مع أهل حمص على أنصاف دورهم وعلى أن يترك المسلمون أموال الروم وبنيانهم لا ينزلونه عليهم . فتركوه لهم . فصالح بعضهم على صلح دمشق . على دينار وطعام عن كل جريب أبداً أيسروا أو أعسروا . وصالح بعضهم على قدر طاقته . إن زاد ماله زيد عليه . وإن نقص نقُصَ . وبعد ابرام اتفاق الصلح أراد أهل حمص ان يكرموا الجيش العربي بالاقامة وتقديم العلوفة لرواحله ودوابه . فأبى ذلك أبو عبيدة ولم يسمح لأحد من المسلمين بدخول حمص وصانها عن التخريب ، تعبيراً عن صدق النوايا تجاه الأشقاء سكان حمص . وقد وصف حبان بن تميم الثقفي نزول أبي عبيدة على حمص بقوله : (نصبنا بيوت الشعر على العمد وأقمنا خارج المدينة لا يدخل إليها أحد منا ونحن مع ذلك نشنّ الغارة على سواحل الروم ونكبس على العرب الذين لم يكونوا في صلحنا(٤٠) . وكنا إذا خرجنا في سريّة نبيع الغنائم في بعلبك التي فرح أهلها ببيعنا وشرائنا لأنهم وجدونا ليس فينا كذب ولا خيانة ولا نريد ظلم أحد . فطابت قلوبهم ، وربحوا في تلك المدة اليسيرة مالاً عظيماً . . . .) . ويبدو أن ذلك كان قبل اتخاذ قرار الاستقرار والاستيطان في حمص .

وبعد اتخاذ قرار الاستقرار والاستيطان أنزل أبو عبيدة إلى حمص السمط به الأسود الكندي الذي قسم حمص خططاً — مقاسم — بين المسلمين فأسكنهم في كل مرفوض — غير عامر — جلا أهله عنه أو ساحة متروكة ، فنزل السمط نفسه في بني معاوية والأشعب بن ميناس في السكون . والمقداد في بلّي ثم نزلها آخرون فيما بعد . وكان أبو عبيدة عندما تمّ له فتح حمص . قد كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يخبره بالفتح . وبعث الأخماس إلى بيت مال المسلمين في المدينة مع عبد الله بن مسعود(٤١) وقد أوفده . وكان مما فعله المسلمون منذ البداية أن تقربوا إلى السكان بالعدل وحسن الصحبة لما بين الجميع من صلات القربى وما توجبه وحدة المصالح ، وطبقاً لذلك فقد عُين رجل من أهل المدينة على خراجها وبذلك كان الجميع مشتركين في ادارة المجتمع الواحد . وعندما أراد أبو عبيدة مغادرة المدينة ليحرر حماة . خلّف على حمص عبادة بن الصامت — النوفلي — وبدون عناء كبير تمكنت الجيوش العربية الاسلامية من تحرير مدن سورية الشمالية وفي السنة السابعة عشرة للهجرة الموافقة ٦٣٨ م خرج الروم وتكاتبوا مع أهل جزيرة الشام (يريدون أبا عيدة والمسلمين في حمص .فضم أبو عبيدة إليه جميع مسالحه وعسكروا بفناء مدينة حمص . واستشار أبو عبيدة المسلمين فيما سيفعل فقال خالد بن الوليد . نخرج ونناجز القوم ، وقال بقية الناس بل نتحصن ونخبر عمر وننتظر الجواب والمدد . فعمل أبو عبيدة برأي الأكثرية ، وكتب إلى عمر . وقد كان عمر اتخذ في كل قطر على قدره خيولاً من فضول أموال المسلمين عدة لكون ان كان . فكان بالكوفة من ذلك اربعة الآف فارس . كتب عمر إلى سعد بن مالك : ان اندب الناس مع القعقاع بن عمرو وسرحهم من يومهم الذي يأتيك

فيه كتابي إلى حمص . وكتب إليه أيضاً ان سرح سهيل بن عدي الى أهل الجزيرة الذين هم استثاروا الروم على أهل حمص وأن أهل قرقيسيا لهم سلف . وسرح عبد الله بن عبد الله بن عتبان إلى نصيبين ، ثم لينفضا حران والرهاء.وسرح الوليدبنعقبة،علىعربالجزيرةمن ربيعة وتنوخ وسرح عياضاً(قائد معروف)،فان كانقتال فقدجعلتامرهم جميعاً إلى عياض بن غنم . فمضى القعقاع بن عمرو في أربعة الاف من يومهم الذي أتاهم فيه الكتاب نحو حمص . وخرج عياض بن غنم وأمراء الجزيرة ، فأخذوا طريق الجزيرة على الفراض وغير الفراض . وتوجه كل أمير إلى الكورة التي أمر عليها فأتي الرقة . وخرج عمر من المدينة مغيثا لأبي عبيدة يريد حمص حتى نزل الجابية . ولما بلغ أهل الجزيرة الذين أعانوا الروم على أهل حمص واستثاروهم وهم معهم مقيمون عن حديث من الجزيرة منهم ؟ بأن الجنود قد ضربت من الكوفة . ولم يدروا الجزيرة يريدون أم حمص. فتفرقوا إلى بلدانهم،وعند قسمة الغنائم ،استشير عمر بأمر جند الاغاثة فأمر باعطائهم واشراكهم في القسمة كالمقاتلين مع أبي عبيدة ، وبعد ذلك استقرت الأوضاع الأمنية في حمص وتخومها .

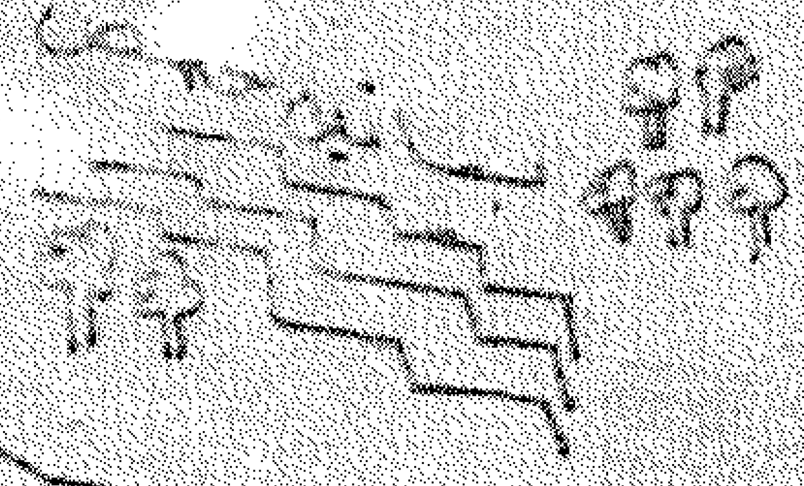
وبعد وفاة أبي عبيدة بطاعون عمواس . كان على حمص من عمال عمر بن الخطاب سعيد (٤٣) بن عامر بن حِزْيَم ، فشكاه أهل حمص إليه ، وسألوه عزله ، فقال عمر : اللهم لا تفل فراستي فيه اليوم ، وقال لهم : ماذا تشكون منه ، قالوا : لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار ولا يجيب أحداً بليل ، وله يوم في الشهر لا يخرج إلينا فقال عمر : عليَّ به ، فلما جاء جمع بينهم وبينه فقال ما تنقمون منه ؟ قالوا : لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار . فقال ما تقول يا سعيد ؟ قال : يا أمير

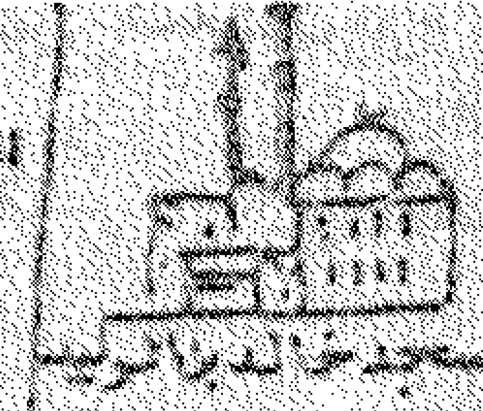
المؤمنين إنه ليس لأهلي خادم ، فأعجن عجيني ثم أجلس حتى يختمر ثم أخبز خبزي ثم أتوضأ وأخرج إليهم قال وماذا تنقمون منه ، قالوا : لا يجيب بليل ، قال قد كنت أكره أن أذكر هذا ، إني جعلت الليل كله لربي . وجعلت النهار لهم قال : وماذا تنقمون منه ؟ قالوا له يوم في الشهر لا يخرج إلينا فيه قال : نعم ليس لي خادم فأغسل ثوبي ثم أجففه فامسي . فقال عمر : الحمد لله الذي لم يفل فراستي فيه . يا أهل حمص استوصوا لواليكم خيراً . ثم بعث عمر إليه ألف دينار قائلاً له . استعن بها . فقالت له امرأته — عندئذ — قد أغنانا الله عن خدمتك . فقال لها : الا تدفعيها إلى من يأتينا (بها) أحوج ما كنا إليه ؟ قالت : بلى . فصرها صرراً ثم دفعها إلى من يثق به وقال : انطلق بهذه الصرة إلى فلان . وبهذه إلى يتيم بني فلان ، وهذه إلى مسكين بني فلان ، حتى بقي منها شيء يسير . فدفعه إلى امرأته . وقال: انفقي هذا ، ثم عاد إلى خدمته . فقالت له امرأته الا تبعث إليّ ذلك المال فنشتري لنا خادماً . فقال سيأتيك أحوج ما تكونين إليه (٤٤) . . . وبحمص من المزارات والمشاهد مشهد علي بن أبي طالب . . . وبها دار خالد بن الوليد . . . وقبره فيما يقال وبعضهم يقول أنه مات في المدينة ودفن فيها وهو الأصح وعند قبر خالد قبر عياض بن غنم القرشي الذي فتح بلاد الجزيرة ، وفي حمص قبر زوجة خالد بن الوليد . وقبر ابنه عبد الرحمن . . . وقيل بها قبر عبيد الله بن عمر بن الخطاب والصحيح أن عبد الله قتل في صفين فان كانت نقلت جثته إلى حمص فالله أعلم ويقال أن خالد بن الوليد مات بقرية على بعد نحو ميل من حمص وأن هذا الذي يزار في حمص انما هو قبر خالد بن يزيد بن معاوية وهو الذي بني القصر بحمص وآثار هذا القصر في غرب الطريق باقية . . . وبها قبر قنبر مولى علي بن

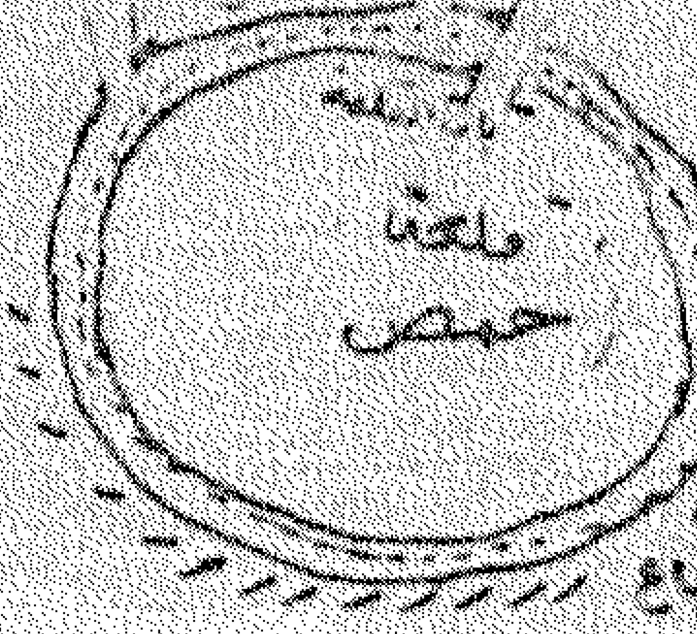
أبي طالب ويقال أن قنبر قتله الحجاج وقتل إبنه وقتل ميثماً التمار بالكوفة . . . وبها قبور أولاد جعفر بن أبي طالب وهو جعفر الطيار وبها مقام قبر يونان والحارث بن عطيف الكندي وخالد الأزرق العاضري والحجاج ابن عامر وكعب الأحبار وغيرهم . . .) .

وفي حمص قبور أو مقامات لعمر بن عبد العزيز وأبي موسى الأشعري وأبي الهول وميسرة بن مسروق ورابعة العدوية .

* * *

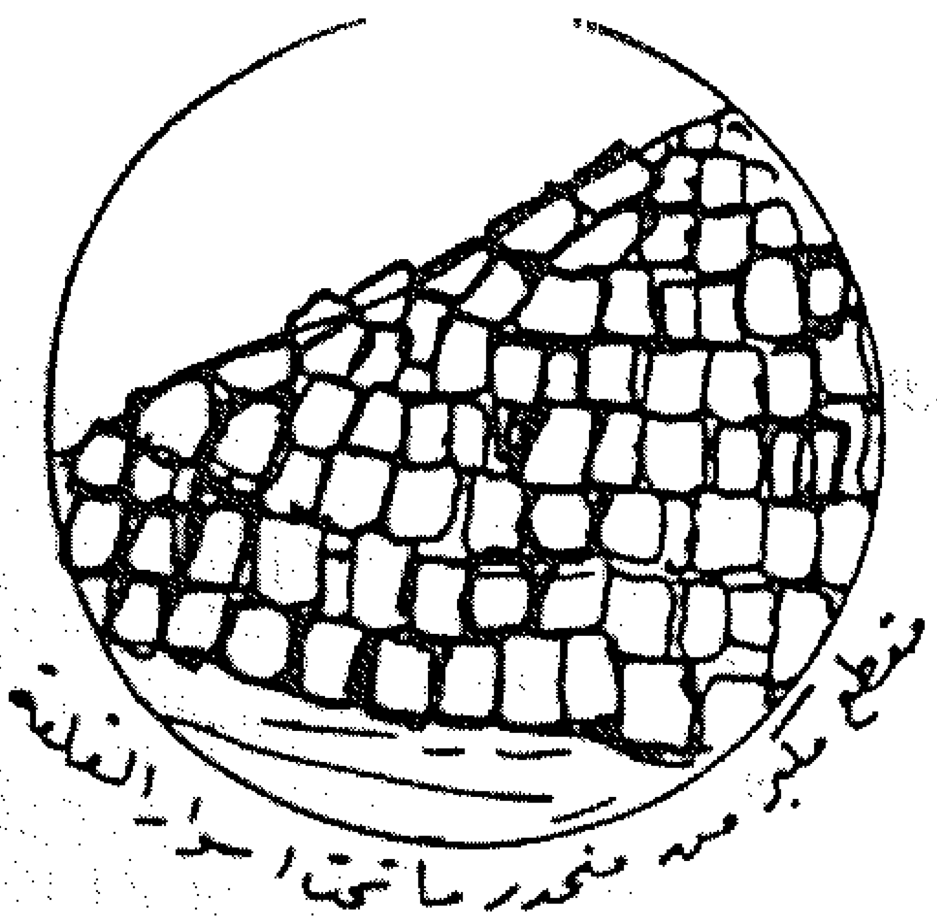






مخطط مدينة حمص القديمة
قلعة حمص
باب السباع
باب الدريب
باب الشام
باب الجبل
باب تدمر
باب السوق
باب هود
الى طرابلس
الى تدمر
مسجد خالد بن الوليد
كعب الاحبار

منظر متخيل لقلعة حمص المستديرة
من جهة الشمال

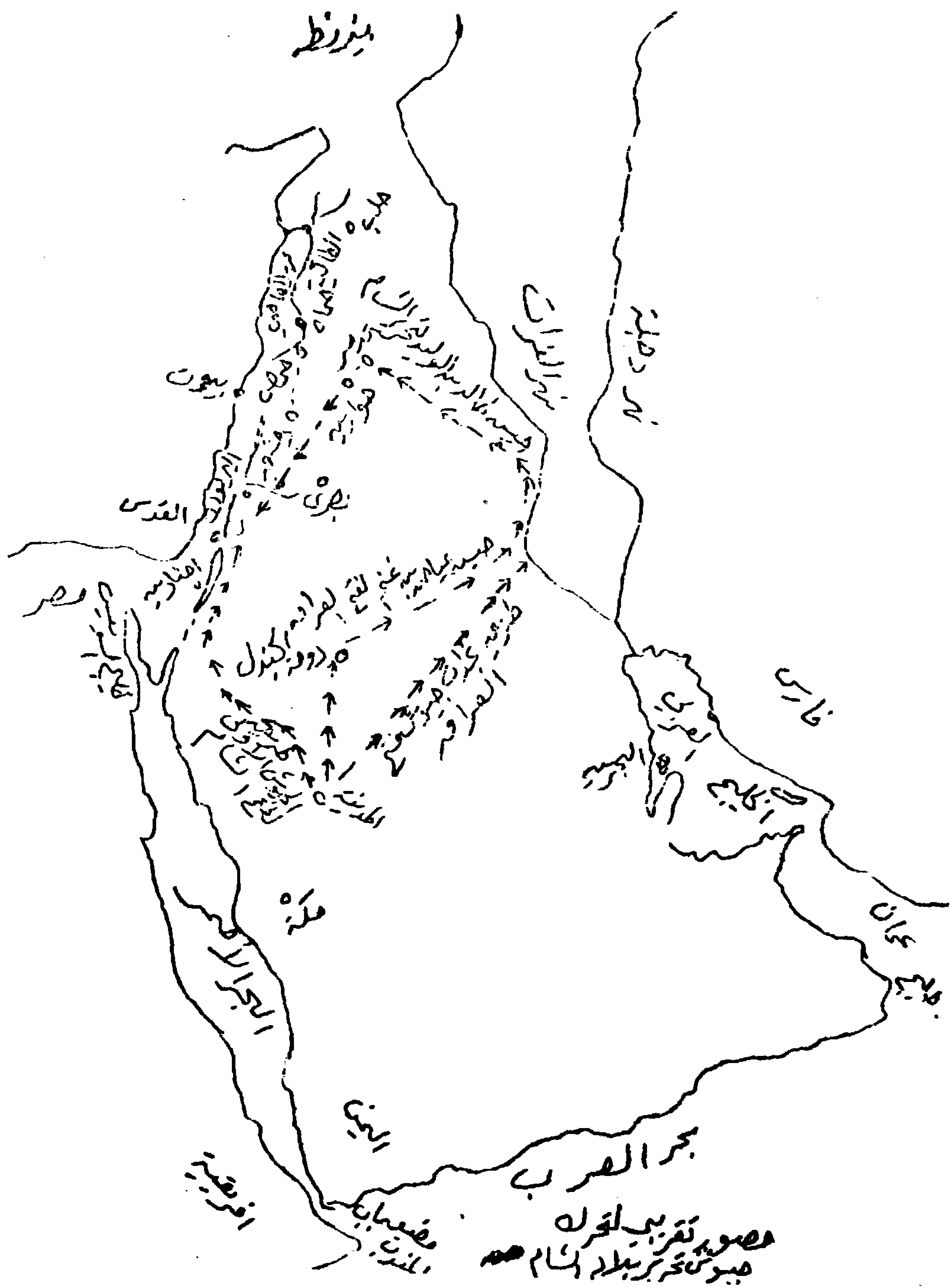


رسم محمد فيصل شيخاني أمين الجمعية التاريخية في حمص ١٩٨٥

صورة متخيلة لقلعة حصن المستديرة

المنظر من جهة الجنوب





بيزنطة
حلب
الشام
بيروت
القدس
مصر
دومة الجندل
الفرات
العراق
فارس
البصرة
الخليج
عمان
مكة
البحر الأحمر
اليمن
بحر العرب
إفريقية
مصور تقريبي لحركة جيوش تحرير بلاد الشام

مراجع البحث

١ - راجع كتاب تطور نظام ملكية الأراضي في الاسلام- الدكتور محمد علي نصر الله .

٢ - راجع كتاب الأمم الإسلامية - الشيخ محمد الخضري ج ١ ص ٢٦٤ و ٢٦٥

٣ - راجع كتاب خطط الشام - محمد كرد علي ج ١ ص ١٠٩

٣ - راجع كتاب المغازي - الواقدي ص ٩٨٩

٤ - راجع كتاب المغازي - الواقدي ص ١١٢٤

٤ - راجع كتاب الكامل في التاريخ - ابن الأثير ج ٢ ص ٢٨٤

٤ - راجع كتاب الأمم الإسلامية - الشيخ محمد الخضري ج ١ ص ١٤٤

٤ - راجع كتاب الطريق إلى دمشق - أحمد عادل كمال ص ١٥٢

٥ - راجع كتاب خالد بن الوليد - الجنرال اكرم ص ٣٤٠

٦ - راجع كتاب الأمم الإسلامية - الشيخ محمد الخضري ج ١ ص ٢٨٠ و ٢٨١ .

٧ - راجع كتاب المختصر في أخبار البشر - أبو الفداء ج ١ ص ١٥٩

٧- ايضاً : مجلة السريان الارثوذكس ص ٤١٥-حول اضطهاد البيزنطية للمسيحيين العرب . بقلم سيادة مار اغناطيوس يعقوب الثالث بطريرك انطاكية وسائر المشرق .

٨ - راجع كتاب تاريخ الحضارة - الدكتور جورج حداد ص ٢٢٨ و ٢٣٥ و ٢٤٧ و ٢٤٩ .

٨ - راجع كتاب فتوح الشام - الواقدي ج ١ ص ٩٨

٨ - راجع كتاب خالد بن الوليد - الجنرال اكرم ص ٣٤١ و٥٠١ بعدها

٩ - راجع كتاب فتوح الشام - الواقدي ج ١ ص ٩ و ١١٠ و ١٤٢ و ١٤٣

١٠ - راجع كتاب خالد بن الوليد - الجنرال اكرم ص ٤٣٩

١١ - راجع كتاب المغازي - الواقدي ص ١٠١٥ و ١١٢٤

١١ - راجع كتاب خالد بن الوليد - الجنرال اكرم ص ٣٩٨

١٢ - راجع كتاب تاريخ سورية ولبنان - فيليب حتي ج ٢ ص ١٤

١٣ - راجع كتاب خالد بن الوليد الجنرال اكرم ص ٣٢٧ و ٣٥٩

١٤ - راجع كتاب فتوح الشام - الواقدي ج ١ ص ١١

١٥ - راجع كتاب الفتوحات العربية الكبرى - جون باشون جلول ترجمة خيري حماد - الهامش للمترجم ص ٢٣٤

١٥ - راجع كتاب تاريخ بلاد الشام حتى نهاية العصر الأموي - أحمد اسماعيل علي ص ١٠٣

١٥ - راجع كتاب الفخري في الآداب السلطانية - ابن طباطبا ص ٧٥

١٥ - راجع كتاب الطريق إلى دمشق أحمد عادل كمال ص ٢٣٢

١٥ - راجع كتاب موجز تاريخ العرب - سيد أمير علي ص ٤٢

١٦ - راجع كتاب تاريخ الشعوب الإسلامية - كارل بروكلمان ص ٩٤ .

١٧ - راجع كتاب خالد بن الوليد - الجنرال اكرم ص ٣٦٦

١٧ – راجع كتاب معجم البلدان – ياقوت الحموي ج ٣ ص ٣٣٩

١٨ – راجع كتاب فتوح الشام – الواقدي ص ١٤٢

١٩ – راجع كتاب خالد بن الوليد – الجنرال اكرم ص ٤٤٥ و ٥٠٩ و ٥١٤

١٩ – راجع كتاب الطريق إلى دمشق – أحمد عادل كمال ص ٤١٠ و ٤١٥

٢٠ – راجع كتاب خالد بن الوليد – الجنرال اكرم ص ٥٠٩ و ٣٥٤

٢٠ – راجع كتاب قصة الحضارة رول ديورانت مجلد ١٣ ص ٧٠

٢١ – راجع كتاب خالد بن الوليد – جنرال أكرم ص ٣٣٣ و ٣٦٧ و ٣٦٨ و ٣٦٩ .

٢٢ – راجع كتاب خالد بن الوليد الجنرال اكرم ص ٣٥٥

٢٣ – راجع كتاب خالد بن الوليد الجنرال اكرم ص ٤٥٥ و ٥٠٩ و ٥١٤

٢٣ – راجع كتاب تاريخ الشعوب الإسلامية – كارل بركلمان ص ٧٥

٢٣ – راجع كتاب الطريق إلى دمشق . أحمد عادل كمال ص ٤٣٦

٢٤ – راجع كتاب فتوح الشام – الواقدي – ج ١ ص ٢٥ و ٢٦

٢٥ – راجع كتاب فتوح الشام – الواقدي ج ١ ص ٦٤

٢٦ – راجع كتاب فتوح الشام – الواقدي ج ١ ص ٦٥

٢٧ – راجع كتاب خالد بن الوليد – الجنرال اكرم ص ٤٣٧

٢٨ – راجع كتاب فتوح الشام – الواقدي ج ١ ص ٨٨ و ٧٧

٢٩ – راجع كتاب فتوح الشام – الواقدي – ج ١ ص ٨٨

٣٠ – راجع كتاب فتوح الشام – الواقدي – ج ١ ص ٨٩

٣١ – راجع كتاب فتوح الشام – الواقدي – ج ١ ص ٨٥ و ٩٨

٣١ – راجع كتاب خطط الشام – محمد كرد علي ج ١ ص ١٠٩

٣٢ – راجع كتاب المغازي – الواقدي ص ٩٨٩

٣٣ – راجع كتاب فتوح الشام – الواقدي – ج ١ ص ٩٢

٣٤ – راجع كتاب فتوح الشام – الواقدي – ج ١ ص ٩٤

٣٥ – راجع كتاب فتوح الشام – الواقدي – ج ١ ص ٩٥

٣٦ – راجع كتاب فتوح الشام – الواقدي – ج ١ ص ٩٥ .

٣٧ – راجع كتاب تاريخ الملوك – الطبري ج ٣ ص ٦٠١ .

٣٧ – راجع كتاب الطريق إلى دمشق ، أحمد عادل كمال ص ٢٩٦

٣٨ – راجع كتاب فتوح الشام – الواقدي ج ١ ص ٩٦

٣٩ – راجع كتاب فتوح البلدان – البلاذري ص ١٣٦ و ١٣٧

٤٠ – راجع كتاب فتوح الشام – الواقدي ج ١ ص ٨٥

٤٠ – راجع تاريخ الرهاوي المجهول – في مكتبة سيادة مطران حمص السريان الأرثوذكس ملاطيوس برنابا لدي صورة بخط سيادته عمايهم .

٤١ – راجع كتاب تاريخ الملوك – الطبري ج ٣ ص ٦٠١

٤١ – راجع كتاب الكامل في التاريخ – ابن الأثير ج ٢ ص ٣٤٢

٤٢ – راجع كتاب تاريخ الملوك – الطبري ج ٤ ص ٥٠

٤٣ – راجع كتاب مروج الذهب – المسعودي ج ٢ ص ٣٠٦

٤٤ – راجع كتاب معجم البلدان – ياقوت الحموي ج ٣ ص ٣٤٠

٤٥ – راجع كتاب مصور مدينة حمص عن العدد الثاني لمجلة البحث التاريخي الصادرة في حمص .

٤٦ – راجع كتاب مصور قلعة حمص من الشمال بالاعتماد على بعض الآثار المتبقية .

٤٧ – راجع كتاب مصور قلعة حمص من الجنوب بالاعتماد على بعض الآثار المتبقية .

٤٨ – راجع كتاب مصور حروب حركة التحرير والفتح للجيش العربي الاسلامي في عهد الخليفتين أبي بكر وعمر بن الخطاب فيما يتعلق بتحرير مدينة حمص من السيطرة البيزنطية .

أسواق حمص

دراسات شاملة

محمد فيصل شيخاني

من المتعارف عليه ان سوق المدينة ظاهرة اقتصادية ولكنها في التعريف الأشمل ظاهرة إنسانية حضارية تشمل المكان مجموعة : (الحوانيت والمسقفات) والإنسان (الباعة والمشترون) والسلعة (المصنوعة أو الخام) . ومن هذا التعريف فليست السوق تعبيرا عن حياة المدينة الاقتصادية وعنوان نشاطها الصناعي والزراعي والتجاري فحسب بل هي أيضاً تعبير عن حياتها الاجتماعية وقيمها الأخلاقية وطراز معيشتها وعن سياستها . الم تكن أسواق روما منبرا لخطب الخطباء وأسواق العرب سرحا للشعر والشعراء ، وفي سورية الم يؤثر الاضراب والمقاطعة الاقتصادية التي أعلنها الشعب العربي عام ١٩٣٦ على مجريات سياسة الانتداب الفرنسية .

لقد تميزت الأسواق العربية خلال العصور بنشاطها ويتنوعها وسيادة بعض النظم فيها كالحسبة(١) مثلاً . وأسواق حمص لا تخرج عن الصفات

(١) عالم الفكر (بحث عن المدينة الاسلامية)

التي اتصفت بها السوق العربية . فقد أخذت أشكالا معينة أو اختصت بسلعة من السلع كما أن الموقع الستراتيجي الهام قد ساهم في تنمية الحركة التجارية وأدى إلى تنشيط الأسواق فيها تجاريا ومعماريا واجتماعيا.

(الأهمية الاقتصادية) كون حمص مركز تجارة ريفية بدوية حضرية

لقد تميزت حمص باختلاف بنيوي وتضاريسي ومناخي مما اعطاها تنوعا في الحياة النباتية والحيوانية ونمط عيش السكان(٢) . فظهور الفائض الزراعي استتبع وجود معاصر الزيتون وصناعة الدبس وطحن الحبوب وبالتالي صناعة الأدوات اللازمة للزراعة وظهور الفائض الحيواني استتبع ظهور صناعة الدباغة وغزل الصوف وصنع البسط والاستفادة من الفرو والوبر ولحاجة المزارع والبدوي لتصريف انتاجهما وشراء حاجياتهما المصنوعة ، وحاجة سكان وصناع المدينة لهذه المنتجات وتصريف انتاجهم الصناعي نشأت أهمية حمص كملتقى لهذه الفئات الثلاث وزاد في اواصر العلاقات قرب مناطق الإنتاج من بعضها مما انتج علاقات أخرى كالسمسرة والشراكة بالاضافة إلى ان عددا كبيرا من سكان البلدة كانوا يزاولون مهنة البستنة وتأثير هؤلاء لا ينكر في اقتصاد البلدة .

ومما زاد في أهمية حمص منذ القديم كمركز صناعة وتجارة ريفية بدوية حضرية (موقع حمص المتوسط) بين الممالك والمراكز العسكرية القديمة في المنطقة مثل قطنة وقادش واريتوزا وتدمر وجوسية بالإضافة إلى ممالك حماه ودمشق .

---

(٢) ربوع حمص للدكتور عماد الدين الموصلي)



مجرى نهر العاصي حيث تستمد مدينة حمص المياه منه

الأهمية التاريخية

ومما لا شك فيه أن اعتبارات ومظاهر تاريخية متتابعة ، ساعدت على استمرار وازدهار الحياة الاقتصادية ومن أهمها .

١ – لقد حظيت حمص بمكانة دينية وثنية قبيل ظهور المسيحية وأثناءها فقد بنى فيها معبد الشمس الذي ضم بين جدرانه الكهنة الكثيرين

الذين كانوا يجرون طقوسهم التعبدية للمريدين من داخل المنطقة وخارجها : وحاجة هؤلاء متنوعة من مبيت وشراء تمائم وتقديم نذور وأغذية ولوازم استهلاك مما استدعى تنامي فئة التجار المنتفعة والمرتبطة مصلحيا مع طبقة كهنة الشمس والذين تآمروا جميعا في صد تقدم الدين المسيحي ولاحقوا اتباعه(١) .

٢ — وبوجود أسرة شمس غرام الملكية العربية في حمص من اواخر عهد المكدونيين واوائل عهد الرومان من — ٨١ ق.م — ٩٦(٢) م . والتي امتدت سلطتها لتشمل حمص واريتوزا وسلاميا(٣) ، استمر ازدهار الأسواق نظرا لحاجة الأسر الملكية للابهة وترابطها مع الاتباع .

٣ — عندما قضى الرومان على استقلال حمص الذاتي بقي لحمص أهميتها اذ أعطاها الامبراطور مارك اوريليوس حق صك العملة وجعلها قاعدة سورية اللبنانية . كما انتعشت المدينة عندما تزوج الامبراطور سبتموس سيفيروس ١٩٣ — ٢١١ م من جوليا دومنة الحمصية ابنة رئيس معبد الشمس . بما ظهر فيها من تحسينات في الطرق والقنوات واتبع ذلك حصولها على حقوق منزلة المدن الرومانية على يد الامبراطورين كاركلا وايلاغا بال ٢١٨ — ٢٢١ .

٤ — وعند استقلال حكومة تدمر على يد اذينة وزنوبيا واتساعها لتشمل آسيا الصغرى وسورية ومصر بقيت حمص مزدهرة كمدينة مهمة قرب تدمر . في هذه الامبراطورية الناشئة(١) . وقد جعلها اذينة مكانا لاستجمامه . وعندما قضى الامبراطور اورليان على مملكة تدمر سنة ٢٧٢ كان قد عمل على تحييد أهل حمص تجاه زنوبيا بوعده بتجديد معبد الشمس في هذه المدينة .

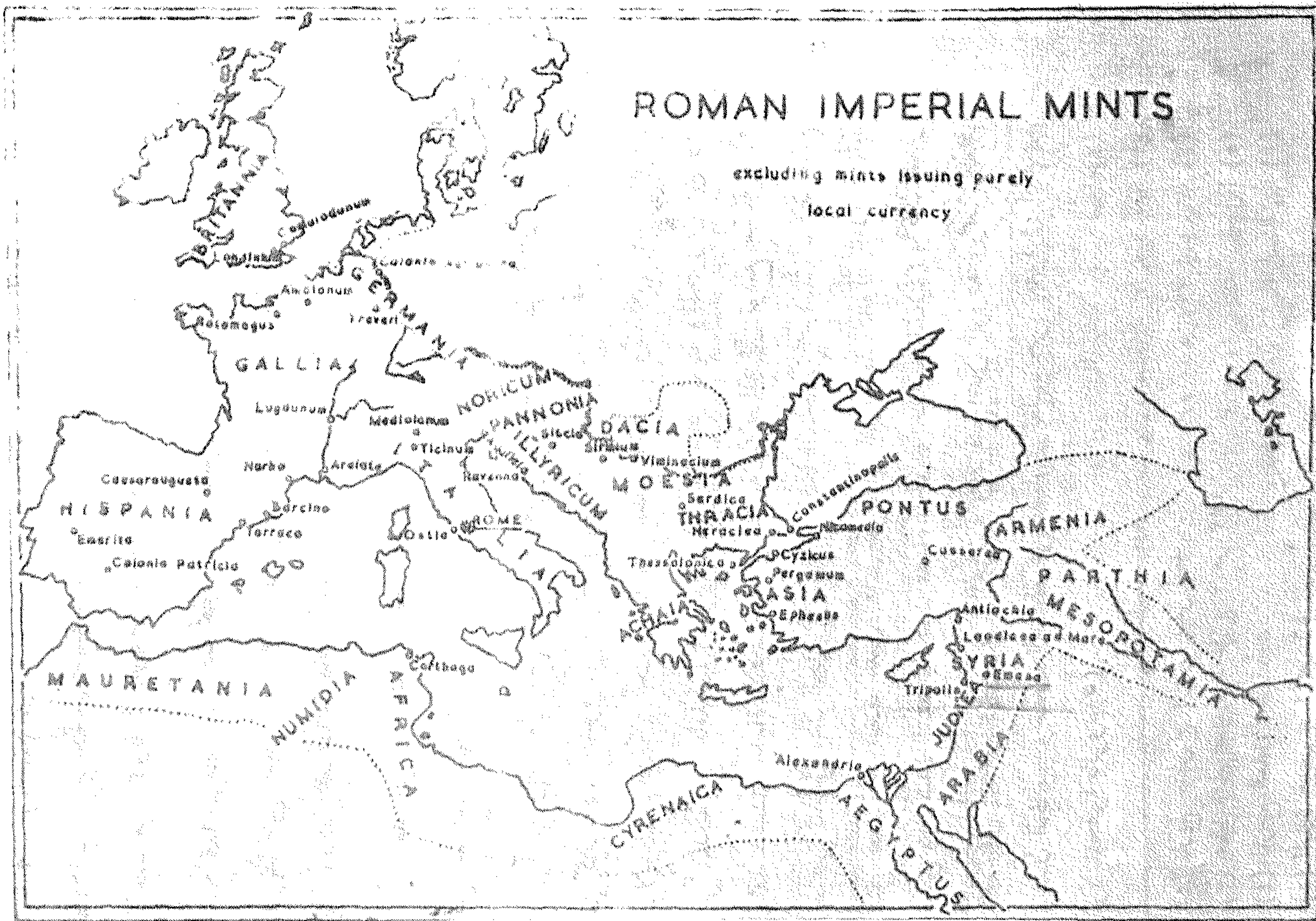
---

(١) المؤرخ الالماني هارناك

(٢) جولة أثرية لأحمد وصف زكريا ص ٣١٧

(٣) الاسم القديم (السلمية)

(١) تدمر للدكتور عدنان البني والأستاذ خالد أسعد



مراكز صك النقدي الامبراطوية الرومانية
وحمص احدى هذه المراكز

٥ – ولما قدم العرب المسلمون لتحرير حمص من البيزنطيين ١٤ هـ / ٦٣٥ م خرج الباعة الحمصيون إلى معسكر المسلمين فباعوهم القسم الأعظم من المؤونة لما راوه من سماحة العرب في البيع والشراء .

كما جرت تبادلادت تجارية مع الجيش العربي عندما صار هريبس بطريقا على حمص من قبل هرقل وقد سر الحمصيون في أنهم كانوا يشترون من العرب ما يعادل عشرين ديناراً بدينارين(٢) .

وبعد تحرير حمص استمر ازدهار المدينة بسبب اقامة عدد كبير من الصحابة فيها :

آ – وبعد ما جمع هرقل الجموع للمسلمين ردوا لاهل حمص ما كانوا قد أخذوه من خراج وهو ١٧٠.٠٠٠ دينار فقال السكان : لولايتكم وعدلكم أحب الينا من الظلم والضيم ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم(٣) وهذا دليل ما ساد المدينة والمحررين من ود وثقة دعمت الحياة الاقتصادية في المدينة بالاضافة إلى توسع سلطة ولاة حمص لتشمل مدن الجزيرة شمالا . كما ان حمص حظيت بولاة عظام مثل عمير بن سعيد الذي كان يقول : ان حائط الدولة العدل وبابه الحق وان شدة السلطان تكون قضاء بالحق وأخذا بالعدل(٤) وكان عمير هذا على حمص وقنسرين والجزيرة وقد فتح عين الوردة ورأس العين ومدن الخابور وخفف الصدقة على نصارى تغلب حتى يبقوا في أرضهم ولايلتحقوا بالروم(٥) .

---

(٢) تاريخ حمص ج ٢ منير عيسى أسعد
(٣) خطط الشام محمد كرد علي ج ٢ ص ١٣٣
(٤) المرجع السابق
(٥) تاريخ حمص ج ٢ ص ٤٦

ب – وبانقضاء حكم الأمويين ورغم أن حمص بعدت عن مركزه العاصمة الجديدة بغداد بقي لها ازدهارها الاقتصادي حيث بلغت جبايتها زمن هارون الرشيد ٣٤٠ ألف دينار والف حمل من الزبيب(١) .

ج – ولا ادل على استمرار ازدهار أسواق حمص ما وصفها المؤرخون بأنها ارصفتها مفروشة بالصخر(٢) ووصفت في القرن العاشر الميلادي بان مدينة حمص في مستوى من الأرض خصبة جدا من أصح بلاد الشام هواء وتربة وفي أهلها جمال . . ولها مياه وزروع وعامة طرق حمص مفروشة بالحجارة(٣) . وفي زمن النوريين والصلاحيين صارت حمص مركز تجمع وانطلاق للجيوش العربية ضد الفرنجة وصارت عامرة بالناس والمسافرين اليها يقصدونها بالامتعة والبضائع في كل فن . وأسواقها قائمة ومسرات أهلها دائمة . . . وثراها طيب للمزروعات واقتناء الغلات وطرقها مفروشة بالحجر وزراعتها مباركة(٤) بالاضافة إلى أن أبوابها متسامية لارتفاعها تكتنفها الابراج(٥) .

هـ – وفي زمن المماليك استمر تقدم حمص الاقتصادي رغم الكساد الذي ساد المنطقة نتيجة تحول طرق التجارة من البحر المتوسط إلى الأطلس بعد الكشوف الجغرافية الأوربية وصارت حمص تتلو اسكندرية مصر ينتج فيها من الأقمشة الفائقة الجودة(٦) وان جميع شوارعها مفروشة

---

(١) خرد ذابه في جولة اثرية ص ٣٢٢
(٢) الهمداني في كتاب البلدان
(٣) العالم الجغرافي الاصطخري في القرن العاشر
(٤) الادريس ٤٩٣ هـ – ٥٦٩ هـ
(٥) ابن جبير المتوفى ٦١٤ هـ
(٦) ابن النصن انونى ٧٠٠ – ٧٤٩ هـ

بالحجر الصلد(٧) وارجاؤها مونقه وأشجارها مورقه وأسواقها فسيحة الشوارع (٨) .

حمص في أواخر القرن الثامن عشر

د — وفي زمن العثمانيين نجد الرحالة أوليا تشلبي(٩) يذكر أن حمص مركز لواء يتبع ايالة طرابلس الشام وفيها أميرلاي وبوز باشي

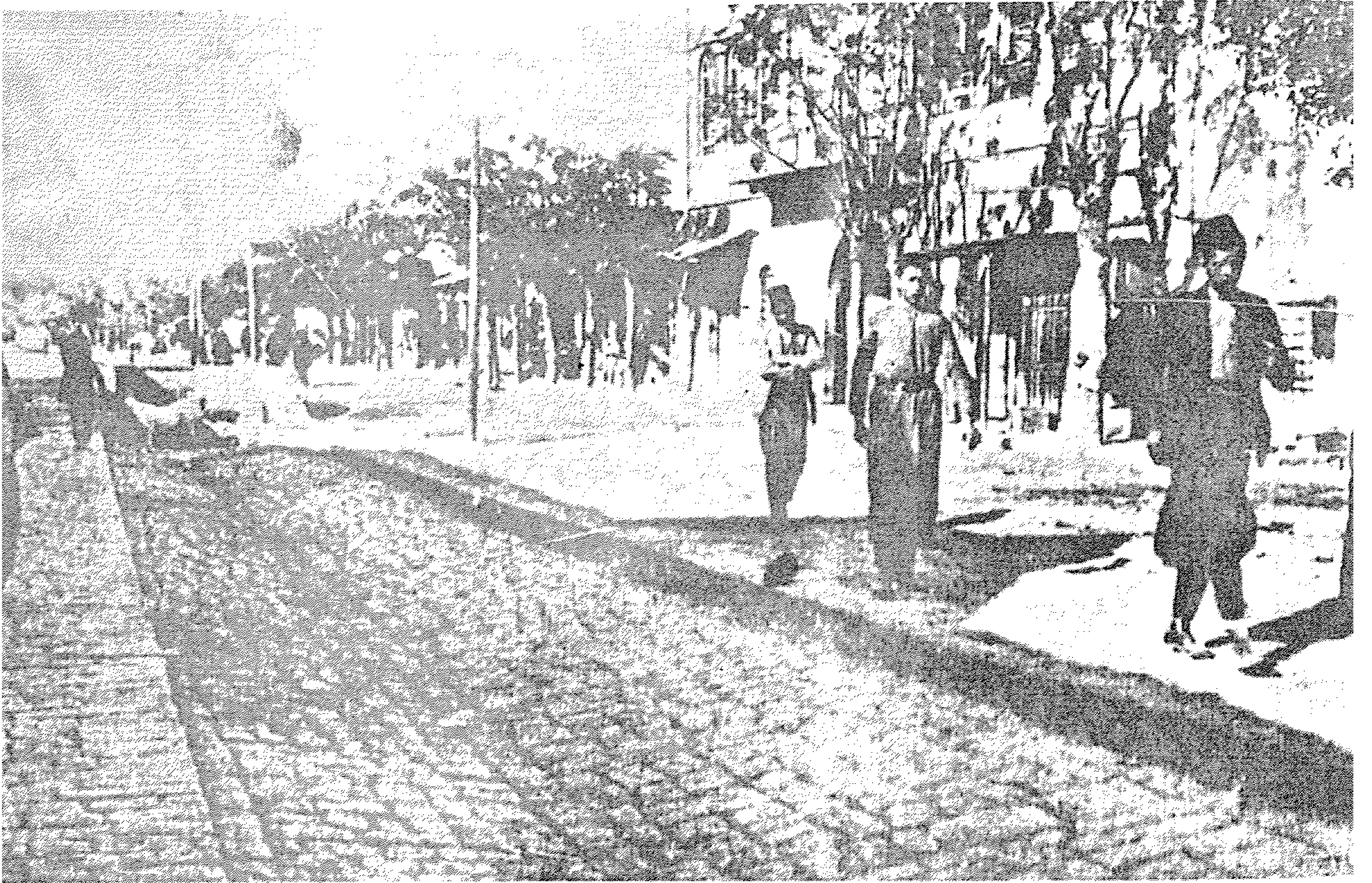
(٧) ابن الوردي ١٣٢٩ م

(٨) ابن بطوطه ٧٧٩ ه

(٩) ١٦١٣ – ١٦٧٩ م ١٠٥٨ ه

ونقيب اشراف ومحتسب وينتج فيها من الحرير مناشف ومناديل وفوط ويذكر محمد مكي بن السيد في مخطوط تاريخ حمص من عام ١١٠٠ — ١١٣٥ هـ انه في عام ١١٠٧ هـ انجز بناء السوق الجديدة ويقصد بها احدى الأسواق القديمة القائمة على أيامنا ويذكر أن الساقية في حمص قد تجمدت وبطلت حركة الأسواق .

وعندما تولى حكام محليون منطقة حمص مثل آل العظم وآل الجندي ازداد ازدهارها وقد عثرت في مخطوطات قديمة عن بناء الأسواق واورد فيما يلي شيئا عنها على سبيل المثال تاركا التفصيل في هذا المضمار لمجالات ثقافية أخرى .



شارع السراي (دار الحكومة) من اوائل القرن العشرين

(١٠) المؤرخ الحمصي عبد الهادي الوفائي (مخطوط)

تاريخ بناء سوق بني العظم

بديـــــع في محاسنه تغـــــرد
وقد أضحـــى على الآفاق فـــرقـد

لقد انشا بحمص الشام سوقـــا
غـــدا يزهو جمالا وقد تجـــدد

به ابتهجــــت مدينتنـــا سرورا
فما احلاه مـــن سوق مشيـــد

بناه سيد مـــن آل عظـــم
بهمة رفعـــت زاهي محمـــد

سنة ١٣١٣

وفي فترة لاحقة عبدت الطريق من حمص وطرابلس ١٨٨٤ وسارت عليه عربات تجرها خيول بادارة شركة محلية بقيت مستمرة حتى مدت السكة الحديدية عام ١٩٠٢ ونجد حتى الرحالة الأجانب يشيدون بنظافة حمص فيقول الانكليزي بورتر : حمص من أنظف البلدان وأحسنها انتظاما فجاداتها على العموم مبلطة تبليطا جيدا فلا نرى فيها غبارا ولا وحلا كما نرى في دمشق(١) . . . .

وفي عام (١٨٧٣) تعاقد أرباب السلطة في استنبول مع أحد رجال الصناعة(٢) من حمص على تقديم الأثواب الموشحة بخيوط الفضة

---

(١) تاريخ حمص ج ٢
(٢) السيد انيس ملدور ١٨١٨

منطقة الأسواق الحديثة والقديمة

والذهب لرجال البلاط الهمايوني وحاشية السلطان في استنبول نظرا إلى دقة الصناعة الحمصية مقابل ١٢٠٠ قرش تركي للبذلة الواحدة كما تأسست جمعية اقتصادية حمصية هي الأولى في القطر للاستمرار في تحسين المنسوجات تجاه المنافسة الأجنبية عام١٨٩٨وقد بلغ عدد كراسي الحياكة في حمص ٨٠٠٠ وارتفع عام ١٩٠٩ إلى عشرة آلاف وصارت الأولى في بلاد الشام .

وهكذا نجد باستمرار بأن أسواق حمص كانت مزدهرة خلال العصور التاريخية رغم تعرض المدينة وأسواقها لزلازل متعددة وسيول وغزوات ولكنها بقيت صامدة لتعبر عن استمرارية البقاء ويمكن تقسيم أسواق حمص وفق ما يلي :

١ ــ حسب السلعة التي تباع فيها : مثل أسواق الحشيش ، الخضرة ، الحبوب ، التبن ،الهال (لتسويق الخضار والفواكه) ويقع الآن شرقي نهر العاصي ، الطحين ،السمك ،الغنم ، (متنقله). الحمام ،والدجاج . . . الخ .

٢ ــ أسواق حسب المهنة : الصاغة . النحاسين . الخياطين : النجارين ، المبيضين (تبييض النحاس بالقصدير) الخراطين . الدباغة .

٣ ــ أسواق باسم المالكين : سوق الفيصل (وتباع فيه اللحوم) وسوق الجندي ويقع في باب السوق لبيع الخضار والفواكه وهي سوق حديثة .

٤ ــ أسواق باسم من يتولى فيها : مثل سوق النسوان حيث كانت النسوة يبعن فيه الأشياء القديمة والمستعملة ويقابل سوق العتيق في دمشق أو سوق الحراج في بعض البلاد العربية .

٥ ـ أسواق بتسميات مختلفة مثل : سوق الحميدية (نسبة السلطان عبد الحميد) وسوق الحسبة نسبة لوجود دار الحسبة فيه وسوق باب السوق .

أ ـ أما سوق الحميدية فكائنة في شمال شرق المدينة وفيها تصنع وتباع اللوازم الخاصة بابناء الريف ، كما كانت توجد فيها خانات : هي أسواق للتبادل التجاري من ابناء الريف وابناء المدينة وقد لعبت هذه الخانات دورا اجتماعيا كبيراً وبناءً اذ أن التعايش من سكان الريف وسكان المدينة قد اكسب كلا منهما عادات وتقاليد الآخر ولذلك فان ابن القرية عندما يسكن المدينه لا يشعر بالغربة(١) .

ب ـ أما سوق (باب السوق (فقد ازيلت أبنيته القديمة ومحلاته الآن تتصل بمحلات ودكاكين السوق الجديدة(٢) وساحة باب السوق . ـ والمرجح أنه كان يسمى قديما باب الرستن ـ تقع شمال الأسواق المسقوفة القديمة التي سيرد حديث خاص عنها .

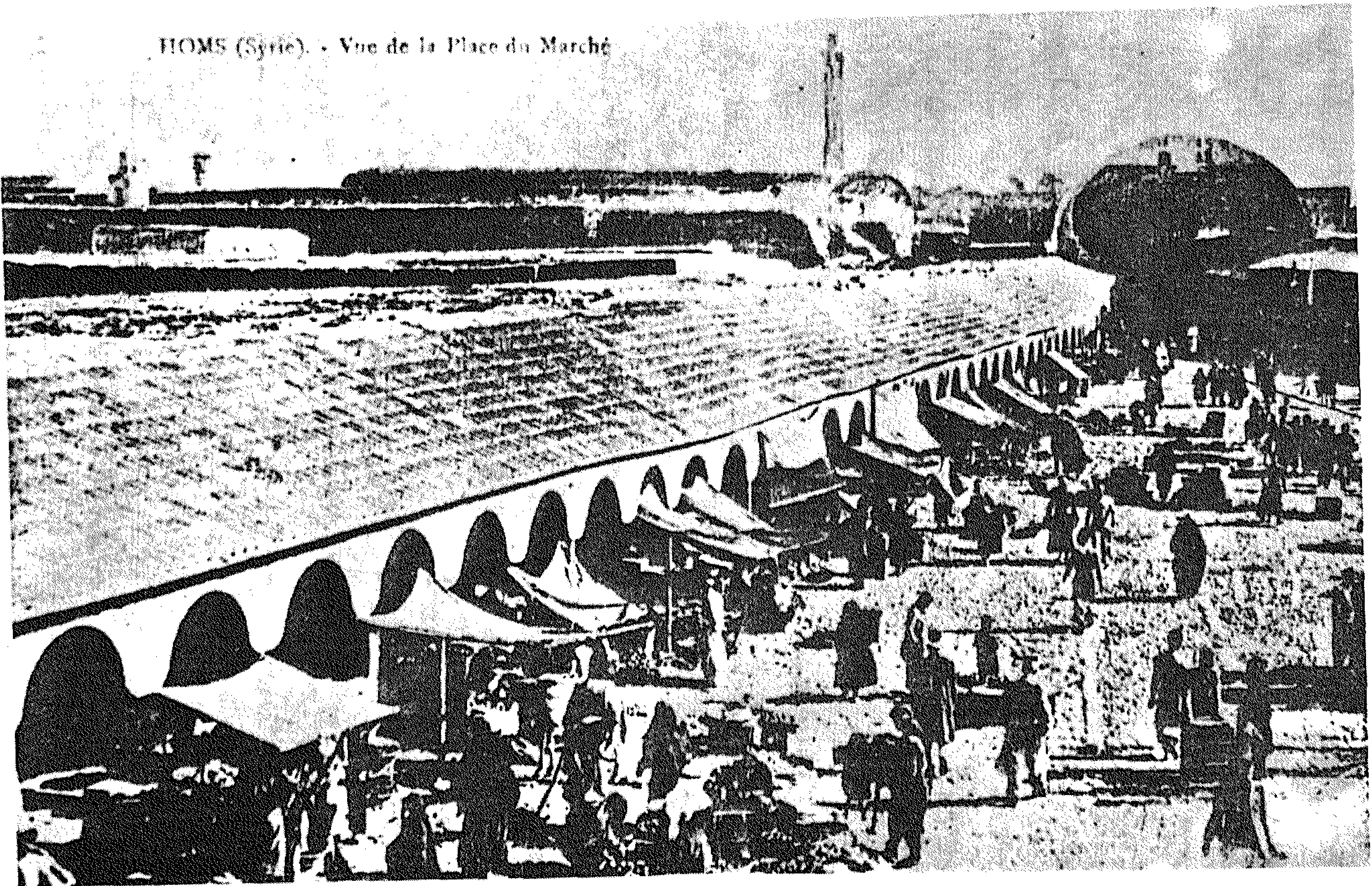
جـ ـ سوق الحسبة يصل ما بين سوق النوري بشارع عبد الرحمن ابن عوف المعروف بشارع أبي العوف .

ولا يفوتنا أن نذكر الأسواق المتفرقة في الأحياء والمسماة باسمها غالبا مثل باب السباع ، وصليبة العصياتي ، باب هود ، باب الدريب ، ومحلات وأسواق الأحياء الجديدة : مثل عكرمة والنزهة والزهرة . . . وغيدهما .

---

(١) مجلة العمران عدد ٢٧ / ٢٨ بحث للأستاذ باسيل سجن

(٢) كانت تقوم مكانها الثكنة المملوكية



سوق باب السوق منذ ٧٥ عاما

هـ – ومن الظواهر الاقتصادية الحديثة في المدينة وجود المحلات التجارية الخاصة بالجمعيات التعاونية الاستهلاكية ، والمؤسسات الاستهلاكية الحكومية ومراكز وسائل النقل العامة والخاصة .

و – ومن أهم هذه الظواهر الاقتصادية الحديثة لا بد لنا من ذكر مصفاة بترول حمص ومعامل استخراج السكر من الشوندر السكري (البنجر) ومعامل الألبان والنسيج والصباغ والسماد الآزوتي وصوامع الحبوب والمخابز الآلية وغيرها كثير . ودور هذه الظواهر كبير في التجارة المحلية والتجارة الخارجية .

أسواق وتجارة حمص في أواخر القرن التاسع عشر

قبل أن نتحدث عن أسواق حمص المسقوفة القديمة نجد من الممتع والمفيد أن نذكر شيئا عن الحالة الاقتصادية للمدينة وحالة أسواقها وتجارتها في نهايات القرن التاسع عشر كانت المدينة تعتمد على الزراعة والصناعة وعليها تقوم تجارتها .

من المحاصيل الزراعية : القمح والشعير والفول والحمص والعدس وكانت تبلغ حوالي (١٤٠٠٠٠) شنبلا(١) يستهلك أقل من نصفها محليا والباقي يصدر للخارج عن طريق ميناء طرابلس الشام .

٢ – أما الصناعة وأغلبها يقوم على المنسوجات المتنوعة وفق مايلي مع ذكر أماكن التصدير .

---

(١) مايعادل ٢٠٦ كغ .

التسمية	الكمية المنتجة	مكان الاستهلاك والتصدير
قماش الملس(٢)	٣٥٠ ثوبا	البلاد العربية
آلاجه حريرية(٣)	٣٤,٠٠٠	الحجاز وازمير واليمن
زنار حريري	١٨,٠٠٠	الاستانه وازمير ومصر والشام وبيروت
ديما(٣)	٣٥,٠٠٠	إلى مصر
زنار	٤٨٠٠٠	إلى مصر وحلب

بالاضافة الف شرشف حرير و ٧٠٠٠ عباءة صوف وحرير تزيد إلى ذلك استهلاكالمدينةوالضواحي المتعددةوالمقدرة٣٠٠,٠٠٠قطعةمتنوعة.

٣ ـ أما عدد أنوال النسيج القديمة .

العدد	النوع	العدد	النوع
٤٣٣٠ نولا	والديما	١٠٠	دوراره للتسديد والغزل
١٥٠ نولا	للزنار	٧٠	دولايا للفتل
١٨٠ نولا	للشراشف والأعبية		

٤ ـ وكان يخصص لكل نول صانع ومعاون ولكل دولاب٣صناع ومعاون .

والأجرة اليومية لعامل النول من ٥ ـ ١٠ قروش عثمانية .

٥ ـ أما الواردات : فهي خيوط الغزل والحرير والأصواف والأقمشة الحريرية والطربوش . . .

---

(٢) حمص أم التجارة السور للدكتور ساطع محلي

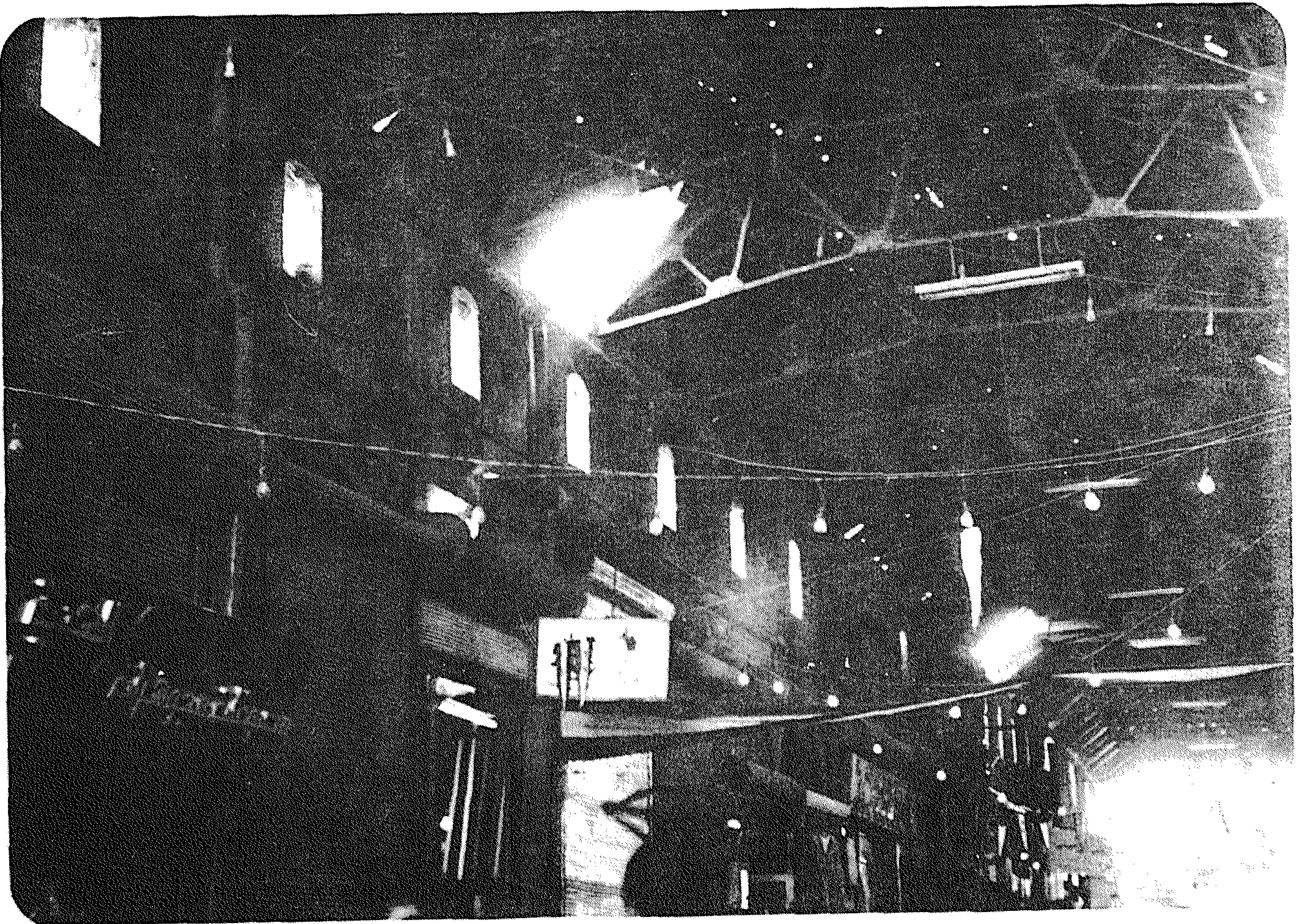
(٣) أنواع من الأقمشة الحريرية الرجالية .

وأدوات الصناعة : خشب . حديد . نحاس . رصاص ، جلود والعطور وزيت البترول والسكر والورق والعقاقير والتبغ وأكثره يرد من أوربا .

٦ — وكان الميناء المعتمد هو طرابلس الشام التي تصل بحمص بواسطة مركبات تجرها خيول تشرف عليها شركة محلية .

أسواق وتجارة حمص بعد منتصف القرن العشرين

صارت التجارة في حمص داخلية على الأغلب بين تجار المدينة وتجار المدن العربية السورية الأخرى ومع تجار القرى والنواحي التابعة لمحافظة حمص وأعراب البادية المقيمين في المحافظة حيث يقدم أصحاب المهن في المدينة للمزارعيين وابناء الريف ، المصنوعات والأدوات اللازمة لهم من مفروشات لبيوتهم (مخدات فرش لحف) وكساء لاجسامهم (عقل حطاطات قنابيز . . أحذية خاصة بالريف) وأدوات حراثة وحصاد و (من صمود ، محرايث ، مناجل) وتقديم خدمات (صناعة العربات للنقل بواسطة الخيول) . . . . ولهذا كنا نشاهد سوق الحميدية الكائن في الناحية الشرقية الشمالية من المدينة ، على الطريق المؤدي إلى القرى الشرقية . يزدحم بالحوانيت التجارية الريفية . . . وقد انقرضت كثير من الحاجيات الرائجة في ذلك الوقت أو في طريقها إلى الانقراض وخاصة بعد التقدم العلمي والتقني في أساليب الزراعة والصناعة ووسائل النقل وتحسن طرق المواصلات وانارة الريف ، وحتى الملابس السابقة كانت تنقرض بعد أن صارت حاجيات المواطن في الريف والمدينة متشابهة .



سوق النوري (السقف من التوتياء)

وفي حمص كانت تقام أسواق دورية مثل سوق الغنم وهي سوق بدوية حضرية بالإضافة إلى سوق الخميس وهي أشبه ما يكون بسوق عامة كتبادل مختلف الحاجات حديثة كانت أم قديمة بين أهل المدن والريف أو بين أهل المدن أنفسهم. كما كانت هناك أسواق فردية تعقد بالخانات حيث يلتجيء ابن الريف اليها بحيواناته ودواجنه ومنتجاتها وهي عنوان وظاهرة على ما يتعلق بالمبادلة من تجار المدن وأهل الريف .

ولا يفوتنا أن نذكر أن التجار الحمصيين كانوا يعتمدون زمن الانتداب الفرنسي على أسواق بيروت وطرابلس لاستيراد حاجياتهم من بلاد الغرب وبعد استقلال سورية تحول تجار حمص للاستيراد عن طريق ميناء اللاذقية .

الأسواق المسقوفة الأثرية في حمص

كانت دكاكين الأسواق في العهد الروماني مزودة باروقة جانبية تستند إلى أعمدة . وشيئا فشيئا اتصلت الأروقة لتشكل سقفا واحدة - بجملون - ثم أضيفت القباب إلى بعضها في العهد العثماني وكانت تبنى من الحجارة والأخشاب . ثم حل الحديد مكانها في القرن التاسع عشر خشية من حدوث الحرائق(١) .

ولا تخلو الأسواق العربية القديمة من جامع ومدرسة وخان ومن حمام وسبيل ماء(٢) ودار للحسبة وشيخ للسوق . وفي حمص خضع بناء الأسواق وتخطيطها للعوامل المناخية والاقتصادية ومواد البناء المتوفرة

(١) دمشق للاستاذ عبد القادر ريحاوي ص ١٤٩
(٢) روائع الاثار الاسلامية ص ١١٢

في المنطقة وتمتاز أسواق حمص بالذوق المعماري المناسب للبيئة وبالتناظر الهندسي الفني المفعم بالزخارف النباتية والهندسية ، وتقع الأسواق ضمن المخطط القديم للمدينة على بعد يتراوح مابين ٣٠٠ – ٤٠٠ م من أسوارها الغربية والشمالية .

سوق النوري – القوافة(٣)

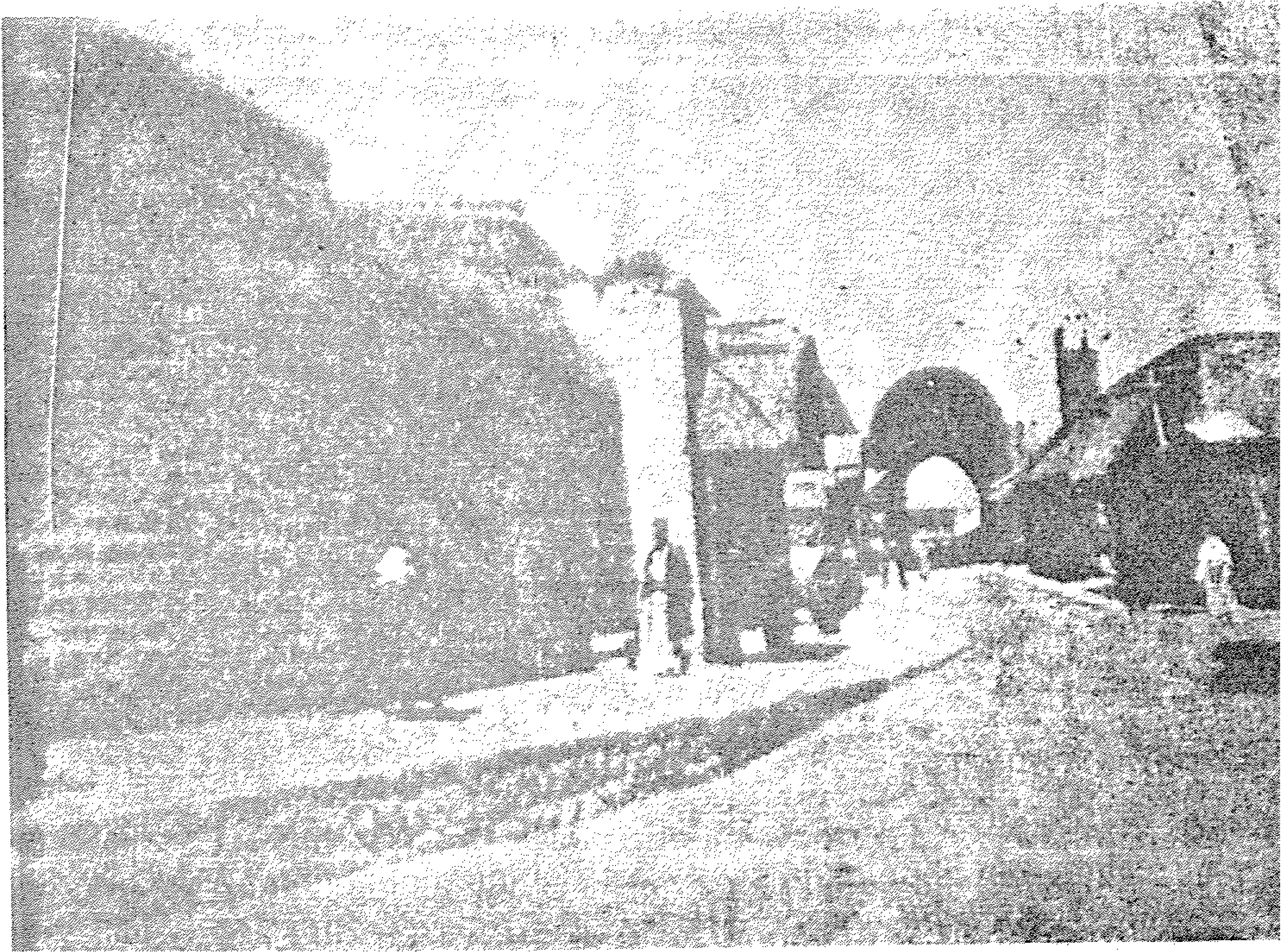
عرفت أيضاً بسوق الزلحفة نسبة لسقفها الشبيه بظهر السلحفاة القائم على عوارض مقببة بألواح التوتياء وكانت تشغل محلاتها مقاه متعددة منها مقهى الزرابليه والفاخوره .ثم عرفت باسم سوق القوافة أو الصرماتية لاشغاله من قبل باثعي الأحذية وخاصة الصرامى الحمر التي كانت رائجة قبل الأربعينات من هذا القرن . ويعرف حاليا بسوق النوري لمجاورته للمدخل الجنوبي لجامع الشهيد نور الدين الزنكي وقد بدأت البضائع المتنوعة تدخله فيما بعد الخمسينات كالفاتورة والتوفوتيه وغيرها . يرجح أن يكون بناء السوق قد تم أيام بناء سوق وخان القيسارية ١٧٤٣ – ١٧٥٦ م المجاور . لكن تجديدات قد أدخلت عليها أيام عبد الحميد باشا الدروبي حيث رصفت بالبلاط الحجري المشذب الأملس الذي غطي منذ فترة بالطبقة الاسفلتية . كما ثبتت في نهايتيه منذ فترة بسيطة أعمدة لمنع وسائل المواصلات من المرور فيه أسوة بالأسواق المسقوفة الأخرى .

يشكل سقف المحلات التجارية عقدا من الحجر الأسود المغطى بالكلس والقنب على ارتفاع أربعة أمتار تقريبا ، وتأخذ المحلات في

---

(٣) أبحاث جريدة العروبة للاستاذ رياض البدري

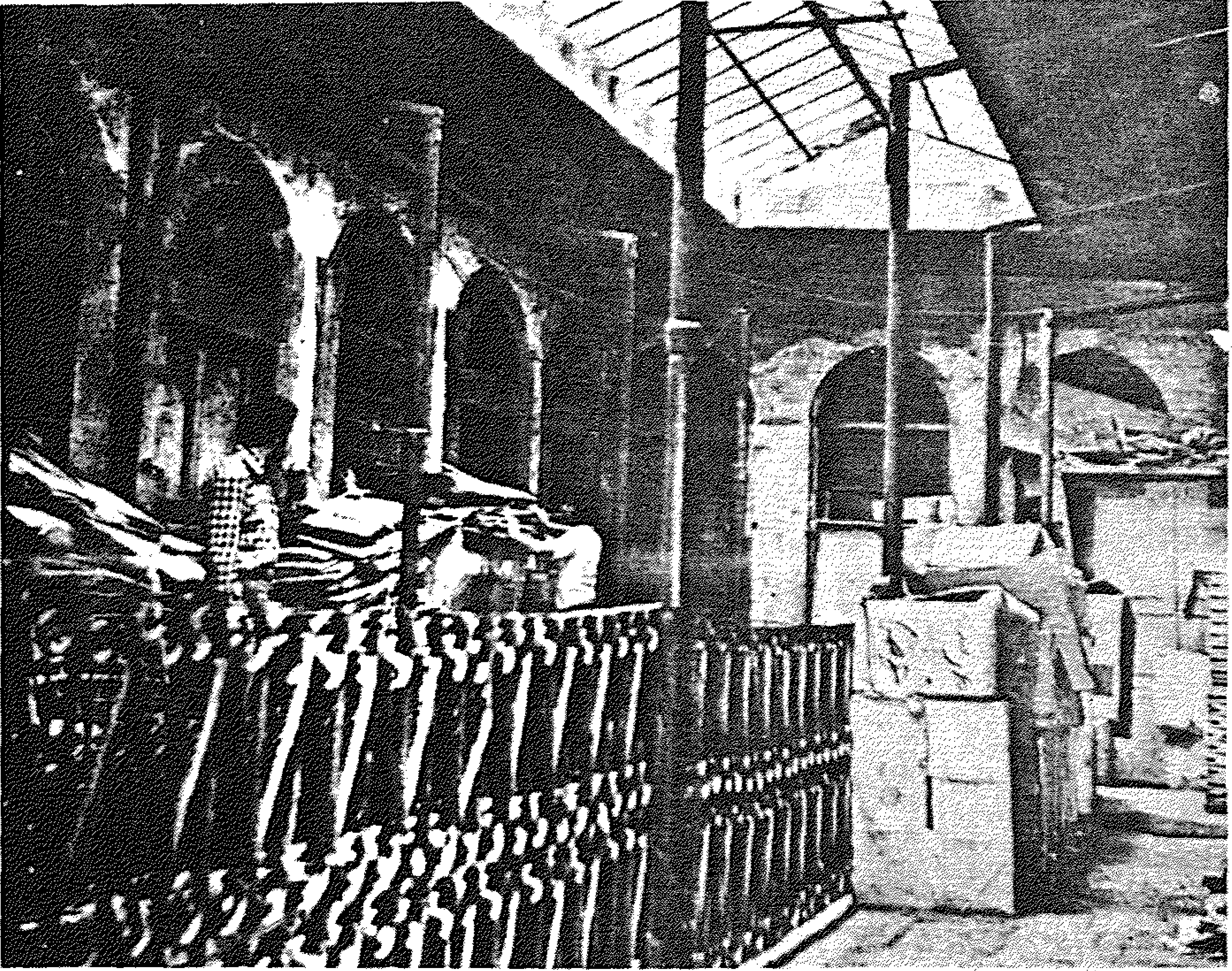
الواجهة قوسا نصف دائري . وتتوضع على عضائد المحلات أشكال هندسية تاجية ذات زخارف بسيطة .



ساحة ال الجندي وحمام الباشا وأول الشارع النوري منذ ٧٥ عاما

ويحيط بالسوق من الأعلى فوق المحلات التجارية نوافذ للتهوية والانارة ، استخدم الحجر الأسود في انشائها . وهي مستطيلة الشكل بابعاد ١٥٠ × ٧٠ سم ومحاطة بقضبان حديدية مبرومة بالإضافة إلى طاقات صغيرة بابعاد ٧٠ × ٤٥ سم تعلوها تزيينات حجرية منحوتة . ويقدر ارتفاع واجهة السوق بسبعة أمتار ترتفع عليها عوارض حديدية وخشبية على شكل سنامي وطول القسم المسقوف منه حوالي ٧٥ مترا ومن طرفه الجنوبي تمتد الأسواق المسقوفة الأخرى . وعلى امتداده من

الغرب تقع سوق (الحسبة) والذي تشغله الآن محلات لبيع اللحوم والاحشاء الداخلية (السخاتير) وبيع الأسماك ويعمل مجلس المدينة على نقلها إلى أماكن أخرى .



سوق المعصرة حاليا

بالاضافة إلى محلات متنوعة لبيع المواد الغذائية والمكتبية وغيرها ، ومن الجهة الجنوبية لسوقي النوري والحسبة تمتد الأسواق الأخرى .

(سوق البازر باشي(١))

وهي سوق مكشوفة تبدا شرقا من نهاية الجهة الجنوبية لسوق النوري ويحده من جهتها الشرقية حمام الباشا وينتهي بساحة تملؤها المحلات

---

(١) المرجع السابق

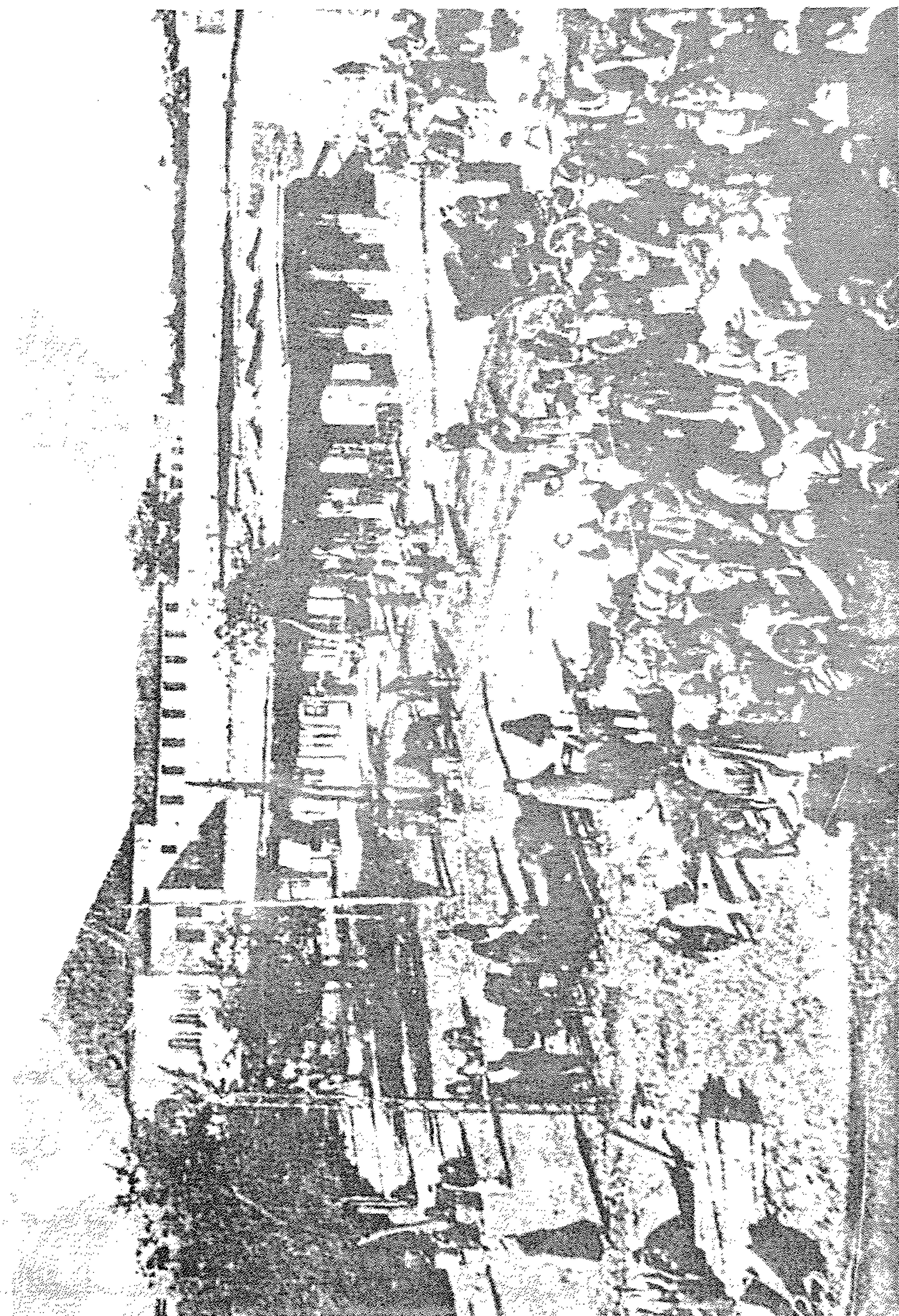
التجارية القديمة . ويتصدرها جامع بازر باشي (رئيس السوق) او شيخ السوق كما يتصل بأسواق مسقوفة لبيع الأقمشة مع سوق الصاغة كما يتصل بساحة صغيرة اخرى فيها الحمام العثماني القديم . ويتمتع بأهمية تاريخية ويعرف هذا السوق عند عامة الناس بسوق (النسوان) حيث كانت تتولى فيه النسوة بيع الأشياء القديمة او المستعملة ، وهكذا نجد ان المراة كانت تشارك في الحياة الاقتصادية عند القديم .

(سوق المنسوجات والصاغة)

وهي موازية لسوق بازرباشي مسقوفة بالتوتيا والتي تتوضع على اعمدة خشبية وحديدية وهي اطول الأسواق المسقوفة تمتد لحوالي ١٦٠ مترا وتبدا أمام المدخل القبلي للجامع النوري باسم سوق المنسوجات وعلى امتدادها تبدأ سوق الصاغة ، ويتفرع منها سوق الحرير على الجهة اليمنى ثم سوق العطارين (المعرض) كما يحتضن الحمام الصغير الآثري ومن الجهة اليسرى تتفرع منه اسواق صغيرة اخرى لبيع النسيج والحرير ولوازم الخياطة وهي في غالبيتها بسقوف من العقد الحجري تحرسها اعمدة حديدية لا تسمح لغير المشاة بالسير فيها .

وفي سوق المعصرة الذي عرف بهذا الاسم لممارسة عصر الدبس فيه قديما ، حيث تظهر في الجهة الشمالية الشرقية منه داخل احدى المحلات التجارية آثار المعصرة الحجرية لزبيب العنب ، لكن السوق تحول الآن إلى محلات تجارية ، استخدم طابقه العلوي حتى عام ١٩٥٩ م لأصحاب مهنة الخياطة ثم لبيع النوفوتيه والأقمشة ومستودعات المنسوجات يتألف طابقه الأول من ثلاثة عشر محلا تجاريا والطابق الثاني على اثنى عشر بابا وعشر نوافذ والدرج لولبي الشكل من احدى وعشرين درجة

وثلاثة عتبات ، ويحيط دهليز بالطابق العلوي (درابذين) حديدي استخدمت الأحجار البازلتية السوداء في بناء السوق والسقف من العقد والجدران مكسوة بالكلس والقنب(١) .



(١) المرجع السابق

(سوق القيسارية)

موازٍ لسوق المنسوجات ويقابل ساحة باب السوق من الشمال وقد عرف بهذا الاسم لمجاورته خان القيسارية (القيصرية) الواقع على العقار رقم ١٧٧٧ – اولى حتى أن الخان نفسه غلب عليه اسم السوق لمزاولة اعمال التجارة فيه منذ زمن بعيد الطابقية .

تم بناء الخان المذكور بأمر من الوالي أسعد باشا بن اسماعيل العظم الذي حكم ما بين ١١٥٦ – ١١٧٠ هـ و ١٧٤٣ – ١٧٥٦ م . يشكل سقف السوق عقدا حجريا يأخذ قوسا نصف دائري ، وعند تفرع الشوارع يأخذ السقف عدة قواس في نقطة المركز .

وسقف المحلات التجارية قوس حجري نصف دائري مع فتحات علوية للتهوية والانارة مربعة الشكل ٦٠ × ٦٠ سم ثبت عليها شبك حديدي وتبعد الفتحة عن الأخرى ٣.٥ مترا بالإضافة إلى نوافذ على جوانب السوق ٩٠ × ٦٠ سم من الخشب والزجاج ، والبناء بشكل عام من الحجر الأسود مورق بالإسمنت والكلس حديثا .

(سوق العبي والخياطين)

ما زالت ارضية السوق من مدخله الشمالي وحتى مدخل خان القيسارية مرصوفة بالاحجار البازلتية وقد بني السقف على شكل عقد من الحجر ، وكذلك المحلات التجارية ، وتتوضع فوق كل محل نافذة مستطيلة للتهوية بابعاد ١٠٠ × ٦٠ سم تأخذ في اعلاها شكل قوس نصف دائري أما الركائز الفاصلة بين المحلات فقد بنيت من الحجر الأسود البازلتي المنحوت بعرض ٤٠ سم ، نوافذ السقف التي تسرب الضوء والهواء مربعه والأبعاد فيما بينها غير متساوية .



سوق مسقوفة بالعقد

وسوق الخياطين كان قديما سوقا للعبي وهو تتمة له وتنشط فيه حاليا مهن الخياطة العربية والتنجيد وبيع البسط وهو على طراز وعمارة الأسواق المجاورة الأخرى(١) .

(سوق قيسارية الحرير)

تم بناؤه بامر من الوالي أسعد باشا ليكون خانا (فندق أو قيسارية) لاستقبال المسافرين من تجار وحجاج وفلاحين . ويتألف المدخل من باب كبير بمصراع واحد من الخشب المصفح بالحديد في وسطه باب صغير يسمى (خوخه) وقفل الباب (سكرة) . ويلي الباب دهليز مسقوف بعقد حيث الدرج الحجري المؤدي إلى الطابق العلوي . ويلي الدهليز باحة ٢٤ × ١٤ مترا تحيط محلات تجارية تطل عليها مباشرة . والطابق العلوي مؤلف من ٢٧ محلا تجاريا على شرقة عرضيا ٢٥٠ سم تحيط بها أعمدة حجرية بيضاء تحمل السقف الخشبي الترابي . أما مواد البناء فمن أحجار حسيا وأخشاب طرابلس والمواد الأخرى محلية .



أحد الأسواق المسقوفة

كانت سوق القيسارية مجمعاً للزيت ما بين ١٨٠٠ - ١٩٠٩ م ثم استقل تجار الحرير في الطابق العلوي وتنوعت المهن بسوق القيسارية بين عام ١٩٣٩ - ١٩٤٠ . فاشتمل على تجارة بضائع جديدة كالفاتورة ومال القبان . أما المزاد العلني على العديد من المواد أيام الأربعاء والجمعة بالإضافة إلى سوق علو آغا سويدان المعروف الآن بسوق الخياطين . وكان الثوار زمن فرنسا يلتجئون إليها بعد أن يقوموا باعمالهم البطولية ضد الاستعمار الفرنسي وهذه السوق ذات طابع تراثي مضمخ يعبق التاريخ واريج النضال وعظمه التجارة وجاذبية الشرق وهي نموذج مدهش من روائع العمارة العربية الإسلامية .



سوق الحرير وهي سوق مسقوفة

سوق الحرير

تصل ما بين سوق المنسوجات وسوق القيسارية . طراز بنائه يعود إلى العهد المملوكي والسقف مبنى من عقد حجري على شكل أقواس تلتقي في مركز واحد تزينها زخارف نباتية بسيطة عددها خمسة . ويتدخل السقف المؤلف من ستة عقود وأربع نوافذ للتهوية ونوافذ أخرى جوانب السوق . يحتوي مدخل السوق على سبيل للماء وأرضية السوق مرصوفة ببلاط الموازييك الحديث .

سوق المعرض

وطوله حوالي ٨٠ مترا ويعرف عند أغلب الناس باسم سوق العطارين بسبب اشغاله من قبل تجار العطورات بالاضافة إلى المنسوجات . بناء واجهات المحلات فيه من الحجر الأسود المشذب ، نحتت على بعض أجزائه أشكال هندسية ،سقف السوق من الخشب والتوتياء السنمية الشكل .

يبدأ من سوق الصياغ ويتقاطع مع أسواق القيصرية والعبي والخياطين ويعود بناء السوق إلى أواخر العهد العثماني .

سوق العرب

يعرف حاليا باسم سوق العطارين اذ غلب اسم السوق المجاور وقد فقد السوق مهمته الأساسية وهي الوساطة بين البدو والحضر منذ ١٩٣٣ م .

مدخل السوق من الجهة الشمالية يتصل بسوق الحسبة ، أرضيته مغطاة بأحجار سوداء بازلتية . والسقف عقد تتخلله نوافذ علوية . بنى بأمر الوالي أسعد باشا العظم . والبناء مازال محافظا على وضعه

باستثناء ابدال الأبواب الخشبية بالدكاكين التجارية بأبواب حديدية كما أن أرضية الدكاكين جعلت بسوية أرض السوق بعد أن كانت بشكل مصاطب مرتفعة حتى المتر تقريبا يمتهن تجار السوق حاليا بيع الفرو والخيطان والألمنيوم والحبال . . . . الخ .

بني السوق من الحجر البازلتي الصغير الحجم أما السقف فمن التوتياء سنامي الشكل والمحلات لها واجهات من أقواس حجرية جيدة النحت على شكل نصف دائرة والأخرى على شكل قوس منكسر .

سوق الفرو

امتداد لسوق العرب وقد انفرد كسوق للفرو على أثر هدم حمام الجديد في باب السوق . يتجه سوق الفرو من الغرب إلى الشرق حتى الشارع المؤدي لمدخل خان القيسارية(١) .

ملامح خاصة عن حمص

(صفات الحمصي) ننقلها عن لسان الصديق الباحث باسيل سمين(٢)

« كان للمسجد والأسواق والحمامات والمضافات أثر أخلاقي روحي على الحمصين اذ فيها تكون الفلوكلور الشعبي على مر الزمان وانبثق من وجدان هذا الشعب ففي أيام رمضان كان الناس يجتمعون في هذه الأماكن (أي الأسواق الحمامات . . . .) يتبادلون أحاديث مادتها الفروسية والشهامة والمروءة . وفيها فسرت العقيدة تفسيراً إنسانيا ووضعت في اطارها الروحي الرفيع . . . وهكذا نشأ الحمصي شهماً

(١) المرجع السابق
(٢) مجله العمران ٢٧ / ٢٨ لعام ١٩٦٩

نبيلاً . عزيز النفس رقيق الحاشية . مطبوعاً باللطف والأدب . يلين حتى مع أعدائه . يعطف على الفقير ويؤانسه يحنو على الفقراء يندفع نحو البذل والعطاء . يحب أمته ووطنه ويضحي بماله وحياته في سبيلهما بدون غرور يتلقف الأمور الجديدة بصدر رحب . ويبتعد عن الأسفاف والتقليد الأعمى . . . . »

(تبدل السلع والأزياء)

يلاحظ ان لباس الرأس القديم للرجال في المدن (الطربوش) قد زال ومن ثم زال هؤلاء الذين كانوا يقومون بكوي الطرابيش واصلاحها أما ملابس الرأس الريفية (كالحطاطة والعقال) فلم تزل موجودة . وان كانت بعض الملابس التقليدية السابقة كالسروال الأسود والدراعة قد اندثرت وبعض الصايات ومن ثم زال استهلاك قماشها .

(نلاحظ أنه رغم وجود المتر كقياس رسمي متفق عليه فان النسوة يفضلن الشراء بالذراع الحمصي ويعادل ٦٨ سم تقريبا) أما الألبسة النسائية القديمة مثل الملاية السوداء فهي في طريق الاندثار كما زالت تلك الأحذية الحمراء التي كانت تمتلىء بها أسواق النوري والحميدية وكانت تسمى (الصرماية الحمراء) وكانت لباس الرجل المفضل لدى النساء البدويات . ومن الظريف ان اللباس الحديث (البنطلون والجاكيت) للرجال كان مستهجناً في الثلث الأول من القرن الحالي لكنه اكتسح السوق قماشا وخياطة الآن وان بقي بعض الناس يفضلون الملابس الفوكلورية .

والشيء المتميز في الأسواق الحمصية وجود الجوامع الثلاثة المتقاربة من السوق مع الحمامات وسبل الماء وغيرها من أمور حيوية .



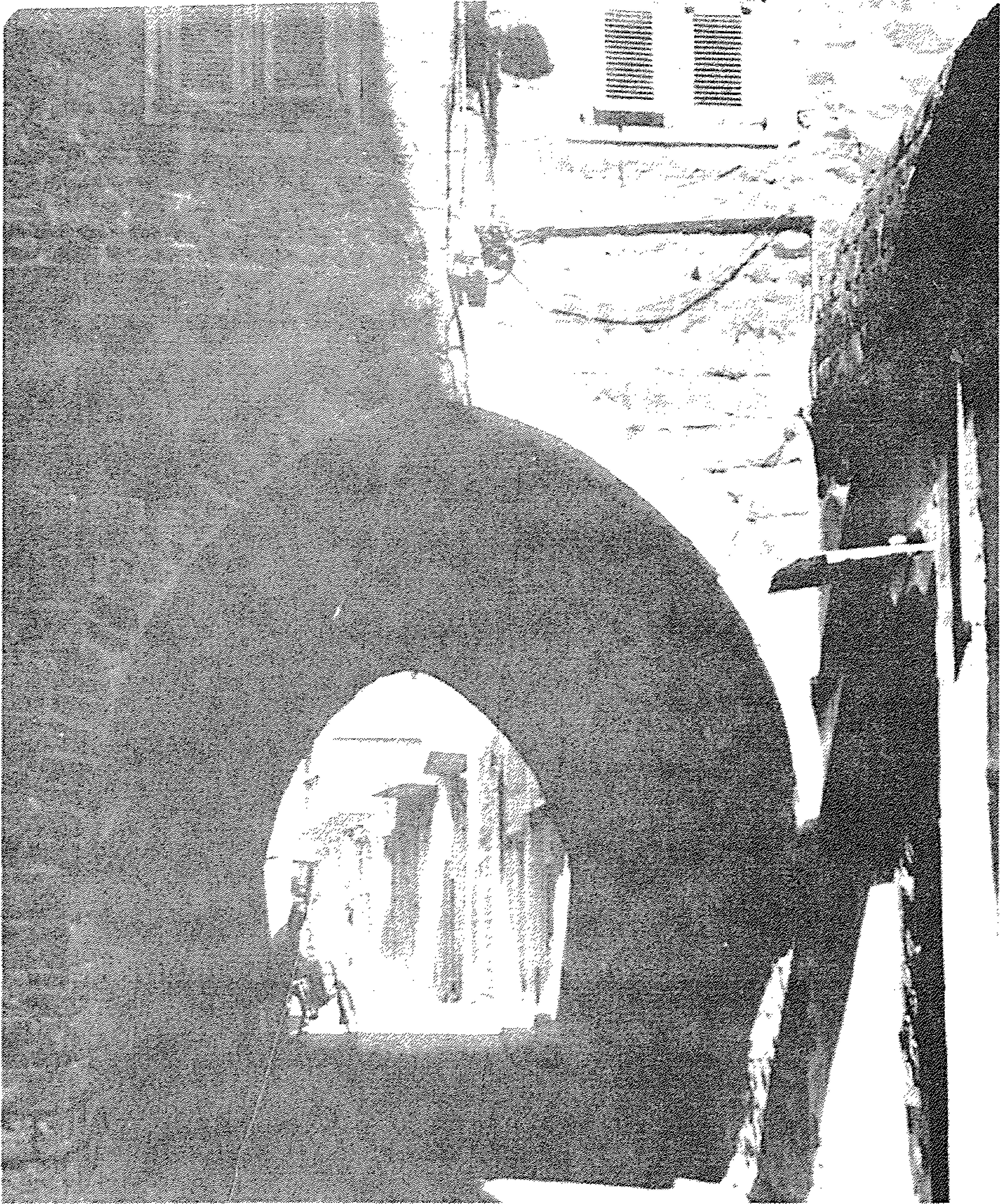
بعض الازياء القديمة بحمص

(التآلف الاجتماعي في أسواق حمص)

تظهر خاصة عند الضيق وعندما تحل الكوارث أو المحن والشدائد على المواطنين يظهر طيبهم وتآلفهم .

في عام ١٩٤٥ م وعلى التحديد ٢٩ أيار وعندما كانت الحالة متأزمة بين المواطن السوري وحكومة الانتداب الفرنسية فقد أظهر المواطنون

تآلفا ووحدة وطنية ضد الاستعمار الفرنسي فلم تنخفض سلعة ولم يرتفع سعر وهذه الظاهرة الإنسانية بدت للعيان واضحة عام ١٩٧٣ عند حرب تشرين التحريرية وهذا الأمر معروف لدى سكان حمص وسكان المدن الأخرى ويعد مفخرة المواطن العربي السوري



طراز من الابنية القديمة في مدينة حمص

تطابق أخلاق أهالي حمص مع العرب

وتطابقت أخلاق أبناء حمص مع العرب عندما اقبلوا محررين للشام من البيزنطيين حاملين معهم ديموقراطيتهم العفوية ودينهم مؤكدين على مبدأين اثنين (لا اكراه في الدين) ولا (فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى) لذا دانت لهم أكبر القوى آنذاك وفتحت لهم القلوب قبل أن تفتح لهم الحدود . وفي حمص استقبل العرب المحررون بترحاب . ولم يستغربوا وجودهم مع أهالي المدينة بل تعايشوا معهم بسلام ومحبة وتآلف (يقول محمد كرد علي : ومما اعان العرب على تأييد سلطانهم تسامحهم مع أهل الذمة فكانوا كأنهم بين عشيرتهم لا يرهبون من وراءهم كما أنهم لم يرهبوا من أمامهم) وقد قال غوستاف لوبون :

لما دخلت العرب الشام كانت رومانية منذ أكثر من سبعمائة سنة فأبانوا عن تسامح مع كل مدن الشام ولذا رضي السكان بسلطتهم مختارين وانتهت بهم الحال ان قبلوا دين الفاتحين وتعلموا لسانهم) .

(الحسبة)

ولقد أعطى العرب الإنسانية نظام الحسبة ومنها مدينة حمص ويجب أن لا يغيب عن ذكرنا شارع الحسبة اذ يغلب على الظن ان دار الحسبة كانت في هذا المكان نظرا لتداول هذا بالتواتر بين الناس وقد ذكر أوليا سُلبي وجود المحتسب في حمص عند ذكر أرباب الرتب .

ان نظام الحسبة أكثر لصوقا بالسوق من أية مؤسسة أخرى من أهم وظائف المحتسب مراقبة الأوزان والمكاييل والحسبة على العموم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فمن منكرات السوق التي مازالت موجودة

حتى الآن بيع الخمور ونقص الميزان والمبيعات المغشوشة ونفهم من كلام المؤرخين ان أسعار السلع كانت محددة عليها أسعارها بامر المحتسب الذي كان مشرفاً أيضاً على أخلاق المجتمع والمعاهد العلمية والحمامات والآداب العامة ومن الطريف أن ملوك اسبانيا المسيحيين عندما كانوا يحتلون مدينة عربية يبقون فيها محتسبها(١) .

وفي حمص كانت مهمة المحتسب في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري الفصل بالمسائل المتعلقة بالتجارة والصناعة وحفظ الأمن ويبدو أن صغر حجم المدينة آنذاك قد جعل دور المحتسب ضعيفا فضلا عن تمركز السلطة بيد المتسلم .

وقد أوردت بعض المخطوطات(١) ذكرا لتطبيق القانون في معاقبة المحتسب عندما يخرج على خطة المرسوم فذكر من هذه الحوادث أن (مصطفى آغا) عاقب المحتسب فجرصه بعدما فلقه وهذا يعني انه ضربه على رجليه ثم اركبه على حمار بشكل مقلوب ودار فيه في أنحاء المدينة (حمص) .

شيخ السوق البازرباشي

ثم كان هناك شيخ السوق (بازر باشي) ومشايخ الكار ولا ننسى ان هناك ساحة وجامعا باسم رئيس السوق بازو باشي و كان عمل شيخ الكار الدفاع عن مصالح مريديه وبالوقت ذاته يوقفهم عند حدهم اذا اشتطوا في رفع أسعار منتوجاتهم أو تغيير صفة بضاعتهم . والآن رغم

مجلة عالم الفكر الكويتية رقم ١١ لعام ١٩٨٠

(١) المؤرخ محمد بن السيد

وجود نقابة الحرفيين وغيرها لازال هناك شيخ الصياغ في حمص الذي تقصده المواطنات خاصة ليصادق على صحة وزن المصوغات ونسبة ذهبها .

ويحدثنا بعض المؤرخين أن بعض أحد شيوخي السوق الذي اشتط في ظلمه اشتكاه أهل حمص إلى القاضي وطلبوا اغلاق السوق لايقاف تعسفه .

وفي الختام لا بد من القول بان الأسواق التجارية في حمص . قد مرت خلال العصور التاريخية بمراحل ازدهار ونشاط ، بلا شك كما حظيت هذه الأسواق بالاهتمام المعماري عند تنفيذها فجاءت ملائمة بشكلها الهندسي والمعماري والوظيفي . وهذا ما دعا مديرية الآثار إلى الاهتمام بهذه المنشآت الهامة فسارعت إلى تسجيلها في عداد المباني الآثرية والتاريخية(٢) .

ان الحديث عن الأسواق بشكل تفصيلي يحتاج إلى عدد من الدراسات ، ولكنني وضمن الوقت المحدد لي في هذه الندوة قمت وإياكم بعرض شامل للأسواق ووظائفها ـ آملا أن تتاح لنا مناسبات أخرى للوقوف عند الجزئيات .

---

(٢) بالقرار رقم ١٦٨ لعام ١٩٧٩

المراجع والمصادر

١ -- تاريخ حمص للخوري أسعد عيسى ج ١ و ج ٢ للأستاذ منير أسعد عيسى .

٢ -- مجلة العمران العدد ٢٨/٢٧ لعام ٩٦٩ عدد خاص عن حمص بحث للأستاذ باسيل سمين .

٣ -- كتاب حمص أم الحجار السود للدكتور ساطع محلي .

٤ -- ربوع محافظة حمص للدكتور محمد عماد الموصلي .

٥ -- مجلة عالم الفكر عدد خاص رقم ١١ عام ١٩٨٠ عن المدينة الإسلامية .

٦ --جريدة العروبة عام ٩٧٩/٩٧٨/٩٧٧أبحاث بقلم للأستاذ رياض البدري .

٧ -- كتاب خطط الشام لمحمد كرد علي .

٨ -- بحث القيم والأعراف الأخلاقية لكاتب المقال .

٩ -- كتاب حمص السياحي لمؤلفيه : عبد الاله النبهان فيصل شيخاني محمود سباعي غياث القاسمي رياض البدري (قيد الطبع) .

١٠ -- جولة آثرية للأستاذ أحمد وصفي زكريا .

١١ -- تدمر للدكتور عدنان والبني الأستاذ خالد أسعد .

حمص ٢٩ / ١١ / ١٩٨٤

محمد فيصل شيخاني

عضو الجمعية التاريخية

مخطوط التاريخ الحمصي

للمؤرخ عبد الهادي الوفائي

رياض البدري

التاريخ حقل الفعالية البشرية ، وتاريخ أية أمة سلسلة متصلة الحلقات وان اهمال دراسة أية حلقة من حلقات التاريخ مهما كان شأنها يشكل ثغرة قد تؤثر في معرفتنا لحاضرنا معرفة حقيقية ، ومن ثم تؤثر في تصورنا لمستقبلنا .

لذا درج العرب منذ القديم على تأليف كتب التاريخ الشاملة ، كتاريخ الطبري . وابن الأثير كما صنعوا تاريخا خاصا بالمدن مثل : تاريخ دمشق وتاريخ حلب والاعلاق الخطيرة في تاريخ الشام والجزيرة . أما مدينتنا حمص فقصتها مع التاريخ قصة ضياع واهمال . بل قصة اللا مبالاة والكسل في التأليف والنشر . إلى أن بدأت الأيدي الأمينة تبحث وتكتب وتحقق لترفد المكتبة التاريخية بمؤلف يحكي قصة المدينة في مختلف مظاهرها العمرانية والبشرية والسكانية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها .

فحمص مدينة قديمة ، جذور تاريخها قد تعود إلى فترات تاريخية سبقت ظهور السيد المسيح وقد شغلت من تاريخ سورية مكانا ممتازا .

وتمتعت بالعديد من الميزات . وشهدت الكثير من الأحداث التاريخية ولما فتح العرب المسلمون بلاد الشام كانت حمص أحد الأجناد الخمسة ألا وهي : جند فلسطين وجند الأردن وجند دمشق وجند حمص وجند قنسرين .

وقد اهتم المؤرخون في العهد الإسلامي بهذه المدينة . فدونوا عدة كتب في التاريخ لها ، وقد عرفنا من هذه الكتب اسماءها فقط وهي التالية :

١ - تاريخ الحمصيين لأحمد البغدادي المتوفي سنة ٢٥٧ هـ

٢ - طبقات أهل حمص لمحمود الدمشقي المتوفي سنة ٢٥٩ هـ .

٣ - تاريخ من نزل حمص من الصحابة لابن صدقه المتوفي في أواخر القرن الثالث الهجري .

٤ - تاريخ الحمصيين لعبد الصمد الحمصي ، المتوفى سنة ٣٢٤ هـ .

٥ - تاريخ حمص لابن سلامة الحمصي المتوفى سنة ٣٣٠ هـ .

ان عدم وجود كتاب في تاريخ المدينة حدا ببعض ابنائها في العصر الحديث إلى محاولة كتابة تاريخ مدينتهم أو نبذة عنها ، ونستطيع أن نذكر في هذا المجال :

١ - كتاب الفه المرحوم عمر الأتاسي . سمعنا به ولم نعثر عليه . لكننا وجدنا المرحوم محمد كرد علي قد ذكره بعداد مصادر كتابه خطط الشام .

٢ - كتاب تاريخ حمص للخوري عيسى أسعد ، ويتحدث فيه عن المدينة منذ نشأتها الأولى إلى ظهور الإسلام في الفترة الواقعة من ٢٣٠٠ ق.م إلى ٦٢٢ م .

كما وقام الأستاذ منير بن الخوري عيسى أسعد في عامنا الحالي باتمام الكتاب في الجزء الثاني والذي يتحدث فيه عن الفترة من ظهور الإسلام سنة ٦٢٢ م إلى سنة ١٩٧٧ .

٣ ـ كتاب حمص أم الحجار السود . تأليف د . ساطع محلي ، والمطبوع عام ١٩٦٣ . وهو كتاب صغير جيد فيه معلومات « جغرافية وتاريخية وتربوية وعمرانية عامة » .

٤ ـ كتاب أعلام الأدب والفن بجزئيه ، تأليف المرحوم أدهم الجندي .

٥ ـ كتاب ثوار وأمجاد ، للأستاذ عدنان الداعوق المطبوع عام ١٩٦٨ .

٦ ـ وفي عام ١٩٨١ صدر كتاب د . عماد الدين الموصلي بعنوان ربوع محافظة حمص ، إذ خصص الباب الثاني من كتابه مستعرضا الجذور الأولى للسكان والمجتمع من العصور الحجرية القديمة حتى الفتح الإسلامي . وجاءت بقية الأقسام لدراسة الجغرافية الطبيعية والمناخية والسكانية والبشرية لمحافظة حمص بين الماضي والحاضر والمستقبل .

٧ ـ ونشير أيضا إلى كتاب الأستاذ رضا صافي بعنوان على جناح الذكرى ، إذ عرض الأستاذ صافي حكاية الحياة . ليعرض من خلالها ملامح المدينة بدءاً من تاريخ ولادته ١٩٠٧ م .

٨ ـ ويشاء الأستاذ قاسم الشاغوري أن يدون كتابا بعنوان رجال من بلدي والذي طبع عام ١٩٨٣ .فجاء جهدا قيما مشكورا يضاف إلى جهود من سبقه في ميدان التأليف التاريخي ، يقول الأستاذ الشاغوري :

« ان عدم وجود تاريخ لما جرى في بلدي وحي لها هما اللذان دفعاني إلى الكتابة جهد استطاعتي وعلى قدر حالي لسرد بعض الحوادث التي وقعت في بلدي ، وذكر أعمال صدرت عن بعض رجال من بلدي منذ مطلع هذا القرن حتى منتصفه حين تم جلاء المستعمر الغاشم » .

والآن وبعد أن استعرضنا الكتب المطبوعة عن تاريخ حمص ، لابد لنا وقبل أن ندخل في صلب موضوع محاضرتنا ، من التعريف بمخطوطين اثنين لم تتناولهما بعد يد التحقيق وهما لمؤرخ واحد هو المرحوم سليمان ابن أحمد الكيالي الحسيني الحمصي . الذي عاش من سنة ١٨٤٤ وحتى ١٩١٤ م . ففي المخطوط الأول وهو كتاب الأشعار في جمع نفائس الأشعار أورد فصولا عن حمص ذكرت فيها الحوادث التاريخية شعرا « مثال : قصائد في التهنئة بمولود . والتهنئة بأعراس . ومدح لبعض الرجالات المعتبرة ، وتاريخ وفاة رجال زمانه وذكر مناقبهم ومحاسنهم وفصل في المرثيات وتواريخ القبور . وفصل آخر في تواريخ البناءات والانشاءات لبعض المساجد فضلا عن تشييد دور السكن الخاصة .

أما المخطوط الثاني وهو بعنوان : « نصح الأمة ، المؤرخ سنة ١٣٠٩ هـ ، تناول فيه فصولا عديدة ، خصص أغلبها في الكتابة عن تعليم الطفل وتعرض للأساليب الواجب اتباعها من قبل المعلم والمتعلم ، وأصول امتهان التعليم كحرفة . فكانه يعرض بذلك سيره عن كتاتيب زمانه في مدينة حمص ، ثم ينتقل بعد ذلك ليتناول دراسة تعليم الخط ، وكيف يحصل الخطاط على الإجازة فضلا عن شهادة خطاطين زمانه بحسن خطه واتقانه .

وقبل هؤلاء بزمن كانت هناك محاولات تاريخية عرفنا منها محاولتين بالغتي الأهمية :

أولاهما – ما كتبه محمد مكي بن السيد المتوفى سنة ١١٣٥ هـ وذلك في كتاب سماه تاريخ حمص .

وثانيهما : ما كتبه عبد الهادي الوفائي المتوفى سنة ١٣٢٨ هـ / ١٩٠٩ م في كتابه الذي عنونه باسم « التاريخ الحمصي » . وهو موضوع محاضرتنا بهذه الأمسية .

وقبل أن انتقل وإياكم إلى صلب الموضوع ، لا بد أن نعرف بالمخطوط الأول لصاحبه ابن السيد ، فقد اسعف الحظ مدينتنا بان ينشر تاريخ خمسة وثلاثين عاما فقط من تاريخها من سنة ١١٠٠ – ١١٣٥ هـ / ١٦٨٨ – ١٧٢٢ م وقد قام بعبء العمل في تحقيق هذا التاريخ الأستاذ عمر العمر من مدينة حماه ، فجاء الكتاب بمقدمة ممتازة ومفيدة وهو أقرب ما يكون إلى الكمال والتمام أما مؤلف المخطوط فقد نصت فهارس الجامعة الأمريكية على أنه مجهول ، لكن المحقق استطاع من خلال قراءته المتأنية والمدققة للنص أن يتوصل إلى أن المؤلف هو : « محمد مكي بن السيد بن الحاج مكي بن الخانقاه » المولود في النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي ، والمتوفى بعد عام ١٧٢٢ م / ١١٣٥ هـ لان كتابه توقف عند هذا التاريخ . ويبدو أن المؤلف كان يعمل شاهدا أو موظفا في المحكمة الشرعية بحمص أو من المشرفين على شؤون الأوقاف كما توحي بذلك بعض المقاطع من تاريخه . والكتاب عبارة عن سرد يومي لاحداث حمص وأخبارها المتناثرة بلا ضابط ولا منهج فهناك أخبار عن المسلمين ونقباء الأشراف والمفتيين والقضاة ومشاكل البدو وحوادثهم ، ويذكر أيضا الاخبار الاجتماعية ويعرج

على بعض الاخبار الاقتصادية . ويهتم باخبار الوفيات مهما كان شأن المتوفى وكذلك بأخبار الولادات . كما ذكر المؤلف في بعض الأوقات الشخصيات العلمية التي تزور حمص أو تمر بها كما يشير الكتاب إلى الأمور العمرانية ، فضلا عن الحديث دوما عن أصحاب النفوذ وتصرفاتهم هذا وتقوم أهمية كتاب ابن السيد على أنه المرجع الوحيد عن تاريخ المدينة في تلك الفترة الهامة المضطربة . كما يعد وثيقة تاريخية صادقة يمكن اعتمادها في الدراسات التاريخية .والآن وبعد هذه الجولة السريعة . والتعرف قدر الامكان بما خطته أيدي المؤرخين . وما نشرته همة الباحثين والمؤلفين عن مدينة حمص . يمكن أن نقف طويلا عند مخطوط التاريخ الحمصي ، للمؤرخ الشيخ عبد الهادي الوفائي المتوفى سنة ١٩٠٩ م ، والذي نقوم بتحقيقه بالاشتراك مع الأخ الصديق الأستاذ عبد الاله النبهان ، ولا نخفي عليكم بان سبب تأخرنا في اصدار المخطوط المذكور محققا في كتاب تاريخ مكتمل واضح مطبوع . يعود إلى الصعوبات التي عانينا منها أثناء التحقيق . إذ أن أكثر المواد اللازمة في رفد مادة كتابنا ، كانت تتطلب منا العمل الميداني ،الذي يعتمد على الجهد الشخصي والحركة المستمرة فضلا عن النشاط في جمع المعلومات والوقوف على الآثار الباقية والاتصال باسر الاعلام والشخصيات الوارد ذكرها في المخطوط ، كما أن انشغالنا في أعمال علمية وثقافية تتطلب السرعة في الانجاز دعانا في أغلب الأحيان إلى الكمون وتأجيل متابعة التحقيق . ونرجو أن نوفق في طبعه ونشره لنضعه بين أيدي القراء والدارسين .

ولد المؤرخ ، الشاعر ، الفنان المبدع الشيخ عبد الهادي بن عمر الوفائي الحمصي موطنا ، والنقشبندي طريقة سنة ١٨٤٣ م . تلقى علومه

الدينية وعلم العروض والموسيقى عن والده المرحوم الشيخ عمر الوفائي الذي اشتهر في عصره بالعلم والفضل والصلاح ، كما تعلم قدر الامكان على أيدي العلماء من أسرته وبلده خلال مجالسته لهم . فنبغ ونبه ذكره في أيامه ونظم القصائد الطوال وتغنى بذكر مدينته حمص . واشاد بجمال مغانيها وعادات ابنائها وكرمهم في شتى المناسبات — عاش مؤرخنا من العمر خمسا وستين سنة قضاها بالعز والتكريم . وقد اتصف بالخلق الكريم والصلاح والرزانه وعزة النفس .

طاف الوفائي البلاد السورية والعديد من البلاد التركية لاسباب تجارية ولزيارة احبابه وأصدقائه رفي سنة ١٨٧٣ ذهب إلى الجندية الرديفية . واستخدم كاتبا في قلم الطابور . وكان كلما سافر إلى بلد يدون مآثرها ومعالمها وما وقع له فيها بقصيدة للذكرى .

أما مؤلفاته فهي : كتابه الذي بين أيدينا ، وديوانه الحافل بالقصائد الأدبية والتاريخية وخمس مسرحيات نثرية شعرية .

أما ثقافته فيمكننا التعرف عليها من خلال ما عرف به نفسه في مقدمة كتابة التاريخ الحمصي اذ يقول : « ليُعْلم أيها السادة المطلعين على عبارة شرحي ، المخيرين بمدحي وقدحي . لاخفيّ اني رجل بسيط بالكلام لا أعرف بالنحو قليلا ولا بالنظام ، شعري كنثري ، وأرجو ممن يتبصر في حقيقة أمري أن يصفح عن أغلاطي ويقبل عذري » .

توفي الشيخ الوفائي على أثر رشحة صدرية في الخامس من ربيع الأول سنة ١٣٢٨ هـ / ١٩٠٩ م وأعقب ولدين هما عبد الحميدوعبد اللطيف . وقد التقينا بالشيخ عبد اللطيف في حياته فأفادنا ببعض لوازم التحقيق موضوع المخطوط .

أما عصر المؤلف فهو النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبدايات القرن الحالي ، في وقت كانت بلاد الشام خاضعة للحكم العثماني فكانت حمص أول الأمر أحد الألوية التابعة لطرابلس وحدودها تمتد من حسياء إلى الرستن . أما علاقة حمص مع استانبول أو بالاحرى علاقتها بالسلطان فقد كانت ضعيفة وغير مباشرة ، وتشبه تلك العلاقة علاقة السلطان بأغلب ألوية الدولة العثمانية وكانت هذه العلاقة الضعيفة تتم عن طريق الولاة .

أما الدوافع التي حدت بمؤرخنا الوفائي إلى تأليف كتابه عن التاريخ فقد اورد في خصوصها مايلي ننقلها اليكم كما اوردها ، يقول : « لما رأيت أهل الوطن يتشوقون على قطعة تاريخ يكون تذكرة في المستقبل للعالم - ريقصد هنا الناس- الذي سيخلقون في الاعصار القادمة ، تصور في فكري أن أجمع وريقات تدل على انساب أهل الفضل والزوات على قدر معرفتي ، وأعوذ بالله من النقص والزيادة والكذب الذي يكون على غير طريق الحق والعادة فأرجو من الله التيسير وهو على كل شيء قدير وبالإجابة جدير » .

يتألف المخطوط من احدى وتسعين صفحة ، كتب بحبر أحمر ، بخط هو مزيج من الرقعة والنسخ ، وهو مقروء . أصيبت بعض سطوره بنقاط كثيفة من الحبر . قياس الصفحة من الحجم الكبير (٣٦ × ٢٤٫٠ سم) وتتضمن ٣٤ سطرا ، ومتوسط كلمات السطر الواحد ثلاثة عشر كلمة . والورق أصفر سميك لا يزال قويا حتى الآن وقد اقحمت على المخطوط بعض الكلمات والتصحيحات بخط ابن المؤلف عبد اللطيف الوفائي المتوفى في شهر رجب سنة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م . كما أن المرحوم عبد اللطيف قد صنع فهرسا عاما للكتاب ، وبعض التعقيبات في آخر المخطوط .

أما لغة الكتاب فقد كان المؤلف أقرب إلى العامة ، لكنه ارتفع عنهم بسبب تلقيه المبادىء الأولى ومعاشرته للعلماء ، وحضور مجالسهم لذلك فان لغته كانت عامية وما فيها من الفصحى يعود إلى كثرة معاشرته للعلماء وتأثره بعباراتهم أما عندما يكتب فانه غالبا لا يميز بين المفعول والفاعل، لكن قيمة لغة الكتاب هذه تنحصر في انه استخدم كثيرا من الألفاظ التركية التي كانت سائدة واختفت الآن .

كما استخدم كثيراً من الاصطلاحات الاجتماعية مثل : المحمل — والزاوية — والخليفة بمعنى خليفة الشيخ . والكتاب بمجمله يعد مرآة للغة العصر لا لغة الأدباء والمؤلفين . ولكن اللغة الدارجة في القرن التاسع عشر والشائعة على السنة الناس في مجالسهم ومحاوراتهم ، وما أشبه تصويره للغة عصره بتصوير اسامه بن منقذ للغة عصره في كتابه الاعتبار اذ ترك نفسه على سجيتها ونقل العبارات كما كانت حية على السنة الناس ، واذا كان اسامه الاديب الكبير قد تعمد هذا تعمدا في كتابه فان الوفائي لم يكن باستطاعته أن يفعل أكثر مما فعل ، وما أشبه صنيعه بصنيع حلاق دمشق البديري الذي دون أخبار مدينته بنفس الطريقة .

وكعادة أي مؤلف في وضع منهج وطريقة وخطه في فهرسة وتنظيم مؤلفه ، قام مؤرخنا الوفائي في وضع طريقه لتنظيم كتابه . فاورد في بداية المخطوط ما يلي :

يقول : « لقد دونت هذه الوريقات على أربعة أبواب :

الباب الأول : في الأخبار عن العلماء الذين يظن بولايتهم « يريد هنا أهل التصوف » .

والباب الثاني : يخبر عن العلماء أهل الفضل .

والباب الثالث : يخبر عن الزوات — ويقصد هنا الزاوات — ذوي الأنساب ومشايخ الطرقات وبعضا من عامة العالم أهل الورع والتقوى والصلاح .

والباب الرابع : يدل على بعض حوادث وقعت في زماني من خير وشر ان كان . . . . من رفيع ووضيع لاجل أن يتعجب القارىء ويسلا — ويقصد التسلية — ويترحم علي وعلى موتاه ولعله يقرأ الفاتحة لناظمها ويسببها تنال شفاعة الشفيع .

إلا أن المؤلف الذي لم يتمرس بمنهج علمي ولم يتلقى أي ثقافة نظامية مدرسية . ما كان باستطاعته أن يلتزم بالترتيب الذي حدده لنفسه . لذلك كثرت استطراداته وخروجه من موضوع إلى موضوع ومع ذلك فالكتاب في صورته الشاملة . فيه حد أدنى من التنظيم . بالإضافة إلى انه أضاف عدداً من الأبواب خطرت له وهو يدون . . . مثالنا على ذلك ما تعرض له في ذكر المنشآت العمرانية . والمباني التي كانت قائمة بوظائفها في زمانه . فضلا عن العديد من الحوادث والنوادر .

أما مادة الكتاب فهي عبارة عن مجموعة من الأخبار والحوادث التي دونها المؤرخ ، ونستطيع أن ننظم تنوعها على النحو التالي :

أولا : استطرد المؤلف في تراجم رجال الصوفية وأخبارهم في عصره وذلك لصلته الوثيقة بهم ولايمانه العميق بكراماتهم ، وكان محبا لهم وتابعا ومعتزا بصلاته معهم ، لذلك كتب حوالي سبع صفحات عن شيخه سليم خلف ، وعن شيخ شيخه أحمد الطزقلي ، اذ يقول عن الأخير ما يلي : « هو شيخ الطريقة النقشبندية . وهو بالقطانية

موصوف وسائر أقطار الأرض معروف ، له من التلامذة ألوف . ارشاده ظاهر . ومدده باهر . كالشمس يشرق على أهل البصائر » ثم يقول « ومنافبه في حياته كثيرة ، ومكاشفاته شهيرة » . . .

وقد تحدث عن كراماتهم بشيء من التفصيل يضيق بنا المجال الآن عن ذكر الأحداث كما رويت . وسنكتفي بالاشارة اليها سريعا . مثالنا على ذلك : بعض الحوادث التي دلت على كرامات الشيخ الطزقلي منها : حادثه الحج التي رواها الشيخ « محمد خالد البحلاق » ومضمونها أن النوم قد أخذه وشيخه . مما أدى إلى رحيل الحجاج دونهم . فخاف عندها الشيخ بحلاق وطمأنه الشيخ الطزقلي وطلب منه ركوب الدابة . وهما بالطريق بين بساتين تشبه بساتين حمص . فاذا برجل حبشي يسعى اليهما . ليرتمي أمام أقدام الشيخ ويقبلهما ويحاكيه كلام غير مفهوم . وسار معهم لحظة واذا هما بين الحجيج ، فعندها سكن روع الشيخ بحلاق وصار يبكي ، وطلب منه الطزقلي أن يكتم الأمر » وحادثة أخرى : عندما حدد يوم وفاته بالضبط قبل حدوثها بعشرين يوما . وحادثته مع الشيخ أحمد الروادي عند جسر المزرعة . وكيف دمدم الطزقلي فاذا بالروادي يرتمي على الأرض ويأخذه الجذب .

كما حدثنا المؤرخ عن الشيخ سليم صافي ووصفه بالشيخ الفاضل والأجل الكامل . . كان يحب الفقراء . ويعود مرضاهم . وكان كسابا وهابا ، وقد ربى جملة أولاد وبنات وأرامل « روى عنه الوفائي الكثير من القصص التي قصها عليه والده الشيخ عمر وعن مآثر هذا الصالح الجليل والتي تدل على التراحم والتلاحم الاجتماعي والتآخي في ازالة الحواجز الطبقية والمادية . . وعن الكثير من مكاشفاته وأسراره الروحانية .

ثانيا : تحدث عن العلماء أهل الفضل . ولم يعرف كيف يتناول الحديث عنهم ، كان يحبهم ويجلهم وكان معجبا بهم لكن حديثه عنهم كان مقتضبا وعاميا . بمعنى انه يذكر اسم العالم ويثني عليه دون أن يحدد معالم علمه ومؤلفاته وشيوخه وتلامذته في أغلب الأحيان . فهذا القسم من الكتاب على فقر محتواه يعد ذا قيمة عظيمة لانه عدد لنا اسماء أبرز علماء المدينة في ذلك الحين ، معظمهم لم يذكر إلا في كتابه ، فقد تحدث مثلا عن : الشيخ صالح الوفائي » العالم والخطاط ، وأستاذ اللغة التركية ، وعن مكتبته الفريدة في حمص ، وحبه في اقتناء الكتب والولع في قراءتها « والشيخ شريف الرفاعي » واشتغاله بامور خميس المشايخ فضلا عن امتهانه العمل بالطب النفسي « وعن الشيخ حسن باشا التركماني » وكراماته بضرب السيف – أو ما يعرف بضرب الشيش – وأكل النار التي هي عنده مثل أكل الحلاوة » . كما أورد ذكراً عن الشيخه أم محمد التلاوية « من قرية تلبيسه » متحدثا عن ورعها وتقواها .

ان تراجم علماء وشيوخ زمانه كثيرة حتى انه يضيق بنا المجال هنا عن تعداد اسمائهم ونترك ذلك للكتاب بعد التحقيق الذي سيوضع بين أيدي القراء ان شاء الله .

ثالثا : استطرد في ذكر خلافات وقفية قديمة في أسرة الوفائي والعطائي وهذه الخلافات تصور حرص الأسر آنذاك واعتمادها على عائدات الوقف مما لم تعد له قيمة اليوم مثال : « وقف جامع التركمان المعروف بجامع العمري أو النخله ، وأملاك قرية المهاجرية قرب الدوير » كما تعرض لذكر فروع وأصول كل من الوفائية والعطائية ، فبنو العطائي هم أولاد عم لبني الوفائي والجد واحد .

رابعا : وبعد العلماء مباشرة تحدث عن مجموعة من الأشخاص بعضهم كان عضوا في المجلس البلدي ، نذكر منهم « الحاج يحيى أفندي الزهراوي — سليمان آغا الجندي — نجيب أفندي رفاعي زاده » كما اسهب في الحديث عن بعض الأشخاص الذين كانوا فقراء وأصبحوا أغنياء مثل « الحاج محمد حاكمي ، الذي وصفه بالرجل العاقل الكامل المستور . ثم الباري فتح عليه وصار غنيا ، توفي سنة ١٣١٠ ، وأعقب أولادا لا يحبون الرزائل ولا يعرفون إلا الحق ، محبوبين عند كل الناس » كما ذكر سليم الدروبي : صاحب المال الجسيم والعقارات الكثيرة . وكان أول غني بحمص . ثم يقول « اخبرني من أثق به بأن المذكور كان فقيرا مستوراً فمده الله وصار غنيا وله صدقات جارية » . ثم يتحدث عن بعض التجار البارزين نذكر منهم : « صالح الحسامي ومحمد السباعي وسليم الصوفي وخضر طليمات وعيسى الخانكانوغيرهم»

خامسا : وتحت عنوان « بيان الذي حدث واستجد بحمص وهو الباب الخامس » بدأ المؤرخ الوفائي يدون وباسهاب عن العديد من المباني والمنشآت والدور السكنية والمساجد ، والحمامات والمقامات ولم يغب عن ذاكرته أن يدون شيئا عن التوسع السكاني وقد بدأ شرحه وتفصيله من أبواب المدينة وسورها القديم ، نورد فيما يلي نصا بلغة وأسلوب المؤلف اذ يقول : « ان حمص كان لها سبعه أبواب وصور من دائرها . ففي زمن السلطان عبد المجيد ، كان على الأبواب حرس كمركجيه يأخذو كمرك على البضاعة الداخله والخارجه ، فدام الحرس والكمرك إلى زمان السلطان عبد العزيز . فبآخر عهده ارتفع الكمرك وبطله الحراس والكمرجية فصاره البوب مروكة بلا حرس » ويقول « ثم ان البلدية خربت الأبواب وتوسعت الطرقات وجددو البلاط وصار

سهلا على المفتح والأعمى . . . » كما ذكر المؤرخ بقية الأحداث العمرانية نتقلها اليكم بتصرف : « عندما اعتلى السلطان عبد الحميد الثاني العرش من سنة ١٨٧٦ – ١٩٠٩ م ارتفع عدد سكان المدينة مما أدى إلى الازدحام فكانت تعيش في كل بيت – خانه – ثلاث أسر إلى خمس أسر على الأقل وكان السيد سليمان صافي – المعروف باسم أبو حسن صافي الخياط – أول من اشترى قطعة أرض خارج باب السوق وبنى عليها بيتا سنة ١٨٨٧ م وسكن به فاتخذه الناس قدوة ، إلى أن صار العمران متصلا بقرية سيدنا خالد بن الوليد – حي الخالدية حاليا – وأصبح العمران خارج جميع أبواب المدينة » . ثم ينتقل المؤرخ ليحدثنا عن تخريب باب هود والأحجار الأثرية المصورة التي وجدت في أساساته ، ثم يصف لنا باب السوق وصفا معماريا وفنيا » .

ان الحديث عن المباني في عصر المؤرخ كثيرة ، نكتفي هنا بذكر بعض من اسمائها ، تاركين التفصيل لمناسبات أخرى . من هذه المباني الجامع النوري الكبير ، أوقاف بني العظم ، وأوقاف سيدنا خالد ، وبحره الساحة ، وجامع الدك « الدالاتي » ، وتكية بيت الأديب ، وخانات العظم والدروبي « السلور » ودار عبد الحميد باشا الدروبي على كتف الساقية ، وحمام الفيصل وحمام الذهب ، والتكية : المولوية ، كما أورد ذكر عن تجديد بناء حارة الحميدية في زمن السلطان عبد الحميد الثاني . . إلى غير ذلك من المباني .

ولم ينسى مؤرخنا أن يذكر رؤساء البلديات في زمانه ، مشيرا إلى أعمالهم العمرانية والادارية منهم نذكر : عبد الحميد سليم الدروبي الذي انتعشت في زمنه البلدية ، وكان يحب البناء والعمران ، فقد جدد

الأسواق ، وكنار الساقية وعدل مسارها ؛ كما وسع الطرقات فأدى هذا العمل الأخير إلى خصومته مع زاوات البلد . ورفعوا بحقه المظابط (الشكاوى) فأدى ذلك إلى عزله وقد تأسفت عليه جميع الأهالي » .
ومن رؤساء البلديات نستطيع أن نذكر أيضاً .مصطفى رسلان ويحيى الترجمان ومحمد سعيد الجابي وغيرهم .

سادسا : أما القضايا الاجتماعية فقد شغلت حيزا لابأس به من المخطوط . نورد فيما يلي شيئا عنها :

ان القضايا الاجتماعية التي تعرض لها ، وكانت متبعة في زمانه . مدليا برأيه بان بعضها كان عبارة عن خرافات « معتقدات خاطئة » مثال : عادة دفن المكوك والمطواية وبعض لوازم نول النسيج عندما تتأخر أحوال رواج البضائع . فان هذا العمل حسب اعتقادهم يؤدي إلى تحسين أحوال الكار – أي الصنعة – وتروج البضائع .

كما ذكر عادة الحملان في الافراح مثل (الختان والزواج) . وغالبا ما يكون الحملان رزا تشارك فيه أهالي الحي بالاهازيج والرقصات وعلى نغمات الطبول . . . » كما روى حادثة افاء النذر وما تجري للخاروف المنذور من زينة ذهبية وفضية . وكيف يطوقون به الشوارع حتى يتم ايصاله إلى بيت الشيخ . كما تحدث عن قراءة المولد عند العامة ، وسيران التركمان ونوبة مصدر . فضلا عما ذكره عن أخلاق العصر .

سابعا : ان التفصيل في الكثير من القضايا التي تعرض لها مؤرخنا . تتطلب الوقت والشرح والتفصيل ولا أخفي عليكم أيها السادة بأن محاضرتي هذه هي ملخص عن محاضرة مطولة قمت باعدادها ، مشبعا

إياها شرحا وتفصيلا . ولكنني وجدت نفسي مضطرا ضمن الوقت الضيق المخصص لنا في هذه الندوة ، إلى تلخيص وذكر بعض من الأحداث والاعلام والمنشآت العمرانية وغيرها ، والتي وردت في كتابنا المخطوط . آملا أن نوفق بنشره ، ليكون مرجعا وحلقة ضمن حلقات التاريخ . واسمحوا لي أن أشير سريعا إلى بعض ماجاء على لسان مؤرخنا الوفائي :

١ – هجرة الشركس ١٢٩١ « بسبب الحرب بينهم وبين الموسكوف وحدد عددهم . ومكان استقرارهم ذاكرا تقواهم وايمانهم » . ولم ينسى أيضا ذكر مهاجري كريد ١٣١٧ واستقرارهم بجوار القصير ومهاجري بخارى ولقائهم بالشيخ سليم خلف .

٢ – انحباس المطر سنة ١٣١٨ ودعاء وصلاة الاستسقاء بحضور الشيخ سليم خلف وكان عمر الشيخ آنذاك ٩٥ سنة ، ويصف كيف أخذه الجذب والبكاء حتى ابكى جميع العالم ، وكيف هطل المطر بعدها غزيرا مدرارا .

٣ – نزول اسعار العملة على اثر الثلج الذي دام طويلا سنة ١٢٩٦ هـ ١٩١١ م . وحدوث الغلاء .

٤ – كما ذكر اسماء رؤساء بعض الطوائف المسيحية بحمص سنة ١٣١٧ منهم : نسيم الصراف وابناء فركوح ، وأبناء الحموي ، وحنارزق ، وانطون طرابلسي .

وهجرة أبناء الطوائف المسيحية للعمل في امريكا .

٥ – ذكر العديد من الشخصيات والعلماء الذين مروا بحمص أمثال :

البحراوي ، واللاذقاني ، وسابا الطرابلسي ، وحبيب مرهج ، كما اسهب بذكر من استوطن حمص من العلماء أمثال الشيخ عبد الباقي الأفغاني . . وغيرهم .

٦ ــ حضور البهلوان والسباع .(السيرك) لحمص سنة ١٣١٩ .

٧ ــ تعرض للوحدة النقدية في زمانه : القرش والباره والحمره والمجيدي وغيرهم . ووحدة الأوزان الرطل والشنبل . والمهن مثال : العبجية ــ والصرماتيه ــ والبرادعية وغيرهم .

٨ ــ أما الالقاب التي كانت سائدة في عصره فقد ذكرها الى جانب الأسماء الحقيقية لاصحابها منها الطنجير ، والبجم . وتاجو وحنجل منجل ، والزند . . وغيرها من الألقاب التي راجت في ذلك العصر .

٩ ــ أما الأمراض فقد اشار اليها عند ذكر المترجم له وكيف ادت الى وفاته منها :

« مات بحصر البول ــ داء الفالج ــ توفيء فجأة أو قهرا ــ أي بسبب الحزن والغم ــ وغيرها من الأمراض التي استعصت على أطباء زمانه .

١٠ ــ كما ذكر لباس وازياء عصره ضمن احاديثه العامة والخاصة منها : البابوجة والطربوش والعمامة والقنباز .

١١ ــ تحدث عن السكة الحجازية والتلغراف الحجازي ، ودعا للسلطان الذي أمر باقامتهما .

١٢ ــ تعرض لذكر علم الفلك وعلمائه ، فعرفنا على بعض منهم مثل محمد طه السكاف وخالد الكلاليب وأمين الطرابلسي . وروى لنا

لنا قصة مفادها ان الحاج محمد السكاف سأل خالد الأتاسي عن الأرض هل هي كروية أم بسيطة ، فقال خالد أنها بسيطة ، فأتاه السكاف بادلة وبراهين فعندها علم ان الأرض كروية وليست مبسوطة » .

والآن وقبل ان انهي محاضرتي لابد ان اضع امامكم قيمة الكتاب في نظرنا : بالنسبة للقيمة الاجتماعية والاقتصادية : فاننا من الكتاب يمكن ان نرسم صورة صادقة لطبقات مجتمع المدينة ، فهناك طبقة الأغنياء والمتنفذين (الزاوات) وهي تشمل التجار والولاة والأقطاعيين . ثم طبقة الفقراء . وتشمل على جمهور العلماء والصوفية وسائر أبناء الشعب .

والكتاب لايصور العلاقات بين الطبقات على نحو واضح لكن الدارس المعاصر يستطيع ان ينفذ من جملة أخبار الكتاب الى كثير من الحقائق المتعلقة بالتكوين الطبقي وبالعلاقات بين الطبقات التي كانت سائدة آنذاك . وكذلك تعرض لقضايا ارتفاع الأسعار المفاجىء . . . . بالاضافة إلى الكوارث الطبيعية التي أصابت المدينة في عصره . أما القيمة السياسية ، فان الكتاب يظهر السلبيات السياسية المتمثلة بانعزال المجتمع عن أي فاعلية سياسية فالمجتمع كان دائما متأثرا وليس مؤثرا .

أما الناحية العلمية ، فان الكتاب يقدم صورة واضحة عن الحركة العلمية وطبيعتها ويظهر لنا كيف أن العلوم كانت تدور في اطار الفقه واللغة وما أشبه ذلك . وليس هناك أي مظهر بارز لتأثر المدينة بالعلوم الحرفية على الرغم من أن المؤلف اشار إلى بعض ذلك مثال : (كروية الأرض عند السكاف) .

لكنه بحكم ثقافته المحدودة وانجرافه وراء الصوفية لم يستطع أن يتحدث بالتفصيل عن بعض مظاهر التنوير التي نظن أنها كانت موجودة لدى نفر من طبقة العلماء في ذلك الوقت .

كما أن الكتاب يصور ملامح عن البنية الاجتماعية الضعيفة التي كانت سائدة في المدينة في أيام الدولة العثمانية ، بسبب سياسة الانعزال والكبت الذي فرضه نظام الدولة العثمانية آنذاك . بقي لنا أن نقول بان الكتاب المخطوط موضوع دراستنا في هذه الندوة يبقى المصدر الوحيد لتاريخ المدينة في ذلك العصر ، ونحن لا نشك اطلاقا في صدق الكاتب ؛ ربما بسبب بساطته وتدينه ، وعدم وجود الأغراض والمنافع الشخصية التي قد تجرفه في تيار دون آخر .

شكرا لاصغائكم والسلام عليكم

حمص في ١٩٨٤/١١/٢٩

رياض البدري
معاون مدير آثار حمص

* * *

الفهرس

الاسبوع التاريخي الأول

للجمعية التاريخية في حمص

بمناسبة

مرور سبعة قرون على خروج الصليبيين "الفرنجة"

من بلاد الشام

١١/٢٤م — ١١/٢١ — ١٩٩١

* الفهـــــرس *

=•=•=•=•=•=•=

من الصفحـــة

صدر عن الجمعية التاريخية

١- العدد الأول من مجلة البحث التاريخي .
٢- العدد الثاني من مجلة البحث التاريخي .
٣- العدد الثالث من مجلة البحث التاريخي .
٤- ندوة حمص الأثرية التاريخية الأولى .
٥- العدد الرابع من مجلة البحث التاريخي .
٦- العدد الخامس من مجلة البحث التاريخي .
٧- الاسبوع التاريخي الاول .

بين يدي الذكرى[1]

الاستاذ محمد عبد الصمد الشاطر

نقدم لقرائنا الاعزاء ثمرة أعمال الاسبوع التاريخي الاول الذي أقامته الجمعية التاريخية في حمص في الفترة الواقعة بين ٢٤/١١/٩٩١ ٣١/١١/١٩٩١ • بمناسبة مرور سبعة قرون على خروج آخر فلول الفرنجة الغزاة من وطننا العربي ،فيما اصطلحوا على تسميته // موّخرا // بالحروب الصليبية •

سبعة محاضرين أساتذة كبار تكرموا بالحديث عن هذه المناسبة فأغنوا الموضوع بسرد تاريخي منهجي موفق ،نفروا خفافا وثقالا من أرجاء المعمورة العربية ،وهبوا متطوعين بنجدة يعربية تثمنها الجمعية ومدينة ابن الوليد قاطبة وتشكر لهم أريحيتهم النبيلة وعطاءهم الفياض مدفوعين بأحاسيس وطنية وعلمية خلاقة •

لم يكن الحدث التاريخي موضوع الاسبوع عاديا ولم تكن فترته الزمنية قصيرة أو نتائجه هينة ، ان كل شيء في هذه الحروب القاسية كان مدمرا وعاصفا •

بدأت حروب الفرنجة والوطن العربي في أشد حالات ضعفه فحكامه وجلهم من غير العرب يتصارعون على السلطة ناسين أو متناسين الخطر الداهم الذي راح يحيق بهم غير عارفين مداه أو هويته •

أمام التشرزم السلجوقي والفاطمي والضياع العباسي وتناحر القادة وشماتة بعضهم بالبعض الاخر • سهل على الغزاة "بعد عدة محاولات التغلب على المقاومة المبعثرة هنا وهناك وحصلوا على موطيء قدم لهم ثم انساحت أقدامهم وسيوفهم تعمل في رقاب عباد الله المستضعفين بعد أن خزلهم حكامهم المتقاعسون حتى عادت الصحوة التي بدأها زنكي/عماد الدين/باستعادة الرها ،وقام بعده بالجهد الوحدوي الموفق ابنه محمود/نور الدين/ عندما استطاع بدهائه وقوته أن يجعل رايته

تخفق على خمسة عواصم عربية هي /دمشق ـ الرها ـ حلب ـ الموصل ـ القاهرة / وبدأت بذلك الخطوة الصحيحة المؤدية الى طريق التصدي لهذا الاستعمار الاستيطاني المقنع .

جهود كبيرة تلك التي بذلها نور الدين وآمان عريضة رُسمت في مخيلة المواطنين ... غدا يوم الثأر قريبا ،هاهو المنبر قد صمم في حلب لنقله الى الاقصى والكل ينتظر .. المنية عاجلت صاحب الخطة والمنبر لم تمهله طويلا ،خطفته المنون بغتة ،مما أفسح المجال للناهض في مصر/ الناصر صلاح الدين/ لان يستثمر هذه المنجزات ويستأنفها بهمة وتصميم أنست الجموع الكارثة وحجمها الكبير ،فكان خير خلف لخير سلف .

هو صاحب حطين ومحرر القدس من الغزاة المعتدين . نعمت البلاد في عهده بالقوة ونشوة الظفر وجاء (الممزقون) من الايوبيين بعده ، فهدموا مابناه صلاح الدين ، ولحق الامة بسببهم خذلان مبين ،فأعادوا بيت المقدس صلحا في معاهدة اسطورية مع ملك الالمان وضاعت دماء المحاربين وجهود المصلحين حتى حين ...

لكن المسيرة لم تتوقف فقد تابعها قطز والظاهر بيبرس وقلاوون ، وأنهى الملحمة الاشرف خليل بعمله المبدع السريع وحرر عكا ،فانتهى الامر بالفرنجة الى الرحيل عن الارض العربية .

وكانت جهود جبارة قد بذلت قبل هؤلاء القادة لزحزحة الفرنجة أو طردهم لكنها لم تؤت أكلها على عظم الجهد وكثرة التضحيات ،غير أن ذلك كله كان ارهاصا بتلك الملاحم الشهيرة .

ويمكن أن نذكر من أصحاب هذه الجهود الخيرة (ارتق)وابنه (سكمان) و(جزكمش) و(مودود) و(البرسقيان)و(زنكي) و(آل عمار) في طرابلس ان جهود هؤلاء كانت صادقة ،لكنها تفتقد العمل الجماعي الموحد الذي اكتشف أهميته (نور الدين) وسار على طريقه وتابعه بعده صلاح الدين صاحب الدولة التي امتدت من الفرات الى النيل ومن دياربكر الى اليمن .

بهذه القوى رمى جموع الصليبيين في حطين ومثله فعل سلاطين المماليك الكبار فماذا كانت النتائج ؟ وماذا كان الحصاد ؟ .

دام الحصار قرابة مئتي سنة بين كر وفر ،كنا فيها مدافعين حينا ومهاجمين حينا آخر لتحرير مدينة أو استعادة قلعة أو حصن وكانت ساحة المعركة دائما هي الارض العربية ... كل شيء للمعركة وفي سبيلها كل شيء يهون .

وتعددت المجازر الجماعية التي حصدت مئات الالاف الذين ماتوا وهم ينتظرون ساعة الخلاص ولاتسل عن طريقها ... هدمت مدن كاملة وأزيلت من الوجود ،وأحرقت الزروع واقتلعت الاشجار ،وهلك الحرس والنسل .... عزاؤنا الكبير كان في النصر وقد كان ولكن بأي ثمن كان ؟!

لقد صب معظم هذه الصواعق على بلاد الشام ،وتناثر بعض رذاذها فطال مصر فترة محددة ،فتحمل بذلك (الشوام) العبء الاكبر وتجلدوا أمام المصيبة الى أن هبت الرياح المواتية من دمشق والقاهرة وتجاوبت معها بقية العواصم العربية فقدم الشاميون كل مايستطيعه المضحي وطال الزمن .... وفي كل شيء لايسرك طول ... فكيف والزمان زمان المحن ؟ .

هذه صورة مقتضبة وسريعة لما حدث في المواجهة الكبرى ولبعض انعكاساتها على الاجيال اللاحقة ،ولابد من قراءتها مفصلة في مظانها الاساسية وفي محاضرات الاسبوع التاريخي التالية .

ان ماقدمناه جهد متواضع بين يدي حدث كبير ،فليعذرنا العارفون ... وفي واقع الحال الكثير مما قدمناه ونقدمه مدين بالجميل والايادي البيضاء للسادة المسؤولين وللسادة الاساتذة المحاضرين الذين تجاوزوا الصعاب والمعيقات وأعطوا ما أفاد وأثرى ،فلهم جميعا خالص شكر الجمعية وامتنانها . والله الموفق .

محمد عبد الصمد الشاطر

الحملات الصليبية - التسمية والدوافع

الدكتور صالح حمارنه
الجامعة الأردنية

أود في بدء حديثي أن أتعرض الى المصطلح مصطلح الحروب الصليبية او لنقل الحملات الصليبية ،وغرضي هو جلاء ما يلحق بهذا المصطلح من مفاهيم ودلالات خاطئة وبما تحمل في طياتها من تناقض فيما بين دلالة المصطلح اللغوية وحقيقته التاريخية .

فأول هذه الامور هو أن ربط هذه الحركة بالصليب هو ربط انتهازي ومربك ،والحقيقة أن هذا الربط لم يكن منذ بدء الهجمة الفرنجية على بلادنا ،بل ـ لقد تم ذلك بعد حوالي قرن ونصف القرن من دوران عجلة أحداث الحملة الصليبية .

صحيح أن الذين قاموا بالحملات الصليبية كانوا على الاغلب الاعم مشبعين بالعاطفة الدينية ولكنها عاطفة امتزجت في آفعال أصحابها بالوحشية والقسوة ناهيك عن التعصب ودلالاته المقيتة ،وأهم من ذلك كله ان أعمال وحروب الصليبيين تتناقض تماما مع تعاليمهم المسيحية السمحة ورمزها الصليب ،الذي هو رمز الفداء والتضحية في سبيل الاخرين ((فمن اراد ان يتبعني فلينكر نفسه ويحمل صليبه)) ،هذا ما جاء في بشارة متى وورد أيضا طوبى لصانعي السلام فانهم أبناء الله يدعون ،فجوهر المسيحية هو المحبة والسلام ،فلم يكن الصليب ابدا رمزا للحرب والقتال اغتصاب أرض الاخرين .

ومعلوم ان جميع المؤرخين والجغرافين العرب المسلمين الذين تناولوا الحركة الصليبية ،وهم كثيرون : ابن الاثير ، ابن العديم ، ابن شداد، ابن واصل ، ابن القلانسي ،المقريزي ،العماد الاصفهاني ،القلقشندى ،جميع هؤلاء وغيرهم لم يستخدموا آبدا مصطلحات مثل الصليبين ، او الحملة الصليبية وانما تكلموا على الدوام بمصطلح الفرنج ،وغزوة الفرنجة ،على الرغم من آن كثيرين من المؤرخين العرب المسلمين كانوا يفرقون بين الجرمان والانجليز مثلا ،وغيرهم من شعوب اوربا .

فالكلمة الانجليزية Crusade والالمانية Kreuzzady كلاهما قد أبتكرتا في العصور الحديثة ،حيث ان المؤرخ الفرنسي لـويـــس مميور والذي خدم في بلاط الملك لويس الرابع عشر ،كتب كتابا عن هـــذه الحروب سمّاه تاريخ الحروب الصليبيةوذلك عام ١٦٧٥ وتبعه المؤرخ الالماني ليسينغ و استعمل نفس التسمية وتبعهما اخرون ،ومع الاسف نهج المؤرخون العرب نفس المنهج في اكثر الاحيان محاكـاة للمستشرقين .

في حين عند قيام الحملات الصليبية كان الغربيون يطيب لهـــــم تسميتها بالحرب المقدسة Holy war او الحربالعادلةist'ssim Bellum كما استعمل تعبير الترحال ، او التطواف wander Pemogrintio وببساطة تعبير الحملة Expeditio والطريق الى الارض المقدســــــة Inter in terram Sanetum والسير على درب الرب .

غير ان تعبير الحروب الصليبية او الحملات ،هو الذي شـــاع منـــذ استعمل حتى أيامنا هذه . . واليوم كما تعلمون نحتفل بخروج آخـــر جندي من جنود هذه الغزوة منذ (٧٠٠) سنة من مدينة عكا الفلسطينية وأرض الشام .

هذا وان الباباوية و الاقطاعيين الغربين رفعوا شعارالحــــروب الصليبية والحرب المقدسة ضد كثير من خصومهم السياسيين و الايدولوجيين فتحت رايات الحملة الصليبية شنت الباباوية منذ القرن الثالث عشـــر وبعده في الغرب نفسه حروبا كثيرة ،واود هنا للاختصار ان انتقـــي انتقاء بعض الامثلة . فالفرسان الالمان كانوا يطبقون سياسة ،درانغ ناخ ، اوستن ،بما يمكن ترجمته العربية سياسة الزحف الى الشرق،وهنـــا الشرق الاوربي لا العربي اي غزو مناطق البلطيق الشرقية والجنوبيــــة ، واستعباد الشعوب البولونية والروسية الشمالية الغربية ،تماما كمـــا فعل في بلدان الشرق العربي فرسان رهبنة القديس يوحنا ،وفرسان رهبنـة الهيكليين اللتين وطدتا بالسيف سيطرة الدولة اللاتيينة والفرســـان والتجار في ما اسموه بمملكة القدس،التي زرعوها في فلسطين وبلدانــا

العربية ،فقد نشرت على نفس الغرار رهبنة الفرسان التوتونيين أو رهبنة حملة "السيف الالمانية التي نشأت سنة ١٢٠٢ م،نور الايمان الحقيقق،فلاجل انتصار الصليب سفك فرسان هذه الرهبنات دماء السلافيين والبروسـيين والليتوانيين والاستونيين .

ومثل آخر : فتحت راية الصليب ايضا في سنوات (١٤٢٠ - ١٤٣٠) شن البابا مرثينيوس الخامس خمس حملات تأديبية بقوات الفرسان الالمان ضد المنتفضين الهوسيين الثوريين من اهل تشكوسلوفاكيا،وكان غالبيتهم من الفلاحين والحرفيين الذين هبوا للنضال من أجل خلاص بلادهم من نير الفرسان الالماني والسلطة البابوية وفي سبيل استقلالهم القومي .

(الهوسيون هم اتباع رجل الدين والمصلح التشيكي يان هوس (١٣٦٩-١٤١٥) الذي قاد ثورة ضد البابوية من اجل استقلال بلاده،واستقلال الكنيسة الوطنية .

ومع مرور الزمن وتحت تأثير وسائل الاعلام الغربية التي قامت - ولاتزال - لخدمة الاهداف الاستعمارية الغربية،فقد تحول المصطلح صليبي لدى الغربيين الى مثال براق يوحي بالشجاعة والتضحية في سبيل المثل العليا ،حتى استقر في الوجدان الشعبي الاوربي -الامريكي .

وان الحملة الصليبية لابد ان تكون وبالضرورة حملة خير،نبيلة القصد والهدف . فقد حملت هذا المفهوم الموروثات الشعبية من أغبان وملاحم عن الحروب الصليبية ،واصبحهذا الموقف ينسحب على الفرد العادى في الغرب وعلى الانسان الرسمي . بل اننا كثيرا ما نرى قادة الرأى والسياسة الغربيين يستخدمون مصطلح صليبي بهذا المفهوم النبيل والخير والعادل . ما خلا قلة من الكتاب والمفكرين من بينهم الماركسيون - فهؤلاء قددرجوافي كتاباتهم على تضمين الصليبية معنى مجازيا سلبيا .

فكثيرا ما كان يستعمل التعبير الحروب الصليبية أيامكانت الحرب الباردة على أشدها كحرب ضد الاشتراكية مثلا ،وقد نبه العالم الكبير

جوليو ـ كوري الى خطر بعث جو الحرب الصليبية ضد الاشتراكية بعد هزيمة الفاشية في الحرب العالمية الثانية فقد دعا الى نبذ روح الحرب الصليبية ووضع حد لمحاولات خصوم السلام والتعايش السلمي لاثارة التعصب بين الناس فاننا سنناضل ضد الكذب وضد الخرافات والآراء الباطلة ،وطبعا ضد الحرب •

بقي أن اقول ان مصطلح الحروب الصليبية استعمل ضد العرب المسلمين قبل غزوة الفرنجة الى الديار المقدسة ،ذلك انه استعمل ضد العرب المسلمين في اسبانيا (الاندلس) ،وفي صقيله لابل ان ترهات الغربيين وانتقاءهم المجحف لما يسمونه حقائق تذهب الى أبعد • فمثلا هم يرددون وحتى اليوم اسطورة تقول بان الملك شارلمان الكبير بسط حمايته على الديار المقدسة ، وتسلم من البطريرك مفاتيح القدس ، رددهذه الاسطورة مبتدعها الراهب سنت كول بعد خمسين سنة من وفاة شارلمان،هذه الاسطورة ضمنها اينهارد Enhard في كتابه حياة شارلمان وقد رددها الكتاب الغربيون والصهاينة ،واستسلم لها مع الاسف بعض المؤرخين العرب زاعمين ومرددين ان علاقات ودية قد قامت بين الخليفة هارون الرشيد،ومعاصره شارلمان ضد عدوهم المشترك العرب في الاندلس •تصوروا معي هذا التخبط وهذه المزاعم الكاذبة ،مع ان مصادرنا العربية الاسلامية لاتذكر البتة مثل هذه العلاقة ،كما ان التحليل المنطقي للتاريخ يرفضها تماما • لا أريد هنا ان اخرج عن الموضوع ،لذا اعود فاقول ان حرب الاسترجاع التي شنها الاسبان ورهبان الكلوني على عرب الاندلس أخذت تسمى ايضا بالحرب الصليبية فتشير الحقائق التاريخية بان القرن الحادى عشر وعلى امتداد سنيه الطويلة قد حفل بمغامرات جماعات الفرسان وحملاتهم اللصوصية ،فحيثما كانت تنشب حرب كان يتواجد عدد كبير من الراغبين في اشهار السيف أملا في غنيمة سهلة المنال،وهذه الحملات العدوانية الاغتصابية قد استرعت انتباه الكنيسة الكاثوليكية • فقد استحث

رهبان كلوني الاسياد،والفرسان الفرنسيين،وبجميع الوسائل على الاشتراك في استعادة اسبانيا (الريكونكيستو)،وحبذت لابل شجعت البابوية هذه الحملات،لتكسب مكانة ارفع لكرسي البابوية في الفاتيكان.فاعتبرتها حربا مقدسة حربا صليبية،قبل الحروب الصليبية في الشرق العربي،فقد رفعت نفس الشعارات تقريبا،ولبس القائمون عليها نفس الالبسة ورفعوا نفس الرايات،وكان رهبان كلوني العنصر المحرك لهذه الحروب فأعلنوا الحرب ضد المسلمين في الاندلس وسموها حربا مقدسة بمباركة البابا والكنيسة،فقامت على هذه الاسس الحملات سنة (١٠٦٣ - ١٠٦٤) وغفرت الكنيسة خطايا كل من ذهب وتطوع للحرب بهذه الحملة،من اجل قضية الصليب،لابل ان البابا غريغوريوس السابع (١٠٧٣) م سمح فيما بعد بامتلاك الاراضي التي ينتزعها المسيحيون من الكفار .

ولنركز الان على الغزوة الفرنجية على بلادنا ...

يقول واط : يصطدم باحث الدراسات الاسلامية حين ينظر الى اوربا في العصور الوسطى لأمرين بارزين، اولهما : الطريقة التي بموجبها اخذت الصورة المشوهة للاسلام شكلها في اوربا بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر،والتي استمرت بعض الشيء بالسيطرة على التفكير الاوربي، اما الامر الثاني : فهو الحالة الاستثنائية التي سيطرت فيها فكرة الحروب الصليبية على قلوب الاوربين الغربيين وعقولهم،وقد يندهش المرء اكثر حين يأخذ بعين الاعتبار التهور والدونكيشوتية التي كانت عليها سلسلة المغامرات بأجمعها فالحركة الصليبية تشكل افرازا للتفاعل ما بين الكنيسة الكاثوليكية والاقطاع،وكانت الكنيسة ترمي من خلالها الى تحقيق اهدافها . واهمها السيادة المطلقة للبابا على العالم المسيحي .

كما وان الحركة الصليبية كانت من ناحية اخرى محاولة لتحقيق اهداف الناس العلمانيين الذين خضعوا للتنظيم الاقطاعي سواء كانوا

من النبلاء وفرسانهم او حتى من الفلاحين العاديين،فلقد كان النبلاء الاقطاعيين يتطلعون الى بناء سلطتهم الاقليمية على حساب الملكية ، ولعل هذا هو السبب الذي جعل البابا أربان الثاني يوجه خطابه الشهير الى الفرسان الفرنسيين بالذات لان فرنسا كانت لاتزال الدولة الاقطاعية الوحيدة آنذاك (وفي شمالها خاصة كان حق الارث قاصرا على الابن الاكبر) .

فجاءت الحملة الصليبية متنفسا لطبقة الفرسان التي كان عددها ينمو باستمرار،كما ان الزيادة السكانية ايضا في غرب اوربا في القرن الحادى عشر قد حفزت أبناء الغرب على البحث عن ارض جديدة خارج اوربا فجاءت الدعوة الى التوسع في الشرق العربي وبمباركة الكنيسة الكاثوليكية بمثابة الحل السعيد للمشاكل الناجمة . وظهرفي عائلات الاقطاعيين عدد لايستهان به من الابناء الاصغرسنا المحرومين من الارض وكانوا يلقبونهم ألقابا سخرية تطابق وضعهم الاجتماعي بالمعدمين او البلا ارض .

اما الفقراء والمستضعفين في الارض فلقد ربطوا احوالهم الاجتماعية المتردية باعتقادهم بقرب نهاية العالم التي ستنقلهم الى اورشليم السماوية . فلم يكن في وسعهم ان يفرقوا بين اورشليم في فلسطين واورشليم في السماء،ذلك لان الناس في الغرب الاوربي عشية الحروب الصليبية عاشوا في احباط وبؤس ،فانهم رأوا في الدعوة الصليبية فرصة كبيرة اختلط فيها الطمع الدنيوى بالرغبة في الخلاص .

ولتوضيح ذلك نكرر القول انه في القرن الحادى عشر توطد نظام الاقطاعية والقنانة في بلدان اوربا الغربية ،فكان الاقطاعيون يكثرون من نهب الفلاحيين بشتى الضرائب ،ويسوقون بالسخرة جمهور الاقنان . ومع ظهور المدن تطور التجارة تعاظمت شهوات الاسياد الاقطاعيين فكثرت مطامعهم وطفقوا يبتزون الاموال اكثر فاكثر وسنة بعد سنة فادخلوا فريضة المدفوعات النقدية عوضا عن الجزية العينية ، الامر الذى

كان مرهقاكل الارهاق للفلاحين وبهذا أصابهم الفقر المدقع وانزلقوا الى الهاويـــة .
بجانب ذلك كانت الحروب الداخلية متواصلة وقد نشبت في كل مكـان في القرنين العاشر والحادى عشر، فكانت هذه الحروب عاملا لايستهان به مـن عوامل افقار الريف واملاقه، فامسى الريف في اواخر القرن الحادى عشر يمر بزمن عصيب جدا عرف بالسنوات السبع العجافه والتي سبقت مباشرة الحملـة الاولى للصليبين الى الشرق، لذا وجدوا في هذه الحملة وما تلاها الـــخلاص فانخرطوا بها .
اما البرجوازية الناشئة ممثلة في القوى التجارية الايطالية علـى وجه الخصوص، فقد رأت في المشروع الصليبي فرصة هائلة للسيطرة على تجارة البحر الابيض المتوسط وتجارة العالم آنذاك، وضرب قوى المسلمون الصاعدة في مجال التجارة والتقدم، ولذلك سارعت بالانضمام الى المشروع ....
ففي منتصف القرن الحادى عشر كانت البندقية قد بنتا سطولها القـــوى وشاركتها في التجارة المدن الاخرى مثل جنوة وبيزا، وقد لعبت هاتـــان المدينتان دورا هاما في الحملة الصليبية الاولى في مقابل السيطرة علـى موانئ شرق البحر الابيض المتوسط وهكذا، ففي اثناء هذه الحروب الصليبية فقد قام تحالف مابين الكنيسة الكاثوليكة والاقطاع من جهـة وبـــين البرجوازية التجارية الاوربية في مدن اوربا خاصة ايطاليا من جهة اخرى لضرب تجارة المسلمين ووقف تقدمهم الى جانب الكنيسة الكاثوليكية قـــد رأت في هذه الحروب فرصتها لتوحيد الكنيسة كلها تحت سيطرة البـــابـــا . ثم للقضاء على مراكز الفكر العربي المتقدم الذى ومنذ زمن اخذ يقـــض مضاجعها ويسبب لها القلق الشديد خاصة بسبب تغلغل الثقافة العربيـــة الاسلامية وانتشارها عبر قنوات عدة ابرزها من خلال الاندلـس .
لقد الكنيسة الكاثوليكية عشية الحروب الصليبية الأبعد نظرا في المجتمـع الاقطاعي والاكثر غنى وجبروتاً، فاخذت على عاتقها ان تنقذ الوضع وتخلص الطبقة السائدة التي تمثلها من البلايا، فجاءتها الفرصة الذهبية فـــــي

استنفار أرسله عام ١٠٩٤م ، الامبراطور الكسيوس كومنينوس امبراطور بيزنطا الى البابا أربان الثاني في الفاتيكان بيزنطة وذلك عندما غشى السلاجقة املاك الامبراطور الاسيوية ، فاكتسحوها حتى بحرمرمره وهدد السلاجقة القسطنطينية نفسها ، ولاشك أن البابا قد رأى في ذلك الاستنجاد فرصة لارجاع الكنيسة الشرقية الى حظيرة روما ، وكان انشقاق الطائفتين الاخير قد حدث عام ١٠٥٤ م ٠ وفي تشرين الثاني ١٠٩٥ م عقد بابا روما أوربان الثاني مجمعا لرجال الدين في مدينة كليرمون فران الفرنسية ، بعد ان طاف على الاديرة الكلونية في جنوب البلاد ، حيث كان هو نفسه رئيسا لدير كلوني ، وفي هذا المجمع اتخذ قرار الحرب المقدسة لخلاص القبر فأعلن ذلك في خطبته التي ألقاها في احتفال كبير دعا البابا الكاثوليك الى حمل السلاح لأجل الحرب ضد ما سماه قبيلة الاتراك الفارسية الذين آسروا المسيحين ودمروا الكنائس - يعني السلاجقة المسلمين - واجتاحوا مملكة الرب (يقصد دولة بيزنطة) وهذا يعني انه اطلق من كليرمون النداء الذى دعا الغرب الى حرب صليبية في الشرق ٠ وقد قوطعت الخطبة بصرخات هذه هي ارادة الله Deus lo volt وقد دعا البابا الفرسان الى وقف الحروب والمذابح والتحرك الى فتح البلدان الشرقية "روحوا في الدرب المؤدى الى الدرب المقدس" ٠ هؤلاء الفرسان العلوج الذين كانوا مرتزقة لقاء أجر زهيد ، والذين خاطبهم البابا كانوا يتحرفون الى الدور والعقارات والى القطع النقدية الرنانة ٠ ووجه البابا خطابه للفقراء ((اما بلدان الشرق فانها تفيض بالعسل والسمن والقدس هي محور الكون ، هي الجنة الثانية)) ٠ وكذلك فان الفقراء والحزانى في الارض سيكون لهم الفرح والغنى هناك في السماء ٠

ولايخفى أن خطاب البابا هذا لقي التحبيذ من الاقطاعيين ، فان الاقطاعيين كانوا يتصورون الاهداف الفعلية من الحرب اى اهداف النهب والسلب مغفلة بغطاء ديني في انقاذ المقدسات المسيحية ولم يكن ثمة تناقض بين الغرض الديني والدنيوى بنظرهم ، كما وكانت الحرب الصليبية ضرب من الحج المقدس لكثير من الناس ولكنه حج مسلح هذه المرة ٠ وتكون لدى الفرسان وغيرهم ايمان يجمع بين نكران الذات الديني مع الافكار عن

المكافاة الارضية السخية .

وكما قلنا فان خطاب البابا لم يستمع له الأسياد والفرسان وحدهم فقد استمع اليه أهل الريف والفقراء المتضورون جدا والمعذبون في عبودية القنانة . فكان الفلاحون يرغبون في التخلص من نير الاقطاعيين فاندفعوا الى ملاقاة القدس السماوية ،ولكن سرعان ما أحس القائمون ان هؤلاء الفقراء اصبحوا عبئا عليهم،ولم يكن ممكنا ايقافهم . وتنتهي الماساة بان الفلاحين لم يكسبوا في الشرق الارض والحرية بل كسبوا هلاكهم وحسب .

يذكر ابن الاثير ان الفرنجة عند دخولهم بيت المقدس قد قتلوا فيها من المسلمين ما يتجاوز السبعين الف انسان ،ويذكر ايضا ان اليهود قد تجمعوا في كنيس فاحرقه الفرنجة بمن فيه فماتوا . هذا المثل الوحيد قد سقته لادلل على الجرائم التي ارتكبها الفرنجة باسم الصليب في بلادنا ضد السكان جميعا .(ولا أريد في هذا البحث الخوض بردة الفعل عند العرب المسلمين،فهذا الموضوع الهام سوف يتناوله الاخوة الباحثون الاجلاء) .

كما ان بلدان البلقان المسيحية ،قد عانت من وحشية الصليبين الشيء الكثير كما راحت الامبراطورية البيزنطية واملاكها ضحية بعض الحملات الصليبية (الحملة الرابعة في مطلع القرن الثالث عشر) وظلت هذه المناطق تئن تحت وطأة الصليبين اكثر من نصف قرن،فلو كان لهذه الحروب حظ ولو ضئيل من القيم والافكار النبيلة والاهداف الدينية لما صدق عليها ذلك التعبير الذى قاله عنها غليوم الصورى ان الصليبي كان يرى في الشرق - فحسب - عدوه اللدود مسلما كان الشرقي او نصرانيا فقد عامل الصليبيون هؤلاء النصارى كما يعامل الاعداء . صحيح ان بين النصرانية الشرقية وبين حكامها اللاتين رابطة الدين المشترك ولكنها كانت ترتبط كذلك مع اخوانها المسلمين براوبط التاريخ واللغة والعادات . يبدو ان المسيحين الوطنين لم يوفروا الاساس الراسخ للحكم اللاتيني،بل زادوا من مشاكل الافرنج العسكرية ،فقد رفض واغتاظ البطريرك السورى من معاملة

الافرنج له . ويقرر كذلك كل من ميخائيل الصورى،ومؤرخ مجهول،في فقرات متعددة مفادها : ان اللغة المشتركة والجنس المشترك اللذين اشتركا فيهما النصارى العرب السوريون مع الكثير من المسلمين امكن ان يشكلا رابطا أقوى من العقيدة المسيحية التي اشتركا فيها مع الافرنج .

ولقد ذكر المؤرخون والاخباريون الغربيون منهم والشرقيون ان الكراهية كانت متبادلة بين النصارى العرب والمسيحيين الشرقيين عموما وبين المحتلين الغربين الافرنج واللاتين. اي ان الصليبي كان يرى في الشرقي عدوه اللدود،مسلما كان الشرقي أو مسيحيا .

فمنذ وصول اللاتين لاول مرة الى بلاد الشام كان العديد منهم يميلون الى اعتبار كافة المسيحيين حتى اليونانين مهرطقين (اى اصحاب بدع في مفهومنا) وطيلة القرن من عمر الاحتلال الافرنجي كانت هنالك ادلة كثيرة على الكراهية الفطرية المتبادلة والتي كان ثمة مجال لوجودها بين النصارى الشرقين والاوربين الغربين . ولقد اضطر الأرثوذكس لتقديم الطاعة وضريبة العشر الى رجال الكنيسة والمنتمين الى جنس دخيل والممارسين طقوسا مختلفة . لذا يقرر رنيسمان،فلا عجب انه عندما كان صلاح الدين يحاصر القدس عام ١١٨٧ م وعدت الطوائف الارثوذكسية الموجودة داخل الأسوار بتقديم المساعدة له ،وانه تلقى تهاني الامبرطور اسحاق انجيلوس عند فتحة للمدينة المقدسة .

واذا ما نظرنا الى الامر بشكل واقعي ومبسط فالمسألة لا تبدو معقدة ولاصعبة خاصة اذا ما وضعنا جملة من الحقائق الثابتة أمام أعيننا . فالنصارى العرب هم عرب اولا وهذه الديار ديارهم حررها اخوانهم العرب المسلمون من المحتلين البيزنطيين القدامى،وبعد ان قاموا بنصيبهم في عملية الفتح،شارك النصارى في بناء دولة الخلافة وفي ازدهار الثقافة العربية الاسلامية ،هذه المشاركة التي فتح التسامح الشرع الاسلامي المجال واسعا امامها . وعلى مر الايام والسنين أخذت اعداد من النصارى تدخل في الدين الاسلامي،وهذا أمر طبيعي ومنطقي ، اما الذين بقوا على نصرانيتهم،بقوا في نفس الوقت على ولائهم لوطنهم مشاركين

ابناء مجتمعهم في عمل البناء لاوطانهم .وكما ذكرنا فان النصارى العرب والشرقين عموما بقوا على خلاف وخصومة مع المذاهب الكنسية للاتين والكنيسة الغربية ،لذا ففي ظل دولة اللاتين الفرنجة بدا الخلاف المذهبي أوسع واعمق واوضح . فالنصارى العرب بحكم انتمائهم لوطنهم ولجنسهم ولتاريخهم وللغتهم يرون في اللاتين الفرنجة محتلين غاصبين،فكان انضمامهم لصفوف اخوانهم المسلمين امرا طبيعيا ومنسجما تماما مع منطلقاتهم الروحية والاقتصادية حتى والمذهبية .

اما حال الفرنجة أنفسهم الذين تألفت منهم مملكة بيت المقدس الصليبية (٤٩٢ – ٦٩٠ هـ ١٠٩٩ م –١٢٩١ م)،هذه المملكة التي اعتبرها غروسية اول توسع استعمارى غربي في الشرق العربي الاسلامي،فقد ظلوا غرباء عن البلاد،لم يتعاون معهم الفلاحون الذين يؤلفون غالبية السكان وكثير من اهل الاراضي تركوها،فقل عدد السكان وقل معهم الدخل والانتاجية فضاقت الارض بهم على وسعها ،ذلك ان أعقد المسائل التي واجهت الفرنجة في بلادنا هي نقص القوى البشرية وعدم تعاون السكان أهل البلاد مع المستعمرين،فاحس الفرنجة انهم جسد غريب ضمن المجموع السكاني المتجانس فبالرغم من أنهم ملكوا (الى حين) الارض والمدن بالقوة ،واستمروا بفضل المدد الاجنبي الخارجي يدافعون عن وجودهم وبقائهم لم يستطيعوا اقامة أى جسر واضح من الصلة بينهم وبين أهل البلاد،فما ان انقطع عنهم المدد الخارجي الغربي،من المال والرجال،حتى تقرر مصيرهم وذلك بالجلاء الاجبارى وطردهم من البلاد التي اغتصبوها .

وبعد فهل ثمة وجه مقارنة ما بين غزوة الفرنجة لبلادنا وبين الحركة الصهيونية ودولة اسرائيل المحتلة لارضنا العربية ، ان أشد ما يقض مضاجع الصهاينة هي مقارنة غزوتهم لارضنا واستيطانهم بديارنا ، بالغزوة الفرنجية الصليبية ،ذلك لانهم يعتقدون انهم انما جاءوا ليبقوا وعلينا ان ننس فلسطين والقدس . ولكن،فان الحقيقة الساطعة الاولى التي لايستطيع المتتبع ان يغض الطرف عنها ،هي ان الحملات الصليبية والتي قامت مع نهاية القرن الحادى عشر للميلاد لغزو شرقنا العربي انما هي

اولى المشروعات الاستعمارية الاوربية لاحتلال ارضنا المقدسة ،وكانت هـي السابقة البارزة ،التي تقدمت مرحلة الاستعمار الحديثهفضلا عن انها كانت الهاما للتجربة الصهيونية العنصرية ذات الاهداف الاستيطانية في ارضنــا.

ومعلوم أن أوربا قبل مايسمى بالاصلاح الديني لم تكن تعتبـــر اليهود الشعب المختار الذى قدر له ان يعود للارض المقدسة ،بل اكثر مـن ذلك اذا كان اليهودى مختارا لامر ما فانه اللعنة . فكان اليهـــود يعتبرون مارقين ويوصمون بانهم قتلة المسيح ولم تكن هناك ذرة مـــن حب عاطفي للتراث العبري،كما لم تكن هنالك بارقة أمل في اعادة بعــث اليهود روحيا أو قوميا .

ولم تكن هنالك ايضا أدنى فكرة عن تملك اليهود لفلسطين،كانــت الصهيونية غير اليهودية غائبة تماما عن أوربا في العصور الوسطى، وكانت اسرائيل مجرد اسم لديانة . وبالتالي لم يكن استيلاء اليهود علـــى فلسطين لالف عام أمر يدور في أذهان حجاج القرون الوسطى .حتى قــــام الاستعمار الغربي الحديث ـ الفرنسي والانجليزى والالماني فبدأ يتكالـب على الاستعمار بلادنا ونهبها ... فقامت خدمةلهذا الغرض حملة جديـــدة تسربلت هي ايضا بلباس الدين عرفت بالحملة الصليبية السلمية ،وبشـــر بهذه الحملة كثيرون منهم بحاثة في الامور الفلسطينية اسمه توبلـــر Tobler وقد لاقت الحملة الصليبيةالسلمية هذه انتشارا واسعا فـــي اوربا خاصة في المانية بين الكاثوليك ففي اجتماع عقد عام ١٨٥٨ م ردد المتحمسون من الاعماق دعاء

((أيها الرب ساعد الارض المقدسة ،حرر القبر المقدس من أيدى الكفــار)) ، تماما كالصرخات التي بدأت مع الحملة الصليبة الاولى في اواخر القــرن الحادى عشر م وبدا للناس ان استرداد فلسطين وخلاص القبر بات علـــى الابواب فان خيط التاريخ الذي انقطع سنة ١١٨٧م قد أعيد وصله وقـــال آخر((ينبغي لأزمان الحروب الصليبية أن تعود)) .

وما ان تلاشى بريق الحملة الصليبية السلمية حتى فسحت المحال كفكرة اشد ضررا علينا هي فكرة أعادة اليهود Restovation of the jews هذه الفكرة التي وجدت غذائها الفكرى في النظرية الالفية ،هذه النظرية التي اخذت اسمها من كلمة خلياس اليونانية Chiliasim بمعنى الـف وتتمحور هذه النظرية حول عودة وتملك المسيح في اورشليم بعد الالف .

ولاقت هذه الدعوة انتشارا واسعا بين الكنائس البروتستانتية في كل من امريكا وانكلترا في حين ان جميع الكنائس الاخرى ترفضها ،وقد اصدر الفاتيكان مرسوماعام ١٩٤٤ ،يدينها ويعتبرها بدعة وهرطقة، وحركة اعادة اليهود تهدف اولا وقبل كل شيء تفريغ فلسطين من اهلها العرب وتسكين المهاجرين اليهود مكانهم ،ذلك ان الفلاحين الفلسطينيين سوف يتركون ارضهم لو توفرت لهم ظروف افضل الى بلد اخر كسوريا او بابل مثلا .

وقام تساؤل خبيث مفاده : من سيقع عليه اختيار العناية الالهية. لتكون اعادة اليهود لارض الميعاد على يديه ؟

للحظة ما لمع اسم نابليون بونابرت الذى جاء ارض مصر غازيا ثم زحف بعد ذلك الى فلسطين عام ١٧٩٨ - ١٧٩٩ بانه هو الشخص الذى وقع عليه اختيار العناية الالهية لهذه المهمة . ولكن مع تلاحق الاحداث بدا يتضح باضطراد ان هذا الدور في نظر كثير من المنظرين والدعاة هو نصيب بريطانيا . ((هللي يابريطانيا... هكذا ورد في نشرة خلال حرب القرم فقد اختارك القدر لتعيدى اتباع جنس يهوذا المهمل المشتت)) .

ان المناخ الذى ساعد على ذلك هو انه مع نهاية حرب القرم ازداد نفوذ الدول الاوربية وبخاصة بريطانيا وفرنسا في البلاد العثمانية وانحسر نفوذ روسيا القيصرية حيث ان العثمانين وباحساس من عرفان الجميل نحو فرنسا وبريطانيا لمساعدتهم اياها في حربها ضد الروس قد فتحوا ابواب البلاد امام التغلغل الغربي اقتصاديا وسياسيا .فبدا من الناحية العملية نشاط القناصل الغربيين خاصة القنصل البريطاني (فن) الذى عمل بلا كلل على تقوية الطائفة البروتسنتية لتكون ركيزة بريطانيا ضد الكاثوليك

الذين يعتقد انهم يشكلون ركيزة لفرنسا،واتجه البريطانيون كذلك ـ وهذا الخطر ـ الى تبني اليهود وتقويتهم بالترغيب بالهجرة الى فلسطين أرض الميعاد . وكانت تعتبر حماية اليهود جزاء من مهام القنصل البريطاني،بل وابرز مهامه ... وكان عليه ان يضفي حمايته ورعايته على جميع اليهود سواء أكانوا من الرعايا البريطانيين أم لا ... فبريطانيا العظمى هي الحامي الطبيعي لليهود والبرتستنت .

وقامت مقارنة ما بين الحركة الصهيونية في مطلع القرن العشرين والحملة الصليبية في القرون الوسطى تقول : لم تكن الحملات الصليبية غارات وحشية على فلسطين أدت الى البؤس والدمار بل كانت مملكة القدس نموذجا للحكم العادل والمعتدل كالذى نفخر باننا قدمناه للهند في ظروف مشابهة . ونشرت الصهيونية مقالة بعنوان ((مستعمرات القرن الثاني عشر في فلسطين)) جاءفيها: ان المشكلات التي واجهها المستوطنون الصليبيون ونجحوا في التغلب عليها تشبه من نواح كثيرة تلك المشكلات التي تواجه المستوطنين اليوم في فلسطين، هناك أوجه شبه بارزة في الظروف التي أحاطت بالتجربتين الماضية والحاضرة .

وبكلمة : فالارهاصات الاولى للحركة الصهيونية كانت في المحيط الديني للدول الانجلوساكسونية البروتستانتية التي أتاحت الفرصة للنهضة اليهودية القومية،وشجعت على عودتهم الجماعية الى فلسطين وهي التي فوق ذلك، ابتدأت سجلا جديدا للصهيونية كعنصر مهم في اللاهوت البروتستانتي . هذا اللاهوت الذى أصر على اعادة اكتشاف العهد القديم لتعزيز النزعة اليهودية ومدها بأعظم شيء تفتقده الا وهو الايديولوجيا والتراث والتاريخ .

فالتزوير الصهيوني الحالي للتاريخ الذى يدعي حقا تاريخيا في فلسطين،فانما اكتسب مادتة من اللاهوت البروتستانتي وذلك في التمسك بحرفية الكتاب والعهد القديم خاصة .

فالحركة الصهيونية غير اليهودية هي التي ساعدت اليهود ودفعتهم الى تكوين حركتهم الصهيونية قبل اجتماع بازل ١٨٩٧ م برئاسة

الصهيوني هرتزل .

فمن المستبعد جدا ان يكون اى حل يقدمه الغرب الاستعماري للمشكلة الفلسطينية عادلا للفلسطينيين ما لم يتصد الغرب نفسه ببسالة للطبيعة الحقيقية للصهيونية ويتحرر الغرب أولا من افكارها التي لاشك انهااصبحت راسخة الجذور . حيث تروج الابواق الصهيونية بان العالم يريد تدمير اليهود والرد المعقول الوحيد هو الصهيونيةالمحاربة المتحفزة باشد الصور.

ان تحرير العالممن الحركة الصهيونية العنصرية هذا التحدي الكبيرقد وقع على عاتق العرب فهل هم فاعلون ؟

سؤال يبدو ساذجا أو مكابرا او عنيدا أمام الانتصارات الضخمة التي تحرزها الصهيونية مدعومة من الامبريالية العالمية من جهة وأمام التمزق والتجزئة والخسران والواقع المر العربي من جهة أخرى . واخيرا..

.هل كل ماسبق وقلناه هو صورة عن الصراع مابين الشرق والغرب ....

((الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا)) هذا ما قاله الشاعر الانجليزي الفكتوري كبلنج،ولكنالشاعر والكاتب الوطني الاردني ابراهيم العجلوني يزيد : ((لكن ما يقف دون التقائها الانساني الحميم هو هذا الكيد العريض الذى هو رخيص في الوقت نفسه ....))

من ابرز المصادر والمراجـــع :

١ – ابن الاثيـــر : الكامل في التاريخ دار الكتاب العربي بيروت ط ٦ الجزء الثامن ١٩٨٦

٢ – اسامة بن المنقذ : كتاب الاعتبار بيروت الدار المتحدة ١٩٨١

٣ – ابو شامـــة : كتاب الروضتين القاهرة ١٩٦٢

٤ – الشارترى فوشيه : تاريخ الحملة الى القدس ترجمة زياد العسلـي عمان ١٩٩١

٥ – سيفن ونسمان : تاريخ الحروب الصليبية ترجمة السيد الباز العريني دار الثقافة بيروت ١٩٦٧

٦ – سعيد عاشور : الحركة الصليبية ١ و٢ القاهرة ١٩٨٢

٧ – اسكندر شولتس : تحولات جذرية في فلسطين ترجمة كامل العسلي عمان ١٩٨٨

٨ – ريجينا الشريف : الصهيونية غير اليهودية عالم المعرفة الكويت ١٩٨٥

٩ – زابوروف ميخائيل : الصليبيون في الشرق ترجمة الياس شاهيـن دار التقدم موسكو ١٩٨٦ ٠

١٠– قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية عالم المعرفة الكويت ١٩٩٠ ٠

١١– صالح الحمارنة : الناس والارض دار الينابيع عمان ١٩٩١ ٠

الصليبيون والفاطميون في ملابسات الموقف على الجبهة الاسلامية في بلاد الشام

الدكتور ابراهيم بيضون "الجامعة اللبنانية"

كان قد مضى وقت طويل ،والقرون تطوي بعضها على ايقاع الهزيمة وأخبار الحروب ما انفكت تملأ السمع وتنتشر على صفحة الوجوه الرمادية وقد حفر فيها الحزن وأزمن اليأس . كانت السياسة محظورة على الخليفة الذي انقطعت أخباره عن النهار .. ولعله لم يعرف أن خليفة آخر قام على أطراف مملكته التي لاتغيب عنها الشمس ،وأن ثالثا تجرأ في الطرف المقابل وأعلن الخلافة . ولو عرف ذلك ،ربما احتج كثيرا ، أوبلغ به الامر خلع نفسه ،لان الخلافة لاتتجزأ ،كون القائم بأمرها خليفة رسول الله ،ولكنه نسي أن للخلافة شروطا ،يجب أن تتوافر فيمن يحمل اسمها والعبء ،وفي أولها حماية الدماء وصيانة الثغور .

ألم يكن الجهاد ماسوغ اعلان الخلافتين : الفاطمية والاموية في المغرب والاندلس .. الاولى ضد البيزنطيين والثانية ضد الاسبان ؟ فالخليفة العباسي تخلى أو أرغم على التخلي عن ركن أساسي في الاسلام الذي يحكم باسمه ،وهو الجهاد ،فتولى دوره الخليفة الفاطمي (المعز لدين الله) الذي كان سبب مجيئه الى مصر ،فيما يرويه المؤرخون هو الجهاد ضد الروم بعد استيلائهم على عدد من الثغور الشامية (١).

واذا كان الخليفة الاموي قد تصدى لهذا الدور ،ولكن في اطار جزئي ،على طرف مفصول عن الخلافة ،فان المعز الفاطمي – بعيدا عن دوافعه الفكرية والصراع السياسي مع العباسيين وكان يطرح نفسه لهذا الدور الذي عجز عن القيام به خليفة بغداد ،المنزوع السلطة والقرار.

لقد أعرض المعز عن الاندلس التي وجد فيها تكاملا مع دولته الصاعدة في المغرب ،بعد أن أخذ المشرق الاسلامي بكل اهتمامه ،في

---

(١)– ابن ثغري بردي الاتابكي ،النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٤ ص ٧٢ . وزارة الثقافة والارشاد القومي . القاهرة (د . ت).

وقت كانت السلطة في دولة البيزنطيين ،قد انتقلت الى أسرة مشحونة بالروم الطيبية ،وهي الاسرة المقدونية . فاصطدمت هذه الروح بنزعة جهادية بارزة لدى الفاطميين ،بالغة ذروتها في عهد المعز الذي رأى في الجهاد تكريسا لشرعيته في الخلافة ،بعد أن تخاذل العباسيون عنه ،مما أدى الى اهتزاز شرعيتهم لدى المسلمين . وكان الفاطميون قد تنبهوا مبكرا الى أهمية السلاح البحري في الصراع مع البيزنطيين الذين احتفظوا بتفوقهم في هذا المجال ،وصدوا المحاولات التي استهدفت القسطنطينية نتيجة لذلك . وهكذا ترافق نمو القوة البحرية مع قيام دولة للفاطميين ،وتجلت " المهدية " كثغر بحري منيع ،أكثر مما هي عاصمة سياسية أو ادارية . ولقد بدا حينذاك أن الفاطميين كانوا واثقين من السيطرة على البحر المتوسط [1]الذي تحول في أواخر القرن العاشر الى بحيرة فاطمية .

وقد أعاد لويس (أرشيبالد) تراجع الاسطول البيزنطي ،الى تمرد الاجناد البحرية على الامبراطور ،وافتقاده عددا غير قليل من السفن،مما جعل قوة الفاطميين البحرية في سورية ومصر تتفوق تفوقا واضحا على منافستها البيزنطية "[2]واذا أضفنا الى ذلك ، استخدام الفاطميين السلاح النفطي[3]ذلك السلاح الذي تفرد به البيزنطيون وقتا طويلا ،وصدوا بفضله محاولات الاستيلاء على القسطنطينية من جانب العرب المسلمين ،فان الفاطميين قدر لهم في تلك الفترة ، اعادة رسم خطوط الصراع ،ليس فقط على صفحة البحر المتوسط ،حيث حققوا نفوذا هاما ،ولكن على مساحة المنطقة الشامية التي شهدت تجاذبا حادا، سيؤدي أحيانا الى خلط الاوراق وقلب التحالفات ،في ضوء ماتفرضه

---

(١)ـ ارشيبالد لويس ،القوى البحرية والتجاريةفي حوض البحر المتوسط ترجمة أحمد محمد عيسى . مكتبة النهضةالمصرية (د.ت)ص ٢٥٤

(٢)ـ المرجع السابق ص ٣٢٣

(٣)ـ المرجع السابق ص ٢٤٢

مصالح القوى المتصارعة .

على أن المشروع الفاطمي ،الذي استمد حيويته من التصـــــدي للبيزنطيين وملء الفراغ السياسي في بلاد الشام ،على حساب الخلافـــة العباسية ،مالبث أن اصطدم بقوة اسلامية جديدة تمثلت بالترك السلاجقـــة الذين نافسوا الدور الفاطمي في التصدي لخطر التوسع البيزنطي في الشام وبينما شغل الفاطميون في محاولة السيطرة على المنطقة ،وهدروا وقتا في مقارعة القوى المحلية صرفهم عن التفرغ للجهاد ضد البيزنطييـــــن، كانت قوة السلاجقة الفتية ،تخطف الضوء منهم ،وتحقق انتصارا رائـــدا في هذا المجال ،دون ثمة مايحول في ذلك الوقت ،واستثمار هـــــذا النصر في منطقة النفوذ الفاطمي بالشام .

والواقع أن سنة أربعمائة وثلاث وستين للهجرة ،وهي الموافقـــة ميلاديا لسنة احدى وسبعين بعد الالف ،ستكون منعطفا بالغ الاهميـــة في الصراع على بلاد الشام بين الفاطميين والسلاجقة . ففي هذه السنـــة حقق السلطان السلجوقي (ألب أرسلان) ،نصرا مدويا على الامبراطـــور البيزنطي(ديجين) في ملاذكرد ،حيث أسر الامبراطور ودمر جيشه . هـذا النصر الذي أرسى برأي " ايليسيف " أسس الامبراطورية العثمانيـــــة المقبلة [1]. وعلى جبهة الشام ،شن السلاجقة في السنة ذاتها ،حملة علـى الرملة ،فسقطت في يدهم ،ومنها زحفوا الى بيت المقدس التي سقطـــت أيضا [2]،موجهين ضربة عنيفة للنفوذ الفاطمي في بلاد الشام .

وهكذا يتحول الدور الجهادي لدى القوتين الاسلاميتين، الـــى دور تقسيمي ،قد لاتستطيع قطف ثماره الدولة البيزنطية الهرمة ،ولكن قـــوة جديدة ستخترق معادلة الصراع في المنطقة ،وتحقق انتصارات علـــى

(١)- الشرق الاسلامي الحديث . ترجمة منصور أبو الحسن . مؤسســـة دار الكتاب الحديث (د.ت) ص ٣٥٥

(٢)- ابن الاثير ،الكامل في التاريخ - دارصادر بيروت ١٩٧٩ ج١٠ص٦٨

حساب هذا التمزق الاسلامي بعد نحو ربع قرن فقط ،وهي القوة الصليبية القادمة من الغرب الاوربي . ذلك أن فشل البيزنطيين في العودة الى الشام ،كان أحد أبرز الحوافز لتشكيل الحركة الصليبية ،ومحاولتها تحقيق ماعجز البيزنطيون عن تحقيقه . ولم تكن استغاثة الامبراطور لتهز مشاعر البابوية والامراء الاقطاعيين في أوروبة ،لان العلاقة الفاترة ،الناجمة عن خلافات مذهبية مزمنة ،كانت تحول دون الوصول الى تلك المشاعر ،وليس أدل على ذلك ،ما أنزلته الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٤م) بالقسطنطينية ،لم يكن أقلها الاستيلاء على العرش وكرسي البطريركية الذي كان من نصيب التجار البنادقة ،على الرغم من اشعار البابوية لهذا الانحراف الذي حاد بالحركة الصليبية عن أهدافها (١).

ولكن المؤرخ لايمكنه نفي العلاقة تماما ،بين ماحدث للامبراطور البيزنطي في ملاذكرد ،وبين تسريع الحركة الصليبية لحملتها الاولى على الاقل فقد كان الجو العام في أوربا مهيأ لمثل هذه الحركة التي كانت في طور التكوين العفوي والمباشر . ولعل البابوية كانت الاكثر اهتماما لتوظيف هذه الحادثة ،في اطار مشروعها الذي سارت شوطا فيه . واذا كان لايعنينا التوغل بعيدا في الاحداث الاوروبية لتلك الفترة ،وهي معروفة في كثير من دوافعها والمسوغات ،فانه من الممكن التوقف عند طبيعة الحركة الصليبية ،لارتباط عناصرها بالتطورات التي رافقت توسعها في المشرق أو نتجت عنه . فقد تأسست هذه الحركة بناء على تحالف مثلث ،جمع معا الدين والسياسة والتجارة ،أي أن ثمة غلبة كانت للجانب الدنيوي السياسي ،ممثلا بالاقطاع والمدن الايطالية ،على الجانب الديني الروحي الممثل بالبابوية

---

(١)- باركر ،الحروب الصليبية ،ترجمة السيد الباز العرنبي - دار النهضة العربية - بيروت ١٩٦٧ ص ١٠٣ - ١٠٤

مما أدى الى خلل في تكوينها ،وشكل عائقا أمام بلوغها النجاح التام دون أن تكون البابوية من جانبها منطلقة من اعتباراتها الدينيـــة فقط ، اذ رأت في السيطرة على بيت المقدس ،تعزيزا لنفوذها الاوروبـــي أكثر مما هي مسألة دينية ترتبط بأمن الحج المسيحي الى كنيسة القيامة

لقد كانت الصورة متنافرة الالوان ،كما تبدو لنا في الغـــرب الاوروبي ،ولكن المصلحة قاربت بين الالوان وجمعت الاطراف المتناقضة الى جبهة واحدة ، أو بمعنى آخر ، ان توق البابوية الى أن تكون كلمتها فوق كلمة الملوك ،والى أن يتم لها احتواء الامراء الاقطاعيين ،وسقي هؤلاء الى تحقيق انتصارات يجري توظيفها سياسيا في أوروبة بالنسبة للملوك ، أو سلطويا بالنسبة للاقطاعيين ،عبر تأسيس امارات فـــي المشرق ،فضلا عن الهم التجاري لدى المدن الايطالية ،التي كانت الحركـــة الصليبية في منظورها ،مشروعا لايتعدى التجارة ،كل ذلك أسهم فـــي توحيد الجبهة الاوروبية ،وجمع كلمتها تحت شعار الصليب .

وكانت في المشرق صورة متنافرة ألوانها أيضا ،ومتزامنة مـــع تلك التي كانت في الغرب ،ولكن الصورة الشرقية ظلت على تنافرهـــا وتناقضها . ولم يحدث مايقارب بين القوى الاسلامية ،حتى في الوقـــت الذي دنا فيه الخطر الصليبي من الشام . فقد اتخذ الصراع بين هـــذه القوى فكريا ،كان أكثر حدة من الصراع السياسي وربما الديني ،ممـــا جعل النفوذ الفاطمي ،القائم على دعوة ودولة في آن ،غيـــر مقبول لدى الغالبية من أهل الشام الذين حافظوا على انتمائهـــم للخلافة العباسية والدويلات التابعة لها بصورة مباشرة أو غير مباشرة وكان الصراع الفاطمي ـ السلجوقي ،العامل الاكثر خطورة في تضعضع الجبهة الشامية عشية الغزو الصليبي .

واذا كان التاريخ لايكتب بناء على افتراض ماسيحدث ،بل انطلاقا مما حدث ،فانه لو جاز لنا تصور قيام وحدة سلجوقية ـ فاطمية فـــي ذلك الوقت ،لكان من الصعب على الغزو الصليبي أن يخترق بلاد الشـــام. ولعل باركر جوز لنفسه مثل هذا الافتراض ،مقتبسا عن مؤرخ أوروبي

لم يذكر اسمه هذا القول : أن الصليبيين لو تقدم مجيئهم عشر سنوات أو تأخر قدومهم عشر سنوات ،لقذف بهم المسلمون الى البحر ،وذلـــك بسبب ماكان عليه السلاجقة زمن ملكشاه من القوة والمناعة ،وماكـــان للفاطميين من قوة بحرية وعسكرية ضخمة (١). ولاشك أن هذا القـــول ينطوي على فهم عميق لظروف الجبهة الشامية ،والتناقضات التي باعدت بين القوى الرئيسية فيها ،وأفقدتها الفرصة التاريخية للقيـــام بواجبها الجهادي ضد الغزو الصليبي . ومن هذا المنظور ،فان كلا مـــن السلاجقة والفاطميين ،يقع عليه عبء التقصير ،ويتحمل مسؤولية تضعضع الجبهة ،وبالتالي التسهيل ربما عن غير قصد للتقدم الصليبي في بـــلاد الشام .

والواقع أنه كان من المتعذر جدا ،التعايش بين الفاطمييـــن والسلاجقة ،والانضواء معا في ظل جبهة واحدة . فثمة هوة عميقة تفصل بينهما ،وثمة تناقض حاد ،يجعل مشروع كل منهما متضاربا مـــع الاخر ومنافسا له ،في وقت ربما بدت العلاقة بين كل منهما والعـــدو أقل حدة مما هي بين الطرفين الاسلاميين ،على نحو ماحدث من تنسيـــق بين الفاطميين والبيزنطيين (٢)،في وجه تحالف غير معلق بيـــن الصليبيين والسلاجقة . هذا اذا لم نتوقف عند اتصال مشبوه بيـــن الفاطميين والصليبيين ،تحت وطأة الهاجس السلجوقي نفسه .فقد روى ابـــن الاثير المعروف بتعاطفه مع السلاجقة خبر هذا الاتصال ،ولكن بشيء مـــن الارتياب بصحته : " وقيل – والكلام لابن الاثير – ان أصحاب مصر مـــن العلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلاءها علـــى بلاد الشام الى غزة ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهـــم..

---

(١)– ارنست باركر ،الحروب الصليبية ص ١٥٣

(٢)– امين معلوف . الحروب الصليبية كما رآها العرب ترجمة عفيـــف دمشقية – دار الفارابي – بيروت – ص ٦٩ .

خافوا وأرسلوا الى الفرنج يدعونهم الى الخروج الى الشام ليملكـــــــوه ويكونوا بينهم وبين المسلمين ،والله أعلم [1].

ولكن هذه القوة التي خشيها الفاطميون ،لم تحل بينهم وبيـــــن العودة الى بيت المقدس ،مستغلين ضعف السلاجقة وتخاذلهم في الدفاع عـن انطاكية ،وهرب صاحبها ياغي سيان[2]وفقا لرواية ابن الاثير أيضـا واذا أضفنا الى ذلك ماكان في الشام من صراع شديد بين الاخويـــــن رضوان (صاحب حلب) ودقاق (صاحب دمشق) ،وهما ابنا تاج الدولـــة تتش[3] ،فان الحالة في الشام وصلت الى درك من الفوضى ،لم تعد مجدية في ظلها أية محاولة للوقوف في وجه الزحف الصليبي بعد سقوط انطاكيـة ولم يشأ الفاطميون اضاعة تلك الفرصة ،وما أصاب الجبهة السلجوقية مـن ارتباك ،فتقدموا الى بيت المقدس بقيادة الافضل ،وتمكنوا من دخولها بعد نيف وأربعين يوما من الحصار [4].

وفي ذلك الوقت الذي كانت الجبهة الاسلامية بطرفيها السلجوقـــــي والفاطمي منهكة الى حد كبير ،كانت الجبهة الصليبية في وضع جيد نسبيا خصوصا بعد الاستيلاء اليسير على انطاكية التي كان لسقوطها تأثيــــر سلبي كبير على الروح المعنوية عند المسلمين . ولم يدخر الصليبيـــون فرصة لاستغلال التناقض الاخذ بالجبهة الاسلامية ،والتآمر عليهـــــــا ماستطاعوا سبيلا الى ذلك ،ويبدو أنهم أجروا اتصالات مبكرة مـــــع المسلمين ،بعد نزولهم في القسطنطينية [5] ،ربما تندرج في سياقهـــا دعوة الفاطميين التي مر ذكرها . الا آن ماأورده ابن الاثير،لايـــــدع

---

(١)ـ الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٢٧٣

(٢)ـ المصدر نفسه ج ١٠ ص ٢٧٥، ٢٨٣

(٣)ـ المصدر نفسه ج ١٠ ص ٢٤٦

(٤)ـ ٤٨٩ هـ المصدر نفسه ج ١٠ ص ٢٨٣

(٥)ـ ستيفن رانسيمان ،تاريخ الحروب الصليبية ،ترجمة السيد البـــاز العريني . دار الثقافة ـ بيروت ١٩٦٧ ص ٣٢٥

مجالا للشك بأنها مبادرة منهم (الفاطميون) ،قد يكون الغرض منها - عدا الفصل بينهم وبين السلاجقة - تأخير التقدم الطيبي نحو منطقة النفوذ الفاطمي . ويعتقد رانسيمان أن الامبراطور البيزنطي ،نصح الطيبيين " بأن يسعوا للوصول الى نوع من الاتفاق مع الفاطميين في مصر ، اذ أن الفاطميين كانوا من أشد الناس خصومة للترك ولايقبلون مطلقا مصالحتهم[1]،حسب قوله .

هكذا اذن تذلل السياسة العوائق ،وتقارب بين المواقف البعيدة حين يجد الامبراطور نفسه - ان صح اعتقاد رانسيمان - محاطا بثلاثة من الاطراف ،لم يكن أقربها (الطيبيون) سوى حليف بالضرورة ،في الوقت الذي يكن لابعدها (السلاحقة) حقدا شديدا ،بينما يصبح الطرف الثالث(الفاطميون) متوسطا بين الاولين ،وتشده اليه مواقف متقاربة من الخطر المشترك . فالسلاجقة هم جوهر المشكلة بالنسبة للطرفين البيزنطي والفاطمي ، اذ استعان الاول بالطيبيين كوسيلة القضاء عليهم ودفع خطرهم عن القسطنطينية ،بينما حاول الاخر موادعة الاثنين للغرض نفسه ،وربما اعتقد الفاطميون أن الطيبيين مجرد مرتزقة[2] يعملون في خدمة الامبراطور ،واجدين فيهم حالة تشبه حالة "المردة" في العهد الاموي ، الامر الذي سينتهي بهم الى الانسحاب بعد أداء مهمتهم ،أو لعلهم قصدوا (الفاطميون) من اتصالهم بالطيبيين الى تقسيم النفوذ في بلاد الشام ،بحيث تبقى لهم مواقعهم القديمة في الاجزاء الجنوبية منها ،بينما ينتشر الطيبيون في منطقة نفوذ السلاجقة . ولكن نظرية الفاطميين أثبتت خطأها بعد أن تجلت أبعاد الغزو الطيبي كمشروع مستقل عن الدولة البيزنطية .

واذا كان الطيبيون قد وجدوا في الفاطميين ،العدو الاقل خطرا من السلاجقة ،فان صلاتهم مع هؤلاء لم تكن مقطوعة ،دون أن يكون

(١)- تاريخ الحروب الطيبية ص ٣٢٥

(٢)- المرجع نفسه ص ٣٢٦

الهدف منها سوى التضليل والحؤول دون توحيد الجبهة السلجوقية ،لاسيمـــا وأن هذا الاتصال تم خلال حصار انطاكية (١). ولاشك أن سقوط هـــــذه المدينة المنيعة، أحدث ارتباكا مريعا على جبهة المسلمين بشكل عـــام كما سبقت الاشارة . وكان السلاجقة الاكثر تأثرا بتلك التطـــورات السلبية ،حين استشرى الصراع بين السلطانين الاخوين :بركيـــاروق ومحمد (٢) بمثل ماستشرى من قبل بين الاخوين الاخرين : رضوان ودقـــاق في الشام .

ولعل الوزير الفاطمي (الافضل) ،كان مايزال معتقدا ان الصليبيين مجرد أداة في يد البيزنطيين (٣) ومع ذلك لم يفارقه القلق الذي آخـــذ يتفاقم بعد سقوط انطاكية وتقدم الصليبيين نحو الجنوب . فلم يكـــن بوسعه سوى المبادرة الى استعادة بيت المقدس من السلاجقة ،لتدعيــــم وضعه الدفاعي ،وهي خطوة تمت على الارجح ،نتيجة لتغير النظـــــرة الفاطمية الى الغزو الصليبي ،مما جعل الافضل يتخذ قراره بالتصدي لـــه أو لانه رأى في احتلالها ورقة رابحة في سياق الاتفاق على اعـــادة رسم النفوذ في المنطقة .

ولعل فشل السلاجقة في صد الغزو الصليبي الذي تكرس بعد سقـــوط انطاكية ،وقبلها سبع مدن في آسيةالصغرى دون مقاومة جديـــة (٤) فضلا عن سياسة التخويف التي لجأ اليها الصليبيون وعمليات القتــــل الجماعي ،خصوصا في معرة النعمان (٥). كل ذلك أدى الى احداث شيء من

---

(١)ـ ابن الاثير ،الكامل ج ١٠ ص ٢٧٥

(٢)ـ ابن القلانسي،ذيل تاريخ دمشق . مطبعة الاباء اليسوعيين ـ بيروت ١٩٠٨ ص ١٣٧. ابن الاثير الكامل ج١٠ ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥ .

(٣)ـ أنظرفي هذا السياق أيضا :قاسم عبده قاسم ،ماهية الحروب الصليبيـــة سلسلة عالم المعرفة ـ الكويت ١٩٩٠ .

(٤)ـ باركر ،الحروب الصليبية ص ٣٥. زابوروف : الصليبيون في الشــــرق دار التقدم ـ موسكو ١٩٨٦ ص ١١٩ .

(٥)ـ ابن القلانسي ،المصدر السابق ص ١٣٦ .

الصدمة لدى الفاطميين الذين كانوا يتعاطفون مع الغزو الصليبي من خلال علاقتهم العدائية بالسلاجقة. ولاشك أن هذه الانتصارات لم تكن ببال الصليبيين، أو على الاقل بمثل هذه السهولة، الامر الذي شجعهم على المضي مباشرة الى بيت المقدس، فنزلوا في الرملة [1] وأخذوا يستعدون فيها لمحاصرة الاخيرة.

وقد يتساءل المؤرخ هنا عن مسؤولية الفاطميين في سقوط بيت المقدس التي تولى الدفاع عنها افتخار الدولة، على الرغم من تعزيز حاميتها وضخها بالجنود. ولكن المدينة لم تكن قادرة على الصمودوقتا طويلا من دون دعم خارجي، مما يجعل الافضل، الوزير الارمني الاصل، في موضع التهمة بالتقصير، اذ وصلت حملته لنجدة المدينة بعد فوات الاوان [1]. ومع ذلك فان سقوط بيت المقدس، لم يكن سهلا، أو تسليما من جانب الحامية الفاطمية، التي صمدت وقتا، وظلت تقاوم حتى تمكن الصليبيون من اختراق السور والسيطرة على المدينة [2]. وقد تحدث ابن الاثير عن هذه المقاومة قائلا: لبث الفرنج في البلدة أسبوعا يقتلون فيه المسلمين، واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داوود، فاعتصموا به وقاتلوا فيه ثلاثة أيام، فبذل لهم الفرنج الامان، فسلموه اليهم ووفى لهم الفرنج، وخرجوا ليلا الى عسقلان فأقوموا بها [3].

واذا كانت المصادر لاتتفق على هذه الرواية، فانها متفقة على المجزرة التي ارتكبها الصليبيون بعد استيلائهم على بيت المقدس، وهي

---

(١)- ابن القلانسي المصدر نفسه ص ١٣٧.

(٢)- سقطت بيت المقدس يوم الجمعة في ١٣ شعبان سنة ٤٩٢هـ حسب ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والارشادالقومي - القاهرة (د.ت) ج ٥ ص ١٦٤. أوفي ٢٢ من الشهر نفسه حسب ابن القلانسي. ص ١٣٧.

(٣)- ابن الاثير، الكامل ج ١٠ ص ٢٨٣.

برغم المبالغة في رواية ابن الاثير[1]،كانت من دون شك ،ردة فعل على المقاومة الفاطمية ،تلك المقاومة التي لم تنته فصولها باستلام المدينة اذا كان نزول الافضل في عسقلان ،مبعث قلق بالنسبةللطليبيين، مما يفسر اطلاق بقية المقاومين في محراب داوود ،ربما من باب التودد للافضل ،مخالفين أسلوبهم الدموي الذي تتوج في المجزرة التي مر ذكرها . والواقع أن سقوط بيت المقدس لم يكن نهاية المطاف للطليبيين ،بقدر ماكان بداية المتاعب التي سرعان ماهبت عليهم من الجبهة الفاطمية . فقد تبين لهؤلاء بعد وقت قصير ،أن انتصاراتهم لم يكن وراءها التفوق العسكري ،ولكنها ناتجة عن تفكك الجبهة الاسلامية[2]،التي يبدو أنها استسلمت حينذاك للهزيمة ،باستثناء الطرف الفاطمي الذي بذل محاولات اتسم بعضها بالجدية،لاسترجاع بيت المقدس ،ولكنها لم تحقق كثيرا من النجاح . على أنها شكلت سابقة مهمة في التصدي للواقع الجديد ،وأوقعت هزة في أوصال الجبهة الاسلامية التي كان لابد لها أن تتحرك بعد وقت .

ولكن هذه الجبهة كانت ماتزال حينذاك غائبة عن ذلك الواقع ومنصرفة الى صراعاتها الداخلية التي توّججها حروب الاخوة في العراق والشام ولم تجد استغاثة من أسماهم ابن الاثير بـ " المستنفرين " الذين وردوا على بغداد ،يتقدمهم قاضي دمشق أبو سعد الهروي بعيد سقوط بيت المقدس . فذكروا مادهم المسلمين بذلك البلد الشريف المعظم من قتل الرجال وسبي الحريم والاولاد ونهب الاموال [3]. فلم يكن بوسع الخليفة العباسي ،برغم تأثيره الشديد ،أن يفعل شيئا ،وعاد

---

(١)ـ يروي ابن الاثير أن الفرنج قتلوا في المسجد الاقصى مايزيد على سبعين ألفا من المسلمين . المكان نفسه .

(٢)ـ سعيدعبدالفتاحعاشور،الحركةالطليبيةفي العصورالوسطى ج١ ص ٢٩٠ .

(٣)ـ الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٢٨٤ .

المستنفرون " من غير بلوغ أرب ولاقضاء حاجة " كما يقول المؤرخ نفسه[1] بيد أن مذبحة القدس ،كان لها وقع آخر في الشام ،تعدى " بكاء العيون ووجع القلوب "[2]. فالمشروع الطيبي وان كان بطيء التنفيذ بعد سقوط بيت المقدس ،فهو في صميمه مشروع توسيعي ،ولاينفك خطره مهددا بلاد الشام ،ساحلها والداخل .

ولعل هذا السقوط الدموي لبيت المقدس ،ستكون من نتائجه القريبة اعادة خلط الاوراق في المنطقة ،وظهور مايمكن أن نعتبره حالة توحيدية ،أو بداية لها . وثمة مؤشران مبكران في هذا الاتجاه ، أحدهما ورد في ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ،حين التمس صاحب طرابلس فخر الملك بن عمار ،المعونة من دمشق ،بعد أن اشتد ضغط الطيبيين على المدينة بقيادة ريمون دي سانجيل [3]. فخرجت حملة بقيادة الامير جناح الدولة ،صاحب حمص ،لنجدة ابن عمار،سرعان ماتصدى لها الطيبيون وأوقعوا بها هزيمة قاسية [4]. وبعد مرور سنوات ثلاث على هذه الحادثة ،تجلى المؤشر الاخر ،عندما شن الافضل حملة على الرملة ،وطلب المساعدة من أتابك دمشق (طغتكين)الذي أمده بألف وثلاثمائة فارس ،حسب رواية ابن الاثير [5]. ولم يكن لهذا الامر أن يحدث سواء بالنسبة لصاحب طرابلس ،أو بالنسبة لوزير مصر وكلاهما على خلاف جذري مع السلاجقة وأتابكتهم في الشام ،لولا شعورهما بفداحة الخطر الذي يتهدد مصيرهما ومصير المنطقة بكاملها. وسيكون هذان المؤشران نواة التحول الاتي بعد حين ،معبرا عنه الاستنهاض الشعبي والسياسي بزعامة الاتابكة الزنكيين في القرن التالي(الثاني عشر الميلادي) .

---

(١)ـ المكان نفسه

(٢)ـ المكان نفسه

(٣)ـ ابن القلانسي ص ١٤٠ .

(٤)ـ المصدر نفسه ص ١٤٠ ـ ١٤١

(٥)ـ الكامل في التاريخ ج١٠ ـ ص ٣٩٤ .

بيد أن هذا التحول مبني أيضا على تراث الفاطميين في محاولاتهم المتكررة لاسترجاع بين المقدس . ولعل بعض هذه المحاولات حقق من النجاح ماكاد يصل الى تهديد فعلي للدولة اللاتينية ،ومع ذلك يظل الدور الفاطمي لدى غالبية المؤرخين ،مشوبا بالادانة والتقصير،فضلا عن التقليل من أهميته أو طمسه . وهو تقويم ربما ينطوي على بعض الحقيقة أو كثير منها ،لان الفاطميين في النتيجة ـ ومهما كانت الدوافع ـ تقع عليهم مسؤولية سقوط بيت المقدس . ولعله من سوء حظهم ،أنهم استعادوا المدينة من السلاجقة ،عشية الاجتياح الصليبي لها ،فالتصق بهم ماكان سيلتصق بالسلاجقة من اتهام بالتخاذل .. هذا اذا كانت لهؤلاء المؤرخين النظرة الموضوعية ذاتها الى الطرفين ،وهي نظرة كما بدا لم تكن كذلك ، اذ تغافلوا عن تخاذل السلاجقة في مواقع فاقت أهميتها العسكرية بيت المقدس ولم يظهروا مقاومة جدية لعرقلة تقدم الصليبيين نحو الاخيرة . فالسلاجقة في منظورهم جزء من الشرعية الممثلة بالخلافة العباسية التي يقيمون سلطناتهم تحت مظلتها السياسية ،وهي الشرعية نفسها التي انضم اليها معظم المؤرخين ،ممن عاصروا الاحداث أو كتبوا عنها فيما بعد . وفي ضوء هذا التسويغ ، يمكن فهم التغاضي عن تخاذل السلاجقة ،وهذه الادانة لتقصير الفاطميين أو حتى تخاذلهم ،لان وحدة الخلافة ،هي وحدة الاسلام في المنظور الفقهي لهؤلاء المؤرخين ،في وقت كان مايزال التاريخ قريبا من الفقه دون أن تكون هذه الخلافة برأيهم سوى الخلافة العباسية .

واذا كانت الحامية الفاطمية في بيت المقدس ،قد قاومت بضراوة قبل سقوط المدينة ،فان تثاقل الوزير الافضل في نجدتها ،مما يدعو الى التساؤل ،وربما الى الاستغراب ،في وقت يفترض أن وضع الحامية لم يكن خافيا عنه . فلعل الوزير كان يدرك أن ميزان القوى ليس لمصلحته خصوصا بعد التوغل السريع للصليبيين في الشام ،مما جعله يتردد في نجدة بيت المقدس التي كانت شبه ساقطة حينذاك في ظل حاميتها الصغيرة وقد سوغ ابن القلانسي هذا التثاقل . بأن الافضل الذي نزل

في عسقلان ،كان منتظرا لوصول الاسطول في البحر والعرب [1] أي أنه كان يترقب تدخل المدن الساحلية ،وربما نجدة السلاجقة في الشام الا اذا كان المقصود بالعرب هنا ، احدى القبائل التي صادف تحركها في المكان ،وفقا لما أورده موّرخ معاصر [2]. ولعل ذكر العرب من باب التمييز لهم عن السلاجقة الاتراك ، اذ شاركت قبائل منهم في القتال ضد الطيبيين ،في المناطق النازلة بها أو المتاخمة لهم. وقد أشار ابن القلانسي أيضا في سياق أحداث السنة الخامسة بعد الخمسمائة للهجرة الى وصول رجالة كثيرة من جبل عاملة " الى صور للدفاع عنها ابان حصار الطيبيين لها ،مع جماعة وافرة من الاتراك ، أرسلها ظهير الدين أتابك دمشق [3].

وثمة من يعتقد أن الافضل كان مطمئنا ،الى أن عمليات الطيبيين لن تتجاوز حدود نفوذ السلاجقة، العدو المشترك للطرفين ،مما جعله يصاب بخيبة أمل كبيرة [4] بعد سقوط بيت المقدس ،ويرسل الى الفرنج منكرا عليهم مافعلوا ويتهددهم حسب قول ابن الاثير [5]. وان صح هذا الاعتقاد ،فهو يعبر عن قصر نظر فادح لدى الافضل ،وعن سذاجة يستبعد أن تصل به الى هذا الحد ،بعد وضوح معالم المشروع الطيبي وغاياته في تلك الفترة ،الا اذا كان الامر تواطوًا منه ،يرمي الى تسهيل وصول الطيبيين الى بيت المقدس ،واعتبار الاخيرة حدا فاصلا بين نفوذ الطرفين . وفي هذه الحالة يمكن تفسير نزوله في عسقلان في ذلك الوقت المتأخر ،بأنه عملية وقائية للحوّول دون توغل

---

(١)- ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧

(٢)- عاشور : تاريخ الحركة الطيبية ص ٢٩١

(٣)- ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٨ .

(٤)- عاشور ،المرجع السابق ص ٢٥٥

(٥)- الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٢٨٦ .

الطيبيين جنوبا نحو مصـــر [1].

والواقع أن مسألة التواطؤ ،برغم تلكؤ الافضل تبقى غامضة ،في حين يبدو التنسيق مع الطيبيين أقل غموضا ،ولكن من دون تفاصيل بشأن رسم الحدود ، ان صح الاعتقاد بحصول مثل هذا الامر . بيد أن حسابات الوزير الفاطمي ،سواء كانت مبنية على اتفاق مسبق أو على تقدير خاص ،لم تكن مصيبة في النهاية ، اذ وجد نفسه أمام مواجهة حتمية مع الطيبيين ،لم تكن بيت المقدس سوى الهدف المركزي فيهـا . ولعل موقف الطيبيين في المقابل لايدع مجالا للشك في هذه المسألة ، تؤكد ذلك سرعة الحركة لاحباط المشروع الفاطمي وابعاد خطره عن بيت المقدس . فقد سارعت قياداتهم السياسية والدينية الى الخروج بحملة الى الرملة بعد خمسة أيام [2] فقط من وصول الافضل الى عسقلان ، مما شكل مفاجأة للقوات الفاطمية التي أصابها الارتباك ،وتراجعت مهزومة الى مصر، بينما فرض الطيبيون على عسقلان ضريبة عالية [3]. ولاشك أن هذه المعركة التي تندرج في الاسلوب نفسه الذي اعتمدته القوات الطيبية مع السلاجقة اذ كان لعنصر المفاجأة دور بارز فيها أسفرت عن نتائج هامة على الصعيدين العسكري والمعنوي في آن . فقد كشفت هذه المعركة ضعف الدولة الفاطمية التي فتكت بها حينذاك الصراعات الداخلية ،وأظهرت عجزها عن متابعة دورها الجهادي الذي تجلى سابقا ضد الخطر البيزنطي

ولعل الفاطميين بات عليهم بعد معركة عسقلان ،أن يكونوا أكثر انفعالا بتلك التطورات ،وأكثر دقة في تقويم نتائج الاحتلال الطيبي

(١)- يقول ابن أياس :جاءت الاخبار بأن الفرنج استولو على مدينة عكا ونابلس وانقطع الدرب الشامي من السلوك وأشرف الفرنج على أخذ مصر ووصلوا الى العريش ،بدائع الزهور في وقائع الدهور ج١ ص ٢٢٤ .

(٢)- وصل الافضل في الرابع من آب الى عسقلان ،بينما خرجت الحملة الطيبية من بيت المقدس في التاسع منه . عاشور المرجع السابق ص ٢٥٥ - ٢٥٦

(٣)- ابن القلانسي ص ١٣٧ ، ابن الاثير ج ١٠ ص ٢٨٦

(٤)- المصدر نفسه ص ١٤١ .

لبيت المقدس التي كانت ستلحق بها عسقلان . لولا الخلاف بين الطيبيين عليها[1]. فلم تكن هذه المعركة مجرد هزيمة للفاطميين ،بقدر ماكانت تهديدا لنفوذهم في بلاد الشام ،ذلك النفوذ الذي اهتز عمليا في عسقلان ،نقطة التوازن الاخيرة بين الطرفين . وهكذا لم يعد أمام الفاطميين ووزيرهم الافضل ،سوى خيار الحرب التي أخذ يمند سعيرها في منطقة نفوذهم ، انطلاقا من القاعدة الطيبية في يافا بشكل خاص[2]. وكان سقوط هذا الثغر البحري الهام ،قد مهد للاستيلاء على عدد من المدن الساحلية ،وفي مقدمتها حيفا (٤٩٤ هـ)،ثم أرسوف التي استسلمت من دون قتال وأرغم أهلها على الخروج منها ،وأخيرا في هذه السنة خضعت قيسارية بعد مقاومة عنيفة[3]. ويبدو أن الجنويين قاموا بدور بارز في هذه العمليات البحرية ،لاسيما التي استهدفت أرسوف وقيسارية ونالوا نصيبهم منها لقاء مشاركة اسطولهم ،وهو الحصول على ثلث الغنائم ،وهي في سوق كل من المدينتين[4]. وقد تكرر هذا الشرط من جانب الجنويين ، أثناء حصار طرابلس فيما بعد ففرضوا على ريموند أن يكون لهم الثلث من البلد ومانهب منه[5]

واذا كانت الاحوال الداخلية الصعبة ،قد أعاقت خطط الفاطميين لاسترجاع بيت المقدس ،فان الطيبيين كانوا منهمكين حينذاك في حرب الثغور البحرية التي أصابوا فيها الكثير من النجاح . ولكن هذه المصادر توقفت عند حملة فاطمية صغيرة ،في سياق العام ٤٩٥هـ ،حين خرج ماسمي بالعساكر المصرية لانجاد ولاة الساحل في الثغور الباقية في أيديهم منها على منازليهم من أحزاب الافرنج ووطت

(١)ـ عاشور ،المرجع السابق ص ٢٥٧ ــ ٢٥٨ .

(٢)ـ ابن الاثير ج ١٠ ص ٣٢٤ .

(٣)ـ المصدر نفسه ج ١٠ ص ٣٢٥

(٤)ـ عاشور المرجع السابق ص ٢٩٣ .

(٥)ـ ابن القلانسي ص ١٦٣ .

الى عسقلان(١) التي باتت خط الدفاع الاخير عن بيت المقدس . ولقد تداخلت هذه الحملة في بعض أحداثها مع حملة فاطمية أخرى قامت بعد عام منها ،والتي أسفرت عن أسر الملك بلدوين (٢). وقد أورد ابن الاثير حادثة الاسر مرتين ، أي في سنتي ٤٩٥ و ٤٩٦ للهجرة ،بينما اقتصر ابن القلانسي على ذكرها في أحداث السنة الاولى ،مشيرا الى انتصار الحملة الفاطمية التي ربما كانت واحدة ،للتشابه الواضح في كثير من أحداث ونتائج الحملتين عند ابن الاثير(٣) .

ولكن الحرب الفعلية بين الصليبيين والفاطميين ،بدأت في العام التالي (٤٩٦هـ) ،حين أوفد الافضل ـ الذي احتفظ بموقعه بعد وفاة الخليفة المستعلي والبيعة لابنه المنصور(٤)ـ حملة لقتال الصليبيين في الشام ،بقيادة سعد الدولة(٥). وقد نزلت هذه الحملة في عسقلان قبل أن تغادرها نحو بيت المقدس التي سارع الى الخروج منها بلدوين على رأس قواته ،وهم على درجة عالية من الحماسة ،فالتقى بين الرملة ويافا ،بالقائد الفاطمي الذي هزم وسقط صريعا عن جواده(٦)بيد أن هزيمة القائد لم تحسم المعركة ،فمالبث الفاطميون أن استعادوا زمام المبادرة ، اذ أرسل الافضل ابنه (شرف المعالي) في جمع كثير حسب رواية ابن الاثير(٧)،والتقى بالصليبيين في يازور على مقربة من الرملة ،موقعا بهم هزيمة قاسية(٨). وقد طارد القائد الفاطمي

(١)ـ ابن القلانسي ص ١٤١ ، ابن الاثير ج ١٠ ص ٣٤٧

(٢)ـ المصدران السابقان ١٤١ ،ج ١٠ ص ٣٤٥ ـ ٣٤٦

(٣)ـ ابن الاثير ج ١٠ ص ٣٤٦ ، ٣٦٤

(٤)ـ ابن القلانسي ص ١٤١ .

(٥)ـ ابن الاثير ج ١٠ ص ٣٦٤

(٦)ـ المكان نفســه

(٧)ـ المكان نفســه

(٨)ـ المكان نفســه

فلوء الطيبيين الى قصر بالرملة ،حيث تجمع سبعمائةمن أعيانهمومعهم الملك بلدوين . واذ خرج الملك متخفيا الى يافا ، أحكم الفاطميـــون قبضتهم على المحاصرين ،فقتلوا منهم أربعمائة وأسروا الاخريـــن.

وكان من الممكن أن تحدث هذه المعركة ،تعديلا في الموازيـــن لمصلحة الدولة الفاطمية ،لو قدر لها استثمار النصر الباهر ومتابعة التقدم الى بيت المقدس ، أو مايحيط بها من المدن الساحلية لفرض حصار عليها ،ولكن ذلك كان يفترض تحركا مماثلا من دمشق أو حلـــب ، والتنسيق معا ضد الطيبيين وهو ماكان يحول دونه صراع المدينتيـــن من جهة ،وصعوبة اندراجها في جبهة واحدة مع الفاطميين من جهـــة ثانية . وقد روى ابن القلانسي في هذا المجال ، أن الافضل كتب فـــي استدعاء المعونة من العسكر الدمشقي ،فأجيب الى ذلك وعاقت عن مسيره أسباب حدثت وصوادف صدفت [1]. وفي المقابل لم تكن الدولةالفاطميـــة مهيأة للمضي بعيدا في حربها ضد الطيبيين فيظل أوضاعهاالداخلية المعقده ونظامها الذي يسير نحو الانهيار . وقد حال هذا الواقع دون اتخـــاذ سياسة واضحة ازاء تغيرات المنطقة ،بحيث يلتبس على المؤرخ الامـــر فيما اذا كانت الحملات الفاطمية في تلك السنوات القليلة التي أعقبت سقوط بيت المقدس ،ترمي الى استعادة هذه المدينة ، أم الى ابعاد الخطر الطيبي عن مصر . فقد كانت السلطة الفعلية في قبضة الافضل ،الرجـــل القوي في هذه الدولة ،بينما كان الخليفة (المنصور) مغلوبا علـــى أمره ،مستسلما لوزيره ،منصرفا الى حياته الخاصة [2]. ومن هـــذا المنظور فان دولة أصابها هذا الاختلال ،وخرجت على تقاليدها التـــي جسدها الخلفاء الاوائل ،من المرجح أنها افتقدت في ذلك الوقـــت حوافزها الجهادية تحت قيادة الافضل الذي كانت هواجسه محصورة فـــي

(١)- ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٢ .

(٢)- ابن آياس ،بدائع ص ٢٢١ .

الحفاظ على موقعه في السلطة ،هذا الموقع الذي عززته نسبيا حملاته المتكررة ضد الصليبيين .

وهكذا بدا موقف الفاطميين مرتبكا . بعد الانتصار في الرملة ، مما جعلهم يترددون في المسير نحو بيت المقدس ، أو التقدم الى يافا للسيطرة عليها . وكانت الانظار على مايبدو متجهة الى هذه المدينة الساحلية ،لما تتمتع به من أهمية عسكرية ،ولكن ماحدث على جبهة الصليبيين أعاق مثل هذه الخطة ،فقد صادف حينذاك وصول خلق كثير في البحر الى الفرنج ،قاصدين زيارة بيت المقدس حسب رواية ابن الاثير (١) ،فوجدها بلدوين سانحة للثأر من هزيمة الرملة ،وقام باعداد حملة مالبث أن نزل بها في عسقلان حيث كان شرف المعالي بانتظاره (٢) ولكن كلا من الطرفين تفادى المواجهة ،فانسحب القائد الفاطمي الى مصر بينما تهيب الصليبيون حصانة عسقلان فرحلوا الى يافا (٣) ولاينفك الموقف الفاطمي مرتبكا ،وتفوته عملية الاختيار المناسبةللانقضاض على الصليبيين ،برغم القرار السريع الذي اتخذه الافضل ،بايفاد كبير مماليكه (تاج العجم) ،ومعه أربعة آلاف فارس الى عسقلان، والقاضي ابن قادوس على رأس قوة بحرية الى يافا (٤). فقد بدا التنافر واضحا بين القائدين . واستنكف تاج العجم عن التنسيق مع ابن قادوس ،مما دفع الافضل الى التدخل والقبض على قائد الحملة البرية وتعيين قائد آخر (جمال الملك) مكانه بينما اكتفى القاضي بحصار يافا عشرين يوما وعاد أدراجه الى مصر (٥).

وهكذا تصاب بالفشل محاولة أخرى من جانب الدولة الفاطمية ضد التوسع الصليبي ،في منطقة النفوذ التابعة لها في الشام. وقد طغى على حركتها الركود في تلك الفترة التي بلغ فيها ضعف الدولة

(١)ـ الكامل ج ١٠ ص ٣٦٥ .
(٢)ـ المكان نفسه .
(٣)ـ ابن الاثير الكامل ج ١٠ ص ٣٦٥ .
(٤)ـ المكان نفسه
(٥)ـ المكن نفسه

حدا كبيرا ،دون أن يكون ذلك خافيا على القوات الطيبية [1] ،فلجأت الى الافادة من هذا الركود والسيطرة على عكا (٤٩٧هـ) بمساعدة الاسطول الجنوي [2] ،بعد مقاومة من قائدها (زهر الدولة) الذي اضطر الى التخلي عنها والتراجع الى مصر ،وفقا لرواية ابن الاثير [3] ،بينما يجعل ابن القلانسي تراجعه الى دمشق ،حيث أكرمه أتابكها دقاق [4]. في هذا الوقت كان الموقف على جبهة السلاجقة في الشام ،مضطربا الى حد كبير ،ومأخوذا بالنزاعات الداخلية ، فانصرفت بدورها عن الاهتمام بالتوسع الطيبي . وكانت طرابلس تحت وطأة حصار شديد ،دون أن تحرك معاناتها أحدا من الاتابكة ،برغم مكاتبات فخر الملك بن عمار ورسله من طرابلس ،بالاستصراخ والاستنجاد على الافرنج النازلين عليها [5].

ومن أسوأ ماحدث على هذه الجبهة في تلك الفترة ،أنه بعد وفاة دقاق صاحب دمشق (٤٩٧هـ) ،سيطر أتابكة طغتكين على زمام الامرفيها ، فبايع ابنا لدقاق ،ثم بايع عمه ،وعاد فبايع الاول ،بينما قصد الثاني (بكتاش) بعلبك خوفا من طغتكين [6]. ومالبث أن لحق به صاحب بصرى (ايتكين الحلبي) ،فأقاما في حوران وقتا ،حيث انضم اليهما عدد من الانصار ،واتصلا بالملك بلدوين يحرضانه على المسير الى دمشق [7] ولما أبطأ الملك الطيبي ،ذهبا اليه وأقاما عنده مدة [8] دون

(١)ـ ابن تغري بردي ،النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧٩ .ابن القلانسي ص ١٤٤

(٢)ـ المكان نفسه ص ١٤٤ .

(٣)ـ الكامل ج ١٠ ص ٣٧٣ .

(٤)ـ ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٤

(٥)ـ المصدر نفسه ص ١٤٦ .

(٦)ـ ابن الاثير الكامل ج ١٠ ص ٣٧٦

(٧)ـ ابن القلانسي ص ١٤٤ . أنظر أيضا ابن الاثير ج ١٠ ص ٣٧٦ .

(٨)ـ ابن الاثير ج ١٠ ص ٣٧٦ .

أن ينالا شيئا من وعوده [1]، اذ تهيب بلدوين مجاراتهما في مثل هذه المغامرة ،التي صرفه عن ركوبها ،ماكانت تتعرض له جبهته الجنوبية من خطر .

وكانت آخر المحاولات الفاطمية ضد الصليبيين ،تلك التي حدثت في العام ٤٩٨ للهجرة (الموافق عام ١١٠٥ ميلادية) ،حين حشد الافضل قوة من خمسة آلاف مقاتل في عسقلان ،بقيادة ابنه الاخر (سناء الملك حسين) [2]. وتأتي أهمية هذه المحاولة في اشتراك سلاجقة الشام لاول مرة الى جانب الفاطميين ،في مقاومة النفوذ الصليبي ، اذ أمدهم طغتكين بألف وثلاثمائة فارس [3]. ويبدو أن صاحب دمشق الذي اغتصب السلطة فيها ،كان يرمي من هذه المساعدة ،الى تحسين صورته أمام المسلمين، وتعزيز وضعه في عاصمته ،ضد خصومه الذين لجأوا الى الصليبيين لتأليبهم عليه . ولكن هذه المبادرة برغم أهميتها جاءت متأخرة ولم تحدث تغييرا جديا في وضع الجبهة الشامية التي ظلت تنخرها الصراعات ،فتحول دون توحيدها ،والانخراط الفعلي في مشروع مضاد للمشروع الصليبي .

ولقد كان بلدوين في يافا ،حين بلغته أنباء الحشود الاسلامية في عسقلان ،فسارمنها في ألف وثلاثمائة فارس وثمانية آلاف راجل [4]. بالاضافة الى جماعة من المسلمين بقيادة بكتاش [5]،الى الرملة ،التي آثر الصليبيون تجميع قواتهم فيها لمواجهة الحملات الفاطمية ، اذ رأوا فيها خطأ دفاعيا هاما عن بيت المقدس ،الى جانب يافا التي شكلت الخط الاول للعاصمة الصليبية . ويبدو أن خطة الحملة الفاطمية

---

(١)ـ ابن القلانسي ص ١٤٥ .

(٢)ـ ابن الاثير ج ١٠ ص ٣٩٤ .

(٣)ـ المكان نفسه . أنظر ابن القلانسي ص ١٤٩ .

(٤)ـ ابن الاثير ج ١٠ ٣٩٥ .

(٥)ـ المكان نفســـه .

كانت تهدف هذه المرة الى السيطرة على يافا ،فخرجت باتجاهها من عسقلان معززة بالدعم السلجوقي ،حيث دارت المعركة بين المدينتين[1] وأسفرت عن هزيمة المسلمين ومقتل والي عسقلان ،حسب رواية ابن القلانسي[2]،ولكن ابن الاثير في رواية تلتقي جزئيا مع رواية المؤرخ السابق ،يذكر أن المعركة كانت سجالا ولم تظهر احدى الطائفتين على الاخرى ،فقتل من المسلمين ألف ومائتان ،ومن الفرنج مثلهم [3]، واذا صح ذلك ،فانه يعود الى تكافوّ القوى بين المتحاربين ،مما حمل الفاطميين على التراجع الى عسقلان ،بينما انسحب قائد السلاجقة (حباوة) الى دمشق[4].

وانكفأت بعد ذلك ،القوات الفاطمية ،فلم تقم بعد هذه الحملة بعمليات كبيرة ،مقتصرة على بعض تحركات لاسطولها بين حين وآخر فقد سقطت طرابلس[5]بعد تكتل القوى الطيبية وتدخل الاسطول الجنوي[6]، دون أن يتمكن الاسطول الفاطمي من الوصول اليها بسبب عرقلة السفن المعادية ومعاكسة الرياح له [7]. ولم تلبث الثغور التي كانت ماتزال تقاوم الحصار الطيبي ، آن سقطت تباعا ،فاستسلمت بيروت وجبيل بعد طرابلس ،ثم لحقت بهما صيدا (٥٠٤ هـ) وصور في العام التالي(٥٠٥هـ)[8]

---

(١)- يافا وعسقلان

(٢)- ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٩ .

(٣)- الكامل ج١٠ ص ٣٩٥. ذكر ابن القلانسي أن الذين قتلوا من المسلمين ازاء الذين قتلوا من المشركين ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٩ .

(٤)- ابن الاثير ج ١٠ ص ٣٩٥ .

(٥)- يجعل ابن تغري بردي سقوطها سنة ٥٠٢هـ (النجوم الزاهرة ج٥ ص ١٧٩) بينما يجعله ابن الاثير سنة ٥٠٣ هـ (الكامل في التاريخ ج١٠ ص ٤٧٥).

(٦)- ابن القلانسي ص ١٦٣ .

(٧)- المكان نفسه ابن تغري بردي ،النجوم الزاهرة ج٥ ص ١٧٩ .

(٨)- أنظر ابن الاثير ،الكامل ج ١٠ ص ٤٧٥ ، ٤٧٩ ، ٤٨٨ .

مما عزز الجبهة الصليبية في الشام ،وجعل مقاومتها أكثر صعوبة مـــن السنوات الماضية ،حين تفرد الفاطميون أو كادوا لهذه المهمة . ولكن ابن تغري بردي الاتابكي ،يضع مسؤولية انهيار الجبهة الشامية علــى الوزير الافضل،لتقاعسه عن قيادة الجيوش بنفسه (١) ،من غير أن يشيـــر الى تقاعس السلاجقة ،ربما انطلاقا من رؤية خاصة ،أو اعتقادا منــه بأهمية الدور الذي كان باستطاعة الفاطميين القيام به ،لما تمتعــوا به من قوة بحرية وتجربة مميزة في هذا المجال . ولكن هذه القـــوة باعتراف المؤرخ نفسه ،كانت قد فقدت أهميتها ،ولم تعد لها تلـــك السيطرة السابقة على مياه البحر(٢). وهكذا يتجاهل المؤرخ الاتابكـــي مسؤولية سلاجقة الشام وأتابكتهم ،ملقيا على الفاطميين وحدهـــــم وزر التقصير ،أو ماوصفه بـ " تقاعدهم عن المسير"(٣)معتبرا ذلك فـــي مقدمة الاسباب التي أدت الى تفوق الصليبيين وانتشار نفوذهم فــــي المنطقة . أما السبب الثاني ،فهو " ضعف العسكر الذي أرسلوه مــــع اسطول مصر"(٤). بينما يعود السبب الثالث الى عدم خروج الوزيـــــر الافضل بالجيوش ،كما كان يفعل والده بدر الجمالي من قبل (٥).

هذه هي الاسباب الثلاثة برأي المؤرخ الاتابكي ،لانهيار الجبهـــة الشامية أمام الغزو الصليبي في سنواته الاولى ،وهو رأي يحمل بعـــض الحقيقة أو كثيرا منها ،لان الدولة الفاطمية ،برغم محاولاتهاالمتكررة لاستعادة بيت المقدس ـ ان كان لديها مشروع في هذا السبيل ـ لـــم تحسن التوقيت في تحركها ،للحوول دون وصول الصليبيين الى المدينـــة .

---

(١)ـ النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧٩ .

(٢)ـ المكان نفســـه .

(٣)ـ النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧٩ .

(٤)ـ المكان نفســه .

(٥)ـ المكان نفســه .

كان هذا الخطأ المركزي الذي ارتكبه الفاطميون ،حين تلكوّوا في المسير الى بيت المقدس تاركين حاميتهم الصغيرة أمام مواجهة صعبة وغير متكافئة . أما الخطأ الثاني فقد تجلى في اهمالهم للثغور الساحلية وعدم التنبه لما يمكن أن تقوم به من دور حيوي في حصار بيت المقدس بعد سقوطها ،وعرقلة وصول الامدادات للطيبيين من الخارج فتساقطت الواحدة بعد الاخرى ،من دون تدخل فاعل من الاسطول الفاطمي.

وخلاصة القول أن الدولة الفاطمية التي أرست نفوذها في المشرق الاسلامي في ظل شعار الجهاد ،كسبيل الى تحقيق وحدة الخلافة تحت رايتها ،بعد تقاعس الدولة العباسية عن التصدي للاخطار الخارجية ، كان قد خبا فيها الالق الجهادي ،وركدت الحماسة من أجل الخلافة الواحدة . فقد اصطدمت بسد منيع من جانب القوى الاسلامية المؤيدة للحكم العباسي وانكفأت عشية الغزو الطيبي على ماتحقق لها من نفوذ في الاجزاء الجنوبية من الشام ،دون أن تكون الدولة من الداخل ،بعيدة عن المتاعب التي أخذت تتراكم في ذلك الحين . ولذلك فان جهودها في مقاومة الطيبيين ،لم يكن باعثها الجهاد الذي عبر عنه سابقا ، خليفتها الرابع ،المعز لدين الله ،بقدر ماكانت ترمي الى حماية نظامها المضطرب ودفع الخطر عنه . ولكن مهما كان الاختلاف في تقويم هذا الدور الفاطمي أو حوافزه ،فليس بوسع المؤرخ سوى الاعتراف بما كان له من أهمية في مواجهة الطيبيين وعرقلة تقدمهم نحو الجنوب وليس بوسعه أيضا سوى الاعتراف ،بأنه جسد المقاومة الوحيدة التي تصدت لهم بالمقارنة مع دور السلاجقة الذين تراجعوا عن مدنهم بالقليل من المقاومة (١) ،وطغت أخبار صراعاتهم على أخبار الغزو الطيبي في البلدان الخاضعة لهم .

بيد أن المسألة في النهاية تتجاوز المقارنة ،بعد فشل الدولة

(١)ـ باركر الحروب الطيبية ص ٣٣ ـ ٣٥ .

الفاطمية في تحقيق أهدافها ،الى ضلوع الطرفين في التقصير،والوقوع معا في خطأ التقدير للمشروع الصليبي وخطورته ،فالفاطميون ظلوا على اعتقادهم ،بأن الحملة الصليبية لاتستهدف سوى السلاجقة ،حتى فاجأتهم بحصار بيت المقدس ،دون أن تكون لديهم معلومات دقيقة عن وصولها أو حركتها ،دون أن يكونوا في المقابل على أهبة القتال[1] حسب رواية ابن الاثير . والسلاجقة بدورهم وقعوا ضحية تضليل الصليبيين ،حين كتب هؤلاء الى صاحبي حلب ودمشق ،بأنهم لايقصدون غير البلاد التي كانت بيد الروم[2] أي أنهم لن يتعدوا انطاكية ،حسب الرواية نفسها . ولم يكن ولاة الثغور الساحلية وأمراؤها ،أسوأ ظنا بالصليبيين من الطرفين السابقين ،فقد نظروا اليهم أيضا باستخفاف وبحذر أقل من الحذر نحو السلاجقة[3].

وهكذا فاجأ الصليبيون القوى الاسلامية في الشام . وهي على هذا النحو من الانقسام والعداوة فيما بينها ،من غير أن يدفعها الشعور بالخطر الى تجاوز خلافاتها ،والتصدي جبهة واحدة لهم . واذا كان قد حدث تعاون بين أطراف هذه القوى ،فان التعاون كان باهتا ولم يسفر عن أي تعديل في الموازين التي ما انفكت لمصلحة الجبهة الصليبية فلم يستطع الاسطول الفاطمي المعول عليه ،دفع الخطر عن المدن الساحلية التي واجهت مصيرها منفردة أمام ضغط الحصار الصليبي ،فكان يصل متأخرا ،أو متعللا باعاقة الرياح عن الوصول . وظل السلاجقة في نظر الفاطميين هم الاعداء ،ولم يكن هؤلاء غير ذلك بالنسبة للسلاجقة الذين لم يحركوا ساكنا أمام الزحف الصليبي الى بيت المقدس ،وحملات الفاطميين بعيد سقوط الاخيرة ،واقتصر تدخلهم على مرتين : الاولى ،عندما

---

(١)ـ الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٢٨٦ .

(٢)ـ المصدر نفسه ج ١٠ ص ٢٧٥ .

(٣)ـ زابوروف ،الصليبيون في الشرق ص ١٨٩ .

لبى طغتكين دعوة الافضل وأنجده بفرقة الى عسقلان (٥٠٠ هـ)،ربما ردا على انضمام خصميه (بكتاش وايتكين) الى بلدوين كما سبقت الاشارة ،والثانية والاخيرة ،حين حاصر الملك الطيبي صيدا ،التي وصل اليها الاسطول الفاطمي ،في وقت اتجه الى العسكر الدمشقي ،مما حمل الطيبيين على رفع الحصار عنها[١]،وهو استثناء لم يكن ناتجا عن تنسيق أو خطة جدية مشتركة بين الفاطميين والسلاجقة .

واذا كنا نتجنب في الخاتمة ،الخوض في التمنيات بعيدا عن ذلك الواقع الصعب ،من غير أن تأخذنا مقولة التوقيت السابقة ،عن ابكار الطيبيين أو تأخرهم في المجيء الى الشرق ، اذ ربما اتخذت الاحداث مسارها الاخر ،فان التمزق الذي ساد الجبهة الشامية مع قدوم الحملة الطيبية الاولى ،كان من أهمعوامل نجاحها ،وذلك النجاح الذي لم يكن نابعا من قوتها الذاتية ،المنطوية بدورها على انقسام كان يفوق كثيرا انقسام القوى الاسلامية . وقد يكون التساؤل حينئذ ممكنا ،فيما اذا كان مصير هذه الحملة سيختلف عن مصير تلك التي سبقتها وانتهت بها الى التدمير[٢]،قبل بلوغها حدود الشام ،لوكانت جبهة الاخيرة على قدرمن الوحدة أو التنسيق .. فلعلها لقيت المصير نفسه ،ولكن ركود المواجهة على جبهة السلاجقة ،وتثاقل الفاطميين في التحرك ،جعلا الطريق شبه مفتوحة أمام هذه الحملة .

فالمسألة اذن هي ضعف الجبهة الاسلامية وانقسامها ،وليست قوة قوة الطيبيين وتفوقهم في الحرب . والصدمة التي كان ينبغيأن تحدث في وقتها المناسب ،تأخر حدوثها بضع عشرات من السنين ،ولكن خارج الشام حين تلقاها أتابكة الموصل الذين يعود اليهم الفضل فياستنهاض المسلمين ،واحياء المقاومة ضد الغزو الطيبي . واذا كان الزنكي

(١)ـ ابن القلانسي ص ١٦٢ .

(٢)ـ باركر ،الحروب الطيبية ص ٢٦ .

عماد الدين وأبوه أقسنقر رائدي هذا النهوض ،الهادف الى وحدة الجبهة الاسلامية ،فان نور الدين محمود (ابن الاول) ،هو المجسد لهذه الوحدة التي تم على أساسها تحرير بيت المقدس ،بقيادة صلاح الدين ،بعد خمس وستين من الاعوام[1] على انكفاء آخر حملة للفاطميين عنها .

د. ابراهيم بيضون

أستاذ التاريخ الاسلامي في الجامعة اللبنانية

(١)ـ ابن الاثير ،الكامل ج ١١ ص ٥٤٦ ومابعدها .

المقاومة العربية الاسلامية للتوضع الافرنجي الصليبي

الدكتور شوقي شعث
أمين متحف حلب

لم يشعر البيزنطيون بالخطر الحقيقي على دولتهم ابان الفترة التي حكم فيها الحمدانيون والمرداسيون حلب ،وكذلك ابان حكم الفاطميين لمصر ،فقد كان الحمدانيون زعماء امارة عربية صغيرة لايمكن أن تهدد امبراطوريتهم الكبيرة وظل الامر بينهما مقتصرا على غزوات كر وفر وكذلك ابان الحكم المرداسي ،ولم يحدث أي تغيير ملموس في الحدود أو أي اخلال في موازين القوى . أما مصر ابان الحكم الفاطمي وان نافست الدولة البيزنطية في أول أمرها على امتلاك بلاد الشام أو جعلها اماراتها تقدم لها الولاء كما فعل الحمدانيون والمرداسيون بحلب وآل الجراج بفلسطين أو غيرها فقد اختلف الامر فيما بعد وكانت أعمالهم صرفا لانظار الناس عن الاوضاع الداخلية فيها فقد أجهدها الوضع الداخلي بسبب تقلب الخلفاء والوزراء ،وفي بعض الاحيان اشتركت الطبيعة في تعقيد الامر فقد حل القحط أو حدث زلزال مدمر .. الخ .

كانت هزيمة البيزنطيين في منازكرد عام ١٠٧١م على يد الب ارسلان السلجوقي الخطر الحقيقي الذي أحسو به حيث حلت بهم هزيمة تعتبر من أقسى الهزائم منذ أسر امبراطورهم وتقدمت الجيوش السلجوقية في أراضيهم حتى كادت تهدد العاصمة نفسها ،فارتفعت الاصوات مستنجدة بالغرب لمساعدتها في صد المسلمين الذين أخذوا يهددونها فجرت مكاتبات بين الامبراطور البيزنطي والبابا الكاثوليكي بهذا المعنى .

وعلى الرغم من أن السلاجقة مالوا الى الاتفاق مع الامبراطورية البيزنطية قبل الهزيمة التي أشرنا اليها ليتفرغوا لمحاربة الفاطميين الا أن البيزنطيين فسروا رغبة السلاجقة هذه بأنها ضعف وأن الفرصة قد حانت لضربهم والتخلص منهم فكان رد الامبراطور البيزنطي على السلاجقة قاسيا وخشنا فقد قال في رده " لاهدنة الا بالري " مشيرا بذلك الى مدينة الري . فتوترت الاجواء بين الطرفين حيث كان لزاما

على السلاجقة رد ذلك التحدي وأخذ كل منهم يعد نفسه للمعركة فكانت معركة مانزكرت التي أشرنا اليها سابقا وأسر الامبراطور رومانس الرابع ديوجنيس .

اذن فتحت هذه المعركة كما قلنا أبواب آسيا الصغرى للسلاجقة فأخذوا يوسعون ممتلكاتهم على حساب الاراضي البيزنطية فاستولى سليمان بن قتلمش على الكثير منها وتوج ذلك باستيلائه على انطاكية عام ٤٧٧ هـ /١٠٨٥م ،ناهيك عن الاراضي التي استولى عليها الامراء الاقل شأنا من سليمان ،ومن بينهما قلاع ومدن هامة ومن بين أولئك الدانشمند وشاكا ويخوشك وغيرهم فكان لابد والحالة هذه أن يعمد الامبراطور البيزنطي الكيكومسينوس الى الاستنجاد بالغرب المسيحي على ما أسلفناه .

وجدت الكنيسة الكاثوليكية فرصتها للذهاب الى الشرق من أجل توحيد الكنيسة تحت شعار نجدة البيزنطيين الارثوذكس ضد المسلمين ،سنة وشيعة ،ولانريد هنا أن ندخل في تفاصيل الاسباب التي دفعت الافرنج للقيام بنجدتهم للبيزنطيين ،فاتحين بذلك حروبا عرفت فيما بعد بالحروب الصليبية واستمرت قرابة مئتي عام ،لقد كان لكل من المشاركين في تلك الحروب دوافعه فالامير يريد أن يجد له ملكا في بلاد الشرق والتاجر يريد أن ينمي ثروته والكنيسة لها أسبابها فتارة تريد أن تكون الطريق الى القدس الطريق الى الحج . آمنة وتخفي أسبابا أخرى أشرنا اليها ،على أي حال وجدت دعوة البابا أوربان الثاني عام ١٠١٥ في كليرمون أثر انتهاء مجمع كنسي آذانا صاغية وهوى في نفوس أولئك الناس ،فتحركت كوامن الحقد في نفوسهم ضد الشرق العربي المسلم وأخذوا يدفعون الفلاحين والفقراء الى الاشتراك في تلك الحروب تحت راية الصليب تقربا لله وابتغاء مرضاته ؟!! .

وتصادف أنه سبق هذه الدعوة بقليل وفاة السلطان السلجوقي ملكشاه الذي كان زعيم القوة الاسلامية الكبرى في الشرق ،ويظهر أن هذا كان سببا وجيها جعل الافرنج يسيرون قدما في مشروعهم الرامي لغزو

الشرق ،لقد ورث هذا السلطان أبناءه امبراطورية مترامية الاطراف ولكنه في الوقت نفسه ورث العالم الاسلامي أبناء لم يستطيعوا المحافظة على تلك الامبراطورية بسبب خلافاتهم الداخلية فقد أعمت بصائرهم مصالحهم الشخصية وضللوا الطريق القويم ،ونشبت الحروب بينهم ولم يتبصروا عواقبها على الامبراطورية التي بذل أجدادهم الكثير في تكوينها ،وفي وسط هذه الاضطرابات والمنازعات الاخوية التي شملت بلاد الشام ظهر الخطر الصليبي •

جاءت الحملة الصليبية الاولى عام ١٠٩٧ والبلاد العربية الاسلامية في حال لاتسر فقد تحولت آسيا الغربية الى دويلات وامارات مستقلة متنازعة فيما بينها وفي مصر كان الفاطميون وهذا ماجعل البلاد تحت وطأة الخلاف بين السنة والشيعة ،وهناك آل عمار العرب في طرابلس منذ عام ١٠٦٩ وكانت شيزر بيد آل منقذ ،وعلى الرغم من شجاعة المدافعين عن البلاد الاسلامية حقق المعتدون نجاحات كانت السبب في مواصلة التوضع الصليبي الافرنجي •

عندما رأى الامبراطور البيزنطي الاستجابة العارمة لدعوته التي لم يتوقعها بدأ يتخوف من تلك الجموع الصليبية الكبيرة التي بدأت تفد الى عاصمته بيزنطة ،عمد الى كسب ودها ودفعها بما أمكن من السرعة تخلصا من بقائها في عاصمته الى الشرق حيث أحرزت نجاحات كبيرة في القضاء على الامارات العربية الاسلامية واحدة تلو الاخرى واغتصبت نيقية المركز الهام والتي كانت عاصمة السلاجقة الروم وعلى الرغم من أن سقوط هذه المدينة في أيدي القوات الصليبية والبيزنطية كان صدمة كبيرة ونذيرا لجميع القوى الاسلامية الا أنها أي القوى الاسلامية ضربت صفحا عن ذلك النذير بسبب الشك والريبة والضغائن التي كانت قائمة بينها •

بعد أخذ نيقية توجهت جيوش الافرنج نحو انطاكية ،وسار بلدوين وتنكرد وهما زعيمان بارزان في الحركة الصليبية شرقا حيث استطاع بلدوين في نهاية الامر أن يأخذ الرها أثر مؤامرة ساعد على تدبيرها

هو ضد حاكمها ،ويؤسس الامارة الصليبية الاولى في الشرق امارة الرها وقد لعبت هذه الامارة دورا كبيرا في حماية خلفية الافرنج المتجهين الى القدس . وفي تشرين الاول عام ١٠٩٧ وصل الجيش الذي توجه الى انطاكية وفرض حصاره عليها . وعلى الرغم من المقاومة العنيدة التي أبدتها الحامية الاسلامية بالمدينة ومحاولة فك الحصار عنها بواسطة جيش كان يقوده كربوقا ،الا أنه لم ينجح في مسعاه ،وعلى الرغم من معاناة الافرنج من طول مدة الحصار وانتشار المجاعة الا أن قائد حامية القلعة أحمد بن مروان اضطر في نهاية الامر الى أن يسلم القلعة للافرنج وهكذا قامت الامارة الصليبية الثانية على أرض المشرق العربي في مطلع عام ١٠٩٩ .

ومما أكد تفرق القوى الاسلامية في مواجهة الافرنج ماقام به الافضل بن بدر الدين الجمالي وزير الخليفة الفاطمي المستعلي فقد أرسل هذا الوزير من يفاوض الافرنج على اقتسام سورية وذلك ردا على أخذ السلاجقة اتباع الخلافة العباسية ممتلكات الخلافة الفاطمية بسوريا ولكن تلك المحاولة لم تنجح حيث أخذ الافرنج يماطلون ويداهنون بارسال رسلهم الى القاهرة ولما يئس الفاطميون بادروا الى أخذ فلسطين والقدس من السلاجقة عام ٤٩٢ هـ/١٠٩٩ م. وفي الوقت نفسه كان الافرنج من طرفهم يرسلون السفراء الى صاحب حلب ودمشق وغيرهم من الحكام يطمئنونهم بأنهم لايرغبون في ممتلكاتهم وأنهم لايرغبون الا في القدس .

باحتلال مدينة انطاكية وتأسيس الامارة الصليبية فيها يكون الافرنج قد نجحوا في تأسيس امارتين هما الرها وانطاكية ولكن هاتين الامارتين لم تكونا الهدف الاول للحروب الصليبية فاندفعت الجيوش الصليبية نحو القدس وهي غايتها الاولى حسبما ورد في خطبة البابا أوربان الثاني ، اندفعت في طريقين طريق داخلي تمكن السائرون عليه من اغتصاب معرة النعمان واحراقها بعد ذلك هبط هذا القسم من الجيش نحو وادي العاصي وأخذ قلعة الحصن وحاصر عرقة التي كانت

تابعة لال عمار أمراء طرابلس . أما الطريق الثاني فكان الطريق الساحلي نحو جبلة وطرطوس وعندما اقترب الجيش من طرابلس سارع آل عمار لمهادنة الافرنج وتقديم الهدايا لهم وكذلك المؤن والاموال وكافأهما الافرنج بأن رفعوا الحصار عن عرقة التي كانت تابعة لها كما ذكرنا وفعل أمير بيروت الشيء الذي فعله آل عمال بطرابلس . وصل الافرنج صيدا وبعد استراحة قصيرة في بساتينها تابعوا المسير حتى وصلوا الى عكا وبعدها توجهوا الى هدفهم القدس الشريف التي كانت تحت سيطرة الفاطميين كما أسلفنا واستطاعوا بعد شهر من الزمان أو خمسة أسابيع عند بعض الباحثين الدخول الى المدينة والفتك بأهلها وتدنيس مقدساتهم الاسلامية والمسيحية على حد سواء ويسهب المؤرخون الافرنج والعرب في وصف الفظائع التي ارتكبها الافرنج الصليبيون في القدس وعليه تكون الحملة الصليبية الاولى باغتصاب القدس في ١٥ تموز عام ١٠٩٩ قد حققت هدفها وأخذ التوضع الصليبي في المشرق يأخذ شكله .

نصب غورفري نفسه حاكما على القدس تحت اسم حامي القبر المقدس وعندما اضطر الى ترك القدس ليخلف عمه في امارة انطاكية استدعي بلدوين أمير الرها وهو أخ غودفري ليصبح ملكا على القدس عام ١١٠٠م تألفت تلك المملكة من مدن يافا واللد والرملة وبيت لحم والخليل والريف المحيط بها والذي تسكنه أكثرية مسلمة حيث كانت تلك الممكلة في حاجة الى قوة بشرية لتثبيت أركانها فقد كانت الارض بحاجة الى أيد عاملة كما كانت معظم الموانيء لاتزال في ذلك الوقت بأيدي المسلمين ويتحدث فوشيه دي شارتر عن ذلك بقوله . وفي بداية حكم بلدوين كان يمتلك مدنا قليلة ويحكم شعبا صغيرا ... ولهذا السبب بقيت أرض بيت المقدس فقيرة في السكان ولم يكن هناك من الناس مايكفي للدفاع عنها ضد المسلمين .

- آل عمار والافرنج الصليبيين :

كانت امارة طرابلس تعتبر من أهم الامارات العربية التي ظلت واقعة بين الامارات الصليبية وكان أميرها القاضي فخر الملك أبوعلي

يؤثر المهادنة والسلام مع الافرنج وكان جيشه صغيرا الا أن الامارة كانت غنية بانتاجها الزراعي وصناعاتها ،وقد المحنا في ثنايا حديثنا كيف أن امارة طرابلس زودت الحملة الصليبية الاولى في تقدمها نحو القدس بالمؤن والهدايا ، الا أن الافرنج بعد اغتشابهم القدس عادوا لتحقيق هدفهم وهو احتلال طرابلس سيما وأن هذه الامارة استفادت من رحيل الافرنج جنوبا حيث وسعت رقعتها شمالا حتى طرطوس ، أما جبلة التي تقع شمال طرطوس فكانت بيد زعيم محلي هو القاضي ابن صليحة الذي تنازل عنها عام ١١٠١ الى طغتكين أتابك دقاق أمير دمشق ثم انتقلت الى بني عمار وكان بنو محرز في المرقب والقدموس ،وكان خلف بن ملاعب في أفاميا وبنو منقذ في شيرز وجناح الدولة أتابك رضوان أمير حلب في حمص ... الخ .

كانت امارة طرابلس على ضوء ذلك أهم تلك الامارات ومن الطبيعي أن يسعى الافرنج لاغتصابها فعمد ريمون الى محاصرتها عام ١١٠٢ ،فاستنجد أميرها فخر الملك بأمير حمص وأمير دمشق فأرسل دقاق الفين من فرسانه وأرسل جناح الدولة مايزيد عن هذا العدد بكثير ،وعلى الرغم من أن ريمون قد أحرز نصرا جزئيا على الجيش الاسلامي الا أنه لم يتمكن من احتلال مدينة طرابلس واضطر للعودة الى طرطوس لاعداد خططه من جديد . استأجر في هذه المرة أي في هجومه الجديد على طرابلس اسطولا جنويا قد وصل لتوه الى ميناء اللاذقية مؤلفا من أربعين سفينة الا أنه أيضا لن يتمكن من تحقيق أمنيته . فظل مثابرا على وضع الخطط للاستحواذ على تلك العروس الجميلة الغنية ومن أجل ذلك عمد في أواخر عام ١١٠٣ الى بناء قلعة على تل الحاج الواقع قبالة طرابلس واستقر فيها بعد اكتمالها عام ١١٠٤ ، الا أن المنية عاجلته وتوفي عام ١١٠٥ ،وعليه لم يتمكن من تحقيق الامنية التي سعى اليها وبذل من أجلها الكثير وترك تحقيق هذا المشروع لعقبه .

واصل وليم جوردان خليفة ريمون سياسته فشدد الحصار على مدينة طرابلس وحافظ على التحالف الذي كان قد عقده ريمون مع الدولة

البيزنطية من أجل ارسال المؤن والعتاد وأكثر من ذلك ساعدت القـوات البيزنطية في فرض الحصار على طرابلس وقطع الامدادات عنها فتحـرج موقف أميرها بسبب غلاء الاسعار وانتشار المجاعة وشرع أهل المدينـة في الهرب الى المناطق المجاورة تخلصا من تلك الضائقة على الرغم من أن الامير بذل الاموال والمؤن من أجل تخفيف تلك الضائقة ،ومما زاد الوضع تحرجا هروب بعض أعيان المدينة من الخونة الى المعسكر الافرنجي وباحوا بمواطن الضعف في دفاعات المدينة وعندما طلبهما الامير من الافرنج رفضوا تسليمهما وفيما بعد وجدا مقتولين في المعسكر الافرنجي •

ضاقت الاحوال كما أسلفنا بالامير فخر الملك وفكر طويلا بمن يستنجد من القوى الاسلامية آنذاك : أيتجه الى الفاطميين الطامعين في امارته أم يولي وجهه الى طغتكين صاحب دمشق الذي كانت علاقته غير ودية معه ،وأخيرا هداه تفكيره الى التوجه الى بغداد للاستنجاد بالخليفة العباسي والسلطان محمد السلجوقي ،وقد وجد هناك استقبالا حارا الا أنه عاد بخفي حنين وعندما عاد علم في طريق عودته أن طرابلس ألحقت بالدولة الفاطمية بطلب من ابن عمه ونائبه أبي المناقب بن عمار فاتجه صوب جبلة واستقر فيها الا أن حكمه لم يدم طويلا هناك فقد ظهر تانكريد عام ١١٠٩ أمام المدينة طالبا الاستيلاء عليها فسلمها اليه فخر الملك وبقي فيها تابعا لتنكريد الا أن تانكريد نكث العهد وأجبر الامير فخر الملك على ترك المدينة الى دمشق حيث أمضى بقية حياته هناك يعيش من مال أجراه عليه طغتكين أومن الاقطاع الذي أقطعه اياه في منطقة الزبداني •

بقي أن نذكر أن طرابلس لم تكن لقمة سائغة للافرنج فقد أظهرت ضروبا من المقاومة على الرغم من المجاعة التي حلت بها بسبب الحصار الذي فرضه اسطولا جنوه وبروفانس وبسبب تخاذل الاسطول الفاطمي عن انجادها فلابد والحالة هذه أن يجبروا واليها الفاطمي شرف الدولة من أن يسلم المدينة الى بلدوين بموجب شروط فقد أعطى الامان الى أهلها فمن أراد الخروج من المدينة حاملا أمتعته فله ذلك ومن أراد البقاء فله ذلك شريطة أن يقبل الرعوية الافرنجية أما الوالي

الفاطمي فطلب الاذن بالرحيل الى دمشق وهكذا سقطت بيد الافرنج قلعة من قلاع العرب والمسلمين وانتهت أسرة بني عمار فيها ومن المؤسف أن المدينة بعد احتلالها تعرضت للنهب والسرقة والحرق وتعرض مابقي من أهلها الى القتل والاهانة .

هنا يمكن القول أن الحملة الصليبية الاولى انتهت بتأسيس امارات الرها وانطاكية وكانتية طرابلس ومملكة بيت المقدس، كما أصبحت أكثر المدن الساحلية بيدهم ولم يبق بيد المسلمين الا بعض المدن الداخلية ومن أهمها دمشق وحلب وبذا أصبحت البلاد الشامية تئن تحت ما أصابها من ذلة على أيدي الافرنج الصليبين ،كما كان المصريون يتلقون باستمرار تهديد الافرنج بقلوب واهنة بسبب مابلغه الخلفاء من ضعف

ـ مقاومة العرب والمسلمين للتوضع الصليبي :

على الرغم من النجاح الذي حققه الافرنج في بداية غزوهم الى البلاد العربية الاسلامية ذلك بتأسيس امارتي الرها وانطاكية ومملكة بيت المقدس وفيما بعد كونتية طرابلس الا أن العرب والمسلمين وعلى الرغم من تفرق كلمتهم لم يستسلموا ولم تهدأ مقاومتهم للخطر الذي جثم فوق أرضهم ،ففي شمال سورية نجح السلاجقة في أسر بوهيموند ، وبلدوين أمير الرها في فترة من الفترات كما أوقعوا بالافرنج هزيمة منكرة في حران ،وفي الجنوب حاول الفاطميون استرداد ممتلكاتهم التي فقدوها فشنوا عدة حملات ضد الافرنج الصليبيين في سنوات ١١٠١ و ١١٠٢و ١١٠٥ ونجحوا في أخذ طرابلس وقد كلفت تلك الحملات الافرنج الكثير من الرجال والاموال .

جاءت بعد ذلك دعوة العامة التي يمكن أن نسميها المقاومة الشعبية والتي كان مركزها حلب حيث رفعت صوتها عاليا مطالبة بتحرير البلاد وازالة الاخطار التي تهددها فقد ذهب وفد منهم الى بغداد شاكيا الامير رضوان متهما اياه بالزيغ والانحراف والانقياد الى تانكريد مطالبا الخليفة العباسي باعلان الجهاد لتخليصهم مما يتعرضون له من تهديد من قبل الافرنج ،وكي يمتص نقمتهم أمر الخليفة والسلطان

السلجوقي بتجهيز جيش عام ١١١١م لقتال الافرنج أسندت قيادته الـى مودود أمير الموصل الا أن الحلبيين سرعان ما اكتشفوا الخديعة وأثاروا العامة ببغداد ضد الخليفة المستظهر بالله الذين نادوا باتهامه بالتواطؤ وأنه أبغض عند المسلمين من الامبراطور البيزنطي . وعندما شعر الخليفة والسلاجقة بتفاقم الامور طلبوا من مودود بأن يسعى الى تكوين حلف اسلامي تكون القيادة الاسمية فيه الى الامير مسعود بن السلطان محمد السلجوقي ،دخل في ذلك الحلف : سكمان أمير ميارفارقين ايلغازي بن آياز صاحب ماردين ،وأحمديل صاحب مراغة وأبو الهيجاء وصاحب اربيل اضافة الى بعض أمراء فارس بزعامة برسق بن برسق أمير همدان .

سارع الامراء المسلمين الى طلب النجدة من هذا الحلف وعلى رأسهم سلطان أمير شيزر ورضوان أمير حلب ،ويبدو أن رضوان لم يكن صادقا في طلب النجدة لانه عندما علم بتوجه قوات الحلف الذي أشرنا اليه غربا سارع الى اغلاق أبواب حلب ومنع المظاهرات بها وأمر باعتقال عدد كبير من أعيانها عند ذلك توجه مودود الى شيزر بعد أن خرب القرى المحيطة بحلب ،وهناك لحق به طغتكين أتابك دمشق للمساعدة في استعادة طرابلس التي سبق أن أخذها الافرنج من الفاطميين . الا أن الامور لم تجر على هوى مودود فطغتكين يريد أن يخلص طرابلس ،ومرض برسق وأراد أن يعود الى بلاده ،ومات سكمان فجأة وانسحبت قواته شمالا حاملة جثمانه ،وانسحب أحمديل من جيش مودود أمير الموصل وهكذا انفرط عقد الحلف الاسلامي الذي أشرنا اليه وتراجع مودود بجيشه الى عاصمته . وفي عام ١١١٢ عاد مودود الى الاغارة على بلاد الرها ولكن هذه الغارة لم تثمر الثمرة المرجوة وفي عام١١١٣لبى مودودنداء طغتكين أتابك دمشق ومعه أياز الارتقي لصد عدوان الملك بلدوين على دمشق فدارت الدائرة على جيش الافرنج عند جسر الصنبرة بجنوب دمشق ، الا أن مودود اغتيل على يد أحد الباطنية بجامع دمشق الكبير وبعد شهرين توفي رضوان أمير حلب الذي كان يقدم الدعم والحماية للباطنية .

خلف أقسنقر البرسقي مودودا في قتال الافرنج وحاول اقامة حلف اسلامي جديد لطرد الافرنج الا أن عناصر الحلف اختلفت فيمابينها حتى أنه حدث قتال بين بعض أطرافه كذلك الذي حدث بين ايلغازي زعيم التركمان وبيم أقسنقر البرسقي فدارت الدائرة على أقسنقر وقفل راجعا الى عاصمته الموصل وبهذا فشل التحالف المعادي للافرنج للمرة الثانية .

عادت حركة الجهاز ضد الافرنج عام ١١١٥م من جديد ،فقد أرسل السلطان السلجوقي محمد ،آخر السلاجقة العظام ،برسق بن برسق على رأس حملة يسانده أمير سنجار وبقدر ما أخافت هذه الحملة الافرنج أخافت الامراء المسلمين في بلاد الشام فكان كلهم ،فيما عدا بني منقذ،وابن قراجا أمير حمص لايرغبون في قدوم قوات السلطان السلجوقي خوفا من ضم سوريا الى العراق ومن أجل الوقوف أمام ذلك الخطر سارع الايلغازي الارتقي الى دمشق لعقد تحالف مع طغتكين أتابك دمشق ،الا أن ابن قراجا أمير حمص القى القبض عليه في طريق عودته ولم يطلق سراحه الا بعد أن حل ولده اياز مكانه في السجن ،لكن هذه الحادثة لم تفك ارتباط ايلغازي بحليفه طغتكين بل تعزز الحلف بانضمام الطواشي لؤلؤ الوصي على الب ارسلان ابن أمير حلب وبادر الجميع الى التحالف مع روجر أمير انطاكية لمواجهة الجيش السلجوقي .

وعندما علم برسق بذلك التحالف سار جنوبا نحو دمشق لقتال طغتكين وبفضل مساعدة أمير حمص قام برسق بهجوم على حماة وأخذها منه أي من طغتكين في حركة تكتيكية انكفأ برسق نحو الجزيرة فاعتقد الافرنج وحلفاؤهم من المسلمين أنه عاد الى بلاده وبذلك زال خطره عنهم الا أن برسق عاد فجأة وأخذ كفر طاب وسلمها الى بني منقذ وقدم له الطواشي لؤلؤ الولاء والاعتذار . لم يهنأ برسق بنصره فسرعان ما أوقع به الافرنج هزيمة منكرة عند تل دانيث (دينيت اليوم) بتواطؤ الامراء المسلمين وأفلت برسق بأعجوبة من الاسر بعد أن تبدد جيشه . وبهذه الهزيمة انتهت محاولات السلاطين السلاجقة لاستعادة بلاد الشام.

بعد معركة تل دانيث ظهر أن التوازن بين القوى الاسلامية والافرنجية قد حصل فمال الافرنج الى الاستقرار في شمال سوريا وأخذوا يبنون الاستحكامات وبدوّوا يكيفون أنفسهم للعيش على النمط المحلي وساد الوئام فيما بينهم فلم يعترض مثلا أحد على سيادة روجر أمير انطاكيا خاصة بلدوين أمير الرها أو بونز كونت طرابلس ،كما اعترف الجميع بسيادة بلدوين ملك بيت المقدس ،وفي الوقت نفسه تحالفوا مع طغتكين أتابك دمشق وانصاره ،ناهيك عن تنابذ القوى الاسلامية الاخرى وعليه لم تكن أية قوة خارجية في هذه الفترة قادرة على قلب هذا التوازن سواء من البيزنطيين أو من سلاجقة الروم في الشمال الغربي أو من الفاطميين في الجنوب ،ولكن يبدو أن هذا التوزان كان توازنا موّقتا فقد شعر طغتكين أن قوة الافرنج أخذت تتزايد فبادر للاتصال بالفاطميين بمصر لتقديم المساعدة له كي يتمكن من الوقوف في وجه الافرنج وقد وجد هذا الطلب هوى في نفس الوزير الفاطمي الافضل بن بدر الدين الجمالي وهو الوزير المتنفذ في البلاط الفاطمي ،وعادت من جديد طبول الحرب تقرع الا أن الامر توقف عند هذا الحد بسبب أن كل طرف كان يرهب الاخر • الا أنه في خريف عام ١١١٩ نجد جوسلين أمير الرها وبلدوين ملك بيت المقدس يشنان غارة على درعا الحقوا بها هزيمة قاسية ببوري بن طغتكين الذي كان على رأس القوة الاسلامية التي واجهت الغارة • ولم يكن الوضع في الشمال أحسن حالا فقد أصبحت مدينة حلب عاجزة عن رد اعتداء الافرنج عنها بعد انتصارهم في دانيث فاستعانت بايلغازي أمير ماردين الذي بادر الى عقد حلف مع طغتكين أتابك دمشق والتقى الافرنج والمسلمون في معركة دامية عرفت بمعركة سهل الدم بالقرب من سرمدا وكان النصر حليفا للمسلمين وقد قتل في هذه المعركة روجر وأكثر قادته ومقدميه وعاد الايلغازي وعسكره وحلفاوّه الى حلب في موكب نصر كبير عند غروب الشمس •

وعلى الرغم من أن الافرنج قاموا بعدة غارات ضد البلاد الاسلامية بعد موقعة سهل الدم الا أنهم لم يفلحوا ولم يكن من السهل عليهم

تعويض مافقدوه من عدة وعتاد ورجال وفرسان وظل ميزان القوى لصالح القوات العربية الاسلامية ويظهر أنه بعد هذا التاريخ فقدت امارة انطاكية الكثير من قوتها ولم تعد قادرة على تهديد القوى الاسلامية في الشمال .

- ظهور عماد الدين زنكي على مسرح الاحداث :

أصبح عماد الدين زنكي أتابكا على الموصل عام ٥٢١ هـ/ ١١٢٧ م وقد هيأ نفسه لقيادة حركة الجهاد الاسلامي ضد الافرنج ،فبدأ بتوحيد شمال سورية وآسيا الغربية فأصبح أقوى حاكم مسلم بعد أن سخر كافة موارده في خدمة الجهاد ضد الافرنج المحتلين واضعا بذلك الاساس القوي لحركة الجهاد المقدس التي لم تنته الا بطرد فلول الافرنج من ديار العرب والمسلمين ،ومن أجل دعم ذلك الاساس أنشأ المدارس لتكون بمثابة مراكز دعوة لتلك الحركة سعيا الى الوصول الى رأي عام اسلامي واحد يساعد على تحقيق وترسيخ مفهوم الوحدة بوصفها ضرورة دينية في ذلك الوقت وقد نجح في ذلك حيث فشل السلاجقة العباسيون ببغداد والفاطميون بمصر ،وعلى الرغم من أن عماد الدين نجح نجاحا كبيرا في ذلك الا أن المنية لم تمهله ليرى ثمار مازرع فقد دفع حياته ثمنا لذلك النجاح عند أسوار قلعة جعبر ٥٤١ هـ /١١٤٦م،وكان عماد الدين قبل ذلك قد وسع دائرة نفوذه حتى وصلت الى حمص ٥٣٨ هـ/١١٤٣ استعدادا لضربة قاضية للنفوذ الافرنجي في شمال سورية ولم تتأخر تلك الضربة فكانت عام ٥٣٩ هـ/١١٤٤م حيث تمكن من تحرير الرها بعد حصار لها دام ثمانية وعشرون يوما وبذلك سقطت أول امارة افرنجية قامت على أرض الاسلام لقد كانت تلك الضربة موجعة للافرنج وكانت بمثابة صدمة قوية تردد صداها في العالم الاسلامي فرحا بذلك النصر المبين ، وكانت بمثابة نذير شوّم للافرنج وبداية لتحرير البلاد الاسلامية .

فماذا كانت ردة الافرنج في أوروبا ؟ لقد ارتفعت الاصوات في أوروبا داعية للانتقام من المسلمين واسترداد امارة الرها،فكانت

الحملة الافرنجية الصليبية الثانية بزعامة كونراد الثالث امبراطور المانيا ولويس السابع ملك فرنسا في نهاية عام ١١٤٧ ومطلع عام ١١٤٨م. في هذه الفترة استشهد عماد الدين زنكي كما أشرنا وخلفه ولده نور الدين محمود الذي تابع سياسة والده في توحيد العالم الاسلامي خاصة في الجزيرة وبلاد الشام حيث تمكن في عام ٥٤٩ هـ/١١٥٤ م من ضم دمشق نهائيا له وهكذا توحدت البلاد بعد أن كانت عبارة عن فسيفساء من الدول الصغيرة في مواجهة الجبهة الافرنجية .

لم يبق أمام نور الدين الا مصر الفاطمية الضعيفة وكان على علم بالصراعات الداخلية والمصاعب التى تواجهها الخلافة الفاطمية ، وأخذها يعتبر ضرورة استراتيجية لجعل مدينة القدس الشريف التي يرغب بتحريرها بين حجري الرحى وبذلك يسهل الاطباق عليها واستعادتها من الافرنج ،أي أنه كان يتطلع الى توحيد مصر والشام في دولة واحدة ، فعندما وصله من يستنجد به ضد خصمه وضد الافرنج اهتبل الفرصة دون ابطاء وأرسل قائده الباسل أسد الدين شيركوه الى مصر حيث استطاع هذا القائد الفذ احراز عدة انتصارات عسكرية وسياسية قادته الى تولي منصب الوزارة الى الخليفة الفاطمي الا أن القدر لم يمهله فعاجلته المنية مفسحا المجال الى ابن أخيه صلاح الدين الايوبي يوسف بن أيوب .

- ظهور صلاح الدين كقائد اسلامي :

أصبح صلاح الدين كما ألمحنا سابقا وزيراً للعاضد الفاطمي وحيث أن الاخير كان مريضا جدا فقد توفي عام ١١٧١ أي بعد تولية صلاح الدين الوزارة بقليل فوجدها صلاح الدين فرصة للقضاء على الدولة الفاطمية الضعيفة وقد تم هذا دون أية مقاومة وقد عقد العزم على انتزاع راية الجهاد من سيده نور الدين وساعدته الاحداث بوفاته عام ١١٧٤ ،لقد توفي نور الدين دون أن يكون راضيا تماما عن تابعه صلاح الدين بعد أن حصلت جفوة بين الرجلين ،كما يذكر بعض المؤرخين

حيث أحس برغبة صلاح الدين بتأسيس ملك منفصل عنه .

انضمت مصر وشمال افريقيا والحجاز وبلاد النوبة وبعض المناطق في جنوب الجزيرة العربية الى صلاح الدين ومن أجل اكمال مشروعه الوحدوي كان عليه أن يضم سورية من أتباع نور الدين وقد نجح في ذلك وهكذا أصبحت سورية وشمال افريقيا ومصر والحجاز واليمن موحدة تحت زعامته أما في الجانب الاخر أي في الجانب الصليبي فقد أدت هذه الاحداث الى تقلص الموارد البشرية والمادية لمملكة بيت المقدس ،كما أدت الى تغيير الخارطة السياسية للشرق العربي لصالح العرب المسلمين .

مكث السلطان صلاح الدين نحو ست سنوات ٥٧٢ - ٥٧٧ هـ/١١٧٦-١١٨١م يرتب الاوضاع الداخلية في مصر والشام استعدادا للمعركة الكبرى مع الافرنج الصليبيين وظل يتجنب الاشتباك معهم على الرغم من الاستفزازات الكثيرة التي قاموا بها مثل غاراتهم عبر شبه جزيرة سيناء وعلى تيماء ،كما حاول ارناط حاكم الكرك الصليبي أن يعبر البحر الاحمر كي يسيطر على مكة والمدينة ويتحكم في حركة التجارة الدولية المارة بهذا البحر الا أن تلك المحاولات باءت بالفشل ،قادت هذه التحديات وغيرها الى الشروع بالحروب ضد الافرنج فبعد أن أكمل استعداداته أي صلاح الدين خرج من دمشق متجها صوب طبرية في منتصف آذار عام ١١٨٧م وكان مركز تجمع قواته في حوران ومن هناك أرسل سرية بقيادة مظفر الدين كوكبوري الى عكا بعد أن استأذن أمير انطاكيا الذي كان يهادن صلاح الدين وفي طريق العودة اشتبك مع مجموعة من الفرسان الداوية والاستبارية في أيار ١١٨٧ بالقرب من بلدة صفورية بفلسطين وهناك حدثت المعركة المعروفة بمعركة صفورية وقد انتصر فيها المسلمون انتصارا حاسما حيث قتل معظم الفرسان الافرنج .

كانت معركة صفورية الملمح اليها أعلاه مقدمة لمعركة حطين الفاصلة الا أنها كانت ،في الوقت نفسه سببا في جمع كلمة الصليبيين وتوحدهم ضد صلاح الدين لانهم وجدوا في معركة صفورية مؤشرا لاخطار

ستحيق بهم . أما صلاح الدين الذي عاد لتوه من منطقة الكرك الى مركز تجمع قواته في حوران في ٢٧/أيار ١١٨٧م وبعد أن أتم استعداداته اتخذ قرار الحرب وهو عند تل تسيل بحوران وتوجه الى فلسطين بعد أن وزع المهمات القتالية بين قادته فجعل ابن أخيه تقي الدين عمر قائدا للجناح الايمن وجعل مظفر الدين كوكبوري قائدا للجناح الايمن أما هو فتولى قيادة قلب الجيش . سار الجيش من تسيل الى خسفين ثم اجتاز نهر الاردن وعسكر عند كفرسبت ،بعدها تحرك نحو مدينة طبريا وأخذها ولكن قلعتها استعصت عليه بسبب وجود زوجة ريموند ايشيغا فيها فتركها وتوجه نحو حطين ،لانريد أن نخوض في تفاصيل الاستعدادات والاحتياطات التي اتخذت قبيل المعركة ،فقد انتهت المعركة بنصر حاسم للعرب المسلمين وترتب على ذلك النصر :

١ - فتح الباب على مصراعيه أمام صلاح الدين ليحقق انتصارات جديدة ويحرر بلادا جديدة وقد وصلت تلك الانتصارات ذروتها بتحرير القدس الشريف بعد ثلاثة أشهر فقط من معركة حطين وبذلك انتهت المملكة اللاتينية الاولى بالقدس الشريف ،تلك المملكة التي حارب الافرنج من أجلها طويلا وكانت محط آمالهم في الشرق والغرب ،ولايغيب عن البال أنها كانت المسيطرة على كافة الممتلكات الصليبية بالشرق ولو على الاقل بصورة رمزية ، .

٢ - رفع معنويات العرب المسلمين وتعميق ايمانهم بالوحدة التي أنجزها صلاح الدين .

٣ - اعتبر انتصار العرب بحطين كارثة على الصليبيين ولعله كان أكبر كارثة حلت بهم منذ مجيئهم الى الشرق .

٤ - أجبرت الافرنج على أن يعيدوا النظر في مشروعهم الاستيطاني بالشرق العربي .

اذا كان لسقوط المملكة الصليبية بالقدس أثره الصاعق على أوروبا الغربية التي عملت كل مابوسعها على اقامة هذه المملكة والمحافظة عليها فبعد سقوطها ضاع كل شيء ،فما أن عرف البابا أوربان الثامن

بسقوط القدس في أيدي العرب المسلمين حتى توفي من هول الصدمة ،ودعا خليفته غريغوريوس الثامن الكاثوليك الى حملة صليبية جديدة في منشوره الذي أصدره في ٢١ تشرين أول ١١٨٧ ،فكانت الحملة التي عرفت بالحملة الثالثة ،كما أمر الكاثوليك بالصيام في يوم الجمعة من كل أسبوع ولمدة خمس سنوات ، اضافة الى الامتناع عن أكل اللحم مرتين في الاسبوع ،ونذر الكاردينالات بالتجوال مشيا على الاقدام في فرنسا وانجلترا والمانيا للدعوة الى تلك أي الحملة الثالثة .

وعند التدقيق في العناصر المكونة لهذه الحملة نجد أنها تألفت من كبار الاقطاعيين والفرسان والدول التجارية الايطالية (جنوة ،بيزا البندقية) التي تهددت مصالحها التجارية بعد موقعة حطين مع الشرق، وعليه يمكن القول أن الاهداف الدينية للحملات الصليبية أخذت تتراجع خلف الاهداف الاخرى ،وهذا مايعترف به رئيس الاساقفة غليوم الصوري في مؤلفه الذي نشره تحت عنوان "تاريخ الافعال في أراضي ماوراء البحار" وهو أول تاريخ كامل عن الحروب الصليبية وعن مملكة بيت المقدس حتى عام ١١٨٤ ،حيث يقول بأنه لايحد بين أعمال أمراء الصليبيين أي شيء يعتبره الحكيم جديرا بالوصف ويعود على القارئ بالرضى والارتياح". لقد أخذت الصراعات في هذه الحملة من أجل الهيمنة الاقتصادية والعسكرية والسياسية على منطقة البحر الابيض المتوسط تبرز الى السطح ،وهناك شيء آخر يشير الى تراجع الاهداف الدينية هو أن الجماهير قابلت بشيء من عدم المبالاة لدعوة البابا الى الحملة الثالثة وامتنعت عن تسديد مافرض عليها من أتاوات لتغذية الحملة تلك الاتاوات التي عرفت بعشر صلاح الدين وتجاوزت ذلك الى رجم الجباة بالحجارة مما حدى برجال السلطة الى الغائها في فرنسا . وهكذا لم تكن الاعتبارات الدينية بالنسبة لزعماء هذه الحملة الثالثة وهم : ريتشارد قلب الاسد ملك انجلترا وفيليب الثاني أغسطس ملك فرنسا والامبراطور فريدريك الاول بربروسيا امبراطور المانيا ،في صدارة الاسباب التي من أجلها اشتركوا في الحملة فقد كانت هذه الحملة حملة فتوحات بكل مايحمله هذا المعنى .

تمكن رجال هذه الحملة من الوصول الى الشرق واستعادة عكا من يد المسلمين بعد حصار دام عامين استسلمت المدينة بعدها عام ١١٩١ على الرغم من الجهود التي بذلها السلطان صلاح الدين لانقاذها،وقد عامل الافرنج العرب المسلمين في هذه المدينة بقسوة شديدة خلافا لاتفاقية الاستسلام فأوقعوا بهم مجزرة مخيفة تشيب لها الرؤوس وبعد عكا تمكن ريتشارد قلب الاسد من أخذ حيفا وقيسارية وأرسوف وعسقلان بعد أن خربها العرب كي لايستفيد منها الافرنج ولما كان هدف الحملة القدس فقد حاول الافرنج عبثا احتلالها وبعد أخذ ورد وقع الطرفان الايوبي والافرنجي اتفاقية الرملة في ايلول عام ١١٩٢ وقد قضت بنود تلك المعاهدة باحتفاظ الافرنج بالمنطقة الواقعة بين صور ويافا بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف ،وعلى أن تكون اللد والرملة مناصفة بين العرب والافرنج وتكون عسقلان ومايليها جنوبا بيد العرب المسلمين وتظل القدس بيد العرب المسلمين على أن يسمح للافرنج بالحج الى أماكنهم المقدسة مجانا وجعلت مدة الصلح ثلاث سنوات وثمانية أشهر وترك الخيار لانطاكية وطرابلس بالدخول في هذا الصلح ،وبعد هذا الصلح الذي كان بمثابة هدنة حرب عاد ريتشارد قلب الاسد الى بلاده وعاد صلاح الدين الى القدس ثم الى دمشق حيث توفي في آذار عام ١١٩٣ وبوفاته فقدت الامة أعظم قائد جسد أهدافها وناضل من أجلها .

وهكذا انتهت الحملة الصليبية الثالثة بتوقيع صلح الرملة دون أن تحقق أهدافها التي قامت من أجلها الا وهو استعادة القدس من أيدي المسلمين واكتفت بما حققته من مكاسب صغيرة ،ويصف زابروف هذه الحملة "ان الحملة الصليبية الثالثة قد اختلفت في كثير من النواحي عن سابقتيها فبين المشتركين فيها كانت تغيب الحماسة الدينية السابقة كما أنها لم تكن تنطوي على أي من عناصر العفوية الجماهيرية ولقد كانت حملة فتوحات قام بها فرسان وأمراء ثلاث دول اقطاعية ونظمتها وحققتها السلطة الملكية وأثناء الحملة تكشف بجلاء ووضوح سعي الملكيات الاقطاعية الغربية الى فتح مختلف مناطق

البحر الابيض المتوسط ،وفي هذه التربة نشبت مضاعفات وتعقيدات ونزاعات دولية بين الدول المسيحية نفسها في صقلية وفلسطين وقبرص ...الخ. وهذه الامور هي التي قررت المصير المخزي الذي آلت اليه الحملة بمجملها.

بموت السلطان صلاح الدين الايوبي انتعشت آمال الافرنج الصليبيين من أجل استعادة مافقدوه سيما وأن سلطنته قد تقسمت بين أبنائه المتنابذين المتخاصمين الا أنهم وأن حققوا بعض النجاحات الجزئية من أهمها استعادة القدس بموجب معاهدة الكامل جردريك الثاني الا أن نهايتهم بفلسطين كانت محتومة وفي آخر أيامهم انحسروا في شريط ساحلي ضيق وكانت نهاية الوجود الافرنجي الصليبي فيما بعد على يد المماليك خلفاء الايوبيين وبذلك انتهت الحركة الصليبية التي استمرت قرابة مئتي عام وهي تهدد الوطن العربي في الشرق ،لقدجاءت هذه الحركة بمظلة دينية ولكن أهدافها الحقيقية كانت الاستيطان وتكوين الممالك والامارات كما رأينا واستغلال موارد الوطن العربي وقد نجحت في غفلة من العرب المسلمين بسبب تفرقهم ،وعندما تمكن هؤلاء من توحيد صفوفهم استطاعوا تحقيق الانتصارات التي حددت مستقبل الحركة الصليبية برمتها ،وقبل أن أصل الى نهاية حديثي أود أن ألفت النظر الى أن الوطن العربي يتعرض اليوم الى حركة صهيونية مشابهة للحركة الصليبية التي تعرض لها الوطن العربي في القرون الحادي عشر والثامن عشر والثالث عشر ،لقد كان الدين كما رأينا المظلة التي تسربت تحتها الجيوش القادمة من أوربا الى الوطن العربي ،تماما كما فعلت الحركة الصهيونية في منتصف هذا القرن ،ومبعث تفاؤلنا اليوم أن مصير الحركة الصهيونية سيكون حتما كمصير الحركة الصليبية طال الزمن أو قصر.

وأخيرا ومما سبق عرضه يمكن أن نستخلص الملامح التالية التي اتصف بها العصر الذي تحدثنا عنه :

١ - على الرغم من تفرق كلمة العرب المسلمين في المراحل الاولى من الغزو الافرنجي الصليبي فقد بذل كل جهده على طريقته الخاصة ،

مجتمعين أو فرادى ،في مقاومة العدوان ،ويعني هذا أن جميعهم كانوا متفقين على ضرورة مقاومة الغزو الاجنبي لبلادهم ذي الهوية الدينية الوافدة من وراء البحار .

٢ ـ سيطرة المصلحة الشخصية لدى بعض حكام وامراء المسلمين وسيادة الشك فيما بينهم ،فمال بعضهم الى الاستنجاد بالافرنج ضد منافسيهم أو أعدائهم من الامراء الا أن ذلك كان مستهجنا لدى كثرة العلماء والفقهاء والعامة من العرب المسلمين بل تعدى بعضهم الى انكاره علنا .

٣ ـ عندما قيض الله للعرب والمسلمين قادة عظام استطاعوا توحيد الكلمة وتوحيد البلاد فتوجهوا جميعا وبقيادة واحدة الى مقاومة الغزو والاستيطان وقد أثمر ذلك بتحرير مدينة الرها بقيادة عماد الدين زنكي عام ١١٤٤ فكان ذلك بمثابة الهزة الاولى للافرنج في الشرق .

٤ ـ ظلت راية " الجهاد " مرفوعة ضد الافرنج في عهد نور الدين محمود خليفة عماد الدين الى أن سلمها الى صلاح الدين الايوبي من بعده ،على الرغم من محاولات الا فرنج استعادة مواقعهم دون جدوى .

٥ ـ تابع السلطان صلاح الدين الايوبي مسيرة الوحدة بعد أن أقام الدولة الايوبية بمصر ضم اليه شمال افريقيا وشبه الجزيرة العربية وثم بلاد الشام والجزيرة توجه بعدها الى حطين .

٦ ـ كانت معركة حطين أكثر من هزة للافرنج فكانت بمثابة الزلزال الذي لحق بالافرنج بالشرق وكان من نتيجتها تحرير القدس وكثير من المناطق الداخلية والساحلية ،وفي الوقت نفسه قوت العزم عند العرب المسلمين على متابعة الجهاد لتحرير أرضهم من الاجانب .

٧ ـ أخذت الحملات الصليبية بعد حطين طابعا جديدا فقد فتر الحماس الديني في أوربا المثل هذه الحملات وامتنعوا عن مدها بالمال وبالرجال أحيانا .

٨ ـ بعد حطين برزت الى السطح الاسباب الحقيقية للحملات الصليبية خاصة الحملة الثالثة فقد ظهرت الى المسرح أطماع الملوك والامراء الاقطاعيين والجمهوريات التجارية الايطالية في الاستحواذ على خيرات الشرق وأرباح التجارة معه .

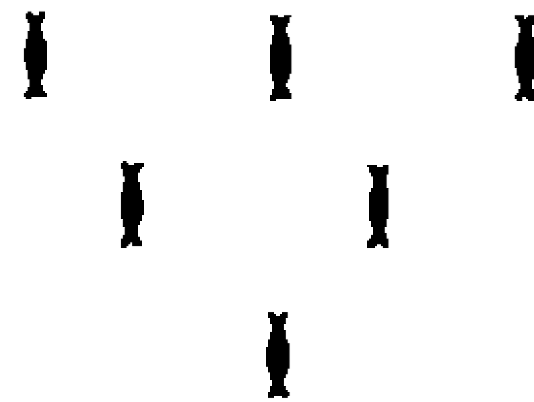
٩ ـ تأثر العرب المسلمون كثيرا بموت بطلهم المنقذ صلاح الدين الا أنهم لم يستطيعوا التراجع عن الاهداف التي رسمها البطل الراحل لتحرير البلاد والعباد من أيدي الافرنج على الرغم من بروز الخلافات والصراعات بين أبناء البيت الايوبي لان جهاد الافرنج كان من صلب العقيدة الدينية لدى المسلمين سيما وأن الحروب الصليبية أخذت الطابع الديني منذ البداية .

١٠ـ حتى بعد سقوط الدولة الايوبية " الام " بمصر حرص المماليك على متابعة الجهاد ضد الافرنج لان ذلك أصبح ضرورة على كل سلطان يفرضها الشرع الحنيف ويحتاجها السلطان لدعم مركزه السياسي في المجتمع العربي الاسلامي ونجح المماليك في تطهير البلاد نهائيا من آخر آثار الحملات الصليبية على نحو ما هو معروف .

١١ـ لم ينعم الافرنج باستقرار هادئ لمدة طويلة ابان تواجدهم في الشرق العربي وكانوا دوما في حالة استنفار وخوف من هجمات العرب المسلمين ولحماية أنفسهم أكثروا من بناء القلاع والحصون وعاشوا داخلها ولا تزال آثار تلك القلاع باقية تحدثنا عن الملاحم البطولية التي خاضها الاجداد في سبيل تحرير بلادهم .

١٢ـ لم يتمكن الا فرنج من السيطرة على أي مدينة من المدن الداخلية في سوريا كحلب أو دمشق أو حمص أو حماة وكذلك بالنسبة لمصر وهذا أمر هام جدا فقد ظلت هذه المدن مراكز جهاد تنطلق منها النجدات وجيوش التحرير فكانت حلب مثلا مركزا من مراكز الدعوة للجهاد ضد الافرنج ولم تتردد عندما داهمها الخطر أن تضع نفسها ، مضحية باستقلالها تحت قيادة أي قائد يدفع العدوان

عنـهـا وعـن المنـاطق الاخرى في شمـال سوريـا وكذلك فعلت دمشق فقد خـرج السلطان الايوبي صلاح الدين منهـا يوم حطين ومن القـاهرة خرج السلطـــان المملوكي الاشرف خليل يوم أن نجح في تطهير البلاد نهائيا من فلـــول الافرنج الطيبيين .



كيف جاءت نهاية الحروب الصليبية ونتائجها

الدكتور سهيل زكار
جامعة دمشق

* بسم الله الرحمن الرحيم *

أيها السيدات والسادة :
تأثرت الكتابات العربية المعاصرة حول تاريخ الحروب الصليبية بوجهات النظر الاوربية التي جعلت أحداث هذه الحروب جزءا - يكاد أن يكون كاملا -، من تاريخ أوربا في العصور الوسطى ونحن نختلف مع الاوربيين حول هذه القضية ، فهناك أسباب مباشرة وغير مباشرة لتفجر أحداث الغزو الصليبي ، كما وهناك وقائع تلتصق مباشرة بأحوال أوربة الدينية وسواها أثرت على استمراريتها، أو بالحري على تجدد الحماس الشعبي والرسمي لها ، ولكن وقائع هذه الحروب الاساسية قد قامت على أرض الشام العربية والاطراف في الجزيرة ومصر ، وقد انتهت على الارض الشامية نفسها ،وجوهر القضية بالنسبة لنا لا يكمن في الاسباب الاوربية بل في أسباب عجز العرب في التصدي أولا للغزاة الصليبيين ، وفي عدم تمكنهم من اقتلاعهم من أراضيهم المحتلة الابعد وقت طويل وجهود مضنية .

لقد قسم الباحثون الاوربيون تاريخ الحروب الصليبية الى حملات متتالية اختلفوا في تعدادها وتسمياتها ، والمثير للانتباه هنا أن هؤلاء الباحثين أنفسهم أرخوا لما قام به الصليبيون في ألمانيا أو فرنسا أو بلغاريا أو الامبراطورية البيزنطية في اطار التاريخ الوسيط الخاص بكل بلد من هذه البلدان ، ثم في الاطار الاوربي العام .

من الانصاف تطبيق هذا المعيار على بلاد الشام وبالتالي تفسير مراحل تاريخ الحروب الصليبية شاميا عربيا مع عدم اغفال الشأن الاوربي ، ومن هذا المنطلق يمكن القول : أن الحروب الصليبية قد مر تاريخها بطورين رئيسين :

آ- الطور الاول : وقد ارتبط بقيام هذه الحروب ، وعمليات الاحتـــلال حتى وصل التيار الى مداه الاقصى ، وكان ذلك أمام أسوار حلـــب سنة ٥١٨ هـ /١١٢٤م ومن ثم انعكس .

ب - الطور الثاني : وقد ارتبط بحرب التحرير والاسترداد ، ومرت هـذه الحرب باربع مراحل ارتبط كل منها باسم مدينة من مدن الوطـــن العربي في المشرق ، تحملت أعباء المسؤولية العظمى لقيادة أعمـــال التحرير ، كما أن كل مرحلة من المراحل كان لها مزاياها وخصائصهـــا وتعلقت الامور كلها بشكل أساسي بأوضاع العرب والمسلمين من حيث اليقظة والوحدة و استغلال الامكانات وشخصيات القادة ،وهذه المراحل هي : مرحلة الموصل ،ومرحلة حلب ، ومرحلة دمشق ، ومرحلة القاهرة .

ويقتضي الحديث عن الطور الاول كتابة مدخل تمهيدي عن أوضـــاع أوربـــا الوسيطة خاصة خلال القرن الخامس (هـ) والحادي عشر(م) ،ثـــم مدخل آخر ترسم فيه صورة لاوضاع العرب والمسلمين في المشرق والمغــرب خلال هذا القرن نفسه ،وكذلك ايلاء تاريخ العلاقات الاوربيـــة العربيـــة بعد قيام الاسلام عناية فائقة .

هذه المطالب أكبر من أن يمكن التصدي لها في بحث صغير ، ففـــي مؤلف عن الحروب الصليبية أقوم باعداده الان سيحتل هذا الامر ثلاثـــة مجلدات ،كما سيحتل دراسة الجانب الديني الاوربي مجلدا كبيرا .

ولعله يكفي أن نبين هنا أن أوضاع العرب كانت في النصـــف الثاني من القرن الخامس (هـ)الحادي عشر(م) متردية جدا في المشـــرق، نتيجة للضعف الشديد الذي ألم بالخلافة العباسية ولتردي الاوضاع كثيرا في ديار الخلافة الفاطمية ،وللتمزق العربي والصراعات الحادة بين الكيانات السياسية ،وزاد الحال سوءا وترديا تدفق قبائل الغزو التركية علـــى العراق والجزيرة والشام محدثة دمارا من النوع نفسه الذي سيحدثـــه هولاكو فيما بعد .

وعندما زحف الصليبيون من أوربا الغربية نحو المشرق كانت ديـــار

العرب في الشام والعراق والجزيرة ومصرتحت تسلط الغرباء الحديثي العهد بالاسلام والحضارة .

لقدزحفت من أوربا جموع هائلة من شعوبها على شكل كتل جَلها زحف برا ،وأقلها سافرا بحرا باتجاه الشرق ، وبعد عدد من الازمات والمتاعب عبرت هذه الحشود ، التي قيل بانها فاقت المليون انسان مابين رجل وامرة وشيخ وطفل - من أوربا الى آسية الصغرى ،تريد الوصول الى القدس ، تحت شعار الصليب وبقيادة رجالات الكنيسة اللاتينية وأمراء الاقطاع مع بعض المغامرين من صنوف شتى ، وكان الهدف المعلن للجميع قضاء واجب الحج ، وتخليص الاراضي المقدسة من المسلمين والعرب وتحويلها الى جزء من أوربا الكاثوليكية فيماوراء البحار .

ووصلت الحشود الصليبية الى انطاكية ،وتمكنت بعد حصار طويل من احتلالها في ٣ حزيران ١٠٩٨ بسبب عمل خياني ، وجرت محاولة مسلحة لاسترداد المدينة وأخفقت وخلصت انطاكية وقلعتها للصليبيين في ٢٨ تموز ١٠٩٨ ، وصار سلطانها الى الاميرالنورمندي بوهيمنوند وكان من أبرز قادة الصليبيين .

وكان قبل أن تسقط انطاكية ، وحتى قبل أن يصل الصليبيون اليها ان انفصلت منهم فئة بقيادة بلدوين(أخوغودفري- الذي سيكون أول ملك لمملكة القدس اللاتينية) وتوجهت من مرعش شرقا ، فتمكنت من الاستيلاء على بعض مناطق الثغور الاسلامية البيزنطية ،ووصلت أخيرا الى الرها فاحتلتها واتخذت منها قاعدة لاولى امارات الصليبيين في المشرق .

وزحفت معظم جموع الفرنجة جنوبا ، اثرذلك بعد أن جعلوا انطاكية مركز الامارة صليبية ثانية في المشرق ،واستطاعوا أثناء زحفهم هذا أن ينتزعوا من امارة حلب الكثير من أراضيها وقراها وبلدانها خاصة في المنطقة الغربية ،فلقد استولوا على البارة ،وجردوا مدينة حلب من أراضيها وأملاكها حتى وصلوا أسوار المدينة ،ثم أتوا على معرة النعمان فدمروها وقتلوا أهلها جميعا .

عندما احتل الفرنجة المعرة ، نشب خلاف بين باروناتهم،فقـــد أراد بعضهم الاستقرار في المعرة لاقامة امارة جديدة، وعارض أصحاب انطاكية الجدد ذلك ، حتى كادت الحرب تنشب بين صفوف الغزاة ،وهناثارت جماهير الفقراء Tafurs من الصليبين ، واندفعت تقتل كل من بقي من المسلمين في المعرة ، ثم توجهت نحو أسوارالمدينة وتحصيناتهافدمرتها كليـــــا وهكذا اضطرت جموع الصليبيون الى مغادرة المعرة والزحف جنوبا تقتل وتحرق وتدمرحتى وصلت الى القدس ،وكانت تابعة للحكم الفاطمي في مصر،فحاصرتها حصارا شديدا،وقاومت المدينةوانتظرت ورودالنجدات اليهامن القاهـــــرة لكنعبثاكان هذا الامل ،ووصل أثناء الحصارالى يافاعدد من السفـــــــــن الايطالية حاملةالعتاد والاخشاب والاغذية للفرنجة ،وقام الصليبيون ببنـــاء عدة أبراج حصارتمكنوا بو ساطتهامن الاستيلاء على القدس في ١٦تمـــــوز ١٠٩٩م وقتلوا كل من كان فيها، ويلاحظ هنا أن الصليبيين كانوا امتفوقين على المسلمين فيأنواع من التقنيات العسكرية ،خاصة بناء الابرجة المتحركـة مع أدوات الحصار الضخمـة الاخرى .

وصفت القدس للغزاة فأقاموا فيها ثالث دولهم في الشرق ،واعظمهـــــا مكانة، ثم أخذوا يوسعون رقعة أملاكهم في فلسطين ،وبعد عدة سنـــوات احتلوامدينة طرابلس وأقاموا فيهادويلتهم الرابعة علــــــــــــى أرض الشـــــام .

وكانت الحادثة التي وصل المد الصليبي فيهاالى مداه الاعظم ثم أخــــذ يتحول الى جزر أمام أسوار مدينةحلب ، وكان ذلك سنة ٥١٨هـ/١١٢٤ /م، ففي هذه السنةحضر الصليبييون كل شيء للاستيلاء على مدينةحلب ،لكنهــــم أخفقوا بفضل بسالة أهالي حلب ومقاومتهم العنيدة ،ثم لمبادرة صاحب الموصل البرسقي ـ لنجدة المدينة ،وقدعلق في عصرنا هذا المـــؤ رخ البريطاني أرنولد تويني على هذا الحادث بقوله :((لوسقطت حلــــب الصليبيين لصار الشرق لاتينيـــا))".

بوصول مد الاحتلال الصليبي سنة (٥١٨هـ ـ١١٢٤م) الى نهايته انتهـى عهدالتوسع والاستيلاءالصليبي ،وبدأت حرب الاسترداد والتحرير،وانتقـــل المسلمون من حالة الدفاع الى حالة الهجوم ،وبدأوا يخططون لاعمــــــال

التحرير،وتوقف الصليبيون عن أعمال الهجوم ، الى أبعد الحدود،وبات شاغلهم الرئيسي الاحتفاظ بما احتلوه ،وتبدلت نوعية الحكام المسلمين وتغيرت مشاعرالناس نحوهم ، وشرعت المصادرالعربية أثناء حديثها عن الوقائع والمعارك ضد الفرنجة تكثرمن ذكرالمتطوعة،وبدأ الان الطورالثاني وكانت أولى مراحله :

مرحلة الموصل وفيها انتقل العرب من أوضاع الدفاع الى الهجوم التحريري ، وجرت أثناء هذه المرحلة التي كان أبرزقادتها عماد الدين زنكي محاولات كبرى للوحدة ترافقت مع أعمال تحريركبيرة ،تصدرها تحريرالرها سنة ١١٤٤م وازالة الحكم اللاتيني منها وبعدتحريرالرها بعامين اغتيل زنكي ، وآلت القيادة بعده في الشام الى ابنه نورالدين محمود وبذلك انتهت مرحلة الموصل لتبدأ مرحلة حلب .

وفي هذه المرحلة كانت الانجازات عملاقة نذكر منها اخفاق الحملة الصليبية الثانية،وانقاذ دمشق من الاحتلال ، احباط محاولات التدخل البيزنطية ، احداث بعض الشروخ في صفوف الفرنجة أنفسهم، دخول نورالدين الى دمشق وتوحيد بلاد الشام ، انقاذ مصروتوحيدها مع الشام ومد الوحدة الى ليبيا واليمن ، الاعداد لمعركة حاسمة ضد الوجود الفرنجي ، ذلك أن المعارك كانت حتى الان معارك قلاع .

وتمت المعركة الفاصلة بعد وفاة نورالدين أيام صلاح الدين فمع قدوم صلاح الدين الى دمشق بدأت المرحلة الثالثة والحاسمة في تاريخ الحروب الصليبية ،وكان على رأس غمار هذه المرحلة معركة حطين وتحرير القدس سنة ١١٨٧م مع القسم الاعظم من الاراضي المحتلة واخفاق الحملة الصليبية الثالثة .

ان حطين واحدة من معارك التاريخ الفاصلة ،حطمت فيها المؤسسة العسكرية الصليبية وقد بات بعدها وجودالصليبين في المشرق . قضية زمن لا أكثر ،وان من يستعرض أخبار الفترة التاريخية للمرحلتين الثانية والثالثة في حلب ودمشق بقيادة نورالدين ثم صلاح الدين يجد أمة تتحرك كجسد واحد بلا تناقضات كبيرة ،ولا أمراض مستعصية ،وكان بودي أن،

أستعرض هنا بعض النماذج الشاهدة ،لكن ذلك يحتاج الى مكـــــــان أرحـــب .

عاش صلاح الدين عدة سنوات بعد حطين ،وتحرير القدس واجه خلالهـا مشاكل صعبة للغاية حتى على الصعيد العسكري ، انما ذلك كان عديم التأثيـــر فلقد حكم نصر حطين على الوجود الصليبي في المشرق بالزوال ،ومــــا كان لقوة أن تغير ذلك الحكم ،كل ماحدث محاولات لتأخير حركة التنفيذ لكن بشكل يائس .

ولقد ترعرت الروح الجديدة التي حملت من الشام الى مصر،فجعلت بعد فترة وجيزه من الزمن القاهرة عاصمة لديار العرب ،ومركز القواهـــــم وثقافتهم وحضارتهم ،وبعد وفاة صلاح الدين صارت القاهرة مقر للسلطـة الايوبية ،ومن القاهرة قاد خلفاء صلاح الدين من الايوبيين أولائم مـن المماليك ،قادوا أمة العرب نحو تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشـــام ونحو تسبيب الاخفاق لجميع محاولات أوربة في احتلال أي جزء من بـــلاد العرب ،كما أن القاهرة حمت الوطن العربي في مشرقه ومغربه ،وصانتـــه عندما تعرض هذا الوطن للغزو المغولي،فهزمت المغول في معركة عين جالـــوت وأجبرتهم على الجلاء عن أرض الشـام .

لقد سببت معركة عين جالوت وضع بلاد الشام تحت الحكم المملوكـــي وثبتت أركان هذا الحكم في مصر ،وكان أن تسلم بيبرس السلطة فـــي القاهرة بعد الفراغ من عين جالوت فوطد أركان الدولة وأخذ يعد العـدة لتحرير المتبقي من الاراضي الشامية بيد الفرنجة وفق خطة اتخذت فـــي حسبانها الخطر المغولي الكبير في الشرق والشمال والتحالف المغولي الصليبي الارمنـــي .

تسلم بيبرس السلطة في القاهرة ،وواجه في البداية عددا مـــن الثورات واعمال المعارضة في القاهرة ودمشق ،واستطاع بسرعة وحـــزم أن يقضي عليها جميعا ،فالتفت الى الجوانب التنظيمية والادارية ،ولعـل أهم ماقام به في هذا المجال هو بعث الخلافة العباسية واعادة تأسيسها في القاهرة .

لقد كان الحكم المملوكي الجديد بحاجة الى الشرعية ومثل هـــــذه الشرعية كان بامكان الخلفاء وحدهم منحها ، ونحن وان كنالانجد المكان مناسبا للحديث عن تطورالسلطة لدى العباسيين ، الاأنه من المفيد أن نبين أن الظاهر بيبرس قدتمسك بمفهوم السلطة الموروث عن السلطنة السلجوقيــة فقدكان مثل السلاجقة ،من أصل تركـــي .

وكان السلاجقة بعدما استولوا على بغداد وأقاموا دولتهم العظمى قد احدثوا تغييرا في مفهم السلطة ،فهم لم يتحكموا بالخلفاء العباسيين كما فعل رجالات بني بويه قبلهم بل اعتمدوا مبدأ ازدواجية السلطـــة وهومبدأ تركي متوارث ،وتبعا لهذا المفهوم كان يتولى رئاسة الدولـــة رجل عرف باسم الخاقان لايملك أية صلاحيات بل كانت رئاسته اسميـــــة والى جانبه يتولى مباشرة السلطة الـ (بك) وغالبا ماكانت وظيفتـــــه عسكرية . ويلاحظ بالنسبة لتاريخ سلاطين السلاجقة والمماليك أن السمـــــة العسكرية قد غلبت عليهم .

كمايلاحظ أنه في زمن السلاجقة جرى توسيع قواعد نظام الاقطـــاع العسكري . ونتيجة لسياستهم الدينية عظم شأن علماء الدين السنة ودورهـم الى حد يمكننا فيه الحديث عن قيام اقطاع ديني تحالف وتعاون مع الاقطاع العسكري . وكان لرجال الدين دورخطيرجدا فيأيام الحكم المملوكي وغالبا ماقاموا بالوساطة بين المماليك وطوائف المجتمع على اختلافها .

توجه السلطان الظاهر بيبرس نحو دمشق في العام التالي لتوليـــــه السلطنة ٦٥٩ هـ /١٢٦١م ،ويبدو أنه سلك الطريق الساحلي مستطلعا أوضاع المنطقة الساحلية وضاغطا على الصليبيين هناك وفي طريقه جاءه كونـت يافا فأكرمه السلطان وكتب له منشورا ببلاده ،ورده سالما الى مدينتـــه وفي دمشق ((حضر رسول من جهة عكا يسأله آمانا للرسل المتوجهين مـــن البيوت (الداوية والاسبتسارية) كلها فكتب الى والي بانياس بتمكينهـــم فحضر أكابر الفرنج والتمسوا الصلح ،فتوقف السلطان عليهم ،وطلــــب منهم أمورا كثيرة ،فلما امتنعوا ازجرهم السلطان وأهانهم)) ثم تقـررت الهدنة مع تبادل الاسرى ورفع المقاطعة الاقتصادية .

ويلاحظ في هذا المقام أن موءسسات الفرنجة السياسية والعسكريــة في الشام تصرفت في بداية العصر المملوكي وكانها جزء من المنظومــة السياسية الشامية المحلية ،وان بيبرس شعر أن المخاطر العظيمة علــى سيطرته على بلاد الشام ليست صادرة عن الفرنجةبل امارة الكــرك التي كانت ماتزال تحت الحكم الايوبي ،ومازال حاكمهايطمع بسلطنةالقاهرة ولهذا اتخذ الظاهر بيبرس قراره بالاستيلاء على الكرك ،وكان يحتــاج حتى يتمكن منانجاز هذا العمل حماية ظهره من مخاطر المغول ،ولهـذا جهز حملة عسكريةبعثها نحو العراق تحت لواءأحدالناجين العباسييــن وبايعه بيبرس بالخلافة وقد حمل لقب المستنصر بالله وقيل أن اسمـــه (أبو القاسم احمد بنالامام الظاهر))

وما أن فرغ بيبرس من هذه الاعمال حتى بادر بالعمل ضدامــارة الكرك فاستولى أولا في هذه السنة نفسها (٦٥٩هـ /١٢٦١م) على قلعــة الشوبك ثم شرع يتدبرأمور الكرك وكانت من أمنع القلاع في بـــلاد الشام، فتمكن ببراعة مطلقة من الاستيلاء عليها في سنة٦٦١ هـ ١٢٦٣/م وبذلك أزال الوجودالايوبي من جنوبي بلاد الشام ،وبات من الممكــن التفرغ للعمل ضد الصليبيين .

وأدام السلطان أثناء عمله ضدالكرك الاتصالات الدبلوماسية مـــع الصليبيين .

ولم تزل رسلهم تترد في هذا ومثلهالى أن فرغ السلطان من شغله الذي كان في نفسه ، وهوحديث الكرك ،

وما أن انتهى منه حتى زحف على رأس جيوشه الى قلب الاراضــي والممتلكات الصليبية ،واستقبل اثناء ذلك رسل موءسسات الفرنجـــة الذين عرضوا عليه التمسك باتفاقات الهدنة فرفض ،وبعدها بين لهــم الاحوال التي لم يتمسكوا بها بشروط الهدنة أوضح لهم عن مقاصـــده وشروطه بقوله :

((أنتم في أيام الصالح اسماعيل اخذتم صفد والشقيف على أنكــم تنجدونه على السلطان الشهيد الملك الصالح (أيوب) .

وبالجملة فانتم أخذتم هذه البلاد من الصالح اسماعيل لاعانة مملكة الشام واطاعة ملكها ونصرته ، وقد صارت مملكة الشام وغيرها لي،وما أنا محتاج الى نصرتكم ولا الى نجدتكم ،فتردون ما أخذتم للاسلام بهذا الطريق ،وتفكون آسرى المسلمين جميعهم ،وغيرذلك لا أقبله ،ثم أمر بطرد الرسل ورسم بهدم كنيسة الناصرة ،((وهي أكبرمواطن العبادة التي لهم ،ويقولون منهاخرج دين النصرانية ..(ووجه من) هدمها الى الارض ،فلم يجسر أحد من سائر الفرنجة أن يخرج من باب عكا .

وسبب ذلك أنه أرسل قطعة كبيرة من جنده للاغارة على عكا ثم أتبع بيبرس ذلك بقيامه في يوم ٤ جمادى الاخرة ٦٦١ هـ /١٥نيسان ابريل ١٢٦٣ م بالزحف ضد عكا ،((ولم يزل سائقا الى أن طاف بها من جهة البحر ،وسيرجماعة الى برج كان قريبا منها فيه جماعة فحاصره ،وللوقت أحدثت فيه الثقوب ،وكان توجه السلطان اليها في هذه الجماعة انما هو لكشفها)) ، وكان الفرنج ((قد حفروا خنادق حول تل الفضول وجعلوها معاثر في الطريق ،وبسرعة متناهية تمكن جند بيبرس من ردم الخنادق وطلع الناس الى تل الفضول ،وانهزمت الفرنج الى المدينة ،وحرق الناس ماحول عكا من الابراج والاسوار وقطعوا الاشجاروحرقوا الثمار ،وحاول بيبرس اقتحام المدينة فأخفق ،وبعد قيام جيشه بعدةهجمات أمّره بالانسحاب ،حيث توجه نحو الكرك ومن هنالك عاد الى القاهرة .

ويبدو أن أهداف بيبرس في حملته هذه كانت أكبرمن ايقاع الضرر بالفرنجة أو استعراض قواه أمامهم وفرض هيبته عليهم ،ولاحتى مجرد الاستطلاع والتعرف على طبيعة المنطقة . لقد أراد بيبرس احتلال عكا ،مقدرا امكانية ذلك ، بسبب أوضاع عكا الداخلية ،فقد كان الفرنجة قد وصلوا في هذه الفترة الى درجة كبيرة من الضعف ونجم ذلك عن القتال بين البنادقة والجنوبين فيها .

ووصلت الاخبار في عام ٦٦٢هـ /١٢٦٤م عن تحرك مغولي ضد بلاد الشام لذلك أصدر السلطان بيبرس تعليماته باستنفار القوات في الشام وشحن القلاع ورممها . وتحرك السلطان على رأس قواته من مصر فقصد

غرة ومن هناك تحرك نحو منطقة يافا ،وبينماهوعلى الطريــــق وصلته الاخبار بهجوم المغول على المناطق الشمالية من الشام ،وصد ذلـك الهجوم ،ولذلك بادر الى تغيير خطط زحفة و استغلال الموقف في البقـــاع التي كان فيها .

وبناءعليه ((ثنى أعنته الى جهة الفرنج ليدينهم كمادأنو اويكون لهم كماكانوا ،وما أعلم أحد مغزاة ،ولافهم أين مرامه ومرمـــــاه)) وتظاهربالانشغال بأعمال الصيد في غابة أرسوف ،فقام باستطلاع أرسوف وقيسارية ،وأمربإحضار الاخشاب واعداد المجانيق وأسلحة الحصار،وأحضر الصناع والحجارين (سلاح المهندسين) ،وهاجم قيسارية ،و((نزل عليها يوم الخميس في التاسع من جمادى الاولى سنة ثلاث وستين وستمائـــــة (٢٨شباط /فبراير١٢٦٥م) ولوقته طاف بها. وهاجمها الناس وألقـــوا نفوسهم في خنادقها وعمدوا الى السكك الحديد التي للخيل والشبح والمقاود فتعلقوا فيها وطلعوامن كل جانب ،ونصبت عليها السناجق وحرقتأبوابها وهتك حجابها،فهرب أهلها الى قلعتها .

وشرعت القوات المملوكية بحصار قلعة قيسارية ، وكانت ((مـــن أحصن القلاع وأحسنها ،وتعرف بالخضراء ،وكان الريدافرانس (لويـــس التاسع) حمل اليها العمد الصوان واتقنها، وماروؤي في الساحل أحســن منها عمارة ولا أمنع ولا أرفع لان البحرالمالح حاف بها ،وجائــز فـــي خنادقها،والنقوب لاتعمل فيها للعمد الصوان الصلبة في بنائها)) وشـــدد بيبرس الحصارعليهاوضيق الخناق على المدافعين عنها،وبعد مضي اسبوع هرب الفرنج بحرا الى يافا ،((وأسلموا القلعة بمافيها،وتسلق المسلمون اليها من الاسوار ،وحرقوا الابواب ،ودخلوها من أعلاها وأسفلها))وآمر بيبرس على الفوربهدم قيسارية مع قلعتها ((ووقف يهدم بنفسه ، ورآه ، الناس فتشبهوا به وعملوا بنفوسهم ،وصار يباشر ذلك بنفسه ويده .

لقد برهن بيبرس في جميع معاركه على انه صاحب عبقرية عسكرية متميزة ، فعندماقرر مهاجمة قيسارية أرسل بعض وحدات جيشـه نحـــو عكا للاغارة عليها ،والحيلولة بين أهلها وبين انجاد قيسارية ،وجاء

تحرير قيسارية بمثابة ضربة قاسية ضد الفرنجة، حيث خسروا أهم نقاط الدفاع المتقدمة لديهم .

ان الهجوم على قيسارية يدل على وجودخطة محكمة للتحريرقدوضعها بيبرس . فقيسارية كانت أهم مواقع الصليبيين وأحصنها على الساحل فيمابين عكاوغزة . وبعدها نجحت خطة الاستيلاء على قيسارية عمد بيبرس الى اجراء عسكري له شقان : الشق الاول تصفية الممتلكات الصليبية فيمابين قيسارية وغزة ،والشق الثاني التقدم في الوقت نفسه خطوة أخرى باتجاه عكا.

بينماكانت عمليات الهدم مستمرة في قيسارية أرسل بيبرس في ٢٦ جمادى الاولى ٦٦٣ هـ/١٧ آذار/مارس ١٢٦٥م مجموعة كبيرةمن عساكره نحو حيفا ((فساروا اليها ودخلوا قلعتها ، فنجاالفرنج بانفسهم الى المراكب بعد أن قتل منهمواسر.. واخربوا المدينةوقلعتها وأحرقوا أبوابها ،وجعلوهاخاوية على عروشها ،كان لمتغن بالامس ،وكان أخذها وما أعتمد فيهامن قتل وأسر واخراب واحراق في يوموأحد)) .

وفي الوقت الذي تعرضت فيه حيفا للغارة المدمرة المحررة سارالسلطان الظاهر بيبرس بنفسه على رأس قطعة كبيرة أخرى من جيشه الى عتليت وبعدما استطلعها أمرعساكره بالاغارة عليها ((وأمر بتشعيثهاوقطع أشجارها ،فقطعت جميعها وخرَبت أبنيتها)) ثم عاد نحوقيساريةلمتابعة أعمال الهدم واعداد خطة هجوم جديد .

وكان الهدف الان هوبلدة أرسوف ،وبعدما أعد بيبرس الاسلحة الجماعية ومعدات الحصار ،القى الحصار على أرسوف وشدده وكانت أسوارها متينة وعالية ،وقامت قوات بيبرس بالتقدم نحو الاسوار في ظل ستائر من الاخشاب على شكل ابراج متحركة ،وحاولت هذه القوات حفرنفقين تحتالاسوار بغية شحنها بالاخشاب واحراقهاتحت طرف من أطراف الاسوار بغية هدمه .وقامالفرنجة بخطط معاكسة وذلك بحفر أنفاق مضادة ونشر الدخان فيها بشكل مفاجئ .

وبعد حصار دام أربعين يوما لم يتوقف القصف والرمي فيه أمكن فتح ثغرات واسعة في الاسوار ،وهكذا تمكن الجندمن اقتحام المدينة والدخول الى حصنها ، وهنا توقف المدافعون عن القتال والقوا أسلحتهم واستسلموا،وحررت أرسوف وعادة الى أهلها يوم الخميس ١١ رجب ٦٦٣/هـ ٢٦ نيسان/ ابريل ١٢٦٥م وأمربيبرس بهدم أرسوف ثم وجه انذارا الى كونت يافاجاء فيه :

((انالانحتمل الهضيمة ،واذا أخذأحد لنامزرعة أخذناعوضها قلعة مرتفعة ،واذا أسر لنافلاح أسرنا ألفا من المقاتلةلابسة السلاح، واذا هدموا جدارا هدمنا أسوارا ،والسيف في يد الضارب ،والجوادعنانه في قبضةالراكب ،ولنايد تقطع الاعناق ،ويدتصل الارزاق ،ومن تحرش فعن تجربة ،ومن أراد شيئا من الاشياء فهذه الاموركله مرتبة))

لاشك أن انجازات أعمال التحريرلهذا العام كانت جليلة ومحصلاتها عظيمة لاسيما في بناء قلعة قاقون • وقبل تعليل أسباب هدم الحصون المستولى عليهاوالباعث على بناء قاقون ،من الضروري الاشارةالى أن اعمال التحريرهذه لميتوقف انجازهاعلى العسكريين المحترفين من جند بيبرس ،فلقدكان الحضور الشعبي كبيرا أثناء القتال وأعمال الحصار، وشارك العرب الفلسطينيون مع أخوانهم من أهل الشام نساءورجالا، وكان لهم دورهم المميز ،ويحدثنا ابن عبد الظاهر قاضي بيبرس ورئيس ديوان الانشاء لديه وكاتب سيرته وهو شاهد عيان بقوله :

((وحضر العباد والزهاد والفقهاء والفقراء الى هذه الغزاةالمباركة التي ملأت الارض بالعساكر وأصناف العالم ،ولم يتبعها خمرولاشيءمن الفواحش بل النساء الصالحات بسقين الماء في وسط القتال ،ويجررن في المجانيق ،وأطلق لجماعة من الصالحين الرواتب ،مثل الشيخ علي المجنون ، والشيخ الياس ،ومن الاغنام والحوائج ،وأطلق للشيخ علي البكاء جملة من المال ،وماسمع أن أحدا من خواصه اشتغل عن الجهاد في نوبته بشغله ،ولاسيرأمير غلمانه في نوبته واستراج هو ، الا الناس سواء في هذه الامور))•

وكـان الشيخ علي المجنون أول النـاس لدى اقتحام الاسوار ،فهـو أول من شاهد انهيـار أسوار بـاشورة أرسوف ،والحضور الشعبي لـه دلالات كبيرة فالمعركة كـانت لهـاصيغة ((قومية ـ وطنية)) ، اذا جاز لنـا استعمـــال التعـابير الحديثة ،ولـم تكن صراعا بين حكام أو عسكريين ، بعضهـم مــن الفرنجة وبعضهم الاخر من الترك . لقد اعتبر بيبرس أعماله جهـادا فــي سبيل الله ،واعتبر الشاميون الفلسطينيون عملهم جهادا في سبيـــل اللـه والارض ،ولهذا كان التعب يعتري جند المماليك لكنهم لم يعـرفـوا للتعب معنى ولـم يتوقفوا بعدما ألقى العدو السلاح واستسلم .

ولجأ بيبرس الى هدم المدن والحصون الساحلية التي استولى عليهـــا حتى لايعود الفرنجة اليها فيرمموها ويتحصنوا بها من جديد ،ذلك أنه كـان لـهم تفوق بحري على المماليك وكانت تحت تصرفهم أساطيل الدويـــلات الايطالية مع أساطيل دول أوربـا المتوسطية (مثل فرنسا وصقلية واسبانيا)

لقدقدر الظاهر بيبرس ـ كما يبدو ـ ان الاستيلاء على عكا ليــس بـالامر السهل ويحتاج الى مجهود كبير ووقت طويل ،وأن هنالك مسائـــل ومخاطر ملحة أخرى في المنـاطق المحتلة من قبل الصليبيين خارج فلسطين فقد كـانت هنـالك طرابلس ،وقلعة حصن الاكراد وانطاكية ،لذلك تـابـع العمل على تجريد عكا من ممتلكاتها وأخذ يعد العدة لتحرير صفد ،وأقدم أولا على اعـادة تحصين قلعة قـاقون .

كـانت قـاقون تعد من أعمـال قيسارية ،وقد سكن قلعتها فرســـان المعبد (الداوية) وقد ورد ذكرها في عمليات الحروب الصليبيية . وهـــي وان كـانت قلعة داخلية لم تكن بعيدة عن الساحل ،لذلك توفرت فيهـا الشروط المطلوبة ،وأمر بيبرس بـاعادة بنـاء قلعتهـا ،ورمم كنيستهـــا وحولـها الى جامع ،وأوقف عليهـا الاوقـاف وشحنهـا بالمقـاتلة وانتهـــت هذه الاعمال سنة ٦٦٥ هـ/١٢٦٧م .ونمت قـاقون خلال فترة وجيزة فصــارت عـامرة بالنـاس وغدت محطة للقوافل الذاهبة الى غزة والايبة منها ومـركزا من أهم مراكز البريد ،ذلك أن بيبرس اعتنى عنـاية فـائقة بـالبريد حتـى كـان الخبر يحتـاج الى أربعة ايام للوصول من دمشق الى القـاهرة .

وبعد انقضاء موسم أمطار عام٦٦٤ هـ/١٢٦٦م جهز السلطان الظاهر بيبرس قواته وأخذ الطريق نحو غزة يريد بلاد الشام ، وفي غزة كلف بعض أمراءجيشه بقيادة وحداتهم والاغارة على ممتلكات الفرنجة في الساحل مابين طرابلس وصور ومن غزة توجه بيبرس شخصيا نحومدينة الخليل "فدخل الى مقام ابراهيم وزار وكشف المظالم " واتخذ عدة اجراءات لصيانة حرمة مكان ثم توجه نحو القدس فأتى ((الحرم الشريف مستخفيا في نفرين أوثلاثة ،وصلى الجمعه بالقدس ،ورحل الى عين جالوت نحو عكا وعسكر أمامها وأمر باجتماع قواته اليه)) .

وعاد ثانية فضغط على عكا وأغارت قواته على المناطق المحيطة بها ،بغية اضعافها اقتصاديا وعسكريا،وراسله مقدم الاسبتارية من عكا من أجل الهدنة وفق الشروط التي يفرضها ، وعندماتهيأت الاجواء توجه بيبرس نحو صفد فهي قدكانت هدفه ((لانها الغصة في حلق الشام والشجا في صدر الاسلام .

وقبل البحث في احداث تحرير صفد نحتاج الى وقفة صغيرة بغية التعرف الى موقع هذه البلدة مع شيء من تاريخها الاسلامي :

تقع صفد في الجليل الاعلى ،وترتفع حوالي ٨٤٠م عن سطح البحر وتبعد نحو ٢٠٦ كم عن القدس ،وهي ذات موقع استراتيجي هام وكانت أولا تلا،وكان على التل قرية عامرة تحت برج اليتيم ... لم تذكر في شيء من الكتب الموضوعة في التاريخ في صدر الاسلام،وقد سقطت بيد الصليبيين في الحملة الاولى فعمروا قلعتها سنة ٤٩٥هـ/١١٠٢م وسكنها فيما بعد سنة ١١٦٧م فرسان المعبد (الداوية) وحصنوها وظلت في أيدي الصليبيين حتى حررها " السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بعد حصار شديد " سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م وآلت منذ ذلك التاريخ الى السلطات الايوبية في دمشق الى أن هدمها المسلمون سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م" وبقيت خرابا،وبلادها في يد من يملك دمشق لايهتم ببنائها ملك الى أن أعطاها الملك الصالح عماد الدين اسماعيل بن الملك العادل للفرنج فيما أعطاهم من البلاد في سنة ثمان وخمسين وستمائة (١٢٦٠م) " .

ثم آلت ملكيتها الى فرسان الداوية ،فقاموا بتجديدها وتوسيـــع رقعة حصنها حتى بات يتسع لحوالي ٢٢٠٠ من الفرسان والمقاتلة وقـــد " شحنوها بالمؤن والعتاد وجلبوا اليها الماء من العيون المجاورة "وعظم شأن صفد في هذه الاونة وتحولت الى بلدة كبيرة لها نشاطات وامكانات تؤهلها لان تصبح نواة نيابة في المستقبل(١٥) .

وكان الداوية أفراد احدى أهم منظمات الصليبيين واخوانياتهـم العسكرية وكانوا يديرون في هذه الاونة أعمالا اقتصادية ونشاطـــات مالية واسعة . وعلى قاعدة من ملك المال ملك السلطة ،مارس الداويـــة نفوذا كبيرا على حكام الفرنجة في الشام ،كما أن تاريخهم مـــــع الاستبارية في المشرق ملطخ أكثر من سواهم بجميع أنواع الوصمات مـن كذب وغدر ومذابح بلا رحمة . ولهذا عمد حكام المسلمين الى اعتبارهـم " مجرمي حرب " لايجوز الابقاء على أي منهم عندمايؤخذ أسيرا ،وهـذا ماطبقه صلاح الدين اثر انتصاره في معركة حطين .

وقرر السلطان الظاهر بيبرس الاستيلاء على صفد فأعد لذلك مالـزم من معدات . وبعدما وجه أقسى الضربات لكل من عكا والمناطق القائمـة بين طرابلس وصور،تحرك نحو صفد ،واستنفر قوات الشام،ويبدو أن حجم الاستعدادات كان واسعا،وكانت الخطة الموضوعة لمهاجمة صفد محكمة .

الموقع كان في غاية الحصانة والمدافعون عنه كانوا من أشـــرس المقاتلين الصليبيين وأكثرهم تمرسا وأشدهم صبرا،وعمل بيبرس علـــى عزل صفد ومنع وصول النجدات اليها ،حيث بعث قطعة من قواته لمشاغلة حصن الشقيف ورصد الطرق والممرات . فقد حـــرص بيبـــرس علـــى سلامـــــة وصول المعدات والمجانيق والاخشاب من دمشق حرصه على منع النجـــــدات عن صفـــــد .

ويحدثنا ابن عبد الظاهر أن الجمال التي حملت المجانيق أصابهــــا الوهن أثناء توجهها نحو صفـد((فجهز(بيبرس) الامراء والجند وسائـــر الناس لحملها على الرقاب من جسر يعقوب ،وهو مرحلة من صفد ،وخـــرج السلطان بنفسه وخواصه ،وجر أخشاب المجانيق مع البقر)) وبدأ حصـــار

صفد يوم ٨ رمضان ٦٦٤هـ /١٣حزيران/يونيو١٢٦٦م وأشرف بيبرس بنفسه على تجهيز المجانيق ووجه رماياتها . وشدد المسلمون الحصار على صفد، وعملوا في سبيل فتح ثغرة في الاسوار . وانقضى شهر رمضان والقتال مستعر ،وأصاب الهلع الفرنجة وسعوا الى الاستسلام ، لكن بيبرس تشدد في شروطه وأصر على قتل فرسان الداوية .

كان بيبرس أثناء الحصار في ذروة اليقظة والنشاط وقد ضرب مثلا أعلى لجنده . كان يتفقد عساكره ويبذل لهم الارزاق ، ويبني الخيام ،ويحضر الاطباء والجراحين ويطلق الاطعمة والاشربة للجند لاثارة حماستهم ولرفع معنوياتهم . وبعد انقضاء شهر رمضان بدأ السلطان بيبرس زحفا عاما ضد صفد في اليوم الثاني لعيد الفطر (٢ /شوال ٦/تموز/ يوليو) ولم يثمر هذا الهجوم وأخفق في اختراق دفاعات صفد وبعد مضي اسبوع جدد بيبرس المحاولة ومن جديد أخفق . ثم حاول ثالثة يوم ١٤ـ ١٧تموز/يوليو ،وألح بيبرس وشدد الهجوم في اليوم التالي وسقطت باشورة القلعة واقتحمت عساكر بيبرس القلعة . وهنا أدرك الفرنجة أنه لافائدة من متابعة المقاومة وعرضوا الاستسلام وأصدار بيبرس أوامره بأن لايرموا أحدا من الفرنج والنصارى والمستعربة غير الداوية ، فأمسك الفرنج من تلك الساعة عن القتال)) وتابع الداوية المقاومة عدة أيام ثم طلبوا الامان مجددا فمنحهم ماطلبوا بعد أن ((اشترط عليهم أن لايستصحبوا سلاحا ولا لامة حرب ولاشيئا من الفضيات ولايؤذوا شيئا من ذخائر القلعة بنار ولاهدم .

وتوقف القتال وخرج المدافعون عن صفد ودخلت عساكر بيبرس اليها ،وبعد ماتفقدوها وجدوها بدون أموال وذخائر وأسلحة فردية .وأمر بيبرس بتفتيش الفرنجة فوجد أنهم ((أخرجوا معهم الاسلحة والفضيات وأخفوها في قماشهم . وتحدثوا عن جماعة من أسرى المسلمين وأخذوهم على أنهم نصارى ، وكذلك صغار المسلمين المأسورين عندهم . واعتبر السلطان ما أقترفه الفرنجة نقضا لشروط الاستسلام يسوغ له الامر باعدامهم وكان بيبرس ينتظر مثل هذا المسوغ ،فأصدر أوامره بقتل الفرنجة

جميعا فيما عدا اثنين منهم أولهما أعلن عن اسلامه ،وثانيهما أطلق سراحه ليخبر بني جلدته بما وقع في صفد .

ويبدوا أن الذين أعدموا كانوا من الداوية فقط ،ذلك أنه بعدما سقطت باشورة القلعة فسح المسلمون السبل أمام الفرنجة العاديين وسواهم للهرب ، ان لم نقل شجعوهم على ذلك . أضف الى هذا أن الاسلام عرض على الذين نقضوا الاتفاق ،وواحد فقط هو الذي تحول الى الاسلام ورفض البقية ،مما يدلل على أنهم كانوا من الداوية الذين شهروا بشدة التعصب .

وكما حدث في المعارك السابقة كان الحضور الشعبي كبيرا أيضا أثناء حصار صفد ،وقد قتل عدد من المتطوعة ،وهذا يؤكد من جديد أن عمليات التحرير أسهمت الامة فيها لاعن طريق تحمل نفقات جند المماليك واعداد الاسلحة وتأمين المؤن ورجالات الادارة فحسب ،بل عن طريق المقاتلين أيضا . وعلى هذا تحمل شعب فلسطين وأهل الشام القسط الاكبر من أعباء تحرير الارض ،وذلك بعدما كانوا قد تمسكوا بالارض وتحملوا مشاق الاحتلال .

وعين بيبرس واليا لصفد " وأمر بعمارتها والزيادة فيها ، وحمل اليها الذخائر والسلاح " وولى قلعتها واحدا من قادة جيشه وشحنها بكمية من الجند ثم ارتحل مسرعا نحو دمشق(١٧) لتجريد القوات ضد مملكة أرمينيا الصغرى .

وكان لتحرير صفد أصداء واسعة ،حيث سارع ممثلو بقية الفرنجة نحو بيبرس يعلنون خضوعهم له ،كما سقطت قلعتا هونين وتبنين ، وقرر بيبرس اعادة ترميم قلعة صفد بعد ما لحقها من تهديم كبير .

وذهب بيبرس الى القاهرة حيث مكث هنالك وقتا قصيرا ثم توجه مجددا سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م نحو بلاد الشام . وعند وصوله الى غزة وصل اليه رسل الفرنج يحملون الهدايا مع بعض أسرى المسلمين ويطلبون تأكيد اتفاقات الهدنة . وتوجه بيبرس نحو صفد وهو على نية اعادة بنائها ،لكنه ما ان وصلها حتى أتته الاخبار بتوجه حملة مغولية نحو

الشام ،فترك صفد وذهب الى دمشق،وفي دمشق عرف بعودة المغول فعاد هو أدراجه نحو صفد ،وعلى الفور أمر باعادة حفر خندق القلعة فقسمه " على الامراء ،وأخذ نصيبا وافرا لنفسه ومماليكه وحاشيته،وشرع الناس في العمل ،وعمل السلطان بنفسه وبيده وكذلك جميع بيوتاته من بابية وغيرهم ،ولم يتوفر أحد من العمل ،ولازموا نقل الحجارة ورمي التراب ،وتسابق الناس في النجاز " .

لقد تميز بيبرس بقدرات على المناورة السياسية ساوت قدراته العسكرية ونشاطه في الميادين ،فقد وصل اليه وهو على صفد رسل الفرنج ((وشاهدوا من أمرها واهتمام السلطان بها ماقطع أكبادهم حسرات ،وتحدثوا مع السلطان في أمر بلادهم)) وبعد ماوجه بيبرس النقد الى سفراء الفرنجة طالبهم بشروط ومطالب قاسية ،وأبدي عدم اهتمامه بهم ،وأرسل أثناء المفاوضات ،وحدات من جيشه أغارت عدة مرات على عكا ،وتوجه هو نفسه نحو عكا ،وخيم بتل الفضول على مقربة منها وبات ليلته هناك ثم أعمل الغارة ضدها في اليوم التالي فقتل وأسر ودمر،ثم عاد نحو صفد واستدعى اليه رسل الفرنج فعرض عليهم ما حمله أثناء غارته للضغط عليهم ويبدو أن ذلك لم يؤثر عليهم لذلك أمر بردهم بدون جواب .

وقام بيبرس أثر هذا بالاغارة على عكا ،فحاصرها عدة أيام لكنه عندما شعر بتعذر الاستيلاء عليها انسحب نحو صفد فأشرف على اكمال

ترميمها ((فعمر الباشورة وبنى فيها أبرجة وأسواقاوخانات،وحمامات فصارت بما أحدثه فيها من أحصن القلاع وأمنعها،وأطيب البقاع وأخصبها وكتب بيبرس على قلعة صفد بعدما جددها :

((ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون)) (الانبياء ١٠٥) (أولئك حزب الله الا أن حزب الله هم المفلحون) (المجادلة ٢٢) أمر بتجديد هذه القلعة وتحصينها وتكملة عمارتها وتحسينها من خلصها من أسر الفرنج الملاعين وردها الى يد المسلمين ونقلها من حوزة الديوية الى حوزة المؤمنين ،وأعادوا الى الايمان كما بدأ بها أول مرة ،وجعلها للكفار خسارة وحسرة ،واجتهد وجاهد حتى بدل الكفر بالايمان والناقوس بولاذان والانجيل بالقرآن ،ووقف بنفسه حتى حمل تراب خنادقها وحجارتها منه بنفسه وبخواصه على الروؤس . السلطان الملك الظاهر أبو الفتح بيبرس،فمن صارت اليه هذه القلعة من ملوك الاسلام ،ومن سكنها من المجاهدين ،فليجعل له نصيبا من أجره ولايخله من الترحم في سره وجهره ،فقد صار يقال عمر الله صرحها ،بعد ماكان يقال عجل الله فتحها ،والعاقبة للمتقين الى يوم الدين .

وعندما كان السلطان الظاهر بيبرس مقيما في صفد يعمل على اعادة بنائها وصله رسول من عند صاحب يافا يطلب تجديد الهدنة فرفض . وفي جمادى الاخرة لعام ٦٦٦هـ/شباط/فبراير ١٢٦٨م وصلت

بيبرس الاخبار بعزم المغول الاغارة على حلب ، فاستنفر قواته وقادها نحو غـزة ،وفي الوقت نفسه أمر باستنفار قوات دمشق وسواها وانتظار أوامر جديدة ،وتحرك جيش السلطان نحو دمشق ،وعندماوصل الى العوجـــا رفعت تقارير الى السلطان بأن أهل يافا ((يحملون الميرةالى عكـــا)) وكانت الميرة ممنوعة عن أهل عكا ،وأقاموا في يافا حانة،وأوقفوا فيهاعدةمن المسلمات ،واعتمدوا أسبابا ليست في هدنة ،وقرر بيبرس مهاجمة يافاوتحريرها ،وقبلأن يحرك قواته بعث اليها وفدا يطلب تسليمها اليه ،ثم مالبث.أن قاد قواته وهاجمها على حين غرة ،فتمكن منها ثم زحف ضد قلعتها ((فسلمهاأهلها)) في يوم ٢٠ جمادى الاخـــرة ٧ /آذار/مارس ١٢٦٨م ،وقام بيبرس باجلاء سكانها ،ثم أمربهدمهـــا واكتفى باقامةبعض المحارس ونقاط الانذار على الساحل .

كان تحرير يافا آخر انجازات بيبرس وفتوحاته الكبرى في فلسطين لكنه لميكن بطبيعة الحال آخرأعماله ضد الصليبيين في بلاد الشام، ولا حتى آخر نشاطاته في فلسطين نفسها ،وقام بيبرس بعدتحريره ليافا بانتزاع حصن الشقيف من فرسان الداوية ، كما حرراجزاء هامة مـــن سواحل الشام ،وأمكنه تحرير مدينة انطاكية ،وبذلكأزال من الوجـود ثاني دول الصليبيين تأسيسا في الشرق كماحرر قلعةحصن الاكراد فـــي منطقة حمــــص .

ففي سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٨م نفسها ضغط بيبرس بشدة على حصن الاكراد كماتهدد طرابلس وشدد الخناق عليها وبعدماموه على الفرنجةفي هـذه المنطقة قسم قواته الى ثلاثة أقسام ،وجه فرقة منهانحو ميناء السويدية وفرقة ثانية نحوالدربسال ،ثم قاد بنفسه الفرقة الثالثةضد انطاكية . باتت انطاكيةمحاصرة ومنطقتها معزولة عن دولة أرمينيـةفي كليكية وعن البحر ،وخرجت قوات من أنطاكية اشتبكت بطلائع قوات بيبـــرس فهزمت ،وفي مطلع رمضان ٦٦٦ هـ/أيار١٢٦٨مشن بيبرس الهجوم علـــى انطاكية ، وتمكن جنده من تسلق الاسوار من الجهة الجنوبية ،ثـــم اقتحموها من جهات أخرى ،وقاتلوا المدافعين عنها ،ولجاالمدافعـون

عن المدينة الى القلعة وكان عددهم نحو ثمانية آلاف ،ولما لم يكن في القلعة مايكفي هؤلاء من مؤن طلبوا الامان فأمنهم بيبرس ،وبقي بيبرس في انطاكية يومين ثم أحرق قلعتها ،وقد أصاب الحريق أجزاء من المدينة .

واثر هذا استسلمت حصون دولة انطاكية كما طلب هيتوم صاحب كلكيلية الامان والمهادنة .

وتابع بيبرس نشاطاته في السنة ٦٦٩هـ/١٢٧٠م في بلاد الشام فهاجم طرابلس ، وانتزع صافيتا والمجدل من الداوية ، ثم زحف عسكره الى حصن الاكراد ،ونصبوا المجانيق وأقاموا الستائر ونقبوا أسواره الثلاثة ، ودخل العسكر حصن الاكراد بالسيف ،وأطلق الظاهر بيبرس من كان فيه من الافرنج ، فتوجهوا الى طرابلس .

وبفتح حصن الاكراد تفتحت المنافذ الى طرابلس نفسها ، وقام بيبرس بترميم بناء الحصن ،واتخذه قاعدة لعملياته الحربية ضد طرابلس .

ثم رحل الظاهر بيبرس عنه بعد أن عهد الى الامير عزالدين آيبك الافرم بعمارته ، وخاف صاحب أنطرطوس أن تلقى مدينته المصير نفسه فبعث الى بيبرس يطلب المهادنة ،وأرسل اليه مفاتيح أنطرطوس فصالحه على نصف مايتحصل من غلال بلده ،وجعل بانطرطوس نائبا عنه فيها ،ثم صالح بيبرس صاحب المرقب على المناصفة وهادنه .و في الحقيقة باتت قوات السلطان بيبرس تطبق على المرقب من الشمال والجنوب خاصة بعد أن افتتح المسلمون مرقية التي تقع جنوب المرقب ، وأثر هذا حاصر بيبرس حصن ابن عكار ، آخر حصون طرابلس الامامية ، في الشمال منها ونصب عليه المجانيق ،وأطلقها ،فهدم جزءا من السور ،فطلب أهل الحصن الامان على أنفسهم وأن يأذن لهم بيبرس بالتوجه الى طرابلس فأجابهم ،وبسقوط حصن ابن عكار انقطع الاتصال في الساحل الافرنجي بين طرابلس واللاذقية ،وأصبح بامكان بيبرس بعد ذلك أن يحاصر طرابلس نفسها ويحقق حلمه بالاستيلاء عليها ،ولكن الانباء القائلة

بتحرك حملة صليبية جديدة أنقذت طرابلس من المصير الذي لاقتـــه انطاكيـــة .

وكان القديس لويس قد أقلع في سنة ٦٦٩ هـ/١٢٧١م بحملة صليبيـــة جديدة قادها ضد تونس ،وأخفقت هذه الحملة ولاقى الملك الفرنسي مصرعه والذي يهمنا ذكره هنا أن بعض الفرنجة وصلوا بسبب هذه الحملة الـــى عكا ، وهوماجعل قواتها تغيرمواقفها وتجدد نشاطاتها العداونيـــة ضد المسلمين ولاسيما ضد صفد ، وكان الظاهر بيبرس مشغولا في المناطق الوسطى والشمالية من الشام ، وعندمافرغ من أعماله هناك توجه نحـــو فلسطين وقصد هذه المرة قلعة القرين(Montfort) التي كانت تقـــع في تلال الجليل الغربية الى الشمال الشرقي من عكا وعلى مسافة ثلاثين كم عنها ((وكان حصن القرين هذا الاسبتار الالمان ولم يكن له بالساحـــل غيره ،وكان من أمنع الحصون وأضرها بصفد ،وكان السلطان نوبة فتوح صفد أغار عليه ،بل غار عليه أن يكون مثله للكفر ،فسار الى صفـــد وجهز منها المنجنيقات ،وساقها الى القرين ونازله)) وشدد عليه الحصـــار وبعد قتال دام عشرة أيام حرص المدافعون الاستسلام فتم الاتفاق معهـم وتسلم بيبرس الحصن وأمر بتدميره .

وبعد سقوط القرين عقد بيبرس مفاوضات مع جون دي مونفـــرت John de Montfort صاحب صور انتهت الى عقد هدنة فرض بيبـــرس شروطها واضطر الى قبولها للتفرغ لعكا وللفرنجة حين وصلوا اليهـــا في أواخر عام ٦٦٩هـ/١٢٧١م ،فقد أغار هؤلاء على بعض أراضـــي صفـــد ونهبوها ، ذلك أن بيبرس كان قد قصد القاهرة بعد تحريره القرين .

وازداد في عام ٦٧٠ هـ/١٢٧٢م نشاط فرنجة عكا ضد مملتكـــات صفـــد كما عظم نشاط المغول في المناطق الشمالية من بلاد الشام وتـــم التنسيق بين الطرفين . وتحرك بيبرس باتجاه حلب ، واستطاعت قـــوات قاقون رد الفرنجة ودفعتهم عنها ،وبعدماعاد بيبرس الى دمشق ،خرج منها :

((واستصحب العساكر المصرية والشامية بغية الغارة على عكا فتوالت أمطار كثيرة ... وكاد الناس يهلكون لعدم مايستظلون به فأثنى عزمه عن الاغارة ، ورد العسكر الشامي ،وسار الى الديار المصرية .

وفي القاهرة استقبل بيبرس رسل فرنجة عكا وتفاوض معهم وتم التوصل الى عقد هدنة مدتها عشرة سنوات وعشرة أشهر تبدأ من ٢١ رمضان ٦٧٠هـ/٢٢آذار/مارس ١٢٧٢م ،وحلف كل طرف متعهدا بالالتزام والوفاء .

ويبدو أن بيبرس قبل بعقد هذه الهدنة لادراكه أن عكا لايمكن الاستيلاء عليها والدولة مهددة من المغول والمواصلات مفتوحة بدون توقف بين عكا وقبرص وأوربا ،وهولايملك قوة بحرية يمكنها مساعدة القوات البرية في حصار عكا ويبدو أن فرنجة عكا رضوا بعقد الهدنة لشراء سلامتهم سيما وقد برهن تحالفهم مع المغول على عدم جدواه .

بهذا الاتفاق ختم الظاهر بيبرس نشاطه العسكري ضد الفرنجة في فلسطين . ولاشك أن ما أنجزه كان عظيما ، وليس من المغالات القول أن بيبرس استأنف مسيرة صلاح الدين ،وان أعماله كانت متممة لما شرع به صلاح الدين بعد حطين وتوقف بسبب الحملة الصليبية الثالثة ووفاته المبكرة . ويأتي الظاهر بيبرس بماحققه من نجاحات عظمى في المرتبة نفسها التي احتلها : عمادالدين زنكي . ونورالدين محمود، وصلاح

الدين الايوبي ،ذلك أن زنكي قاد أعمال التحرير الاولى في مرحلة الموصل ،ونورالدين محمود قاد أعمال التحرير والوحدة في مرحلة حلب وصلاح الدين قاد مرحلة دمشق وحقق النصر في حطين ،وبيبرس الان قاد مرحلة القاهرة واعمال تصفية الوجود الصليبي في فلسطين والشام .

وتوفي بيبرس سنة ٦٧٦هـ /١٢٧٧م وهو في ذروة نشاطه ، ولعله سقي السم .وقد دفن في دمشق ليس بعيدا عن قبرصلاح الدين . ذلك أن أبطال المراحل الاربع قد دفنوا فيأرض الشام . وحظي بيبرس بمكانة لدى أهل الشام ومصرلم يحظ بها سواه من سلاطين المماليك ،الى حد أن أخباره تحولت الى ملاحم شعبية امتزجت فيهاحقائق التاريخ بالخيال

القصصي الملحمي • فهنالك أكثرمن ملحمة متداولة تحت اسـم السـيرة الظاهرية أو سيرة الملك الظاهر• وتصورهذه الملاحم مشاعر شعب تعلـق دوما بالارض في عصر شهد أعظم الاعمال في سبيل التحرير• ولاعجب في ذلك • صحيح أن بيبرس قاد رسميا قوات المماليك المحترفة لكن حجم المتطوعة في حملاته لم يكن أقل عددا ولادورا من المماليك مع الاخذ بعين الاعتبار أن الشعب العربي في الشام ومصر هو الذي تحمـل أوزار الحرب ونفقاتها وصنع السلاح والعتاد وبني القلاع وقدم الاداريين وسواهم •

وكان بيبرس قد خطط قبل وفاته الى انتقال الملك من بعده الى ابنه الملك السعيد بركة ،وهذا ماحدث ،فما أن وصلت الاخبار الى القاهرة حتى جرت بيعه بركة بالسلطنة ،وكان شابافي مقتبل العمر تنقصة الخبرة والتجربة ،لهذا واجه المشاكل وعاش وسط الصراعات ووجد نفسه بعدبضعة أشهر من تسلمه السلطنة مضطرا الى التنازل عنها لصالح أخيه سلامش وكان طفلا ابن سبع سنوات فقط •

ورست مقاليد السلطة الان فعليا بيدي الامير قلاوون الالفي واستغل قلاوون فرصته أحسن استغلال ، فزج بمعارضيه في السجن وتخلص من مناوئيه ،ثم عزل السلطان الطفل وتسلم السلطنة بلقب المنصور•

وهكذا زالت أسرة الظاهر بيبرس ، وحل محلها أسرة قلاوون التي حكمت دولة المماليك لمدة تقارب القرن من الزمن • ووجد قلاون بعض المصاعب وواجه أعمال المعارضه فتغلب عليها ،ولكن بعدما استغرقت معظم أوقاته ،وكان لذلك الوضع أثاره على العلاقات مع الصليبيين في عكا وبقية أجزاء بلاد الشام •

وتوجه السلطان قلاوون سنة (٧٦٩ هـ/١٢٨٠م نحو بلاد الشام وركب الطريق الساحلية ، وعسكر أثناء سفره في الروحاء على السواحل على مقربة من عكا ، وهناك وصلت اليه رسل الاسبتارية ((يسألون تقرير الهدنة والزيادة على الهدنة الظاهرية)) وأجابهم قلاوون الى مطلبهم وعقدت هدنة مجددة بين قلاوون وابنه وولي عهده علي من جهة وبين

نقولاس لورجن Nicholas Lorgne مقدم بيت الاسبتار وجميـــع الاخوة الاسبتارية بعكا ((لمدة عشرسنين كوامل متتابعات وعشرة أشهـــر وعشرة أيام وعشرساعات ، أول ذلك يوم السبت ثاني عشرالمحرم)) سنــــة ٦٨٠هـ /٣آيار/مايو١٢٨١م

وبعد مضي قرابة الشهرين من توقيع الهدنة ،تم التوصل الى هدنــة ثانية بين قلاوون من جهة وبوهموند صاحب طرابلس من جهة مقابلة لمدة عشرسنوات أيضا مع عشرة أشهر وعشرة ايام وعشر ساعات اعتبارا من يوم ٢٧ ربيع الاول ٦٨٠هـ/٥ تموز/يوليو/١٢٨١م .

ويلاحظ أن الهدنة التي عقدت مع اسبتارية عكا ،شملت أفراد هـذه المنظمة فقط ولم تشمل بقية قوى الصليبيين وموءسساتهم في عكـــــا وبناءعليه جرت مفاوضات بين السلطة المملوكية وبين الداوية انتهـــت بعقد اتفاقية هدنة مماثلة بين((السلطان الملك المنصور وولده الملـك الصالح علاءالدنيا والدين علي وبين المقدم أفريركويوم ديباجوك Frere Guillaume de Badjouk مقدم بيت الداوية بعكا والساحـــــل وبين جميع الاخوة الداوية .. لمدة عشرة سنين كوامل متواليـــــات ومتتابعات وعشرة شهور ،أول ذلك يوم الاربعاء خامس المحرم سنـــــة احدى وثمانين وستمائه للهجرة النبوية المحمدية)) ١٥نيسان / ابريــل ١٢٨٢م

لقدكانت قوى أوروبا ممثلة في عكا ،وبعدماعقدالداوية والاسبتارية الهدنة مع السلطنة بات من الضروري عقد هدنة جماعية باسم عكا بمافـــي ذلك المنظمات التي كانت فيها . وبالفعل توجه وفد الى القاهرة مثــــل قوى عكا الصليبية ومنها الداوية والاسبتارية ، وبعدمفاوضات تم التوصـل الى عقد هدنة بين ((السلطان الملك المنصور وولده السلطان الملك الصـــالح علاء الدنيا والدين علي... وبين الحكام بمملكة عكا وصيدا وعتليـــت وبلادها)) وأبرم الاتفاق في ٥ ربيع الاول ٦٨٢هـ /٣حزيران/يونيو١٢٨٣ /م وكانت أهم بنوده :

١- مدة الهدنة عشرسنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام ؛
٢- منع التجارمن رعايا السلطان الامن وحرية العمل التجاري في عكا والبلاد الساحلية .
٣- توقف الفرنجة عن الاعتداء على أراضي دولة السلطان .
٤- لايجدد الفرنجة في عكا وعتليت وصيدا حصناولاسورا .
٥- تبادل الرعايا الفارين ضمن شروط محددة .
٦- حرية الملاحة وتقديم العون للسفن الجانحة والمحافظة على محتويات السفن لتسليمها الى أصحابها أومن يلوذ بهم .
٧- يتولى فرنجة عكا انذار السلطان واعلامه بأي تحرك أوروبي مضاد له وكذلك بالنسبة لتحركات المغول .
٨- يضمن السلطان حماية عكا وعتليت من اعمال القرصنة -
٩- السماح للحجاج الاوروبيين بالوصول الى الاماكن المقدسة وضمان أمنهم وسلامتهم وحرية تعبدهم .

ويبدو أن أوضاع السلطنة الداخلية وتعاظم الخطر المغولي واشتداده هي التي أجبرت السلطان قلاوون على توقيع هذه المعاهدة وغيرها، فقد أغار المغول على الشام ووصلت قواتهم قرب حمص سنة ٦٨٠ هـ/١٢٨١م، كما أن قلاوون قدواجه في تلك الآونة حركة تمردخطيره ضده في دمشق قادها سنقر الاشقر واستمرت أعمال التآمر ضده دونماتوقف ، واستمرت حالة الهدنة حتى سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٨م ، وفي نهاية هذا العام نقض فرنجة طرابلس الهدنة حيث أقدموا على نهب مجموعة من التجار المسلمين، وأسروا عددا منهم ، وحين وقع هذا كانت أوضاع السلطنة مستقرة وجيوشها جاهزة، لذلك ما أن بلغ السلطان خبر ماحدث حتى زحف نحو طرابلس على رأس قوات الشام ومصر، ونزل عليها وحاصرها حصارا شديدا حتى أخذها عنوة في ٤ ربيع الاخر ٦٨٨هـ/٢٤/نيسان/ ابريل ١٢٨٩م .

وبتحرير طرابلس زالت من الوجود المملكة الرابعة التي أسسها الصليبيون في المشرق ، وأكمل السلطان قلاوون بذلك ماقام به زميله ورفيقه في السلاح من قبل السلطان الظاهر بيبرس ولم يبق الان للصليبيين

سوى عكا . وكان لابد من انتظار الفرصة المناسبة للزحف عليها وتحريرها

لقد غدت عكا تحت رحمة السلطان قلاوون ، كما أنه كان لسقوط طرابلس أصداء واسعة في أوروبا ،وسعت البابوية الى اثارة حملة صليبية جديدة ،لكن جهودها لم تثمر الا قليلا .

وكانت عكا قد استولى عليها سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦م هنري الثاني ملك قبرص ، وتوج بها ملكا ، وتجددت الاتصالات المغولية الصليبية ،وبذلت الجهود للقيام بعمل صليبي مغولي مشترك ، وأثمرت هذه الجهود كلها باستجابة بعض ((رعاع الفلاحين والمتعطلين من سكان المدن الصغيرة)) في شمالي ايطاليا ،وقدم هؤلاء الى عكا تحت قيادة اسقف طرابلس سابقا .

وكان الملك هنري الثاني جدد الهدنة مع السلطان قلاوون وبعث هذا كله بعض الامل في عكا ،لكنه لم يتعد الشكل السرابي ،وكان سقوط طرابلس وقدوم النجدات من أوروبا واستمرار النجدات من قبرص قد زاد من حجم سكان مدينة عكا ،وبالتالي رفع من قدرتها العسكرية .

((واجتمع داخل أسوار عكا طوائف تمثل مختلف الامم المسيحية وعاشت كل طائفة منعزلة عن الاخرى في حي خاص بها ،وأخذ كل واحد من قادة المناطق في الشام ومقدمي الاخوانيات العسكرية الكبرى وممثلي ملوك فرنسا وانكلترا والقدس ،يمارس سلطات مستقلة ،وعلى هذا كان في عكا سبع عشرة سلطة مستقلة ، الامر الذي نجم عنه فوضى كبيرة)) .

ولذلك لاغرابة أن المدينة غدت بؤرة فساد وشرور وانحطاط خلقي واضطراب مستمر ،ورخاء مادي كبير وأرباح تجارية خيالية ،فمقر الداوية لم يعد ديرا للفرسان ولتقديم الخدمات بل مستودعا للاموال والذخائر وبنكا للاقراض بنسب فائدة عالية جدا .

وقام القادمون الجدد من الايطاليين باثارة المزيد من الفوضى والاخلال بالامن وأخذوا يسلبون وينهبون التجار والباعة من المسلمين، وكان هنالك صراع مرير بين البيوتات التجارية التابعة لجنوا والبندقية وسواهما .

وفي صيــف سنة ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠م انفجرت أعمال العنف في عكــا، ووجهت هذه الاعمال ضد المسلمين داخل المدينة وخارجها وقــد ذبــح الصليبيون كل مسلم صادفوه ونهبوا ماكان معه من مال وبضائع .

ووصلت أخبار المذبحة هذه الى السلطان قلاوون فاشتعل غضبــا واعتبر أن فرنجة عكا قد خرقوا اتفاق الهدنة . وانه يملك جميــع المسوغات لاعتبار الهدنة ملغاة . وسارع قلاوون فأرسل تجريدة من قواته نحو منطقة عكا لاستطلاع خبر ماحدث . ولتثبيت الوجود المملوكي فــي المنطقة ،وفي الوقت نفسه أصدر أوامره بحشد جميع القوات في الشــام ومصر، وجرى فرض الضرائب على قرى غوطة دمشق وبعلبك في سبيل تحصيل الكميات اللازمة من الاخشاب لصنع المجانيق والابراج المتحركة وغيرهــا من أدوات الحصار .

وتناوشت تجريدة قلاوون مع قوات عكا ،وسارعت سلطات عكا الى مراسلة السلطان وتقديم الاعتذار له . ثم أعقب ذلك وصول رسله الى عكا حيث طالبوا باصرار على تسليم الذين تولوا أعمال القتل والمذابح..... وبعد طول مناقشات لم يستجب لمطلب السلطان فحسب ،بل حاول المسؤولون في عكا اقناع رسله بأن بعض تجار المسلمين هم الذين فجروا الفتنة .

وملك قلاوون الان جميع المسوغات للا حتكام الى السلاح ،وهكذا زحف على رأس قواته بريد عكا وصدرت الاوامر الى قوات الشام للاجتماع مع قوات السلطان قرب قيسارية .

وكان قلاوون قبل مغادرته القاهرة مريضا ، لكن مرضه لم يثنه عن مقصده غير أنه ما ان غادر القاهرة حتى اشتد به المرض فتوفي.وكان ذلك يوم٦ ذي القعدة ٦٨٩هـ/ ١٠ تشرين الثاني /نوفمبر١٢٩٠م .

وتنفس أهل عكا الصعداء وخيل اليهم أنهم نجوا ،وكتبت سلامتهم لكن لبعض الوقت . فعلي بن قلاوون ، وولي عهده ،كان قدتوفي من قبل وعزم قلاوون على تسمية ابنة خليل ولياالعهده لكنه تراجع . وتوهم الصليبيون أن صراعا سينشب على السلطة كماجرت العادة وبالفعل جرى شيء من هذا القبيل ،لكن خليل بن قلاوون برهن على قدرات واسعة وطاقات كبيرة ،واستطاع الاشرف خليل السيطرة على الاوضاع وتثبيت قدميه بالسلطة . والتفت على الفور نحو عكاعازما على متابعةماشرع به والده قبله .

وأرسلت سلطات عكارسلا الى الاشرف خليل لتهنئته بارتقائه عرش السلطنة ،وللاعتذارله عماحدث في عكا مع طلب تجديد الهدنة . لكن الاشرف لم يستمع لماجاء به الرسل والقى بهم في السجن فكان آخر العهد بهم ،وعبربذلك عن تصميمه على قصد عكا بجيوشه .

لقدحشد الاشرف قوات عملاقة ،وأعد الاسلحة والمعدات ولاسيماالمجانيق وابراج الحصار ،وتحركت القوات نحو عكا في ربيع الاول ٦٩٠هـ/ آذار/مارس ١٢٩١م ،وكان المؤرخ المشهورأبو الفداء بين أفراد القوات التي تحركت من حماه نحو عكا ،ويحدثنا عن زحف القوات وعما عانته اثناءذلك بقوله :

((وتسلمنا منه (حصن الاكراد) منجنيقا عظيما يسمى المنصوري حمل مئة عجلة ،ففرقت في العسكر الحموي ،وكان المسلم منه الى عجلة واحدة لاني كنت اذ ذاك أمير عشيرة ، وكان مسيرنا بالعجل في أواخر فصل الشتاء ،فاتفق وقوع الامطار والثلوج علينا بين حصن الاكراد ودمشق فقاسينا من ذلك بسبب جر العجل وضعف البقر وموتها بسبب البرد شدة عظيمة ، وسرنا بسبب العجل من حصن الاكراد الى عكا شهرا وذلك مسير نحو ثمانية أيام للخيل على العادة ،وكذلك أمر السلطان الملك الاشرف بجر المجانيق الكبار والصغار مالم يجتمع على غيرها .

وكان تعداد القوات التي تجمعت أمام عكا كبيرا ((معها اثنان وتسعون منجنيقا)) من مختلف الانواع والاحجام وبعدما اكتمل تجمع القوات وتجهيز المعدات صدر صباح الجمعة ١٧ جمادى الاولى ٦٩٠ هـ / ١٨ أيار/مايو ١٢٩١م الامر بالهجوم بوساطة قرع كمية هائلة من الطبول

وأدوات موسيقى الحرب رتبت على ظهور ثلاثمائة جمل .

وفي داخل عكا كان الصليبيون قد أعدوا العدة للدفاع ولنتذكر هنا أن المدينة حوصرت من جانب البر فقط وبقيت غير مهددة من الجانبين البحريين وكانت النجدات والموءن والمعدات تصلها بلا انقطاع من قبرص وسواها ، ولهذا ((لم يغلق الفرنج أبوابها (عكا) بل كانت مفتحة وهم يقاتلون فيها)) .

واشتد الحصار ونشط المسلمون في قصف أسوار المدينة وفي فتح الثغرات فيها ونقب الابراج . وقاوم الفرنجة ، وقام فرسانهم بأكثر من هجوم ليلي على معسكر المسلمين . ويحدثنا أبو الفداء عن المقاومة بقوله :

((فكنا على جانب البحر، والبحرعن يميننا اذا واجهنا عكا،وكان بحضرالينا مراكب مقببة بالخشب الملبس جلود الجواميس ،وكانوا يرموننا بالنشاب والجروخ ،وكان القتال من قدامنا من جهة المدينة ومن جهة يميننا من البحر ،وأحضروا بطسة (مركبا) فيها منجنيق يرمي علينا وعلى خيمنا من جهة البحر .فكنا منه في شدة)) .

ونجح المسلمون بعد حصار استمر قرابة الشهر ونصف الشهر في خرق الاسوار ودكها وشقوا طريقهم الى داخل المدينة :

((ولما هجمها المسلمون هرب جماعة من أهلها في المراكب ،وكان في داخل البلد عدة ابراجة عاصية بمنزلة قلاع دخلها عالم عظيم من الفرنج وتحصنوا بها)) .

ودار قتال عنيف داخل طرقات عكا ،وتسابق الفرنجة نحو ميناء المدينة ،وتزاحموا على الارصفة ،ويبدو أن عدد المراكب لم يكن كافيا وقاتل فرسان الداوية دفاعا عن حصنهم في المدينة ،وقبل أن يسقط حصنهم :

((تمكن أحد عشر واحد منهم من الهرب من باب سري ،وصعدوا الى ظهر مركب كان بانتظارهم وحملوا معهم جميع الثروات التي جمعوها في الشرق خلال قرنين من الزمن)) .

وبعدما صفت عكا للمسلمين أمر السلطان الاشرف الخليل بتدميرها حسب القاعدة التي كان السلطان الظاهر بيبرس قد طبقها ،وما أن وصلت أخبار تحرير عكا الى المناطق الساحلية التي كانت ماتزال بأيدي الفرنجة مثل عتليت وصدا وصور وبيروت ((حتى ألقى الله الرعب)) في قلوب أهلها فأخلوها وهربوا .

بذلك طويت ملحمة الحروب الصليبية ،وهي بلاشك من أعظم ملاحم التاريخ وأطولها . استمرت وقائعها مدة تقارب القرنين من الزمن واشتركت فيها أوروبا كلها بشعوبها وطاقاتها . ولوقائع هذه الحروب دروس وعبر ونتائج خطيرة على المشرق العربي وأوروبا سواء من الجوانب السياسية والاقتصادية والحضارية والعسكرية كافة .

* خاتمة *

في دمشق وحلب والموصل والقاهرة طور العرب زمن الحروب الصليبية فنونهم الحربية وصناعة الاسلحة ،واخترعوا الكثيرمن الاسلحة الجديدة وتحفل المكتبة العربية بالكثيرمن المؤلفات عن السلاح وفن الحرب كلها تعود الى هذه الفترة .

وبعدماطرد الصليبيون من المشرق ،وزال خطرالمغول بدأت قوة العرب وحضارتهم بالتدهور السريع والجمود ،بينمابعثت في أوروبة التي خسرت الحروب الصليبية حضارة سببت لها القوة وقادتها من جديد نحو ديار العروبة والاسلام .

ويتساءل الباحث عن أسباب انحطاط العرب مع أنهم حازوا النصر وبعث أوربة مع أنها كانت المهزومة ؟ ولعل من أسباب أن أوروبة الاقطاعية الشديدة التمسك بالكاثوليكية حين خسرت الحرب كانت تلك الخسارة ضربة مميتة للنظام الاقطاعي والكنيسة معا في أوروبة ، وفي المقابل نجد أن الحروب الصليبية التي طال أمدها قد مكنت في البداية القادة العسكريين في الشرق المسلم من تسلم زمام الامور وساعدت على التعصب الديني ،وخلقت الى جانب الاقطاع العسكري اقطاعا دينيا كان جديدا كل الجدة في تاريخ الاسلام ،ومع الايامزادت صلاحيات الجند على حساب المؤسسات المدنية ، وترسخت قواعد أنظمة للكهنوت الاقطاعي في الاسلام ، وعندما توقفت الحرب أصبح الجند عالة على الامة ،ثم أن الشعور بالنصر والسلموالامان بعدعهود طويلة من الحروب والدمار ،مع زوال عوامل التحدي دفع العرب نحو الاخلاد الى الراحة والسكينة ،والى قبول نوع جديد من التمزق السياسي ،وحيث انالامة قد وجهت أيام الحروب معظم طاقاتها ،ورصدت كافة امكاناتها المادية والعقلية للمعركة ،فقد عطل هذامع الايام الكثير من جوانب الحياة الثقافية ،والحضارية وولد مع الاقطاع الديني والعسكري التعصب والتزمت والاحتكار .

ان اهمال الحضارة والثقافةوالتعصب الاعمى كان ومازال آفـــــة العرب الكبرى ، ومعلوم أن العرب لم يتمكنوا قط من صنع حضارةوثقافة وهم ممزقون ، لكنهم كانواكلما اتحدوا وتسامحوا بعقل ومنطـــق صنعوا كل شيء ، ففي الوحدة الهادفة الواعية كمن ـ ولايزال يكمـــن سر نهوض العرب وقوة المسلمين .

! ! ! ! ! !

صراع على ضفتي البحر

الدكتور محمد حرب فرزات
جامعة دمشق

عندما دعيت الى التحدث عن نهاية الحروب الصليبية وخروج آخر الفرنجة من عكا قبل سبعمائة عام)) أحجمت أول الامر، قبل أن تدور في الذهن خواطر ودوافع تجعل الحديث عن عكا ونهاية الصراع في مرحلة ما من العصور الوسطى على شواطئ المتوسط الشرقية ،حديثا يتصل بالتاريخ كله في قديمه ووسيطه وحديثه على ضفاف البحر الذي يتوسط العالم القديم الذي قامت حضارتنا عليه وعشنا على شطآنه . فانطلاقا من هذه الخواطر وما تثيره من تأمل للصراع على ضفتي البحر يدور هذا الحديث .

ان الحديث أمامكم ، أيها السيدات والسادة في هذه الامسية يراد له أن يكون استعراضا للذاكرة التاريخية في محاولات متداعية ومتصلة للتذكر والتذكير وللتفكير ،في طواف واسع دون حدود للزمان وللمكان في هذا العصر العالمي الذي تجري فيه تصفيات مقلقة لحسابات الماضي ويتكرر فيه عدوان قاتل على التاريخ بعد العدوان على الارض والانسان، ولاسيما على بلادنا العربية وقلبها بلاد الشام ومنها أرض فلسطين ،التي تعرضت لعدوان الغرب الفرنجي في العصور الوسطى كما تتعرض لعدوان الحلف الغربي الصهيوني في العصر الراهن .

وانه ليسرني أن أتوجه الى الاخوة الزملاء في الجمعية التاريخية بحمص بالشكر والتقدير لتوجيه الدعوة الى اتحاد الكتاب العرب للمشاركة في هذه الندوة حول الحروب الصليبية ، ويسعدني أن أتكلم باسم اتحاد الكتاب العرب أمام هذا الحفل الكريم في هذا المركز الثقافي المشع ،وفي هذه القاعة التي تحمل اسما عزيزا علينا ، اسم المفكر الاديب الدكتور سامي الدروبي ، من نوابغ حمص ، التي أحمل لها في قلبي أعمق الذكريات الجميلة وأطيبها منذ قدمت اليها في مطلع حياتي للعمل في التعليم في مدارسها الزاهرة .

١ ـ ماذا حدث قبل سبعمائة عام ؟

يتحدث المؤرخون في المصادر العربية ،ومنهم أبوالفداء (في المختصر) ،وكان شاهد عيان للحدث الجلل ، عن ذلك اليوم المشهود في تاريخ العرب ، يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الثانية ٦٩٠ هجري السابع عشرمن حزيران ١٢٩١ م عن اليوم الذي دخلت فيه جحافل المحررين من جيوش الشام ومصر ، مدينة عكا المحاصرة ، ويذكرون كيف أسرع الملك هنري ومعه معظم نبلاء الفرنج وأشرافهم للفرارمن المدينة وصعدوا السفن على عجل لينجوا بأنفسهم وليلوذوا بملجأ الغزاة المندحرين في قبرص ، ويروي المؤرخون ماتبع ذلك من دماركبيروحرائق هائلة .

كانت عكا ضحية عدوان الحلف الاوربي الفرنجي على بلاد المشرق العربي في الحملة الصليبية الاولى ، وبعد أن استولى عليهابودوان الاول في ١١٠٤ حررها صلاح الدين بعد حطين عام١١٨٧ ولكن الصليبيين استطاعوا استردادها عام١١٩١ ، وبقيت قرنا تحت حكم الفرنجة الى أن تم تحريرها المظفر عام١٢٩١ . وكان فتحا عظيما ونظرا موءزرا ألقى الرعب في قلوب الفرنج الذين كانوا مايزالون يعتصمون بمواقعهم على ساحل الشام وعجلوا بعد ذلك في الجلاء عن الساحل الشامي كله فتحررت على اثر ذلك بيروت وصيدا وصور وسائر المدن الاخرى ، وعادت البلاد الى أصحابها بعدأن عانت أجيال من الناس أشد المعاناة واحتملت أقسى الآلام .

ولقد اجتاز العالم العربي الاسلامي في القرن الثالث عشرمحنا لم يسبق أن تعرض لمثلها من قبل فابتليت الامة ،كما ذكرأبن الاثير الموءرخ بوضوح صارخ ،بمصائب لم يبتل بها أحد من الامم ((الكامل في التاريخ ج ٩)) ، منها: هؤلاء التتار الذين أقبلوا من الشرق ومن خروج الفرنج من الغرب ثم دعا الله قائلا:((نسأل الله نصرا من عنده))

ولقد اجتاح بالفعل هؤلاء التتار بلاد الخلافة الاسلامية الشرقية ودخلوا عاصمتهابغداد كما دمروا حلب ودمشق أما هؤلاء الفرنج فكانوا

على أهبة فتح دمشق بدورهم واحتلال كل بلاد الشام ومصر.
واشتد الخطر الماحق وبلغ ذروته في منتصف القرن الثالث عشرقبل سبعة قرون .

ولكن عجلة التاريخ دارت دورتها ، فاندحر المغول عند عين جالوت قرب بيسان في ١٢٥٩ ، ثم احتوت الحضارة العربية الاسلامية سريعا وفي جيل واحد القوات العسكرية المغولية الغازية بعد استقرارها في مجتمعات عريقة في أرض ايران والهند، وطرد الفرنجة من كل بلاد الشام وتحرر الساحل بأكمله في ثلاثين سنة عام ١٢٩١ م.

وعاد الساحل الشامي ليلتصق بتاريخ الشام وجغرافيتها مرة أخرى وليحتمل معه مصائرها وأقدارها حتى عندماخرج الامرمن أيدي العرب قرونا ، ولكن أسوار عكا وبروجها عرفت بعدئذ جهاد أهلهاوكفاحهم عندما ارتد عنها أمام البطولة الفذة والبسالة الفائقه أعظم قادة أوربه الفاتحين في التاريخ الحديث ، نابوليون بونابرت ، لتتكسر مع انكسار أحلامه رؤى اسكندرية قيصرية ولكي تؤجل الى حين مكائد كانت تحاك على أرض الغرب لاقتناص الشرق الغربي الذي كان قد أنهكه الصراع الرهيب في القرون الخالية فأسلم قياده للباشاوات والرؤساء من المماليك والترك وعندما دخل العرب في طورالنهضة في خطوات متعثرة منذ أواخر القرن التاسع عشركانت أوربة الاستعمارية قد حزمت أمرها واتخذت عدتهاللعودة الى الشرق العربي ولكن بطرق مبتكرة وبأساليب جديدة متجددة .وهكذا سقطت فلسطين مرة أخرى تحت الاحتلال الاوربي البريطاني - الصهيوني عام١٩١٨ الذي أقام في البلاد حكومة فلسطين المعترف بها دوليا بموجب شرعة الانتداب الى أن سلمت عكا للاحتلال الاسرائيلي عام١٩٤٨، أمام أنظار كل سدنة الشرعية الدولية وأدعياء حماية حقوق الشعوب في تقريرمصيرها، وبتجاهل فاضح ،لموقع عكا في خريطة قرار التقسيم الجائر الذي يجعل عكا في الدولة الفلسطينية العربية لافي الدولة اليهودية .

وتصرخ عكا اليوم مستنكرة بحق شهادة التاريخ هويتها المزيفة

المنشورة في أطالس التاريخ والجغرافية وفي مصورات الغاصبين وخرائطهم وتستصرخ ضمير التاريخ المقهور لكي يعيد اليها هويتها الحقيقية العربية الفلسطينية كما استردت هويتها في الماضي بعد اغتصاب دام قرنين .

والتاريخ يجيب :

اسم (عكاء) عربي وفي المعاجم ليلة عكه شديدة الحر مع لثق أي كثرة ندى وبلل ، واحتباس ريح ، فلعل اسمها يعبر عن ظرفها المناخي المتأثر بموقعها على خليجها الجميل .

والتاريخ يقول : ان عكا العتيقة العريقة تختبىء في تل أثري عظيم يعرف باسمه العربي (تل الفخار) الذي يضم في أحشائه آثار مدينة كنعانية فينيقية كانت ذكرت في وثائق ونصوص مصرية تعود الى زمن الدولة الوسطى (نحو ١٨٠٠ ق.م) والى زمن تحوتمس الثالث الذي وجد في القرن الخامس عشر (ق.م) صعوبة كبيرة في اخضاعها.

وأشارت اليها نصوص آشورية وتوارتية ويونانية ورومانية وقد ورد ذكرعكا في نصوص رسائل العمارنة (القرن الرابع عشر/ق.م/) ، ومنها يتضح الدور الدبلوماسي الذي قام به حكام عكا في السياسة الفلسطينية وفي معمعة التنافس الدولي على أرض سورية وفلسطين بين القوى الكبرى : مصر الفراعنة ، وآسية الصغرى الحثية . وكان لعكا علاقات مع مدن الساحل السوري ومع أجاريت أهم مدن الساحل السوري في ذلك الحين والتي عرفت بسياستها الواقعية العملية في ظروف الصراع الدولي ،ولعل تقلب دورعكا هو الذي جر عليها نقمة الفرعون رعمسيس الثاني الذي فتحها في القرن الثالث عشر (ق.م) .

لقد أضعف الصراع الاقليمي دول المشرق القديم وزاد الانقسام بين الدول الصغيرة ولكن المدن الفينيقية على الساحل السوري وممالك المدن الارامية في الداخل بقيت قوية واستطاعت أن تضع حدا لمطامع التوسع المبكرة في ذلك العصر القديم ،واضطر الملك سليمان نفسه في القرن العاشر(ق.م) أن يتخلى عن عكا لمملكة صورالغنية والقوية عروس الساحل الشامي قبل أكثر من ثلاثة آلاف عام .

ويقول تاريخ عكا أن المدينة عرفت كل الادوار التي مرت بها أرض الشام سوريه وفلسطين بمواجهة الامبراطوريات الفاتحة والشاملة آشور وبابل وفارس ومقدونية .

وصارت عكا بعد ذلك موضع تنافس بين الدول التي قامت على أنقاض امبراطورية الاسكندر ،فبعد أن دمرها بطلميوس الاول ملك مصر في أواخر القرن الرابع (ق.م) أعاد بطلميوس الثاني بناءها ورمم ماكان بقي منها وسماها بطلمايس (Ptolmais) .

وبعد أن انتقلت الى الادارة السورية السلوقية في القرنين الثاني والاول (ق.م) ، عرفت شيئا من الاستقلال الذاتي في العصر الروماني بعد الغاء المملكة السورية السلوقية وبعد ضم ماتبقى منهـا الى الامبراطورية الرومانية في القرن الاول(ق.م) فجعلت عكا بعدئذ مستعمرة رومانية .

وتجري في عكا تنقيبات أثرية منذ العام ١٩٧٣ وكشف منها النقاب عن ثلاث عشرة سوية أثرية تتابعت دون انقطاع من البرونز المتوسط BMIIa (أي من القرن الثامن عشر حسب تاريخ ألبرايت) وحتى بداية القرن الثاني .

ومن أهم الكشوف في عكا أجزاء من أسوار العصر الهلنستي(البطلمي السلوقي) ولكن لم يعثر الا على بقايا مساكن خاصة وكثير من الفخار متنوع المصادر مما يؤكد الصلات التجارية الواسعة مع البلاد السورية الفلسطينية المجاورة ومع قبرص ومع بلاد بحر ايجة في العصر الموكيني في عصر البرونز الحديث الثاني (BRII) (أي من القرنين الرابع عشر والثالث عشر، قبل قدوم شعوب البحر) .

وهكذا يتضح لنا أن عكا التي باحت بسرها الدفين ماتزال تحتفظ ببطاقة هويتها الحقيقية على الرغم مما مر عليها من نكبات وما لحق بها من عبث مشين بالقيم المضيعة وبالتراث المنهوب ، فكيف لاتكون اذا مدينة عربية ؟ .

(عكا :   مراجع أثرية

Bibliog

M.Dothan. "Akko"BASOR 224(1916)1-48

M.Dothan. "Les fortifiations de Ptolemais"(1976)

H.Seyrig in Syria 39(1962),193 - 207 .

وفي هذا العصر الحديث والتاريخ العربي القريب عادت عكا في لمعات بارقة قصيرة من عمر هذا الزمان القلب الى الحكم العربي المصري بين ١٨٣٢ ١٨٤٠ شأنها شأن بلاد الشام التي خاضت مع مصر في مغامرة التخلص من الحكم العثماني قبل أن يتمكن الحلف الاوربي الغربي مرة أخرى من شق الصفوف ورسم الحدود بين أقطار المشرق العربي وفرض اعادة السيطرة التركية حتى ١٩١٨ ،وفي صحيفة منسية من صحائف التاريخ المقهور تطلعت عكا الى قلب الشام النابض الى دمشق فاشترك ممثلو عكا المنتخبون في المجلس التأسيسي السوري الاول (الموءتمر السوري) عام ١٩٢٠ كغيرهم من ممثلي مدن فلسطين بوضع حجر الاساس للدولة العربية السورية الفتية قبل أن يئد الحلف الاوربي الغربي(البريطاني ــ الفرنسي ــ الصهيوني) تطلعات جيل الرواد الى مشروع الدولة العربية تمهيدا لتنفيذ المشروع الصهيوني المرسوم في وعد بلفور ١٩١٧ وصكي الانتداب البريطاني ــ الفرنسي ١٩٢٠٪ المشروع البديل في هذا العصر لمشروع قديم ، لمشروع الغزو الاوربي الفرنجي الفاشل والمدجول خلال العصور الوسطى لبلاد الشرق العربي وكل الحوض الشرقي للمتوسط .

فماهي حقيقة هذا المشروع القديم ؟

٢ــ ان الحروب الصليبية : غزو أوربي غربي لبلاد الشرق العربي في العصور الوسطى .

وتعرف هذه الحروب الصليبية بانها حملات عسكرية نظمها الغرب المسيحي بزعامة البوباية وأمراء دول الغرب الاوربي بزعم العمل على تخليص قبر المسيح عليه السلام من المسلمين وللرد على مزاعم التعصب الديني في الشرق ضد غير المسلمين .

الا أن هذه الحروب لم يكن لها من اسمها نصيب ،ولاتعدوا أن تكون عدوانا على القيم الانسانية والروحية.

واستمر الصراع المعلن مدة قرنين (١٠٩٦ -١٢٩١) وهو الذي بدأ باحتلال انطاكية وانتهى بتحرير عكا. فهل كانت تلك الحروب من أجل تلك الاهداف المزعومة؟ - ان قراءة أخرى للتاريخ تبين بجلاء أن للصراع وجها آخر.

يشكل هذا الصراع الذي لم يشهد حوض البحر المتوسط ولا العالم من قبل مثيلا له جزءا من أهم صفحات التاريخ الانساني ،ولكنها من أكثرها قسوة وايلاما ومن أشدها مضاضة واعمقها تجريحا ،كشفت بمرارة عن السقوط المريع للنفوس الخبيثة التي تدرعت بدرع الحق للسير في طريق الضلال،ولبست لبوس الطهر لتقضي مآرب أخرى ،وتاه المركب القادم من الغرب في لجج البحر من اللحظة الاولى وتاهت موجات الحشود البشرية التي حركتها الغرائز البشرية المتهاوية والبعيدة عن كل مقومات الايمان وهي بعد في طريقها وهلكت قبل أن تصل الى هدفها . ولكن فرسان الغرب استطاعوا بعد ذلك الوصول الى ساحل الشام وفلسطين وتمكنوا من وضع أيديهم على الاماكن المقدسة للمسيحية والاسلام ، ومن تأسيس امارات لاتينية امتدت على أرض شمالي الجزيرة وكيليكية والساحل الشامي السوري - الفلسطيني كانت في حقيقة الامر امتدادا لممتلكاتهم في أوربه .

وكان وصول فرسان أوربة الى أرض الشام توسعا لدول غربي أوربة وموءسساتها ونظمها في العصور الوسطى في بلاد شرقي البحر المتوسط،وانتقل مع القادمين النظام الاقطاعي الاوربي السائد آنذاك . وبنيت القلاع والحصون وشيدت التحصينات المعروفة في ذلك العصر لمنع السكان الذين نجوا من المذابح من العودة الى بلادهم. فغدت ساحة الشرق العربي ساحة جديدة من ساحات التاريخ الاوربي الغربي ورفد الغرب الغزاة بالناس والجنود والمال والسلاح .

لقد كان امتداد ساحة الصراع - الغربي - العربي - الى أرض المشرق نتيجة طبيعية لما كان يدور من أحداث في الغرب وعلى الضفاف الشمالية

للمتوسط منذ أواسط القرن الحادي عشر وقبل اندلاع تلك الحروب المسمـــاة بالحروب الصليبية بثلاثة عقود من السنين .

ولعل البدايات يمكن أن تعود الى الحملات المنظمة بتأيد البابـــا حنا الثامن (١٠٦٣) لاخراج العرب من جنوبي ايطالية وصقلية . ثم كانت هزيمة الروم البيزنطيين في موقعة ملاذكرد عام ١٠٧١ أمام الترك السلجوقييـــن عامل تحريض قوي لتحريك العواطف الدينية المتأججة في الغـــرب دون أن تتبلور الدعوات في مشروع حقيقي ملموس . وكان البابا أوربان الثاني هو الذي صاغ هذا المشروع في مجمع كليرمون في فرنسه عام ١٠٩٦ مستهدفا على الارجح ،مدنفوذ رومة من جديد الى القسطنطينية . وخطا البابـــا خطوة كبيرة لتحريض جماهير الغرب وأمرائه على السيروراء مشروعـــه باعلانه أن الرحلة القدسية : Iter Hierosalymitanum تكون بعد الاعتراف بمثابة غفـــران .

استمرت موجة الاندفاع الفرنجي نحو الشرق أكثر من نصف قرن. ولكن منذ بدايات النصف الثاني من القرن الثاني عشر بدأ التراجع الفرنجـــي أمام الصمود العربي المشرقي وبدأت موجة الغزو بالانحسار بعد أن بدأت القوى العربية العسكرية المحاربة بالتجمع والظهور في ساحات الحـــرب فتحررت الرها عام ١١٤٤ على يدي القائد عماد الدين زنكي ولم يكن قد مضى على بدء الغزو أكثر من نصف قرن .

وبات واضحا ،بعد تأسيس جبهة عسكرية موحدة طوقت الامـــارات اللاتينية ، وضمت سورية ومصر ولها ظهير قوي امتد شرقا الى الجزيـــرة والعراق والجزيرة العربية واليمن والسودان والمغرب ،أن تغيير اجغرافيا سياسيا قد أحدث لمواجهة هذا الغزو وللعمل على احتوائه ، فكانـــت دولة الاتابكة الزنكيين ثم دولة الايوبيين ردا عمليا أدى الى اخمـــاد حدة الاندفاع الغربي ، حتى الضربة القاصمة في هزيمة الجيش اللاتينـــي في حطيـــن ١١٨٧ ودخول القدس وعكـــا . مما ألهب مشاعر الغرب مرة أخرى وقاد الى الحملة الصليبية الثالثـــة .

ومن المعروف أن هذه الحملة نظمت للتصدي لاستراتيجية صلاح الدين الايوبي الذي وقف وحده قائدا مفردا لايعاونه الاصاحبا الموصل وسنجار في وجه الحلف الغربي الاوربي الذي ضم ثلاثة من أكبر عواهل أوربه ، فريدريك بربروسة أمبراطور المانية الذي غرق في نهر من أنهار كيليكية مع كثيرمن رجاله وهو في الطريق الى بلاد الشام ،وريتشاد قلب الاسد ملك انكلترا ، وفيليب أوغست ملك فرنسه اللذين عبرا المتوسط بسفن اسطوليهما واحتل ملك انكلترا قبرص قبل التوجه الى عكا ليشترك مع الملك الفرنسي في حصارها واحتلالهامن جديد.

وبقي الملك الانكليزي وحده على الساحل بين صوروعكا بعد انسحاب الفرنسي عائدا الى بلاده لاسباب داخلية . ولم يتجرأ ريتشاد قلب الاسد أن يتحرك على الساحل بين يافا وعسقلان ولم يتقدم نحو القدس خوفا من هزيمة محتملة أمام جيش صلاح الدين ، ولكنه نجح في اعادة السيطرة الفرنجية على عكا وجزء من الساحل الفلسطيني ولكنه لم يتمكن في أن يستوهب من السلطان عسقلان ويافا ، وفي النوادر السلطانية لابن شداد ،جانب من المراسلات التي جرت في المفاوضات الصعبة التي عقدت بين الطرفين وكان أخو صلاح الدين الملك العادل طرفافيها أحيانا ومن هذه الوثائق تتضح عقلية الاقطاعي الغربي الذي كان يستجدي تنازل صلاح الدين عن الارض والبلاد على أن يكون تابعا له :

يقول الملك للسلطان :

((ان قاعدة الفرنج انه اذا أعطى واحد لواحد بلدا صار تبعه وغلامه وأنا أطلب منك هذين البلدين يافا وعسقلان ويكون عساكرهما في خدمتك دائما واذا أحتجت الي وصلت اليك في أسرع وقت وخدمتك كما تعلم خدمتي)) .

فأجاب صلاح الدين بقبول الهدنة على أن تكون يافا لملك الانكليز أما عسقلان وماوراءها فتبقى له لان النزول عن عسقلان لاسبيل اليه (من النوادر السلطانية لابن شداد٢٢٨) ومحمدماهرحماده وثائق الحروب الصليبية) .

وكان صلاح الدين يقاوم في ظرف شديد الخطورة وبالغ الصعوبة ،وقد كشف عن هذا الوضع الحرج الذي ألقى نفسه فيه في رسالة وجهها الى أخيه الملك العادل ،يحدثه فيها عن رأية حول عرض ملك الانكليز بامكان تنازله عن عسقلان مقابل تعويض ،يقول السلطان صلاح الدين لاخيه :

((ان نزلوا عن عسقلان فصالحهم ،فان العسكر قد ضجروا والنفقات قد نفذت)) (تاريخ ابن الفرات ج٤/عن حمادة وثائق الحروب الصليبية ١٢٤)

ومن هذه الوثائق وغيرها ،تتضح الظروف الصعبة التي كان يحارب فيها جيش مصر والشام العدو القادم من البلاد البعيدة من أقصى الغرب الاوربي .

وبعدسقوط عكا ومناطق أخرى من الساحل بيد الفرنج قام صلاح الدين بحملة دبلوماسية واسعة للاتصال بدول العالم الاسلامي يستنجد ويستحث الهمم على الجهاد فكتب الى خليفة بغداد وسلطان الموحدين وصاحب سنجار ـ وصاحب آمد....

ويقول في ((احدى رسائله : هذه عكاء التي كنا عنها ندافع وعن ثغرها نمانع تمكن منها العدو ،وكانت مودودة فأصبحت موؤودة وهي أسيرة الاهمال وأخيذة الاغفال ..))

(الفتح القسي للعماد الاصفهاني ٢٠و وحمادة ٩٠)

وعندتعذرتوسيع جبهة المقاومة وعند تقاعس النجدات المطلوبة عن الوصول في حينها لم يجد السلطان مناصا من عقد الهدنة في ١١٩٢،وعاد ملك انكلترا الشاب الى بلاده مزهوا بماحققه . ولكنه وقع أسيرا وهو في طريقه عبر أوربة بيد أميرالنمسة . أماصلاح الدين فقد مات فجأة وبعد مرض قصير ولم يتجاوزالخامسة والخمسين من العمرعام ١١٩٣ ولكنه في اشد درجات الاعياء كان قد شعربتقدمه في السن حين قال قبل موته بعام واحد أنارجل شيخ كرهت لذات الدنيا وشبعت منها ورفضتها عني.

لقد كانت تحركات زعماء الفرنجة في الشرق استمرارا لسياساتهم

الاقطاعية في الغرب وبعدمصرع الامبراطوربربروسة قام ابنه الامبراطـور هنري السادس ،الذي أصبح سيد مملكة صقلية بتزعم حركةتهدف الى بسـط زعامته على الحوض الشرقي للمتوسط فأعلن حمايته لبيزنطة وللمملكتيـن الجديدتين اللتين اقيمتا في قبرص وارمينيه ، ولكن المشروعالامبراطوري انهارعند موت الامبراطور فجأة في ١١٩٧

أما في الشام ومصر فقد تركت وفاة صلاح الدين فراغا في الجبهـــة العربية الاسلامية ،ودخلت الاسرة الحاكمة الايوبية في مرحلةمن الانقســام والنزاع والحرب الاهلية لميستطع الملك العادل أن يتداركها باعـــادة توحيد الدولة تحت قيادته الابشق النفس وبثمن باهط كان من شأنـــه بالاضافة الـــى عوامل أخرى اطالة الحكم اللاتيني على أرض المشـــرق العربي قرنــا آخرا .

ثم دخل الصراع في حوض البحرالمتوسط خلال القرن الثالث عشرفي طــور جديد واتجه اتجاها آخر. وضاعت فكرة الحروب الصليبية بين التوجهـات المنحرفة لقوى الغرب المتوسطي نحوشرقي المتوسط ،ولم يعد هدف الحمـلات الصليبية الشرق العربي الاسلامي ،بل صار الهدف المقصود الشرق البيزنطـي أيضا. ولم يكن ماحدث في القسطنطينية عاصمة الامبراطوريةالبيزنطيــة عام١٢٠٤ علىأيد ي غزاة الغرب اللاتيني في الحملة الرابعة مايمكـــن أن يقبله أي انسان بأي مقياس من مقاييس العقل والضمير ،وأقيمـــت مملكةلاتينية في عاصمة رومه الشرقية ،في حين انسحبت حكـــومــة الامبراطورية البيزنطية الى ملاجىء على شواطىءالبحرالاسود لكي تناضـل من استردادعاصمتها المنتهكة على ضفاف البوسفور .

ظلت المغامرات الصليبية الشغل الشاغل لاوساط في المجتمعات الغربية خلال القرن الثالث عشر في وقت كانت فيه الصراعات الدينية ناشبــة علـى أشدها في أنحاء مختلفة من أوربــة .

وقد ظلت الدول الفرنجية اللاتينية تنظم حملات صليبية مغيـــرة بمبادرات مرتجلة. وقد اتخذت قبرص بعدتحريرالقدس أيامصلاح الديـــن

محطةلهذه الحملات المتأخرة بعد أن أسست في الجزيرة مملكةلاتينية على رأسها ملك القدس السابق غي دولوزينيان ،واتخذت المملكةلنفسها اسم مملكةالقدس ،التي صارت ملجأ للاجئين الاوربيين الفارين من ويلات الحرب وآثارهاالمفجعة في الاراضي المقدسة ،في خضم النزاع المتواصل على الاراضيوالتغيير الجغرافي - السياسي المتلاحق ،بعد حروب متقطعة واتفاقات متواترة • ومن أمثلة هذا التردي الصارخ للقياداتالاوربية انطلاق حملة الاولاد عام١٢١٣ يقودها فتيان مراهقان أحدهما الفرنسي ايتين بلوا ، وثانيهما الالماني نقولا• وماكان أسرع مصيرهما الى الهلاك قبل أن تحط أقدامهما على المراكب للانطلاق بينماكان مصير من صعد المراكب من الاولاد الوقوع في الاسر بايدي سماسرة النخاسة المتنافسين في أطراف البحر المتوسط •

وبناء على تحريض حكام عكا الفرنجة دعابابارومالى مجمع في لاتران (حزيران ١٢١٧) لتنظيم حملةشاملة تتوجه الى مصر التي كانت القوة الحامية الرئيسية ،(كما بدأت الحملات الصليبية فيأواخر القرن الحادي عشر) فنزلت هذه القوات الاوربية في دمياط (ايار١٢١٨) على الفرع الشرقي لدلتا النيل لدق اسفين في الطريق بين فلسطين والقاهرة• وكانت الحملة بقيادة الكاردينال بيلاج ،وهواسباني وفي هذا اشارة لها دلالتها،اذ كان الاسبان وحلفاوءهم من الاوربيين يحققون انتصارات متتابعة على العرب والمسلمين في اسبانياوالبرتغال ويرغمونهم على التراجع نحو الجنوب للاحتماء بأراضي الاندلس •

وقامت القوات الاوربية الغازية باحكام الحصار على دمياط• ولكن هزيمة منكرة لحقت بقوات متقدمة من المهاجمين عند المنصورة أرغمت محاصري دمياط على الانسحاب والعودة الى مراكبهم في تموز /١٢٢١ / وعزي اخفاق هذه الحملة الى تأخرنجدات الامبراطور الالماني فريدريك الثاني هوهنشتاوفن الذي كان يريد الاستئثار بمجد الانتصار ،مماعمق الخلاف بين السلطتين الامبراطورية والباباوية وأدى الى حرمان الامبراطور الاأن الخلاف مالبث أن سوي واتجه فريدريك الثاني على رأس حملة جديدة

هي السادسة التي اتجهت الى عكا في ايلول ١٢٢٨ ، وفيماكان الغــرب يسوي خلافاته ويوحد صفوفه لمتابعة تحركاته نحو شرقي المتوسط مخلفا وراء ظهره المنازعات على السلطة في القارة الاوربية ، مات الملـــك العادل في ظرف الشدة التي واجهها عند مواجهة الخطر في الدلتاولـــم يكن ورثة البيت الايوبي من أبناء صلاح الدين الناصر، والعادل فـــي الشام ومصر على مستوى الخطر الشديد الذي كانت تتجمع غيومه المـــذرة من بعيـــد .

فقد وصل الامبراطورفريدريك الثاني الى عكا في ٦٢٥ هـ ايـــلول ١٢٢٨م مؤملا الحصول على تنازلات من السلطان محمدالكامل(ابن العـــادل) وهومشتبك في نزاع قاتل مع أبناء أخيه الضعفاء ورثة الحكم الايوبـــي في الشام. ومن مقره في عكا توصل الامبراطور،بنتيجة مفاوضات بارعـــة وبأساليب تراوحت بين الاستعطاف والحيلة الى عقد صلح يافا (٤شـــباط ١٢٢٩) وفيه تلقى العاهل الالماني القدس ماعدا المسجد الاقصى حيث يحـــق للمسلمين أن يمارسوا شعائرهم الدينية وبيت لحم والناصرة والطرق المؤدية الى عكا ومنطقة الساحل . وهكذا تقاسم الطرفان السيادة على البلاد فـــي هذه المعاهدة الطريفة التي بقيت سارية المفعول الى ايلول ١٢٤٤،عندمـــا بدأت تنتشر الشائعات المثيرة عن وصول جحافل المغول من الشرق ،وعندئذ استولى جنودالسلطان الايوبي على القدس والمواقع الاستراتيجية حولها.

وكان للتنازل عن بيت المقدس للعاهل الجرماني وقع الصاعقة فـــي العالم العربي والاسلامي لاسيمافي دمشق ، الا أن الاتفاق كان نتيجة لوضع عسكري خطير . فقد أحدث الفرنجة خرقا بالدخول الى منطقة الدلتاكـــان من الممكن أن يهدد الوضع في مصربأكمله .

وفي الوقت الذي كان الشرق العربي وسواحل البحرالمتوسط العربيـــة تعاني من المواجهات الدامية الطويلة أمام غزاة البحركان قلب العـــالم الاسلامي وفي مراكز حضارته الكبرى يتعرض للتهديد الاصفرالقـــادم مـــن الشـــرق .

وأمام التحرك الامبراطوري الجرماني الذي أدى الى هدم ماكان بناه نورالدين محمود وصلاح‌الدين والعادل من استراتيجية في مقاومة الغزو الفرنجي بماتحقق من تسويات في عكا والقدس ويافا ،قامت فرنسه بقيادة ملكها شديد التدين لويس التاسع المعروف باسم القديس لويس بتحرك واسع النطاق لمحاصرة العالم العربي الاسلامي بالاتفاق مع المغول . وفي الوقت الذي كانت فيه أوربه ترتعد أمام جحافل المغول المتقدمة من بلاد آسيه الوسطى نحوالغرب عمل الملك الفرنسي على الاتصال بالمغول الذين كانوا آنذاك وثنيين الا أن زوجة هولاغوخان كانت مسيحية نسطورية . وقد أرسل لويس التاسع من قبله مبعوثين من الدومينيكان والفريسيسكان بتأييد البابا الكسندرالرابع الذي كان يزود الملك بالمعلومات التي تمل اليه للمساعدة على الاتصال مع القادة المغول ،وقد رسم خطته على أن يهاجم مصر في الوقت الذي كان فيه المغول يقتربون من ممتلكات السلطنة الايوبية الا أن توقيت التحرك الفرنسي ، فيمايظهر كان أسرع ممايبنغي وكان وصول المعلومات أكثربطئا مماكان منتظرا.

نزل لويس التاسع بقواته في قبرص في ١٢ حزيران ١٢٤٨فيمايعرف بالصليبية السابعة مقلدا خطة الصليبية الخامسة ، وهاجم دمياط وحاصرها حتى دخلها في حزيران ١٢٤٩ ، لكن الحملة انهارات عند حصن المنصورة أيضا ووقع الملك نفسه في الاسرومعه أخواه ألفونس صاحب بواتيه وشارل أنجو ملك صقليه وعددكبيرمن الفرسان . ولم يتخلص من الاسر الابعد حدوث تطورات داخلية في مصر وتغير في السلطة فأطلق سراح الاسرى لقاء فدية كبيرة وبعد التخلي عن دمياط ،وانسحب الىعكا التي أقام فيها من ١٢٥٠ - ١٢٥٤ يجري منها اتصالات بالخان المغولي وأرسل اليه سفارة على رأسها غيوم دوروبروكي . ولكن لم تمض خمس سنوات على عودة لويس التاسع الى أوربه حتى تحرك هولا غوخان ليحرك مايدعوه المؤرخون الفرنجة تلك ((الصليبية الصفراء)) نحومراكز العالم العربي الاسلامي ،وسقطت أمام تقدم قواته المدمرة بغداد عاصمة الخلافة العباسية (١٢٥٨) ثم حلب ودمشق (١٢٦٠) . وبات الوجود السياسي

الثقافي للعالم العربي الاسلامي مهددا الى حين بالفناء ، في الوقت الذي كانت في الاستراتيجية اللاتينية تجاه المشرق مهتمة بتوسيع تحركها باقامة تحالف غربي لاتيني - شرقي بيزنطي - مغولي .

الا أنه كان مايزال في تكوين مجتمع الشرق العربي الاسلامي آنذاك عناصر تلك القوة التي كان يحركها عامل الايمان العميق والبناء العلمي الثقافي المكين بوجود مؤسسات ثقافية راسخة ونظام اقتصادي متكامل ممتد على سوق واسعة مترامية الاطراف مما وفر لدولة المواجهة الصامدة في مصر والشام مستلزمات الدفاع والاستمرار. وفي هذا المجتمع تكونت الموءسسة العسكرية في ظل الحكم الزنكي - الايوبي - والتي تنافس على قيادتها كبار قادة المماليك التي انقادت اليهم أزمة الامور. ولم يكن بوسع اولئك القادة على الرغم من حرصهم على مصالحهم الانانية أن يتهربوا من المسؤوليات الجهادية الملزمة بالدفاع عن الارض والمقدسات والناس ، فكانت تلك الملحمة الرائعة التي استمرت أحداثها جيلا من ثلاثين عام - في مسيرة ظافرة من معركة عين جالوت غربي بيسان (١٢٥٩) الى عكا (١٢٩١) وتجلت فيه عظمة سلسلة من القادة الكبار/ قطز وبيبرس - وقلاوون والاشرف خليل .

فبعد انتصار عين جالوت الرائع استقرت القيادة وبعد صراع داخلي أليم بين يدي الملك الظاهر بيبرس الذي استطاع في تحرك سريع لم يسبق له مثيل منذ أيام صلاح الدين أن ينتزع من المملكة الفرنجية اللاتينية قيسارية (١٢٦٥) ويافا ثم انطاكية (١٢٦٨) وانحصر الوجود الفرنجي بعد ذلك على الساحل الشامي في طرابلس وصيد وعكا .

وبينما انتقلت الجبهة العربية الى دور الهجوم ولاسيما بعد انحسار الخطر المغولي غدت فرنسة مركز الثقل في أوربة في المراحل الاخيرة من الحكم اللاتيني في الشام. وقد حقق حكم لويس التاسع (١٢٢٦-١٢٧٠) لفرنسه تقدما كبيرا كان من أبرز ملامحه انشاء جامعة طولوز (١٢٢٦) وتطور كتابة التاريخ ،وبرز في باريس أهم مفكر لاهوتي في تاريخ المسيحية

في القرون الوسطى ،القديس توما الاكويني ،الذي كان يدرس في جامعة باريس (١٢٥٢ – ١٢٥٩) وظهر روبرروسوربون (١٢٥٨–١٢٧٤) الذي نظم مدرسة السوربون التي غدت الجامعة الشهيرة . وغدت أرض فلسطين المقدسة في السياسة الفرنسية موضوعا للمضاربات والمنافسات فيقصور الملوك والامراء واختلطت حقائق الجغرافية بالادعاءات الملكية والمطامع البعيدة عندما أصبح ملك صقلية شارل أنجو أخو الملك ،ملك القدس ، وهكذا كشف تحرك جيوش الفرنجة في الحملات المتأخرة عن التخبط في التوجه الى الاهداف المعلنة الضائعة في خضم المصالح المتضاربة للممالك الاقطاعية الاوربية الناشئة ، التي كانت تدعمها المصالح المالية المتنامية للمدن التجارية ،ففي حملته الثانية بدلا من أن يتوجه لويس التاسع الى مصر ،توجه الى تونس . ولعله أرادها محطة على الطريق ،ليضمن طريق العودة منها عن طريق البحر الى صقلية وايطالية ولكن الحملة انتهت بعد موت الملك الفرنسي المفاجىء في ١٥ آب – ١٢٧٠– بعدنزوله على الساحل التونسي .

ولم تمض الاسنوات قليلة بعد ذلك حتى تداعت الحصون الفرنجية اللاتينية وتم تحريرها تباعا : المرقب (١٢٨٦) طرابلس (١٢٨٩) وأخيرا عكا وحيفا وصور وصيدا وبيروت في صيف ١٢٩١ . وعادت عجلة الزمن قرنين الى الوراء وأخذت أفواج سكان الساحل الشامي تعود الى المدن والمواقع المحررة ، في حين ولدت عودة المحاربين المهزومين مشكلة خطيرة كان على السلطة الملكية الفرنسية مواجهتها بصورة كشفت بوضوح تام عن طبيعة الصراع على ضفاف البحر المتوسط . لقد كان في حقيقته جانبا من التفاعل الاقتصادي – الاجتماعي – السياسي –رافق تكون الدول والممالك الاوربية الغربية . وبهذا الصدد يمكن أن يطرح هذا السوال :

٣– ماذا كان مصير المحاربين الصليبيين المنسحبين ؟

كان فرسان المعبد الداوية آخر الصليبيين في عكا . وكان جزاؤهم بعد انسحابهم وعودتهم الى فرنسه المحاكمة والتعذيب الشنيع بدءا من ١٣٠٧ اي بعد سبعة عشر عاما من الخروج من عكا بأمر من الملك فيليب الجميل .

لقد سقط حماة المثل الاعلى الغربي في العصور الوسطى وانهـارت أحلام المجامع الداعية الى التعصب والغزو والقتل والدمار منذ أن تحـول الحاج المتجه الى الله الى قاتل جزار .

وتدنست الصوفيه البريئة بما أقترفته الايدي القذرة في مراكـز اشعاع الحضارة على الضفة الشرقية للمتوسط وفي عواصم الطهر والقداسـة في انطاكية والرها والقدس وطرابلس وصور وحتى في القسطنطينية ودمياط وتونس . وانقلب أخيرا السحر على الساحر عندما شلت مفاصـل أيـدي المجرمين العتاة في القلاع المنيعة على الهضاب والجبال الشماء في شيـزر والمرقب والحصن وعكا وعسقلان وفاز المؤمنون الصابرون بالنصر .

وعندماعاد الغزاة الفقراء الذين غرربهم للاحتماء بأرض العـرب بممتلكات أسيادهم الذين أضحوا من الاقطاعيين وأصحاب المصارف الغنية والثروات المكدسة المنهوبة ، كان المهزمون كبش الفداء لاراحة ضمائـر مجتمعات الغرب التي وجدت في المال الحرام شاهدا على الافتئات علـى حق رب السماء .

فلم يتأخر فيليب الجميل عن اصدارأمره في ١٣ تشـريـن الاول ١٣٠٧ بالقاء القبض على مايقرب من ألفين من فرسان المعبد الذين عـادوا خاسرين مدحورين .

ووجهتَ الى المتهمين اشنع التهم ، انكار السيد المسيح ، عبـادة الشيطان بالاضافة الى تهم أخرى تمس الشرف والاخلاق . وانتزعت مـن المتهمين اعترافات كانت كافية لتبرير اصدار احكام العدالة الملكية .

ولمتجد محاولات البابا كلمنت الخامس في التدخل لانتزاع حـق المحاكمةواصدار الاحكام ،لانقاذ الموقف وتحجيم دورالملك ،ولكن السلطة المطلقة للدولة هي التي رجحت في هذا الصراع ، عندما أعدم فـي ايار١٣١٠ ستون من فرسان المعبد المدانين حرقا في باريس وفيأمكنـة أخرى لتراجعهم عن اعترافاتهم التي كانـوا قد أقروا بهاسابقا.

ثم اجتمع في فينا في تشرين الاول ١٣١١ وفيه تم الاتفاق بين الملك الفرنسي والباباوية على الغاء نظام هذه الرهبنة ، فرسان المعبد في ٢٢ آذار ١٣١٢ ، بعد أن أصعد في ١٨ آذار ١٣١٤ أكبر مسؤولين عن هذا النظام المعلم الكبيرجاك دومولي ورفيقه جوفروا شارني الى المحرقة. ووضع الملك يده على ثروة النظام وعلى معظم ممتلكاته على الرغم من أن الباباوية عملت على نقل هذه الممتلكات الى نظام آخر ، المشفى (الاسبتارية) . وعرف الداويون مصيرا مشابها لما لاقوه في فرنسه في كل مناطق أوربه التي كان لفيليب الجميل نفوذ فيها .

وهكذا تدهورت الفكرة الصليبية في أوربه في مثل هذا الجو السياسي الوصولي لفلسفة الدولة في أوربه ، التي لم تكن لترضى بوجود أية قوة منافسة للسلطة الملكية مهما كان في ذرائعها من مثالية .

٤- ولكن هل انتهت بذلك الفكرة الصليبية في الفكر الغربي بعد فشلها في العصور الوسطى ؟ .

كلا- لان شواهد كثيرة تؤكد أن الفكرة بقيت متداولة في عقول المنظرين والفرسان المتأثرين بانتصارات الماضي . وفي هذا السبيل وضعت كتابات كثيرة ومخططات لاعادة الكرة من جديد كان من روادها والمبشرين بها جاك دومولي نفسه وغليوم آدم ومارينو ساردو،وأخذ فقهاء القانون لدى الملك فيليب الجميل بير دوبوا وعمل هؤلاء في السنوات الاولى من القرن الرابع عشر على التخطيط لمشروعات جديدة لاعادة الاستيلاء على الاراضي المقدسة .

ومن مظاهر الاستجابة المترددة لهذه الدعوات حملة هوغ الرابع لوزينيان وولي عهده هوبرت بين ١٣٤٤ -١٣٥٠ على ازمير على الساحل الغربي لآسية الصغرى .

ونجح الاستبارية في قهر اسطول عثماني أمام أمبرس في بحرايجة

ثم نظمت حملة كبرى اشترك فيها ملك قبرص (القدس) ومستشاره الحاج العجوز دوميزبييروالكاردينال بير توماس نجحت في مهاجمة الاسكندرية (١٣٥٦) وفي تدمير مدن الساحل السوري طرابلس وطرطوس واللاذقية ويافا (١٣٦٧) . وتحولت الحملات المنظمة بعد ذلك لمواجهة القوة الجديدة المتعاظمة في العالم الاسلامي ، الدولة العثمانية ، في الوقت الذي كانت تتقدم فيه حركة الاسترداد الاسبانية باتجاه معاقل العرب الاخيرة في جنوبي الاندلس .

ولعل من أمثلة الاحلام الصليبية الغربية في أوربة الاقطاعية مافكرت به فتاة فرنسة ، جان دارك ، التي كانت تتمنى ،قبل قتلها حرقا على أيدي أعداء بلادها الانكليز ، تنظيم حملة يشترك فيها انكليز وفرنسيون تتوجه الى بلاد الشرق . وهكذا جعلت الفكرة الصليبية السياسية المتعصبة من المسيحية المسالمة قوة محاربة غازية لتحقيق أغراض الغرب الاوربي والمتوسطي في بلاد الشرق . ولم يتخل الغرب عن هذه الاهداف وابتدع اساليب جديدة سعيا من أجل الوصول اليها ، أخذت تتطور منذ القرن الرابع عشر بعمله على توسيع العلاقات التجارية مع بلادالشرق بايفاد السفارات الاستطلاعية (ماركو بولو) والبعثات التعليمية الدينية ،ثم بتوجيه حركة الكشوف الجغرافية لوضع أيدي الدول البحرية الاوربية على مصادر الثروات والخيرات التي كان ينعم بها الشرق بالالتفاف وراء عالم المتوسط عن طريق المحيط الهندي أومن طريق الاطلسي . ومنذ ذلك الحين استطاع الغزاة لصوص البحر التمكن من مفارق الطرق المؤدية الى مصادر الحرير والذهب والتوابل والافاوية ..

ثم في مطلع القرن العشرين الى مصادر الطاقة المحركة لادوات الثورة الصناعية في الغرب ،منابع النفط .

وفي سبيل ابقاء جذوة التطلع الى المغامرة والفتح متقدة في نفوس الاجيال الاوربية الجديدة كماكانت في الماضي مايزال فتيان جان دارك في مارثل في فرنسة ، قرب بواتيه يحتفلون كل عام ووسط

سخط المتسامحين والمستنكرين بانتصار شارل مارتل الفرنجـي فـي لوبشا Lacapchot عام ٧٣٣ ، وليس قرب بواتيـه عام ٧٣٢/ كماتؤكـد بعذى الدراسات الجديدة . وهم ربما يحلمون باحتفالهم هذا بمد أبصارهم الى الضفة الاخرى من البحر المتوسط الذي تخضبت شطانـه بالدماء الغزيرة عبر العصور.

٥ـ المواجهة الجديدة مي عصر الاستعمار :

وفي حين كانت المجتمعات العربية تتقوقع على نفسها في المدن والعواصم والثغور ، يؤرق جفونها قلق قاتل أمام أخطار كان يصعب تصورها ، كانت العسكرية الاسلامية قدتبلورت في صورة جديدة في اطار التطورات السياسية والانقلابات التي حدثت في مراكز القوى العربية الاسلامية حين قبض الترك من السلاجقة والعثمانيين على زمام الجيوش في العالم الاسلامي في شرقي المتوسط ، وكان ذلك الانتظار الحاسم الذي دوت أصداؤه في الغرب بدخول السلطان محمد الثاني العاصمة البيزنطية القسطنطينية عام (١٤٥٣) بعد مضي أكثر من سبعة قرون على بدء الصراع العربي البيزنطي ليبدأ بعد هذا الحدث الكبير عصر جديد كان من أهم خصائصه هيمنة البحرية العثمانية على الحوض الشرقي للمتوسط مدة زادت على قرنين .

وفي الوقت نفسه ظهرت قوة جديدة في الحوض الغربي للمتوسط ، باقامة وحدة اسبانية ، بعد اسقاط الحكم العربي في غرناطة ١٤٩٢ ، وتأسيس القوة البحرية الاسبانية في الحوض الغربي للمتوسط وعلى سواحل الاطلسي وهكذا تشكلت قوى الصراع على ضفتي المتوسط في مشهد لم يكن له مثيل في التاريخ منذ أيام الحروب الرومانية ـ القرطاجية قبل قرون عديدة . واستقطبت طرفي المواجهة قوتان احداهما في الشرق حول الدولة العثمانية ، والثانية في الغرب حول الامبراطورية الاسبانية التي ورثت التراث العربي العظيم في الاندلس والثروات الخرافية التي خلفها المغلوبون وماجمعه المغامرون من الفتوح الاستعمارية ، وكانت ذروة المواجهة بين الجبهتين في معركة ليبانتوس البحرية التي فقدت فيها

تركية العثمانية معظم اسطولها و اضطرت بعدذلك الى الاحتماء بقواعدها الشرقية ،ودخلت المتوسط بعد ذلك قوى من خارج شطآنه لاول مـــرة انجليز وهولنديون ، اخترقت مضيق جبل طارق بعد هزيمة الارمـــادا الاسبانية عام١٥٨٨ ٠

ومع اكتشاف انطرق البحرية الجديدة في المحيطات تقلص دور البحر المتوسط ودور الدول الواقعة على شواطئه بالقياس الى الدول الواقعـــه على الاطلسي ٠

و اضطرت الدولة العثمانية أمام هذا التدخل الاوربي العنيف الـــى رسم استراتيجية توسعية في شرقي المتوسط تجاه دول البلقان وشرقـــي أوربه ، ودفاعية متوازنة تجاه اسبانية والقوى الاوربية الغربيـــة الاستعمارية المتدخلة ٠

وهكذا فقد هذا البحربدخول المطامع الامبراطورية الاستعماريـــة الاوربية في القرن الثامن عشر كل ماكان يمتاز به من دور الوساطـــة الرائع في التجارة الدولية وتحولت شطآنه الجميلة الى جبهـات وحصـــون كانت تخضع لماكان يرسم له من مخططات في قصور الملوك و الامـــراء والسلاطين الذين كانت تحيط بهم أفواج من رجال الدين المحرضين والتجار المنتفعين الذين كانوا ينفخون في الآذان باتجاهات مختلفة ٠

وعندمادخلت انكترا الى هذا البحر ، دخلت با ستراتيجية جديدة عملت على تنفيذها مرحليا بصبر وأناة : السيطرة على جبل طـــارق ثم على جزر مينورقة في غربـي المتوسط ،ثم علىمالطة ، ثم وصلـــت الى بلاد الشرق العربي على الطريق الى امبراطورية الهند ٠

أمافرنسة التي أقلقها التحرك الانكليزي فقد تمسكت بقاعدتهـــا في كورسيكا وعملت علىالاحتفاظ بنفوذها في جنوبي ايطاليةوصقليـــه ورهبان مالطة الى أن أقدم نابوليون على غزو مصر وسوريـــه ٠

وبينماكان دول الغرب تحرز مزيدا من النفوذ في الدولةالعثمانية عن طريق نظام الامتيازات ونفوذ التجار ، كانت في الوقت نفسه تكتشف

من ضغوطها العسكرية على كل الجبهات على امبراطورية مترامية الاطراف ،قليلة الموارد بطيئة التحرك كان ينخر فيها السوس من الداخل بفعل اصطدام العقليات الجديدة بالنظام القديم ، وهكذا عندما لم ينبثق الاصلاح الفعال من داخل الدولة العثمانية للحفاظ على وحدة الدولة في كيان يضم كل شعوبها بدت هذه الدولة مفعفعة الاركان معرضة لاغراءات التدخلات الاجنبية ومخططاتها التي سمحت بالتحرك في البلقان في مصر والبلاد العربية ،وذلك كله لخلق ظروف من المصالح المتضاربة التي لاتقبل التسوية بين ضفتي البحر المتوسط .

وبدأت في القرن التاسع عشر ترتسم ملامح مرحلة جديدة من الصراع على المتوسط ،طرفاهافي هذه المرة بريطانية وفرنسة . ولكل منهما مفهومه الاستراتيجي الخاص به ، فبريطانيا وهي قوة بحرية خارجية كان يهمها السيطرة على البحر وعلى الطرق الملاحية البحرية . أما فرنسة وهي دولة متوسطية ،فلهاتطلعات استعمارية توسعية تستهدف الاستيلاء على الارض ،والامتداد الى الضفة الاخرى .

وكان شق قناة السويس عاملا أساسيا في تأجيج النزاع بين القوى المتوسطية الاستعمارية . بعد أن أنهى هذا الانجاز عزلة البحرالمتوسط وربطه بطرق الملاحة الدولية لاساطيل الامبراطوريات الغربية التجارية والحربية . وصارت السيطرة على قناة السويس تعني بالنتيجة التحكم بطريق الهند .

وقلب هذا العامل الجديد في الجغرافية السياسية للبحرالمتوسط كل الموازين السابقة في الاستراتيجية في الاقتصاد. ومنذ ذلك الحين بدأ يتسع الخرق بين عالمين وبين اقتصادين اقتصادبلاد الشرق القائم على الاسس القديمة من زراعة ونقل وتنظيم اجتماعي واقتصاد أوربي جديد من عناصره التحرك البشري والا ستيطان والاستثمارالزراعي والتجاري والمصرفي ومنذ ذلك الحين تبدت ملامح مصيرالشرق العربي الذي أخضع أخيرالللاستعمار الغربي بعد الاستيلاء على كل سواحل الوطن العربي على المتوسط . بعد اقتحام قوات النبي وغورو أرض فلسطين

وكل بلاد الشام • وفي هذه البرة وصل القادمون وفي أيديهم مخططات كاملة ومفصلة : اتفاقيات سايكس بيكو ،ووعد بلفور ونظم الانتداب مسلحين بنظريات سياسية تسوغ الاستعلاء والاستغلال والتمييز العنصري والديني •

لقد واجهت الامبراطوريات الاستعمارية الاوربية الغازية مقاومة لم يسبق لها مثيل ولم تكن منتظرة ، وخرجت البلاد العربية من الصراع بأفضل مماخرجت منه بعد الحروب الصليبية في العصور الوسطى ،فقامت دول عربية مهمة على شواطىء المتوسط ترفدها أراض عربية غنية بالنفط والطاقة لاحدود لها• ولكن الصراع العالمي في الحرب العالمية الثانية أدى الى تدخل الولايات المتحدة الامريكية وروسية الثورية السيوفيتية ولكل منهما استراتيجيته في البحر المتوسط ،أضحى محورها الموقف من القضية العربية الفلسطينية وادخال عامل جغرافي سياسي جديد على خارطة الشرق المتوسطي بالاتفاق على ايجاد (اسرائيل) وكان هذا الكيان السياسي الغريب عن نسيج المنطقة القومي والثقافي فرضا لقوة جديدة على شواطئ المتوسط هي امتداد لنظام اجتماعي سياسي اقتصادي غربي على الارض العربية أخذت تتضح الابعاد الخطيرة لاختراقاته للنظام العربي منذ عام ١٩١٨ وحتى أيامنا هذه •

وهكذا تم للغرب الاوربي بتأسيس الكيان الصهيوني واقامة دولة لليهود المهاجرين الاوربين على أرض فلسطين العربية ،بعدمايقرب من سبعة قرون على تحرير عكا والساحل الشامي في العام ١٢٩١،وبصورة أخرى ولفترة طويلة تجديد ذلك الصراع القديم الذي انتزع السواحل العربية عن أرض الشام ، وخلق أمام البلاد العربية تحديات خطيرة •

وقدتكون المواجهة العربية- الاسرائلية أحد المظاهر التي يختفي وراءها المظهر الحقيقي للمواجهة على ضفتي المتوسط بين الوحدة والقوة والتقنية من جهة وبين الانقسام وتوابعه والعجز عن الاستغلال المباشر للموارد الاولية ومصادر الطاقة من جهة أخرى •

ان وجود مثل هذه العوامل هو مايطرح لدى بعض الكتاب من الغرب والشرق تساؤلات عن احتمالات المستقبل على هذا البحر الذي يريده بعض

المفكرين والكتاب في الغرب أن يكون لاتينيا ك (فرانسوا بيو Francois Puaux) الذي يقول :

ان هذا البحر اللاتيني هومهد حضارتنا أي:حضارة الغرب اللاتيني هو في الواقع والحقيقة منبت المتناقضات الدينية والاجتماعية والاقليمية وبؤرة مواجهات عديدة ستبقى والى زمن دون حل))

(F.Puaux,Lapolitique internationale des Amées
:atre-vingt,PUF, Paris 1984, P.23)

عن بشارة خضر ،دراسات دولية ، عدد(٣٩) عام(١٩٩١/٢)

لقدغدا الدورالاول في مصائر شعوب البحرالمتوسط ودوله في القرن التاسع عشروحتى الحرب العالميةالثانية لروما حديثة بعيدةعن المتوسط هي الامبراطوريةالبريطانية التي جعلت من البحرالمتوسط جسرا عظيما قواعده في جبل طارق ومالطة وقبرص ومصر ، ومن قناة السويس معبرا الى امبراطوريتها على المحيط الهندي .

وفي سبيل حماية مكاسب الامبراطورية الاستعمارية البريطانية في صراعها مع القوى البحرية الاستعمارية الاوربية الاخرى تفتقت عبقرية دزرائيلي رئيس الوزراء البريطاني عن سلسلةمن المكائد أدت الى انتزاع قناة السويس من فرنسة ،كماتفتقت فيمابعد صهيونية لويد جورج رئيس الوزراءالبريطاني أيضا ابان الحرب العالمية الاولى ووزيرالخارجية بلفورعن الوعد المشؤوم الذي جعل في عام١٩١٧ من أرض فلسطين هدفا لحملة غربية نحوالشرق العربي فيأجواء تأزم المسألة اليهوديةفيأوربة وفي غمرةتنامي النزعات العنصرية الاوربية ومنهامعاداةالسامية ،من اجل السعي الى تهيئة الظروف لجعل فلسطين وطناليهود الاوربين ولاتنزاعها من أصحابها بتجديد حركةالعدوان بصورةتستتر وراءمبادئ عليامعلنة ،بقيت حبرا على ورق .

وعادالمغامرون ولكن في هذه المرةبمزاعم أخرى للبحث عن الهيكل الذي لميعثرله علىأثر ،دونأي حسبان لمنطق التاريخ وبتجاهل كلي للشعب الفلسطيني وتاريخهالذي نشأوتطور كماحدث لكل شعوب الارض ،على الارض التي عاش عليها عبر العصور فهل يكون لهذا الطورالجديدمن الصراع

علـى طرفي المتـوسط من نـهاية ؟
ان العـوامل التي تـدخل في الصراع علـى ضفتيهذالبحر في عصرنـاكثيـــرة ولـكن قد يكون في القـاء بعض الضوء علـى مواقف بعض القوى المؤثرة في الصراع مـايساعد في البحث عن جواب . واكتفي بالحديث عن اثنــــين منـهـا :

أولا ـ مـاموقف البـابوية اليوم من الصراع العربي الفلسطيني ـالاسرائيلي

(And. Kreutz, Vatican Policy on Palestinian-Israeli conflict : The Sruggle for the Holey Land (Contribution in Political Science no246)196p(1990)

وقبلـه نشرجورج ايراني بحثا مهمـا كـان رائدا في بـابـه

-George Irani, The Papacy and the Middle East, Notre Dame Press 1986

Livia Rokach, tne Catholic church and the Question of Palestine, Saqi Books. 1987

صدرت في السنوات الاخيرة جملةمن الدراسات المهمةحول هذالموضوع. ومن التعرف الى هذه الدراسات يتضح تطورسيـاسة الفـاتيكـان تجاه القضيـــة الفلسطينية خلال هذا القرن العشرين . فلقدوقفت الكنيسة الغربية فــــي البدء ،من منطلق ديني ضد الصهيونية السيـاسية. كمـاوقفت ضد السيـــادة الاسلاميةالمطلقة علىالامـاكن المقدسة . وكـانت تفضل في ظروف الحــــــرب العالمية الاولى ونتـائجها ،وضع فلسطين تحت اشراف احدى الدولالمسيحيـــة الغربيـة . ولـكن الكنيسةبدأت تهتم بعد ذلك بتطلعـات الطوائف المسيحيـة من الشعب الفلسطيني ،ثم بتطلعـات الشعب الفلسطيني المشروعة ، بوصفــــه من شعوب العالم الثالث المنـاضلة في سبيل العدالة الاجتمـاعيةوالسيـاسيـــة

وفي هذه الدراسات تنعكس العوامل المؤثرةفي رسم سيـاسةللبـابويـــة المعـاصرة في دولـة الفـاتيكـان حول هذه القضية بمـايتنـاسب مع موقعهـــــا السيـاسي في العـالم وخاصيتـهـا الروحيـــة .

وفي الفصل الاخيرمن كتابه يقدم كرويتز احد الباحثين في هـــذا الموضوع تحليلا لسياسة البابا يوحنا بولس الثاني التي تنطلـــق مـــن الاهتمام بتوسيع حدود توجهاته من الخاص الى العام ، أي الى الشـــأن الفلسطيني كله ومسألة الشرق الاوسط انطلاقا من مبادىء أخلاقية وروحيـــة هي التي تشكل عنصر القوة في موقف البابا من قضايا حساسة في هـــذا العالم . ولكن هذا الموقف قد يخضع لشيء من التعديل أحيانا عندما ينقلـب الى سياسة مرسومة ،لايكون بوسعها في الظروف الدولية المتغيرة أن تتجاهل العوامل السياسية والاقتصادية التي تشكل عناصر ضغط باتجاهات مختلفـــة من داخل الكنيسة ومن خارجها عند تناول القضية الفلسطينية .

ان المواقف في هذا العصر على ضفاف البحر المتوسط تجاه موضوعـات الاحتكاك والصراع على ضفاف البحر المتوسط تواجه تعديلات لامندوحة عنهـا ومختلفة عما شهدته ضفاف هذا البحر من مواجهات أليمة ومدمرة فــــي المـاضـــي .

فالفاتيكان الذي يجد ظهيره في أوربة ليس بوسعه تجاهل القــوى الضاربة الموجودة بالفعل في البحر المتوسط وبخاصة الولايات المتحدة الامريكية المؤيدة لاسرائيل وسياستها تجاه فلسطين والشرق العربي ،كما لايستطيع أن يتجاهل العالم الثالث الذي تنتمي اليه فلسطين والبلاد العربية ،التـــي يحرص الفاتيكان على مخاطبتها أيضا بلغة تتفق والمبادىء الاخلاقيـــة والروحية السامية التي ينادى بها في هذا العصر ،الذي مايزال يعاني فيـه الانسان من التصادم الكبيرين المثل العليا محصلة القيم في التـــراث الحضاري الانساني وبين الواقع الراهن للشرط الانساني في أنحاء كثيـرة من العالم ومن هذا التحليل يتضح أن الفاتيكان يمكن أن يكون عامـلا ايجابيا في العمل على انهاء الصراع على ضفتي البحر المتوسط عندمـــا يستطيع أن يؤكد دوره في تأييد التغيير الاجتماعي لمصلحة الانســـان وعندما يكون مدافعا عن حقوق الانسان المغتصبة ،والكرامة المثلومة ،عندما يتمكن أن يعبر عن هذه القيم كلها ،واستنادا الى هذه المعطيات أخـــذ الفاتيكان منذ عام ١٩٦٧ يصوغ سياسة واقعية تجاه القضية الفلسطينيـــة

متعددة الجوانب ،بالاعلان عن تأييده للتطلعات المشروعة لشعبين يقيمان اليوم على أرض فلسطين

ثانيا: ماموقف اليهودية في هذا الصراع المستمرعلى ضفتي البحربعد

أن أقيم لليهود كيان سياسي على شاطئ البحرالمتوسط بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية؟ . هذه مسألة قليلا ماتحدث عنها المتحدثون ولكنها واقع راهن لابد من مواجهته والبحث فيه والتفكير في طرق مواجهته وليس في الوقت متسع للاستفاضة في هذا الجانب من موضوع البحث ونكتفي بالاشارة الى احدى الدراسات الحديثة ترصد المتغيرات الناجمة عن مستقبل المسألة اليهودية في الغرب بعد تأسيس الكيان الصهيوني في فلسطين .

(D. Vital, The future of the Jews, the People at the Crossoads , 148 Pages, Harvard Uniresity Press, Cambridge 1990)

والمؤلف فيتال هو أحد كبارالمتخصصين في تاريخ الصهيونية .وكتابه هذا هومؤلف مثيرحول الشرط القومي لليهود بكونهم أمة ومسألة تعدد الانتماء والولاء ويبرهن المؤلف على أنه بعدأن كان اليهود وحدة قومية لهاكل مقومات الوحدة الفكرية ،لم تعد هذه الوحدة موجودة باختلاط اليهود في شعوب أخرى ، ممافرض انتماءات سياسية وثقافية ودينية مختلفة . ونتيجة لذلك فان الانسجام والاجماع الذي كان قائما في السابق يبدوان متضائلين وربما أضحيا مفقودين .

واذاماصح هذا الاستنتاج فان اسرائيل تجد نفسها بصورة متزايدة متباعدة عن اليهود المنتشرين في انحاء العالم لاسيما في الولايات المتحدة على الرغم من دعوى الصهيونية بأن اسرائيل هي دولة اليهود جميعا ،وهو المبدأ الذي يبنى عليه مايسمى بحق العودة الى أرض الميعاد ويلاحظ مؤلف الكتاب ديفيد فيتال أن التماسك في القومية اليهودية أضحى مفقودا بعد التضارب في المصالح المختلفة للطوائف اليهودية في بلاد

أخرى ، فالنظرة الى اليهود في كثيرمن أنحاء العالم اختلفت فلم يعد اليهود ذلك المجتمع المدهش والسري وغير المألوف ، وصار ينظراليه على أنه شعب عادي له خصائصه الايجابية وله نقاط ضعف . وكان ايجاد الكيان الصهيوني الاسرائيلي هو العامل المؤثر في هذا التغيير نحو ما كان يعرف بالمسألة اليهودية في أوربة .

ويرى فيتال أن أوربة أوجدت حلا لماكان يدعى بالمسألة اليهودية بعد ايجاد مادعوه بالوطن القومي لليهود في فلسطين وبعد تأسيس دولة يهودية ،ولكن المؤلف يتجاهل أن حل المسألة اليهودية تجاه القوميات الاوربية خلق للقومية العربية تهديدا خطيرا لم يسبق له مثيل مس الارض و الانسان والتاريخ والثقافة والحاضروالمستقبل المنظور.

ويرى المؤلف من وجهة نظر آخرى ،أنه نظرا لعدموجود اتفاق حول المصلحة المشتركة لليهود في العالم ، ونظرا لعدم وجود سلطة مركزية كماكان الشأن عند تأسيس المنظمات الصهيونية واليهودية العالمية . ثم تبعا للتنوع الثقافي والتعدد السياسي و الايديولوجي فان التعدد أضحى قائما و الانقسام أضحى واقعا . ويشكل النزاع العربي - الاسرائيلي حول فلسطين موضوعا رئيسيا للخلاف ضمن العالم اليهودي . و ان التوترالمتزايد بين الاوساط اليهودية في العالم وبين السلطة الصهيونية في الكيان الاسرائيلي حول طريقة حل النزاع الفلسطيني - الاسرائيلي يؤكد أن وحدة اليهودية في العالم باتت موضع تساؤل .

وفي النتيجة يعرب المؤلف عن شكوكه حول احتمال استمرار بقاء قومية يهودية بالشكل المطابق للفكرالصهيوني السياسي ،فعوامل الخلاف كثيرة وهي طبقية وثقافية وسياسية وجغرافية . وهو يستنتج من المعطيات التي تتوفرلديه أنه سيترتب على ذلك قيام مجتمعين يهوديين مختلفين احدهما غربي يتمتع بالقوة والنفوذ و الاخر متوسطيوبروليتاري فقير وضعيف .

فماهي عواقب هذه التغيرات على المرحلة الراهنة من الصراع الاستراتيجي السياسي الثقافي على ضفاف المتوسط ؟ وماذايمكن أن يكون

دورالعامل الصهيوني الاسرائيلي فيها ؟ .

ليس الان بالطبع هو أوان التنبؤات والنبوءات لكن المسألة من هذا الجانب ،لابد أن تطرح على مائدة البحث والدراسة للوصول الى النتائج العلمية السليمة .

٦ ـ الخاتمة :

وبعد لقد صدق المؤرخ الفرنسي المعاصر فرنان بروديل فيوصف البحرالمتوسط بأنه جملة بحار تتزاحم فيها الجزر وتتقاطع على صفحات مياهها أشباه الجزر وتحيط بها شواطئ واسعة محززة مسننة ترتبط حياتها برباط وثيق بحياة الارض المحيطة بها. فلايمكن الفصل بين تاريخ البحر وتاريخها.

(عن بشارة خضر ـ دراسات دولية ، عدد (٣٩ /٢/٩١) .

اننا عندمانتطلع الى الحاضروالمستقبل هل يمكن لنا أن نتناسى الاحلام القيصرية الرومانية عند مؤسسي الصهيونية السياسية الذين حلموا بروما جديدة على الشاطئ الشرقي للمتوسط تكون قادرةكرومةالقديمة على الانطلاق الى عالم البحرالمتوسط الفسيح . أم أن نغفل عنأن نرصد بوعي كبير مايجري على الضفة الشمالية للبحرالمتوسط من تخطيط لعالم متوسطي للقرن الواحد والعشرين يمكن أن يكون أكثر مناسبة لمخططي النظام العالمي الجديد الذي تهيأ بكل هدوء مخططاته ومصوراته على الارجح بعيدا عن ضفتي البحر؟ .

على الشعوب المقيمة على ضفاف البحرالمتوسط لابد أن تستيقظ يوما وفي طليعتها العرب الذين يقيمون على الشواطئ الجنوبية والشرقية لكي تقود بنفسها زمام أمرهاوعندها سيكون للصراع المستمر على ضفتي البحر مسار آخر .

! ! ! ! ! !

مراجع :

- La Mediterrannee et le monde Medeterrneen
  l'époque de Philip II.Paris 1949 ,(Braudel)
- P.Chaunu l'expanàion Europeenne du XIII au XV Siecle
  Paris 1969 .
- P.Alphandry & A.Dupront, La Chretienté et l'idée
  de croisade 2.vols.Paris 1954-59
  F.Congnasso,Doeuments relatifs à l'histoire des Croisades
  8 vols , Paris. 1946.
  H.Seyrig, Syrie, 39(1962)p.193-207
  Emile Leonard, les Croisades 3, dans
  Encyclopedie de la Pleiade II

مراجع عربية ومعربـــــــة :

- الكامل في التـاريــــــخ
- النوادر السلطانية لابن شـداد .
- محمد مـاهر حمـادة وثـائق الحروب الصليبية .
- أمين معلوف الحروب الصليبية كما رآها العرب د. عفيف دمشقية
الفـارابي بيروت ١٩٨٩

حكاية الصليبيات

في ثلاث تواريخ

الدكتور شاكر مصطفى
جامعة الكويت "سابقاً"

كتبت هذا الحديث على أنه أول الاحاديث عن الصليبيات في هذا المهرجان فلما صار آخر الاحاديث صار مافيه من القول فضولا مملولا وقد سبقني اليه هنا وهناك ستة أساتذة أعلام .

ولست بأبي العلاء المعري لاقول :

واني وان كنت الاخير زمانه ... لات بما لم تستطعه الاوائل

ولا أنا عنترة لاتساءل معه :

هل غادر الشعراء من متردم ... فأبحث عن المتردم وفيه ؟

ولكني أقدر تقديرا أنه ماترك الاول للاخر شيئا ومع ذلك فحكاية الصليبيات تكتب فيها المجلدات بعد المجلدات ولاتنفذ ولوجئنا بمثلها مددا فهي أطول حرب عرفها العالم منذ وجد العالم انها تاريخ الانسانية خلال عدة قرون وستعرفون لماذا وكيف فهي القسم الاخير من صراع الشرق والغرب . والى ماقبل ٥٠٠ سنة فقط ، كان العالم كله مقصورا على حوض المتوسط وله امتداد الى الهند والى الصين . هذه هي الدنيا التي كانت معروفة وقد اصطدم الشرق بالغرب مرات قبل الاسلام كان آخرها صدام الفرس الزرادشيتين بالبيزنطيين المسيحين فلما تنصرت بيزنطة من جهة واحتل الاسلام أرض الفرس من جهة أخرى ورث الاسلام الصراع التقليدي ولكن صار طابعه صراع الاسلام مع المسيحية : أهي الصليبيات ؟ لا أبدا ما كانت المسيحية كلها مستثارة ضد الاسلام كله . وحين دخل شارلمان هذا الامبراطور الامي على أراضي الاسلام في اسبانيا . دخل وخرج دون أن يكون للصليبية معنى فقد كان يتوسع أرضا دون خلفية دينية واضحة

الصليبيات بدأت حين شاعت دعوة المسيحية جميعا لحرب الاسلام جميعا ... وسنرى أن ذلك كان في القرن الخامس الهجري /١١م .. ولما كانت مناسبة هذا الحديث تقضي بالارتباط بتاريخ ١٢٩١م التاريخ الذي

طرد فيه الصليبيون من الشام قبل ٧٠٠ سنة فلنبدأ من هذا التاريخ في انتظار أن أذكركم خلاله بتاريخين آخرين هامين من مثله .

ما أذكر أني حرت مرة في عنوان حيرتي في اختيار عنوان لهذا الحديث . صحيح أنكم دعيتم لسماع شيء حول مرور ٧٠٠ سنة على خروج الصليبيين من الشام ،ولكن الحديث سيلم بثلاث سنوات من الذكرى ،لا واحدة احداها التي جاءت في العنوان ،والثانية كانت قبل ٥٠٠ سنة بالضبط والثالثة بعد ٤٠٠ سنة أخرى ،فنحن نعيش عقابيلها اليوم !

وإذا كان التاريخ الاول نصرا وفخرا ،فمن أسف أن التاريخين الآخرين لم يكونا كذلك ، ولن أكشف عنهما الآن ، فدعوهما لمجرى الحديث :

الزمان كان قبل سبعمئة سنة بالضبط في صباح ١٨ مايو/أيار من ١٢٩١م والمكان مدينة عكا بأسوارها العتية الدهرية ومينائها المملوء بالاشرعة يصطفق بعضها في بعض . والحركة المجنونة تأخذ بالسفن والبحارة ، وبالناس يتراكضون ،ومجموعات من أجلاد الجند يستعجلون أن ينزلوا في الماء السلاسل الحديدية الضخمة التي تسد مدخل الميناء ورنين الابواق والطبول يهز الفجر ،ودبيب الجنون في البلد المحاصر يأخذ مداه :

المسلمون فتحوا عدة ثغرات في الاسوار ... وكان للنبأ وقع الفزع الاكبر ... منذ أطل أول سيف مسلم من الثغرات التي فتحت أخذت البيوت تفرغ بسرعة من الرطانة الايطالية والفرنجية وسرى الذعر في الدروب كالسيول ،وانسكبت في الاسواق أكياس الفلفل الثمين ، وكان يباع بالحبة الواحدة للموسرين ،وداست الاقدام قطع الفراء والسمور والبخور، وصار الزنجبيل والقرفة والبهار قطعا من فتات الخشب في التراب ...... وتراكض الناس نحو المرفأ يزلقون بالزجاج الغالي المحطم ، وتصادم بعضهم مع بعض .. البيوت تركت مفتحة الابواب ،وبعضهم يكمل ملابسه

على الطريق ،وآخرون يلقون بعدة الحرب على الدروب ويفرون.وبعض يحمل أولاده ويتلفت مذعورا وراءه . واذا كان بعض من رجال الميليشيات الدينية قد حشد نفسه بشراسة للحرب والموت فالآخرون لم يكونـــــــوا يبغون سوى الوصول للمرفأ .. المراكب هي التي اختنقت بالهاربين :

رجال ونساء وأطفال يلقون بأنفسهم في البحر،ومن ورائهم الاشلاء تلتصق بالجدران وتملاء الدروب ،وامتلاث السفن بالناس ، امتلأت حتى غاص مؤخر بعضها في الماء فمابريم ومال بعض على جانبه فرمى بحمولتـــــه في اللجة ، وترى جثث الغرقى تطفو على الجلد وتختفي ،وجموعا تخوض الماء الى مافوق الاذقان ، تلتمس خشبة من سفينة هاربة ،وأشرعـــــة تتحطم ،والتصايح يصم الآذان ،وارتفعت ألسنة اللهب من كل جانـــــــب في المدينة بشواظ من نار ودخان ... والسعيد السعيد من لحقت سفينته فخرج من الميناء قبل الاخريات ، وابتعد وهو يلقي النظرة الاخيرة على أرض السمن والعسل .

سنة هذه المعركة اللاحمة كانت ألسنة الانقلابية الصليبية،وكانـت ثأرا متأخر الزمان ليوم مرقبل مئتي سنة خاض فيه الفرنجة الدمـــــاء حتى الركب في المسجد الاقصى ،وتحت أقدامهم سبعون ألف جثة !!ولكـن من ذا الذي كان يطوق مدينة عكا ؟ من ذا الذي كان ضمن الاسوار ؟.. الذي كان يطوق الاسوار كان سلطانا قصير الفترة جدا ،مرومروراعابرا بين سلاطين المماليك ، لم يصل الى ثلاث سنوات ، ولم يسجل له التاريـــخ من الاعمال العظيمة سوى هذا العمل ،هو السلطان خليل بن قلاوون ، أبوه هوالذي كنس الفرنجة مابين انطاكية الى اللاذقية ثم الى طرابلس التـــي لم تصمد أمام جيوشه الضاربة المؤلفة من أربعين ألف فارس ومئـــــة الف من المشاة . فانهارت ودمرت كلها،ولم يبق للفرنجة في بلاد الشـام سوى تلك الشقة الساحلية الضيقة مابين صيدا وصور الى عكا وقـــد آن قطافها ... ولكن الموت اختطف قلاوون قبل أن ينفذ مشروعه ،فأكمــل الطريق ابنه خليل بعدأشهر.. عاجل عكا المنيعة بهجمات مازالـــــــت تهزها كالزلازل وتنثر فيها الذعر والفوضى شهرا ونصف الشهر،ومجانيقـه

الضخمة التي كان بعضهايرمي بقنطار دمشقي أو أكبر والتي كانت يومذاك من أضخم آلات الحصار ،كانت تمطرها بحجارة من سجيل. أما المدينة فكانت تلخص الاحتلال الفرنجي كله في الاراضي المقدسة خلال السنوات المئتين السابقة ،كانت خليطا عجيبا من التجار والرهبان العسكريين وأشباه الامراء المغامرين ، فيها من الجاليات الايطالية المتنافسة حتى الحقد والحرب والتآمر من بيزاوية وجنوية وبنادقة يؤيد بعضهاضد بعض عناصر من ميليشيات الداوية والاسبتاريةوالتيوتون وقدأضيف الى هؤلاء جموع من لاجئي الفرنجة من المدن المفتوحة تمثل سبع عشرة جالية ،كل منها كيان مستقل بشأنه هذا الى ممثلي منظمات الفرسان ،وممثلي ملوك انكلترا وفرنسة وقبرص ،وأحزاب النبلاء .

وكل يتصرف على طرقه الخاصة ويغني على ليلاه .. لم يكن أحد منهم يحسب أنه يعيش الايام الاخيرة من الوجود الفرنجي في الشام .

وانتصرالجيش المملوكي الاسلامي ... والقى في البحرآخر جندي فرنجي في الشام . هذه المعركة كانت في وقتها مغامرة غيرمأمونةالجانب فقد كان الفاتحون مكشوفي الظهر واذاكان الفرنجة أمامهم ،فقد كان بحر من المغول وراءهم في العراق وايران يتربص بهم الدوائر ولقد حاول المغول والصليبيون معا أن يتصل بعضهم ببعض وان يتحالفوا ضد القوة المسلمة المحصورة بينهما ،وجرت سفارات ومفاوضات ووفود بين الطرفين ، لكنها لم تنته الى مشروع محدد ،فكل من الطرفين يريد المغنم لنفسه ،عدا عن أن الرأي الفرنجي كان أشتاتامن الاراءوالاهواء والغرب الاوربي الذي كان يتبنى هذا الكيان التجاري المصطنع ويزوده بالرجال والاظافروالانياب انقضت مآربه منه ،فأدار عنهظهره الى سياساتأخرى في حين كان هذا الكيان الفرنجي المصطنع يتكالب على الارض تكالب اليهود عليها اليوم . واذا كان الجيش المملوكي الفتي ، والغنى الاقتصادي الذي جلبه مرور خط التجارة العالمي بمصروالشام بعدأن انقطع الطريق بوجود المغول في المشرق ، فقد أعانا السلطان المملوكي على الانتصار ،فان أوروبة التي كتبت بداية المشروع الصليبي بيديهاكما

فعلت باسرائيل ، فانها هي التي كتبت نهايته بيديها أيضا وتخلت عنه . فتساقط قطعة قطعة ،لانه كاسرائيل ورم لالحم ولاعظم .

المدن التجارية الايطالية وفلول المنتفعين هي التي بقيت فيه تستنزف وتتناحر عليه حتى القطرة الاخيرة والبساط يسحب من تحت أقدامها ،حتى جاء هم الانهيار ، فاذا هم يخربون بيتوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين .

بعد العهد جدا بعناصر الحملات الصليبية الاولى المشتعلة جمرا وحقدا ولهفة للوصول الى القبر المقدس ، أمحت أطياف تلك الجموع الاولى تماما بعد مرور مئة وخمسين الى مئتي سنة على خفق سيوفها الحديدية الثقيلة ، وسنابكها المحمومة بالارض الشامية ، أغرقها النسيان فلا يكاد يذكرها أحد . حتى صلاح الدين كان قد أضحى أسطورة بعيدة .وحطين وتحرير القدس ،وهرب مملكة القدس الى قبرص ، أضحت من تلك الذكريات القديمة بعد أن انقضى عليها قرن ويزيد من الزمان ، والحرب ماتزال دائرة مستمرة ... بلى ،الكثيرون يحسبون أن تحرير القدس ،سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م على يد صلاح الدين قد أنهى حروب الفرنجة ... والحقيقة أنها استمرت قائمة من بعده ، استمرت رسميا على الاقل مئة سنة .. حتى يوم عكا الاخير .

وقد تعجبون أني لم آت على ذكر الصليبيين والصليبيات ، وتحدثت عن الفرنجة .. وعمدا ما فعلت ذلك ،فالاقدمون كانوا أدق نظرا منا ،وأصح حكاية .

يوم وصلت حملة الفرنجة الاولى الى الشام حسبهم الناس من جند الروم البيزنطيين ،وتراكضوا الى بغداد يشكون خيول الروم وجند الروم وبكوا واستبكوا وكسروا المنبر ،ثم تبين لهم الامر وأنهم أتون من أقصى الارض الغربية ،وأن بعضهم كان يحارب الوجود العربي في الاندلس . عرفوا أنهم الفرنجة ،وهكذا نزل الفرنجة في الكتب بعد أكثر من ستمئة سنة ، أي منذ قرنين وبعض القرن ، أطلق المؤرخون الغربيون على هذه الحروب اسم الصليبيات والصليبيين . حملوها اشارة الصليب لتكون فترة

منفصلة وفصلا من فصول الحكاية الصليبية الطويلة التي لايعترفون بها بين الشرق الاسلامي والغرب ... لاعلاقة للصليب بالحملات الصليبية ولاللسيدالمقول صلبه ، انه منهابراء،فماكان الارحمة ومحبة وسلامة ، ولكن البابوية أخذت عن الاسلام فكرة الجهاد ،وملأ تهابدل التسامح والتعامل بالحسنى حقدا وكراهية ومرارة خيالة مضلة ،وألقتها أمرا مقدسا الى الجموع الجاهلة في أوربة ومنتهم معها بوعود الجنة ،وثروات الشرق . والغاء الديون والعفو عن المجرمين .. وهكذا كانت الصفقة رابحة ومن ذا الذي تنثر له هذه الاماني ولايلقي بنفسه مهرولا الى الشرق ؟

ونرى بين هؤلاء الفرنجة الاوائل أصحاب الجرائم والمفلسين وعبيد الارض ، الآبق الهارب من سيده والذي هرب من زوجته !! فالبابا غفر لهم ذلك كله ومنحهم جنة الله في السماء ،وجنة الارض في الشرق .

هل كانت هذه الحروب حروبا دينية ؟ أعيذ أديان السماء من هذا القول . لقد كانت حروب مصالح اقتصادية بحته ،وان لبست مسوح الرهبان السوداء. ورفعت في طليعتها الصلبان .. الحروب الصليبية لم تكن لله الا لدى البسطاء ممن كانوا وقودها . كانت كذلك للفلاحين المنجرفين معها وللمعدمين المتسكعين وللكهنة الجهلاء المهووسين . ولعلها كانت كذلك لبعض البابوات الحالمين بالسيطرة على الدنيا باسم الرب..
ولكنها لم تكن دينية ولم تعرف الدين لمن أوقدوها نارا في الرعاع ومونوها ونقلوها على المراكب الى الشرق . وللامراء الطامعين بالاقطاع وبثروات الشرق الاسطورية ... الجموع التي سيقت كالاغنام من أقاصي قرى أوربة كانت تصدق أنها تحارب لله وللقبر المقدس . أما الزعماء والموجهون وراء ذلك فكانوا يعرفون أنهم يحاربون للطاغوت تجار الجنوب الاوربي / تجار البندقية وبيزا ونابولي ،ومرسيليا وجنوة وبرشلونة ... كانوا يعرفون المحرض الديني ويستغلونه .. مئات الالوف قضواوهم يحسبون أنهم ماضون ركضا الى جنة الله .. في حين كانت اساطيل التجار هي التي تستغلهم مرابح وامتيازات وأسواق بضائع وتكديس أموال
وهنالابدأن نذكرأن أسباب الحروب الصليبية قدأختلفت الاختلاف

الكبير مابين أولهاسنة ١٠٩٥ وآخرها ١٢٩١ . لم يكن من المعقول أن تكون أسبابا واحدة مستمرة الاثر والتأثير خلال مئتي سنة وهكذا كان لكل فترة ولكل حملة دوافعها ومحركاتها الخاصة بها ... مانسميه بالاسباب الدينية قدينطبق جزئيا على بعض الحملة الاولى والثانيـة والثالثة . أماالدوافع السياسية والاجتماعية والعسكرية فهل يمكن أن تكون هي نفسهاخلال سبعين أومئة سنة ؟ . ومع ذلك فان عاملا واحدا لايغيب في جميع الحروب والحملات الفرنجية التي يعدونها رسميا ثماني حمـلات وهي تزيد على المئة بين كبرى وصغرى ،هذا العامل هو العامل الاقتصادي طمع التجار الاوروبيين في ثروات الشرق والوصول الى مصبات البخوروالبهار والقرنفل والزجاج.. ولقد استخدم العامل الاقتصادي للتوسع والفتـح وللانفاق على الحروب ولزيادة الثروات دوما ، ولكن لم يستخدمولومرة واحدة فيالشأن الديني الخالص ... كان هذا الشأن على الدوام أجيـرا عرضة الاثارة وتجميع القوى، وكان حصيلته تصب في النهاية في الوعاء المادي الاقتصادي .

لم يبشر الفرنجة مثلا بالدين المسيحي ولا بالكاثوليكية ، لم يحاولوا حتى تحويل الارثوذكس المشارقة الى الكاثوليكية ، ولكن العداء الديني كان الوقود الذي يضرمونه أبدا لتأمين المصالح الاخرى .

أ أنتم في شك من هذا ؟ اذا ففسروا هذه الامور :

قبل أن يصل أول جندي فرنجي الى انطاكية باب الشام الشمالي كانـت مراكب المدن التجارية الايطالية تغير على اللاذقية . كانت هذه المـدن قد اغتنت نتيجة تجارتها مع المشرق الاسلامي بشراء البخوروالبهـارات والزجاج ،وتجارتها مع المغرب الاسلامي الذي كان ينزح الذهب السوداني من غرب أفريقية ويوصله الى الموانىء المغربية ليشتري به العبيـد والفراء والاخشاب الاوربية . واغتنى هذا الجنوب الاوربي في القـرن الخامس الهجري (١١م) بدرجة صارت أساطيله فيه سيدة المتوسط ،فأمتدت مطامعه لاحتلال المشرق ، مصب التوابل الثمينة والبخور . في الحملة الاولى حين وصل الفرنجة الى فلسطين ولم يكن بينهم وبين القدس ، والقبـر

المقدس سوى كيلو مترات معدودة ،عقدوا مجلسا يتشاورون : هـل يهاجمون القدس أم يمضون قدما لمهاجمة مصر ؟ ... طبعا انتصرت فكـرة الهجوم على القدس ،لان الحملة الاولى كانت في معظمها ممن تغلب عليهـم العواطف الدينية ... أما بعد ذلك فماذا كان ؟ جميع المدن التي افتتحت على الساحل الشامي شاركت فيها أساطيل بيزا وجنوة والبندقية ونابولي ونالت عليها الامتيازات أسواقا خاصة بها،واعفاءات من الرسوم وثلث الغنائم وأحياء حرة تطبق بها قوانينها .

ثم لما كانت الحملة الثانية بعد خمسين سنة ، اختبطت أوربـــة لاسترداد المسلمين بقيادة زنكي مدينة الرها (أورفه) وانثالت الجمـوع من الغرب بمئات الالوف لاستردادها . ولكن الملوك الذين قادوها زحفـوا على دمشق ! ! وكان ممادافع عن دمشق مشمش دمشق .. وفشلت الحملـة أمام الاسوار... وانفصلت الاسباب الاقتصادية وبرزت وحدها خـــلال ذلك كله وبعده ،فكانت قوافل التجار المتبادلة تمر آمنة ،وبالقرب منها جموع المحاربين في حرب ضروس بعضهم مع بعض أضحت الحروب روتينيـة للتوسع أو الدفاع ولحماية المصالح أو زيادتها . فاما الاسباب الدينيـة فلم تستقيظ مرة أخرى الا حين تحررت القدس على يد صلاح الدين .

والحملة الثالثة التي قادها ملوك أوربة لتحريرها اقتنعت فـــي النتيجة بنوال بعض مرافىء الساحل وانصرفت ،وكان الرابح الاخير هـم التجار الممولون .

وشاع في أوربة بعد ذلك شائعة . الناس عند الفشل العملي يطلقون الشائعات الدينية قالوا في أوربة / انا فشلنا لانا مذنبون خاطئـــون ولو كنا أنقياء لما فشلنا . لاينقذ القدس الا الانقياء، وليس أنقى مـــن الاطفال . وراجت الدعوة فاذا بعشرات الالوف من الاطفال يزحفون بقيادة رجال الدين من أعالي فرنسة وأقاصي المانية الى ضفاف المتوسط.الكثيرون منهم ماتوا على سفوح الالب . وبعض هلك من الجوع والارهاق. ولكـــن من تجمع منهم على الشواطىء من مرسيليا حتى جنوة وما حولها كـــان الرقم الضخم بعشرات الالوف . كان الرهبان قد وعدوهم أن يجف البحـــر

أمام نقائهم وطهارتهم وأنهم سوف يجتازون هونا على الاقدام،ولكن الاطفال انتظروا وانتظروا دون طائل،لاالبحر جف ولاهم يتقدمون الى القبر المقدس . وتبرع تجار الاساطيل الايطالية بنقلهم الى المشرق ... وأركبوهم البحر ومضوا بهم ، ولكن الى أسواق النخاسة .. صاروا عبيدا

وعاد البابوات يحلمون باسترداد القدس لابالاعتماد على الملوك هذه المرة وعلى الاطفال ولكن على الامراء . وراجت الدعوة لتتكون الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠١ فماذا كان؟ المحاربون كانوا امفلسين وعقدت كتلة المحاربين معاهدة مع البندقية لنقلهم الى مصرالتي كانوا يعرفون قوتها الاقتصادية مادامت ممرالتجارة العالمية . وركبت الحملة بالمراكب ،ولكن البندقية اشترطت عليهم شرطا هوأن يقاتلوا معها أولا الامبراطورية البيزنطيةويحتلوا القسطنطينية ووافقوا. ووصلت بهم الاشرعة هناك وفتحوا المدينة التي استولى عليها البنادقة .. ثم ماتت الحملة على البوسفور . كانت القسطنطينية أعظم المدن التجارية على مدخل أوربة الشرقي توزع بضاعة المشرق كله لاوربة . فلما أخذوها وأقاموا فيها الحكم البندقي انتهت بالنسبة اليهم مصالحهم من الحملة فتركوها للجحيم !!

الحملتان الخامسة والسابعة توجهتا الى دمياط في مصر،فهل كان القبر المقدس هناك ؟ أم المصالح المقدسة ؟ .

هل أنسيناالحملة السادسة ؟ أبدا ولكنها كانت علنا ضد الدين. صاحبها كان محروما من قبل البابوية ،أي محرما حتى على أهله الحديث معه باعتباره من أتباع الشيطان . ومع ذلك فهذا الملك الصقلي استرد بالمفاوضة السياسية القدس . صاحب مصر الايوبي كان يتفرغ لحرب أخيه في دمشق . فتنازل له عن القدس . وبقيت في يده خمس عشرة سنة .

تبقى الحملة الثامنة التي يبدو أن القبرالمقدس هرب أيامها من القدس الى تونس .

فتوجهت الحملة الى هناك ، وكانت تونس احدى مصبات الذهب السوداني

وممراته الى أوربة. بعد هذا كله أكانت الحرب دينية ياترى ؟ وحكاية الصليبيات بعد هذا حكاية طويلة تروى ثم تروى مثالا مكرورا للحرب العبثية . سالت على أطرافها الدماء بددا وماتزال تسيل. وفتحت أوسع جبهة قتال عرفتها المعمورة قبل الحرب العالمية الاولى في هذا القرن العشرين ، فقد امتدت على نصف الارض المعروفة قبل كشف امريكة ورأس الرجاء الصالح ، وامتدت بعد ذلك الى أقاصي آسيا وقلبها ،وكانت الى ذلك أطول حرب عرفتها البشرية الى اليوم. بلى فهي ماتزال قائمة قائمة ،وتتخذ في كل عصر اسما وهدفا .وهي هي لاتتغير. ولو أن بزتها الحروب في هذا القرن لقلنا أنها كانت أكثر الحروب ضحايا وزيفا وضلال شعارات وتنوع أقوام وأهواء .

كانت وماتزال النموذج الكامل للحرب الشاملة المستمرة . كانت شاملة بالوسائل لانها لم تدع وسيلة من وسائل الصراع الا استخدمتها . استخدمت التدمير والقرصنة والحصار الاقتصادي والتجويع والاحتلال البشري والعسكري والسلام المخادع والحقد الديني والتحالف المضاد. وكانت الشاملة في المكان فمامن بقعة على الارض وجدفيها المسلمون الاشنت ضدهم هذه الحرب نفسها مرارا وتكرارا من أقصى السنغال وموريتانيا الى سواحل الشام ومن قلب أوربة الى أقاصي الهند وأندنوسيا والفيليبين . ومن شرق أفريقية الى بلاد تركستان .

وكانت الشاملة في القوى ،فمامن أمة في أوربة الا وأسهمت فيها بنصيب من انكلترة وفرنسة وهولانده الى الروس واليونان والالمان والايطاليين والسويد والدانمراك وهي ماتزال حتى اليوم تبيض وتفرخ وتطلع في كل عهد بثوب دموي جديد. وأسرع الى القول هنا أني لا أفهم الصليبيات بالمعنى التقليدي الديني. أبدا . ولا بالحملات التي رفع أمامها الصليب، ولكن كل حرب عبثية أعمى أصحابها الحقد والعدوان وحركتهم الغنائم والجشع الاقتصادي ضد البلاد العربية والاسلام .من أقصى موريتانيا الى أقصى الفلبين مهما أخذت من الصيغ والاشكال والتلون . لقد شملت كل مكان فيه مسلم. شموليتها في المكان عرفها الناس منذ أيامها الاولى

في سنة ٤٩٨هـ /١١٠٤م أي بعد احتلال الفرنجة للقدس بخمس سنوات كان يدرس الناس في الجامع الاموي شيخ وقور اسمه : أبوالحسن علي بن طاهر النحوي السلمي أحد محدثي دمشق وقد جعل دروسه وقفا لحرب الفرنجة وألف كتاب (الجهاد) في مجلد كبيرمن أثني عشرجزءا وهو يردد في الكتاب الذي ماتزال سبعة أجزاء مخطوطة منه في هذه المكتبة هنا (مكتبة الاسد في دمشق) /ليست هذه الحرب ضدكم وحدكم يا أهل المشرق. انهاحروب واحدة ممتدة من أقصى الاندلس حتى هذا المشرق كان الناس يستمعون اليه ولايعون القول. ما أدركوه الابعد أن ملأ أصحاب العيون الزرق والشعور الشقر سواحل الشام. وضاعت صرخات الشيخ الدمشقي مع صليل السيوف الاوربي الثقيل .

في حين كانت حروب الفرنجة تشكل هجرة بشرية كاملة بخيلها وحميرها وعرباتها والنساء والاطفال وبما استمريلحق بها سنين طويلة من البشر،ولايقدرهذا الزحف البشري الذي استمرمئتي سنة بأقل من عدة ملايين من الانفس نقلت معها كالاسرائيليين اليوم نظمها الاقطاعية واخلاق رجالها والنساء ولغاتهاورجال الدين والاطباء والمتسولين والمجرمين .

والناس على الاصطلاح السائد يعتبرون حروب الفرنجة قد بدأت بندا البابا أوربان الثاني في كليرمونت سنة ١٠٩٥م/٤٨٧ هـ . وترداد الجموع لندائه : هكذا أراد الله والواقع أنهابدأت قبل ذلك بسنين طويلة .. لاأرجع بكم الى أيام شارلمان وأناشيدرولان ولاالى القرن الرابع وحملات الامبراطور تزيمكيس البيزنطي واحتلاله طرسوس وانطاكية فقد تكن هذه حملات رومية لاعلاقة واسعة لها بماجاء بعدها في القرن الخامس الهجري (١١م) من أوضاع جديدة ،سواء في أوربة أو المشرق أو المغرب .

ففي أواسط القرن الخامس كانت البؤر الحضارية حول البحرالمتوسط وهي أهم بؤر الدنيا يومذاك في الحضيض السياسي . كانت خاملة كلها....

الخلافة العباسية في بغداد مهلهلة . والخلافة الفاطمية في مصر تشكو المجاعات .. والامبراطورية البيزنطية منحلة القوى .. والاندلس كانت تعيش عصر ملوك الطوائف في أعنف درجاته . في ذلك الحين تحركت في أوقات متقاربة قوى بدوية عديدية تتجة الى هذه القوى الحضارية تحرك النورماند من أقصى شمال أوربة نحو الجنوب فوصلوا صقلية العربية وظلوا ستين سنة يقاتلونها حتى افتتحوها جميعا . ووصل بعضهم ارض بيزنطة وتطوعوا في جندها في أسيا الصغرى والبلقان .

وتحركت جموع السلاجقة الترك من المشرق ، فاكتسحت في ثلث قرن أرض الخلافة العباسية في المشرق كله ، ودخلت بغداد بعد أن كانت أقسام منها تحارب الروم في الاناضول ، وأقسام تحارب الفاطميين في الشام ونبعت في أقصى المغرب قوة في جنوبها الصحراوي – هي قوة المرابطين – اكتسحت المغرب كله وأطلت منه على الاندلس . أما البحر المتوسط نفسه فكان تحت سيطرة القوى البحرية للموانىء المنتشرة في شماله بين ايطاليا وفرنسا خاصة . وكانت هذه الموانىء مثل جنوة ومرسيليا وبيزا ونابولي والبندقية هي سيدة الحركة فيه . وكان غرب أوربة وبلاد فرنسة الفرنجية ينتعش مع هذه الموانىء بتدفق الذهب السوداني الذي تحمله القوافل الى حوض المتوسط لشراء الخشب والفراء والعبيد من أوربة .

أكثر الاقسام انتعاشا كانت الممالك الاسبانية الصغيرة في شمال الاندلس فكان همها أن تتوسع على حساب ملوك الطوائف المتناحرين .. واستغلت هذه الممالك الفرصة وبدأت قبل أواسط القرن الخامس الهجري سلسلة من هذه الحروب للامارات الاسلامية المتفرقة دعيت فيما بعد بحرب الاسترداد وهكذا ابدأت الحروب الفرنجية الصليبية هناك .. في اسبانيا قبل أن تصرخ جموع البابا صرختها ((هكذا أراد الله)) بأكثر من خمسين سنة وتتجه الى المشرق . وكان من نتائجها قبل ١٠٩٥ م أن سقطت صقلية كلها واذا استطاع أن يحفظ الاندلس استنجاد ملوك الطوائف بالمرابطين

وانتصار المرابطين في معركة الزلاقة سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م فقد سقطت قبل ذلك في أيدي الفرنجة مدينة طليطلة ، فكان سقوطها الاسفين الذي قصم ظهر القوى الاسلامية ،لانه اقتطع شمال الاندلس عرضانيا للاسبان فلم يبق للمسلمين سوى الجنـــوب .

والناس على الاصطلاح السائد ينهون الحروب الصليبية بسقوط عكا في أيدي المسلمين سنة ١٢٩١م وماهذا السقوط في الواقع الانهاية مرحلة من مراحلها . . فقد كانت مملكة القدس منذقرن قد انتقلت من هناك بملوكها ونبلائها والفرسان اللاجئين والمشردين ولحقت بها المنظمات الدينية من مليشيات الاسبتارية والداوية والتيوتون الى قبرص لتتابع المهمة التي لم تستطع اكمالهافي الشام أو مصر. أضحت قبرص مركز التجمع الصليبي لاعانة الصليبيين ثم منطلق الهجمات البحرية ومحاولات استرداد مرافىء الشام أو مصر مايزيد على قرنين ،بعد ذلك حتى أخضعهم المماليك فيها. خلال هذه الفترة لم يكد مرفأ منمرافىء الشام أو مصر يسلم من الهجمات القبرصية التي يشنها آل لوسينيان بشراسة وعنف على طرابلس وجبلة واللاذقية وبانياس وعكا وصوروديماط والاسكندرية .وثم منها وقائع مشهورة فتكو فيها أشد الفتك كهجمتهم على الاسكندرية سنة ١٣٦٥ التي فجعت المدينة عند صلاة الجمعة. فنهبت وقتلت وأسرت ماشاءت وفر الاسكندريون الى البراري في حين كانت النار تأخذ القصور والمساجد. والنساء يؤسرن ويهتكن . وقامت للقبارصة الافراح في أوربة. ووضع ملوك قبرص أكثرمن مشروع للهجوم على مصر والشامولكنها فشلت في دفع الغرب لتنفيذها فتحولت قبرص بالتدريج الى وكر للقراصنة برزمنهم حنا الصوري الذي أغار على صرفند فدمرها والاخوان الجنويان اللذان أغارا على صيدا. ثم أسرا سفينة اسلامية من الاسكندرية موسقة بالبضائـــع .

السلطان برسباي هو الذي أخمد هذه البؤرة. أرسل ثلاث حملات متتالية عليها أخضعت الجزيرة مدينة بعدأخرى حتى أسروا ملك الجزيرة نفسه وسارموكب الاسرى بالقاهرة وفي ذيله الملك جانوس وعلـــى رؤوس

الحمالين الغنائم ومن خلفها البغال .

وعلى الجبهة الشرقية كان المغول يحتلون العراق . وقد حاولوا هم والطليبيون معا التحالف مرات ومرات . أبغا المغولي وادوار الاول الانكليزي والبابا وملك أرمينية كانوا يستقبلون السفارات ويدرسون المشاريع للغزو. وحين نجح أبغا المغولي في تجنيد حملة مع أخيه منكوتمر من خمسين ألف مقاتل من وراثهم ثلاثون الفا من الكرجو الارمن هزم هزيمة مدمرة مع جنده عند حمص . فعاد وعاد الملوك من بعده الى الاتصال بالبابوية عبثا . لم ينجح أي مشروع بجانب المغول والى الشمال وفي كيليكيا من الاناضول كانت أيضا وأيضا تقوم جبهة طليبية قوامها الكرج والارمن . بلى فهذه الممالك انتهزت فرصة الحروب القائمة لتدلي فيها بدلوها. ولم يكن أثرها قليلا. ان البعوضة تدمي مقلة الاسد. تحالف الكرج ومملكة ارمينية الصغرى تارة مع المغول وأخرى مع الطليبيين في الحروب وكانوا أرهقوا المماليك عنتا. وقام بيبرس وبعض الامراء المحليين برد هؤلاء في معارك عدة لعل أهمها معركة دربساك الذي قتل فيها ابن ملك الارمن وأسر الثاني سنة ١٢٦٦ ودمر أمير آخر بلدة سيس عاصمة الارمن فجعل كما قال بعض المؤرخين عاليها سافلها ،وأشعل النار فيها وأسر أربعين الف أسير. وصار رأس البقر يباع بدرهمين . فلم تفق الدولة بعدها من تلك الكارثة .

على أن الجبهة الطليبية الخطرة كانت في الاندلس . المرابطون الذين أنقذوه من الغزو الاسباني في معركة الزلاقة سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م أي قبل وصول الطليبيين الى الشام بسنة واحدة . لم يستطيعوا أن يستمروا طويلا لاهناك ولا في المغرب لان ثورة الموحدين عليهم في المغرب جرفتهم بالتدريج وحل هؤلاء محلهم في الامبراطورية المغربية الاسبانية .

كان ذلك في العصر نفسه الذي كان فيه الطليبيون قد فرعنوا في الشام وصارت لهم الامارات والتجارات والاساطيل والجند. على أن اليقظة التي أوصلت صلاح الدين الى السلطة واعطته فرصته الكبرى في معركة

حطين سنة ٥٨٣ هـ/ أعطت زميله أيضا في المغرب وهو المنصور أبو يوسف يعقوب بن عبدالمؤمن نصرا مؤزرا مثله ضد قشتاله أقوى ممالك الاسبان فكان لمعركة حصن الارك ماكان لحطين في المشرق من الرنين والاصداء بعد أن دمر الجيش القشتالي تدميرا سنة ٥٩١هـ .

لكن الموت فاجأ صلاح الدين وعبدالمؤمن في وقت متقارب . توفي الاول سنة ٥٩٣ هـ/ ثم الثاني سنة ٥٩٥ هـ فكان للوفاتين رنة الفجيعة لدى من عقدوا عليهما الآمال الكبيرة .

وجاء الناصر محمد بن المنصور ليحقق حلم أبيه في الانتصار الساحق على الاسبان جميعا وتحالفاتهم . جمع نصف مليون جندي يريد مسح قشتالة سنة ٦٠٩ هـ /١٢١٤م . ولكنها كانت في تحالف بري بحري مع مملكة الاراغون والنافار وبعض زعماء الفرنجة واعداد من متطوعي الالمان والفرنسيين والطليان فكانت هذه المعركة الحاسمة معها هي التي أسقطت معظم مدن الاندلس خلال ربع قرن في أيدي الاسبان. لم يبق من اندلس الاحلام سوى مملكة غرناطة . هزم الجيش الموحدي الضخم في الجبال جنوب قشتالة في معركة العقاب سنة ٦٠٩ هـ/ (الاسبان يسمونها معركة الكلاب) . وتناثرت الجثث أكواما على الصخور . فلم يسلم من ذلك الجيش الضخم سوى أقل من ألف رجل وكان ذلك نهاية ملحمة الاندلس لولا أن بقيت غرناطة في أقصى الجنوب الشرقي تناضل . سقطت قرطبة سنة ٦٣٣/ وجيان ٦٢٩ /واشبيلية وشريش ٦٤٦ وتبعتها شذونة وآراكس وقادش سنة ٦٥٩ /كما سقطت جزر البحر جزر الباليار قبل ذلك .

جرت الاحداث الاخيرة في حين كان المغول يكتسحون الخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٨/ .

مرة ثانية أسال و مرة ثانية أجيب :هل انتهت الصليبيات بفتح عكا؟ أبدا . فقد قامت أوربة وقعدت لهذه الهزيمة التي فاقت عندها تحرير القدس . ولكن هذا المقيم المقعد لم يزد على أن يكون عواصف في الهواء . أوربة كانت قد نفضت يدها من المشروع الصليبي بعد أن

أمنت تجارتها مع المماليك في المشرق . وقامت فيها أوضاع سياسية واجتماعية لم يعد للقبر المقدس مكان فيها . الامبراطورية الالمانية المقدسة أضحت دون موارد بشرية ومالية كافية . انكلترة وفرنسة اشتبكتا احداهما مع الاخرى في حرب المئة عام التي استنفدت مواردهما وجنودهما عدا مشاكلهما الداخلية .

اسبانيا قامت المنافسة فيها بين الممالك والامارات وقامت الحروب . ايطالية تحولت المدن التجارية فيها الى جمهوريات تبيع البابا والكنيسة بدرهمين من الفضة . وأما البابا فبدأ التململ منه والاهمال لتعاليمه ومعاودة النظر في وظيفته بعد أن مرت البابوية بأزمتين طويلتين وظهرت قوة المدن البرجوازية وبدأ انهيار نظام الاقطاع . وهذا ما يفسر كله ظهور خمسين مشروعا للحروب الصليبية لم ينفذ منها واحد .

الذين كانوا لا يزالون يؤمنون بالمشروع الصليبي ويحلمون باعادة الماضي الذهبي ،كانوا يكتبون المشاريع عبثا ويقدمونها للبابوية والملوك ويتحمس هؤلاء لها ثم تنتهي كفقاعات الصابون الى لا شيء . لم يكن الدعاة هذه المرة خطباء محاربين ،ولكن كتابا يعلكون الآمال منهم الراهب الفرنسيكاني فيدينزيو . ومنهم ريموندلول الذي ولد في ميورقة ودرس العربية في الاندلس واقترح أن تبدأ الحملة بطرد المسلمين من الاندلس ثم يزحفون عن طريق الشمال الافريقي الى مصر والشام . ومنهم الفرنسي بطرس الذي أوصى باعداد حملتين أحداهما بحرية والثانية برية . ومنهم بوركار الذي اقترح نشر المسيحية في الشرق بعد استرداد الاماكن المقدسة . وعدد الطرق الاربعة الموصلة من أوربة اليّها .

ومنهم سافودو البندقي الذي اقترح الحصار الاقتصادي لمصر ولقيت فكرته القبول ،وأصدر البابا مرسوما بايقاع عقوبة الحرمان على من يتعامل مع المسلمين في الشام ومصر لافقارهم واختص المرسوم البابوي عدم توريد الرقيق والخيل والحديد والخشب والكبريت والقار وهي مواد صناعة السفن بالاضافة الى القمح والزيوت والنبيذ الى مصر . على أن هذا كله لم يتحول حقيقة لان التجار كانوا أكثر جشعا من أن يسمعوا كلمة البابا ولانه لم تكن

للبابوية قوة بحرية تستطيع فرض الحصار ومراقبة الشواطىء ولان البابوية فقدت الكثيرمن مكانها الديني السابق. وهكذا أضحت الصليبيات أمنية وتوقا خلال القرن الذي تلا سقوط عكا والقرن الذي يليه (١٤ ، ١٥) ولكن هل عاد الاوربيون عنها ؟ أبدا ،ظلت كالنار تحت الرماد. وظلوا يبحثون عن مخرج من البحر الابيض المتوسط المغلق ،الى أن ... ألى ان كانت نهاية القرن الخامس عشر. وهنا تأتي الذكرى الاخرى التي وعدنابها في مطلع الحديث ... الذكرى الفاجعة :

سنة ١٤٩١ بالضبط كانت السنة الانقلابية الثانية التي قلبت الاستراتيجية والاطماع والمصائر . في هذه السنة سقطت غرناطة عروس الاندلس تمزقها الداخلي دمرها قبل أن يدمرها الاعداء ونسل آخر خيط من خيوطها الذهبية . وفي السنة ذاتها وصل كولومبس الى أمريكا ثم عاد يمنح أوربة قارة كاملة . وبعد قليل سنة ١٤٩٧ اجتاز فاسكودي غاما رأس الرجاء الصالح في جنوب أفريقية الى المحيط الهندي ومنح الغرب كل الشرق وثرواته ودبت الحياة في الحقد الاوربي الذي كبت عدة قرون لايجد مخرجا من اطار البحر الابيض المتوسط وأقبلت أوربة بعد جوع قرون طويلة على الغنائم التي لاتتصوركثرة ووفرة. وانساحوا الى أمريكة على البحر خفافا وثقالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . وتسربوا الى الهند فطوقوا العالم الاسلامي كله من الجنوب ليقطعوا عنه خبزه وتجارته الدهرية .وبدأ جحيم الصليبيات يأخذ حده الأعلى لاضد المسلمين فحسب ولكن ضد الزنج في أفريقية أيضا وضد الهنود الحمر في أمريكة على السواء. الحضارة الاوربية التي نعرفها اليوم دفع ثمنها عدا العرب المسلمين مئة مليون زنجي جرتهم أوربة على الاشرعة وبالسلاسل من مواطنهم الافريقية ،لم يصل منهم سوى عشرة ملايين. كمادفع ثمنها أربعون مليونا من الهنود الحمر أبادتهم أوربة لابالرصاص ولكن بالجدري والزهري.. ونزحت أوربة من هنا وهناك سيولا من الذهب أخذت تتكدس فيها وتمول مشاريعها التوسعية ،لم يعد الفلفل والبهار والزنجبيل من همها الاول ،ولكن كل ثمين وبالقوة الغالبة هذه تغلبت على باقي الدنيا في أمبراطوريات لاتغيب عنها الشمس .

ولم يطوق العالم الاسلامي كله من الجنوب فحسب بوصول البرتغاليين الى الهند ،ولكن انفتحت على أوربة بوابات من الثروة لاتصدق كثرة وتنوعا سواء في أمريكة أم في أفريقية أم الهند وماوراءها • وتراكضت الامم الاوربية تجمع من الثروة ماتشاء يعاونها البارود الذي أخذت سره من عرب الاندلس • تراكض الاسبان والبرتغاليون أولاثم لحق بهم الفرنسيون والانكليز والهولنديون • و تسلل الايطاليون كذلك من البحر المتوسط المغلق ،ولم يعد الاوربيون في حاجة الى ارسال الهجرات البشرية الا الى الاماكن التي كانوا ينظفونها من سكانها كامريكة • أما البلاد الاخرى كالهند وأندونيسيا فكان الجيش هو الذي يقوم بجميع المهمات •

هكذا دُمرت الامارات الاسلامية العديدة في شرق أفريقية مابين سقالة وزنجبار وأحرقت المساجد وهزم الاسطول المملوكي أمام الهند ليسيطر البرتغاليون على جنوب الجزيرة العربية ويقطعوا شريان التجارة العالمية عنها وعن مصر والشام • وأسرع الهولنديون شرقا ليحتلوا اندونيسيا المسلمة ، وطاف ماجلان حول الارض ليصل الى الفليبين المسلمة ويمنحها اسم مملكة فيليب ويجعلها من ممتلكات تاجه وان هلك ماجلان فيها •

في الوقت نفسه لقي المغاربة وعرب الاندلس أقسى واشنع مايلقى بلد من العدوان • قامت محاكم التفتيش في اسبانية تفترس بالاقبية وآلات التعذيب الوحشي الجذور الاسلامية هناك خلال مئة سنة أوتزيد • وابتليت مرافىء المغرب العربي كله بالقراصنة والاساطيل الاوربية • فما من بلد آمن على البحر مابين موريتانيا وليبيا • بعضها احتل سنين طويلة • واحرق بعض ودمر بعض آخر وأسر الالوف وأخذت مراكب وبضائع •• مامن مرفأ لم ينكب من المهدية وجزيرة جربة الى أنفة ، أخذوا يعتبرون المغرب من حقهم الارضي الى أن وقع جميعا حول مطلع هذا القرن في أيدي الاسبان والفرنسيين والطليان •• صحيح جدا أن الدولة العثمانية دافعت عن معظمه وقامت فيه دول تدين لها بالطاعة ،ولكن القوة البحرية لهذه الدولة كان بعضها مستعارا كما لم تكن بحيث يعو سيما بعد معركة ليبيا والبحرية

التي هزمت بها ، على جيوش القرصان الاوربية في الحوض الغربي للمتوسط فكان على المغرب أن يدفع العدوان بنفسه ما استطاع .. وقد فعل ولكن بكل جهد جهيد . وهكذا اتسعت دائرة الصليبيات واختلفت وسائل واسماء ولكنها بقيت في الاعماق هي ذاتها وبدأ بذلك عصر الاستعمار. ودخلت على الخط الاستعماري أمم أوربية أخرى . دخلت روسيا فأحكمت باقي الطوق الاستعماري على العالم الاسلامي من الشمال منذ أواخر القرن السابع عشر فهذا العالم القديم الذي كان دوما مهد الحضارات والذي كان الاسلام قد انتشر فيه صار ضمن القفص ، فهو الفريسة المكبلة وأمم أوربة تنهش تقتل ، تحتل ، تدمر . تبيد من هذه الفريسة حيث تشاء . انكسرت حلقته الاولى في غرناطة فاذا بالانشوطة الاوربية تلف حول عنقه حتى روسيا وحتى الفليبين .

والناس لا يكاد أحد منهم يذكر لروسيا دورها الاستعماري الضخم . قلب آسيا الواسع كان يبتلع . الصور والتواريخ والناس . لقد ألقى ستارا من الظلمة على الفظائع الروسية ضد الاراضي المسلمة . لست أقصد فقط عداءها الدائم وحروبها المكرورة ضد الدولة العثمانية ولكن أعمالها في حق المسلمين . الاراضي التي كانت في الصمت تسيطر عليها تدريجيا انها لا تكاد تقل عن أعمال الاسبان . من بلدة قازان على نهر الفولغا الى شبه جزيرة القرم . وهكذا شرقا الى بلاد تركستان وماوراء ذلك حتى حوض ناريم ، كانت هذه المنطقة منطقة اسلامية حتى عهد قريب قريب ، وانما غطاها المد الروسي في كل مكان الا في تركستان حيث يضرب الاسلام بجذور قوية فطوقتها روسية القيصرية وعزلتها عن العالم رغم ثوراتها وتمردها . يعقوب بك أحد زعمائها حارب الروس والانكليز والصينيين معا قبل أن يلقي السيف .

دخلت في المعمعة أيضا الحبشة . بلى حتى الحبشة البعيدة المتخلفة أدخلها الغرب في مشاريعه الصليبية لاغلاق البحر الاحمر . منذ القرن الرابع عشر حرصت البابوية على تقوية صلتها بالحبشة رغم اختلافها عنها في المذهب الديني وتبادلت معها الوفود أولا عبر مصر التي كانت تقبض على هذه

الوفود عن طريق المحيط الهندي بعد أن انفتح على الاوربيين في سنة ١٣١٥ أعد ملك الحبشة جيشا من ثلاثة ملايين فيما يقولون لمعونة ملك قبرص والهجوم على مصر من الجنوب ولكنه خسر ثلثية وهو مهزوم لسوء عتاده الحربي .

وفي مطالع القرن الخامس عشر حين ألغى المماليك مملكة قبرص وأسروا ملكها جانوس كان الذي كتب يدعو أوربة للثأر هو ملك الحبشة اسحاق الاول الذي أدخل على جيشه استعمال السيف والرمح والزرديات والنفط .

وقد تم الاتفاق على خطة مزدوجة ولكن الذي سفر بها كشف في مصر وقتل.. والذي وقف دون نجاح هذا المشروع وغيره هو بعد الحبشة وصعوبة الاتصال بها حتى صار البرتغاليون في المحيط الهندي ، فكانت الحبشة يدهم اليمنى في المساعدات وتوالت كتبها ورسلها تهنئهم بالانتصارات وكان أخطر ما فكر فيه البرتغاليون و الاحباش تحويل مجرى النيل عن مصر لتجويعها... لكن هذا كان حلما من الاحلام . فوسائل تلك الايام لم تكن بحيث تنفذ هذا المشروع الجهنمي الضخم .

الدولة الاسلامية القوية الوحيدة التي بقيت في وجه أوربة ودخلت أوربة وحاصرت فيينا في قلبها كانت الدولة العثمانية لكن كل دول أوربة تحالف ضدها . حين احتل العثمانيون القسطنطينية كان لوقع الخبر في الغرب وقع المأتم رغم أنها كانت على المذهب الارثوذكسي ،ولكنها كانت مركز توزيع تجارة الشرق على الغرب وبوابة الغرب على الشرق. ثم تكالبت القوى الاوربية على العثمانيين ترهقهم عنتا وحروبا حتى انهكتهم وصارت الدولة العثمانية هي الرجل المريض الذي يختلفون على قسمته ولكن لايختلفون على حربه والمزيد من اضعافه .

قد تقولون: جاء القرن العشرون ولما نصل بعد الى التاريخ الثالث الفاجع في التواريخ الثلاثة بلى :وصلنا... جاء هذا القرن فاذا بالمغرب العربي كله مكبل بالاحتلال المربع الاسباني ،الفرنسي ، الانكليزي

الايطالي . واذا على بوابة هذا القرن وعد بلفور وسايكس بيكو وما لحقهما من الاحتلال الانكليزي الفرنسي للمشرق. ثم كانت حرب (١٩٤٨) وما لحقها من تقسيم فلسطين واقامة مركز صليبي غربي فيها، هو اسرائيل التي أيد قيامها الشرق والغرب على السواء. وماتبعها من احتلال الجولان السوري وفلسطين كلها وسيناء مصر. ثم كانت حرب ١٩٧٣ وماكان في كامب ديفيد بعدها. وأخيرا كانت الكارثة الصليبية العظمى: حرب الخليج هذه السنة ١٩٩١ وصل العرب بحماقة بعضهم قاع المهانة تمزقا وافلاسا ونكبة ثروات .. فهل كانت هذه الاحداث مجرد مصادفات ؟ وهنا أوثر الصمت فانكم تعيشون الكارثة في أعصابكم كالكابوس الرهيب! شي واحد أقوله : هو أن العرب هم الامة الوحيدة المنكوبة في هذا القرن...

وبعد هل هو درس في التاريخ هذا الحديث أو من التاريخ ؟. خذوا في الحسبان الحقد الصليبي الاسود وتأملوا جيدا انعكاسات سقوط عكا قبل ٧٠٠ سنة وأسباب سقوط غرناطة قبل ٥٠٠ سنة ، وأسباب نكبة اليوم ١٩٩١ . ومدوا الابصار بعد هذا الى المستقبل حين ينتهي دور اسرائيل الصليبي لدى الغرب ... وانتم تعرفون ! ؟

الدكتور شاكر مصطفى

١٩٩٢/٥/٣٠٠٠



Studies, Publication & Distribution
DAMASCUS. P. O. Box : 4363, SYRIA



Studies, Publication & Distribution
DAMASCUS. P. O. Box 4363, SYRIA

